الوجيز

في تاريخ الإسلام والمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الوجيز

في تاريخ الإسلام والمسلمين

أ. د. أمير عبد العزيز
أستاذ الفقه المقارن
في جامعة النجاح الوطنية
بنابلس - فلسطين

دار ابن حزم   مكتبة دنديس

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

مكتبة دنديس

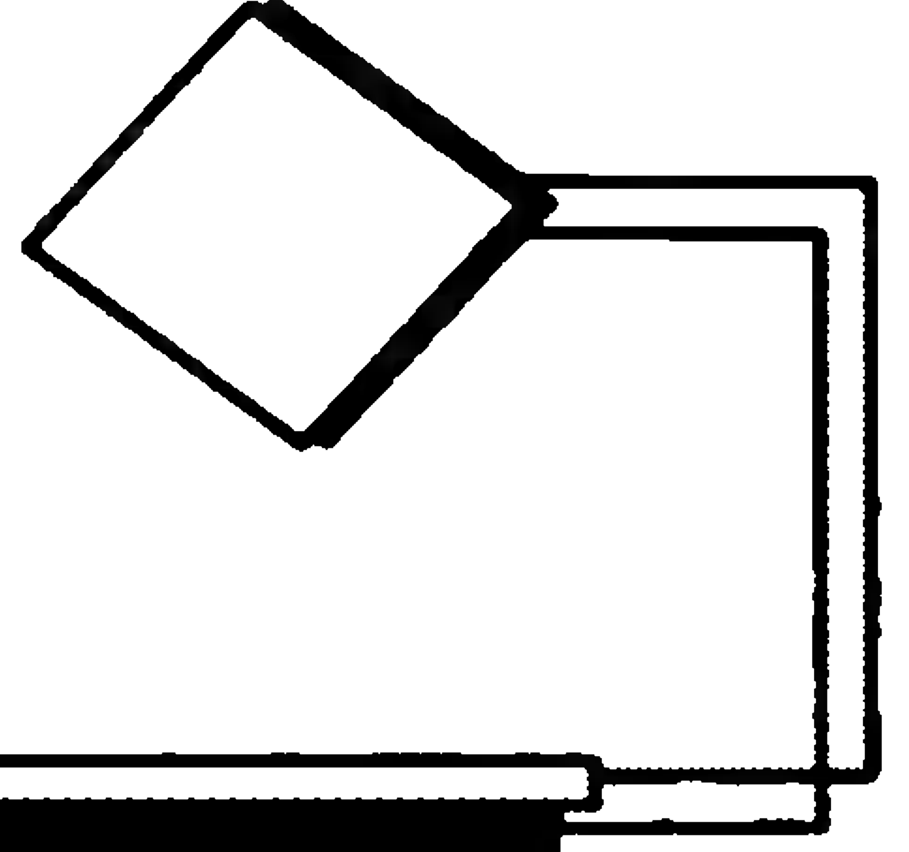
الضفة الغربية - الخليل
شارع عين سارة - جانب بلدية الخليل
ص.ب: ٦٣١
هاتف: ٢٢٥٦٧٦٠ - ٠٢
تليفاكس: ٢٢٢٥١٧٤ - ٠٢
E-Mail: dandisbook@hebronet.com

مكتبة دنديس

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان
شارع سقف السيل - مقابل بنك الإسكان
ص.ب ٢٣٠١٠
الرمز ١١١٥
هاتف ٤٦١٠٦٠١
تليفاكس : ٤٦٣٣٢٤٥

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤



المقـدمـة

منذ زمن غير قصير، والرغبة اللحّاحة تراود ذهني وتؤز خاطري ووجداني للكتابة في تاريخ هذا الدين الحافل العظيم، وهذه الأمة الخالدة الماجدة العظمى. تلك أمة الإسلام التي جيء بها لتكون وسطاً، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من ظواهر الصلوح والتوازن والاعتدال، فهي بذلك أعظم الخليقة جدارة بريادة البشرية كيما تصير بها إلى حيث الخير والمساواة والإخاء والعدل، وهذه حقيقة راسخة ومركوزة في ضمير الزمان فيدركها ويعيها المخلصون النابهون من أولي النهى، الذين لا يميلون إذا مال الناس، ولا يجنحون للزيغ والباطل إذا تمرّغ الكاذبون والدجاجلة في مستنقع الخيانة والافتراء والباطل.

أقول ذلك وأنا موقن بفداحة الافتراءات التي قذف بها الظالمون الإسلام، عقيدة ونظاماً وفكراً وتاريخاً. وخصوم الإسلام الذي يرومون النيل من هذا الدين وأهله كثيرون.

وهي افتراءات كاثرة جمة، لم ينج منها منحى من مناحي الإسلام، وخصوصاً تاريخ هذا الدين بدءاً بإمام البشرية وقائدها إلى الخير والهداية والنور ﷺ، ومروراً بالمراحل السياسية والاجتماعية وغيرها من مختلف المراحل التي مرت بها دولة الإسلام وما واجهها من أحداث أو فتن أو حروب أو شدائد حتى عصرنا الراهن هذا.

ومن أجل ذلك كانت تؤرقني الرغبة الجامحة في الإسهام بالكتابة في

تاريخ القضايا والمشكلات التي يقتضيها التأريخ لهذه الأمة الكبيرة العريقة.

ذلكم هو «**الوجيز في تاريخ الإسلام والمسلمين**» أكتبه للناس عامة، وأمة الإسلام خاصة إسهاماً في تجلية الحقيقة بقدر التصدي لأصوات المنكر والباطل التي يراد بها تشويه هذا الدين المميز الأكمل كيما يزهد فيه المغفلون من أهله وينفر منه الناس نفوراً.

ولقد جاء الكتاب مبدوءاً بالحديث عن حياة الرسول الإمام الأعظم محمد ﷺ بدءاً بمولده العاطر الميمون إلى أن اختاره ربه إلى جواره الكريم مع التعريض والتفصيل لكثير من القضايا المميزة في حياته الشريفة كالمعجزات الظاهرة التي تشهد له بالنبوة وصدق الرسالة والحديث، إلى غير ذلك من وجوه الخلق العجيب الذي يثير الدهش ويستوقف الذهن والخيال كلما تتبع المرء مسلسل الحياة لهذا النبي الصدوق المفضال.

ويأتي عقب ذلك تباعاً الحديث عن الخلافة الراشدة المباركة، التي شاع فيها العدل شيوعاً خلب الألباب وأذهل العقول أيما ذهول، وذلكم العدل الحقيقي المطلق الذي عزَّ نظيره في العالمين إلا لدى النبيين والمرسَلين.

ويأتي عقب ذلك الحديث عن دولة الأمويين والعباسيين، وما تخلل ذلك من أحداث كبيرة وجسام سواء في شيوع العلم والخير والمساواة، أو الفتن والنوازل التي أثارها المريبون من أهل الهوى وهم كثيرون.

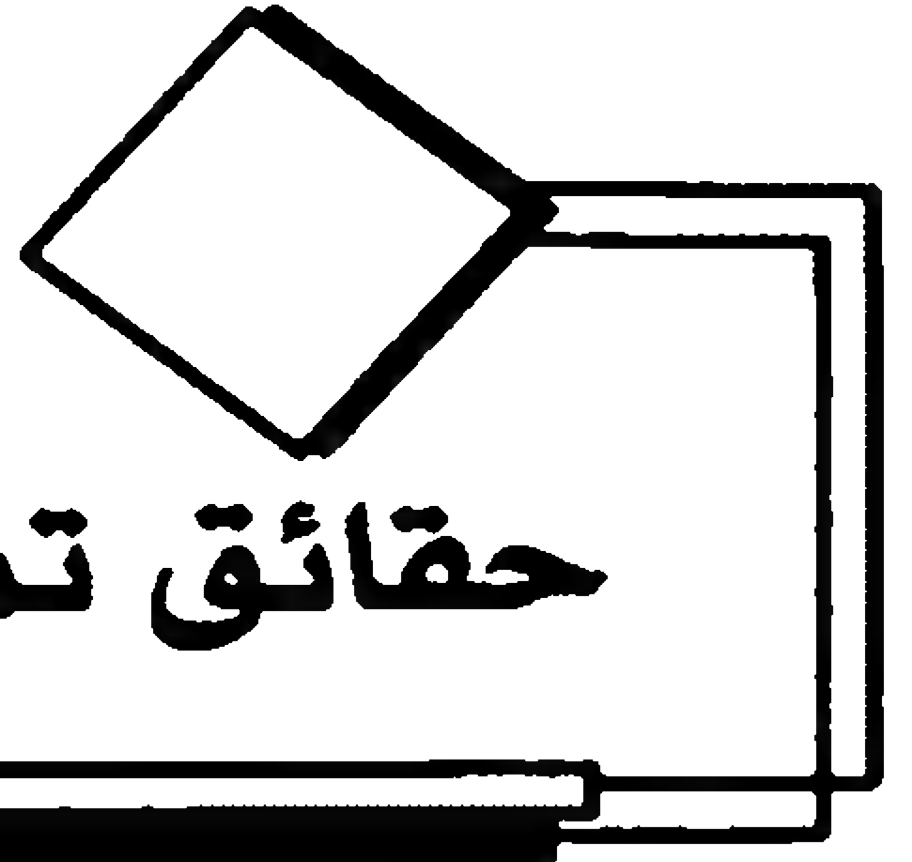
ويظل الحديث يتوالى عن مراحل التاريخ الإسلامي واحدة تلو الأخرى حتى أيامنا هذه، بكل ما حوته هاتيك السنون من أحوال عجاف أو أهوال قواصم ابتُلي بها المسلمون شديد البلاء نتيجة لتفريطهم أولاً، ثم بفظاعة التخطيط والمكائد التي برعت في إعدادها جهود الماكرين والمتربصين الذين لم يبرحوا الكيد والتمالؤ على الإسلام والمسلمين طيلة الزمان.

وقد آثرت أن يكون الطرح لهذه القضايا جميعها وجيزاً بعيداً عن الإسهاب والتطويل لما أجده في هذا الأسلوب من ترغيب للمثقفين في المطالعة والدرس، فلا ينفرون ولا يملون.

وذلكم إنما هو جهد المقل، أرجو الله جل جلاله أن ينفع به المسلمين وأن يكتب لنا به من حسن الثواب ما ننجو به يوم المآب.

امير عبد العزيز





حقائق تمهيدية عن التاريخ الإسلامي

هذا بيان وجيز نعرض فيه لحقائق تمهيدية عن تاريخ الإسلام والمسلمين، وهي حقائق أساسية تستبين من خلالها طبيعة هذا التاريخ الحافل المميز، التاريخ الزاخر المشعشع بكل ما فيه من قيم ومُثُل وأمجاد وروائع، وبكل ما أفاض به على البشرية من نسائم الرحمة والعدل والفضيلة، وما حملته تعاليم هذا الدين الكامل من معاني الخير والبر والشهامة وطهر السلوك والضمائر.

هذه حقائق تمهيدية جديرة أن يتدبرها المثقفون والدارسون وأولو الحرص والاهتمام ليقفوا على حقيقة الأمر من قبل أن تنطلي عليهم دعايات المضللين من خصوم الإسلام، الذين جهدوا بالغ الجهد لتشويه العودة لهذا الدين، تاريخاً وعقيدة وتشريعاً وسلوكاً، والغاية التي يبتغيها هؤلاء المضللون في النهاية، تدمير الإسلام نفسه بالإساءة إليه بمختلف الشبهات والافتراءات والأقاويل كيما يزهد فيه المسلمون، وتنفر منه البشرية نفوراً.

إن هؤلاء المضللين الظالمين، والمخادعين الحاقدين ـ وفي طليعتهم المستشرقون ـ قد بذلوا من هائل الجهود والأنشطة في التأليف والتصنيف والكتابة بمختلف الأسباب والأساليب ما يكشف عن فداحة الحقد المستحوذ على هؤلاء القوم نحو الإسلام، وعن مدى ما يكنونه من كراهية مركوزة لهذا الدين الخالص المبرأ من عامة النقائص والمثالب إلا ما يختلقه الخصوم الأشرار من صليبيين وصهيونيين ووثنيين وتابعيهم عن هذا الدين، تحت

وطأة الحقد والكراهية التي تعشش في أذهان هؤلاء الأشقياء وقلوبهم.

وتلكم هي الحقائق:

الحقيقة الأولى: تشريع الجهاد في الإسلام والتحريض على قتال الظالمين المفسدين في الأرض، وهذه حقيقة واضحة جلية لا تحتمل المداهنة أو التأويل، ذلك أن الإسلام دين البشرية كلها وفي عامة الزمان، وهو دين تتجلى فيه مزايا الصلوح للناس في كل مكان، فهو بذلك تتجلى فيه ظواهر شتى من الرحمة والعدل والبر والإصلاح، ليكون الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم إخواناً متحابين متحدين.

لقد جيء بالإسلام من لدن عليم خبير ليكون للناس جميعاً فتشيع فيهم كل علائم الود والإخاء والمساواة، فما ينبغي بذلك أن تحرم البشرية أو شطر منها، من روعة هذا الدين الكريم الحافل، إنما يجدر بالبشرية أن تفتح صدورها وأذهانها لهذا الدين، وما تضمنه من قيم وتعاليم كيما تطمئن وتستقيم، وكيما تظللها أفياء الأمن والخير والسلام.

على أن الإسلام لا يفرض أن يكون الجهاد أو القتال وسيلته الأولى أو أسلوبه الأساسي المفضل من أجل أن يشيع وينتشر، وإنما وسيلة الأسلوب الأولى من أجل شيوعه وذيوعه في الآفاق، لهي الكلمة الطيبة والدعوة لدين الله بالموعظة الجميلة المؤثرة أو بالجدال النافع السديد، الذي يستهوي الأذهان والقلوب فيجنح الناس إلى هذا الدين راضين راغبين، وذلك هو مقتضى قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: الآية ١٢٥] ذلك تكليف من الله لعباده المسلمين أن يمضوا في همة ونشاط فيدعوا الناس إلى عقيدة التوحيد بالتي هي أحسن من بالغ الحجة وطيب الكلام المؤثر الذي يمس الوجدان ويعطف شغاف القلوب، فتبادر الجنوح في رغبة لحّاحة وحماسة فائرة ثجّاجة. وهذه حقيقة ناصعة مكشوفة يدل عليها إقبال البشرية على دين الإسلام، راغبين راضين غير راغمين ولا مكرهين، والسبب في ذلك واضح وميسور، وهو حلاوة العقيدة الإسلامية التي تتفق مع الفطرة

الإنسانية تمام الاتفاق، فهي عقيدة سهلة وسمحة ومتينة لا شطط فيها ولا توهيم ولا تعسير، من أجل ذلك كتب لهذه العقيدة أن تستحوذ على قلوب شطر عظيم من البشرية على وجه هذه الأرض، ولولا الحوائل المصطنعة والفتن النكراء، من أساليب التشويه والكيد والتخويف والتضليل والإغراء والإغواء، التي برع في ابتداعها الخصوم الحاقدون، لملك الإسلام قلوب العباد طراً، ولاستحوذت عقيدته وشريعته على المجتمعات كافة، لكن الأساليب والمخططات الجهنمية من الخداع والترهيب والتحذير والكيد وغير ذلك من وجوه الفتنة، لا جرم كانت حوائل منيعة وسدوداً حاجزة مؤثرة، حملت شطراً كبيراً من البشرية على السقوط في أوحال الضلال من وثنية وإباحية وإلحاد، أو حالت دون فهم الإسلام والوقوف على طبيعته المرغوبة.

من أجل ذلك شرع الإسلام الجهاد لقتال الطغاة الظالمين الذين يحولون بين كلمة الإسلام وأذهان الناس وقلوبهم، إنه إذا لم تجد الكلمة الطيبة والأسلوب الرحيم الحسن، طريقه إلى عقول الناس بسبب الحوائل الشيطانية المصطنعة التي وضعها الظالمون الأشقياء، فلا مناص حينئذ من وسيلة أخرى يفرضها الإسلام وهو الجهاد، أو قتال الظالمين المجرمين الذين يمسكون بمقاليد الأمور، وذلك من أجل أن تشيع رسالة الإسلام فينبسط الحق بأجنحته الرفافة على البشرية أفراداً ومجتمعات، وحينئذ تستضيء الدنيا بنور الإسلام الوضيء لتتبدد من وجه الأرض كل معالم الشر والظلم والتسلط والباطل.

لا مناص في مثل هذه الحال من الركون لقوة السلاح، من أجل أن يجد الحق سبيله إلى الناس، فيعم الاستقرار والأمن والتحرر، وتغيض كل فلول الفساد والرذيلة والعدوان، ذلك أن العتاة والمجرمين من طواغيت الأرض قد حالوا بين الناس والإسلام، وحجبوا عن أنظار مجتمعاتهم هذه الإطلالة المضيئة، فأبوا لشعوبهم إلا الإيغال في الرذيلة بكل صورها وألوانها، فلا مندوحة لأمة الإسلام والحالة هذه إلا أن يدرأوا عن وجه الأرض كل معالم الفتنة وكل ظواهر الجريمة والطغيان، وإنما يتحقق ذلك

بقوة السلاح، وذلكم هو الجهاد الذي شرعه الإسلام درءاً للأشرار والمفسدين الذين يصدون الناس عن الحق.

الحقيقة الثانية: الغنائم، وهي الأموال التي يستولي عليها المسلمون عقب هزيمة المشركين في الحرب، فما ينبغي للظالمين المتسلطين من خصوم الإسلام أن يطعنوا في هذا الحكم من تشريع الغنائم، والأمر في غاية البساطة والقبول لو تحرر الظالمون المغرضون من أسار الحقد والتعصب الذي صُبَّ في قلوبهم صباً بفعل الضواغط الثقال التي أفرزتها الصليبية العمياء، وتعاليم صهيون حيث الكيد والتلصص والتآمر في دهاليز الغدر والخيانة.

إن حقيقة الأمر في الغنائم، أن المال هو سبيل الظالمين المفسدين للعدوان، وما كان لهؤلاء المفسدين الأشرار أن يقووا على الكيد للبشرية والتعدي على المجتمعات، والنيل من شرفها وكرامتها ومقدراتها، أو الاجتراء على إيذائها لولا الوسيلة الكبرى لذلك، وهو المال، ذلك أن المال مجلبة للسلاح وكل وسائل التخريب والتدمير. فإذا ما قُدِّر للأشقياء الظالمين أن يملكوا المال، استطاعوا حينئذ أن يستحوذوا على السلاح وكل أسباب الكيد والإبادة، فضلاً عن اقتدارهم على ابتداع البرامج والمخططات التي يثيرون بها من حول الإسلام مختلف الأكاذيب والأباطيل والإشاعات، تنفيراً للناس من هذا الدين، وإثارة للسخط والكراهية له في قلوب المغفلين والمخدوعين والمضللين.

لا جرم أن المال سبيل الخصوم الحاقدين لامتلاك أسباب التشويه والخداع، وبخاصة وسائل الإعلام على اختلاف ضروبها المنظورة أو المسموعة أو المقروءة، وذلكم أسلوب فظيع ومؤثر بالغ التأثير في جرجرة العقول والقناعات والتصورات، إلى حيث تريده دوائر الظلم والتسلط من الفكر المشوّه عن الإسلام، من أجل أن ينسلخ المسلمون أولاً عن دينهم، ولكي يباعدوا بين البشرية وهذا الدين. وما كان ذلك ليكون لولا استحواذ الظالمين على وسائل الإعلام الموّجه الخادع المضلل، ولولا السلاح القاتل

الذي يقتل به الأبرياء والمغلوبون والمستضعفون في الأرض، وإنما وسيلة ذلك كله، المال. من أجل ذلك أوجب الإسلام أن يجرّد الظالمون السادرون في تضليل البشرية وإفسادها، من وسيلة المال، فما ينبغي أن يملكوا منه فوق حاجتهم من الغذاء والدواء والكساء والإيواء، وما فضل عن ذلك إنما يؤتمن عليه المؤتمنون حقاً وهم المسلمون، ومن أجل ذلك شُرّعت الغنائم.

الحقيقة الثالثة: الجزية، وهي مبلغ من المال يؤديه أهل الذمة من الكتابيين وهم اليهود والنصارى كيما يأمنوا على أنفسهم في كنف المسلمين وفي ظل دولة الإسلام التي تكفل لهم الصيانة والحماية والأمان والعيش الراغد الكريم، فلا يمسهم بذلك قلق أو رهق أو حرج.

على أن الجزية من حيث القدر لهي دون الزكاة، ذلك أن الزكاة فريضة محلها المال إذا بلغ النصاب وحال عليه الحول وكان فاضلاً عن الحاجة. ويستوي في ذلك ما لو كان مالك النصاب صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو أنثى، صحيحاً سليماً، أو سقيماً مصاباً كما لو كان ضريراً أو مقعداً أو مجنوناً أو نحو ذلك من أولي العاهات، فإنهم جميعاً يلتزمون أداء الزكاة دون تردد، وذلك بخلاف الجزية التي لا يؤديها سوى الذكور البالغين المقتدرين، وبذلك يُعفى من أدائها النساء والصغار والفقراء، وهي إنما يؤديها من تجب عليه إسهاماً منه في بناء الدولة التي تحميه وتصونه وتدرأ عنه الأضرار والمساءات والعوادي، مثلما يسهم المسلم في ذلك بأداء الزكاة من جهته، فإذا تبين ذلك، لم يبقَ مجال للمغرضين الحاقدين في غمز الإسلام باصطناع الشبهات المكذوبة المفتراة عليه كهذه الفرية، وذلك بقصد التشويه والتنفير، ورغبة في الطعن ومجرد الكيد للإسلام وأهله، فإنما الجزية وجيبة من الوجائب الملقاة على عاتق أهل الكتاب في ظل الدولة الإسلامية ليحظوا بحق المواطنة، وإسهاماً منهم في بناء الدولة ومشاركة المسلمين في ذلك ليكونوا بعد ذلك آمنين سالمين كغيرهم من المسلمين، فلا مدعاة بعد ذلك للغط الفاجر السقيم، أو الافتراء الظالم المستهجن.

الحقيقة الرابعة: الاقتتال بين المسلمين، فسوف يقول أعداء الإسلام على سبيل التعيير واللمز وبغية الإساءة والتشويه: إن المسلمين قد قتل بعضهم بعضاً فخاضوا ما بينهم معارك طاحنة أودت بالآلاف من القتلى، ومثل هذا الكلام المغرض مثير للسخرية حقاً، وذلك إذا ما أمعن المرء في البون الهائل بين نسبة الاقتتال والقتلى لدى المسلمين وغيرهم من الشعوب الأوروبية النصرانية، لسوف يجد الناظر المتدبر أن نسبة الاقتتال في صفوف المسلمين في غاية البساطة إذا ما قورنت بالنسبة العجيبة والعظمى في الشعوب الأوروبية.

وللدلالة على ذلك، يكفي أن نقتضب الأخبار عما حاق بشعوب أوروبا في الحرب العالمية الثانية بين دول المحور والحلفاء، وهما: ألمانيا النازية بقيادة هتلر ومن معه من المحالفين، كإيطاليا واليابان من جهة، ثم الحلفاء من الأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين والروس وغيرهم من الشعوب. أولئك جميعاً قد خاضوا حرباً كونية ليس لها في تاريخ البشرية نظير، إذ كان حصادها من القتلى تسعين مليوناً، وهذه نسبة فظيعة ومرعبة، فمن الحماقة والسفه أن تقارن بها نسبة القتل في صفوف المسلمين إبان هيمنتهم وريادتهم لشعوب الأرض طيلة العصور السابقة.

ويضاف إلى ذلك، تلكم الحرب الدامية بين الشعوب الأوروبية نفسها خلال القرنين الماضيين والتي ذهب ضحيتها المئات من الألوف، فما ينبغي في ضوء هذه الحقيقة أن يجترىء أحد على تعيير المسلمين بما وقع بينهم من اقتتال إبان سلطانهم الماضي، فإنه لا يجترىء على مثل هذا اللمز إلا جهول مضلل، أو حقود متعصب مماكر.

ومن جهة أخرى فإنه ينبغي التنبيه إلى الأسباب التي كانت تحمل الدولة الإسلامية زمن الخلافة الأموية والعباسية وما بعدهما من دول المسلمين، الأيوبيين والتركمان والشراكسة والعثمانيين، وأولئك جميعاً كانوا يتصدون لخارجين أشقياء، شقّوا عصا الطاعة على دولة الإسلام، وألّبوا أشياعهم وأعوانهم، وأشاعوا في الناس الفتنة والأذى، وراحوا يقتلون الناس

قتلاً عشوائياً وبغير حق، فقتلوا الأبرياء والضعفاء من النساء والولدان والشيوخ، بل قتلوا منهم مقتلة عظيمة وفعلوا فيهم من أفاعيل التنكيل والبشاعة ما يشيب لهوله الولدان، وذلك كالذي فعله الزنج والقرامطة وغيرهم من المتعصبين الغاشمين المهاويس الذين لا تردعهم المواعظ، ولا تستجيب عقولهم لكلام نافع أو نقاش منطقي سديد، أولئك صنف من البشر الواهم الجانح المغرور، الذي أوغل في الضلالة والعماية والسفه، فانقلب على وجهه غاشماً جهولاً مهووساً فراح يقتل من حوله من الناس من غير وعي ولا تدبر ولا بصيرة. لا جرم أن هؤلاء جزاؤهم القتل حيثما وجدوا وكيفما كان تعدادهم.

وتلك هي النسبة الكبرى من القتل في عصور الإسلام، نسبة كان جلّها في تطهير البلاد من هؤلاء الخارجين المهاويس الذين أثاروا في البلاد الرعب والقتل والفوضى.

أما ما كان من اقتتال بين المسلمين دون ذلك فإنه بالغ البساطة والهوان، وهو ما لا تنجو منه أمة من الأمم نتيجة لتباين الآراء التي تفضي إلى نزق شديد يقود في بعض الأحوال إلى الاقتتال، وهذه حالة من الضعف البشري التي تتطوق بها طبائع البشر، فلا ينجون منها إلا أن يكونوا مثاليين أبراراً أطهاراً.

الحقيقة الخامسة: مسألة الرقيق، وهم العبيد من الذكور والإناث الذين كانوا يباعون ويُشترون، فهم بذلك يُعدون من جملة الأموال التي يمتلكها المالكون من الناس.

والمسألة من حيث المبدأ تندرج في إطار الرق أو الاسترقاق، هذا النظام الذي كان ظاهراً وشائعاً ومقبولاً طيلة الدهر من القرون الخالية، فكان الناس بذلك شطرين، وهم الأحرار والعبيد، وما يقتضيه الشطر الثاني من مسميات الجواري والسراري والإماء والسبايا.

على أن هذا النظام برمته كان فيما مضى مشروعاً ومعقولاً، فهو نظام كان معتبراً ومعروفاً وراسخاً، وقد أيدته الأعراف الفائتة، وقررته الديانات

والشرائع والقوانين القديمة كلها، سواء في ذلك التوراة والإنجيل، أو غيرهما من الشرائع الوضعية كشريعة حمورابي، أو شرائع الرومان التي انبسطت على شطر عظيم من الأرض وطيلة قرون عديدة، فما كان أمر الرق أو الاسترقاق حينذاك مثيراً لشيء من الاستنكار أو الاستهجان، بل كان أمراً معهوداً ومشروعاً.

ولقد بقي هذا النظام على حاله من المشروعية والقبول، حتى إذا جاء الإسلام شرع في تحرير العبيد بمختلف الأسباب والوسائل، ووضع من الأحكام والأساليب الشرعية ما يفضي إلى القضاء على هذا النظام برمته، وقد تحقق ذلك فعلاً.

أما طريقة الإسلام في تحرير العبيد، وانعتاقهم من أسر العبودية، فكيفيتها من أربعة أساليب:

الأول: التحرير الإلزامي، وذلك حال التلبس بجملة من الخطايا كالقتل والظهار وهتك الصيام عمداً، وغير ذلك مما يقتضي المبادرة بالتكفير عن ذلك، وكفارة ذلك عتق الرقاب لينقلبوا أحراراً بعد استرقاق، وذلك على سبيل التكليف المفروض.

الثاني: التحرير المندوب، ذلك أن الإسلام حرّض المسلمين على عتق الرقاب، وحضهم على ذلك أيما تحضيض. ولهم في ذلك من الله جزيل المثوبة وحسن الجزاء.

الثالث: إزالة الأسباب التي كانت تفضي إلى استرقاق الأفراد، وهي أسباب قد بنيت في الغالب على الجور والتسلط، ومن جملة ذلك تسلط الدائن على المدين العاجز عن الأداء، فلا يبرح الدائن حتى يسترقه استرقاقاً عوضاً عن دينه، وذلك اعتساف كريه وظلم غاشم، وهذا ما حرّمه الإسلام وحذّر منه تحذيراً إذ أمر بالاصطبار على المدين حتى يزول عسره، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٠].

ومن أسباب الاسترقاق قبل الإسلام كذلك: بيع الأحرار طمعاً في المال، فكان الوالد ذو العيال الكثيرين يملك أن يبيع أحد أولاده، أو

بعضهم، فيحظى بكسب المال وتكثيره، وذلك سبب فاحش وغشوم ومقبوح لا يجترىء على مقارفته إلا العتاة الغلاظ من الناس، الذين لا يعطف قلوبهم لين أو رأفة. ومثل هذا التصرف الخسيس المثير قد ندّد به الإسلام تنديداً، وشدّد عليه النكير تشديداً. وليس من متسع هنا لتفصيل الأدلة والنصوص التي تكشف عن حرص الإسلام البالغ على حرية الإنسان وعلى التنديد العظيم بالعدوان على هذه الحرية في أية صورة من الصور.

وبذلك تتبدد الأسباب التي تؤدي إلى وجود ظاهرة الرق أو الاسترقاق، فإنما تتحقق هذه الظاهرة في الوجود بتحقق أسبابها التي عرضنا لذكرها آنفاً، فإذا ما اختفت هذه الأسباب، زالت هذه الظاهرة برمتها من الوجود.

وذلك الذي صنعه الإسلام وقرره في واقع البشرية دون غيره من الشرائع والملل والفلسفات السالفة كافة.

الأسلوب الرابع: عقد المكاتبة، وهو عقد يتم بين العبد وسيده إذ يؤدي فيه العبد بعض المال لسيده خلال مدة من الزمن لينقلب بعد ذلك حراً. فأولهما، المكاتب، بفتح التاء، وثانيهما المكاتب بكسرها، وذلك مقتضى قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: الآية ٣٣].

والمقصود من هذا الشرح لحقيقة الرق والاسترقاق، التصدي لأولئك الذين يتناسون النظم والمبادىء التي جوّزت هذا النظام بل باركته وصانته ووثقته بقوانينها وسلطاتها وقضائها، ثم يرمون الإسلام وحده باللمز والطعن وبذاءة التشويه، لا يحدوهم في ذلك إلا الكراهية العمياء، والحقد الأصم. ثم يمضون بعد ذلك في مشوار العدوان والتجني وهم يتطاولون على الإسلام باللمز والانتقاص والطعن، إذ يقولون أن الإسلام قد تغاضى عن ظاهرة الرق فلم يحرمه تحريماً صريحاً، وهم يعلمون أن ظاهرة العبيد لم تحرمها شريعة ولا ملة ولا ديانة سماوية أو أرضية، إلا ما شرعه الإسلام من نظام ركين وطيد فريد أزال هذه الظاهرة بطرقه الوئيدة المميزة وبأسلوبه اللين الفذ، دون تدمير لهذه الظاهرة طفرة واحدة أو من أول يوم، وهو ما

لا يطاق أو يحتمل إذا علمنا أن المجتمعات السابقة كانت خليطاً متداخلاً من الأحرار والعبيد في كثير من الأحوال والمجتمعات. بل إن ظاهرة الرقّ كانت واحدة من الركائز التي كان ينبني عليها المجتمع كله في ذلك الزمان، وذلك من مختلف الجوانب الاجتماعية والنفسية والاقتصادية، فأيما تحريم مفاجىء لهذه الظاهرة لسوف يؤول إلى تدمير المجتمع كله ونسفه من القواعد نسفاً، وإنما المعقول والمقبول أن تراعى أساليب الإسلام في إزالة هذا النظام على نحو لين ورفيق، بعيداً عن التدمير المباغت والاضطراب المزلزل.

الحقيقة السادسة: التمالؤ على تشويه التاريخ الإسلامي، والتمالؤ معناه التعاون والاجتماع عليه، والمراد هنا اجتماع دوائر الكيد من استعماريين وصليبيين وصهيونيين وماسونيين وغيرهم من الأتباع والعملاء على الطعن في الإسلام والمسلمين بتشويه صورتهم بمختلف الأسباب والأساليب. ويأتي في طليعة هذا الكيد والطعن اصطناع الأباطيل وكل صور العدوان والتجني على ملة الإسلام أولاً ثم على المسلمين أنفسهم، على أن هؤلاء الخصوم المبغضين من طواغيت البشرية ضالعون بارعون في تشويه الإسلام والمسلمين بما أوتوه من قدرات فائقة قد سخروها لهذه الغاية، قدرات وطاقات وإمكانات كثيرة ومختلفة، يأتي في مقدمتها الأموال الطائلة المديدة ثم أساليب الدعاية والكتابة والإعلام والنشر، ما بين كتابات ومقالات ومؤلفات ومجلات وصحافة مثيرة تحمل الأخبار والدعايات المزعومة بمختلف اللغات إلى سائر أرجاء الأرض.

ومن هنا قد تزاحمت أقلام العتاة المتعصبين والحاقدين من الكتّاب والأدباء والسياسيين والفنانين، الذين يسابقون الزمن وهم يكتبون عن تاريخ الإسلام على أنه دين الحرب والاقتتال والإرهاب، وعن تاريخ المسلمين على أنهم متعصبون غلاظ، إلى غير ذلك من ضروب التجني والتشويه، ولقد تحقق لهؤلاء المجرمين الأعداء من أكابر الطغيان في تاريخ الدنيا ما راموه وخططوا له من المكائد بتشويه الصورة للإسلام والمسلمين، فأثاروا في أذهان الدارسين والمثقفين والمتعلمين من رواد الفكر في المعاهد

والجامعات أفحش صورة عن هذا الدين وأهله. كل ذلك وأقطاب العدوان من شياطين الإنس كامنون مستكنون قابعون خلف الكواليس يرسمون ويخططون ويمكرون في صمت متدسس حقود، ومماكرة لئيمة موتورة، أولئك هم الاستعماريون والصليبيون والماسونيون وأتباعهم العملاء.

الحقيقة السابعة: أنه لا ينبغي لأحد ذي تفكير سليم أن يجترىء باللمز أو بذاءة القول على كثير من خلفاء المسلمين من بني أمية أو العباس والذين من بعدهم، بما روي عنهم من أقوال في الترف أو الاستغراق في النعيم وطيب العيش.

ومثل هذا اللمز المتجني على عظماء المسلمين السابقين، مردود بل إنه هراء ومتهافت إذا أدركنا أن الاستمتاع بطيب الحياة ولذائذ العيش لا بأس فيه، ولا ضير على الآخذ بحظه من نعيم الحياة وخيراتها ما دام ذلك في إطار الإباحة المشروعة فلم يخالطه اعتداء على حقوق الآخرين أو تجاوز لحدود الله.

ومن كمال الإسلام وروعة شموله أن يتسع للناس كافة من حيث التفاوت الهائل في عزائمهم وهممهم وفي طاقاتهم ومدى احتمالهم، فهم في ذلك كله مختلفون متفاوتون، فمنهم الزاهد المتبتل، ومنهم الراغب في الرزق والنعيم، المحب للخير والاستمتاع، إلى غير ذلك من درجات الأناسي واختلاف رغائبهم وجبلاتهم مما يندرج في دائرة الإسلام الشامل الشاسع. لا جرم أن هذه خصيصة أساسية عظمى تشهد للإسلام بالكمال والجمال والصلوح، تلكم هي خصيصة التوازن والشمول والمراعاة لطبائع البشر المختلفة.

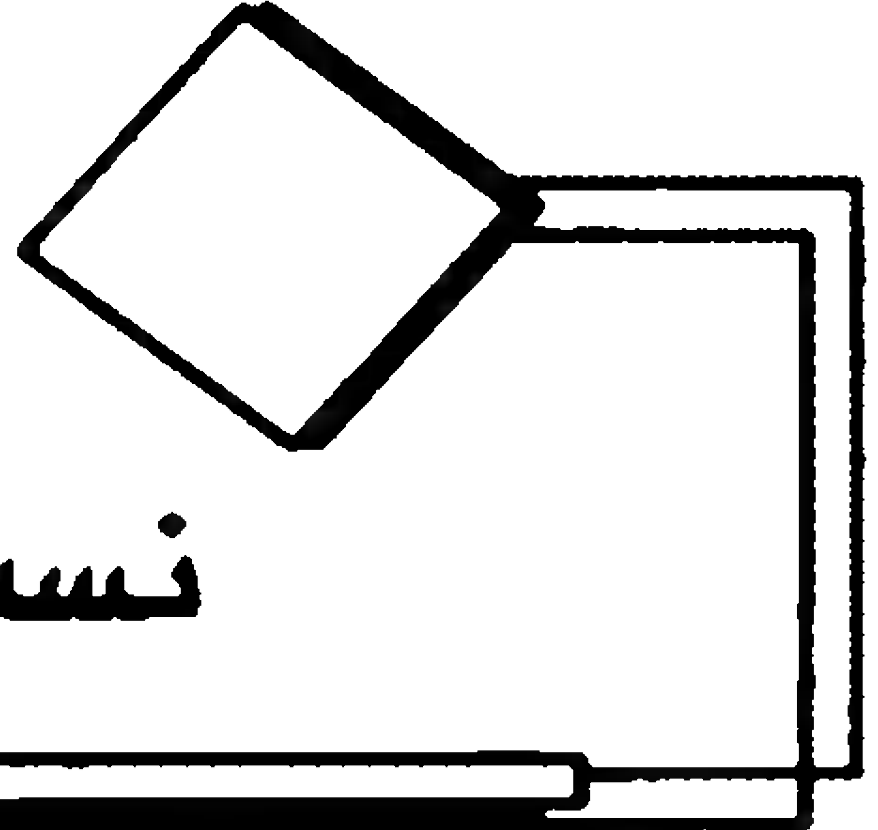
هذه الحقائق السبع أردت أن أبيّنها للقارىء الحريص كيما تغذو فكره بمدد من التنبيه والتذكير فيكون من النابهين المحاذرين الذين يقفون على الأخبار والأفكار في موضوعية وتدبر.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب الأول

حياة الرسول الأعظم محمد ﷺ وسيرته العطرة





الفصل الأول

نسبه ومولده ونشأته ﷺ

نسب رسول الله ﷺ

ذلك هو نسب رسول الله ﷺ نورده هنا على نحو وجيز ومقتضب فهو: محمد بن عبدالله بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر. وإلى هنا يعود نسب قريش؛ أما ما كان من فهر فليس من قريش بل هو من كنانة. وفهر هو: ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[١].

نذر عبدالمطلب:

لقي عبدالمطلب من قريش لدى حفر زمزم عنتاً شديداً فنذر من أجل ذلك: لئن ولد له عشرة أبناء ثم يكبرون فيمنعونه من مبغضيه وخصومه لينحرن أحدهم عند الكعبة في سبيل الله، وقد أوتي عبدالمطلب عشرة أبناء. ولما أيقن أنهم مانعوه أخبرهم بنذره فأجابوه مطيعين. ثم طلب إليهم أن يأخذ كل واحد منهم قدحاً يكتب فيه اسمه ففعلوا وأتوه بقداحهم ثم دخلوا بقداحهم على أعظم أصنامهم في جوف الكعبة وهو هبل. وتقدّم عبدالمطلب إلى صاحب القداح الذي يضربها قائلاً له: اضرب على بني هؤلاء بقداحهم

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٢ ص٥ ـ ٣٣.

هذه بعد أن أخبره بنذره الذي نذره. فأخذ صاحب القداح يضرب في القداح، فخرج قدح عبدالله وقد كان هذا أصغر إخوته وهو أحبهم إلى أبيهم عبدالمطلب. فما لبث عبدالمطلب أن أخذ بيد ولده عبدالله ليذبحه فقامت قريش من أنديتها قائلين لعبدالمطلب: والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه فإنك لو فعلت هذا لسوف يجترىء الرجل منا على ذبح ابنه مثلك، فأمسك عبدالمطلب عن ذبح ولده عبدالله تنجية له من الله وكيما يأخذ القدر المقدور مجراه الذي لا يتردد أو يتخلف، ولكي تنبجس على متن هذا الكوكب السيار نسمة مميزة وضّاءة تنير للعالمين طريق الخير والسعادة والنجاة، وذلكم هو محمد بن عبدالله ﷺ.

زواج عبدالله من آمنة بنت وهب:

ولما فرغ عبدالمطلب من قصة النذر والقداح بعد أن نجى الله ولده عبدالله من الذبح، انصرف بولده عبدالله حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة فزوّجه ابنته آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة التي حملت برسول الله محمد ﷺ.

وفاة عبدالله بن عبدالمطلب:

خرج عبدالله بن عبدالمطلب إلى غزة بالشام في عير لقريش يحملون التجارة، ولما فرغوا من تجارتهم انصرفوا فمروا بالمدينة وعبدالله يومئذ مريض، فتخلّف عند أخواله بني عدي بن النجار فأقام عندهم مريضاً شهراً فبعث إليه عبدالمطلب أكبر أولاده الحارث فوجده قد توفي ثم رجع إلى أبيه فأخبره بوفاته فحزن عليه أبوه وإخوته وأخواته حزناً شديداً. وكان رسول الله ﷺ حينئذٍ حملاً وكان لأبيه عبدالله يوم وفاته ـ أي وفاة عبدالله ـ خمس وعشرون سنة. وقد رثته زوجته آمنة في أبيات من الشعر وهي:

عفا جانب البطحاء من ابن هاشم ... وجاور لحداً خارجاً في الغماغم
دعته المنايا دعوة فأجابها ... وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره ... تعاور أصحابه في التزاحم

فإن يك غالته المنايا وريبها فقد كان معطاء كثير التراحم[1]

وقيل: بل أرسله أبوه عبدالمطلب إلى المدينة يمتار لهم تمراً فمات بالمدينة قبل أن يولد[2].

مولده ﷺ:

ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين لعشر ليال خلون من شهر ربيع الأول وذلك عام الفيل، وكان بين مولده ﷺ وبين الفيل خمس وخمسون ليلة.

وقد روي عن ابن عباس أن آمنة بنت وهب قالت: لقد علقت به ـ أي برسول الله ﷺ ـ فما وجدت له مشقة حتى وضعته. فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب. ثم وقع على الأرض معتمداً على يديه وقد رفع رأسه إلى السماء. وذكر ابن عباس عن أبيه العباس بن عبدالمطلب قال: ولد النبي ﷺ مختوناً مسروراً. قال: وأعجب ذلك عبدالمطلب وحظي به وقال: ليكونن لابني هذا شأن، فكان له شأن!

وذكر أن عبدالمطلب لما جاءه البشير بولادة الرسول ﷺ قد سرَّ بذلك كثيراً فقام هو ومن معه فدخل على آمنة فأخبرته بكل ما رأت. فأخذه عبدالمطلب فأدخله الكعبة وقام عندها يدعو الله شاكراً له ما أعطاه.

وذكر أن عبدالمطلب قال عقب ولادة النبي ﷺ:

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان أعيذه بالبيت ذي الأركان
حتى أراه بالغ البنيان أعيذه من شر ذي شنان
من حاسد مضطرب العنان[3]

(1) الطبقات الكبرى ج1 ص78 ـ 80.
(2) الكامل لابن الأثير ص8 ـ 12.
(3) الطبقات ج1 ص79 ـ 83.

ومما يجدر ذكره أن النبي ﷺ كان في أصله ونسبه طاهراً مطهراً، إذ لم يولد إلا من نكاح سليم طهور لم يخالطه أيما ريبة من سفاح. وفي هذا روى البيهقي في سننه بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح».

ومما ينبغي التنبيه إليه هنا أن هذا النبي الأجلّ مميز في خصاله وعجائب خلقته بما ليس له نظير في العالمين. فإنه مما يستدل بالاستقراء والملاحظة أنه ما من مولود إلا وله صيحة لدى ولادته وانفصامه عن بطن أمه ـ وذلك هو الاستهلال وهو الصياح ـ لكن النبي ﷺ لم يستهل صائحاً لدى ولادته، ولم يسمع له أيما صياح حين الانفصام ومفارقة الرحم كعادة المواليد إذا بارحوا بطون أمهاتهم لملاقاة الحياة الدنيا. لا جرم أن هذه ميزة قد تجلّت في ولادة الرسول الكريم، ميزة تستدعي النظر وتحقق للأذهان أن هذا المخلوق عجيب مفضال، وفي هذا الصدد أخبر الأوزاعي عن حسان بن عطية أن النبي ﷺ لما ولد وقع على كفيه وركبتيه شاخصاً بصره إلى السماء. وأخبر إسحاق بن عبدالله أن أم النبي ﷺ قالت: لما ولدته خرج مني نور أضاء له قصور الشام فولدته نظيفاً، ولدته كما يولد السخل ما به قذر، ووقع إلى الأرض وهو جالس على الأرض بيده[1].

أسماء النبي ﷺ وكنيته:

روي عن جبير بن مطعم أنه كان يحصي أسماء رسول الله ﷺ فيعدها على أنها ستة وهي: محمد وأحمد وخاتم وحاشر وعاقب وماح، فأما حاشر فبعث مع الساعة نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد، وأما العاقب فإنه عقب الأنبياء، وأما الماحي فإن الله محا به سيئات من اتبعه.

أما كنيته فقد روي عن أبي هريرة أنه قال في ذلك: إن رسول الله ﷺ قال: «تسمُّوا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي، فإني أنا أبو القاسم».

---

(١) الطبقات ج١ ص٨١، ٨٢.

وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تجمعوا اسمي وكنيتي، أنا أبو القاسم، الله يعطي وأنا أقسم»**.

وعنه كذلك أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي»**.

وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان بالبقيع فنادى رجل يا أبا القاسم، فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: لم أعنك، فقال رسول الله ﷺ: **«سموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي»**(1).

مرضعات الرسول ﷺ:

أول من أرضعت الرسول ﷺ ثويبة، أرضعته أياماً بلبن ابن لها قبل أن تقدم حليمة وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبدالمطلب. وقد روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما عرضوا عليه ابنة حمزة قال: **«إنها ابنة أخي من الرضاعة، وإنها لا تحل لي، وإنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»**.

وذكر أن عشر نسوة من بني سعد بن بكر قدمن مكة يطلبن الرضاع، فأصبن الرضاع كلهن إلا حليمة بنت عبدالله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رازم، وكان معها زوجها الحارث بن عبدالعزى وولدها منه وهو عبدالله بن الحارث، إذ كانت ترضعه، وكانت معها كذلك جذامة بنت الحارث وهي الشيماء التي كانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمها، ولما عرض رسول الله ﷺ عليها لإرضاعه قالت: يتيم وليس له مال، فخرج النسوة وخلفنها وراءهن، فقالت حليمة لزوجها الحارث: ما ترى؟ قد خرج صواحبي وليس بمكة غلام يسترضع إلا هذا الغلام اليتيم، فلو أنا أخذناه فإني أكره أن نرجع إلى بلادنا ولم نأخذ شيئاً، فقال لها زوجها: خذيه عسى الله أن يجعل لنا فيه خيراً. فجاءت حليمة إلى أمه فأخذته منها فوضعته في حجرها فأقبل عليه ثدياها يقطرا لبناً. فشرب رسول الله ﷺ

---

(1) الطبقات ج1 ص85، 86.

وشرب أخوه - أي من الرضاعة - وقد كان أخوه لا ينام من الغرث[1]، وقالت أمه آمنة: يا ظئر[2]، سلي عن ابني فإنه سيكون له شأن. فطابت نفس حليمة وسرت بكل ما سمعت ثم خرجت به إلى منزلها فأتوا بأتان لهم فركبتها حليمة وهي تحمل رسول الله ﷺ بين يديها، فقالت صواحب حليمة: ما صنعت؟ قالت: أخذت والله خير مولود رأيته قط وأعظمهم بركة. فقالت النسوة: أهو ابن عبدالمطلب؟ قالت: نعم، قالت: فما رحلنا من منزلنا ذلك حتى رأيت الحسد من بعض نسائنا.

حادث شق الصدر في طفولته ﷺ:

وقد مكث النبي ﷺ في الرضاع لدى حليمة سنتين حتى فطم، ولما بلغ أربع سنين كان يغدو مع أخيه وأخته في البهم قريباً من الحي، وهنالك أتاه الملكان فشقا بطنه واستخرجا علقة سوداء فطرحاها وغسلا بطنه بماء الثلج في طست من ذهب، ثم جاء أخوه يصيح بأمه: أدركي أخي القرشي! فخرجت أمه تعدو ومعها أبوه فوجدا نبي الله ﷺ منتقع اللون، فنزلت به إلى أمه آمنة بنت وهب وأخبرتها خبره، وقالت: إنا لا نرده إلا على جدع أنوفنا، ثم رجعت به فمكث عندها سنة أو نحوها لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً. ثم رأت غمامة تظله، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت، فأفزعها ذلك أيضاً من أمره، فقدمت به إلى أمه لترده وهو ابن خمس سنين فأضلها في الناس فالتمسته فلم تجده فأخبرت بذلك جده عبدالمطلب فالتمسه فلم يجده، ثم ألحّ في الدعاء إلى الله أن يرده سالماً فما لبث أن جاء فضمه إليه منشرحاً محبوراً.

وذكر أن آمنة لما دفعت النبي ﷺ إلى حليمة السعدية لترضعه قالت لها: احفظي ابني وأخبرتها بما رأت، فمرّ بها اليهود فقالت: ألا تحدثوني عن ابني هذا فإني حملته كذا ووضعته كذا ورأيت كذا، فقال بعض اليهود

---

(١) الغرث: غرث: جاع. وغرثان: جائع، انظر: مختار الصحاح ص٤٧١.

(٢) ظئر: المرضعة من الناس، انظر: القاموس المحيط ج٢ ص٨٣.

لبعض: اقتلوه، فقالوا: أيتيم هو؟ فقالت: لا، هذا أبوه وأنا أمه، فقالوا: لو كان يتيماً لقتلناه.

وبمثل هذه القصة عن يهود يستبين للعيان ما كانت تنطوي عليه قلوب هؤلاء الظلمة من شديد التغيظ والكراهية لرسول الله ﷺ، فلقد تربصوا منذ انبعاثه للناس حاملاً للبشرية رسالة الهداية والنور، لقد كادوا له بالغ الكيد وبمختلف الأسباب والأساليب لينالوا منه شراً أو ليقتلوه إن استطاعوا، وسوف تتبدى لنا فيما بعد ضروب شتى من ظواهر التمالؤ والكيد والائتمار برسول الله ﷺ ليتخلصوا منه ومن دعوته التي جاء يدعو الناس إليها وهي دعوة العدل والتوحيد والمساواة، وما فتئت يهود على مر الزمن تصطنع المكائد والأسباب لتقضي على العقيدة التي جاء بها الرسول الكريم ليجتثوها من الأرض اجتثاثاً وليثيروا من حولها الافتراءات والشبهات ليرتاب الناس ارتياباً ثم يدبروا عن دين الإسلام إدباراً.

وفاة آمنة أم الرسول ﷺ:

لما بلغ النبي ﷺ ست سنين خرجت به أمه آمنة إلى أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة لزيارتهم برسول الله ﷺ ومعه أم أيمن وكان تحتهم بعيران. وكان قوم من اليهود ينظرون إليه حتى سمعت أم أيمن أحدهم يقول: هو نبي هذه الأمة وهذه دار هجرته، وبعد ذلك عادت به أمه إلى مكة. ولما كانوا بالأبواء توفيت آمنة بنت وهب فهنالك قبرها، ثم رجعت به أم أيمن على البعيرين اللذين قدموا عليهما مكة، ومما يذكر هنا أن النبي ﷺ لما مرّ بالأبواء في عمرة الحديبية قال: **«إن الله قد أذن لمحمد بزيارة قبر أمه»** فأتاه ﷺ وأصلحه وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ، ولما سئل عن بكائه قال: **«أدركتني رحمتها فبكيت»**.

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قد استأذن في زيارة قبر أمه فأذن له ثم سأل لها المغفرة فأبى عليه.

حضانة جده عبدالمطلب له ﷺ:

وعقب وفاة آمنة أم النبي ﷺ بادر عبدالمطلب بضم الرسول ﷺ إليه فرقّ عليه رقة لم يرقها على ولده، فكان يقربه منه ويدنيه إليه دنواً يكشف عن بالغ الحرص والاهتمام والتحنان لهذا الغلام المميز الفذ.

قال قوم من بني مدلج لعبدالمطلب وقد أذهلهم طبع هذا الغلام المفضال: احتفظ به فإنا لم نرَ قدماً أشبه بالقدم التي في المقام منه. فقال عبدالمطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء، ثم التفت إلى أم أيمن وقال لها: يا بركة - فقد كانت تحضن رسول الله ﷺ - لا تغفلي عن ابني فإني وجدته مع غلمان قريباً من السدرة وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني هذا نبي هذه الأمة، ولما حضرت الوفاة عبدالمطلب أوصى أبا طالب برعاية رسول الله ﷺ وبكامل الاهتمام به والحياطة، ولما مات دفن بالحجون وهو يومئذٍ ابن اثنين وثمانين سنة، وقيل: مائة وعشر سنوات. وقد بكاه النبي ﷺ وكان إذ ذاك في الثامنة من عمره[1].

انتقال حضانته إلى عمه ابي طالب:

وعقب وفاة عبدالمطلب بادر أبو طالب إلى قبض رسول الله ﷺ وضمه إليه، فكان معه وإلى جانبه لا يبارحه لفرط حدبه عليه واهتمامه به. فلقد كان يحبه الحب الشديد الذي لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه وإذا ما خرج خرج معه، وكان أبو طالب كثير العيال رقيق الحال قليل المال، وكان إذا أكل عياله جميعاً أو فرادى لا يشبعون، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ فإنهم يشبعون وذلك ببركته ﷺ، فكان أبو طالب يقول له: إنك لمبارك، ولقد كان الصبيان يصبحون رمصاً[2] شعثاً، ويصبح النبي ﷺ دهيناً كحيلاً.

---

(١) الطبقات ج١ ص٩٢ - ٩٦.

(٢) رمصا: الرمص بالتحريك، وسخ أبيض في موق العينين، انظر: القاموس المحيط ج٢ ص٣١٧.

قصة بحيرا الراهب مع الرسول عليه السلام:

خرج أبو طالب إلى الشام في تجارة لقريش على رأس قافلة لهم، ولما أراد المسير إلى الشام لزمه رسول الله ﷺ مبتغياً الخروج معه فرقّ قلبه له وأخذه معه، وكان رسول الله ﷺ يومئذٍ في التاسعة من عمره، وقيل: في الثانية عشرة من العمر. ولما نزل الركب بصرى من أرض الشام وجدوا بها راهباً يقال له: بحيرا في صومعة له، وكان ذا علم بالنصرانية، ولما رآهم بحيرا صنع لهم طعاماً وذلك بعد أن هاله ما رآه من غمامة تظل النبي ﷺ من بين القوم، ورآهم كذلك يستظلون بظل شجرة قريباً منه فأبصر الشجرة وقد هصرت أغصانها فاستظل بها الرسول ﷺ، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً ثم قال: أين أبو هذا الغلام؟ فقال أبو طالب: أنا ذا وليه، ثم قال بحيرا لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال بحيرا: ما ينبغي أن يكون أبوه حياً، قال: إنه ابن أخي مات أبوه وأمه حبلى به، قال بحيرا: صدقت. ارجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنّه شراً فإنه كائن له شأن عظيم. فخرج به أبو طالب حتى قدم به مكة.

وذكر في رواية أخرى أن بحيرا سأل النبي ﷺ عن أشياء من حاله في يقظته ونومه فوجدها بحيرا موافقة لما عنده من صفته، ثم نظر إلى خاتم النبوة بين كتفيه، ثم قال بحيرا لأبي طالب مستوصياً إياه بابن أخيه ومحذراً من كيد يهود له: احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام إن اليهود حُسُد وإني أخشاهم عليه، فكرّ راجعاً به إلى مكة وقال: اللهم إني أستودعك محمداً، ثم إنه قد مات[1].

وخلال هذه الفترة الوجيزة من سني العمر القلائل كان محمد ﷺ مثار إعجاب ودهش لكل من يعرفه أو ينظر إليه وذلك في روعة خلقه وعظيم خصاله التي عزّ نظيرها في أحد غيره، لقد كلأه الله ورعاه من عادات

---

(١) ابن الأثير ج٢ ص٣٧، ٣٨، والطبقات ج١ ص٩٦، ٩٧.

الجاهلية بشركها وجحودها وعصبيتها ومختلف معاييرها. فكان عليه الصلاة والسلام أفضل قومه مروءة وأكرمهم خلقاً وأصدقهم حديثاً وأشدهم مجانبة للأذى والفحش، فكان بذلك في غاية السمو والمروءة والأدب فأحبه الناس وغالوا في حبه بما هو أهله، وعجبوا من فضله وصدقه ومحاسن صفاته بالغ الإعجاب حتى سموه بمكة الصادق الأمين، وتلكم لعمر الحق صفات جليلة عجاب لا تتجلى في رجل كالرجال وإنما تتجلى في رجل مفضال قد عزّ على أحد في العالمين أن يكون له نظيراً. وهي صفات استيقنها اليهود بعدما وقفوا على حقيقة أمره في كتبهم وأنه يوشك أن يبعث للعالمين رسول فعسى أن يكون هو.

لكن الذي يثير الاستهجان والتقزز ما تلعقه حناجر كثير من المستشرقين وأدعياء المعرفة من صنائع الصليبية والصهيونية والماسونية والاستعمار، أولئك الذين يهذون في لغط جهول جارف وفي تقول كذوب مصطنع وهم يفترون على الرسول ﷺ بأنه تلقى رسالته عن الراهب بحيرا! إن ذلك زور فاضح وحماقة لا يتلبس بها إلا كل سقيم أرعن مأفون مغلوب على عقله فضلاً عن إيغاله في الحقد والاضطغان والكراهية لهذا النبي العظيم!

أي عاقل ذي لب ولو بمثقال قطمير يجترىء على التقيؤ بمثل هذا القول المتهافت، أو يصدق أن رجلاً في التاسعة من عمره أو أكثر قليلاً يتلقى النبوة وشؤون الرسالة جميعاً خلال لقاء عابر سريع لا يعدو ساعة من الزمان!

إن ذلكم الجهل الشنيع المطبق الذي تلبّس به المفلسون وهم ينحدرون في مجاهل الجهالة والعماية وضلال التفكير.

حلف الفضول:

هذا الحلف قد تحقق عقب انصراف قريش من حرب الفجار، والنبي ﷺ إذ ذاك في العشرين من عمره، وكان هذا الحلف قد تحقق في

شهر ذي القعدة وهو أشرف حلف قط، وكان أول من دعا إليه الزبير بن عبدالمطلب، فاجتمع بنو هاشم وزهرة وتيم في دار عبدالله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً فتعاقدوا وتعاهدوا بالله على أن يكونوا مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه، وأن يتآسوا في المعاش، وسموا هذا الحلف حلف الفضول.

وروي عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم وأني أغدر به، هاشم وزهرة وتيم، تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ولو دعيت به لأجبت وهو حلف الفضول»**. وفي رواية أنه قال: **«لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبدالله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»**.

ويستدل من مثل هذا الخبر عن رسول الله ﷺ في حلف الفضول أنه يجوز للمسلمين أن يتنادوا ما بينهم فيتعاونوا على بناء المؤسسات الخيرية التي تدفع عن المسلمين الغوائل والضوائق، وتؤدي لهم المنافع والمصالح والخيرات. يستوي في ذلك ما لو كان للمسلمين دولة تحكم بالإسلام أو لم يكن لهم ذلك أن النبي ﷺ قد أقرّ في حديثه هذا ما لو أسهم المسلمون قبل أن تقوم لهم دولة إسلامية في إنشاء أي مشروع خيري يعود عليهم بالمنفعة ويدرأ عنهم الأذى والضيق.

اتجار النبي ﷺ لخديجة وزواجه منها:

لما بلغ النبي ﷺ خمساً وعشرين سنة قال له أبو طالب: إني رجل لا مال لي وقد اشتد علينا الزمان، وهذه عير قريش ماضية إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث من قومك من يتجر لها فلو جئتها وعرضت نفسك عليها لأجابتك. فبلغ خديجة ما كان من تحاور بين النبي ﷺ وعمه أبي طالب فأرسلت إليه في ذلك وقالت له: أنا أعطيك ضعف ما أعطي غيرك من الناس، فقال أبو طالب: هذا رزق ساقه الله إليك.

هكذا تمضي الأمور كلها بقدر الله وتوفيقه، الحياة والأحياء جميعاً، والكون الهائل الواسع وما حواه من خلائق وأشياء وأناسي إنما يمضي ذلك بتقدير منتظم مقدور، كتبه الله وجعله قدراً محتوماً مقدوراً لا يند ولا يتعثر ولا يتخلف.

لقد كان مسطوراً في تقادير الله العليم الخبير أن يسافر النبي ﷺ إلى الشام متاجراً لخديجة كيما ينال من قلبها المحبة والإعجاب والتعظيم، فتكون له فيما بعد زوجة صالحة فضلى عزّ نظيرها في نساء العالمين.

خرج في صحبة النبي ﷺ إلى الشام ميسرة غلام خديجة بنت خويلد بن أسد بن العزى بن قصي، وقد كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه.

خرج الركب وفيهم النبي ﷺ وميسرة غلام خديجة، فنزل النبي ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة الراهب نسطور، فقال نسطور: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم سأل ميسرة: أفي عينيه حمرة؟ قال: نعم لا تفارقه، فقال نسطور: هذا نبي وهو آخر الأنبياء، أو قال: هذا والله نبي تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم. أما ميسرة فكان إذا كانت الهاجرة يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره. فلما قدم مكة جاء إلى خديجة بربح كبير ثم حدّثها ميسرة عن قول الراهب وما رأى من إظلال الملكين إياه.

على أن خديجة بنت خويلد، هذه المرأة الحازمة الشريفة الفضلى كانت في طليعة النساء شرفاً وحسباً وفضلاً لما تجلى فيها من خلق كريم وشرف مصون وعقل كبير مستنير. فكان قومها حريصين على أن يحظوا بالزواج منها لو استطاعوا لكنهم مع ذلك لم يجدوا من خديجة أيما رضى أو قبول في ذلك، فما لبث عقب ذلك أن عرضت نفسها على هذا الرجل العظيم المفضال الذي أذهل الناظرين وأولي الألباب لفرط كماله وعجيب خصاله، رائد العالمين في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد محمد ﷺ.

لقد عرضت خديجة نفسها على نبي الله ﷺ غرة الأناسي في هذا

الكوكب وإمام الأخيار والأبرار في العالمين. فأرسل لأعمامه ليوقفهم على الأمر كيما يذهبوا إليها خاطبين. فخرج النبي ﷺ ومعه حمزة بن عبدالمطلب وأبو طالب وغيرهما من عمومته، حتى دخلوا على خويلد بن أسد فخطبها له أحدهم فتزوجها رسول الله ﷺ فولدت له كل أولاده إلا إبراهيم.

وكان أول من ولد لرسول الله ﷺ بمكة قبل أن يبعث للناس رسولاً القاسم وقد كان يكنى به، ثم ولد له من بعده زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم، ثم ولد له في الإسلام بعد النبوة عبدالله، وكان يسمى الطيب والطاهر، وهؤلاء جميعهم من خديجة بنت خويلد. وكان أول من مات من ولده القاسم، ثم من بعده مات عبدالله بمكة، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع ولده فهو أبتر، يريد بذلك النبي ﷺ فأنزل عز وعلا تفنيداً لهذا القول المستهجن إذ قال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: الآية ٣].

أما ولده إبراهيم فهو من مارية القبطية التي أهداها المقوقس القبطي صاحب الإسكندرية للنبي ﷺ وأختها سيرين. وذلك بعد أن كتب إليه النبي ﷺ كتاباً يدعوه فيه للإسلام فلما قرأ الكتاب قال خيراً، وكتب إلى النبي ﷺ جواب كتابه ولم يسلم. ولقد عرض النبي الكريم الإسلام على مارية وأختها سيرين فأسلمتا ووهب أختها سيرين لحسان بن ثابت الشاعر. وولدت مارية لرسول الله ﷺ غلاماً سماه إبراهيم وعقّ عنه الرسول ﷺ بشاة يوم سابعه وحلق رأسه وتصدّق بزنة شعره فضة على المساكين.

ولما مات إبراهيم دمعت عينا رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله هذا الذي تنهى الناس عنه؟ إذا رآك المسلمون تبكي بكوا. فقال عليه الصلاة والسلام: **«إنما هذا رحمة ومن لا يَرحم لا يُرحم. يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صادق وأنها سبيل مأتية وأن أخرانا ستلحق أولانا لحزنا عليك حزناً هو أشد من هذا وإنا بك لمحزونون. تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب عز وجل»**.

وفي الخبر أنه لما توفي إبراهيم قال رسول الله ﷺ: **«إن إبراهيم ابني**

وإنه مات في الثدي وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة» وروى الأعمش عن مسلم عن البراء قال: توفي إبراهيم ابن رسول الله ﷺ لستة عشر شهراً، فقال النبي ﷺ: «ادفنوه في البقيع فإن له مرضعاً في الجنة».

وروى المغيرة بن شعبة أن الشمس انكسفت يوم مات إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل، ولا ينكسفان لموت أحد فإذا رأيتموهما فعليكم بالدعاء حتى ينكشفا».

وفي رواية أنه لما انكسفت الشمس يوم مات إبراهيم قال الناس: انكسفت الشمس لموت إبراهيم، فخرج الرسول ﷺ حين سمع ذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى المساجد»، ودمعت عيناه. فقالوا: يا رسول الله تبكي وأنت رسول الله؟ فقال: «إنما أنا بشر تدمع العين ويخشع القلب ولا نقول ما يسخط الرب، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون»، ومات وهو ابن ثمانية عشر شهراً[1].

هدم قريش الكعبة وبناؤها

في سنة خمس وثلاثين من مولد الرسول ﷺ هدمت قريش الكعبة لتقوم ببنائها عقب ذلك من جديد، والسبب في هدمها أنها كانت رضيمة فوق القامة[2]، إذ كان ارتفاعها من عهد إسماعيل تسعة أذرع ولم يكن لها إذ ذاك سقف مما أغرى بعض اللصوص بسرقة كنزها الذي كان في جوفها، وفوق ذلك تعرضت الكعبة لما أفضى ببنيانها إلى التصدع، وجدرانها للتلف، ثم دهم مكة سيل جارف عرم انحدر إلى البيت الحرام فأوشك أن يودي بالكعبة إلى الانهيار، فاضطرت قريش بذلك إلى معاودة بناء الكعبة من

---

(١) الطبقات ج١ ص١٠٦ ـ ١١٤.

(٢) رضيمة فوق القامة: الرضيم والمرضوم، يعني: البناء بالصخر، انظر: القاموس المحيط ج٤ ص١٢٢.

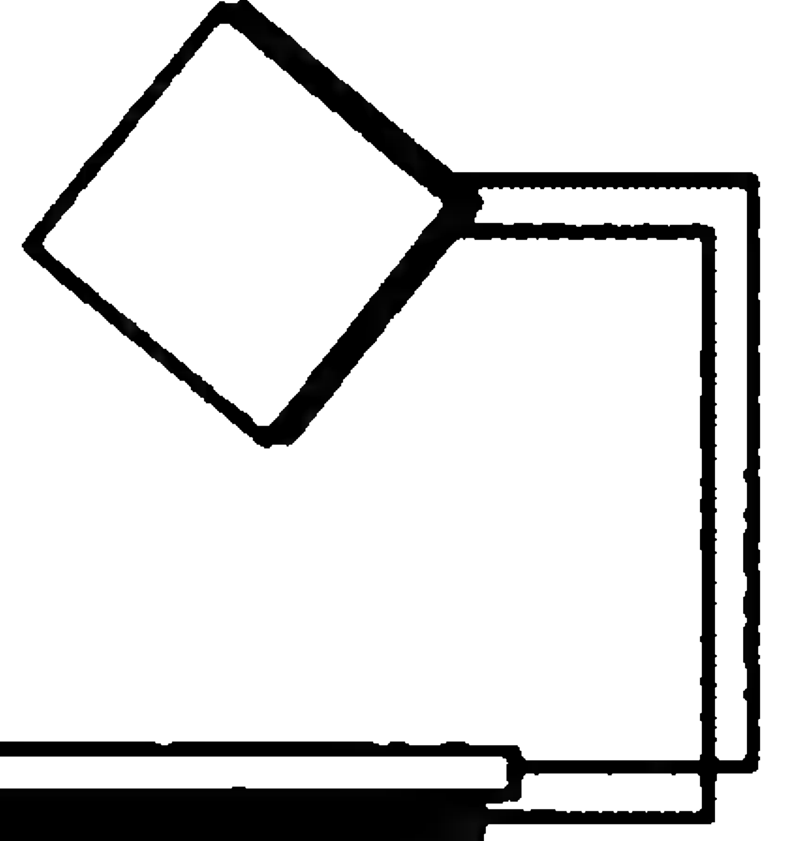
جديد صوناً لها من الانهدام والتداعي واتفقوا على عدم بنائها بغير طيب فلا يدخلون في بنائها مهر بغي ولا مال مظلوم.

ومع ذلك كله فقد كان العرب يهابون هدم الكعبة فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدأكم بذلك، فأمسك بالمعول وأخذ في الهدم، فتربّص الناس بالوليد تلك الليلة ينتظرون ما يصيب الوليد عقب الهدم وقالوا: إذا أصيب لا نهدم منها شيئاً، لكن الوليد غدا سالماً لم يصبه سوء، فأخذ الناس في الهدم حتى نقضت الكعبة ثم جمعوا الحجارة لبنائها من جديد، ثم بنوا حتى بلغ البنيان موضع الحجر الأسود، فابتغت كل قبيلة رفعه ليضعوه في مكانه لتمتاز شرف ذلك، فاختلفوا فيما بينهم في ذلك وتنازعوا حتى تواعدوا للقتال لولا أن تقدّم واحد منهم ذو عقل وحكمة ونصفة وهو أبو أمية بن المغيرة المخزومي إذ قال: اجعلوا بينكم حكماً أول من يدخل من باب المسجد يقضي بينكم، فارتضوا بهذا الرأي، فكان من توفيق الله وتقديره الغالب الحكيم أن يكون النبي ﷺ أول من دخل، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين قد رضينا به، وأخبروه الخبر، فأجابهم قائلاً: **«هلموا إلي ثوباً»** فأتوه بثوب، فأخذ الحجر الأسود بنفسه ووضعه في الثوب وقال: **«لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً»** ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه بيده ثم بنوا عليه[1].

ذلكم كان حكم النبي ﷺ في هذه المسألة التي اختلفت فيها قلوب القوم فتنازعوا أمرهم بينهم حتى كادوا يقتتلون ويتحاربون. لا جرم أن محمداً ﷺ بما أوتيه من نباهة الذهن وجمال الطبع والفطرة وحصافة التفكير وسداده كان رحمة للناس. وفي مثل هذا الخلق العجيب المميز تستبين في الرجل المفضال ظواهر شتى من علائم النبوة الميمونة التي تنبعث للعالمين في موعدها المقدور.

---

(١) ابن الأثير ج٢ ص٤٣ ـ ٤٥، والرحيق المختوم للشيخ صفي الرحمٰن المباركفوري ص٧٠.



الفصل الثاني

مبعثه ﷺ

بُعث النبي ﷺ وأُنزل عليه الوحي وهو في الأربعين من عمره المبارك، وكان نزول الوحي يوم الاثنين لثماني عشرة ليلة خلت من رمضان. وقد قيل لتسع عشرة منه.

وكان عليه الصلاة والسلام يرى بعض المعالم مما يدل على كرامته وفضله قبل أن يأتيه الوحي من السماء، وكان من جملة ذلك شق الملكين لبطنه واستخراج ما فيه من غل ودنس، ومنه أيضاً أنه ﷺ كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلّم عليه، فيلتفت يميناً وشمالاً فلا يرى أحداً، وقد كانت الأمم بتاريخها وعلمائها تتحدث عن مبعثه ليكون رسولاً هادياً للناس[1].

ومن عجيب المعالم الظاهرة والدلائل الباهرة ما أخبر به الراهب بحيرا عن رسول الله ﷺ، وذلك أنه لما خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه رسول الله ﷺ في المرة الأولى وهو في الثانية عشرة من العمر، وقيل: في التاسعة، حتى نزل الركب بصرى من الشام وكان بها الراهب بحيرا في صومعته، صنع لهم الطعام ثم دعاهم إليه، وقد حمله على أن يدعوهم إلى طعامه أنه رأى غمامة تظل رسول الله ﷺ من بينهم، فلما رأى بحيرا ذلك

(١) ابن الأثير ج٢ ص٤٦، ٤٧.

نزل من صومعته وأخبرهم أنه قد صنع لهم الطعام وقال لهم: يا معشر قريش إني قد صنعت لكم طعاماً وأحب أن تحضروه كلكم ولا يتخلف منكم أحد، صغيراً ولا كبيراً، وهذا شيء تكرمونني به، فقال رجل: إن لك شأناً يا بحيرا، ما كنت تصنع بنا هذا من قبل فما شأنك اليوم؟ قال: إني أحببت أن أكرمكم ولكم حق، فاجتمعوا إليه وتخلّف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه إذ ليس في القوم أصغر منه في رحالهم، فلما نظر بحيرا إلى القوم ولم يرَ الصفة التي يعرف ويجدها عنده، وجعل ينظر ولا يرى الغمامة على أحد من القوم ويراها متخلفة على رأس رسول الله ﷺ، فقال بحيرا: يا معشر قريش لا يتخلفن منكم أحد عن طعامي، قالوا: ما تخلّف أحد إلا غلام هو أحدث القوم سناً في رحالهم، فقال: ادعوه فليحضر طعامي فما أقبح أن تحضروا ويتخلّف رجل واحد مع أني أراه من أنفسكم، فقام إليه الحارث بن عبدالمطلب بن عبد مناف فاحتضنه وأقبل به حتى أجلسه على الطعام والغمامة تسير على رأسه، وجعل بحيرا يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء في جسده، كان يجدها عنده من صفته، فلما تفرقوا عن طعامهم قام إليه الراهب فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئاً بعدهما»**، قال بحيرا: فبالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه، قال: **«سلني عما بدا لك»**، فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع الصفة التي يجدها عنده، فقبل بحيرا موضع الخاتم.

وقالت قريش: إن لمحمد عند هذا الراهب لقدراً، وجعل أبو طالب يخاف على ابن أخيه لما رآه من بحيرا، فقال بحيرا لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال أبو طالب: ابني، قال بحيرا: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فهو ابن أخي، قال: ما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حبلى به، قال: فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريباً، قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه من اليهود، فوالله لئن رأوه

وعرفوا منه ما أعرف ليبغنّه عنتاً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا، واعلم أني قد أديت إليك النصيحة، فلما فرغوا من تجارتهم خرج أبو طالب برسول الله ﷺ سريعاً وقيل: إن بحيرا قال لأبي طالب: لا تخرجن بابن أخيك إلى من هٰهنا فإن اليهود أهل عداوة وهذا نبي هذه الأمة وهو من العرب واليهود تحسده، تريد أن يكون من بني إسرائيل، فاحذر على ابن أخيك[1].

ومن العلامات الدالة على صدق نبوته ﷺ ما روي عن ابن عباس قال: كانت يهود قريظة والنضير وفدك وخيبر يجدون صفة النبي ﷺ عندهم قبل أن يُبعث، وأن دار هجرته بالمدينة، فلما ولد النبي ﷺ قالت أحبار يهود: ولد أحمد الليلة، هذا الكوكب قد طلع، فلما تنبى قالوا: قد تنبى أحمد قد طلع الكوكب الذي يطلع. كانوا يعرفون ذلك ويقرون به ويصفونه إلا الحسد والبغي[2].

وغير هذه الأخبار والحقائق كثير مما يشهد لهذا الرجل المكرم المفضال بصدق الرسالة وأنه مبعوث من رب العالمين لهداية الناس فيكفكف عنهم أوضار الجاهلية وفسادها وليحظوا في الآخرة بالنجاة وحسن المصير.

وروى ابن عباس أنه سأل كعب الأحبار: كيف تجد نعت رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: نجده محمد بن عبدالله يولد بمكة ويهاجر إلى طابة (المدينة)، ويكون ملكه بالشام وليس بفحّاش ولا صَخّاب في الأسواق ولا يكافىء بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، أمته الحمادون يحمدون الله في كل سرّاء ويكبرون الله على كل نجد، يوضؤون أطرافهم ويأتزرون في أوساطهم يصفون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم، دويهم في مساجدهم كدوي النحل يسمع مناديهم في جو السماء، يعني بذلك الأذان[3].

---

(١) الطبقات ج١ ص١٢٢، ١٢٣.

(٢) الطبقات ج١ ص١٢٦.

(٣) السيرة النبوية لمحمد أحمد بن عثمان الذهبي ص٥.

هذه شهادة يدلي بها واحد من العالمين بالتوراة وحبر من أحبارها بل هو كعبهم، أي: أظهرهم وأشهرهم، وذلكم هو كعب الأحبار الذي يمت في أصله إلى بني إسرائيل، لكنه أسلم لما استبان له الحق وشعشع أمام بصيرته نور النبوة الساطع، النبوة الصادقة التي تنطق بها التوراة من قبل أن يحيق بها التحريف والتزييف مما جعلها أشتاتاً من الأقاويل الشاطحة والأوهام التائهة والضلالات المصطنعة الموغلة في الجنوح والتوهيم.

إن نبوة محمد ﷺ حقيقة بلجة ساطعة لا يجحدها إلا مكابر مأفون، أو مضلل مخدوع سادر في الضلالة والعماية والتعصب المهين.

نزول الوحي على رسول الله ﷺ:

كان أول ما تراءى للنبي ﷺ من ظواهر الوحي الرؤيا الصادقة، إذ كانت الرؤيا تجيء مثل فلق الصبح، ثم حبب إلى النبي ﷺ الخلاء فكان يتعبد في غار حراء عدة ليال من الشهر، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثل هاتيك الليالي، حتى فجأه الحق إذ أتاه جبريل عليه السلام فخاطبه: يا محمد، أنت رسول الله، فجثا النبي ﷺ على ركبتيه ثم كرّ راجعاً إلى خديجة ترجف بوادره[1]، وهو يقول: «**زملوني زملوني**»، ثم ذهب عنه الروع، ثم أتاه الوحي ثانية فقال له: يا محمد أنت رسول الله، فقال نبي الله ﷺ: «**فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق[2] فتبدى لي حين هممت بذلك، فقال: يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله، قال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ فأخذني فغتني[3] ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾** [العلق: الآية ١] **فقرأت، فأتيت خديجة فقلت: لقد أشفقت على نفسي وأخبرتها خبري، فقالت: أبشر فوالله لا يخزيك الله**

---

(١) بوادره: جمع، ومفرده بادرة، ومذكره بادر وهو ما يبدو من الرجل عند غضبه من خطأ أو سقط، أو هو الغضبة السريعة، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٤٣.

(٢) الحالق: المكان المرتفع المنيف، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص١٩٣.

(٣) غتني: أي: ضغطني ضغطاً شديداً، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٦٤٤.

أبداً فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتحمل الكلّ[(١)] وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق».

ثم انطلقت خديجة برسول الله ﷺ إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان قد تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل. فقالت: اسمع من ابن أخيك، قال النبي ﷺ: **«فسألني فأخبرته خبري»** فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران، ليتني كنت حياً حين يخرجك قومك، قال الرسول ﷺ: **«أمخرجي هم؟»** قال: نعم، إنه لم يجىء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، ولئن أدركني يومك لأنصرنك نصراً مؤزراً[(٢)].

وقد كان أول ما نزل عليه من القرآن بعد ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [الإسراء: الآية ١٤] ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: الآية ١]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: الآية ١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: الآيتان ١، ٢].

ولقد فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة فحزن حزناً شديداً، وجعل يغدو إلى رؤوس الجبال ليتردى منها فكلما رقي ذروة جبل تبدى له جبريل قائلاً له: إنك رسول الله حقاً، فيسكن جأشه بذلك.

ثم أمر الله نبيه ﷺ أن ينذر قومه بعذاب الله الشديد ويحذرهم من عاقبة الشرك وما هم عليه من فساد العقيدة وضلال التفكير، إذ يعبدون أشباحاً واهية من الأصنام الجوامد والتي لا تضر ولا تنفع فضلاً عن تلبسهم بالعصبيات الظالمة العمياء التي لا تقيم للحق أو العدل أيما وزن أو قيمة.

دعاهم النبي ﷺ إلى عبادة الله وحده، ذلكم الله الواحد الديّان، الذي بفضله ومنّه انطلقت عجلة الكون الهائل الدائر المتسق، وهو حافل بالحياة والأحياء على اختلاف أجناسها وما يكون لذلك كله أن يتحقق أو يكون لولا إرادة الله الخالق البارىء المصور الذي ذرأ كل شيء وقدّره تقديراً.

ذلكم الله الأحد الذي تخشع له القلوب وتلين له المشاعر ثم تخرّ له

---

(١) الكلّ: يعني اليتيم، والذي لا ولد له ولا والد، انظر: مختار الصحاح ص٥٧٦.

(٢) ابن الأثير ج٢ ص٤٨، ٤٩، والسيرة النبوية للذهبي ص٦٣ ـ ٧٣.

الجباه خاشعة واجمة مخبتة، وما ينبغي لأحد ذي مسكة من عقل أو نظر أن يتخذ من دون الله أنداداً، أو يتولى مدبراً عن عبادة الله وحده مجترئاً على عصيان أمره في استكبار متمرد أو ضلال جهول، لقد دعا رسول الله ﷺ إلى دين الله سراً في بادىء الأمر كما أمره الله، فكان أول من آمن به وصدّقه من العباد زوجته الصالحة الفضلى، رائدة النساء الفضليات في العالمين، خديجة بنت خويلد رضي الله عنها[١].

اشتداد الوحي على رسول الله ﷺ:

روي عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب له وتربّد وجهه.

وعن أبي أروى الدوسي قال: رأيت الوحي ينزل على النبي ﷺ وهو على راحلته، فترغو[٢] الراحلة يديها وتفتلهما حتى أظن أن ذراعها تنفصم، فربما بركت وربما قامت موتدة يديها، حتى يسرى عنها من ثقل الوحي، وإنه ليتحدّر منه مثل الجمان.

وذلكم لعمر الحق برهان ساطع يصدقه النظر ويشهد به الحس على صدق الوحي، وإنه حقيقة ماثلة واقعة لا ريب فيها.

وسئل النبي ﷺ: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال عليه السلام: **«أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني، وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول»**.

وروي عن ابن عباس قوله في ذلك: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي يعالج من ذلك شدة، وكان يتلقاه ويحرك شفتيه كيلا ينساه فنزل قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: الآية ١٦].

---

(١) ابن الأثير ج٢ ص٥٠.

(٢) فترغو: رغت الناقة ترغو: صوتت فهي راغية، انظر: المصباح المنير ج١ ص٢٤٨.

الفصل الثالث

الدعوة المكية وما تخللها من أحداث

لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢١٤]، صعد رسول الله ﷺ على الصفا فقال: **«يا معشر قريش»** فقالت قريش: محمد على الصفا يهتف، فأقبلوا واجتمعوا فقالوا: ما لك يا محمد؟ قال: **«أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونني؟»** قالوا: نعم عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط، قال: **«فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، يا بني عبدالمطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة»** حتى عدّد الأفخاذ من قريش **«إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله»** فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله عز وعلا في أبي لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد: الآية ١] السورة.

ومضى رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى دين الإسلام حيث التوحيد الخالص والدينونة المطلقة للّه وحده دون غيره من الآلهة المصطنعة والأنداد المخاليق، فما أن بادر عليه الصلاة والسلام الناس دعوتهم إلى الحق والتوحيد، حتى واجهته قوى الشرك والباطل بالصد والتكذيب وفي طليعتهم صناديد قريش وكبراؤهم، من عتاة الظالمين المتشبثين بدين الآباء حيث السفه والحماقة والباطل، من أمثال أبي جهل وأبي لهب وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وغيرهم كثيرون.

أولئك العتاة الأشرار الذين كادوا للإسلام ونبيّه كيداً، فنكلوا بالمسلمين المستضعفين الأوائل أشد تنكيل.

قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: **«كنت بين شر جارين بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط، إن كانا ليأتيان بالفروث[1] فيطرحانها على بابي حتى أنهم ليأتون ببعض ما يطرحون من الأذى فيطرحونه على بابي»** فيخرج به رسول الله ﷺ فيقول: **«يا بني عبدالمطلب أي جوار هذا!!»**، ثم يلقيه بالطريق.

شكاية قريش لأبي طالب:

أحست قريش بظهور الإسلام وأن المسلمين يزدادون ويظهر شأنهم وقد تجرأوا على الجلوس حول الكعبة مما أثار غيظ المشركين فأسقط في أيديهم، عندئذٍ مشى المشركون إلى أبي طالب فدخلوا عليه وقالوا: أنت سيدنا وأفضلنا في أنفسنا، وقد رأيت ما يفعل هؤلاء السفهاء مع ابن أخيك محمد إذ تركوا آلهتنا وطعنوا علينا ديننا وسفّهوا أحلامنا. ثم جاءت قريش بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا: قد جئناك بفتى قريش جمالاً ونسباً ونهادة وشعراً ندفعه إليك فيكون لك نصره وميراثه وتدفع إلينا ابن أخيك فنقتله، فذلك أجمع للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبة[2]، فردّ أبو طالب مقالتهم وهو الحصيف النبيه الشهم إذ قال منذراً مفنداً: والله ما أنصفتموني، تعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابن أخي تقتلونه؟! ما هذا بالنصف تسومونني سوم العرير[3] الذليل، قالوا: فأرسل إليه، فأرسل إليه أبو طالب فجاء رسول الله ﷺ، فقال أبو طالب: يا ابن أخي هؤلاء عمومتك وأشراف قومك وقد أرادوا ينصفونك، فقال رسول الله ﷺ: **«قولوا أسمع»**، قالوا: تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك، قال أبو طالب: قد أنصفك القوم،

---

(١) فروث: جمع، ومفرده فرث: وهو السرجبة ما دام في الكرش، انظر: مختار الصحاح ص٤٩٥.

(٢) المغبة: العاقبة.

(٣) العرير من الرجال: الغريب، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٥٩٢.

فاقبل منهم، فقال رسول الله ﷺ: **«أرأيتم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطي كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم؟»** فقال أبو جهل: إن هذه الكلمة مربحة نعم وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها، قال: **«قولوا لا إله إلا الله»**، فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون: اصبروا على آلهتكم، إن هذا لشيء يراد، وقيل: إن المتكلم بهذا عقبة بن أبي معيط، وقالوا: لا نعود إليه أبداً وما خير من أن يغتال محمد. فلما كان مساء تلك الليلة فُقِد رسول الله ﷺ، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه فجمع فتياناً من بني هاشم وبني المطلب ثم قال لهم: ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة، ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم وفيهم أبو جهل، فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل، فقال الفتيان: نفعل، فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال: يا زيد أحسست ابن أخي؟ قال: نعم كنت معه آنفاً، فقال أبو طالب: لا أدخل بيتي أبداً حتى أراه، فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون فأخبره الخبر، فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي طالب، فقال أبو طالب: يا ابن أخي أين كنت؟ أكنت في خير؟ قال: **«نعم»**، فدعاه أبو طالب أن يدخل بيته فدخل، فلما أصبح أبو طالب غدا النبي ﷺ، فأخذ بيده فوقف به على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون، فقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به؟ قالوا: لا، فأخبرهم الخبر ثم قال للفتيان: اكشفوا عما في أيديكم، فلما كشفوا إذا كل واحد منهم معه حديدة صارمة، فقال: والله لو قتلتموه ما بقّيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم، فانكسر القوم وكان أشدهم انكساراً أبو طالب[1].

الهجرة إلى أرض الحبشة:

لما شاع الإسلام في مكة وكثر عدد المسلمين وأخذ الناس يتحدثون

---

(١) طبقات ابن سعد ج١ ص١٥٦ ـ ١٥٨.

عن دين الله، ثارت ثائرة المشركين من قريش فدفعهم الغضب والحماقة وحمية الجاهلية السخيفة إلى تشديد الوطأة على من آمن من القبائل وكانوا قلة مستضعفين، فعذبوه تعذيباً ليفتنوهم عن دينهم، وفي ذلك لاقى المسلمون ألواناً من التنكيل والإذلال جزاء ثباتهم على عقيدة التوحيد غير مفرطين ولا مفتونين، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه»**، فهاجروا إليها فراراً بدينهم مخلفين وراءهم أهلهم وديارهم وما يملكون، لقد خرجوا متسللين سراً، وكانوا إذ ذاك أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، منهم الراكب ومنهم الماشي.

أما أسماء القوم المهاجرين إلى الحبشة في المرة الأولى فهم: عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، ومصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وعبدالرحمٰن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ومعه امرأته أم سلمة، وعثمان بن مظعون الجمحي، وعامر بن ربيعة العنزي ومعه امرأته ليلى بنت أبي حتمة، وأبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، وسهيل بن بيضاء من بني الحارث، وعبدالله بن مسعود حليف بني زهرة.

هؤلاء هم المهاجرون إلى الحبشة في هجرتهم الأولى، إذ خرجوا من بلدهم مكة إلى أرض الغربة في الحبشة بجوار ملك كريم يجير المستضعفين ولا يُظلم عنده أحد.

لقد مكث هؤلاء المهاجرون يعبدون الله وحده أحراراً بعيداً عن مكة حيث الترهيب والتعذيب والفتنة حتى بلغهم خبر إسلام قريش في مكة ففرحوا لذلك كثيراً ثم كروا راجعين إلى مكة حيث الأهل والعشيرة والخلان، حتى إذا كانوا دون مكة قليلاً لقوا ركباً من كنانة فسألوهم عن قريش، فأعلموهم أن خبر إسلام قريش فرية وأن ما بلغهم عن إسلام

المشركين باطل، فلم يلبثوا أن يدخلوا مكة ليجدوا أن المشركين لم يبرحوا الشرك وأنهم ما فتئوا يعذبون المسلمين ويسومونهم ضروب القمع والتنكيل والإذلال، بل إن المشركين زادوا من إيذائهم للمسلمين وإساءتهم لهم، فلما رأى المسلمون اشتداد الوطأة عليهم وسوء تنكيل قريش بهم رجعوا مهاجرين ثانية إلى الحبشة وفي طليعتهم جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون إلى الحبشة فكان عددهم اثنين وثمانين رجلاً، وقيل: ثلاثة وثمانين رجلاً، وكان من النساء إحدى عشرة امرأة من قريش، وسبع أخريات من غير قريش، فأقاموا جميعاً بأرض الحبشة عند النجاشي بأحسن جوار.

أما النبي ﷺ فهو مقيم بمكة يدعو الناس إلى دين الله سراً وجهراً، حتى إذا أيقنت قريش أنه لا سبيل لها إليه، وأنه ماضٍ لا محالة في نشر دعوته والناس من حوله يستمعون إليه ويستطيبون حديثه وما جاءهم به من عقيدة كريمة سمحة، وهداية نورانية مضيئة يستوي في ظلها الناس جميعاً سواء فيهم الأغنياء والعالة، أو السادة والعبيد، أو الكبراء والأرذال، وإنما أكرم الخلق على الله أتقاهم، حينئذٍ لاذت قريش بالافتراء على رسول الله ﷺ واصطناع الأقاويل المكذوبة عنه فرموه تارة بالسحر، وتارة بالكهانة، وثالثة بالجنون، وأخرى بأنه شاعر، ليصدوا الناس عنه وليثيروا من حوله الأباطيل والشبهات فلا يستمع إليه أحد، بل لينفروا منه الناس نفوراً، لكن النبي ﷺ صابر ثابت لا يعبأ بكل ما يتناوبه من ضروب الفتن والمعوقات والعراقيل. ومما يذكر في هذا الصدد أن النبي ﷺ مرّ بالمشركين عقب استلامه الركن فغمزوه ببعض القول، ثم مضى ﷺ فلما مرّ بهم الثانية غمزوه مثلها ثم الثالثة، فخاطبهم النبي ﷺ عقب ذلك فقال: «**أتسمعون يا معشر قريش؟ والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح**»، فكانوا كأنما على رؤوسهم الطير، ثم انصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، قال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم حتى إذا أتاكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ فقال ﷺ: «**أنا الذي أقول ذلك**»، فأخذ عقبة بن أبي معيط برداء رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر

الصديق دونه وهو يبكي ويقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، ثم انصرف عنه المشركون(١).

قصة الغرانيق:

وهذه فرية أخرى غليظة غفل عن حقيقتها كثير من كتّاب السيرة النبوية، وهم يزعمون في غفلة أنها واقعة من وقائع التنزيل أو حدث من أحداث السيرة المبرأة، السيرة الصادقة الزكية التي تنفي كل ظواهر التلبيس والتحريف والافتراء لتجيء سيرة سوية عطرة وهي تنقل للعالمين أخبار رسول العالمين في غاية الصدق واليقين.

وجماع المسألة في هذه القصة العجيبة المثيرة للسخط والارتياب، ما ذكره كثير من الرواة أن النبي ﷺ جلس يوماً مجلساً في ناد من الأندية حول الكعبة فقرأ على قريش من سورة النجم ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾ [النجم: الآية ١] حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ⑲ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ⑳﴾ [النجم: الآيتان ١٩ ـ ٢٠] ألقى الشيطان كلمتين على لسانه: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترجى، قال: فتكلم رسول الله ﷺ بهاتين الكلمتين، ثم مضى فقرأ السورة كلها وسجد وسجد القوم جميعاً!! ورواة القصة هذه يزعمون أن النبي ﷺ كان شديد التمني لإسلام قريش، وهو إنما يبتغي من إطراء أصنامهم تأليف قلوبهم ليكفوا عن إيذائه والتنكيل به وبالذين آمنوا معه.

سبحانك اللهم هذا بهتان كبير وافتراء على رسول الله ﷺ بما لا يصدر عنه، وهو النبي المبرّأ من كل الخطايا، المعصوم من عامة المعاصي والآثام.

ثم أنىّ للشيطان اللعين ذي الخنوس لدى ذكر الله، أن يجترىء على

---

(١) الطبقات ج١ ص١٥٩ ـ ١٦٢، والكامل لابن الأثير ج٢ ص٧٨، والسيرة النبوية للذهبي ص١١٠ ـ ١١٦.

الدنو من حضرة الرسول الأعظم الذي تحيط به العصمة فينجو من كل خؤون غادر متدسس؟!

ومن بدهيات المعرفة في هذا الدين الكريم أن المسلم إذا ذكر الله وحده واستعاذ بجلاله العظيم من كيد الإنس والجن، أدبرت من حوله الشياطين نافرة مذعورة، فكيف بالذاكر المستعيذ إن كان خير الأنام وهو سيد الثقلين وإمام العالمين في هذه الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين؟!

أنى للشيطان الخانس المتلصص، ذي الكيد الضعيف أن يجترىء على مداخلة الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يتلقى القرآن من لدن رب العالمين؟ إن الشيطان ذا الكيد الضعيف لهو أشد مهانة وهواناً من أن يدنو من رسول الله ﷺ لدى تلقيه القرآن من عظيم الملائكة الهائل المخوف جبريل!!

أنى للشياطين كافة أن تجرؤ على التداني من الحضرة النبوية المصونة وهي تلج حومة الرحمٰن النورانية وقد غشيها من جلال الوحي وهيبته ما يزعزع القلوب ويذهل الكون كله؟!

ومن جهة أخرى، فإن هذا الزعم لقصة الغرانيق، سيفضي بالضرورة إلى وقوع التناقض في هذه السورة، ومن الحقائق التي لا ريب فيها أن كتاب الله فذ ومعجز، وأنه في القمة السامقة من صدق القول والخبر وفي الذروة القصوى من كمال العبارة والمعنى، فهو بذلك مبرأ من كل ظاهرة من ظواهر التناقض.

وبيان التناقض هنا أن قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: الآيتان ١٩ ـ ٢٠] لا يتفق والمقولة المزعومة: تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترجى، فهذا الكلام المزعوم يتضمن إطراءً وتكريماً للأصنام. لكن مضمون الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم: الآية ١٩] ينطوي على تنديد بهذه الأصنام، وتفنيد لعبادتها.

فاللات والعزى ومناة أسماء لأصنام وهي من معبودات المشركين، والآية الكريمة هنا إنما تذكر هذه الأسماء على سبيل التهكم والتحقير أو

على سبيل الاستخفاف والتقريع، أما الغرانيق فقد ذكرها الزاعمون على سبيل الثناء والتعظيم، وذلكم تناقض لا سبيل له إلى القرآن.

ويضاف إلى ذلك ما ذكره بعض الحفاظ من العالمين بالسنة كالبيهقي من أن هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وقد ذكر في ذلك جرح الرواة لهذه القصة. وتلا محمد بن إسحاق صاحب السيرة: أن هذه القصة من وضع الزنادقة، وقال القاضي عياض: إن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند متصل[1].

إرسال قريش في طلب المهاجرين:

ساء قريشاً أن يطمئن المهاجرون في الحبشة ويأمنوا فيها على أنفسهم ودينهم وعبادتهم، وأن يكون النجاشي قد أحسن صحبتهم وأكرم وفادتهم، فتمالؤوا عليهم وائتمروا بينهم على أن يبعثوا عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي أمية أو عبدالله بن أبي ربيعة، ومعهما هدية إلى النجاشي وإلى أصحابه من القسيسين والبطارقة، فمضى الاثنان حتى بلغا الحبشة وسلما النجاشي هديته وكذا أصحابه، وقالا لهم: إن أناساً من سفهاء قومنا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دين الملك، وجاؤوا بدين مبتدَع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد أرسلنا أشراف قومنا إلى الملك ليردهم إليهم ونريد أن نكلم الملك في ذلك من أجل أن يرسلهم معنا، ثم حضرا عند النجاشي فأعلماه ما يبغيان فأشار أصحابه بتسليم المسلمين إليهما فغضب النجاشي من ذلك وقال: والله لا أسلم قوماً جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم وأسألهم عما يقول هذان، ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب النبي ﷺ فحضروا وقد أجمعوا فيما بينهم على أن يصدقوه الحديث فيما ساءه أو سره، واختاروا الصحابي العظيم جعفر بن أبي طالب ليتحدث عنهم إلى النجاشي، فقال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم قومكم من أجله؟ فقال جعفر: أيها الملك كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل

---

(١) السيرة النبوية ومعها تحقيق حسام الدين القدسي، وطبقات ابن سعد ج١ ص١٦٠.

الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا لتوحيد الله وأن لا نشرك به شيئاً ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وأمرنا بالصلاة والصيام، وذكر له غير ذلك من أمور الإسلام، فآمنا به وصدّقناه وحرّمنا ما حرّم علينا وحللنا ما أحلّ لنا، فتعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك، فسأله النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال: نعم، فقرأ عليه بعضاً من سورة مريم، فبكى النجاشي وأساقفته، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبداً.

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً بما يبيد خضراءهم، فلما كان الغد قال عمرو للنجاشي: إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، أو يقولون أنه عبد، فأرسل النجاشي إليهم فسألهم عن قولهم في المسيح، فقال جعفر: نقول فيه ما جاء به نبينا: هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال: ما عدا عيسى ما قلت هذا العود، فنخرت(١) بطارقته، فقال: وإن نخرتم، وقال للمسلمين: اذهبوا فأنتم آمنون ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأنني آذيت رجلاً منكم، ثم رد هدية قريش(٢).

الإحصار في شعب أبي طالب:

لما بلغ قريشاً ما قاله النجاشي لجعفر وأصحابه وما أتحفهم به من

(١) نخرت: من التنخير: وهو الصوت من الأنف، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٢٦٤.

(٢) السيرة النبوية للذهبي ص١١٨ وما بعدها، والكامل لابن الأثير ج٢ ص٧٩ ـ ٨١.

تكريم ورعاية زادهم غضباً، فأجمعوا على قتل رسول الله ﷺ، وكتبوا كتاباً على بني هاشم ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم، وكان الذي كتب الصحيفة منصور بن عكرمة العبدري فشُلّت يده، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب سنة سبع من بعثة الرسول ﷺ، وانحاز بنو المطلب ابن عبد مناف إلى أبي طالب في شعبه مع بني هاشم، ثم خرج أبو لهب إلى قريش فظاهرهم على بني هاشم وبني المطلب وقطعوا عنهم الميرة (الطعام) وكل عون، فبلغ منهم الجهد والبلاء كل مبلغ وسُمعت أصوات صبيانهم من وراء الشعب، فسرّ من قريش من سرّ، واستاء منهم من استاء، فأقام النبي ﷺ ومن معه في الشعب ثلاث سنين، ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور وظلم، ولم يبق فيها غير اسم الله! فسقط في أيدي القوم الظالمين ونكسوا على رؤوسهم، فقال أبو طالب: علام نحبس ونحصر وقد بان الأمر؟ ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة، فقال: اللهم انصرنا ممن ظلمنا وقطّع أرحامنا واستحل ما يحرم عليه منا، ثم انصرفوا إلى الشعب، وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم، فيهم: مطعم بن عدي، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري بن هاشم، وزهير بن أبي أمية، فقد لبس هؤلاء السلاح وخرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا، فلما رأت قريش ذلك سقط في أيديهم، وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة للبعثة[1].

إسلام حمزة بن عبدالمطلب:

مر أبو جهل عدو الله بالنبي ﷺ وهو جالس عند الصفا فآذاه وشتمه وعاب دينه ونال منه شر نيل، وكان لعبدالله بن جدعان مولاة إذ سمعت ذلك وهي في مسكن لها، ثم انصرف أبو جهل عن رسول الله ﷺ، حتى جلس في نادي قريش عند الكعبة، فما لبث حمزة أن عاد من قنص له وهو متوشح

(١) الطبقات لابن سعد ج١ ص١٦٤، وسيرة ابن هشام ج٢ ص١٤ ـ ٢٠.

قوسه، وكان صاحب قنص وكان من عادته إذا رجع من قنصه بدأ بالطواف بالكعبة، وكان أعزّ فتى في قريش وأشدهم شكيمة، فلما مر بالمولاة قالت له: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من ابن الحكم آنفاً لقد وجده ههنا جالساً فآذاه وسبّه ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد، فاستشاط حمزة غضباً مما سمع، وذلك لما أراد الله له من كرامة الإيمان، فخرج بسيفه مسرعاً صوب أبي جهل فلما رآه جالساً في القوم أقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع قوسه فضربه بها فشجه شجة منكرة وقال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول، فاردد علي إن استطعت، فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فوالله سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، وتم حمزة على إسلامه. فلما أسلم عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة رضي الله عنه سيمنعه، فكفوا عنه بعض الشيء.

ذلكم هو حمزة بن عبدالمطلب، الأسد الهصور، ذو البأس والشكيمة، المغوار الذي كتب الله له أن يلج في حومة الإسلام ليكون ظهيراً للمسلمين وليدفع بصولته وشدة بأسه سطوة المشركين المعتدين، ذلكم هو حمزة بن عبدالمطلب أسد الله وأسد رسوله، الهمّام الأشم الذي عزّ نظيره في الصناديد من الرجال(١). وذات يوم اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: ما سمعت قريش القرآن جهاراً، فمن رجل يقوم بإسماعهم إياه؟ فقال عبدالله بن مسعود: أنا، فقالوا: نخشى عليك، إنما نريد من له عشيرة يمنعون، قال: إن الله سيمنعني، فغدا عليهم في الضحى حتى أتى المقام وقريش في أنديتها ثم رفع صوته وقرأ سورة الرحمٰن، فلما علمت قريش أنه يقرأ القرآن قاموا إليه فضربوه وهو يقرأ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا وجهه من فرط إيذائهم له، فقال له المسلمون: هذا الذي خشيناه عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم اليوم ولئن شئتم لأغدون إليهم ثانية، قالوا: حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون(٢).

---

(١) السيرة النبوية للذهبي ص١٠١، والكامل لابن الأثير ج١ ص٨٣.

(٢) الكامل لابن الأثير ج٢ ص٨٤.

إسلام عمر بن الخطاب:

وهذا علم من أعلام الإسلام الأبرار وفذ من أفذاذه الأشاوس الميامين، ذلكم المفضال الأشم عمر الفاروق، جيء به للدنيا ليكون نبراساً للعالمين على مر الزمان وتقلب الأدهار فلا يضاهيه نابغ في النوابغ، ولا حكيم من الحكماء لما جبل عليه هذا الرجل العجيب من بالغ المواهب والقدرات النفسية والذهنية والروحية، حتى عزّ نظيره في بني البشر، أسلم هذا الرجل بعد نيف وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين امرأة، وكان ذلك بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة، إذ كان المسلمون وهم مستضعفون لا يقدرون أن يصلوا عند الكعبة خوفاً من إيذاء قريش، وظلوا على هذه الحال من الضعف والخوف حتى جاء الأوان المحتوم، والقدر الموعود الذي لا يتخلف إذ أسلم عمر بن الخطاب فبادر إلى مقاتلة قريش ليصلي بجانب الكعبة بالرغم من ظلمهم وعتوهم، فأذعنوا راغمين مطأطئين، وكان من قبله حمزة بن عبدالمطلب قد أسلم فقوي بهما المسلمون وازدادوا منعة واعتزازاً، بعد أن كانوا مستيئسين من إسلام عمر لشدة ما رأوه من غلظته عليهم وإيذائه لهم حتى قال فيه عامر بن ربيعة: لا يسلم عمر حتى يسلم حمار الخطاب.

وما يدري الإنسان الضعيف أن الله يحدث في كل آنٍ أمراً وأن القلوب بيد الرحمٰن يقلبها كيف يشاء، وأن الله بحكمته البالغة واقتداره الأكمل يهدي من يشاء فكان إسلام عمر.

أما سبب إسلامه فهو أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت زوجة لسعيد بن زيد بن عمرو العدوي، وكانا كلاهما مسلمين يخفيان إسلامهما مخافة أن يسطو بهما عمر، وكذلك كان نعيم بن عبدالله العدوي قد أسلم وقد أخفى إسلامه خوفاً من قومه أن يؤذوه، وكان خباب بن الأرت يجيء إلى فاطمة ليقرئها القرآن، فخرج عمر يوماً وهو متوشح سيفه يريد به النبي ﷺ والمسلمين فينال منهم شراً وهم مجتمعون إذ ذاك في دار الأرقم عند الصفا، فلقيه نعيم بن عبدالله فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد

محمداً الذي فرّق أمر قريش وعاب دينها فأقتله! فقال نعيم: والله لقد غرتك نفسك! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهلي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة فقد أسلما والله.

فرجع عمر إليهما وكان عندهما خباب بن الأرت، يقرئهما القرآن، فلما أحسوا بمقدم عمر اختبأ خباب وأخذت فاطمة الصحيفة فألقتها تحت فخذيها، وكان عمر قد سمع قراءة خباب فلما دخل قال: ما هذه الهيمة؟ قالا: ما سمعت شيئاً، قال: بلى، قد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً. فقال له ختنه: يا عمر إن كان الحق في غير دينك، فوثب عليه عمر وبطش به بطشاً شديداً، فجاءت أخته لتكفه عن زوجها فضربها فشجها شجاً، فصاحت أخته وهي غضبى: وإن كان الحق في غير دينك إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فاصنع ما شئت! ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم ورقّ قلبه، وذلكم هو ديدن الأعاظم الأكارم أولي المشاعر الفيّاضة والوجدان الرهيف، أولئك الذين تتبرأ طبائعهم وقلوبهم من الحقد واللؤم فهم أولو جبلات وضيئة نواصع لا تنطوي إلا على خصائل شفيفة شتى من الرحمة والبر والرهافة والتحنان.

وهنا لما سكت عن عمر الغضب وهجعت فيه سورة الانفعال، قال لختنه وزوجه في رأفة وندم وتواضع: أعطوني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون فيها الآن حتى أنظر إلى ما جاء به محمد، فقالت أخته: إنك رجس (نجس) وإنه لا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل، فلما اغتسل أعطته الصحيفة وقرأها وكان فيها: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه: الآيات ١-٣] حتى انتهى إلى ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: الآية ١٤]، فقال عمر: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع خباب ذلك خرج إليه وقال: يا عمر إني والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: **«اللهم أيد الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي الحكم بن هشام»** فالله الله يا عمر! فقال عمر عند ذلك: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه

فأسلم، فدلّه خباب فأخذ سيفه وجاء إلى النبي ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فقام رجل منهم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً سيفه فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال حمزة: ائذن له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له وإن أراد شراً قتلناه بسيفه.

فأذن له، فأتاه النبي ﷺ فأخذه بمجامع ثوبه ثم جذبه جذبة شديدة وقال: **«ما جاء بك؟ ما أراك تنتهي حتى ينزل الله عليك قارعة»** أو قال: **«حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة، اللهم أعزّ الإسلام بعمر»** فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبد الله ورسوله.

فقام جميل بن معمر الجمحي وصرخ: يا معشر قريش، ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، فقال عمر من خلفه: كذب ولكني أسلمت، فثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم وأعيا (تعب) فقعد وهم على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم.

وبينما هم كذلك إذ أقبل شيخ عليه حلة وهو العاص بن وائل السهمي فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، قال: فمه! رجل اختار لنفسه أمراً، فماذا تريدون! أترون بني كعب بن عدي يسلمونه خلوا عنه!

قال عمر رضي الله عنه: لما أسلمت أتيت باب أبي جهل بن هشام فضربت عليه بابه فخرج إلي وقال: مرحباً بابن أخي! ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أني قد أسلمت وآمنت بمحمد ﷺ وصدقت ما جاء به، قال: فضرب الباب في وجهي وقال: قبّحك الله وقبّح ما جئت به[1]!

ذلكم هو عمر بن الخطاب ذو البصيرة الوضيئة الثاقبة، والقلب الناهض النابض الرؤوم، بادر للإيمان بدين الحق بعد أن استيقن بفطرته السليمة عقيدة التوحيد فدخل الإسلام جهرة وفي صراحة أيما صراحة، لم يثنه عن ذلك ضعف ولا مهابة ولا خور، وكان الباعث لمثل هذه النقلة الهائلة عبر رحيل عجيب مذهل من دار الجاهلية بإدارتها وأوضارها وآفاتها إلى دار الإسلام

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٢ ص٨٤ ـ ٨٧، والسيرة النبوية للذهبي ص١٠٢ ـ ١٠٩.

حيث التوحيد الخالص لله دون سواه من آلهة مفتراة وأنداد مصطنعة، وحيث البر والرحمة والإخاء والمساواة والخير بكل صوره وضروبه ومعانيه. لقد كان الباعث لذلك كله الكلام الرباني المعجز الذي أثار في عمر كوامن الدهش والانذهال وهو يتلو شطراً من سورة: ﴿طه ۝١﴾ [طه: الآية ١] هذه السورة المثيرة المذهلة حقاً بما يتجلى فيها من بليغ المعاني وروعة الإيقاع، وهو يمس برنينه الباهر شغاف القلب والوجدان، ويستجيش في أعماق الروح فيضاً من الحنين الدافق والاسترواح المتأجج.

ذلكم هو القرآن الحكيم الفذ الذي يصنع الأعاجيب من الرجال والمجتمعات، لأنه كلام الله المعجز المتميز.

إيذاء المشركين للرسول ﷺ:

لقي النبي ﷺ والذين آمنوا معه ألواناً من الأذية والتنكيل أنزلها بهم المشركون الظالمون، وهم يؤزهم لأفاعيلهم الإجرامية إحساس لئيم بالحسد والتغيظ والتعصب للوثنية العمياء، والمشركون في ذلك أولو مراس شديد مما أذاق المؤمنين سوء الفعال والتعذيب.

وهذه جملة من الأخبار عما اقترفه المشركون والطغاة في حق النبي الكريم والذين آمنوا معه نعرض لها في هذا التفصيل:

فهذا الخصيم اللئيم الجاحد، عقبة بن أبي معيط، إذ أقبل والنبي ﷺ يصلي عند الكعبة، فلوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه فدفعه عن رسول الله ﷺ ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: الآية ٢٨].

وقيل: كان رسول الله ﷺ ساجداً وحوله ناس من قريش، وثمة سلى بعير، فقالوا: من يأخذ سلى هذا الجزور فيقذفه على ظهره، فجاء عقبة بن أبي معيط فقذفه على ظهر النبي ﷺ، وجاءت فاطمة فنزعته عن ظهره ودعت على من صنع ذلك.

قال عبدالله بن عمر فما رأيت رسول الله ﷺ دعا عليهم إلا يومئذ

فقال: «**اللهم عليك الملأ من قريش اللهم عليك أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشعبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف**» فقال عبدالله: لقد رأيتهم قُتلوا يوم بدر وأُلقوا في القليب (البئر)، غير أن أمية كان رجلاً بادناً فتقطع قبل أن يبلغ به البئر.

وهذا الحقود اللدود أبو لهب، عبدالعزى بن عبدالمطلب الذي كان شديد العداوة للنبي ﷺ والمسلمين، وكان دائم الأذى إذ كان يطرح العذرة والنتن على باب النبي ﷺ وكان جاره، فكان رسول الله ﷺ يقول: «**أي جوار هذا يا بني عبدالمطلب**»، فرآه يوماً حمزة فأخذ العذرة وطرحها على رأس أبي لهب، فجعل ينفضها عن رأسه وهو يقول: صاحبي أحمق، ومات أبو لهب بمكة عقب وصول الخبر بانهزام المشركين ببدر.

وهذا الشقي العنيد الذي استيقنت نفسه روعة القرآن، وأنه حق ويقين لكن عتا وأبى واستكبر، وهو الوليد بن المغيرة المخزومي وكان يكنى أبا عبد شمس، فقد جمع قريشاً وقال: إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه، فيقول: هذا ساحر، ويقول: هذا كاهن، ويقول: هذا شاعر، ويقول: هذا مجنون، وليس يشبه واحداً مما يقولون، ولكن أصلح ما قيل فيه ساحر، لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته، ومات عقب الهجرة بعد ثلاثة أشهر وهو ابن خمس وتسعين سنة ودفن بالحجون.

روي عن عبدالله بن عمر قال: إن أول من أظهر إسلامه سبعة، وهم: رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وأوقفوهم في الشمس، فما من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا غير بلال الحبشي الذي هانت عليه نفسه في سبيل الله، وهان على قومه فأعطوه الولدان وجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول أحد أحد.

وعن جابر أن رسول الله ﷺ مر بعمار وأهله وهم يعذبون فقال

النبي ﷺ: «أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»، وقد كان أول شهيد في الإسلام أم عمار بن ياسر وهي سمية وقد طعنها أبو جهل بحربة في قُبُلها.

وهذا النضر بن الحارث، كان أشد قريش في تكذيب الرسول ﷺ والأذى له ولأصحابه، وقد كان ينظر في كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى، وقد سمع منه بذكر الرسول محمد ﷺ وقرب مبعثه، فقال: إن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٩]، وكان النضر يقول: إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين، وقد أسره المسلمون يوم بدر وأمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه، فقتله علي بن أبي طالب.

وهذا العدو الألد والخصيم الأشد، عمرو بن هشام المخزومي، أبو جهل، وكنيته أبو الحكم، كان أنكى المشركين أذى للنبي وأصحابه وهو الذي طعن سمية أم عمار فقتلها، وقد قتل يوم بدر إذ أصابه ابنا عفراء وأجهز عليه عبدالله بن مسعود.

وهذا الكنود المستسخر، العاص بن وائل السهمي والد عمرو بن العاص، إذ كان من المستهزئين الذين يلمزون النبي ﷺ، وهو الذي قال عقب موت القاسم ابن النبي ﷺ: إن محمداً أبتر لا يعيش له ولد ذكر، فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: الآية ٣] فركب حماراً له، فلما كان بشعب من شعاب مكة ربض به حماره فلدغ في رجله فانتفخت حتى صارت كعنق البعير، فمات منها عقب هجرة النبي ﷺ، وهو ابن خمس وثمانين سنة.

وروي عن خباب قوله: أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد برده في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة شديدة فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: **«إنه كان من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا**

يخاف إلا الله»، وفي رواية **«والذئب على غنمه»**[1].

وغير هؤلاء كثير ممن آذوا رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه من المستضعفين، وهذه سنة الله في البشرية التي تجتمع فيها أصناف مختلفة من الطبائع والأذهان والأهواء، وكثيرون هم الذين آثروا الشهوات والباطل على الحق والفضيلة وعقيدة التوحيد، فانفتلوا عن منهج الله حيث السداد والعدل والمساواة إلى حيث الشرك والباطل وما يتمخض عنه ذلك من الشرور والآفات والمفاسد.

أما الحقيقة المستبينة أن النصر يكتبه لعباده المؤمنين الصابرين الثابتين على الحق في كل الأحوال وبالرغم من كل الشدائد والأهوال، التي تحيق بالثابتين على دين الله والذين يدعون إلى الله في ثقة واصطبار ويقين مهما ادلهمت الخطوب والشدائد والعراقيل.

وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها:

توفي أبو طالب عن بضع وثمانين سنة، وتوفيت خديجة من قبله بخمس وثلاثين يوماً أو أكثر، لقد توفيا كلاهما عقب الخروج من الشعب وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، وبوفاتهما عظمت المصيبة على رسول الله ﷺ، وقال النبي ﷺ في ذلك: **«ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»**، فقد اجترأ المشركون على النيل من النبي ﷺ إذ نثر بعضهم التراب على رأسه، حتى أن بعضهم قد طرح عليه رحم الشاة، وهو يصلي فيضع النبي ﷺ ذلك على العود وهو يخرج إليهم ليقول: **«أي جوار هذا يا بني عبد مناف»** ثم يلقيه بالطريق.

وكان في شأن أبي طالب أنه لما حضرته الوفاة وكان على فراش الموت، جاءه النبي ﷺ فوجد عنده عبدالله بن أبي أمية وأبا جهل عمرو بن هشام، فقال النبي ﷺ: **«يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها**

---

(١) السيرة النبوية للذهبي ص١٣٥ ـ ١٣٩، والكامل لابن الأثير ج٢ ص٧٠ ـ ٧٦.

عند الله»، فقال أبو جهل لأبي طالب: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فكان آخر كلمة تكلّم بها أبو طالب هي: أنا على ملة عبدالمطلب. ثم ما لبث أن مات، فقال النبي ﷺ في شأنه: «لأستغفرن لك ما لم أُنهَ»، فاستغفر له الرسول ﷺ عقب موته فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: الآية ١١٣].

وذكر أن أبا طالب دعا بني عبدالمطلب وقال لهم: لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم أمره فاتبعوه وأعينوه ترشدوا. فقال رسول الله ﷺ: «أتأمرهم بها وتدعها لنفسك؟» فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: الآية ٥٦] وذلك في أبي طالب، وقيل: نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: الآية ٢٦]. أي: أن أبا طالب كان ينهى عن إيذاء رسول الله ﷺ وهو في نفس الوقت ينأى أن يدخل في الإسلام.

وروي عن علي رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: إن عمك الشيخ الضال قد مات - يريد بذلك أباه أبا طالب - فقال له النبي ﷺ: «اذهب فواره ولا تحدثني شيئاً حتى تأتيني»، فأتيته فقلت له، فأمرني فاغتسلت ثم دعا لي بدعوات ما يسرني ما عرض بهن من شيء.

وسأل العباس بن عبدالمطلب رسول الله ﷺ بقوله: يا رسول الله هل نفعت أبا طالب من شيء؟ فإنه قد كان يحوطك ويغضب لك، قال: «نعم وهو في ضحضاح[1] من النار ولولا ذلك لكان في الدرك الأسفل من النار».

لقد كان أبو طالب يتصدى لقريش إذا ما أرادوا أن يتعرضوا لرسول الله ﷺ بأذى، فيردهم رداً ويحول بينه وبين شرهم وأذاهم، فما زالوا كذلك حتى مات أبو طالب في السنة العاشرة من بعثة النبي ﷺ.

---

(١) ضحضاح: الماء اليسير، أو الذي يبلغ الكعبين، انظر: القاموس المحيط ج١ ص٢٤٥.

أما خديجة التي توفيت قبل أبي طالب ببضع وثلاثين يوماً، فهي بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي الأسدية، وكانت تدعى في الجاهلية الطاهرة، وكانت قبل زواجها من النبي ﷺ زوجة لأبي هالة التميمي، ثم عقب موته تزوجها عتيق بن عائذ المخزومي ثم النبي ﷺ، إذ تزوجها ولها أربعون سنة وأقامت معه أربعاً وعشرين سنة.

ما ورد في فضل خديجة رضي الله عنها:

وعاشت خديجة خمساً وستين سنة ودُفنت بالحجون، وكانت رضي الله عنها وزيرة صدق على الإسلام إذ كان النبي ﷺ يسكن إليها فيجد فيها الصاحبة الحانية الودود، الصاحبة المفضلة الرؤوم التي عزّ نظيرها في فضليات النساء، قالت عائشة في هذا الصدد: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكد يسأم من ثناء عليها واستغفار لها فذكرها يوماً، فاحتملتني الغيرة فقلت: لقد عوّضك الله من كبيرة السن، فرأيته غضب غضباً أسقطت في خلدي وقلت في نفسي: اللهم إنك إن أذهبت غضب رسول الله عني لم أعد إلى ذكرها بسوء، فلما رأى النبي ﷺ ما لقيت قال: **«كيف قلت، والله لقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وآوتني إذ رفضني الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، ورُزقت منها الولد»**، قالت عائشة: فغدا وراح علي بها شهراً.

وعن عائشة قالت: ما غُرت على امرأة ما غُرت على خديجة مما كنت أسمع من ذكر رسول الله ﷺ لها، وما تزوجني إلا بعد موتها بثلاث سنين، ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب[1] لا صخب فيه ولا نصب، متفق عليه.

وتوفيت خديجة قبل أن تُفرض الصلاة، وروي عن أبي هريرة قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: هذه خديجة أتتك معها إناء فيه إدام طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في

(١) المراد بالقصب هنا: اللؤلؤ.

الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، متفق عليه.

وروي عن علي رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«خير نسائها خديجة بنت خويلد، وخير نسائها مريم بنت عمران»**، رواه مسلم[1].

خروجه إلى الطائف لدعوة ثقيف:

وعقب وفاة أبي طالب اشتد الأمر على رسول الله ﷺ، وزاد اجتراء قريش على إيذائه بمختلف ضروب الأذى والإساءة، فخرج النبي ﷺ ومعه زيد بن حارثة إلى ثقيف يلتمس منهم النصر وأملاً في دخولهم الإسلام، لكنهم كانوا أشراً من قريش وأشد منهم عداوة للإسلام ونبيه ﷺ.

لقد كانت ثقيف مثلاً في الفظاظة والجحود بذت فيهما من كان قبلها من المشركين، ويكشف عن ذلك ما قوبل به النبي ﷺ من فرط السخرية والأذى والشر، وكل وجوه العدوان والسوء في الطائف.

ولما يئس النبي ﷺ من خير ثقيف قال لهم: **«إذا أبيتم فاكتموا علي ذلك»**، وقد كره أن يبلغ قومه رد ثقيف، فلم يفعلوا بل أغروا به سفهاءهم فآذوه إيذاءً شديداً وألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة وشيبة ابني ربيعة، ثم جلس إلى ظل نخلة ثم دعا دعاءه المؤثر وهو يشكو إلى الله همه وحزنه مما لقيه من ثقيف من سوء الصد وفظاعة النكر والجحد: **«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، اللهم يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملّكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع، إني أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك أو تحل بي سخطك»**.

ولما رأى ابنا ربيعة ما حاق بالنبي ﷺ من أذى وحزن، تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً اسمه عداس فقالا له: خذ قطفاً من هذا

---

(١) السيرة النبوية للذهبي ص١٤٧ ـ ١٥٣، والكامل لابن الأثير ج٢ ص٩٠.

العنب واذهب به إلى ذلك الرجل ففعل، فلما وضع عداس قطف العنب بين يدي رسول الله ﷺ وضع يده فيها وقال: «باسم الله» ثم أكل، فقال عداس: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له النبي ﷺ: **«من أي بلاد أنت وما دينك؟»** قال: أنا نصراني من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: **«أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟»**، قال له: وما يدريك ما يونس؟ قال رسول الله ﷺ: **«ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي»**، فأكب عداس على يدي رسول الله ﷺ ورجليه يقبلها ثم عاد.

فقال ابنا ربيعة أحدهم للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا له: ويحك ما لك تقبل يديه ورجليه؟ قال: ما في الأرض خير من هذا الرجل. قالا: ويحك إن دينك خير من دينه[1].

خبر الإسراء والمعراج:

هذا الحدث العظيم الجلل كان قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنوات، وقيل: سنة، فقد كان النبي ﷺ نائماً في بيت أم هانىء بنت أبي طالب، وقيل: كان نائماً في المسجد.

فقال النبي ﷺ يقص خبر إسرائه إلى بيت المقدس في فلسطين ثم عروجه إلى السماوات العلا إذ رأى في رحلته الفذة هذه كبريات من العجائب وجليل المشاهد: **«أخرجني جبريل من المسجد وإذا أنا بدابة وهي البراق، وهي فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب، فلما وضعت يدي عليه تشامس[2] واستصعب فقال جبريل: يا براق ما ركبك نبي أكرم على الله من محمد، فانصبّ عرقاً وانخفض لي حتى ركبته وسار بي جبريل نحو المسجد الأقصى، فأُتيت بإناءين أحدهما لبن والآخر خمر، فقيل لي: اختر أحدهما، فأخذت اللبن فشربته، فقيل لي: أصبت الفطرة، أما إنك لو شربت الخمر لغوت أمتك بعدك، ثم سرنا فقال لي: انزل فصلِّ، فنزلت**

---

(١) الكامل لابن الأثير ص٩٢، ٩٣.

(٢) تشامس: استعصى على راكبه فهو شموس، انظر: المصباح المنير ج١ ص٣٤٦.

فصليت، فقال: هذا طور سيناء حيث كلم الله موسى، ثم سرنا فقال: انزل فصلِّ، فنزلت فصليت فقال: هذا بيت لحم حيث ولد عيسى، ثم سرنا حتى أتينا بيت المقدس، فلما انتهينا إلى باب المسجد أنزلني جبريل وربط البراق بالحلقة التي كان يربط بها الأنبياء، فلما دخلت المسجد إذا أنا بالأنبياء حواليّ، فسلّموا علي فقلت: يا جبريل مَن هؤلاء؟ قال: إخوانك من الأنبياء، وزعمت قريش أن للّه شريكاً وزعمت النصارى أن للّه ولداً، سل هؤلاء النبيين هل كان للّه عز وجل شريك أو ولد، فذلك قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: الآية ٤٥] فأقروا بالوحدانية للّه عز وجل، ثم جمعهم جبريل وقوّمني فصليت بهم ركعتين.

ثم انطلق بي جبريل إلى الصخرة فصعدني عليها فإذا معراج إلى السماء، منه تعرج الملائكة، فاحتملني جبريل ووضعني على جناحه وصعد بي إلى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء، ففتح فدخلنا فإذا أنا برجل تام الخلقة عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، فإذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك وإذا نظر إلى الباب الذي عن يساره بكى، فقلت: مَن هذا؟ وما هذان البابان؟ فقال: هذا أبوك آدم والباب الذي عن يمينه باب الجنة، فإذا نظر إلى من يدخلها من ذريته ضحك، والباب الذي عن يساره باب جهنم، إذا نظر إلى من يدخلها من ذريته بكى وحزن.

ثم صعد بي إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم، قيل: حياه الله، مرحباً به ونعم المجيء جاء ففتح لنا، فدخلنا فإذا بشابين، فقلت: يا جبريل من هذان؟ فقال: عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم، قيل:

مرحباً به ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا أنا برجل قد فضل الناس بالحسن، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف.

ثم صعد بي إلى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا أنا برجل، قلت: من هذا؟ قال: إدريس رفعه الله مكاناً علياً.

ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا رجل جالس وحوله قوم يقصّ عليهم، قلت: من هذا؟ قال: هذا هارون والذين حوله بنو إسرائيل.

ثم صعد بي إلى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء! فدخلنا فإذا أنا برجل جالس فجاوزناه فبكى الرجل، فقلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا موسى، قلت: فما باله يبكي؟ قال: يزعم بنو إسرائيل أني أكرم على الله من آدم، وهذا الرجل من بني آدم قد خلّفني وراءه.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ونعم المجيء جاء! فدخلنا، فإذا رجل أشمط جالس على كرسي على باب الجنة وحوله قوم بيض الوجوه أمثال القراطيس وقوم في ألوانهم شيء، فقام الذين في ألوانهم شيء فاغتسلوا في نهر وخرجوا وقد صارت وجوههم مثل وجوه أصحابهم، فقلت: من هذا؟ قال: أبوك إبراهيم وهؤلاء البيض الوجوه قوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأما الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتابوا فتاب الله عليهم، وإذا إبراهيم مستند إلى بيت فقال: هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً

من الملائكة لا يعودون إليه، قال: وأخذني جبريل فانتهينا إلى سدرة المنتهى.

فلم أزل كذلك حتى وصلت إلى العرش فاتّضع كل شيء عند العرش وكلّ لساني من هيبة الرحمٰن، ثم أنطق الله لساني فقلت: التحيات المباركات والصلوات الطيبات لله، وفرض الله عليّ وعلى أمتي في كل يوم وليلة خمسين صلاة، ثم أخرجني فانحدرنا حتى أتينا موسى، فقال: ماذا فرض عليك وعلى أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: فإني قد بلوت بني إسرائيل قبلك وعالجتهم أشد المعالجة على أقل من هذا فلم يفعلوا، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فرجعت إلى ربي وسألته فخفف عني عشراً، فرجعت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع واسأله التخفيف، فرجعت فخفف عني عشراً، فلم أزل بين ربي وموسى حتى جعلها خمسة، فقال: ارجع فاسأله التخفيف، فقلت: إني قد استحييت من ربي، وما أنا براجع، فنوديت: إني قد فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، والخمس بخمسين. وقد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي.

ثم انحدرت أنا وجبريل إلى مضجعي، وكان كل ذلك في ليلة واحدة».

ولما رجع النبي ﷺ إلى مكة من ليلته المباركة تلك علم أن الناس لا يصدقونه في هذا الخبر، فقعد في المسجد مغموماً، فمرّ به أبو جهل فقال له كالمستهزىء: هل استفدت الليلة شيئاً؟ قال: **«نعم أسري بي الليلة إلى بيت المقدس»**، فقال أبو جهل: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ فقال: **«نعم»** فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا فأقبلوا، فحدثهم النبي ﷺ بخبر الإسراء والمعراج، فاختلف الناس من حوله، ما بين مصدق ومكذب ومصفق وواضع يده على رأسه حتى ارتد بعض من كان آمن بالنبي ﷺ، وذهب بعض رجال من المشركين إلى أبي بكر ليخبروا الأمر طمعاً في تنفيره من الإسلام فقالوا: إن صاحبك يزعم كذا وكذا، فقال أبو بكر كلمته الراسخة المثلى يحدوه في ذلك الثقة المطلقة وصدق اليقين:

إن كان قال ذلك فقد صدق إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، ومن حينئذٍ سمي أبو بكر «الصديق».

ثم قال المشركون للرسول ﷺ: انعت لنا المسجد الأقصى، قال النبي ﷺ: **«فذهبت أنعت حتى التبس علي، فجيء بالمسجد وإني أنظر إليه فجعلت أنعته»**، قالوا: فأخبرنا عن عيرنا، قال: **«قد مررت على عير بني فلان بالروحاء وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه، ومررت بعير بني فلان فرأيت راكباً وقعوداً بذي مرّ فنفر بكرهما مني فسقط فلان فانكسرت يده فسلوهما، ومررت بعيركم بالتنعيم يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم طلوع الشمس»**.

فخرج المشركون إلى الثنية فجلسوا ينظرون طلوع الشمس ليكذبوه، فقال قائل: هذه الشمس قد طلعت، وقال آخر: والله هذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورق كما قال[1].

لكنهم بالرغم من كل ما رأوه من صادق الدلائل والبينات، انتكسوا خاسرين وتولوا مدبرين وقالوا: إن هذا سحر مبين.

الاختلاف في أول من أسلم:

اتفقت كلمة العلماء على أن خديجة بنت خويلد زوج الرسول ﷺ أول خلق الله إسلاماً.

أما في الذكور فقد قيل: إن أول من أسلم فيهم علي بن أبي طالب، وقد قال رضي الله عنه عن نفسه: صليت مع رسول الله ﷺ قبل الناس بسبع سنين.

وقال ابن عباس: أول من صلى علي، فهو بذلك أول المسلمين مع الرسول ﷺ لم يسبقه إلى ذلك أحد في الرجال، وقال بذلك جابر بن عبدالله وزيد بن أرقم وغيرهما من أئمة المسلمين وعلمائهم، وقيل: كان

(١) الكامل لابن الأثير ج٢ ص٥١ ـ ٥٧، وسيرة ابن هشام ج٢ ص٣٦ ـ ٥٠.

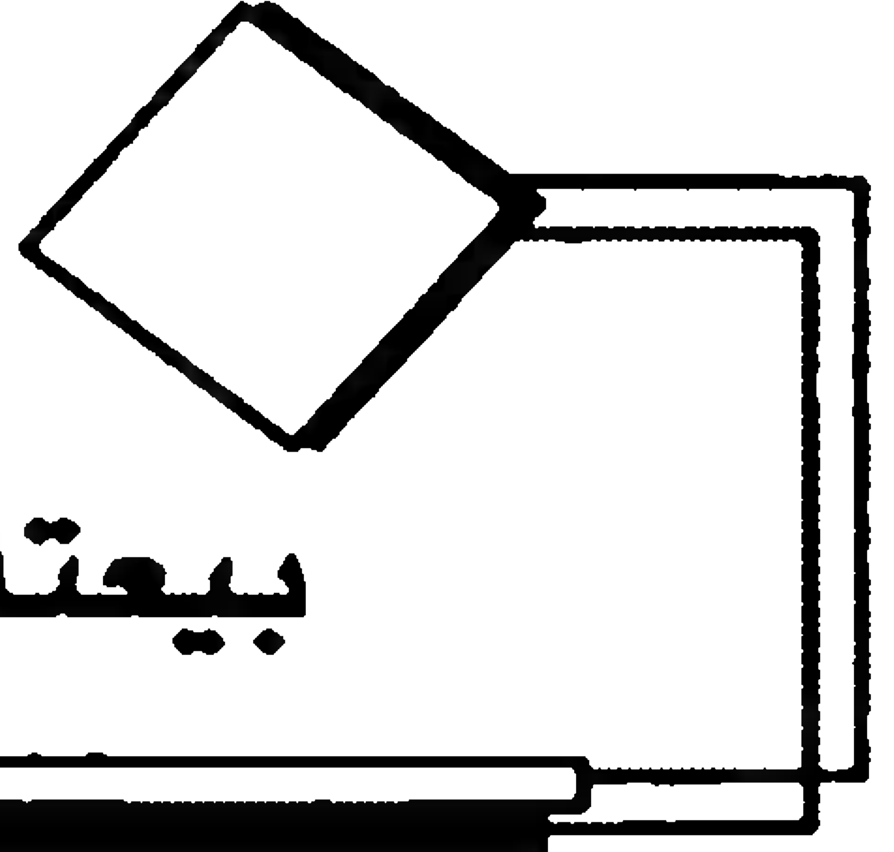
عمره لدى إسلامه تسع سنين، وقيل: إحدى عشرة سنة.

وقد كان النبي ﷺ إذا أراد الصلاة انطلق هو وعلي إلى بعض الشعاب بمكة فيصليان ويعودان، فوجدهما أبو طالب فقال: يا ابن أخي ما هذا الدين؟ قال: «**دين الله وملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله تعالى به إلى العباد وأنت أحق من دعوته إلى الهدى وأحق من أجابني**» قال: لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي، ولكن والله لا تخلص قريش إليك بشيء تكرهه ما حييت.

وقيل: أول من أسلم أبو بكر رضي الله عنه وهي رواية عن ابن عباس، وقد كان أبو ذر يقول: رأيتني ربع (رابع) للإسلام لم يسلم قبلي إلا النبي وأبو بكر وبلال، وقيل: أول من أسلم بعد النبي ﷺ: علي وزيد بن حارثة ثم أسلم أبو بكر وأظهر إسلامه وكان رضي الله عنه محبَّباً في قومه وكان تاجراً يجتمع إليه الناس لتمام صدقه وبره فجعل يدعو من يثق به من الناس حتى أسلم على يديه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبدالرحمٰن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيدالله. فجاء بهم أبو بكر إلى النبي ﷺ فأسلموا وصلوا، وكان هؤلاء هم الذين سبقوا إلى الإسلام. ثم تتابع الناس في الإسلام حتى فشا دين الله في مكة[1].



(١) الكامل لابن الأثير ج٢ ص٥٧ ـ ٥٩.



الفصل الرابع

بيعتا العقبة الأولى والثانية

بيعة العقبة الأولى:

دعا النبي ﷺ الناس إلى الإسلام مستخفياً بمكة ثلاث سنين من أول نبوته، ثم أعلن في الرابعة جهاراً، فدعا الناس إلى دين الله عشر سنين، فقد كان يوافي المواسم كل عام فيتبع الحاج في منازلهم في المواسم مثل عكاظ ومجنة وذي المجاز، فلا يجد أحداً ينصره أو يستجيب لدعائه.

ولما أراد الله إظهار دينه خرج النبي ﷺ في الموسم إذ لقي فيه نفراً من الأنصار فعرض نفسه على القبائل، فلقي عند العقبة رهطاً من الخزرج فدعاهم إلى الإسلام وقد كانت يهود معهم في بلادهم، وكان اليهود ينذرونهم مخوفين فيقولون لهم: إن نبياً يبعث الآن نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وثمود، فقال النفر من الأنصار بعضهم لبعض: هذا والله النبي الذي توعّدكم به اليهود، فآمنوا به وصدقوه وقالوا له: إن بين قومنا شراً عسى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك فليس من رجل بعد ذلك أعز منك، ثم انصرفوا عنه وكانوا سبعة نفر من الخزرج، ولما قدموا المدينة ذكروا لهم النبي ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، حتى إذا كان العام القادم قدم من الأنصار إلى الموسم اثنا عشر رجلاً فلقيهم النبي ﷺ بالعقبة وهي العقبة الأولى، فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي

ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف، ثم انصرفوا إلى المدينة فأظهر الله الإسلام، وكتبت الأوس والخزرج إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا مقرئاً يقرئنا القرآن، فبعث إليهم مصعب بن عمير فنزل على أسعد بن زرارة فكان يقرئهم القرآن، فسمع به سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما سيدا بني عبدالأشهل وكلاهما مشرك، فقال سعد بن معاذ لأسيد: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارنا فانهاهما، فإنه لولا سعد بن زرارة وهو ابن خالتي، لكفيتك ذلك، فأخذ أسيد حربته ثم أقبل عليهما، فقال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلا عنا، فقال مصعب: أوَ تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كفّ عنك ما تكره، فقال أسيد: أنصفت، ثم جلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام، فقال: ما أحسن هذا وما أجله! كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل وتطهر ثيابك ثم تشهد شهادة الحمد ثم تصلي ركعتين، ففعل أسيد ذلك وأسلم، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنكما أحد من قومه وسأرسله إليكما وهو سعد بن معاذ.

ثم انصرف أسيد إلى سعد وقومه فلما نظر إليه سعد قال: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، حتى إذا سمع سعد بن معاذ ما يقوله مصعب عن الإسلام حيث التوحيد والعدل والإخاء والفضيلة وسمع منه القرآن، عاد إلى قومه ومعه أسيد بن حضير وقال لهم: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا، فقال: كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى في دار عبد الأشهل بعد ذلك رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، ثم رجع مصعب إلى منزل أسعد بن زرارة ولم يزل يدعو إلى الإسلام حتى لم يبقَ من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات[1].

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٢ ص٩٥ ـ ٩٨، وطبقات ابن سعد ج١ ص١٧٠، ١٧١.

بيعة العقبة الثانية:

عقب انتشار الإسلام في المدينة، اتفق جماعة من الأنصار على المسير إلى النبي ﷺ مستخفين من الناس فلا يشعر بهم أحد، فساروا إلى مكة في الموسم في ذي الحجة مع كفار قومهم، فلما كان الليل خرجوا بعد مضي ثلثه وهم مستخفون متسللون حتى اجتمعوا بالعقبة وكانوا سبعين رجلاً ومعهم امرأتان وهما نسيبة بنت كعب أم عمارة، وأسماء أم عمرو من بني سلمة، وقد جاءهم نبي الله ﷺ ومعه العباس بن عبدالمطلب قبل إسلامه إذ أحب أن يتوثق لابن أخيه، فتكلم العباس وقال: يا معشر الخزرج ـ والمراد الخزرج والأوس ـ إن محمداً منا حيث تعلمون في عز ومنعة وقد أبى إلا الانقطاع إليكم فإن كنتم ترون أنكم موفون له ومانعوه فأنتم وذلك، وإن كنتم ترون أنكم غير مانعيه وأنكم مسلموه فالآن دعوه فهو في عز ومنعة.

ثم تكلّم رسول الله ﷺ وتلا عليهم القرآن ورغّبهم في الإسلام ثم قال: **«تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»**، ثم أخذ البراء بن معرور بيد النبي ﷺ وقال: والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا[١]. فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب.

ثم تكلم أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: **«بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنتم مني وأنا منكم، أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم»** ثم قال رسول الله ﷺ: **«أخرجوا إلي اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم»** فأخرجوهم، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وكان أول من بايع النبي ﷺ أبو أمامة أسعد بن زرارة، وقيل: أبو الهيثم بن التيهان، وقيل: البراء بن معرور، ثم تتابع القوم

---

(١) أزر: جمع، ومفرده إزار، ويكنى بالإزار عن المرأة، انظر: مختار الصحاح للرازي ص١٥.

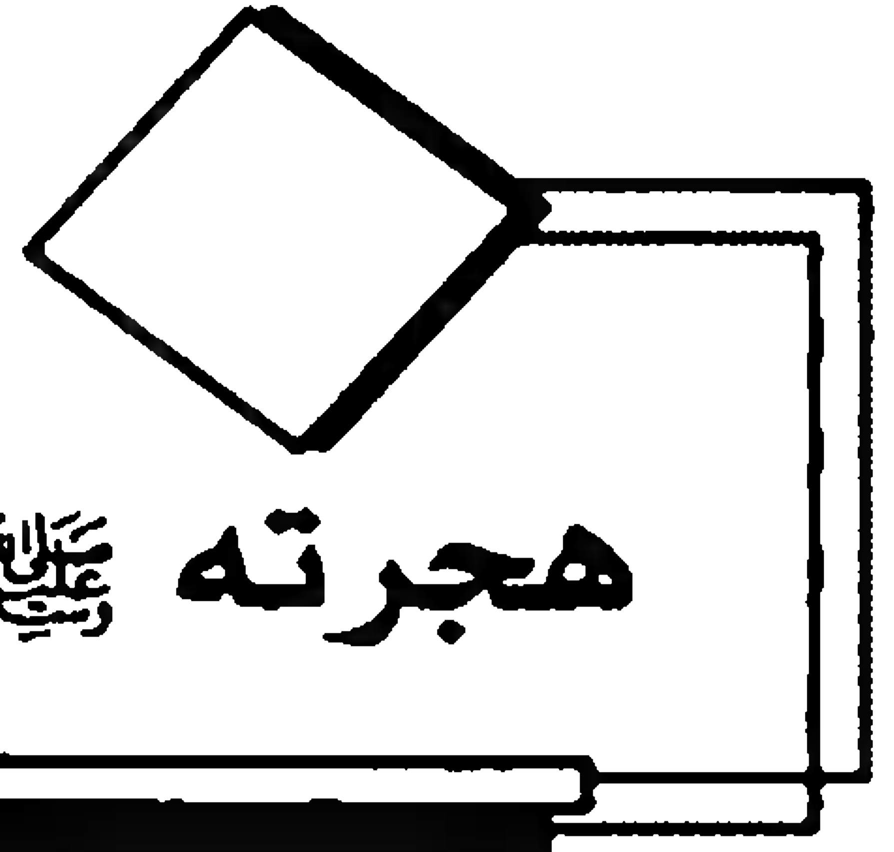
فبايعوا النبي ﷺ، وعقب مبايعته اغتاظ الشيطان فهاج صارخاً من رأس العقبة: يا أهل الجباجب (البيوت) هل لكم في محمد والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**انفضوا إلى رحالكم**»، فقال له العباس بن عبادة: والذي بعثك بالحق نبياً لئن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا، فقال النبي ﷺ: «**إنا لم نؤمر بذلك فانفضوا إلى رحالكم**» فرجعوا إلى رحالهم.

أما قريش فلما بلغهم إسلام من أسلم من الأنصار اشتدوا في إيذائهم لمن أسلم بمكة وجهدوا أن يفتنوهم عن دينهم، فأصاب المسلمين بذلك بلاء كبير وهذه هي الفتنة الثانية أما الأولى فكانت قبل هجرتهم إلى الحبشة.

وعقب ذلك كله أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فتتابعوا في الهجرة فكان أول من هاجر أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم عقبه عامر بن ربيعة مع امرأته ليلى، ثم عبدالله بن جحش، ثم هاجر عمر بن الخطاب وتتابع الصحابة بالهجرة إلى أن هاجر النبي ﷺ[1].



(١) الكامل لابن الأثير ج٢ ص٩٩ ـ ١٠١.



الفصل الخامس
هجرته ﷺ وأعماله الأولى في المدينة

هجرة النبي ﷺ:

أقام النبي ﷺ بمكة ينتظر أن يؤذن له في الهجرة. ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبسه المشركون أو فتنوه باستثناء علي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له الرسول ﷺ: **«لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً»**، فطمع أبو بكر أن يكون هو.

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا كذلك خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا حينئذٍ أنهم نزلوا داراً فيها منعة لهم، فحذروا بذلك خروج النبي ﷺ إليهم، فلئن خرج فلسوف يجمع الناس من حوله لحربهم، فاجتمعوا من أجل ذلك في دار الندوة، وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها.

لقد اجتمعوا يتشاورون في دار الندوة ما يصنعون في أمر النبي ﷺ، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل وقد وقف على باب الدار ولما رأوه قالوا: مَن الشيخ؟ فقال: شيخ من أهل نجد سمعت بالذي اتعدتم له فحضرت لأسمع ما تقولون، وعسى أن لا أعدمكم مني رأياً ونصحاً، فقالوا: أجل، فادخل فدخل معهم، وقد اجتمع في الدار يومئذٍ أشراف من

مختلف قبائل العرب، منهم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب وجبير بن مطعم والنضر بن الحارث وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود بن المطلب وحكيم بن حزام وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وآخرون غيرهم كثيرون، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا مع من اتبعه من أصحابه، فأجمعوا فيه رأياً، فتشاوروا ما بينهم فقال أحدهم: نحبسه في الحديد ونغلق عليه الباب ثم نتربص به الموت الذي أصاب نظراءه من الشعراء الذين كانوا قبله كزهير والنابغة وغيرهم، فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ولئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره.

ثم قال آخر: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب، فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يقوله، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب حتى يتابعوه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم، فيفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأياً غير هذا.

ثم تكلم أبو جهل فقال: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا منا بالعقل (الدية) فعقلناه لهم، فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فأجمع القوم على ذلك ثم تفرّقوا.

ذلك هو كيد الشياطين للحق في كل زمان، لا جرم أن هذه شر

مكيدة تمالأ عليها الظالمون من مشركي العرب ورائدهم في ذلك الخبيث المبلس شيطان الجن، لقد تمالأ هؤلاء جميعاً على سيد البشرية وأكرم الخلق أجمعين ليقتلوه فينطفىء بذلك نور ساطع مشعشع ستستضيء به البشرية في هذه الدنيا إلى أن يرث الله الكون والعالمين، لولا أن تدارك الله برحمته النبي والناس كافة فكفاه بقدرته وجبروته كيد الكائدين وشرهم، ويتجلى هذا المعنى في كلمات الله المثلى وهو قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٠].

وعقب ذلك أتى جبريل النبي ﷺ وأمره أن لا يبيت هذه الليلة على فراشه الذي كان يبيت عليه من قبل، ولما أقبل الليل وقد سجى بظلامه على الأرض اجتمع المشركون المعدون لفعل ما اتفقوا عليه من المكر وأخذوا يرصدون النبي ﷺ متى ينام كيما يثبوا عليه، فلما رآهم النبي ﷺ أمر علياً رضي الله عنه أن ينام على فراشه وأن يتسجى ببرده، وأخبره أنه لن يخلص إليه شيء يكرهه منهم.

ولما اجتمع هؤلاء المتربصون، وفيهم الشقي الخبيث أبو جهل قال وهم على باب النبي ﷺ متهكماً: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم ثم جُعلت لكم نار تُحرقون فيها، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: «**أنا أقول ذلك أنت أحدهم**»، فأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلم يروه فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يتلو قوله تعالى: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس: الآيات ١-٩]، ولما فرغ النبي ﷺ من تلاوة هذه الآيات لم يبق من القوم المتربصين أحد إلا وضع النبي ﷺ على رأسه

تراباً، ثم انصرف ﷺ إلى رحيله المبارك، فأتى القوم آت وسألهم عما ينتظرونه ههنا، فقالوا: ننتظر محمداً، فقال لهم: خيبكم الله، لقد خرج والله عليكم محمد ثم ما ترك منكم من أحد إلا وقد وضع على رأسه تراباً ثم مضى لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا هو عليه تراب، ثم تطلّعوا فرأوا علياً على الفراش وقد تسجى ببرد النبي ﷺ فقالوا: والله إن هذا لمحمد وعليه برده، وظنوه نائماً، فما برحوا مكانهم حتى أصبحوا، فقام علي رضي الله عنه من الفراش فخاب ظنهم وقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا.

أما أبو بكر رضي الله عنه فكان ذا مال، فكان حين استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فقال له رسول الله ﷺ: **«لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً»** طمع في أن يكون النبي ﷺ قد أراد نفسه ومن أجل ذلك ابتاع راحلتين فاحتبسهما في داره استعداداً للسفر.

روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان لا يخطىء رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة من مكة أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة وذلك في ساعة كان لا يأتي فيها، فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ إلا لأمر حدث، فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: **«أخرج عني من عندك»** فقال أبو بكر: يا رسول الله إنما هما ابنتاي فداك أبي وأمي! وما ذاك؟ فقال النبي ﷺ: **«إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة»**، فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، قال: **«الصحبة»** قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبدالله بن أرقط، وكان مشركاً، ليدلهما على الطريق فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

ولم يعلم بخروج النبي ﷺ من مكة إلى المدينة إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر، أما علي فقد أخبره النبي بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وذلك أنه ما من أحد بمكة عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عند النبي ﷺ لما يعلمه من صدق النبي ﷺ وأمانته.

ولما أجمع النبي ﷺ أن يخرج أتى أبا بكر بن أبي قحافة فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا معاً إلى غار بجبل ثور وهو أسفل مكة فدخلاه، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما.

ثم انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله ﷺ يتحسس الغار فينظر إن كان فيه سبع أو حية أو هامة من الهوام، افتداء لرسول الله ﷺ بنفسه.

فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر، وكان عبدالله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم فيسمع ما يأتمرون به وما يقولونه في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيهما في المساء بأخبار القوم، وكان عامر بن فهيرة وهو مولى أبي بكر يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا غدا عبدالله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفّي عليه، حتى إذا مضت الأيام الثلاثة أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعير لهما وبعير له، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها بسفرتهما[1] ونسيت أن تجعل لها عصاماً تعلق به السفرة فحلت نطاقها وشقته باثنين واحد تشد به السفرة والآخر تتمنطق به، من أجل ذلك كان يقال لأسماء ذات النطاقين.

وروي عن أسماء ذات النطاقين أنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فوقفوا على دار أبي بكر

---

(١) السفرة: طعام المسافر، انظر: مختار الصحاح ص١٠٣.

فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ فقلت: لا أدري والله أين أبي، فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي، ثم انصرفوا فمكثنا ثلاث ليال وما ندري أين وجه رسول الله ﷺ حتى أقبل رجل من الجن من أسفل يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب وإن الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرونه، فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة، وكانوا أربعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وعبدالله بن أرقط دليلهما، وقيل: عبدالله بن أريقط.

ولما خرج النبي ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم، وفي هذا الصدد قال سراقة بن مالك بن جُعشُم: بينما أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال: والله لقد رأيت رَكَبَة ثلاثة مروا عليّ آنفاً إني لأراهم محمداً وأصحابه فأومأت إليه بعيني ـ أي ليسكت فيستأثر لنفسه بالمائة ناقة ـ ثم قلت: إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم، ثم قمت فدخلت بيتي ثم أمرت بفرسي فقيد لي إلى بطن الوادي وأمرت بسلاحي فأخرج لي من دبر حجرتي وكنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة ناقة، فركبت على أثره فبينما فرسي يشتد بي عثر بي فسقطت عنه. فقلت: ما هذا، فأبيت إلا أن أتبعه فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي فذهبت يداه في الأرض وسقطت عنه ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع مني وأنا ظاهر[1]، ثم قال سراقة: ادع لي يا محمد ليخلصني الله ولك علي أن أرد عنك الطلب، فدعا له النبي ﷺ فتخلص، فلما أراد أن يعود عنه قال له رسول الله ﷺ: **«كيف بك يا سراقة إذا سُوّرت بسواري كسرى؟»** قال: كسرى بن هرمز؟ فقال النبي ﷺ: **«نعم»** فعاد سراقة، فكان لا يلقاه أحد يريد طلب النبي ﷺ إلا رده.

ولما سمع المسلمون بخروج النبي ﷺ من مكة انتظروا قدومه وقالوا:

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص١٣٠ ـ ١٣٤.

كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر الحرة[1] ننتظر رسول الله ﷺ فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال فإذا لم نجد ظلاً دخلنا، وذلك في أيام حارة حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنا نجلس حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا. وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت فكان أول من رآه رجل من اليهود وقد رأى ما كنا نصنع، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة (الأنصار) هذا جدكم قد جاء، فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفناه عند ذلك.

أما علي رضي الله عنه فإنه لما فرغ مما أمره به رسول الله ﷺ هاجر إلى المدينة فكان يسير الليل ويكمن في النهار، حتى قدم المدينة وقد تفطرت قدماه، فقال النبي ﷺ: «ادعوا لي علياً»، فقيل: لا يقدر أن يمشي، فأتاه النبي ﷺ واعتنقه وبكى رحمة لما بقدميه من الورم، ثم تفل في يديه وأمرّهما على قدميه، فلم يشتكهما بعد حتى قُتل.

ثم أقام رسول الله ﷺ بقباء في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس ثم أمر ببناء مسجد، وقد نزل النبي ﷺ على أبي أيوب الأنصاري حتى بنى مسجده ومساكنه فعمل فيه ﷺ ليرغّب المسلمين في العمل فيه، وعمل فيه المهاجرون والأنصار فرجز راجز من المسلمين وقال:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منا العمل المضلّل

وكذلك ارتجز المسلمون وهم يبنون المسجد ويقولون:

لا عيش إلا عيش الآخرة ... اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

---

(١) الحرة: بالفتح، أرض ذات حجارة سود، والجمع: حرار، انظر: المصباح المنير ج١ ص١٤٠.

ثم دخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللّبن، فقال: يا رسول الله قتلوني، يحملون عليّ ما لا يحملون، قالت أم سلمة زوج النبي ﷺ: فرأيت رسول الله ﷺ ينفض وفرته بيده - وكان عمار رجلاً جعداً - والنبي ﷺ يقول: **«ويح ابن سمية! ليسوا بالذين يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية»**.

ومن حديث أبي أيوب في هذا الصدد: لما نزل علي رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السُفل، وأنا وأم أيوب في العلو فقلت له: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو وننزل نحن فنكون في السُفل، فقال: **«يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سُفل البيت»**.

قال أبو أيوب: كنا نصنع للنبي ﷺ الطعام ثم نبعث به إليه فإذا رد علينا فضلة تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بصلاً أو ثوماً فرده رسول الله ﷺ ولم أرَ ليده أثراً فجئته فزعاً فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أرَ فيه موضع يدك نبتغي بذلك البركة فقال النبي ﷺ: **«إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجى، فأما أنتم فكلوه»** قال أبو أيوب: فأكلنا ولم نصنع له تلك الشجرة بعد.

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبقَ بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس، ثم لم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها إلا ما كان من قلة قليلة.

قال ابن عباس: ولد النبي ﷺ يوم الاثنين، واستنبىء يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين، وهاجر يوم الاثنين، ومات يوم الاثنين.

وكانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ في المدينة بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله:

«أما بعد: أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمُنّ والله ليصعقنّ أحدكم ثم ليَدَعَنّ غنمه ليس له راعٍ ثم ليقولن له ربه، وليس له ترجمان ولا حاجب

يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلّغك، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، من استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(١).

المؤاخاة بين المسلمين وموادعة اليهود:

كتب رسول الله ﷺ كتاباً يؤاخي فيه بين المهاجرين والأنصار موادعاً اليهود وقد أقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم، وذلكم هو كتاب رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا كتاب محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين»، وعدّد النبي ﷺ مختلف الأقوام والقبائل وأن كل قبيلة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، والربعة: تعني الدار أو المحلة. والمعاقل: جمع معقلة وهي الدية.

وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة(٢) ظلم أو إثم أو فساد بين المؤمنين. وأن أيديهم عليهم جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم. وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأنه من اعتبط(٣) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول وأن المؤمنين عليه كافة، وأنه لا

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص١٤٠ ـ ١٤٦، والكامل لابن الأثير ج٢ ص١٠١ ـ ١٠٦.

(٢) دسعة: الدفعة، انظر: مختار الصحاح ص٢٠٤.

(٣) اعتبطه: قتله عمداً من غير حق.

يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم وأنه من خرج أمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم وأن الله جار لمن برَّ واتقى ومحمد رسول الله ﷺ[1].

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

آخى النبي ﷺ بين المسلمين من الأنصار والمهاجرين وذلك هو شأن المسلمين في كل مكان وزمان، لا جرم أن بين جموعهم واختلاف أجناسهم عقيدة الإسلام، لا جرم أن ذلكم خير رباط يؤلف القلوب، وخير آصرة تجتمع عليها الأمة لتكون فيما بينها متحدة الأهواء والمشاعر، متسقة الأذهان والوجدان، وذلك الذي رسَّخه النبي ﷺ في واقع المسلمين حيثما كانوا وهو ما يقتضيه الخبر: **«تآخوا في الله أخوين أخوين»**.

فأخذ النبي ﷺ بيد علي بن أبي طالب فقال: **«هذا أخي»**، فكان رسول الله ﷺ ـ سيد البشرية وإمام العالمين ـ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين، وكان حمزة بن عبدالمطلب، أسد الله وأسد رسوله وعم النبي ﷺ وزيد بن حارثة أخوين وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت، ثم جعفر بن أبي طالب

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص١٤٧ ـ ١٥٠.

ذو الجناحين الطيار في الجنة، ومعاذ بن جبل أخوين.

وكذلك كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابن أبي قحافة، وخارجة بن زهير أخوين، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وعتبان بن مالك أخوين، وأبو عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين، وعبدالرحمٰن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة أخوين، وقيل: الزبير وعبدالله بن مسعود أخوين، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخوين، وطلحة بن عبيدالله وكعب بن مالك أخوين، وسعد بن زيد وأبي بن كعب أخوين، ومصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد أخوين، وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين، وأبو ذر الغفاري والمنذر بن عمرو أخوين، وحاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين، وسلمان الفارسي وأبو الدرداء أخوين، وبلال مولى أبي بكر رضي الله عنهما مؤذن رسول الله ﷺ وأبو رويحة أخوين، هؤلاء قد آخى بينهم النبي ﷺ[١].

خبر الأذان:

لما استحكم الأمر للإسلام في المدينة واستقر حال النبي ﷺ والمسلمين فيها، وعقب فرض الزكاة والصيام والحدود وغير ذلك من أحكام الشريعة، وقد كان الناس يجتمعون إلى النبي ﷺ للصلاة حين مواقيتها، أراد النبي ﷺ أن يجعل بوقاً كبوق يهود الذين يدعون به لصلاتهم، لكن النبي ﷺ كره ذلك، ثم أمر ﷺ بالناقوس فنحت لكي يضرب به تنبيهاً للمسلمين إلى الصلاة.

وبينما النبي ﷺ والمسلمون على ذلك إذ رأى عبدالله بن زيد الخزرجي النداء، فأتى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف: مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص١٥١ - ١٥٣.

به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: **«إنها لرؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك»**، فلما أذّن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب، وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه، وهو يقول: يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال رسول الله ﷺ: **«فللّه الحمد على ذلك»**[1].

أعداء لرسول الله ﷺ من يهود:

عمت البغضاء قلوب يهود واستحوذ عليهم الحسد فأخذ من طبائعهم ونفوسهم كل مأخذ لما استقر الإسلام ودانت الأوس والخزرج في المدينة لملة الحمد والتوحيد، ثم انحاز إلى يهود إخوتهم في الضغينة والكفر الخفي المستور من منافقي المدينة، أولئك الذين اتخذوا الإسلام في الظاهر جُنّة من القتل فكان هواهم بذلك مع يهود في تكذيبهم النبي ﷺ والكيد له ولدينه.

وكانت أحبار يهود يسألون النبي ﷺ ويشقون عليه في السؤال وهم يبتغون بذلك التلبيس على المسلمين وإشاعة الظنون والشبهات في أذهانهم ليضعفوهم أو يردوهم عن دينهم، فأنى لهم ذلك وقد كتب الله لدينه الذيوع والنصر وبلوغ العالمين في كل الآفاق، بالرغم من تمالؤ المتمالئين من أعداء الله المشركين والمنافقين واليهود، أولئك الذين ينزف الحقد والحسد والبغضاء من قلوبهم لفرط كراهيتهم للإسلام والمسلمين، ليظلوا على الدوام يتجرعون مرارة الغيظ والاضطغان كلما ظهر الإسلام واستعلت أمجاد المسلمين.

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص١٥٤، ١٥٥.

ومن جملة اليهود الذين كادوا للإسلام ونبيه ﷺ كيداً ذلك الشقي الخبيث حيي بن أخطب، وأخواه أبو ياسر، وجُدي ابنا أخطب، وسلام بن مشكم، وسلام بن أبي الحقيق، وكعب بن الأشرف، وهؤلاء من بني النضير.

ثم عبدالله بن صُوريا الأعور وكان أعلم الناس بالتوراة، ومخيريق وكان حبراً بارزاً وقد أسلم، وهؤلاء من بني ثعلبة.

وزيد بن اللصيت، وسعد بن حنيف، وعزيز بن أبي عزيز، وعبدالله بن صيف، وهؤلاء من بني قينقاع، وكذلك فنحاص، وأشيع، وشاس بن عدي، وعدي بن زيد، ونعمان بن أوفى، وعازر، وآزر بن آزر، ورافع بن حارثة، ومالك بن عوف، وعبدالله بن سلام، وكان حبرهم وأعلمهم وكان اسمه الحصين، ولما أسلم سماه رسول الله ﷺ عبدالله، وهؤلاء من بني قينقاع.

ثم عزّال بن شمويل، وكعب بن أسد، وشمويل بن زيد، والنحام بن زيد، وقردم بن كعب، والحارث بن عوف، وكردم بن زيد، ورافع بن رفيلة، ووهب بن يهوذا، وهؤلاء من بني قريظة. وكثير غيرهم من أحبار اليهود الذين أُشربت نفوسهم العداوة للنبي ﷺ وللمسلمين فراحوا يثيرون من حولهم الفتن والشرور ويؤلبون عليهم الأحزاب من مختلف قبائل العرب ليقاتلوهم وليطفئوا بذلك نور الإسلام أن يشرق ويضيء، ويستثنى من هؤلاء عبدالله بن سلام ومخيريق.

أما عبدالله بن سلام فقد كان حبراً عالماً وقد قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف له (نتوقعه) فكنت مسراً لذلك، صامتاً عليه حتى قدم النبي ﷺ المدينة فلما نزل بقباء، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث جالسة تحتي، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبَّرتُ فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيبك الله! والله لو كنت سمعت بموسى ابن عمران قادماً ما زدت! فقلت لها: أي عمة، هو والله

أخو موسى بن عمران وعلى دينه بُعث بما بُعث به، فقالت: أي ابن أخي أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يُبعث مع نفس الساعة؟ فقلت لها: نعم، فقالت: فذاك إذاً، قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا.

ثم كتمت إسلامي من يهود ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله إن يهود قوم بُهت[1]، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني، فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته ودخلوا عليه فكلموه وساءلوه، ثم قال لهم النبي ﷺ: **«أي رجل الحصين ابن سلام فيكم؟»**، والحصين هو عبدالله بن سلام، قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا، فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بي، فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهت أهل غدر وكذب وفجور! ثم أظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها.

أما مخيريق، فقد كان حبراً عالماً وكان رجلاً غنياً، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه وغلب عليه إلفُ دينه، فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أحد، وكان يوم أحد يوم السبت، فقال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، فقال: لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأحد وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد ﷺ يصنع فيها ما أراه الله، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتل

---

(١) بُهت: جمع، ومفرده بَهوت، بَهَتَه بهتاً، قذفه بالباطل وافترى عليه الكذب، والاسم البهتان، انظر: المصباح المنير ج١ ص٧١.

فكان رسول الله ﷺ يقول: «مخيريق خير يهود»[1]، وفي ذلك ما يشير إلى إسلامه.

شهادة صفية بنت حيي بن أخطب:

قالت صفية بنت حيي بن أخطب - وهو من عتاة اليهود - كنت أحبَّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين (في الليل) فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. فأتيا كالَّين كسلانين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إلي أحد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله! قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[2].

ذلك هو حيي بن أخطب، من أشقى الأشقياء في يهود، أولئك الذين عرفوا الحق تمام المعرفة مما كانوا يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة شهادة بصدق رسالة محمد ﷺ وأنه مبعوث للعالمين من رب العالمين ليكون هادياً ومبشراً ونذيراً للناس في هذه الدنيا، لكنهم مع ما يجدونه مكتوباً عندهم، جنحوا للجحود والعدوان ومجانبة الحق حسداً من عند أنفسهم فأبوا إلا الائتمار لنبي الله ﷺ والتمالؤ على الإسلام لاصطلامه واجتثاثه من جذوره وعلى المسلمين لإضعافهم وإذلالهم والتنكيل بهم، إن ذلكم لهو ديدن يهود منذ انبزاغ الإسلام، وما فتئوا حتى الساعة يكيدون للإسلام والمسلمين فيتربصون بهم الشرور والآلام والدوائر، لكن الله يكتب النصر لدينه القويم ولجنده المؤمنين المخلصين ويرد كيد يهود في نحورهم ليبوءوا بالخزي والافتضاح والخسران.

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص١٦٣ - ١٦٥.

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص١٦٥، ١٦٦.

صرف القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة:

رويِ عن البراء أن رسول الله ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده، أو قال على أخواله من الأنصار وأنه صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر، وصلاها معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت، وكان يعجبه أن يحول قِبَلَ البيت، وكان اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبَلَ بيت المقدس وأهل الكتاب، فلما ولّى وجهه قِبَلَ البيت أنكروا ذلك.

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يصلي نحو بيت المقدس فنزل قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٤]، فمر رجل من بني سلمة يقول وهم ركوع في صلاة الفجر وقد صلوا ركعة فنادى: ألا إن القبلة قد حولت إلى الكعبة، فمالوا إلى الكعبة.

المسجد الذي أسس على التقوى:

لما صرفت القبلة إلى الكعبة أتى النبي ﷺ مسجد قُباء فقدم جدار المسجد إلى موضعه اليوم وأسسه، ونقل رسول الله ﷺ وأصحابه الحجارة لبنائه، وقيل: هو المسجد الذي أسس على التقوى، وفيه يقول الرسول ﷺ: **«من توضأ فأسبغ الوضوء ثم جاء مسجد قباء فصلى فيه كان له أجر عمرة»**، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [التوبَة: الآية ١٠٨].

من أخبار اليهود:

هذه جملة من أخبار يهود تكشف عن فداحة الجحود الذي يستقر في طبائع هؤلاء القوم وعن عجيب جبلاتهم التي استحوذ عليها المرض والاعوجاج والجنوح، لا جرم أن يهود أولو طبائع كزة قد نضبت في

نفوسهم كل سمات الرحمة والبراءة واللين ليستحوذ عليها بدلاً من ذلك مثالب شتى من العتو والتمرد والقسوة وكراهية الحق والفضيلة، أولئك هم الخاسرون المرضى الذين يلهثون جامحين خلف الباطل رغبة في التلبس بالشرور وإذعاناً للأهواء السقيمة التي تركم مركوزة في أغوار القوم.

وتلكم أخبار قليلة نعرض لها في هذا البيان الوجيز المقتضب:

فذلكم حيي بن أخطب وأخوه أبو ياسر بن أخطب، فقد كانا من أشد يهود للعرب حسداً لأن الله قد خصّ العرب برسوله ﷺ، وكان هذان الاثنان عاتيين جاهدين في تحريض الناس على مجانبة الإسلام وتنفيرهم منه، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾ [البقرة: الآية ١٠٩].

مثال ثان: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حريملة من يهود: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى بن مريم وبالإنجيل، فقال رجل من نصارى نجران لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد بنبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾ [البقرة: الآية ١١٣].

مثال ثالث: لما حولت القبلة عن الشام إلى مكة وكان ذلك في شهر رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة أتى رسول الله ﷺ بعض يهود فيهم كعب بن الأشرف ورافع بن أبي رافع وكنانة بن الربيع، فقالوا: يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك، وما يريدون بذلك إلا أن يفتنوه عن دينه، فأنزل الله

جل وعلا في ذلك: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: الآيتان ١٤٢،١٤٣].

وقال عز وعلا: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: الآية ١٤٤].

مثال رابع: سأل معاذ بن جبل وسعد بن معاذ نفراً من أحبار يهود عن بعض ما في التوراة فكتموهم إياه وأبوا أن يخبروهم عنه، وذلك هو ديدن يهود في الكذب والتكذيب وإخفاء الحقائق مما أمر الله به أن يشيع لكي يعلم الناس ويقفوا على الحقيقة والسداد فيهتدوا، وبذلك استحقوا اللعن من الله والتنديد أيما تنديد وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: الآية ١٥٩].

مثال خامس: كانت يهود تستفتح (تستنصر) على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه وليس ذلك إلا حسداً منهم وتغيظاً إذ لم يكن النبي ﷺ منهم، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم، وهو من عتاة يهود في بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكره لكم، لا جرم أن ذلك غاية الجحود والتكذيب وإيغال في الوقاحة واللؤم وفساد القلوب، فقال الله في هؤلاء المكذبين المبطلين: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا

جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ [البقرة: الآية ٨٩].

مثال سادس: هذا اليهودي المضطغن الذي تتزاحم في أطوائه أوشاب كثاف من أدران الغل والحسد، وهو شديد التربص بالمسلمين فيصيبهم السوء والأذى مع أنه شيخ هرم خائر البنية والجسد، واسمه شاس بن قيس، إذ مر بنفر من أصحاب النبي ﷺ من الأوس والخزرج وقد اجتمعوا في مجلس يتحدثون فيه مؤتلفين فاستشاط غيظاً وحقداً لما رآه من ألفة القوم واجتماعهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: لقد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم، فقال له: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ويوم بعاث هو يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكانت الغلبة فيه يومئذٍ للأوس، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا فغضب الفريقان جميعاً وقالوا: موعدكم الظاهرة، أي الحرة، السلاح السلاح، فخرجوا إليها (إلى الحرة) فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: «**يا معشر المسلمين، الله الله! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألَّف به بين قلوبكم**»، فعرف القوم أن الشيطان قد نزغ بينهم وأن عدوهم الماكر المتربص من يهود قد كاد لهم كيداً، فبكوا وعانق بعضهم بعضاً فعادوا مؤتلفين متوادين، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، وقد بدد الله من بينهم كيد عدو الله من الإنس، شاس بن قيس وانقشع من بينهم ما كان من غضب واحتداد.

مثال سابع: ثمة فريق من يهود، فيهم حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وغيرهما من بني النضير، كانوا قد حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة وحرضوهم على قتال النبي ﷺ والمسلمين، فلما قدم هؤلاء النفر من بني النضير على قريش، قال بعض قريش لبعضهم: هؤلاء

أحبار يهود وأهل علم بالكتاب الأول فسلوهم عن دينكم هل هو خير أم دين محمد؟ فسألوهم، فقالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن تبعه[1].

إن هذا لهو الكذب الفاضح والزور المستبين الشنيع لا يجترىء على مثله إلا دجاجلة أشرار ضالعون في الخطيئة والضلال والافتراء، وأولئك قد أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: الآية ٥١].

وغير ذلك كثير مما يكشف عن طبيعة يهود الذين تصدوا للإسلام من أول يوم وتربصوا بالنبي ﷺ منذ طفولته، وقد علموا من قبل أن يبعث أنه نبي هذا الزمان وأن دينه ظاهر على الدين كله لا محالة، وبالرغم مما يجدونه مكتوباً عندهم عن حقيقة هذا النبي الأمين الصدوق لكنهم كانوا مأسورين لطبائعهم السقيمة الكنود ولجبلاتهم التي ترعرع فيها الشر والجنوح للكيد والهدم والباطل في كل زمان ومكان.

فرض صيام رمضان:

فرض الله صيام شهر رمضان بعدما صُرفت القبلة إلى الكعبة بشهر في شعبان وذلك على رأس ثمانية عشر شهراً من مُهاجَر رسول الله ﷺ، وفي هذه السنة أمر النبي ﷺ بزكاة الفطر، وذلك قبل أن تفرض زكاة الأموال، وأن تخرج عن الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى، وهي صاع من تمر أو صاع من شعير أو صاع من زبيب أو مدان من بُر، وكان النبي ﷺ يخطب قبل الفطر بيومين فيأمر بإخراجها قبل أن يغدو إلى المصلى وقال: «**أغنوهم عن طواف هذا اليوم**»، أي: أغنوا المساكين عن المسألة والتكفف في يوم العيد.

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص١٩٤ ـ ٢١٥.

وقد أمر النبي ﷺ بالأضحية في يوم الأضحى بعد أن صلى فيه العيد وأقام بالمدينة عشر سنين يضحي في كل عام.

وكان النبي ﷺ إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب أتي بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بيده بالمدينة ثم يقول: **«اللهم هذا عن أمتي جميعاً من شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ»**، ثم يؤتى بالآخر فيذبحه هو عن نفسه بيده ثم يقول: **«هذا عن محمد وآل محمد»** فيأكل هو وأهله منه ويطعم المساكين.

منبر رسول الله ﷺ:

كان ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جذع في المسجد قائماً فقال: **«إن القيام قد شق علي»**، فقال له تميم الداري: ألا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام؟ فشاور النبي ﷺ المسلمين في ذلك فرأوا أن يتخذه، فقال العباس بن عبدالمطلب: إن لي غلاماً يقال له: كلاب أعملُ الناس، فقال رسول الله ﷺ: **«مره أن يعمله»**، فأرسله إلى أثلة بالغابة فقطعها ثم عمل منها درجتين ومقعداً ثم جاء به فوضعه في موضعه اليوم، فجاءه رسول الله ﷺ فقام عليه وقال: **«ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة»**، وكان ﷺ إذا صعد على المنبر سلَّم، فإذا جلس أذّن المؤذن، وكان يخطب خطبتين ويجلس جلستين وكان يشير بأصبعه ويؤمن الناس، وكان يتوكأ على عصا يخطب عليها يوم الجمعة، وكان إذا خطب استقبله الناس بوجوههم وأصغوا بأسماعهم ورمقوه بأبصارهم، وكان يصلي الجمعة حين تميل الشمس.

وعن جابر بن عبدالله قال: إن رسول الله ﷺ كان يقوم إلى جذع نخلة منصوب في المسجد حتى إذا بدا له أن يتخذ المنبر شاور ذوي الرأي من المسلمين فرأوا أن يتخذه، فاتخذه رسول الله ﷺ، فلما كان يوم الجمعة أقبل النبي ﷺ حتى جلس على المنبر، فلما فقده الجذع حنَّ حنيناً أفزع الناس فقام رسول الله ﷺ من مجلسه حتى انتهى إليه فقام إليه ومسَّه فهدأ

ثم لم يُسمع له حنين بعد ذلك[1].

أهل الصُّفَّة:

أهل الصُّفَّة أناس من أصحاب رسول الله ﷺ، ليس لهم طعام ولا مأوى فكانوا ينامون على عهد رسول الله ﷺ في المسجد إذ ليس لهم مأوى غيره، فكان النبي ﷺ يدعوهم إليه عند عشائه فيفرقهم على أصحابه ليجدوا عندهم الطعام والمأوى، وتتعشى طائفة منهم مع رسول الله ﷺ حتى جاء الفرج، وهو ما يتجلى في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٣] فقيل: المراد به أهل الصفة، فقد كانوا لا مساكن لهم بالمدينة ولا عشائر تؤدي لهم خيراً، فدعا الله الناس بالإحسان إليهم.

روي عن أبي هريرة قال: رأيت ثلاثين رجلاً من أهل الصفة يصلُّون خلف رسول الله ﷺ ليس عليهم أردية، وروي عنه قوله أيضاً: كنت من أهل الصفة في حياة رسول الله ﷺ وإن كان ليُغشى عليَّ فيما بين بيت عائشة وأم سلمة من الجوع.

وروي عن أبي ذر قال: كنت من أهل الصفة[2].

اعتلال بعض الصحابة من حمى المدينة:

قالت عائشة رضي الله عنها: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهي أوبأ أرض من الحمى فأصاب أصحابه فيها بلاء وسقم فصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ، وكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال مع أبي بكر في بيت واحد فأصابتهم الحمى، فدخلت عليه أعودهم ـ وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ـ وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك (ألم المرض) فدنوت من أبي بكر فقلت له: كيف تجدك يا أبتِ؟ فقال:

كل امرىء مصبح في أهله   والموت أدنى من شراك نعله

(١) الطبقات لابن سعد ج١ ص١٩١ ـ ١٩٦.

(٢) الطبقات لابن سعد ج١ ص١٩٦.

فقالت عائشة: والله ما يدري أبي ما يقول، وقالت: ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت له: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرىء مجاهد بطوقه كالثور يحمي جلده بروقه

ويريد بالطوق هنا: الطاقة، والروق معناه: القرن، فقالت عائشة: والله ما يدري عامر ما يقول، قالت: وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته (صوته) وقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفخ وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

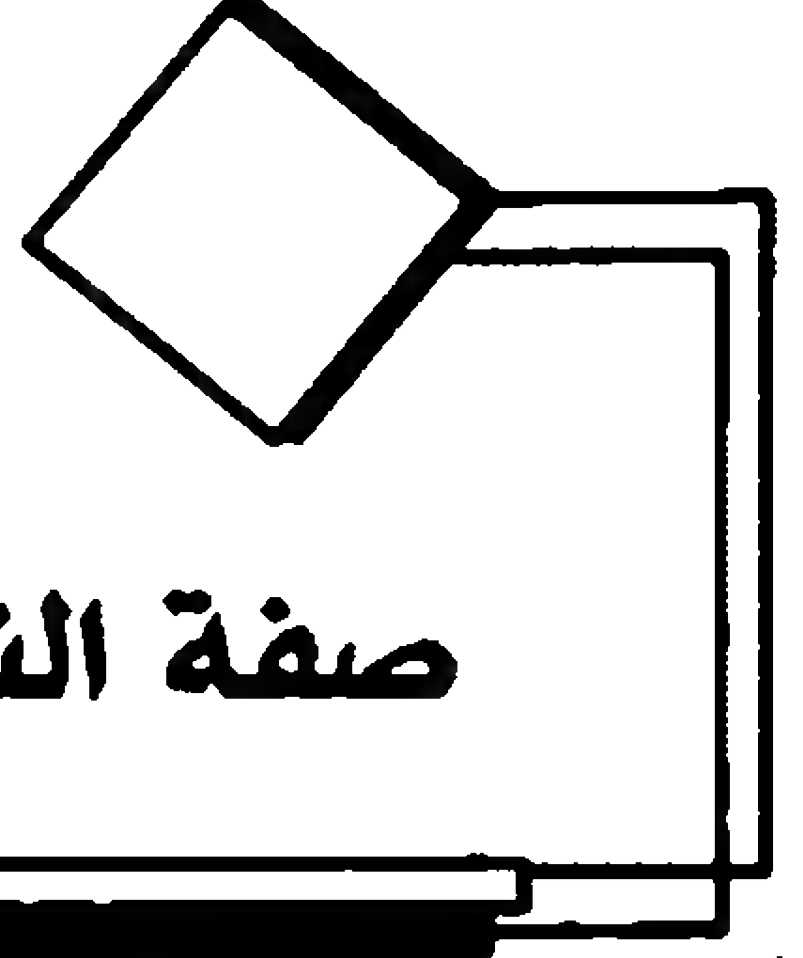
يراد بفخ: موضع خارج مكة، وإذخر: نبات طيب الرائحة، ومجنة: اسم سوق للعرب في الجاهلية بمكة، وشامة وطفيل: اسمان لجبلين بمكة، فقالت عائشة رضي الله عنها: فذكرت لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم وقلت: إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى، فقال رسول الله ﷺ: **«اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل وباءها إلى مهيعة»**[1].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هو وأصحابه أصابتهم حمى المدينة حتى جهدوا مرضاً وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه ﷺ، حتى كانوا ما يصلون إلا وهم قعود، فخرج عليهم رسول الله ﷺ وهم يصلون كذلك، فقال لهم: **«اعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم»**، فتجشم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم التماس الفضل[2].

---

(١) المهيعة: الجحفة، وهي ميقات أهل الشام، انظر: مختار الصحاح ص٧٠٤.

(٢) سيرة ابن هشام ج١ ص٢٣٨ ـ ٢٤٠.



الفصل السادس
صفة النبي ﷺ في التوراة والإنجيل

صفة النبي ﷺ في التوراة والإنجيل:

سأل ابن عباس كعب الأحبار: كيف تجد نعت رسول الله ﷺ في التوراة؟ فقال كعب: نجده في التوراة محمد بن عبدالله، مولده بمكة، ومُهاجَره إلى طابة، ويكون ملكه بالشام، ليس بفحّاش ولا بصخّاب في الأسواق، ولا يكافىء بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر.

وذكر عن عبدالله بن سلام قوله: إن صفة رسول الله ﷺ في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صَخِب بالأسواق ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة المتعوجة، بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غُلفاً، فبلغ ذلك كعباً فقال: صدق عبدالله بن سلام، إلا أنها بلسانهم أعيناً عمومين وآذاناً صمومين وقلوباً غلوفين.

وعن الزهري كان يحدث أن يهودياً قال: ما كان بقي شيء من نعت رسول الله ﷺ في التوراة إلا رأيته إلا الحلم، وإني أسلفته ثلاثين ديناراً إلى أجل معلوم، فتركته حتى إذا بقي من الأجل يوم أتيته، فقلت: يا محمد اقض حقي، فإنكم معاشر بني عبدالمطلب مُطل، فقال عمر: يا يهودي الخبيث، أما والله لولا مكانه لضربت الذي فيه عيناك! فقال رسول الله ﷺ:

«غفر الله لك يا أبا حفص، نحن كنا إلى غير هذا منك أحوج إلى أن تكون أمرتني بقضاء ما علي وهو إلى أن تكون أعنته في قضاء حقه أحوج»، فقال اليهودي: فلم يزده جهلي عليه إلا حلماً، فقال النبي ﷺ: «يا يهودي إنما يحل حقك غداً»، ثم قال: «يا أبا حفص اذهب به إلى الحائط الذي كان سأل أول يوم، فإن رضيه فأعطه كذا وكذا صاعاً وزده لما قلت له كذا وكذا صاعاً، فإن لم يرضَ فأعطه ذلك من حائط كذا وكذا»، فأتى به الحائط (البستان) فرضي تمره فأعطاه ما قال رسول الله ﷺ، وما أمره من الزيادة، فلما قبض اليهودي تمره قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنه رسول الله ﷺ، ما حملني على ما رأيتني صنعت يا عمر إلا أني قد كنت رأيت في رسول الله ﷺ صفته في التوراة كلها إلا الحلم، فاختبرت حلمه اليوم فوجدته على ما وصف في التوراة، وإني أشهدك أن هذا التمر وشطر مالي في فقراء المسلمين، فقال عمر: أو بعضهم، فقال: أو بعضهم، ثم أسلم أهل بيت اليهودي كلهم إلا شيخاً كان ابن مائة سنة فغسا[1] على الكفر.

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ مكتوب في الإنجيل: لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح[2].



(١) غسا على الكفر، أي: دخل فيه، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٦٥٣.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص٢٧٠ ـ ٢٧٢.

الفصل السابع

صفات الرسول ﷺ الخُلقية والخَلقية وما اختصَّ به من الكرامات

من أخلاق رسول الله ﷺ:

كان الرسول ﷺ نوراً في العالمين تستضيء بأقداسه المخاليق على متن هذا الكوكب، لقد كان يتجلى في رسولنا الأعظم ﷺ من جمال الخلق وكريم الخصال والشمائل ما يفوق التصور ويبهر العقول.

كان النبي ﷺ في الذروة القصوى من طهر الضمير والجوهر، ومن جلال الصورة والمظهر، فكان بذلك الإنسان المتكامل الفذ الذي عزّ نظيره في الثقلين، والذي نكص دون محاكاته أو مضاهاته الأناسي والجن أجمعين، فكان بذلك المعلم الأرشد الذي تمضي من خلفه الأجيال على مر الزمن لتعب من معين روائعه التي لا تنضب، وكيما تهتدي بإشراقه البشرية فلا تزلّ أو تتعثر وكيلا تتيه أو تضل أو توغل في غياهب الباطل والفوضى.

لا جرم أن محمداً ﷺ لهو عنوان الخير والبر والطهر في هذه الأرض، وهو بكمال صفاته وسمو فطرته وخلقه قمين أن تقتفي آثاره وسننه الأجيال والعالمون، حتى إذا استعصموا بتعاليمه ومنهجه للحياة كانوا آمنين مطمئنين، أحراراً لا يسودهم في هذه الدنيا غير الإخاء والود والمساواة وكل ظواهر الخير والتعاون والانسجام.

وتلكم بضع نماذج نعرض لتبيانها مما يكشف عن جلال هذا النبي الأعظم وعجيب جماله سواء في السلوك أو الصورة المنظورة أو الفطرة السوية الزكية بما يثير الدهش، ويشده الخيال والحس.

فلقد سئلت أم المؤمنين عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن.

وروي أن رهطاً من أصحاب النبي ﷺ اجتمعوا فقالوا: لو أرسلنا إلى أمهات المؤمنين فسألناهن عما نحلوا على النبي ﷺ من العمل لعلنا أن نقتدي به، فأرسلوا إلى هذه ثم هذه فجاء الرسول بأمر واحد وهو أنكم تسألون عن خلق نبيكم ﷺ وخلقه القرآن، ورسول الله ﷺ يبيت ويصلي وينام ويصوم ويفطر ويأتي أهله.

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً.

وسئلت السيدة عائشة رضي الله عنها: كيف كان خلق النبي ﷺ؟ قالت: كان أحسن الناس خلقاً، لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح.

وسئلت عائشة رضي الله عنها أيضاً: كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته؟ قالت: كان ألين الناس وأكرم الناس، وكان رجلاً من رجالكم إلا أنه كان ضحاكاً بسّاماً.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما خُيّر رسول الله ﷺ في أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله.

وعنها رضي الله عنها قالت: ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

وفي رأفته بالخلق ورحمته بالعالمين وفرط تواضعه الذي لا يضاهى، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: ما ضرب رسول الله ﷺ خادماً له ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله.

أما الحياء فهو شيمة كريمة فضلى تتجلى في الأبرار الأطهار من الناس، وهي شيمة مباركة تتزين بها ظواهر البشر وتشرق بحقيقتها قسمات الإنسان الحيي الودود، وهي واحدة من خصال كريمة كاثرة كانت تتجلى في طبيعة الرسول العظيم ﷺ، ليكون بذلك إمام العالمين حقاً وزين البشرية طُرّاً.

وفي ذلك روي عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها[1]، وكان إذا كره الشيء عرفناه في وجهه.

وفي الجود والسخاء، وتمام البذل والعطاء في غير ما أَثَرَة أو ضن كان النبي ﷺ النموذج المحتذى، والسبّاق الأكرم الذي لا يدانيه في الكرام كريم، فقد روي عن ابن عباس قوله في هذا الصدد: كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، فكان جبريل يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

ومن أعظم العلائم والسمات التي تتجلى في الرجل المميز المفضال، لهي سمة التوازن والاكتمال، وإنما يتجلى ذلك على أكمل صورة في شخصية الرسول محمد ﷺ، إذ كان مكتملاً في خلقه وطبعه، متوازناً في كل مركباته النفسية والروحية والعضوية فلا يضطرب فيه جانب من هاتيك الجوانب، وإنما هو منسجم في ذلك كله تمام الانسجام وذلك على نحو وكيفية لا يبلغهما عظيم في العظماء ولا فذ من الأفذاذ في تاريخ البشر.

وفي الكشف عن هذه الخصيصة العجيبة، روي عن أنس بن مالك أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فأخبروهم، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، وقال بعضهم: أصوم ولا أفطر،

---

(١) الخدر: الستر، انظر: مختار الصحاح ص١٧٠.

فحمد الله النبي ﷺ وأثنى عليه ثم قال: «ما بال أقوام كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وثمة خصلة كبرى من حميد خصاله وواحدة من عظميات العلائم التي تفوق التصور والحدود في غيره من أعاظم الرجال وصناديدهم وتلكم هي الشجاعة، فقد كان النبي ﷺ الشهم الأشم المقدام الذي لا تروعه المكائد والأسباب ولا تزعزعه الطبيعة بمختلف ظواهرها وقوانينها ومركباتها، ولا تثنيه عن التصدي للباطل كل الخطوب والشدائد مهما تكالبت أو استحرّت فيها القعقعة أو ظواهر التمالؤ والائتمار.

وذلكم هو رسول الله ﷺ الشجاع المقدام، تنقل إلينا الأخبار المتوافرة المتضافرة أنه سيد الأبطال الميامين وغرة الأشاوس والصناديد في العالمين، ومن جملة ذلك ما رواه أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وأحسن الناس، وأجود الناس، ولا أوضأ[1] من رسول الله ﷺ.

وعن أنس بن مالك أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وأحسن الناس، وأجود الناس، قال: فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق رسول الله ﷺ قبَلَ الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ، وقد سبقهم وهو يقول: «لن تُراعوا»، وهو على فرس لأبي طلحة في عنقه السيف، فجعل يقول للناس: «لن تُراعوا!»، وتراعوا من الترويع وهو الإفزاع والتخويف.

ويضاف إلى ما تقدم من خلال حميدة خصلة ظاهرة عظمى، وهي خصلة النظافة، وهذه حقيقة من الحقائق البارزة الشهيرة، التي تشهد لرسولنا الأعظم بكمال الريادة وتمام السيادة للعالمين كافة من غير نظير في ذلك ولا نديد.

لقد اجتمعت لرسول الله الكريم ﷺ عامة الظواهر في النبوغ الأكمل، واحتشد في شخصه الأمثل كل الدلائل والبينات على أنه ﷺ مجاوز لكل

---

(١) أوضأ: من الوضاءة: أي: الحسن، انظر: مختار الصحاح ص٧٢٦.

الحدود من طاقات البشر، وتلكم هي خصّيصة النظافة التي تميز بها النبي ﷺ ليكون بذلك قيماً بالاقتداء والتأسي[1].

وفي هذا الصدد من ذكر نظافة النبي ﷺ، وتحضيضه المسلمين عليها وتنفيره إياهم من الأوساخ والقاذورات، يقول النبي ﷺ: **«إن الله جميل يحب الجمال، سخي يحب السخاء، نظيف يحب النظافة»**[2].

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إن الإسلام نظيف فتنظفوا فإنه لا يدخل الجنة إلا نظيف»**.

وفي التحضيض على النظافة والتنفير من الأقذار والأوساخ، يقول ﷺ: **«إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود»**[3]، رواه أبو داود والنسائي.

أما نقاوة سريرته الطاهرة فهي بالغة لا تضاهى، لما يتجلى في خلق النبي ﷺ من طهر الضمير وكمال الفضيلة، فقد كان يحرم عليه خائنة الأعين، ومما يدل على ذلك أنه لما كان يوم فتح مكة آمن الناس إلا ستة منهم عبدالله بن أبي سرح، فاختبأ عند عثمان رضي الله عنه فلما دعا النبي ﷺ إلى البيعة، جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله بايع عبدالله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً - يأبى مبايعته - فبايعه بعد ذلك، ثم أقبل إلى أصحابه فقال: **«أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت عن مبايعته فيقتله؟»**، فقالوا: يا رسول الله، ما ندري ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟، قال: **«إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين»**، والمراد بخائنة الأعين: الإيماء بالعين، وقيل: مسارقة النظر من حيث أنه يخفي خلاف ما يظهر[4].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص٢٧٣ - ٢٨٢.

(٢) رواه ابن عمر.

(٣) رواه أبو داود والنسائي.

(٤) غاية السول في خصائص الرسول لأبي حفص عمر بن علي الأنصاري الشهير بابن الملقن.

رقة حال النبي ﷺ وشدة عيشه:

كان النبي ﷺ زاهداً في العيش وفي وجوه المتاع لهذه الدنيا بالغ الزهد، وإنما يبتغي أداء الأمانة العظمى التي كُلّف بإبلاغها ونشرها في العالمين، فما كان بذلك ليعبأ أيما إعباء بزينة الحياة الدنيا وما يتخللها من وجوه الخيرات أنيطت بهم أمانة التبليغ للبشرية من أجل استنقاذها من حمأة الضلال والباطل، فتلج في حومة الهداية والنور والخير في هذه الدنيا ويوم تقوم الساعة، وذلكم هو رسول الله ﷺ أزهد الناس في لذات الحياة الدنيا وفي خيراتها وأنعُمها ومباهجها، وهو ما يشهد له بذلك سجلُّه العاطر الميمون، الحافل بروائع الصفات وعجائب الشمائل التي لا يطيق احتمالها أو التلبس بها عامة الأعاظم والمشاهير من أساطين الزمن وجهابذة الدهر.

فقد روي عن ابن عباس، أن النبي ﷺ كان يبيت الليالي المتتابعة طاوياً (جائعاً) وأهله لا يجدون عشاء، وكان عامة خبزهم الشعير.

وعن محمد بن عبدالله أن أنس بن مالك حدثه أن فاطمة عليها السلام، جاءت بكسرة خبز إلى النبي ﷺ فقال: **«ما هذه الكسرة يا فاطمة؟»** قالت: قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة، فقال: **«أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام»**.

وروي عن مسروق قال: بينما عائشة رضي الله عنها تحدثني ذات يوم إذ بكت، فقلت: ما يبكيك يا أم المؤمنين؟ قالت: ما ملأت بطني من طعام فشئت أن أبكي إلا بكيت، أذكر رسول الله ﷺ وما كان فيه من الجهد.

وفي رواية عنها قالت: ما أشبع فأشاء أن أبكي إلا بكيت، وذلك لأن رسول الله ﷺ كانت تأتي عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بُر.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد غداء وعشاء من خبز الشعير ثلاثة أيام متتابعات حتى لحق بالله.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان يمر بآل رسول الله ﷺ هلال ثم هلال ثم هلال لا يوقد في شيء من بيوته نار لخبز ولا لطبيخ، قالوا:

بأي شيء كانوا يعيشون يا أبا هريرة؟ قال: بالأسودين: التمر والماء، وكان له جيران من الأنصار - جزاهم الله خيراً - لهم منائح يرسلون إليه بشيء من لبن.

وعن عائشة رضي الله عنها أيضاً قالت: والله لقد كان يأتي على آل محمد ﷺ شهر لا نخبز فيه، فقيل لها: يا أم المؤمنين، فما كان يأكل رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان لنا جيران من الأنصار - جزاهم الله خيراً - كان لهم شيء من لبن يهدون منه إلى رسول الله ﷺ.

وعن عائشة قالت: أرسل أبو بكر قائمة شاة ليلاً، فقطعت وأمسك عليّ رسول الله ﷺ، أو قطع رسول الله ﷺ وأمسكت عليه، فقيل لها: على غير مصباح؟ قالت عائشة رضي الله عنها: لو كان عندنا مصباح لائتدمنا به، كان يأتي على آل محمد شهر ما يخبزون خبزاً ولا يطبخون قدراً.

وعن أبي نضر قال: سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: إني لجالسة مع رسول الله ﷺ في البيت، فأهدى لنا أبو بكر رجل شاة، فإني لأقطعها مع رسول الله ﷺ في ظلمة البيت، فقال لها قائل: أما لكم سراج؟ فقالت: لو كان لنا ما يسرج به أكلناه.

وعن قتادة عن أنس أن يهودياً دعا النبي ﷺ إلى خبز شعير وإهالة[1] سنخة[2] فأجابه.

وعن أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ توفي، يوم توفي ودرعه مرهونة عند رجل من اليهود بوَسَق من شعير.

وفي التعوذ من الجوع الذي يثير الإيلام وقسوة المضانكة، روي عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع**».

---

(١) الإهالة: الزيت والشحم، وكل ما اؤتدم به، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٣١.

(٢) سنخة: من السناخة: وهي الريح المتننة، انظر: القاموس المحيط ج١ ص٢٧١.

وفي التنديد بالتخمة والإيغال في الشبع يقول الرسول ﷺ محذراً من الإسراف في الأكل فيما رواه عنه المقدام بن معديكرب: «**ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه**»[1].

نبذة عن خَلْق رسول الله ﷺ:

هذه جملة أوصاف في حقيقة النبي ﷺ الخَلقية بما يكشف عن طبيعته الكاملة المتكاملة، والتي يتجلى فيها الاتساق والاتفاق والتوازن مع ما يرافق ذلك من كمال الجوهر حيث النفس الكريمة المشرقة والروح الفيّاضة الرفّافة.

فقد سأل رجل من الأنصار علياً رسول الله ﷺ وهو مختبِ بحمائل سيفيه، في مسجد الكوفة عن نعت رسول الله ﷺ وصفته فقال: كان رسول الله ﷺ أبيض اللون، مشرباً حمرة، أدعج[2] العين، سبط الشعر، كث اللحية، سهل الخد، ذا وفرة، دقيق المسربة، كأن عنقه إبريق فضة، له شعر من لبّته إلى سرته، يجري كالقضيب، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، شثن[3] الكف والقدم، إذا مشى كأنما ينحدر من صبب، وإذا قام كأنما ينقلع من صخر، إذا التفت التفت جميعاً كأن عَرَقه في وجهه اللؤلؤ، ولريح عَرَقه أطيب من المسك الأذفر، ليس بالقصير ولا بالطويل، ولا بالعاجز ولا اللئيم، ولم أرَ قبله ولا بعده مثله ﷺ.

وعن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فإني لأخطب يوماً على الناس وحبر من أحبار اليهود واقف في يده سفر ينظر فيه، فنادى إلي فقال: صف لنا أبا القاسم! فقال علي رضي الله عنه: رسول الله ﷺ ليس بالقصير ولا بالطويل البائن، وليس بالجعد القَطَط ولا

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص٣٠٦ ـ ٣١٤.

(٢) العين الدعجاء: الواسعة الشديدة السواد، انظر: مختار الصحاح ص٢٠٥.

(٣) شثن الكف والقدم: غليظهما، انظر: المصباح المنير ج١ ص٣٢٧.

بالسبط، هو رَجِل الشعر أسوده، ضخم الرأس، مشرب لونه حمرة، عظيم الكراديس[1]، شثن القدمين، طويل المسرُبة ـ وهو الشعر الذي يكون في النحر إلى السُرة ـ أهدب الأشفار، مقرون الحاجبين، صلت الجبين، بعيد ما بين المنكبين، إذا مشى يتكفأ كأنما ينزل من صبب[2]، لم أرَ قبله مثله، ولم أرَ بعده مثله، ثم سكت علي فقال له الحبر: وماذا؟ فقال علي: هذا ما يحضرني، قال الحبر: في عينيه حمرة، حسن اللحية، حسن الفم، تام الأذنين، يقبل جميعاً ويدبر جميعاً، فقال علي: هذه والله صفته! قال الحبر: وشيء آخر، فقال علي: وما هو؟ قال الحبر: وفيه جنأ[3]. قال علي: هو الذي قلت لك كأنما ينزل من صبب، قال الحبر: فإني أجد هذه الصفة في سفر آبائي ونجده يبعث من حرم الله وأمنه وموضع بيته ثم يهاجر إلى حرم يحرّمه هو، ويكون له حرمة كحرمة الحرم الذي حرم الله، ونجد أنصاره الذين هاجر إليهم قوماً من ولد عمرو بن عامر، أهل نخل وأهل الأرض قبلهم يهود، قال علي: هو هو! وهو رسول الله ﷺ، فقال الحبر: فإني أشهد أنه نبي الله وأنه رسول الله ﷺ إلى الناس كافة فعلى ذلك أحيا وعليه أموت وعليه أُبعث إن شاء الله، فكان يأتي علياً فيعلمه القرآن ويخبره بشرائع الإسلام، ثم خرج علي والحبر هنالك حتى مات في خلافة أبي بكر وهو مؤمن برسول الله ﷺ يصدق به.

وفي جمال خَلق الرسول ﷺ وبالغ نظافته وغضاضة جسده اللين، يقول أنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ أزهر اللون إذا مشى تكفأ، وما مسست ديباجة ولا حريرة ولا شيئاً قط ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من ريحه.

---

(١) الكراديس: مفرده كردوس: وهو كل عَظْمين التقيا في مفصل نحو المنكبين والركبتين، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٧٨٢.

(٢) الصبب: ما انحدر من الأرض، جمعه أصباب، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٥٠٥.

(٣) جنأ جنوءاً: انحنى ومال، جنأ في عدوه: أكبَّ مسرعاً، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص١٣٧.

وفي روعة بهائه وكمال حسنه المشعشع قال أبو هريرة في رواية عنه في هذا الصدد: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في جبهته، وما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، إنا نجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث.

وعن جابر بن سمرة في وصف النبي ﷺ قال: رأيت خاتمه عند كتفيه مثل بيضة الحمامة تشبه جسمه.

وعن أبي رمثة قال: أتيت رسول الله ﷺ فإذا في كتفه مثل بعرة البعير أو بيضة الحمامة، فقلت: يا رسول الله أداويك منها؟ فإنا أهل بيت نتطبب، فقال: **«يداويها الذي وضعها»**.

أما تغيير الشيب بالحناء فقد روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«غيّروا الشيب ولا تشبهوا باليهود والنصارى»**.

وعن عبدالله بن بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: **«أحسن ما غيرتم به الشيب الحناء والكتم»**[1].

وعن عمرو بن العاص أنه حدّث أن رسول الله ﷺ نهى عن خضاب السواد.

وعن عامر ـ مرفوعاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى من يخضب بالسواد يوم القيامة»**.

وعن مجاهد قال: رأى النبي ﷺ رجلاً أسود الشعر قد رآه بالأمس أبيض الشعر قال: **«من أنت؟»** قال: أنا فلان، قال: **«بل أنت شيطان»**.

وعن الزهري قال: مكتوب في التوراة: ملعون من غيّرها بالسواد ـ يعني اللحية ـ[2].

---

(١) الكتم: فصيلة من النبات تشبه الآس تنبت في الأرض الجبلية، كانت تستعمل قديماً في الخضاب وصنع المداد، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٧٧٦.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص٣١٤ ـ ٣٤٠.

وكان النبي ﷺ يحضّ على لبس البياض من الثياب وأن يكفَّن به الموتى، فقد روي عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بالبياض من الثياب فليلبسها أحياؤكم وكفنوا فيها موتاكم».

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا الثياب البيض وكفنوا فيها موتاكم».

وعن أبي قلابة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أحب ثيابكم إلى الله البياض فصلوا فيها وكفنوا فيها موتاكم».

ما اختُص به النبي ﷺ من كرامات:

اختُص النبي ﷺ بكثير من الفضائل والكرامات ما لم يتسنَّ لغيره من النبيين والمرسلين، وهي فضائل وكرامات مميزة تزجي بكبير الدلالة على مكانة النبي ﷺ، وأنه في الذروة السامقة من درجات المعالي في هذا الكون الذي لا ينازعه فيه إنس ولا جن ولا ملك.

إن هذه الحقيقة الساطعة البلجة عن رفيع الدرجة لرسول الله ﷺ، تكشف عنها الحقائق التي نعرض لها لتباينها في هذا العرض المقتضب:

أولاً: تحريم زوجات النبي ﷺ على غيره أبداً، وهو ما يقتضيه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣]، فنساؤه ﷺ أمهات المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦]، يعني أزواجه ﷺ مثل أمهاتهم، من حيث وجوب احترامهن وإحاطتهن ببالغ التكريم والإجلال، وأنى لامرىء بعد ذلك أن يجترى على نكاح أمه؟! لا جرم أن هذا افتئات صارخ أثيم وانتقاص من مقام النبوة الزكية الميمونة!!

ثانياً: أن النبي ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠]، وهذه حقيقة قاطعة ظاهرة لا يعارضها ما ورد من نزول عيسى عليه الصلاة والسلام آخر الزمان، فإنه لا يأتي بشريعة ناسخة لشريعة

الإسلام بل إن ديانته عليه السلام مقررة لشريعة الإسلام.

ثالثاً: أن أمة محمد ﷺ أمة معصومة لا تجتمع على ضلالة، وفي الخبر من حديث ابن عمر مرفوعاً: «**لا تجتمع هذه الأمة على ضلال أبداً**»، وليس في هذه المكرمة لأمة الإسلام ما يثير عجباً أو تساؤلاً، فهذه الأمة وليدة الدين العظيم، دين الإسلام، هذا الدين الذي يتسم بالكمال والتوازن والوسطية والشمول والذي تجتمع فيه علائم الصلوح الأمثل لكل الأفراد والمجتمعات على امتداد الزمن.

رابعاً: أن شريعة محمد ﷺ مؤبدة وناسخة لكل الشرائع، وذلك مع الإقرار القاطع باتفاق الأديان السماوية في جملة الأسس الكبريات التي لا يختلف فيها دين آخر من أديان السماء، بل تتفق الأديان جميعاً فيما بنيت عليه من عقائد ومثل وأصول، أو ما حوته من قيم وفضائل وأخلاق ما ينبغي أن تنسخ أو تتبدل، كالصدق والحياء والوفاء والمروءة والسخاء والإيثار والرحمة بالخلق وغير ذلك من وجوه القيم والأخلاق.

أما غير ذلك من أحكام الشريعة في الإسلام فإنها مخالفة في كثير منها للشرائع الأخرى أو ناسخة لها، وذلك كتشريع المعاملات والجنايات والعبادات وأحكام الأحوال الشخصية، ووجه ذلك أن عامة الشرائع ـ باستثناء شريعة الإسلام ـ إنما أنزلت على أمم متعددة مختلفة، أمم تتغاير فيما بينها في كثير من الأعراف والملابسات والأحوال، وهي أمم مبعثرة منتشرة تترامى فوق جنبات الأرض لتتباين في أحوالها وشؤونها ومكوناتها النفسية والاجتماعية والسلوكية تبايناً عظيماً، ومثل هذه الاعتبارات المتباينة المتفاوتة يقتضي مباينة ظاهرة في الشرائع لتناسب كل شريعة من تتنزل عليهم من الناس.

وعلى هذا يمكن القول في قناعة ويقين أن الشرائع على اختلافها ـ باستثناء شريعة الإسلام ـ لا تناسب كل الأجيال والمجتمعات وعلى مر الزمن، وإنما تصلح كل شريعة من تلكم الشرائع للأمة التي أنزلت إليها وفي فترة من الزمان محدودة.

أما شريعة الإسلام فإنها تتسم بأعظم سمة تميزها من غيرها من عامة

الشرائع، وتلكم السمة هي صلوح الإسلام لكل زمان ومكان، وهذه حقيقة راسخة ومستبينة لا ينكرها غير جاحد لئيم، أو جوّاظ مستكبر أثيم.

إن حقيقة الصلوح التي يتسم بها الإسلام إنما تشهد لها الشواهد الحسية والعلمية والمعنوية، وهي شواهد ثوابت تزجي بقاطع البرهان على أن الإسلام برمته جدير بالاعتبار والتطبيق من أجل أن تستقيم البشرية فتستحيل أحوالها إلى خير الأحوال من شيوع الأمن والإخاء والمساواة والعدل، لتغيض بذلك كل ظواهر الظلم والتعصب والرذيلة وحينئذٍ تهنأ البشرية بالعيش الكريم الراغد وقد استظلت بظلال الإسلام العظيم، بعقيدته المكينة الراسخة وتشريعه المتماسك والمنسجم والمصون، ذلكم التشريع المتسع المديد الشامل الذي يراعي الفطرة البشرية والذي يجلله التيسير والمرونة وسهولة الاستنباط.

خامساً: إعجاز القرآن، وهذه واحدة من كبريات الحقائق الكونية في هذا الوجود، حقيقة القرآن المعجز الفذ الذي لا يضاهيه في الوجود نَظْم أو كلام، لا جرم أن القرآن معجزة الرسول ﷺ العظمى، بل إنه المعجزة الباقية الخالدة التي لا يعفّي عليها تعاقب الأدهار والزمن، والتي تعلو على عامة المعجزات الحسية الأخرى مما أوتي النبيون كانفلاق البحر، وإنزال المن والسلوى، والتظليل بالغمام، وانشقاق القمر، واستحالة العصا إلى حية مخوفة تسعى، وغير ذلك من ضروب المعجزات الحسية، فإنما هي معجزات محدودة موقوتة لا تجاوز من عمر الزمن حال وقوعها، حتى إذا وقعت وانقضت، انقضى زمانها فباتت مجرد ذكريات في صفحات الذهن والخيال، فلا تتردد أو تطفو على الألسن والتصورات إلا حين الذكرى، واستعراض الأخبار والمعلومات.

أما الحديث عن ظواهر الإعجاز القرآني فإنه طويل ومستفيض، ولا مجال لتبيان ذلك هنا بل يراجع ذلك في مظانه من كتب التفسير وعلوم القرآن، وغير ذلك من الكتب في هذا الصدد وهي تضمن جميعها صوراً ونماذج شتى من الحقائق والعلوم، التي تزجي بقاطع الدلالة على إعجاز هذا الكتاب الحكيم الذي تمالأ على مضاهاته ومحاكاته كثير من الخصوم

والحاقدين والمتكلفين، الذين راحوا يصطنعون من الكلام لمضاهاة القرآن وتحديه ما أثار من حولهم سخرية الساخرين، ذلك أن القرآن في عجيب وصفه وروعة نغمه وإيقاعه، وجلال بيانه المثير إنما يشهد له كل ذلك بالإعجاز الأوفى، يضاف إلى ذلك ما حواه القرآن من ظواهر الإعجاز في صنع الأفراد والمجتمعات فانبثقت هذه الأمة المميزة الفضلى ذات الحضارة المعطاءة السامقة، الحضارة التي ترسخ في الأرض كل ثوابت الحق والعدل والمودة والتعاون والرحمة، وما كان ذلك ليكون لولا الكتاب الرباني الأجلّ الذي يعزُّ على الفصحاء والبلغاء والعلماء أن يأتوا بسورة من مثله، ولو تظاهروا على ذلك أو تمالأوا فيما بينهم أيما تمالؤ.

سادساً: جَعلُ أمة الإسلام شهداء على الأمم يوم القيامة، وهذه مزية مشهودة لهذه الأمة المباركة التي تفيض على البشرية في كل أنحاء الأرض، كل معاني الخير والنور والرحمة والهداية.

هذه الأمة ببركة رسولها الأجلّ ﷺ، وبروعة قرآنها الممجد الأكرم حري بها أن تكون شاهدة على سائر الأمم يوم القيامة، وبيان ذلك أن المرسلين يحتجون على أممهم بإبلاغهم الرسالات من عند الله فتكذبهم أممهم وحينئذٍ يلتمس المرسلون من يشهد لهم بالتبليغ، فما يجدون إذ ذاك أهلاً لذلك غير أمة محمد ﷺ، ووجه ذلك قوله جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: الآية ١٤٣].

سابعاً: اصطفاؤه للشفاعة، فقد أحلت الشفاعة لرسول الله ﷺ وحده دون غيره من الناس، لا جرم أن ذلكم تكريم من الله هائل وتفضيل مميز لا يعدله تفضيل، وعلى هذا فإن النبي ﷺ لهو شفيع البشرية يوم القيامة، حيث الأهوال والأفزاع والقوارع الشداد التي تنقطع من فظاعتها القلوب وتتزلزل منها النواصي والأبدان لفرط ما يجده من ظواهر الرعب والفزع، وفي مثل هذه الأحوال العصيبة والناس خاشعون واجمون حيارى يتقدم النبي الأكرم، إمامُ البشرية كافة فيتشفع في الخلق، سواء في ذلك الشفاعة العظمى في الفصل بين الناس يوم الفزع الأكبر وهم يكابدون الفظائع في المحشر، أو

في الذين يدخلون الجنة بغير حساب، أو الذين تلبسوا بفعل المنكرات من الكبائر فأولئك يحظون بشفاعة الرسول ﷺ، فيخرجون من النار ليصار بهم بعد ذلك إلى الجنة، أو غير ذلك من وجوه الشفاعة.

ثامناً: عدم الجهر له بصوت فوق صوته، ذلك أن مقام النبوة الطهور يقتضي من العباد أن تلين قلوبهم وجوارحهم لدى مخاطبة الرسول ﷺ، وهو المعلم الهادي إلى سواء السبيل، والمبعوث رحمة للعالمين فيستنقذهم من هوان الدنيا والآخرة، إلى حيث السعادة والنجاة والخلاص، فذلكم النبي الأكرم يقتضي من العباد أن يخاطبوه في أدب جم وتواضع بالغ وأن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوته مثل شأنهم في التخاطب فيما بينهم، وذلكم هو قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: الآية ٢].

تاسعاً: مناداة النبي ﷺ بنبوته أو رسالته، فيقال له: يا نبي الله، أو يا رسول الله، وما يجوز أن ينادى: يا محمد: أو يا أحمد، وذلك تكريم لرسول الله ﷺ ومجانبة لما يشي بالغض من اعتباره الأعظم الذي يفوق كل اعتبارات البشر.

عاشراً: إيتائه جوامع الكلم، وهو قوله ﷺ من حديث أبي هريرة: **«نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم»**، والمراد بجوامع الكلم: أن جمع الله له في الألفاظ القليلة معاني كثيرة، فقد أوتي النبي ﷺ من فن القول والبلاغة وفصاحة البيان واللسان ما يذّ به سائر البلغاء والحكماء[1].

وغير ذلك من المكرمات والفضائل كثير مما يتحلى به النبي العظيم الخاتم ﷺ، ونكتفي في هذا المجال بما اقتضبناه في سيرته العطرة وتاريخه الحافل بالمكرمات ما بيناه هنا من فضائل معدودة، وللمستزيد أن ينقب عن ذلك في المظان من الكتب في هذا الصدد.



(١) غاية السول في خصائص الرسول لابن الملقن.

الفصل الثامن

غزوات النبي ﷺ وجهاده وما تخلّل ذلك من حوادث

فرض الجهاد عقب الهجرة إلى المدينة بعد أن لقي النبي ﷺ الأهوال من صنوف التعذيب والتنكيل والأذية، لقد أوذي ﷺ ومعه الفئة المؤمنة المستضعفة في مكة، على أيدي بني قومهم وعشيرتهم من المشركين الظالمين، هؤلاء الذين استنفر بعضهم بعضاً وتنادوا لإذلال المؤمنين وتدمير ملتهم ملة التوحيد.

لقد تنادى المشركون الظالمون حرصاً على مكانتهم أو نفوذهم أن يهبط أو يهوي فهم أولو مكانات من علو الحسب والمنزلة، مما اصطنعته العصبيات المقيتة الجهلاء، فضلاً عن تشبثهم بالأصنام، هذه الأشباح المصطنعة الموهومة التي استحوذ حبها على قلوب الجاهلين الأغرار فراحوا يقدسونها أيما تقديس ويقفون حيالها خاشعين وجلين، وهم في ذلك مستغرقون في حماقات الجاهلية وضلالاتها وأوهامها.

لقد جاء النبي ﷺ لتعديل الأذهان والمشاعر والتصورات لدى الناس، فينفض عنها غبار الحماقة والسفه وليردهم إلى صواب الملة السليمة وسدادها فيجمعهم بذلك على التوحيد الخالص لله دون غيره من الأنداد، حتى إذا استقامت عقيدتهم واستبرأت أذهانهم وقلوبهم من أدران الشرك والباطل فانداحوا بأنفسهم صوب الحق واليقين ـ كانوا بذلك خير أمة أُخرجت للناس

ـ بما تحمل للعالم من معالم الخير والهداية والفضيلة والمساواة.

وبالرغم مما حمله المسلمون للناس من معالم الحق والتوحيد والهداية إلا أن الجاهلين صدوهم أيما صد ونالوا منهم أيما نيل ونكلوا بهم تنكيلاً شديداً، وفي طليعتهم النبي ﷺ إذ صدوه صدوداً وآذوه إيذاءً مريراً، وبالرغم من ذلك كله فقد كان النبي ﷺ ومعه المسلمون، إنما يركنون للاصطبار وعظيم الاحتمال والرد بالتي هي أحسن حيث الأدلة والبراهين المستفيضة والدعوة إلى دين الله بالحسنى، وهو ما اقتضاه قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: الآية ١٢٥].

وبعد ذلك كله من طول المعاناة والاحتمال والصبر على التعذيب والتنكيل لم يعد لدى النبي ﷺ ومعه المسلمون، سوى مجاهدة المشركين الظالمين بقوة السلاح دفاعاً عن أنفسهم التي حاقت بها نذر الموت، وكيما تشيع عقيدة الحق والتوحيد، عقيدة البر والعدل والإخاء بين الناس في هذه الدنيا.

من أجل ذلك شرع الجهاد بعد أن لا مناص ولا مندوحة عن هذه الوسيلة المؤثرة الرادعة، الوسيلة العملية التي تدفع الشر والباطل وتردع الجاحدين الظالمين، العتاة الذين أبوا إلا الإيغال في الجحود والظلام والعدوان على الحق وأهله المستضعفين، فليس لمثل هؤلاء المستكبرين المتجبرين من علاج ناجع غير الجهاد والنفير في سبيل الله، ذلك أن الناس أصناف شتى أو أجناس متباينون متفاوتون في الطبائع والأهواء والفِطَر، وجماع القول في هذا أن الناس معادن مختلفة، لا جرم أن اختلافهم يفضي بالضرورة إلى الاختلاف في التصورات والأذهان والنفوس، فهم أشتات كاثرة من مختلف الأهواء والمشارب والقناعات، لتتراوح جبلاتهم بذلك ما بين سوي متسق ودود، أو جانح شاطح مُغالٍ، أو موغل في الأثرة وحب الظهور والشهوات، أو سلبي متثاقل وسط.

ومع ذلك كله فإن البشرية في أغلب طبائعها وجبلاتها تجنح للإذعان لدين الله حيث الانصياع لجلاله بالطاعة والاستسلام.

هذه حقيقة البشرية في الغالب إذ تميل نفوسهم ميلاً ذاتياً راغباً في عبادة الله والإقرار له بالوحدانية، ولو حيل بين البشرية وأسباب الصد والقمع والقهر والتشويه التي يثيرها شياطين الإنس لفاءت البشرية إلى طريقها السوي السليم، طريق الهداية والاستقامة والعدل، لكن البشرية بالرغم من جنوحها لعقيدة التوحيد، فقد حيل بينها وبين ذلك مما تجده في طريقها من مختلف المعوقات والمثبطات، مما يصد الناس عن دين الحق بالتضليل أو الإغواء أو الإغراق أو الترهيب، ومن أجل ذلك شرع الجهاد من أجل أن يتصدى المسلمون لمثل هذا الصنف الخبيث من الناس، هذا الصنف الظالم المتعجرف ذو الطبع الجانح السقيم، والفطرة العليلة المتمردة، الذي لا يروق له الإسلام بروعة عقيدته وتشريعه وما حواه من جماع الخير والعدل والفضيلة، هذا الصنف من البشر التائه اللئيم إنما يروق له التمرغ في الجريمة والرذيلة والباطل، ليظل بذلك أسير الطبع المريض الكزّ، والهوى الخسيس الهابط.

من أجل هذا الصنف الفاجر الظلوم من الناس الذي يتصدى لدين الله بالصد والمناهضة أو بالتشويه والتشكيك والإغواء، شرع الجهاد الذي لا سبيل يجدي سواه، فإنه ما من وسيلة أو سبيل في الوعظ الودود أو المجادلة المستفيضة أو الحكمة اللينة الهادئة، إلا والمسلمون أهل لذلك، لا جرم أن المسلمين أكفاء في مواجهة المشركين بكل الأساليب القائمة على الموعظة والمجادلة والملاطفة، حتى إذا أيقن المسلمون بعد ذلك كله أن لا جدوى من ذلك كله وأن لا سبيل يجدي مع المتمردين المستكبرين العتاة سوى الجهاد، فلا مناص لهم حينئذٍ من هذه الوسيلة الرادعة التي تندكُّ بها حصون المجرمين الطواغيت وتتبدد بها قوى الشر والظلم والباطل كيما تمضي بعد ذلك شريعة الحق فتجد سبيلها مبسوطة إلى أذهان البشرية دون معوقات أو حوائل.

وبذلك جاهد النبي ﷺ المشركين الظالمين في عدة غزوات ومواجهات حال حياته وقبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وكان ﷺ في بعض هذه الغزوات والمواجهات يتصدر السرية المجاهدة ليقودها بنفسه من أجل أن

يقاتل المشركين فيدفع كيدهم وأذاهم عن الإسلام والمسلمين.

ونعرض عقب هذا التقديم لشطر من تلك الغزوات في حياة الرسول ﷺ في إيجاز واقتضاب.

غزوة الأبواء:

لما كان شهر صفر عقب مقدم النبي ﷺ المدينة، خرج ﷺ في مائتين من أصحابه مبتغياً بذلك قريشاً وبني ضمرة، واستعمل على المدينة سعد بن عبادة، فبلغ ودّان والأبواء ولم يلقهم ورجع إلى المدينة ولم يلق حرباً، وهذه أول غزاة غزاها بنفسه، وسميت بالأبواء وبودان وهما المكانان اللذان انتهى إليهما النبي ﷺ، وهما متقاربان، وكان صاحب اللواء في هذه الغزوة حمزة بن عبدالمطلب.

غزوة بواط:

بلغ النبي ﷺ أن عيراً لقريش فيها نحو ألفين وخمسمائة، وفيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش، ذاهبة إلى مكة فخرج في ربيع الآخر لاعتراضها واستعمل على المدينة سعد بن معاذ، فانتهى النبي ﷺ إلى بواط ولم يلقَ قريشاً ثم رجع إلى المدينة[١].

البعوث:

بعث النبي ﷺ عدة سرايا لغزو المشركين، يقود كل سرية منها واحد من صناديد الصحابة، ومن هذه البعوث:

بعث حمزة، وذلك عقب الأبواء إذ بعثه في ثلاثين راكباً من المهاجرين إلى سيف البحر، فلقي أبا جهل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة فحجز بينهم مجدي بن عمر الجهني ولم يكن بين القبيلتين قتال.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج٢ ص١٧.

ومنها: بعث عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين راكباً وثمانين من المهاجرين فبلغ ثنية المرار، ولقي بها جمعاً عظيماً من قريش كان عليهم عكرمة بن أبي جهل، وقيل: مكرز بن حفص بن الأخيف ولم يكن بينهم قتال، وكان مع الكفار يومئذٍ من المسلمين المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان إذ خرجا مع الكفار ليجدوا السبيل إلى اللحاق بالنبي ﷺ فهربا إلى المسلمين وجاءا معهم.

ومنها: بعث سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين يطلب كرز بن جابر حين أغار على سرح المدينة فبلغ المرار ورجع.

ومنها: سرية عبدالله بن جحش، فقد أمر النبي ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح أن يتجهز للغزو، فتجهز فلما أراد المسير بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ، فبعث مكانه عبدالله بن جحش في جمادى الثانية من السنة الثانية للهجرة، ومعه ثمانية رهط من المهاجرين وقيل: اثنا عشر رجلاً، وكتب له كتاباً، وأمر أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمر به، ولا يكره أحداً من أصحابه ففعل ذلك، ثم قرأ الكتاب وفيه يأمره بنزول نخلة بين مكة والطائف فيرصد قريشاً ويعلم أخبارهم، فأعلم أصحابه فساروا معه، وأضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما فتخلفا في طلبه، ومضى عبدالله ونزل بنخلة، فمرت عير لقريش تحمل زبيباً وغيره وفيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبدالله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان، فرمى واقد بن عبدالله التيمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله واستأسر عثمان والحكم وهرب نوفل وغنم المسلمون ما معهم، فقال عبدالله بن جحش: إن لرسول الله ﷺ خمس ما غنمتم، وذلك قبل أن يفرض الخمس، وكانت أول غنيمة غنمها المسلمون وأول خمس في الإسلام.

ثم أقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعير والأسرى إلى المدينة، فلما قدموا قال لهم رسول الله ﷺ: **«ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام»** فسُقط في أيديهم وعنَّفهم المسلمون تعنيفاً، وقالت قريش: قد استحل محمد

وأصحابه الشهر الحرام، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٧].

وبذلك فرج الله عن المسلمين ثم قبض رسول الله ﷺ العير، وكانت أول غنيمة أصابوها[١].

إسلام أبي العاص بن الربيع:

أبو العاص بن الربيع هو زوج زينب بنت النبي ﷺ قبل البعثة، وعقب الهجرة إلى المدينة، أقام أبو العاص بمكة وأقامت زينب عند رسول الله ﷺ بالمدينة إذ فرق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام، وكان هذا مأموناً بما له من مال وبما عنده من أموال الرجال من قريش جعلوها عنده، فلما فرغ من تجارته وأقبل راجعاً لقيته سرية لرسول الله ﷺ، فأصابوا ما معه ثم تولى هارباً، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله، أقبل أبو العاص في جنح الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ، فاستجار بها فأجارته وجاء في طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصبح فكبَّر وكبَّر الناس معه، صرخت زينب من صُفَّة[٢] النساء: أيها النساء إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلَّم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال: **«أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟»** قالوا: نعم. قال: **«أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم»**، ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته زينب، فقال: **«أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلُصَنَّ إليك فإنك لا تحلين له»**.

ثم إن المسلمين قد ردوا على أبي العاص ماله كله ولم يفقد منه

---

(١) تاريخ ابن الأثير ج٢ ص١١٠ ـ ١١٤.

(٢) الصفة: الظلة والبهو الواسع العالي السقف، ومكان مظلل في مسجد المدينة كان يأوي إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم النبي ﷺ وهم أصحاب الصفة، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٥١٧.

شيئاً، فاحتمله وقفل راجعاً إلى مكة، فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله ثم قال: يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً، فقال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوُّف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت، ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ، فردّ إليه زينب على النكاح الأول(١).

إسلام عمير بن وهب:

بعد مصاب أهل بدر من قريش وما حلّ بهم من هزيمة وقتل، جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش، وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة، وكان ابنه وهب في أسارى بدر.

وبينما الاثنان ـ عمير وصفوان ـ جالسان يتحدثان ذكرا أصحاب القَليب حيث القتلى من قريش إذ ألقوا فيه، فقال صفوان: والله ما في العيش بعدهم خير، فقال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا دَين عليَّ ليس عندي ما أقضيه به، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي عندهم علة: ابني أسير في أيديهم، فاغتنم صفوان مقالة عمير هذه، وقال مبادراً: عليَّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، فقال له عمير: فاكتم شأني وشأنك، فقال صفوان: أفعل.

ثم أمر عمير بسيفه فشُحِذ له وسُمَّ، ثم انطلق صوب المدينة حتى قدمها، وكان عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به من الغلبة والإعزاز، فنظر عمر فأبصر عمير بن وهب إذ أناخ على باب المسجد متوشحاً سيفه، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب والله ما جاء إلا لشر وهو الذي حرّش بيننا وهو الذي حزر

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص٣١٢ ـ ٣١٤.

عددنا للقوم يوم بدر، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه، قال: **«فأدخله عليّ»**، فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبّبه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه النبي ﷺ، وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: **«أرسله يا عمر، ادن يا عمير»**، فدنا ثم قال: أنعموا صباحاً، وكانت هذه تحية الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: **«قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير بالسلام: تحية أهل الجنة»**، فقال عمير: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد، فقال رسول الله ﷺ: **«فما جاء بك يا عمير؟»**، قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: **«فما بال السيف في عنقك؟»**، قال عمير: قبحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً، فقال له رسول الله ﷺ: **«أصدقني، ما الذي جئت له؟»**، قال: ما جئت إلا لذلك، فقال النبي ﷺ: **«بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمّل لك صفوان بدَينِك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك»**، قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لا أعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: **«فقهوا أخاكم في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره»**، ففعلوا، ثم قال عمير: يا رسول الله إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، وكنت شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وعلا، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم؟ فأذن له رسول الله ﷺ، فلحق بمكة، وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول للناس: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر،

وكان صفوان يسأل عنه الرُّكبان حتى قدم إليه راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً، ولما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ويؤذي من خالفه أذى شديداً، فأسلم على يديه ناس كثير[1].

غزوة بدر الكبرى:

في السنة الثانية للهجرة بلغ النبي ﷺ أن عيراً لقريش فيها أموال عظيمة مقبلة من الشام إلى مكة، ومعها ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش بزعامة أبي سفيان، ومعه عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وكان ذلك في رمضان، فندب النبي ﷺ المسلمين إلى هذه العير وأمر من كان ظهره حاضراً بالخروج، ولم يحشد لذلك حشداً لأنه لم يظن قتالاً، فاستأجر أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفاري، وبعثه إلى أهل مكة يستنفرهم لنجدة عيرهم فنفروا إلا يسيراً، منهم أبو لهب، وخرج النبي ﷺ لثمانٍ خلون من رمضان واستخلف على الصلاة في المدينة عمرو بن أم مكتوم، واستعمل أبا لبابة على المدينة ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ودفع إلى علي راية، وإلى رجل آخر من الأنصار راية أخرى وكانتا كلتاهما سوداوين، وكان مع أصحاب النبي ﷺ يومئذٍ سبعون بعيراً يعتقبونها، وقد بعث النبي ﷺ بسبس بن عمرو الجهني، وعدي بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر ليتسمعا أخبار أبي سفيان وعيره، فبلغه خروج قريش ونفيرهم فاستشار أصحابه فتكلم المهاجرون، والنبي ﷺ إنما يبتغي ما يقوله الأنصار، فتكلم منهم سعد بن معاذ، ومما قاله سعد مخاطباً النبي ﷺ: لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك فسر بنا يا رسول الله على بركة الله، فسُرّ النبي ﷺ بذلك، وقال: «**سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين**»، ثم ارتحلوا إلى قريب من بدر فبعث النبي ﷺ علياً والزبير وسعداً، في نفر يلتمسون الخبر فأصابوا غلامين لقريش فأتوا بهما والنبي عليه الصلاة والسلام قائم يصلي

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص٣١٦ - ٣١٨.

وقالوا: نحن سقاة قريش فكذبوهما وجعلوا يضربونهما، فسلَّم رسول الله ﷺ وأنكر عليهم ضربهما وقال للغلامين: **«أخبراني أين قريش»**، فأخبراه أنهم وراء الكثيب وأنهم ينحرون يوماً عشراً من الإبل ويوماً تسعاً، فقال النبي ﷺ: **«القوم بين التسعمائة والألف»**، ثم رجع أبو سفيان بالعير سريعاً وتنكب بها إلى طريق الساحل فنجا وأوصى إلى قريش بأنا قد نجونا بالعير فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ونقيم به ثلاثاً وتهابنا العرب أبداً، وسبق رسول الله ﷺ قريشاً إلى ماء بدر، ثم نزل مطر فثبط قريشاً عن السير، ونزل رسول الله ﷺ على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة، فقال له الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح: آلله أنزلك بهذا المنزل فلا نتحول عنه أم قصدت الحرب والمكيدة، فقال عليه الصلاة والسلام: **«لا بل هو الرأي والحرب»**، فقال: يا رسول الله ليس هذا بمنزل، وإنما نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ونبني عليه حوضاً فنملؤه ونغوِّر القُلُب (الآبار) كلها فنكون قد منعناهم الماء، فاستحسن قوله النبي ﷺ ثم بنوا له عريشاً يكون فيه ﷺ فيدعو ربه متضرعاً بالنصر، ثم بعثت قريش عمير بن وهب الجمحي ليحزر له أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فيهم فارسان وهما الزبير والمقداد، فحزرهم عمير وانصرف، وسعى حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة للرجوع بقريش ولا يكون الحرب، لكن أبا جهل أبى ذلك وساعده في ذلك المشركون وتواقفت الفئتان، وجعل النبي ﷺ يعدِّل الصفوف بيده ثم رجع إلى العريش ومعه أبو بكر وحده، وطفق النبي ﷺ يلح في الدعاء والتضرع إلى الله ويقول: **«اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الأرض، اللهم أنجز لي ما وعدتني»**، وكان سعد بن معاذ ومعه قوم من الأنصار على باب العريش يحرسون النبي ﷺ، ثم أخفق[1] رسول الله ﷺ فقال: **«أبشر أبا بكر فقد أتى نصر الله»**، ثم خرج يحرِّض الناس على مواجهة المشركين، ورمى في وجوههم بحفنة من حصى وهو يقول: **«شاهت الوجوه»**، ثم تزاحفوا فخرج عتبة وأخوه شيبة

---

(١) أخفق: اضطرب وتحرك، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٢٤٧.

وابنه الوليد يطلبون المبارزة، فخرج إليهم عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبدالمطلب وعلي بن أبي طالب، فقتل حمزة وعلي شيبة والوليد، وضرب عتبة عبيدة فقطع رجله فمات وجاء حمزة وعلي إلى عتبة فقتلاه، ثم استحرّ القتال بين المؤمنين والمشركين فكانت الغلبة للمؤمنين وهزم المشركون وقتل منهم يومئذٍ سبعون رجلاً، وقتل من مشاهيرهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة وحنظلة بن أبي سفيان وزمعة بن الأسود وأبو البختري بن هشام وأبو جهل بن هشام، هذا الشرير العتلّ الذي اشترك في قتله معاذ ومعوذ ابنا عفراء إذ أجهزا عليه حتى إذا أدنف وكان به بقية من رمق جاءه عبدالله بن مسعود وحزَّ رأسه، وكان في القتلى كذلك أمية بن خلف وآخرون غيرهم.

وأسر المسلمون من المشركين آخرين منهم العباس بن عبدالمطلب، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، وعمرو بن أبي سفيان بن حرب، وأبو العاص بن الربيع، والوليد بن الوليد، وعبدالله بن عمرو وسهيل بن عمرو ابنا أبي بن خلف، وآخرون.

واستشهد من المسلمين عدد قليل، فمن المهاجرين عبيدة بن الحارث وعمير بن أبي وقاص وصفوان بن بيضاء ومهجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ أصابه سهم فقتله، وقتل من الأنصار عاقل بن البكير الليثي، ومن الأوس سعد بن خيثمة ومبشر بن عبدالمنذر، ومن الخزرج يزيد بن الحارث وعمير بن الحمام إذ سمع رسول الله ﷺ يحرض المسلمين على الجهاد، وكان عمير يرغب في الجنة وفي يده تمرات يأكلهن فقال: بخ بخ! أما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء! ثم رمى بالتمرات واندفع لقتال المشركين حتى قُتل، وقُتل كذلك عوف ومعوذ ابنا عفراء.

وعقب انجلاء الحرب أمر النبي ﷺ بأن يسحب قتلى المشركين فيلقوا في القليب وأن يطم عليهم التراب، ثم انصرف النبي ﷺ إلى المدينة، وفي الطريق قسم ما غنمه من المشركين كما أمر الله، وعقب ذلك ضرب عنق النضر بن الحارث بن كلدة من بني عبد الدار، ثم ضرب عنق عقبة بن أبي

معيط، هذا الشقي الخبيث الذي اجترأ في وقاحة صارخة وجحود بالغ على إيذاء النبي ﷺ إيذاءً شنيعاً يستهجنه الطبع السليم.

غزوة السويق:

لما انصرف أبو سفيان من بدر نذر أن يغزو المدينة، فخرج في مائتي راكب وأتى بني النضير ليلاً فتوارى عنه حيي بن أخطب ولقيه سلام بن مشكم وضيّفه وأخبره بخبر الناس، ثم رجع ومرّ بأطراف المدينة فحرق فيها نخلاً وقتل رجلين من أهلها في زرع لهما، فنفر النبي ﷺ والمسلمون واستعمل على المدينة أبا لبابة بن عبدالمنذر وفاته أبو سفيان والمشركون وقد طرحوا السويق[1] من أزوادهم ليتخففوا، فأخذها المسلمون فسميت بذلك غزوة السويق، وكانت في ذي الحجة بعد بدر بشهرين.

قتل كعب بن الأشرف:

كعب بن الأشرف من طيء وأمه من يهود بني النضير، وكان كعب حانقاً مضطغناً يكنُّ بالغ الكراهية والعداوة للإسلام والمسلمين.

ولما أصيب أصحاب بدر عقب هزيمة المشركين، وقد بعث النبي ﷺ زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة إلى المدينة مبشرين بخبر النصر الذي كتبه الله لرسوله وللمؤمنين، استشاط كعب غضباً من فرط ما اعتور قلبه من الغل والحقد والحسد، فصاح بالناس قائلاً: ويلكم! أحق هذا، وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس - يريد بذلك قتلى المشركين في بدر - وإن كان محمد أصاب هؤلاء فبطن الأرض خير من ظهرها.

ثم قدم كعب مكة فجعل يحرّض على رسول الله ﷺ، وينشد الأشعار ويبكي على أصحاب القليب. ثم رجع إلى المدينة فشبّب بعاتكة ثم شبّب بنساء المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: **«ومن يقتل كعب بن الأشرف؟»**،

---

(١) السويق: ما يعمل من الحنطة والشعير، انظر: المصباح المنير ج١ ص٣١٦.

فانتدب لذلك محمد بن مسلمة ومُلكان بن سلامة وعباد بن بشر بن وقش والحارث بن بشر بن معاذ وأبو عيسى بن جبر من بني حارثة، وتقدم مُلكان بن سلامة إلى كعب وأظهر له انحرافاً عن النبي ﷺ - عن إذن منه ﷺ - فشكا مُلكان إلى كعب ضيق الحال، وعرض أن يبيعه وأصحابه طعاماً ويرهنوا سلاحهم فأجاب كعب إلى ذلك ورجع إلى أصحابه.

فخرج المسلمون وشيّعهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد في ليلة قمراء وأتوا كعباً فخرج إليهم من حصنه، ومشوا نحوه غير بعيد ثم تناولوه بسيوفهم، ووضع محمد بن مسلمة معولاً كان معه في ثنته[1] فقضى عليه، وصاح عدو الله كعب صيحة شديدة فزع منها أهل الحصون من حواليه وأوقدوا النيران، وقد نجا القوم وجرح منهم الحارث بن أوس ببعض سيوفهم فنزف دمه وتأخر عن أصحابه ثم لحق بهم آخر الليل، فأتوا النبي ﷺ وهو يصلي وأخبروه بما حصل وتفل ﷺ على جرح الحارث فبرأ، وأسلم حينئذٍ حويصة بن مسعود، وكان أخوه محيصة قد أسلم من قبله[2].

غزوة بني قينقاع:

لما انصرف النبي ﷺ من بدر وقف بسوق بني قينقاع في بعض الأيام فوعظهم وذكّرهم ما يعرفون من أمره في كتابهم، وحذّرهم ما أصاب قريشاً من التقهقر والانهزام، لكنهم أساؤوا الرد كعادتهم في الكيد والجحد والمكابرة، فقالوا: لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا يعرفون الحرب فأصبت منهم، والله لئن جربتنا لتعلمن أنا نحن الناس، وقيل: بل قتل مسلم يهودياً بسوقهم في حق فثاروا على المسلمين ونقضوا العهد، ونزل قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: الآية ٥٨].

فسار إليهم رسول الله ﷺ واستعمل على المدينة أبا لبابة، وكانت بنو

(١) الثنة: أسفل البطن.

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٢ ص١٩ - ٢٣.

قينقاع في طرف المدينة في سبعمائة مقاتل منهم ثلاثمائة دارع، ولم يكن لهم زرع ولا نخل بل كانوا تجاراً وصاغة فيعملون بأموالهم وهم قوم عبدالله بن سلام، فحصرهم النبي ﷺ خمس عشرة ليلة لا يكلم أحداً منهم، حتى نزلوا على حكمه فكَتَّفهم النبي ﷺ ليقتلوا، فشفع فيهم عبدالله بن أبي بن سلول، وألحّ في الغربة في ذلك حتى حقن النبي ﷺ دماءهم ثم أمر بإجلائهم وأخذِ ما كان لهم من سلاح وضياع، فلحقوا بخيبر وأخذ رسول الله ﷺ من الغنائم الخمس، وكان ذلك أول خمس أخذه ثم انصرف النبي ﷺ إلى المدينة وحضر الأضحى، وصلّى بالناس في الصحراء وذبح بيده شاتين.

قتل ابن أبي الحقيق:

وهو سلام بن أبي الحقيق، وهو من يهود خيبر وكنيته أبو رافع، وكان يؤذي النبي ﷺ وأصحابه ويحرّض عليهم الأحزاب، وهو في ذلك نظير كعب بن الأشرف، وهما كلاهما من أعداء الله ورسوله والمؤمنين، بل إنهما من المغالين في الكيد للإسلام وأهله، ومن الذين ائتمروا برسول الله ﷺ ليؤذوه فضلاً عن تنفيرهم الناس من دين الإسلام، وذلكم هو ديدن الأشقياء اللُّد في كل زمان، أولئك الذين يتربصون بالإسلام والمسلمين كل الشرور والمكاره، لا جرم أن هؤلاء طغاة مجرمون حقيق بأمة الإسلام أن يقتلوهم.

أما كعب بن الأشرف فقد قتله الأوس كما بيناه آنفاً، ثم استأذن الخزرج رسول الله ﷺ في قتل ابن الحقيق، فأذن لهم في ذلك، فخرج ثمانية نفر من الخزرج وأمّر عليهم النبي ﷺ عبدالله بن عقيل، ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة، فخرجوا في منتصف جمادى الثانية سنة ثلاث للهجرة فقدموا خيبر وأتوا دار ابن أبي الحقيق في علية له بعد أن انصرف سمرهُ ونام، فأغلقوا الأبواب كلها عليهم ونادوه ليعرفوا مكانه بصوته، حتى إذا عاينوه تعاوروه بسيوفهم فقتلوه وخرجوا من القصر وأقاموا ظاهره حتى قام الناعي على سور القصر فاستيقنوا أنه قد مات وذهبوا إلى رسول الله ﷺ

بالخبر، وكان أحد النفر قد سقط من درج العلية فأصابه كسر في ساقه، فمسح عليه النبي ﷺ وبرأ[١].

غزوة أحد:

بعد هزيمة قريش في بدر باتت متغيظة مما أصابها من خسارة في الرجال والمال وفي انتقاص الشوكة، فكانت قريش بذلك تتربص بالنبي ﷺ وبالمسلمين، وتتشوف الانتقام منهم، فطلبوا من أولي الطول والسعة أن يعينوهم بالمال لكي يتجهزوا به لقتال الرسول ﷺ فأعانوهم، وخرجت قريش بأحابيشها وحلفائها من أجل المواجهة، وكان ذلك في شوال من السنة الثالثة، واحتملت قريش معها الظُّعن[٢] لإثارة الحفيظة وكي لا يفروا من أرض القتال.

وقد أقبل المشركون حتى نزلوا قرب أحد مقابل المدينة على شفير واد هنالك وذلك في الرابع من شوال وكانوا ثلاثة آلاف وفيهم سبعمائة دارع ومائتا فرس وقائدهم أبو سفيان، ومعهم من النساء خمس عشرة امرأة يضربن الدفوف ويبكين قتلى بدر، أما النبي ﷺ فقد أشار على أصحابه بالتحصن بالمدينة وأن لا يخرجوا منها في ملاقاة المشركين، بل إن جاءهم المشركون قاتلوهم على أفواه الأزقة، وهو ما رآه عبدالله بن أبي بن سلول، وألحّ الشباب من أصحاب النبي ﷺ - وهم الأكثرون - على الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة، فأقرهم النبي ﷺ على ذلك، فلبس لذلك لأمته وخرج، وقال الذين ألحوا عليه للخروج: يا رسول الله إن شئت فاقعد، فقال ﷺ: **«ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»**، وخرج في ألف من أصحابه واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة ببقية المسلمين في المدينة، ولما سار النبي ﷺ بين المدينة وأحد انخذل عنه عبدالله بن سلول

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج٢ ص٢٢ - ٢٤.

(٢) الظعن: بضم الظاء المشددة جمع، ومفرده: الظعينة وهي الزوجة، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٥٧٦.

في ثلث الجيش مغاضباً، لأن النبي ﷺ والمسلمين خالفوا رأيه في المقام بالمدينة.

وقد سرّحت قريش ركائبها وكراعها في زرع المسلمين عدواناً واغتراراً، وتهيأ النبي ﷺ لقتال المشركين في سبعمائة من أصحابه، فيهم خمسون فارساً وخمسون رامياً، وجعل على الرماة عبدالله بن جبير ورتّبهم خلف جيش المسلمين لكي ينضحوا بالنبل فلا يأتوا المسلمين من خلفهم، ودفع النبي ﷺ اللواء إلى مصعب بن عمير، وأجاز يومئذٍ سمرة بن جندب ورافع بن خديج في الرماة وسنهما خمسة عشر عاماً، وردّ أسامة بن زيد وعبدالله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعمرو بن حرام والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير وزيد بن أرقم وأبا سعيد الخدري، لصغر سنهم إذ كانت سنهم يومئذٍ أربعة عشر عاماً.

وقد جعلت قريش خالد بن الوليد على ميمنة الخيل، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل، وأعطى النبي ﷺ يومئذٍ سيفه بحقه إلى سماك بن خرشة، وهو المكنى بأبي دجانة، وكان رضي الله عنه شجاعاً مقداماً يختال عند الحرب، وكان مع قريش يومئذٍ والد حنظلة غسيل الملائكة، وكان (والد حنظلة) قد ترهّب في الجاهلية وتنسّك، ولما جاء الإسلام غلبت عليه شقوته وفرّ إلى مكة في رجال من الأوس وشهد أحداً مع المشركين وكان يعد قريشاً في جنوح الأوس إليه لكونه سيدهم إلا أنهم عصوه وازدروه وقالوا له: لا أنعم الله لك علينا يا فاسق، فقاتل المسلمين قتالاً شديداً.

وأبلى المسلمون في القتال بلاءً شديداً وفي مقدمتهم حمزة وطلحة وشيبة وأبو دجانة والنضر بن أنس، وأصيب جماعة من الأنصار مقبلين غير مدبرين، ثم اشتد القتال وانهزمت قريش في أول المعركة مما أغرى الرماة أن ينحازوا عن مراكزهم التي أمرهم النبي ﷺ أن لا يبرحوها، وبذلك انكشف المسلمون، فكرّ المشركون كرّة واحدة لقتال المسلمين، واستشهد من المسلمين رجال أعاظم أكرمهم الله بفضيلة الشهادة، ثم طمع الظالمون في الاعتداء على رسول الله ﷺ وقد وصلوا إليه، وكان من حوله قلة من

المؤمنين الصناديد الذين قاتلوا دونه كيلا يَخلُص إليه الأعداء، فأبلوا من حوله بلاءً ليس له في البلاء والشجاعة نظير، فقاتل مصعب بن عمير صاحب اللواء دونه حتى قتل، وجرح رسول الله ﷺ في وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر وهُشم ﷺ في رأسه وشد حنظلة غسيل الملائكة على أبي سفيان ليقتله فاعترضه شداد بن الأسود الليثي فقتله وكان جنباً، فأخبر النبي ﷺ أن الملائكة غسلته فسلوا أهله، فسئلت صاحبته فقالت: خرج وهو جنب لما سمع الهائعة، من أجل ذلك أخبر النبي ﷺ أن الملائكة غسلته.

ونشبت حلقتان من حِلَق المغفر في وجه النبي ﷺ فانتزعهما أبو عبيدة عامر بن الجراح فسقطت ثنيتاه فصار بذلك أهتم، ولحق المشركون رسول الله ﷺ فأطبقوا عليه إطباقاً، وكرَّ دونه نفر من أبطال المسلمين يدفعون عنه الأذى بأجسادهم وأرواحهم فقتلوا كلهم وكان آخرهم عمار بن يزيد، وأبلى طلحة في القتال عظيم البلاء، وكان أبو دجانة يلي النبي ﷺ بظهره فيفتديه بنفسه وكانت تصيبه النبل فلا يتحرك، وأصيبت عين قتادة بن النعمان فرجع وعينه على وجنته فردها النبي ﷺ بيده المباركة فصحت وكانت أحسن عينيه، ثم قام النضر بن أنس إلى جماعة من الصحابة وقد أفزعهم ما حسبوه من موت رسول الله ﷺ، وقالوا مدهوشين فزعين: قتل رسول الله ﷺ! فقال النضر بن أنس: فما تصنعون في الحياة بعد رسول الله ﷺ، قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل الناس وقاتل حتى قُتل ووجد به يومئذٍ سبعون ضربة وطعنة وما عرفه إلا أخته، عرفته بحسن بنانه، وجرح يومئذٍ عبدالرحمٰن بن عوف عشرين جراحة، بعضها في رجله فعرج منها.

أما حمزة فقد ظفر بالشهادة، إذ كان يصول في المعركة صولة المغوار الهصور، يدفع العدوان عن رسول الله ﷺ، ويتصدى للمشركين الظالمين ببسالته وقوة بأسه وشكيمته فينكل بهم أيما تنكيل، لقد ظل هذا المقدام الهزبر يرد الكيد عن رسول الله ﷺ، وهو يواجه المعتدين فيصدهم صداً حتى أزفت ساعة القدر المحتوم إذ طعنه وحشي طعنة الموت فخرّ شهيداً

بعد أن جهد متثاقلاً لضرب وحشي فلم يقدر، ووحشي هو مولى جبير بن مطعم بن عدي، وكان هذا قد وعد وحشياً جعلاً بعتقه إن قتل حمزة، فرآه يبارز سباع بن عبدالعزى فرماه بحربته من حيث لا يشعر فقتله.

وقد وقع النبي ﷺ في حفرة مما حفره المشركون ليسقط فيها المسلمون، فأخذ علي بيد رسول الله ﷺ واحتضنه طلحة حتى قام، ومصّ الدم من جرحه مالك بن سنان الخدري، فخشي المسلمون لما أصاب النبي ﷺ، وقد وهنوا شديد الوهن صريخ الشيطان إذ نادى: ألا إن محمداً قد قُتل، وذلك لأن عمرو بن قميئة كان قد قتل مصعب بن عمير ظناً منه أنه النبي ﷺ، ثم ضربته امرأة من عظميات النساء المسلمات وهي أم عمارة نسيبة بنت كعب بن أبي مازن ـ ضربته ضربات مات منها ـ ثم إن كعب بن مالك من بني سليمة عرف رسول الله ﷺ فنادى بأعلى صوته مبشراً الناس بأن رسول الله ﷺ لم يُقتل، وكان يقول: يا معشر المسلمين أبشروا! هذا رسول الله ﷺ حيٌ لم يُقتل، والنبي ﷺ يقول له: «**أنصت**»، فاجتمع عليه المسلمون يدرأون عنه الشر والأذى ونهضوا معه نحو الشّعب وفيهم أبو بكر وعمر وعلي والزبير والحارث بن الصمة الأنصاري وآخرون، ثم أدركه الشقي الخبيث أبي بن خلف وهو يقول: يا محمد لا نجوتُ إن نجوتَ!! فعطف عليه النبي ﷺ فطعنه بالحربة في عنقه، وكان أبي يقول في مكة لرسول الله ﷺ قبل الهجرة: إن عندي العَود[1] أعلفه كل يوم فرقاً[2] من ذرة أقتلك عليه، فقال له النبي ﷺ: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله تعالى**» فلما رجع أبي إلى قريش وكان مخدوشاً بالطعن خدشاً غير كبير قال للناس: قتلني محمد! قالوا: والله ما بك بأس، قال: إنه قد كان قال لي: «**أنا أقتلك**» فوالله لو بصق علي لقتلني! فمات عدو الله بسرف لدى رجوع المشركين وهو معهم إلى مكة.

ولما جرح رسول الله ﷺ جعل يُنقَل له الماء ويغسل فلم ينقطع الدم،

---

(١) العود: بفتح العين، المسن من الإبل، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٦٣٥.

(٢) الفرق: مكيال لأهل المدينة وهو ستة عشر رطلاً، انظر: مختار الصحاح ص٥٠٠.

فأتت فاطمة رضي الله عنها وجعلت تعانقه وتبكي ثم أحرقت حصيراً ووضعت من رماده على الجرح فانقطع الدم.

فاستشهد بذلك من المسلمين يومئذٍ حمزة ومصعب بن عمير وعبدالله بن جحش في خمسة وستين من أصحاب رسول الله ﷺ معظمهم من الأنصار، وأمر رسول الله ﷺ أن يُدفنوا بدمائهم وثيابهم في مضاجعهم ولم يُغسلوا ولم يُصَلِّ عليهم.

أما المشركون فقد قُتل منهم اثنان وعشرون، منهم الوليد بن العاص وأبو عزة عمرو بن عبدالله، وكان هذا قد أُسر يوم بدر فمنَّ عليه النبي ﷺ وأطلقه بلا فداء على أن لا يعين عليه، لكنه نقض العهد وأسر يوم أحد وأمر النبي ﷺ بضرب عنقه، وكذلك أبي بن خلف قتله رسول الله ﷺ بيده كما بيناه آنفاً.

ثم صعد أبو سفيان الجبل حتى أطلَّ على رسول الله ﷺ وأصحابه، ونادى بأعلى صوته: الحرب سجال، يوم أحد بيوم بدر، أُعْلُ هُبَل، وانصرف وهو يقول: موعدكم العام القابل. أما هند بنت عتبة وصواحباتها فقد وقعن على القتلى من شهداء المسلمين يمثلن بهم تمثيلاً، واتخذت هند من آذان الرجال الشهداء وأنوفهم خلاخيل وقلائد، وأعطت خلاخيلها وقلائدها وحشياً، ثم بقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها.

ثم أشرف أبو سفيان على المسلمين فقال: أفي القوم محمد؟ ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه»، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاثاً، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاثاً، ثم التفت إلى أصحابه، فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، فقال عمر: كذبت أي عدو الله قد أبقى الله لك ما يخزيك، فقال أبو سفيان: أعلُ هبل، أعلُ هبل، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا الله أعلى وأجلّ»، فقال أبو سفيان؛ إنا لنا العزّى ولا عزّى لكم.

فقال رسول الله ﷺ: «الله مولانا ولا مولى لكم»، فقال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك،

فقال: أنت أصدق من ابن قميئة! ثم استحوذت عليه نفسه الحاقدة المستكبرة حتى اجترأ في حقد لئيم خسيس، على حمزة يطعنه في شدقه بالرمح وهو قتيل وهو يناديه: ذق عُقَق! فرآه الحليس سيد الأحابيش فاستنكر فعلته وقال: يا بني كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون، فقال أبو سفيان متراجعاً خجِلاً من فعلته النكراء: اكتمها عني فإنها زلّة.

وكانت أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ، ونساء أخريات من الأنصار يسقين الماء فرماها حبان بن العرفة بسهم فأصاب ذيلها فضحك، فدفع النبي ﷺ سهماً إلى سعد بن أبي وقاص وقال له: «ارْمِه» فرماه فأصابه فضحك النبي ﷺ وقال: **«استقاد لها سعد، أجاب الله دعوتك وسدّد رميتك»**.

ثم أمر رسول الله ﷺ رجلاً أن ينظر في القتلى، فرأى سعد بن الربيع الأنصاري وبه رمق، فقال سعد للذي رآه: أبلغ رسول الله ﷺ عني السلام وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومي السلام وقل لهم: لا عذر لكم عند الله إن خَلُص إلى رسول الله ﷺ أذى وفيكم عين تطرف، ثم مات رضي الله عنه.

ولما رأى النبي ﷺ حمزة وقد بُقِر بطنه عن كبده ومُثّل به تمثيلاً وجد له كثيراً وقال: **«لولا أن تحزن صفية أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يكون في أجواف السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش لأُمَثّلَنَّ بثلاثين رجلاً منهم»**، وقال المسلمون: لَنُمَثّلَنَّ بهم مُثْلة لم يمثلها أحد من العرب، فأنزل الله في ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: الآية ١٢٦] فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المثلة.

وكان في المسلمين رجل اسمه قُزْمان، وكان النبي ﷺ يقول عنه: **«إنه من أهل النار»**، فقاتل يوم أحد قتالاً شديداً، فقتل من المشركين ثمانية أو تسعة، ثم جُرح فحُمل إلى داره، وقال له المسلمون: أبشر قزمان! قال: بمَ أبشر وأنا ما قاتلت إلا عن أحساب قومي؟ ثم اشتد عليه جرحه فأخذ سهماً

فقطع رواهشه[1] فنزف الدم فمات، فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «**أشهد أني رسول الله**».

وكان ممن قتل في أحد مخيريق اليهودي، وقد قال في ذلك اليوم ليهود: يا معشر يهود، لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق، فقالوا: إن اليوم السبت، فقال: لا سبت، وأخذ سيفه وعدته وقال: إن قُتِلتُ فمالي لمحمد يصنع به ما يشاء، ثم انطلق يقاتل مع المسلمين حتى قُتل، فقال رسول الله ﷺ: «**مخيريق خير يهود**».

ولما احتمل بعض الناس قتلاهم إلى المدينة، أمر النبي ﷺ بدفنهم حيث صُرعوا، وأمر أن يُدفن الاثنان والثلاثة في القبر الواحد.

فلما دفن الشهداء انصرف رسول الله ﷺ فلقيته حمنة بنت جحش، فنعى لها أخاها عبدالله فاسترجعت له، ثم نعى لها خالها حمزة فاستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير، فولولت وصاحت، فقال النبي ﷺ: «**إن زوج المرأة منها لبمكان**».

ومرّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار فسمع البكاء والنوائح فذرفت عيناه فبكى، وقال: «**لكن حمزة لا بواكي له!**»، فرجع سعد بن معاذ إلى دار بني الأشهل فأمر نساءهم أن يذهبن فيبكين على حمزة.

ومرّ رسول الله ﷺ بامرأة من الأنصار قد أصيب أبوها وزوجها، فلما نُعيا لها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قال: هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه، فلما نظرت إليه قالت: كل مصيبة بعدك جلل[2].

ذلكم هو الإيمان الدافق الصدوق، والعقيدة الراسخة المركوزة في أعماق الصدور، العقيدة المكينة المستكنة التي تسوّل لهذا الصنف من البشر المميز أن يذوق حلاوة التقوى فيحب الله ورسوله أكثر مما سواهما، لا جرم أن هذه المرأة الصادقة أنموذج ناصع يكشف عن حقيقة المؤمن الذي تهون

---

(١) الرواهش: عروق باطن الذراع أو ظاهر الكف، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٣٧٧.

(٢) تاريخ ابن الأثير ج٢ ص١٥٥ ـ ١٦٣، وتاريخ ابن خلدون ج٢ ص٢٤ ـ ٢٧.

في نفسه وحسه وتصوره كل رواسب الأرض ومقوماتها، واعتباراتها وما يركم فيها من شهوات ومغريات إذا ما قورن ذلك بما يشغل الذهن من كبير الاهتمامات والتطلعات، التي تراود خيال المؤمنين الصادقين، وهم تهفو قلوبهم لرفعة الإسلام وعلو شأنه وانتشاره خفّاقاً في العالمين.

غزوة حمراء الأسد:

في السادس عشر من شوال وفي صبيحة يوم أحد، أذّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج لطلب المشركين المعتدين وأن لا يخرج إلا من حضر معه بالأمس، وفسح لجابر بن عبدالله ممن سواهم ليخرج معهم، فخرجوا على ما بهم من كبير الجهد والجراح، وصار النبي ﷺ متجلداً مرهباً للأعداء وانتهى إلى حمراء الأسد، على ثمانية أميال من المدينة، وأقام بها ثلاثة أيام، ومرّ به معبد الخزاعي سائراً إلى مكة ولقي كفار قريش بقيادة أبي سفيان بالروحاء، فأخبرهم بخروج النبي ﷺ في طلبهم، وكانوا عازمين على الرجوع إلى المدينة، حتى إذا سمعوا مقالة معبد الخزاعي عن خروج النبي ﷺ لملاقاتهم تخاذلوا ونكصوا على أعقابهم راجعين إلى مكة.

أما النبي ﷺ فقد عاد إلى المدينة وظفر في طريقه بأبي عزّة عمرو بن عبيدالله الجمحي، وكان قد تخلّف عن قريش بحمراء الأسد فساروا وتركوه نائماً، وكان أبو عزة قد أسر يوم بدر فأطلقه رسول الله ﷺ بغير فداء، لأنه شكا إلى النبي ﷺ فقره وكثرة عياله، فأخذ عليه النبي ﷺ العهد أن لا يقاتله ولا يعين على قتاله، لكنه نقض العهد بخروجه مع المشركين في أحد وتحريضه على المسلمين، فلما أتي به إلى رسول الله ﷺ قال له: يا محمد أمنُنْ علي، فقال رسول الله ﷺ: **«لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين»** ثم أمر بقتله.

غزوة الرجيع:

وهذه في صفر من السنة الرابعة للهجرة، وكان سببها أن رهطاً من عضل والقارة قدموا على النبي ﷺ فقالوا: إن فينا إسلاماً فابعث لنا نفراً

يفقهوننا في الدين ويقرئوننا القرآن، فبعث معهم ستة نفر وأمّر عليهم عاصم بن ثابت، حتى إذا كانوا بالهدأة غدروهم واستصرخوا عليهم حياً من هذيل، يقال لهم: بنو لحيان، فبعثوا لهم مائة رجل، فالتجأ المسلمون إلى جبل فاستنزلوهم وأعطوهم العهد، فقال عاصم: والله لا أنزل على عهد كافر، اللهم خبر نبيك عنا! وقاتلهم هو ومرثد وخالد بن البكير، ونزل إليهم ابن الدثنة وخبيب بن عدي ورجل آخر، فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أتبعكم! فقتلوه وانطلقوا بخبيب وابن الدثنة، فباعوهما بمكة، أما خبيب فأخذه بنو الحارث بن عامر، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث بأحد، فأخذوه ليقتلوه بالحارث، فبينما خبيب عند بنات الحارث استعار من بعضهن موسى (يحلق به عانته) قبيل أن يُقتل، فجلس صبي لها على فخذ خبيب والموسى في يده، فصاحت المرأة، فقال خبيب: أتخشين أن أقتله؟ إن الغدر ليس من شأننا، فكانت المرأة تقول: ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب، لقد رأيته وما بمكة ثمرة وإن في يده لقطفاً من عنب يأكله، ما كان إلا رزقاً رزقه الله خبيباً.

فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه جاؤوا به إلى التنعيم ليصلبوه، وقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا، قالوا: دونك فاركع، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة، فكان خبيب بن عدي أول من سنَّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين، ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلّغه الغداةَ ما يصنع بنا، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً، ثم قتلوه رحمه الله.

أما عاصم بن ثابت فإنهم أرادوا رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد وكانت نذرت أن تشرب الخمر في رأس عاصم لأنه قتل ابنيها في أحد، فأرسل الله الدَّبر فحمت عاصماً منهم، فتركوه إلى الليل إذ تسكن فيه الدبر فيأخذونه، لكن الله عز وعلا حفظ عبده المؤمن المجاهد الصابر إذ بعث الوادي بسيله الجارف فاحتمل عاصماً، وكان هذا قد عاهد الله أن لا يمس

مشركاً ولا يمسه مشرك فمنعه الله في مماته كما مُنع في حياته.

وأما ابن الدثنة فقد بعث به صفوان بن أمية مع غلامه نسطاس إلى التنعيم ليقتله بابنيه، فقال نسطاس: أنشدك الله أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال ابن الدثنة مستسخراً بهم مستخفاً ما قاله نسطاس: ما أحب أن محمداً الآن مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قتله نسطاس.

غزوة بئر معونة:

وهذه في صفر من السنة الرابعة للهجرة، إذ قدم أبو براء بن عازب سيد بني عامر بن صعصعة المدينة، فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يَبْعُد من الإسلام، وقال: إن أمرك هذا لحسن يا محمد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك لرجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: «**أخشى عليهم أهل نجد**» فقال أبو براء: أنا لهم جار، فبعث رسول الله ﷺ سبعين رجلاً، وقيل: كانوا أربعين، فيهم المنذر بن عمرو الأنصاري، والحارث بن الصمّة، وحرام بن ملحان، وعامر بن فهيرة وغيرهم، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب النبي ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر إلى الكتاب وعدا على حرام فقتله، فلما طعنه قال: الله أكبر فزت ورب الكعبة! واستصرخ بني عامر فلم يجيبوه وقالوا: لن نخفر أبا براء، أي لن ننقض عهده، لأنه أجارهم، ثم استصرخ بني سليم: عُصَيَّة ورعلاً وذكوان فأجابوه، وخرجوا لقتال أصحاب رسول الله ﷺ فأحاطوا بهم وقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن زيد الأنصاري فقد تركوه وبه رمق فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وكان في سرح القوم عمرو بن أمية ورجل من الأنصار، فرأيا الطير تُحَوِّم على العسكر فقالا: والله إن لهذه الطير لشأناً، فأقبلا ينظران فإذا القوم صرعى، وإذا الخيل واقفة، فقال عمرو: نلحق برسول الله ﷺ فنخبره

الخبر، فقال الأنصاري: لا أرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل القوم حتى قتل، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل، وخرج عمرو حتى إذا كان بالقرقرة لقي رجلين من بني عامر فنزلا معه ومعهما عقد من رسول الله ﷺ يعلم به عمرو فقتلهما، ثم أخبر النبي ﷺ الخبر فقال له: **«لقد قتلت قتيلين لأَدِيَنَّهما»**[١]، ثم قال رسول الله ﷺ: **«هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً»**، فبلغ ذلك أبا براء فشقّ عليه إخفار عامر إياه، وما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره.

وقد أنزل الله عز وجل في أهل بئر معونة قرآناً: بلِّغوا قومنا عنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه، ثم نُسخت[٢].

إجلاء بني النضير:

والسبب في ذلك أن عامر بن الطفيل أرسل إلى النبي ﷺ يطلب منه دية العامريين الاثنين، اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، فخرج النبي ﷺ إلى بني النضير في السنة الرابعة، يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر، وكان معه بعض أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي، فقال له بنو النضير: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض ليمكروا به مكرهم الخبيث، وذلكم شأن يهود في التحيل والتربص بالمؤمنين وتدبير المكائد لهم، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه وقد كان رسول الله ﷺ جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم ـ فمن رجل منكم يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش، فنهاهم عن ذلك سلاّم بن مشكم وقال: هو يعلم، فلم يقبلوا منه، فصعد عمرو بن جحاش ليلقي عليه صخرة، فأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما يريده القوم، فقام وخرج

---

(١) أدينهما: أدفع ديتهما.

(٢) تاريخ ابن الأثير ج٢ ص١٦٤ ـ ١٧٣، وتاريخ ابن هشام ج٣ ص١٧٨ ـ ١٩٨.

راجعاً إلى المدينة، فلما استلبثه أصحابه قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه ﷺ فقال: رأيته دخل المدينة، فأقبل أصحاب النبي ﷺ إلى المدينة فوجدوه ﷺ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود تخفي من الكيد له والغدر به، ثم أمر النبي ﷺ أن يتهيأوا لحربهم والسير إليهم، وقد استعمل على المدينة ابن أم مكتوم، ثم سار بالمسلمين حتى نزل بساحة يهود فحاصروهم ست ليال، فتحصّن اليهود في الحصون فأمر النبي ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها زيادة في التنكيل بهم ولكي يحملهم على الخروج من حصونهم وأوكارهم حيث يختبئون، فنادت يهود في استيئاس وخزي: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها.

ولئن عجبت يهود من قطع شجرات أو تحريقها طلباً لإخراجهم من أوكار الكيد والغدر فلا تطول بهم مدة الحصار والتنكيل، فلا جرم أنهم هم أعظم الناس إفساداً وتخريباً وإيذاءً للبشرية بما يندرج في ذلك من صنوف الويلات، ما بين ترهيب وتقتيل وتشريد وقمع وإبادة للأفراد والمجتمعات بالكلية، وأصدق برهان على ذلك ما حلّ بالمسلمين في فلسطين من استئصال وإبادة، فضلاً عما حاق بهم من ألوان التنكيل والترعيب والإفزاع، وما فتىء المسلمون من أهل فلسطين يكابدون حتى الساعة وطيلة خمسين عاماً صوراً شتى من الإذلال والقمع والإرهاب.

أما عبدالله بن أبي بن سلول ـ رأس النفاق في المدينة ـ فقد أرسل هو وجماعة معه إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنَّعوا فإنا لن نسْلِمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم، فتربص بنو النضير من نصرهم وما وعدوهم به فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا النبي ﷺ أن يجليهم من أرضهم ويكف عن دمائهم فيأمنوا على أنفسهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح يتركونه وراءهم فأجابهم النبي ﷺ لذلك، فاحتملوا من الأموال ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام وسار أكابرهم إلى خيبر، منهم سلام بن

أبي الحقيق وكنانة بن الربيع وحيي بن أخطب.

وقد خلوا أموالهم لرسول الله ﷺ، فكانت له خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار، إلا أن سهل بن نصير وأبا دجانة ذكرا فقراً فأعطاهما، ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان هما: يامين بن عمير، وأبو سعد بن وهب.

ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها وفيها تبيان لما مُني به بنو النضير من هزيمة وخزي، وتبيان لحقيقة يهود في جنوحهم على الدوام، للغدر والإيذاء والكيد للناس، فضلاً عما يستحوذ على طبائعهم المسفة من ظواهر الجبن والأنانية والشح وعبادة المال، قال جل جلاله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: الآية ٢].

غزوة ذات الرقاع:

وهي في السنة الرابعة، سميت ذات الرقاع لأن المسلمين فيها قد رقَّعوا راياتهم، ويقال: نسبة لشجرة بذلك الموضع يقال لها: ذات الرقاع.

فإنه بعد غزوة بني النضير غزا النبي ﷺ نجداً، يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، ويقال: عثمان بن عفان، فنزل النبي ﷺ نخلاً وهي موضع بنجد من أرض غطفان.

فلقي بها جمعاً عظيماً من غطفان، فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضاً، وقد صلى النبي ﷺ بالمسلمين صلاة الخوف، ثم انصرف بهم.

وعن جابر بن عبدالله أن رجلاً من بني محارب يقال له: غورث، قال لقومه: ألا أقتل لكم محمداً؟ قالوا: بلى، وكيف تقتله؟ قال: أفتك به، فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس، وسيف رسول الله ﷺ في حجره،

فقال: يا محمد، أَنظُرُ إلى سيفك هذا؟ قال: «نعم»، فأخذه غورث فاستله ثم جعل يهزه فيكبته (يذله) الله، ثم قال: يا محمد، أما تخافني؟ قال: «لا وما أخاف منك؟»، قال: أما تخافني وفي يدي السيف؟ قال: «لا، يمنعني الله منك»، ثم عمد غورث إلى السيف فرده على رسول الله ﷺ[1].

وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: الآية ١١].

زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش:

زينب بنت جحش، هي ابنة عمة الرسول ﷺ، وكان قد زوَّجها مولاه زيد بن حارثة، وكان يقال له: زيد بن محمد، وقد تزوج النبي ﷺ زينب عقب زواج مولاه زيد منها، فكانت زينب تفخر على نساء النبي الأخريات وتقول: زوجكن أهلوكنّ، وزوَّجني الله من السماء.

وكان زيد حال زواجه من زينب يجد منها استعلاء عليه إذ تخاطبه بالفظاظة من القول لإحساسها أن زيداً عبد وأنها ذات شرف واعتبار، فكثيراً ما كان زيد يشكو شأنه معها إلى رسول الله ﷺ مبدياً في ذلك رغبة في طلاقها.

وقد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧].

وثمة تفضيل للعلماء في تأويل هذه الآية، وقد أسرف بعضهم في ذلك حتى جنح جنوحاً مغالياً وغير مقبول، وهو جنوح لا يتفق وحقيقة العصمة المميزة التي اختص بها النبيون في مقدمتهم إمام العالمين النبي

(١) سيرة ابن هشام ج٣ ص١٩٩ ـ ٢١٨، وتاريخ ابن الأثير ج٢ ص١٧٣ ـ ١٧٥.

المكرم المفضال الذي يسمو على الشهوات والأهواء وحظوظ النفس من متاع الدنيا.

وأفضل ما روي من تأويل للمفسرين والعلماء الراسخين لهذه الآية ما قاله علي بن الحسين:

إن النبي ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيداً يطلق زينب وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكّى زيد للنبي ﷺ خُلُق زينب، وأنها لا تطيعه وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية: **«اتق الله وأمسك عليك زوجك»**، وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه، وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس بسبب زواجه زينب بعد زيد وهو متبناه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه ربه على خشيته الناس في شيء قد أباحه الله له بأن قال له: **«أمسك عليك زوجك»**، مع علمه بأنه مطلقها، والله أحق أن يخشى في كل حال[1].

ذلكم تأويل نيّر ومقبول وهو التأويل الذي يتفق وعصمة النبي الأعظم ﷺ.

أما أن يرجف بعض المتأولين في لجاجة وغفلة، بأن النبي ﷺ قد عشق زينب لما رآها حاسرة إذ رفعت الريح ستراً من الشعر على بابها، فأعجبته!!

إن ذلكم اجتراء مستهجن وممجوج على سيد البشر الذي يفوق بكمال طهره ووضاءة سريرته الزكية المثلى، مراتب الأطهار أولي الإشراق والنورانية، وهم ملائكة الرحمٰن!

ومما ينقض مثل هذا المزعم الممجوج أن زينب لم تكن غريبة عن النبي ﷺ فهي ابنة عمته، فهو بذلك يعلم أمرها وحقيقتها، فلا مدعاة

---

(١) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٨٨ ـ ١٩١، وتاريخ ابن الأثير ج٢ ص١٧٧.

للدهش لذى رؤيتها، وذلك في حق الأجانب من الرجال غير أولي القداسة والشفافية، فكيف إذا كان ذلك هو رسول الله ﷺ، بزهده الأمثل وبهائه الرهيف وإشراقه الوضاء؟!

غزوة الخندق (الأحزاب):

وكانت هذه في شوال من السنة الخامسة، وكان سببها أن نفراً من يهود بني النضير، منهم: عبدالله بن سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب وهوذة بن قيس الوائلي وغيرهم، قد حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فخرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا لهم: إنا كائنون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، أنتم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، فهل ديننا خير أم دين محمد؟ فقالت يهود: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه!!

ذلكم لعمر الحق تخريص وظلم وباطل يهذي به قوم جواظون لدّ ضالعون ـ طيلة حياتهم ـ في الافتراء والكذب والغدر، مجانبون للصواب والسداد من القول، لا جرم أن اليهود كانوا في زمانهم أعلم الناس بنبوة محمد ﷺ، وبصدق رسالته للعالمين وأنه مبعوث للناس من رب العالمين، وهو ما يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، لكنهم لفرط سقمهم وفساد جبلاتهم، ألقوا بغشاء الإغفال والنسيان على ما حدثتهم به التوراة صراحة فجحدوا بذلك نبوة محمد ﷺ، بل تزاحموا في اهتمام بالغ لإيذاء رسول الله ﷺ، أو قتله إن استطاعوا وتمالؤوا على مر الزمن على الإسلام والمسلمين لاستئصالهم البتة!

أولئك المضلون المفسدون قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء: الآيتان ٤٤،٤٥].

ولما قالوا لقريش مقالتهم في تفضيلهم على المسلمين كان ذلك

تحريضاً مؤثراً للمشركين على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك، وخرج أولئك النفر من شرار يهود فجاؤوا غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم اصطفافهم إلى جانبهم في القتال وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك فوافقوهم على ذلك.

ثم خرجت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب، وخرجت غطفان بقيادة عيينة بن حصن، وكذلك بنو مرة بقيادة الحارث بن عوف، وغيرهم آخرون خرجوا لقتال المسلمين.

ولما سمع رسول الله ﷺ بذلك وما أجمع الكفار له من الأمر، أمر بضرب الخندق على المدينة، وكان النبي ﷺ يعمل في الخندق ترغيباً للمسلمين في العمل، وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عمل الخندق رجال من المنافقين فكانوا يتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن منه، وهذا ديدن المنافقين في كل زمان إذ يبطئون عن أي سخاء أو خير ويجنحون دائماً للتلصص والتدسس والاختفاء عن الأنظار.

ولقد عمل المسلمون في الخندق لإنجازه حتى أحكموه، وقد تحقق خلال حفر الخندق جملة معجزات تشهد لرسول الله ﷺ بصدق النبوة وأنه مبعوث من الله لهداية العالمين.

ومن هذه المعجزات ما ذكره جابر بن عبدالله قال: عملنا مع رسول الله ﷺ في الخندق، فكانت عندي شويهة غير جد سمينة فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله ﷺ، فأمرت امرأتي فطحنت لنا شيئاً من شعير فصنعت لنا منه خبزاً وذبحت تلك الشاة فشويناها لرسول الله ﷺ، فلما أمسينا وأراد رسول الله ﷺ الانصراف عن الخندق ـ وكنا نعمل فيه نهارنا، فإذا أمسينا رجعنا إلى أهلنا ـ قلت: يا رسول الله إني صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا منها شيئاً من خبز هذا الشعير، فأحب أن تنصرف معي إلى منزلي، وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله ﷺ وحده، فلما أن قلت له ذلك قال: «نعم»، ثم أمر صارخاً فصرخ: أن انصرفوا مع رسول الله ﷺ

إلى بيت جابر بن عبدالله، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فأقبل رسول الله ﷺ وأقبل الناس معه، فجلس وأخرجناها إليه، فبرك ﷺ وسمى الله ثم أكل، وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس حتى صدر أهل الخندق عنها.

ومثل هذا الحدث المثير لا يتحقق في غير كنف النبوة الصادقة، نبوة محمد ﷺ، لا جرم أن ذلك صنف من المعجزات الحسية التي حفلت بها حياة رسولنا الكريم ﷺ.

وذكر أن ابنة لبشير بن سعد، أخت النعمان بن بشير، قالت: دعتني أمي عَمْرة بنت رواحة فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي ثم قالت: أي بنية، اذهبي إلى أبيك وخالك عبدالله بن رواحة بغدائهما، فأخذتها فانطلقت بها فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي، فقال ﷺ: **«تعالي يا بنية، ما هذا معك؟»**، فقلت: يا رسول الله، هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد، وخالي عبدالله بن رواحة يتغديانه، فقال: **«هاتيه»**، فصببته في كفّيْ رسول الله ﷺ، فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له، ثم دحا[1] بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: **«اصرخ في أهل الخندق، أن هلمّ إلى الغداء»**، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب.

وهذا صنف من الإعجاز الحسي يتجلى لرسول الله ﷺ فضلاً عما يتجلى به خلق هذا النبي المعظم وما كان يتميز به من عجيب الصفات والمزايا، وفي مقدمة ذلك مزية البركة التي تحف برسول الله ﷺ فلا تبرحه في حل ولا ترحال، بركة عارمة مستفيضة تنطق بصدق هذا النبي المبارك وأنه مرسل من رب العالمين، وكذلك مزية الإيثار الكامل الذي يسمو على حظ النفس في الأثرة أو حب الذات.

لقد كان ﷺ يفيض قلبه حباً ورحمة للبشر داعياً في ذلك إلى المودة

---

(١) دحا بالتمر: أي: بسطه، انظر: مختار الصحاح ص٢٠٠.

والائتلاف والإخاء، كأنما الناس جميعاً رجل واحد إذا اشتكى رأسه اشتكى كله، وهو مقتضى ما ورد عنه في ذلك من خبر.

وثمة مثال ثالث مروي عن سلمان الفارسي قال: ضربت في ناحية من الخندق فغلظت علي صخرة ورسول الله ﷺ قريب مني، فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان عليّ، نزل فأخذ المعول من يدي فضرب به ضربة لمعت تحت المعول بَرْقة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ فقال ﷺ: **«أوَ قَدْ رأيت ذلك يا سلمان؟»** قلت: نعم، قال: **«أما الأول فإن الله فتح عليَّ بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليَّ بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح عليَّ بها المشرق»**.

وروي في هذا الصدد عن أبي هريرة أنه قال حين فتحت هذه الأمصار في زمان عمر، وزمان عثمان، وما بعده: افتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق، أقبلت قريش فنزلت بين الجرف وزغابة (اسم موضع)، في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة.

وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلْع (جبل بالمدينة)، في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، واستعمل النبي ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر بالذراري والنساء فجُعلوا في الآطام (الحصون).

تحريض يهود وكيدهم:

ذلكم عدو الله حيي بن أخطب النضري، الشيطان العاتي، والشقي الخبيث الماكر، خرج يكيد للإسلام والمسلمين، ويحرض اليهود وغيرهم

على قتال النبي ﷺ، فأتى كعب بن أسد القرظي، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان كعب قد وادع رسول الله ﷺ على قومه (بني قريظة) وعاقده على ذلك وعاهده، فلما سمع كعب بقدوم حيي بن أخطب، أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حيي: ويحك يا كعب! افتح لي، فقال كعب: ويحك يا حيي! إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أرَ منه إلا وفاء وصدقاً، فقال حيي: ويحك، افتح لي أكلمك، فقال: ما أنا بفاعل، قال: والله ما أغلقت دوني إلا عن جشيشتك[1] أن آكل معك منها، فأغضبه بمقالته هذه ففتح له، فقال حيي: ويحك يا كعب لقد جئتك بعز الدهر، وجئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم إلى جانب أحد وكلهم عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه، فقال له كعب: لقد جئتني والله بذل الدهر وبجهام[2] أهريق ماؤه، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك يا حيي! فدعني وما أنا عليه، فإني لم أرَ من محمد إلا صدقاً ووفاءً، فلم يزل حيي بكعب يراوضه ويخاتله ويجادله بمعسول القول المخادع حتى استمع كعب لقوله ورضي بما أشار عليه فأعطاه حيي عهداً من الله وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل كعب مع حيي في حصنه حتى يصيبه ما أصابه. وبذلك نقض كعب بن أسد عهده مع المسلمين وقطع ما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

إن ذلك برهان كبير يكشف ما يستتر به يهود من غشاء المراوغة والتضليل، إن ذلكم برهان مجلجل تستبين به طبيعة يهود وحقيقة ما تنطوي عليه طبائعهم من جنوح للغدر والخيانة وما يقتضيه ذلك من نبذ للعهود والمواثيق كيلا يكونوا بعد ذلك موضع ائتمان أو تصديق.

ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ نقض كعب للعهد بعث ﷺ سعد بن

---

(١) الجشيشة: ما جش من البر وغيره، وجش البر أي: طحنه فهو جشيش ومجشوش، والسويق: جشيش، انظر: مختار الصحاح ص١٠٤.

(٢) الجهام: بالفتح، السحاب الذي لا ماء فيه، انظر: مختار الصحاح ص١١٥.

معاذ، وهو سيد الأوس، وسعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، ومعهما عبدالله بن رواحة وخوّات بن جبير، وقال لهم: **«انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً[1] أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس»**.

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: مَن رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد! فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وكان سعد ذا حدة، فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أعظم من المشاتمة، ثم رجع سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا: عَضَل والقارة، يعني كما فعلت قبيلتا عضل والقارة بأصحاب الرجيع وهم خبيب وأصحابه إذ خانوهم وغدروا بهم ثم قتلوهم، ويشبههم في ذميمة الغدر والخيانة ونقض العهود هؤلاء اليهود، فقال النبي ﷺ: **«الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين»**.

ولما شاع خبر النقض من اليهود في صفوف المسلمين، اشتد الخوف وازداد البلاء والمحنة، وحينئذٍ أتاهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم، فظن المسلمون الظنون، واستطار حينئذٍ شأن النفاق والمنافقين إذ وجدوا من شدة الأمر وفظاعة ما ألم بالمسلمين ما ينطق ألسنتهم بالنفاق للنيل من رسول الله ﷺ، ومن جملة هؤلاء، المنافق معتب بن قشير إذ قال: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وذلكم إسفاف من القول الذي يُماط به اللثام عن حقيقة المنافقين أولي العزائم الخائرة، الذين يثيرون في أرض الإسلام كل معالم الريبة والتشويه والإياس.

ولقد أقام النبي ﷺ في مواجهة المشركين والأحزاب على هذه الحال

---

(١) اللحن: لحنت له لحناً: قلت له قولاً فهمه عني وخفي على غيره، ولحن الكلام: فحواه ومعاريضه، ولحن القول هو كالعلامة بشاربها فيفهم المراد، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٢١٣.

من الشدة والفزع وفظاعة الترصد والترقب بضعاً وعشرين ليلة، فلم تكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبال.

ولما اشتد على الناس البلاء وأحدقت بهم الملمات والمخاوف بعث النبي ﷺ إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح وكتبوا الكتاب ولم تقع شهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة في ذلك فقط.

وقبل أن يستقر الأمر على ذلك بعث النبي ﷺ إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه، فقال سعد وسعد: يا رسول الله، هل ذلك أمر تحبه فنصنعه أم هو شيء أمرك الله به فلا بد لنا أن نعمل به، أم هو شيء تصنعه لنا؟ فقال النبي ﷺ: «**بل هو شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما**»، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرى[1] أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا! والله ما لنا بهذا من حاجة. والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ: «**فأنت وذاك**»، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من كتابة، فأقام النبي ﷺ والمسلمون، ومن حولهم الأعداء يحاصرونهم ولم يكن بينهم قتال إلا أن فوارس من قريش، منهم عمرو بن عبد وُد وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب الفهري ونوفل بن عبدالله، تهيؤوا للقتال ثم خرجوا على خيلهم يريدون المواجهة والقتال، ثم أقبلوا مسرعين حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ويقال: إن سلمان الفارسي هو صاحب الرأي في ذلك، إذ أشار على رسول الله ﷺ بحفر

---

(١) قرى: طعام الضيف.

الخندق، هذا الذي تباهى به المسلمون من مهاجرين وأنصار، إذ قال المهاجرون يوم الخندق: سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت».

ثم اقتحم بعض المشركين الخندق من مكان ضيق فيه فجالت بهم الخيل في السبخة[1]، فخرج علي بن أبي طالب في نفر من صناديد المسلمين فأخذوا عليهم الثغرة، وكان عمرو بن عبد ود قد شهد بدراً وقاتل حتى كثرت جراحه ولم يشهد أحداً، وشهد الخندق وقد وضع لنفسه علامة ليعرف مكانه، فقال له علي بن أبي طالب: يا عمرو إنك عاهدت أن لا يدعوك رجل من قريش إلى خصلتين إلا أخذت إحداهما؟ قال عمرو: أجل، فقال له علي: فإني أدعوك إلى الله والإسلام، قال عمرو: لا حاجة لي بذلك، فقال علي: فإني أدعوك إلى النزال، قال: والله ما أحب أن أقتلك، قال علي: ولكني أحب أن أقتلك، فغضب عمرو بذلك ونزل عن فرسه وعقره[2] ثم أقبل على علي فتجاولا وقتله علي رضي الله عنه، ثم خرجت خيلهم مدبرة مهزومة، وقُتل مع عمرو بن عبد ود رجلان آخران من الذين اقتحموا الخندق، إذ قتل أحدَهما عليٌّ، وأصاب آخرَ سهمٌ فمات بمكة.

وقد أصيب سعد بن معاذ بسهم فقطع به أكْحُلَه، إذ رماه حبان بن قيس، ولما رمى سعداً قال: خذها وأنا ابن العرقة، والعرقة: أمه، فقال النبي ﷺ: «عرّق الله وجهك في النار»، وكان سعد بن معاذ يقول: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليّ أن أقاتلهم من قوم آذوا نبيك وكذبوه، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة، وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية.

وكانت صفية عمة النبي ﷺ مع النساء في حصن لحسان بن ثابت،

---

(١) السبخة: أرض ذات ملح وماء ينز، انظر: مختار الصحاح ص٢٨٢.

(٢) عقر البعير أو الفرس بالسيف فانعقر، أي: ضرب قوائمه به فهو عقير، انظر: مختار الصحاح ص٤٤٥.

وكان حسان معهن في الحصن، قالت صفية: فأتانا آت من اليهود فقلت لحسان: هذا اليهودي يطوف بنا ولا نأمنه أن يدل على عوراتنا فانزل إليه فاقتله، فقال حسان: والله ما أنا بصاحب ذلك، أي: لم يجرؤ حسان على قتله، لكن صفية رضي الله عنها بادرت في همّة وجرأة فأخذت عموداً ونزلت إليه فقتلته ثم رجعت إلى حسان فقالت له: انزل إليه فخذ سلبه فإنني يمنعني منه أنه رجل، فقال: والله ما لي بسلبه من حاجة.

تخذيل نعيم بن مسعود الأعداء:

أتى نعيم بن مسعود الأشجعي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال له النبي ﷺ: «**إنما أنت رجل واحد فخذِّل[1] عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة**»، فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة وكان نديماً[2] لهم في الجاهلية، فقال لهم: قد عرفتم ودي إياكم، فقالوا: لست عندنا بمتهم، قال: قد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد، وهم ليسوا مثلكم، فالبلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه، وإن قريشاً وغطفان إذا ما رأوا نُهزة (فرصة) وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهوناً من أشرافهم ثقة لكم حتى تناجزوا محمداً، فقالوا: أشرت بالنصح.

ثم خرج نعيم حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمداً، وقد بلغني أن قريظة ندموا وأرسلوا إلى محمد يقولون له: هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم؟ فأجابهم، أن

---

(١) خذل: من التخذيل والخذلان، وهو ترك النصرة والإعانة، خذلته تخذيلاً: حملته على الفشل وترك القتال، انظر: المصباح المنير ج١ ص١٧٨.

(٢) النديم: المصاحب على الشراب، المسامر، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٩١١.

نعم، فإن طلبت قريظة منكم رُهُناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال لهم: أنتم أهلي وعشيرتي، وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم.

وفي ليلة السبت من شوال كان من حسن تدبير الله لرسوله ﷺ، أن أرسل أبو سفيان وسادة غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان، وقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، فقد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً، فأرسلوا إليهم، أن اليوم السبت، ولا نعمل فيه شيئاً ولا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُناً ثقة لنا فنخشى أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا ومحمداً ونحن ببلاده، فلما علموا ذلك قالت قريش وغطفان: والله لقد صدق نعيم بن مسعود، فأرسلوا إلى قريظة أنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً، فقالت قريظة حينئذٍ: إن الذي ذكر نعيم بن مسعود لحق، فخذل الله بذلك بينهم أيّما تخذيل، ثم بعث الله عليهم ريحاً عاصفاً مدمراً في ليالي، شديدة البرد أكفأت قدورهم وآنيتهم وقلعت بيوتهم وطرحت ما بنوه.

ولما بلغ النبي ﷺ خبر القوم واختلاف أمرهم وما حاق بهم من اضطراب وتقهقر أرسل حذيفة بن اليمان إليهم ليلاً لينظر حالهم، وأمره أن لا يحدث أحداً بشيء حتى يأتيه، قال حذيفة: ذهبت فدخلت فيهم والريح العاصف، وجنود الله تفعل فيهم فعلها، فلم يقر لهم قدر ولا بناء ولا نار، ثم قام أبو سفيان ونادى: يا معشر قريش لينظر الرجل أمر جليسه، فأخذت بيد الرجل الذي بجانبي فقلت له: مَن أنت؟ قال: أنا فلان، ثم قال أبو سفيان: والله لقد هلك الخف والحافر وأخلفتنا قريظة ولقينا من هذا الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام أبو سفيان إلى بعيره وهو معقول (مربوط) فجلس عليه فوثب على ثلاث قوائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ أن لا أحدث شيئاً لقتلته، ثم رجعت إلى النبي ﷺ وهو قائم يصلي في مرط[1] لبعض نسائه، فلما سلّم أخبرته الخبر.

---

(١) مرط: بكسر الميم مفرد، وجمعه: المروط وهي أكسية من صوف يؤتزر بها، انظر: مختار الصحاح ص٦٢٢.

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فعادوا مهزومين خزايا إلى بلادهم، وقد حفظ الله نبيه ﷺ والمسلمين ودفع عنهم عوادي الكافرين وشرورهم، وردَّ كيد المشركين واليهود في نحورهم(١).

غزوة بني قريظة:

عاد النبي ﷺ إلى المدينة فأتاه جبريل عليه السلام وقال: أوَ قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم.

فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذّن في الناس: مَن كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة.

واستعمل النبي ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وقدَّم النبي ﷺ علي بن أبي طالب حاملاً الراية إلى بني قريظة، فسار حتى إذا اقترب من حصون يهود سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ، فرجع علي حتى لقي رسول الله ﷺ في الطريق فقال: لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث، فقال عليه الصلاة والسلام: **«لمَ؟ أظنك سمعت منهم لي أذى؟»**، قال: نعم يا رسول الله، قال: **«لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً»**، فلما دنا النبي ﷺ من حصونهم، قال: **«يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟»**، فقالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً.

ثم تلاحق الناس برسول الله ﷺ، فأتى رجال من العشاء الآخرة لم يصلوا العصر التزاماً بأمر رسول الله ﷺ، إذ كان قد قال: **«لا يصلين أحد العصر إلا ببني قريظة»**، حتى إذا أتوا بني قريظة صلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة، فما عابهم بذلك ولا عنّفهم رسول الله ﷺ به.

---

(١) تاريخ ابن الأثير ج٢ ص١٧٨ ـ ١٨٤، وسيرة ابن هشام ج٣ ص٢٢٤ ـ ٢٣٥.

ولقد حاصرهم النبي ﷺ خمساً وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب.

أما الشرير الماكر حيي بن أخطب فقد دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاء لكعب بن أسد إذ كان قد عاهده على ذلك، فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم بل هو باق في حصارهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد لهم: يا معشر يهود، قد نزل بكم الأمر، ما ترون، فإني أعرض عليك خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم، فقالوا: ما هي؟ فقال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه للذي تجدونه مكتوباً في كتابكم، فتأمنون بذلك على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره، قال كعب: فإذا أبيتم هذه، فهلمّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مُصْلِتين السيوف، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم هذه، فإن الليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمِنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غِرة، قالوا: نفسد بذلك سبتنا، فقال كعب: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.

وهذه شهادة واحد من مشاهير يهود على أن هؤلاء القوم، أولو طبع مضطرب غريب، ونفس مائلة سقيمة، خالطها التردد والالتواء، فكانوا بذلك على الدوام غير حازمين ولا ثابتين، بل هم مبطلون متلجلجون أولو هوى مستفحل جامح، وعتو فاجر ظلوم موغل في الشذوذ والسقم والكيد للآخرين.

ثم أرسلت قريظة إلى نبي الله ﷺ، أن ابعث إلينا أبا لبابة الأنصاري لنستشيره فيأمرنا، فأرسله النبي ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون، فرقّ لهم قلبه، وقالوا له: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ فقال: نعم، ثم أشار بيده إلى حَلْقِه بما يفهم من

أنه الذبح، لكن أبا لبابة ندم على إشارته لهم بذلك إذ أدرك أنه قد خان الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأتِ إلى رسول الله ﷺ، حتى ربط نفسه بعمود من أعمدة المسجد، وذلك لفرط إحساسه بالندم على ما بدا منه إشارة ليهود، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعت، وعاهد الله: أن لا أطأ بني قريظة أبداً ولا أكون في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً.

وأقام أبو لبابة مربوطاً بالجذع ست ليال، فتأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيربط بالجذع فكان كذلك حتى نزل في توبته قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: الآية ١٠٢].

وأخيراً نزلت بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوس، فقالوا: يا رسول الله هؤلاء موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت، وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه فسأله إياهم عبدالله بن أبي بن سلول فوهبهم له، فلما كلمته الأوس، قال رسول الله ﷺ: **«ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟»**، قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: **«فذاك إلى سعد بن معاذ»**، وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم يقال لها: رفيدة، في مسجده كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كان مضيعاً أو محروماً من المسلمين، وكان النبي ﷺ قد قال لأهل سعد حين أصابه السهم بالخندق: **«اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب»**، فلما حكّمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار وكان رجلاً جسيماً، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون له: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ: **«قوموا إلى سيدكم»**، فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيها لَمَا حكمْتُ، قالوا: نعم.

فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتُقَسّم الأموال وتسبى الذراري والنساء، فقال رسول الله ﷺ مخاطباً سعد بن معاذ: **«لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»**[1].

ثم استنزلهم المسلمون فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار امرأة من بني النجار وهي بنت الحارث، وقيل: اسمها كيسة كانت زوجة لمسيلمة الكذاب، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، وكان يخرجهم أرسالاً ـ طائفة بعد أخرى ـ وفيهم عدو الله حيي بن أخطب، وكعب بن أسد وهما في رأس القوم وعددهم ستمائة، وقيل: سبعمائة، وقد كانت تغلب على طبائعهم بلادة الأذهان وصفاقة الحس فكانوا لفرط عجزهم وغباوتهم يسألون كعب بن أسد وهو يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً: ما تراه يُصنع بنا؟ فقال لهم كعب: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع (غير مشتاق لكم) وأنه من ذُهِب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل.

فما فتىء شأنهم في القتل كذلك، حتى فرغ النبي ﷺ منهم، ثم جيء بحيي بن أخطب وقد جُمعت يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر حيي إلى رسول الله ﷺ، قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يُخذَل، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه.

وعن عائشة أم المؤمنين قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة،

---

(١) أرقعة: جمع، ومفرده: رقيع وهو السماء، انظر: مختار الصحاح ص٢٥٢.

والله إنها لعندي تَحَدَّثُ معي وتضحك ظهراً وبطناً ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، فقلت لها: ويلك! ما لك؟ قالت: أُقتل، فكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجباً منها، طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفَتْ أنها تُقْتَل.

وأحسب أن أقلام الماكرين الذين أشربت قلوبهم رذيلة الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين، وفي رأسهم النبي الأعظم ﷺ أحسب أن هؤلاء المتربصين اللُّد، ينتهزون مثل هذا الحدث ليقولوا أن محمداً قتل مئات من يهود قريظة ليروجوا بعد ذلك من الأكاذيب ومقالات السوء ما يملأ الكتب والآفاق!

إن ما يندلق من أفواه هؤلاء الحاقدين الأشرار من افتراء على الإسلام وأهله، في هذا الصدد لهو تخريص فاجر وأعمى أو تضليل فارغ من تخليط السفهاء والدجاجلة!

إن الذين قتلهم المسلمون من قريظة لا يجاوزون من العدد المئات، ومثل هذا العدد في ميزان الحروب بالغ البساطة، والأهم من ذلك أن هؤلاء القتلى كانوا قد تلبّسوا بأفظع الفظائع من كبريات الجرائم، وتلكم هي جريمة الخيانة الكبرى التي نقض بها اليهود عهدهم مع رسول الله ﷺ، وهو نقض جاء في أعتى الأحوال وأحلكها فأوشك المسلمون بسبب ذلك أن يؤولوا إلى الهزيمة الساحقة والاستئصال الكامل! لولا فضل الله ورحمته.

ومن الحقائق الموضوعية في مفاهيم القوانين والنظم أن المتلبس بجناية تفضي إلى إزهاق نفس بمفردها ظلماً لا جرم أنه مستحق لعقوبة القتل، فكيف بالذين يتمالأون مجتمعين لإبادة أمة بكاملها وتعريض كيانها ودينها للتدمير والاصطلام، وسبيل ذلك هو الغدر والخيانة مع شديد الكيد الخبيث وتحريض المشركين جميعاً كيما يميلوا على المسلمين ميلة واحدة فيبددوهم أيما تبديد؟!

لم يأمر النبي ﷺ بقتل هؤلاء اليهود من بني قريظة لكونهم يهوداً أو

ليهوديتهم، بل كان قتلهم على سبيل العقاب الصارم الرادم لفعلتهم النكراء في الخيانة والطعن من الوراء.

إن ذلكم لهو عقاب معقول تتلقاه العقول بالقبول، وليس من أحد يهرف فيطعن في الإسلام ليحرض عليه تحريضاً أو ليثير من حوله الأباطيل والشبهات تنفيراً للناس عن هذا الدين، ليس من أحد يلعق بلسانه المسموم مثل هاتيك المزاعم المكذوبة، إلا دهاقنة الظلم والباطل والتنكيل بالبشرية من استعماريين وصليبيين وصهيونيين.

إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد:

قال عمرو بن العاص من حديث له في هذا الصدد: لما انصرفنا مع الأحزاب من الخندق، جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني فقلت لهم: تعلمون والله إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت أمراً فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قلت: رأيت أن نكون عند النجاشي، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير، فقالوا: إن هذا الرأي، قلت: فاجمعوا ما نُهدي له، وكان أحب ما يُهدى إليه من أرضنا الأدم (الجلد) فجمعنا له أدماً كثيراً.

ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشي، ولما كنا عنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري وقد بعثه النبي ﷺ في شأن جعفر وأصحابه، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري لو دخلت على النجاشي فسألته إياه ليعطينيه فأضرب عنقه، لترى قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد، فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع فقال: مرحباً بصديقي أهديت لي من بلادك شيئاً؟ قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت إليك أدماً كثيراً، ثم قرّبته إليه فأعجبه ذلك واشتهاه، ثم قلت: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب منا من أشرافنا وخيارنا، فغضب

النجاشي ثم مدّ يده فضرب أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلتها فرقاً (خوفاً) منه، فقلت: أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، فقال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر[١] الذي كان يأتي موسى فتقتله؟ فقلت: أيها الملك، أكذا هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطعني واتّبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، فقلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتم أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد وهو مقبل من مكة فقلت: أين يا أبا سليمان؟ فقال: والله لقد استقام المنسِم[٢] وإن الرجل لنبي، أذهب والله فأسلم، فحتى متى؟ قلت: أنا والله ما جئت إلا لأسلم، فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدّم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله أنا أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدم من ذنبي ولم أذكر ما تأخر، فقال رسول الله ﷺ: **«يا عمرو بايع فإن الإسلام يجُبُّ ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها»** فبايعته ثم انصرفت.

وقيل: قدم معهما عثمان بن طلحة، فقد صحبهما في تلك الطريق، فقال عمرو بن العاص: كنت أسنَّ منهما، فأردت أن أكيدهما فقدمتهما قبلي للمبايعة، فبايعا رسول الله ﷺ على أن يغفر لهما ما تقدم من ذنبهما، وأضمرت في نفسي أن أذكر ما تقدم من ذنبي وما تأخر، فلما بايعت قلت: على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وأُنسيت أن أقول ما تأخر[٣].

---

(١) ناموس الرجل: هو صاحب سره الذي يطلعه على باطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره، وأهل الكتاب يسمون جبريل عليه السلام: الناموس، انظر: مختار الصحاح ص٦٨٠.

(٢) المنسم: الطريق، يقال: استبان المنسم، أي: ظهر واتضح، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٩١٩.

(٣) عيون الأخبار لابن سيد الناس ج٢ ص١١١، ١١٢.

غزوة بني لحيان:

في جمادى الأولى من السنة السادسة خرج رسول الله ﷺ إلى بني لحيان يطلب بأصحاب الرجيع وهم خبيب بن عدي وأصحابه، وأظهر ﷺ أنه يريد الشام ليصيب من القوم غِرة، ولما بلغ منازل بني لحيان وجدهم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال، فلما أخطأه ما أراد منهم خرج في مائتي راكب حتى نزل بعسفان تخويفاً لأهل مكة، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم، ثم عاد النبي ﷺ والمسلمون، وكان جابر بن عبدالله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«آيبون تائبون إن شاء الله، لربنا حامدون، أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال»**.

غزوة ذي قَرَد:

قدم النبي ﷺ المدينة فلم يقم بها إلا ليالي قلائل حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة في خيل من غطفان على لقاح[1] رسول الله ﷺ بالغابة وفيها رجل من بني غفار وامرأته، فقتلوا الرجل واحتلوا المرأة في اللقاح، وكان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع إذ غدا يريد الغابة متوشحاً قوسه ونبله، حتى إذا علا ثنية الوداع نظر إلى بعض خيولهم ثم صرخ: واصباحاه، ثم خرج يشتد في آثار القوم وكان مثل السبع حتى لحق القوم، فجعل يردهم بالنبل ويقول إذا رمى: خذها وأنا ابن الأكوع اليوم يوم الرضع، فبلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع، فصرخ في المدينة: **«الفزع الفزع»** فكان أول من انتهى إلى رسول الله ﷺ من الفرسان: المقداد بن عمرو، وعباد بن بشر، وسعد بن زيد من بني عبد الأشهل، وأسيد بن ظهير، وعكاشة بن محصن، ومحرز بن نضلة وغيرهم، فلما اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أمَّر عليهم سعد بن زيد ثم قال: **«اخرج في طلب القوم حتى**

---

(١) اللقاح: بالفتح والكسر، الإناث الحوامل، والملاقيح: ما في بطون النوق من الأجنة، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٢١٩.

ألحقك بالناس»، فخرج الفرسان في طلب القوم حتى تلاحقوا، فكانت بينهم جولة قتل فيها من المسلمين: محرز بن نضلة، قتله عبدالرحمٰن بن عيينة، ولم يقتل من المسلمين غيره، ثم ولّى المشركون منهزمين، وبلغ رسول الله ﷺ ماء يقال له ذو قَرَد، فأقام عليه ليلة ويومها ثم قفل إلى المدينة[1].

غزوة بني المصطلق:

كانت هذه الغزوة في شعبان من السنة السادسة، فكان قد بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق تجمعوا له، وكان قائدهم حينئذٍ الحارث بن أبي ضرار وهو أبو جويرية زوج النبي ﷺ فيما بعد، فلما سمع بهم النبي ﷺ خرج إليهم فلقيهم بماء لهم يقال له: المريسيع بناحية قديد، فاقتتلوا فهزم المشركون وقتل منهم من قتل، وأصيب من المسلمين رجل اسمه هشام بن صبابة، إذ أصابه رجل من الأنصار من أصحاب عبادة بن الصامت بسهم وهو يظن أنه من المشركين فقتله خطأ، وقد وقع في الأسر من المشركين كثيرون وفيهم جويرية بنت الحارث قائد بني المصطلق فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته عن نفسها واستعانت برسول الله ﷺ في كتابتها[2]، فقال لها رسول الله ﷺ: **«هل لك خير من ذلك؟»**، قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: **«أقضي كتابتك وأتزوجك»**، فقالت: نعم يا رسول الله، ففعل. وسمع الناس الخبر، فقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، فأعتقوا أكثر من مائة بيت من بني المصطلق، فما كانت امرأة أعظم بركة على قومها من جويرية.

وبينما الناس على ذلك الماء، وردت واردة الناس، وكان مع عمر بن

---

(١) عيون الأثر ج٢ ص١١٣ ـ ١١٥، وتاريخ ابن خلدون ج٢ ص٣٢.

(٢) الكتابة: عقد شرعه الإسلام عوناً للرقيق كيما يعتقوا ويتحرروا، وطرفا العقد هما: المكاتب وهو السيد، ثم المكاتب وهو العبد فيؤدي هذا لسيده مبلغاً من المال ليعتقه، ومثل هذا المكاتب له حظ في الزكاة وهو قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٧] وهم المكاتبون ليعانوا بذلك على التحرر والانعتاق من الاسترقاق.

الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه بن مسعود، يقود فرسه، فتزاحم جهجاه وسنان الجهني حليف بني عوف من الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبدالله بن أبي بن سلول وحوله رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم وهو غلام حدث، فقال ابن أبي: أقد فعلوها! نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من كان حوله من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، فسمع زيد بن أرقم هذا القول، فمشى إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغه من عدوه، فأخبره بمقالة عبدالله بن أبي، وكان عنده عمر بن الخطاب، فقال عمر: مر به عباد بن بشر فليقتله، فأبى رسول الله ﷺ وقال: «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه، ولكن أذِّن بالرحيل**»، فارتحل في ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه، ثم جاء عبدالله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلَّغه ما سمعه منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به ـ وكان عبدالله في قومه شريفاً عظيماً ـ فقال من حضر من أصحابه من الأنصار: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوْهَم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل، فلما استقلَّ رسول الله ﷺ وسار، لقيه أسيد بن حضير فحيّاه بتحية النبوة وسلّم عليه وقال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح مثلها، فقال له النبي ﷺ: «**أوَ ما بلغك ما قال صاحبكم؟**» قال: أي صاحب يا رسول الله؟ قال: «**عبدالله بن أبي**»، قال: وما قال؟ قال: «**زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل**»، قال: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكه.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى

أصبح، ونزلت السورة في المنافقين وعلى رأسهم ابن أبي، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم ثم قال: **«هذا الذي أوفى الله بأذنه»**.

ولما بلغ عبدالله بن عبدالله بن سلول الذي كان من أبيه، جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني فأنا أحمل لك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبي، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: **«بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»**، فكان بعد ذلك إذا أحدث عبدالله الحدث فإن قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: **«كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأرعدت له أُنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته»**، قال عمر: قد والله علمت لأمرُ رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وقد كان شعار المسلمين في هذه الغزوة: يا منصور أمت أمت[1].

وبعد ذلك بعامين أو أكثر بعث النبي ﷺ إليهم الوليد بن عقبة ليأخذ منهم الصدقات، فخرجوا للقائه فتوهم أنهم خرجوا لقتاله ففرّ راجعاً وأخبر رسول الله ﷺ بظنّه، فهمّ النبي ﷺ لقتالهم فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: الآية ٦].

ثم أقبل رسول الله ﷺ من سفره، حتى إذا كان قريباً من المدينة وكانت معه عائشة رضي الله عنها في هذا السفر، قال فيها أهل الباطل ما قالوه من افتراء.

حديث الإفك:

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً

(١) عيون الأثر ج٢ ص١٢٢ ـ ١٢٨، وتاريخ ابن الأثير ج٢ ص١٩٢.

أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه كما كان يصنع فخرج سهمي عليهن معه، فخرج بي رسول الله ﷺ وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العُلَق[1] لم يهجهن اللحم فيثقلن، وكنت إذا رُحِّل لي بعيري جلست في هودجي ثم يأتي القوم الذين يُرَحِّلون لي ويحملونني فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، توجه قافلاً، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقد لي فيه جزع ظفار (خرز مدينة قرب صنعاء)، فلما فرغت انسل العقد من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لي البعير فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه كما كنت أصنع فاحتملوه وشدوه على البعير ولم يشكّوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، إذ انطلق الناس، فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني وعرفت أني لو افتُقدت لرُجِع إليّ، فوالله إني لمضطجعة إذ مرَّ بي صفوان بن المعطل السُلمي، وقد تخلف عن العسكر إذ كان يلتقط ما يسقط من متاع للمسلمين فلم يبت مع المسلمين فرأى سوادي فأقبل حتى علم بي وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ، وأنا متلففة في ثيابي، فقال: ما خلّفك، يرحمك الله، فما كلمته، ثم قرب البعير وقال: اركبي، واستأخر عني، فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً، فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل الناس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي البعير

---

(١) العُلَق: بضم العين وفتح اللام جمع، ومفرده: علقة، وهي ما قلّ من الطعام يمسك به المرء نفسه، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٧٧.

فقال أهل الإفك ما قالوا فارتعج (اضطرب) العسكر، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك.

ثم قدمنا إلى المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبويّ لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي، فكنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك فأنكرت ذلك منه حتى وجدت في نفسي فقلت: يا رسول الله ـ حين رأيت ما رأيت من جفائه لي ـ لو أذنت لي، فانتقلت إلى أمي فمرضتني؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا عليك»، فانتقلت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قوماً عرباً لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التي تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، وإنما كنا نذهب في فُسح المدينة وقد كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح بنت أبي رُهم بن المطلب بن عبد مناف، فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرت في مُرطها (كسائها) فقالت: تعِس مسطح، ومسطح لقب واسمه عوف، قلت: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدراً، قالت: أوَ ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك، قلت: أوَ قد كان هذا؟ قالت: نعم والله، لقد كان، قلت: فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي ورجعت، فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع (يشق) كبدي، ثم قلت لأمي: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً! فقالت: أي بنية، خفضي عليك (هوني عليك) الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثّرن وكثّر الناس عليها.

ثم قام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً ويقولون ذلك لرجل، والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي»**.

قالت عائشة: وكان كِبرُ ذلك (أكبره) عند عبدالله بن أبي بن سلول، في رجال من الخزرج مع الذي قاله مسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ، فأما زينب فقد عصمها الله تعالى بدينها فلم تقل إلا خيراً، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادني لأختها فشقيت بذلك.

ولما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة قال أسيد بن حضير: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفكفهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم.

فقام سعد بن عبادة، وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً فقال: كذبت لعمر الله، لا نضرب أعناقهم أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا، فقال أسيد: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين، ثم تَساور[1] الناس، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر.

ثم دعا النبي ﷺ كلاً من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى عليّ خيراً ثم قال: يا رسول الله، أهلك ولا تعلم منهم إلا خيراً، وهذا الكذب الباطل، وأما علي فإنه قال: يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستحلف، وسل الجارية فإنها ستصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة ليسألها فقالت: فقام إليها علي بن أبي طالب فضربها ضرباً شديداً ويقول: اصدقي رسول الله ﷺ فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً، إلا أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله.

وبعد هذا الذي قيل عن علي رضي الله عنه وهو يحضّ على

---

(١) تساور: من السورة، بضم السين وهي الحدة والغضب والبطش، والمساورة تعني المواثبة، انظر: المصباح المنير ج١ ص٣١٥.

مفارقة عائشة مما أثار فيها الحزن والمضاضة، فربما يجترىء بعض المتقولين والمتشددين على صهر رسول الله ﷺ وقريبه المكرم علي كرّم الله وجهه، وإنما يبتغي المتقولون والمتشدقون مجرد النيل من سمعة هذا الصحابي الهمام، أو القدح في سيرته العطرة وفي سلوكه العظيم، فضلاً عما يرومه المغرضون أولو الطوايا الجانحة والقلوب التي طوّقتها الأدران، من احتمال التشويه للنبوة أو القدح في قداسة البيت الطهور والحمى المصون لرسول الله ﷺ، وفي مقابلة ذلك كله ينبغي التأكيد على سلامة القصد والطوية لصهر النبوة كرّم الله وجهه، وليس من تأويل لتوضيح هذه المسألة إلا القطع بمدى الحرص البالغ لدى علي رضوان الله عليه على دفع الأذية عن رسول الله ﷺ، وتبديد أية ظاهرة من ظواهر الظنون عن شخصه ﷺ، حتى وإنْ أفضى ذلك إلى إغضاب عائشة وإعناتها، وهي رضي الله عنها بالرغم مما أصابها من شديد الاغتمام وبالغ الكمد والمضاضة فكفى بها ما جوزيت به من عظيم التكريم والطهر بشهادة الخالق الديّان من فوق سبع سماوات، وهو قوله جلّ جلاله عن الإفك والأفاكين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور: الآية ١١].

إن ذلكم في حق عائشة رضي الله عنها كان في غاية الإيلام والابتلاء، لقد صدمها الخبر المريع شر صدمة فما تملك بعد ذلك إلا الاستسلام لقدر الله، والله وحده ينصر البرآء والضعفاء والمكلومين عسفاً وبهتاناً، فقد قالت رضي الله عنها تصف حالها من الامتضاض الألمي والاكتئاب المفْظِع مما تجرجر في حناجر المريبين من المنافقين والمغفلين، وقالة السوء الذين يبادرون في عجل محموم للحديث بكل ما يسمعون قالت: ثم دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي أبواي، وعندي امرأة من الأنصار وأنا أبكي وهي تبكي معي، فجلس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«يا عائشة إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس فاتقي الله، وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبي إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده»**، فقالت عائشة: فوالله ما

هو إلا أن قال لي ذلك قلص[1] دمعي حتى ما أحس منه شيئاً، وانتظرت أبويّ أن يجيبا عن رسول الله ﷺ فلم يتكلما، وايم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأناً من أن يُنزل فيّ قرآناً يُقرأ به في المساجد ويُصلى به، ولكني قد كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه شيئاً يكذّب به الله عني لما يعلم من براءتي، أو يخبر خبراً، فأما قرآن ينزل فيّ فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك.

وقالت رضي الله عنها: ولما لم أرَ أبويّ يتكلمان قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟ فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه.

قالت: والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام، فلما أن استعجما[2] عليّ استعبرت فبكيت ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس - والله يعلم أني منه بريئة - لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني، ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره، فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: الآية ١٨]، فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسُجّي بثوبه ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه، أما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت ولا باليت، قد عرفت أني بريئة وأن الله عز وجل غير ظالمي، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سرّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجنّ أنفسهما فرقاً (خوفاً) من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس، ثم سُرّي عن رسول الله ﷺ فجلس، وإنه ليتحدّر منه مثل الجمان[3] في يوم شات فجعل يمسح العرق عن جبينه

---

(١) قلص الشيء: ارتفع، وقلص تقليصاً: انضم وانزوى، انظر: مختار الصحاح ص٥٤٨.

(٢) استعجم الكلام: استبهم، والأعجم والمستعجم، من لا يقدر على الكلام، أو الذي لا يفصح ولا يبين كلامه، انظر: مختار الصحاح ص٤١٥، والمصباح المنير ج٢ ص٤٣.

(٣) الجمان: جمع، ومفرده: الجمانة، وهي حبة تعمل من الفضة كالدرة، انظر: مختار الصحاح ص١١٢.

ويقول: «أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك»، فقلت: بحمد الله، ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وهم من الذين أفصحوا بالفاحشة فأقيم عليهم الحد بالجلد.

لقد كان جديراً بالمسلمين أن لا تتعثر ألسنتهم بمثل هذا الحديث من سوء المقالة وأفحش الكلام، بل قمين بالمسلمين على الدوام أن لا يخالط بعضهم سوء الظن ببعض كيلا يظنوا بأنفسهم غير الخير وحسن الفعال، كيف وقد تجرجرت في بعض الحناجر من سوء المقال وفحشه على واحدة من أمهات المؤمنين البررة، حليلة نبي الله ﷺ وزوجه الطاهرة المصون، عائشة؟!

وذلك هو تأويل قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: الآية ١٢]، أي: كانوا موقنين أن المسلمين أهل طهر وعفة، فهم أبعد الخلق عن الخسائس والموبقات والدنايا وأن أمهات المؤمنين لا جرم أنهن في الذروة من سنام الطهر والبراءة والشرف، وخير مثال على ما تقتضيه الآية من عزة المؤمنين وثقة بعضهم ببعض ما ذكر عن أبي أيوب وهو خالد بن زيد إذ قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك.

ولما نزل قوله تعالى هذا في عائشة وفيمن قال قوله فيها ـ وقد كان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته وحاجته ـ قال أبو بكر: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً ولا أنفعه بنفع أبداً بعد الذي قاله في عائشة وما أدخله علينا، فأنزل في ذلك قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: الآية ٢٢].

هذه قصة الإفك وما شاع فيها من سوء المقال واجتراء الألسن على

النعثر بمثل هذا الحديث الممض، الذي أسيء فيه إلى بيت رسول الله ﷺ وأهله الأطهار.

إن ذلكم لهو ضرب من ضروب الابتلاء يمتحن به الله عباده المؤمنين الصابرين، ثم يزكيهم ويطهرهم تطهيراً بما أنزل في حقهم من آيات بينات تتلى على مر الزمن حتى قيام الساعة(١).

عمرة الحديبية:

أقام النبي ﷺ بالمدينة شهري رمضان وشوال، عقب غزوة بني المصطلق ثم خرج معتمراً في ذي القعدة لا يريد حرباً، وقد استعمل على المدينة نميلة بن عبدالله الليثي، وكان ﷺ يخشى من قريش أن تعرض له بحرب أو تصده عن البيت الحرام فأبطأ عليه كثير من الأعراب، ثم خرج رسولُ الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق الهدي معه وأحرم بالعمرة لكي يأمن الناس من حربه، وليعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت ومعظماً له، وقد كان معه من الناس ألف وثلاثمائة رجل وقيل أكثر، وساقوا معهم من البُدن سبعين.

وروي عن جابر بن عبدالله قال: عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة (إناء للشرب) يتوضأ منها، فأقبل الناس نحوه فقال: «ما لكم ما لكم»، قالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ماء نشرب ولا نتوضأ منه إلا في ركوتك، فوضع رسول الله ﷺ يده في الركوة فجعل الماءُ يفور من بين أصابعه، أمثال العيون فشربنا وتوضأنا، حتى إذا خرج رسول الله ﷺ وكان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا، معهم العوذ(٢) المطافيل(٣) وقد

---

(١) سيرة ابن هشام ج٣ ص٣٠٩ ـ ٣٢٠، وعيون الأثر ج٢ ص١٢٨ ـ ١٣٦.

(٢) العوذ: جمع، ومفرده: عائذ وهي الناقة حديثة عهد بالنتاج، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٦٣٥.

(٣) المطافيل: جمع، ومفرده: مطفل وهي ذات الطفل من الإنسان والحيوان، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٥٦٠.

لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً.

وقدم خالد بن الوليد في خيل لقريش حتى نظر إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فأمر رسول الله ﷺ عباد بن بشر فتقدّم في خيله فقام بإزائه وحانت صلاة الظهر فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الخوف، فقال ﷺ: «**يا ويح قريش، أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة**».

ثم قال ﷺ: «**من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟**»، فسلك بهم رجل من أسلم طريقاً وعراً بين شعاب فشق ذلك على المسلمين، ولما خرجوا وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، قال رسول الله ﷺ: «**نستغفر الله ونتوب إليه**»، فقالوا ذلك، فقال: «**والله إنها للحطّة**[1] **التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها**».

ذلك أن بني إسرائيل أولو طبائع كزّة لا تلين وتستعصي على الطاعة والقياد، فلقي بذلك منهم نبيهم موسى عليه السلام طول العنت والمشقة وكثرة التمرُّد والتردد، وذلك بخلاف هذه الأمة المباركة الفضلى، أمة محمد ﷺ، إذ كانوا عقب إيمانهم كراماً أبراراً لا ينثنون ولا يجادلون ولا يترددون، بل كانوا يبتدرون النبي ﷺ بكامل الطاعة والانقياد، لا يثنيهم عن ذلك استكبار ولا تثاقل أو جنوح لخذلان أو عصيان كالذي عليه بنو إسرائيل مع إمامهم ومنقذهم موسى.

ثم أمر النبي ﷺ المسلمين أن يسلكوا ذات اليمين، في طريق يخرج به على ثنية المرار، مهبط الحديبية من أسفل مكة فسلك المسلمون ذلك

---

(١) الحطة: بكسر الحاء ويريد بها ما جاء في قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، وحطة يعني: احطط عنا الذنوب والخطايا.

الطريق، فلما رأت قريش غبار جيش المسلمين قفلوا عائدين إلى قريش، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته فقال الناس: خلأت[1] فقال النبي ﷺ: **«ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألون فيها صلة الرحم إلا أعطيتها إياها»**، ثم أمر الناس بالنزول إلى الوادي، فقالوا: يا رسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه، فأخرج النبي ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل في قليب (بئر) من قُلُب الوادي فغرزه في جوفه ففاض الماء واستقى الناس والدواب.

ولما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة فكلموه وسألوه ما الذي جاء به، فأخبرهم ﷺ أنه لم يأتِ يريد حرباً وإنما جاء معتمراً زائراً للبيت، معظماً لحرمته، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأتِ لقتال، وإنما جاء زائراً لهذا البيت فاتهموهم وانتهروهم، وقالوا: إن كان جاء ولا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تحدّث بذلك العرب عنا.

ثم بعثت قريش إلى النبي ﷺ سيد الأحابيش، وهو الحليس بن علقمة بن ريان، فلما رآه النبي ﷺ قال: **«إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه»**، فلما رأى الهدي يسير نحوه من عرض الوادي بقلائده رجع إلى قريش ولم يصل إلى النبي ﷺ تعظيماً لما رآه، فحدثهم بذلك، فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب الحليس عند ذلك وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم، أنصدُّ عن بيت الله من جاء معظماً، والذي نفس الحليس بيده لتُخَلُّنَّ بين محمد وما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالت قريش: كفَّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي، فقال: يا معشر قريش، إني قد رأيت ما يَلقى منكم مَن بعثتموه إلى محمد من التعنيف وسوء الكلام حين

---

(١) خلأت الناقة: حرنت وبركت من غير علة، انظر: مختار الصحاح ص١٨٣.

جاءكم، وأنتم تعرفون أنكم والد وأني ولد وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئتكم فآسيتكم بنفسي، فقالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم.

فخرج عروة حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد أجمعت أوشاب[1] الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها (لتكسرها) بهم، إن قريشاً قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وايم الله كأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً!! وكان أبو بكر الصديق خلف رسول الله ﷺ قاعداً فقال: امصص بظر اللات! أنحن ننكشف عنه؟! قال عروة: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبي قحافة»، فقال: أما والله لولا يد[2] كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها، ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: أكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك، فيقول عروة: ويحك ما أفظك وما أغلظك، فتبسّم رسول الله ﷺ، فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة»، فقال عروة: أي غُدَر، وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس.

وقد أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة بن شعبة، كان قبل إسلامه قد قتل ثلاثة عشر رجلاً من ثقيف، فتهايج الحيان من ثقيف وهو رهط المقتولين ورهط المغيرة، فودى[3] عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر.

ثم خاطب النبي ﷺ عروة وأخبره أنه لم يأتِ يريد حرباً، فقام عروة من عند النبي ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه من بالغ التعظيم والتكريم،

---

(١) أوشاب الناس: الأوباش، وهم الضروب المتفرقون، انظر: مختار الصحاح ص٧٢٣.
(٢) اليد: هنا تعني النعمة والإحسان، وجمعها: أيد، انظر: مختار الصحاح ص٧٤٢.
(٣) ودى: من الدية، يعني: أدى دية المقتولين.

فما كان النبي ﷺ يتوضأ إلا ابتدره أصحابه وضوءه ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه[1] ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فقال عروة: يا معشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسْلِمونه لشيء أبداً فَرُوا رأيكم.

ثم بعث النبي ﷺ خواش بن أمية الخزاعي إلى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له: الثعلب، ليبلّغ أشرافهم عما جاء له رسول الله ﷺ، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ.

ثم دعا النبي ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلّغ عنه أشراف قريش ما جاء له وهو الاعتمار فقط، فقال عمر: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي بمكة وما بمكة من بني عدي بن كعب (عشيرته) أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عدواني إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأتِ لحرب، وأنه لم يأت إلا زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته.

فخرج عثمان بن عفان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، حين دخل مكة فجعله بين يديه ثم أجاره حتى أبلغ قريشاً رسالة رسول الله ﷺ، إذ أتى أبا سفيان وعظماء قريش وأبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسل به، فقال أبو سفيان لعثمان عقب تبليغ الرسالة: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال عثمان: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، فاحتبسته قريش عندها فأشيع أن عثمان قد قتل، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ - حين بلغه أن عثمان قتل - فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا النبي ﷺ

---

(١) بدر إلى الشيء: أسرع، وكذلك بادر إليه، وتبادر القوم: تسارعوا، وابتدروا السلامة: تسارعوا إلى أخذه، انظر: مختار الصحاح ص٤٣.

الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فبايع الناس رسول الله ﷺ على المضي معه في سبيل الله وأن لا يفروا أو يتخاذلوا، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين الحاضرين معه إلا الجد بن قيس، من بني سلمة. قال عنه جابر: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد ضبأ[1] إليها يستتر بها من الناس، ثم بلغ النبي ﷺ بطلانُ ما أشيع عن قتل عثمان.

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ إذ قالوا له: ائت محمداً وصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا يحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً.

فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً، قال: **«قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل»**، فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبقَ إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر فقال له: يا أبا بكر، أليس رسولَ الله؟ قال: بلى، قال: أوَ لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوَ ليسوا بالمشركين؟! قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟! فقال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه[2] فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ، وقال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى عمر رسولَ الله فسأله مثل سؤاله أبا بكر، فقال رسول الله ﷺ: **«أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني»**، فكان عمر يقول: ما زلت أصوم وأتصدّق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون خيراً.

كتاب المصالحة والعهد:

دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال له: **«اكتب بسم الله**

---

(١) ضبأ: ضبأ بالأرض، ضبئاً وضبوءاً: لصق بها واختبأ، ضبأ الصائد: استتر ليختل الصيد فهو ضابىء وضبيء، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٥٣٢.

(٢) الغرز: ركاب الإبل، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٩٧.

الرحمٰن الرحيم»، فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا، لكن اكتب باسمك اللهم، فكتبها، ثم قال: «اكتب، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو»، فقال سهيل بن عمرو: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله ﷺ: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو»، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليه، ومن أتى قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال[1] ولا إغلال[2]، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف في القِرَب، لا تدخلها بغيرها.

وبينما يكتب رسول الله ﷺ الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، وقد انفلت إلى رسول الله ﷺ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ قد خرجوا وهم يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا من الصلح والرجوع ما رأوا، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون.

ولما رأى سهيل ولده أبا جندل قام إليه وضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ثم قال: يا محمد قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، فقال رضي الله عنه: «صدقت»، فأخذ سهيل يجر ولده من تلابيبه ليرده إلى قريش.

---

(١) إسلال: من السلة، بالفتح يعني: السرقة، انظر: المصباح المنير ج١ ص٣٠٦.

(٢) إغلال: خيانة، غلّ يغل غلولاً: خان، انظر: مختار الصحاح ص٤٧٩.

وجعل ولده أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أُرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟

فزاد الناس ذلك إلى ما بهم فقال رسول الله ﷺ: **«يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم»**.

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول له: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب، يقول عمر ذلك وهو يدني قائم سيفه من أبي جندل مؤملاً أن يبتدر أبو جندل سيف عمر فيضرب به عنق أبيه الظالم، وفي ذلك يقول عمر: وددت أن يأخذ أبو جندل السيف فيضرب به أباه، فضنَّ الرجل بأبيه ونفذت القضية.

ومثل هذا الوفاء الكامل بالعهود ملفت للنظر حقاً، كذلك كان خلق المسلمين الأولين وعلى رأسهم إمام الوفاء والصدق والبر محمد ﷺ، وذلك إنما يكشف عن طبيعة هذا الدين الكامل المميز، الذي يرسخ في الفرد والجماعة كل معاني الحق والخير ليسلك الناس في حياتهم ومعايشهم سلوك الصدق والوفاء في كل الأحوال ومهما تكن الظروف.

وإنما يناط بالمسلم أن يكون باراً صدوقاً بعيداً عن الغش والغدر والخيانة، سواء كان ذلك في السلم أو الحرب، مع المسلمين أو الكافرين، لا يتردد المسلم في عامة الأحوال عن أداء الأمانات إلى أهلها وإن كانوا مشركين، وعن الوفاء بالوعود والعهود والمواثيق دون تردد في ذلك ولا انثناء.

ذلك هو خلق المسلمين، وتلكم هي قيم الإسلام وتعاليمه لا ينبغي التحول عنها في كل الملابسات والمناسبات، لا جرم أن الإسلام دين البر والوفاء والاستقامة، وذلك بخلاف ما نجده ونلمسه في المجتمعات الأخرى، المجتمعات التي تدين بالمادية والأنانية والشهوات والتي لا تعبأ بالقيم الأخلاقية والسلوكية ولا تقيم أيما اعتبار لمبادىء الحق والعدل

والفضيلة، مجتمعات جاحدة فاجرة بنيت على المادية المحضة فهي بذلك إنما تعتمد الميكافيلية أسلوباً ومنهجاً في السلوك والتعامل، ولو أفضى ذلك إلى الغدر والخيانة والكذب ونقض العهود والمواثيق، وذلكم هو ديدن البشرية الضالة على مر الأدهار والأحقاب، وبخاصة في هذا الزمان الذي عتا فيه أهله عتواً فظيعاً فتلبسوا فيه ـ أفراداً وجماعات ـ بكل ظواهر الغش والظلم والفساد، لا يردعهم دون ذلك حافز من عقيدة أو ضمير ولو بمثقال قطمير، وذلكم هو ديدن الظالمين العتاة من استعماريين وصليبيين وصهيونيين.

شهود المصالحة والعهد:

عقب الفراغ من كتابة الصلح شهد عليه رجال من المسلمين ورجال من المشركين، وهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبدالرحمٰن بن عوف، وعبدالله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومكرز بن حفص وكان إذ ذاك مشركاً، وعلي بن أبي طالب، وهو كاتب الصحيفة.

ولما فرغ النبي ﷺ من الصلح، قال: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**»، فما قام أحد حتى قال ذلك مراراً، فلما لم يقم أحد منهم دخل على أم سلمة زوجه، فذكر لها ذلك فقالت: يا نبي الله اخرج ولا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بدنك وتحلق شعرك، ففعل، فلما رأى المسلمون ذلك قاموا فنحروا وحلقوا حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، مع أنه لم يُفتح في الإسلام فتح قبل هذا الفتح كان أعظم، إذ أمِن الناس كلهم فدخل في الإسلام في هاتين السنتين مثلما دخل فيه قبل ذلك وأكثر.

حقيقة الأمر في هذه المسألة أن الناس لو كانوا آمنين، وقد أميطت من طريقهم المعوقات والحواجز النفسية والمادية والثقافية التي تحول بينهم وبين الوقوف على حقيقة الإسلام، لبادروا سراعاً إلى اعتناق الإسلام طائعين راغبين، ذلك أن الإسلام لهو الدين الوحيد الذي يراعي طبيعة الإنسان بكل ما تنطوي عليه هذه الطبيعة من مركبات واستعدادات نفسية وروحية وذهنية

ومادية، وعلى هذا إذا أمن الناس ولم يخافوا وزحزحت من حولهم ومن أمامهم أساليب التضليل والتشويه والإغراء والإغواء والترهيب وكل ظواهر الفتنة لما أبطأ الناس عامة عن الدخول في دين الإسلام، إذ يجدون فيه ضالتهم من السكينة والطمأنينة وطيب العيش وهم تحف بهم أفياء الأمن والرضا والسعادة، وكل معاني الخير والبر والإخاء والمرحمة.

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءه أبو بصير وهو عتبة بن أسيد الثقفي، وهو مسلم، وكان ممن حُبس بمكة فكتب فيه الأخنس بن شريق وبعث فيه رجلاً من بني عامر ومعه مولى لهم، فقال له رسول الله ﷺ: **«قد علمت أنا قد أعطينا هؤلاء القوم عهداً ولا يصلح الغدر في ديننا»**، فانطلق أبو بصير معهما إلى ذي الحليفة فجلسوا، وأخذ أبو بصير سيف أحدهما فقتله به وخرج مولى بني عامر مسرعاً إلى النبي ﷺ فأخبره بقتل صاحبه، ثم أقبل أبو بصير فقال: يا رسول الله قد وفَتْ ذمتك وأنجاني الله منهم، فأنكر النبي ﷺ فعلته وقال له: **«ويل أمّه مِسعَر[1] حرب لو كان له رجال»**، فلما سمع أبو بصير ذلك عرف أن النبي ﷺ سيرده إليهم، فخرج حتى نزل على ساحل البحر على طريق قريش إلى الشام، وبلغ المسلمين الذين كانوا احتُبسوا بمكة ذلك فخرجوا إلى أبي بصير، ومن بينهم أبو جندل، فاجتمع إليه سبعون رجلاً، فضيّقوا على قريش إذ يعترضون عيرهم فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ يناشدونه الله والرحم كي يرسل إليهم فمن أتاه فهو آمن، فآواهم رسول الله ﷺ، وفي ذلك نزلت سورة الفتح وهاجر إلى رسول الله ﷺ نسوة مؤمنات فيهن أم كلثوم ابنة عقبة بن أبي معيط، فجاء أخواها عمارة والوليد يطلبانها، فأنزل الله في ذلك قوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المُمتَحنة: الآية ١٠]، فلم يرسل النبي ﷺ امرأة مؤمنة إلى مكة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [المُمتَحنة: الآية ١٠]، فطلّق عمر بن الخطاب امرأتين له، إحداهما قُريبة بنت أمية، والثانية أم كلثوم بنت

(١) مسعر حرب: مثيرها ومهيجها.

عمرو بن جرول الخزاعي، وهما مشركتان[1].

فتح خيبر:

كان ذلك في شهر المحرم من السنة السابعة، فقد أقام النبي ﷺ بالمدينة شهر ذي الحجة وبعضاً من شهر المحرم ثم خرج بعد ذلك إلى خيبر، بعد أن استعمل على المدينة نميلة بن عبدالله الليثي ودفع الراية إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد كانت بيضاء.

ولدى مسيره ﷺ إلى خيبر، قال لعامر بن الأكوع: **«انزل يا ابن الأكوع فخذ لنا من هناتك»**، أي أشعارك، فنزل ابن الأكوع يرتجز برسول الله ﷺ:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صلّينا
إنا إذا قوم بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا
فأنزِلَنْ سكينة علينا ... وثبِّت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله ﷺ: **«يرحمك الله»**، فقتل يوم خيبر شهيداً، إذ رجع عليه سيفه وهو يقاتل فأصيب بكلْم شديد، مات منه، فصلّى عليه النبي ﷺ وصلّى عليه المسلمون.

وروي أن النبي ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه: **«قفوا»**، ثم قال: **«اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا باسم الله»**، وكان يقولها ﷺ لكل قرية دخلها.

وكان من عادته ﷺ إذا غزا قوماً لم يُغِرْ عليهم حتى يصبح فإن سمع

---

(١) عيون الآثار لابن سيد الناس ج٢ ص١٤٨ ـ ١٦١، وتاريخ ابن الأثير ج٢ ص٢٠٠ ـ ٢٠٦.

أذاناً أمسك وإن لم يسمع أذاناً أغار، ولما نزل المسلمون خيبر ليلاً وبات النبي ﷺ حتى إذا أصبح لم يسمع أذاناً فركب وركب معه المسلمون، فاستقبلوا عمال خيبر في الغداة إذ خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم (مجارف الحديد والقفاف)، فلما رأوا رسول الله ﷺ وجيش المسلمين صاحوا مذعورين: محمد والخميس (الجيش) فولوا مدبرين هرباً، فقال رسول الله ﷺ: **«الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»**.

ثم أقبل رسول الله ﷺ بجيشه حتى نزل بواد يقال له: الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان لكي يحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر إذ كانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ.

ولما سمعت غطفان بنزول رسول الله ﷺ قريباً من خيبر جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا (يساعدوا) يهود عليه، حتى إذا سارت غطفان مرحلة من المراحل، سمعوا خلفهم جَلَبَة فظنوا أن القوم نزلوا أرضهم فأخذوا أموالهم وأهليهم، فارتدوا على أعقابهم خائرين، فأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر.

ثم نزل النبي ﷺ خيبر وجعل يغنم أموالها مالاً مالاً، ويفتتح ديارها حصناً حصناً، فكان أول حصونهم افتتاحاً: حصن ناعم، وقد قتل عنده محمود بن مسلمة إذ ألقيت عليه من هذا الحصن رحى فقتلته، ثم حصن القموص حصن بني أبي الحقيق.

وأسر النبي ﷺ منهم أسارى كثيرين، وكان فيهم صفية بنت حيي بن أخطب فاصطفاها النبي ﷺ لنفسه فآمنت إيماناً راسخاً وكانت من أمهات المؤمنين.

ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصون خيبر ما افتتح، وحاز من الأموال ما حاز، انتهوا إلى حصنين وهما الوطيح والسّلالم، وكان هذا آخر حصون خيبر افتتاحاً، إذ حاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة، وكان شعار المسلمين يوم خيبر: يا منصور أمت أمت.

ثم خرج مرحب اليهودي من حصنهم وقد جمع سلاحه معلناً تحديه ومطالباً المبارزة وهو يقول: من يبارز؟ فقال رسول الله ﷺ: «من لهذا؟»، فقال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله، أنا والله الموتور الثائر، قتل أخي بالأمس، فقال النبي ﷺ: «فقم إليهم، اللهم أعنه عليه»، فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة قديمة فجعل كل واحد يلوذ بها من صاحبه، فكان كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه منه ما دونه، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه بعد أن صارت الشجرة قائمة ما فيها من فنن (غصن)، ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة فضربه فاتقاه ابن مسلمة بالدَّرقة[١] فوقع سيفه فيها، فعضت به فأمسكته، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله.

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يقول: من يبارز؟ فخرج إليه الزبير بن العوام، فقالت أمه صفية بنت عبدالمطلب: يقتل ابني يا رسول الله! فقال النبي ﷺ: «بل ابنك يقتله إن شاء الله»، فخرج الزبير فالتقيا، فقتله الزبير.

ثم بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه برايته ـ وكانت بيضاء ـ إلى بعض حصون خيبر فقاتل ثم رجع ولم يك فتح وقد جهد، ثم بعث ﷺ عمر بن الخطاب من الغد فقاتل ثم رجع ولم يك فتح وقد جهد، فقال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرّار»، فدعا رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه وهو أرمد فتفل في عينيه ثم قال: «خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك»، فخرج علي بالراية يأنح[٢]، يهرول هرولة، فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن فقال: مَن أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، فقال اليهودي: علوتم وما أنزل على موسى، فما رجع علي بعد ذلك حتى فتح الله على يديه.

---

(١) الدرقة: الترس من جلد ليس فيه خشب، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٢٨١.

(٢) أنح يأنح: أنحاً وأنيحاً وأنوحاً: تنفس بأنين من ثقل يجده من مرض أو تعب، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٢٩.

ولما استيأس يهود خيبر وأيقنوا بالهلكة إن لم يذعنوا لصولة المسلمين، سألوا رسول الله ﷺ أن يخرجهم من أرضهم وأن يحقن لهم دماءهم ففعل ﷺ.

ولما علمت فدك ما صنعت خيبر، بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يخرجهم كذلك وأن يحقن دماءهم ويخلوا له الأموال ففعل.

ثم سألت خيبر رسول الله ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف، إذ قالوا: نحن أعلم بها منكم، وأعْمرُ لها، فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، على أنه إذا شاء المسلمون أن يخرجوهم أخرجوهم.

فصالح أهل فدك النبي ﷺ على مثل ذلك، وبذلك كانت خيبر فيئاً بين المسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

محاولة قتل النبي ﷺ بالسم:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية وقد سألت: أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها من السم ثم سمّت سائر الشاة ثم جاءت بها فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ، تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور إذ أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فقد أساغها، أما رسول الله ﷺ فقد لفظها ثم قال: «**إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم**»، ثم دعا بها فاعترفت. فقال: «**ما حملك على ذلك؟**» فقالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيُخبر، فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ثم مات بشر من أكلته التي أكل.

وكان رسول الله ﷺ قد قال في مرضه الذي توفي فيه، وقد دخلت عليه أم بشر بنت البراء بن معرور تعوده: «**يا أم بشر، إن هذا الأوان وجدت**

فيه انقطاع أبهري[1] من الأكلة التي أكلت مع أخيك بخيبر»، فكان المسلمون بذلك يرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً، مع ما أكرمه الله به من النبوة.

إن ذلكم لهو شأن يهود وديدنهم في الكيد للإسلام والمسلمين من أول يوم، لقد تجرعت يهود فيض المرارة والحسد من انبعاث رسول الله محمد ﷺ ليكون نذيراً للعالمين، فأساءها وغصها غصاً أن يكون هذا المبعوث الخاتم من العرب وأن لا يكون من بني إسرائيل فراحت تناصبه الكيد والعدوان وتتربص به طوال سني حياته الدوائر والملمات، لكن الله الذي كتب لهذا الدين أن يشيع ويعلو قد حفظ نبيه الكريم وعصمه من دسائس الماكرين وخياناتهم ومختلف أساليبهم في الغدر والتربص.

ولم تبرح يهود هوايتها اللحوح في التآمر على الإسلام لاجتثاثه من جذوره عبر القرون المنصرفة جميعاً، وعلى المسلمين لإضعافهم وإذلالهم وتدميرهم.

لا جرم أن أعظم عنوان لمكائد يهود وائتمارهم نبي الإسلام ﷺ ليقتلوه، ما أقدمت عليه هذه المرأة الخيبرية وهي تدس السم في كل أنحاء الجسد من الشاة المصلية ثم تدسه أكثر ليكون مركوزاً في الذراع من هذه الشاة، لكن نبي الله ﷺ مصون برعاية الله محوط بكلاءته فلا ينفذ إليه أيما كيد أو مساءة.

إن أفاعيل يهود في المكر الشديد بالإسلام والمسلمين ظاهرة مريعة، وكان من جملتها التخطيط الخبيث للإطاحة بدولة الإسلام في تركيا، تلك الدولة العلية القوية التي كانت تستظل بظلها الوارف شعوب المسلمين في سائر أنحاء الأرض طيلة قرون خمسة أو أكثر لولا أن أصابع الغدر والتآمر والتدسس في أوكار الخيانة من دهاليز ماسون وصهيون التي جهدت بالغ

---

(١) الأبهران: الوريدان اللذان يحملان الدم من جميع أوردة الجسم إلى الأذين الأيمن من القلب، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٧٣.

الجهد في تأليب الأعداء من دول الكفر الصليبي ليطيحوا بدولة الإسلام حتى تمخض ذلك عن إضعاف المسلمين وتمزقهم إلى أشتات من الدولة المتفرقة المختلفة، وكان ذلك كله مدعاة كبرى لفتح السبيل إلى اغتصاب فلسطين لتقوم عليها دولة الظلم والقهر والعدوان، إسرائيل.

بناء الرسول ﷺ بصفية:

أعرس النبي ﷺ بصفية بخيبر أو ببعض الطريق، فبات ﷺ بها في قبة له وبات أبو أيوب خالد بن زيد متوشحاً سيفه يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ، فلما رآه مكانه قال: **«ما لك يا أبا أيوب؟»**، قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك، فقيل أن رسول الله ﷺ قال: **«اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني»**.

ولما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر، حتى إذا كان في الطريق من آخر الليل قال: **«مَنْ رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام؟»** قال بلال: أنا يا رسول الله أحفظه عليك، فنزل رسول الله ﷺ، ونزل الناس فناموا، وقام بلال يصلي، فصلى ما شاء الله عز وجل أن يصلي، ثم استند إلى بعيره، واستقبل الفجر منتظراً طلوعه حتى غلبته عينه فنام، فلم يوقظ المسلمين إلا مسُّ الشمس، وكان رسول الله ﷺ أول المسلمين استيقاظاً إذ هبَّ فقال: **«ماذا صنعت بنا يا بلال؟»**، قال: يا رسول الله، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، قال: **«صدقت»**، ثم توضأ النبي ﷺ، وتوضأ الناس، ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى رسول الله ﷺ بالناس، ولما سلَّم أقبل على الناس فقال: **«إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾»** [طه: الآية ١٤].

جلاء يهود خيبر:

افتتح النبي ﷺ خيبر عنوة بعد قتال، وكانت خيبر مما أفاء الله تعالى على رسوله ﷺ فخمَّسها وقسمها بين المسلمين، ونزل من نزل من أهلها

على الجلاء بعد القتال، فدعاهم النبي ﷺ فقال: «**إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها وتكون ثمارها بيننا وبينكم، وأُقركم ما أقرّكم الله؟**» فقبلوا، فكانوا على ذلك يعملونها، وكان رسول الله ﷺ يبعث عبدالله بن رواحة فيقسم ثمرها ويعدل عليهم في الخرص[1]، فلما توفي رسول الله ﷺ أقرّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه ما بين رسول الله ﷺ وأهل خيبر، وذلك على المعاملة التي عاملهم عليها رسول الله ﷺ.

ثم أقرّها عمر صدراً من إمارته عقب وفاة أبي بكر، ثم بلغ عمر أن رسول الله ﷺ قال في وجعه الذي قبضه الله فيه: «**لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان**» فتحرى ذلك عمر فاستيقن، فأرسل إلى يهود وقال لهم: إن الله عز وجل قد أذن في جلائكم، فقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان**»، فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليأتيني به أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليتجهز للجلاء، فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ منهم.

وعن عبدالله بن عمر قال: خرجت أنا والزبير والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعاهدها، فلما قدمنا تفرقنا في أموالنا، فعُدِي علي تحت الليل وأنا نائم على فراشي ففُدعت[2] يداي من مرفقيّ، فلما أصبحت، استصرخ علي صاحباي فأتياني فسألاني: من صنع بك هذا؟ فقلت: لا أدري، فأصلحا من يديّ ثم قدما بي على عمر رضي الله عنه، فقال: هذا عمل يهود، ثم قام في الناس خطيباً وقال: أيها الناس، إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا، وقد عَدَوا على عبدالله بن عمر، ففَدَعوا يديه كما قد بلغكم، مع عدوانهم على الأنصاري قبله، ولا

---

(١) الخرص: الحرز، خرص النخل والكرم أي: حرز ما عليه من الرطب تمراً، ومن العنب زبيباً، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٢٢٧.

(٢) الفدع: بفتحتين: اعوجاج الرسغ من اليد أو الرجل، فينقلب الكف والقدم إلى الجانب الأيسر، والأفدع: الذي يمشي على ظهور قدميه، انظر: المصباح المنير ج٢ ص١١٨.

نشك أنهم أصحاب ذلك، ليس لنا عدو غيرهم، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به، فإني مخرج يهود. فأخرجهم[1].

عدد من قتل من اليهود والمسلمين:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج من تمر أو زرع، وقد قتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً، واستشهد من المسلمين خمسة عشر رجلاً، وقيل: أكثر من ذلك[2].

قدوم جعفر بن أبي طالب من الحبشة:

قدم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ من الحبشة يوم فتح خيبر، فقبّله رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه، وقال ﷺ لدى استقباله: «**ما أدري بأيهما أنا أُسَرُّ: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟**».

وكان ممن أقام بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ حتى بعث فيهم رسول الله ﷺ إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري، فحملهم النجاشي في سفينتين، ثم قدموا على النبي ﷺ وهو بخيبر بعد الحديبية.

عمرة القضاء:

لما رجع النبي ﷺ إلى المدينة من خيبر أقام بها جمادى الأولى والآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال، ثم خرج في ذي القعدة معتمراً عمرة القضاء وذلك في الشهر الذي صده فيه المشركون، وساق معه سبعين بدَنَة، وخرج معه المسلمون ممن كان معه في عمرته الأولى.

ويقال لهذه العمرة: عمرة القصاص لأن المشركين صدوا رسول الله ﷺ في ذي القعدة في الشهر الحرام من السنة السادسة، فاقتصّ النبي ﷺ بذلك منهم، إذ دخل مكة في ذي القعدة في الشهر الذي صدوه

(١) سيرة ابن هشام ج٣ ص٣٤٢ - ٣٧٢، وتاريخ ابن خلدون ج٢ ص٣٨ - ٤٠.

(٢) عيون الآثار ج٢ ص١٨٣.

فيه من السنة السابعة، وفي ذلك ذكر عن ابن عباس قال: أنزل الله في ذلك: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: الآية ١٩٤]، وقيل: سميت بذلك لأن النبي ﷺ وأصحابه كانوا محصرين بالحديبية وكانوا محرمين بالعمرة فحال المشركون دون اعتمارهم في هذا العام، فقضوها في العام المقبل وهو قول الحنفية، وهم في ذلك يذهبون إلى وجوب القضاء على المحصر إذا حلّ بالهدي[1].

ولما سمع أهل مكة بقدوم النبي ﷺ والمسلمين خرجوا عنه، وتحدثت قريش بينها أن محمداً وأصحابه في عسرة وجهد وشدة، فاصطفوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله ﷺ اضطبع بردائه[2] وأخرج عضده اليمنى ثم قال: «رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة»، ثم استلم النبي ﷺ الركن وخرج يهرول، ويهرول معه أصحابه فمضت السنة بذلك، فأنزل الله في ذلك: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: الآية ٢٧]، والفتح القريب يراد به: فتح خيبر[3].

غزوة مؤتة:

مؤتة: قرية من أرض الشام جنوب الأردن، على مقربة من مدينة الكرك، إذ بعث النبي ﷺ عساكر المسلمين إلى مؤتة لمواجهة الروم، وذلك في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة، وقد استعمل على جيش المسلمين في هذه الغزوة زيد بن حارثة، وقال: «**إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة على الناس**»، فتهيأ المسلمون للخروج وهم حينئذٍ ثلاثة آلاف، فلما همُّوا بالخروج ودَّع الناس

(١) أحكام القرآن للجصاص: ص٢٧٩.
(٢) اضطبع بردائه: تأبط به، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٥٣٣.
(٣) سيرة ابن هشام ج٤ ص١٢ ـ ١٤، وتاريخ ابن الأثير ج٢ ص٢٢٧.

أمراء رسول الله ﷺ وقالوا: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين، فقال عبدالله بن رواحة وكان شاعراً:

لكنني أسأل الرحمٰن مغفرة وضربة ذات قرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدَيْ حرانَ مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي أرشده الله من غاز وقد رشدا

ثم مضى المسلمون حتى نزلوا معان من أرض الشام حيث النفوذ والسلطان للرومان وملكهم العظيم هرقل.

فتسامع الناس أن هرقل قد سار إليهم في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من نصارى العرب مائة ألف وهم من لخم وجذام وبلقين، فلما بلغ المسلمين خبر القوم الظالمين وحشودهم الكاثرة أقاموا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما أن يُمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، فوقف عقب ذلك عبدالله بن رواحة وشجع الناس أيما تشجيع وقال: يا قوم، والله إن التي تكرهون للّتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة، فقال الناس: قد صدق والله ابن رواحة، فمضى الناس للقتال على بركة الله، حتى إذا كانوا بتخوم (حدود) البلقاء لقيتهم جموع هرقل الحاشدة من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها: المشارق، فدنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة، على مقربة من جنوب الكرك، فتهيأ المسلمون للقاء العدو، فاقتتلوا فقاتل قائدهم زيد بن حارثة قتالاً منقطع النظير، وكان يحمل راية رسول الله ﷺ فشاط[1] في رماح القوم لفرط إقدامه وعظيم بأسه في لقاء الظالمين.

---

(١) شاط: هلك، أشاطه غيره: أهلكه، انظر: مختار الصحاح ص٣٥٣.

ثم أخذ الراية بعده جعفر بن أبي طالب فقاتل بها، حتى إذا لحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها (ضرب قوائمها بالسيف) ثم قاتل القوم حتى قتل.

وأي رجال كهذا المغوار الصنديد؟! هذا الذي أحاطت به الضروب والطعون من كل جانب، حتى إذا أيقن ألا مناص من الموت، رمى بنفسه عن فرسه لينال من العدو ويكيد لهم كيداً، فضلاً عما في ذلك من تحريض شديد للمسلمين على الإقدام والهجوم.

أولئك هم الميامين الأشاوس الذين عز على الأجيال والمجتمعات أن يفرزوا أمثالهم، لا جرم أن الإسلام بعقيدته المشرقة ونظامه العظيم الغامر يصنع مثل هاتيك النماذج العجيبة من الرجال!

وكان رحمه الله يقرض الشعر، ولدى اقتحامه مندفعاً صوب العدو وهو يقاتلهم وجهاً لوجه كان يقرض أبياتاً من الشعر، تتقاطر منها الحماسة اللاهبة، وتكشف عن وجدان غيور مخلص متأجج، يتشوف صاحبه في احترار شديد إلى لقاء الله، وتلكم هي الأبيات:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبةً وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
علي إن لاقيتها ضرابها

ذهب زيد إلى ربه شهيداً، فأخذ اللواء من بعده جعفر بن أبي طالب، فقد أخذه بيمينه فقطعت، ثم أخذه بشماله فقطعت، ثم احتضن اللواء بعضديه حتى قتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وقيل: إن رجلاً من الروم قد ضربه بعد ذلك ضربتين فقطعه بنصفين.

إن هذه من أعاجيب الصنائع التي أسفرت عنها تعاليم الإسلام، هذا الدين الرباني المميز، الذي يحقق المعجزات والآيات الباهرات فيضع من أعاظم الرجال ما يتجاوز كل حسبان!

وهذه أعجوبة تَخلُب الأذهان والبصائر وتثير الدهش والذهول، نقف

على حقيقتها ونحن نسمع عن جعفر وقد قطعت يداه ثم احتضن اللواء بعضديه ثم كرّ في لقاء العدو وما فتىء دمه ينزف!

أولئك هم الرجال الأفذاذ الذين صنعهم الإسلام.

وعقب مقتل جعفر بن أبي طالب أخذ الراية من بعده عبدالله بن رواحة، فتقدم بها وهو على فرسه فجعل يحرّض نفسه على المواجهة والقتال وهو يتردد بعض التردد، ثم قال أبيات من الشعر تثير الحماسة وتهيج المشاعر:

أقسمت يا نفس لتنزلِنَّهْ ... لتنزلِنَّ أو لتكرهِنَّهْ
إن أجلب الناس وشدوا الرنَّهْ ... ما لي أراك تكرهين الجنَّهْ
قد طال ما قد كنت مطمئنهْ ... هل أنت إلا نطفة في شَنَّهْ

وقال أيضاً:

يا نفس إلا تُقتَلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صُليتِ
وما تمنيتِ فقد أُعطيتِ ... إن تفعلي فعلهما هُديتِ

يعني إن ترومي الشهادة كما نالها زيد وجعفر فقد بلغت الخير والنجاة وطيب المآل.

ولما أقبل ابن رواحة للقاء العدو أتاه ابن عم له بعَرْق من لحم وقال له: شُدَّ بهذا صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة ثم سمع الحطْمة (شدة القتال) في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا! - يخاطب بذلك عرق اللحم مستهجناً - ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل.

وبذلك قد مضى الأبطال الثلاثة إلى ربهم شهداء بعد أن بلغوا السّماكين في درجات الشهامة والتجرد الخالص لله، مضوا إلى جوار الله في الفردوس العظيم حيث التلاقي العاطر الودود بين المفضلين الأبرار الأماجد الذين عز في العالم نظراؤهم!

ثم أخذ الراية من بعد ابن رواحة ثابت بن أقرم الأنصاري فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم وانحاز بهم، مبتغياً بذلك تنجيتهم من الهلاك المحدق، ولقد كانت هذه المبادرة في غاية البراعة والدهاء العسكري الذي تحلى به خالد بن الوليد، هذا الهُمام الأشم الذي أوتي من عبقرية التخطيط للحرب ما كتب الله به النجاة للمسلمين في مؤتة كيما يعودوا سالمين.

وكان النبي ﷺ - بروحه المشرقة الفيّاضة، وبصيرته النافذة الثاقبة - يرقب مجرى الأحداث في مؤتة عن كثب، فلما أصيب القوم وهم الأبطال الثلاثة قال ﷺ: **«أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل حتى قتل شهيداً»**، ثم صمت ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان في عبدالله بن رواحة ما يكرهون، ثم قال: **«ثم أخذها عبدالله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً»**، ثم قال ﷺ: **«لقد رُفعوا إليّ في الجنة فيما يرى النائم، على سُرر من ذهب فرأيت في سرير عبدالله بن رواحة ازوراراً[1] عن سريري صاحبيه قلت: عم هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبدالله بعض التردد ثم مضى»**.

عن أسماء بنت عميس قالت: لما أصيب جعفر وأصحابه دخل عليَّ رسول الله ﷺ وقد دبغت أربعين مناً، وعجنت عجيني وغسلت بنيّ ودهنتهم ونظفتهم، فقال لي رسول الله ﷺ: **«ائتيني ببني جعفر»** فأتيته بهم، فشممهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: **«نعم أصيبوا هذا اليوم»** فقمت أصيح، واجتمعت النساء وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال: **«تُغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً»**.

(١) ازوراراً: الميل والانحراف، ازور: مال وانحرف، الزور: الباطل، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٤٠٦.

ولما رجع الجيش ودنوا من المدينة، لقيهم رسول الله ﷺ والمسلمون، فأخذ رسول الله ﷺ عبدالله بن جعفر فحمله بين يديه فجعل الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون: يا فُرار يا فرارا! ويقول رسول الله ﷺ: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكُرار إن شاء الله تعالى»(١).

فتح مكة:

بعد غزوة مؤتة أقام النبي ﷺ شهري جمادى الآخرة ورجب، وقد عدت بنو بكر على خزاعة وهم على ماء لهم بأسفل مكة اسمه الوتير.

وكانت خزاعة قد دخلت في عهد رسول الله ﷺ، وبكر في عهد قريش، وذلك في صلح الحديبية، والسبب في ذلك أن رجلاً من بني الحضرمي اسمه مالك بن عبادة ـ وكان حليفاً للأسود بن رزن البكري في الجاهلية ـ قد خرج تاجراً، فلما كان بأرض خزاعة قتلوه وأخذوا ماله، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه، فعدت خزاعة على بني الأسود بن رزْن فقتلوهم بعرفة، فبينما خزاعة وبنو بكر على ذلك، جاء الإسلام واشتغل الناس به، ولما كان صلح الحديبية ودخلت خزاعة في عهد الرسول ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، اغتنمت بكر تلك الهدنة وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم بقتل بني الأسود، فخرج نوفل بن معاوية البكري فيمن أطاعه من بني بكر، حتى بيّت خزاعة وهم على الوتير ماء لهم، فأصابوا منهم رجلاً وتحاوزوا واقتتلوا ورفدت قريش بني بكر بالمساعدة إذ أمدوهم بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً حتى ساقوا خزاعة إلى دور مكة ودخلوا دار بديل بن ورقاء الخزاعي ورجع بنو بكر بعد أن قتل من خزاعة من قُتل، وبذلك انتقض العهد الذي بين النبي ﷺ وبين قريش بسبب عدوانهم على خزاعة، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فوقف عليه ثم قال:

(١) سيرة ابن هشام ج٤ ص١٥ ـ ٢٤، وتاريخ ابن الأثير ج٢ ص٢٣٤ ـ ٢٣٨.

لا هـمّ إنـي نـاشـد مـحـمـداً حـلـفَ أبـيـنـا وأبـيـه الأتـلَـدا
فـانـصـر رسـولَ الله نـصـراً أعـتـدا وادع عـبـاد الله يـأتـوا مـددا
فـيـهـم رسـول الله قـد تـجـردا أبـيـضَ مـثـل البـدر يـنـمـي صُعُـدا
إن سـيـم خـسـفـاً وجـهـه تـربـدا فـي فـيـلـق كـالـبـحـر يـجـري مُـزبـدا
إن قـريـشـاً أخـلـفـوك الـمـوعـدا ونـقـضـوا مـيـثـاقـك الـمـؤكـدا
وجـعـلـوا لـي فـي كـداء رصـدا وزعـمـوا أن لـسـتُ أدعـو أحـداً
فـقـتّـلـونـا ركـعـاً سـجـداً

فقال النبي ﷺ: «**قد نُصرت يا عمرو بن سالم**»، ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على النبي ﷺ المدينة فنادوه وهو يغتسل، فقال: «**يا لبيكم**» وخرج إليهم، فأخبروه الخبر ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وكان رسول الله ﷺ قد قال: «**كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليجدد العهد خوفاً، ويزيد في المدة**».

ولقي بديل أبا سفيان بعسفان يريد النبي ﷺ ليجدد العهد خوفاً منه، فقال لبديل: من أين أنت أقبلت؟ قال: من خزاعة في الساحل وبطن هذا الوادي، قال: أوَ ما أتيت محمداً؟ قال: لا، فقال أبو سفيان لأصحابه ـ بعد رواح بديل ـ انظروا بعر ناقته، فإن جاء المدينة لقد علف النوى، فنظروا بعر الناقة فرأوا فيه النوى[1].

فخرج أبو سفيان حتى أتى النبي ﷺ، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ، فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال أبو سفيان: أرغبت به (الفراش) عني، أم رغبت بي عنه؟ فقالت: إنه فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس، ولا أحب أن تجلس عليه، فقال: لقد أصابكِ بعدي شر، ثم خرج حتى أتى النبي ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئاً، ثم أتى أبا بكر فكلمه ليكلم له رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: ما أنا

---

(١) النوى: جمع، ومفرده: النواة، والنوى معناه: التمر وجمعه: أنواء، انظر: مختار الصحاح ص٦٨٧.

بفاعل، ثم أتى عمر فكلمه فقال له عمر: أنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ! والله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به، ثم خرج حتى أتى علياً وعنده فاطمة، والحسن إذ ذاك غلام، فكلمه في ذلك، فقال له: والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه، فقال لفاطمة: يا بنت محمد هل لك أن تأمري ابنك هذا أن يجير بين الناس فيكون سيد العرب؟ فقالت: ما بلغ ابني يجير بين الناس، وما يجير على رسول الله أحد، ثم التفت أبو سفيان إلى علي فقال له: أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني، فقال علي كرم الله وجهه: أنت سيد كنانة فقم فأجز بين الناس والحق بأرضك، فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره وقدم مكة وأخبر قريشاً ما جرى له وما أشار به عليٌّ عليه، فقالوا له: والله ما زاد على أن يسخر بك.

ثم تجهز النبي ﷺ وأمر الناس أن يتجهزوا إلى مكة وقال: **«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها (نفجأها) في بلادها»**، فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يعلمهم الخبر، وبعث بالكتاب مع امرأة من مزينة اسمها كنود، ووعدها جعلاً على أن تبلغه قريشاً فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به، ثم جاء الخبر من السماء، فأرسل رسول الله ﷺ علياً والزبير، فأدركاها وأخذا منها الكتاب وجاءا به إلى رسول الله ﷺ، فأحضر حاطباً وقال له: **«ما حملك على هذا؟»** فقال: والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما بدّلت ولا غيّرت ولكن لي بين أظهرهم أهل وولد وليس لي عشيرة فصانعتهم عليهم، فقال عمر: دعني أضرب عنقه فإنه قد نافق، فقال رسول الله ﷺ: **«وما يدريك يا عمر؟ لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**.

وأنزل الله في حاطب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: الآية ١].

ثم مضى النبي ﷺ في سبيله صوب مكة في عشرة آلاف فارس، وقد استخلف على المدينة أبا رهم، كلثوم بن حصين الغفاري، وكان ذلك في

العاشر من شهر رمضان من السنة الثامنة، وفتح مكة لعشر بقين من الشهر نفسه، فصام النبي ﷺ حتى بلغ ما بين عُسْفان وأمج فأفطروا، وأدركه عيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس، ولقيه العباس بن عبد المطلب بالسقيا، أو بذي الحليفة، في قول مهاجراً، فأمره رسول الله ﷺ أن يرسل رحله إلى المدينة ويعود معه، وقال له: «**أنت آخر المهاجرين، وأنا آخر الأنبياء**»، ولقيه كذلك مخرمة بن نوفل، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبدالله بن أمية، فالتمس هذان الدخول على رسول الله ﷺ وكلمته أم سلمة فيهما، وقالت له: ابن عمك وابن عمتك، فقال ﷺ: «**لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي فهو الذي قال بمكة ما قال**»، فلما سمعا ذلك وكان مع أبي سفيان ابن له اسمه جعفر فقال: والله ليأذن لي أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فرقَّ لهما رسول الله ﷺ فأدخلهما إليه فأسلما.

وقيل: إن علياً قال لأبي سفيان بن الحارث: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: الآية ٩١]، فإنه لا يرضى أن يكون أحسن منه فعلاً ولا قولاً، ففعل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: الآية ٩٢]، فقرّبهما رسول الله ﷺ فأسلما، ثم أنشده أبو سفيان بن الحارث في إسلامه واعتذاره مما مضى:

لعمرك إني أحمل راية ... لتغلبَ خيلُ اللات خيلَ محمد
لكالمدلج الحيران أظلَمَ ليلُه ... فهذا أواني حين أهدي وأهتدي
وهادٍ هداني غير نفسي ونالني ... مع الله من طرّدتُ كل مطرد

فضرب النبي ﷺ صدره وقال: «**أنت طرّدتني كل مطرد**» وقيل: إن أبا سفيان لم يرفع رأسه إلى النبي ﷺ حياء منه.

ولما نزل المسلمون مرَّ الظهران قال العباس بن عبدالمطلب: واصباحَ قريش! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

وقال العباس: فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك، فقلت: لعلي أجد بعض الحطابة أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة، ثم قال العباس: سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً! ويقول بديل: هذه والله خزاعة حمشتها[1] الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، قال العباس: فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال: ما لك؟ فداك أبي وأمي، قلت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله! فما الحيلة؟ قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به إلى معسكر المسلمين، وكان كلما مررت وإياه بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا حتى إذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عمُّ رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من هذا؟ وقام إلي، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، فسبقه إلى رسول الله ﷺ فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر أيضاً، فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه، فقال العباس: قد أجرته، فزأره[2] عمر فقال العباس: لو كان من بني عدي ما قلت هذا، ولكنه من عبد مناف، فقال عمر: والله لإسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب؛ لأني أعرف أنه عند رسول الله ﷺ كذلك.

فأمر رسول الله ﷺ العباس أن يحمله إلى رحله ويأتيه به صباحاً، فلما

---

(١) حمشتها الحرب: هيجتها وحرضتها، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص١٩٧.

(٢) زأره عمر: قاطعه في غضب، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٣٨٧.

أتى به قال له النبي ﷺ: **«ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟»**، فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد علمت لو كان معه إله غيره أغنى عنا، فقال: **«ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله»** قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه ففي النفس منها شيء! فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن يضرب عنقك، فأسلم. فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، فقال ﷺ: **«نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»**، ثم أمر العباس أن يوقف أبا سفيان بخطم[1] الوادي ليرى جنود الله، ففعل العباس ذلك، ومرت به القبائل قبيلة قبيلة إلى أن جاء مركب رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، عليهم الدروع البيض، فقال: من هؤلاء؟ فقال العباس: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار، فقال أبو سفيان: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة، فقال: هي إذن، فقال له العباس: النجاء إلى قومك، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، فقالت: اقتلوا الحميت[2] الدسم الأحمس[3] قُبِّح من طليعة قوم! فقال أبو سفيان: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

ولما انتهى النبي ﷺ إلى ذي طوى وقف على راحلته وإنه ليضع رأسه

---

(١) خطم الشيء: مقدمه، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٢٤٥.

(٢) الحميت: الزق يجعل فيه السمن أو الزيت، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص١٩٥.

(٣) الأحمس: الشجاع، والحميس: التنور، والحميسة من اللحم: النضيجة، انظر: مختار الصحاح ص١٥٤، والمعجم الوسيط ج١ ص١٩٧.

تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح المبين.

قالت أسماء بنت أبي بكر: لما وقف رسول الله ﷺ بذي طوى، قال أبو قحافة لابنة من أصغر ولده: يا بنية اظهري لي على أبي قبيس (جبل بمكة)، قالت: وقد كف بصره، فأشرفت به عليه، فقال: يا بنية، ماذا ترين؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً، قال: تلك الخيل، قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يدي ذلك مقبلاً ومدبراً، ولما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد جاء أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه النبي ﷺ قال: **«هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟»** فقال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، فأجلسه النبي ﷺ بين يديه ثم مسح صدره ثم قال له: **«أسلم»** فأسلم، فدخل به أبو بكر وكأن رأسه ثَغامة[1]، فقال رسول الله ﷺ: **«غيّروا هذا من شعره»**.

ثم أمر رسول الله ﷺ الزبير بن العوام أن يدخل من كُدَى، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل من كداء (جبل بأعلى مكة).

وقيل: إن سعد بن عبادة قال حين دخوله: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، فسمعه رجل من المهاجرين، قيل: إنه عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اسمع ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: **«أدركه، فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها»**.

وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أُمرائه من المسلمين ـ حين أمرهم أن يدخلوا مكة ـ أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، لكنه ﷺ قد عهد في نفر سماهم أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم: عبدالله بن سعد، أخو بني عامر، وإنما أمر النبي ﷺ بقتله لأنه قد كان أسلم، وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي، فارتد مشركاً راجعاً إلى قريش، ففرّ إلى عثمان بن

---

(١) ثغامة: شجرة بيضاء الثمر والزهر وإذا يبست اشتد بياضها وجمعها: ثغام، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٩٧.

عفان، وكان أخاه في الرضاع، فغيّبه عثمان حتى أتى به رسول الله ﷺ، فاستأمن له، وقيل: إن رسول الله ﷺ صمت طويلاً، ثم قال: **«نعم»**، فلما انصرف عنه عثمان، قال رسول الله ﷺ لمن حوله من أصحابه: **«لقد صمتُّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه»**، فقال رجل من الأنصار: فهلا أومأت إليّ يا رسول الله؟ قال: **«إن النبي لا يقتل بالإشارة»** ثم أسلم ابن سعد فولاه عمر بن الخطاب بعض أعماله.

ومنهم عبدالله بن خَطَل، وهو رجل من بني تَيْم بن غالب، وإنما أمر النبي ﷺ بقتله، أنه كان مسلماً فبعثه ﷺ مصدِّقاً (جامعاً للصدقات)، وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه غلام له يخدمه وكان مسلماً، ولما نزل منزلاً أمر الغلام أن يذبح له تيساً ليصنع له به طعاماً فنسي يوماً ونام ولم يصنع له طعاماً فقتله وارتد، وكان له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، فقتله سعيد بن حريث المخزومي، وأبو برزة الأسلمي.

ومنهم عكرمة بن أبي جهل، فقد كان كأبيه شديد العداوة لرسول الله ﷺ، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة خاف عكرمة على نفسه فهرب إلى اليمن، وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث، فاستأمنت له ثم خرجت في طلبه ومعها غلام لها رومي، فراودها عن نفسها فأطمعته ولم تمكنه حتى أتت حياً من العرب فاستعانتهم عليه فأوثقوه، وأدركت عكرمة وهو يريد ركوب البحر، فقالت: جئتك من عند أوصل الناس وأحلمهم وأكرمهم وقد آمنك، فرجع وأخبرته خبر الغلام الرومي فقتله قبل أن يسلم، فلما قدم على النبي ﷺ سُرَّ به، فأسلم وسأل رسول الله ﷺ أن يستغفر له، فاستغفر.

ومنهم صفوان بن أمية بن خلف، وكان خصيماً لرسول الله ﷺ، فهرب خوفاً على نفسه، إلى جدة، فقال عمير بن وهب الجمحي: يا رسول الله إن صفوان سيد قومي وقد خرج هارباً فآمِنْه، فقال رسول الله ﷺ: **«هو آمن»**، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة ليعرف بها أمانُه، فخرج بها عمير فأدركه بجدة، فأعلمه بالأمان الذي أعطاه إياه رسول الله ﷺ وقال: إنه أحلم الناس وأوصلهم، وإنه ابن عمك وعزه

عزك، وشرفُه شرفُك، فقال صفوان: إني أخافه على نفسي، فقال عمير: هو أحلم من ذلك، فرجع صفوان إلى رسول الله ﷺ وقال له: إن هذا يزعم أنك آمنتني، فقال رسول الله ﷺ: «صدق»، فقال صفوان: اجعلني بالخيار شهرين، قال: أنت فيه أربعة أشهر، فأقام صفوان معه كافراً وشهد معه حنيناً والطائف ثم أسلم وحسن إسلامه ثم توفي بمكة عند خروج الناس إلى البصرة يوم الجمل.

ومنهم: عبدالله بن الزِّبَعْري السهمي، وقد كان يهجو رسول الله ﷺ بمكة، فهرب يوم الفتح هو وهبيرة بن وهب المخزومي زوج أم هانىء بنت أبي طالب إلى نجران، أما هبيرة فقد أقام بها على شركه حتى هلك، وأما ابن الزبعري فرجع إلى رسول الله ﷺ واعتذر له، فقبل النبي عذره.

ومنهم: وحشي بن حرب قاتل حمزة، فقد هرب يوم فتح مكة إلى الطائف ثم قدم مع أهله في وفد إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «أوحشي؟»، قال: نعم، قال: «أخبرني كيف قتلت حمزة؟»، فأخبره فبكى ﷺ وقال: «غيِّب وجهك عني».

وأما النساء، فمنهن: هند بنت عتبة، وكانت ذات حقد وبذاءة إذ تؤذي المسلمين بلسانها.

وكان النبي ﷺ قد أمر بقتلها لما فعلته من شنيع المثلة بحمزة ولما كانت تؤذي رسول الله ﷺ في مكة، فجاءت إلى النبي ﷺ مع النساء مستخفية فأسلمت وكسّرت كل صنم في بيتها وقالت: لقد كنا منكم في غرور، وقد أهدت إلى رسول الله ﷺ جذيين فدعا لها بالبركة في غنمها فكثرت، فكانت تهب وتقول: هذا من بركة رسول الله ﷺ، فالحمد لله الذي هدانا إلى الإسلام.

وهذا الصنف من البشر، بالرغم من كراهيته البالغة للإسلام ورسوله في أول الأمر، وبالرغم مما كان يحتبس في صدره من ضغينة لهذا الدين وأهله، بالرغم من ذلك كله فإنه يظل رهين الفطرة في براءتها من الشذوذ،

وفكاكها من براثن الثقافة السقيمة الجانحة التي تمسخ الأذهان والطبائع وتفضي بالفطرة إلى الاضطراب والالتواء، وذلكم هو شأن الثقافات في هذا العصر، وهي ثقافات مريبة فاضحة ممسوخة تودي بالإنسانية إلى الابتذال والسقوط والتدمير كيلا يبقى فيها رجاء بعد ذلك في النهوض والتحرر من أغشية التضليل والتمسيخ.

هذا الصنف من أمثال العرب السابقين أولو جبلات قد استحوذت عليها طبيعة الصحراء الصافية حيث الشهامة والمروءة وصدق العزائم والهمم، بعيداً عن ظلام المادية الثقيلة حيث الجحود والأنانية والاستكبار وعبادة الغرائز والشهوات، وحيث الجنوح والابتذال وتداعي القيم، والتجرد من الخير والرحمة.

ومن النساء كذلك: سارة، مولاة عمرو بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف، وهي التي حملت كتاب حاطب بن أبي بلتعة، وكانت قد قدمت على رسول الله ﷺ مسلمة فوصلها، ثم عادت إلى مكة مرتدة، فأمر النبي ﷺ بقتلها، فقتلها علي بن أبي طالب.

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة كانت عليه عمامة سوداء، فوقف على باب الكعبة وقال: «**لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده. وهزم الأحزاب وحده، ألا كل دم أو مأثرة أو مال يُدَّعى فهو تحت قدميّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحج**»، ثم قال: «**يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟**»، قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»، فعفا عنهم، وكان الله قد أمكنه منهم، من أجل ذلك سمي أهل مكة: الطلقاء.

وهذه شيمة من شيم هذا النبي الأعظم ﷺ، وواحدة من عجائب خلقه المفضال، وهو ﷺ يتجلى فيه من روائع الخلق وعجيب الصفات ما يزجي بقاطع الدلالة على أنه رسول رب العالمين وأنه قمين بريادة البشرية إلى يوم الدين.

وشيمة العفو عن المسيء والصفح عن الناس في كل الأحوال لا

يبلغها أحد في النابغين الأفذاذ، ولا العظماء المصلحين بمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ الذي تجسدت فيه كل معالم الخير والفضيلة مجتمعة.

ثم طاف النبي ﷺ بالكعبة سبعاً، ودخلها وصلى فيها، ورأى فيها صور الأنبياء، فأمر بها فمحيت وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، وكان بيده قضيب، فكان يشير به إلى الأصنام وهو يقرأ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨١].

فكان لا يشير إلى صنم من هذه الأصنام إلا سقط لوجهه.

ومن عجيب ما ذكر في هذا الصدد مما يشهد بصدق النبوة العظمى، أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا فضالة من رسول الله ﷺ، قال له رسول الله ﷺ: **«أفضالة؟»**، قال فضالة: نعم يا رسول الله، قال: **«ماذا كنت تحدث به نفسك؟»**، قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبي ﷺ ثم قال: **«استغفر الله»**، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خَلْق الله شيء أحب إلي منه.

وقال فضالة: فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلم إلى الحديث، فقلت: لا.

ثم جلس النبي ﷺ على الصفا للبيعة، واجتمع الناس لبيعته ﷺ على الإسلام، فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، فكانت هذه بيعة الرجال.

أما بيعة النساء، فإنه لما فرغ من بيعة الرجال بايعهن، فأتاه نساء من قريش لمبايعته منهن: أم هانىء بنت أبي طالب، وأم حبيب بنت العاص وكانت زوجة لعمرو بن وَدّ العامري، وأروى عمة عتاب بن أسيد وأختها عاتكة بنت أبي العيص، وهند بنت عتبة وكانت زوجة أبي سفيان، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت زوجة لعكرمة بن أبي جهل، وفاختة بنت الوليد بن المغيرة وكانت زوجة لصفوان بن أمية بن خلف، وغيرهن أخريات من النساء جئن يبايعن النبي ﷺ على الإسلام.

وقد كانت هند متنكرة لما فعلته في حمزة عم الرسول ﷺ، فكانت تخشى أن تؤخذ به، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «أهند؟»، قالت: أنا هند فاعف عما سلف عفا الله عنك، ثم قال رسول الله ﷺ لعمر: «بايعهن»، واستغفر لهن رسول الله ﷺ.

وكان النبي ﷺ لا يمس النساء ولا يصافح امرأة، ولا تمسه امرأة إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه.

ولما حان وقت الصلاة للظهر، أمر النبي ﷺ بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة، وقريش فوق الجبال، فمنهم من يطلب الأمان، ومنهم الذي أمن، فلما أذن بلال وقال: أشهد أن محمداً رسول الله، قالت جويرة بنت أبي جهل: لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة، وقيل: إنها قالت: لقد رفع الله ذكر محمد، وأما نحن فسنصلي ولكننا لا نحب من قتل الأحبة، وقال خالد بن أسد: لقد أكرم الله أبي فلم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: ليتني مت قبل هذا اليوم، وقال آخرون مثل هذا القول، ثم أسلموا وحسن إسلامهم ورضي الله عنهم[1].

غزوة خالد بن الوليد لبني جذيمة:

في هذه السنة من فتح مكة كانت غزوة خالد بن الوليد لبني جذيمة، ذلك أن النبي ﷺ كان قد بعث السرايا بعد فتح مكة إلى ما حولها يدعون الناس إلى الإسلام ولم يأمرهم بقتال، وكان ممن بعث، خالد بن الوليد، إذ بعثه النبي ﷺ داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، فنزل على الرميصاء وهي ماء من مياه جذيمة، وكانت جذيمة قد أصابت في الجاهلية عوف بن عبد مناف أبا عبدالرحمٰن بن عوف، والفاكه بن المغيرة عم خالد بن الوليد، إذ كانا أقبلا تاجرين من اليمن، فأخذت جذيمة ما معهما وقتلتهما، ولما نزل خالد ذلك الماء، أخذ بنو جذيمة السلاح فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فوضعوا السلاح، فأمر خالد بهم فكتفوا ثم عرضهم على السيف

---

(١) سيرة ابن هشام ج٤ ص٣١ ـ ٦٠، والكامل لابن الأثير ج٢ ص٢٣٩ ـ ٢٥٤.

فقتل كثيراً منهم، ولما علم النبي ﷺ بهذا القتل، رفع يديه إلى السماء ثم قال: **«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»**، ثم أرسل علياً ومعه مال فودى لهم الدماء والأموال، ثم قال لهم: هل بقي لكم مال أو دم لم يود[1]؟ فقالوا: لا، قال: فإني أعطيكم هذه البقية احتياطاً لرسول الله ﷺ، ففعل، ذلك أنه بعد أن وداهم، بقي معه فضلة من المال، ولما رجع علي إلى رسول الله ﷺ وأخبره، قال له رسول الله ﷺ: **«أصبت وأحسنت»**.

وروي - في هذا الصدد - عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«رأيت كأني لقِمتُ لقمة من حَيْس[2] فالتذذت طعمها، فاعترض في حلقي منها شيء حين ابتلعتها، فأدخل علي يده فنزعه»**، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله، هذه سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما تحب، ويكون في بعضها اعتراض، فتبعث علياً فيسهله.

وقيل: إن خالداً اعتذر، وقال: إن عبدالله بن حذافة السهمي أمره بذلك عن رسول الله ﷺ.

وكان بين عبدالرحمٰن بن عوف وخالد كلام في ذلك فقال له عبدالرحمٰن: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام، فقال خالد: إنما تأثرت بعمك الفاكه، حتى كان بينهما شر، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: **«مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي، فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله، ما أدركت غدوة أحدهم ولا روحته»**[3].

بعث خالد بن الوليد لهدم العزى:

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى، وكانت بنخلة وهو اسم موضع، وكانت بيتاً يعظمه بعض الأحياء من قريش وكنانة ومضر،

---

(1) لم يود: لم تؤد ديته.

(2) الحيس: التمر يخلط بسمن وأقط، انظر: مختار الصحاح ص١٦٥.

(3) الغدوة: ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، والغداة: الضحوة، والروحة: من الرواح وهو من الزوال إلى الليل، انظر: المصباح المنير ج١ ص٢٦١، ج٢ ص٢٦١.

وكان سدنة العزى وحجابها بني شيبان من بني سُلَيم وهم حلفاء بني هاشم.

ولما سمع صاحبها السلمي بمسير خالد إليها علق سيفه عليها ثم صعد إلى الجبل الذي فيه العزى وهو يقول:

أيا عُزّ شدّي شدّة لا شوى فيها
على خالد ألقي القناع وشمّري
يا عُزّ إن لم تقتلي المرء خالداً
فبوئي بإثم عاجل أو تنصّري

ولما بلغها خالد هدمها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ[1].

غزوة حنين:

كانت هذه الغزوة في شوال من السنة الثامنة، ذلك أنه لما سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالك بن عوف النصري، وكانوا مشفقين أن يغزوهم النبي ﷺ عقب فتح مكة، وقالوا: لا مانع له من غزونا، والرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا.

فاجتمعت إلى مالك بن عوف، كل من ثقيف وهوازن وقبائل أخرى من المشركين، وحضر فيهم من بني جُشم دريد بن الصمة وهو شيخ كبير ليس فيه إلا أن يستنيروا برأيه في الحرب إذ كان كبيراً مجرباً، وكان جماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصري، فلما أجمع مالك المسير بالمشركين لقتال رسول الله ﷺ، جعل مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، ولما نزل بأوطاس وقد اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة وهو محمول، يقاد به، قال دريد: ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويُعار الشاء؟ فقالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فقال دريد: أين مالك؟ فقيل: هذا مالك، فقال: يا مالك، إنك

---

(١) سيرة ابن هشام ج٤ ص٧٠ ـ ٨٠، والكامل لابن الأثير ج٢ ص٢٥٥ ـ ٢٦٠.

قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويُعار الشاء؟ قال: سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم، فقال دريد: ولِمَ ذاك؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم، فأنكر دريد عليه ذلك وزجره موبخاً مفنداً رأيه وقال: راعي ضأن والله! وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك.

ثم قال دريد: يا مالك ارفع من معك إلى عليا بلادهم ثم الْقَ الصُّبّاء[1] على الخيل.

فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك، فقال مالك: والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعُنّي يا معشر هوازن أو لأتكينَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر.

ثم قال مالك: أيها الناس إذا رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم وشدوا عليهم شدة رجل واحد.

ثم بعث مالك عيونه ليأتوه بأخبار المسلمين فرجعوا وقد تفرقت أوصالهم، فقال مالك: ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلْق[2]، فوالله ما تماسكنا أن حل بنا ما ترى!

ولما بلغ رسول الله ﷺ خبر هوازن أجمع المسير إليهم، وقد ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً له وسلاحاً، فأرسل إليه رسول الله ﷺ - وهو يومئذ مشرك -: «**أعرنا سلاحك نلق فيه عدونا**»، فقال له صفوان: أغصباً يا

---

(١) الصباء: جمع صابىء، وهو اسم كان المشركون يطلقونه على المسلمين لتحولهم عن ملة الجاهلية والشرك إلى ملة الإسلام والتوحيد.

(٢) البلق: جمع أبلق، يقال: فرس أبلق، وهو: من البلق بفتحتين، وهو سواد وبياض، انظر: مختار الصحاح ص٦٤.

محمد؟ فقال ﷺ: «**بل عارية مضمونة نؤديها إليك**»، فقال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يصلحها من السلاح، ثم سار النبي ﷺ ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه، فكانوا بذلك اثني عشر ألفاً، وقد استعمل النبي ﷺ على مكة عتّاب بن أسيد بن أبي العيص، ثم مضى رسول الله ﷺ مبتغياً لقاء هوازن.

قال جابر بن عبدالله: لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد أجوف حَطوط (نازل منحدر)، ننحدر فيه انحداراً في عماية (ظلام) الصبح، وكان القوم (المشركون) قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه ومضايقه، وقد تهيؤوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد، فانهزم الناس أجمعون لا يلوي أحد على أحد[1]، وانحاز النبي ﷺ ذات اليمين ثم قال: «**أيها الناس هلموا إلي أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله**»، قاله ثلاثاً، ثم احتملت الإبل بعضها بعضاً، إلا أنه قد بقي مع النبي ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل وأسامة بن زيد وآخرون.

وكان رجل من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء أمام الناس فكان إذا أدرك رجلاً طعنه ثم رفع رايته لمن وراءه فاتبعوه، فحمل عليه فقتل.

ولما انهزم الناس تكلم رجال من مشركي مكة بما يكشف عما في أنفسهم من الغلّ والضغن، فتكلم أبو سفيان بن حرب ـ ومعه الأزلام ـ فقال: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وقال كَلدَة بن الحنبل: الآن بطل السحر، فقال له صفوان بن أمية ـ وهو أخوه لأمه وكان حينئذٍ مشركاً ـ: اسكت فضّ الله فاك، فوالله لأنْ يربني[2] رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن.

---

(١) لا يلوي أحد على أحد: لا يقيم عليه ولا ينتظره، لوي لياً ولوياً أي: عطف وانتظر، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٨٤٨.

(٢) يربني: يكون لي رباً أي: مالكاً.

وقال شيبة بن عثمان: اليوم أدرك ثأري من محمد، وكان أبو شيبة قتل بأحد، قال شيبة: فأدزت برسول الله لأقتله، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذاك، وعلمت أنه ممنوع مني.

وكان العباس مع النبي ﷺ آخذاً بحَكَمَة[1] بغلته دُلدل وهو عليها، وكان العباس جسيماً شديد الصوت، فقال له رسول الله ﷺ: **«يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرة»** ففعل، فأجابوه: لبيك لبيك! فكان الرجل يريد أن يثني بعيره فلا يقدر، فيأخذ سلاحه ثم ينزل عنه ويؤم الصوت، فاجتمع على رسول الله ﷺ مائة رجل، فاستقبل بهم المشركين وقاتلهم، ولدى اشتداد القتال واستحراره قال النبي ﷺ:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

الآن حمي الوطيس»

واقتتل الناس قتالاً شديداً، وأخذ النبي ﷺ حفنة من تراب فرمى بها وجوه القوم، فكانت الهزيمة، فما رجع الناس إلا والأسارى في الحبال عند رسول الله ﷺ.

ولما هزم المشركون من أهل حنين وأمكن الله رسوله منهم قالت امرأة من المسلمين:

قد غلبت خيلُ الله خيلَ اللات والله أحقُّ بالثبات

وعقب هزيمة هوازن استحر (اشتد) القتل في ثقيف وبني مالك فقتل منهم سبعون رجلاً، وقصد بعض المشركين الطائف ومعهم مالك بن عوف، واتبعت خيلُ المسلمين، المشركين فقتلتهم، وقتل ربيعة بن يربوع السلمي دريد بن الصمة.

---

(١) حكمة اللجام: حديدته التي تكون في فم الفرس، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص١٩٠.

والتفت النبي ﷺ فرأى أم سُليم ابنة مِلحان وكانت مع زوجها أبي طلحة وهي حازمة وسطها ببرد لها وإنها لحامل بعبدالله بن أبي طلحة، فقال لها رسول الله ﷺ: «أم سليم؟»، قالت: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أقتلْ هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل، فقال رسول الله ﷺ: «أوَ يكفي الله يا أم سليم»، وكان معها خنجر، فقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟ فقالت: خنجر أخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به[1].

ذلك صنف من النساء المسلمات أولات الشجاعة والهمم، اللواتي أسهمن في إعزاز الحق وشموخ راية الإسلام، إنهن مسلمات فضليات أعاظم قد جاهدن في صفوف المسلمين فأبلين البلاء الحسن وكان لهن نصيب ظاهر في انتصار الإسلام وعلو شأنه.

وقد مرّ رسول الله ﷺ في الطريق بامرأة مقتولة فقال: «من قتلها؟» قالوا: خالد بن الوليد، فقال ﷺ لبعض من معه من أصحابه: «أدرك خالداً فقل له إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل امرأة أو وليداً أو عسيفاً» (أجيراً).

وكان في أوطاس بعض المشركين إذ قاتلهم المسلمون وهزموهم وظفر المسلمون بالغنائم، وساقوا المشركين أسارى وكان فيهم الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى، فقالت لهم: إني والله أخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها النبي ﷺ، فقالت له: إني أختك، فقال: «وما علامة ذلك؟»، فقالت: عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك، فعرفها وبسط لها رداءه وأجلسها عليه وخيّرها فقال: «إن أحببت فعندي مكرّمة محببة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك»، قالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي، ففعل ﷺ[2].

وقد أنزل الله تعالى في حنين قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ

---

(١) بعج بطنه بالسكين أي: شقه فهو: مبعوج وبعيج، انظر: مختار الصحاح ص٥٧.

(٢) سيرة ابن هشام ج٤ ص٨٠ ـ ٩٢، والكامل لابن الأثير ج٢ ص٢٦١ ـ ٢٦٥.

﴿كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٢٥ ـ ٢٦].

حصار الطائف:

عقب هزيمة ثقيف في هوازن قدموا إلى الطائف ومعهم الذين انضموا إليهم من القبائل، وفي الطائف أغلقوا على أنفسهم المدينة واستحصروا وجمعوا ما يحتاجون إليه.

فسار إليهم رسول الله ﷺ، ولما كان قريباً من الطائف قتل هنالك رجلاً من بني ليث قصاصاً، إذ كان القتيل قد قتل رجلاً من هذيل، وهذا أول دم أُقيد به في الإسلام.

ثم سار النبي ﷺ إلى ثقيف فحصرهم بالطائف نيفاً وعشرين يوماً، إذ نصب عليهم منجنيقاً وهو ما أشار به سلمان الفارسي، فقاتلهم الرسول ﷺ قتالاً شديداً، حتى إذا دنا المسلمون من جدار الطائف دخل نفر من المسلمين تحت دبابة عملوها ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف، فأرسلت ثقيف سكك الحديد المُحَمى، فخرجوا من تحت الدبابة، فرماهم أهل الطائف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً، فأمر النبي ﷺ بقطع أعناب ثقيف فقطعت.

ثم استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الدُّئلي في المقام عليهم، فقال نوفل: يا رسول الله إنهم ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك، فأذن بالرحيل، فلما رجع الناس قال رجل: يا رسول الله ادع على ثقيف، فقال ﷺ: **«اللهم اهدِ ثقيفاً وأت بهم»**.

فلما رأت ثقيف الناس قد رحلوا عنهم نادى سعيد بن عبيدة الثقفي: ألا إن الحي مقيم، فقال عيينة بن حصن: أجلْ والله مجدة كراماً، فقال رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة أتمدحهم بالامتناع من

رسول الله ﷺ؟ فقال عيينة: إني والله ما جئت لأقاتل معكم ثقيفاً، ولكني أردت أن أصيب من ثقيف جارية لعلها تلد لي جارية فإن ثقيفاً قوم مناكير.

واستشهد من المسلمين في الطائف اثنا عشر رجلاً منهم عبدالله بن أمية المخزومي، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، وعبدالله بن أبي بكر الصديق إذ رُمي بسهم فمات منه بالمدينة عقب وفاة النبي ﷺ، وغيرهم آخرون.

غنائم حنين:

لما رحل رسول الله ﷺ من الطائف سار حتى نزل الجعرانة، وأتته وفود هوازن وقد أسلموا، فقالوا: نحن أصل وعشيرة وقد أصابنا ما لم يخف عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك، وقام زهير بن صُرد وهو من بني سعد بن بكر، وهؤلاء الذين أرضعوا رسول الله ﷺ، فقال زهير: يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك، ولو أنا أرضعنا الحارث بن أبي شمر الغساني أو النعمان بن المنذر لرجونا عطفه، وأنت خير المكفولين، ثم قال:

امنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وندخرُ
امنن على نسوة قد عاقها قدر ... ممزق شملها في دهرها غِيَرُ

فخيرهم النبي ﷺ بين أبنائهم ونسائهم وبين أموالهم، فاختاروا أبناءهم ونساءهم، وقال ﷺ: **«أما ما كان لي وبني عبد المطلب فهو لكم، فإذا أنا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم وأسأل فيكم»**، فلما صلى النبي ﷺ الظهر فعلوا ما أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: **«ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»**، وقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله، وقال الأقرع بن حابس: ما كان لي ولبني تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: ما كان لي ولفزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: ما كان لي ولسُليم فلا، وقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال

رسول الله ﷺ: **«من تمسك بحقه من السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه فردوا على الناس أبناءهم ونساءهم»**، وذلك تحضيض ظاهر على عتق العبيد، وعلى التضييق من ظاهرة الرّق، وتلك هي فلسفة الإسلام في تحرير الرقيق ليكونوا بعد ذلك أحراراً.

قال أبو سعيد الخدري: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك الغنائم في قريش وقبائل العرب ولم يعط الأنصار شيئاً، وجدوا في أنفسهم حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه، فأخبر سعد بن عبادة رسول الله ﷺ بهذه المقالة، فقال النبي ﷺ: **«فأين أنت يا سعد؟»** فقال: أنا من قومي، فقال ﷺ: **«فاجمع قومك لي»**، فجمعهم فأتاهم رسول الله ﷺ فقال: **«ما حديث بلغني عنكم؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله بي؟ وفقراء فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألّف الله بين قلوبكم بي؟»**، قالوا: بلى والله يا رسول الله، ولله ورسوله المنُّ والفضل، فقال: **«ألا تجيبوني؟»** قالوا: بماذا نجيبك؟ فقال: **«والله لو شئتم لقلتم فصدقتم: أتيناك مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فواسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة[1] من الدنيا تألَّفتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار، شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»**، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قِسماً وحظاً، وتفرقوا[2].

إسلام كعب بن زهير:

خرج كعب بن زهير بن أبي سُلمى المزني ومعه أخوه بجير حتى أتيا

---

(١) لعاعة: البقية اليسيرة من كل شيء، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٨٢٨.

(٢) الكامل لابن الأثير ج٢ ص٢٦٦ ـ ٢٧٢، وتاريخ ابن خلدون ج٢ ص٤٧، ٤٨.

أبرق العزاف، فقال له بجير: أثبتْ في غنمنا حتى آتي هذا الرجل - يريد بذلك رسول الله ﷺ - فأسمع منه، فأقام كعب، وسار بجير إلى رسول الله ﷺ فسمع منه كلاماً وأسلم، وبلغ خبر إسلامه كعب فقال:

ألا أبلغا عني بجيراً رسالة ... على أي شيء ويبَ غيرك دلكا
على خُلُق لم تُلف أماً ولا أباً ... عليه ولم تُدركْ عليه أخاً لكا
سقاك أبو بكر بكأس روية ... فأنهلك المأمور منها وعلكا

فلما بلغ رسول الله ﷺ قول كعب غضب وأهدر دمه، فكتب بجير بذلك إلى أخيه كعب بعد عود رسول الله ﷺ من الطائف وقال: النجاء النجاء[1] وما أدري أن تتفلّت، ثم كتب إليه أيضاً: إذا أتاك كتابي هذا فأسلم وأقبل إليه فإنه لا يأخذ مع الإسلام بما كان قبله، فأسلم كعب وجاء حتى أناخ راحلته بباب المسجد، ورسول الله ﷺ مع أصحابه، وقد عرفه كعب بالصفة فتخطى الناس إليه فأسلم، وقال: الأمان يا رسول الله، هذا مقام العائذ بك، فقال له رسول الله ﷺ: **«من أنت؟»** قال: كعب بن زهير، قال: **«الذي يقول»**، ثم التفت إلى أبي بكر فقال: **«كيف قال؟»**، فأنشده الأبيات التي قالها كعب، فقال كعب: ما هكذا قلت يا رسول الله، إنما قلت:

سقاك أبو بكر بكأس روية فأنهلك المأمون منها وعلكا[2]

فقال رسول الله ﷺ: **«مأمون والله»**.

فتجهمه[3] الأنصار وأغلظوا له في الكلام، ولانت له قريش، وأحبت إسلامه، فأنشد كعب قصيدته التي منها:

---

(١) النجاء النجاء: يعني: السرعة السرعة.

(٢) في القراءة السابقة قال: (المأمور) يريد بذلك أن ما يقوله النبي ﷺ إنما تأمره به الجن، أما هذه القراءة: (المأمون) فيعني: أنه مؤتمن على الوحي.

(٣) تجهم: رجلٌ (جهم) الوجه أي كالح الوجه وقد جَهُم الرجل من باب سَهُل أي صار باسِرَ الوجه - مختار الصحاح صفحة ١١٥.

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم أثرها لم يفد مكبول
نُبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
في فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُف عند اللقاء ولا ميل معازيل
لا يقع الطعن إلا في نحرهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

وقال يمتدح الأنصار:

من سره كرمُ الحياة فلا يزل في مِقْنَب من صالح الأنصار
الباذلين نفوسهم ودماءهم يوم الهياج وسطوة الجبار
يتطهرون كأنه نسك لهم بدماء من قتلوا من الكفار

فكساه النبي ﷺ بردة كانت عليه(١).

غزوة تبوك:

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة من شهر ذي الحجة إلى رجب من السنة التاسعة، ثم أمر الناس أن يتهيأوا لغزو الروم، وجاء ذلك في فترة عسرة الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس حينئذٍ يرغبون في المقام فيستظلون الظلال ويقطفون الثمار ويكرهون النهوض لمثل هذه الوجيبة الكؤود في مثل هذه الحال من الزمان الذي هم فيه.

وكان النبي ﷺ لا يخرج في غزوة إلا كنّى عنها تكنية دون تصريح ظاهر، وذلك كيلا يعلم الحاقدون والمتربصون بأمره فيفضوا بالخبر إلى العدو، أما في غزوة تبوك فقد أعلن عن ذلك للناس وذلك لبعد الشُقة وطول السفر وشدته وكثرة العدو الذي يبتغي أن يقاتله، فيتأهب الناس لهذا الشأن العسير أهبته وما يقتضيه من تجهيز وتهيؤ واستعداد، فأخبر الناس أنه يريد لقاء الروم.

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٢ ص٢٧٤ ـ ٢٧٦، وتاريخ ابن خلدون ج٢ ص٤٨، ٤٩.

وحينئذٍ تستبين الهمم والعزائم فيتميز المؤمنون الصابرون الثابتون على الحق مهما اشتدت الخطوب، ويتهاوى الخائرون والرعاديد أو الذين لا يكنون في أنفسهم غير التكذيب والخيانة والإخلاد للأرض بشهواتها ولذائذها وحطامها.

فحدث النبي ﷺ بما يريده ذات يوم للجد بن قيس أحد بني سلمة، وقال له: **«يا جد، هل لك العام في جلاد بني الأصفر (الروم)؟»** فقال الجد: يا رسول الله أوَ تأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عُجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: **«قد أذنت لك»** ففيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: الآية ٤٩].

فلقد سقط مثل هذا المريب المتحيل، في فتنة أكبر من فتنة النساء، وتلك هي فتنة النكول عن أمر الله والتخلف عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن الجهاد في سبيل الله والمضي مع المؤمنين بقيادة سيدهم وإمامهم عليه الصلاة والسلام.

وقال بعض المنافقين لإخوانهم في النفاق والتحيل: **«لا تنفروا في الحر»**، رغبة بأنفسهم عن الجهاد وإرجافاً برسول الله ﷺ وتخذيلاً للناس لكيلا يمضوا وراءه للجهاد، فنزل في حقهم قوله جل وعلا: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: الآية ٨٢].

ومما بلغ النبي ﷺ من أخبار الكيد والمكر أن بعض المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي لتثبيط الناس عن رسول الله ﷺ، وللإرجاف بهم كيما ينثنوا عن غزوة تبوك، فبعث إليهم رسول الله ﷺ طلحة بن عبيدالله في نفر من أصحابه، وأمر أن يحرّق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة.

ولما جدّ النبي ﷺ في سفره إلى تبوك وأمر الناس بالإعداد والتهيؤ

والإنفاق في سبيل الله، بادر رجال من المؤمنين الأثرياء للإنفاق محتسبين، أما عثمان فقد أجزل في البذل والسخاء فأنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار، فقال رسول الله ﷺ: **«اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض»**.

للّه در هذا الرجل التقي المعطاء، والكريم السخي الأبرّ، الذي استحيت منه الملائكة فاستحيى منه رسول الله ﷺ لفرط وقاره ورزانته ووضاءة خلقه الودود، وحسْبه عقب ذلك أن يرضى عنه رسول رب العالمين.

وجاء رجال من المسلمين العالة المحاويج إلى رسول الله ﷺ، وهم البكاؤون، وكانوا سبعة نفر من الأنصار وغيرهم وهم: سالم بن عمير، وعُلبة بن زيد من بني حارثة، وعبدالرحمٰن بن كعب من بني النجار، وعمرو بن الجموح من بني سلمة، وعبدالله بن المغفل المزني، وهرمي بن عبدالله، وعرباض بن سارية الفزاري، وطلبوا من رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه ليمضوا معه إلى تبوك، فقال لهم النبي ﷺ: **«لا أجد ما أحملكم عليه»**، فتولوا يبكون وهم محزونون ألا يجدوا ما ينفقونه للجهاد، ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: الآية ٩٢].

ثم مضى النبي ﷺ في سفره إلى تبوك يريد بذلك لقاء الروم، لكن نفراً من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله ﷺ فتخلفوا عنه من غير شك أو ارتياب إلا التثاقل والتخاذل والعجز، منهم كعب بن مالك بن أبي كعب، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وقد كان هؤلاء نفر صدق وإيمان وغير متهمين في دينهم، لكنها نوبة من ضعف اجتاحت نفوسهم وعزائمهم فرغبوا في التخلف ركوناً للراحة والدعة، حتى إذا تنبهوا واستيقظت مشاعرهم فاؤوا إلى موكب المؤمنين المجاهدين سراعاً نادمين.

ولما سار النبي ﷺ تخلّف عنه من المنافقين والمريبين عبدالله بن

أبي بن سلول، وخلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب على أهله، وقد أمره أن يقيم فيهم، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له وتخففاً منه، لا جرم أن قولهم هذا زيف وباطل وهراء، وحاشا لعلي، هذا الضرغام الهصور، المنقطع النظير أن يتخفف منه النبي ﷺ فيستبقيه في المدينة وهو حِبُّه وصهره وابن عمه وأول الخليقة على الأرض إيماناً بدين الإسلام وبنبوة محمد ﷺ.

وعقب مقالة المنافقين هذه، خرج علي مستشاطاً حتى أتى رسول الله ﷺ بالجرف (موضع قريب من المدينة) فقال: يا رسول الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني، فقال ﷺ: «**كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلُفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**»، فرجع علي إلى المدينة، ومضى رسول الله ﷺ على سفره.

وذلكم أبو خيثمة، قد رجع ـ بعد مسير النبي ﷺ إلى تبوك ـ إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما في بستانه وقد رشت كل واحدة منهما عريشها وهيأت له فيه الطعام والماء البارد، ولما دخل أبو خيثمة قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وأبصر ما صنعتا له من المقام الرخي الظليل حيث الطعام والشراب والراحة، حتى هاجت في نفسه رهافة الضمير والحس، وألهبت مشاعره ذكرى المسلمين الزاحفين لدك حصون الكفر وفي طليعتهم رسول الله ﷺ، فقال: رسول الله ﷺ في الشمس والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء، وهو في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصَف (الإنصاف)، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم ركب وارتحل برسول الله ﷺ والمسلمين فأدركهم لدى نزولهم تبوك، وكان قد أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله ﷺ فالتقيا، حتى إذا كانا قريباً من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنباً، فهلا تأخرت عني حتى آتي رسول الله ﷺ، ففعل عمير، فدنا أبو خيثمة من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، فقال الناس: هذا راكب على

الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فقال الناس: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة، ثم أقبل فسلّم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة»[1] ثم أخبر أبو خيثمة رسول الله ﷺ الخبر، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير.

ولما أصبح المسلمون وليس معهم ماء شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ، فأرسل الله من فضله سحابة أمطرتهم حتى ارتووا وحملوا ما يحتاجونه من الماء.

وفي كل الأحوال ورغم زعزعة الباطل، وسطوع الحق، فإن الزمان لا يخلو من النفاق والمنافقين، ذلكم هو ديدن البرية بما حوته من ضروب البشر حيث المؤمنون والمنافقون والخائرون.

في هذا الصدد حدّث عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن رجال من بني عبد الأشهل عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان من قلة الماء ودعائه ﷺ فأمطرتهم سحابة حتى ارتووا قالوا للمنافق: ويحك، هل بعد هذا شيء! فقال: سحابة مارة!

ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلّت ناقته فخرج أصحابه في طلبها، وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال له: عمارة بن حزم، وكان عَقَبياً بدرياً، وكان في رحله زيد بن اللُّصيت من بني قينقاع وكان منافقاً، فقال زيد بن اللصيت: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟!

فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: «**إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب**

---

(١) أولى لك: تهديد ووعيد، وقال الأصمعي: معناه: قاربه ما يهلكه، أي: نزل به، انظر: مختار الصحاح ص٧٣٧.

كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها» فذهبوا فجاؤوا بها، فأقبل عمارة على زيد بن اللصيت المنافق يجأ[1] في عنقه ويقول: إليّ عباد الله إن في رحلي لداهية وما أشعر، اخرج أي عدو الله من رحلي فلا تصحبني، وقيل: لم يزل متهماً بشر حتى هلك.

ثم سار رسول الله ﷺ فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: «دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه».

وذلكم أبو ذر الغفاري أبطأ على المسلمين إذ تلوّى به بعيره وحَرَن، فقالوا: يا رسول الله قد تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره، فقال ﷺ: «دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»، فتمهل أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه ضاق به ذرعاً فأخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر»، فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»، وهذه أخبار ثلاثة يحدث بها رسول الله ﷺ منبئاً عن مآل هذا الصحابي العظيم أبي ذر الغفاري، وهذه واحدة من شواهد جمة تنطق بصدق رسول الله ﷺ وأنه لا ينطق عن الهوى.

ومن حديث عبدالله بن مسعود في ذلك إذ قال: لما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة[2] وأصابه بها قدره، ولم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن اغسلاني وكفّناني ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرُّ بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فلما

---

(١) يجأ: يضربه بسكين ونحوه في أي موضع كان، والاسم: الوجاء، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٣٢٤.

(٢) الربذة: قرية كانت في صدر الإسلام وبها قبر أبي ذر الغفاري، وهي الآن دارسة، وهي عن المدينة في جهة الشرق، انظر: المصباح المنير ج١ ص٢٣٠.

مات فعلا ذلك به، ثم وضعوه على قارعة الطريق، وأقبل عبدالله بن مسعود في رهط من أهل العراق عُمّار، فلم يُرعْهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق، قد كادت الإبل تطؤها، وقام إليهم الغلام فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ، فأعينونا على دفنه، فاستهل (صاح) عبدالله بن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول الله ﷺ: تمشي وحدك وتموت وحدك وتُبعث وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فواروه، ثم حدثهم عبدالله بن مسعود حديثه، وما قال له رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك.

وكان رهط من المنافقين يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنا بكم غداً مقرّنين في الحبال ـ يبتغون إرجاف المؤمنين وترهيبهم ـ.

فقال النبي ﷺ لعمار بن ياسر: «**أدرك القوم فإنهم قد احترقوا (هلكوا) فسلهم عما قالوا: فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا**»، فانطلق إليهم عمار، فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال أحدهم: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: الآية ٦٥].

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك، أتاه يُحنّة بن رؤبة صاحب أيلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتاباً فهو عندهم، فكتب ﷺ ليُحنّة بن رؤبة: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذه أَمَنَة من الله ومحمد النبي رسول الله ليُحنّة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يُمنَعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه، من بر أو بحر**».

وقد دعا رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، فبعثه إلى أكيدر دومة، وهو

أكيدر بن عبد الملك، وهو رجل من كندة وكان ملكاً عليها وهو نصراني إذ ذاك، فقال رسول الله ﷺ لخالد: «إنك ستجده يصيد البقر»، فخرج خالد للقاء أكيدر، حتى إذا كان قريباً من حصنه نزل أكيدر وأمر بفرسه وركب معه نفر من أهل بيته وفيهم أخ له يقال له: حسان، ولما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ فأخذته وقتلوا أخاه وكان عليه قباء من ديباج مخوّص[1] بالذهب، فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه[2].

وما ينبغي في هذا الصدد، لذي وجدان سليم وبصيرة سليمة أن يهذي هذيان المتربصين والحاسدين فيقول: كيف لهذا الفاتح المسلم أو غيره من جند الإسلام الفاتحين إذا كانت الغلبة لهم في قتال المشركين أن يغنموا أموال عدوهم ليقسموها بين مقاتليهم؟

ومثل هذا السؤال المريب كثيراً ما تتلمّظ به ألسنة الحاقدين من خصوم الإسلام وهم كثيرون، منهم الصليبيون والملحدون والوثنيون والصهاينة وغيرهم، أولئك يصطنعون من الهراء والزور ما يرومون به أن تشيع الشبهات والظنون من حول الإسلام كيما يحال بين الناس وهذا الدين.

والحقيقة التي لا شك فيها أن ما يأخذه المسلمون من المشركين عقب القتال من مال إنما هو تجريد لهؤلاء المشركين الضالين من وسيلة العدوان لديهم، الوسيلة الفعالة المؤثرة الكبرى التي ترفد الظالمين بأسباب القوة من سلاح وغيره، فما يستطيع الظالمون المضللون أن يجترؤوا على العدوان وإشهار السلاح نصرة للظلم والشر والباطل لولا الوسيلة الأساسية الهامة التي تمكنهم من تحصيل السلاح وامتلاكه، ووسيلة ذلك وسببه هو المال، وبذلك كان حقاً على المسلمين الفاتحين الذين يضطلعون بنشر الحق والعدل والرحمة أن يبادروا لنزع المال من المشركين الظالمين الذين يتيهون في الأرض غروراً ويثيرون في الدنيا الشر والفساد، والذين تحفزهم شهوة

(١) مخوص: مزين، خوص التاج: زينه بصفائح الذهب، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٢٦١.

(٢) سيرة ابن هشام ج٤ ص١٥٩ ـ ١٧٠، وتاريخ ابن خلدون ج٢ ص٤٩.

التسلط والاستبداد، لإشاعة الطغيان والباطل وكل ألوان الأذى والرذيلة.

ذلك تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٦].

مسجد الضِّرار:

قفل النبي ﷺ من تبوك إلى المدينة، ونزل في طريقه بذي أوان وهي بلدة على مقربة من المدينة، وكان أصحاب مسجد الضرار قد أتوا النبي ﷺ وهو يتهيأ لغزوة تبوك، فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً للضعفاء من محاويج ومعتلين، ومن أجل الليلة المطيرة أو الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«إني على جناح سفر وحال شغل»**، أو كما قال ﷺ: **«ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه»**، وعقب نزول النبي ﷺ بذي أوان جاءه الخبر من السماء إذ أطلعه الله على حقيقة المسجد وما يريد به المنافقون من إغواء الناس وتضليلهم وفتنتهم عن عقيدة التوحيد، فدعا النبي ﷺ دون إبطاء مالك بن الدخشم، ومعن بن عدي، فقال لهما: **«انطلقا إلى هذا الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه»**، فخرجا مبادرين في سرعة فقال مالك لمعن: انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، وكان كلاهما قد أتيا في طريقهما بني سالم بن عوف وهم أهل مالك بن الدخشم. فدخل مالك إلى أهله وأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدان حتى دخلا هذا المسجد المريب وفيه أهله فحرّقاه وهدّماه وتفرقوا عنه، وأنزل الله في ذلك قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: الآيات ١٠٧ ـ ١٠٩].

المخلَّفون في غزوة تبوك:

أقبل النبي ﷺ قافلاً إلى المدينة من تبوك، وكان قد تخلف عنه كثير من المنافقين، وكانوا يأتون النبي ﷺ فيحلفون له ويعتذرون فيصفح عنهم ولم يعذرهم الله ورسوله، بل كان النبي ﷺ يقبل منهم علانيتهم وظاهر إيمانهم ويكل سرائرهم إلى الله عز وجل، وكانوا إذ ذاك بضعة وثمانين رجلاً.

وتخلف عن رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك ثلاثة من خيار المسلمين من غير شك منهم، ولا نفاق إلا العجز والتثاقل مما يعتري الإنسان من ظواهر الضعف في كثير من الأحيان.

وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«لا تكلمن أحداً من هؤلاء الثلاثة»**، وذلك على سبيل التأنيب جزاء تثاقلهم ونكوصهم عن اللحوق بركب المسلمين إلى تبوك، مع اليقين بأنهم ليسوا كغيرهم من المنافقين الذين يصطنعون المعاذير، لكنهم مؤمنون صادقون نابهم مسٌ من تخاذل وتقصير.

وبذلك اعتزل المسلمون كلام هؤلاء النفر الثلاثة، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وذلكم كعب بن مالك يقص على الناس خبره في التخلف عن غزوة تبوك فيقول:

ما تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، غير أني كنت قد تخلفت عنه في غزوة بدر، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحداً تخلف عنها، ذلك أن رسول الله ﷺ إنما خرج يريد عير قريش حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد.

وكان من خبري حين تخلفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، ووالله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة، وكان رسول الله ﷺ

قلّما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل غزو عدو كثير، فجلّى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته، وأخبرهم خبره بوجهه الذي يريد، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حتى طابت الثمار وأُحِبّت الظلال، فالناس إليها صُعُر (مائلون)، فتجهز رسول الله ﷺ وتجهز معه المسلمون، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفرّط (سبق) الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت، فلم أفعل، وكان يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً[1] عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عَذَر اللّهُ من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟»، فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بُرداه والنظر في عِطفيه[2]، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ وصبّح رسول الله ﷺ المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فجاءه المخلفون فجعلوا يحلفون له ويعتذرون فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وإيمانهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فسلّمت عليه فتبسّم تبسّم المغضَب ثم قال لي: «تعاله»، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن ابتَعْت ظهرك؟» فقلت: إني يا رسول الله، لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جدلاً، ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تجد عليّ فيه وإني لأرجو عقباي من الله فيه، ولا والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدقت فيه،

---

(١) مغموص: محقر مصغر، غمصه غمصاً: حقره واستصغره ولم يره شيئاً، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٦٦٢.

(٢) عطفا الرجل: جانباه من لدن رأسه إلى وركيه، انظر: مختار الصحاح ص٤٤٠.

فقم حتى يقضي الله فيك» فقمت، وثار معي رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلَّفون، فقلت لهم: هل لقي هذا أحد غيري؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل مقالتك، وقيل لهما ما قيل لك، قلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع، وهلال بن أبي أمية، فصمتُّ حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلَّف عنه، فاجْتَنَبَنَا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرتْ لي نفسي والأرضُ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشَبَّ وأجلَدَهم، فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين وأطوف بالأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله ﷺ، فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفَتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين مشيتُ حتى تسوَّرْتُ (تسلقتُ) جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلَّمت عليه فوالله ما رد علي السلام! ففاضت عيناي ووثبت فتسورتُ الحائط ثم غدوت إلى السوق، فبينا أنا أمشي بالسوق إذا نبطي يسأل عني نَبَطَ الشام ممن قدم بالطعام (القمح) ليبيعه بالمدينة ويقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فجعل الناس يشيرون له إلي حتى جاءني، فدفع إلي كتاباً من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحقْ بنا نواسك، فقلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضاً، فقد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجل من أهل الشرك، فعمدت به (كتاب ملك غسان) إلى تنور فسجرته[١] به، فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله يأتيني، فقال:

---

(١) سجر التنور: أحماه، والسجور: ما يسجر به التنور، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٤١٧، ومختار الصحاح ص٢٨٧.

إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض، وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له أفتَكْرهُ أن أخدمه؟ قال: **«لا ولكن لا يقربنك»**، قالت: والله يا رسول الله ما به من حركة إليَّ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، ولقد تخوَّفتُ على بصره.

قال كعب: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا، ثم صليت الصبح، صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، وقد ضاقت علينا الأرض بما رحبت وضاقت علي نفسي، حتى سمعت صوت صارخ، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج، وآذن (أعلم) رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وركض رجل إليَّ فرساً، وسعى ساع من أسْلَم حتى أوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعتُ ثوبَيَّ فكسوتهما إياه بشارة، والله ما أملك يومئذٍ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، ثم انطلقت أتيمم رسول الله ﷺ وتلقّاني الناس يبشرونني بالتوبة ويقولون: ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد وسلَّمت على رسول الله ﷺ فقال لي - ووجهه يبرقُ من السرور -: **«أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك»**، أمِن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: **«بل من عند الله»**، وكان رسول الله ﷺ إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر[1].

وأنزل الله تعالى في ذلك كله قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ

---

(١) سيرة ابن هشام ج٤ ص١٧٣ - ١٨١، وعيون الأثر ج٢ ص٢٨٤ - ٢٩٠.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة: الآيتان ١١٧، ١١٨].

وفد ثقيف وإسلامها:

قدم النبي ﷺ المدينة من تبوك في رمضان، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف، وكان ذلك عقب مقتل عروة بن مسعود، هذا الذي استأذن رسول الله ﷺ أن يرجع إلى قومه فيدعوهم إلى الإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: «**إنهم قاتلوك**»، فقال عروة: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم، فخرج يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أظهر لهم دينه ودعاهم إليه، رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله.

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً، ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، فبايعوا وأسلموا وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً كما أرسلوا عروة، فأجمعوا أن يبعثوا عبد ياليل ورجلين آخرين من الأحلاف معه، وثلاثة من بني مالك ليكونوا بذلك ستة، فلما دنوا من المدينة ألْفَوا هنالك المغيرة بن شعبة فمضى هذا مسرعاً ليبشر رسول الله ﷺ بقدومهم عليه، فلقيه أبو بكر فقال له: أقسمت عليك لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدثه، ففعل، فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ فأخبره بقدومهم عليه، فخرجوا حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم في قبة في المسجد، فكان خالد بن سعيد بن العاص يمشي بينهم وبين النبي ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يرسل إليهم ما يأكلونه مع خالد، وكانوا لا يأكلون طعاماً حتى يأكل خالد منه حتى أسلموا.

وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية، وهي اللات، فلا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ، فما برحوا يسألونه سنة وسنة، ويأبى عليهم حتى سألوه شهراً واحداً بعد قدومهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى، وإنما يريدون بتركها أن يسلموا من نسائهم وذراريهم وسفهائهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلوا الإسلام، فأبى

رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدمها، وسألوه أيضاً أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: **«أما كسر أوثانكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه»**، فأجابوا وأسلموا.

وأمّر عليهم رسول الله ﷺ عثمان بن أبي العاص ـ وكان أصغرهم سناً ـ وذلك لما رأى فيه من حرص على الإسلام وتفقه في الدين ثم رجعوا إلى بلادهم، فبعث معهم رسول الله ﷺ أبا سفيان والمغيرة بن شعبة في هدم اللات، فخرجا مع القوم حتى إذا قدموا الطائف، أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى أبو سفيان ذلك وقال: ادخل أنت على قومك، فلما دخل المغيرة علاها ليضربها بالمعول وقام قومه دونه خشي أن يصاب كما أصيب عروة بن مسعود، وخرج نساء ثقيف حُسَّراً يبكين على اللات! وقال أبو سفيان ـ والمغيرة يضربها بالفأس ـ: واهالك واهالك، فلما هدمها المغيرة أخذ مالها وحُليها[(١)].

حج أبي بكر بالناس:

هذه حجة أبي بكر بالناس في ذي الحجة سنة تسع من مُهاجَر رسول الله ﷺ، وقد استعمل رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه على الحج ليكون أميراً فيقيم للناس حجهم، فخرج رضي الله عنه في ثلاثمائة رجل من المدينة وبعث معه النبي ﷺ بعشرين بدنة وساق أبو بكر خمس بدنات مقلدات بشعار الحج.

ولما كان أبو بكر بالعَرْج (موضع) لحقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ، فقال له أبو بكر: استعملك رسول الله على الحج؟ قال: لا ولكن بعثني أقرأ براءة على الناس وأنبذ إلى كل ذي عهد عهده.

وقد نزلت هذه السورة (براءة) في نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين

---

(١) عيون الأثر ج٢ ص٢٩١ ـ ٢٩٤.

المشركين من العهد، وهو أن لا يُصد عن البيت أحد جاءه ولا يخاف أحد في الشهر الحرام، وكان ذلك عهداً عاماً بين النبي ﷺ وبين أهل الشرك، وكانت هناك عهود خصائص بين رسول الله ﷺ وبين بعض القبائل من العرب إلى آجال مسماة، وذلكم هو قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التوبة: الآية ١]، وذلك لأهل العهد العام من المشركين: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: الآية ٢]، أي سيروا آمنين طيلة أربعة أشهر أولها شوال، وليس بعد ذلك أمان: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: الآيتان ٢،٣]، ذلكم إعلان من الله ورسوله للناس يوم النحر أن الله بريء من المشركين وعهودهم وكذلك رسوله بريء منهم بعد هذه الحجة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: الآية ٤]، وذلك العهد الخاص إلى أجل مسمى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ [التوبة: الآية ٤]، أي لم ينقصوكم من شروط العهد شيئاً ولم يعاونوا عليكم أحداً من الكفار: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: الآية ٤].

ولما نزلت سورة «براءة» على رسول الله ﷺ، وكان قد بعث أبا بكر الصديق ليقيم للناس الحج قيل له: يا رسول الله، لو بعثت بها إلى أبي بكر، فقال: **«لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي»**، دعا علياً بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: **«اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعتم بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته»**، فخرج علي بن أبي طالب رضوان الله عليه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء[1] حتى أدرك أبا بكر بالطريق ثم مضيا، فأقام

---

(١) عضباء: مشقوقة الأذن، وهو لقب ناقة رسول الله ﷺ، ولم تكن مشقوقة الأذن، انظر: مختار الصحاح ص٤٣٨.

أبو بكر للناس الحج حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته.

وبعد ذلك أمر رسول الله ﷺ بجهاد المشركين ممن نقض عهده الخاص مع النبي ﷺ، ومن كان من أهل العهد العام بعد الأشهر الأربعة[1].

عدد غزوات الرسول ﷺ

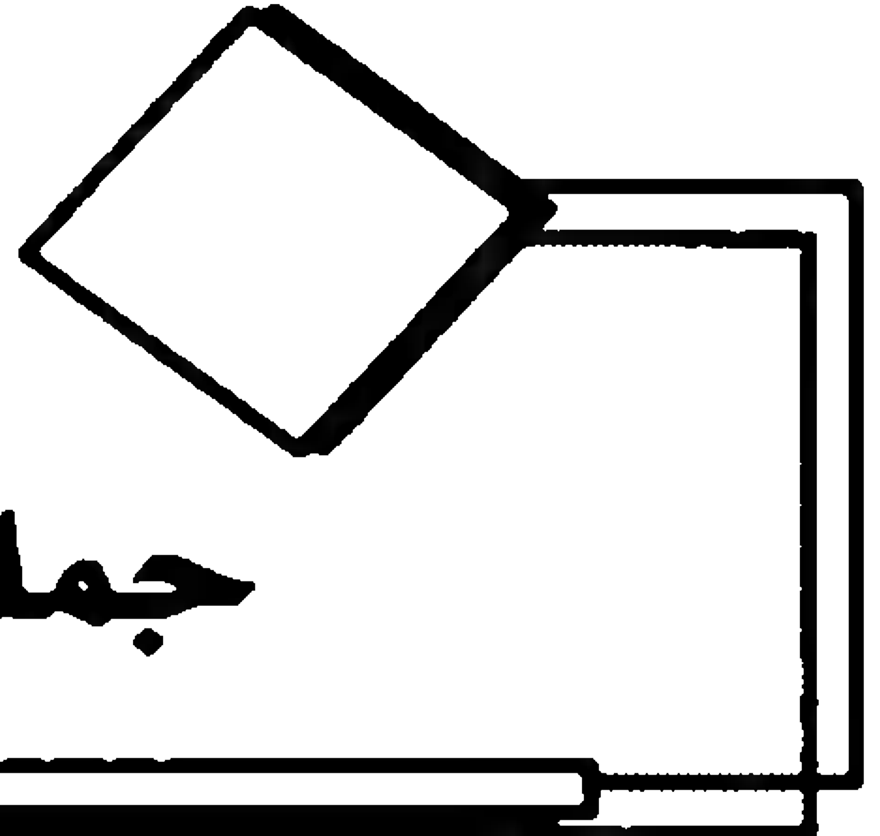
كان جميع ما غزا رسول الله ﷺ بنفسه سبعاً وعشرين غزوة هي: غزوة ودّان ـ وهي غزوة الأبواء ـ ثم غزوة بُواط، ثم غزوة العشيرة، ثم غزوة بدر الأولى، ثم غزوة بدر الكبرى التي قتل فيها صناديد قريش، ثم غزوة السويق، يطلب أبا سفيان بن حرب، ثم غزوة غطفان، ثم غزوة بحران، ثم غزوة أحد، ثم غزوة حمراء الأسد، ثم غزوة بني النضير، ثم غزوة ذات الرقاع، ثم غزوة بدر الآخرة، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بني قريظة، ثم غزوة بني المصطلق من خزاعة، ثم غزوة الحديبية لا يريد قتالاً، فصدّه المشركون، ثم غزوة خيبر، ثم عمرة القضاء، ثم غزوة الفتح، ثم غزوة حنين، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة تبوك.

وقد قاتل النبي ﷺ من هذه الغزوات في تسع منها وهي: بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف[2].



(١) سيرة ابن هشام ج٤ ص١٨٨ ـ ١٩١، والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٢٧.

(٢) سيرة ابن هشام ج٤ ص٢٥٦.



الفصل التاسع
جملة من السرايا والبعوث

جملة بعوث النبي ﷺ وسراياه ثمان وثلاثون، ونعرض هنا للحديث عن بعض هذه الغزوات:

غزوة عبدالله بن رواحة:

غزا عبدالله بن رواحة خيبر مرتين: إحداهما هذه التي أصاب فيها اليُسير بن رِزام، فقد كان هذا بخيبر يجمع غطفان لغزو رسول الله ﷺ، فبعث رسول الله ﷺ إليه عبدالله بن رواحة في نفر من أصحابه منهم عبدالله بن أُنيس، فلما قدموا على اليُسير كلموه وألانوا له في القول، وقالوا له: إنك إن قدمت على رسول الله ﷺ استعملك وأكرمك، فلم يزالوا به حتى خرج معهم في نفر من يهود، فحمله عبدالله بن أنيس على بعيره، حتى إذا كان بالقرقرة من خيبر على ستة أميال، ندم اليسير بن رزام على مسيره إلى رسول الله ﷺ ففطن له عبدالله بن أنيس وهو يريد السيف، فاقتحم به ثم ضربه بالسيف فقطع رجله، وضربه اليسير بمحجن ـ عصا معكوفة ـ في رأسه فشجه آمّة[1] ثم مال كل رجل من أصحاب رسول الله ﷺ على صاحبه من يهود فقتله إلا رجلاً واحداً منهم قد أفلت على رجليه.

---

(١) الآمة: الشجة البالغة في الرأس تصل إلى أم الدماغ.

ولما قدم عبدالله بن أنيس على رسول الله ﷺ، تَفَل على شجته فلم تقح ولم تؤذه، وذلك واحد من مظاهر الإعجاز الحسي مما كان يتجلى في شخص رسول الله ﷺ.

غزوة عيينة بن حصن لبني العنبر من بني تميم:

بعث النبي ﷺ عيينة في نفر من المسلمين لغزو بني العنبر، فأغار عليهم وأصاب منهم أناساً وأسر منهم آخرين.

ولما قدم عيينة بالأسارى على رسول الله ﷺ، ركب من أجلهم وفد من بني تميم حتى قدموا على رسول الله ﷺ، منهم: القعقاع بن معبد، وقيس بن عاصم، والأقرع بن حابس، وفراس بن حابس، فكلموا رسول الله ﷺ فيهم، فأعتق بعضاً، وأفدى بعضاً.

غزوة غالب بن عبدالله أرض بني مرة:

أصيب في هذه الغزوة مرداس بن نهيك، إذ قتله أسامة بن زيد.

قال أسامة بن زيد في ذلك: أدركته أنا ورجل من الأنصار، فلما شهرنا عليه السلام قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فلم ننزع عنه حتى قتلناه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه خبره فقال: «**يا أسامة، من لك بلا إله إلا الله؟**»، قلت: يا رسول الله، إنه إنما قالها تعوذاً بها من القتل، فقال رسول الله ﷺ: «**فمن لك بها يا أسامة؟**»، فقال أسامة: فوالذي بعثه بالحق ما زال يرددها علي حتى لوددت أن ما مضى من إسلامي لم يكن، وأني كنت أسلمت يومنا وأني لم أقتله، ثم قال: أنظرني يا رسول الله، إني أعاهد الله أن لا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً.

غزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل:

بعث النبي ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل، وهي ماء بأرض جذام يقال: السَّلْسل وبهذا سميت تلك الغزوة، وحينئذٍ خاف عمرو فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح

في المهاجرين الأولين، وفيهم أبو بكر وعمر، وقال النبي ﷺ لأبي عبيدة حين وجّهه: **«لا تختلفا»**، فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم على عمرو بن العاص، قال له عمرو: إنما جئت مدداً لي، فقال أبو عبيدة: لا، ولكني على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه، وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً، يهون عليه أمر الدنيا، فقال له عمرو: بل أنت مدد لي، فقال له أبو عبيدة: يا عمرو إن رسول الله ﷺ قال: **«لا تختلفا»** وإنك إن عصيتني أطعتك، فقال عمرو: فإني الأمير عليك، وأنت مدد لي، قال أبو عبيدة: فدونك، فصلى عمرو بالناس.

وفي هذا الصدد يقول رافع الطائي: كنت نصرانياً، فلما أسلمت خرجت في تلك الغزوة التي بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل، فقلت: والله لأختارن لنفسي صاحباً، فصحبت أبا بكر، فكنت معه في رحله، ولما دنونا من المدينة قافلين قلت: يا أبا بكر، إنما صحبتك لينفعني الله بك، فانصحني وعلمني، فقال أبو بكر: لو لم تسألني ذلك لفعلت، ثم قال: آمرك أن توحد الله ولا تشرك به شيئاً، وأن تقيم الصلاة، وأن تؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، وتغتسل من الجنابة، ولا تتأمّر على رجلين من المسلمين.

غزوة عبدالرحمٰن بن عوف إلى دومة الجندل:

روي عن عطاء بن أبي رباح قال: سمعت رجلاً من أهل البصرة يسأل عبدالله بن عمر بن الخطاب عن إرسال العِمامة من خلف الرجل إذا اعتمّ، فقال عبدالله: سأخبرك إن شاء الله عن ذلك بعلم فقال: كنت عاشر عشرة رهط من أصحاب رسول الله ﷺ في مسجده وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبدالرحمٰن بن عوف، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، وأبو سعيد الخدري، وأنا مع رسول الله ﷺ إذ أقبل فتى من الأنصار فسلّم على رسول الله ﷺ ثم جلس، فقال: يا رسول الله صلى الله عليك، أي المؤمنين أفضل؟ فقال: **«أحسنهم خلقاً»**، قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: **«أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم استعداداً**

له، قبل أن ينزل به أولئك الأكياس»، ثم سكت الفتى وأقبل رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين، خمس خصال إذا نزلن بكم ـ وأعوذ بالله أن تدركوهن ـ: إنه لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها (يجاهروا بها) إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين (القحط) وشدة المؤونة وجور السلطان، ولم يمنعوا الزكاة من أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، فلولا البهائم ما مُطِروا، وما نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سُلِّط عليهم عدو من غيرهم، فأخذ بعض ما كان في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله وتجبَّروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم».

ثم أمر النبي ﷺ عبدالرحمٰن بن عوف أن يتجهز لسرية بعثه عليها، ثم أمر بلالاً أن يدفع إليه اللواء فدفعه إليه، فحمد الله تعالى وصلى على نفسه، ثم قال: **«خذه يا ابن عوف، اغزوا جميعاً في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغُلّوا، ولا تُمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم»**، فأخذ ابن عوف اللواء وخرج إلى دومة الجندل.

غزوة أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر:

عن عبادة بن الصامت قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى سيف البحر، أي ساحله، وأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وزوَّدهم النبي ﷺ جراباً من تمر، ليقتاتوا به، ثم نفد التمر، فكان يعطي كل رجل منهم كل يوم تمرة واحدة، فلما جهدنا الجوع أخرج الله لنا دابة من البحر فأصبنا من لحمها ودكها (شحمها) وأقمنا على الأكل منها عشرين ليلة حتى سمنّا، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه خبرها، وسألناه عما صنعنا في ذلك من أكلنا إياه، فقال: **«رزق رزقكموه الله»**.

سرية كرز بن جابر لقتل البجليين:

في غزوة محارب وبني ثعلبة، أصاب النبي ﷺ عبداً اسمه يسار،

فجعله رسول الله ﷺ في لقاح له[1] كانت ترعى في ناحية الجماء (اسم موضع) فقدم على رسول الله ﷺ نفر من قيس كُبَّة (قبيلة) من بجيلة، فاستوبأوا[2] وطحلوا[3] فقال لهم رسول الله ﷺ: «**لو خرجتم إلى اللقاح فشربتم من ألبانها وأبوالها**» فخرجوا إليها، فلما شفوا وصحوا، عدوا على راعي رسول الله ﷺ يسار، فذبحوه وغرزوا الشوك في عينيه، ثم استاقوا اللقاح، فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم كرز بن جابر فلحقهم، فأتى بهم رسول الله ﷺ لدى رجوعه من غزوة ذي قَرَد، فأمر النبي ﷺ بقطع أيديهم وأرجلهم وأن تُسْمَل أعينهم، وذلك جزاء الذين يقطعون الطريق، الذين يحاربون الله ورسوله، أما سَمْل أعينهم فذلكم القصاص بما فعلوه بالراعي إذ غرزوا الشوك في عينيه[4].

سرية أسامة بن زيد بن حارثة إلى فلسطين:

عاد النبي ﷺ إلى المدينة بعد حجة الوداع، فأقام بها بقية ذي الحجة والمحرم وصفر، ثم أرسل بعثاً إلى الشام بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة، مولاه، وأمره النبي ﷺ أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء من أرض فلسطين، فتجهز الناس لذلك وسار مع أسامة في هذه السرية جمع كبير من المهاجرين الأولين، وكان ذلك آخر بعث بعثه رسول الله ﷺ.

بعض السرايا والغزوات

سرية عكاشة بن محصن الأسدي:

أرسلها النبي ﷺ في شهر ربيع الأول من السنة السادسة إلى الغَمر، وهو ماء لبني أسد وكان المسلمون إذ ذاك أربعين رجلاً، فعلم بهم القوم

---

(١) اللقاح: النوق ترعى الكلأ في البر.
(٢) استوبأوا: أصابهم الوبأ.
(٣) طحلوا: أصابهم مرض الطحال.
(٤) سيرة ابن هشام ج٤ ص٢٥٦ ـ ٢٩٠.

فهربوا، فسعت طلائع المسلمين فوجدوا مائتي بعير فأخذوها إلى المدينة ثم قدموا على رسول الله ﷺ.

سرية محمد بن مسلمة:

بعثه رسول الله ﷺ في عشرة نفر إلى بني ثعلبة بن سعد، وهم بذي القصة وبينها وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً، فوردوا عليهم ليلاً فأحدق بهم القوم وهم مائة رجل فتراموا ساعة من الليل، وكذلك حملت عليهم الأعراب بالرماح فقتلوهم، ووقع محمد بن مسلمة جريحاً إذ ضرب كعبه فلم يتحرك، فمر به رجل من المسلمين فحمله حتى بلغ به المدينة.

سرية أبي عبيدة بن الجراح:

أجدبت بلاد ثعلبة وأنمار فأجمعوا أن يغيروا على سرح[1] المدينة وهي ترعى بهيفاء، وهو موضع قريب من المدينة، فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً من المسلمين عقب صلاة المغرب، فمشوا ليلتهم حتى بلغوا ذا القصة في الصباح فأغاروا عليهم فأعجزوهم وولوا الأدبار هاربين إلى الجبال فأصيب منهم رجل واحد ثم أسلم وغنم المسلمون من نَعَمهم فاستاقوه إلى المدينة فخمَّسه النبي ﷺ وقسم ما بقي عليهم، وكان ذلك في شهر ربيع الآخرة من السنة السادسة.

سرية زيد بن حارثة:

بعثه النبي ﷺ في سرية إلى بني سُلَيم في شهر ربيع الآخرة من السنة السادسة، فسار حتى بلغ الجَموم، على أربعة برد من المدينة فأصابوا امرأة من مزينة يقال لها: حليمة، فدلتهم على محلة من محال بني سُلَيم فأصابوا نَعَماً وأسرى فيهم زوجها، فأطلقها رسول الله ﷺ وزوجها معها.

---

(١) السرح: السوائم أو الشجر العظام الطوال، انظر: المصباح المنير ج١ ص٢٩٢، ومختار الصحاح ص٢٩٣.

وكذلك بعث النبي ﷺ زيد بن حارثة في سرية أخرى إلى العيص، وهي بينها وبين المدينة أربع ليال، وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة السادسة، إذ أرسله النبي ﷺ في مائة وسبعين راكباً ليعترضوا عيراً لقريش قد أقبلت من الشام، فأخذوها وما فيها وأسروا أناساً ممن كان في العير، منهم أبو العاص بن الربيع، فقدموا بهم إلى المدينة فاستجار أبو العاص بزينب بنت رسول الله ﷺ فأجارته، ونادت في الناس حين صلّى رسول الله ﷺ الفجر: إني أجرت أبا العاص، فقال رسول الله ﷺ: **«أجرنا من أجرت»**، ورد عليه ما أُخذ منه، وقد تقدّم ذكر ذلك في غزوة بدر.

سرية عبدالرحمٰن بن عوف إلى دومة الجندل:

دعا رسول الله ﷺ عبدالرحمٰن بن عوف ،قال له: **«اغزُ بسم الله وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، ولا تغل (لا تخن) ولا تغدر ولا تقتل وليداً»**، وقد بعثه ﷺ في سرية إلى كلب بدومة الجندل وقال له: **«إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم»**، فسار عبدالرحمٰن بن عوف حتى قدم دومة الجندل، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي ـ وكان نصرانياً ـ وهو رأسهم، وأسلم معه آخرون من قومه كثيرون، وأقام من أقام على إعطاء الجزية، وتزوج عبدالرحمٰن بن عوف تماضر بنت الأصبغ، وقدم بها إلى المدينة، وهي أم أبي سلمة بن عبدالرحمٰن بن عوف[1].

سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد:

بلغ النبي ﷺ أن جمعاً من بني سعد بن بكر بفدك يريدون أن يمدوا

---

(١) دعوته ﷺ عبدالرحمٰن بن عوف للزواج من ابنة ملكهم، يراد بها: إثارة المودة التي تفضي إليها وشيجة المصاهرة لدى العرب، وهي ما فتئت كذلك في مجتمعات المسلمين على الدوام، لا جرم أن وشيجة الصهرية برباطها الوثيق الحميم تؤلف ما بين قلوب المتصاهرين لتسهم بذلك في إرساء بواعث الإخاء والرحمة والقربى.

يهود خيبر، فبعث إليهم علي بن أبي طالب في شعبان من السنة السادسة في مائة رجل، فكان علي يسير بهم في الليل ثم يكمن في النهار حتى انتهوا إلى ماء بين خيبر وفدك، فوجدوا فيه رجلاً فسألوه عن القوم فقال: أخبركم على أنكم تؤمّنوني فأمّنوه فدلهم فأغاروا عليهم وأخذوا منهم خمسمائة بعير وألفي شاة، وهربت بنو سعد بالظعن.

سرية عبدالله بن رواحة:

بعد مقتل سلام بن الحقيق، أمّرت يهود عليهم أسير بن رزام، فسار هذا في غطفان وغيرهم فجمعهم لمواجهة رسول الله ﷺ وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب للقائهم، فانتدب له ثلاثون رجلاً فبعث عليهم عبدالله بن رواحة فقدموا على أسير بن رزام فقالوا: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له، قال: نعم ولي منكم مثل ذلك، فقالوا: نعم، فقلنا: إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك، فطمع أسير في ذلك، فخرج وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود مع كل رجل رديف من المسلمين، حتى إذا كنا بقرقرة تبار، ندم أسير وأهوى بيده إلى سيفي ففطنت له ودفعت بعيري، وقلت: غدراً يا عدو الله، فنزلت فسقت بالقوم حتى انفرد أسير فضربته بالسيف، وسقط عن بعيره وبيده عصا من نخيل فضربني فشجني مأمومة(١) وملنا على أصحابه فقتلناهم كما هم غير رجل واحد، ولم يصب من المسلمين أحد، ثم أقبلنا إلى رسول الله ﷺ فحدثناه الخبر فقال: **«قد نجاكم الله من القوم الظالمين»**(٢).

وثمة غزوات أخريات نكتفي بما اقتضبناه في هذا الوجيز.

---

(١) المأمومة: الشجة البليغة التي تصل إلى أم الدماغ وهي الجلدة التي تجمع الدماغ، وهي تسبق الدافعة، وفي شجة المأمومة ثلث الدية، انظر: بداية المجتهد ج٢ ص٣٠٤، وبدائع الصنائع ج٧ ص٢٩٦، والمجموع للنووي ج١٩ ص٩٦.

(٢) عيون الآثار ج٢ ص١٣٧ ـ ١٤٧، وتاريخ ابن الأثير ج٢ ص٢٠٦ ـ ٢١٠.

كلمة في الغنائم:

يغنم المسلمون أموال الظالمين المعتدين، ومن الحق أن يغنموها ليحرموهم وسيلة كبرى من وسائل الظلم والعدوان، ذلك أن المشركين الموغلين في الضلال والباطل، السادرين في الغي والعدوان إنما يستندون في ضلالهم وظلمهم وعدوانهم إلى المال قبل كل شيء، ولولا هذه الوسيلة الفعالة المؤثرة لما استطاعوا مواصلة الكيد للحق وأهله، والتربص بدين الله الذي يضطلع بنشره المسلمون ليرسخوا في الأرض كل معالم الخير والعدل والفضيلة والرحمة، لكن الظالمين المعتدين من ملحدين ووثنيين وضالين إنما يثيرون في الأرض الشر والفساد ويرومون للبشرية أن تستسلم للذل والباطل والرذيلة.

وسبيلهم الذي يبلغون به مرامهم في تدمير القيم والفضائل، وإبادة كل ظواهر الخير والرحمة، إنما هو المال، حتى إذا نزعت منهم هذه الوسيلة، خمدت فيهم نزوة العدوان والشر وانطفأ في قلوبهم وطبائعهم الفاسدة لهيب الرغبة في الإفساد والتخريب، وذلكم هو مقتضى قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٦].

فما ينبغي بعد هذا التوضيح أن تجأر أصوات لأولي أقلام تخط الزور والكذب، وهي تفتري على الإسلام والمسلمين بأنهم استباحوا أموال خصومهم في الحرب، ذلك أن خصومهم أشرار مناكيد لا يبتغون للبشرية غير التدمير والإذلال فضلاً عما يجرجرونه للإنسانية من مختلف الويلات والنكبات والرذائل، مما يفضي بالأفراد والمجتمعات للسقوط في أوكار العهر والشنار والقاذورات، فكان حقاً على المسلمين ـ أمام هذه الحقيقة ـ أن ينتزعوا من المشركين الظالمين في الحرب هذه الوسيلة المؤثرة الفعالة، وهي المال، فيظلوا بعد ذلك ساكنين ضعافاً، وقد حرموا آلة الحرب والعدوان.





الفصل العاشر

وفود العرب على رسول الله ﷺ

بعد أن عزّ الإسلام وظهر وشاع في الآفاق وقويت شوكة المسلمين في المدينة وما حولها توافد العرب على رسول الله ﷺ في المدينة، يعلنون الولاء لدين الله ويذعنون لكلمة الحق وعقيدة التوحيد، ولتستمع إليه وهو يدعوهم إلى الإسلام، وكان ذلك في السنة التاسعة إذ فتح النبي ﷺ مكة وأسلمت ثقيف وبايعت ودانت له قريش، فأيقنت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته فدخلوا في دين الله.

وهي وفود كثيرة ومختلفة نعرض للحديث عن بعض منها في الإيجاز التالي:

وفد مزينة:

وفد على رسول الله ﷺ أربعمائة من مزينة سنة خمس للهجرة، فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة في دارهم، وقال: «**أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم**»، فرجعوا إلى بلادهم.

وقيل: ناشدهم خزاعي أن يسلموا فأسلموا فدفع رسول الله ﷺ لواء مزينة يوم الفتح إلى خزاعي وكانوا يومئذٍ ألف رجل.

وفد أسد:

قدم عشرة رهط من بني أسد بن خزيمة على رسول الله ﷺ سنة تسع

للهجرة، فيهم ضرار بن الأزور، ووابصة بن معبد، وسلمة بن حبيش، وطلحة بن خويلد، وحضرمي بن عامر وآخرون، فقال حضرمي بن عامر: أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء، ولم تبعث إلينا بعثاً فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ [الحُجرَات: الآية ١٧].

وفد تميم:

بعث رسول الله ﷺ بشر بن سفيان على صدقات بني كعب من خزاعة فجاء، وقد حلّ بنواحيهم بنو عمرو بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم.

فجمعت خزاعة مواشيها للصدقة فاستنكر بنو تميم ذلك، وأبوا وابتدروا القسي وشهروا السيوف، فقدم المصدّق (جامع الصدقات) على النبي ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: **«من لهؤلاء القوم»**، فانتدب لهم عيينة بن بدر الفزاري، فبعثه النبي ﷺ في خمسين فارساً من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فأغار عليهم فأخذ أحد عشر رجلاً وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً، فجلبهم إلى المدينة وكان فيهم عدة من رؤساء بني تميم: الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم وآخرون غيرهم، وقيل: كانوا تسعين أو ثمانين رجلاً، فدخلوا المسجد وقد أذن بلال بالظهر والناس ينتظرون خروج النبي ﷺ فاستبطأوا فنادوه: يا محمد اخرج إلينا، فخرج رسول الله ﷺ، وأقام بلال فصلى رسول الله ﷺ الظهر ثم أتوه، فقال الأقرع بن حابس: يا محمد ائذن لي فوالله إن جهدي لزين وإن ذمي لشين، فقال له: **«لا، كذبت، ذلك الله تبارك وتعالى»**، فجلس النبي ﷺ وخطب خطيب القوم وهو عطارد بن حاجب، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: **«أجبه»** فأجابه، ثم قالوا: يا محمد ائذن لشاعرنا فأذن له، فقام الزبرقان فأنشد، فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: **«أجبه»** فأجابه بمثل شعره، فقالوا: والله لخطيبه أبلغ من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا ولهم أحلم منا، ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحُجرَات: الآية ٤].

وفد فزارة:

لما رجع رسول الله ﷺ من تبوك - سنة تسع - قدم عليه وفد من بني فزارة وهم بضعة عشر رجلاً على ركاب عجاف، فجاؤوا مقرّين بالإسلام، وسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم، فقال أحدهم: يا رسول الله أسنتت بلادنا وهلكت مواشينا، وأجدب جنابنا وغرث[1] عيالنا فادع لنا ربك، فصعد النبي ﷺ المنبر ودعا فقال: **«اللهم اسق بلادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحيي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مريعاً مطبقاً واسعاً عاجلاً غير آجل نافعاً غير ضار، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء»**، فمطرت فما رأوا السماء ستاً، فصعد رسول الله ﷺ المنبر فدعا فقال: **«اللهم حوالينا ولا علينا، على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر»**، فانجابت السماء انجياب الثوب.

وفد مُرَّة:

قدم وفد بني مُرَّة على رسول الله ﷺ عقب رجوعه من تبوك سنة تسع وهم ثلاثة عشر رجلاً، وعلى رأسهم الحارث بن عوف، فقالوا: يا رسول الله، إنا قومك وعشيرتك، ونحن قوم من بني لؤي بن غالب، فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال: **«أين تركت أهلك؟»** قال: بسُلاح وما والاها، قال: **«وكيف البلاد؟»**، قال: والله إنا لمسنتون[2]، فادع الله لنا، فقال رسول الله ﷺ: **«اللهم اسقهم الغيث»**، فرجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد مطرت في اليوم الذي دعا لهم رسول الله ﷺ.

وفد سعد بن بكر:

عن ابن عباس قال: بعثت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة سنة خمس وكان جلداً أشعر، وافداً إلى رسول الله ﷺ فأقبل حتى وقف على

---

(١) غرث: جاع، وغرثان: جائع، انظر: مختار الصحاح ص٤٧١.

(٢) مسنتون: سَنَت القوم، أصابتهم سنة مجدبة، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٤٥٣.

رسول الله ﷺ فسأله فأغلظ في المسألة، إذ سأله عمن أرسله وبما أرسله، وسأله عن شرائع الإسلام فأجابه رسول الله ﷺ في ذلك كله فرجع إلى قومه مسلماً قد خلع الأنداد وأخبرهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً، وبنوا المساجد وأذنوا بالصلوات.

وفد كنانة:

وفَدَ واثلة بن الأسقع للنبي ﷺ فقدم المدينة ورسول الله ﷺ يتجهز إلى تبوك، فصلى معه الصبح فقال له النبي ﷺ: **«ما أنت وما جاء بك وما حاجتك؟»**، فأخبره عن نسبه وقال: أتيتك لأومن بالله ورسوله، قال: **«فبايع على ما أحببت وكرهت»**، فبايعه ورجع إلى أهله فأخبرهم، فقال له أبوه: والله لا أكلمك كلمة أبداً، وسمعت أخته كلامه فأسلمت وجهزته، فخرج راجعاً إلى رسول الله ﷺ فوجده قد صار إلى تبوك، فقال: من يحملني عقبه وله سهمي؟ فحمله كعب بن عجرة حتى لحق برسول الله ﷺ وشهد معه تبوك، وبعثه رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى أكيدر، فغنم فجاء بسهمه إلى كعب بن عجرة فأبى أن يقبله وسوَّغه إياه، وقال: إنما حملتك للّه.

وفد ثقيف:

لم يحضر عروة بن مسعود حصار الطائف، فقد كان يتعلّم صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات، فلما انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف، نصب عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة المنجنيق والعرادات والدبابات، وأعدا للقتال ثم ألقى الله في قلب عروة الإسلام فتغير عما كان عليه من قبل، فخرج إلى رسول الله ﷺ فأسلم، ثم استأذن رسول الله ﷺ في الخروج إلى قومه كيما يدعوهم إلى الإسلام، فقال له النبي ﷺ محذراً: **«إنهم إذاً قاتلوك»**، فقال عروة: بل أنا أحب إليهم من أبكار أولادهم، ثم استأذنه الثانية ثم الثالثة فقال: **«إن شئت فاخرج»**، فخرج فسار إلى الطائف

فقدم عشاء فدخل منزله فجاء قومه فحيُّوه بتحية الشرك، فقال: عليكم بتحية أهل الجنة السلام، ودعاهم إلى الإسلام، فخرجوا من عنده يأتمرون به، فلما طلع الفجر أذَّن بالصلاة فخرجت ثقيف من كل ناحية فرماه رجل من بني مالك اسمه أوس بن عوف فأصاب أكحله[1] فلم يرقأ دمه، فقام نفر من قومه فلبسوا السلاح، فلما رأى عروة ذلك، قال: تصدقت بدمي على صاحبه لأصلح بينكم بذلك، وهي كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إلي، وقال: ادفنوني مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ، وبعد أن مات دفنوه معهم، ولما بلغ خبره رسول الله ﷺ قال: «**مثله كمثل صاحب ياسين دعا قومه إلى الله فقتلوه**».

ثم بادر كثير من ثقيف للدخول في الإسلام وأرسلوا نفراً منهم وافدين على رسول الله ﷺ فسُرَّ النبي ﷺ بقدومهم، قال المغيرة بن شعبة: فدخلوا في الإسلام فلا أعلم قوماً من العرب كانوا أصح إسلاماً ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم.

وفد الأشعريين:

قدم الأشعريون على رسول الله ﷺ وهم خمسون رجلاً وفيهم أبو موسى الأشعري، وقد قدموا في سفن في البحر فلما دنوا من المدينة جعلوا يقولون: غداً نلقى الأحبة، محمداً وحزبه، ولما قدموا وجدوا النبي ﷺ في سفره بخيبر ولما رأوه بايعوه وأسلموا، فقال رسول الله ﷺ: «**الأشعريون في الناس كصرة فيها مسك**».

وغير هؤلاء من قبائل العرب كثيرون، وفدوا على رسول الله ﷺ معلنين إسلامهم ومبايعين، منهم وفد حمير والداريون وكندة وجهينة والأزد وتغلب[2].

---

(١) الأكحل: عرق في الذراع يفصد، انظر: المصباح المنير ج٢ ص١٨٦.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص٢٢٢ ـ ٢٦٩.

عامر بن الطفيل وائتماره بالنبي:

قدم وفد بني عامر وفيهم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس، وجبار بن سلمى، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم، فقدم عدو الله عامر بن الطفيل على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به وقد قال له قومه: يا عامر إن الناس أسلموا فأسلم، فقال: والله لقد كنت آليت لا أنتهي حتى يتبع العرب عقِبي، فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش! ثم قال عامر لأربد: إذا قدمنا على الرجل فإني شاغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاعْلُه بالسيف.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطفيل: يا محمد خالني[1]، قال: «**لا والله حتى تؤمن بالله وحده**»، وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به، وأربد لا يأتي بشيء، ثم قال عامر: خالني يا محمد، فقال ﷺ: «**لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له**»، فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً.

فلما ولَّى قال رسول الله ﷺ: «**اللهم اكفني عامر بن الطفيل**»، فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأربد: ويلك يا أربد!

أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندي على نفسي منك، وايم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً، فقال أربد: لا أبا لك، لا تعجل علي، والله ما هممت بالذي أمرتني به من أمره إلا دخلتَ بيني وبين الرجل، حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟

ثم عادوا قافلين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يقول: يا بني عامر أغُدة كغدة البكر[2] في بيت امرأة من بني سلول.

---

(١) خالني: انفرد بي، خلوت به خلوة وخلاء أي: اجتمعت معه في خلوة، انظر: المصباح المنير ج١ ص١٩٤.

(٢) البكر: الفتي من الإبل، والأنثى: بكرة، انظر: مختار الصحاح ص٦١.

ضِمام بن ثعلبة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ مع أصحابه متكئاً، جاءهم رجل من أهل البادية فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ قالوا: هذا الأمغر[1] المرتفق (المتكىء)، فدنا منه وقال: إني سائلك فمشتد عليك في المسألة، فقال: «سل عما بدا لك»، فقال: أنشدك برب من قبلك ورب من بعدك آلله أرسلك؟ قال: «اللهم نعم»، قال: وأنشدك بالله آلله أمرك أن تصلي خمس صلوات في كل يوم وليلة؟ قال: «اللهم نعم»، قال: وأنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا؟ قال: «اللهم نعم» قال: وأنشدك بالله، آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من اثني عشر شهراً؟ قال: «اللهم نعم» قال: فأنشدك بالله، آلله أمرك أن يحج هذا البيت من استطاع إليه سبيلا؟ قال: «اللهم نعم» قال: فإني قد آمنت وصدقت، فلما ولّى قال رسول الله ﷺ: «فقه الرجل».

فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما رأيت أحداً أحسن مسألة ولا أوجز من ضمام بن ثعلبة.

ثم قال ضمام لقومه: إن الله قد بعث فيكم رسولاً وأنزل عليه كتاباً، استنقذكم به مما كنتم فيه وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله. فما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً.

قدوم بني حنيفة ومسيلمة الكذاب:

أتى بنو حنيفة رسول الله ﷺ إذ هو جالس في أصحابه وقد خلّفوا مسيلمة في رحالهم، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ فانتهوا إلى اليمامة حيث ارتد عدو الله مسيلمة وتنبأ وقال: إني قد أُشركت في الأمر معه، ثم جعل يسجع لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها

---

(١) الأمغر: الأشقر، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٢٤٢.

نسمة تسعى، بين صفاق[1] وحشا، وغير ذلك من القول المصطنع المسفّ الذي يزعم أنه يضاهي به القرآن، وما كان يثير بكلامه المبتذل إلا زيادة في استسخار القوم وازدرائهم له.

وقد قتله زيد بن الخطاب رضي الله عنه يوم اليمامة، فكان في عداد الأشقياء الخاسرين ليهوي يوم القيامة في الأذلين، فضلاً عما كان عليه في الدنيا من شقوة وتعس حتى كان لمن حوله من المصدقين المغترين نذير شؤم وسوء. فيقال في هذا الصدد: إنه تفل في بئر قوم سألوه ذلك تبركاً فصار ماؤها مِلحاً، ومسح رأس صبي فصار أقرع قرعاً فاحشاً، ودعا لرجل في ابنين له بالبركة فرجع إلى منزله فوجد أحدهما قد سقط في البئر، والآخر قد أكله الذئب، ومسح على عيني رجل استشفى بمسحه فابيضت عيناه، ومن بالغ رجسه وفحشه أن كتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ أنه شريكه في النبوة، وأرسل الكتاب مع رسولين، فسألهما النبي ﷺ فصدقاه، فقال لهما: **«لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتكما»**.

وكان كتاب مسيلمة: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: أما بعد فإني قد أُشركت معك في الأمر وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم يعتدون!

فكتب إليه رسول الله ﷺ: **«بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد فالسلام على من اتبع الهدى، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»**.

قدوم عدي بن حاتم الطائي:

ذكر أن عدي بن حاتم الطائي كان يقول: ما رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ مني، أما أنا فكنت امرءاً شريفاً، وكنت نصرانياً وكنت ملكاً في قومي، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته، فقلت لغلام

---

(١) الصفاق: الجلد الباطن تحت الجلد الظاهر، أو غشاء ما بين الجلد والأمعاء، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٥١٧.

لي، وكان راعياً لإبلي: اعزل لي من إبلي أجمالاً ذللاً سمنها فاحبسها قريباً مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطىء هذه البلاد فآذني (أعلمني) ففعل، فأتاني ذات غداة وقال: يا عدي ما كنت صانعاً إذا غشيك محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد، فقلت: فقرّب لي أجمالي فقربها، فاحتملت أهلي وولدي ثم قلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام، وخلّفت بنتاً لحاتم في الحاضر[1] ثم قدمت الشام وأقمت بها، وأصابت خيل لرسول الله ﷺ من خلْفي، ابنة حاتم فيمن أصابت فجيء بها إلى رسول الله ﷺ، وقد علم رسول الله ﷺ بهربي إلى الشام فجعلت بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت تحبس فيها السبايا، فمرّ بها رسول الله ﷺ فقامت إليه فقالت: يا رسول الله هلك الوافد فامنن علي منّ الله عليك، فقال النبي ﷺ: **«من وافدك؟»** قالت: عدي بن حاتم، فقال: **«الفارُّ من الله ورسوله»** ثم مضى وتركني، حتى إذا كان من الغد مرّ بي فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس، حتى إذا كان بعد الغد مرّ بي وقد يئست، فأشار إلي رجل من خلفه أن قومي فكلميه، فقمت إليه فقلت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن علي منّ الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: **«قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنيني»**، فسألت عن الرجل الذي أشار إليّ أن كلميه فقيل: هو علي بن أبي طالب، فأقمت حتى قدم ركب من قضاعة، وإنما أريد أن آتي أخي بالشام، فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ.

فكساني رسول الله ﷺ وحملني وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

ثم قال عدي: فوالله إني لقاعد في أهلي إذ نظرت إلى ظعينة

---

(١) الحاضر ضد البادي، والحاضر ضد البادية وهي: المدن والقرى والريف، والبادية ضدها، انظر: مختار الصحاح ص١٤١.

تصوّب إلي، فقلت: ابنة حاتم، فإذا هي هي، فلما وقفت عليّ أخذت تقول: القاطع الظالم! احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والديك عورتك؟ فقلت: أي أُخية لا تقولي إلا خيراً فوالله ما لي من عذر، لقد صنعت ما ذكرت، ثم نزلَتْ فأقامت عندي، فقلت لها: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يك ملكاً فلن تذل في عز اليمن، فقلت: والله إن هذا للرأي.

قدوم عدي على رسول الله ﷺ:

قال عدي: خرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخلت عليه، فقال: «**من الرجل؟**»، فقلت: عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ وانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك.

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته، تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً، فقدّمها إلي فقال: «**اجلس على هذه**»، فقلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال رسول الله ﷺ: «**بل أنت**»، فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال ﷺ: «**ايه يا عدي بن حاتم ألم تك ركوسياً؟**»[(١)]، قلت: بلى، قال: «**أوَ لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟**»[(٢)] قلت: بلى، قال: «**فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك**»، فقلت: أجل والله، فعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل، ثم قال ﷺ: «**لعلك يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا**

---

(١) الركوسية: فرقة لها دين ومذهب بين النصارى والصابئين، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٣٦٩.

(٢) المرباع: ربع الغنيمة، فقد كان رئيس القوم يأخذه لنفسه في الجاهلية، انظر: المصباح المنير ج١ ص٢٣١.

الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم»، قال عدي: فأسلمت، فكان يقول: مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم، ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وايم الله لتكونن الثالثة، ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه[1].

قدوم رسل ملوك حمير:

قدم على رسول الله ﷺ كتاب ملوك حمير بإسلامهم، ورسولهم إليه في ذلك: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان بن قَيْل، ومعافر، وهمدان، وبعث إليه كذلك زُرعة ذو يزن بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله، فكتب إليهم رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن كُلال وإلى نعيم بن عبد كلال، وإلى النعمان قَيْل ذي رُعَين، ومعافر وهمدان، أما بعد ذلكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبنا من أرض الروم (رجوعنا من تبوك) فلقينا بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قِبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خُمُسَ الله، وسهم الرسول وصَفِيهِ (ما يصطفيه من الغنيمة) وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار (الأرض) عشر ما

---

(١) عيون الأثر ج٢ ص٢٩٥، وسيرة ابن هشام ج٤ ص٢١٣ ـ ٢٢٨، والكامل لابن الأثير ج٢ ص٢٩٩.

سقت العين وسقت السماء وعلى ما سقى الغَرْب[1] نصف العشر، وأن في الإبل الأربعين ابنةُ لَبون، وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر، وفي كل خمس من الإبل شاة، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع، جذع أو جذعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدُها شاة، وأنها فريضة الله التي فرضها على المؤمنين في الصدقة، فمن زاد خيراً فهو خير له، ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه، وظاهر (أعان) المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم وله ذمة الله وذمة رسوله، وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية، وعلى كل حالم ذكر أو أنثى، حر أو عبد دينار واف من قيمة المعافر (ثياب يمنية) أو عوضه ثياباً، فمن أدى ذلك إلى رسول الله ﷺ فإن له ذمة الله وذمة رسوله، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله، أما بعد فإن رسول الله محمداً النبي أرسل إلى زُرعة ذي يزن أنْ إذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيراً: معاذ بن جبل، وعبدالله بن زيد، ومالك بن عبادة، وعقبة بن نمر، ومالك بن مرة، وأصحابهم، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلي، وإن أميرهم معاذ بن جبل، فلا ينقلبن إلا راضياً.

أما بعد: فإن محمداً يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله، ثم إن مالك بن مرة الرهاوي قد حدثني أنك أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين، فأبشر بخير، وآمرك بحمير خيراً، ولا تخونوا ولا تخاذلوا، فإن رسول الله هو ولي غنيكم وفقيركم، وأن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته، إنما هي زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل، وأن مالكاً قد بلَّغ الخبر، وحفظ الغيب وآمركم به خيراً، وإني قد أرسلت إليهم من صالحي أهل، وأولي دينهم، وأولي علمهم، وآمرك بهم خيراً فإنهم منظور إليهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) الغرب: الدلو العظيمة، يستقى بها على السانية، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٩٧.

إسلام فروة بن عمرو:

بعث فروة بن عمرو الجذامي رسولاً إلى رسول الله ﷺ بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء، وكان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام، فلما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه عندهم ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ماء لهم يقال له عفراء[1] فلسطين.

وقيل: إنهم لما قدموا ليقتلوه قال بيتاً من الشعر هو:

أبلغ سراة المسلمين بأنني سَلْم لربي أعظُمي ومقامي

ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك ألماً.

بعث خالد إلى بني الحارث بنجران:

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الثاني أو جمادى الأولى من السنة العاشرة إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثاً قبل أن يقاتلهم، فإن استجابوا فليقبل منهم وإن لم يفعلوا فليقاتلهم، فخرج إليهم خالد، فبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون: أيها الناس أسلموا تسلموا، فأسلم الناس ودخلوا فيما دُعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام، وكتب إلى رسول الله ﷺ بذلك، فكتب له رسول الله ﷺ أن يُقْبل ويقبل معه وفدهم، فأقبل وأقبل معه وفدهم منهم: قيس بن الحصين، ويزيد بن عبد الدان، ويزيد بن المحجل، وشداد بن عبدالله الضباني، وقال لهم رسول الله ﷺ: «بِمَ كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟»، قالوا: لم نكن نغلب أحداً، قال: «بلى» قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال: «صدقتم» وأمَّر عليهم قيس بن الحصين، فرجعوا إلى قومهم ولم يمكثوا غير أربعة أشهر حتى توفي رسول الله ﷺ.

---

(١) العفر: وجه الأرض، والعفرة: بياض غير خالص، والتعفير معناه: التبييض، والأعفر: الرمل الأحمر، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٦٨.

وفد غسان:

قدم على رسول الله ﷺ وفد غسان في شهر رمضان من السنة العاشرة، وكانوا ثلاثة نفر، فأسلموا وقالوا: لا ندري أيتبعنا قومنا أم لا وهم يحبون بقاء ملكهم وقُرْبَ قيصر، فأجازهم رسول الله ﷺ بجوائز، وانصرفوا راجعين، فقدموا على قومهم فلم يستجيبوا لهم وكتموا إسلامهم حتى مات منهم رجلان على الإسلام، وأدرك الثالث منهم عمر بن الخطاب عام اليرموك، فلقي أبا عبيدة فأخبره بإسلامه فكان يكرمه.

وفد بني عبس:

قدم على رسول الله ﷺ وفد من بني عبس، فقالوا: يا رسول الله، قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواش وهي معايشنا، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له، فلا خير في أموالنا، بعناها وهاجرنا من آخرنا، فقال رسول الله ﷺ: **«اتقوا الله حيث كنتم فلن يلِتْكم (ينقصكم) من أعمالكم شيئاً»**، وسألهم رسول الله ﷺ عن خالد بن سنان، هل له عقب؟ فأخبروه أنه لا عقب له، فقد كانت له ابنة فانقرضت، ثم جعل رسول الله ﷺ يحدث أصحابه عن خالد بن سنان فقال: **«نبي ضيعه قومه»**.

وفد غامد:

قدم على رسول الله ﷺ وفد غامد وهم عشرة، وكان ذلك في السنة العاشرة، فنزلوا في بقيع الغرقد، وهو يومئذٍ أثلٌ وطرفاء[1]، ثم انطلقوا إلى رسول الله ﷺ، وخلفوا عند رحلهم أحدثهم سناً فنام عنه، وأتى سارق وسرق عيبة[2] لأحدهم فيها أثواب له، وأتى القوم إلى رسول الله ﷺ، فسلموا عليه وأقروا له بالإسلام، وكتب لهم كتاباً فيه شرائع من شرائع

---

(١) أثل وطرفاء: نوعان من الشجر، انظر: مختار الصحاح ص٦، ٣٩١.

(٢) العيبة: المتاع، انظر: مختار الصحاح ص٤٦٤.

الإسلام، وقال لهم: «من خلفتم في رحالكم؟»، فقالوا: أحدثنا يا رسول الله، قال: «فإنه قد نام عن متاعكم حتى أتى آت فأخذ عيبة أحدكم»، فقال أحد القوم: يا رسول الله، ما لأحد من القوم عيبة غيري، فقال رسول الله ﷺ: «قد أُخذت ورُدت إلى موضعها»، فخرج القوم سراعاً حتى أتوا رحلهم فوجدوا صاحبهم فسألوه عما خبَّرهم به رسول الله ﷺ، فقال: فرغت من نومي ففقدت العيبة، فقمت في طلبها فإذا رجل قد كان قاعداً، فلما رآني ثار يعدو مني، فانتهيت إلى حيث انتهى، فإذا أثر حَفْر، وإذا هو قد غيَّبَ العيبة فاستخرجتها، فقالوا: نشهد أنه رسول الله، فإنه قد أخبرنا بأخذها وأنها قد رُدَّت، فرجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه وجاء الغلام الذي خلَّفوه فأسلم، وأمر النبي ﷺ أبي بن كعب فعلَّمهم قرآناً وأجازهم ﷺ كما كان يجيز الوفود، ثم انصرفوا عقب ذلك[1].

وغيرها من الوفود التي ورد ذكرها في السنة فتراجع في مظانها في كتب السيرة.



(١) عيون الأثر ج٢ ص٢٩٥، وتاريخ ابن هشام ج٤ ص٢٠٥ ـ ٢٣٦، وتاريخ ابن خلدون ص٥١ ـ ٥٧.

الفصل الحادي عشر

رسل وبعوث النبي ﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام

لما رجع النبي ﷺ من الحديبية في ذي الحجة سنة ست، أرسل رسله إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكتب في ذلك كتباً، فقيل: يا رسول الله إن الملوك لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ النبي ﷺ يومئذٍ خاتماً من فضة، نقشه ثلاثة أسطر: محمد رسول الله ﷺ، وختم به الكتب.

وهذه جملة كتب بعث بها النبي ﷺ مع أصحابه ليبلغوا بها الملوك والحكام، رسالة الإسلام، فنعرض لها في هذا التفصيل:

كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي:

كان أول رسول بعثه النبي ﷺ هو عمرو بن أمية الضمري، فقد أرسله إلى النجاشي وكتب إليه كتابين يدعوه في أحدهما إلى الإسلام ويتلو عليه القرآن، فأخذ النجاشي كتاب رسول الله ﷺ فوضعه على عينيه ونزل من سريره فجلس على الأرض تواضعاً ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال: لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته، وكتب إلى رسول الله ﷺ بإجابته وتصديقه وإسلامه على يدي جعفر بن أبي طالب لله رب العالمين.

وفي الكتاب الأخير يأمره أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وكانت قد هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها عبيدالله بن جحش

الأسدي فتنصّر هناك ومات، وأمره رسول الله ﷺ في الكتاب أن يبعث إليه ممن عنده من أصحابه وأن يحملهم ففعل، فزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان وأصدق عنه أربعمائة دينار وأمر بجهاز المسلمين وما يصلحهم وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري.

كتاب النبي ﷺ إلى كسرى عظيم الفرس:

وبعث النبي ﷺ عبدالله بن حذافة السهمي، وهو أحد الستة إلى كسرى عظيم الفرس يدعوه إلى الإسلام، وقد كتب إليه كتاباً، فلما رفع عبدالله الكتاب إليه وقرىء عليه، أخذه ومزقه.

ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: **«اللهم مزّق ملكه»**، وكتب كسرى إلى باذان - وهو عامله باليمن - أن ابعث من عندك رجلين جلدين إلى هذا الرجل الذي بالحجاز فليأتياني بخبره، فبعث باذان قهرمانه ورجلاً آخر وكتب معهما كتاباً فقدما المدينة، ودفعا كتاب باذان إلى النبي ﷺ فتبسّم ﷺ ودعاهما إلى الإسلام وهما ترتعد فرائصهما، وقال: **«ارجعا عني يومكما هذا حتى تأتياني الغد فأخبركما بما أريد»**، فجاءاه من الغد فقال لهما: **«أبلغا صاحبكما أن ربي قد قتل رب كسرى في هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها»** وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع للهجرة، وأن الله تبارك وتعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله، فرجعا إلى باذان بذلك فأسلم هو والأبناء الذين باليمن.

وذلكم من الدلائل الحسية الكثيرة التي تشهد بنبوة رسول الله ﷺ وأنه أمين صدوق: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤].

وبعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة اللخمي - وهو أحد الستة - إلى المقوقس صاحب الإسكندرية عظيم القبط، يدعوه إلى الإسلام وكتب إليه كتاباً فأوصله رسول الله ﷺ فقرأه المقوقس وقال له خيراً. ثم أخذ

الكتاب وجعله في حُق[1] من عاج وختم عليه ودفعه إلى جاريته وكتب إلى النبي ﷺ: قد علمت أن نبياً قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها ولم يسلم، فقبل رسول الله ﷺ هديته وأخذ الجاريتين، ماريّة أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وأختها سيرين، وبغلة بيضاء لم يكن في العرب يومئذٍ غيرها وهي دُلدل، وقال في ذلك رسول الله ﷺ: **«ضنّ (بخل) الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه»**.

كتاب النبي ﷺ إلى قيصر:

جاء في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه مع دحية الكلبي وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر، فقال: التمسوا لنا هاهنا من قومه أحداً نسألهم عنه.

قال ابن عباس: أخبرني أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشام في رجال من قريش قدموا تجاراً وذلك في الهدنة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فقال (أبو سفيان): فأتانا رسول قيصر فانطلق بنا حتى قدمنا إيلياء (القدس) فأُدخلناعليه فإذا هو جالس في مجلس ملكه وعليه التاج، وحوله عظماء الروم، فقال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسباً بهذا الذي يزعم أنه نبي، فقال أبو سفيان: أنا أقربهم نسباً، وليس في الركب يومئذٍ رجل من بني عبد مناف غيري، فقال قيصر: أدنوه مني، ثم أمر بأصحابي فجُعِلوا خلف ظهري، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، وإنما جعلتكم خلف كتفيه لتردوا عليه كذباً إن قاله.

قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء يومئذٍ أن يأثروا علي كذباً لكذبت عليه، ولكني استحييت فصدقت وأنا كاره.

---

(١) الحُق: بضم الحاء، وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص١٨٨.

ثم قال قيصر لترجمانه: قل له: كيف هذا الرجل فيكم؟ فقلت: هو فينا ذو نسب، قال: قل له: هل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: هل كان من آبائه ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: فهل يزيدون أو ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال فهل يرتد أحد منهم سَخطةً لدينه بعد أن دخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف حربكم وحربه؟ قلت: دُوَل وسجال، نُدال عليه مرة ويدال علينا أخرى، قال: فما يأمركم به؟ قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

فقال قيصر لترجمانه: قل له: إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال هذا القول منكم أحد قبله؟ فزعمت أنه لم يقله أحد منكم، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أنكم لم تتهموه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فعرفت بذلك أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك هل كان من آبائه ملك؟ فقلت: لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك لقلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل، وسألتك هل يزيدون أو ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك هل يرتد أحد سَخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فزعمت أنه لا، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب لا يسخطه أحد، وسألتك هل قاتلتموه؟ فقلت: نعم، وأن حربكم وحربه دول وسجال يدال عليكم مرة وتدالون عليه أخرى، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، فهو نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج (مبعوث) ولكن لم أظن أنه فيكم، ولئن كان ما أتاني عنه حقاً فإنه يوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لُقِيَّه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه.

ثم دعا قيصر بكتاب رسول الله ﷺ فقرىء فإذا فيه: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد بن عبدالله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**» و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: الآية ٦٤]، قال أبو سفيان: فلما قضى هرقل مقالته وفرغ من كتاب رسول الله ﷺ، علت أصوات الذين حوله وكثر لغطهم فلا أدري ما قالوا، ثم أمر بنا أخرجنا فلما خرجت أنا وأصحابي قلت لهم: قد أَمِرَ[1] أَمْرُ ابن أبي كبشة، هذا ملك بني الأصفر (الروم) يخافه، فوالله ما زلت ذليلاً مستيقناً أن أمره سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.

هذه شهادة كبرى من عظيم الروم إبان سطوته وهائل مجده وسلطانه وهو يتسنم ذروة العز والسلطان، يجهر بها على الملأ من أكابر دولته ليبين للناس في يقين، أن محمداً ﷺ نبي هذا الزمان وأنه الرسول الحق الذي بشرت به كتب السماء من قبل ميلاده.

وبالرغم من صدق الحديث على لسان أبي سفيان وهو يخاطب هرقل في حقيقة أمر رسول الله ﷺ، إلا أنه ما زالت نفسه التي يستكن في شغافها حب الأوثان والجاهلية، تنازعه الجنوح للطعن في صدق النبي ﷺ.

فإنه ذكر أنه قال لقيصر الروم لما سأله عن النبي ﷺ: أيها الملك، ألا أخبرك عنه خبراً نعرفه به أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قلت: إنه زعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء، ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح، قال ذلك وبطريق قيصر يسمع ما يقوله أبو سفيان، فقال البطريق: صدق، إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق الأبواب كلها غير باب واحد غلبني فاستعنت عليه بعمالي ومن

---

(١) أمر: كثر ونما، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٢٦.

يحضرني فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول جبلاً، فدعوت النجارين، فنظروا إليه فقالوا: هذا باب سقط عليه البنيان ولا نستطيع حتى نصبح فننظر من أين أتي، فرجعت وتركت البابين مفتوحين، فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد منقوب، وإذا فيه أثر الدابة، فقلت لأصحابي: ما حُبس هذا الباب إلا على نبي، وقد صلى الليلة في مسجدنا هذا، فقال قيصر لقومه: يا معشر الروم، ألستم تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبياً بشركم به عيسى بن مريم، ترجون أن يجعله الله فيكم؟ قالوا: بلى، قال: فإن الله قد جعله في غيركم في أقل منكم عدداً، وأضيق منكم بلداً، وهي رحمة الله عز وجل يضعها حيث يشاء[1]، ومما قاله أيضاً:

يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى بن مريم؟ فقالت الروم: وما ذاك أيها الملك؟ قال: تتبعون هذا النبي العربي، فحاصوا حيصة حمر الوحش وتناحزوا ورفعوا الصليب، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من إسلامهم وخافهم على نفسه وملكه فسكَّنهم إذ قال: إنما قلت لكم ما قلت من أجل أن أختبركم فأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحب فسجدوا له.

كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى العبدي:

بعث النبي ﷺ كتابه هذا مع العلاء بن الحضرمي يدعوه فيه إلى الإسلام، وكان هذا الكتاب موجوداً في كتب ابن عباس بعد موته، فإذا فيه: بعث رسول الله ﷺ العلاء الحضرمي إلى المنذر بن ساوى، وكتب إليه رسول الله ﷺ كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ: أما بعد، يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدِثْ إلي في ذلك أمرك، فكتب إليه رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله إلى

---

(١) عيون الأثر ج٢ ص٣٣٠ ـ ٣٣٣.

المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد فإني أذكِّرك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، فإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفّعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية»، فأسلم المنذر بكتاب رسول الله ﷺ وحسن إسلامه.

كتاب النبي ﷺ إلى الحارث الغساني:

بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني وهو بغوطة دمشق، فكتب إليه حال رجوعه من الحديبية: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك**»، فختم الكتاب وخرج به شجاع بن وهب وقال: انتهيت إلى حاجبه وإذا هو مشغول بتهيئة الألطاف لقيصر إذ جاء من حمص إلى إيلياء شكراً لله الذي كشف عنه جنود فارس، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني رسول رسول الله ﷺ إليه، فقال حاجبه: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا، وكان حاجبه رومياً اسمه مري، فجعل يسألني عن رسول الله ﷺ وما يدعو إليه فكنت أحدثه فيرق حتى يغلبه البكاء ويقول: إني قرأت في الإنجيل وأجد صفة هذا النبي بعينه، فأنا أؤمن به وأصدقه، وأنا أخاف من الحارث بن أبي شمر أن يقتلني.

قال شجاع: كان هذا الحاجب يكرمني ويحسن ضيافتي ويخبرني عن الحارث باليأس منه ويقول إنه يخاف قيصر، فخرج الحارث يوماً وجلس ثم وضع التاج على رأسه فأذن لي عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأه ثم رمى به، وقال: من ينتزع مني مُلكي؟ أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئته، ثم قال: عليّ بالناس! فلم يزل جالساً حتى الليل، وأمر

بالخيل أن تنعل، ثم قال: أخبر صاحبك بما ترى، ثم كتب إلى قيصر يخبره خبري، فصادف قيصر بإيلياء، وعنده دحية الكلبي إذ بعثه إليه رسول الله ﷺ، فلما قرأ قيصر كتاب الحارث، كتب إليه ألا تَسِرْ إليه واله عنه، ووافني بإيلياء، ثم رجع الحارث الكتاب الذي رمى به وأنا مقيم، فدعاني وقال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ قلت: غداً، فأمر لي بمائة مثقال ذهباً، ووصلني مري بنفقة وكسوة، وقال: اقرأ على رسول الله مني السلام، وأخبره أني متبع دينه.

قال شجاع: فقدمت على النبي ﷺ فأخبرته فقال: «**باد ملكه**»، وأقرأته من مري السلام، وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: «**صدق**».

وقيل: إن المرسل إليه هو جبلة بن الأيهم وليس الحارث بن أبي شمر.

كتاب النبي ﷺ إلى هوذة بن علي:

بعث النبي ﷺ سليط بن عمرو العامري حاملاً كتابه إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة وهذا نصه:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ إلى هوذة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخُفّ والحافر أسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك».

فلما قدم عليه سليط بكتاب النبي ﷺ، مختوماً، أنزله وحباه (أعطاه) وقرأ عليه الكتاب، فكتب هوذة إلى النبي ﷺ: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني، فاجعل إليَّ بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هَجَر.

فقدم بذلك على النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه وقال: «**لو سألني سيابة من الأرض ما فعلت، باد وباد ما في يديه**».

وعقب انصراف النبي ﷺ من الفتح أخبره جبريل عليه السلام أن هوذة

قد مات، فقال النبي ﷺ: «أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبأ يقتل بعدي»، فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنت وأصحابك»، فكان ذلك، وقيل: إن أركون دمشق، وهو عظيم من عظماء النصارى كان عند هوذة فسأله عن النبي ﷺ، فقال هوذة: جاءني كتابه يدعوني إلى الإسلام فلم أجبه، فقال الأركون: لمَ لا تجيبه؟ فقال: ضننت (بخلت) بديني وأنا مَلك قومي، ولئن تبعته لم أملك، قال: بلى والله لئن اتبعته ليُمَلِّكنَّك وإن الخيرة لك في اتباعه، وإنه للنبي العربي الذي بشر به عيسى بن مريم، وإنه لمكتوب عندنا في الإنجيل: محمد رسول الله[1].

وثمة رسل آخرون كثيرون أرسلهم النبي ﷺ إلى القادة والزعماء من رؤساء العرب يدعونهم إلى الإسلام ومجانبة الشرك والباطل، فمنهم مَن صدق واهتدى ومنهم من أدبر واستكبر.



(١) عيون الأثر ج٢ ص٣٣٩ ـ ٣٤٤، وسيرة ابن هشام ج٤ ص٢٥٤ ـ ٢٥٥.

الفصل الثاني عشر

حجة النبي ﷺ ومرضه وانتقاله إلى الرفيق الأعلى

حجة الوداع:

أقام النبي ﷺ بالمدينة عشر سنين يضحي كل عام ويغزو المغازي ولا يحج حتى كان في ذي القعدة سنة عشر من مُهاجَره ﷺ، فأجمع الخروج إلى الحج وأخبر الناس بذلك، فقدم المدينة بشر كثير يأتمون برسول الله ﷺ في حجته ولم يحج غيرها منذ بعثته حتى توفاه الله.

وقد كان ابن عباس وكثير من المسلمين يسمون هذه الحجة، حجة الإسلام، وتفصيل ذلك أن النبي ﷺ خرج من المدينة يوم السبت لخمس ليال بقين من ذي القعدة، فصلى الظهر بذي الحليفة ركعتين وأخرج معه نساءه كلهن في الهوادج، وأشعر هذيه وقلّده، ثم ركب ناقته، فلما استوى عليها أحرم من يومه ذلك.

واختلفت الروايات فيما أهل به النبي ﷺ، فقال أهل المدينة أنه أهل بالحج مفرداً، وقيل: إنه كان قارناً مع حجته عمرة، وقيل: بل دخل مكة متمتعاً بعمرة ثم أضاف إليها حجة، والله تعالى أعلم.

وقد دخل ﷺ مكة نهاراً، ودخل من أعلى مكة من كداء حتى انتهى إلى باب بني شيبة، فلما رأى البيت رفع يديه فقال: **«اللهم زد هذا البيت**

تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة، وزد من عظّمه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتكريماً ومهابة وتعظيماً وبراً».

ثم بدأ النبي ﷺ طوافه بالبيت ورمل ثلاثة أشواط من الحجر إلى الحجر وهو مضطبع بردائه، ثم صلى خلف المقام ركعتين ثم سعى بين الصفا والمروة على راحلته.

فلما كان يوم التروية خرج إلى منى فبات بها ثم غدا إلى عرفات فوقف بالهضاب من عرفات وقال: **«كل عرفة موقف إلا بطن عُرَنَة»**، فوقف على راحلته يدعو.

فلما غربت الشمس دفع فجعل يسير العَنَق[1] فإذا وجد فجوة نصّ[2]، حتى جاء المزدلفة فصلى المغرب والعشاء بأذان وإقامتين ثم بات بها، فلما كان في السحر أذن ﷺ لأهل الضعف من الذرية والنساء أن يأتوا منى قبل حطمة[3] الناس، ثم دفع قبل طلوع الشمس، فلم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة، ثم نحر الهدي وحلق رأسه وأخذ من شاربه وقلّم أظفاره، ثم أصاب الطيب ولبس القميص ونادى مناديه بمنى: **«إنها أيام أكل وشرب»**.

وجعل النبي ﷺ يرمي الجمار في كل يوم عند زوال الشمس بمثل حصى الخذْف، ثم ودّع البيت وانصرف راجعاً إلى المدينة.

وقد أرى النبي ﷺ الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم، وخطب الناس خطبته المشهورة التي بيّن للناس فيها كثيراً من أحكام دينهم، وفيها من الإشارة ما يلوح من خلاله دنو الفراق واللحاق بالرفيق الأعلى، فيكون بذلك إمام العالمين في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد والتناد ثم في الفردوس الأعلى من الجنة.

---

(١) العنق: بالفتح: ضرب من السير السريع، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٨٤.

(٢) نص: أسرع، نصصت الدابة: استحثثتها على السير، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٢٧٧.

(٣) حطمة: الحطمة بالفتح معناه: الدفعة من السيل، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص١٨٣.

فقد حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع وإن أول دماءكم أضع دمُ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية، أما بعد: أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضي به فيما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس، إن النسيء[1] زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يُحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية، ورجب الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد: أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً، لكن عليهن أن لا يوطئن فُرُشَكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرِّح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلّغت، وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً: كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس، اسمعوا قولي

---

(١) النسيء: النسيء والنسأة والنسيئة يعني: التأخير، انظر: مختار الصحاح ص٦٥٦.

واعقلوه، تعلمنّ أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلِمُنّ أنفسكم، اللهم هل بلغت؟ فقال الناس: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: **«اللهم اشهد»**(١).

عرض النبي ﷺ القرآن على جبريل:

كان جبريل يعرض القرآن كل سنة مرة على رسول الله ﷺ، فلما كان العام الذي توفي فيه عرضه عليه مرتين، وكان النبي ﷺ يعتكف في رمضان العشر الأواخر، فلما كانت السنة التي توفي فيها اعتكف عشرين يوماً.

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في رمضان حتى ينسلخ إذا لقيه جبريل يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فكان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

سِحْرُ يهود النبي ﷺ:

عن عائشة قالت: إن النبي ﷺ قد سحِرَ له ـ أي عُقد له سحر ـ حتى كان يخيل إليه أنه يصنع الشيء ولم يصنعه، حتى إذا كان ذات يوم رأيته يدعو فقال: **«أشَعَرتِ أن الله قد أفتاني فيما استفتيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رِجليّ، فقال أحدهما: ما وجع الرجل؟ فقال الآخر: مطبوب (مسحور) فقال: من طَبَّه؟ فقال: لبيد بن الأعصم، قال: فيم؟ قال: في مشط ومشاطة وجُبّ طلْعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في ذي ذروان»**.

فانطلق رسول الله ﷺ، فلما رجع أخبر عائشة فقال: **«كأن نخلها رؤوس الشياطين وكأن ماءها نُقاعة الحناء»**، فقلت: يا رسول الله فأخرجه للناس، قال: **«أمّا الله فقد شفاني وخشيت أن أثوّر على الناس منه شراً»**.

---

(١) سيرة ابن هشام ج٤ ص٢٤٨ ـ ٢٥٣، والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٣٠ ـ ١٤٥.

وعن ابن عباس قال: مرض رسول الله ﷺ وأُخذ عن النساء وعن الطعام والشراب، فهبط عليه ملكان وهو بين النائم واليقظان، فجلس أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه ثم قال أحدهما لصاحبه: ما شكْوُه؟ قال: طُبَّ (سُحِر)، قال: ومن فعله؟ قال: لبيد بن أعصم اليهودي، قال: ففي أي شيء جعله؟ قال: في طلعة، قال: فأين وضعها؟ قال: في بئر ذَرْوان تحت صخرة، قال: فما شفاؤه؟ قال: تنزح البئر وترفع الصخرة وتستخرج الطلعة، وارتفع الملكان، فبعث النبي ﷺ إلى علي رضي الله عنه وعمار بن ياسر، فأمرهما أن يأتيا الرَّكِيَّ فيفعلا الذي سمع، فأتيا وماؤها كأنه قد خُضب بالحناء، فنزحاها ثم رفعا الصخرة فأخرجا طلعة، فإذا بها إحدى عشرة عقدة، ونزلت هاتان السورتان: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: الآية ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس: الآية ١]، فجعل رسول الله ﷺ كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد، وانتشر النبي ﷺ للنساء والطعام والشراب.

وغير ذلك من الأخبار الصحاح التي تتضافر في الأدلة على أن النبي ﷺ قد سُحر، بالرغم مما عورضت به هذه الأخبار من الاستدلال بالمعقولية وهو أن ما حبا الله نبيه ﷺ من خصيصة العصمة تنفي عنه أن ينال منه ساحرون بسحرهم.

ولئن كان هذا الاستدلال جيداً ومما يطمئن القلب، فلا يسع المؤمن الحريص إلا أن يعوّل في الاستدلال على الصحيح من الأخبار، ولا عجب في ذلك إذا كنا موقنين أن خليقة النبي ﷺ بالرغم من شفافيتها البالغة وسموها الشفيف الرفيف السامق فإنها يخالطها شطر من طبيعة البشر ومن مركبات الضعف للإنسان، كالإحساس بالألم والحزن والعطش والجوع والمرض ونحو ذلك.

مرض النبي ﷺ:

شكا رسول الله ﷺ مرضه الذي قبض فيه إذ ارتحل إلى جوار ربه، إلى ما أراد الله به من الكرامة والرحمة، وذلك في ليال بقين من صفر، أو في أول شهر ربيع الأول.

قالت عائشة رضي الله عنها: بدأ رسول الله ﷺ شكْوُه الذي توفي فيه وهو في بيت ميمونة، فخرج في يومه ذلك حتى دخل عليّ، فقلت: وارأساه! فقال: «وددت أن ذلك يكون وأنا حي فأصلي عليك وأدفنك»، فقلت: أوَ كأنك تحب ذلك؟ لكأني أراك في ذلك اليوم مُعْرساً ببعض نساء! فقال رسول الله ﷺ: «بل أنا وارأساه!» ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيت ميمونة فاشتد وجعه، فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يُمَرَّض في بيتي فأذِنَّ له.

تمريض رسول الله ﷺ في بيت عائشة:

عن عائشة رضي الله عنها وهي زوج رسول الله ﷺ قالت: خرج رسول الله ﷺ يمشي بين رجلين من أهله أحدهما: الفضل بن العباس، ورجل آخر، عاصباً رأسه تخطّ قدماه حتى دخل بيتي.

ثم غُمِر رسول الله ﷺ واشتد به وجعه فقال: «هريقوا علي سبع قِرَب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم» فأقعدناه في مخضب (إناء غسيل) لحفصة بنت عمر، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول: «حسبكم حسبكم».

وروي أن رسول الله ﷺ خرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم فأكثر الصلاة عليهم ثم قال: «إن عبداً من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله»، ففهمها أبو بكر، وعرف أن نفسه يريد، فبكى وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فقال النبي ﷺ: «على رِسْلك يا أبا بكر»، ثم قال: «انظروا هذه الأبواب اللافظة (النافذة) في المسجد فسدوها إلا بيت أبي بكر فإني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه»، وقال ﷺ يومئذٍ في كلامه هذا: «فإني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده».

وكان رسول الله ﷺ قد استبطأ الناسَ في بعث أسامة بن زيد وهو في

وجعه فخرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر، وكان بعض الناس قد قالوا في أمرة أسامة: أمّر غلاماً حدثاً على جِلّة المهاجرين والأنصار، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: **«أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقاً لها»**.

ثم نزل رسول الله ﷺ وأسرع الناس في جهازهم، واستعزّ الوجع برسول الله ﷺ، فخرج أسامة وجيشه حتى نزلوا الجرف، قريباً من المدينة، واشتد برسول الله ﷺ الوجع، فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاضٍ في رسول الله ﷺ.

وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما أسمعه يقول: **«إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيّره»**، فلما حُضِر رسول الله ﷺ كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول: **«بل الرفيق الأعلى من الجنة»** فقالت عائشة: إذاً والله لا يختارنا، وعرفت أنه الذي كان يقول لنا: **«إن نبياً لم يقبض حتى يُخَيَّر»**.

وقالت عائشة أيضاً: لما استُعِزّ برسول الله ﷺ الوجع قال: **«مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»**، قلت: يا نبي الله، إن أبا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت، كثير البكاء، إذا قرأ القرآن، قال: **«مروه فليصلِّ بالناس»**، قلت: فعدت بمثل قولي، فقال: **«إنكن صواحب يوسف فمروه فليصلِّ بالناس»**، قالت عائشة: والله ما أقول ذلك إلا أني كنت أحب أن ينصرف ذلك عن أبي بكر، وعرفت أن الناس سيتشاءمون به في كل حدث كان، فكنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر.

ولما كان يوم الاثنين، خرج رسول الله ﷺ عاصباً رأسه إلى الصبح، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما خرج رسول الله ﷺ تفرّج الناس، فعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله ﷺ، فنكص عن مصلاه، فدفعه رسول الله ﷺ في ظهره، وقال: **«صلِّ بالناس»**، وجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه فصلى قاعداً عن يمين أبي بكر.

فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس فكلمهم رافعاً صوته حتى خرج صوته من باب المسجد يقول: **«أيها الناس سُعِّرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله ما تَمسَّكون عليَّ بشيء، إني لم أحلَّ إلا ما أحل القرآن، ولم أحرم إلا ما حرَّم القرآن»**، فلما فرغ رسول الله ﷺ، قال له أبو بكر: يا نبي الله، إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب، ثم دخل رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر إلى أهله.

انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى:

قالت عائشة: رجع إليَّ رسول الله ﷺ في ذلك اليوم حين دخل المسجد فاضطجع في حجري، فدخل علي رجل من آل أبي بكر وفي يده سواك أخضر، فنظر رسول الله ﷺ إليه في يده نظراً عرفت أنه يريده، فقلت: يا رسول الله أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال: **«نعم»**، فأخذته فمضغته له حتى ليَّنته ثم أعطيته إياه، فاستنَّ به كأشد ما رأيته يستنُّ بسواك قطّ، ثم وضعه، ووجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصرُه قد شَخَصَ، وهو يقول: **«بل الرفيق الأعلى من الجنة»**، فقلت: خُيِّرت فاخترت والذي بعثك بالحق، وقُبض رسول الله ﷺ.

وعن عَبّاد بن عبدالله بن الزبير قال: سمعت عائشة تقول: مات رسول الله ﷺ بين سُحري(١) ونحري(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي وإن رسول الله ﷺ والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعنَّ رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعنَّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات.

---

(١) سُحري: السُحر بالضم معناه: الرئة، انظر: مختار الصحاح ص٢٨٨.

(٢) نحري: النحر والمنحر، موضع نحر الهدي، انظر: مختار الصحاح ص٦٤٩.

ثم أقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر، وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة، ورسول الله ﷺ مُسَجّى (مغطى) في ناحية البيت، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ فقبّله، وقال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً، ثم ردَّ البرد على وجه رسول الله ﷺ، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: على رسلك يا عمر، أنصت، فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٤].

قال أبو هريرة: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذٍ، وقال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعَقِرْت[1] حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات[2].

وكان موته ﷺ يوم الاثنين لثنتي عشرة من ربيع الأول، ودفن من الغد ليلاً، أي توفي يوم الإثنين فمكث يوم الاثنين والثلاثاء حتى دُفن ليلة الأربعاء، فمدة مرضه ثلاث عشرة ليلة.

لقد كان في موته ﷺ ما يذهل الألباب والأذهان، ويزلزل القلوب والأبدان، لا جرم أن ذلكم الحدث الجلل لهو المفجع المفْظِع الذي دهم الأعصاب والمشاعر وأثار في المسلمين الكآبة والذهول والغثيان، فانقلبوا

---

(١) عقرت: دهشت، انظر: مختار الصحاح ص٤٤٥.

(٢) سيرة ابن هشام ج٤ ص٢٩٨ ـ ٣٠٦، والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٥١ - ١٨٠.

مشدوهين وقد أجهشهم البكاء لهول الصدمة المريعة.

ولعل أشد الناس كآبة والتياعاً يومئذٍ هذه المؤمنة الصدّيقة الفضلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ، هذه المرأة البرّة الودود ذات العزم المكين، والوقار الرزين الأمثل، لقد شغلها ما حلّ بأبيها من مرض، فهتفت هتاف المتحسّب المترقب المذعور مما رأته من كرب قد تغشاه فقالت: واكرب أبتاه! فقال لها النبي ﷺ: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم».

ولما دهمها الخبر الداهم، خبر الموت الفظيع، هتفت مصطرخة بصوتها المثير المحزون وكلماتها المجلجلة التي تقرع الأعصاب وتتقطع من شدتها نياط القلب إذ قالت: واأبتاه، أجاب رباً دعاه، واأبتاه جنة الفردوس مأواه، واأبتاه إلى جبريل ننعاه، واأبتاه من ربه ما أدناه!

فلما دفن قالت فاطمة: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ﷺ؟![1]

ومات رسول الله ﷺ ليمضي في رحلة الفراق إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلّغ رسالة ربه للناس وأدى أمانة التبليغ والترشيد والهداية للعالمين غير مفرط في ذلك ولا مقصّر.

مات النبي ﷺ لتغيب عن الوجود إشراقة النبوة بسطوعها الوضّاء المتلألىء، ولتظل ذكراه الرفافة تقرع شغاف القلوب برنينها الصاخب الحادي.

ذلكم هو إمام البرية وسيد العالمين في هذه الدنيا، بأصخابها وأحداثها ونوائبها، ويوم القيامة حيث الأهوال والأفزاع والقواصم.

ذلكم النبي الأمي الأكرم، النور الثاقب المشعشع الذي تستضيء به الأجيال والقرون على مر العصور فتمضي في الحياة آمنة راغدة مطمئنة. وقد أظلتها سحائب الرحمة والخير والمساواة، وغشيها كل ظواهر العيش الآمن

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص٢٣٧.

الكريم، العيش الودود المنسجم الذي تنقشع من أجوائه ظلمات الشر والرذيلة والباطل.

مات ﷺ بعد أن ترك المسلمين على المحجة البيضاء، المحجة السوية المستقيمة التي لا يزيغ عنها إلا هالك، فهي محجة الإسلام بروعة عقيدته الراسخة الساطعة، ونظامه الشامخ الهائل الذي تصلح عليه البشرية في عامة أحوالها وظروفها، وتلك هي أمة الإسلام بترابطها المحكم الوثيق، وتكافلها المتراحم المنسجم.

تلك أمة لا نظير لها في الأمم بما يتجلى فيها من علائم المودة والتآلف والتكافل وما يغمرها من وابل الرحمة والرفق بالأحياء جميعاً.

مات رسول الله ﷺ، وعزاؤنا الأوفى فيه ما تركه فينا من بعد رحيله عن الدنيا، إذ ترك فينا كتاب الله جلَّت قدرته، هذا الكتاب الرباني الفذ، الكتاب المعجز الأكرم، الذي لا يضاهيه في الكلام أيما كلام، وذلك بروعة بيانه العجيب وعظيم رصفه الذي لا يُضاهى وبتشريعه الهائل المديد الذي صلح عليه أمر الناس.

وكذلك سنته ﷺ التي تبين للناس ما نزّل الله إليهم، ذلكم كله عزاء البشرية في هذا النبي الأكرم ﷺ عقب رحيله إلى الرفيق الأعلى.

سقيفة بني ساعدة:

عقب وفاة النبي ﷺ انحاز فريق من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، وقد اعتزل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله في بيت فاطمة، وانحاز بعض المهاجرين إلى أبي بكر، وانحاز معهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل، فأتى إلى أبي بكر وعمر من يقول لهما: إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم، وما فتىء رسول الله ﷺ في بيته لم يُفْرَغ من أمره، وقد أغلق أهلُه الباب دونه، فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء

من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه، فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا بين ظهرانيهم، رجل مزمّل (ملتف)، فقال عمر: من هذا؟ فقالوا: سعد بن عبادة، فلما جلسنا تشهّد خطيبُهم فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة[١] من قومكم، ثم تكلم أبو بكر ـ وكان أعلم مني وأوقر ـ فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها في بديهته أو مثلها أو أفضل حتى سكت، وكان مما قال: أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا، ولم أكره شيئاً مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمّر على قوم فيهم أبو بكر، فقال قائل من الأنصار: أنا جُذيلُها المحكّك[٢] وعذيقها[٣] المرجب[٤]، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش.

قال عمر: فكثر اللَّغط[٥] وارتفعت الأصوات حتى تخوفت الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته ثم بايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار، ونزونا[٦] على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة، فقلت: قتل الله سعد بن عبادة.

ولما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد، جلس أبو بكر على المنبر،

---

(١) دفت الدافة أي: سارت سيراً ليناً، انظر: مختار الصحاح ج١ ص٢١٠.

(٢) المحكك: المتمرس، انظر: مختار الصحاح ص١٤٨.

(٣) العذيق: تصغير للعذق وهو النخلة، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٤٨.

(٤) المرجب: من رجب ومعناه: المعظم المهيب، انظر: مختار الصحاح ص٢٣٣.

(٥) اللغط: الصوت والجلبة، انظر: مختار الصحاح ص٦٠٠.

(٦) نزونا: نزا نزواً ونزواناً أي: وثب، النازية تعني: الحدة والثورة، انظر: القاموس المحيط ج٤ ص٣٩٧.

فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أيها الناس، إن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى الله رسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ، ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة.

ثم تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

لما بويع أبو بكر رضي الله عنه أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء، وقد اضطلع بوجيبة الجهاز كل من علي بن أبي طالب، والعباس بن عبدالمطلب، والفضل بن العباس، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد، وشُقران مولى رسول الله ﷺ، فهؤلاء الذين قاموا بغسله ﷺ، وقام علي رضي الله عنه بإسناد النبي ﷺ إلى صدره، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه مع علي، وكان أسامة بن زيد وشُقران يصبان الماء على رسول الله ﷺ، وعلي يغسله وقد أسنده إلى صدره وعليه قميصه يدلكه به من ورائه لا يفضي بيده إلى رسول الله ﷺ شيء مما يرى من الميت.

ولما فرغوا من غسل رسول الله ﷺ كفنوه في ثلاثة أثواب.

دفنه ﷺ:

لما أراد المسلمون أن يحفروا لرسول الله ﷺ كان أبو عبيدة بن

الجراح ضراحاً[1] وكان أبو طلحة، زيد بن سهل لحّاداً[2] وقد دعا العباس عم الرسول ﷺ رجلين، فقال لأحدهما: اذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح، وقال للآخر: اذهب إلى أبي طلحة، ودعا الله قائلاً: اللهم خِرْ لرسول الله ﷺ، فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة فجاء به فلحّد لرسول الله ﷺ، وفي الخبر عن رسول الله ﷺ قال: **«اللحد لنا والشق لغيرنا»**.

ولما فرغ المسلمون من جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء وُضع على سريره في بيته، وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنه، فقال قائل: ندفنه في مسجده، وقال آخر: ندفنه مع أصحابه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض»**.

فرفع فراش رسول الله ﷺ الذي توفي عليه فحُفر له تحته، ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ يصلون أرسالاً[3]، إذ دخل الرجال حتى إذا صلوا، أدخل النساء حتى إذا صلين، أدخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد.

ثم دفن النبي ﷺ من وسط الليل في ليلة الأربعاء.

وبوفاة النبي ﷺ تعظم المصيبة التي حاقت بالمسلمين، مما ألمّ بهم من فظاعة الخطب الجلل الذي أفضى إلى فتنة العرب وارتداد كثير منهم.

قالت عائشة رضي الله عنها في هذا الصدد: لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب واشرأبت اليهودية والنصرانية ونجم (ظهر) النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقد نبيهم ﷺ حتى جمعهم الله على أبي بكر.

وقيل: إن أكثر أهل مكة لما توفي رسول الله ﷺ قد هموا بالرجوع

---

(١) الضراح: الذي يشق الأرض للقبر.
(٢) لحاداً: بالتشديد أي: يعمل اللحد.
(٣) أرسالاً: جماعات متابعين، والمفرد: رسل، انظر: المصباح المنير ج١ ص٢٤٢.

عن الإسلام وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أسيد، والي مكة إذ ذاك فتوارى منهم، فقام سهيل بن عمرو في همة عالية وعزم وطيد، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا[1] ضربنا عنقه، فتراجع الناس وكفّوا عما هموا به، وحينئذٍ ظهر عتاب بن أسيد.

وهذا تأويل قول رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب عن سهيل بن عمرو عام الحديبية: **«إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه»**[2].

ما أوصى به النبي ﷺ في مرضه:

عن أنس بن مالك قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: **«الصلاة وما ملكت أيمانكم»**، حتى جعل رسول الله ﷺ يغرغر بها في صدره وما كاد يفيض بها لسانه.

وعن كعب بن مالك قال: أُغمي على رسول الله ﷺ ساعة ثم أفاق فقال: **«الله الله فيما ملكت أيمانكم! ألبِسوا ظهورهم وأشبعوا بطونهم وألينوا لهم القول»**، يعني اكسوهم من اللباس ما يستر بشرتهم ويقيهم لسعة البرد، وأطعموهم الطعام فلا يجوعوا، وخاطبوهم في رقة ورحمة ولين بعيداً عن القسوة والفظاظة والزجر.

وعن عبدالله بن عتبة أن رسول الله ﷺ آخر عهده أوصى أن لا يترك بأرض العرب دينان.

وعن عمر بن عبدالعزيز قال: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ قال: **«قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد لا يبقين دينان بأرض العرب»**.

---

(١) رابنا: صار مريباً، أو ذا ريبة، ظهر منه ما يريب أو يكره، انظر: مختار الصحاح ص٢٦٥.

(٢) سيرة ابن هشام ج٤ ص٣٠٦ ـ ٣١٦، والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص٢١٢ ـ ٢٣٠.

دخل الفضل بن عباس على النبي ﷺ في مرضه فقال: «**يا فضل شُدّ هذه العصابة على رأسي**»، فشدها ثم قال النبي ﷺ: «**أرنا يدك**»، فأخذ بيد النبي ﷺ فانتهض حتى دخل المسجد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم وإنما أنا بشر فأيما رجل كنت أصبت من عِرضه[1] شيئاً فهذا عِرضي فليقتص، وأيما رجل كنت أصبت من بشره شيئاً فهذا بشري فليقتص، وأيما رجل كنت أصبت من ماله شيئاً فهذا مالي فليأخذ، واعلموا أن أولاكم بي رجل كان له من ذلك شيء فأخذه أو حلّلني فلقيت ربي وأنا محلّل لي، ولا يقولن رجل إني أخاف العداوة والشحناء من رسول الله فإنهما ليستا من طبيعتي ولا من خلقي، ومن غلبته نفسه على شيء فليستعن بي حتى أدعو له**».

وعن سعيد بن المسيِّب قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً، سلوني ما شئتم**».

وعن ابن مسعود قال: نعى لنا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر، بأبي هو وأمي ونفسي له الفداء، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت أمّنا عائشة وتشدد لنا فقال: «**مرحباً بكم حياكم الله بالسلام، رحمكم الله، حفظكم الله، جبركم الله، رزقكم الله، رفعكم الله، نفعكم الله، أدامكم الله، وقاكم الله، أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم، أستخلفه عليكم وأحذركم الله إني لكم منه نذير مبين ألاّ تعلوا على الله في عباده وبلاده فإنه قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: الآية ٨٣]**».

قلنا: يا رسول الله متى أجلك؟ قال: «**دنا الفراق والمُنقَلَب إلى الله وإلى جنة المأوى وإلى سدرة المنتهى وإلى الرفيق الأعلى، والكأس الأوفى والحظ والعيش المهنّى**»[2].

---

(١) العِرض: بالكسر يعني النفس، انظر: مختار الصحاح ص٤٢٦.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٩٥ ـ ١٩٧، والكامل لابن الأثير ج٢ ص٢١٩ ـ ٢٢٠.

إنفاذ جيش أسامة بن زيد:

كان النبي ﷺ قد استعمل أسامة بن زيد بن حارثة على جيش وأمره بالتوجه إلى الشام، فتوفي النبي ﷺ ولم يسر جيش أسامة، وعقب وفاة النبي ﷺ ارتدت العرب وظهر النفاق وخرج اليهود من جحور الظلام وكذا النصارى، وبقي المسلمون مبعثرين لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة الأعداء من حولهم، الأعداء على اختلاف أهوائهم ومشاربهم منهم المشركون والمنافقون وأهل الكتاب، أولئك الذين فرحوا بموت رسول الله ﷺ فانكشفت سرائرهم الخبيثة السوداء فما لبثوا أن أماطوا اللثام عن مكنون قلوبهم من الكفر والكراهية للإسلام ورسوله ﷺ.

عندئذٍ قال الناس لأبي بكر: إن هؤلاء (جيش أسامة) والعرب على ما ترى قد انتقضت بكَ فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك، فقال أبو بكر: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمرني النبي ﷺ، فخاطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة إلى معسكره بالجُرف، فخرجوا كما أمرهم أبو بكر.

ولما تكامل جيش المسلمين بالجرف، أرسل أسامةُ عمرَ بن الخطاب ـ وكان معه في جيشه ـ إلى أبي بكر يستأذنه الرجوع بالناس وقال: إن معي وجوه الناس وحدَّهم(1) ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون.

فخرج عمر بأسامة إلى أبي بكر فأخبره بما قال أسامة، فقال أبو بكر: لو خطفتني الكلاب والذئاب لأنفذته كما أمر رسول الله ﷺ، ولا أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ، ولو لم يبقَ في القرى غيري لأنفذته.

قال عمر: فإن الأنصار تطلب رجلاً أقدم سناً من أسامة، فوثب أبو بكر إذ كان جالساً ـ وأخذ بلحية عمر وقال: ثكلتك أمك يا ابن

---

(1) الحد: البأس، انظر: مختار الصحاح ص١٢٦.

الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أعزله؟

ثم خرج أبو بكر في وداع الجيش بنفسه وكان ماشياً، أما أسامة فكان راكباً، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن! فقال أبو بكر: والله لا نزلتَ ولا أركب، وما علي أن أغبّر قدميَّ ساعة في سبيل الله، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له، وسبعمائة سيئة تمحى عنه، ولما أراد أبو بكر أن يرجع استأذن أسامة في إبقاء عمر عنده للمشاورة، فقال له: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل، فأذن له.

ثم وصى أبو بكر جيش المسلمين فقال: لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلةٍ وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم قد فحصوا أوساط رؤوسهم[1] وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله.

ومضى أسامة ومعه جيش المسلمين إلى حيث أمرهم رسول الله ﷺ وأوقع الهزائم بمن لقيهم من المرتدين وعاد ومعه المسلمون سالمين غانمين، واستمرت غيبتهم في هذه الغزوة أربعين يوماً.

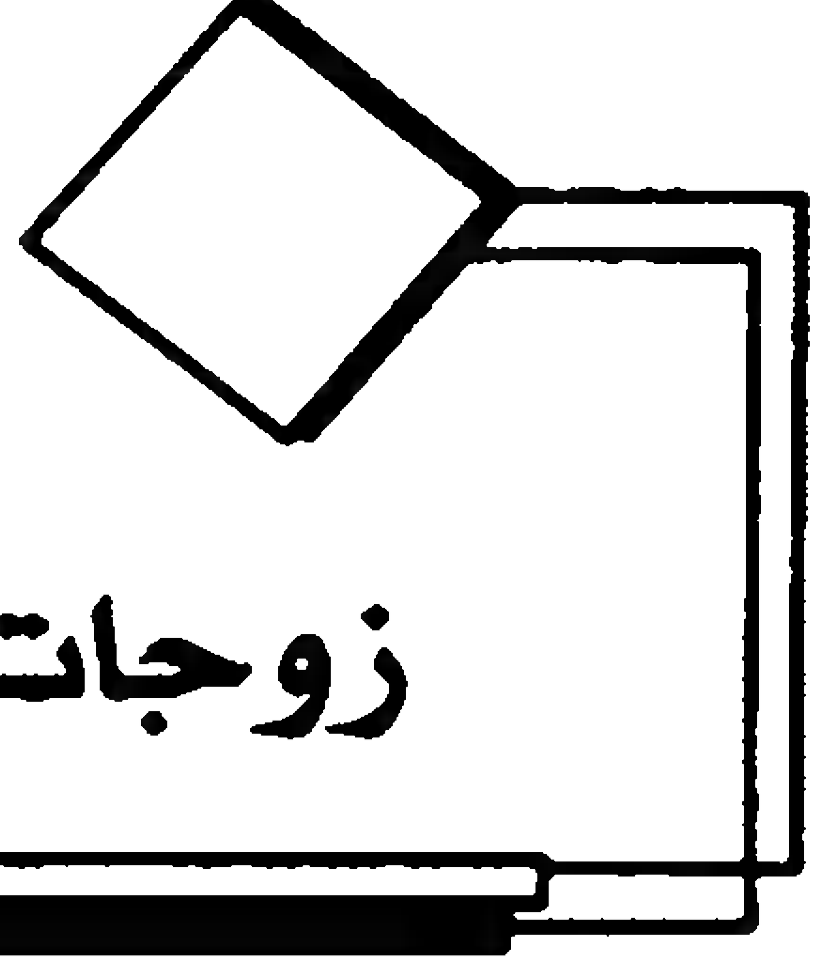
وفي إنفاذ جيش أسامة خير للمسلمين، إذ قالت العرب: لو لم يكن بهؤلاء المسلمين قوة لما أرسلوا هذا الجيش، وبذلك كفوا عن كثير مما خططوا لفعله[2].



---

(١) فحصوا عن رؤوسهم: حلقوا وسطها وتركوها مثل أفاحيص القطاة، فحصت القطاة فحصاً: حفرت في الأرض موضعاً تبيض فيه، انظر: مختار الصحاح ص٤٩٣، والمصباح المنير ج٢ ص١١٦.

(٢) الكامل لابن الأثير ج٢ ص٣٣٤ ـ ٣٣٦.



الفصل الثالث عشر

زوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين

هذه خصيصة من خصائص الرسول ﷺ إذ تزوج من ثلاث عشرة زوجة، وتوفي عن تسع منهن بقين عقب موته.

وما ينبغي لمرتاب أو مريب من أولي الثقافات المشوهة أن يجترىء على رسول الله ﷺ بسوء القول، فيفتري عليه بالباطل بقصد الطعن والتشويه وإشاعة الشبهة، وذلكم ديدن الحاقدين المتعصبين الذين لا يكرهون غير الإسلام والمسلمين، وكراهيتهم لنبي الإسلام ﷺ لا جرم أشد وأعتى، وهم كثيرون أشرار، ضالعون في نهش الإسلام، بارعون في اصطناع الشبهات والمقولات الخادعة المموهة، يكيدون بها للإسلام والمسلمين ورسول الله ﷺ.

أما محمد ﷺ فقد كان في الذروة السامقة من رفيع الخلق وكامل الحياء، وكان في غاية المعالي والدرجات من سمو النفس ورهافتها، النفس الندية الزكية، ذات الإشراق الساطع والوضاءة الشفيفة البيضاء.

ذلكم رسول الله ﷺ إمام الهداية والبر والتقى، المبرأ من كل الأدران التي تشوب طبائع البشر، فهو ﷺ بنورانيته المشعة وبطبعه السوي الزكي الفيّاض قمين ألا يجترىء عليه شقي جهول فيهذي بفارغ القول وترهات الحديث عليه وهو بنداوة قلبه الفيّاض أقدس الأناسم طراً.

إن زواجه ﷺ من تلكم النسوة التسع مجتمعات ما كان ينبغي أن يثير

مثقال قطمير من اشتباه أو عجب، فكيف بما أثاره المريبون الأفاكون من ضجة مستهجنة عارمة، ضجة مريبة ظالمة تكشف عن طبائع موغلة في الحقد والكراهية للإسلام ونبيه ﷺ، أما زواجه من هاتيك النسوة التسع أو أكثر فقد كان لكل زواج منهن مدعاة تقتضيه، تحقيقاً لمصلحة تمكّن للإسلام، أو دفعاً لأذى محتمل، فلا عبث في ذلك ولا أثَرَة ولا مَحض رغبة في التفرد أو التشهي.

لقد كان من أظهر الدواعي لتعدد الزواج لدى رسول الله ﷺ أن تتوثق الصلة الحميمة بينه وبين أصدق أصحابه البررة، لا جرم أن يكون أبو بكر وعمر أولى الأصحاب بمثل هذه الوشيجة من الصهرية، الوشيجة المكينة المميزة التي تستقطب المشاعر والقلوب وتزيد من كثافة الترابط والائتلاف، ومن أجل ذلك أقدم النبي ﷺ على تشريف صاحبيه بالزواج من ابنتيهما عائشة وحفصة.

ويضاف إلى ذلك ما تضفيه رابطة الصهرية على توطيد المحبة والتآلف بين قبائل العرب خاصة، إن رابطة الصهرية في المجتمعات العربية تفعل فعلها الشديد في تمكين الأواصر والعلائق مما يثير في نفوسهم ديمومة التلاحم المنسجم الودود.

ويضاف إلى ذلك أيضاً تكريمه ﷺ لنساء فضليات هاجرن إلى الحبشة فمات عنهن أزواجهن، أو تنصّروا فحاق بهن بذلك من مرارة الغربة ولوعة الإيحاش والحزن ما يقتضي المبادرة لإنقاذهن وتكريمهن، وأعظم ما يغشاهن من تكريم وتشريف أن يتزوجهن معلم البشرية والهادي إلى السواء والسداد محمد ﷺ، ومن تلكم النسوة سودة بنت زمعة فقد كانت امرأة ثيباً وكانت من مهاجرة الحبشة وكان زوجها حينذاك السكران بن عمرو الذي تنصّر ومات في الحبشة.

وكذلك أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، إذ كانت زوجة لعبيدالله بن جحش وكان من مهاجرة الحبشة، فتنصّر ومات بها فخطبها النبي ﷺ من النجاشي وهي بالحبشة.

وكذلك أم سلمة بنت أبي أمية المخزومية، فقد كانت زوجة لأبي سلمة المخزومي الذي شهد بدراً، وأصابته جراحة يوم أحد فمات عنها ثم تزوجها النبي ﷺ.

ويستدل من ذلك أيضاً أن النبي ﷺ إنما كان يروم بزواجه خير المسلمين وتحقيق المصلحة لهم، وهو ما بيّناه في الفقرة السابقة، وما كان يروم بذلك محض القضاء للوطر من الشهوة كما يتخيل الجهلة، والمتخبطون من أدعياء الفكر والمعرفة من استعماريين ومستشرقين وصهيونيين وأتباعهم من الناعقين.

لو كان محمد ﷺ إنما يبتغي بزواجه تحقيق الوطر من الشهوة دون غيره لكان تزوجهن كلهن صغاراً أبكاراً، وذلك هو شأن الذين يرومون الشهوات من النساء، فإنما يختارون لذلك أولات الجمال والنضارة والحسب، فضلاً عن كونهن أبكاراً غير ثيبات، لكن رسولنا ﷺ إنما تزوجهن جميعاً ثيبات باستثناء عائشة وحدها، لقد كانت زوجاته من الثيبات الكبريات اللواتي تزهد فيهن نفوس أولي الشهوات والذين يبتغون مجرد التلذذ والاستمتاع، مع أن رسول الله ﷺ كان مقتدراً على الزواج من أبكار صغيرات، لقد كان ذلك في حقه أمراً ميسوراً، والناس من حوله يبادرون لتزويجه تشريفاً لهم وتكريماً.

وليس أدل على هذه الحقيقة البلجة وأنه ﷺ ما كان يروم محض التشهي حدثُ الزواج من خديجة لأول مرة، فقد كان ﷺ إبان ذلك في ريعان الشباب وكانت خديجة لدى زواجه منها في أول الشيخوخة، إذ كانت خديجة تزيد عنه بخمسة عشر عاماً، وقد كانت أرملة لزوجين اثنين هما: عتيق المخزومي، ثم أبو هالة.

لقد اختار النبي ﷺ لنفسه الزوجة الصالحة الفضلى، لتكون خير معوان له على أداء الأمانة وتبليغ رسالة الحق إلى الناس، لقد تزوجها بعد أن ترمّلت مرتين بالرغم من كبرها سناً، وكان ﷺ يحبها الحب العظيم، وما أحب واحدة من زوجاته حبه لخديجة، بل نفى أن تكون إحداهن كفيئة لها

أو أحسن منها، فقد قال في ذلك عن خديجة: «**ما أعطاني خيراً منها**»، وقال معللاً: «**لقد آمنت بي إذ كفر بي الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس**».

أليس في ذلك ما يدحض مقالات السوء التي تزدردها حناجر الحاسدين المبغضين من خصوم الإسلام، وهم يفترون على رسول الله ﷺ في مسألة زواجه من تسع، ألا يدل ذلك على مثالية الرسول المطلقة بما يجليه من ظواهر الترفع والسمو والرحمة، وأنه أشد العالمين زهداً في الظفر بشهوات الدنيا وما فيها من حطام داثر.

أما زوجاته ﷺ فكن تسعاً وهن: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وسودة بنت زمعة، وزينب بنت جحش بن رئاب، وميمونة بنت الحارث بن حزن، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، وصفية بنت حيي بن أخطب.

وكان جميع من تزوجهن رسول الله ﷺ ثلاث عشرة وهن: خديجة بنت خويلد، وهي أول من تزوج، إذ زوَّجه إياها أبوها خويلد بن أسد، فولدت له ولده كلهم إلا إبراهيم، وكانت قبل رسول الله ﷺ زوجة لأبي هالة بن مالك وقد ولدت له هند بن أبي هالة وزينب بنت أبي هالة، وكانت خديجة قبل أبي هالة، زوجة عند عُتَيِّق المخزومي فولدت له عبدالله وجارية.

وتزوج رسول الله ﷺ عائشة بنت أبي بكر الصديق بمكة وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين أو عشر، ولم يتزوج ﷺ بكراً غيرها، وقد زوَّجه إياها أبوها أبو بكر.

وتزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة بن قيس وقد زوَّجه إياها سليط بن عمرو.

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش الأسدية، فقد زوَّجه إياها أخوها أبو أحمد بن جحش، وكانت قبل ذلك عند زيد بن حارثة، مولى

رسول الله ﷺ، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧].

وتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، واسمها هند، زوَّجه إياها ابنها سلمة بن أبي سلمة.

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب وقد زوَّجه إياها أبوها عمر بن الخطاب، وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي.

وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة، واسمها رملة بنت أبي سفيان بن حرب، وقد زوَّجه إياها خالد بن سعيد بن العاص وهما بأرض الحبشة، وكانت قبله عند عبيدالله بن جحش الأسدي.

ثم تزوج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث الخزاعية، إذ كانت في سبايا بني المصطلق من خزاعة فتزوجها رسول الله ﷺ بعد أن قضى عنها كتابتها، إذ كانت مكاتبة لثابت بن قيس الأنصاري.

وتزوج رسول الله ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب، إذ وقعت في أسر المسلمين عقب فتح خيبر فاصطفاها النبي ﷺ لنفسه، وكانت قبله عند كنانة بن الربيع بن الحقيق.

وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث بن حزن بن صعصعة الهلالية، فقد زوَّجه إياها العباس بن عبدالمطلب، وكانت قبله عند مسعود بن عمرو الثقفي ففارقها ثم تزوجها أبو رُهم بن عبد العزى فتوفي عنها وقيل: إنها هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، ذلك أنه لما جاءها الخاطب وكانت على بعير رمت بنفسها من على البعير وقالت: البعير وما عليه لرسول الله ﷺ، وقد أنزل الله جل وعلا فيها: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠].

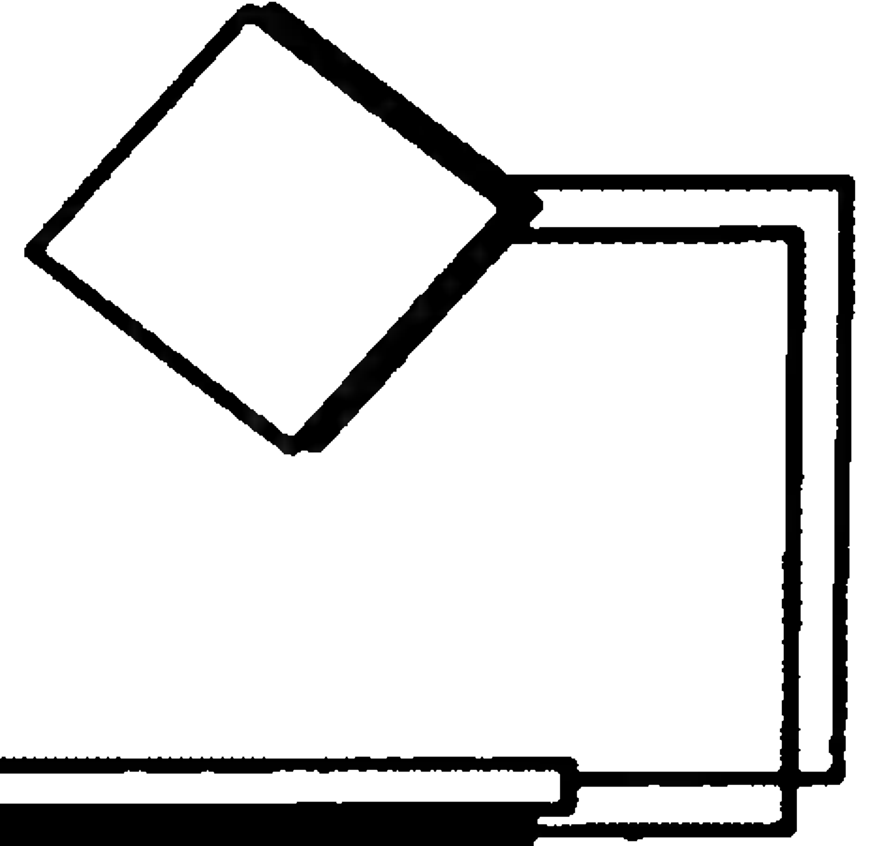
وكذلك تزوج ﷺ زينب بنت خزيمة من بني عامر بن صعصعة، ويقال لها: أم المساكين لحدبها عليهم ورأفتها بهم، وقد كانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، وكانت قبل عبيدة عند جهم بن

عمرو بن الحارث وهو ابن عمها، وقد توفيت في حياة النبي ﷺ.

هؤلاء هن الزوجات اللواتي كن لرسول الله ﷺ، وهن إحدى عشرة، وقد مات قبله منهن اثنتان وهما: خديجة بنت خويلد، وزينب بنت خزيمة، وتوفي ﷺ عن تسع[1].



(١) سيرة ابن هشام ج٤ ص٢٩٣ ـ ٢٩٨، والكامل لابن الأثير ج٢ ص٣٠٧ ـ ٣١٠، وعيون الأثر ج٢ ص٣٧٧ ـ ٣٨٧.



الفصل الرابع عشر

كُتّاب النبي ﷺ

كتب لرسول الله كثيرون من أصحابه، ومن بينهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعامر بن فهيرة، وخالد وأبان، وهما ابنا سعيد بن العاص، وكذلك عبدالله بن الأرقم الزهري، وحنظلة بن الربيع الأسدي، وأبيّ بن كعب، وهو أول كتّاب النبي ﷺ من الأنصار، وثابت بن قيس بن شماس، وزيد بن ثابت، وشرحبيل بن حسنة، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، والزبير بن العوام، وخالد بن الوليد، والعلاء بن الحضرمي، وعمرو بن العاص، وعبدالله بن رواحة، ومحمد بن سلمة، وعبدالله بن عبدالله بن أبي، وآخرون[١].



(١) عيون الأثر ج٢ ص٣٩٥.

الفصل الخامس عشر

شطر من معجزات النبي ﷺ

حياة النبي ﷺ حافلة بالمعجزات، وهي معجزات كثيرة وكبيرة ومختلفة، على أن المعجزة الكبرى التي تعلو فوق المعجزات والتي تدنو دونها كل الكبريات والعظائم لهي معجزة القرآن الكريم، هذا الكتاب الرباني العجيب الفذ، الذي فاق كل تصور وحسبان وجاوز كل حدود المدارك والعرفان بما تضمنه من كبريات الحقائق وعجائب العلوم والأخبار، فضلاً عن خصيصة النظم الفريد، النظم العجيب الأكمل الذي لا يضاهى والذي بهر بروعة أسلوبه وجمال اتساقه وحلاوة إيقاعه، النفوس والأذهان، ذلكم هو القرآن الحكيم المجيد الذي خلب الألباب، وأخذ بالقلوب كل مأخذ، فما سمعت به العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة واللُّسن حتى غشيهم من فظاعة الذهول ما غشيهم فما استطاعوا أن يضاهوه وما استطاعوا أن يقلدوه بل بادروا سراعاً لتصديقه، والإيمان به فكانوا خياراً كراماً بررة، بعد أن كانوا عتاة جفاة غلاظاً جاحدين.

ذلكم هو القرآن العظيم، المعجزة الخالدة خلود الزمان، الباقية على مرّ الأدهار والأزمان، فلا تفنى وإن فني الدهر والزمان.

لكن النبي ﷺ قد أوتي كثيراً من المعجزات الحسية، التي تظل مسطورة في بطون الكتب ليقف عليها الناس كلما مرت بهم ذكراها لدى القراءة والتنقيب في ما خطته الأقلام، مع أن السيرة العاطرة الميمونة

لرسول الله ﷺ لا جرم أنها زاخرة بمختلف المعجزات، بدءاً بولادته ﷺ حتى رحيله عن هذه الدنيا إلى الرفيق الأعلى، إن هذه السيرة الطيبة المباركة تتندّى بمختلف الصور من المعجزات الحسية التي يعز جمعها في إلمامة عُجلى أو شطر مقتضب كهذا الشطر.

بذلك فإننا نعرض هنا للحديث عن شطر عابر من هذا الزخم الهائل المديد:

فأول هذه المعجزات إخباره ﷺ عن بيت المقدس وذلك لدى إيابه من رحلته المباركة إذ أسري به إلى بيت المقدس ثم عُرج به إلى السماوات العلى، وذلك كله في ساعة من الليل، فلما قفل راجعاً إلى مكة بادر قومه بالحديث إليهم عما تحقق له في ليلته، فبادروه التكذيب وانفتلوا ناكصين متمردين ساخرين، ثم سألوا رسول الله ﷺ أن يصف لهم بيت المقدس، فجعل النبي ﷺ يصف لهم إياه وصفاً حقيقاً دقيقاً، حتى أيقنوا أنه صادق وأن ما بيّنه لهم من علائم المسجد صحيح لا شك فيه، فما لبثوا بعد ذلك أن نكصوا على أعقابهم مخذولين.

ثم انشقاق القمر، فقد ثبت في صحيح البخاري وغيره من كتب الحديث عن أنس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فنزل قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: الآية ١]، فكان انشقاق القمر حقيقة مشهودة لا شك فيها، حقيقة منظورة ومُحَسة أدركها الناس ووقفوا عليها فاستيقنتها أنفسهم، وذلك ضرب من ضروب الإعجاز الذي تجلى لرسول الله ﷺ[1].

ثم نسيج العنكبوت في الغار، وذلك خلال مُهاجَره إلى المدينة، إذ أرسل المشركون في أثره فريقاً من عتاة مقاتليهم ليقتلوه بعد أن تمالأوا على ذلك في دار الندوة أثناء جلسة شهدها الرجيم إبليس، فعزموا على اللحاق به ليقضوا عليه، ومضوا في طريقهم راكضين سراعاً ليدركوه حتى وقفوا

---

(١) تفسير القرطبي ج١٧ ص١٢٦.

على باب الغار وتساءلوا ما بينهم في شأن الغار ومن عساه يكون فيه، فأزمع بعضهم على الدخول فيه لولا أن رأوا عنكبوتاً قد أرخى خيوط بيته على باب الكهف، فخالجهم اليقين بذلك أنه ليس في هذا من أحد، مع أن النبي ﷺ وصاحبه الصديق قد لبثا ساكنين وادعين مفوضين الأمر إلى الله، وفي هذه اللحظة الحاسمة الرهيبة ما كان من شيء يحول بينهما وبين الموت غير قدر الله المقدور، فما شاء سبحانه كائن وما لم يشأ الله لم يكن ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: الآية ٢١]، ومثل هذا الحديث المثير المفزع الذي تتجلى فيه رعاية الله فتنخرق به نواميس الطبيعة، لا جرم أن يكون لوناً من الإعجاز الحسي الظاهر.

ثم نزول المطر والسماء مصحية ليس فيها قَزَعَة من غيم، وذلك لما لجَّ الناس من شدة السنين وانحباس المطر فأصابهم من الجدب والقحط وشحة الماء ما أصابهم، ففزعوا إلى رسول الله ﷺ يجأرون إليه بالشكوى عسى أن يستسقي لهم، فأجابهم رسول الله ﷺ ودعا ربه أن يسقيهم الغيث وأن ينزل عليهم السماء مدراراً، فانهمر المطر من السماء على الفور من قبل أن يرد النبي ﷺ كفيه عقب فراغه من الدعاء، فأمطر الناس أسبوعاً حتى ضاقوا بكثرة الأمطار التي طغت على البلاد، لولا أن دعا النبي ﷺ ربه ثانية أن يكفكف المطر فانقطع، وما كان ذلك ليكون لولا دعاء النبي ﷺ المستجاب في كل الأحوال.

وكذلك دعاؤه ﷺ على عتبة بن أبي لهب، وكان هذا عاتياً فاجراً ظلوماً، فكان شديد الإيذاء لرسول الله ﷺ وقد جاوز في عدوانه شرار الأشقياء من الناس الذين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ ويرمون في طريقه الأذى والقذر، ومثل هذا الشقي الكفور لا ينفعه النصح وحسن الخطاب ولا يردعه الوعظ والذكر، فهو سارد في غيه وجحوده واضطغانه، وفي مثل هذه الساعة من شدة الكرب وما كان يحيق بالنبي ﷺ من شدائد وملمات، كان لا يبرح التضرع إلى الله فيدعوه خاشعاً متذللاً مخبتاً، وحينئذٍ ما من بد من الدعاء على هذا الشيطان الغاشم، عتبة بن أبي لهب، فدعا عليه النبي ﷺ دعاءه الرعيب المستجاب إذ قال: **«اللهم سلِّط عليه كلباً من كلاب الشام»**،

فظلت دعوة النبي ﷺ تراود عتبة وتخالجه في كل حين فما تبرحه وهو في ذلك يستشعر الوجل يستحوذ على قلبه وأعصابه.

وبينما هو سائر في قافلة لقريش في تجارة إلى الشام ومن حوله كثير من الرجال، غشيتهم سِنَة من النعاس فناموا فجاءهم أسد وهم هاجعون وكان عتبة راقداً وسط القوم ومن حوله الرجال، حتى إذا جاءهم الأسد، فما لبث أن انقض على عتبة فأنْشَب فيه نابه وأسنانه ثم أدبر يجرُّه إلى مثواه فأكله.

ثم إخباره بأن الشاة مسمومة، وذلك عقب فتح خيبر، فقد أهدت زينب بنت الحارث اليهودية - امرأة سلاَّم بن مشكم - للنبي ﷺ شاة مسمومة، إذ حقنتها بالكثيف من السم، وكان السم مركوزاً على نحو أشد كثافة في ذراع الشاة لإخبارها بأن النبي ﷺ كان أكثر ما يحب من الشاة الذراع، فوضعت الشاة بين يديه ﷺ ومعه بعض أصحابه وفيهم بشر بن البراء بن معرور، فقال رسول الله ﷺ: «**ادنوا فتعشوا**» وتناول رسول الله ﷺ الذراع فانتهش منها وتناول بشر بن البراء عظماً آخر فانتهش منه، فلما ازدرد رسول الله ﷺ لقمته، ازدرد بشر بن البراء ما في فيه وأكل منها القوم، فقال رسول الله ﷺ: «**ارفعوا أيديكم فإن هذا الذراع يخبرني أنه مسموم**»، أما بشر فلم يقم من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان، ثم ماطله وجعه سنة ثم مات، وقيل: ما لبث في حينه أن مات قبل أن يتحول من مكانه، لكن النبي ﷺ قد لفظ ما وضعه في فمه من لحم الشاة لما أخبره لحمها بذلك.

ثم قصة فَضَالة الذي كان يكن في نفسه الكفر والكراهية لرسول الله ﷺ: فأخفى في نفسه قصداً خبيثة يبتغي تنفيذه في ساعة من تزاحم الناس، كان فضالة مزمعاً قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالكعبة عقب الفتح، فكان فضالة يرقب ببصره رسول الله ﷺ ويده على مقبض سيفه، وهو يخفي في نفسه من فظاعة السوء ما لا يعلمه أحد من الناس غيره، حتى إذا رآه النبي ﷺ - وقد أوحى الله له بخبره - ناداه زاجراً منتهراً: «**أفضالة؟**» قال: نعم، فضالة يا رسول الله، فقال له النبي ﷺ: «**ماذا كنت**

تحدث به نفسك؟» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، ثم وضع النبي ﷺ يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خَلْق الله شيء أحب إلي منه.

ومن أعجب المعجزات الحسية لدى رسول الله ﷺ، خبر عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية عقب معركة بدر التي أُسر فيها ابن عمير، فقد جلس الاثنان، عمير وصفوان وتبادلا الحديث بينهما منفردين دون غيرهما من الناس، وذكر كل منهما لصاحبه ما يجيش به صدره من كراهية وضغينة لرسول الله ﷺ ثم اتفقا على مكيدة خبيثة، يذهب بمقتضاها عمير إلى النبي ﷺ في المدينة ويقتله، على أن يضطلع صفوان بأداء ما على عمير من دين، وأن ينفق على عياله بمثل نفقته (صفوان) على عياله، حتى إذا أمسك بتلابيبه عمر ومضى به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه النبي ﷺ قال: **«ادن يا عمير، ما جاء بك؟»** فقال: جئت لهذا الأسير، فقال: **«أصدقني»** قال: ما جئت إلا لذلك، قال: **«بل قعدت أنت وصفوان وجرى بينكما كذا وكذا»**، فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، هذا الأمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فالحمد لله الذي هداني للإسلام.

إن ذلكم بتوفيق الله وتقديره وهو ما يندُّ عن قوانين الطبيعة ونواميسها مما يجاوز طاقات البشر، وتلك معجزة من المعجزات الكثيرة التي أوتيها رسول الله ﷺ.

ثم إخباره عن ابن بنته الحسن في الإصلاح بين فئتين من المسلمين، هما فئة معاوية في الشام وفئة علي في العراق، فلما أن كتب الله لعلي رضي الله عنه القتل والشهادة على يد الشقي الظالم عبدالرحمٰن بن ملجم، بادر ابنه الحسن في تواضع رفيع وسخاء جم للتخلي عن المطالبة بالرياسة خلفاً لأبيه، فكان ذلك سبباً عظيماً ومحسوباً لهذا العظيم الجليل (الحسن) في فض النزاع وانقضاء المعضلة، وفي ذلك كله قد سبق النبي ﷺ الأحداث والوقائع والزمان لما قال في الحسن: **«إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»** فصالح الحسن معاوية وحقن دماء الفئتين من المسلمين.

ثم بركتُه ﷺ تحل بالناس فيفيض منها الخير ليكون عميماً شاملاً، وتلكم لعمري ظاهرة عجيبة تستوقف الذهن وتثير الدهش ويدار لها الرأس، على أن حياة رسول الله ﷺ حافلة بالبركات مما يعز تبيانه هنا في هذا العرض الوجيز، لكننا نقتضب من ذلك ثلاث وقائع قد عمت فيهن البركة فكانت المعجزة الظاهرة التي لا تتجلى لغير النبيين والمرسلين[1].

وأول هذه الوقائع: قصة ابنة بشير بن سعد إذ كانت تحمل في ثوبها حفنة من تمر تبتغي الذهاب بها إلى أبيها وخالها عبدالله بن رواحة إذ هو غداؤهما، فناداها النبي ﷺ وطلب منها أن تصب حفنة التمر في كفه ﷺ فما ملأتها، ثم أمر بثوب فبُسط له، ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان: «**اصرخ في أهل الخندق أن هلم إلى الغداء**»، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب.

أما الواقعة الثانية فهي شاة جابر بن عبدالله، فقد كانت عنده شويهة سمينة، فقال جابر: والله لو صنعنا هذه الشويهة لرسول الله ﷺ، فأمر امرأته فطحنت شيئاً من شعير فصنعت منه خبزاً، ثم ذبح جابر الشاة فشواها لرسول الله ﷺ، فلما أراد رسول الله ﷺ الانصراف عن الخندق وكانوا يعملون فيه النهار كله، قال له جابر: يا رسول الله إني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئاً من خبز هذا الشعير فأحب أن تنصرف معي إلى منزلي، وكان جابر يريد من النبي ﷺ أن ينصرف معه وحده، فأجابه النبي ﷺ بنعم، ثم أمر ﷺ صارخاً أن انصرفوا مع رسول الله ﷺ إلى بيت جابر بن عبدالله، فقال جابر وقد أحس بالضيق والحرج: إنا لله وإنا إليه راجعون، فأقبل النبي ﷺ وأقبل معه الناس، فجلس وأخرج له الشويهة فسمى الله ثم أكل، وتوارد الناس على الشاة، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس آخرون حتى صدر أهل الخندق عنها.

---

(١) عيون الأثر ج٢ ص٣٦١ ـ ٣٦٣.

هذه بركة من بركات النبي ﷺ لا تتسنى لغيره من البشر على هذه الصورة من الكثرة الكاثرة[1].

وأما الواقعة الثالثة، فهي عام الحديبية إذ أمر النبي ﷺ بنزول الوادي فقالوا له: يا رسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه، فأخرج النبي ﷺ سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل في قَليب من قُلُب الوادي فغرزه في جوفه ففاض الماء واستقى منه الناس وفضل عن حاجتهم[2].

هذه قلة قليلة من معجزات الرسول ﷺ الحسية، نكتفي منها بما بيناه، فهي كثيرة ومديدة ليس لها من متسع في هذا الوجيز، وهذه حقيقة نستقيها ونحن نعلم أن ما يتجلى في رسول الله ﷺ من صفات وخصال جاوز دائرة الطبيعة والمألوف، فوقائع حياته ومجريات سلوكه وخصاله وأفعاله كان جُلُّها ضرباً من المعجزات المثيرة المذهلة، صلى الله عليه وسلم ونفعنا بشفاعته يوم الدين فنكون في زمرة المتقين الفائزين.



---

(1) سيرة ابن هشام ج٣ ص٢٢٨، ٢٢٩.

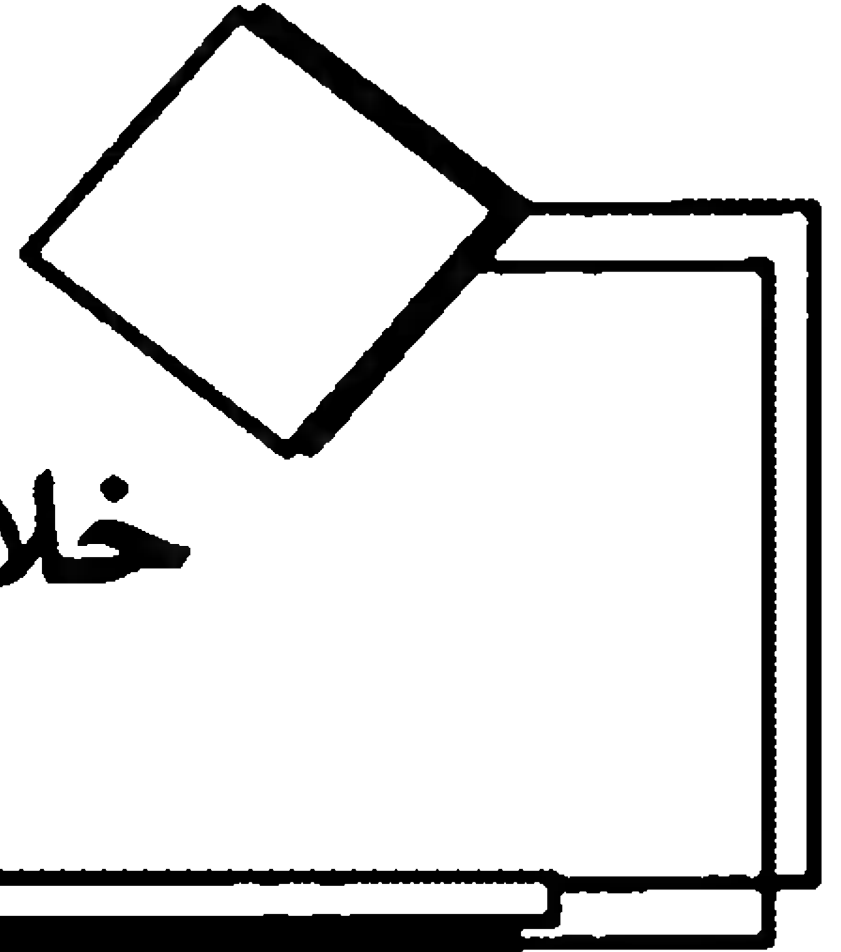
(2) سيرة ابن هشام ج٣ ص٣٢٤.



الباب الثاني

الخلافة الراشدة المباركة


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الأول

خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

تبين فيما مضى أن رسول الله ﷺ قد توفي يوم الاثنين وذلك ضحى، فاشتغل الناس ببيعة أبي بكر الصديق في سقيفة بني ساعدة، ثم البيعة العامة في المسجد في بقية يوم الاثنين وصبيحة الثلاثاء، ثم أخذوا في غسله ﷺ وتكفينه والصلاة عليه ﷺ بقية يوم الثلاثاء، ودفنوه ليلة الأربعاء، وهو ما بيناه في موضعه.

ولما بويع أبو بكر، صعد المنبر فنظر في وجوه القوم فلم يرَ الزبير، فدعاه فجاءه وقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه، ثم نظر في وجوه القوم فلم يرَ علياً فدعاه، فقال علي: لا تثريب يا خليفة رسول الله فبايعه.

ثم خطب أبو بكر، واعتذر إلى الناس وقال: والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة، ولا سألتها الله في سر ولا علانية، فقبل المهاجرون مقالته، وقال علي والزبير: ما إلا لأننا أُخِّرنا عن المشورة[1]،

---

(١) هذه العبارة تعني: أننا لم نبادر مع القوم للبيعة لأنه لا علم لنا بما حصل في سقيفة بني ساعدة فلم نشاور في ذلك، ويضاف إلى ذلك من حقيقة وهي انشغال علي رضي الله عنه في تشييع زوجته فاطمة وإقبارها.

وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها، إنه لصاحب الغار، وإنا لنعرف شرفه وخيره، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة بالناس وهو حي، وهذا هو اللائق بعلي رضي الله عنه، وهو ما تدل عليه الآثار في شهوده الصلوات مع أبي بكر وخروجه معه إلى ذي القصة بعد موت رسول الله ﷺ فضلاً عما بذله له من النُصْح والمشورة بين يديه.

على أن مبايعة علي أبا بكر بعد موت فاطمة، وقد ماتت بعد أبيها عليه الصلاة والسلام بستة أشهر، فذلك محمول على أنها بيعة ثانية.

ثم نادى منادي أبي بكر من الغد من وفاة النبي ﷺ ليتمم بعث أسامة بن زيد: ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جيش أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف، وقام أبو بكر بالناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إنما مثلكم وإني لعلكم تكلفوني ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فبايعوني، وإن زُغْتُ فقوِّموني، وإن رسول الله ﷺ قُبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها، وإنكم تغدون وتروحون في أجل قد غُيِّب عنكم علمه، وإن استطعتم أن لا يمضي إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، وسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسْلِمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإن قوماً نسوا آجالهم وجعلوا أعمالهم بعدهم، فإياكم أن تكونوا أمثالهم، الجِدَّ الجِدَّ، النجاة النجاة، الوحا الوحا، فإن وراءكم طالباً حثيثاً، وأجلاً أمره سريع، احذروا الموت، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تطيعوا الأحياء إلا بما تطيعون به الأموات.

وقال في خطبة أخرى بعد أن حمد الله وأثنى عليه: اعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس، وأين هم اليوم؟ أين الجبارون الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب، قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميماً، أين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؟ قد بعدوا وصاروا كلا شيء، ألا إن الله عز وجل أبقى عليهم

التبعات وقطع عنهم الشهوات، ومضوا والأعمال أعمالهم، والدنيا دنيا غيرهم، أين الوضاؤون الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم؟ صاروا تراباً وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم، أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: الآية ٩٨]؟.

خروج الأسود العنسي باليمن ومقتله قبل وفاة النبي ﷺ

هو عَيْهَلَة بن كعب بن عوف العنسي، وعنس: بطن من بطون العرب وهم مَذْحِج.

عقب إسلام باذان وأهل اليمن أمّره النبي ﷺ على جميع اليمن. أما أمراء اليمن فقد فرّقهم النبي ﷺ إذ استعمل عمرو بن حزم على نجران، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران وما حولها، وعامر بن شهر على همدان، وأمّر على صنعاء شهر بن باذان، وعلى حضرموت زياد بن لبيد الأنصاري. ثم مات النبي ﷺ وهؤلاء هم عماله على اليمن وحضرموت.

ولما عاد النبي ﷺ من حجة الوداع، ادعى الأسود النبوة وارتد عن الإسلام واتبعه في شعوذته ودعواه الباطلة كثير من العرب منهم مَذحج وكانت هذه أول ردة في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ. وقد غزا الأسود الكاذب نجران فأخرج عنها عمرو بن حزم وخالد بن سعيد. ثم سار عن نجران إلى صنعاء وخرج شهر بن باذان للقائه، لكن شهراً قد قتل، وولى معاذ هرباً حتى لحق بأبي موسى الأشعري وهو في مأرب، ثم لحقا كلاهما بحضرموت.

وبذلك استتب للأسود العنسي ملك اليمن، وغلب الأسود على ما بين حضرموت إلى عدن، فاستغلظ أمره، واستطار. وكان هذا الشقي الجواظ قد تزوج امرأة شهر بن باذان بعد قتله، وخاف من بحضرموت من المسلمين أن

يبعث الأسود إليهم جيشاً، أو يظهر عندهم كذاب آخر مثل العنسي. وقد جاءهم من النبي ﷺ كتاب يأمرهم فيه بقتال الأسود أو بقتله غيلة، فقويت نفوس المسلمين بذلك، وكان الذي جاء بكتاب النبي ﷺ وَبَر الأزدي، وكتب النبي ﷺ بمثل ذلك إلى نجران فأجابوه، وبلغ ذلك الأسود العنسي فأحس أنه صائر إلى الهلاك.

ودخل المسلمون على آزاد، وهي امرأة الأسود التي تزوجها قهراً عقب مقتل زوجها ابن باذان، فدعوها إلى ما هم عليه من الحق والثبات على التوحيد والسداد، وذكّروها قتل زوجها شهر وإهلاك عشيرتها وفضيحة النساء، فأجابت وقالت: والله ما خلق الله شخصاً أبغض إليّ منه، ما يقوم على حق، ولا ينتهي على محرّم، فأعلموني أمركم أخبركم بوجه الأمر.

ثم تتبع نفر من المسلمين أثر الأسود حتى نقبوا البيت الذي كان فيه بعد أن ساعدتهم امرأته في ذلك. فخرج الأسود وهم بينه وبين حراسه، فلما دنا من باب البيت سمع غطيطاً شديداً والمرأة قاعدة، ثم عاجله أحد المسلمين وهو فيروز فأخذ برأسه فقتله ودقّ عنقه ووضع ركبته في ظهره فدقه ثم قام ليخرج فأخذت المرأة بثوبه وهي ترى أنه لم يقتله، فقال لها: قد قتلته وأرحتك منه، وقد خار كما يخور الثور، وقطعت رأسه بالشفرة. ثم قال:

لما طلع الفجر نادينا بشعارنا الذي بيننا وبين أصحابنا ففزع المسلمون والكافرون، ثم نادينا بالأذان، فقال المنادي: أشهد أن محمداً رسول الله، وأن عيهلة كذاب، وألقينا إليهم رأسه، فأحاط بنا أصحابه وحراسه وشنوا علينا الغارة، فنادينا أهل صنعاء، من كان عنده منهم أحد فأمسكه، ففعلوا. فلما خرج أصحابه فقدوا سبعين رجلاً ولم يظفروا منا بشيء. ثم تراجع أصحاب النبي ﷺ إلى أعمالهم، وكان يصلي بهم معاذ بن جبل، وكتبنا إلى رسول الله ﷺ بخبر الأسود العنسي، وذلك في حياته، ثم توفي رسول الله ﷺ.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: أتى الخبر من السماء إلى النبي ﷺ

في ليلته التي قتل فيها (الأسود) فقال ﷺ: **«قتل العنسي، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين» قيل: من قتله؟ قال: «قتله فيروز».**

وقيل: كان أول أمر العنسي إلى آخر ثلاثة أشهر، وقيل: قريب من أربعة أشهر، وكان قدوم البشير بقتله آخر ربيع الأول بعد موت النبي ﷺ. فكان ذلك أول بشارة أتت أبا بكر وهو بالمدينة.

قال فيروز: لما قتلنا الأسود عاد أمرنا كما كان، وأرسلنا إلى معاذ بن جبل فصلى بنا ونحن راجون مؤملون، لم يبق شيء نكرهه إلا تلك الخيول من أصحاب الأسود، حتى إذا مات النبي ﷺ انتقضت الأمور واضطربت الأرض.

تصدي أبي بكر لقتال المرتدين:

لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب ما خلا أهل المسجدين، مكة والمدينة، ونجم النفاق، وانحاز بنو حنيفة إلى مسيلمة الكذاب وآخرون كثيرون باليمامة، والتفّت بنو أسد وغطفان وطيء على طلحة الأسدي الكاهن، وادعى النبوة مسيلمة الكذاب، وارتدت كندة ومن يليها وعليهم الأشعث بن قيس الكندي، وارتدت مذحج ومن يليها، وعليهم الأسود بن كعب العنسي الكاهن، وارتدت ربيعة مع المعرور بن النعمان بن المنذر، وارتدت بنو تميم مع سجاح الكاهنة.

وبذلك عظم الخطب واستطار الكيد والشر، وأحاطت بالمسلمين المخاطر إذ باتوا قلة، وفوق ذلك بُعث أسامة بجند المسلمين، فقلَّ الجند عند أبي بكر مما أطمع كثيراً من الأعراب في المدينة، ورأوا أن يهجموا عليها، فجعل الصديق على أطراف المدينة حراساً يبيتون بالجيوش حولها، وكان من أمراء الحراس: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمٰن بن عوف، وعبدالله بن مسعود.

فجاءت وفود العرب إلى المدينة معلنين إقرارهم بالصلاة وامتناعهم من

أداء الزكاة، واحتج بعضهم بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٠٣]، فقالوا: إنما تدفع زكاتنا إلى من صلاته سكن لنا.

لا جرم أن احتجاجهم بالآية في غير موضعه هنا، وإنما هو تأويل غير سديد، لا يدل إلا على السفاهة وسقم التفكير لدى هؤلاء المرتدين الضالين.

ثم تكلم بعض الصحابة مع أبي بكر ليتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم ثم يزكون بعد ذلك، فأبى الصديق ذلك ورفض مقولتهم.

وروي عن أبي هريرة عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبي بكر: علام تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»**، فقال أبو بكر: والله لو منعوني عَناقاً[(١)] كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لأقاتلنهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة.

قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق.

وفي جمادى الآخرة ركب الصديق في أهل المدينة وأمراء الأنقاب[(٢)] إلى من حول المدينة من الأعراب المرتدين الذين أغاروا على المدينة، ولما تواجه المسلمون بقيادة أبي بكر، وأعداؤهم من بني عبس، وبني مرة، وذبيان، ومن ظاهرهم من بني كنانة وقد أمدهم طليحة الأسدي بابنه حبال،

---

(١) العناق: الأنثى من ولد المعز قبل استكمالها الحول، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٨٤.

(٢) الأنقاب: جمع نقب وهو الطريق في الجبل، انظر: القاموس المحيط ج١ ص١٣٨.

عندئذٍ صنع المرتدون مكيدة للمسلمين، إذ عمدوا إلى أنحاء[1] فنفخوها ثم أرسلوها من رؤوس الجبال فلما رأتها إبل المسلمين نفرت وذهبت كل مذهب، فلم يتمكنوا من أمرها شيئاً حتى أقبل الليل فرجعت إلى المدينة، وعندئذٍ ظن المشركون أن المسلمين قد أصابهم الوهن فأرسلوا إلى عشائرهم من نواحي أُخر ليظاهروهم على المسلمين.

وقام أبو بكر رضي الله عنه ليله قائماً يعبىء الناس ويحرضهم على قتال المرتدين، ثم خرج من آخر الليل وعلى ميمنته النعمان بن مُقَرِّن، وعلى الميسرة أخوه عبدالله بن مُقَرِّن، وعلى الساقة أخوهما سويد بن مُقَرِّن، حتى إذا طلع الفجر كانوا هم وعدوهم على صعيد واحد، ولم يسمعوا للمسلمين أي حس أو همس، حتى وضع المسلمون فيهم السيوف، فما طلعت الشمس حتى تولى المشركون مدبرين وقد غلبوهم وهزموهم أشد هزيمة، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة، فأعز الله المسلمين وأذل المشركين، فوثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم، فحلف أبو بكر ليقتلن من كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة[2]، فظفر بهم وانتقم منهم فكانت هذه الوقعة ظهيراً للإسلام والمسلمين، إذ عز المسلمون في كل قبيلة، وكذلك الكفر قد ذل، وعاد أبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة مظفراً منصوراً، سالماً غانماً، وجاءت المدينةَ طوارق الليل تحمل الصدقات من عدي ابن حاتم، وصفوان، والزبرقان، إحداهما في الليل، والثانية في وسطه، والثالثة في آخره، وقد قدم بكل واحدة من هذه الصدقات بشير من أمراء الأنقاب، فكان الذي بشّر بصفوان سعد بن أبي

---

(١) أنحاء: جمع، ومفرده: نحى، وهو سقاء للسمن، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٢٦٣.

(٢) ليس في هذه الزيادة ما يخالف قاعدة القصاص، وإنما يكون القصاص في دار الإسلام بين المسلمين أنفسهم أو بينهم وبين أهل الذمة في مذهب الإمام أبي حنيفة، لكن الزيادة هنا حال الجهاد ولقاء الأعداء في ساحة الحرب، فلا تثريب على المسلمين أن يثخنوا في العدو لكسر شوكتهم فيقتلوا منهم مقتلة كبيرة، فلا اعتبار هنا للقصاص الذي يعني المماثلة.

وقاص، والذي بشّر بالزبرقان عبدالرحمٰن بن عوف، والذي بشّر بعدي بن حاتم عبدالله بن مسعود، وذلك كله بعد ستين ليلة من وفاة رسول الله ﷺ.

ثم قدم أسامة بن زيد بعد ذلك بليال، فاستخلفه أبو بكر على المدينة وجنده معه ليستريحوا ويريحوا ظهرهم (دوابهم)، ثم خرج فيمن كان معه، فناشده المسلمون ليقيم فلا يخرج، فأبى وقال: لأواسينّكم بنفسي، فسار في تعبئته إلى ذي حُسىً وذي القصة، حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق، وهناك جماعة من بني عبس وذبيان وطائفة من بني كنانة، فاقتتلوا فهزم الله المشركين، وأخذ الحطيئة أسيراً فطارت بنو عبس وبنو بكر، وأقام أبو بكر على الأبرق أياماً وقد غلب بني ذبيان على البلاد، وقال: حرام على بني ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد إذ غنمناها الله، فحماها لدواب المسلمين وصدقاتهم[1].

ولما انهزمت عبس وذبيان صاروا إلى مؤازرة طليحة.

خروج أبي بكر إلى ذي القصة وعقد الألوية:

بعد استجمام جيش أسامة واستراحتهم، ركب أبو بكر في جيش المسلمين شاهراً سيفه مسلولاً من المدينة إلى ذي القصة، وهي على مرحلة من المدينة، وكان علي بن أبي طالب يقود براحلة أبي بكر فسأله الصحابة، منهم علي بن أبي طالب وألحُّوا عليه أن يرجع إلى المدينة، وأن يبعث لقتال الأعراب غيره من الشجعان، فأجابهم إلى ذلك وعقد لهم الألوية لأحد عشر أميراً.

فقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج أبي شاهراً سيفه راكباً على راحلته إلى وادي ذي القصة، فجاء علي بن أبي طالب فأخذ بزمام راحلته فقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد: لُمّ سيفك ولا تفجعنا بنفسك، فوالله لئن أُصِبنا بك

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٦ ص٣٠١ ـ ٣١٤.

لا يكون للإسلام بعدك نظام أبداً، فرجع وأمضى الجيش.

وتفصيل ذلك أنه لما استراح أسامة وجنده، وقد جاءت صدقات كثيرة تفضُل عنهم، قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية، فعقد أحد عشر لواء، وعقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد الأسدي، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح، وعقد لعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة الكذاب، ثم بعث في أثره بشرحبيل بن حسنة إلى مسيلمة ثم إلى بني قضاعة، وعقد للمهاجر بن أبي أمية وأمره بجنود العنسي، ثم يمضي إلى كندة بحضرموت، وعقد لخالد بن سعيد وبعثه إلى مشارف الشام، وعقد لعمرو بن العاص وأرسله إلى قضاعة، وعقد لحذيفة بن محصن الغطفاني وأمره بأهل دُبا وعرفجة وهرنمة، ولطرفة بن حاجب وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن، ولسويد بن مقرن وأمره بتهامة اليمن، وعقد للعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين رضي الله عنهم أجمعين.

وقد كتب أبو بكر رضي الله عنه لكل أمير من هؤلاء الأمراء كتاباً إلى من هو ذاهب لقتالهم، إذ ينصحهم فيه ويدعوهم إلى التوبة ومجانبة الشيطان وسبيله، ويحذرهم مغبّة تمردهم وارتدادهم عن الإسلام والفيئة إلى الحق قبل فوات الأوان.

مسير الأمراء لقتال المرتدين:

كان سيد الأمراء الشجعان الصناديد، أبو سليمان، خالد بن الوليد رضي الله عنه، هذا المغوار الهصور الذي عزّ نظيره في الشجعان الأشاوس، ويشهد بذلك ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«نعم العبد وأخو العشيرة خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله، سلّه الله على الكفار والمنافقين»**.

توجّه خالد من ذي القصة وقد فارقه الصديق، وواعده أنه سيلقاه من ناحية خيبر بمن معه من الأمراء ـ وقد أظهروا ذلك ترهيباً للأعراب ـ وأمره أن يذهب أولاً إلى طليحة الأسدي، ثم بعد ذلك يذهب إلى بني تميم، وكان طلحة بن خويلد الأسدي في قومه بني أسد، وفي غطفان، ثم انضم

إليهم بنو عبس وذبيان، وكان الصديق قد بعث عدي بن حاتم قبل خالد بن الوليد، وقال له: أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم، فذهب عدي بن حاتم إلى قومه بني طيء فأمرهم أن يبايعوا أبا بكر وأن يراجعوا أمر ربهم، فقالوا: لا نبايع أبا الفضل أبداً - يريدون به أبا بكر - فقال عدي: والله ليأتينكم جيش فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر، فما زال عدي يفتل لهم في الذروة والغارب[1] حتى لانوا واستجابوا وقالوا له: استقبل الجيش فأخِّره عنا حتى نخرج مَن عِندَ طليحة من نساءنا وأولادنا كيلا يقتلهم، فاستقبل عدي خالداً وأخبره بالخبر، فتأخر خالد، فعادت طيء إلى خالد مسلمين، ثم رحل خالد يريد جديلة، فاستمهله عدي عنهم، فلحق بهم عدي يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه، فعاد عدي بن حاتم إلى خالد بإسلامهم، ولحق بالمسلمين ألف راكب منهم، فكان عدي بذلك أكرم مولود في أرض طيء وأعظمه بركة عليهم.

ثم أرسل خالد بن الوليد عكاشة بن محصن وثابت بن الأقرم الأنصاري ليكونا طليعة.

فلقيهما حِبال أخو طليحة فقتلاه، فبلغ خبره طليحة، فخرج هو وأخوه سلمة فظفرا بعكاشة وثابت وقتلاهما ورجعا، فأقبل خالد بالناس فرأوا عكاشة وثابتاً قتيلين فجزع المسلمون لذلك.

ثم سار خالد حتى التقى مع طليحة الأسدي في مكان يقال له بزاخة، ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب ينظرون على من انضاف إليهم، وكذلك حضر معه عيينة بن حصن في سبعمائة من قومه بني فزارة، واصطف الناس، وجلس طليحة ملتفاً في كساء له يتنبأ لهم، فينظر ما يوحى إليه في زعمه، وجعل عيينة يقاتل ما يقاتل حتى إذا ضجر من القتال جاء إلى طليحة وهو ملتف في كسائه فسأله: أجاءك جبريل؟ فقال: لا، فيرجع عيينة ليقاتل،

---

(١) الغارب: ما بين العنق والسنام، وهو الذي يلقى عليه خطام البعير، انظر: المصباح المنير ج١ ص٩٧.

ثم يرجع إليه فيقول له مثل ذلك ويرد عليه طليحة مثل رده السابق.

فلما كان في الثالثة قال له عيينة: هل جاءك جبريل؟ قال: نعم، قال: فما قال لك؟ قال: قال لي: إن لك رحاً كرحاه، وحديثاً لا تنساه، فقال عيينة: قد علم الله أنه حديث لا تنساه، ثم قال: يا بني فزارة انصرفوا، وانهزم الناس عن طليحة.

فلما جاء المسلمون ركب على فرس كان قد أعدَّها لنفسه، وأركب معه امرأته النوار على بعير له ثم انهزم بها إلى الشام وتفرّق جمعه، وقد قتل الله طائفة ممن معه.

فلما حلّ ما حل بطليحة وفزارة قالت بنو عامر وسليم وهوازن: ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن بالله ورسوله، وكان طليحة الأسدي قد ارتدّ في حياة النبي ﷺ، ولما مات رسول الله ﷺ قام بمؤازرته عيينة بن حصن من بدر، وارتد هو الآخر عن الإسلام وقال لقومه: والله لنبيّ من بني أسد أحب إلي من نبي من بني هاشم، وقد مات محمد، وهذا طليحة فاتبعوه فوافق بنو فزارة ـ وهم قومه ـ على ذلك.

ثم أسر خالد عيينة بن حصن وبعث به إلى المدينة وقد جمعت يداه إلى عنقه، فدخل المدينة على هذه الحال من التكبيل والصَغار، فجعل الولدان والغلمان يطعنونه بأيديهم ويقولون: أي عدو الله، ارتددت عن الإسلام؟ فيقول: والله ما كنت آمنت قط، فلما وقف بين يدي الصديق استتابه وحقن دمه ثم حسن إسلامه بعد ذلك.

أما طليحة فقد رجع إلى الإسلام، وذهب إلى مكة معتمراً أيام الصدِّيق، ثم شهد القتال مع خالد بن الوليد الذي كتب إليه أبو بكر: أن استشره في الحرب ولا تجعله أميراً، ليعامل بنقيض ما كان يحبه من الرياسة.

وقال خالد بن الوليد لبعض أصحاب طليحة ممن أسلم، وحسن إسلامه: أخبرنا عما كان يقول لكم طليحة من الوحي، فقال: إنه كان

يقول: الحمام واليمام[1] والصُرعد الصوَّام، قد صمن قبلكم بأعوام، ليبلُغنْ ملكُنا العراق والشام، إلى غير ذلك من الخرافات والهذيان السخيف.

ثم كتب أبو بكر إلى خالد حين جاءه أنه هزم طليحة ومن معه: ليزدك ما أنعم الله به خيراً واتق الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، جدّ في أمرك ولا تَلِنْ ولا تظفر بأحد من المشركين قتل من المسلمين إلا نَكَّلْتَ به.

فأقام خالد ببزاخة شهراً وجعل يتردد ويجدُّ في طلب هؤلاء، ليأخذ بثأر الذين قُتِلوا من المسلمين الذين كانوا بين أظهرهم حين ارتدوا، فمنهم من رضخه بالحجارة، ومنهم من رمى به من شواهق الجبال، وذلك كما يعتبر بهم من يسمع بخبرهم من مرتدة العرب.

هزيمة أخرى للمرتدين:

كان قد اجتمع يوم بزاخة كثير من أصحاب طليحة من بني غطفان، فاجتمعوا إلى امرأة يقال لها أم زمل، وكانت من سيدات العرب كأمها أم قرفة التي كانت يضرب بها المثل لكثرة أولادها وعزة قبيلتها وبيتها، ولما اجتمعوا إلى أم زمل حرضتهم على قتال خالد بن الوليد فاهتاجوا لذلك وانضم إليهم آخرون من المرتدين من بني سليم وطيء وهوازن وأسد، فصاروا جيشاً كثيفاً فاستطار أمر هذه المرأة.

ولما سمع خالد بأمرهم سار إليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت أم زمل راكبة على جمل لأمها ذات الشأن.

فما لبث أن هزمهم خالد بعون الله، وعقر جملها وقتلها، وأرسل بالخبر إلى الصديق أبي بكر.

---

(١) اليمام: الحمام الوحشي، واحدته: يمامة، واليمامة: اسم جارية زرقاء كانت تبصر الراكب من مسيرة ثلاثة أيام، انظر: مختار الصحاح ص٧٤٤.

قصة سجاح:

اختلفت بنو تميم فيما بينهم أيام الردة، فمنهم من ارتد ومنع الزكاة، ومنهم من أرسل الصدقات إلى أبي بكر رضي الله عنه، ومنهم من توقف لينظر في أمره.

وبينما هم على هذه الحال أقبلت سجاح بنت الحارث التغلبية من الجزيرة، وهي من نصارى العرب، وقد ادعت النبوة ومعها جنود من قومها ومن انضم إليهم، وقد عزموا أن يغزوا أبا بكر والمسلمين، وعقب مرورها ببلاد بني تميم دعتهم سجاح إلى أمرها إذ زعمت كاذبة أنها نبية، فاستجاب لها عامة الناس من بني تميم.

وكان ممن استجاب لها مالك بن نويرة التميمي، وعطارد بن حاجب، وآخرون من أمراء بني تميم، وتخلف عنها آخرون، ثم تصالح الجميع على أن لا حرب بينهم، غير أن مالك بن نويرة لما وادعها قد حرَّضها على قتال بني يربوع فاتفقوا على ذلك، فقالوا لها: بمن نبدأ؟ قالت لهم بأسلوبها الساجع السقمي: أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب[1] فليس دونهم حجاب.

وقال عطارد بن حاجب في امتداح سجاح:

أمسَتْ نبيتنا أنثى نطيف بها ... وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

وبعد ذلك قصدت سجاح اليمامة بجنودها لتأخذها من مسيلمة الكذاب، لكن قومها هابوه لما رأوه قد استفحل أمره واستطار، فقالت لهم: عليكم باليمامة، دُفّوا دفيف[2] الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم بعدها ملامة.

ثم ساروا لقتال مسيلمة، فلما سمع مسيلمة بمسيرها إليه خافها على

---

(١) الرباب: السحاب الأبيض، مفرده: ربابة، انظر: المعجم الوسيط ج١ ص٣٢١.

(٢) دفيف: دفت: سارت سيراً ليناً، انظر: مختار الصحاح ج١ ص٢١٠.

بلاده، فبعث إليها يستأمنها ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض، الذي كان لقريش لو عدلت عن حربه.

وراسلها مسيلمة طالباً الاجتماع بها في طائفة من قومه، فاجتمعا معاً في خيمة يكيدان للمسلمين ويأتمران بهم لقتالهم، فلما خلا بها مسيلمة وعرض عليها نصف الأرض، وقبلت هي ذلك، قال مسيلمة من هرائه المبتذل بأسلوبه الساجع السقيم وما حواه من معان تافهة مستهجنة: سمع الله لمن سمع، وأطعمه بالخير إذا طمع، ولا يزال أمره في كل ما يسرُّ مجتمع، رآكم ربكم فحياكم، ومن وحشته أخلاكم، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم، إلى غير ذلك من الكلام المصطنع الثقيل، والهذيان الفاضح الممجوج مما يتحذلق به هذا الكذاب الكفور.

وكان ما شرعه هذا الشقي الدجال لأتباعه أن الأعزب يتزوج، فإذا ولد له ذكر فإنه يحرم عليه النساء حينئذٍ إلا أن يموت ذلك الولد الذكر، فتحل له النساء حتى يولد له ذكر، كان ذلك من افتراءات مسيلمة وإفرازاته التي تثير التهكم والاستسخار.

وأفحش من ذلك وأشد نكراً ما كان يندلق من لسان هذا الشيطان المغرور، والعُتُلّ المتمرد، من بذيء القول وفاحش الكلام، ما يخجل المرء من ذكره وتسجيله هنا لولا حرارة القصد من ذلك، وهو أن يقف الناس على هذه الأثمال من نماذج الضلال والعتو والعار من شرار البشرية كمسيلمة وسجاح، فقد قيل: إنه لما خلا مسيلمة بسجاح سألها: ماذا يوحى إليها؟ فقالت: وهل يكون النساء يبتدئن؟ بل أنت ماذا أوحي إليك؟ فقال: ألم ترَ إلى ربك كيف فعل بالحبلى؟ أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا، فقالت سجاح: وماذا؟ فقال: إن الله خلق للنساء أفراجاً، وجعل الرجال لهن أزواجاً، فَنولج فيهن قعساً[1] إيلاجاً، ثم نخرجها إذا نشاء إخراجاً، فينتجن لنا سخالاً إنتاجاً، فقالت: أشهد أنك نبي. وهذه شهادة

---

(١) القعس: التراب المتن، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٧٤٩.

بالباطل تشهد بها هذه المغرورة الرعناء لهذا اللعين المقبوح.

ثم قال لها مسيلمة: هل لك أن أتزوجك وآكل بقومي وقومك العرب؟ فقالت: نعم، فقال يبتذل ويهذي ويتوقح (من الوقاحة):

ألا قومي إلى النيك ... فقد هيء لك المضجع
فإن شئت ففي البيت ... وإن شئت ففي المخدع
وإن شئت سلقناك[1] ... وإن شئت على أربع
وإن شئت بثلثيه ... وإن شئت به أجمع!!

أي وقاحة يتلمظ بها هذا الكذاب المهين، وهو يلعق من عبارات العار والبذاءة والقذر ما يثير التقزز والتقيؤ، فأجابته سجاح في خسة وهبوط وابتذال: بل به أجمع، فقال مسيلمة هاذياً كاذباً: بذلك أوحي إلي!! فأقامت عنده ثلاثة أيام ثم رجعت إلى قومها، فسألوها عن صداقه لها، ولما أخبرتهم أنه لم يجعل لها صداقاً قالوا لها موبخين: قبيح على مثلك أن يتزوج بغير صداق، فأخبرت مسيلمة بذلك، فأرسل إليها من ينادي في قومها: إن مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد ـ يريد بذلك صلاة الفجر وصلاة العشاء ـ فكان هذا صداق سجاح من مسيلمة عليهما لعائن الله!

ولما بلغ سجاح دنو خالد بن الوليد من أرض اليمامة، كرّت راجعة إلى الجزيرة بعدما قبضت من مسيلمة نصف خراج أرضه، فأقامت في قومها بني تغلب إلى زمان معاوية بن أبي سفيان[2].

قصة مالك بن نويرة:

وهذا مالك بن نويرة اليربوعي التميمي كان قد صانع سجاح

---

(١) سلقها: صرعها على القفا، وسلق الجارية بسطها فجامعها، انظر: القاموس المحيط ج٣ ص٢٥٤.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٦ ص٣١٦ ـ ٣٢١، وفتوح البلدان للبلاذري ص١٢٠ ـ ١٢٢.

المشعوذة، حين جاءت من أرض الجزيرة، لكنه ندم لذلك عقب اتصال سجاح بمسيلمة وقد نزل بمكان يقال له: البطاح، فقصدها خالد بجنوده وقد تأخرت عنه الأنصار وقالوا: إنا قد قضينا ما أمرنا به الصدِّيق. فقال لهم خالد: إن هذا الأمر لا بد من فعله، وهو فرصة لا بد من انتهازها، ولست أجبركم على المسير وأنا قاصد البطاح، فسار خالد يومين فلحق به الأنصار بعد أن طلبوا منه الانتظار.

ولما وصل خالد وجنوده البطاح وعليها مالك بن نويرة، بعث سراياه في البطاح يدعون الناس إلى أن يثوبوا إلى الإسلام، فاستقبله أمراء بني تميم بالسمع والطاعة وأداء الزكاة، إلا مالك بن نويرة فقد كان متردداً متحيراً في أمره وقد تنحى عن الناس حتى جاءته سرايا المسلمين فأسروه وأسروا أصحابه معه، واختلفت فيهم ظنون المسلمين، فقد شهد أبو قتادة الأنصاري أنهم أقاموا الصلاة، وقال آخرون: إنهم لم يؤذِّنوا ولم يصلُّوا، وقيل: إن الأسارى باتوا في الأغلال مكبّلين في ليلة شديدة البرد، فنادى منادي خالد: أن أدفئوا أسراكم، فظن القوم أنه أراد قتلهم، لأن الإدفاء في لغة البطاح تعني القتل فقتلوهم، وقتل ضرار بن الأزور مالك بن نويرة.

وقيل: إن خالداً قد استدعى مالك بن نويرة فأنّبه على ما صدر منه من متابعة سجاح وعلى منعه الزكاة، وقال: ألم تعلم أن الزكاة قرينة الصلاة؟ فقال ابن نويرة: إن صاحبكم (يريد النبي ﷺ إن صحَّ القول عنه) كان يزعم ذلك، فقال خالد مستنكراً: أهو صاحبنا وليس صاحبك؟! يا ضرار اضرب عنقه فضرب عنقه، وعقب قتله تزوج خالد امرأته.

ومثل هذه القصة المعقولة قد هاجت في أثرها أقلام المؤرخين من استعماريين ومستشرقين ومأجورين، ليثيروا من حول الإسلام في تاريخه الحافل المجيد الشبهات والأكاذيب المصطنعة إرجافاً للناس، فينفرون عن هذا الدين، وتشويهاً لأذهان المسلمين لكي يزهدوا في دينهم فيدبروا إدبار التائهين، ولا مدعاة لمثل هذه الضجة المفتعلة التي حبكتها أقلام الدجاجلة من جهابذة العدوان والكيد للإسلام، في الوقت الذي تتيه فيه مجتمعات

الضلال من الاستعماريين والصليبيين وغيرهم من الظالمين، في متاهات الظلام والشر والرذيلة والعدوان على البشرية بكل أساليب التدمير والإذلال والإبادة!

وعقب ذلك قال عمر لأبي بكر الصديق: اعزله فإن في سيفه رهقاً[(١)]، فقال أبو بكر: لا أشيم[(٢)] سيفاً سلّه الله على الكفار، فلم يزل عمر بن الخطاب يحرض الصديق على عزل خالد عن قيادة جيش المسلمين ويقول له: إن في سيفه رهقاً، فبعث الصديق إلى خالد ليقدم عليه المدينة، فقدم وقد لبس درعه التي من حديد وقد صدىء من كثرة الدماء، فانتهره عمر انتهاراً وقال له: أرياء قتلت امرأ مسلماً ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بالجنادل[(٣)]، وخالد لا يكلمه حتى دخل على أبي بكر فاعتذر إليه، فعذره وتجاوز عما كان منه في ذلك، ثم ودى[(٤)] مالك بن نويرة، فخرج من عنده وعمر جالس في المسجد، وعرف عمر أن الصديق قد رضي عنه، فظل خالد أميراً على الجند إبان خلافة أبي بكر بالرغم مما كان منه من اجتهاد في قتل مالك بن نويرة وما كان منه في ذلك من خطأ.

وقد كان رسول الله ﷺ بعثه إلى جذيمة فقتل الأسارى الذين قالوا: صبأنا صبأنا، ولم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فوداهم الرسول عليه السلام وقال: **«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»**، ومع ذلك فإن النبي عليه السلام لم يعزل خالداً[(٥)].

ويمثل هذه الخليقة من النباهة والصبر وسعة الصدر يتصرف الأبرار الأكارم، والحلماء الحكماء الأعاظم، إذ يتجاوزون عن الزلات والمساءات،

---

(١) الرهق: الطغيان والظلم، انظر: مختار الصحاح ص٢٦٠.

(٢) شام السيف: غمده واستله، انظر: القاموس المحيط ج٤ ص١٣٩.

(٣) الجنادل: جمع جندل: وهو ما يقله الرجل من الحجارة، القاموس المحيط ج٣ ص٣٦٣.

(٤) ودى: أدى ديته لأهله.

(٥) البداية والنهاية لابن كثير ج٦ ص٣٢١ ـ ٣٢٣.

ويعفون عن ذوي الأخطاء إذا اجتهدوا، فكيف بأولي الزلات والغلطات إن كانوا في ذروة الدرجات من البطولات وعظميات الصنائع؟! أولئك الذين قادوا عساكر الإسلام من نصر إلى نصر، فدكوا حصون المشركين الظالمين، وبددوا عساكر الظلم والباطل والشر أيما تبديد، أولئك هم أماجد البشرية وأشاوسها المغاوير من أمثال خالد بن الوليد وغيره من أبطال المسلمين وشجعانهم الفاتحين المظفرين.

مسيلمة الكذاب:

بعث أبو بكر الصديق خالداً على رأس الجيش الإسلامي لقتال بني حنيفة باليمامة فسار رضي الله عنه، لا يمر بأحد من المرتدين إلا نكَّل به، ثم أردف الصديق خالداً بسرية لتكون ردءاً له من ورائه، وكان الصديق قد بعث من قبل ذلك عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة لقتال مسيلمة، فلم يقدروا على التصدي لبني حنيفة لكثرتهم، إذ كانوا في نحو أربعين ألفاً من المقاتلة، فعاجلهم عكرمة بالمناجزة قبل مجيء صاحبه شرحبيل لكنه لم يقدر فتنكَّب، وانتظر قدوم خالد، فلما سمع مسيلمة بقدومه عسكر بمكان يقال له: عقربا في طرف اليمامة وراء ظهورهم، ثم ندب الناس وحضهم على قتال المسلمين، فحشد له أهل اليمامة وجعل على مجنبتي جيشه: المحكم بن الطفيل، والرجَّال بن نهشل وكان هذا الشقي الخاسر قد أضلّ أهل اليمامة حتى اتبعوا مسيلمة الكذاب، وكان هذا الرجَّال قد أسلم في زمن النبي ﷺ، وفي زمن الردة جاء إلى أبي بكر فبعثه إلى أهل اليمامة ليدعوهم إلى دين الله وليثبتوا على الإسلام، لكنه ارتد مع مسيلمة وشهد له بالنبوة.

ثم دنا خالد بن الوليد وقد جعل على مقدمة الجيش شرحبيل بن حسنة، وجعل على المجنبتين زيداً وأبا حذيفة، وقد مرَّت المقدمة في الليل بنحو من أربعين فارساً، وقيل: ستين فارساً عليهم مجاعة بن مرارة.

ولما تواجه الجيشان (المسلمون والمرتدون) قال مسيلمة لقومه: اليوم يوم الغيرة، اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات، وينكحن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم.

ثم تقدّم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرق على اليمامة فضرب به عسكره، وكانت راية المهاجرين يومئذٍ مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار إذ ذاك مع ثابت بن قيس بن شماس.

ثم اصطدم المسلمون والمشركون فحمي بينهم الوطيس، فقتل الرجّال في الجولة الأولى إذ قتله زيد بن الخطاب، وتنادى المسلمون ليشدُّوا عليهم، وتصايحوا ما بينهم يحرضون أنفسهم على المواجهة والقتال، وحَمِي يومئذٍ البراء بن معرور، وكان إذا رأى الحرب استشاط وتهيج فيجلس على ظهر الرحال حتى يبول في سراويله ثم يثور كما الأسد، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً ما عُهِد منهم مثله، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم قائلين: يا أصحاب سورة البقرة، لقد بطل السحر اليوم، أما ثابت بن قيس فقد حفر في الأرض لقدميه إلى أنصاف ساقيه، وهو يحمل لواء الأنصار بعد أن تحنط وتكفن، فلم يزل ثابتاً حتى قتل هنالك عليه الرحمة والرضوان.

وهتف زيد في المسلمين قائلاً: أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا في عدوكم وامضوا قدماً، وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتي، فقتل شهيداً رضي الله عنه.

وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم، وسار للشقي جبّال ليقتله، وأخذ يترقب أن يصل إليه، حتى إذا أمكنه الله منه قتله، ثم رجع خالد ووقع بين الصفين ودعا للمبارزة وهو يقول: أنا ابن الوليد، أنا ابن عامر وزيد، ثم نادى بشعار المسلمين يومئذٍ: يا محمداه، فكان لا يبرز لخالد من المشركين المرتدين أحد إلا قتله، ولا يدنو منه شيء إلا أكله، ثم دنا خالد من مسيلمة فعرض عليه النصف والرجوع إلى الحق، فكاد مسيلمة يلين لولا أن الشيطان كان يغويه ويثير فيه سَوْرة الغرور وشهوة التسلط والاستكبار، فانصرف عنه خالد وقاتل المسلمون قتالاً شديداً عزّ نظيره، فما زالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم، وولى المشركون الأدبار مقهورين خزايا، واتبعهم المسلمون يقتلونهم في أقفائهم، ويضعون في رقابهم السيوف حتى ألجأوهم إلى حديقة الموت التي أشار عليهم محكم بن

الطفيل بدخولها، فدخلوها وكان فيها عدو الله مسيلمة اللعين، وقد أدرك عبدالرحمٰن بن أبي بكر محكم بن الطفيل فرماه بسهم في عنقه فقتله، وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم، وأحاط بهم الصحابة، ونادى البراء بن مالك في المسلمين: يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة، فاحتملوه فوق الجحف، ثم رفعوها بالرماح فألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها، وجعلوا يقتلون من فيها من المرتدين من أهل اليمامة، حتى خلصوا إلى مسيلمة الكذاب، فإذا هو واقف في ثلمة جدار كأنه جمل أوْرق ويوشك أن لا يعقل من فرط الغيظ، وكان مسيلمة إذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه، فتقدم إليه وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم ـ وهو قاتل حمزة ـ فرماه بحربته فأصابه إصابة قاتلة ثم سارع إليه أبو دجانة، سماك بن خرشة فضربه بالسيف فسقط خائراً خاسراً.

وبذلك كتب الله النصر للمسلمين، والهزيمة والقهر للمرتدين لتعلو بذلك راية الإسلام خفاقة بقيادة المغوار الهصور سيف الله المسلول خالد بن الوليد، في ظل الإمارة المباركة المظفرة إمارة الصديق الأكرم الملهم رضي الله عنه.

أما أعداد الذين قتلوا من المرتدين في معركة الحديقة فكانوا قريباً من عشرة آلاف مقاتل، وقيل: واحد وعشرون ألفاً.

وقد قتل من المسلمين ستمائة. وقيل: خمسمائة.

وبعد هزيمة المرتدين وعقب خسرانهم الفادح، دعاهم خالد إلى الإسلام، فأسلموا عن آخرهم ورجعوا إلى الحق، ورد عليهم خالد بعض الذين أخذهم من الأسارى، وساق الباقين إلى أبي بكر.

على أن وقعة اليمامة هذه كانت في سنة إحدى عشرة، وقيل: كانت في سنة ثنتي عشرة.

ولما قدمت وفود بني حنيفة على الصديق قال لهم: أسمعونا شيئاً من قرآن مسيلمة، فقالوا: أوَ تعفينا يا خليفة رسول الله؟ فقال: لا بد من ذلك،

فقالوا: كان يقول: يا ضفدع بنت الضفدعين نقي لكم (للتكثير) نقّين، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين، رأسك في الماء، وذنبك في الطين.

وكان مما قاله مسيلمة: والمبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، رفيقكم فامنعوه، والمعترّ فآووه.

ومما قاله أيضاً: الفيل وما أدراك ما الفيل، له زلوم[1] طويل.

وقال أيضاً: والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسد من رطب ولا يابس.

إلى غير ذلك من سقيم المعاني وتافه الألفاظ والمباني، مما ينم عن شخصية غاشمة مضطربة، يتقاطر منها الحقد والغرور.

ومن طريف ما روي عن عمرو بن العاص أنه وفد في جاهليته إلى مسيلمة، فقال له مسيلمة: ماذا أُنزل على صاحبكم في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة، فقال: وما هي؟ قال: أُنزل عليه ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: الآيات ١-٣]، ففكر مسيلمة ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أُنزل علي مثلُها، فقال له عمرو: وما هي؟ فقال مسيلمة: يا وبر يا وبر، إنما أنت إيراد وصدر، وسائرك حفر نقر، ثم قال مسيلمة: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب!

ردة أهل البحرين:

كان النبي ﷺ قد بعث العلاء بن الحضرمي إلى ملك البحرين المنذر بن ساوى العبدي، فأسلم على يديه وأقام في قومه الإسلام والعدل، ولما توفي رسول الله ﷺ توفي المنذر بعده بقليل، وكان قد حضر عنده في

---

(١) زلوم الفيل: أنفه، انظر: القاموس المحيط ج٣ ص١٢٧.

مرضه عمرو بن العاص فقال له: يا عمرو، هل كان رسول الله ﷺ يجعل للمريض شيئاً من ماله؟ قال: نعم، الثلث، فتصدّق به، ولما مات، ارتد أهل البحرين.

وملكوا عليهم المغرور وهو المنذر بن النعمان بن المنذر، وقال قائلهم في لؤم وجحود: لو كان محمد نبياً ما مات، ولم يبق في أهل البحرين على الإسلام سوى قرية يقال لها: جواثا، لكن المرتدين حاصروا أهل هذه القرية وضيقوا عليهم، حتى منعوا من الأقوات فجاعوا جوعاً شديداً حتى كشف الله عنهم البلاء.

وقد قام فيهم خطيباً واحد من أشرافهم وهو الجارود بن المعلّى فقال: يا معشر عبدالقيس، إني سائلكم عن أمر فأخبروني إن علمتموه، ولا تجيبوني إن لم تعلموه، فقالوا: سل، قال: أتعلمون أنه كان للّه أنبياء قبل محمد؟ فقالوا: نعم، قال: تعلمونهم أم ترونهم؟ قالوا: نعلمهم، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمداً ﷺ مات كما ماتوا، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: ونحن أيضاً نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنت أفضلنا وسيدنا، وثبتوا على إسلامهم(١).

وقد كان العلاء بن الحضرمي من سادات الصحابة العلماء العابدين، فقد اتفق له في غزو المرتدين من أهل البحرين أنه نزل منزلاً، فما استقر الناس معه على الأرض حتى نفرت الإبل بما عليها من زاد الجيش وخيامهم وشرابهم، فلم يبق عليهم شيء سوى ثيابهم، فركب الناس من الهم والغم ما لا يوصف، فنادى منادي العلاء فاجتمع الناس إليه فقال: أيها الناس ألستم المسلمين؟ ألستم في سبيل الله؟ ألستم أنصار الله؟ قالوا: بلى، قال: فأبشروا فوالله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم، ثم نودي لصلاة الصبح عقب الفجر حتى إذا صلى بالناس جثا وجثا الناس معه على ركبهم، فرفعوا

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٦ ص٣٢٢ ـ ٣٢٩.

أيديهم يدعون الله متضرعين متوسلين حتى طلوع الشمس.

فما لبثوا أن رأوا بجانبهم غديراً عظيماً من الماء العذب القراح[1] فمشوا إليه وشربوا منه واغتسلوا، ثم أقبلت الإبل ولم يفقد المسلمون من ذلك شيئاً، وقد عاين الناس ذلك كله إذ رأوه رأي العين، وهذا آية من آيات الله تكشف عن عظيم فضله وتكريمه لعباده المؤمنين الصابرين، الذين يمدهم الله بعون من عنده كلما ألمّت بهم الشدائد وانقطعت بهم الأسباب، ثم اقترب المسلمون من جيوش المرتدين الذين حشدوا وجمعوا خلقاً عظيماً، فباتوا جميعاً متجاورين في المنازل، وفي الليل سمع العلاء بن الحضرمي أصواتاً صاخبة في جيش المرتدين، فقال لجنده: من رجل يكشف لنا خبر هؤلاء؟ فقام عبدالله بن حذف فدخل فيهم فوجدهم سكارى لا يعقلون من الشراب، فرجع إلى العلاء فأخبره أنهم مخمورون سكارى، فركب العلاء ومعه جيشه من المسلمين فباغتوا هؤلاء المخمورين فقتلوهم ولم ينج منهم إلا القليل الذين ولوا هاربين، واستولى المسلمون على جميع أموالهم لتكون لهم غنيمة، ومثل هذه الأموال ما ينبغي أن تكون في أيدي هؤلاء المفسدين العابثين المستغرقين في الرذيلة والفسق، وما تزيدهم هذه الأموال إلا إمعاناً في الأذى والشر وإشاعة الفساد، وذلك هو منطق الإسلام في انتزاع الأموال من أيدي الأشرار من البشر الذين يتيهون في الأرض غروراً وطغياناً والذين لا تأخذهم في البشرية رحمة أو إحسان، إلا الإيذاء والإفساد والتبديد وانتهاك الحرمات وإذلال الشعوب والتنكيل بهم[2].

ردة أهل عُمان واليمن:

ظهر في عُمان رجل يقال له: ذو التاج، وكان لقبه في الجاهلية: الجلندي، فقد ادعى هذا النبوة وتابعه الجهلة والرعاع من الناس في عُمان، وتغلب على أميريها من قبل أبي بكر الصديق فألجأهما إلى طرف

---

(١) القراح: الماء الذي لا يشوبه شيء، انظر: مختار الصحاح ص٥٢٨.

(٢) البداية والنهاية ج٦ ص٣٢٣ ـ ٣٢٩، وفتوح البلدان للبلاذري ص١٣١ ـ ١٤٧.

عُمان وهما جيفرا وعبّاد، فبعث جيفرا إلى أبي بكر يطلب منه المدد، فبعث إليه أبو بكر بأميرين وهما حذيفة بن محصن الحميري وعرفجة البارقي الأزدي، وأمرهما أبو بكر أن يجتمعا ويتفقا ويبتدئا بعمان، وأن حذيفة هو الأمير.

ثم أمرهم أبو بكر بالتوجه نحو مهرة عقب فراغهم من عمان، حتى إذا فرغوا من مهرة ذهبوا إلى اليمن وحضرموت.

وتلاقى المسلمون والمرتدون في مكان يقال له: صحار، فتقابل الجيشان هنالك وتقاتلوا قتالاً شديداً، واضطرب المسلمون وكادوا يولون لولا أن بعث إليهم مدداً في أحلك الظروف وفي الساعة الراهنة من بني ناجية وعبدالقيس، فكان الفتح للمسلمين وولى المشركون مدبرين مقهورين، فلحق بهم المسلمون وقتلوا منهم عشرة آلاف مقاتل وغنموا أموالهم الكثيرة وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر الصديق.

خلاصة

يمكن إيجاز الحديث عن أخبار الردة والمرتدين بالقول: أن ما من ناحية من جزيرة العرب إلا حصل في أهلها ردة، فما علمت العرب أن النبي ﷺ قد مات حتى عمّتهم الفتنة وغشيهم من الضلال والفوضى ما غشيهم، فانفتل أكثر الناس عن الصواب ورغبوا عن أداء الزكاة ضناً منهم وشحاً، وقد ركب رأس التضليل والإغواء نفر من شرار الناس ومجرميهم، ادعوا النبوة زوراً وبهتاناً، وزعموا أنهم يوحى إليهم، وكان أشدهم في ذلك عتواً ونكراً مسيلمة الكذاب وغيره من شياطين الإنس، الذين فتنوا الناس وصدوهم عن دينهم بما زينوه لهم من معسول الكلام الخادع.

ومن حقائق المجتمعات أن يكثر فيهم العوام والرعاع والجهلة، وأولئك يستحوذ عليهم البارعون في التضليل والفتنة والإغواء، فيطغون على عقولهم ونفوسهم بمقالات السوء ولهو الحديث الكاذب المضل، وفي مثل هذه الحال من التضليل والعماية والمخادعة، يتيه الجاهلون والساذجون،

والذين في نفوسهم مرض ليمضوا بعد ذلك سادرين في الباطل رغبة في مطمع من المطامع.

ولقد منَّ الله على البشرية إذ قيّض هذا المؤمن العظيم الفذ الصدّيق، الذي بادر في حزم شديد وهمة بالغة لا تعرف الخور أو اللين في الحق، فقاتل جمع المرتدين وتتبع فلولهم في كل مكان، فهزمهم شر الهزائم ونكّل بهم أيما تنكيل، وقتل فيهم أمراء السوء والكفر الذين أضلوا الناس كالعنسي وسجاح ومسيلمة.

وبذلك كتب الله لدينه أن يظفر ويعلو ليستتب شأن الإسلام والمسلمين، ويذل الكفر والكافرون من المشركين والمرتدين.

ولم يزل الأمر كذلك حتى استتب الأمر للإسلام في جزيرة العرب ولم يبق إلا أهل طاعة لله ولرسوله، وأهل ذمة يؤدون الجزية ليبقوا بعد ذلك آمنين سالمين، كأهل نجران وأمثالهم من أهل الكتاب الموادعين، وقد كان ذلك كله أواخر سنة إحدى عشرة وأوائل سنة ثنتي عشرة للهجرة، وقد توفي خلال ذلك كثير من مشاهير الناس وأعيانهم[(١)].

وفي هذه السنة ماتت فاطمة بنت النبي ﷺ، لثلاثة خلت من شهر رمضان وهي ابنة تسع وعشرين سنة، وقيل: توفيت بعد وفاة النبي ﷺ بثلاثة أشهر. وقيل: بستة أشهر. وغسلها علي، وصلى عليها العباس بن عبد المطلب، ودخل قبرها العباس وعلي والفضل بن العباس.

تلك هي المرأة الزهراء المثلى، ذات الصون والوقار، والفضلى، أقرب المقربين إلى أبيها ﷺ. هذه السيدة المبجلة التي عزّ نظيرها في الدنيا، ما كان قلبها الزكي الحاني لينشدّ أيما انشداد كانشداده إلى أبيها النبي الأكرم ﷺ. لقد كان قلب فاطمة معلقاً بالغ التعلق بأبيها النوراني المفضل ﷺ، فكانت تخشى عليه العوادي أو الملمات، فتُحبر لسروره وتكتئب مما يحيق به من مساءة. ويكشف عن هذه الحقيقة حادث مرضه ﷺ.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٦ ص٣٣١، ٣٣٢.

فقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: اجتمع نساء رسول الله ﷺ عند رسول الله لم تغادر منهن امرأة. فجاءت فاطمة تمشي ما تخطىء مشيتها مشية رسول الله ﷺ، فقال: «**مرحباً بابنتي**» فأجلسها عن يمينه أو شماله، فسارَّها بشيء فبكت، ثم سارَّها فضحكت. فقلت: خصك رسول الله ﷺ بالسرار وتبكين؟ فلما أن قام قلت لها: أخبريني بما سارَّك. قالت: ما كنت لأفشي سره. فلما توفي قلت لها: أسألك بما لي عليك من الحق لما أخبرتيني. قالت: أما الآن فنعم، سارَّني فقال: «**إن جبريل كان يعارضني بالقرآن في كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي، فاتقي الله واصبري فنعم السلف أنا لك**» فبكيت، ثم سارَّني فقال: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ـ أو سيدة نساء هذه الأمة**» فضحكت.

وفي رواية عائشة كذلك وفيه «أنها ضحكت لأنه أخبرها أنها أول أهله يتبعه».

وعن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: الآية ١] دعا رسول الله ﷺ فاطمة فقال: «**إنه قد نُعِيَتْ إليَّ نفسي**» فبكت ثم ضحكت، قالت: أخبرني أنه نُعِي إليه نفسُه فبكيت، فقال لي: «**اصبري فإنك أول أهلي لاحقاً بي**» فضحكت[1].

توفي في هذه السنة، أبو دجانة سماك بن خرشة الخزرجي الأنصاري، فقد شهد بدراً، وأبلى يوم أحد بلاءً حسناً وقاتل بشدة، وقد أعطاه النبي ﷺ يومئذٍ سيفاً فأعطاه حقه، وكان يتبختر عند الحرب، فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذه لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن**»، وكان أبو دجانة يعصب رأسه بعصابة حمراء، شعاراً له بالشجاعة، وشهد اليمامة وقاتل قتالاً شديداً حتى قتل يومئذٍ، وقد قَتل مسيلمة مع وحشي بن حرب، إذ رماه وحشي بالحربة ثم علاه أبو دجانة بالسيف.

---

(١) السيرة النبوية للذهبي ص٣٧٩، ٣٨٠.

ومـمن قتل كذلك، عباد بن بشر الأنصاري، وقد أسلم على يدي مصعب بن عمير قبل الهجرة، وشهد بدراً وما بعدها، وكان ممن قَتل كعب بن الأشرف، وقد قُتل شهيداً يوم اليمامة، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: تهجد رسول الله ﷺ فسمع صوت عباد فقال: **«اللهم اغفر له»**.

ومنهم أيضاً عبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول، الخزرجي الأنصاري، وقد كان من سادات الصحابة وعظمائهم، وقد شهد بدراً وما بعدها، وقد كان أبوه رأس المنافقين، وكان عبدالله أشد الناس على أبيه ولو أذن له رسول الله ﷺ لقتله، وقد استشهد يوم اليمامة رضي الله عنه.

ومنهم عبدالله بن أبي بكر الصديق، فقد كان من أول من أسلم وهو الذي كان يأتي بالطعام والشراب والأخبار إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر وهما في غار ثور، فكان يبيت بمكة فلا يسمع بأمر يهمهما إلا أخبرهما به، وقد شهد الطائف فرماه أبو محجن الثقفي بسهم فجرح منها فاندمل جرحه، ثم ما لبث جرحه أن انتقض فمات في شوال سنة إحدى عشرة، وغير هؤلاء من الشهداء الأبرار كثيرون.

مقتل مسيلمة الكذاب:

قدم مسيلمة المدينة وافداً إلى رسول الله ﷺ مع قومه بني حنيفة، وقد وقف النبي ﷺ على حقيقة أمره وما يستكن في طويته من خبيث القصد، وسمعه النبي ﷺ وهو يقول: إن جعل لي محمداً الأمر من بعده اتبعته، فقال له رسول الله ﷺ: **«لو سألتني هذا العود ـ عرجون في يده ـ ما أعطيتكه، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أُريتُ فيه ما أُريت»** وكان النبي ﷺ قد رأى في المنام كأن في يده سوارين من ذهب فأهمه شأنهما، فأوحى الله إليه في المنام أن انفخهما فنفخهما فطارا، فكان تأويل النبي لهما بأنهما كذابان يخرجان وهما العنسي صاحب صنعاء، ومسيلمة صاحب اليمامة، وكان ذلك.

فقد باء الاثنان بالخزي والهوان بعد أن انقشعت أخبارهما وتبددت

آثارهما، أما العنسي فقد قتل في داره، وأما مسيلمة فقد عُقر بفضل الله على يدي وحشي قاتل حمزة إذ رماه بحربته ثم ضربه أبو دجانة على رأسه، فانفلق وكان ذلك في عقر داره، حيث الحديقة التي تسمى بحديقة الموت، وقد عاش مائة وأربعين سنة كما قيل، وكان وزيراه من قبله قد قتلا وهما محكم بن الطفيل إذ قتله عبدالرحمٰن بن أبي بكر، والثاني الرَّجال بن عنفوة وكان قد أسلم ثم ارتد وصدق مسيلمة وقد قتله زيد بن الخطاب.

ولما مات النبي ﷺ زعم مسيلمة أنه استقل بالأمر من بعد رسول الله ﷺ ثم استخف قومه فأطاعوه.

ثم ما لبث بعد طغيانه وفساده في الأرض أن سلط الله عليه سيفاً بتاراً من سيوفه المسلولة، فانقضّ عليه انقضاض الهُمام الهصور، فعجل الله في إزهاق روحه ليساق إلى شر مساق حيث النار والاستعار.

قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: الآية ٩٣].

المسير إلى العراق:

لما استتب الأمر للإسلام في جزيرة العرب عقب هزيمة المرتدين وانقشاع ظلهم البغيض الأسود، وبعد أن فرغ خالد بن الوليد من إذلال الضلال والتمرد في اليمامة، بعثه الصديق لفتح العراق فيأتيها من أعاليها، وأن يتألف الناس ويدعوهم إلى دين الله فإن أجابوا وإلا أخذ منهم الجزية، فإن أبوا ذلك قاتلهم.

فمضى خالد من وجهة اليمامة إلى العراق سنة اثنتي عشرة للهجرة، فمر في طريقه بالبصرة ثم الكوفة وكان عليها المثنى بن حارثة الشيباني، ثم نزل ببعض القرى من سواد العراق فصالح أهلها بعد أن قتل منهم كثيرين.

ثم نزل الحيرة فخرج إليه أشرافها مع قبيصة الطائي، وكان هذا أميراً عليها من قبل كسرى، فقال لهم خالد: أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم

فالجزية، فإن أبيتم فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم.

فقال له قبيصة: ما لنا بحربك من حاجة، بل نقيم على ديننا ونعطيكم الجزية، فقال لهم خالد: تباً لكم، إن الكفر فلاة مُضِلَّة[1] فأحمق العرب من سلكها.

فصالحهم خالد على مال يؤدونه جزية للمسلمين، فكانت هذه أول جزية أخذت من العراق وحملت إلى المدينة.

ثم بعث خالد بن الوليد كتاباً إلى أمراء كسرى بالمدائن ومرازبته ووزرائه وفيه: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فالحمد لله الذي فضَّ خدمكم وسلب ملككم ووهَّن كيدكم، وإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم الذي له ما لنا وعليه ما علينا، أما بعد: فإن جاءكم كتابي فابعثوا إلي بالرُّهُن واعتقدوا مني الذمة، وإلا فالذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قوماً يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة.

فلما قرأوا كتاب خالد عجبوا.

ثم سار خالد وقد فرَّق جيش المسلمين ثلاث فرق، ولم يحملهم على طريق واحدة، بل بعث المثنى قبله بيومين وجعل دليله ظَفَراً، وبعث عدي بن حاتم وعامر بن عمرو وجعل دليلهما مالك بن عباد وسالم بن نصر، ثم خرج خالد في آخرهم، ودليله رافع، فواعدهم جميعاً الحفير ليجتمعوا به للقاء عدوهم.

ثم كتب خالد إلى هرمز أشد أمراء العراق، يدعوه إلى الإسلام وإلا واجه البأس من المسلمين، فبعث هرمز بكتابه إلى شيري بن كسرى ملك فارس وأردشير بن شيري، ثم جمع هرمز ـ وهو نائب كسرى ـ جموعاً كثيرة وسار بهم لقتال المسلمين وقد فرَّقهم هرمز ليكونوا في السلاسل فلا

---

(١) فلاة مضلة: صحراء معتمة يتيه فيها الموغل ويضيع، وذلك هو شأن الكفر إذ هو إيغال في العماية والتيه والضلال.

يفروا، وكان هرمز من أشد الناس كفراً وأخبثهم قصداً وكان ذا شرف في الفرس.

أما خالد بن الوليد فقد تقدّم بجيشه وهم ثمانية عشر ألفاً فنزل بهم تجاه المشركين على غير ماء فشكى أصحابه ذلك، فقال لهم خالد: جالدوهم حتى تجلوهم عن الماء فإن الله جاعل الماء لأصبر الطائفتين.

ولما ثبت المسلمون ومضوا لأمر الله مجاهدين صابرين بعث الله إليهم سحابة أمطرتهم فكانت الغدران من الماء، ففرح المسلمون بهذا الفرج فرحاً شديداً وقوي فيهم العزم.

ثم تواجه الصفان وتقاتلوا، فنزل هذا المغرور الخبيث هرمز إذ ترجّل ودعا المسلمين للنزال، فترجل خالد وتقدم نحو هرمز فاختلفا ضربتين، ثم احتضنه خالد وما لبث أن قتله، فهزم الله أهل فارس واستحوذ عليهم المسلمون أيما استحواذ وظفروا بهم وبأموالهم كل ظفر، وسميت هذه المعركة ذات السلاسل لكثرة من سلسل بها من فرسان فارس.

ثم نادى منادي خالد بالرحيل، فسار بالناس حتى نزل بموضع الجسر الأعظم من البصرة، وبعث بأخبار النصر وخمس الغنائم إلى الصديق وبعث معه بفيل فلما رآه نساء أهل المدينة تساءلن: أمِنْ خَلْق الله هذا أم شيء مصنوع؟

ثم بعث خالد أمراءه يميناً وشمالاً يحاصرون حصوناً، ففتحوها عنوة وصلحاً، ولم يتعرض خالد لمن لم يقاتل من الفلاحين ولا لأولادهم، بل تعرّض للمقاتلة من أهل فارس.

ثم كانت وقعة المذار في صفر من هذه السنة، وكان سببها أن هرمز كان قد بعث إلى أردشير وشيري بقدوم خالد نحو اليمامة، فبعث إليه كسرى بمدد مع أمير له اسمه قارن فلم يصل هذا إلى هرمز حتى حلّ بهذا (هرمز) ما حل من هزيمة وقتل، فتلقى قارن فلول الهاربين من الفرس، فالتفوا حوله ثم تمالؤوا ما بينهم واتفقوا على العود إلى خالد لقتاله، فساروا إلى موضع اسمه المذار، فبلغ أمرهم خالد بن الوليد وأرسل خالد إلى أبي بكر يخبره بذلك مع الوليد بن عقبة، ثم سار خالد بجنوده حتى نزل على المذار، وهو

في حاله من التعبئة والاستعداد، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وخرج قارن يدعو للمبارزة فبرز إليه خالد وابتدره الشجعان من أمراء المسلمين فقتلوا قارناً وآخرين معه من أمراء الفرس، فحاقت بالفرس الهزيمة وولوا مدبرين مقهورين وأدركهم المسلمون فقتلوا منهم يومئذٍ ثلاثين ألفاً وغرق منهم في الأنهار والمياه كثيرون، ووقع منهم في الأسر كثيرون وكان في الأسارى حبيب أبو الحسن البصري وكان نصرانياً.

ولما بلغ خبر الهزيمة في المذار إلى ملك الفرس أردشير، بعث هذا أميراً شجاعاً اسمه الأنذر لقتال المسلمين، فسار الأنذر للقاء المسلمين حتى بلغ مكاناً اسمه الولجة، فسمع بأمرهم خالد حتى سار بجيشه نحوهم فتواجهوا في الولجة، فوقع بينهم قتال شديد كان أشد مما قبله، فدبَّت في صفوف المشركين الفوضى وغشيهم من الرعب ما غشيهم فولوا مدبرين وهرب الأنذر من الوقعة ومات في طريقه عطشاً.

وأسر المسلمون من الفرس خلقاً كثيراً، وأمروا الفلاحين بالجزية، وبارز خالد يوم الولجة رجلاً من الأعاجم كان يعدل بألف رجل فقتله.

ثم نفرت الأعاجم لقتال المسلمين وقاموا إلى السلاح للقاء خالد وجنده الشجعان فاقتتلوا قتالاً شديداً جداً، فكتب الله الغلبة لجند الحق وأوقع الهزيمة في صفوف المشركين فتبعثروا وتفرق شملهم وقتل منهم خلق عظيم، ونادى منادي خالد: الأسر، الأسر، لا تقتلوا إلا من امتنع من الأسر فأقبلت بهم خيول المسلمين يساقون أسارى سوقاً، وبلغ عدد القتلى من المشركين في هذه الوقعة سبعين ألفاً.

وبعث خالد بن الوليد إلى الصديق ببشارة الفتح وبالخمس من الأموال وبالأسارى، فلما بلغ الصديق ذلك خطب في المسلمين قائلاً: يا معشر قريش إن أسدكم قد عدا على الأسد فغلبه على خراديله[1]، عجزت النساء أن يلدن مثل خالد بن الوليد.

---

(١) الخراديل: اللحم المقطع، والمخردل: المصروع، انظر: القاموس المحيط ج٣ ص٣٧٨.

ثم قاتل خالد في أماكن كثيرة ومتعددة من غير ملل ولا كلل ومن غير وهن ولا حزن، بل قاتل في صرامة وشهامة وبأس عظيم، لا جرم أن خالداً جعله الله عزاً للإسلام والمسلمين وذلاً للكافرين وتشتيتاً للظالمين.

فتح الحيرة:

سار خالد بعساكر المسلمين فنزلوا النجف، وحاصروا الحصون من الحيرة وأخذوا يستنزلون أهل الحيرة قسراً، وقهراً، وصلحاً، وكان ممن نزل بالصلح قوم من نصارى العرب، ثم كتب خالد لأهل الحيرة كتاب أمان، وعقب افتتاح الحيرة صلى خالد ثماني ركعات بتسليمة واحدة، ثم جاءه دهاقنة البلاد من حول الحيرة فصالحوا على بلدانهم وأهاليهم كما صالح أهل الحيرة.

ثم اضطرب الفرس وحاروا فيمن يتولى أمرهم واختلفوا فيما بينهم، ثم جهزوا جيوشاً تكون حائلة بين عساكر المسلمين وبين المدائن التي فيها إيوان كسرى وسرير ملكه.

وعندئذٍ كتب خالد إلى الأمراء في هذه البلاد يدعوهم فيها إلى الإسلام، ليثبت عليهم ملكهم أو ليدفعوا الجزية، وإلا فليستعدوا للقاء المسلمين الذين يحبون الموت كما يحبون هم الحياة، فعجب الفرس من جرأة خالد ومن فرط شجاعته في الوقت الذي يسخرون فيه من أنفسهم لحماقتهم ورعونتهم في أنفسهم.

وقد أقام خالد هنالك بعد صلح الحيرة سنة متردداً في بلاد فارس، موقعاً بأهلها البأس الشديد والسطوة القاهرة مما يبهر الأبصار ويذهل العقول.

فتح الأنبار:

سار المسلمون بقيادة خالد بن الوليد حتى انتهوا إلى الأنبار، وعليها رجل من الفرس يقال له: شيرزاذ، فأحاط بهم خالد، ومن حولهم خندق فمنعوا خالداً أن يصل إلى الخندق.

ولما تواجه الفريقان أمر خالد أصحابه فرشقوهم بالنبال حتى فقأوا منهم ألف عين، فتصايح أهل الأنبار: ذهبت عيون أهل الأنبار، وسميت هذه الغزوة ذات العيون، ثم راسل شيرزاذ خالداً يطلب منه الصلح فاشترط خالد أموراً لم يقبل بها شيرزاذ، فتقدم خالد نحو الخندق فطلب الأموال من الإبل فذبحها حتى ردم بها الخندق فجاز هو وأصحابه فوق الأموال.

فلما رأى شيرزاذ ذلك جنح للصلح ورضي بما اشترط عليه خالد من شروط، وخرج شيرزاذ من الأنبار وتسلمها خالد فنزلها المسلمون مطمئنين فاتحين، وتعلم فيها الصحابة الكتابة العربية ممن بها من العرب الذين تعلموا العربية من عرب كانوا قبلهم وهم بنو إياد إذ كانوا في الأنبار، زمان بختنصر حين أباح العراق للعرب[1].

فتوح الشام:

في سنة ثلاث عشرة، وجَّه أبو بكر عساكر المسلمين إلى الشام بعد أن عقد الألوية والرايات لهم، فكان أول لواء عقده، لخالد بن سعيد بن العاص فجاء عمر بن الخطاب فثناه عن ذلك، ولم يتأثر به الصديق كما تأثر عمر بل عزله عن الشام وولاه أرض تيماء، فيكون فيها مع من معه من المسلمين حتى يأتيه الأمر منه، وكان سبب عزله أنه لقي علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، فقال: يا أبا الحسن، يا بني عبد مناف، أغُلِبتُم عليها؟ فقال علي: أمغالبة هي أم خلافة؟ فأما أبو بكر فلم يحقدها عليه، لكن عمر قد اضطغنها عليه.

ثم عقد الصديق لواء يزيد بن أبي سفيان ومعه جمهور من الناس ومعه سهيل بن عمرو، وخرج معه الصديق ماشياً يوصيه بالمسلمين خيراً، وجعل له دمشق.

وبعث أبا عبيدة بن الجراح على جند آخر، وخرج معه ماشياً يوصيه، وجعل له نيابة حمص.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٦ ص٣٣٢ ـ ٣٤٩.

ويعث عمرو بن العاص ومعه جند آخر وجعله على فلسطين، وأمر الصديق كل واحد من الأمراء أن يسلك طريقاً غير طريق الآخر.

فسار الأمراء بجنودهم على نحو ما أمرهم ووصاهم به الصديق، فخرج عمرو بن العاص حتى نزل العرمات بأرض الشام، ونزل يزيد بن أبي سفيان البلقاء أولاً، ونزل شرحبيل بن حسنة بالأردن، ونزل أبو عبيدة بالجابية، وجعل الصديق يمدهم بالجيوش.

ولما انتهى خالد بن سعيد إلى تيماء، واجهه جنود كثيرون من الروم، وفيهم جمع كبير من نصارى العرب من لخم وجذام وغسان وتنوخ، فلما دنا منهم خالد بن سعيد تفرقوا عنه ودخل كثير منهم في الإسلام، ثم أمره الصديق أن يتقدم ولا يحجم وأمده بالوليد بن عتبة وعكرمة بن أبي جهل وجماعة.

معركة اليرموك:

لما توجهت جيوش المسلمين نحو الشام فزع منهم الروم وخافوا خوفاً شديداً وكتبوا إلى هرقل يعلمونه بذلك، وكان هرقل يومئذٍ بحمص، وقيل: كان قد حج ذلك العام إلى بيت المقدس، فلما بلغه الأمر قال لعساكره وأمرائه: إن هؤلاء أهل دين جديد ولا قِبَل لأحد بهم فأطيعوني وصالحوهم على نصف خراج الشام، لكن قومه أبوا ذلك ونخروا نخرة حمر الوحش كما هي عادتهم في الحماقة وقلة المعرفة، وعند ذلك أمر هرقل بخروج الجيوش الرومية، على أن يكون في مقابل كل أمير من المسلمين جيش كثيف، فكانت جموع عساكر الروم مائة وعشرين ألفاً، وكان جيش المسلمين واحداً وعشرين ألفاً سوى الجيش الذي مع عكرمة بن أبي جهل، إذ كان ردءاً للمسلمين في طرف الشام في ستة آلاف، فكتب أمراء الجيش إلى أبي بكر وعمر يعلمونهما بالأمر.

فكتب أبو بكر عندئذٍ إلى خالد بن الوليد أن يقفل بمن معه إلى الشام ويستنيب مكانه على العراق، فاستناب المثنى بن حارثة وسار مسرعاً في

تسعة آلاف وخمسمائة متوجهاً نحو الشام، وكان دليله في ذلك رافع بن عميرة الطائي، فوصل الشام في خمسة أيام بعون الله وتوفيقه وقد لاقوا من قسوة التعب وشدة العطش وفظاعة السفر ما لا يحتمله غير الأبرار المحتسبين أولي الشجاعة والصبر والعزائم كأصحاب رسول الله ﷺ.

وهذه حقيقة مشهودة يعترف بها الأصحاب والأباعد، فقد كان مما ذكر أن القيقلان أحد أمراء الروم كان قد بعث رجلاً من نصارى العرب ليجسَّ له أمر الصحابة فلما رجع قال: وجدت قوماً رهباناً بالليل فرساناً بالنهار، والله لو سرق فيهم ابن ملكهم لقطعوه، أو زنى لرجموه، فقال له القيقلان: والله لئن كنت صادقاً لبطن الأرض خير من ظهرها.

ثم نظر خالد بن الوليد فوجد جيوش المسلمين متفرقة، فجيش أبي عبيدة وعمرو بن العاص ناحية، وجيش يزيد وشرحبيل ناحية، فقام خالد خطيباً في الناس، فأمرهم بالاجتماع ونهاهم عن التفرق والاختلاف، فاجتمع الناس وعقدوا العزم على لقاء عدوهم من الروم، وقام خالد فيهم خطيباً وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: إن هذا يوم من أيام الله، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، وإن هذا يوم له ما بعده، لو رددناهم اليوم إلى خندقهم فلا نزال نردهم، وإن هزمونا لا نفلح بعدها أبداً.

فخرج خالد في تعبئة للمسلمين وكانوا ستة وثلاثين إلى أربعين ألفاً من الرجال، وقد جعل أبا عبيدة في القلب وعلى الميمنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة، وعلى الميسرة يزيد بن أبي سفيان.

ولما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان وعظ أبو عبيدة المسلمين فقال: عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم ولا تبدأوهم بالقتال، وشرّعوا الرماح واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله في أنفسكم حتى آمركم إن شاء الله تعالى.

وقال عمرو بن العاص: يا أيها المسلمون غضوا الأبصار واجثوا على الركب واشرعوا الرماح، فوالذي يرضى الصدق ويمقت الكذب ويجزي

بالإحسان إحساناً، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً وقصراً قصراً، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم فإنكم لو صدقتموهم الشد تطايروا تطاير أولاد الحجل.

وقال عكرمة بن أبي جهل يوم اليرموك: قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن وأفرُّ منكم اليوم؟ ثم نادى: من يبايع على الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أُثبتوا جميعاً جراحاً وقُتل منهم خَلق منهم ضرار بن الأزور رضي الله عنهم أجمعين، ولما صرع هؤلاء من الجراح استسقوا ماء فجيء إليهم بشُربة ماء فلما قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليه، فلما دفعها إليه نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليه، فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعاً ولم يشربها أحد منهم رضي الله عنهم أجمعين.

ثم زحف خالد بالمسلمين نحو الروم حتى تصافحوا بالسيوف فضرب فيهم خالد من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب، وصلى المسلمون صلاة الظهر وصلاة العصر إيماء ـ أي يركعون ويسجدون برؤوسهم فقط من غير قعود ولا سجود على الأرض، ثم أوغل خالد في قلب الروم يقاتلهم قتالاً شديداً واقتحم عليهم خندقهم حتى استقر الفتح للمسلمين، وانفتل المشركون عن أرض المعركة وولوا هاربين وقتل منهم حينئذٍ مائة وعشرون ألفاً.

وقد قاتل نساء المسلمين في هذه المعركة وقَتَلْنَ كثيراً من الروم وكن يضربن من انهزم من المسلمين ويقلن: أين تذهبون وتدعوننا لعلوج الروم؟ فلم يلبث المنهزمون حينئذٍ أن يرجعوا للقتال، وقتل من المسلمين في هذا اليوم ثلاثة آلاف، منهم عكرمة وابنه عمرو، وعمرو بن سعيد، وأبان بن سعيد، وضرار بن الأزور، وهشام بن العاص، وعمرو بن الطفيل بن عمرو الدوسي، وانهزم عمرو بن العاص في أربعة حتى وصلوا النساء ولما زجرنهم رجعوا.

وقال سعيد بن المسيب عن أبيه قال: هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتاً يكاد يملأ العسكر يقول: يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات يا معشر المسلمين، فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد.

وبذلك كتب الله النصر للمسلمين في هذه المعركة الكبيرة الخالدة، واتبع خالد من انهزم من الروم حتى وصل إلى دمشق فخرج إليه أهلها فقالوا: نحن على عهدنا وصلحنا؟ نعم.

ثم لاذت الروم بالفرار منهزمين إلى هرقل وهو بحمص، والمسلمون في آثارهم يقتلون ويأسرون ويغنمون، ثم ارتحل هرقل من حمص وجعلها بينه وبين المسلمين، ففرح المسلمون يومئذٍ بنصر الله، ثم جاءهم الخبر المفجع، إذ أعلمهم خالد بموت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم عوّضهم الله بعده بالفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1].

وقد دُفن أبو بكر ليلاً وصلى عليه عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله ﷺ، وحمل على السرير الذي حمل عليه رسول الله ﷺ، وألصقوا لحده بلحد النبي ﷺ.

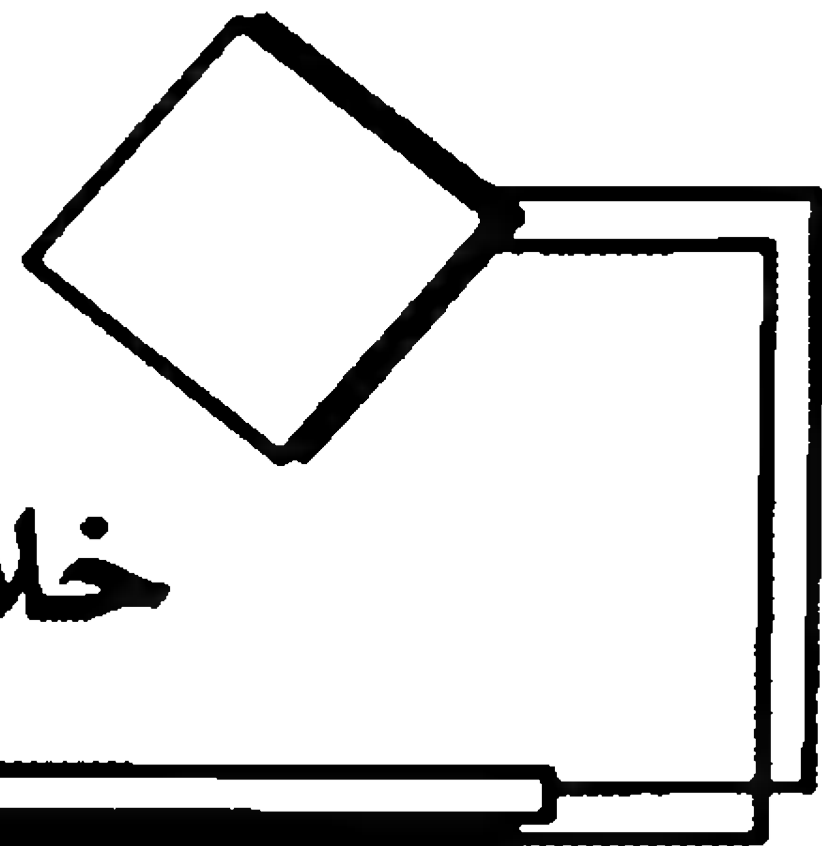
وكان رضي الله عنه أبيض خفيف العارضين نحيفاً غائر العينين يخضب بالحناء والكتم، ولما توفي كان أبوه حياً.

وقيل في وفاته أنه قد سمّه اليهود في أرز فأكل هو والحارث بن كلدة، فكف الحارث وقال لأبي بكر: أكلنا طعاماً مسموماً، فماتا بعد سنة، وقيل: إنه اغتسل وكان يوماً بارداً فحمّ خمسة عشر يوماً.

وكان رضي الله عنه أول الناس إسلاماً في قول بعضهم، والراجح أن أول الناس إسلاماً خديجة رضي الله عنها، ومما قاله النبي ﷺ في مبادرته للحق والإيمان: **«ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر»**.



(1) البداية والنهاية ج٧ ص٢ ـ ١٥، وتاريخ ابن خلدون ج٢ ص٨٤، ٨٥، وفتوح البلدان للبلاذري ص١٨٤ ـ ١٨٨.



الفصل الثاني
خلافة عمر بن الخطاب

كانت وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عشية يوم الاثنين لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة بعد مرض استمر خمسة عشر يوماً، وحال احتضارِه عهد إلى عمر بن الخطاب بالأمر من بعده، وذلك عقب مشاورة عدد من أكابر الصحابة منهم طلحة وعثمان وعبدالرحمٰن بن عوف وغيرهم، وأخبرهم بما يريد، فأثنوا على رأيه، فأشرف أبو بكر على الناس وقال: إني استخلفت عمر ولم آل لكم نُصحاً فاسمعوا له وأطيعوا، ودعا عثمان بن عفان فأمره أن يكتب فكتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويوقن فيها الفاجر، أني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلُ لكم خيراً، فإن صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جار وبدّل فلا علم لي بالغيب، والخيرَ أردت ولكل امرىء ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وكان عمر أبي بكر يوم توفي ثلاثاً وستين سنة، للسن الذي توفي فيه رسول الله ﷺ، وقد جمع الله بينهما في التراب كما جمع بينهما في الحياة، وكان قد مكث خليفة للمسلمين سنتين وثلاثة أشهر رضي الله عنه وأرضاه، وفي هذا الصديق ينبغي التنبيه إلى ما تتحذلق به أفواه بعض النقاد من أدعياء الديمقراطية إذ يتقوّلون على تاريخ المسلمين ـ ونخص هنا طريقة تولي الحكم ـ لأنها ليست على غرار الانتخاب المصطنع الذي تتزاحم فيه أصوات

الناخبين وهم أخلاط من العوام والرعاع والجهلة والمستغفلين، الذين يسخرهم دهاقنة السياسة والمكر في الدول المادية اللادينية، إذ يبتزونهم حين الإدلاء بالأصوات ابتزازاً وذلك بمختلف الأساليب في الإغراء والإغواء والتضليل والترهيب والاستغفال، فأين هذا الأسلوب المصطنع الموهوم من أسلوب المسلمين في اختيار الحاكم؟ وأسلوبهم في ذلك أن تضطلع بهذه الوجيبة الخطيرة العظيمة فئة من خيار الناس في المجتمع وهم العلماء أو أهل الحل والعقد في الأمة، أولئك أكثر الناس علماً وحرصاً وفطانة، لا جرم أنهم أقدر على اختيار الحاكم ليقدموه من بعد ذلك للناس فيبادروه البيعة.

تلك هي الطريقة المثلى في اختيار الحاكم أو الإمام لدى المسلمين، طريقة محكمة وأسلوب وثيق وحكيم، يناط بخيرة المجتمع في طليعته المميزة الأولى وهم العلماء والمفكرون وأعلام المعرفة دون غيرهم من رعاع العامة والمغفلين، الذين يستحوذ عليهم الماكرون المنتفعون من أولي الرغبة في الحكم والتسلُط، فيغرونهم بالمال إغراء أو يخاتلونهم بالوعود المكذوبة مخاتلة.

أما عهد أبي بكر لعمر بالخلافة على المسلمين فقد استشار في ذلك لفيفاً من أبرار الصحابة كطلحة وعثمان وابن عوف وغيرهم من العظماء، وكان ذلك في ساعة عسيرة من احتدام المخاطر التي كانت تحدق بالمسلمين، إذ كانت جيوشهم منشغلة في قتال الروم، الدولة القوية العظمى ذات النفوذ الكبير والجيوش الكثيرة المترامية، فليس من متسع في مثل هذه الحال من اشتداد البأس والمخاطر التي تحيط بالمسلمين، لاستدعاء عامة العلماء لاختيار الخليفة، فلا مندوحة إذن عن الطريقة التي بادر إليها أبو بكر وهو يعهد بالأمر إلى عمر بن الخطاب.

تولية أبي عبيدة بدلاً من خالد:

لما ولي عمر أمْرَ المسلمين بعد أبي بكر، كان أول كتاب كتبه إلى أبي عبيدة بن الجراح بتولي أمر الجند بدلاً من خالد، ومهما يكن السبب

في عزل خالد عن إمارة الجيش فما ينبغي الإكثار من التساؤل حول هذه المسألة، والأمر في ذلك جدُّ معقول وليس فيه من غرابة أو استهجان، فإن من شأن الولاة والساسة إذا تولوا مقاليد الحكم في البلاد أن يقوموا بتغيير بعض الملامح في صورة الأمراء والمسؤولين فيجددون ويستبدلون، أو يقيلون ويعزلون ونحو ذلك من وجوه الإجراءات الشكلية التي لا تمس صميم النظام.

أما الاستغراق في التنقيب عن السبب في عزل خالد فإنه ليس له ما يبرره أو يقتضيه، بالرغم مما قيل أن سبب العزل كان لكلام بلغ عمر عن خالد، أو لما كان من أمر مالك بن نويرة أو غير ذلك من تأويل، فإنه لا مدعاة لإثارة مثل هذا التساؤل إذا تصورنا اختلاف الساسة وأولي الأمر من حيث قناعاتهم وتقديراتهم للأمور، ومثل هذا الاختلاف يقتضي بالضرورة اختلافاً في كيفية الإجراءات واتخاذ القرارات.

أما أول كتاب كتبه عمر إلى أبي عبيدة فهو: أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه، الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحق عليك، لا تقدم المسلمين هلكة رجاء غنيمة، ولا تبعث سرية إلا في كنف من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة، وغض بصرك عن الدنيا، والهِ قلبك عنها وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيت مصارعهم، وأمَرَهم بالمسير إلى دمشق.

فتح دمشق:

عقب هزيمة الروم في اليرموك، استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب الحميري، ثم سار بجنده حتى نزل بالصُفَر، فأتاه الخبر أن فلول الشرك قد اجتمعوا بفِحْل، وبلغه الخبر كذلك أن أهل دمشق قد جاءهم مدد من حمص، فكتب إلى عمر يطلعه على ذلك، فأجابه عمر إذ يأمره بأن يبدأ بدمشق فإنها حصن الشام وبيت ملكهم وأن يشغل أهل فِحْل بخيل تكون إزاءهم، وإذا فتح دمشق سار إلى فحل حتى إذا فتحت هذه

سار هو وخالد إلى حمص، وترك شرحبيل بن حسنة وعمرواً بالأردن وفلسطين، فأرسل أبو عبيدة طائفة من المسلمين إلى فحل فنزلوا قريباً منها وأرسل الروم الماء حول فحل فوحلت الأرض وفتحها الله على المسلمين، فكانت فحل أول حصن يفتح قبل دمشق وكان جند الروم حينئذٍ ثمانين ألفاً.

ثم سار أبو عبيدة عقب ذلك إلى دمشق وقد جعل خالد بن الوليد في القلب وكان على دمشق نسطاس، وكان هرقل على مقربة من حمص، وقد حاصرهم المسلمون سبعين ليلة حصاراً شديداً وقاتلوهم بالزحف والمجانيق. وجاءت خيول هرقل مدداً لدمشق، فمنعتها خيول المسلمين التي عند حمص، فخُذل أهل دمشق وغشيهم الإياس والإبلاس وأحسوا بالضعف والفشل، واشتد كيد المسلمين لهم وشددوا من حولهم الحصار، وأقبل الشتاء واشتد البرد وعسر الحال بأهل دمشق فنكصوا دون مواجهة المسلمين، ثم قدَّر الله الواحد القهار، الكبير المقتدر المنان أن يولد لبطريق دمشق مولود في هذه الأيام العسيرة فصنع للناس طعاماً وسقاهم بعده شراباً ما لبثوا بعد ذلك أن استناموا ورقدوا مخمورين وقد غفلوا عن مواقفهم ومواجهتهم المسلمين، وفطن لذلك الذكي القوي الرئبال خالد بن الوليد، هذا الصنديد الهُمام الذي ما كان ينام ولا يذر أحداً ينام لفرط حرصه وحيطته وبراعته في أمور الحرب، إذ كان مراصداً للعدو ليلاً ونهاراً وكان له عيون يتعقبون أخبارهم فيرفعونها إليه، فلما رأى خالد أن الروم خامدون في ليلتهم هذه وأن الأسوار قد خلت منهم، بادر بإعداد سلالم من حبال فجاء هو ونفر من أصحابه الأشاوس الميامين، كالقعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدي، ثم أحضر جيشه لدى الباب وقال لهم: إذا سمعتم التكبير فوق السور فارقوا إلينا، ثم انطلق هو ومن معه فقطعوا الخندق سباحة بما وضعوه في أعناقهم من قِرَب، فلما صعدوا على السور هتفوا مكبرين، فاندفع المسلمون نحوهم وانحدر خالد وأصحابه من السور إلى البوابين فقتلوهم، وثار أهل دمشق لا يدرون ما الخبر وتشاغل أهل كل ناحية بحالهم فقتل خالد كل من عنده من الروم.

ولما رأى الروم ذلك وقد استحوذ عليهم الفزع والرهبة، قصدوا

أبا عبيدة وأذعنوا للصلح فقبل منهم وفتحوا له الباب، ودخل أهل كل باب بصلح مما يليهم، ودخل خالد عنوة، فالتقى خالد والقادة الآخرون وسط المدينة.

وأرسل أبو عبيدة إلى عمر بالفتح، على أن دمشق قد فتحت عنوة كما تقدم، وقيل: بل فتحت صلحاً وهو الأظهر من أقوال العلماء، وكان ذلك في نصف رجب سنة أربع عشرة. وقيل: حاصرهم أبو عبيدة في رجب وشعبان ورمضان وشوال وتم الصلح في ذي القعدة. وقيل: كانت وقعة فحل وأجنادين في خلافة أبي بكر، ثم مضى المسلمون إلى دمشق فنزلوا عليها في رجب سنة ثلاث عشرة، يعني فتحوها في سنة أربع عشرة، وكانت اليرموك سنة خمس عشرة، وقدم عمر إلى بيت المقدس سنة ست عشرة.

غزوة فِحْل:

عقب فتح دمشق سار أبو عبيدة إلى فحل واستخلف على دمشق يزيد بن أبي سفيان وجعل خالداً على المقدمة، وكان على المجنبتين أبو عبيدة وعمرو بن العاص، وعلى الخيل ضرار بن الأزور، وعلى الرجال عياض بن غنم.

أما أهل فحل فقد قصدوا بيسان فكانوا بها، فنزل شرحبيل بالناس فحلاً، وكان بين المسلمين والروم مياه وأوحال، وكانت العرب تسمي تلك الغزوة ذات الردغة وبيسان وفحل.

وكان الروم يمكرون بالمسلمين ليأخذوهم على غِرَّة، لكن المسلمين على حذر منهم، فكان شرحبيل بن حسنة لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة، فلما هجم الروم عليهم تصدى لهم المسلمون فقاتلوهم قتالاً شديداً فحار الروم واضطربوا وانتكسوا خاسرين مهزومين، وانتهت بهم الهزيمة إلى الوحل والقتل وكانوا ثمانين ألفاً لم ينج منهم إلا شريد أو مستكن في جحر، فكتب الله النصر بذلك لعباده المؤمنين المجاهدين، ثم انصرف أبو عبيدة ومعه خالد وغيرهما من المسلمين إلى حمص.

فتح ساحل دمشق:

استخلف أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان على دمشق، فسار يزيد إلى مدينة صيدا وجبيل وبيروت وهي سواحل دمشق، وعلى مقدمته أخوه معاوية ففتحها بيسر وجلا من أهلها كثير.

ولما ولي عثمان الخلافة وجعل معاوية على الشام، وجَّه معاوية سفيان بن مجيب الأزدي إلى طرابلس، وهي ثلاث مدن مجتمعة وقد قطع المادة عن أهلها براً وبحراً، فحاصرهم بذلك حصاراً شديداً فلجأوا إلى حصن وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه المدد والعون أو يبعث إليهم بمراكب يهربون فيها إلى بلاد الروم، فوجه إليهم بمراكب كثيرة ما لبثوا أن ركبوا فيها ثم ولوا مدبرين هرباً، فلما أصبح سفيان وجد الحصن خالياً فدخله، فكتب إلى معاوية يخبره بالفتح.

فتح بيسان وطبرية:

لما انطلق أبو عبيدة إلى حمص قادماً إليها من فحل، أرسل شرحبيل ومن معه إلى بيسان فقاتلوا أهلها فقتلوا منهم كثيراً، ثم صالحهم أهلها مثل صلح دمشق، وكتب أمراء المسلمين إلى عمر يخبرونه عن الفتح.

وقعة الجسر:

بعث رستم قائد جنود الفرس، بهمن جاذويه ومعه فيلة لقتال المسلمين، وأقبل أبو عبيد قائد المسلمين فنزل بالمروحة (موضع) فرأت امرأته دومة، أن رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب فشرب أبو عبيد ومعه نفر، فأخبرت أبا عبيد فقال: لهذه إن شاء الله الشهادة!

وعهد أبو عبيد إلى الناس فقال: إن قُتلت فعلى الناس فلان، فإن قُتل فعليهم فلان، حتى أمَّر الذين شربوا من الإناء، ثم قال: فإن قُتل فعلى الناس المثنى.

وبعث بهمن جاذويه إلى أبي عبيد: إما أن تعبر إلينا ونَدَعَكم والعبورَ،

وإما أن تدعونا نعبر إليكم، فنهاه الناس عن العبور، فلجَّ أبو عبيد غاضباً ثائراً، وقال: لا يكونوا أجرأ منا على الموت، فعبر إليهم على جسر فاقتتل الفريقان وكان جند الفرس يركبون الفيلة، فلما نظرت إليها خيول المسلمين نفرت منها لأنها لم تكن رأت مثل ذلك من قبل، فكان المسلمون إذا حملوا على الفرس تنفر خيولهم فلا تقدم، وإذا حمل الفرس بالفيلة على المسلمين تفرقت خيولهم، فاشتد الأمر بالمسلمين.

فترجَّل أبو عبيد والناس ثم مشوا إليهم فأعملوا فيهم السيوف، ونادى أبو عبيد في المسلمين: احتوشوا الفيلة واقطعوا بطانها واقلبوا عنها أهلها، ووثب هو على الفيل الأبيض فقطع بطانه ووقع الذين عليه، وفعل القوم مثل ذلك، فما بقي فيل إلا حطوا رحله وقتلوا من عليه.

ثم أهوى الفيل لأبي عبيد فضربه هذا بالسيف لكن الفيل خبط أبا عبيد بيده فوقع على الأرض فوطئه الفيل وقام عليه، فأخذ اللواء من كان أُمِّر بعده فقاتل الفيل حتى نحّاه عن أبي عبيد، ثم قتله الفيل، فتتابع سبعة رجال من ثقيف يأخذون اللواء واحداً بعد آخر، فيقاتل حتى يموت، ثم أخذ المثنى اللواء فجزع الناس من حوله وهابوا، فلما رأى المثنى حال المسلمين حينئذٍ من الاضطراب نادى فيهم: أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا، فحازهم المشركون إلى الجسر فتواثب بعض المسلمين إلى الفرات فغرق من غرق ونجا من نجا.

وهلك من المسلمين يومئذٍ أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب منهم ألفان، وبقي ثلاثة آلاف، وقتل من الفرس ستة آلاف[1].

أخبار القادسية:

دهم المسلمون أهل فارس بسواد العراق، وكانوا (الفرس) مختلفين فيما بينهم، فاجتمع عظماؤهم وقالوا لعظيميهما المختلفين وهما رستم

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص١٥٨ ـ ١٨٨، وتاريخ ابن خلدون ص٩١ ـ ٩٣.

والفيرزان: إما أن تجتمعا وإلا فنحن لكما حرب، فقد عرضتمونا للهلكة، فاستجابا لنداء قومهم، ففزعوا إلى من يتملكهم ويقودهم ويجمع شملهم فوجدوا ضالتهم في غلام اسمه يزدجرد، فجاؤوا به وهو ابن إحدى وعشرين سنة فملَّكوه واجتمعوا عليه، وتبارى الأمراء والقادة في طاعته، فبادر إلى تعيين الولاة والجنود لكل الثغور، فكتب المثنى بذلك إلى الخليفة عمر رضي الله عنه، ولما وصل كتاب المثنى إلى عمر قال: والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيساً ولا صاحب رأي وشرف وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، وبذلك رماهم عمر بوجوه الناس، وكتب إلى المثنى يأمره بخروج المسلمين من بين العجم ليتفرق حيال الفرس، وأن يدعو الفرسان وأهل النجدات من ربيعة ومضر فيحضرهم طوعاً أو كرهاً، فنزل المسلمون على مقربة من البصرة في مواجهة عدوهم وانضمت إلى المثنى جموع أخرى من المسلمين.

فلما اجتمعت إليه أمداد العرب خرج بهم من المدينة وقد استخلف عليها علياً رضي الله عنه، وجعل على مقدمة العسكر طلحة، ثم استشار الناس في المسير إلى العراق، فقال له عامتهم: سر ونحن معك، فوافقهم عمر ثم رجع إلى أصحاب رسول الله ﷺ مثل علي وطلحة والزبير وعبدالرحمٰن بن عوف واستشارهم فأشاروا عليه بمُقامه هو، وأن يبعث بعده رجلاً آخر غيره من الصحابة بالجنود للقاء الفرس، عسى الله أن يفتح على المسلمين ويهلك عدوهم، فرأى عمر ذلك صواباً، فعين لذلك سعد بن أبي وقاص، فولاه قيادة جيش المسلمين لحرب الفرس في العراق ثم أوصاه قائلاً له: يا سعد لا يغرنك من الله أن يقال: خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نَسَب إلا بطاعته، فالناس في دين الله سواء، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه، وعليك بالصبر. ثم بعثه في أربعة آلاف ممن اجتمع إليه، وعقب خروجه أمر بألفي يماني، فسار سعد في طريقه للقاء الفرس، وبلغه في طريقه أن المثنى قد مات من جرح كان أصابه فانتفض، وكانت جموع المثنى ثلاثة آلاف، وأربعة آلاف غيرهم من

تميم، ونزل من بني أسد ثلاثة آلاف آخرون، ولحق الأشعث بن قيس بالمسلمين ومعه ثلاثون ألفاً، فعبأ سعد الكتائب وأمّر الأمراء، وجعل على كل عشرة من الجند عريفاً وجعل الرايات للسابقين في الإسلام، فأتوا القادسية، ووصل سعداً كتابُ عمر رضي الله عنه يرى فيه ما رآه المثنى من قبل، إذ أوصى المثنى المسلمين أن يقاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب، وأن لا يقاتلوهم في عقر دارهم فإن أظهر الله المسلمين كان لهم ما وراءهم، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى قومهم، ثم هم أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم.

وكتب عمر إلى أبي عبيدة ليصرف أهل العراق ومن اختار اللحاق بهم - إلى العراق - فسار سعد حتى نزل القادسية فأقام بها شهراً يشنُّ الغارات نحو الأنبار وما حولها لجسّ الفرس وترهيبهم، فبلغت أخبارهم يزدجرد وأن ما بين الحيرة والفرات قد وطأه المسلمون، فأحضر رستم ودفعه للقاء المسلمين، فتقاعس عن ذلك وقال: ليس هذا بالرأي، بل يبعث بالجيوش يعقب بعضها بعضاً، فأبى يزدجرد إلا أن يسير رستم لذلك، فسار رستم وعسكر بساباط، وكتب سعد بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: لا يكترثنك ما يأتيك عنهم واستعن بالله وتوكل عليه وابعث رجالاً من أهل الرأي والجلد يدعونه، فإن الله جاعل ذلك وهناً لهم.

فأرسل سعد نفراً من أولي الرأي من المسلمين ليكلموا الفرس في أمرهم، فقدموا على يزدجرد وتركوا رستم، فاجتمع الناس من حولهم وهم ينظرون إليهم وإلى خيولهم، ثم قال يزدجرد لترجمانه: سلهم ما جاء بكم وما أولعكم بغزونا، ومن أجل أننا اشتغلنا ببعضنا اجترأتم علينا؟ فتكلم عن المسلمين النعمان بن مقرن وقال: إن الله رحمنا وأرسل إلينا رسولاً صفته كذا يدعونا إلى كذا ووعدنا بكذا، فأجابه منا قوم وتباعد قوم، ثم أمر أن نجاهد من خالفه من العرب فدخلوا معه على وجهين: مكره اغتبط[1] وطائع

(١) اغتبط من الاغتباط: وهو هنا: التبجح بالحال الحسنة، انظر: القاموس المحيط ج٢ ص٣٨٩.

ازداد، حتى اجتمعنا عليه وعرفنا فضل ما جاء به، ثم أمرنا بجهاد من يلينا من الأمم ودعائهم إلى الإنصاف، فإن أبيتم فأمر أهون من ذلك وهو الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة، فقال يزدجرد: لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم، وقد كان أهل الضواحي يكفوننا أمركم، فإن كان بكم جهد أعطيناكم قوتاً وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم.

فكلمه من المسلمين قيس بن زرارة وقال: أما ما ذكرت من سوء الحال فكما وصفت وأشد، ثم ذكر من عيش العرب ورحمة الله بهم بإرسال النبي ﷺ، مثل ما قال النعمان، ثم قال له: اختر إما الجزية عن يد وأنت صاغر أو السيف، وإلا فنجِّ نفسك بالإسلام، فقال يزدجرد: لو قتل أحد الرسل قبلي لقتلتكم، ثم قال لهم: ارجعوا إلى صاحبكم وأعلموه أني مرسل إليكم رستم حتى يدفنكم أجمعين في خندق القادسية.

ولما رجعوا إلى سعد قال: أبشر فقد أعطانا الله تراب أرضهم، وكان يزدجرد حين محاورتهم له أعطاهم وقراً من تراب، استكباراً منه واستخفافاً.

فبعث يزدجرد في أثر المسلمين إلى الحيرة فأعجزوهم، ثم سار رستم إلى ساباط للقاء المسلمين، وأرسل سعد السرايا إلى سواد العراق وسمع بهم رستم فبعث الفرس لاعتراضهم، فبلغ ذلك سعداً فأمدَّ المسلمين بعاصم بن عمر فجاءهم وخيل فارس تحتوشهم فلما رأوا عاصم هربوا.

وسار رستم حتى نزل بالقادسية، وكان بين مسيره من المدائن ووصوله القادسية أربعة أشهر.

وكان عمر رضي الله عنه قد كتب إلى سعد يأمره بالصبر والمطاولة، ولما وصل رستم القادسية وقف على العتيق في مقابلة المسلمين، والناس يتلاحقون حتى اغتموا من كثرتهم، وأرسل رستم إلى أحد أمراء المسلمين وهو زهرة وعرض له بالصلح وقال له: كنتم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونحفظكم، وأخذ يذكر صنيعهم مع العرب، فقال له زهرة: ليس أمرنا أمر أولئك، إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة، وقد كنا كما

ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسولاً فدعانا إلى ربه فأجبناه، فسأله رستم عن هذا الدين، فقال: الشهادتان، وإخراج الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الخالق، فقال رستم: فإن أجبنا إلى ذلك ترجعون؟ فقال: إي والله، فانصرف عنه رستم ودعا رجال فارس وذكر ذلك لهم فأنفوا ولجوا.

ثم أرسل إلى سعد بن أبي وقاص أن ابعث لنا رجلاً نكلمه ويكلمنا، فبعث إليهم ربعي بن عامر وحبسوه على القنطرة حتى أعلموا رستم، فجلس على سرير من ذهب وبسط النمارق والوسائد المنسوجة بالذهب، وأقبل ربعي على فرسه وسيفه في خرقة ورمحه مشدودة بعصب، فتقدم حتى انتهى إلى البساط ووطئه بفرسه غير عابىء بأثاثهم ورياشهم الفاخر ولا مكترث لهم، فلم ينهوه عن ذلك وأروه تهاوناً، ثم دنا من رستم وجلس على الأرض وركز رمحه على البساط وقال: إنا لا نقعد على زينتكم، فقال له الترجمان: ما جاء بكم؟ فقال: الله بعثنا لنخرج عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وأرسلنا بدينه إلى خلقه، فمن قبله قبلنا منه وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه حتى نفيء إلى الجنة أو الظفر، فقال رستم: هل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟ قال: نعم، فأمهله ثلاثة أيام، فخلا رستم برؤساء قومه، وقال: هل رأيتم كلاماً قط أعز وأوضح من كلام هذا الرجل، فقالوا: معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب! أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويحكم! لا تنظروا إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب تستخف باللباس وتصون الأحساب، ليسوا مثلكم.

ثم أرسل رستم إلى سعد أن ابعث ذلك الرجل، فبعث إليهم حذيفة بن محصن، ففعل كما فعل الأول، ولم ينزل عن فرسه، وتكلم وأجاب مثل الأول ثم انصرف، ثم بعث رستم من بعده عن آخر، فجاءه المغيرة بن شعبة، فلما وصلهم وهم على زيِّهم من فاخر الرياش ـ جلس على سرير رستم، فوثبوا عليه وأنزلوه، فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، فكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم

أرباب بعض، فإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد، وإني لم آتكم ولكنكم دعوتموني اليوم، فقال الرعاع منهم: صدق والله العربي، وقالت الدهاقين (الأكابر والدهاة): والله لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أولينا حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة.

ثم تكلم رستم، فَحَمَد قومه وعظم أمرهم وقال: لم نزل متمكنين في البلاد ظاهرين على الأعداء، أشرافاً في الأمم، فليس لأحد مثل عزّنا وسلطاننا، نُنصر عليهم ولا يُنصرون علينا إلا اليوم واليومين والشهر للذنوب، فإذا انتقم الله منا ورضي علينا رد لنا الكرة على عدونا، ولم يكن في الأمم أمة أصغر عندنا أمراً منكم، كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة، وكنتم تقصدوننا إذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشيء من التمر والشعير ثم نردكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا الجهد في بلادكم، فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، وآمر لكل منكم بوقر تمر وتنصرفون عنا فإني لست أشتهي أن أقتلكم.

ثم تكلم المغيرة فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن الله خالق كل شيء ورازقه، فمن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه، وأما الذي ذكرت به نفسك وأهل بلادك فنحن نعرفه، فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهو له دونكم، وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال والضيق والاختلاف فنحن نعرفه ولسنا ننكره، والله ابتلانا به والدنيا دول، وإن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولاً، ثم ذكر الإسلام والجزية والقتال، وأن من قُتل من المسلمين في الجنة، ومن قُتل من الفرس في النار، فاستشاط رستم غضباً ثم حلف أن لا يبزغ الصباح غداً حتى نقتلكم جميعاً، وانصرف المغيرة، وخلُص رستم بأهل فارس فحرضهم على القتال والتجلد.

ثم أرسل إليه سعد ثلاثة آخرين من أولي الرأي فقالوا له: إن أميرنا يدعوك إلى ما هو خير لنا ولك، اتق الله ولا يكونن هلاك قومك على يدك، وليس بينك وبين أن تغبط بهذا الأمر إلا أن تدخل فيه وتطرد به الشيطان عنك.

فتكلم المسلمون الثلاثة وذكروا سوء حالهم وما منَّ الله به عليهم من إرسال رسوله واجتماعهم على الإسلام عقب اختلافهم وتنازعهم[1].

ثم تزاحف الصفان، وكان صف المشركين على شفير العتيق، وكان صف المسلمين بجانب الخندق، فكان كلا الصفين بين العتيق والخندق، وكان جيش الفرس ستين ألفاً، أما المسلمون فكانوا ما بين السبعة آلاف إلى الثمانية آلاف.

وقد أمر سعد الناس أن يقرأوا سورة الأنفال، فلما قرأوها هشَّت قلوبهم واستشعروا السكينة، ثم كبروا أربع تكبيرات وبدأوا يزحفون نحو عدوهم فأنشبوا القتال واشتدت المواجهة وكثرت المبارزات بين الأفراد من الصفين، واجتهد الفرس في مواجهة المسلمين بالفيلة إذ نفرت منها خيل المسلمين فوجدوا بذلك حرجاً، لولا أن ثبتهم الله وأمدهم بتأييده ونصره، فأقبلوا على الفيلة يضربونها بالسيوف ويقطعونها تقطيعاً فزلزلت جيوش الفرس ولاذوا بالفرار بعد مقتل الآلاف منهم.

وهذا هو يوم أرمات وهو اليوم الأول، ولما أصبح القوم، وكَّل سعد من ينقل القتلى والجرحى، فسلم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم، واقتتلوا كذلك في اليوم الثاني والثالث، وسميت هذه الليلة الأخيرة ليلة الهرير فقتل من المسلمين ألفان، ومن المشركين عشرة آلاف، وكان الصبيان والنساء يحفرون القبور لدفن الشهداء، وأما قتلى المشركين بين الصفين فلم ينقلوا.

ولما أصبح اليوم الرابع اقتتلوا قتالاً شديداً وقد أباد الصحابة الفيلة ومن عليها وأبلى جماعة من شجعان المسلمين في هذه الأيام بلاءً عظيماً مثل طلحة الأسدي، وعمرو بن معدي كرب، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبدالله البجلي، وضرار بن الخطاب، وخالد بن عرفطة وآخرون أمثالهم من الشجعان.

وفي وقت الزوال من هذا اليوم ويسمى يوم القادسية وهو يوم الاثنين

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج٢ ص٩١ ـ ٩٧، والكامل لابن الأثير ج١ ص٤٥٠ ـ ٤٦٨.

من المحرم سنة أربع عشرة، هبت ريح شديدة تطايرت منها خيام الفرس وألقت سرير رستم، فركب بغلته وولى هارباً لكن المسلمين أدركوه وقتلوه، إذ اقتحم سريره أحد الأبطال من المسلمين وهو هلال فقتله واحتز رأسه ثم نادى في الناس قائلاً: قتلت رستم ورب الكعبة، وقتلوا معه الجالينوس الذي كان يتقدم جند الفرس، ولحق بهم المسلمون فأعملوا فيهم السيوف فمُزقوا شر ممزق، وقُتل منهم حينئذٍ ثلاثون ألفاً، وقُتل منهم قبل ذلك عشرة آلاف، وقتل من المسلمين في سائر هذه المعارك ألفان وخمسمائة، ثم سيق المنهزمون حتى أدخلهم المسلمون مدينة الملك وهي المدائن التي فيها إيوان كسرى، وقد غنم المسلمون من وقعة القادسية كثيراً من الأموال والسلاح وقد خُمِّس ذلك كله، فبُعث بالخمس والبشرى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ كان في المدينة يستطلع الأخبار عن أمر القادسية ممن يلقاه من الركبان، فكان يخرج من المدينة إلى ناحية العراق، يتلمس الحقائق عن مجريات القتال بين المسلمين والمشركين، فبينما هو كذلك من الحذر والحرص والتيقظ رأى راكباً يلوح من بعيد فاستقبله عمر فاستخبره عما وراءه من الأخبار والحوادث، فقال له: فتح الله على المسلمين في القادسية وغنم المسلمون مغانم كثيرة، وجعل يحدث بذلك وهو لا يعرف أن هذا عمر، وكان عمر يمشي تحت راحلته، فلما اقتربا من المدينة جعل الناس يحيون عمر بلقبه (أمير المؤمنين) فعرف الرجل أن محدثه هو أمير المؤمنين، فقال الرجل: يرحمك الله يا أمير المؤمنين، هلا أعلمتني أنك الخليفة؟ فقال رضي الله عنه: لا حرج عليك يا أخي.

هذه الغنائم التي أخذها المسلمون من الفرس، حقيق بهم أن يأخذوها، فلا مدعاة ولا مساغ لمرتاب أن يتساءل عن مثل هذه القضية التي تستوجب الحزم ويُستأصل فيها الشر، وقد بينا في أكثر من مناسبة فيما سبق أن الأموال التي في أيدي المشركين والمضلين من الناس، إنْ هي إلا سبيلهم الأعظم في الاقتدار على الشر والباطل، وهي سبيلهم إلى امتلاك السلاح وكل أسباب الكيد والأذى، ولولا تلكم الأموال التي في أيدي

الظالمين لما استطاعوا أن يثيروا الفساد والفتنة في الأرض، ولما قدروا أن ينفثوا سموم الشر والرذيلة في البلاد، فإذا كانت الأموال في أيدي الأشرار والظالمين سبيلهم لإشاعة المنكرات والمفاسد والفوضى بين العباد، لا جرم أن يكون قميناً بالمسلمين أن ينتزعوا من الظالمين المفسدين أموالهم درءاً للرذيلة أن تتفشى وتطغى، ودفعاً لكل ظواهر العار والأذى أن تترعرع وتتنامى.

فلا حجة بعد ذلك لمرتاب خصيم، أو جهول غاشم أن يفتري على الإسلام بما يسومه به من نقد مستهجن لا يُسعفه أثارة من منطق إلا الطعن الفاجر، والافتراء المهين المكذوب.

أما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقد كان به دماميل وعرق النسا، مما منعه من شهود القتال، فصعد على سطح القصر راكباً على وسادة في صدره، وأشرف على الناس وهو لا يستطيع الجلوس مما به من ألم القروح، حتى إذا نزل اعتذر للناس وأراهم القروح التي في جسده فعذروه. ثم كتب سعد إلى عمر يخبره بهذا الفتح المبين وبعدة من قتل من المشركين والمسلمين، وصورة الكتاب هي: أما بعد، فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحناهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعدة لم يرَ الراؤون مثل زهائها، فلم ينفعهم الله بذلك، بل سُلبوه ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار وصفوف الآجام، وفي الفجاج، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القاري، وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لا يعلمهم إلا الله، فإنه بهم عالم، كانوا يدوون بالقرآن إذا جَنَّ عليهم الليل كدوي النحل، وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذا لم تكتب لهم[1].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج٢ ص٩١ ـ ١٠٠، والبداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٣٧ ـ ٥٢، والكامل لابن الأثير ج٢ ص٤٥٠ ـ ٤٨٥.

فتح المدائن وجلولاء:

عقب هزيمة الفرس في القادسية انتهوا إلى بابل وفيهم بقايا الرؤساء والقادة كالهرمزان ومهران وأمثالهما.

أما سعد بن أبي وقاص فقد أقام شهرين عقب فتح القادسية، ثم سار إلى المدائن بأمر الخليفة عمر رضي الله عنه، وجعل بين يديه زهرة بن حيوة، وشرحبيل بن السمط، وعبدالله بن المعتمر، وقد لقيهم بعض عساكر الفرس لدى مسيرهم فهزموهم وولوا هاربين إلى بابل، ثم خرج الفيرزان ومن معه من الفرس ببابل، ليقاتلوا المسلمين فانهزموا وافترقوا فرقتين، لحقت إحداهما برئاسة الهرمزان بالأهواز، ولحقت الثانية بنهاوند برئاسة الفيرزان، وبها كنوز كسرى، وتحصن مهران بالمدائن وقطعوا الجسر المفضي إليها. ثم سار سعد من بابل وفي مقدمة جنده زهرة، فخرج شهريار الفارسي لقتالهم فقتل وانهزم هو وأصحابه فافترقوا في البلاد، وغنم المسلمون من أموالها كثيراً.

ثم سار المسلمون حتى نزلوا نهرشير من المدائن، ولما عاينوا إيوان كسرى كبروا وقالوا: هذا أبيض كسرى ـ أي قصره الشامخ المنيف العتيد ـ فهتفوا قائلين: هذا ما وعد الله، وكان ذلك في ذي الحجة من سنة خمس عشرة، وحاصروا المدائن ثلاثة أشهر ثم اقتحموها، وكانت خيولهم تغير على النواحي.

ودخل أهل السواد ودهاقين المدائن غربي دجلة في أمان المسلمين، واشتد الحصار على نهرشير ونصبوا عليها المجانيق، ولما ضاق الحصار بالمشركين ركب إليهم الناس فلم يروا على الأسوار أحداً إلا رجلاً يشير إليهم فقال: لم يبقَ بالمدينة أحد وقد صاروا إلى أقصى المدينة حيث يقع الإيوان، فأراد سعد وجنوده أن يعبروا إليهم فوجدوهم قد جمعوا المعابر، فدلهم بعض العلوج من أهل البلاد على مخاضة في دجلة، فعزم سعد على العبور وخطب في الناس وندبهم إلى العبور، وانتدب عاصم بن عمر في ستمائة، واقتحموا دجلة فلقيهم بعض الفرس فشدّ عليهم المسلمون فهزموا

وقتل أكثرهم، ثم اقتحم المسلمون في أثرهم يصيحون: نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فساروا في دجلة وخيلهم سابحة بهم وسط الماء وهم يتحادثون ويهينمون[1]. وقد جاوزوا النهر سالمين ولم يفقدوا شيئاً إلا قدحاً لبعضهم غلبت صاحبه جرية الماء وألقته الريح إلى الشاطىء.

ولما رأى الفرس مجاوزة المسلمين الماء سالمين آمنين ولوا هاربين مدبرين لما غشيهم من الخوف والرهبة، وقد ساروا إلى حلوان مخلفين وراءهم في المدائن من الأموال والمتاع ما لا يحصى.

ثم اقتحمت عساكر المسلمين المدائن، فأَرَزَ (اختبأ) الناس إلى القصر الأبيض - إيوان كسرى - حتى توثقوا لأنفسهم بدفع الجزية، ونزل سعد القصر الأبيض واتخذ الإيوان فيه مصلًى، ولما دخله قرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الدخان: الآية ٢٥] الآية. وصلى فيه صلاة الفتح ثماني ركعات لا يفصل بينهن، ثم بعث إلى عمر سيف كسرى وتاجه وحليته ليراها الناس فيغتبطوا بنصر الله، وأسكن سعد الفقراء والعالة دور المدائن، ولم يزالوا بها حتى فتحت جلولاء وحلوان وتكريت والموصل ثم اختُطت الكوفة، وقد غنم المسلمون أموالاً كثيرة وبعثوا بالأخماس إلى عمر مع زياد بن أبيه فجعله عمر في المسجد، وبات عبدالرحمٰن بن عوف وعبدالله بن أرقم يحرسانها، ومنع عمر قسمة السواد ما بين حلوان والقادسية فأقرّه حبساً (وقفاً) على المسلمين[2].

فتوح مدائن الشام:

سار أبو عبيدة وخالد إلى حمص، وبعث هرقل جنده للقاء المسلمين فنزلوا جميعاً بمرج الروم، ولما بلغ أبو عبيدة حمص حاصرها، فطلبوا منه الأمان فصالحهم، وكان هرقل يعدهم المدد في حصارهم، وأمر أهل

---

(١) الهينمة: صوت الناس، غير مفهوم كدوي النحل.

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٢ ص١٠٠ - ١٠٣.

الجزيرة بإمدادهم فساروا لذلك، وبث سعد بن أبي وقاص العساكر من العراق، فحاصروا قرقيسيا وما جاورها، فرجع أهل الجزيرة إلى بلادهم، ويئس أهل حمص من المدد فصالحوا المسلمين على صلح أهل دمشق.

ثم سار المسلمون وفيهم عبادة بن الصامت إلى حماة، فصالحهم أهلها على الجزية عن رؤوسهم، والخراج عن أرضهم. ثم ساروا إلى معرة النعمان، وهو النعمان بن بشير الأنصاري، ثم ساروا إلى اللاذقية ففتحوها عنوة. ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين، فاعترضه ميناس عظيم الروم بعد هرقل، فهزمهم خالد، ثم نازل قنسرين حتى افتتحها عنوة، ثم ارتحل بعد ذلك إلى القسطنطينية، ولما بلغ عمر ما صنعه خالد بن الوليد من الفتوحات والبطولات قال: يرحم الله أبا بكر، هو كان أعلم مني بالرجال، فقد قيل: إن عمر كان قد عزل خالداً والمثنى بن حارثة خشية أن يدخلهما كبر أو اغترار.

ولما فرغ أبو عبيدة من قنسرين سار إلى حلب، وبلغه أن أهل قنسرين غدروا فبعث إليهم السمط الكندي فحاصرهم وتمكّن منهم، ثم أتى أبو عبيدة حلب فحاصرهم المسلمون فصالحوا على الأمان، ثم سار أبو عبيدة من حلب إلى إنطاكية وكان فيها جموع من فلول قنسرين وغيرهم فهزمهم وحاصرهم حتى صالحوه على الجلاء أو الجزية.

وعقب استيلاء المسلمين على مدن الشام حتى الفرات عاد أبو عبيدة إلى فلسطين، وبعث جيشاً مع ميسرة العبسي فسلكوا إلى بلاد الروم، فلقي المسلمون جمعاً للروم ومعهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل، فقاتلهم أبو عبيدة وأثخن فيهم، ثم فتحت قيسارية وبعث إليها يزيد بن أبي سفيان أخاه معاوية بأمر من عمر فسار إليهم وحاصرهم عقب هزيمتهم، وبلغت قتلاهم في الهزائم ثمانين ألفاً، وقد زحف المسلمون بقيادة عمرو لقتال الأرطبون الذي أنزل بالرملة جنداً كثيفاً من الروم وبيت المقدس، فاقتتلوا كيوم اليرموك أو أشد، وانهزم أرطبون إلى بيت المقدس، وفتح عمرو غزة وسبسطية، وفتح نابلس على الجزية، ثم فتح مدينة اللد ثم

عمواس وبيت جبرين ويافا ورفح وسائر مدائن الأردن.

فتح بيت المقدس:

لما فرغ أبو عبيدة من دمشق كتب إلى أهل إيلياء يدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، أو يؤدون الجزية، فإن أبوا ذلك فليؤذنوا بالقتال، فأبوا ذلك كله، فسار إليهم أبو عبيدة في جنوده واستخلف على دمشق سعيد بن زيد. فحاصر أبو عبيدة بيت المقدس وضيق عليهم حتى أجابوا للصلح، شريطة أن يأتي إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنفسه.

فكتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر بذلك، فاستشار عمر الناس في ذلك، فأشار عثمان بن عفان بأن لا يذهب إليهم ليكون ذلك أرغم لأنوفهم، وأشار علي بن أبي طالب بالذهاب إليهم لما في ذلك من تخفيف على المسلمين، فرغب عمر في قول علي ولم يهو ما قاله عثمان، وسار بعساكر المسلمين نحوهم، وقد استخلف علي بن أبي طالب على المدينة، فلما وصل عمر إلى الشام استقبله أبو عبيدة ورؤوس الأمراء كخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، فترجل أبو عبيدة، وترجل عمر، فهمَّ أبو عبيدة لتقبيل يد عمر، وهمَّ عمر كذلك لتقبيل رجل أبي عبيدة، فكف أبو عبيدة فكف عمر، ثم سار عمر حتى صالح نصارى القدس، واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخل القدس إذ دخل المسجد من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، فصلى فيه تحية المسجد وصلى بالمسلمين فيه صلاة الغد من الغد، واستدل على مكانها من كعب الأحبار، ثم نقل التراب عن الصخرة في طرف ردائه، ونقل معه المسلمون كذلك، وكان الروم قد جعلوا الصخرة مزبلة لأنها قبلة اليهود، حتى إن المرأة كانت ترسل خرقة حيضها لتُلقى في الصخرة.

وكان عمر رضي الله عنه قد ركب من المدينة على فرس ليسرع السير بعدما استخلف عليها علي بن أبي طالب، فسار حتى قدم الجابية، فنزل بها وخطب في الناس خطبة طويلة، منها قوله:

أيها الناس أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تكفوا أمر دنياكم، فمن أراد لَحْبَ[1] وجه الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو مع الاثنين أبعد، لا يخلونَ أحد بامرأة فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن.

ثم صالح أهل الجابية ورحل إلى بيت المقدس، وكتب إلى أمراء الجند أن يوافوه إلى الجابية، فتوافوا في اليوم الذي وعدهم فيه في الجابية، وكان أول من تلقاه يزيد بن أبي سفيان ثم أبو عبيدة ثم خالد بن الوليد في خيول المسلمين وعليهم الديباج والحرير، فنزل وأخذ الحجارة وجعل يرميهم بها وقال: ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم، إياي تستقبلون في هذا الزي وإنما شبعتم منذ سنتين، فقالوا: يا أمير المؤمنين إنما هي بلامقة (قباء محشو) وإن علينا السلاح، قال: فنعم إذن.

واجتمع عمر إلى أمراء الأجناد كلهم باستثناء عمرو بن العاص، وشرحبيل فكانا مواقفَيْن الأرطبون بأجنادين.

وبينما عمر بالجابية إذا بكردوس من الروم وبأيديهم السيوف، فسار إليهم المسلمون بالسلاح، فقال عمر: إن هؤلاء قوم يطلبون الأمان، فإذ هم جند من بيت المقدس يطلبون الصلح والأمان من أمير المؤمنين لما سمعوا بقدومه، فأجابهم عمر إلى ما سألوا، وكتب لهم كتاب أمان ومصالحة، وضرب عليهم الجزية واشترط عليهم جملة شروط، وقد شهد في الكتاب خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبدالرحمٰن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكان ذلك في سنة خمسة عشر.

وكذلك كتب إلى أهل اللُّد كتاباً آخر وضرب عليهم الجزية ودخلوا فيما صالح عليه أهل إيلياء، وفرَّ الأرطبون إلى مصر، فكان بها حتى فتحها عمرو بن العاص، ففرَّ إلى البحر فكان يلي بعض السرايا الذين يقاتلون المسلمين فظفر به رجل من المسلمين فقتله.

---

(١) اللحب واللاحب: الطريق الواضح، انظر: القاموس المحيط ج١ ص١٣٢.

فتح حمص:

قصد الروم أبا عبيدة والذين معه من المسلمين بحمص إذ هيجهم أهل الجزيرة عليهم، فسمع المسلمون بذلك فتجهز أبو عبيدة للقائهم، فحاصر حمص ولحقه خالد بن الوليد فحاصروها حصاراً شديداً، وكان ذلك في زمن البرد الشديد، ولم يزل المسلمون يحاصرونهم في حمص حتى انسلخ فصل الشتاء، فاشتد الحصار عليهم، فأشار عليهم بعض أكابر أهل حمص بالمصالحة فأبوا ذلك، ثم جاءت عامة أهل حمص إلى خاصتهم فقالوا لهم: ألا تنظرون إلى ما نزل بنا وما نحن فيه؟ ألا تصالحون القوم عنا؟ فصالحوهم على ما صالحوا عليه أهل دمشق، على الجزية على الرقاب بحسب الغنى والفقر، وعلى ضرب الخراج على الأراضي[١].

طاعون عمواس:

فشا في عمواس مرض وبيل أصاب كثيراً من المسلمين وكان ذلك في سنة سبع عشرة، وكان ممن ابتلاه الله بهذا المرض أبو عبيدة بن الجراح، أمير كتائب المسلمين في الشام، ولما اشتد به الوجع وبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أراد أن يستنقذه من هذا الوباء بإخراجه من عمواس فكتب إليه: سلام عليك، أما بعد: فإنه قد عَرَضَتْ لي إليك حاجة أريد أن أشافهك بها، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا أن لا تضعه من يدك حتى تقبل إلي.

فعرف أبو عبيدة أنه إنما أراد أن يستخرجه من الوباء فقال: يغفر الله لأمير المؤمنين، ثم كتب إليه فقال: يا أمير المؤمنين إني قد عرفت حاجتك إلي، وإني في جند من المسلمين، لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه، فخلّني من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعني في جندي.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٥٢ ـ ٥٧، وفتوح البلدان للبلاذري ص١٧٨ ـ ١٩٠.

فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقال الناس: يا أمير المؤمنين أمات أبو عبيدة؟ قال: لا، وكأن قد.

ثم كتب إليه عمر: سلام عليك، أما بعد: فإنك أنزلت الناس أرضاً عميقة فارفعهم إلى أرض مرتفعة نَزِعَة، فسار بالناس حتى نزل بالناس الجابية ورفع الوباء عن الناس[1].

ومما ذكر من الأخبار في طاعون عمواس أن عمر رضي الله عنه كان قد قدم إلى الشام، فلما وصل إلى الجابية تلقاه أمراء الأجناد: أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وخالد بن الوليد فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فاستشار عمر المهاجرين والأنصار فقال بعضهم: أنت قد جئت لأمر فلا ترجع عنه، وقال غيرهم: لا نرى أن تَقْدم بوجوه أصحاب رسول الله ﷺ على هذا الوباء، فقيل: إن عمر أمر الناس بالرجوع من الغد، فقال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ قال عمر: نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو هبطت وادياً ذا عدوتين إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة، فإن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن أنت رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ ثم قال: لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة.

وكان عبدالرحمٰن بن عوف متغيباً في بعض شأنه فلما قدم قال: إن عندي من ذلك علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا سمعتم به بأرض قوم فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه»** فحمد الله عمر، لكون ذلك وافق رأيه، ورجع بالناس.

وروى الإمام أحمد عن نفر من الصحابة قالوا: قال رسول الله ﷺ: **«إن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عُذِّب به قوم قبلكم، فإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه»**.

وقد توفي في طاعون عمواس بعض من أشراف الصحابة ومنهم

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٨١، ٨٢.

يزيد بن أبي سفيان ومعاذ فضلاً عن أبي عبيدة.

غزوة فارس من البحرين:

كان العلاء بن الحضرمي والياً على البحرين في زمن أبي بكر، فلما كان عمر عزله عنها وولى بدله قدامة بن مظعون.

ولما افتتح سعد القادسية وأزاح كسرى عن سلطان فارس وهزمه شر هزيمة، وجاء بأعظم مما جاء به العلاء بن الحضرمي من ناحية البحرين، أحب العلاء أن يفعل في فارس فعلاً نظير ما فعله سعد فيهم، فندب الناس إلى حربهم فاستجابوا إليه، فجزأهم فرقاً وجعل على كل فرقة أميراً، وجعل أميرهم جميعاً خليد بن المنذر، فحملهم في البحر إلى فارس، بغير إذن عمر.

فعبرت الجنود من البحرين إلى فارس فحال الفرس بينهم وبين سفنهم، فقام في الناس خليد بن المنذر خطيباً، وقال: أيها الناس، إنما أراد هؤلاء القوم بصنيعهم هذا محاربتكم وأنتم جئتم لمحاربتهم، فاستعينوا بالله وقاتلوهم، فإنما الأرض والسفن لمن غلب ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: الآية ٤٥] فأجابوه إلى ذلك ثم ناجزوهم فقاتلوهم قتالاً شديداً، ثم أمر قائد الجند (خليد) المسلمين فترجلوا وقاتلوهم صابرين عازمين، فكتب الله لهم الغلبة فهزموا فارس وقتلوهم مقتلة لم يقتلوا مثلها من قبل.

وبعد ذلك خرج المسلمون سائرين نحو البصرة، فغرقت بهم سفنهم، ولما علم عمر ما صنع العلاء بن الحضرمي، غضب منه وبعث إليه فعزله وأمره أن يلحق بسعد بن أبي وقاص، وكتب إلى عتبة بن غزوان أن العلاء بن الحضرمي خرج بجيش فأقطعهم أهل فارس وعصاني، فخشيت أن لا ينصروا، فاندب إليهم الناس واضممهم إليك من قبل أن يُجتاحوا، فانتدب عتبة المسلمين وأخبرهم بكتاب عمر إليه في ذلك، وانتدب جماعة من الأمراء الأبطال، منهم هاشم بن أبي وقاص، وعاصم بن عمرو،

وعرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن محصن، والأحنف بن قيس وآخرون، انتدب هؤلاء الشجعان في اثني عشر ألفاً، فساروا على الساحل سراعاً لنجدة إخوتهم المحاصرين حتى انتهوا إليهم، وإذا خليد بن المنذر والذين معه من جند المسلمين محصورون قد أحاط بهم العدو من كل جانب، وتكالب عليهم المشركون، وليس من مناص من القتال حينئذٍ، وهزم هنالك المشركون وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة، فأعز الله الإسلام وأذل الشرك والمشركين[1].

القحط وعام الرمادة:

في السنة الثامنة عشرة للهجرة، أصاب المسلمين مجاعة شديدة وقحط شديد وذلك هو عام الرمادة، وقد سمي هذا العام بالرمادة لأن الرياح كانت تسفي التراب فتذروه كالرماد، فاشتد بالناس الجدب والجوع، وجفلت الأحياء إلى المدينة ولم يبق عند أحد منهم زاد، فلجأوا إلى أمير المؤمنين فأنفق فيهم كل ما في بيت المال من الأطعمة والمال، فأقسم عمر أن لا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى ينتعش الناس ويظفروا بالأزواد، فقدمت السوق عُكة سمن ووطب[2] من لبن، فاشتراها غلام لعمر بأربعين ثم أتى إليه فقال: يا أمير المؤمنين قد أبرَّ الله يمينك وعظم أجرك، قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن، فآلى عمر ألا يأكل منهما شيئاً وقال: يعنيني شأن الرعية إذا لم يصبني ما أصابهم؟! وأمر الغلام أن يتصدق بهما، فبقي عمر على حاله من الشظف وشدة الجوع حتى اسود لونه رضي الله عنه وتغير جسمه واعتراه الضعف والهزال واستمر هذا الحال بالناس تسعة أشهر.

فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري بالبصرة، أن يا غوثاه لأمة محمد، وكتب إلى عمرو بن العاص بمصر أن يا غوثاه لأمة محمد، فبعث إليه كل واحد منهما بقافلة عظيمة تحمل البُر وسائر الأطعمة، ووصلت ميرة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٨٣ ـ ٨٥.

(٢) الوطب: سقاء اللبن، انظر: القاموس المحيط ج١ ص١٤٢.

عمرو بن العاص في البحر إلى جدة، ومن جدة إلى مكة.

وعن أنس رضي الله عنه أن عمر خرج يستسقي يقول: اللهم إنا كنا إذا قحطنا على عهد نبينا توسلنا إليك بنبينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ﷺ، فيُسْقون.

وفي هذا العام حصلت أحداث منها أن عمر قد استقضى شريحاً على الكوفة ـ جعله قاضياً عليها ـ ومنها أن عمر حجّ بالناس.

وفي هذا العام فتحت الرقة والرها، وحران على يدي عياض بن غنم، وفيها فتحت نصيبين وطائفة من الجزيرة إذ فتحهما عياض بن غنم لما وجهه أبو عبيدة إلى ذلك، وسار كذلك إلى الموصل فافتتحها وما حولها عنوة، وفيه بنى سعد جامع الكوفة، وفيه كان طاعون عمواس فمات فيه خمسة وعشرون ألفاً، وقيل: ثلاثون ألفاً، وعمواس بلدة صغيرة تقع بين القدس والرملة[1].

فتح مصر:

لما استكمل المسلمون فتح بلاد الشام، بعث عمر بن العاص إلى مصر، وأرسل معه الزبير بن العوام وكل من بشر بن أرطأة وخارجة بن حذافة، وعمير بن وهب الجمحي، فاجتمع عمرو والزبير على باب مصر فلقيهم أبو مريم ومعه الأسقف أبو مريام، إذ بعثه المقوقس صاحب الإسكندرية، وقال عمرو بن العاص: ليبرز إلي أبو مريم وأبو مريام، راهبا هذه البلاد، فبرزا إليه، فقال لهما عمرو بن العاص: أنتما راهبا هذه البلاد فاسمعا، إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأمره به، وأمرنا به محمد ﷺ وأدى إلينا كل الذي أمر به، ثم مضى وتركنا على الواضحة، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة، وقد أعلمنا أنا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٩٠ ـ ٩٣، والكامل لابن الأثير ج٢ ص٥٥٥ ـ ٥٥٩.

منكم، وأن لكم إذا أجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة، ومما عهد إلينا أميرنا: استوصوا بالقبطيين خيراً لأن لهم رحماً وذمة. فطلبا منه أن يؤمّنهم حتى يرجعوا إليه، فأمهلهما خمسة أيام ليرجعا إلى قومهما فينظروا، فرجعا إلى المقوقس، فأبى أرطبون أن يستجيب لهما بل أمر بمناهضة المسلمين ومناجزتهم، فقال الملأ منهم: ما تقاتلون من قوم قتلوا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم، ثم ألحّ الأرطبون أن يبيتوا للمسلمين، ففعلوا فلم يظفروا بشيء، بل قتل منهم طائفة، منهم الأرطبون، فقد حاصر المسلمون عين شمس من مصر في اليوم الرابع، وارتقى الزبير عليهم سور البلد، فلما أحسوا بذلك خرجوا إلى عمرو من الباب الآخر فصالحوه، وكتب لهم عمرو كتاب أمان نقتضب بعضه هنا: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا يُنتقص، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، فمن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين، شهد الزبير وعبدالله ومحمد ابناه، وكتب وردان وحضر.

فدخل في هذا الصلح أهل مصر كلهم واجتمعت خيول المسلمين بمصر وعمروا الفسطاط.

ثم أرسل عمرو جيشاً إلى إسكندرية، وقد كان المقوقس صاحب الإسكندرية قبل ذلك يؤدي خراج بلده وبلد مصر إلى ملك الروم، ولما حاصره عمرو بن العاص جمع أساقفته وأكابر دولته وقال لهم: إن هؤلاء العرب غلبوا كسرى وقيصر وأزالوهم عن ملكهم ولا طاقة لنا بهم والرأي عندي أن نؤدي الجزية إليهم.

ثم بعث المقوقس إلى عمرو بن العاص يقول له: إني كنت أؤدي الخراج إلى من هو أبغض إلي منكم (فارس والروم)، ثم صالحه على أداء الجزية، وبذلك فتحت مصر في ربيع الأول من السنة السادسة عشرة وقام

فيها ملك الإسلام وعزّ سلطانه، وقيل: بل فتحت في سنة عشرين، وفتحت إسكندرية في سنة خمس وعشرين.

وقد سميت مصر بالفسطاط نسبة إلى فسطاط عمرو بن العاص، ذلك أن عمرو بن العاص نصب خيمته وهي الفسطاط موضع مصر اليوم، ثم بنى الناس حوله، ثم رفع الفسطاط وبنى موضعه جامعاً وهو المنسوب إليه اليوم[1].

قصة نيل مصر:

كانت تمر بالنيل فترة من الزمن يشح فيها ماؤه فينضب ثم لا يجري قليلاً ولا كثيراً، حتى كاد الناس يهمون بالجلاء، فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر: إني قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي فألقها في النيل، فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها: من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد: فإن كنت إنما تجري من قِبَلِك ومن أمرك فلا تجر فلا حاجة لنا فيك، وإن كنت إنما تجري بأمر الله الواحد القهار، وهو الذي يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك.

فألقى البطاقة في النيل فأصبح الناس وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقطع الله الجدب والقحط عن أهل مصر إلى اليوم[2].

وما ينبغي لأحد أن يعجب لمثل هذا الحدث الخارق، فإن سنن الله المطردة لا جرم تتوقف عن الاطراد تكريماً من الله جلّ وعلا لأوليائه الأبرار وأتقيائه الأطهار، وقمين بالعبد الزكي المفضال أن لا يستيئس من كريم الحظوة عند الله وجزيل المكرمة من لدنه بما يثير في الناس دهشهم، ومما فيه جنوح عن وتيرة الطبيعة الرتيبة التي لا تتخلف ولا تتعطل إلا بتقدير

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٩٧ ـ ١٠٠، والكامل لابن الأثير ج٢ ص٥٦٤ ـ ٥٦٨.
(٢) تاريخ ابن الأثير ج٧ ص١٠٠.

من الله الخالق تعظيماً لجنده البررة، كعمر بن الخطاب، هذا التقي الزكي المقدام، والإمام العادل الخاشع، الذي بذَّ الميامين الغُر، وأذهل العقول والألباب بفرط عدله وفضله وعجيب خصاله التي لا تُضاهى.

وقعة نهاوند:

وهذه وقعة عظيمة ونبأ مستطير عز فيها الإسلام وذل الشرك والباطل، وكانت سنة إحدى وعشرين وكان المسلمون يسمونها فتح الفتوح.

وتفصيل ذلك أنه عقب فتح الأهواز وقد تقهقر يزدجرد من بلد إلى آخر حتى صار إلى أصبهان، شريداً طريداً، بعث إلى الملوك ما بين الباب والسند وخراسان وحلوان يستمدهم ويستجيشهم، فتجمعوا وتراسلوا حتى اكتمل لهم من الفرس مائة وخمسون ألفاً وعليهم الفيرزان، فاجتمعوا من كل فج عميق بأرض نهاوند، وحرّض بعضهم بعضاً، وقالوا: إن محمداً الذي جاء العرب لم يتعرض لبلادنا، ولا أبوبكر الذي قام بعده تعرض لنا في دار ملكنا، وإن عمر بن الخطاب هذا لما طال ملكه انتهك حرمتنا وأخذ بلادنا، ولم يكفه ذلك حتى غزانا في عقر دارنا، وأخذ بيت المملكة، وليس بمُنْتَهٍ حتى يخرجكم من بلادكم.

فتعاهدوا على أن يقصدوا البصرة والكوفة ليشغلوا عمر عن بلادهم وكتبوا بذلك كتاباً ليلزموا أنفسهم بمقتضاه.

فكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر يعلمه بخبر الفرس وبتمالئهم عليهم وأنهم قد جمعوا لهم مائة وخمسين ألفاً، فأمر عمر أن ينادى للصلاة جامعة، فاجتمع الناس وكان أول من دخل المسجد لذلك سعد بن أبي وقاص فتفاءل به عمر، إذ صعد المنبر فقال في الناس وقد اجتمعوا من حوله: إن هذا يوم له ما بعده، ألا وإني قد هممت بأمر فاسمعوا وأجيبوا وأوجزوا: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦]، إني قد رأيت أن أسير بمن قبلي حتى أنزل منزلاً وسطاً بين هذين المِصْرَين فأستنفر الناس ثم أكون لهم ردءاً (عوناً) حتى يفتح الله عليهم.

فقام عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبدالرحمٰن بن عوف في رجال من أهل الرأي، فتكلم كل منهم بانفراده فأحسن وأجاد واتفق رأيهم على أن لا يسير من المدينة، بل يبعث البعوث ويحصرهم برأيه ودعائه، وقال علي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين، إن هذا الأمر لم يكن نصره وخذلانه بكثرة ولا قلة، هو دينه الذي أظهر، وجنده الذي أعزه وأمده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعود من الله، والله منجز وعده، وناصر جنده، ومكانك منهم يا أمير المؤمنين مكان النظام من الخرز يجمعه ويمسكه، فإذا انحل تفرق ما فيه وذهب، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثير عزيز بالإسلام، فاكتب إلى أهل الكوفة فهم أعلام العرب ورؤساؤهم، واكتب إلى أهل البصرة يمدونهم أيضاً.

وكان عمر رضي الله عنه إذا استشار أحداً لا يبرم أمراً حتى يشاور العباس، فعرض عليه كلام الصحابة، فقال العباس: يا أمير المؤمنين، خفِّض عليك، فإنما اجتمع هؤلاء الفرس لنقمة تنزل عليهم.

ثم عين عمر النعمان بن مُقرّن أميراً على الجند، ثم كتب إلى حذيفة ليسير من الكوفة بجنود منها، وكذلك كتب إلى أبي موسى ليسير بجنود البصرة، وكتب إلى النعمان ـ وكان بالبصرة ـ ليسير بمن هناك من الجنود إلى نهاوند، وأمر عمر أن يكون على كل جيش أميره، وأن يكون الأمير على كل الجنود النعمان بن مقرّن، فإذا قتل فحذيفة بن اليمان، فإن قتل فجرير بن عبدالله، فإن قتل فقيس بن مكشوح، فإن قتل قيس ففلان ثم فلان حتى عدَّ سبعة، أحدهم المغيرة بن شعبة.

وذلكم هو كتاب عمر إلى النعمان بن مقرن: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسرْ بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وَعْراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم (فتجحدهم)، ولا تدخلهم غيضة، فإن

رجلاً من المسلمين أحبُ إلي من مائة ألف دينار، والسلام عليك، فسرْ في وجهك ذلك، وقد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمع إليك جنودك فسرْ إلى الفيرزان، ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصروا وأكثروا من لا حول ولا قوة إلا بالله.

وكتب عمر إلى نائب الكوفة ـ عبدالله بن عبدالله ـ أن يعين جيشاً ويبعثهم إلى نهاوند وليكن الأمير عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهي إلى النعمان بن مقرن، فإن قتل النعمان فحذيفة فإن قتل فنعيم بن مقرن.

فسار حذيفة في جيش كثيف نحو النعمان بن مقرن، وسار مع حذيفة خلق كثير من أمراء العراق واحتاطوا لأنفسهم شديد الاحتياط، ثم انتهوا إلى النعمان بن مقرن حيث اتعدوا، فكمل بذلك جيش المسلمين ليكون ثلاثين ألفاً من المقاتلين، ومنهم كثير من سادات الصحابة ورؤوس العرب كعبدالله بن عمر بن الخطاب، وحذيفة بن اليمان، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وطليحة بن خويلد الأسدي.

فسار الناس نحو نهاوند، حتى انتهوا إلى الفرس وعليهم الفيرزان وهم في مائة وخمسين ألفاً.

فلما تراءى الجمعان كبر النعمان وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات فاضطربت الأعاجم وجزعوا أشد الجزع، ثم أمر النعمان بالقتال، وكان ذلك يوم الأربعاء فاقتتلوا في ذلك اليوم والذي بعده.

وفي يوم الجمعة، انحجز المشركون في حصونهم وحاصرهم المسلمون، ثم بعث أمير الفرس يطلب رجلاً من المسلمين ليكلمه، فذهب إليه المغيرة بن شعبة فأسمعه أمير الفرس من بذيء القول ما يسخط، إذ خاطبه بما فيه احتقار للعرب واستهانة بهم، وأنهم كانوا أشد الناس جوعاً وأقلهم داراً وقدراً، وقال: ما يمنع هؤلاء الجند من حولي أن يقتلوكم إلا تقززاً من جيفكم، فإن تذهبوا نخلِ عنكم.

فتشهد المغيرة بن شعبة وحمد الله وقال: لقد كنا أسوأ حالاً مما ذكرت حتى بعث الله رسوله إلينا، وقد جئنا في بلادكم، وإنا لن نرجع إلى

ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبكم على بلادكم وما في أيديكم أو نقتل بأرضكم.

ثم تأهب الفريقان للمناهدة واللقاء، وعُبِّئت الفرس تعبئة عظيمة واصطفوا صفوفاً هائلة.

وكذلك النعمان بن مقرن رضي الله عنه حرض المؤمنين على الصبر والثبات والمناجزة، ثم كبر ثلاث تكبيرات فحمل الناس على المشركين حتى تصافحوا بالسيوف، فاقتتلوا قتالاً لم يعهد مثله من قبل، وقتل من المشركين من القتلى ما غمر وجه الأرض دماً، حتى إن الدواب كانت تطيش أرجلها في الدماء، وقيل: إن النعمان نفسه زلق به حصانه في ذلك الدم فوقع وجاءه سهم في خاصرته فقتله، ولم يشعر به أحد غير أخيه سويد، وقيل: نعيم، وكتم أخوه خبر موته وأمر بكتمه كيلا يضطرب المسلمون، ولما أظلم الليل انهزم المشركون فولوا مدبرين أذلة، وتبعهم المسلمون يقتلونهم قتلاً، وكان المشركون قد قرنوا منهم ثلاثين ألفاً بالسلاسل وحفروا حولهم خندقاً، ولما انهزموا وقعوا في الخندق وهلكوا وكانوا مائة ألف أو أكثر، أما الفيرزان فقد هرب من أرض المواجهة واتبعه نعيم بن مقرن، ثم قدم القعقاع فلحقه وأدركه في همذان وقتله، ودخل المسلمون نهاوند عنوة بعد أن كتب الله لهم النصر وهزم أعداءهم الظالمين الفرس(١).

وفاة خالد بن الوليد:

هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم القرشي، أبو سليمان المخزومي.

ذلكم هو البطل الفذ الهمام، سيف الله، سله على الكافرين المعتدين، فلم يقهر في جاهلية ولا إسلام.

أمه عصماء بنت الحارث، أخت لبابة بنت الحارث وأخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين، وقد أسلم أول يوم من صفر سنة ثمان للهجرة وشهد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١٠٥ ـ ١١٢، وفتوح البلدان للبلاذري ص٤٢٤ ـ ٤٣٣.

غزوة مؤتة وانتهت إليه إمارة الجند، وحينئذٍ قاتل قتالاً عظيماً وأبلى أشد البلاء، وفي هذه الغزوة العظيمة كان النبي ﷺ يطلع على سير القتال وهو في المدينة إذ كشف الله له ستار الغيب فقال: **«أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها سيف من سيوف الله ففتح الله عليه»**.

وروي عن أبي بكر أنه لما أمّر خالداً على حرب أهل الردة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«فنعم عبدالله وأخو العشيرة خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله سلّه على الكفار والمنافقين»**.

وفي الصحيح: **«وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً، وقد احتبس أدراعه وأعْبُده في سبيل الله»** وقد دخل مكة أميراً على طائفة من الجيش وقتل خلقاً كثيراً من قريش، وقد بعثه رسول الله ﷺ لتحطيم العُزى ـ معبود هوازن الموهوم ـ فكسر قمتها أولاً ثم دعثرها[1] وجعل يقول:

يا عُزى كفرانك لا سبحانك ... إني رأيت الله قد أهانك

ثم حرقها تحريقاً.

وقد استعمله الصديق بعد رسول الله ﷺ على قتال أهل الردة ومانعي الزكاة فأبلى البلاء الحسن وأدى مهمته على أكمل وجه، ثم وجّهه الصديق إلى العراق ثم أتى الشام فكان له من جليل الصنائع وعجيب المقامات في الحرب ما يثير الخيال ويبهج النفوس، ثم عزله عمر وولى مكانه أبا عبيدة وأبقاه مستشاراً له في الحرب، ولم يزل بالشام حتى مات على فراشه رضي الله عنه.

ولعل أصدق ما يقال في سبب عزله عن إمارة الجيش أن لا يخالج الناس شيء من تصور بأن النصر منوط بوجود أحد من الناس، سواء كان خالداً أم غيره من الشجعان، فإنما النصر من عند الله وحده، وقد روي عن

---

(١) دعثرها: من الدعثرة وهي الهدم، ويدعثره أي: يهدمه ويطحطحه، انظر: مختار الصحاح ص٢٠٥.

عمر أنه قال حين عزل خالداً عن الشام والمثنى بن حارثة الشيباني عن العراق: إنما عزلتهما ليعلم الناس أن الله نصر الدين لا بنصرهما وأن القوة لله جميعاً، وروي أن عمر قال حين عزل خالداً عن قنسرين وأخذ منه ما أخذ: إنك علي لكريم، وإنك عندي لعزيز، ولن يصل إليك مني أمر تكرهه بعد ذلك.

ولما حضرت خالداً الوفاة قال مقالته المشهورة: لقد حضرت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

ومن قوله رضي الله عنه كذلك: ما ليلة يُهدى إلي فيها عروس أو أُبشر فيها بغلام بأحب إلي من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو.

وقيل: لما حضرت خالد بن الوليد الوفاة قال: لقد طلبت القتل في مظانه فلم يُقدَّر لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عمل شيء أرجى عندي بعد لا إله إلا الله من ليلة بتُّها وأنا متترِّس والسماء تهلني تمطر إلى الصبح حتى نغير على الكفار.

ولما توفي خرج عمر على جنازته وقال: ما على نساء الوليد أن يسفحن على خالد من دموعهن ما لم يكن نقعاً أو لَقْلَقة، والنقع: معناه التراب على الرأس، واللقلقة: الصوت.

وجاء في صحيح البخاري أن عمر قال في ذلك: دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة.

وقيل: لما مات خالد بن الوليد اجتمع نسوة بني المغيرة في دار خالد يبكين عليه فقيل لعمر: إنهن قد اجتمعن في دار خالد يبكين عليه، وهن خُلقاء أن يُسمعنك بعض ما تكره، فأرسِلْ إليهن فانههن، فقال عمر: وما عليهن أن ينزفن من دموعهن على أبي سليمان ما لم يكن نقعاً أو لقلقة.

وقد مات رضي الله عنه سنة إحدى وعشرين في حمص، وقيل: في المدينة، ولما مات لم يوجد له إلا فرسه وغلامه وسلاحه، فقال له عمر في موته: رحم الله أبا سليمان ما عند الله خير له مما كان فيه، ولقد مات سعيداً وعاش حميداً ولكن رأيت الدهر ليس بقائل[1].

فتح همذان وغيرها من البلاد:

وكان ذلك في سنة ثنتين وعشرين، والسبب في ذلك أن المسلمين لما فرغوا من نهاوند وما كان فيها من قتال شديد وفتح عظيم كتبه الله للمسلمين، توجهوا إلى حلوان وهمذان ففتحوها، لكن أهل همذان ما لبثوا أن نقضوا عهدهم الذي صالحهم عليه القعقاع بن عمرو، فكتب عمر إلى نعيم بن مقرن أن يسير إلى همذان، فسار حتى نزل على ثنية العسل ثم تحدَّر على همذان فحاصرها، فسأله أهلها الصلح، فصالحهم واستولى عليها.

وعقب استيلاء المسلمين على همذان، وهم (المسلمون) حينئذٍ اثنا عشر ألفاً، تكاتف المشركون من الروم والديلم وأهل الري وأهل أذربيجان واجتمعوا على حرب نعيم بن مقرن في جم كبير من العساكر، وكان على الديلم ملكهم موتا، وعلى الري أبو الفرخان، وعلى أذربيجان إسفنديار أخو رستم.

فخرج نعيم بن مقرن على رأس المسلمين للقاء جموع الشرك فتلاقوا في مكان يقال له: واج الروذ، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت المعركة بين الفريقين عظيمة تعدل في شدتها نهاوند، وقد قتل من المشركين جمع كثير، وقتل ملك الديلم موتا، وتمزق شمل القوم وانهزموا شر هزيمة.

فكتب نعيم إلى عمر يعلمه بهذا الفتح بعدما كان رضي الله عنه مغتماً من اجتماع المشركين في كثرة جموعهم، ولما فوجىء بالبشرى حمد الله وأثنى عليه، وأمر عمر بكتاب نعيم فقُرىء على الناس ففرحوا وحمدوا الله عز وعلا.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١١٣ ـ ١١٨.

ثم كتب عمر إلى نعيم بأن يستخلف على همذان ويسير إلى الري، فامتثل نعيم لأمر عمر، واستخلف على همذان يزيد بن قيس، وسار بجيش المسلمين حتى بلغ الري، فلقي هناك جمعاً عظيماً من المشركين، فاقتتلوا عند سفح جبل الري فناجزهم المسلمون في ثبات وصبر عظيمين، فهزموهم بعون الله وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وغنموا مغانم كثيرة، فصالح أبو الفرخان على الري وكتب له نعيم أماناً بذلك ثم كتب نعيم إلى عمر بالفتح.

وبعد فتح همذان كان نعيم بن مقرن قد بعث بين يديه بكير بن عبدالله إلى أذربيجان، وأردفه بسماك بن خرشة، فلقي إسفنديار بكيراً وأصحابه من المسلمين من قبل أن يصلهم سماك بن خرشة، فاقتتلوا فهزم الله المشركين وأسر بكير إسفنديار فرغب هذا في الصلح، وجعل بكير يفتح البلاد بلداً تلو الآخر، حتى جاءه كتاب عمر يأمر فيه بكيراً بالتقدم إلى الباب فسار كما أمره، وحقق الله النصر للمسلمين وكتبوا لأهل أذربيجان الأمان والصلح.

غزوة الترك:

وكان ذلك سنة ثنتين وعشرين للهجرة وهو تصديق لما ورد في الصحيح عن أبي هريرة وعمرو بن تغلب أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً عِراض الوجوه، دُلف الأنوف، حمر الوجوه كأن وجوههم المجان المطرقة»**.

وبيان ذلك أن عمر رضي الله عنه أمر عبدالرحمٰن بن ربيعة بغزو الترك، فسار حتى قطع الباب، وسار معه شهريار، فغزا ملك الترك واسمه بلنجر ففر منه الترك وتحصنوا، وبلغت خيل المسلمين على مائتي فرسخ من بلنجر وعاد المسلمون ظافرين غانمين.

ثم تذامر[1] الترك وحرض بعضهم بعضاً على المناجزة، وكان الترك يعتقدون أن المسلمين لا يُقتَلون لأن الملائكة معهم، فأصابوا في هذه الغزاة

(١) التذامر: التحاض على القتال، انظر: القاموس المحيط ج٢ ص٣٧.

رجلاً من المسلمين على غِرة فقتلوه، فتجاسروا بعد ذلك على اللقاء والمناهدة، وقاتل عبدالرحمٰن بن ربيعة حتى قتل وأخذ الراية من بعده أخوه سلمان فخرج بالناس ومعه أبو هريرة الدوسي، فسلكوا على جيلان إلى جرجان.

فتح خراسان:

وحقيقة الأمر هنا أن الأحنف بن قيس قد أشار على عمر بأن يتوسع المسلمون بالفتوحات في بلاد العجم، ويضيقوا على كسرى يزدجرد فهو الذي يحرض الفرس على قتال المسلمين، فرضي عمر بهذا الرأي وأمّر الأحنف على جيش المسلمين وأمره أن يغزو بلاد خراسان.

فسار الأحنف على رأس جيش كثيف نحو خراسان لمحاربة يزدجرد، فدخل خراسان وافتتح هراة عنوة ثم سار إلى مرو الشاهجان وفيها يزدجرد، فرحل يزدجرد إلى مرو الروذ، وكتب يزدجرد إلى خاقان ملك الترك يستمد منه العون، وكتب إلى ملك الصين يستعين به على مواجهة المسلمين، ووفدت إلى المسلمين أمداد من أهل الكوفة مع أربعة أمراء مما اضطر يزدجرد للرحيل إلى بلخ، وهنالك هزمه المسلمون فتولى هارباً ومن بقي معه من جيشه، وبذلك استقر الملك للإسلام في سائر خراسان على يدي الأحنف بن قيس، فكتب إلى عمر يخبره بما فتح الله عليهم من بلاد خراسان بكمالها، وكتب عمر إلى الأحنف ينهاه عن العبور إلى ما وراء النهر، وقال له: احفظ ما بيدك من بلاد خراسان.

أما مبعوث يزدجرد إلى الذين استنجد بهم فإنهم لم يحتفلوا بأمره، ولما عبر يزدجرد النهر ودخل بلادهم تعين عليهم إنجاده في شرع الملوك في ذلك الزمان، فرجع يزدجرد بجنود عظيمة وفيهم ملك التار خاقان.

وتهيأوا لقتال المسلمين، وتبرز الأحنف بن قيس والذين معه من أهل البصرة وأهل الكوفة وكانوا عشرين ألفاً من الرجال، فقام الأحنف في الناس خطيباً وقال: إنكم قليل وعدوكم كثير فلا يهولنكم، ثم تلا قوله تعالى:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٩].

ثم طال مكث المشركين في مكانهم وكان يُقتل منهم كل يوم أعداد غير قليلة وهم يتربصون بالمسلمين ويتوقعون لقاءهم، ثم أمرهم الملك خاقان ـ وكان متطيراً ومستيئساً ـ بالانصراف، وبلغ المسلمين خبر انصرافهم فقالوا للأحنف: ما ترى في اتباعهم؟ فقال الأحنف: أقيموا بمكانكم ودعوهم، وهو في ذلك مصيب، فقد جاء في الخبر: «**اتركوا الترك ما تركوكم**».

وبذلك رجع كسرى خاسراً يجرجر بانهزامه رداء الخيبة والفشل فباء بالذل والخزي والافتضاح بعد أن تبرأ منه أحوج الناس إليه، فتحير في أمره ماذا يفعل وإلى أين يذهب، فأشار عليه فريق من أولي النُّهى من قومه حين عزم على الذهاب إلى بلاد الصين أو يكون مع خاقان في بلاده، فقالوا له: نرى أن نصانع هؤلاء القوم فإن لهم ذمة وديناً يرجعون إليه، فنكون في بعض هذه البلاد وهم مجاورونا، وهم خير لنا من غيرهم، فأبى كسرى ذلك، وبعث إلى ملك الصين، يستغيث به ويستنجده، فجعل ملك الصين يسأل رسول كسرى عن صفة هؤلاء القوم (المسلمون) الذين فتحوا البلاد وقهروا رقاب العباد، فأخبره عن صفتهم وكيف يركبون الخيل والإبل، وكيف يصلون، فكتب معه إلى كسرى (يزدجرد): إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله مرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق علي، ولكن هؤلاء القوم الذين وصفهم لي رسولك، لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو جئت لنصرك أزالوني ما داموا على ما وصف لي رسولك، فسالمهم وارض منهم بالمسالمة.

وبذلك قد باء كسرى بالذل الشديد وهو مفضوح ومقهور وطريد، فلم يجد مندوحة من أن يقوم ومعه آل كسرى في بعض البلاد مقهورين، وما فتىء دأبه على هذه الحال من القهر والتعس، حتى قتل بعد سنتين من إمارة عثمان.

ثم بعث الأحنف بكتاب الفتح المبين وما كتب الله لهم من الغلبة والعلو وما أفاء عليهم من هائل الأموال، وأنهم قتلوا منهم خلقاً كثيراً بعد أن رد الله الظالمين بغيظهم مذعورين مقهورين، ولما وقف عمر على كتاب الأحنف قام على المنبر وقُرىء الكتاب بين يديه، وقال: إن الله بعث محمداً بالهدى، ووعد على اتّباعه من عاجل الثواب وآجله خير الدنيا والآخرة فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: الآية ٣٣]، فالحمد لله الذي أنجز وعده ونصر جنده، ألا وإن الله قد أهلك ملك المجوسية وفرّق شملهم فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضير بمسلم، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون، فقوموا في أمره على وجل يوف لكم بعهده ويؤتكم وعده، ولا تغيروا يستبدل قوماً غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى من قبلكم[(١)].

قصة سارية بن زنيم:

سارية بن زنيم واحد من قادة العساكر المسلمين الفاتحين في بلاد فارس، وكان هو وجنوده في منخفض من الأرض، وأعداؤهم من الفرس والأمراء في حصن عال، وقد اجتمع له جموع كثيرة من المشركين فدهم المسلمين منهم أمر عظيم، فرأى عمر في تلك الليلة فيما يرى النائم معركتهم وعددهم في وقت من النهار وأنهم في صحراء، وهناك جبل إن أسندوا إليه لم يؤتَوا إلا من وجه واحد، فنادى من الغد، الصلاة جامعة، حتى إذا اجتمع الناس صعد عمر المنبر فخطب الناس وأخبرهم بما رأى ثم قال: يا سارية الجبل، الجبل، ثم أقبل على الناس وقال: إن لله جنوداً ولعل بعضهم أن يبلغهم، فنصر الله المسلمين المجاهدين على عدوهم ففتحوا البلد.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١٢٠ ـ ١٣٠، وتاريخ ابن خلدون ج٢ ص١١٨ ـ ١٢٣، وفتوح البلدان للبلاذري ص٤٣٣ ـ ٤٣٦.

وفي رواية أخرى أن عمر بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ قال: يا سارية بن زنيم الجبل الجبل، فلجأ المسلمون إلى جبل هناك فلم يقدر عليهم العدو إلا من جهة واحدة فأظفرهم الله بهم وفتحوا البلد وغنموا مغانم كثيرة.

ولما قدم رسول سارية المدينة ومعه خمس الغنائم سأله أهل المدينة: هل سمعتم صوتاً يوم الوقعة؟ فقال: نعم، سمعنا قائلاً يقول: يا سارية الجبل، وقد كدنا نهلك فلجأنا إليه ففتح الله علينا[1].

وفاة عمر بن الخطاب:

كان للمغيرة بن شعبة مولى من نصارى العجم اسمه أبو لؤلؤة فيروز المجوسي الأصل، الرومي الدار، وكان المغيرة يشدد عليه في الخراج، فشكاه إلى عمر وقال: أعدني (ساعدني) على المغيرة فإنه يثقل علي في الخراج درهمين في كل يوم، فقال عمر: وما صناعتك؟ قال: نجار، حداد، نقّاش. فقال عمر: ليس ذلك بكثير على هذه الصنائع، وقد بلغني أنك تقول: أصنع رحى تطحن بالريح فاصنع لي رحى، فقال أبو لؤلؤة: أصنع لك رحى يتحدث الناس بها أهل المشرق والمغرب، وانصرف، فقال عمر: توعدني العلج[2]، فلما أصبح خرج عمر إلى الصلاة واستوت الصفوف ودخل أبو لؤلؤة في الناس وبيده خنجر برأسين، ونصابه في وسطه، فطعنه به ثلاث طعنات، وقيل: ست طعنات إحداهن تحت السرة فقطعت سفاقه فخرّ واقعاً على الأرض، واستخلف في الصلاة عبدالرحمٰن بن عوف، ثم رجع الخبيث الشقي، فيروز بخنجره لا يمر بأحد إلا طعنه بخنجره حتى ضرب ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم ستة، ثم ألقى عليه عبدالله بن عوف برنساً فسقط على الأرض ثم ضرب نفسه بخنجره فمات منتحراً عليه لعائن الله.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١٣٠.

(٢) العلج: الواحد من مشركي العجم، وجمعه: علوج، انظر: مختار الصحاح ص٤٤٩.

أما عمر فقد حمل إلى بيته والدم يسيل من جرحه، وكان ذلك قبل طلوع الشمس، فكان يفيق ثم يغمى عليه.

ثم سأل عمن قتله، فقالوا: هو أبو لؤلؤة الفارسي، غلام المغيرة بن شعبة، فقال عمر: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يدي رجل يدعي الإيمان ولم يسجد لله سجدة، ثم قال: قبحه الله، لقد كنا أمرنا به معروفاً.

فتوفي رضي الله عنه وهو ابن ستين سنة، وقيل: إحدى وستون، وقيل: خمس وستون، وقيل غير ذلك، وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر، وكان ذلك صبيحة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة خلال هذه السنة وهي ثلاث وعشرون للهجرة، وكان أبو لؤلؤة قد توعده عشية الثلاثاء.

فكان استشهاده رضي الله عنه تحقيقاً لرغبة كان عمر يتمناها ويتشوف لبلوغها، فقد ثبت في الصحيح عنه أنه كان يقول: اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك وموتاً في بلد رسولك، فاستجاب الله له هذا الدعاء، ففارق الدنيا راضياً مرضياً، آمناً مطمئناً بعد أن أدى من عظيم الصنائع ما لم يؤده الأولون والآخرون عدا النبيين والمرسلين.

لقد شاع الإسلام في عهده واستطار فبلغ الآفاق من ربوع العالمين، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، واستتب الأمن والرخاء والاستقرار في البلاد.

ذلكم هو الفاروق الجليل الأكرم الذي صنعه الإسلام بعقيدته الراسخة السمحة، وبتعاليمه العظيمة التي لا نظير لها في تاريخ الشرائع والملل والديانات.

وأصدق برهان على ترسيخ هذه الحقيقة، ما كان من بون شاسع عريض بين شخصيتين ثنتين لعمر بن الخطاب وهما جاهليته وإسلامه، أما في جاهليته فكان موغلاً في الفظاظة والتعصب للشرك وباطل الوثنية في ضلالها السحيق وظلامها المنكود، يوم اجترأ عمر بن الخطاب في قسوة فظيعة على دفن ابنته الصغيرة الوادعة في التراب وهي حية.

وأما في إسلامه فكان في الذروة من البر والرأفة والرحمة، وعنواناً للعدل والفضيلة والحدب على الخلائق، وما كان لعمر أن يتحول مثل هذا التحول العجيب المذهل لولا الإسلام بروعة نظامه العجيب الباهر.

وما كان للشرائع والملل المصطنعة والموضوعة أن تصنع من عجائب الرجال الغرّ كما صنع الإسلام، فما تصنع النظم من غير الإسلام سوى الأشقياء المناكيد من البشر المفتون، البشر المضلل التائه الذي فتنته ضلالات المادية الفاجرة فجنحت به إلى مهاوي الشر والرذيلة والباطل.

وقبل وفاته رضي الله عنه أوصى أن يكون الأمر شورى بعده في ستة ممن توفي النبي ﷺ وهو عنهم راض، وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبدالرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وكان ذلك سنة أربع وعشرين، ودفن في الحجرة النبوية إلى جانب أبي بكر الصديق بعد أن أذنت بذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وفي ذلك اليوم بدأت خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.



الفصل الثالث

خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

بعد مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بثلاثة أيام بويع عثمان بن عفان خليفة للمسلمين رضي الله عنه.

وتفصيل ذلك أن أمير المؤمنين عمر كان عقب طعنته الغادرة قد جعل الأمر شورى بين ستة نفر وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمٰن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين.

ولم يجعل عمر الخلافة لواحد من هؤلاء على اليقين وقال: لا أتحمل أمرهم حياً وميتاً، وإن يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خير هؤلاء كما جمعكم على خيركم بعد نبيكم ﷺ، ثم قال لهم: ليحضركم عبدالله ـ يعني ابنه ـ لكن ليس له من الأمر شيء، بل يحضر الشورى ويشير بالنصح ولا يُوَلّى شيئاً.

وقد جعل أهل الشورى عقب وفاة عمر، الأمر إلى عبدالرحمٰن بن عوف ليجتهد للمسلمين في أفضلهم فيلي أمرهم، فبادر في سرعة واهتمام، يتحرى ويسأل من يمكنه أن يسأله من أهل الشورى وغيرهم، فكان أكثرهم يشير إلى عثمان بن عفان.

ثم نهض عبدالرحمٰن بن عوف يستشير الناس في الاثنين فكان يجتمع برؤوس الناس وقادتهم مجتمعين وأشتاتاً، مثنى وفراداً، سراً وعلانية، حتى

سأل بعض النساء أولات الخدور في حجابهن، حتى سأل من يراه من الركبان والأعراب الذين يردون المدينة، وذلك كله خلال أيام ثلاثة بلياليها، فما وجد اثنين يختلفان في تقدم عثمان بن عفان.

ثم بعث عثمان إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ونودي في الناس عامة للصلاة جامعة، فامتلأ المسجد حتى غصَّ بالناس، حتى لم يبق لعثمان موضع يجلس فيه، وكان رضي الله عنه رجلاً حيياً، ثم صعد عبدالرحمٰن بن عوف المنبر - منبر رسول الله ﷺ - فدعا دعاءً طويلاً لم يسمعه الناس، ثم قال: أيها الناس إني سألتكم سراً وجهراً، بأمانيكم فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين: علي وعثمان، فقم إليَّ يا علي، فقام إليه تحت المنبر فأخذ عبدالرحمٰن بيده وقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟ فقال: اللهم لا ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، فأرسل يده، وقال: قم إليَّ يا عثمان، فأخذ بيده فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟ فقال عثمان: اللهم نعم، فرفع عبدالرحمٰن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان.

ثم تزاحم الناس يبايعون عثمان وجاؤوا لذلك من كل مكان، وقد بايعه علي بن أبي طالب أولاً.

ذلك هو أسلوب المسلمين في اختيار الحاكم الذي تناط به الإمامة الكبرى ليكون بذلك خليفة للمسلمين، إذ يختاره أولو العلم من الناس، فهم النخبة المميزة الفضلى في المجتمع والذين يفضُلون عامة الناس بسعة علمهم وما أوتوه من عظيم النباهة والفطانة وحسن البصيرة، لا جرم أن هؤلاء خير من يختار للناس إمامهم على نحو ما يعلمونه في ذلك من صفات الإمام العادل ذي الكفاءة المتكاملة، والثبات على الحق وعلى جادة السبيل المستقيم، خلافاً للأسلوب الذي يفاخر به المتمرسون في النظام العلماني المعاصر، إذ يفاخرون الناس بالديمقراطية القائمة على الاقتراع لكل الأفراد

أو نظام التصويت لعموم الناس، ومثل هذا الأسلوب لدى النظرة الأولى يبدو أنه معقول وجيد، حتى إذا أمعن البصير فيه النظر والتفكير أيقن أنه موهوم وأنه مصطنع ومخادع، فما يلبث الإعجاب بهذا النظام اللامع أن يتبدد، وكيف لا، والحاكم في النظام العلماني الديمقراطي إنما يطفو على سدة الحكم من خلال المقترعين المصوتين وهم أخلاط شتى من الرعاع الجهلة ومن عامة الناس، لا جرم أن هؤلاء الأشتات من العوام والجاهلين والساذجين أعجزُ الناس عن الاضطلاع بهذه الوجيبة الخطيرة، وجيبة الاختيار للإمامة الكبرى.

بل إن هؤلاء الأشتات السذج لسوف تفتنهم وسائل الخداع والتضليل التي يصطنعها المخادعون ممن يرشحون أنفسهم لبلوغ المناصب، فهؤلاء باقتدارهم على التضليل والتمويه والتحيل وبما أوتوه من أموال طائلة مركومة قادرون على التغرير بالناس وحملهم على الثقة بهم وتصديق ما يدعون، وذلك من خلال دعاياتهم العريضة الرنانة ونداءاتهم الصارخة الموهومة التي تصور للعامة صدق المرشحين وإخلاصهم، وهم في الحقيقة كاذبون مغرضون متملقون لا ينشدون في الحياة غير الشهرة وبلوغ المناصب الرفيعة، وهو ما ليس له في أسلوب المسلمين نظير، وهو أسلوب صدوق ومتين وموثوق، إذ يقوم بمثل هذه المهمة الخطيرة خير المسلمين ونخبتهم الأولى المفضلة وهم العلماء، وأولئك هداة البشرية في هذه الدنيا، والشهود عليهم إذا قامت الساعة، لا جرم أنهم خير مؤتمن لحمل هذه الرسالة، رسالة الاختيار السليم الموثوق ليقوم الناس بعد ذلك بالمبايعة وهم واثقون مطمئنون.

ولما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو على شديد من الكآبة حتى أتى منبر رسول الله ﷺ فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ وقال: إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا، ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً بالذي هو خير فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ

أَنزَلْنَهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: الآيتان ٤٥ - ٤٦]، ثم أقبل الناس لمبايعته.

وعقب مبايعة عثمان على الخلافة كتب إلى عماله على الأمصار وهم أمراء الحرب والأئمة على الصلوات، والأمناء على بيوت المال يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحضهم على طاعة الله وطاعة رسوله، ويحذرهم الابتداع.

وفي هذه السنة وهي الرابعة والعشرون، عزل عثمان، المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولى عليها سعد بن أبي وقاص، فكان سعد أول من ولاه عثمان، فاستعمله سنة وبعض سنة، ثم عزله وولى مكانه الوليد بن عقبة بن أبي معيط، الذي غزا في هذا العام أذربيجان وأرمينيا عندما منع أهلها ما كانوا صالحوا عليه عمر بن الخطاب، فقد سار الوليد بجيش الكوفة نحو أذربيجان وأرمينيا حين نقضوا العهد فوطىء بلادهم، ولما ظنوا أنهم مهزومون لا محالة، صالحوا المسلمين على ما كانوا صالحوا عليه حذيفة بن اليمان، فأخذ منهم جزية سنة ورجع سالماً وجنده إلى الكوفة، فمر في طريقه بالموصل، فجاءه كتاب عثمان يأمره فيه أن يمد أهل الشام على حرب الروم الذين جاشوا في هذا العام حتى خشيهم أهل الشام فبعثوا إلى عثمان رضي الله عنه يستمدون منه المدد، فكتب إلى الوليد بن عقبة، أن يبعث رجلاً أميناً شجاعاً في ثمانية آلاف أو أكثر إلى إخوانهم بالشام، فقام الوليد خطيباً في الناس عقب وصول الكتاب من عثمان فندب الناس وحضهم على الجهاد ومساعدة معاوية وأهل الشام، فانتدب في ثلاثة أيام ثمانية آلاف رجل من المسلمين، وجعل عليهم سلمان بن ربيعة أميراً، ثم بعثهم إلى الشام وأمّر على الجند الزاحف للقاء الروم حبيب بن مسلم الفهري، فلما تلاقى الجيشان شن المسلمون غاراتهم على بلاد الروم فهزموهم وغنموا منهم كثيراً.

وفي سنة خمس وعشرين، نقض أهل الإسكندرية العهد، ذلك أن

ملك الروم قد أمدهم بعساكر من البحر فطمعوا في النصرة ونقضوا ذمتهم، فغزاهم عمرو بن العاص ففتح أرضهم عنوة وفتح المدينة صلحاً، وفيها حجّ عثمان بالناس، ووجه عمرو بن العاص، عبدالله بن سعد بن أبي السرح لغزو بلاد المغرب، ثم استأذنه ابن أبي السرح في غزو إفريقية فأذن له.

وفي سنة ست وعشرين، وسّع عثمان المسجد الحرام، وعزل سعداً عن الكوفة وولاها ابن عقبة بن أبي ميعط وكان هذا والياً لعمر على عرب الجزيرة.

وفي سنة سبع وعشرين، عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبدالله بن سعد بن أبي سرح وهو أخو عثمان لأمه.

وأمر عثمان عبدالله بن سعد بن أبي سرح أن يغزو بلاد إفريقية فإذا افتتحها الله عليه كان له من الغنائم خمس الخمس، فسار إليها في عشرة آلاف مقاتل فافتتحها وقتل من أهلها كثيراً حتى اجتمعوا على الإسلام ودخلوا فيه وقد حسن إسلامهم.

وعقب افتتاح إفريقيا بعث عثمان كلاً من عبدالله بن نافع بن عبد قيس، وعبدالله بن نافع بن الحصين الفهريين أن يسيرا في الحال إلى الأندلس فيأتياها من قبل البحر، وكتب عثمان إلى الذين خرجوا إليها: إن القسطنطينية إنما تفتح من قبل البحر، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء في الأجر لمن يفتتح القسطنطينية، فساروا إليها فاتحين.

وقعة البربر مع المسلمين:

لما قصد المسلمون إفريقيا وكان عليهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح وفي جيشه عبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير في عشرين ألفاً من المقاتلين، واجههم ملك البربر جرجير في مائة وعشرين ألفاً من المقاتلين، وقيل: في مائتي ألف، فأحاطوا بالمسلمين من كثرتهم وكان المسلمون إذ ذاك في حيرة وقلق، وغشيهم كثير من الفزع، وكان الملك جرجير حينئذٍ راكباً برذوناً ومن حوله جاريتان تظللانه بريش الطواويس، فذهب عبدالله بن الزبير إلى

عبدالله بن سعد بن أبي سرح فسأله أن يبعث معه من يحمي ظهره ليقصد الملك فينقض عليه، وأقر عبدالله بن سعد هذا الرأي، فجهز معه نفراً من شجعان الرجال ليحموا ظهره، فذهب ابن الزبير نحو الملك مخترقاً الصفوف إليه، فلما رآه الملك جزع أشد الجزع فولّى هارباً، فلحقه ابن الزبير فطعنه طعنة قاتلة برمحه ثم ذفف[1] عليه بسيفه وقطع رأسه وكبّر تكبيراً، ولما رأى البربر ذلك غشيهم الرعب وولوا هاربين، ولحق بهم المسلمون يقتلون ويأسرون ويغنمون، وفي هذا الموقف اشتهر عبدالله بن الزبير رضي الله عنه وعن كل أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين[2].

فتح قبرص:

وهذه جزيرة صغيرة في البحر تقع غربي بلاد الشام، وقد فتحت على يد معاوية بن أبي سفيان، إذ سار إليها في جيش من المسلمين ومعه عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت ملحان وهي التي نام النبي ﷺ في بيتها ثم استيقظ يضحك، فقالت: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: «**ناس من أمتي عُرضوا علي يركبون ثبج[3] هذا البحر مثل الملوك على الأسرة**»، فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**أنت منهم**»، ثم نام فاستيقظ وهو يضحك، فقال مثل ذلك، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم فقال: «**أنت من الأولين**».

فكانت هذه الغزوة وماتت بها، وكانت الثانية غزوة القسطنطينية.

على أن المراد هنا أن معاوية ركب ثبج البحر في مراكب وسار بجيش المسلمين إلى جزيرة قبرص بعد أن أمره عثمان بن عفان بذلك، مع أن معاوية كان قد سأل عمر بن الخطاب في ذلك لكنه أبى خوفاً على المسلمين من مهاوي البحر، لكن معاوية قد ألحّ على عثمان في ذلك فأذن

---

(١) ذفف عليه: أجهز عليه، انظر: القاموس المحيط ج٣ ص١٤٦.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١٤٤ ـ ١٥٣.

(٣) ثبج البحر: وسطه، انظر: مختار الصحاح ص٨٢.

له فركب المراكب حتى انتهى إلى الجزيرة، وهناك لقيه عبدالله بن أبي السرح، إذ جاء إلى الجزيرة من الجانب الآخر، فاجتمع المسلمون على أهل الجزيرة فقاتلوهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم صالحهم معاوية على الجزية يؤدونها في كل عام وهادنهم، ولما أرادوا أن يخرجوا من الجزيرة جيء ببغلة لأم حرام لتركبها فسقطت عنها واندقت عنقها فماتت هناك.

وفي سنة تسع وعشرين، عزل عثمان بن عفان أبا موسى الأشعري عن ولاية البصرة، وولى عليها بدلاً منه عبدالله بن عامر بن حبيب بن عبد شمس وهو ابن خال عثمان بن عفان، وكان عمره إذ ذاك خمساً وعشرين سنة، وفي هذه السنة حجّ عثمان بالناس وضرب له بمنى فسطاط.

وفي سنة ثلاثين للهجرة النبوية، افتتح سعيد بن العاص طبرستان، فقد ركب في جيش من المسلمين فيهم الحسن والحسين والعبادلة الأربعة، وحذيفة بن اليمان، فسار بهم سعيد فمرّ ببلدان عديدة كان أهلها يصالحونه.

وفي هذه السنة عزل عثمان بن عفان، الوليد بن عقبة عن الكوفة، وولى عليها سعيد بن العاص.

وفي هذه السنة وقع بين معاوية وأبي ذر خلاف بالشام يتعلق باقتناء المال وما أبيح للمسلم في ذلك من التنعم بالمال ورغد العيش، فكان أبو ذر يؤثر للمسلم أن يعيش على الكفاف ويحرم عليه اكتناز المال أو الاقتناء منه فوق ما يحتاجه المرء من قوت نفسه وعياله، وعلى ذلك فقد كان أبو ذر يوجب التصدق بكل ما فضل من المال، مستدلاً في ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: الآية ٣٤]، ذلك ما كان يستند إليه أبو ذر في تحريم اقتناء المال أو ادخاره فوق الحاجة، وكان يشيع في البلاد قناعته هذه مما أثار بين الناس البلبلة، فنهاه معاوية عن إشاعة مثل هذا الرأي، لكنه أبى أن يتوقف، فشكاه معاوية إلى عثمان على مقالته تلك، وطلب منه أن يرجع عما كان يقول به فلم يرجع، فأمره بالمقام بالربذة وهي شرقي المدينة، فلم يزل مقيماً بها حتى مات رضي الله عنه.

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن أبا ذر رضي الله عنه ما كان يسعفه احتجاج ظاهر في هذه المسألة، وإنما كان يعوِّل في ذلك على العموم من بعض الآيات التي يصعب الاستدلال بها من غير تخصيص، ومن حقائق هذا الدين المتين أن يباح للمسلم الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا ما لم يسرف في ذلك، وأن يقتني من المال ما شاء، ما دام السبيل لتحصيله مشروعاً وما دام المالك قد أدى زكاته، وعلى هذه الصفة من امتلاك المال كان كثير من مشاهير الصحابة الأبرار كأبي بكر وعمر وعثمان وعبدالرحمٰن بن عوف، وغيرهم من عظماء أصحاب رسول الله ﷺ.

أما أن كان أبو ذر مفطوراً على الزهد وحب التقشف والتحلل من ربقة التملك فهذا شأنه هو، وله أن يحتفظ لنفسه بمثل هذا التصور أو هذه القناعة من غير أن يلزم غيره من الناس بذلك، فكيف إذا كانت مقالة أبي ذر كادت تشيع في المسلمين التفرق وشتات القلوب، نقول ذلك بالرغم مما يحفل به المسلم من عظيم الحب والتقدير لهذا الصحابي الجليل الأكرم الذي كان في شديد تقواه ورهافة وجدانه وضميره المؤمن، نبراساً للأجيال والعالمين.

غزوة الصواري:

كانت هذه الغزوة سنة إحدى وثلاثين، وجملة القول في هذه الغزوة أن ولاية الشام كانت لمعاوية بن أبي سفيان لسنتين مضتا من خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد كان لمعاوية في كل سنة غزوة في بلاد الروم فيقتلون من المشركين كثيراً ويأسرون آخرين ويرهبون عدو الله.

ثم هاجت الروم وأخذت الحمية لسلطانهم الذي يتداعى على أيدي المسلمين رويداً رويداً، فاجتمعوا حول قسطنطين بن هرقل فساروا للقاء المسلمين في جمع حاشد كثيف، وقصدوا عبدالله بن أبي سرح ومن معه من المسلمين الذين دخلوا بلاد المغرب، ولما تراءى الجمعان، أخذ الروم يرددون ترانيمهم الدينية ويشيرون على صدورهم بصلبانهم، وفي مقابلة ذلك أخذ المسلمون يقرؤون آيات ربهم ويدعونه سبحانه ويلوذون بجنابه العظيم،

حتى إذا تدانى الفريقان ولقي بعضهم بعضاً، اجتلدوا بالسيوف والخناجر وسخر الله الأمواج المائجة لتضرب في سفن المشركين حتى ألجأتها إلى الساحل، وألقت الأمواج جثث الرجال الهامدة إلى الساحل كذلك حتى صارت كالجبل، وقد غلب الدم على لون الماء، وصبر المسلمون يومئذٍ صبراً منقطع النظير، وقتل من المسلمين كثيرون، ومن الروم أضعاف ذلك، ثم أنزل الله سكينته على المؤمنين المجاهدين وكتب لهم النصر والغلبة على الكافرين الذين ولوا مدبرين هرباً وعلى رأسهم قسطنطين وقد أصيب في جسده بجراحات كثيرة شديدة.

مقتل كسرى يزدجرد:

كسرى ملك الفرس، كان من أشد الخلق عداوة للمسلمين وكراهية لهم، فأذلّه الله على أيدي المسلمين الذين أذاقوه وجنوده الهزيمة تلو الهزيمة، فلم يجد له مناصاً من الهرب والتشرد من مكان إلى مكان، فقد هرب من كرمان إلى مرو مستخفياً خائفاً فسأل بعض أهلها أن يعطوه مالاً فأبوا، ثم بعثوا إلى الترك يحرضونهم عليه، فأتوه وقتلوا أصحابه الذين كانوا معه، ولاذ هو بالفرار حتى أتى منزلاً لرجل ينقر الأرحية (جمع رحى) على شط فآوى إليه ليلاً فلما نام قتله، وقيل: إن الترك جاؤوا في طلبه فوجدوا الرجل صاحب الأرحية قد قتله وأخذ ما معه فقتلوا الرجل وأهل بيته وأخذوا ما كان مع كسرى ووضعوا كسرى في تابوت وحملوه إلى إصطخر.

وقد استمر مُلك يزدجرد مَلك فارس عشرين سنة منها أربع سنين في دعة وأمن واستقرار، وباقي المدة كان فيها هارباً من بلد إلى بلد خوفاً من الإسلام والمسلمين، وكان يزدجرد آخر ملوك الفرس على الإطلاق، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ مما يثبت في الصحيح: **«إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»**.

وقد توفي في هذه السنة لفيف من الصحابة المشاهير منهم: عبدالله بن مسعود بن غافل الهذلي، أسلم قديماً قبل عمر بن الخطاب، فكان من

الأولين السابقين في الإسلام، وكان رضي الله عنه راسخ العقيدة شديد الإيمان، لا يخشى في الله لومة لائم، فقد رُوي أنه أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي ﷺ عند البيت وقريش في أنديتها إذ قرأ سورة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٣]، فقاموا إليه وضربوه ثم لزم النبي ﷺ.

وقد هاجر ابن مسعود إلى الحبشة ثم عاد إلى مكة ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدراً، وهو الذي قتل أبا جهل بعد أن طعنه طعنة قاتلة ولدا عفراء، معاذ ومعوذ.

وكان رضي الله عنه نحيفاً قصيراً دقيق الساقين، فقد روي عن علي أن ابن مسعود صعد شجرة يجتني الكباث[1] فجعل الناس يعجبون من دقة ساقيه، فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد»**.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان ينظر إلى قصره إذ كان يوازي بقامته الجلوس: هو كنيف[2] مليء علماً.

ولقد شهد هذا الصحابي الورع مواقف كثيرة أبلى فيها بلاءً حسناً، منها المعركة الفاصلة، اليرموك، وقد شهد وفاة أبي ذر بالربذة ودفنه، ثم قدم إلى المدينة فمرض بها ومات وصلى عليه الزبير بن العوام، وقيل: عثمان، ودفنه بالبقيع عن بضع وستين سنة.

ومنهم: عبدالرحمٰن بن عوف بن عبدالحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة، أسلم على يدي أبي بكر الصديق، وكان من الأولين في الإسلام، وقد هاجر إلى الحبشة وإلى المدينة، وشهد بدراً وما بعدها من الغزوات.

وكان رضي الله عنه من العشرة المبشَّرين بالجنة، وهو أحد الثمانية

---

(١) الكباث: النضيج من ثمر الأراك، حبه أكبر من حب الكزبرة في القدر، والكباثة: ثمرة لشجرة من فصيلة الفلفل، أو حنطة غبراء غليظة السنابل، انظر: القاموس المحيط ج١ ص١٢٥، وانظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٧٧١.

(٢) كنيف: وعاء، انظر: مختار الصحاح ص٥٨٠.

السابقين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى، ثم هو الذي اجتهد في تقديم عثمان رضي الله عنه لخلافة المسلمين.

وروي أنه تقاول[1] هو وخالد بن الوليد في بعض الغزوات فأغلظ له خالد في المقال، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: **«لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»**.

وكان رضي الله عنه باذلاً سخياً يجود بالكثير من ماله في سبيل الله، وكان يشتغل في التجارة، فبارك الله له في ماله حتى غدا عظيماً، فقد ذكر أنه قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البر والدقيق والطعام، فلما دخلت المدينة سمع أهلها رجة، فقالت عائشة: ما هذه الرجة؟ فقيل لها: عير قدمت لعبدالرحمٰن بن عوف، سبعمائة تحمل البر والدقيق والطعام، فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يدخل عبدالرحمٰن بن عوف الجنة حبواً»**، فلما بلغ ذلك عبدالرحمٰن قال: أشهدك يا أمَهْ أنها بأحمالها وأحلاسها وأقتابها في سبيل الله!

ومما يشهد لهذا الصحابي الأبر بعظيم الفضل والبر، وجزيل السخاء والعطاء، أنه لما حضرته الوفاة أوصى لكل رجل ممن بقي من أهل بدر بأربعمائة دينار ـ وكانوا حينئذ مائة ـ فأخذوها حتى عثمان وعلي، وكذلك أوصى لكل امرأة من أمهات المؤمنين بمبلغ كبير من المال حتى كانت عائشة تقول: سقاه الله من السلسبيل.

ولما مات ابن عوف صلى عليه عثمان بن عفان، وحمل في جنازته سعد بن أبي وقاص، ثم دفن بالبقيع عن خمس وسبعين سنة رضي الله عنه.

ومنهم أبو ذر الغفاري، واسمه جندب بن جنادة وكان من الذين سبقوا

---

(١) تقاول: تفاوض، قاوله في أمره مقاولة أي: حادثه، انظر: المصباح المنير ج٢ ص١٧٩، ومختار الصحاح ص٥٥٦.

بالإيمان، فكان رضي الله عنه رابع أربعة أو خامس خمسة في الإسلام، ثم رجع إلى قومه، فكان هناك حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فهاجر بعد الخندق ثم لزم رسول الله ﷺ، وجاء في فضل أبي ذر أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: **«ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر»**.

ولما مات رسول الله ﷺ ومات أبو بكر خرج أبو ذر إلى الشام، فبقي فيها حتى وقع بينه وبين معاوية خلاف، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، ثم نزل الربذة فأقام فيها حتى مات في ذي الحجة من هذه السنة ولم يكن عنده غير أولاده وامرأته، وبينما هم كذلك لا يقدرون على دفنه إذ قدم عبدالله بن مسعود من العراق في جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ فحضروا موته، وقد أرسل عثمان بن عفان إلى أهله فضمهم إليه[(١)].

بداية الفتنة:

في سنة أربع وثلاثين ظهرت بوادر الفتنة التي كادت تعصف بالمسلمين عصفاً لولا فضل الله إذ حفظ دينه وأعاد للمسلمين شملهم ومهابتهم، فقد كانت فتنة أثارتها جملة أسباب من النزاعات والمباغضات وتباين الآراء والقناعات، وفوق ذلك كله ما كان يقبع في الظلام من خلف المسلمين ليثير حفائظهم ويؤجج بينهم نار التمزق والكراهية والحقد، ويحرض الناس على إمام المسلمين كيما يؤذوه أو يقتلوه فتحيق بالمسلمين الويلات والمهالك.

أما الذي كان يقبع في الظلام ليثير في الأرض الشر والفتنة، ويودي بالمسلمين إلى الضعف والانهيار، ليستحيل المسلمون أشتاتاً متفرقين أو ينقلبوا إلى شراذم من البشر الممزق المضطرب ـ فذلكم هو عبدالله بن سبأ ـ هذا الذي اصطنع لنفسه في الإسلام عنواناً ليكون مسلماً في الظاهر، وهو يطوي في سريرته المظلمة ركاماً من كابوس الكراهية والحقد، أشربتهما إياه يهوديته المركوزة في أعماقه بالرغم من تظاهره المصطنع المريب بالإسلام!

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١٥٨، ١٥٩.

وسوف نعرض للحديث عن حقيقة هذا الرجل الخبيث وما تجرجر على يديه من سوء الأفاعيل للمسلمين.

على أنه ـ في هذه السنة ـ تكاتب فريق من المسلمين الذين حملوا على عثمان لما أخذوه عليه من بعض المآخذ، وهي مآخذ ما كانت لتحملهم على ركوب هذا المركب من الخروج والانحراف، وما كان لهم أن تكون لهم هذه ذرائع يحتجون بها فيزعزعوا صفوف المسلمين من حول الخليفة، مما يفضي بالأمة كلها إلى الفوضى والتدمير والاضطراب.

ومن بداهة القول أن ما يأخذه الناقدون على إمامهم من مآخذ ـ وإن كثرت ـ لا تعدل مثقال ذرة إذا ما قورنت بوخيم العواقب الفادحة المذهلة التي يؤول إليها هذا الخروج الشنيع، وهذه الفتنة العارمة.

ولقد كان جمهور هؤلاء الجانحين المفتنين من أهل الكوفة، إذ ثاروا على سعيد بن العاص أمير الكوفة، وأخذوا يؤلبون عليه الناس وينالون من عثمان بفاحش المقالات والمساءات، وقد بعثوا إلى عثمان من يناظره في إدارته وما فعل وفي عزله لكثير من الصحابة وتولية غيرهم من بني أمية من أقاربه، فخاطبوه في غلظة وطلبوا منه أن يعزل عماله على البلاد ليستبدل غيرهم من الولاة، فساء عثمان مقالتهم هذه وما واجهوه به من غليظ القول وسوء الخطاب، فبعث إلى أمراء الأجناد ليستشيرهم فاجتمع إليه كثير منهم وفيهم: معاوية بن أبي سفيان أمير الشام، وعمرو بن العاص، أمير مصر، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح، أمير المغرب، وسعيد بن العاص، أمير الكوفة، وعبدالله بن عامر، أمير البصرة. فاستشارهم في الأمر، فأشاروا عليه بجملة آراء، إذ أشار عبدالله بن عامر أن يشغلهم بالغزو وقتال المشركين فيذهلوا عما هم فيه من الشر، وأشار سعيد بن العاص أن يستأصلهم استئصالاً، فهم أولو فتنة وشر، وأشار معاوية بأن يرد هؤلاء الأمراء إلى أقاليمهم وألا يلتفت إلى المشاغبين وما راموه من شر، فهم قلة ضعاف لا ينبغي أن يؤبه لهم.

وأشار عبدالله بن سعد بن أبي سرح بأن يتألفهم الخليفة بالمال عسى

أن تسكن فيهم حمأة الفتنة والغضب فتلين قلوبهم بذلك، وأما عمرو بن العاص فقال لعثمان: لقد ركبت الناس ما يكرهون، فإما أن تعزل عنهم ما يكرهون، وإما أن تنزل عمالك على ما هم عليه، وقد خاطبه عمرو في ذلك مغلظاً ثم اعتذر له عقب ذلك.

وعقب ذلك أقر عثمان أمراءه على ما هم عليه، وتألف قلوب الجانحين المفتنين بالمال وأمر أن يبعثوا إلى غزو المشركين على الثغور، وذلكم حل معقول ومتوازن للمشكلة، حل يجمع بين إشغال المنحرفين بالقتال فتنشغل قلوبهم بالخطر الداهم المحدث عن إثارة الفتنة والشغب، وبين تطييب نفوسهم بشيء من المال تهدأ فيهم سَوْرة الشر المضطرم ويرقد في مشاعرهم ودمائهم دبيب الشيطان المؤجج الفتان.

ولما رجع العمال إلى أقاليمهم آلى أهل الكوفة أن لا يدخل عليهم سعيد بن العاص، وأن لا يمكنوه من الدخول حتى يعزله عثمان، ويولي عليهم أبا موسى الأشعري، فجنح سعيد بن العاص للحكمة وصوت العقل الحكيم الراجح ليكسر الفتنة بذلك، فكرّ راجعاً إلى المدينة مما أعجب أهل الكوفة كثيراً، ثم كتبوا إلى عثمان بذلك فأجابهم إلى ما سألوه[1].

عبدالله بن سبأ والفتنة:

عبدالله بن سبأ، يعرف بابن السوداء، وكان يهودياً ثم ادعى أنه مسلم ولم يظهر من سلوكه ولا خلاله شيء من خصال المسلم الصادق الأمين، وكان قد أُخرج من البصرة فلحق بالكوفة ثم بالشام، ثم أُخرج منها فلحق بمصر، وكان يكثر الطعن على عثمان ويحرض الناس عليه تحريضاً ويدعو بالإمرة لعلي، وهو في حقيقته الماكرة المريبة غير صادق ولا مؤتمن وإنما يبتغي الفتنة أن تعصف بالمسلمين فتدمرهم تدميراً وهو مستكنٌ راقد من خلف الصفوف.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١٧٠ ـ ١٨١.

لقد اصطنع هذا الماكر المخاتل كلاماً باطلاً مكذوباً وجملته أن عيسى بن مريم عائد إلى الدنيا، فمحمد ﷺ أولى منه بالعودة إلى هذه الدنيا، لأن محمداً خير عند الله من عيسى وأشرف منه.

وكان يقول: إن علياً وصيُّ رسول الله ﷺ، فمحمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء فهو بذلك أحق بالإمرة من عثمان، وأن عثمان أخذ الأمر بغير حق، فاغتر بدعواه هذه خلْق كثير من الناس فافتتنوا وكتبوا إلى كثير من أهل الكوفة والبصرة يحرضونهم على الخليفة، فتمالؤوا على ذلك وتواعدوا فيما بينهم أن يؤلبوا الناس على عثمان، وأرسلوا إليه من يناظره فيما ينقمون به عليه من توليته أقرباءه وأولي رحمه، وعزله كبار الصحابة حتى كاد ذلك يفتن شطراً عظيماً من الناس، وفيهم السذج والبسطاء والعوام الذين كثيراً ما تنطلي عليهم الدعايات الطنانة المزيفة، فيلهثون وراءها وقد استهوتهم أقاويل البارعين من مصاقع الخطابة والبيان، واستغفلتهم مؤامرات وأحابيل ومكائد دُبِّرت بليل في دهاليز الظلام! دبرتها وبرعت في إحكامها أصابع يهود بقيادة المخادع المتدسس عبدالله بن سبأ.

وخلال الفتنة المستطيرة، وتمالؤ الدهماء من المستشاطين المستَغفَلين، وقف علي رضي الله عنه ليقول في الأمر كلمته، وهو المؤمن الحريص الغيور على الإسلام وأهله، فقد دخل على عثمان وكلمه ناصحاً محذراً من مغبة الفتنة المستشرية، التي باتت تتهدد الأمة في دينها وعقيدتها ووحدة كلمتها بعد ما لاقت من كثير من الناس آذاناً صاغية، وكان مما قاله علي لعثمان: تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، هُدِيَ وهدى، فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة معلومة، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وأضل به، فأمات سنة معلومة وأحيى بدعة متروكة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في جهنم فيدور فيها كما تدور الرحى ثم يرتطم في غمرة جهنم**»، فإني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقمته فإن عذابه أليم شديد، واحذر أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه كان يقال: يُقتل في هذه الأمة إمام فيُفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، وتلبَّس أمورها

عليها، ويتركون شيعاً لا يبصرون الحق من الباطل، يموجون فيها موجاً، ويمرحون فيها مرحاً.

ومما قاله في معاوية بن أبي سفيان تنبيهاً لعثمان: فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها ويقول للناس: هذا أمر عثمان، فيبلغك ولا تغير على معاوية.

ثم خرج علي، وكذلك خرج عثمان فصعد المنبر فخطب في الناس وتكلم من الكلام ما فيه تحذير وتذكير وتنبيه، مبيناً أن ما كان يعطيه لأقربائه فإنه من فضل ماله، وكان مما قاله: كُفّوا ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على وُلاتكم، فإني قد كففت عنكم من لو كان هو الذي يليكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا، ألا فما تفقدون من حقكم؟ فوالله ما قصَّرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي، ثم اعتذر عما كان يعطي أقرباءه بأنه من فضل ماله.

فقام مروان بن الحكم فقال: إن شئتم والله حكَّمنا بيننا وبينكم السيف! فقال عثمان: اسكت لا سكتَّ، دعني وأصحابي، ما منطقك في هذا، ألم أتقدم إليك أن لا تنطق؟! فسكت مروان، ونزل عثمان رضي الله عنه.

وقيل: إن معاوية لما عزم على الخروج إلى الشام وودعه عثمان عرض عليه معاوية أن يرحل معه إلى الشام فأهلها أهل طاعة للأمراء، فقال عثمان: لا أختار بجوار رسول الله ﷺ سواه، فقال معاوية: فوالله يا أمير المؤمنين لتُغتالَنّ أو قال: لتغزين، فقال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل.

ثم خرج معاوية من عند عثمان متقلداً سيفه حتى مرَّ على قوم من المهاجرين والأنصار، فيهم علي بن أبي طالب، وطلحة، والزبير، فوقف عليهم وتكلم فيهم كلاماً بليغاً، أوصاهم فيه بعثمان بن عفان، وحذر فيه من إسلامه على أعدائه، ثم انصرف.

الاجتراء على عثمان رضي الله عنه:

عزل عثمان عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى عليها عبدالله بن

سعد بن أبي سرح، وذلك لأن الخوارج من المصريين كانوا قد شكوا عمرواً إلى عثمان كيما ينزعه عن الإمارة ويولّي بدلاً منه من هو أكثر منه ليناً، فاستجاب لمطلبهم من فرط إلحاحهم عليه بذلك فعزل عمرواً وولى مكانه عبدالله بن سعد بن أبي سرح، فانتقل عمرو بن العاص إلى المدينة وفي نفسه من عثمان شيء حتى تقاولا في الكلام.

وكان بمصر جماعة يبغضون عثمان وينالون منه ويؤلبون عليه وينقمون عليه في عزله جماعة من علية الصحابة وتولية من هم دونهم، فاستنفروا نحواً من ستمائة راكب يرومون المدينة في صفة معتمرين ليحاجوا عثمان وينكروا عليه ما نقموه عليه، وكان أميرهم حينئذٍ عمرو بن بديل الخزاعي، وكتب عبدالله بن أبي سرح إلى عثمان يعلمه بقدوم هؤلاء القوم إلى المدينة في صفة معتمرين، وهم في حقيقتهم يبغون به الشر.

فلما دنوا من المدينة بعث عثمان علي بن أبي طالب ليخرج إليهم فيردهم إلى بلادهم قبل بلوغهم المدينة، فانطلق علي بن أبي طالب إليهم وهم بالجحفة وكانوا يعظمونه تعظيماً، فردهم علي وأنّبهم أيّما تأنيب، وقيل: ناظرهم في عثمان وسألهم ماذا ينقمون عليه، فذكروا أشياء، منها: أنه حمى الحمى، وأحرق المصاحف، وأتم الصلاة بمكة، وولى الأحداث، وأعطى بني أمية أكثر من غيرهم.

فأجاب علي رضي الله عنه عن هذه المطاعن الملفقة، فقال في غاية البراعة والتنديد: أمّا الحمى، فإنما حماه لإبل الصدقة لتسمن، ولم يحمه لإبله، وقد حماه عمر من قبله.

وأما المصاحف فإنما أحرق ما وقع فيه اختلاف وأبقى لهم المتفق عليه، وأما إتمامه الصلاة بمكة، لأنه كان قد تأهل بها ونوى الإقامة فأتم الصلاة، أما توليته الأحداث من الشباب فلم يولِّ إلا رجلاً سويداً عدلاً، وقد ولى رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة، وولى أسامة بن زيد بن حارثة وطعن الناس في إمارته، وأما إيثاره قومه بني أمية، فقد كان رسول الله ﷺ يؤثر قريشاً على الناس، ووالله لو أن مفتاح

الجنة بيدي لأدخلت بني أمية إليها! فتبددت بهذا الرد القاسم المفحم كل شبهاتهم، وفُنِّدت كل عللهم وأحاجيجهم، ثم صفح عنهم عثمان فرجعوا إلى قومهم خائبين لم ينالوا شيئاً.

ثم أشار علي على عثمان أن يخطب في الناس فيعتذر إليهم فيها عما كان وقع من الأثرة لبعض أقاربه، ويشهدهم بأنه قد تاب من ذلك وأناب إلى الاستمرار على ما كان عليه من سيرة الشيخين قبله، فقبل عثمان هذه النصيحة، ولما كان يوم الجمعة وخطب الناس رفع يديه وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، اللهم إني أول تائب مما كان مني، ثم أخذت عيناه تبكيان، فبكى المسلمون جميعاً وأخذت قلوبَهم رقةٌ شديدة على عثمان رضي الله عنه.

وكان الناس مجتمعين من حول منزل عثمان يركب بعضهم بعضاً لتزاحمهم، وتألبهم على الخليفة مما يشير إلى أن فريقاً من الخائنين أولي النوايا الخبيثة يمكرون بالخليفة، ويبيتون للإسلام والمسلمين ليعصفوا بهم عصفاً.

ثم خرج إلى الناس مروان بن الحكم بأسلوبه الشنيع الفظ، فخاطبهم في غلظة شديدة وازدجرهم ازدجاراً ووبخهم أيما توبيخ، مما زادهم حقداً وإصراراً على الفتنة وتحريض الناس.

ولما علم علي بمقالة مروان المفحشة، جاء إلى عثمان مغضباً فقال: أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحويلك عن دينك وعقلك؟! والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه، وايم الله إني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد هذا لمعاقبتك.

فلما خرج علي دخلت على عثمان امرأته نائلة بنت الفرافصة الكلبية، فكلمته في بر وحرص وسداد رأي وقالت: سمعت قول علي أنه ليس يعاودك، وقد أطعت مروان حيث شاء، فقال لها عثمان: فما أصنع؟ قالت: تتقي الله وحده لا شريك له، وتتبع سنة صاحبيك من قبلك، فإنك متى أطعت مروان بن الحكم قتلك، ومروان ليس له عند الله قدر ولا هيبة ولا

محبة، فأرسل إلى علي فاستصلحه فإن له قرابة منك وهو لا يعصي، فأرسل عثمان إلى علي فأبى أن يأتيه لأنه أعلمه من قبل أنه غير عائد إليه.

قدوم الأحزاب إلى عثمان ثانية:

بلغ أهل الأمصار مقالة مروان للنافرين من عثمان وما ابتدرهم به من سوء الخطاب، وقبيح الاستقبال، فعاودهم النفور والاستفزاز واحتقنت قلوبهم بالحقد أكثر من ذي قبل، وباتت الفرصة سانحة لنفر من شياطين الإنس الذين يتدسسون في الخفاء وفي أوكار التآمر والكيد للمسلمين والناس جميعاً ساهون غافلون، وفي طليعة هؤلاء الماكرين اللُّد، عبدالله بن سبأ.

فتكاتب أهل مصر وأهل البصرة وتراسلوا ما بينهم وقد تمالؤوا جميعاً على تدمير الخلافة، وقد زورت من أجل ذلك كتب على لسان الصحابة الذين بالمدينة، على لسان علي وطلحة والزبير، يدعون فيها الناس إلى قتال عثمان انتصاراً للدين!!

فخرج أهل مصر في ستمائة إلى ألف رجل يظهرون للناس أنهم حجاج، وكان معهم المبتدع المريب ابن السوداء عبدالله بن سبأ، هذا اليهودي المتسلل الموتور! وخرج أهل الكوفة في عدة أمراء، منهم الأشتر النخعي، وزياد بن النضر، وعبدالله بن الأصم، وكذلك خرج أهل البصرة وأهل مصر، فسار كل طائفة من بلدهم حتى جمعتهم وحدة الهدف المشؤوم حول المدينة متظاهرين بأنهم حجاج.

ثم جاءت طائفة من المصريين إلى علي رضي الله عنه فصاح بهم وطردهم، إذ قال لهم: ارجعوا لا صبحكم الله! وكذلك فعل طلحة بالبصريين، إذ صاح بهم وطردهم، وكذلك رد الزبير أهل الكوفة إذ انتهرهم ووبخهم، ولما استيأسوا من استمالة هؤلاء الصحابة الأبرار، أظهروا للناس أنهم راجعون إلى بلدانهم، وهم ليسوا في ذلك إلا مراوغين مؤتمرين للبغي والشر، فساروا أياماً ثم ما لبثوا أن كروا راجعين إلى المدينة وقد أحاطوا بها، أما بقية الناس في المدينة فقد كفوا عن التلبس بالفتنة ولزموا بيوتهم

ومكثوا يرقبون ما سيؤول إليه الأمر، وهم لا يدرون ما القوم صانعون وما الذي هم عازمون عليه، وفي ذلك كله كان عثمان رضي الله عنه يخرج من داره إلى المسجد فيصلي بالناس.

وذهب الصحابة إلى هؤلاء المتمردين المغفلين يؤنبونهم ويحرضونهم على الرجوع، حتى إن علياً رضي الله عنه قد سألهم: ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟ فقالوا: وجدنا مع البريد[1] كتاباً يقضي بقتلنا، وكذلك قال البصريون والكوفيون، فقال لهم الصحابة: إنما هو أمر اتفقتم عليه! وقيل: إن المصريين لما رجعوا إلى بلادهم وجدوا في الطريق بريداً يسير فأخذوه ففتشوه فإذا معه كتاب على لسان عثمان يأمر فيه بقتل طائفة منهم ويصَلْب آخرين، وبقطع أيدي آخرين منهم وأرجلهم، وكان على الكتاب طابع بخاتم عثمان، والبريد أحد غلمان عثمان وعلى جمله.

فلما رجعوا جاؤوا بالكتاب وداروا به على الناس فكلم الناس في ذلك أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه فقال: بينة عليّ بذلك، وإلا فوالله لا كتبت ولا أمليت ولا دريت بشيء من ذلك، والخاتم قد يزور على الخاتم، فصدقه أهل الأمانة والصدق والتقوى الذين لا تفتنهم أباطيل المرجفين والمراوغين المغرضين، الذين لا يركبون غير الشطط والهوى ولا يرومون إلا حظوظ أنفسهم من حطام الدنيا الفانية، ثم كذبه المفتنون المهاويس من دهماء الناس الموغلين في الجهالة والضلال، وكذلك سادتهم وكبراؤهم الذين جنحوا للشر والفتنة تحت مطرقة الحقد الأعمى، والضغينة السوداء التي تسول للخاثرين المغرضين أن يركنوا للأشرار من شياطين البشر كابن السوداء.

ومع ذلك كله لم يزدجر هؤلاء المهاويس المستغفلون أو الأشقياء المغرضون، بل عكفوا على ظلمهم سادرين في التحريض على قتل الخليفة، وازدادوا اجتراءً عليه يوماً بعد يوم، فبينما كان عثمان يخطب في جمعة من

---

(١) البريد: الرسول المحمول على بغلة مرتبة، انظر: مختار الصحاح ص٤٧.

الجمعات قام إليه رجل من هؤلاء الأشقياء التاعسين فسبّه ونال منه نيلاً قبيحاً وأنزله عن المنبر، مما أطمع فيه كثيراً من الناس.

وقيل: بينما عثمان يخطب قام إليه واحد من العتاة الأشقياء اسمه جهجاه، وقال له: قم يا نعثل فانزل عن هذا المنبر، ثم أخذ العصا فكسرها على ركبته اليمنى، فنزل عثمان وحملوه، فما خرج بعد ذلك اليوم إلا مرة أو مرتين حتى حصر فقتل.

حصار عثمان في بيته:

لما شُجَّ أمير المؤمنين عثمان في رأسه وسقط مغشياً عليه واحتمله الناس إلى داره، تفاقمت الفتنة واشتد الأمر وازداد طمع البغاة الأوباش من الناس، أولئك الغلاظ العصاة الذين استحوذ عليهم الهوى المقيت، فركنوا للخيانة والفوضى وحظ الشيطان من نفوسهم الغاشمة، فألجأوا خليفة المسلمين إلى داره فضيقوا عليه، وحاصروه حصاراً شديداً[1].

أما أكثر الصحابة فلزموا بيوتهم، وسار إلى الخليفة جماعة من أبناء الصحابة بأمر من آبائهم، منهم الحسن والحسين، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمر، وذلك ليحاجوا عن الخليفة ويكافحوا دونه البغاة المعتدين، وكيما يحولوا بينه وبين بلوغهم إياه.

وبالرغم من ذلك كله ما كان يراود ظن أحد من الصحابة المخلصين أن هؤلاء الخارجين الظلمة كانوا يبيتون النية بقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه، ما كان أحد يتصور أن تهبط نفوس هؤلاء الغاشمين إلى هذا المنحدر من الخيانة والإجرام!

وفي هذا الواقع المحموم من فظاعة الفتنة والحصار، انقطع الخليفة عن المسجد بالكلية طيلة أيام الحصار الثلاثين أو الأربعين في قول، حتى استشهاده رضي الله عنه.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١٨٤ ـ ١٩١.

وقد ذُكر أن عثمان رضي الله عنه لما رأى ما حاق به من حصار الظَلَمة المتمردين وتضييقهم عليه ومنعه الخروج إلى المسجد، كتب إلى معاوية بالشام، وإلى ابن عامر بالبصرة، وإلى أهل الكوفة، يستنجدهم بمدد من الجند، ليطردوا هؤلاء البغاة المتربصين، فبادروا ببعث جيوش من بلادهم للذود عن الإمام المحاصر، ولما سمع المتمردون الخوارج بانطلاق الجيوش نحوهم لصدهم ودفع كيدهم، ازدادوا تصميماً على الحصار وشددوا من وطأتهم على الإمام رضي الله عنه، وقد خاطبهم رضي الله عنه وحذّرهم أيما تحذير، وكان مما قاله لهم: والله لئن قتلتموني لا تتحابوا بعدي، ولا تصلوا جميعاً أبداً، ولا تقاتلوا بعدي عدواً جميعاً أبداً، وما قاله رضي الله عنه، كان سديداً، وكان منطوقاً عن بصيرة متفرسة ثاقبة تنظر بنور الله، فكان جديراً بذي لُب وقلب سليم أن يتدبر مثل هذا القول الحكيم.

وفي اليومين الأخيرين من أيام الحصار الثلاثين أو الأربعين، قال عثمان للذين عنده في الدار من المهاجرين والأنصار، وكانوا قريباً من سبعمائة منهم عبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، والحسن والحسين، ومروان، وأبو هريرة، وكثيرون من مواليه الذين لو تركهم لذادوا عنه ومنعوه، لكنه رضي الله عنه قال لهم: أقسم على من لي عليه حق أن يكفّ يده وأن ينطلق إلى منزله، وقد كان عنده جمع غفير من عظماء الصحابة وأبنائهم الذين ما كان في الحسبان لدى أحد منهم أن هؤلاء المهاويس المأفونين مجترئون على قتل عثمان.

وقال عثمان لمن عنده من الرقيق: من أغمد سيفه فهو حر، ومرد ذلك إلى أن عثمان رأى في المنام رؤيا دلت على دنو أجله، فاستسلم لأمر الله متشوفاً للقاء الله ولرسوله ﷺ، وليكون خير ابني آدم إذ قال حين أراد أخوه أن يقتله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة: الآية ٢٩].

وروي عن عبدالله بن الإمام أحمد، عن مسلم أبي سعيد مولى

عثمان بن عفان أن عثمان أعتق عشرين مملوكاً ودعا بسراويل فشدها ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام، وقال: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأبا بكر وعمر وأنهم قالوا لي: اصبر فإنك تفطر عندنا القابلة، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه فقتل وهو بين يديه، وقيل: إنما لبس السراويل رضي الله عنه في هذا اليوم لئلا تبدو عورته إذا قتل، فقد كان شديد الحياء، كانت تستحي منه ملائكة السماء، وهو ما قاله النبي ﷺ، ثم وضع المصحف بين يديه ليتلو فيه، وبات مستسلماً لقضاء الله جل وعلا وكفَّ يده عن القتال، وأمر الناس وعزم عليهم أن لا يقاتلوا دونه، ولولا عزيمته عليهم لنصروه من أعدائه، ولكن كان أمر الله قدراً مقدوراً[1].

ولما قدم عليه المجرمون الأشقياء ليقتلوه قال:

أرى الموت لا يُبقي عزيزاً ولم يدع ... لعاد ملاذاً في البلاد ومرتعا

وقال:

يبيِّت أهل الحصن والحصنُ مغلق ... ويأتي الجبالَ الموتُ في شماريخها العلا

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان اسم الذي قتل عثمان أسود بن حمران، إذ ضربه بحربة وبيده السيف فضربه به في صدره حتى أقعصه[2]، ثم وضع ذباب السيف في بطنه واتكأ عليه وتحامل حتى قتله، وقامت امرأته نائلة دونه فقطع السيف أصابعها رضي الله عنها، وقيل: إنها صاحت وألقت نفسها عليه وقالت: يا بنت شيبة ـ تعني نفسها ـ أيُقتل أمير المؤمنين؟ وأخذت السيف فقطع الرجل يدها، ثم انتهبوا قاع الدار.

فكانت مدة خلافته ثنتي عشرة سنة، أما عمره رضي الله عنه فقد جاوز اثنتين وثمانين عاماً.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١٦٦ ـ ١٨٤، والكامل لابن الأثير ج٢ ص١٣٨ ـ ١٤٢.

(٢) أقعصه: من القعص وهو الموت، مات قعصاً، أي: أصابته ضربة أو رمية فمات منها، انظر: القاموس المحيط ج٢ ص٣٢٥.

فيا لله لهذا الحدث المفْظع والخطب المريع الجلل الذي أودى بخليفة المسلمين، هذا الخليفة الودود الأجلّ، النبراس في كل خصال البر والخير، ذلك الحيي الرزين المحبوب، إذ أحبه النبي ﷺ وصاهره مرتين فكان ذا النورين.

هذا العابد الورع المبشر بالجنة مع نخبة المبشرين، يجترىء عليه المارقون الأشرار وهم يهجمون عليه في عقر بيته وفي يده المصحف يتلو كلام الله، ثم يطعنونه طعنة الغادرين الخائنين ليمضي الشهيد إلى رحاب الله حيث النعيم المقيم.

وتلكم طعنة قاتلة غادرة ما فتئت أمة الإسلام حتى يومنا هذا تتجرع من عواقبها وذيولها كل عقابيل الهوان والمذلة والتمزق.

استفظاع الحدث الشنيع:

لما وقع الحدث الشنيع ومضى الشهيد إلى جوار ربه مظلوماً أُسقط في أيدي الناس فاستعظموا ذلك أيما استعظام، وزعم بعض الناس أن هؤلاء الجهلة الخوارج قد عضهم الندم من أجل فعلتهم النكراء! فهم في ذلك أشبه بالذين قال الله فيهم: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [الأعراف: الآية ١٤٩].

أما الصحابة الأبرار، والغُرّ الأطهار، فقد هالهم الحدث الشنيع وأفزعهم أيما إفزاع، فهم موقنون أن عثمان من خيرة السابقين إلى دين الله، وأنه الإمام المبجل الذي تطوّقت ببيعته أعناق المسلمين جميعاً، وأن ما عزاه إليه الماكرون الخونة من افتراءات ونُزَهات ومزاعم ليس إلا محض أباطيل، قد ازورّت بها حُلوق الخراصين الدجاجلة وهي تتقيأ مقالات السوء عن الخليفة المعظم.

فذلكم الزبير، لما بلغه مقتل عثمان قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم ترحّم على عثمان، وبلغه أن الذين قتلوه ندموا، فسبّهم وقال: تباً لهم.

ولما بلغ علياً مقتل عثمان ترحّم عليه، ثم سمع بندم الذين قتلوه فتلا

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: الآية ١٦].

ولما بلغ سعد بن أبي وقاص قتل عثمان، استغفر له وترحّم عليه وتلا في حق القتلة قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: الآيتان ١٠٣، ١٠٤].

ثم دعا عليهم سعد وقال: اللهم أندمهم ثم خذهم، فأقسم بعض السلف بالله أنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولاً، وقيل: ما مات منهم أحد إلا جُنَّ، ذلك أن دعوة سعد بن أبي وقاص مستجابة بفضل دعاء النبي ﷺ له أن يستجيب الله دعاءه.

وروي عن ابن أبي ليلى قال: سمعت علياً وهو بباب المسجد رافعاً صوته يقول: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان.

وعن ابنه الحسن قال: قتل عثمان وعلي غائب في أرض له، فلما بلغه قال: اللهم إني لم أرض ولم أمالىء.

وروي أن علياً دخل على عثمان فوقع عليه وجعل يبكي حتى ظنوا أنه سيلحق به.

وقال ابن عباس: قال علي يوم قتل عثمان: والله ما قتلت ولا أمرت ولكني غلبت. وعنه (ابن عباس) قال: قال علي: إن شاء الناس حلفت لهم عند مقام إبراهيم بالله ما قتلت عثمان ولا أمرت بقتله، ولقد نهيتهم فعصوني. وروي عنه (يعني علياً) أنه قال يوم الجمل: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان وأنكرت نفسي، وجاؤوني للبيعة فقلت: والله إني لأستحيي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلاً قال فيه رسول الله ﷺ: «**إني لأستحيي ممن تستحيي منه الملائكة**»، وإني لأستحيي من الله أن أبايع وعثمان قتيل في الأرض لم يُدفن بعد، فانصرفوا، فلما دفن رجع الناس يسألونني البيعة فقلت: اللهم إني أشفق مما أُقدم عليه، ثم جاءت عزمة فبايعت، فلما قالوا: أمير المؤمنين، كأن صُدِع قلبي وأُسكِتَ.

ولقد ثبت من عدة روايات عن علي رضي الله عنه أنه تبرأ من دم عثمان، وكان يقسم على ذلك في خطبه وغيرها أنه لم يقتله ولا أمر بقتله ولا مالأ ولا رضي به، ولقد نهى عنه فلم يسمعوا منه، بل روي عن علي أنه قال في هذا الصدد: كان عثمان رضي الله عنه خيرنا وأوصلنا للرحم وأشدنا حياءً، وأحسننا طهوراً، وأتقانا للرب عز وجل[1].

وثمة أقوال وكلام غير ذلك كثير مما يبين حال المسلمين وما أصابهم من صدمة وكآبة لمقتل عثمان.

والمسلمون حينذاك كانوا موقنين أن هذه الفعلة المقبوحة الفظيعة قد تمالأ عليها أشرار أشقياء خرجوا على صف المسلمين، ونقضوا البيعة التي عاهدوا الله عليها والتي لزمهم عقدها، حتى وكزتهم شياطين الإنس والجن على قتل الإمام الفاضل الجليل في عقر بيته وهو يتلو كلام الله.

أما ما نسب إلى علي رضي الله عنه من احتمال التقصير أو التفريط، فذلكم هراء وهذيان تلوكه ألسنة المغرضين الماكرين في كل زمان، سواء كان ذلك فيما مضى أو في الزمن الراهن حيث المتربصون المستكنّون في أوكار التآمر والكيد للمسلمين، إذ يبتغون أن يشوهوا صورة المسلمين بتشويه تاريخهم أو الافتراء عليهم بما ليس فيهم، وما هم منه براء.

لقد تبيّن مما ذكره المؤرخون الثقات من أقوال علي رضي الله عنه أنه كان قد فوجىء بالحدث الأليم مثلما فوجىء غيره من الصحابة الأخيار، وأن زمام الأمر قد أفلت من يده فما كان في مستطاعه أن يستنقذ الخليفة من قبضة هؤلاء الرعاع الدهماء، الذين ركبوا متن الحماقة والتعس والشطط، فتدافعوا في هوس مضطرم جارف لا يستوقفه المنطق السليم ولا التحذير الهادىء الرشيد، أولئك هم السفهاء والدهماء وأولو الصلف من الناس لا يخلو منهم مجتمع، ولا تتطهّر من نظرائهم أمة من أمم الإسلام عبر تاريخها الطويل.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١٨٩ ـ ١٩٥، والكامل لابن الأثير ج٢ ص١٤٧ ـ ١٥٠.

أولئك المهاويس الغاشمون من جهلة المسلمين الذين تزين لهم عقولهم الفارغة وخيالاتهم المضطربة الحمقاء، فعل الفظائع من المنكرات وهم يظنون أنهم على شيء، مع أنهم في حقيقة أمرهم فارغون جاهلون بُله ليسوا على شيء، إلا الضلالة والجهالة والهوس مما يفضي بهم إلى الارتكاس، ويودي بالأمة من بعدهم إلى المحن والفتن والانتكاس، وأمثال هؤلاء الحاقدين المضللين لا يستطيع علي رضي الله عنه ولا غيره من أكابر الصحابة أن يردوهم إلى جادة الصواب أو إلى سواء السبيل.

ورب سائل يقول: كيف يقتل عثمان رضي الله عنه بالمدينة وفيها جمع من كبار الصحابة رضي الله عنهم، أفلا يمنعونه من القتلة المعتدين أو ينهضون من بيوتهم للدفاع عنه؟

ويجاب عن ذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول: أن أكثر الصحابة أو كلهم ما كان يظن، أو يتصور أن يبلغ الأمر بهؤلاء المنحرفين الخوارج حد الاجتراء على هذه الفعلة الشنيعة فيقتلون الإمام في بيته رضي الله عنه، ذلك أن هؤلاء المضللين التاعسين كانوا يظهرون للناس أنهم لا يريدون قتل عثمان، بل يبتغون من عثمان ـ كما زعموا ـ أحد أمور ثلاثة وهي: إما أن يعزل عثمان نفسه، أو يسلم إلى الخارجين مروان بن الحكم، أو أن يقتلوه.

فكان الصحابة يظنون أن عثمان سيسلم إليهم مروان، أو أن يعزل نفسه فيستريح وتنفض المشكلة.

أما قتل عثمان، فما من أحد كان يتوقع ذلك أو يصدق وقوعه، بل ما كان أحد يصدق أن هؤلاء المضللين الخوارج مجترئون على قتله، حتى وقعت المصيبة!

الوجه الثاني: لم يأل الصحابة جهداً للحيلولة دون اعتداء الغادرين على عثمان أو بلوغ غايتهم في النيل منه، لكن عثمان عزم على الناس من أقربائه ومحبيه أن يكفوا أيديهم عن لقاء المعتدين فلا يقاتلونهم فأجابوه لما أراد، فتمكن الظالمون الخونة من تحقيق ما أرادوا وهو قتل الإمام عليه

من الله الرحمة والرضوان، وهو ما لم يتوقعه أحد من الناس.

الوجه الثالث: أن هؤلاء الرعاع الهمج قد اغتنموا غيبة كثير من أهل المدينة أيام الحج، ولمّا تأتِ جيوش المسلمين المنساحة في الآفاق، بل لما دنا مجيئهم إلى المدينة، بادر الغادرون الهمج لارتكاب فعلتهم الفظيعة.

الوجه الرابع: كثرة عدد الخارجين الذين أحاطوا بدار الخليفة إذ كانوا ألفي مقاتل، جاؤوا وقلوبهم تكن من بالغ الحقد والضغينة على الإمام ما يؤزُّهم للعدوان عليه، ولم يكن في المدينة حينئذٍ مثل هذا العدد، إذ كان الناس يرابطون في الثغور وينتشرون في مختلف الأقاليم، ويضاف إلى كل ذلك أن كثيراً من الصحابة قد نأى بنفسه عن هذه الفتنة، فالتزم داره وأهله وهم في ذلك على تخوف من هؤلاء الخارجين، فكانوا لا يأتون المسجد للصلاة إلا وهم وجلون أن يحيق بهم شرهم، ولو أرادوا صدهم عن الإمام لما استطاعوا، واكتفوا من ذلك بأن بعث فريق من كبار الصحابة أولادهم إلى دار عثمان ليحاجوا عنه وكيما يمنعوه من العدوان ما استطاعوا ريثما يصل جيش المسلمين لنصرته، لكن الناس قد فوجئوا باقتحام هؤلاء الدار من خارجها فأحرقوا بابها وتسللوا إلى داخل الدار حتى قتلوه رضي الله عنه.

نبذة عن فضل عثمان:

حقيقة الفضل لهذا الصحابي العظيم تشهد بها الأخبار عن رسول الله ﷺ، ومن جملة ذلك ما روي عن أبي موسى الأشعري قال: كنت مع رسول الله ﷺ في حائط (بستان) فأمرني بحفظ الباب، فجاء رجل يستأذن فقلت: من هذا؟ قال: أبو بكر، فقال رسول الله ﷺ: **«ائذن له وبشره بالجنة»**، ثم جاء عمر فقال: **«ائذن له وبشره بالجنة»**، ثم جاء عثمان فقال ﷺ: **«ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه»** فدخل وهو يقول: **«اللهم صبراً»**، وفي رواية: **«الله المستعان»**.

وروى الإمام أحمد عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ كان

جالساً كاشفاً عن فخذه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على حاله، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له وهو على حاله، ثم استأذن عثمان فأرخى عليه ثيابه، فلما قاموا قلت: يا رسول الله، استأذن عليك أبو بكر وعمر فأذنت لهما وأنت على حالك، فلما استأذن عثمان أرخيت عليك ثيابك، فقال: **«يا عائشة ألا نستحي من رجل والله إن الملائكة لتستحي منه؟»**.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«أرحم أمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر، وأشدها حياء عثمان، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرأها لكتاب الله أُبي، وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»**.

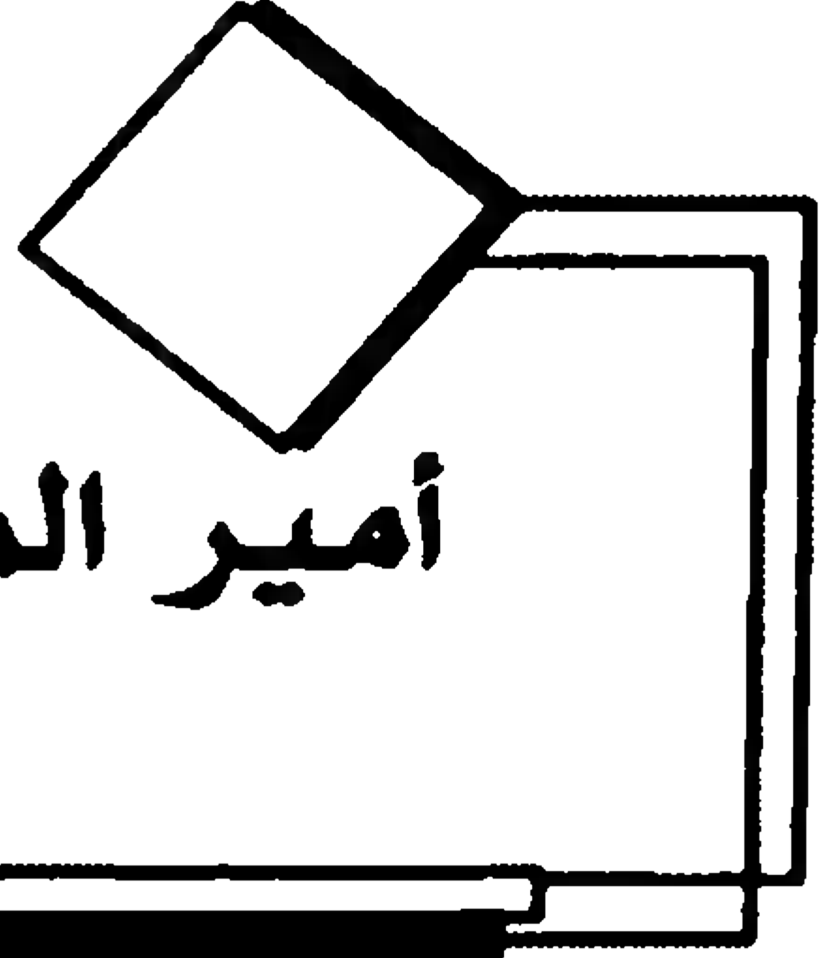
وعن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ رافعاً يديه حتى يبدو ضبعيه[1] إلا لعثمان بن عفان، إذا دعا له.

وعن حذيفة، أن رسول الله ﷺ بعث إلى عثمان يستعينه في غزاة غزاها، فبعث إليه عثمان بعشرة آلاف دينار، فوضعها بين يديه، فجعل يقلبها بين يديه ويدعو له: **«غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما أخفيت وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالي عثمان ما فعل بعدها»**[2].



(1) الضبع: العضد، والجمع: أضباع، والاضطباع ما يفعل الطائف بالبيت إذ يدخل رداءه تحت إبطه الأيمن ويبدي منكبه الأيمن، انظر: مختار الصحاح ص٣٧٦.

(2) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص١٨٩.



الفصل الرابع

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

ذلكم هو الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب، وهو ابن عم رسول الله ﷺ، وختنه على ابنته فاطمة الزهراء، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي.

ولعلي أخوة ثلاثة وهم: طالب، وعقيل، وجعفر. وكانوا أكبر منه سناً. وله أختان وهما: أم هانىء وأم جمانة، وهو أبو الحسن والحسين، وكان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة.

وعلي أول من أسلم من الغلمان وكان عمره سبع سنوات، وقيل: ثماني سنوات، وقيل: تسعاً، وقيل: أكثر.

وسبب إسلامه صغيراً أنه كان في كفالة رسول الله ﷺ، إذ أصابت الناس سنة قحط فأخذه النبي ﷺ عنده. فلما بعثه الله بالحق للناس آمن أهل بيته وفيهم علي رضي الله عنه.

وقد شهد بدراً، وأبلى في المعركة بلاءً حسناً، وقد دفع إليه النبي ﷺ الراية يومئذ وعمره عشرون سنة، وشهد أحداً كذلك، وقاتل حينئذ قتالاً شديداً وقتل من المشركين كثيراً. وشهد علي كلاً من الخندق والحديبية وبيعة الرضوان وخيبر وكانت له في ذلك بطولات ومواقف جليلة

مشهودة، وغير ذلك من المشاهد العظيمة التي تجلّت فيها شجاعة هذا الرجل العظيم.

أما ما يشيعه الجهلة والجانحون أولو الهوى من أن النبي ﷺ أوصى بالخلافة إلى علي فذلكم كذب وافتراء، ومثل هذا الباطل يلزم منه تخوين للصحابة في عدم إنفاذ وصية النبي ﷺ وإيصالها إلى من أوصى إليه وصرفهم إياها إلى غيره. وذلك ما لا يثق به مؤمن ولا يصدقه، بل إن ذلك محض باطل، وإيغال في الهوى والزور. فإن من اليقين أن الصحابة الأبرار خير خلق الله بعد النبيين وهم خير قرون هذه الأمة، فكيف يثق أو يصدق من به مَسْكة من عقل وورع أن هؤلاء الأبرار المكرمين يجنحون عما أوصى به النبي ﷺ لو كان قد أوصى حقاً.

بل إن الحق الذي لا ريب فيه أن النبي ﷺ لم يوصِ لأحد بإمامة المسلمين من بعده، وإنما الأمر شورى بينهم وكفى، وغير ذلك من مزاعم وترهات إن هو إلا تخريص مكذوب يفتريه الروافض أو غيرهم من أولي الهوى والباطل.

وليس أدل على ما بيناه، من أن علياً كان على جملة الذين بايعوا الصديق يوم السقيفة، ولما توفي أبو بكر واضطلع بأمر الخلافة عمر كان علي ممن بايعه من الصحابة دون استثناء أو تردد، بل كان علي رضي الله عنه إلى جانب عمر في معظم الأحوال كيما يشاوره في أمور المسلمين، ولما طعن عمر رضي الله عنه طعنته القاتلة وتولّى أمر المسلمين من بعده عثمان، بادره علي السمع والطاعة، فلما قتل عثمان جاء الناس علياً لمبايعته قبل أن يدفن عثمان، أو عقب دفنه، فامتنع علي من إجابتهم إلى قبول الإمارة وألحوا عليه في ذلك، حتى فرَّ منهم إلى حائط بني عمرو بن مبدول ثم جاؤوه ومعهم طلحة والزبير وبينوا له أن هذا الأمر لا يعقل أن يبقى بغير أمير يسوس الناس على ما أنزل الله، فما زالوا به كذلك حتى قبل.

مبايعة علي بالخلافة

لما قبل علي أن يلي المسلمين عقب إلحاح الصحابة عليه في ذلك، صعد المنبر يوم السبت، التاسع عشر من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة، فبايعه عامة الناس، وكان طلحة أول من بايعه بيده الشلاء بسبب إصابته في أحد، وكانت أول خطبة خطبها علي بعد أن حمد الله وأثنى عليه فقال: إن الله تعالى أنزل كتاباً هادياً بيِّن فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر، إن الله حرَّم حُرُماً مجهولة وفضَّل حرمة المسلم على الحُرُم كلها، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل لمسلم أذى مسلم إلا بما يجب، وإنما خلفكم الساعة تحدو بكم فتخففوا تلحقوا، اتقوا الله عباد الله في عباده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، ثم أطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: الآية ٢٦]. . الآية.

وكان على الكوفة أبو موسى الأشعري، وعلى البصرة عبدالله بن عامر، وعلى مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان، وعلى حمص عبدالرحمٰن بن خالد بن الوليد، وعلى الأردن أبو الأعور، وعلى فلسطين حكيم بن علقمة، وعلى أذربيجان الأشعث بن قيس، وعلى قيسارية مالك بن حبيب، وغيرهم من نواب الأمصار، وكان على بيت المال عقبة بن عمرو، وعلى قضاء المدينة زيد بن ثابت.

وكان قد ذكر أن نفراً من الصحابة هربوا إلى الشام من المدينة ولم يبايعوا علياً، منهم: قدامة بن مظعون، وعبدالله بن سلام، والمغيرة بن شعبة، ومروان بن الحكم، والنعمان بن بشير، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وآخرون. ولما قتل عثمان بن عفان، خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه ومعه أصابع امرأته نائلة التي أصيبت حين دافعت بيدها الظالمين، دون الخليفة عثمان، فقطعت أصابعها مع بعض الكف، فورد بها على معاوية بالشام فوضع معاوية

الأصابع والكف على المنبر ليراه الناس، وعلق الأصابع في كم القميص وندَب الناس إلى الأخذ بالثأر لهذا الدم وصاحبه، وجعل الناس يتباكون من حول القميص سنة، وأخذ بعضهم يحرض بعضاً على الأخذ بالثأر لعثمان، وكذلك قام معاوية وبعض الناس يحرضون الناس على المطالبة بدم عثمان ممن قتله من الخوارج.

ولما استقر الأمر لعلي عقب مبايعته، دخل عليه طلحة والزبير وآخرون من رؤوس الصحابة رضي الله عنهم، وطلبوا منه أن يقيم الحدود والأخذ بدم عثمان من قتلته، فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مدد وأعوان، وهو لا يمكنه ذلك يومه هذا.

ولما استهلت سنة ست وثلاثين، ولّى علي على الأمصار نواباً، فولى عبدالله بن عباس على اليمن، وولى سمرة بن جندب على البصرة، وعمارة بن شهاب على الكوفة، وقيس بن سعد بن عبادة على مصر، وعلى الشام، سهل بن حنيف بدل معاوية، فسار حتى بلغ تبوك فتلقته خيل معاوية فقال: من أنت؟ فأخبرهم أنه مبعوث إلى الشام ليكون أميراً عليها، فقالوا: إن كان بعثك عثمان، فهلا بك، وإن كان غيره فارجع، فقال لهم: أوَ ما سمعتم الذي كان؟ قالوا: بلى، فرجع أدراجه إلى علي. وأما قيس بن سعد فبايع له أكثر أهل مصر، وامتنعت طائفة منهم وقالت: لا نبايع حتى نقتل قتلة عثمان، وكذلك أهل البصرة والكوفة إذ عصوا مبعوث الإمام علي إليهم غضباً لعثمان، وبذلك عمّت الفتنة وشاعت الفوضى واشتد الأمر بالمسلمين واختلفت كلمتهم، وكتب علي إلى معاوية كتباً كثيرة فلم يجبه ولم يرد على كتبه، ثم بعث معاوية رسولاً إلى علي فدخل عليه فقال له علي: ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القَوَدَ (القصاص) وكلهم موتور[1]، وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو على منبر دمشق، فقال علي رضي الله عنه: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، فعزم علي بعد ذلك على قتال أهل الشام، فاستنفر الناس للقتال واستحثهم على ذلك حتى

(١) الموتور: شديد الحقد والرغبة في الانتقام والثأر ممن قتل قريبه، وهو من الوتور.

جاءه ابنه الحسن رضي الله عنه فقال: يا أبتي دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقوع الاختلاف بينهم، فلم يقبل علي منه ذلك، بل صمّم على الخروج إلى الشام ليقاتل الخارجين على طاعة الإمام.

أما أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فكانت في صف المطالبين بدم عثمان رضي الله عنه، فقامت في الناس تخطبهم وتحضهم على المطالبة بدم عثمان، وذكرت للناس ما فعله أولئك من منكر، إذ قتلوا عثمان في البلد الحرام، وأطاعها في ذلك كثير من الناس وقالوا لها: حيثما سرت سرنا معك، فاتفقوا ـ بعد تشاور بينهم واختلاف في الآراء ـ على المسير إلى المدينة في ثلاثة آلاف، وأم المؤمنين عائشة معهم، وهي محمولة في هودج على جمل اسمه عسكر، وسار معها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق حيث فارقنها هناك وبكين للوداع، وبكى الناس حتى سمي ذلك اليوم: يوم النحيب.

وسار الناس نحو البصرة فمروا ليلاً بماء يقال له: الحوأب، فنبحتهم هنالك كلاب، فلما سمعت عائشة نباح الكلاب، قالت: ما اسم هذا المكان؟ قالوا: الحوأب، فضربت بإحدى يديها على الأخرى وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أظنني إلا راجعة، فقالوا لها: ولِمَ؟ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه: «**ليت شعري أيتكن التي تنبحها كلاب الحوأب**» ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وقالت: ردني ردني، أنا والله صاحبة الحوأب.

وهذا برهان ساطع ودليل صدوق ومجلجل من دلائل النبوة المباركة.

فأناخ الناس حول أم المؤمنين يوماً وليلة، وقال لها عبدالله بن الزبير: إن الذي أخبرك أن هذا ماء الحوأب قد كذب، ثم بادر الناس الصياح: النجا النجا ـ يعني السرعة السرعة ـ هذا جيش علي بن أبي طالب قد أقبل، فارتحلوا نحو البصرة، فسألها القادمون عليها، ما الذي جاءت به، فذكرت لهم أن الذي جاءت به هو القيام بطلب دم عثمان لأنه قُتل مظلوماً في شهر حرام وبلد حرام.

ثم قدمت أم المؤمنين بمن معها من الناس فنزلوا المربد قريباً من البصرة، وتكلم كل من طلحة والزبير يندب الناس إلى الأخذ بثأر عثمان، وكذلك أم المؤمنين حرّضت الناس على قتال قتلة عثمان حتى جاءها حارثة بن قدامة السعدي فقال لها: يا أم المؤمنين، والله لقتلُ عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل عرضة للسلاح، إن كنت جئت طائعة فارجعي من حيث جئت إلى منزلك، وإن كنت جئت مكرهة فاستعيني بالناس في الرجوع، وكادت عائشة تفيء إلى الرجوع أو التصالح، وكذا الناس - على اختلاف أقوامهم وآرائهم وبالرغم من اشتداد الجدال بينهم - فإنهم كثيراً ما كادوا ينفضون عن مواقع الاقتتال أو يبادرون الرجوع إلى بيوتهم، لولا قالة الفتنة وأصابع الشر والسوء التي تنفث في كل الأطراف لهيب الكراهية وتؤجج في قلوب الناس نار الحقد متذرعة في ذلك بالثأر لمقتل عثمان.

إن ذلكم كان شراً مستطيراً قد زلزل في المسلمين رباط الوحدة والتآلف الذي رسخه الإسلام فيهم، وما كان لمثل هذه الفتنة العارمة أن تحل بالمسلمين ليذهب ضحيتها الجموع من القتلى والجرحى، لولا المغرضون المتدسسون من أولي النوايا الخبيثة بقيادة ابن السوداء - عبدالله بن سبأ - الذي توطدت في ذهنه ومشاعره ذكريات بغيضة شتى من تعاليم التوراة المحرفة، وهرطقات التلمود المصطنع.

وكان في المسلمين رجال يسوءهم ويؤلمهم ما يحيق بساحة المسلمين من شقاق وافتراق وقتال، فجعلوا يصلحون بين المتقاتلين بالطيب من القول، ومن جملة هؤلاء: أبو موسى الأشعري الذي كان ينادي فيهم بالإصلاح ونبذ الاقتتال والجنوح للصلح والأخوة، وكان مما قاله أبو موسى: أيها الناس، أطيعوني وكونوا خير قوم من خير أمم العرب، يأوي إليهم المظلوم، ويأمن فيهم الخائف، وإن الفتنة إذا أقبلت شَبُهَت، وإذا أدبرت تبينت. ثم أمر الناس بكف أيديهم ولزومهم بيوتهم، وتكلم آخرون غيره يدعون الناس إلى الالتئام ولم الشمل ويحذرونهم الشقاق والفرقة ويحثونهم على الالتفاف من حول الإمام علي رضي الله عنه.

وبعث علي رضي الله عنه القعقاع رسولاً إلى طلحة والزبير بالبصرة يدعوهما إلى الألفة والجماعة، ويعظم عليهما الفرقة والاختلاف، فذهب القعقاع إلى البصرة فبدأ بعائشة أم المؤمنين، فقال: أي أماه! ما أقدمك على هذا البلد؟ فقالت: أي بني، الإصلاح بين الناس، فسألها القعقاع أن تبعث إلى طلحة والزبير ليحضرا عندها، فحضرا، فقال القعقاع: إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها؟ فقالت: إنما جئت للإصلاح بين الناس، فقالا: ونحن كذلك، فقال القعقاع: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ وكيف يكون؟ قالا: قتلة عثمان، فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن، فقال: لقد قتلتما قتلته من أهل البصرة، إذ قتلتم ستمائة رجل، فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم، فإن قاتلتموهم فأديلوا عليكم كان الذي حذرتم وخفتم من هذا الأمر، أعظم مما أراكم تدفعون وتجمعون له ـ أي: أن الذي تبتغونه من قتل قتلة عثمان ـ إن كان مصلحة، لكنه يؤول بالضرورة إلى مفسدة أشد نكراً، ولئن عجزتم عن الثأر لعثمان من حرقوص بن زهير لما يحيط به من ستة آلاف رجل في حمايته، فإن علياً أكبر عذراً في تركه الآن قتل قتلة عثمان، وإنما أخّر علي قتل قتلة عثمان إلى أن يتمكن منهم.

فقالت عائشة أم المؤمنين: فماذا تقول أنت؟ قال: أقول: إن هذا الأمر الذي وقع ليس له دواء إلا التسكين، فإن أنتم بايعتمونا فتلك علامة خير وتباشير رحمة وإدراك للثأر، وإن أنتم أبيتم إلا المكابرة والتأنف من التسكين والمصالحة، فتلك علامة شر وذهاب لهذا الملك، فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح خير مثلما كنتم أولاً، ولا تعرضونا للبلاء فيصرعنا الله وإياكم، وأيم الله إني لأقول قولي هذا وأدعوكم إليه، فقالوا له: قد أصبت وأحسنت فارجع، فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح الأمر. فرجع القعقاع إلى علي فأخبره ما قالوا فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح.

وأرسلت عائشة أم المؤمنين إلى علي تعلمه أنها إنما جاءت للصلح، ففرح هؤلاء وهؤلاء، وقام علي خطيباً في الناس، فذكر الجاهلية وشقاءها وشرورها، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة، وأن الله جمعهم

بعد نبيه ﷺ على الخليفة أبي بكر الصديق ثم بعده عمر بن الخطاب، ثم على عثمان ثم حدث هذا الحدث على الأمة أقوام طلبوا الدنيا وحسدوا من أنعم الله عليه بها وعلى الفضيلة التي منَّ الله بها وأرادوا رد الإسلام، والأشياء على أدبارها والله بالغ أمره، ثم قال: ألا إني مرتحل غداً فارتحلوا، ولا يرتحل معي أحد أعان على قتل عثمان.

وقعة الجمل:

فتفرّق الناس على ما اتفقوا عليه من الصلح فاطمأنت النفوس وسكنت، واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين فبات الناس بخير حال، لكن قتلة عثمان باتوا يراوغون ويأتمرون ويتشاورون ما بينهم للكيد والغدر بقيادة فريق من الأشقياء وفي طليعتهم ابن سبأ اليهودي، فأجمعوا على إثارة الحرب ليلاً والناس ساهون مستغفلون، فنهضوا لذلك من الغَلَس وكانوا ألفي رجل، وانصرف كل فريق إلى قراباتهم وثار كل فريق إلى سلاحه فقامت الحرب بين الفريقين، وتبارز الفرسان وتواقف الفريقان يتهيآن للقتال وقد اجتمع مع كل عشرون ألفاً والتف مع عائشة وجماعتها ثلاثون ألفاً، وأصحاب ابن سبأ يمكرون بالناس ويؤلبون بعضهم على بعض ويحرضونهم على الاقتتال تحريضاً، وكان منادي علي ينادي: ألا كفوا ألا كفوا، وليس من مجيب، فأهاب قاضي البصرة بعائشة عسى أن تدعو للإصلاح بين الناس فيكفوا عن الاقتتال، فجلست رضي الله عنها في هودجها فوق بعيرها وستروا الهودج بالدروع، فتصاول الناس وتجاولوا، وتبارز الزبير وعمار بن ياسر، فكان عمار ينخره بالرمح، والزبير كاف عنه، وإنما كف عنه للخبر عن رسول الله ﷺ لعمار وهو يعمل في بناء المسجد مع المسلمين: «**تقتلك الفئة الباغية**»، وهذه واحدة من ظواهر الإعجاز الحسي التي حفلت بها حياة النبي ﷺ.

وكان من سنة المسلمين الذين يقاتلون مع علي في هذا اليوم أن لا يذفف على جريح ولا يتبع مدبر، ومع ذلك فقد قتل خلْق كثير من الناس، مما جعل علياً يقول لابنه الحسن: يا بني ليت أباك مات قبل هذا اليوم

بعشرين عاماً، فقال له ابنه الحسن: يا أبتِ قد كنت أنهاك عن هذا، فقال علي: يا بني إني لم أرَ أن الأمر يبلغ هذا.

أما عائشة فقد تقدمت في هودجها وناولت قاضي البصرة مصحفاً، وقالت: ادع الناس إليه، وذلك حين اشتد القتال ورجع الزبير وقتل طلحة رضي الله عنهما، ولما قدم بالمصحف استقبله جيش ابن سبأ وهم يقتلون من قدروا عليه من الناس، ولما رأوه رافعاً المصحف رشقوه بالنبال فقتلوه، ووصلت النبال إلى هودج أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فجعلت تنادي: الله الله يا بني اذكروا يوم الحساب.

وقد جرح عبدالله بن الزبير يوم الجمل سبعاً وثلاثين جراحة، وجرح مروان بن الحكم كذلك، ثم ضرب رجل جمل أم المؤمنين على قوائمه فعقره وسقط على الأرض بعد أن كانت رضي الله عنها غرضاً للمؤمنين، وأمر علي رضي الله عنه نفراً من المسلمين أن يحملوا الهودج، وأمر محمد بن أبي بكر وعماراً أن يضربا عليه قبة، وجاء إليها علي بن أبي طالب فسلّم وقال: كيف أنت يا أمّه؟ قالت: بخير، فقال: يغفر الله لك.

وقد أقام علي بالبصرة أياماً ثلاثة ثم صلى على القتلى من الفريقين، وجمع ما وجده لأصحاب عائشة في المعسكر وأمر به أن يُحمل إلى مسجد البصرة فمن عرف شيئاً فليأخذه.

وكان مجموع من قتل يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف، خمسة من هؤلاء، وخمسة من هؤلاء، رحمهم الله جميعاً.

ولما أرادت أم المؤمنين عائشة الخروج من البصرة بعث إليها علي رضي الله عنه بكل ما ينبغي من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وأرسل معها محمد بن أبي بكر، ولما أخذت في الرحيل جاء علي فوقف على الباب وحضر الناس، وخرجت من الدار في الهودج فودعت الناس ودعت لهم، وقالت: يا بني لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي لمن الأخيار، فقال

علي: صدقت والله، ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، وسار علي معها مودعاً ومشيعاً أميالا[1].

وقعة صفين:

لما فرغ علي رضي الله عنه من وقعة الجمل ودخل البصرة، وشيّع أم المؤمنين عائشة إذ أرادت الرجوع إلى مكة، سار رضي الله عنه من البصرة إلى الكوفة، فخطب في الناس وحثّهم على الخير ونهاهم عن الشر ثم أخذ البيعة من رعايا همذان وأذربيجان.

ولما أراد علي أن يبعث إلى معاوية يدعوه إلى بيعته أرسل إليه جرير بن عبدالله وكتب معه كتاباً يُعلم فيه معاوية باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ويدعوه فيه أيضاً إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، فلما بلغ الكتاب معاوية طلب عمرو بن العاص ورؤوس أهل الشام فاستشارهم فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان أو أن يسلمهم إليه، وإذا لم يفعل ذلك قاتلوه ولم يبايعوه، فرجع جرير إلى علي فأخبره بما قالوا.

فخرج أمير المؤمنين علي متوجهاً من الكوفة نحو الشام لدخولها، وقد استخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر البدري الأنصاري.

فبلغ معاوية أن علياً قد خرج بنفسه فاستشار عمرو بن العاص، فقال له: اخرج أنت أيضاً بنفسك، وقام عمرو بن العاص في الناس ليقول لهم: إن صناديد أهل الكوفة والبصرة قد هلكوا يوم الجمل، ولم يبقَ مع علي إلا شرذمة قليلة من الناس، وقد قتل الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فالله الله في حقكم أن تضيعوه، وفي دمكم أن تُطلّوه (تبطلوه).

وكتب معاوية إلى أجناد الشام فحضروا، وعقدت الألوية والرايات للأمراء وتهيأ أهل الشام للحرب، فخرجوا إلى جهة الفرات من ناحية صفين

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٦ ص٢٢٢ ـ ٢٤٦، وتاريخ الإسلام للذهبي ج٣ ص٤٨٣ ـ ٤٩٠.

ـ حيث الموضع الذي يأتي إليه علي رضي الله عنه ـ وكذلك سار علي بمن معه من الجند متوجهاً نحو الشام، وكان في جيشه ثمانون بذرياً ومائة وخمسون ممن بايع تحت الشجرة، وقد اجتاز علي في طريقه براهب نزل إليه من صومعته فقال لعلي: إن عندنا كتاباً توارثناه عن آبائنا كتبه أصحاب عيسى بن مريم عليهما السلام، أعرضه عليك، فقال علي: نعم، فقرأ الراهب الكتاب:

بسم الله الرحمٰن الرحيم الذي قضى فيما قضى، وسطر فيما سطر، وكتب فيما كتب أنه باعث في الأميين رسولاً منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويدلهم على سبيل الله، لا فظ ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل شرف وفي كل صعود وهبوط، تذل ألسنتهم بالتهليل والتكبير، وينصره الله على كل من ناوأه، فإذا توفاه الله اختلفت أمته ثم اجتمعت فلبثت بذلك ما شاء الله، ثم اختلفت، ثم يمر رجل من أمته بشاطىء هذا الفرات يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقضي بالحق ولا ينكس الحكم، الدنيا أهون عليه من الرماد ـ أو قال التراب ـ في يوم عصفت فيه الريح، والموت أهون عليه من شربَ الماء، يخاف الله في السر، وينصح في العلانية، ولا يخاف في الله لومة لائم، فمن أدرك ذلك النبي من أهل البلاد فآمن به كان ثوابه رضواني والجنة، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره فإن القتل معه شهادة.

ثم قال الراهب لعلي: فأنا أصاحبك فلا أفارقك حتى يصيبني ما أصابك، فبكى علي ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعلني عنده نسياً منسياً، والحمد لله الذي ذكرني عنده في كتب الأبرار، فمضى الراهب معه وأسلم فكان مع علي حتى أصيب يوم صفين، ولما خرج الناس يطلبون قتلاهم قال علي: اطلبوا الراهب، فوجده قتيلاً، فصلى عليه علي ودفنه واستغفر له.

ومثل هذا الخبر من كتب الأولين لا جرم يعزز الدليل على صدق

علي بن أبي طالب وعلى أنه الخليفة الحق، فهو بذلك قمين بالبيعة وأجدر أن يطيعه الناس فلا يعصوه أو يتألبوا عليه.

وقد بعث علي رضي الله عنه بين يديه جنوداً من اثني عشر ألفاً، فساروا في طريقهم بين يدي علي رضي الله عنه حتى قطعوا دجلة، فبلغهم أن معاوية سار بأهل الشام ليلتقي أمير المؤمنين علياً، فتواقف الفريقان يتحرش بعضهم ببعض.

ثم تواجهت الفئتان في مكان يقال له: صفين، وذلك في أوائل ذي الحجة، فتسابق الفريقان على الماء، وقد كان معاوية قد سبق بجيشه فنزلوا على مشرعة الماء ليستأثروا به دون جيش علي فيحولوا بينهم وبين شرب الماء، وكانوا يقولون لمن يرد الماء من جيش علي: موتوا عطشاً كما منعتم عثمان الماء.

وبعد ذلك تراموا بالنبل وتطاعنوا بالرماح، ثم تقاتلوا بالسيوف بعد ذلك، ثم اشتدت الحرب بينهم وحمي وطيسها، ثم بعث علي بشير بن عمرو الأنصاري إلى معاوية يدعوه للبيعة والطاعة والجماعة، فدخل عليه بشير بن عمرو وقال: يا معاوية، إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة والله محاسبك بعملك ومجازيك بما قدّمت يداك، وإني أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها بينها، فقال معاوية: هلا أوصيت بذلك صاحبكم؟ فقال له بشير: إن صاحبي أحق هذه البرية بالأمر في فضله ودينه وسابقته وقرابته، وإنه يدعوك إلى مبايعته فهو أسلم لك في دنياك وخير لك في آخرتك، فقال معاوية: ويُطلّ[1] (يبطل) دم عثمان؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً، فصمم على القيام بطلب دم عثمان الذي قتل مظلوماً، وعند ذلك تعالت نذر الحرب وتهيأ الفريقان للمواجهة المحتومة، وتواقف كل منهما بجنوده في مكان يقال له: صفين بالقرب من الفرات شرقي بلاد الشام، وبالرغم من ذلك كله كان علي رضي الله عنه يرسل

---

(١) يطل: يذهب هدراً.

مبعوثيه إلى معاوية يناشده الطاعة والتقوى درءاً للفتنة المستطيرة ودفعاً للكارثة أن تحيق بالمسلمين، ومن جملة الذين خرجوا يدعون معاوية إلى فض الجيوش والجنوح للتواضع واللين، أبو الدرداء وأبو أمامة إذ دخلا على معاوية فقالا له: يا معاوية علام تقاتل هذا الرجل؟ فوالله إنه أقدم منك ومن أبيك إسلاماً، وأقرب منك إلى رسول الله ﷺ وأحق بهذا الأمر منك، فقال: أقاتله على دم عثمان وأنه آوى قَتَلَتَه، فاذهبا إليه فقولا له فليُقِدْنا[1] من قتلة عثمان ثم أنا أول من بايعه من أهل الشام، فذهبا إلى علي فقالا له ذلك، فقال: هؤلاء الذين تريان. فخرج خلْق كثير فقالوا: كلنا قتلة عثمان فمن شاء فليرمنا، فرجع أبو الدرداء وأبو أمامة فلم يشهدا لهم حرباً.

ثم لم تزل الرسل تتردد بين علي ومعاوية وهم كافّون عن القتال، ولم يقع بينهم صلح، فأمر علي رضي الله عنه منادياً ينادي أهل الشام عند غروب الشمس، ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد استأنيتكم لتراجعوا الحق وأقمت عليكم الحجة فلم تجيبوا، وإني قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين.

ففزع أهل الشام عند ذلك وأعلموا أمراءهم بما سمعوا، فقام معاوية عند ذلك فهيأ جيشه للأمر، وكذلك علي تهيأ وجنوده وعلى رأسهم أمراء عظام منهم الأشتر النخعي وعمار بن ياسر، وسهل بن حنيف، وقيس بن سعد، وهاشم بن عتبة، وأمر علي رجاله أن لا يبدأوا أحداً بالقتال حتى يبدأ أهل الشام، وأن لا يذفف على جريح ولا يتبع مدبر، ولا يكشف ستر امرأة ولا تهان وإن شتمت امرأة الناس وصلحاءهم.

فتزاحف الفريقان للمواجهة وبات الاقتتال محتوماً لا مفر منه، إذ حرض معاوية وعمرو بن العاص جنودهما من أهل الشام على قتال علي وأهل العراق، وكذلك خطب علي في جماعته وحضهم على الثبات والمصابرة، فسار علي في مائة وخمسين ألفاً من الرجال من أهل العراق،

---

(١) فليُقِدْنا: من القود وهو القصاص يعني: فليمكنا من تنفيذ القصاص فيهم.

وأقبل معاوية في نحو منهم من أهل الشام، وقد تعاقد جماعة من أهل الشام على أن لا يفروا فعقلوا (ربطوا) أنفسهم بالعمائم وكانوا أحد عشر صفاً، وكذا مثلهم من الصفوف من أهل العراق، وكان أمير الحرب لأهل العراق الأشتر النخعي، وأمير الحرب يومئذٍ لأهل الشام حبيب بن مسلمة، فتواقف الجيشان على هذه الصفة وكان ذلك يوم الأربعاء في اليوم الأول من صفر فاقتتلوا في هذا اليوم قتالاً شديداً فتكافؤوا في القتال، ثم أصبحوا من الغد يوم الخميس فاقتتلوا قتالاً شديداً فتكافؤوا، وانتصف بعضهم من بعض، واقتتل في اليوم الثالث عمار بن ياسر وعمرو بن العاص، الأول على جيش علي، والآخر على جيش معاوية، فحمل عمار على عمرو وأزاله عن موقفه، واقتتل الناس كذلك في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة ثم تحاجزوا، وفي اليوم الخامس اقتتلوا قتالاً شديداً، وقاتل عبدالله بن عباس بنفسه في هذا اليوم قتالاً شديداً، وكذلك في اليوم السادس والسابع اقتتلوا ولم يغلب أحد الآخر في هذه الأيام.

وفي صبيحة يوم الخميس خطب علي في جماعته وكان مما قال: اللهم رب السحاب المسخر بين السماء والأرض، ورب البحر المسجور المحيط بالعالم، ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً وللخلق متاعاً، إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي والفساد وسددنا الحق، وإن أظهرتهم علينا فارزقني الشهادة وجنب بقية أصحابي من الفتنة.

ثم وقعت مواجهات ومبارزات بين الفريقين، إذ بارز علي نفراً من جند معاوية فقتلهم، فما من أحد اجترأ على مبارزة علي إلا قتله علي لما رزقه الله من البسالة والمهابة والبراعة في القتال، ثم نادى علي معاوية: ويحك يا معاوية، ابرز إليّ ولا تفني العرب بيني وبينك، فقال له عمرو بن العاص: اغتنمه فإنه قد أثخن في قتل هؤلاء الأربعة ـ أي الذين بارزوه فقتلهم ـ فقال له معاوية: والله لقد علمت أن علياً لم يُقهر قط وإنما أردت قتلي لتصيب الخلافة من بعدي، فليس مثلي يُخدع.

ثم حرض معاوية رجاله على القتال واشتدوا في محاربة جند علي

رضي الله عنه، فأبعدوهم عن كثير من أماكنهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وفرَّ منهم آخرون فراراً، فقال معاوية لعمرو: اليوم صبر وغداً فخر، فقال له عمرو: صدقت.

مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه:

وذلكم برهان قاطع على أن علياً رضي الله عنه محق بالخلافة وهو لا جرم قمين بها دون غيره من الناس في زمنه، وذلك يشي أيضاً بأن معاوية أجدر أن لا يكون منافساً وخصيماً لعلي في الأمر، وأن لا ينازعه في إمامة المسلمين، فضلاً عما في قصة عمار من دليل ظاهر يضاف إلى دلائل النبوة لرسول الله ﷺ.

وجملة القول في المسألة هنا أن النبي ﷺ قد أخبر من قبل أن عماراً تقتله الفئة الباغية، فقد كان عمار يقاتل في صف علي رضي الله عنه وأبلى في قتال المنازعين بلاءً عظيماً حتى قتل رضي الله عنه.

وبيان ذلك أن عماراً رضي الله عنه قال يوم اشتداد القتال بين الفئتين: من يبتغي رضوان ربه ولا يلوي إلى مال ولا ولد؟ فأتته عصابة من الناس فقال لهم: أيها الناس، اقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يبتغون دم عثمان ويزعمون أنه قتل مظلوماً، والله ما قصدهم الأخذ بدمه ولا الأخذ بثأره، ولكن القوم ذاقوا الدنيا واستحلوها واستمروا(١) الآخرة فقَلَوها(٢)، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم وشهواتهم، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس لهم ولا الولاية عليهم، ولا تمكنت من قلوبهم خشية الله التي تمنع من تمكنت من قلبه عن نيل الشهوات، وتعقله عن إرادة الدنيا وطلب العلو فيها، وتحمله على اتباع الحق والميل إلى أهله، فخدعوا أتباعهم بقولهم: إمامنا قتل مظلوماً، وليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً، وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون، ولولا ذلك

---

(١) استمروا: من المرارة أي: رأوها مرة.

(٢) قلوها: من القلي، وهو البغض والهجران.

ما تبعهم من الناس رجلان ولكانوا أذل وأخسّ وأقلّ، ولكن قول الباطل له حلاوة في أسماع الغافلين، فسيروا إلى الله سيراً جميلاً، واذكروه ذكراً كثيراً.

وايم الله إنه لتحليل نفسي عظيم وصدوق يكشف عن طبيعة القوم وعن حقيقة مقاصدهم وما يرومونه من ظهور واستعلاء، أما أكثر الرجال من جند معاوية وعمرو فكانوا في الغالب من العامة والدهماء المستغفلين الذين غررت بهم الدعاية للثأر من قتلة عثمان.

ثم تقدّم عمار فلقيه عمرو بن العاص وعبيدالله بن عمر، فلامهما عمار وأنبهما ووعظهما، ثم قاتل حتى قتل رضي الله عنه، وفي ذلك روى الإمام أحمد بسنده عن أبي البختري قال: قام عمار يوم صفين فقال: إيتوني بشَربة لبن، فإن رسول الله ﷺ قال: **«آخر شربة تشربها من الدنيا تشربها يوم تقتل»**.

وروى الأحنف بن قيس فقال: ثم حمل عمار بن ياسر فحمل عليه ابن جوى السكسكي وأبو الغادية الفزاري، أما أبو الغادية فطعنه، وأما ابن جوى فاحتزّ رأسه فلحق عمار بركب المؤمنين الأبرار من الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم أصيب ذو الكلاع الذي حزّ في اجتراء فاحش وقلب فظ شديد الكزازة ـ رأس عمار ـ فقال عمرو لمعاوية: ما أدري بقتل أيهما أنا أشد فرحاً، بقتل عمار أو ذي الكلاع، والله لو بقي ذو الكلاع بعد قتل عمار لمال بعامة أهل الشام ولأفسد علينا جندنا.

ومما يذكر في هذا الصدد من أحقية علي بالأمر أن رجلين جاءا معاوية يختصمان في قتل عمار، فقال لهما عبدالله بن عمرو بن العاص: ليطب كل واحد منكما نفساً لصاحبه بقتل عمار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«تقتلك الفئة الباغية»**، فقال معاوية لعمرو: ألا تنهى عنا مجنونك هذا؟ ثم أقبل معاوية على عبدالله فقال له: فلمَ تقاتل معنا؟ فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني بطاعة والدي ما كان حياً وأنا معكم

ولست أقاتل. وروي عن عبدالله بن عمرو أنه قال لأبيه: لولا أن رسول الله ﷺ أمرني بطاعتك ما سرت معك هذا المسير، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار بن ياسر: **«تقتلك الفئة الباغية»**، لكن معاوية بادر لتأويل هذا الخبر عن عمار فكان تأويله في غاية الضعف ومجانبة السداد إذ قال: إنما قتله من أخرجه.

وفي رواية عنه قال في هذا الصدد: إنما قتله الذين جاؤوا به!.

ولا يرى المتدبر الحريص في هذا التأويل إلا الإيهام والتهافت والمخالفة الواضحة لظاهر النصوص في هذه المسألة.

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص لأبيه مرة: يا أبت قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، قال: وما قال؟ قال: ألم يكن معنا ونحن نبني المسجد والناس ينقلون حجراً حجراً، ولبنة لبنة، وعمار ينقل حجرين حجرين، ولبنتين لبنتين، فأتاه رسول الله ﷺ فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: **«ويحك يا ابن سمية، الناس ينقلون حجراً حجراً، ولبنة لبنة، وأنت تنقل حجرين حجرين، ولبنتين لبنتين رغبة منك في الأجر، وكنت مع ذلك ويحك تقتلك الفئة الباغية»**، فرجع عمرو بن العاص صدر فرسه ثم جذب معاوية إليه فقال: يا معاوية، أما تسمع ما يقول عبدالله؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول كذا وكذا وأخبر الخبر، فقال معاوية: إنك شيخ أخرق ولا تزال تحدث بالحديث وأنت تدحض في بولك، أوَ نحن قتلنا عماراً؟ إنما قتل عماراً من جاء به، فاستطاع معاوية أن يحمل رجاله على التصديق بما أوّل به الخبر، فخرجوا من فساطيطهم وأخبيتهم وهم يقولون: إنما قتل عماراً من جاء به!!

وروى الإمام أحمد كذلك عن عبدالرحمٰن بن أبي زياد قال: إني لأسير مع معاوية منصَرَفَه من صفين بينه وبين عمرو بن العاص، فقال عبدالله بن عمرو: يا أبتي أما سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار: **«ويحك يا ابن سمية، تقتلك الفئة الباغية»**، فقال عمرو لمعاوية: ألا تسمع ما يقول عبدالله هذا؟ فقال معاوية: لا يزال يأتينا بهَنَّة بعد هَنَّة، أنحن قتلناه؟ إنما

قتله الذين جاؤوا به، وكذلك روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد في قصة بناء المسجد أن رسول الله ﷺ قال لعمار: **«يا ويح عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»**، وفي بعض نسخ البخاري: **«يا ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»**.

وروى البيهقي عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار: **«إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق»**، وروى البيهقي أيضاً عن مولاة لعمار قالت: اشتكى عمار شكوى أُرِق منها فغشي عليه، فأفاق ونحن نبكي حوله، فقال: ما تبكون؟ أتخشون أن أموت على فراشي؟ أخبرني حبيبي ﷺ أنه تقتلني الفئة الباغية، وأن آخر زادي من الدنيا مَذْقة من لبن، وغير ذلك من الأخبار في صدق علي وجنده وأنهم الفئة المحقة المصلحة التي هديت إلى الطريق اللاحب القويم، على أن الفئة الأخرى لا يمكن إلا أن يقال إنهم من المسلمين بالرغم مما جنحوا إليه من المكابرة والاستئثار بالأمر دون علي وهو الأفضل استناداً إلى الظاهر من دلائل الأحاديث، والله تعالى أعلم.

ومع ذلك كله فقد اشتد الوطيس بين الفئتين واستحر بينهما القتال، وقد ذكر أنهم اقتتلوا بالرماح حتى تقصفت، وبالنبال حتى فنيت، وبالسيوف حتى تحطمت، وقتل منهم يومئذٍ كثيرون وكانت كفة القتال والغلبة تميل لصالح أهل العراق على أهل الشام الذين كادوا ينهزمون ويولون الفرار لولا أن رفع أهل الشام المصاحف فوق الرماح، وقالوا: هذا بيننا وبينكم، لقد فني الناس فمن للثغور، ومن لجهاد المشركين؟

وذكر كثير من علماء التاريخ أن من أشار برفع المصاحف فوق الرماح هو عمرو بن العاص، وذلك لما رآه من ظهور لأهل العراق في ذلك الموقف فأحب أن يتأخر الأمر فقال لمعاوية: إني قد رأيت أمراً لا يزيدنا هذه الساعة إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة، أرى أن ترفع المصاحف وتدعوهم إليها، فإن أجابوا كلهم إلى ذلك برد القتال، وإن اختلفوا فيما بينهم فشلوا وذهب ريحهم.

فلما رفعوا المصاحف قال أهل العراق: نجيب إلى كتاب الله وننيب إليه، وذكر عن علي أنه قال للناس يومئذٍ: عباد الله امضوا إلى حقكم وصدقكم وقتال عدوكم، ويحكم والله إنهم ما رفعوها إلا خديعة ودهاء ومكيدة.

فقالوا له: ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله، فقال لهم علي: إني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم الكتاب فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم به، وتركوا عهده، ونبذوا كتابه، فقال له بعض القراء ـ الذين صاروا بعد ذلك خوارج ـ: يا علي أجب إلى كتاب الله إذا دُعيت إليه وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان، إنه غلبنا أن يعمل بكتاب الله فقتلناه، والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك، ثم قالوا: ابعث إلى الأشتر فليأتك ويكف عن القتال، فبعث إليه علي ليكف عن القتال.

فأقبل الأشتر إلى علي وترك القتال، فقال: يا أهل العراق، يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم ظنوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها وسنة من أنزلت عليه فلا تجيبوهم، أمهلوني فإني قد أحسست بالفتح، فقالوا: لا، قال: أمهلوني عدو الفرس، فإني قد طمعت في النصر، قالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك، فقال الأشتر: خُدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون، فسبوه وسبهم وضربوا وجه دابته بسياطهم، ورغب أهل الشام وأكثر العراقيين في المصالحة والمسالمة مدة من الزمن حقناً للدماء التي أهرقت بغزارة، وقيل: قد قتل من الفريقين سبعون ألفاً، خمسة وأربعون ألفاً من أهل الشام، وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق، واختلفوا في مدة المقام في صفين، فقد قيل: مكثوا سبعة أشهر أو تسعة أشهر، وقيل: ثلاثة أشهر وعشرة أيام وقيل غير ذلك.

وفي هذا الصدد روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يقتل بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة»**.

قصة التحكيم:

اتفق فريقا علي ومعاوية عقب جدال طويل على التحكيم بينهما، وذلك أن يحكِّم كل من علي ومعاوية رجلاً من جهته ليكون حكماً ينوب منابه في حل الإشكال بين الفريقين، وبعد ذلك يجتمع الحكمان فيتفقان ما بينهما على ما فيه خير للمسلمين وفضّ للنزاع بينهما، فوكَّل معاوية عمرو بن العاص وأراد علي أن يوكل عبدالله بن عباس ـ ويا ليته فعل ذلك فوكل ابن عباس ـ لكن القراء وهم الذين صاروا خوارج فيما بعد، قد منعوا علياً من ذلك وقالوا: لا نرضى إلا بأبي موسى الأشعري، فلما ذهبوا إليه وأخبروه أن الناس قد اصطلحوا قال: الحمد لله، ثم قالوا له: وقد اتفقوا على أن تكون حكماً فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم اجتمع الفريقان وكتبوا بينهم كتاباً، مقتضاه أن المسلمين من جماعة علي ومعاوية إنما ينزلون عند حكم الله وكتابه وأنهم يحيون ما أحيى الله، ويميتون ما أمات الله، فما وجد الحكمان في كتاب الله ـ وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص ـ لزم المسلمين أن يعملوا به وما لم يجدوا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المتفرقة، وشهد على هذا التحكيم كثيرون من جيش علي ومعاوية.

قصة الخوارج:

ثارت الخوارج وخرجوا على علي وأنكروا عليه أنه حكَّم الحكمَين. وقالوا: حكمت في دين الله الرجال والله يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: الآية ٥٧] فقال علي: كلمة حق أُريدَ بها باطل، إن رسول الله ﷺ وصف ناساً، إني لأعرف صفتهم في هؤلاء الذين يقولون الحق بألسنتهم لا يجاوز حناجرهم، من أبغض خلْق الله إليه. فناظرهم علي ثم أرسل إليهم عبدالله بن عباس، فبيَّن لهم فساد شبهتهم واحتج بقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: الآية ٩٥] وبقوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: الآية ٣٥] فرجع إلى الصواب منهم خلْق كثير، وسار الآخرون فلقوا عبدالله بن خبَّاب بن الأرتّ ومعه امرأته، فقالوا: من أنت؟

فأجابهم عن اسمه ونسبه، فسألوه عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي فأثنى عليهم كلهم، فذبحوه وقتلوا امرأته وكانت حبلى فبقروا بطنها.

وقد سارت الخوارج لحرب علي رضي الله عنه وكانوا ستة آلاف رجل، فكانت بينهم وقعة النهروان وهي أرض يقال لها: حروراء من جانب الكوفة، إذ قابلهم علي بثمانية آلاف رجل فهزمهم وقتل أكثرهم وقتل من أصحاب علي اثنا عشر رجلاً.

وقيل: إن علياً رضي الله عنه أرسل عبدالله بن عباس لجدال الخوارج ليكشف لهم عن وجه الحق الذي غُمّ عليهم. فلبس ابن عباس حلتين من أحسن الحلل وخرج لمقابلتهم، فلما رأوه قالوا: ما هذه الحلة؟ قال: وما تنكرون من ذلك؟ لقد رأيت على رسول الله ﷺ حلة من أحسن الحلل، ثم تلا عليهم قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٢] فقالوا: وما جاء بك؟ فقال: جئتكم من عند أمير المؤمنين، ومن عند أصحاب رسول الله ﷺ ولا أرى فيكم أحداً منهم، فما تنقمون من ابن عم رسول الله ﷺ وصهره؟ فقال بعضهم: لا تكلموه فإن الله يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٥٨] وقال بعضهم: ما يمنعنا من كلامه؟ ابن عم رسول الله ﷺ ويدعونا إلى كتاب الله. فقالوا: نقم عليه ثلاث خلال: إحداهن: أنه حكّم الرجال في دين الله، وما للرجال ولحكم الله؟ والثانية: أنه قاتل فلم يَسْبِ ولم يغنم، والثالثة: محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير المشركين، وذلك لما طلب عمرو بن العاص من أبي موسى الأشعري أن يمحو من كتاب الصلح صفة أمير المؤمنين عن علي فيكتب اسمه واسم أبيه. فقال ابن عباس: هل غير هذا؟ فقالوا: حسبنا هذا. فقال: أما قولكم أنه حكّم الرجال في أمر الله فإني سمعت الله يقول في كتابه: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: الآية ٩٥] وذلك في ثمن صيد أرنب ونحوه قيمته ربع درهم، فقد فوّض الله الحكم فيه إلى الرجال. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: الآية ٣٥]. فأمة محمد ﷺ أعظم دماً وحرمة من امرأة ورجل.

وأما قولكم: قاتل ولم يَسْبِ فإنه قاتل أمكم أم المؤمنين عائشة، فإن زعمتم أنها ليست بأمكم فقد كفرتم إذ قال سبحانه: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦] وإن زعمتم أنها أمكم فكيف يحل سبيها؟

أما قولهم أنه محا اسمه من أمير المؤمنين فأجاب عنه ابن عباس بقوله: أما تعلمون أن النبي ﷺ قد أمر بمحو اسمه من رسول الله ليجعل بدلاً منه: محمد بن عبدالله، وذلك لما طلب منه سهيل بن عمرو ذلك يوم الحديبية، فقالوا: نعم، فرجع منهم أربعة آلاف إذ تابوا، ومضى الآخرون.

ولما جاء وقت التحكيم الذي اتفقوا عليه وهو شهر رمضان، بعث علي رضي الله عنه بعضاً من رجاله وفيهم حكَمه أبو موسى الأشعري ومعه عبدالله بن عباس. وأرسل معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة فارس من أهل الشام ومنهم عبدالله بن عمر، فاجتمعوا في دومة الجندل وهي في منتصف المسافة بين الكوفة والشام، وشهد معهم جماعة من رؤوس المسلمين كعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير والمغيرة بن شعبة وآخرون.

فلما اجتمع الحكمان تراوضا على ما فيه مصلحة المسلمين، ثم اتفقا على أن يعزلا علياً ومعاوية ثم يجعلا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما. وكان عمرو بن العاص قد جهد أن يقنع أبا موسى ليقر معاوية وحده على الناس، لكن أبا موسى أبى عليه ذلك. وحاول أيضاً أن يكون ابنه عبدالله خليفة فأبى أبو موسى كذلك، وأخيراً اتفقا على خلع معاوية وعلي ليتركا الأمر شورى بين الناس فيتفقوا على من يرونه لأنفسهم، ثم تقدّم الاثنان ـ عمرو وأبو موسى ـ إلى الناس ليعلنوا عليهم ما اصطلحا عليه، فقال عمرو لأبي موسى: قم يا أبا موسى فأعلم الناس بما اتفقنا عليه، فقام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أمراً أصلح لها ولا ألمّ لشعثها من رأي اتفقت أنا وعمرو عليه وهو أن نخلع علياً ومعاوية ونترك الأمر شورى ثم تولّي الأمة عليهم من أحبوه، وإني قد خلعت علياً ومعاوية، ثم تنحى أبو موسى ليأتي عمرو فيتكلم، فحمد الله وأثنى عليه ثم

قال: إن صاحبي قد قال ما سمعتم، وإنه قد خلع صاحبه علياً، وإني قد خلعته كما خلعه، وأثبتُ صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان بن عفان والمطالب بدمه وهو أحق الناس بمقامه. وقيل: إن أبا موسى تكلم مع عمرو بكلام فيه غلظة وزجر، ورد عليه عمرو بمثله. فتفرق الناس في كل وجه إلى بلادهم، ودخل عمرو بن العاص وصحبه على معاوية فحيوه بتحية الخلافة، وأما أبو موسى فاستحيى من علي فذهب إلى مكة، واستضعف الناس رأي أبي موسى(١).

خروج الخوارج من الكوفة:

لما أقرّ علي رضي الله عنه إرسال أبي موسى الأشعري إلى دومة الجندل من أجل التحكيم ثارت ثائرة الخوارج وغالوا في النكير على علي رضي الله عنه وصرحوا علانية بكفره ـ وحاش لمثل هذا المؤمن الأمثل الصنديد، أول الخلق من الغلمان إسلاماً، وصهر رسول الله ﷺ، وصاحب المبيت في فراشه يوم الهجرة في ساعة كاد يؤول فيها إلى الموت ـ أن يوسم مثل هذا الوسم الظالم الفاجر!.

وقد جاءه اثنان من الخوارج وهما: زرعة وحرقوص ليجادلاه في الأمر، فقال له حرقوص: تب من خطيئتك واذهب بنا إلى عدونا حتى نقاتلهم فنلقى ربنا. فقال علي: قد أردتكم على ذلك من قبل فأبيتم وقد كتبنا بيننا وبين القوم عهوداً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: الآية ٩١]، فقال له حرقوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه، فقال له علي: ما هو بذنب ولكنه عجز من الرأي.

ثم خرجا من عنده إلى جماعتهم، فجاهروا بالإساءة إلى علي من فاحش الكلام المبتذل الجهول، وتعرضوا له في خطبه، وأسمعوه السبَّ والشتم مستندين في ذلك إلى نصوص من الكتاب الحكيم يأخذون بالظاهر منها من غير تبصُّر في ذلك ولا تدبُّر.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٢٥٢ ـ ٢٧٧، وتاريخ الإسلام للذهبي ج٣ ص٥٣٧ ـ ٦٠٥.

كذلك كان أمر هؤلاء القوم المارقين الجهلة الذين يظنون أنهم على شيء من الحق أو العلم، ولكنهم في الحقيقة جاهلون سفهاء فهم مستغرقون في الجهالة منحدرون إلى وهاد الغباوة والضلالة لا يسعفهم فيما اصطنعوه من مقالات أثارة من علم أو معرفة، إلا التعصب الشنيع للهوى الجامح، والجنوح إلى مهاوي الباطل والشطط، إذ يؤزهم إلى كل ذلك إيغالهم في أوهامهم وضلالاتهم، فكانت الفتنة العارمة السافية والشر الجامح المستطير، لا جرم أن يكون مردّ ذلك كله إلى الجهل المطبق الأعمى، والتعصب الظالم المقيت والشرود عن مساءلة أهل الذكر من أولي العلم الأسبقين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال بعض السلف في الخوارج إنهم المراد بهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: الآيات ١٠٣-١٠٥].

فانطلق هؤلاء الجاهلون المضللون، الأشقياء أفعالاً وأقوالاً وأجمعوا على الخروج من بين أظهر الناس ثم تواطؤوا على المسير إلى المدائن ليتحصنوا بها ثم يبعثوا إلى أضرابهم ونظرائهم من الناس الذين هم على شاكلتهم في الرأي والمذهب، من أهل البصرة وغيرها فيوافوهم إليها (المدائن) حيث يجتمعون، فخرجوا يتسللون وحداناً كي لا يراهم أحد من الناس فيردوهم، وبذلك خرجوا من بين الآباء والأمهات، والأعمام والعمات وسائر القرابات، وهم يحملون في أذهانهم السقيمة من القناعة ما يُخَيَّل إليهم بها أنهم على حق وأنهم بذلك يرضون ربهم، وهم في الحقيقة ضالون مضلون، وأنهم شراذم تاعسة مهاويس، غشيهم من الوهم والحماقة وبلادة العقول ما أركسهم إلى العصيان فاقترفوا الكبريات من الآثام والخطايا من تكفير للناس بغير حق أو علم ومن سفك للدماء وقتل للأبرياء.

ثم اجتمع هؤلاء المارقون المهاويس في النهروان، وصارت لهم شوكة ومنعة، وهم في باطلهم ووهمهم وهوسهم أشداء شجعان، وعند ذلك قام

علي رضي الله عنه في الناس بالكوفة خطيباً فقال: الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطْب الفادح والحدثان الجليل الكادح، وأشهد أن لا إله غيره، وأن محمداً رسول الله، أما بعد: فإن المعصية تشين وتسوء وتورث الحسرة، وتعقب الندم، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين، ونحلتكم رأيي، فأبيتم إلا ما أردتم.

ثم تكلّم رضي الله عنه فيما فعله الحكمان فرد عليهما ما حكما به وأنبهما، ثم ندب الناس للخروج إلى الجهاد في أهل الشام، وكتب إلى الخوارج يبين لهم أن ما حكم به الحَكَمان مردود عليهما، وأنه عازم على الذهاب إلى الشام فهلموا نجتمع على قتالهم، فكتبوا إليه: أما بعد... فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك، وإنْ شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٨]، ومثل هذا الفهم المضطرب يعكس صورة بئيسة مشوهة عن حقيقة هؤلاء القوم الذين يجترؤون في بالغ الحماقة على تكفير المؤمنين الصادقين وفيهم صحابة رسول الله ﷺ، يقودهم إمام عظيم أكرم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

عند ذلك يئس منهم علي لما وقف على كتابهم وعزم على الذهاب إلى أهل الشام لمناجزتهم، فخرج من الكوفة في جيش كثيف من خمسة وستين ألف رجل، وبعث إليه ابن عباس بثلاثة آلاف ومائتي فارس من أهل البصرة، وانضم إليه آخرون من العسكر حتى بلغ جيشه ثمانية وستين ألفاً من الفوارس.

وبينما هو عازم على المسير إلى الشام لقتال الخارجين على طاعته، المستنكفين عن بيعته، بلغه من أخبار الخوارج ما يؤرق ويقلق، إذ بلغه أنهم عاثوا في الأرض الفساد فسفكوا الدماء وقطعوا السبل واستحلوا المحارم، وكان من جملة من قتلوه، ذاك المؤمن العظيم، عبدالله بن خباب بن الأرت إذ أسروه وامرأته معه وهي حامل، فسألوه: من أنت؟ قال: أنا عبدالله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ، وإنكم قد روعتموني، فقالوا: حدثنا ما

سمعت من أبيك، فقال: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي»**، فاقتادوه بيده ثم ذبحوه، وجاؤوا إلى امرأته فقالت: إني حبلى، ألا تتقون الله؟! فذبحوها وبقروا بطنها عن ولدها!!

يا لله لهذا التفظيع الشنيع، والمنكر المذهل المستبشع الذي تتقزز منه طبائع المؤمنين.

ومن حقائق الأمور أن المسلمين المؤمنين أرأف الخلْق بالخلْق وأرحم الناس بالناس، المسلمون المؤمنون رقاق كرام أبرار أبعد الخلائق طراً عن الظلم والتنكيل بالأبرياء، وأبعدهم عن التهويش والهوس والفوضى.

ولما بلغ الناس عن الخوارج ما فعلوه من الإفساد والتخريب والترويع والفوضى، خافوا إن هم ذهبوا لمناجزة أهل الشام فخلفهم هؤلاء في ذراريهم وديارهم أن يصنعوا بهم مثل ما صنعوه من تنكيل، فأشاروا على علي رضي الله عنه أن يبدأ بهم قبل أهل الشام، حتى إذا فرغ منهم ذهب إلى أهل الشام بعد ذلك والناس من ورائهم آمنون من شر هؤلاء الأشقياء المهاويس، فاتفقوا على ذلك، وعزموا على المسير إلى الخوارج فنادى منادي علي في الناس بالرحيل، فسلكوا ناحية الأنبار حتى بلغ جيش علي المدائن، وهنالك بعث علي إلى الخوارج أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم حتى نقتلهم ثم نترككم فنذهب إلى الشام، ثم لعل الله أن يردكم إلى خير مما أنتم عليه، فبعثوا إليه يقولون: كلنا قتل إخوانكم ونحن مستحلون دماءهم ودماءكم، فتقدم إليهم نفر من أعاظم الصحابة، ومنهم أبو أيوب الأنصاري، فأنبهم ووبخهم فلم يزدجروا، ثم تقدم إليهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فوعظهم وحذّرهم وأنذرهم وتوعدهم لعلهم ينتهون عن غيهم وضلالهم ويثوبوا إلى الهداية وإلى رشدهم وقال لهم: إنكم أنكرتم علي أمراً أنتم دعوتموني إليه فنهيتكم عنه فلم تقبلوا وها أنا وأنتم، فارجعوا إلى ما خرجتم منه ولا ترتكبوا محارم الله فإنكم قد سولت لكم أنفسكم أمراً تقتلون عليه المسلمين، والله لو قتلتم عليه

دجاجة لكان عظيماً عند الله، فكيف بدماء المسلمين؟.

فما كان جوابهم إلا أن تنادوا فيما بينهم أن لا تخاطبوهم ولا تكلموهم وتهيؤوا للقاء الرب عز وجل، الرواح الرواح إلى الجنة، ثم تقدموا فاصطفوا للقتال ووقفوا لمواجهة علي وأصحابه وقتالهم.

وأمر علي أبا أيوب الأنصاري أن يرفع أماناً للخوارج ويقول لهم: من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن، إنه لا حاجة لنا فيكم إلا فيمن قتل إخواننا، فانصرف منهم كثيرون وكانوا كلهم أربعة آلاف ولم يبق منهم إلا ألف رجل أو أقل، تقدموا لقتال علي وأصحابه، وأقبلوا يقولون في هوس محموم وأعصاب خائرة مضطربة: لا حكم إلا لله، الرواح الرواح إلى الجنة، فنهض إليهم أصحاب علي بالرماح والسيوف وقضوا عليهم فصاروا صرعى، وقتلوا أمراءهم، وفي طليعتهم الشقي حرقوص بن زهير، ولم يُقتل من أصحاب علي إلا سبعة نفر، وجعل يمشي بين القتلى من الخوارج ويقول: لقد ضركم ما غرّكم، فقالوا: ما غرهم؟ قال: الشيطان، وأنفُس بالسوء أمّارة، غرتهم بالأماني وزينت لهم المعاصي.

وسئل علي مرة عن أهل النهروان أمشركون هم؟ فقال علي: من الشرك فروا، قيل: أفمنافقون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، فقيل: ما هم يا أمير المؤمنين؟ قال: إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم ببغيهم علينا.

ذلكم تقييم بليغ وعظيم يبين فيه علي كرم الله وجهه حقيقة هؤلاء القوم الخوارج، فهم مسلمون بغاة، ركبوا طِباق الشطط وأزّهم الهوى الجارف المردي أزاً، فظنوا أنهم على الحق وأنهم صائبون وهم لا يعلمون أنهم سادرون في الغي والجهالة موغلون في الضلال والهذيان، مستسلمون لما يستحوذ على قلوبهم من هوس مضطرم مستشاط!.

وقد ورد في هؤلاء القوم جملة أخبار تكشف عن حقيقة أمرهم وما سيؤولون إليه في الدنيا والآخرة، ومن جملة ذلك ما رواه الإمام أحمد

بسنده عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال: إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخِرّ من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يخرج قوم من أمتي في آخر الزمان أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّميَّة، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قاتلهم عند الله يوم القيامة»**.

وروى أحمد بسنده عن طارق بن زياد قال: سار علي إلى النهروان فقتل الخوارج فقال: اطلبوا المخدج فإن رسول الله ﷺ قال: **«سيجيء قوم يتكلمون بكلمة الحق لا تجاوز حلوقهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّميَّة، سيماهم ـ أو فيهم رجل أسود مخدَّج[1] اليد في يده شعرات سود، إن كان فيهم فقد قتلتم شر الناس، وإن لم يكن فيهم فقد قتلتم خير الناس»**، فلما رأوا المخدج بكوا فخروا سجوداً[2].

وغير ذلك من الروايات في هذا الصدد ما يبيِّن حقيقة الجاهلين المهاويس الذين يفجأون المسلمين من حين لآخر بشطحاتهم الموهومة وضلالهم التائه، وهم في ذلك كله يحسبون أنهم هم المؤمنون حقاً وأن غيرهم من الناس كفرة، ألا إن هؤلاء التاعسين السفهاء قد استحوذ عليهم الشيطان بما سوّل لهم من ضلال التصور المريض وحماقات الفكر الشاطح المتخبط بما يستندون إليه من فهم خاطىء جهول لبعض النصوص من الكتاب والسنة فيحملونها على غير ما تحتمل، ثم يمضون بعد ذلك وهم على هذه الحال من التشنج والشطط والغثيان لتشيع في الأرض الفتنة والتفرق والفوضى فتنزلق أمة الإسلام بذلك إلى دركات الضعف والهوان والانقسام.

---

(١) مخدج: من الخداج أي: النقصان، انظر: مختار الصحاح ص١٧٠.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٢٨٤ ـ ٢٩١.

مقتل الإمام علي رضي الله عنه:

وذلكم حدث رهيب مفزع رُجّت بسببه الدنيا رجاً ونكبت من جرائه أمة الإسلام أشد نكبة، إنها النكبة التي سامت المسلمين وخيم النوازل والبلايا مما تجرعته من مرارة الفتن وفادح الخطوب والمعضلات السياسية والفكرية ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٨].

لقد كان مسطوراً في أزل المقادير أن تبتلى أمة الإسلام بجملة من القواصم المذهلة التي تثير فيها الذعر والفتنة وتفضي بها إلى الاقتتال والحروب والشقاق وانقسام الكلمة، وقد تحقق ذلك كله تحت وطأة الكيد والتآمر على أمة الإسلام، لتحطيمها وتدميرها، وأولو المكائد الذين يرقدون في دهاليز الظلام ليكيدوا للإسلام والمسلمين كثيرون، وهم شائعون منبثون في كل زمان ومكان، يخططون لتدمير هذا الدين وللتنكيل بالمسلمين أيما تنكيل.

ويأتي في طليعة هؤلاء المتربصين الأشرار، هذا الشقي المشؤوم الذي تحيق به لعائن الله في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وذلكم هو عبدالرحمٰن بن ملجم، ومن ورائه مستخف بالليل، متدسس بالنهار لا تأخذه في الكيد لأمة الإسلام كلالة، وذلكم هو ابن السوداء عبدالله بن سبأ اليهودي.

أما الحديث عن قتل علي رضي الله عنه فإنه أليم مرير وإنه مثير للدهش والالتياع، وذلك مما أحاط بهذا العَلَم الفذ من مكائد الكائدين وتفريط المفرطين، وتنغيص البلهاء والجاهلين من أدعياء الورع والتقوى والغيرة على دين الله.

لقد تنغصت على هذا العَلَم الأجلّ أمور الحياة من حوله، واضطرب عليه جيشه وأكثر الناس وخالفه أهل العراق، ونكلوا عن طاعته أو النهوض معه لردع المتربصين والأعداء الذين يحيطون ببلده أو يزحفون صوبه من الشام وغيرها زحفاً، يحفزهم إلى ذلك حكم الحكمين في خلعهما علياً، وإقرار عمرو بن العاص لمعاوية، وبذلك تعززت مكانة معاوية في أهل الشام

وتضعضعت مكانة علي في أهل العراق الذين خذلوه وتخلوا عنه وفرطوا فيه أيما تفريط حتى كره الحياة وتمنى الموت! مع أنه رضي الله عنه كان في زمانه خير أهل الأرض وأشد الناس عبادة وزهداً وأكثرهم علماً وخشية لله عز وعلا، وكان رضي الله عنه يكثر القول: ما يحبس أشقاها؟ ما له لا يقتل؟ والله لتخضبنَّ هذه (لحيته) من هذه (هامته).

وعن ثعلبة بن يزيد قال: قال علي: والذي فَلَقَ الحبة وبرأ النسمة لتخضبنَّ هذه من هذه - يشير إلى لحيته من رأسه - فما يحبس أشقاها؟.

وقال الحافظ أبو يعلى عن عثمان بن صهيب عن أبيه قال: قال علي: قال لي رسول الله ﷺ: «من أشقى الأولين؟»، قلت: عاقر الناقة، قال: «صدقت»، قال: «فمن أشقى الآخرين؟»، قلت: لا علم لي يا رسول الله، قال: «الذي يضربك على هذه»، وأشار بيده على يافوخه، «فيخضب هذه من هذه» يعني لحيته من دم رأسه، فكان علي يقول: وددت أنه قد انبعث أشقاكم.

وعن زهير بن الأرقم قال: خطبنا علي يوم الجمعة فقال: نبئت أن بُسراً قد طلع اليمن، وإني لأحسب أن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم، وما يظهرون عليكم إلا بعصيانكم إمامكم وطاعتهم إمامهم، وخيانتكم وأمانتهم، وإفسادكم في أرضكم وإصلاحهم، قد بعثت فلاناً فخان وغدر، وبعثت فلاناً فخان وغدر، وبُعِثَ المال إلى معاوية، لو ائتمنت أحدكم على قدح لأخذ عِلاقته، اللهم سئمتهم وسئموني، وكرهتهم وكرهوني، اللهم فأرحهم مني وأرحني منهم، قال زهير: فما صلى الجمعة الأخرى حتى قتل رضي الله عنه وأرضاه.

جريمة ابن ملجم النكراء:

ذكر علماء التاريخ والسِّيَر أن ثلاثة من الخوارج وهم عبدالرحمٰن بن عمرو، المعروف بابن ملجم الحميري الكندي، والبرك بن عبدالله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي، قد اجتمعوا فتذاكروا قتل علي إخوانهم من أهل

النهروان، فترحموا عليهم، وقالوا: ماذا نصنع بالبقاء بعدهم؟ كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم فأرحنا منهم البلاد وأخذنا منهم ثأر إخواننا؟ فقال ابن ملجم: أما أنا فأكفيكم علي بن أبي طالب، وقال البرك: وأنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص.

فتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذ الثلاثة أسيافهم فسموها (من السم)، وتواعدوا لسبع عشرة من رمضان أن يبيت كل واحد منهم صاحبه في بلده الذي يقيم فيه، أما أشقاهم ابن ملجم فسار إلى الكوفة حتى دخلها وهو مستتر في قلبه ما يريد من فظاعة النكير دون أن يدري أحد بما جاء من أجله.

وفي ليلة الجمعة لسبع عشرة من رمضان، خرج علي وهو يُنهض الناس من النوم إلى الصلاة ويقول: الصلاة الصلاة، فباغته ابن ملجم ثم ضربه بالسيف على قرنه فسال دمه على لحيته رضي الله عنه، ولما ضربه ابن ملجم قال: لا حكم إلا لله ليس لك يا علي ولا لأصحابك.

ونادى علي: عليكم به، فأمسكوه، وحمل علي إلى منزله، وحمل إليه عبدالرحمٰن بن ملجم فأوقف بين يديه وهو مكتوف، فقال له: فما حملك على هذا؟ قال: شحذته أربعين صباحاً، وسألت الله أن يقتل به شر خلْقه، فقال له علي: لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلق الله، ثم قال: إن مت فاقتلوه، وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به، فقيل له: يا أمير المؤمنين إن مت نبايع الحسن؟ فقال: لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر.

ولما احتضر، جعل يكثر من قول لا إله إلا الله، وقد أوصى ولديه الحسن والحسين بتقوى الله والصلاة والزكاة وكظم الغيظ وصلة الرحم والحلم عن الجاهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش، ووصاهما بأخيهما محمد بن الحنفية، وكتب ذلك كله في كتاب وصيته رضي الله عنه وأرضاه.

وهذا بعض ما وصّى به بنيه في وصيته العظيمة لهم: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين، أوصيك يا حسن وجميع ولدي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ربكم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا فإني سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «**إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام**»، عليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب، حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ عليكم نبيكم، أستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله.

وما فتىء رضي الله عنه ينطق بلا إله إلا الله حتى قُبض في شهر رمضان سنة أربعين للهجرة.

وبذلك يغيب عن وجه الأرض كوكب ساطع من كواكب البشر اللوامع، ليظل على مر الزمن ذكرى مركوزة في عميق الغيب وفي بطون الكتب، وذكرى حرورة بالغة التألق والتأجج، تراود الذهن والخيال على الدوام فتظل ترددها الأجيال فتذكر في هذا المقدام الفذ ظواهر شتى من روائع الإخلاص والبر والحماسة وتكيل له من الإطراء وحسن الثناء ما هو به قمين.

أما الشقي المشؤوم ابن ملجم فجدير أن يُذكر بزخات كثاف من اللعائن المستديمة فلا تبرحه حتى قيام الساعة! وذلكم الشقي نموذج منكود ومنفر يكشف للمسلمين ما ابتلاهم الله به من فئة غاشمة ضالة، تصطنع الورع والتقى اصطناعاً فتثير في الأرض الشر والفتنة والفساد وتنشر في طول البلاد أطيافاً رعيبة من شبح الخوف والذعر فيظل المسلمون وجلين مذعورين، أولئك هم المهاويس والحمقى الذين أحاط بم الغرور والسفه

وهم يحسبون أنهم يعلمون وما هم بعالمين من أمور الإسلام إلا هنّات من شذرات!.

ولما مات رضي الله عنه صلى عليه ابنه الحسن فكبر عليه تسع تكبيرات ودفن بدار الإمارة خوفاً عليه من الخوارج أن ينبشوا قبره فيعبثوا بجثته.

والراجح أنه قتل يوم الجمعة ليلاً، وذلك لسبع عشرة خلت من رمضان سنة أربعين للهجرة، ودفن بالكوفة عن ثلاث وستين سنة رضي الله عنه، وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر.

ولما مات علي رضي الله عنه استدعى ولده الحسن ابن ملجم فقال له ابن ملجم: إني أعرض عليك خصلة، قال: وما هي؟ قال: إني كنت عاهدت الله عند الحطيم[1] أن أقتل علياً ومعاوية أو أموت دونهما، فإن خليتني ذهبت إلى معاوية على أني إن لم أقتله أو قتلته وبقيت فللّه علي أن أرجع إليك حتى أضع يدي في يدك، فقال له الحسن: كلا والله حتى تعاين النار، ثم قدمه فقتله ثم أخذه الناس فأدرجوه في بواري ثم أحرقوه بالنار[2].



(١) الحطيم: جدار حجر الكعبة، انظر: مختار الصحاح ص١٤٣.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٣١٩ ـ ٣٣٠، وتاريخ الإسلام للذهبي ص٦٠٦ ـ ٦٠٨.

الفصل الخامس

خلافة الحسن بن علي رضي الله عنه

لما فرغ المسلمون من دفن علي رضي الله عنه، بادر المسلمون لمبايعة الحسن، وكان أول من تقدّم إلى الحسن بن علي رضي الله عنه، قيس بن سعد بن عبادة إذ قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنّة نبيه، فسكت الحسن فبايعه ثم بايعه الناس من بعده، وبذلك ولي الحسن بن علي أمر المسلمين، وكان قيس بن سعد أميراً على أذربيجان وتحت أمرته من الجند أربعون ألف مقاتل، وكلهم كان قد بايع علياً على الموت، وعقب موت علي ألحّ قيس بن سعد على الحسن في النفير لمناجزة أهل الشام، ولم يكن الحسن مبتغياً قتال أحد، لكن الناس غلبوه فنزل عن رأيه إلى رغبتهم في المناجزة، فسار في اثني عشر ألفاً من المقاتلين قاصداً الشام لقتال معاوية وجنده، حتى إذا نزل المدائن إذ بصارخ من المرجفين يصرخ في الناس: ألا إن قيس بن سعد بن عبادة قد قُتل، فثار الناس وغشيهم موجة عارمة من الفوضى والاضطراب، فتولوا مدبرين، وراح المرجفون ينتهبون ما يجدونه من متاع ولم ينج الحسن من شر المرجفين المريبين إذ طعنه بعضهم طعنة فأثبتوه، ومن أجل ذلك كرههم الحسن شديد الكراهية مما اضطره أن يعيد النظر في أمرته برمتها، ومما زاد الأمر سوءاً تفرق جيشه عليه وعصيانهم أمره فمقتهم، ومن أجل ذلك كتب إلى معاوية بن أبي سفيان في الشام، يراوضه على المصالحة، سُرّ معاوية بذلك وبذل له ما أراد، وأن لا يُسَبَّ عليّ أبوه، فإذا فعل معاوية ذلك نزل الحسن عن خلافة

المسلمين لمعاوية، فتحقن بذلك دماء المسلمين، فاصطلحوا على ذلك واجتمعت كلمة المسلمين على معاوية وقد غضب الحسين بن علي لتخلي أخيه عن أمرة المسلمين، وكذلك أمير الجند قيس بن سعد أبى ذلك وخرج عن طاعة الاثنين كليهما، ثم ما لبث بعد مدة أن بايع معاوية.

وبعد ذلك كله فاء أهل العراق إلى الحسن بن علي ليلتئموا من حوله فيعزروه ويؤيدوه فلم يتحقق لهم ما أرادوا لأنهم بادروا الحسن بالتأييد بعد فوات الأوان، وبعد أن تفرقوا وتنازعوا فيما بينهم حتى ازداد معاوية قوة وتمكيناً.

لقد كان علي رضي الله عنه قميناً أن يعظمه أصحابه من أهل العراق فيعزروه ويناصروه، وما كان ينبغي لهذا السبط الطاهر المكرم أن يجد من قومه الخذلان والتمرد والنزاع، وهم يعلمون أن علياً واحد من أكرم الصحابة وأعظمهم علماً وفضلاً وحلماً، بل إنه أحد الخلفاء الراشدين، ودليل ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ إذ قال: **«الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً»**، وبذلك يكون اكتمال الثلاثين سنة بخلافة الحسن بن علي، لأنه نزل عن الخلافة لمعاوية سنة إحدى وأربعين وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ.

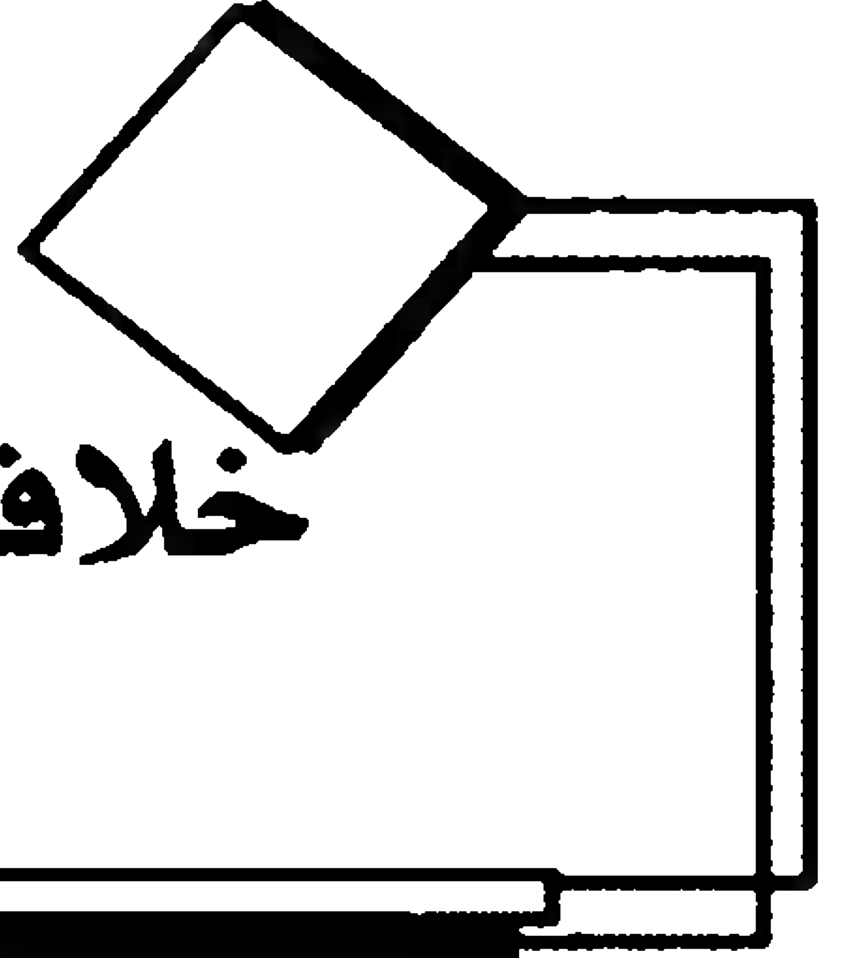
وقد أثنى النبي ﷺ خيراً على الحسن لما قام به من إصلاح بين المسلمين مما حقن دماءهم وجمع كلمتهم على الخير والالتئام، فقال ﷺ عقب صعوده المنبر يوماً والحسن جالس إلى جانبه: **«أيها الناس إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به فئتين عظيمتين من المسلمين»**.



الباب الثالث

الخلافة الأموية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الأول

خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما

انقضت مدة الخلافة الراشدة بخلافة الحسن بن علي رضي الله عنه لتصبح بعد ذلك مُلْكاً، وبذلك فإن أيام معاوية لهي بداية الملك، وإن معاوية نفسه أول ملوك الإسلام رحمهم الله، ويؤيد ذلك ما رواه الطبراني عن معاذ بن جبل وأبي عبيدة وغيرهما قالوا: قال رسول الله ﷺ: **«إن هذا الأمر بدا رحمة ونبوة، ثم يكون رحمة وخلافة، ثم كائن ملكاً عضوضاً، ثم كائن عتواً وجبرية وفساداً في الأرض، يستحلون الحرير والفروج والخمور ويرزقون على ذلك وينصرون حتى يلقوا الله عز وجل»**.

أما معاوية فهو ابن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، أبو عبدالرحمٰن القرشي الأموي، أسلم هو وأبوه وأمه هند بنت عتبة يوم الفتح، وروي عن معاوية أنه قال: أسلمت يوم عمرة القضاء ولكني كتمت إسلامي من أبي إلى يوم الفتح.

على أن معاوية كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ مع غيره من كتّاب الوحي رضي الله عنهم، ولما فتح عمر بن الخطاب الشام ولاه نيابة دمشق بعد أخيه يزيد بن أبي سفيان، وأقره على ذلك عثمان بن عفان.

ولما ولي علي بن أبي طالب الخلافة أشار عليه كثير من أمرائه ممن أسهم في قتل عثمان، أن يعزل معاوية عن الشام ويولي بدله عليها سهل بن

حنيف فعزله علي، لكن معاوية لم يذعن لأمره بالعزل فالتف من حوله أهل الشام ليعلنوا الامتناع من طاعة علي، وقال معاوية حينئذٍ: لا أبايعه حتى يسلمني قتلة عثمان الذي قتل مظلوماً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: الآية ٣٣]، فكان معاوية يستند إلى هذه الآية في اعتقاده أنه أحق من غيره بإمامة المسلمين، وفي ذلك روى الطبراني عن ابن عباس أنه قال: ما زلت موقناً أن معاوية يلي الملك من هذه الآية، ولما امتنع معاوية من مبايعة علي، آل بهم الأمر إلى ما وقع في صفين، حتى آل الأمر إلى التحكيم، فتقوّى أمر معاوية وعظم شأنه في الناس واستفحل، وظل علي رضي الله عنه يصارع الخلاف والفرقة مع أصحابه فعانى منهم المرارة والشدائد حتى قتله الأثيم ابن ملجم، وبعد ذلك بايع أهل العراق الحسن بن علي، وبايع أهل الشام معاوية، ثم اختلف الفريقان وتنازعا حتى كادا يقتتلان لولا أن خلع الحسن نفسه من الخلافة وتخلى عن الملك إلى معاوية بن أبي سفيان، وذلك سنة إحدى وأربعين للهجرة، وعند ذلك دخل معاوية إلى الكوفة فخطب في الناس خطبة بليغة بعد أن بايعه الناس، واستقر له الأمر في شرق البلاد وغربها حتى سمي هذا العام عام الجماعة لاجتماع الكلمة فيه على إمام واحد وهو معاوية بن أبي سفيان.

الفتوحات في عهده رضي الله عنه:

وفي سنة ثلاث وأربعين، بعث معاوية بسر بن أبي أرطأة لغزو بلاد الروم، فتوغل بسر فيها حتى بلغ مدينة القسطنطينية، وفي هذه السنة مات عمرو بن العاص، فولى معاوية بعده على ديار مصر ولده عبدالله بن عمرو.

وعمرو بن العاص معروف بخصاله العظام، فهو ثاقب البصيرة، سديد الرأي بليغ القول والحديث، وله من بعد النظر ونبوغ التفكير وحسن التدبير ما ليس له في ذلك نظير.

وفي سنة تسع وأربعين، غزا يزيد بن معاوية بلاد الروم حتى بلغ القسطنطينية ومعه جماعات من سادات الصحابة منهم ابن عمر، وابن

عباس، وابن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري، وقد ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: **«أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»**، فكان هذا الجيش أول من غزاها.

وتوفي في هذه السنة أبو أيوب الأنصاري، وقد عزل معاوية مروان عن المدينة وولى عليها سعيد بن العاص.

وفاة الحسن بن علي رضي الله عنهما:

وكذلك قد توفي في هذه السنة: الحسن بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي، سبط رسول الله ﷺ، ابن بنته فاطمة الزهراء، ولد في النصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة فحنكه رسول الله ﷺ بريقه الطهور وسماه حسناً، وهو أكبر ولد أبويه، وكان النبي ﷺ يحبه حباً عظيماً وكان يعتنقه ويداعبه لفرط حبه إياه، وقد ثبت عنه ﷺ أنه بينما هو يخطب إذ رأى الحسن والحسين مقلين[1] فنزل إليهما فاحتضنهما وأخذهما معه إلى المنبر وقال: **«صدق الله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: الآية ١٥] إني رأيت هذين يمشيان ويعثران فلم أملك أن نزلت إليهما»**.

ما ورد في فضل الحسن والحسين:

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه حسن وحسين، هذا على عاتقه، وهذا على عاتقه، وهو يلثم هذا مرة، وهذا مرة، حتى انتهى إلينا، فقال له رجل: يا رسول الله إنك لتحبهما، فقال: **«من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني»**.

وقد ورد عن عائشة وأم سلمة أمّي المؤمنين أن رسول الله ﷺ اشتمل على الحسن والحسين وأمهما وأبيهما فقال: **«اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهِب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»**.

---

(١) المقل: النظر والغمس والغوص في الماء، وتمالقا يعني: تغاطا في الماء، انظر: القاموس المحيط ج٤ ص٥٢، ٥٣.

وعن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سرّه أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسن بن علي»**.

وعن علي وأبي سعيد وبريدة أن رسول الله ﷺ قال: **«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما»**، وغير ذلك من الأخبار والآثار كثير، في تعظيم الحسن والحسين وأبيهما وأمهما رضوان الله عنهم أجمعين، تلك أسرة مباركة كريمة فاقت في صلاحها وفضل نسبها الميمون عامة الأُسر فكانت من الفالحين المكرمين، الذين تتهاطل عليهم من الله البركات والرحائم وتتوالى عليهم ألسن المؤمنين بالإطراء والدعوات إلى قيام الساعة، فنسأل الله جلت قدرته أن يحشرنا في زمرة هؤلاء الأطهار الميامين وأن يُبلّغنا من النجاة والسعادة والحبور ما نرقى به مراقي المفلحين الآمنين!.

عودة إلى الفتوحات:

وفي سنة خمسين من الهجرة افتتح عقبة بن نافع الفهري بلاد إفريقية بأمر من معاوية، واختط مدينة القيروان، إذ كانت غيضة تأوي إليها السباع والوحوش والحيات العظام فدعا الله تعالى فلم يبق فيها شيء، فأسلم كثير من البربر فبنى فيها القيروان.

وتوفي في هذه السنة صفية بنت حيي بن أخطب، أم المؤمنين النضرية، من سلالة هارون عليه السلام، اصطفاها النبي ﷺ لنفسه عقب فتح خيبر.

دعوة الناس إلى أخذ البيعة ليزيد بن معاوية:

وفي هذه السنة دعا معاوية أهل الشام إلى البيعة بولاية العهد من بعده لابنه يزيد فبايعوه[1].

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص١٤ ـ ٤٩، وتاريخ الإسلام للذهبي ج٤ ص١٤ ـ ٢٢.

ولما قدم يزيد بن معاوية المدينة خطبهم قال: يا معشر أهل المدينة إن أمير المؤمنين حسن نظره لكم، وإنه جعل لكم مفزعاً تفزعون إليه، يزيد ابنه.

فقام عبدالرحمٰن بن أبي بكر فقال: يا معشر بني أمية اختاروا منها بين ثلاثة: بين سنة رسول الله، أو سنة أبي بكر، أو سنة عمر، إن هذا الأمر قد كان، وفي أهل بيت رسول الله ﷺ من لو ولاّه ذلك لكان لذلك أهلاً، ثم كان أبو بكر فكان في أهل بيته من لو ولاّه لكان لذلك أهلاً، فولاها عمر فكان بعده، وقد كان في أهل بيت عمر من لو ولاّه ذلك لكان له أهلاً فجعلها في نفر من المسلمين، ألا وإنما أردتم أن تجعلوها قيصرية، كلما مات قيصر كان قيصر، فغضب مروان بن الحكم، وقال لعبدالرحمٰن: هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ [الأحقاف: الآية ١٧]، فقالت عائشة: كذبت إنما أنزل ذلك في فلان وأشهد أن الله لعن أباك على لسان نبيه ﷺ وأنت في صلبه.

وقال سالم بن عبدالله: لما أرادوا أن يبايعوا ليزيد قام مروان فقال: سنة أبي بكر الراشدة المهدية، فقام عبدالرحمٰن بن أبي بكر فقال: ليس بسنة أبي بكر، وقد ترك أبو بكر الأهل والعشيرة، وعدل إلى رجل من بني عدي أنْ رأى أنه لذلك أهل، ولكنها (عندكم) هرقْلية.

ولما أجمع معاوية على أن يبايع لابنه يزيد حج، فقدم مكة في نحو من ألف رجل، فلما دنا من المدينة خرج ابن عمر، وابن الزبير، وعبدالرحمٰن بن أبي بكر، فلما قدم معاوية المدينة حمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ابنه يزيد فقال: من أحق بهذا الأمر منه، ثم ارتحل فقدم مكة فقضى طوافه، ودخل منزله فبعث إلى ابن عمر، فتشهد وقال: أما بعد يا ابن عمر، إنك كنت تحدثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء ليس عليك فيها أمير، وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين، أو تسعى في فساد ذات بينهم، فحمد ابن عمر الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد: فإنك قد كانت قبلك خلفاء لهم أبناء، ليس ابنك بخير من أبنائهم، فلم يروا في أبنائهم ما رأيت في ابنك، ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا الخيار، وإنك تحذرني أن

أشق عصا المسلمين، ولم أكن لأفعل، إنما أنا رجل من المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر فإنما أنا رجل منهم، فقال: يرحمك الله، ثم خرج ابن عمر.

ثم أرسل من بعده إلى ابن أبي بكر، فتشهد ثم أخذ في الكلام، فقطع عليه ابن أبي بكر كلامه، وقال: إنك والله لوددت أنا وكَّلناك في أمر ابنك إلى الله، وإنا والله لا نفعل، والله لتردَّنَّ هذا الأمر شورى في المسلمين، أو لنعيدنها عليك جَذِعة، ثم وثب ومضى، فقال معاوية: اللهم اكفنيه بما شئت، ثم قال: على رِسْلك أيها الرجل، لا تشرُفنَّ على أهل الشام فإني أخاف أن يسبقوني بنفسك حتى أخبر العشية أنك قد بايعت ثم كن بعد ذلك على ما بدا لك من أمرك.

ثم أرسل معاوية إلى ابن الزبير فقال: يا ابن الزبير إنما أنت ثعلب روّاغ (من المراوغة) كلما خرج من جحر دخل آخر، وإنك عمدت إلى هذين الرجلين فنفخت في مناخرهما وحملتهما على غير رأيهما.

فقال ابن الزبير: إن كنت قد مللت الإمارة فاعتزلها، وهلمّ ابنك فلنبايعه، أرأيت إذا بايعنا ابنك معك لأيكما نسمع ونطيع، لا نجمع البيعة لكما أبداً، ثم خرج، ثم صعد معاوية المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار[1]، زعموا أن ابن عمر، وابن أبي بكر، وابن الزبير، لن يبايعوا يزيد وقد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له، فقال أهل الشام: والله لا نرضى حتى يبايعوا على رؤوس الأشهاد، وإلا ضربنا أعناقهم، فقال: سبحان الله ما أسرع الناس إلى قريش بالشر، لا أسمع هذه المقالة من أحد منكم بعد اليوم، ثم نزل، فقال الناس: بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبي بكر، وهم يقولون: لا والله ما بايعنا، فيقول الناس: بلى، وارتحل معاوية فلحق بالشام.

وعن نافع قال: خطب معاوية فذكر ابن عمر فقال: والله ليبايعنّ أو

---

(١) العوار: بالفتح معناه: العيب، انظر: مختار الصحاح ص٤٦٢.

لأقتلنه، فخرج إليه ابنه عبدالله فأخبره، فبكى ابن عمر، فقدم معاوية مكة فنزل بذي طوى، فخرج إليه عبدالله بن صفوان فقال: أنت الذي تزعم أنك تقتل عبدالله بن عمر إن لم يبايع ابنك؟ فقال: أنا أقتل ابن عمر! والله لا أقتله.

ولما دخل معاوية مكة، أذن للثلاثة: الحسين بن علي، وعبدالرحمٰن بن أبي بكر، وعبدالله بن عمر فدخلوا، فحمد الله معاوية وأثنى عليه، ثم قال: قد علمتم مسيري فيكم وصلتي لأرحامكم، وصفحي عنكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم، وأحسن الناس فيكم رأياً، وإنما أردت أن تقدموه، وأنتم الذين تنزعون وتؤمّرون وتقسّمون، فسكتوا، فقال معاوية: ألا تجيبوني؟! فسكتوا، فأقبل على ابن الزبير فقال: هات يا ابن الزبير، فإنك لعمري صاحب خطبة القوم، فقال ابن الزبير: نعم يا أمير المؤمنين نخيّرك بين ثلاث خصال، أيها ما أخذت فهو لك، قال: للّه أبوك، اعرضهن، فقال: إن شئت صُنِع ما صنع رسول الله ﷺ، وإن شئت صنع ما صنع أبو بكر، وإن شئت صنع ما صنع عمر، قال: ما صنعوا؟ قال: قبض رسول الله ﷺ فلم يعهد عهداً، ولم يستخلف أحداً، فارتضى المسلمون أبا بكر، فقال معاوية: إنه ليس فيكم اليوم مثل أبي بكر، إن أبا بكر كان رجلاً تقطع دونه الأعناق، وإني لست آمن عليكم الاختلاف، قال ابن الزبير: صدقت، والله ما نحب أن تدَعَنا، فاصنع ما صنع أبو بكر، قال: للّه أبوك وما صنع؟ قال: عمد إلى رجل من قاصية قريش ليس من رهطه فاستخلفه فإن شئت أن تنظر أي رجل من قريش شئت، ليس من بني عبد شمس، فنرضى به.

قال معاوية: فالثالثة إذن؟ قال: تصنع ما صنع عمر، قال: وما صنع عمر؟ قال: جعل الأمر في ستة ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه، ولا من رهطه، قال معاوية: فهل عندك غير هذا؟ قال: لا.

فقال معاوية: أما بعد، فإني أحببت أن أتقدم إليكم، إنه قد أُعذر من أنذر، وإنه قد كان يقوم القائم منكم إليّ فيكذبني، على رؤوس الناس فأحتمل ذلك، وإني قائم بمقالة، إن صدقت فلي صدقي، وإن كذبت فعلي

كذبي، وإني أقسم بالله لئن رد عليَّ إنسان منكم كلمة في مقامي هذا ألاّ ترجع إليه كلمته حتى يسبق إليَّ رأسه، فلا يرعين رجل إلا على نفسه.

ثم دعا صاحب حرسه فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين من حرسك، فإن ذهب رجل يرد عليَّ كلمة في مقامي فليضربا عنقه، ثم خرج وخرجوا معه، حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لا يُستَبَدُّ بأمر دونهم، ولا يقضى أمر إلا عن مشورتهم، إنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ابن أمير المؤمنين من بعده، فبايعوا بسم الله، فضربوا على يده بالمبايعة، ثم انصرف وانصرف الناس، فلقوا أولئك النفر فقالوا: زعمتم، وزعمتم، فلما أُرضيتم وحُبيتُم فعلتم، فقالوا: إنا والله ما فعلنا، قالوا: ما منعكم؟ ثم بايعه الناس[1].

عودة إلى الفتوحات والوفيات:

وفي سنة ثنتين وخمسين، غزا جيش المسلمين بلاد الروم بقيادة سفيان الأزدي فمات هناك، وحج بالناس في هذه السنة سعيد بن العاص أمير المدينة.

وقد توفي كثير من الأعيان في هذه السنة، منهم أبو أيوب الأنصاري الخزرجي الذي شهد بدراً والعقبة والمشاهد كلها، وشهد مع علي قتال الحرورية، وقد نزل النبي ﷺ بداره حين قدم المدينة، فأقام عنده شهراً حتى بنى المسجد ومساكنه حوله ثم تحول إليها، وقد توفي أبو أيوب الأنصاري في بلاد الروم قريباً من سور القسطنطينية، وقد كان في جيش يزيد بن معاوية وهو الذي صلى عليه.

وفي هذه السنة توفي أبو موسى الأشعري، أسلم ببلاده وقدم مع جعفر وأصحابه عام خيبر، وقد استعمله رسول الله ﷺ مع معاذ على اليمن، واستنابه عمر على البصرة وفتح تستر، وشهد خطبة عمر بالجابية، وقد ولاه

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ج٤ ص١٤٧ ـ ١٥٢.

عثمان الكوفة، وكان أحد الحكمين بين علي ومعاوية، فلما اجتمعا للتشاور والمصالحة استغفل عمرو بن العاص أبا موسى استغفالاً وأوهمه أنه ملتزم بما اتفقا عليه من خلع معاوية وعلي، حتى إذا أعلن أبو موسى عن خلعهما، بادر عمرو القول بخلع علي وحده، وإقرار معاوية على الخلافة.

وقد كان أبو موسى الأشعري من قراء الصحابة وفقهائهم، وكان رضي الله عنه أحسن الصحابة صوتاً في زمانه.

قال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار أطيب من صوت أبي موسى، وقد ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود».

وفي سنة ثلاث وخمسين، غزا المسلمون بلاد الروم، بقيادة عبدالرحمٰن بن أم الحكم، وفي هذه السنة افتتحوا رودس وعليهم جنادة بن أبي أمية، وأقامت بها طائفة من المسلمين وكانوا على حذر من الفرنجة فيبيتون في حصن عظيم فيه حوائجهم ودوابهم، وكان لهم حراس على البحر ينذرونهم إن قدم عدو، وما زالوا كذلك حتى كانت إمرة يزيد بن معاوية بعد أبيه فحولهم من تلك الجزيرة.

وفي هذه السنة توفي زياد بن أبي سفيان، ويقال له: زياد بن أبيه، وزياد بن سمية، وهي أمة، وقد مات في رمضان من هذه السنة مطعوناً، وسبب ذلك أنه كان يطمع في معاوية أن يستنيبه على بلاد الحجاز بالإضافة إلى إمرته على العراق، فجزع من ذلك أهل الحجاز فجاؤوا إلى عبدالله بن عمر فشكوا ذلك إليه إذ خافوا على أنفسهم أن يليهم هذا المتعسف فيكبتهم كما كبت أهل العراق، فقام عبدالله بن عمر فاستقبل القبلة فدعا على زياد والناس من ورائه يؤمنون، فطعن زياد في يده - أي أصابه فيها الطاعون - فضاق بذلك ذرعاً وكان يقول مخاطباً نفسه في مضاضة واستحسار: أأنام أنا والطاعون في فراش واحد، فعزم على قطع يده، فلما جاؤوا بالمكاوي والحديد خاف من ذلك فلم يجرؤ على قطع يده، وقيل: إنه جمع مائة وخمسين طبيباً كيما يداووه مما يجد من ألم وإيجاع، لكنهم عجزوا عن دفع

القدر المحتوم الذي لا مناص من مواجهته، فمات في الثالث من شهر رمضان من هذه السنة.

وفي سنة أربع وخمسين، عزل معاوية سعيد بن العاص عن إمرة المدينة ورد إليها مروان بن الحكم.

وكذلك عزل معاوية سمرة بن جندب عن البصرة.

وتوفي في هذا العام عديد من أعيان المسلمين، منهم: جبير بن مطعم، وسودة بنت زمعة القرشية أم المؤمنين، تزوجها رسول الله ﷺ بعد خديجة، وكانت رضي الله عنها ذات عبادة وورع وزهد، وقيل: توفيت في آخر خلافة عمر بن الخطاب.

وفي سنة خمس وخمسين توفي أعداد من الأعيان، منهم أرقم بن أبي الأرقم المخزومي، أسلم قديماً وكانت داره كهفاً للمسلمين يأوي إليها رسول الله ﷺ والذين أسلموا، فراراً من قريش، ومات بالمدينة وصلى عليه سعد بن أبي وقاص، وله بضع وثمانون سنة.

وتوفي في هذه السنة أيضاً سعد بن أبي وقاص، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقد أسلم قديماً إذ كان عمره سبع عشرة سنة، وقد كان رضي الله عنه مستجاب الدعاء، وقد هاجر وشهد بدراً وما بعدها، وكان فارساً شجاعاً من أمراء رسول الله ﷺ، وهو أول رجل رمى بسهم في المشركين، وكان النبي يقول له: **«ارم فداك أبي وأمي»**.

وسعد بن أبي وقاص، من أهل الفضل والورع، وهو مشهود له بالصلاح والسداد وحسن العاقبة، وفي ذلك روى أحمد بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: **«أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة»**، فدخل سعد بن أبي وقاص.

وروى الترمذي عن جابر قال: كنا مع رسول الله ﷺ فأقبل سعد فقال رسول الله ﷺ: **«هذا خالي فليرني امرؤ خاله»**.

وغير ذلك كثير من الأخبار في القدر العظيم لهذا الصحابي الأكرم رضي الله عنه وأرضاه.

وفي سنة ست وخمسين، غزا جنادة بن أبي أمية أرض الروم، وكذلك غزا يزيد بن سمرة في البحر، وفي هذه السنة اعتمر معاوية في شهر رجب، وحجّ بالناس فيها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وفيها ولّى معاوية سعيد بن عثمان بلاد خراسان.

وفي سنة ثمان وخمسين غزا المسلمون أرض الروم بقيادة مالك بن عبدالله الخثعمي، وحجّ بالناس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وفي هذه السنة ولّى معاوية أمر الكوفة لعبدالرحمٰن بن عبدالله بن عثمان الثقفي.

وقد توفي في هذه السنة من الأعيان سعيد بن العاص بن أمية بن عبد مناف القرشي الأموي، وكان هذا من سادات المسلمين والأجواد المشاهير، وكان فيمن كتب المصاحف زمن عثمان لفصاحته، وقد استنابه عثمان على الكوفة فافتتح طبرستان وجرجان وأذربيجان، وكان ممن اعتزل الفتنة عقب موت عثمان فلم يشهد الجمل ولا صفين، وكان رضي الله عنه حسن السيرة والسريرة، وكان سخياً كريماً يحنو على الضعفاء وذوي الحاجات، فيبعث لهم العطايا والهدايا في بيوتهم وفي المساجد.

ومات في هذه السنة عبدالرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وهو أكبر ولد أبيه، وشقيقته عائشة أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ، وقد أسلم عبدالرحمٰن قبل الفتح وشهد فتح اليمامة وقتل محكم بن الطفيل صديق مسيلمة الكذاب، وقد شهد فتح الشام، وذكر أنه لما جاءت بيعة يزيد بن معاوية إلى المدينة قال عبدالرحمٰن بن أبي بكر لمروان بن الحكم: جعلتموها والله هرقلية وكسروية، أي جعلتم ملك الملك لمن بعده من ولده.

وتوفيت في هذه السنة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وهي زوجة رسول الله ﷺ، وهي المبرأة المفضلة المصون

التي برّأها الله من فوق سبع سماوات بما أنزله من آيات بينات في طهرها وعفتها، ولم يتزوج النبي ﷺ بكراً غيرها، وقد تزوجها النبي ﷺ بمكة بعد وفاة خديجة ثم دخل بها بعد معركة بدر.

ولقد كان من خصائص عائشة رضي الله عنها أنها أعلم نساء النبي ﷺ، بل هي أعلم النساء إطلاقاً، قال عطاء بن رباح في هذا الصدد: كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة، وقال عروة: ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا طب ولا شعر من عائشة، وقال أبو موسى الأشعري: ما أشكل علينا - أصحاب محمد ﷺ - من حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً.

أما ما ذكر من حديث عنها: **«خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء»**، فهذا ليس له أصل البتة.

وروى البخاري عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: **«كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**، والأحاديث في مناقب عائشة كثيرة، وقد ماتت ليلة الثلاثاء للسابع عشر من رمضان، وقد أوصت أن تُدفن بالبقيع ليلاً، وصلى عليها أبو هريرة رضي الله عنه، وكان عمرها يومئذٍ سبعاً وستين سنة.

وفي هذه السنة توفي أبو هريرة رضي الله عنه، واسمه عبدالرحمٰن بن صخر الأزدي الدوسي، وقد كناه النبي ﷺ بأبي هريرة، فقد كانت له هريرة وحشية فأخذ أولادها.

وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ الكثير من الأخبار وهو من حفّاظ الصحابة، وله فضائل ومناقب كثيرة ومواعظ جمة، وقد أسلم عام خيبر فلزم رسول الله ﷺ ولم يفارقه إلا حين بعثه مع العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وقد استعمله عمر بن الخطاب عليها في أيام إمارته.

وكان أبو هريرة على جانب عظيم من الصدق والحفظ والعبادة والورع والزهد وصالح العمل، وكان رضي الله عنه يقوم ثلث الليل، وامرأته ثلثه

الثاني، وابنته ثلثه الثالث، يقوم هذا ثم يوقظ هذا، ثم يوقظ هذا هذا.

وقيل له مرة: يا أبا هريرة إن الناس قد قالوا إنك أكثرت من الحديث على رسول الله ﷺ، وإنما قدمت قبل وفاة رسول الله ﷺ بيسير، فقال أبو هريرة: نعم، قدمت ورسول الله ﷺ بخيبر سنة سبع، وأنا يومئذٍ قد زدت على الثلاثين سنة سنوات، وأقمت معه حتى توفي، أدور معه في بيوت نسائه وأخدمه وأنا والله يومئذٍ مقل، وأصلي خلفه، وأحج وأغزو معه، فكنت والله أعلم الناس بحديثه.

وقد توفي أبو هريرة رضي الله عنه عن ثمان وسبعين سنة، وقد كانت وفاته في داره بالعقيق حيث دفن رحمه الله ورضي الله عنه.

وفاة معاوية:

توفي معاوية بن أبي سفيان سنة ستين من الهجرة، وفي هذه السنة أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد، وفي هذه السنة مرض معاوية مرضه الذي توفي فيه وكان ذلك في رجب.

وحين حضرته الوفاة كان ابنه يزيد في الصيد، فاستدعى معاوية الضحاك بن قيس الفهري ـ وكان على شرطة دمشق ـ ومسلم بن عقبة، فأوصى إليهما أن يبلغا يزيد السلام ويقولا له يتوصى بأهل الحجاز، وإن سأله أهل العراق في كل يوم أن يعزل عنهم عاملاً ويولي عليهم عاملاً فليفعل، فعزْل واحد أحب إليك من أن يُسلَّ عليك مائة ألف سيف، وأن يتوصى بأهل الشام وأن يجعلهم أنصاره وأن يعرف لهم حقهم، ولست أخاف عليه من قريش سوى ثلاثة: الحسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، فأما ابن عمر فقد وقذته العبادة، وأما الحسين فرجل ضعيف، وأرجو أن يكفيكه الله تعالى بمن قتل أباه وخذل أخاه، وإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً، وقرابة من محمد ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه فإني لو صاحبته عفوت عنه.

وأما ابن الزبير فإنه خِبٌّ[1] ضَبٌّ[2] فإن شَخَصَ لك فانبذ إليه إلا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فاقْبَل منه واصفح عن دماء قومك ما استطعت.

وقد كانت مدة خلافة معاوية تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر، وكان نائباً في الشام عشرين سنة، وكان عمره يوم وفاته ثلاثة وسبعين سنة، وقيل أكثر.

مناقب معاوية:

أسلم معاوية عام الفتح، وقيل: أسلم يوم عمرة القضية، وكان رضي الله عنه كاتب وحي رسول الله ﷺ، فكان يكتب بين يديه مع الكتّاب، وقد روى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من السنن والمسانيد، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين، وكان معاوية قد افتتح سنة سبع وعشرين جزيرة قبرص.

ولم تزل الفتوحات والجهاد قائماً على قدم وساق في أيامه في بلاد الروم والفرنجة وغيرهم، ولما وقع ما وقع بينه وبين أمير المؤمنين علي لم يقع في تلك الأيام أيما فتح لا على يديه ولا على يدي علي، من أجل ذلك طمع ملك الروم في معاوية بعد أن كان معاوية قد أذلّه وقهر جنده، فكتب إليه معاوية يهدده ويتوعده لئن لم يرجع إلى بلاده فليصطلحن مع علي ثم ليزحفن إليه حتى تضيق عليه الأرض بما رحبت، عند ذلك خاف ملك الروم وقفل راجعاً. وبعث يطلب الهدنة ثم كان من أمر التحكيم بينه وبين أمير المؤمنين علي ما كان حتى استقر له الأمر في أرجاء البلاد، والجهاد في بلاد المشركين قائم والمسلمون ماضون يحملون للناس رسالة الحق والعدل والتوحيد.

---

(١) الخِبُّ: بالكسر معناه: الرجل المخادع، انظر: مختار الصحاح ص١٦٧.

(٢) الضَبُّ: والضبضب والضباضب: الرجل الجريء الفحّاش، انظر: القاموس المحيط ج١ ص٩٨.

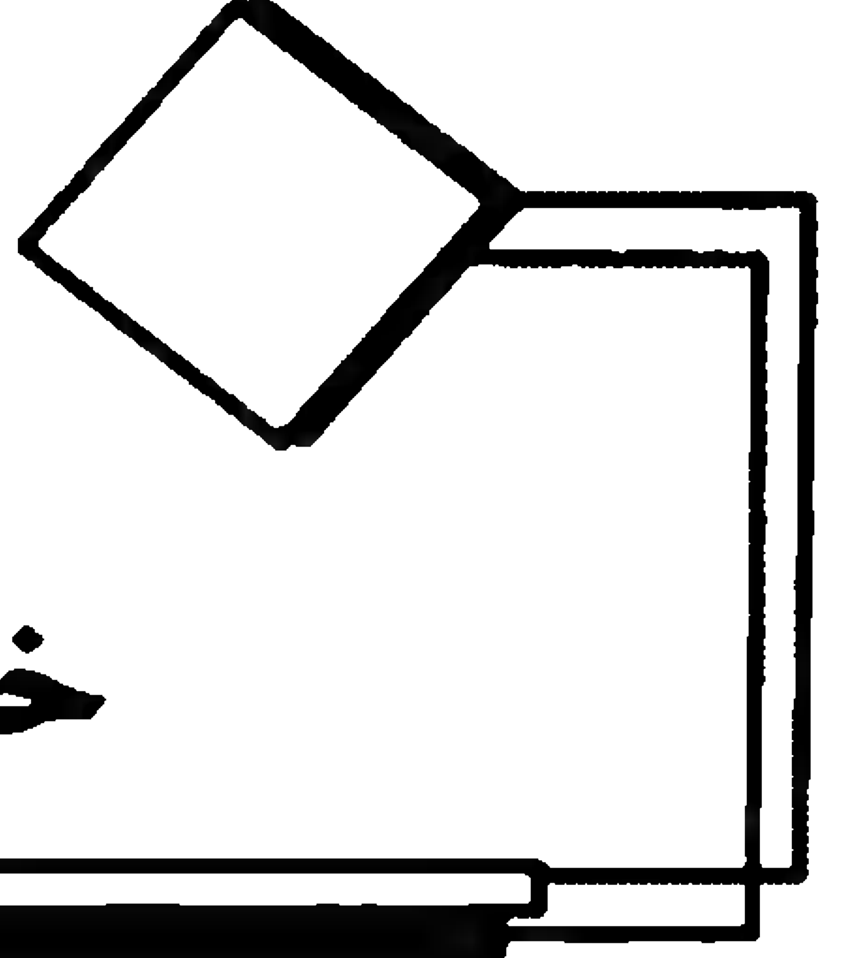
وروى الإمام أحمد عن عمرو بن يحيى بن سعيد قال: سمعت جدي يحدث أن معاوية أخذ الإداوة بعد أبي هريرة فتبع رسول الله ﷺ بها ـ وكان أبو هريرة قد اشتكى ـ فبينما هو يوضىء رسول الله ﷺ إذ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ فقال: **«يا معاوية إن وُلّيت أمراً فاتق الله واعدل»**، قال معاوية: فما زلت أظن أني سأبتلى بعمل لقول النبي ﷺ حتى ابتليت.

أما ما كان بينه وبين علي من خلاف واقتتال فإنما كان ذلك على سبيل الاجتهاد والرأي، وكان الحق والصواب مع علي إذ عقد له البيعة أعاظم الصحابة في المدينة من بعد مقتل عثمان، ويشهد له بهذا الحق جملة حقائق منها سبقه للإسلام إذ أسلم وهو صغير السن بل كان أول الناس إسلاماً في الصغار، ومنها بالغ علمه وهو في ذلك قد عزّ نظيره في الناس، وكذلك ما كانت تفيض به نفسه من عظيم الزهد والورع وأنه صهر رسول الله ﷺ وابن عمه، وقد أحبه ﷺ وأجزل له الحب، فقد أخرج عبدالرزاق في مصنفه عن زر بن حبيش قال: سمعت علياً يقول: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي ﷺ إلي **«أنه لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»**.

ولما استخلف النبي ﷺ علياً عام تبوك على أهله بالمدينة قال: **«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي»**(١).



(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص٥٢ ـ ١٤٧، وتاريخ الإسلام للذهبي ج٤ ص١٥٥ ـ ١٧٢.



الفصل الثاني

خلافة يزيد بن معاوية

بويع ليزيد بالخلافة عقب أبيه معاوية كما بيناه سابقاً، وقد بويع له وهو إذ ذاك ابن أربع وثلاثين سنة، وقد أقرّ أمراء أبيه على الأقاليم ولم يعزل منهم أحداً، وكان يزيد حريصاً بعد ذلك على انتزاع البيعة لنفسه من النفر الذين أبوا البيعة على أبيه معاوية، وهم: الحسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، ثم كتب إلى نائب المدينة وهو الوليد بن عتبة صحيفة جاء فيها: أما بعد.. فخذ حسيناً وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام.

فبعث الوليد إلى مروان بن الحكم فقرأ عليه كتاب يزيد واستشاره في أمر هؤلاء النفر، فقال له مروان: أرى أن تدعوهم قبل أن يعلموا بموت معاوية إلى البيعة، فإن أبوا ضربت أعناقهم، فأرسل إلى الحسين وابن الزبير يدعوهما إلى البيعة، فقال له الحسين: إن مثلي لا يبايع سراً ولكن إذا اجتمع الناس دعوتنا معهم فكان أمراً واحداً، فأقره الوليد على ذلك، فقال مروان بن الحكم للوليد: أرى ألا تخرجه حتى يبايع وإلا ضربت عنقه! فقال الوليد: والله يا مروان ما أحب أن لي الدنيا وما فيها وأني قتلت الحسين، سبحان الله! أقتل حسيناً أن قال لا أبايع؟ والله إني لأظن أن من يقتل الحسين يكون خفيف الميزان يوم القيامة.

أما عبدالله بن عمر فلم يكن بالمدينة حين قدم نعي معاوية، بل كان

هو وابن عباس بمكة، فلقيهما وهما مقبلان منها، الحسين وابن الزبير، فسألهما ابن عمر: ما وراءكما؟ قالا: موت معاوية والبيعة ليزيد بن معاوية، فقال لهما ابن عمر: اتقيا الله ولا تفرقا بين جماعة المسلمين. ثم قدم ابن عمر وابن عباس إلى المدينة فلما جاءت البيعة من الأمصار بايع ابن عمر مع الناس، أما الحسين وابن الزبير فقد قدما مكة فوجدوا بها عمرو بن سعيد بن العاص فخافاه وقالا: إنما جئنا لنعوذ بهذا البيت.

الحسين بن علي رضي الله عنهما ووقعة كربلاء

هو الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي، سبط رسول الله ﷺ، الذي استشهد في كربلاء، وهو ابن بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء، ولد بعد أخيه الحسن، وذلك سنة ست للهجرة وخمسة أشهر، وقيل غير ذلك، وقتل شهيداً يوم الجمعة يوم عاشوراء من المحرم سنة إحدى وستين وله من العمر أربع وخمسون سنة وستة أشهر ونصف.

ولما أخذت البيعة ليزيد في حياة معاوية كان الحسين ممن امتنع عن مبايعته هو وابن الزبير وعبدالرحمٰن بن أبي بكر وابن عمر وابن عباس، ثم مات ابن أبي بكر وهو مصمم على ذلك، ولما مات معاوية سنة ستين وبويع لابنه يزيد، بايع ابن عمر وابن عباس، أما الحسين فقد صمم على المخالفة وكذا ابن الزبير، فخرجا من المدينة فراراً إلى مكة فأقاما بها. فعكف الناس وافدين على الحسين ويأتون إليه ويستمعون كلامه لدى سماعهم بموت معاوية وخلافة ولده يزيد. وكذلك ابن الزبير قد ذاع صيته واشتهر أمره، لكنه بالرغم من ظهوره واشتهاره لم يكن معظماً في الناس كالحسين، هذا السيد الظاهر العظيم ابن بنت رسول الله ﷺ، إذ وردت عليه الكتب من بلاد العراق يدعونه إليهم عقب وفاة معاوية وولاية يزيد من بعده من أجل أن يبايعوه بدلاً من يزيد بن معاوية ويذكرون له في كتبهم أنهم فرحون بموت معاوية، وأنهم لم يبايعوا أحداً إلى الآن، فأرسل الحسين إليهم مبعوثاً من عنده كيما يكشف له حقيقة الأمر، فلما سمع بقدومه أهل الكوفة جاؤوا إليه فبايعوه على إمرة الحسين، وأقسموا له لينصرن الحسين

بأنفسهم وأموالهم، فاجتمع على بيعته من أهل الكوفة اثنا عشر ألفاً، ثم ازدادوا ليبلغ عددهم ثمانية عشر ألفاً.

ثم تواترت الكتب إلى الحسين من أهل العراق يدعونه إلى القدوم عليهم، فعزم الحسين على المسير إليهم وكان ذلك في يوم التروية، ولما أحس الناس بخروجه، أشفقا عليه من ذلك وحذّروه منه، وأشار عليه أولو الرأي والمحبة له بعدم الخروج إلى العراق، وألحوا عليه أن يقيم بمكة، وذكّروه بما حصل لأبيه وأخيه معهم. وقال له ابن عباس ناصحاً محذراً: أخبرني إن كانوا قد دعوك بعدما قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم فسر إليهم، وإن كان أميرهم حياً وهو مقيم عليهم، قاهر لهم فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال، ولا آمن عليك أن يستفزوا عليك الناس ويقلبوا قلوبهم عليك، فيكون الذي دعوك أشد الناس عليك. فقال الحسين: إني أستخير الله وأنظر ما يكون، ثم قال له ابن عباس: يا ابن عم! إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك، إن أهل العراق قوم غدر فلا تغترن بهم!.

فقال الحسين: يا ابن عم، والله إني لأعلم أنك ناصح شفيق، ولكني قد أزمعت المسير، فقال له ابن عباس: فإن كنت لا بد سائراً فلا تسر بأولادك ونسائك فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه.

وجاءه أبو سعيد الخدري فقال: يا أبا عبدالله، إني لكم ناصح وإني عليكم مشفق، وقد بلغني أنه قد كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة يدعونك إلى الخروج إليهم، فلا تخرج إليهم، فقد سمعت أباك يقول بالكوفة: والله لقد مللتهم وأبغضتهم وملوني وأبغضوني، وما يكون منهم وفاء قط، ومن فاز بهم فاز بالسهم الأخيب، والله ما لهم نيات ولا عزم على أمر ولا صبر على السيف.

وكتبت إليه عمرة بنت عبدالرحمٰن تعظم عليه ما يريد أن يصنع، وتأمره بلزوم الجماعة، وتخبره أنه إن لم يفعل إنما يساق إلى مصرعه وتقول: أشهد لقد سمعت عائشة تقول: إنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقتل الحسين بأرض بابل**».

وكذلك قال له ابن عباس عقب إصراره على المسير إلى الكوفة: والله إني لأظنك ستقتل غدراً بين نسائك وبناتك كما قتل عثمان بين نسائه وبناته، والله إني لأخاف أن تكون أنت الذي يقاد به عثمان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبعد ذلك كله خرج الحسين متوجهاً إلى أهل العراق في أهل بيته وستين شخصاً من أهل الكوفة في صحبته، فلما علم يزيد بن معاوية بذلك كتب إلى عبدالله بن زياد نائبه على العراق: إنه قد بلغني أن حسيناً قد سار إلى الكوفة وقد ابتُلي به زمانك من بين الأزمان، وبلدك من بين البلدان، وابتليت أنت به من بين العمال، فقتله ابن زياد وبعث برأسه إلى يزيد بدمشق، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان مقتل الحسين رضي الله عنه سنة إحدى وستين للهجرة، فقد استهلت هذه السنة والحسين بن علي سائر إلى الكوفة فيما بين مكة والعراق ومعه أصحابه وقراباته، فقتل في يوم عاشوراء من شهر المحرم من هذه السنة.

كيفية مقتل الحسين بن علي:

سار الحسين ـ كما بيّنا ـ إلى الكوفة مستجيباً لنداء أهلها الذين حرضوه على المجيء إليهم لينصروه ويكونوا من حوله مؤيدين ومبايعين، مما يكشف عن فرط الحب الذي يكنه أهل الكوفة لعلي وآل بيته، لكنهم مع هذه المودة التي يخفونها للحسين بن علي، وأنهم راغبون في إمرته، فإنهم لا يجاوزون في هذا التأييد مجرد المودة الراقدة في المستور من ضمائرهم، فقد سأل الحسين من وجده في طريقه فقال: أخبروني عن الناس وراءكم، فقيل له: إن سائر الناس، أفئدتهم تهوي إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك.

ثم وصل الحسين بأصحابه وهم اثنان وثلاثون فارساً، وأربعون راجلاً بعد أن خذله أكثر الناس الذين كانوا يظهرون التأييد لبني أمية، ولما اشتدت المبارزة والاقتتال بين الفريقين، صلى الحسين بأصحابه الظهر صلاة

الخوف، ثم اقتتلوا بعد ذلك قتالاً شديداً ودافع عن الحسين صناديد من أصحابه وقد قتل كثير منهم، وحمل عليه رجال ابن زياد الأموي من كل جانب فأثخنوه جراحة طعوناً حتى نزل إلى الأرض وقد أثقلته الجراح ثم جاءه أحدهم فذبحه وحزّ رأسه، وقتل معه بكربلاء أخوه من الرضاعة عبدالله بن يقطر، وقتل من أهل بيته سبعة عشر رجلاً، كلهم من أولاد فاطمة.

ثم أمر عبدالله بن زياد فنودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد المنبر فذكر ما فتح الله عليه من قتل الحسين الذي أراد أن يسلبهم الملك ويفرق عليهم الكلمة، فنهض إليه عبدالله بن عفيف الأزدي وقال: ويحك يا ابن زياد! تقتلون أولاد النبيين وتتكلمون بكلام الصدِّيقين، فأمر به ابن زياد فقُتل وصُلب!

إن ذلكم ظلم غاشم واجتراء لئيم على إزهاق أرواح المؤمنين بغير حق إلا لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر! وأين ذلك من سيرة الأئمة الراشدين أولي الورع والتقوى الذين ينادون في الناس: قولوها (اتق الله) فلا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها.

ومما تتقطع له نياط القلب حزناً ومضاضة ما فعله عبيدالله بن زياد في الحسين وهو ميت إذ أمر برأسه فنصب بالكوفة وطيف به في أزقتها، ثم أرسله ومعه رؤوس آخرين من أصحاب الحسين إلى يزيد بن معاوية بالشام.

وعن الغاز بن ربيعة الجرشي من حمير، قال في هذا الصدد: والله إني لعند يزيد بن معاوية بدمشق إذ أقبل زحر بن قيس فدخل على يزيد، فقال له يزيد: ويحك ما وراءك؟ فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله عليك ونصره، ورد علينا الحسين بن علي بن أبي طالب وثمانية عشر من أهل بيته وستون رجلاً من شيعته، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيدالله بن زياد أو القتال، فاختاروا القتال، فغدونا إليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية حتى أخذت السيوف مأخذها من هام (رؤوس) القوم فجعلوا يهربون إلى غير مهرب ولا وَزَر، ويلوذون منا بالآكام (الغابات)

والحفر، لوّاذاً كما لاذ الحمام من صقر، فوالله ما كانوا إلا جزر جزور، أو نومة قائل، حتى أتيناهم على آخرهم، فهاتيك أجسادهم مجردة، وثيابهم مزمّلة، وخدودهم معفّرة تصهرهم الشمس وتسفي عليهم الريح.

قال: فدمعت عينا يزيد بن معاوية وقال: كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سمية، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه، ورحم الله الحسين.

ولما وضع رأس الحسين بين يدي يزيد قال: أما والله لو أني صاحبك ما قتلتك.

أما بقية أهل الحسين ونسائه فقد وُكّل بهم من يحرسهم فأركبوهم على الرواحل في الهوادج، فلما مروا بمكان المعركة ورأوا الحسين وأصحابه مطرحين هنالك بكته النساء وصرخن وندبت زينب بنت فاطمة أخاها الحسين وأهلها فقالت وهي تبكي: يا محمداه، يا محمداه، صلى الله عليك، وملكُ السماء، هذا حسين بالعراء، مزمّل بالدماء، مقطع الأعضاء، يا محمداه، وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة، تسفى عليها الصَّبا، فأبكت بذلك كل عدو وصديق، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولما بلغ أهل المدينة مقتل الحسين بكى عليه نساء بني هاشم، وروي أن يزيداً استشار الناس في أمرهم، فقال رجال ممن قبحهم الله: يا أمير المؤمنين لا يُتخذنَّ من كلب سوء جرواً، اقتل علي بن الحسين حتى لا يبقى من ذرية الحسين أحد، فسكت يزيد، فقال النعمان بن بشير: يا أمير المؤمنين، اعمل معهم كما كان يعمل معهم رسول الله ﷺ لو رآهم على هذه الحال، فرقّ عليهم يزيد وبعث بهم إلى الحمام وأجرى عليهم الكساوى والعطايا والأطعمة وأنزلهم في داره.

لقد ذهب الحسين إلى مصيره المحتوم من الرفيق الأعلى ليلحق بموكب الشهداء الأبرار، وكان ذلك يوم الجمعة، يوم عاشوراء من المحرم سنة إحدى وستين، وكان ذلك بمكان يقال له: كربلاء من أرض العراق، وكان عمره إذ ذاك ثمانية وخمسين سنة.

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن يحيى عن أبيه أنه سار مع علي، فلما جاؤوا نينوى وهو منطلق إلى صفين فنادى علي: اصبر أبا عبدالله، اصبر أبا عبدالله، بشط الفرات، قلت: وماذا تريد؟ قال: دخلت على رسول الله ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان، فقلت: ما أبكاك يا رسول الله؟ قال: «**بلى قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يُقتل بشط الفرات**».

وروى أبو القاسم البغوي بإسناده عن أشعث ابن سحيم عن أبيه قال: سمعت أنس ابن الحارث يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن ابني - يعني الحسين - يقتل بأرض يقال لها: كربلاء، فمن شهد منكم ذلك فلينصره**» فخرج أنس بن الحارث إلى كربلاء فقتل مع الحسين[1].

رأس الحسين رضي الله عنه:

المشهور عند أهل التاريخ وأهل السير أن عبيدالله بن زياد قد بعث برأس الحسين إلى يزيد بن معاوية.

أما المكان الذي دفن فيه رأس الحسين رضي الله عنه فمختلف فيه، فثم رواية أن يزيداً بعث بهذا الرأس الكريم إلى عامله في المدينة وهو عمرو بن سعيد فدفنه عند أمه بالبقيع، وقيل: إن الرأس لم يزل في خزانة يزيد بن معاوية حتى وفاته، ثم أخذ من خزانته فكفن ودفن داخل باب الفراديس من مدينة دمشق.

وقيل: إن يزيد نصب الرأس بدمشق ثلاثة أيام ثم وضع في خزائن السلاح حتى كان زمن سليمان بن عبدالله فجيء به إليه، وقد بقي عظماً أبيض فكفنه وطيّبه وصلى عليه ودفنه في مقبرة المسلمين، فلما جاء بنو العباس نبشوا قبره فأخذوه معهم.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص١٤٦ - ٢٥٢، وتاريخ الإسلام للذهبي ج٤ ص١٦٧ - ٢٠٧.

وادّعى الفاطميون الذين حكموا الديار المصرية قبل سنة أربعمائة إلى ما بعد ستمائة وستين أن رأس الحسين وصل إلى الديار المصرية، ودفنوه بها وبنوا عليه الجامع المشهور به في مصر وذلك بعد سنة خمسمائة، وقد شكّك كثير من أئمة العلم في هذه الرواية التي راجت على أكثر الناس.

مناقب الحسين رضي الله عنه:

ذلكم الحسين الشهيد الأكرم، سبط رسول الله ﷺ، صاحب الفضائل والمناقب وحميد الخصال، أقرب الخلق إلى قلب رسول الله ﷺ، فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني»**، يعني بذلك حسناً وحسيناً.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي هريرة قال: نظر النبي ﷺ إلى علي والحسن والحسين وفاطمة فقال: **«أنا حرب لِمن حاربكم، سلم لمن سالمكم»**.

وعن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله ﷺ أي أهل بيتك أحب إليك؟ قال: **«الحسن والحسين»**، وروى الإمام كذلك عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»**.

وقعة الحرة:

ثم دخلت سنة ثلاث وستين فكانت فيها وقعة الحرة، وكان سببها أن أهل المدينة لما خلعوا يزيد بن معاوية وولوا على قريش عبدالله بن مطيع، وعلى الأنصار عبدالله بن حنظلة، ثم اجتمعوا عند المنبر فجعل الرجل منهم يقول: قد خلعت يزيد كما خلعت عمامتي هذه، ويلقيها عن رأسه، ويقول الآخر: قد خلعته كما خلعت نعلي هذه حتى اجتمع لهم كثير من العمائم والنعال، ثم اجتمعوا على إخراج عامل يزيد من بين أظهرهم وهو ابن عم يزيد وعلى إجلاء بني أمية من المدينة، فاجتمعت بنو أمية في دار مروان بن الحكم وأحاط بهم أهل المدينة يحاصرونهم، وكتب بنو أمية إلى يزيد يخبرونه بما هم فيه من الحصر والجوع والعطش والمهانة، وإذا لم يبعث

إليهم من ينقذهم فسوف يستأصلون عن آخرهم، فانتدب يزيد، مسلم بن عقبة ـ وهو شيخ كبير ضعيف ـ لاستنقاذهم، وأرسل معه عشرة آلاف فارس، وقيل اثنا عشر ألفاً وخمسة عشر ألف راجل.

ثم قال يزيد لمسلم بن عقبة: ادع القوم ثلاثاً فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم وكف عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظهرتَ عليهم فأبح المدينة ثلاثاً ثم اكفف عن الناس!

وسار مسلم بن عقبة بمن معه من الجيوش إلى المدينة، فلما اقترب منها، اجتهد أهل المدينة في حصار بني أمية وهددوهم بالقتل والإبادة إن لم يعطوهم موثقاً أن لا يدلوا عليهم أحداً من هؤلاء الشاميين ولا يمالئوهم عليهم، فأعطاهم بنو أمية العهود بذلك، فلما وصل جيش يزيد المدينة تلقاهم بنو أمية، فأخذ مسلم بن عقبة يسألهم عن الأخبار فلا يخبره منهم أحد، ثم جاءه عبدالملك بن مروان فقال له: إن كنت تريد النصر فانزل شرقي المدينة في الحرة، فإذا خرجوا إليك، ادعهم إلى الطاعة فإذا لم يجيبوك استعن عليهم بالله ثم قاتلهم فالله ناصرك عليهم لأنهم خالفوا الإمام وخرجوا عن الطاعة، فامتثل مسلم بن عقبة لقول عبدالملك بن مروان فنزل شرقي المدينة في الحرة، ودعا أهلها ثلاثة أيام، فأبوا إلا أن يقاتلوه فتهيأ الفريقان للقتال، ثم تناجزوا ووقع بينهم قتال شديد، فانهزم أهل المدينة وتحصنوا في داخلها بعد أن قتل من الفريقين كثيرون.

أما مسلم بن عقبة ـ الذي كان يسميه السلف مسرف بن عقبة ـ فقد أباح المدينة لجنوده وأعوانه ثلاثة أيام، وقد أمره بذلك يزيد لا جزاهما الله خيراً، وحسبنا الله ونعم الوكيل! وقد قتل من أهل المدينة الكثير من أشرافها وقرائها، وانتهب الغزاة الغاشمون من أموال المدينة الكثير، فضلاً عما حلّ بالمدينة حينئذٍ من فساد عريض وشر مستطير.

والأشد نكاوة أن يجترىء كثير من عساكر مسلم بن عقبة على نساء المدينة ليقعوا عليهن، إن ذلكم عدوان فاضح ونكر غاشم، فلا حول ولا قوة إلا بالله!.

وقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص عن أبيها قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء**»، وروى الإمام أحمد عن السائب بن خلاد أن رسول الله ﷺ قال: «**من أخافَ أهل المدينة ظلماً أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً**»، ويستدل بذلك على الترخيص في لعن يزيد بن معاوية، وقد ذهب إلى ذلك كثير من أهل العلم.

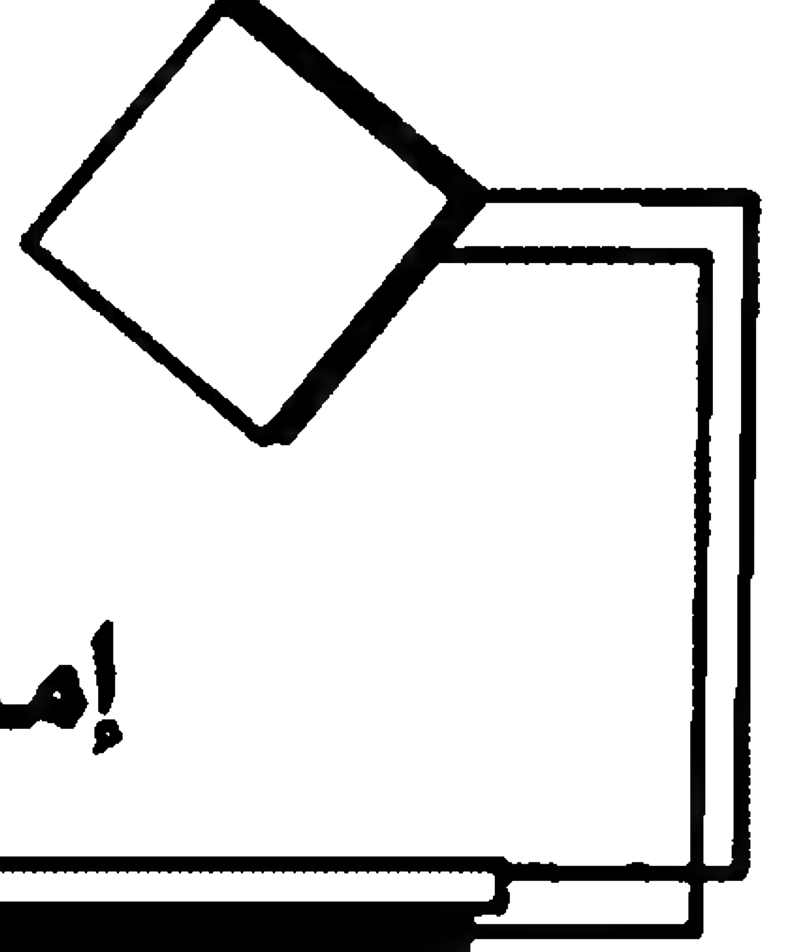
مسير مسلم بن عقبة لقتال ابن الزبير:

وفي سنة أربع وستين، سار مسلم بن عقبة إلى مكة قاصداً قتال ابن الزبير والذين معه من الأعراب، ولحق بابن الزبير جماعات ممن بقي من أشراف أهل المدينة، فحمل أهل الشام على أهل مكة حملة شديدة، فانكشف أهل مكة، ونصب جيش مسلم بن عقبة المجانيق على الكعبة ورموها حتى بالنار فاحترق جانب منها.

واستمر الحصار حتى شهر ربيع الثاني فبلغ الناس أن يزيد بن معاوية قد مات، وكان عمره إذ ذاك خمساً أو ثماني أو تسعاً وثلاثين سنة، فكانت ولايته بذلك ثلاث سنين وستة أشهر، فغلب أهل الشام حينئذٍ وخمدت نار الفتنة[١].



(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص٢٠٤ ـ ٢٣٦.



الفصل الثالث

إمارة عبدالله بن الزبير

بعد أن مات يزيد انصرف الجيش عن مكة إذ كانوا يحاصرون فيها عبدالله بن الزبير الذي كان عائذاً بالبيت، فرجع حصين بن نمير بالجيش الأموي إلى الشام، ثم استقل ابن الزبير بالحجاز وما حولها وبايعه الناس بعد يزيد، واستناب على أهل المدينة أخاه عبيدالله بن الزبير، وأمره بإجلاء بني أمية عن المدينة فأجلاهم فذهبوا راحلين إلى الشام وفيهم مروان بن الحكم وابنه عبدالملك.

ثم بعث أهل البصرة إلى ابن الزبير - وهو في مكة - يريدونه لأنفسهم، فكتب إلى أنس بن مالك ليصلي بهم، وقد بايعه كثير من الناس بعد أن أقاموا ثلاثة شهور من دون إمام.

واستقر الأمر لابن الزبير في الكوفة ومصر والجزيرة وكذلك اليمن وخراسان والبصرة، كل أولئك قد بايعوا عبدالله بن الزبير، وأرسل هذا إلى الضحاك بن قيس بالشام فبايع، لكن أهل دمشق وما حولها لم يبايعوا لأنهم بايعوا مروان بن الحكم، وقد التف على ابن الزبير جماعة من الخوارج، لكنهم لما علموا رأيه في عثمان انفضوا عنه، ذلك أنه أجابهم في عثمان بما يغضبهم، إذ ذكر لهم ما كان يتصف به عثمان من الإيمان والصدق والإحسان وحسن السيرة، وذلك هو شأن الخوارج في شدة جنوحهم للفتنة والفوضى والتخريب وتفرق الكلمة، وذلك لما كان يستحوذ على أذهانهم

ونفوسهم من فساد الاعتقاد، وباطل التصور، وضلال التفكير.

بيعة مروان بن الحكم:

بعد موت يزيد بن معاوية ارتحل عبيدالله بن زياد من البصرة إلى الشام، وانتقل كذلك بنو أمية من المدينة إلى الشام فاجتمعوا إلى مروان بن الحكم عقب موت معاوية بن يزيد بن معاوية، فجعل عبيدالله بن زياد يزين لمروان بن الحكم في إمارة الناس محذراً إياه من دخول سلطان ابن الزبير إلى الشام، وكان يقول له: أنت شيخ قريش وسيدها فأنت أحق بهذا الأمر، فرجع مروان عن البيعة لابن الزبير بعد أن همَّ بمبايعته كغيره من الناس.

وكان الضحاك بن قيس نائب دمشق لمعاوية بن أبي سفيان، وكان من الذين دعوا لابن الزبير، فكتب عبيدالله بن زياد إلى مروان بن الحكم يأمره بإظهار دعوته وأنه إمام المسلمين، فدعا مروان إلى نفسه فبايعه الناس وعظم أمره وسار بالناس إلى مرج راهط لمناجزة خصمه الضحاك بن قيس، واجتمع مع مروان ثلاثة عشر ألفاً وقد أمدّه يزيد بن أبي النمس الغساني بالسلاح والرجال، وكان الضحاك في ثلاثين ألفاً، فتصافَّ الفريقان واقتتلوا بمرج راهط عشرين يوماً وقتل الضحاك بن قيس في المعركة.

بناء الكعبة أيام ابن الزبير:

كان جدار الكعبة قد مال من رمي المنجنيق، فهدم الجدار حتى وصل إلى أساس إبراهيم إذ كان الناس يطوفون من وراء الكعبة على ما كان النبي ﷺ يريد أن يبنيها عليه من الشكل، وفي هذا ثبت في الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسنن عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: **«لولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة ولأدخلت فيها الحجر، فإن قومك قصرت بهم النفقة، ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، يدخل الناس من أحدهما ويخرجون من الآخر، ولألصقت بابها بالأرض فإن قومك رفعوا بابها ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا»**.

فبناها ابن الزبير على ذلك كما أخبرته به خالته أم المؤمنين عائشة عن

رسول الله ﷺ، وجوزي بذلك خيراً(١).

ترجمة مروان بن الحكم:

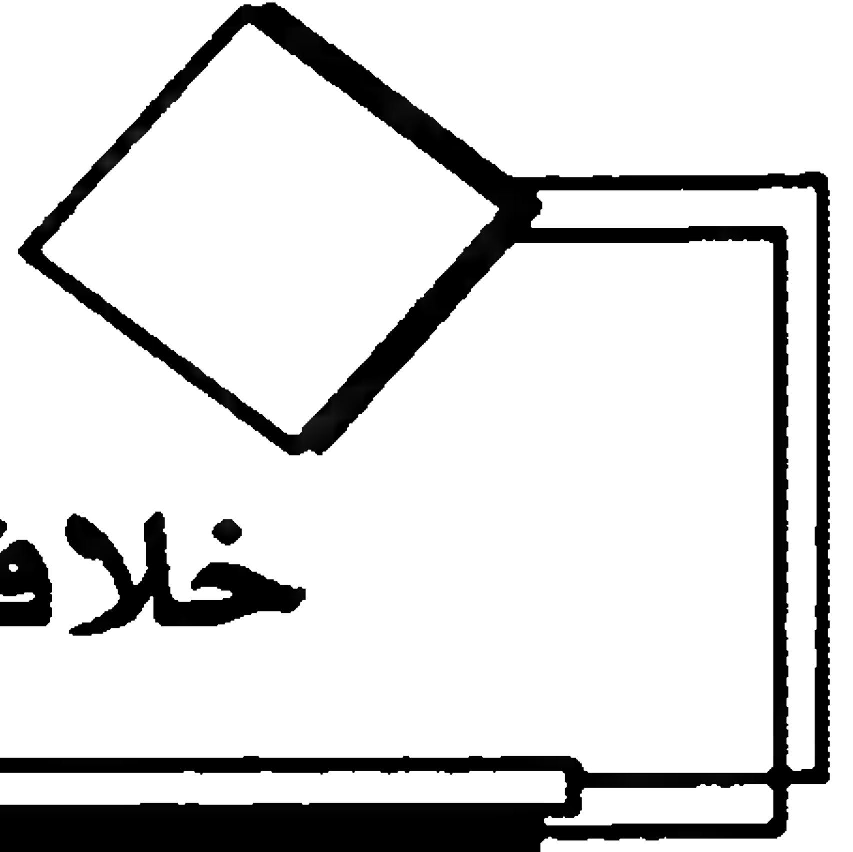
هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد مناف القرشي الأموي، وهو صحابي، في قول طائفة كثيرة من السلف، فقد ولد في حياة النبي ﷺ، وكان من سادات قريش وكبرائها، فقد ذكر أنه لما انهزم الناس يوم الجمل، كان علي رضي الله عنه يكثر السؤال عنه، وقال عنه مرَّة: إنه يعطفني عليه رحم ماسة وهو سيد من شباب قريش.

وقد تمَّت له البيعة من الناس يوم الاثنين في النصف من ذي القعدة سنة أربع وستين، وفي هذه السنة كانت وقعة مرج راهط، فلما استقر له الملك في البلاد بايع من بعده لولده عبدالملك.

وقد توفي مروان بن الحكم بدمشق عن إحدى، أو عن ثلاث وستين سنة، وفي رواية أن عمره حين توفي كان إحدى وثمانين سنة، والقول الأول أشهر.



(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٨ ص٢٣٨ ـ ٢٦٠.



الفصل الرابع
خلافة عبدالملك بن مروان

بويع عبدالملك بالخلافة في حياة أبيه مروان بن الحكم، ولما مات أبوه جُددت له البيعة بدمشق ومصر وما حولها، وكان أبوه قبل وفاته قد بعث جيشين، أحدهما مع عبيدالله بن زياد إلى العراق لينتزعها من أمراء ابن الزبير فلقي في طريقه جيش التوّابين يقودهم سليمان بن حرد، وكان هؤلاء يطلبون الأخذ بثأر الحسين ممن قتله، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً أو أكثر، فقد ناجزهم جيش عبدالملك الأموي بقيادة عبيدالله بن زياد عند عين الوردة فظفروا بهم وقتلوا أميرهم وأكثرهم.

أما الجيش الآخر فقد كان مع حبيش بن دلجة إلى المدينة ليستردها من نائب ابن الزبير، فلما سار إليها هرب أميرها جابر بن الأسود بن عوف، فجهز أمير البصرة من قبل عبدالله بن الزبير جيشاً من البصرة، فلما سمع بهم حبيش سار إليهم، وبعث ابن الزبير عباس بن سهل لمناجزة جيش حبيش فلحق بهم بالربذة وقتل أكثرهم وهرب الباقون إلى الشام.

وفي هذه السنة اشتدت شوكة الخوارج بالبصرة، حيث قتل نافع بن الأزرق وهو رأس الخوارج، ورأس أهل البصرة مسلم بن عبيس وهو فارس أهل البصرة.

وعقب مقتل نافع بن الأزرق رأست الخوراج عليهم عبيدالله بن مأجور الذي سار بهم إلى المدائن فقتلوا أهلها، ثم ساروا إلى أصفهان فالتقاهم

أميرها عتاب بن ورقاء فهزمهم، ولما قتل أمير الخوارج عبيدالله بن مأجور أقاموا عليهم خلفه قطري بن الفجاءة.

ومن أحداث هذه السنة أن وجّه مروان بن الحكم قبل موته ابنه محمداً إلى الجزيرة وهو والد مروان الحمار، آخر خلفاء بني أمية، ومنه نفذت خلافة الأمويين إلى العباسيين.

وفي هذه السنة أيضاً عمّ الطاعون البصرة فمات من أهلها خلق كثير حتى لم ينج إلا القليل.

وفي سنة ست وستين قام المختار بن عبيد الثقفي بالكوفة زاعماً أنه يريد الأخذ بثأر الحسين بن علي، وقد طرد منها عاملها عبدالله بن مطيع، واجتمعت الشيعة من حوله وكثر أصحابه وبايعوه في السر، فلم يزل أمره يشتد ويستقر ويستفحل، وشرع المختار في التحبب إلى الناس بحسن السيرة ومعسول الحديث، وقد بعث الأمراء إلى النواحي والبلدان من أرض العراق وخراسان، ثم شرع يتتبع قتلة الحسين من شريف ووضيع فيقتله، وكان سبب ذلك أن عبيدالله بن زياد كان جهزه مروان بن الحكم من دمشق ليدخل الكوفة فإن ظفر بها فليبحها ثلاثة أيام، فندب المختار يزيد بن أنس في ثلاثة آلاف وقال له: إني سأمدك بالرجال بعد الرجال، فقال له يزيد بن أنس: لا تمدني إلا بالدعاء، ثم خرج معه المختار إلى ظاهر الكوفة فودّعه ودعا له، ثم التقوا جيش الشام فاقتتلوا قتالاً شديداً فهزم جيش المختار بجيش الشام، ثم مات يزيد بن أنس وسقط في أيدي أصحابه وجعلوا يتسللون راجعين إلى الكوفة، ثم تمالأ الناس على الخروج على المختار، وقالوا: إنه كذاب، واتفقوا على حربه وقتاله وإخراجه من بين أظهرهم معتقدين أنه كذاب، ثم اقتتل الفريقان في نواحي الكوفة قتالاً عظيماً فكثر القتلى بينهم من الفئتين، وكان النصر في ذلك للمختار، فقتلوا كل من شهد مقتل الحسين من الشاميين وغيرهم من جنود بني أمية، وهرب أشراف الكوفة إلى البصرة، وكان ممن هرب شمر بن ذي الجوشن، فبعث المختار في أثره من يقتله فقتله، وقد كان أمير السرية التي قتلت الحسين.

وقد قتل خولي بن يزيد الأصبحي قبحه الله فهو الذي احتزّ رأس الحسين رضي الله عنه، فقد بعث إليه المختار صاحب حرسه أبا عمرة فقرع بيته فخرجت إليهم امرأته فسألوها عنه فقالت: لا أدري أين هو، وأشارت بيدها إلى المكان الذي هو مختفٍ فيه، وقد كانت تبغضه منذ الليلة التي قدم فيها برأس الحسين معه إليها وكانت تلومه على ذلك، واسمها العبوق بنت مالك بن نهار بن عقرب الحضرمي، فلما دخلوا عليه حملوه إلى المختار فأمر بقتله بجانب داره ثم أحرقوه.

وكذلك قتل عمر بن سعد بن أبي وقاص وكان أمير الجيش الذين قتلوا الحسين، وذلك أن سعد بن أبي وقاص كان ذات يوم جالساً فجاءه غلام ودمه يسيل على عقبيه فسأله سعد عمن فعل به هذا، فقال: ابنك عمر، فقال سعد: اللهم اقتله وأسل دمه، وكان سعد مستجاب الدعاء، فلما خرج المختار على الكوفة ظفر بعمر بن سعد فأرسل إليه صاحب حرسه فقتله وأتى برأسه إلى المختار.

ومثل هذا الانتقام من قتلة الحسين بقتل من اجترأوا على قتله أو التمثيل به، لا جرم أنه مغنم وفضل أوفى من الله ذي الجبروت الذي ينتقم للأبرار والمظلومين من المجرمين الأشرار والطواغيت، بالرغم من أن هذا الانتقام جعله الله على يد المختار الثقفي المعروف بالكذب والتضليل والمراوغة، وفي هذا الصدد يقول الرسول ﷺ: **«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»**، وقال جلّ جلاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٩].

ومن الشعر حكمة: إذ يقول الشاعر:

وما من يد إلا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيبلى بظالم

بناء قبة الصخرة في بيت المقدس

في هذه السنة ابتدأ عبدالملك بن مروان ببناء القبة على صخرة بيت المقدس وعمارة الجامع الأقصى، وقد كملت عمارته سنة ثلاث وسبعين،

وقد جمع الصنّاع من أطراف البلاد، وأرسلهم إلى بيت المقدس فبنوا القبة فكانت من أحسن البناء، وأقام لها سدنة وخداماً بأنواع الطيب والمسك والعنبر والزعفران، وفرشها والمسجد بأنواع البسط الملونة، وجعل فيها من قناديل الذهب والفضة وسلاسل الذهب والفضة شيئاً كثيراً حتى افتتن الناس بذلك افتتاناً عظيماً.

وقيل: إن السبب في هذا التزيين العظيم لقبة الصخرة والمسجد الأقصى أن عبدالله بن الزبير، لما استولى على مكة كان يخطب في أيام منى وعرفة وينال من عبدالملك ويذكر مساوىء بني مروان ويقول: إن النبي ﷺ لعن الحكم ونسله وأنه طريد رسول الله ﷺ، وكان يدعو الناس إلى نفسه فمال إليه معظم أهل الشام لفصاحته وحسن حديثه المؤثر، فلما بلغ ذلك عبدالملك بن مروانَ منع الناس من الحج فأنكروا عليه ذلك، فبنى القبة على الصخرة والجامع الأقصى ليشغلهم بذلك عن الحج، ففتح بذلك على نفسه بالتشنيع عليه من عبدالله بن الزبير، فكان يقول: ضاهى بذلك فعل الأكاسرة في إيوان كسرى.

وفي سنة سبع وستين قتل عبيدالله بن زياد، إذ قتله إبراهيم بن الأشتر النخعي، فقد خرج هذا من الكوفة ثم سار قاصداً ابن زياد في أرض الموصل حتى تلاقى الجمعان، فأخذ ابن الأشتر يحرّض الناس على قتال ابن زياد ويقول: هذا قاتل ابن بنت رسول الله ﷺ، قد أمكنكم الله منه اليوم فعليكم به فإنه قد فعل في ابن بنت رسول الله ﷺ ما لم يفعله فرعون في بني إسرائيل، فاشفوا صدوركم منه.

فتناجز الجيشان فانهزم جيش الشام فجعل الأشتر يقتلهم قتلاً، وضرب الأشتر عبيدالله بن زياد فقتله وهو لا يعرفه، فلما عرفه قطعه نصفين واحتزّ رأسه وبعثه إلى المختار في الكوفة.

مقتل عبدالله بن الزبير:

وقع هذا الخطب الأليم المفجع سنة ثلاث وسبعين للهجرة، وكان

ذلك على يد الحجاج بن يوسف الثقفي، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وبيان ذلك أن الحجاج حصر عبدالله بن الزبير في هذه السنة، واستمر حصره له خمسة أشهر وسبع عشرة ليلة، وبذلك حصر أهلُ الشام أهلَ مكة، وقد نصب الحجاج المنجنيق على مكة ليجبر أهلها على الخروج إلى الأمان والطاعة لعبدالملك بن مروان، وكان مع الحجاج الحبشة، فجعلوا يرمون أهل مكة بالمنجنيق، فقتلوا كثيراً منهم، وقد حبس عنهم الميرة (الطعام) والماء فكانوا يشربون من ماء زمزم، فكان ابن الزبير يشد تارة على جيش الحجاج، وتارة يشد هؤلاء عليه، ثم قيل لابن الزبير أن يكلم الحجاج وجيشه في الصلح، فقال: والله لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم جميعاً، والله لا أسالمهم صلحاً أبداً.

ثم ضاق الحال بأهل مكة واشتد فيهم الكرب، فأخذوا يخرجون تباعاً إلى الحجاج ينشدونه الأمان تاركين وراءهم عبدالله بن الزبير، حتى خرج إليه منهم عشرة آلاف، فأمنهم وأصبح أتباع ابن الزبير قلة، حتى خرج إلى الحجاج حمزة وخبيب ابنا عبدالله بن الزبير فأخذا لأنفسهما أماناً من الحجاج فأمنهما.

وفي هذه الحال من اشتداد البأس والفزع ونفاد الصبر لدى الكثيرين من رجال ابن الزبير، دخل هذا على أمه أسماء فشكا إليها خذلان الناس له، وخروجهم إلى الحجاج حتى أولاده وأهله: فما رأيك؟ فقالت: يا بني، أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق فاصبر عليه، وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت، فدنا منها فقبّل رأسها وقال: هذا والله رأيي، ثم قال: والله ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمته، فانظري يا أماه فإني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي لأمر الله، فقالت أمه: لأرجو من الله أن يكون عزائي منك حسناً، ثم قالت تتضرع إلى الله: اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فقابلني في عبدالله بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين، ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه واعتنقها

ليودعها، وكان ذلك آخر عهده بها رضي الله عنهما وعن أبيه وأبيها.

ثم خرج ابن الزبير ليقاتل الحجاج وجيشه، فكان يحمل عليهم فيتفرقون عنه يميناً وشمالاً حتى عجب الناس من إقدامه وشجاعته، وما زال يحرض جماعته على القتال والصبر حتى أصابه حجر في وجهه فسقط على الأرض فأسرع إليه جيش الحجاج فقتلوه رضي الله عنه، ولما علم الحجاج بمقتله خرَّ ساجداً، أما أهل مكة فقد أجهشهم البكاء على عبدالله بن الزبير رحمه الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم أمر الحجاج بجثة ابن الزبير فصُلبت على ثنية كُدا عند الحجون، فما زالت مصلوبة حتى مرَّ به عبدالله بن عمر فقال: رحمة الله عليك يا أبا خبيب، أما والله لقد كنت صوّاماً قوّاماً، ثم قال: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فبعث الحجاج فأُنزل عن الجذع فدُفن.

ثم دخل الحجاج إلى مكة فأخذ البيعة من أهلها إلى عبدالملك بن مروان[1].

وفي سنة خمس وسبعين، ولّى عبدالملك بن مروان الحجاج بن يوسف نيابة العراق والبصرة والكوفة وما يتبع ذلك من الأقاليم، فقد علم عبدالملك أنه ليس من أحد يسد عنه أهل العراق سوى الحجاج لسطوته الشديدة وقهره البالغ، فكتب إليه عبدالملك ولاية العراق، فسار من المدينة إلى العراق، فدخل الكوفة على حين غفلة من أهلها، فنزل دار الإمارة يوم الجمعة وقد أذّن المؤذن لصلاة الجمعة فخرج عليهم وهم لا يعلمون، فصعد المنبر وجلس عليه، وقد شخص الناس إليه بأبصارهم وجثوا على ركبهم وتناولوا الحصى ليخذفوه بها، وقد كانوا حصبوا الذي كان قبله، ثم أبهتهم سكوته فأحبوا أن يتكلم فيسمعوه، فكان أول ما تكلم به أن قال: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق، لقد كنت أدعو الله أن يبتليكم بي، ولقد سقط مني البارحة سوطي الذي أؤدبكم به، فاتخذت

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٢٥٧ ـ ٣٤٠.

هذا مكانه ـ وأشار إلى سيفه ـ ثم قال: والله لآخذن صغيركم بكبيركم وحركم بعبدكم ثم لأرصعنكم رصع الحداد الحديدة، والخباز العجينة، فلما سمعوا كلامه جزعوا، ثم قال: وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وآن اقتطافها، وإني لأنظر إلى الدماء وهي تترقرق بين العمائم واللحى.

ثم قال: إني والله يا أهل العراق لا يقعقع لي بالشنان، وإن أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان نثر كنانته ثم عجم عيدانها عوداً عوداً، فوجدني أمرها عوداً وأصلبها مغمزاً فوجهني إليكم، فأنتم طالما رتعتم في أودية الفتنة، وسلكتم سبيل الغي واخترتم جُدَد (طرق) الضلال، أما والله لأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، وإني والله لا أعد إلا وفيت، ولا أحلق إلا فريت (قطعت)، فإياي وهذه الجماعات وقيلاً وقالاً، والله لتستقيمن على سبيل الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده، فذهب الناس من فرط فصاحته وبلاغة حديثه ومن شدة وعيده لهم.

وفي سنة ست وسبعين، خرج على الأمويين شبيب بن يزيد وهو أحد شجعان الخوارج، فقد دخل الكوفة ومعه زوجته غزالة واجتمعت عليه الخوارج وبايعوه وبعث إليه الحجاج جيشاً آخر فقاتلوه فهزموه ثم هزمهم بعد ذلك، ثم سار إلى المدائن فهرب من فيها من الجند إلى الكوفة، فلما وصلت فلولهم إلى الحجاج جهز جيشاً من أربعة آلاف مقاتل لمناجزة شبيب والخوارج فساروا في طلب شبيب، ولما اقترب شبيب من الكوفة يريد دخولها أسرع الحجاج في الخروج من البصرة قاصداً الكوفة، وبادره شبيب إلى الكوفة فسبقه الحجاج إليها، ونادى الحجاج في الناس: يا خيل الله اركبي، فخرج شبيب من الكوفة استعداداً لمناجزة الحجاج وجيشه، فاستفحل أمر شبيب وارتجّ له عبدالملك بن مروان والحجاج وسائر أمراء بني أمية وخافه عبدالملك خوفاً شديداً، فبعث له جيشاً من أهل الشام، وكان مع شبيب شرذمة قليلة ملأت قلوب الناس رعباً، وفي سنة سبع وسبعين خرج الحجاج على رأس المقاتلة من أهل الكوفة، وكانوا أربعين ألفاً، ثم انضم إليهم عشرة آلاف فصاروا خمسين ألفاً وأمّر عليهم عتاب بن ورقاء وأمره أن يسير للقاء شبيب حيثما كان لقتاله، فقام شبيب في قومه

خطيباً فوعظهم وحرّضهم على الصبر والمناجزة ثم سار بأصحابه - وكانوا ألفاً - نحو عتاب بن ورقاء فاقتتل الجيشان وانهزم جيش الحجاج عن آخرهم ثم ولوا مدبرين هاربين إلى الكوفة.

ثم وفد إلى الحجاج مدد من الناس في ستة آلاف فارس وآخرين من أهل الشام فاستغنى الحجاج بهم عن نصرة أهل الكوفة، فعزم الحجاج على قتال شبيب والخوارج بنفسه ومن معه من الشاميين دون أهل الكوفة، فلما تواجه الفريقان نظر الحجاج إلى شبيب وهو في ستمائة فخطب الحجاج أهل الشام وقال: يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين، لا يغلبنَّ باطل هؤلاء الأراجس حقكم، غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، واستقبلوا بأطراف الأسنة، ففعلوا ذلك، ثم تناجز القوم واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم جيش شبيب وتفرقوا، فانطلق جيش الحجاج في طلبهم فشدوا عليهم فهزموهم، ثم سار شبيب بأصحابه نحو السواد من العراق وافتتح بلاداً كثيرة، وجهد الحجاج بالغ الجهد لقتل شبيب ولم يستطع ولم يقدروا عليه حتى سلط الله عليه موتاً مقدوراً من غير صنعهم.

وكيفية ذلك أنه عقب طلوع الفجر عبر شبيب وأصحابه على الجسر، فبينما شبيب على متن الجسر راكباً على حصان له وبين يديه فرس أنثى إذ نزا حصانه عليها وهو على الجسر فزلق حافر فرسه فسقط في الماء ثم انغمر في الماء فغرق، فكبّر الخوارج وانصرفوا في البلاد متفرقين.

وفي سنة ثمان وسبعين، وقعت للمسلمين غزوة عظيمة ببلاد الروم إذ افتتحوا إرقيلية، وفي هذه السنة كذلك سار موسى بن نصير لغزو بلاد المغرب، فمضى إلى طنجة وجعل على مقدمته طارق بن زياد فقتلوا ملوك تلك البلاد حيث الشرك والظلم والباطل.

وفي سنة تسع وسبعين، وقع طاعون عظيم بالشام كاد الناس يفنون من شدته، فأصابهم الضعف والقلة مما أطمع فيهم الروم، وفيها قتل عبدالملك بن مروان، الحارث بن سعيد المتنبي الكذاب، وكان من الدجاجلة الذين يفترون على الله الكذب باختلاقهم الخوارق المصطنعة.

وفي سنة إحدى وثمانين، وقعت فتنة ابن الأشعث، والسبب في هذه الفتنة ما كان من مباغضة بين الحجاج وابن الأشعث، ولما جعل الحجاج ابن الأشعث أميراً على الجيش وأمره بدخول بلاد رتبيل ملك الترك رأى ابن الأشعث لأصحابه أن يقيموا حتى يتقووا إلى العام المقبل، فكتب إلى الحجاج بذلك، فكتب إليه الحجاج مستهجناً رأيه في ذلك ومستضعفاً عقله مع وصفه بالجبن والنكول عن الحرب وكتب إليه جملة كتب جاء في أحدها قوله: يا ابن الحائك الغادر المرتد، امضِ إلى ما أمرتك به من الإيغال في أرض العدو وإلا حلّ بك ما لا يطاق.

ولما كتب الحجاج ذلك إلى ابن الأشعث غضب هذا وقال: يكتب إليّ بمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جنودي ولا من بعض خدمي لخوره وضعف قوته؟

ثم جمع ابن الأشعث رؤوس أهل العراق وقال لهم: إن الحجاج قد ألحّ عليكم في الإيغال في بلاد العدو وقد أقبل عليكم فصل الشتاء والبرد فانظروا في أمركم، أما أنا فلست مطيعه، وطلب منهم إصلاح البلاد التي فتحوها ليتقووا ويخرج عنهم فصل الشتاء ثم يسيرون بعد ذلك إلى بلاد العدو فيفتحونها بلداً بلداً حتى يحصروا رتبيل ملك الترك، ثم أعلمهم بما كتب إليه الحجاج من الأمر بالمسير لمناجزة رتبيل، فثارت ثائرة الناس وقالوا: لا بل نأتي على عدو الله الحجاج ولا نسمع له ولا نطيع، ثم تنادوا إلى خلع الحجاج ـ ولم يذكروا خلع عبدالملك ـ ومبايعة ابن الأشعث عوضاً عن الحجاج، ولم يذكروا خلع عبدالملك بن مروان، ثم سار ابن الأشعث بجنوده إلى الحجاج ليقاتله ويأخذ منه العراق، وفي الطريق قالوا: إنّ خَلْعَنا للحجاج خَلْع لعبدالملك بن مروان، فخلعوهما وجددوا البيعة لابن الأشعث، فبايعهم ابن الأشعث على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وخلع أئمة الضلال، فإذا قالوا: نعم بايعهم.

ولما علم الحجاج بما صنعوا من خلعه وخلع ابن مروان كتب إلى عبدالملك يخبره بذلك ويستعجله في إرسال الجنود إليه، ولما وصل كتاب الحجاج إلى عبدالملك هاله ذلك وأخذ الناس يلتفون على ابن الأشعث من

كل جانب، وقيل: إنه سار معه للقاء الحجاج ثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف رجل.

ثم خرج الحجاج في جنود الشام من البصرة نحو ابن الأشعث، فالتقوا في يوم الأضحى عند نهر دجيل، فهزمت مقدمة الحجاج وقتل منهم أصحاب الأشعث خلقاً كثيراً، وولى الحجاج هارباً لا يلوي على شيء ودخل ابن الأشعث البصرة فخطب الناس وبايعوه على خلع عبدالملك ونائبه الحجاج بن يوسف، وقال لهم ابن الأشعث: ليس الحجاج بشيء ولكن امضوا بنا لنقاتل عبدالملك، ووافقه على خلعهما جميع من في البصرة من الفقهاء والقراء والشيوخ والشباب[1].

وقعة دير الجماجم:

وفي شهر المحرم من سنة ثنتين وثمانين، كانت وقعة الزاوية بين الحجاج وابن الأشعث، وتناجز الفريقان واقتتلوا قتالاً شديداً، وكان ابن الأشعث يحرّض الناس على قتال الحجاج، وكان في جيش الأشعث كثير من القراء والعلماء وفيهم الشعبي وسعيد بن جبير.

ثم قصد ابن الأشعث الكوفة فخرج إليه أهلها، فتلقوه وحفوا به وأيدوه تأييداً، فاستتب الأمر لابن الأشعث في الكوفة وانضم إليه من جاءه من أهل البصرة.

أما الحجاج فركب فيمن معه من جيوش الشام والبصرة حتى مرّ بالقادسية حتى نزل دير قرة، وجاء ابن الأشعث بمن معه من الجيوش البصرية والكوفية حتى نزل دير الجماجم ومعه جنود كثيرون وفيهم القراء وكثير من الصالحين، وكان جملة من اجتمع معه من العساكر مائة ألف مقاتل، ومثلهم من الموالي، وكان الفريقان يقتتلان كل يوم ويبرز بعضهم لبعض حتى أصيب منهم خلق كثير.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٩ ص٣ ـ ٣٧.

ثم اجتمع الأمراء من أهل الرأي والمشورة عند عبدالملك بن مروان فقالوا له: إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج فذلك أيسر من قتالهم وسفك دمائهم، فاقتنع عبدالملك بالفكرة، فأرسل إلى أهل العراق كتاباً يقول فيه: إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج عنكم، عزلته عنكم، وليختر ابن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت، وتكون أمرة العراق لمحمد بن مروان، وإذا لم تستجيبوا لهذا فالحجاج على ما هو عليه وبيده تبقى أمرة الحرب.

ولما بلغ الحجاج ما تضمنه كتاب عبدالملك إلى أهل العراق من عزله إن رضوا به، ساءه ذلك وشقّ عليه كثيراً.

وظل عبدالملك عازماً على عرض هذه الخصال على أهل العراق، فتقدم عبدالله بن عبدالملك بن مروان ونادى في أهل العراق: يا معشر أهل العراق أنا عبدالله بن أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان، وإنه يعرض عليكم كيت وكيت، فذكر ما كتبه أبوه إليهم من خصال، فاجتمع أمراء العراق إلى ابن الأشعث، ولما علم الناس بما يعرضه عليهم عبدالملك نفروا من كل جانب وقالوا: لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عَدداً وعُدداً، وهم في ضيق من الحال، ثم جددوا خلع عبدالملك ونائبه، وأجمع كلهم على ذلك.

فلما بلغ عبدالملك خبرهم قال للحجاج: شأنك بهم إذاً، فعاود الفريقان المناجزة والقتال، وظلوا على هذه الحال من المبارزة والاقتتال والدائرة لأهل العراق على أهل الشام في أكثر الأيام.

وتوفي في هذه السنة المهلب بن أبي صفرة، أحد أشراف أهل البصرة ودهاتهم، وكان قد غزا أيام معاوية أرض الهند سنة أربع وأربعين، وتولى حرب الخوارج مع الحجاج وقتل منهم كثيراً، وقد مات وعمره ست وسبعون سنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين والناس متواقفون، فيتبارزون ويقتل بعضهم بعضاً، إذ كان الحجاج وجيشه بدير قرة، وابن الأشعث وجيشه بدير الجماجم، وكان النصر والغلبة في أكثر الأيام لأهل العراق على أهل الشام،

وبالرغم من ذلك فقد كان الحجاج ثابتاً مصابراً لا يتزحزح من مكانه وهو ذو خبرة بالحرب فضلاً عن شجاعته وقوة بأسه، فحمل على القراء حملة شديدة لأنهم كانوا يحرضون الناس على قتال الحجاج والناس يتقدون بهم فقتل الحجاج من كتيبة القراء خلقاً كثيراً، وكذلك حمل على ابن الأشعث وجيشه فانهزموا وتولوا مدبرين، وهرب ابن الأشعث ومعه قليل من فلول جيشه المتقهقر، وأرسل الحجاج في أثرهم من يلاحقهم ويقتلهم حتى قيل: إنه قتل منهم أكثر من مائة ألف وفيهم كثير من العلماء، كان آخرهم سعيد بن جبير رحمهم الله ورضي عنهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومهما قيل في شدة الاقتتال وكثرة المقتلة فلا أحسب مثل هذا العدد الذي يجاوز المائة ألف، إلا أنه مبالغ فيه كثيراً وأنه من فلتات الظن والخيال لدى كثير من المؤرخين.

بناء مدينة واسط:

بنى الحجاج مدينة واسط في هذه السنة، وسبب بنائه لها أنه رأى راهباً على أتان قد أجاز دجلة، فلما مرَّ بموضع واسط وقفت أتانه فبالت، فنزل عنها الراهب وعمد إلى موضع بولها فاحتفره ورمى به، فدعاه الحجاج إليه وسأله عما صنعه في بول الأتان، فقال الراهب: إنا نجد في كتبنا أنه يُبنى في هذا الموضع مسجد، يُعبد الله فيه ما دام في الأرض أحد يوحده، فعند ذلك اختط الحجاج مدينة واسط في ذلك المكان وبني المسجد في هذا المكان.

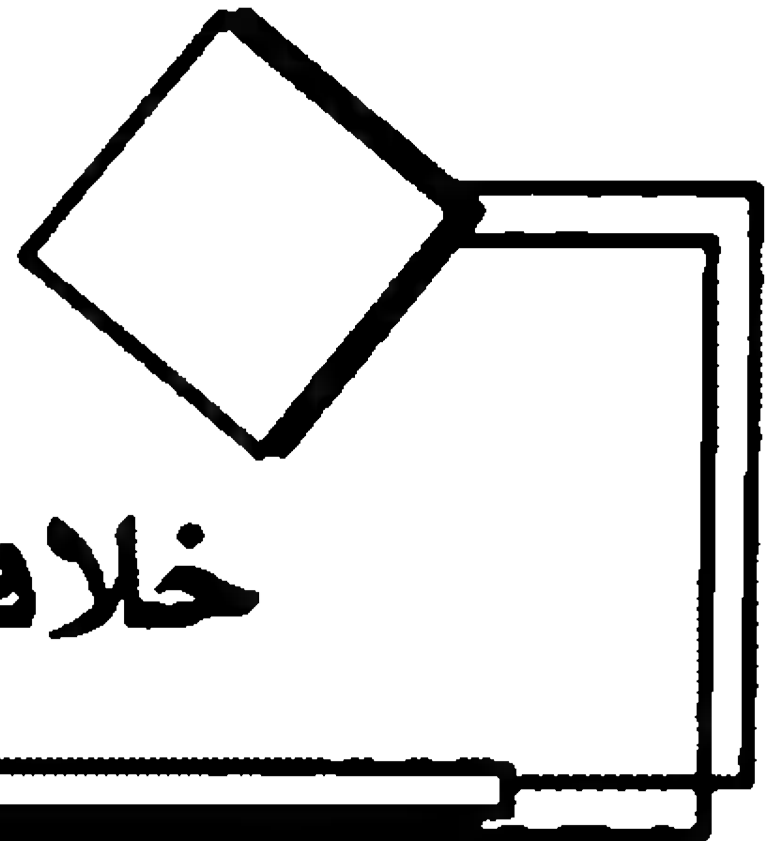
أما ابن الأشعث فقد لجأ إلى رتبيل ملك الترك محتمياً به، آمناً في جواره، فكتب الحجاج إلى رتبيل يقول له: والله الذي لا إله إلا هو لئن لم تبعث إلي بابن الأشعث لأبعثن إلى بلادك ألف ألف مقاتل ولأخربنها، فاستشار رتبيل بعض أمرائه في ذلك فأشاروا عليه بتسليم ابن الأشعث إلى الحجاج قبل أن يخرب بلاده وينفذ وعيده، فعند ذلك غدر رتبيل بابن الأشعث إذ قبض عليه وعلى ثلاثين من أقربائه فبعثهم إلى الحجاج مقيدين في الأغلال، فلما كانوا في الطريق صعد ابن لأشعث وهو مقيد بالحديد إلى

سطح قصر وألقى بنفسه من أعلى القصر فمات. فعمد رسول الحجاج الموكل بتسليم ابن الأشعث - إلى رأسه، فاحتزَّه وذهب به إلى الحجاج فأمر هذا فطيف به في العراق.

بيعة عبدالملك لابنه الوليد:

في هذه السنة التي مات فيها عبدالعزيز بن مروان، ولي عهد أبيه من بعد أخيه عبدالملك، بويع للوليد بن عبدالملك بدمشق ثم في سائر الأقاليم، ثم لسليمان من بعده. ولما انتهت البيعة إلى المدينة امتنع سعيد بن المسيب أن يبايع لأحد في حياة عبدالملك، فأمر به نائب المدينة فضرب ستين سوطاً ثم أودع السجن.





الفصل الخامس
خلافة الوليد بن عبدالملك

عقب الفراغ من دفن عبدالملك بن مروان في يوم الخميس من شهر شوال من هذه السنة، صعد الوليد المنبر، وهو منبر المسجد الأعظم بدمشق، فخطب الناس، وكان من جملة قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان على مصيبتنا في أمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا. فكان أول من بايعه عبدالله بن همام، ثم بايع الناس من بعده.

وذكر أنه قال في خطبته: أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد. أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه.

والوليد هو باني مسجد جامع دمشق، وهو مسجد عظيم وفسيح يتسع لكثير من الخلق، وهو في جماله وروعة بنائه لم يكن له في الآفاق نظير حينئذاك، وقد استنفد بناؤه من الزمن عشر سنين وهي مدة خلافة الوليد.

وفي سنة ثمان وثمانين، كتب الوليد إلى عمر بن عبدالعزيز يأمره بهدم المسجد النبوي وإضافة حُجَر أزواج النبي ﷺ وأن يوسعه من قبلته وسائر نواحيه. فجمع عمر بن عبدالعزيز وجوه الناس والفقهاء العشرة وأهل المدينة وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين الوليد، فشقّ عليهم ذلك وقالوا: هذه حُجَر قصيرة السقوف، وسقوفها من جريد النخل وحيطانها من اللبن، وتركها على

حالها أولى لينظر إليها الحُجاج والزوار والمسافرون، وإلى بيوت النبي فيعتبروا بذلك، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في هذه الدنيا. فكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة وهم فقهاء المدينة: عروة بن الزبير، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة، وأبو بكر بن عبدالرحمٰن بن الحارث، وأبو بكر سليمان بن خيثمة، وسلمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبدالله بن عمر، وأخوه عبيدالله بن عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عامر، وخارجة بن زيد بن ثابت.

فأرسل الوليد إليه يأمره بالهدم ثم بناء المسجد فلم يجد عمر من مناص من الهدم.

وفي هذه السنة حجّ بالناس عمر بن عبدالعزيز ومعه أشراف من قريش، فلما كان بالتنعيم لقيه طائفة من أهل مكة فأخبروه عن قلة الماء بمكة لقلة المطر، فقال لأصحابه: ألا نستمطر؟ فدعا ودعا الناس فما زالوا يدعون حتى سقوا، ودخلوا مكة ومعهم المطر، وجاء سيل عظيم حتى خاف أهل مكة من شدة المطر، وأخصبت الأرض هذه السنة خصباً عظيماً بمكة وما حولها، وذلك كله ببركة دعاء عمر بن عبدالعزيز ومن كان معه من الصالحين.

وفي سنة تسع وثمانين، غزا الأمويون بقيادة مسلمة بن عبدالملك بلاد الروم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وفتح هو وابن أخيه العباس حصوناً كثيرة، منها حصن سوريا وعمورية وغيرها من الحصون، وأسرا جماً غفيراً من العدو.

وغزا قتيبة بلاد الصغد وبلاداً أخرى، ثم سار إلى بخارى فلقيه دونها من الترك كثيرون، فقاتلهم وظفر بهم. وغزا قتيبة بن مسلم كذلك الترك حتى بلغ أذربيجان وفتح حصوناً ومدائن كثيرة. وحجّ بالناس في هذه السنة عمر بن عبدالعزيز، وفيها فتحت صقلية.

وفي سنة تسعين، غزا مسلمة بن عبدالملك والعباس بن الوليد بلاد الروم، ففتحا حصوناً كثيرة وأسرا خلقاً كثيراً من الناس. وفيها فتح قتيبة بن

مسلم مدينة بخارى وهزم جميع العدو من الترك فيها.

وفي هذه السنة هرب يزيد بن المهلب من سجن الحجاج فلحق بسليمان فأمنه من الحجاج.

وفي سنة إحدى وتسعين، حجّ بالناس أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك، فلما دنا من المدينة تلقاه عمر بن عبدالعزيز، ومعه أشراف المدينة فرحّب بهم الوليد وأحسن إليهم، فدخل الوليد المسجد النبوي ولم يكن فيه غير سعيد بن المسيب وهو يومئذ إمام المدينة وأعلم الناس فيها، ولم يكن يلبس يومئذ سوى ثياب لا تساوي خمسة دراهم، فطلب منه بعض الناس أن يتنحى عن المسجد لأن أمير المؤمنين قادم إليه، فأقسم أن لا يخرج، فلما دخله الوليد لم يعبأ ابن المسيب ولم يتحول من مكانه.

فتح الأندلس:

وذلك سنة ثنتين وتسعين، وكان ذلك على يد المسلم العظيم، ذي الشجاعة الفائقة والإقدام البالغ. فقد غزا طارق بن زياد بلاد الأندلس في اثني عشر ألفاً من الجنود، فخرج إليه ملكها أذريق في عساكره وهو يلبس التاج ومعه سرير ملكه، فقاتله طارق وهزمه شر هزيمة، واستقر الأمر للإسلام في كامل بلاد الأندلس.

وكان طارق بن زياد حينئذ نائباً لموسى بن نصير، وكان أمير طنجة من أقصى بلاد المغرب، وكان طارق قد انتهز فرصة الخلاف بين الفرنجة الذين كانوا يتنازعون ويقتتلون فيما بينهم، فبادر طارق بجنوده لغزو بلاد الأندلس فدخلها فاتحاً مظفراً، ليشيع فيها العلم والعدل والفضيلة وكيما تستقر فيها عقيدة التوحيد الخالص لله وحده، ولتتبدّد كل معالم الشرك والرذيلة والباطل.

وقد كتب طارق إلى موسى بن نصير يبشره بالفتح، مما أثار في نفسه الحسد لأنه انفرد بهذا الفتح العظيم. فكتب ابن نصير إلى الوليد بن عبدالملك يبشره بالفتح وينسبه إلى نفسه، وكتب إلى طارق يتوعده لأنه شرع

في فتح الأندلس من غير أمره. ولله در بني آدم، لم ينجُ منهم أحد من هذه اللوثة المنتنة ـ لوثة الحسد الضارب في أغوار النفس البشرية ـ إلا الأفذاذ المصطفون من الناس، أو الذين تطهرت قلوبهم من هذا الدنس العضال فكانوا من الأبرار الأطهار، وقليل ما هم!

ثم أسرع ابن نصير بجيوشه قاصداً بلاد الأندلس فأقام هنالك سنين يفتح في البلاد ويأخذ المدن، وقد قتل من جيوش الظلم والباطل الكثير[١].

فتح سمرقند:

لما فرغ قتيبة من بلاد سجستان وشومان وغيرهما من البلدان، عزم على الرجوع إلى بلاده، فحضّه بعض الأمراء على فتح سمرقند وأن يفجأ أهلها وهم لا يشعرون، فوجد هذا التحضيض في نفسه القبول، وطلب منهم أن يكتموا ذلك فلا يخبروا به أحداً من الناس.

فبعث قتيبة أخاه عبدالرحمٰن بن مسلم ليكون أمامه في عشرين ألفاً من الجنود فيسبقه إلى سمرقند، ولحقه قتيبة في بقية الجيش، فلما سمع الأتراك بقدوم المسلمين إليهم تهيأوا لقتالهم واختاروا لذلك أولي السطوة الشديدة من أبناء الملوك والأمراء، وأمروهم بالمسير إلى قتيبة وجيشه ليلاً ليأخذوا المسلمين على غرة، فمضى المسلمون للقائهم وقاتلوهم قتالاً شديداً فكانت الغلبة لجيش المسلمين، ثم اقترب المسلمون من المدينة العظمى، سمرقند، فنصب قتيبة عليها المجانيق فرماها بها. وانضم إلى جيش المسلمين حينئذ كثير من أهل بخارى وخوارزم، فقاتلوا أهل الصغد قتالاً شديداً.

ولما استيأس أهل بخارى من قتال المسلمين وقد أثخنهم المسلمون تقتيلاً وتبديداً، فاؤوا إلى مصالحة المسلمين، فصالحهم المسلمون على أن يأخذوا منهم أموالاً كثيرة، وأن يخلي أهل سمرقند المدينة من المقاتلة ليبني المسلمون فيها مسجداً ويوضع فيه منبر فيخطب عليه قتيبة، فأجابه المشركون إلى ذلك.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٩ ص٤٠ ـ ٨٤.

ثم دخل قتيبة المدينة في أربعة آلاف من المقاتلين الشجعان بعد أن تم بناء المسجد فيها، ثم أمر بالأصنام الكثيرة فحطمت تحطيماً، وألقي بعضها فوق بعض ثم أمر بتحريقها، فتصارخ المشركون وتباكوا، وقال المجوس: إن فيها أصناماً قديمة من أحرقها هلك، فقام قتيبة وأخذ في يده شعلة نار وقال: أنا أحرقها بيدي، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون، ثم قام إليها وهو يكبر الله عز وجل، فألقى فيها النار فاحترقت.

وبعد ذلك ارتحل قتيبة من سمرقند إلى بلاد مرو، وقد استخلف وراءه على سمرقند أخاه عبدالله بن مسلم.

وفي هذه السنة عزل موسى بن نصير طارق بن زياد عن الأندلس، واستعمل مكانه ولده عبدالعزيز بن موسى بن نصير.

ثم بعث موسى بن نصير عساكره إلى بلاد الغرب فافتتحوا مدناً كثيرة، منها: قرطبة وطنجة، ثم سار موسى بنفسه إلى غرب الأندلس فافتتح مدينة باجة، والمدينة البيضاء وغيرهما من كبار المدن والأقاليم، وجعل يفتتح المغرب بلداً بلداً وإقليماً إقليماً.

وفي هذه السنة افتتح محمد بن القاسم ـ ابن عم الحجاج ـ مدينة الدبيل وغيرها من بلاد الهند. وكان الحجاج قد ولاه غزو الهند وعمره حينئذ سبع عشرة سنة، فسار ابن القاسم في جيش المسلمين فلقوا ملك الهند ـ واسمه داهر ـ في جمع عظيم، ومعه عدد من الفِيَلة، فاقتتلوا وهزم المشركون وولى ملكهم داهر هارباً، فما لبث أن قتل ليلاً وهو مقبل بجيشه لقتال المسلمين.

وبذلك فإنه مما يجدر ذكره هنا إحقاقاً للحق ـ أن بني أمية كان فيهم لواء الجهاد مرفوعاً كيما تشيع دعوة الإسلام في الآفاق. فما كان لبني أمية من شغل إبان حكمهم إلا إعلان الجهاد والتحضيض عليه وتحريض الناس على قتال الظالمين والمشركين المفسدين في الأرض. وبذلك علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها، فخشي الكافرون المسلمين، وانزوى سلطان الباطل وتبددت شوكة الظلم والفساد، وقد كان

ذلك كله في كل المناحي شرقاً وغرباً، بالرغم مما أُخذ عليهم ما اجترحه بعض ولاتهم وأمرائهم من زلات وخطايا، فهذه بتلك، ومن المعلوم في دين الله أن ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: الآية ١١٤].

وظل قتيبة يفتح البلاد حتى وصل إلى تخوم الصين ثم قتل بعد ذلك، إذ قتله بعض المسلمين، في الوقت الذي كان فيه المسلمون بقيادة مسلمة بن عبدالملك وأخيه الوليد بن عبدالملك يفتحون في بلاد الروم ويجاهدون بعساكر الشام حتى وصلوا إلى القسطنطينية، وقد بنى فيها المسلمون جامعاً يُعبد فيه الله. وقد خشي الفرنج من المسلمين وامتلأت قلوبهم منهم رعباً، وكان محمد بن القاسم يجاهد في بلاد الهند ويفتح مدنها. وموسى بن نصير يجاهد في بلاد المغرب ويفتح فيها المدن والأقاليم في جيوش من الديار المصرية، فدخل الناس من تلك البلاد الإسلام وتركوا الشرك وعبادة الأوثان.

وبذلك كان سوق الجهاد قائماً في القرن الأول من بعد الهجرة، بدءاً بعهد الصحابة عمر وعثمان، ومروراً بدولة بني أمية ثم أثناء الخلافة العباسية كأيام المنصور والرشيد وأولادهما.

ولما طفئت شعلة الجهاد في تلك البلاد وركن المسلمون للغفلة وحطام الدنيا، رجع العدو إليهم ليحتل منهم بلاداً كثيرة. ولما استولى الفاطميون على الديار المصرية والشامية وضعف الإسلام، جاء الفرنج ليأخذوا أكثر بلاد الشام حتى أخذوا بيت المقدس وغيره من بلاد الشام.

مقتل سعيد بن جبير:

مهما يكن من سبب تذرَّع به الحجاج لقتل هذا العالم المفضال، فإنه مرفوض البتة، لا جرم أن هذه الجريمة الفظيعة لهي واحدة من جرائم أخريات نكراء قد تلبَّس بها الحجاج في غاية من الاجتراء البشع، الاجتراء الذي تنفر منه لا محالة طبائع المؤمنين الذين يجدون في أنفسهم حلاوة العقيدة الإسلامية، كيما يكونوا أشد الناس رحمة بالخلق. وكيف بهؤلاء إذا

كانوا نماذج في الخير والعلم والتقوى، بل مشاعل مضيئة تهتدي بنورها الأجيال على مر الزمن؟!

مهما يكن من سبب ينتهزه الحجاج لما فعل، فإنه أجدر أن يكون في عِداد الأسباب الواهية المستهجنة إذا ما قيست بفداحة الجريرة المذهلة، الجريرة التي أفضت إلى إزهاق هذا العلم من أعلام الإسلام ـ سعيد بن جبير!

ولم يلبث الحجاج بعد مقتل سعيد بن جبير إلا أربعين يوماً، وظل شبح سعيد يراوده خلال هذه المدة، فكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو الله فيمَ قتلتني؟ فيقول الحجاج: ما لي ولسعيد بن جبير؟ ما لي ولسعيد بن جبير؟

وسعيد بن جبير كان من أكابر أصحاب ابن عباس، وكان من أئمة الإسلام في التفسير والفقه وغير ذلك من علوم الإسلام. فضلاً عن أعماله الصالحة وما كان يتجلى فيه من الزهد والورع وحسن العبادة.

وقد توفي وعمره تسع وأربعون سنة. وقيل: سبع وخمسون.

سعيد بن المسيب:

ذلك هو سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي القرشي سيد التابعين بلا منازع، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب، وقد أرسل عن النبي ﷺ كثيراً من الأخبار، وروى عن كثير من الصحابة منهم عمر وعثمان وعلي وأبي هريرة وكان زوج ابنته، وكان سعيد ذا علم واسع حتى قلّ نظيره. قال مكحول في ذلك: طفت الأرض كلها في طلب العلم فما لقيت أعلم من سعيد بن المسيب. وقال الإمام الشافعي: إرسال سعيد بن المسيب عندنا حسن، وقال الإمام أحمد بن حنبل: هي صحاح، وقال: سعيد بن المسيب أفضل التابعين.

وكان رحمه الله رجلاً تقياً صالحاً زاهداً، وكان لا يأخذ العطايا، فكان له بضاعة بأربعمائة دينار، وكان يتجر في الزيت وكان أعور.

وقد زوّج ابنته على درهمين لكثير بن أبي وداعة، وكان فقيراً وكانت هي من أحسن النساء وأكثرهم أدباً وعلماً وكانت أعلمهم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وكان عبدالله بن مروان قد خطبها لابنه الوليد فأبى سعيد أن يزوجه إياها.

علي بن الحسين:

ذلك هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي المشهور بزين العابدين وأمه سلامة، وهي أم ولد.

كان مع أبيه بكربلاء، فاستبقوه لمرضه إذ كان مريضاً، وكان ابن ثلاث وعشرين سنة، وقد همَّ بقتله عبيدالله بن زياد ثم صرفه الله عنه. وأشار بعض الظالمين على يزيد بن معاوية بقتله كذلك فمنعه الله منه. ثم كان يزيد يكرمه بعد ذلك ويعظمه ويجلسه إلى جانبه، وكان رحمه الله في المدينة محترماً معظَّماً، وكان من أشد الناس ورعاً وتقى، فقد ذكر أنه احترق البيت الذي هو فيه وهو قائم يصلي، فلما انصرف قالوا له: ما لك لم تنصرف؟ فقال: إني اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى، وكان إذا توضأ اصفر لونه، وإذا قام إلى الصلاة أخذته رِعْدة من الفَرَق (الخوف).

وقد ذكر كثير من الأخبار العجيبة عن خصاله وحميد سيرته من التواضع والبر والرفق بالمساكين والمحاويج. فقد كان ناس بالمدينة لا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به، ولما مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين في الليل.

وقد توفي رحمه الله في هذه السنة وهي أربع وتسعون وصُلي عليه بالبقيع ودفن به.

وفي سنة خمس وتسعين، غزا المسلمون بقيادة العباس بن الوليد بلاد الروم، افتتحوا فيها حصوناً كثيرة.

موت الحجاج بن يوسف:

وفيها مات الحجاج وهو ابن يوسف بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي، ولاه عبدالملك بن مروان الحجاز فقتل ابن الزبير ثم عزله عنها وولاه العراق، فدخل الكوفة فأقام فيها عشرين سنة، فكانت له فتوحات كثيرة حتى وصلت خيوله الهند والسند وقريباً من بلاد الصين. وقد ولد الحجاج سنة تسع وثلاثين، ثم نشأ شاباً لبيباً فصيحاً بليغاً حافظاً للقرآن، وبالرغم من كل ذلك فقد كان الحجاج مولعاً بإراقة الدماء سواء فيها البريئة أو غير البريئة، فكان له في هذا المجال حظ شنيع ومشؤوم وهو قتله نفراً من أعاظم المسلمين وفي طليعتهم عبدالله بن الزبير، الذي ارتجت له مكة بالبكاء، فأمر الحجاج بالناس فجمعوا له في المسجد ثم صعد المنبر، فقال: يا أهل مكة، بلغني إكباركم قتل ابن الزبير، ألا وإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها أهلها، فنزع طاعة الله واسْتَكَن بحرم الله، ولو كان شيء مانع العصاة لمنعت آدم حرمة الله، إن الله خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته، واذكروا الله يذكركم.

ليس للحجاج في مثل هذا القول أيما احتجاج معقول، وما ينبغي له أن يحتج بإخراج آدم من الجنة بسبب معصيته، ليستبيح دم هذا المؤمن العظيم الذي شهد له المسلمون بالصلاح والإيمان والصدق والورع.

روى الإمام أحمد في هذا الصدد عن أبي الصديق الناجي: أن الحجاج دخل على أسماء بنت أبي بكر عقب مقتل ابنها عبدالله فقال: إن ابنك ألحد في هذا البيت وإن الله أذاقه من عذاب أليم. فقالت: كذبت، لقد كان براً بوالديه، صوّاماً قوّاماً. والله لقد أخبرنا رسول الله ﷺ **«أنه يخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول، وهو مبير»**.

وقال أبو يعلى: عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ نهى عن المثلة، وسمعته يقول: **«يخرج من ثقيف رجلان: كذاب ومبير»** فقلت للحجاج: أما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت هو

يا حجاج، وتعني بالكذاب ابن أبي عبيد وهو المختار.

ومن خطبة له في أهل العراق يتوعدهم فيها شديد التوعد: يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم، فخالط اللحم والدم والعصب ثم أفضى إلى الأسماخ[1] والأمخاخ، والأشباح والأرواح، ثم أرتع فعشش، ثم باض وفرّخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً، فاتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤتمناً تشاورونه وتستأمرونه.

يا أهل العراق، يا أهل الكفران بعد الفجران، والغدران بعد الخذلان، إن بعثناكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم.

إلى غير ذلك من الكلام العنيف الذي يثير في نفوس السامعين الرهبة والفزع والترعيب.

وفي سنة ست وتسعين فتح قتيبة بن مسلم بعضاً من أرض الصين، وبعث إلى ملك الصين رسلاً يتهدده ويتوعده، ويقسم بالله لا يرجع حتى يطأ بلاده ويختم ملوكهم وأشرافهم ويأخذ الجزية منهم أو يدخلوا في الإسلام.

ولما انتهى إلى قتيبة خبر موت الوليد بن عبدالملك، انكسرت همته وعزم على ترك مبايعة سليمان بن عبدالملك وأراد الدعوة إلى نفسه لما تحت يده من العساكر، ثم قتل آخر هذه السنة وكان من المجاهدين في سبيل الله.

وفي هذه السنة تكامل بناء الجامع الأموي بدمشق على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك بن مروان. وكان أصل موضع هذا الجامع معبداً بنته اليونان الكلدانيون الذين كانوا يعمرون دمشق وهم الذين بنوها وعمروها، وكانوا يعبدون الكواكب السبعة وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل. وكانوا قد صوّروا على كل باب

---

(١) الأسماخ: جمع: سماخ بالكسر وهو: صماخ الأذن، ومعناه: خرق الأذن، وقيل: هو الأذن نفسها، انظر: القاموس المحيط ج١ ص٢٧١، ومختار الصحاح ص٣٦٩.

من أبواب دمشق هيكلاً لكوكب من هذه الكواكب السبعة، وكان لهم عند كل باب من أبواب دمشق عيد في السنة.

وقد استمر اليونان على هذه الحال في دمشق مدة تزيد على أربعة آلاف سنة، وكانت دمشق حينئذ عامرة آهلة بمن فيها من اليونان، وقد ناظرهم الخليل في عبادتهم الأصنام والكواكب وغيرها.

وبعد بعث المسيح بثلاثمائة سنة، تنصّر أهل الشام على يد الملك قسطنطين الذي كان قد بنى المدينة المشهورة في بلاد الروم وهي القسطنطينية، ثم حوّل هؤلاء النصارى هذا المعبد الذي هو بدمشق فجعلوه كنيسة يوحنا، وبنوا في دمشق كنائس كثيرة. واستمر النصارى على دينهم بدمشق وغيرها مدة ثلاثمائة سنة حتى بعث الله محمداً ﷺ فكتب الله الغلبة لدينه على هذه البلاد.

ولما صارت الخلافة إلى الوليد بن عبدالملك عزم على أخذ شطر من هذه الكنيسة وإضافتها إلى ما بأيدي المسلمين، وجعل الجميع مسجداً واحداً يتسع لكثرة المسلمين، وقد عوّض الوليد النصارى عن هذه الكنيسة أربع كنائس غيرها لم تكن قد دخلت في العهد.

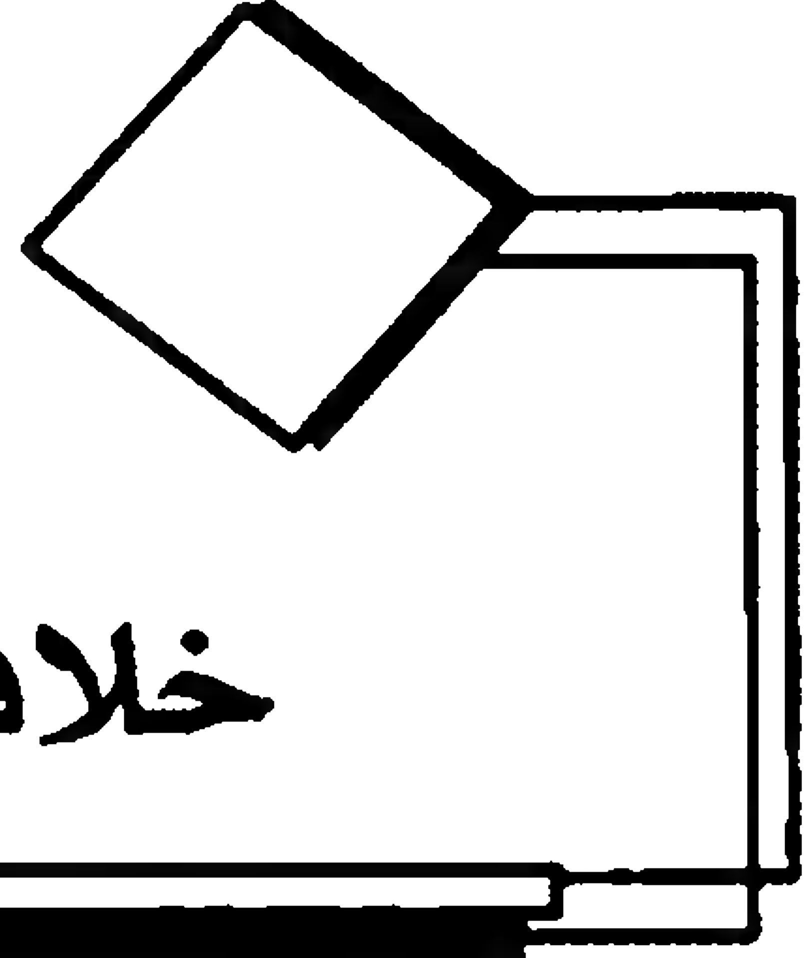
وبذلك قد اكتمل بناء الجامع الأموي حتى لم يكن على وجه الأرض في زمانه بناء أحسن منه[١].

وكذلك بنى صخرة بيت المقدس وعقد عليها القبة، وبنى مسجد النبي ﷺ ووسّعه حتى دخلت الحجرة التي ضمت القبر فيه.

وتوفي رحمه الله يوم السبت في النصف من جمادى الآخرة من هذه السنة عن ست وأربعين سنة، وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر.



(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٩ ص٨٥ ـ ١٦٦.



الفصل السادس

خلافة سليمان بن عبدالملك

بايعه المسلمون بالخلافة يوم مات أخوه الوليد وكان ذلك سنة ست وتسعين، وكان سليمان بالرملة إحدى مدائن فلسطين.

وكان الوليد بن عبدالملك قد عزم قبل موته على خلع أخيه سليمان وأن يجعل ولاية العهد من بعده لولده عبدالعزيز بن الوليد، وقد وافقه الحجاج على ذلك، وكذلك قتيبة بن مسلم وآخرون، لكن ذلك لم يتحقق، وانعقدت البيعة لسليمان، فخافه قتيبة بن مسلم وعزم على عدم مبايعته، فعزله سليمان عن ولاية العراق وخراسان وولّى مكانه يزيد بن المهلب، فصمم قتيبة أن يكيد لسليمان كيداً، فقد جمع عساكره وعزم على خلع سليمان بن عبدالملك عن الخلافة، فلم يجبه أحد من الناس على ذلك، فأخذ يؤنبهم ويوبخهم توبيخاً، قبيلة قبيلة، وطائفة طائفة، فغضبوا منه وتفرقوا عنه وعزموا على مخالفته وقتله، وأنيطت مهمة قتله برجل اسمه وكيع بن أبي سود، فجمع هذا جموعاً كثيرة ثم ظل يناهضه حتى قتله في هذه السنة.

على أن قتيبة رحمه الله كان من سادات الناس وخيارهم وكان من القادة المهرة في قتال المشركين، وله في ذلك باع طويل في دفع الكفر والكافرين حتى فتح الله عليه كثيراً من البلاد، وهدى على يديه كثيراً من العباد فأسلموا لله رب العالمين، فرحمه الله رحمة واسعة.

وفي سنة سبع وتسعين، جهز سليمان بن عبدالملك الجيوش لفتح القسطنطينية، ومات في هذه السنة الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي، وقد روى عن أبيه عن جده مرفوعاً: **«من عال أهل بيت من المسلمين يومهم غفر الله له ذنوبه»**، وقد وفد على عبدالملك بن مروان فأكرمه ونصره على الحجاج.

وفاة موسى بن نصير رحمه الله:

كان مولى لبني أمية، وقد افتتح بلاد المغرب وغنم منها أموالاً لا توصف لكثرتها، وقد غزا البحر لمعاوية، فغزا قبرص وبنى فيها حصوناً كثيرة، وكان ابن نصير ذا حيلة ودهاء في الحرب، وقد ولي إمرة بلاد إفريقية فافتتح بلاداً وأقاليم ومدناً كثيرة، وكان قد افتتح بلاد الأندلس وأسلم على يديه أهل المغرب ونشر فيها علوم الدين والقرآن.

وقد كان موسى بن نصير يفتح البلاد في المغرب، وقتيبة بن مسلم يفتح في بلاد المشرق، فكلاهما قد فتح كثيراً من البلدان والأقاليم مما أشاع فيها الإسلام، فدخل الناس في دين الله أفواجاً، ومات ابن نصير بالمدينة وهو يقضي أعمال الحج مع سليمان وكان عمره قد قارب الثمانين، رحمه الله رحمة واسعة.

وفي سنة ثمان وتسعين ومنذ أن ولي سليمان الخلافة، أراد الإقامة في بيت المقدس ليرسل عساكره بعد ذلك إلى القسطنطينية، وقد استشار أخاه مسلمة فأشار عليه بأن يفتح القسطنطينية عنوة، وأن يدع ما دونها من البلاد لتسقط بعد ذلك تلقائياً. فجهز سليمان الجيوش من الشام والجزيرة، فتهيأ له من الجنود مائة وعشرون ألفاً في البر، ومائة وعشرون ألفاً في البحر، وأعلمهم سليمان أنه يريد بهم القسطنطينية، فسار من بيت المقدس فدخل دمشق وقد أمر على العساكر أخاه مسلمة وقال لهم: سيروا على بركة الله وعليكم بتقوى الله والصبر والتناصح والتناصف.

وقد سار سليمان حتى نزل مرج دابق، فاجتمع إليه ناس آخرون

متطوعون يحتسبون أجورهم على الله، فأمر أخاه مسلمة بالمسير على رأس العساكر وقد أخذ معه إليون الرومي، وهو رجل من النصارى، داخله مسلمة وواطأه في السر ليعينه على فتح القسطنطينية، وهو في الحقيقة ماكر ختّار.

ثم سار المسلمون حتى نزلوا على القسطنطينية فحاصروها وضيقوا على أهلها، فعرضوا الجزية على مسلمة فأبى إلا أن يفتحها عنوة. فأرسلوا إليه أن يبعث إليهم إليون كيما يشاوروه فبعثه إليهم، فقالوا له: رد هذه العساكر عنا ونحن نعطيك ونملكك علينا، فرجع إلى مسلمة فقال له: قد أجابوا إلى فتحها لكنهم لا يفتحونها حتى تتنحّى عنهم، فقال مسلمة: إني أخشى غدرك، فحلف إليه إليون أن يدفع إليه مفاتيحها وما فيها، فلما تنحى مسلمة وجنوده عنهم أخذوا يرممون ما تهدم من أسوارها واستعدوا للحصار، وبذلك غدر إليون بالمسلمين.

وما ينبغي للمسلمين في كل زمان أن يركنوا للمشركين على اختلاف دياناتهم ومللهم. إنما يثق المسلم بأخيه المسلم فيأتمنه في كل المشكلات والملمات.

وفي سنة تسع وتسعين، توفي خليفة المسلمين سليمان بن عبدالملك عن خمس وأربعين سنة، وكانت مدة خلافته سنتين وثمانية أشهر، وكان سليمان قد ولد بالمدينة ونشأ عند أبيه بالشام، وقد اتخذ ـ إبان خلافته ـ ابن عمه عمر بن عبدالعزيز مستشاراً له ووزيراً، فطلب منه أن يعزل نواب الحجاج وأن يخرج أهل السجون منها، وغير ذلك من مسائل في الخير والنصح كان يسمعها من عمر بن عبدالعزيز.

وقد أمر سليمان بغزو القسطنطينية فبعث إليها مائة وعشرين ألفاً من الجنود وبعث كذلك عدد هؤلاء في البحر وقائدهم عمر بن هبيرة.

وكان أول كلام تكلم به سليمان بن عبدالملك عقب توليه الخلافة، هو قوله: الحمد لله الذي ما شاء صنع، وما شاء رفع، وما شاء وضع، ومن شاء أعطى، ومن شاء منع. إن الدنيا دار غرور، ومنزل باطل، يا

عباد الله اتخذوا كتاب الله إماماً وارضوا به حكماً واجعلوه لكم قائداً، اعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان وضغائنه كما يجلو ضوءُ الصبح إذا تنفس إدبارَ الليل إذا عسعس.

وروي عن رجاء بن حيوة قال: استشارني سليمان بن عبدالملك وهو مريض أن يولي له ابناً صغيراً، لم يبلغ الحلم فقلت: إن مما يحفظ الخليفة في قبره أن يولي على المسلمين الرجل الصالح. ثم شاورني في ولاية ابنه داود، فقلت: إنه غائب عنك في القسطنطينية ولا تدري أحي هو أو ميت، فقال: من ترى؟ فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين، قال: فكيف ترى في عمر بن عبدالعزيز؟ فقلت: أعلمه والله خيِّراً فاضلاً مسلماً يحب الخير وأهله، ولكن أتخوَّف عليه إخوتك أن لا يرضوا بذلك، فقال: هو والله على ذلك. ثم أشار عليه بعض الناس أن يجعل يزيد بن عبدالملك ولي العهد من بعد عمر بن عبدالعزيز ليرضى بذلك بنو مروان، فكتب سليمان في ذلك ما يلي:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا كتاب من عند عبدالله سليمان بن عبدالملك لعمر بن عبدالعزيز، إني قد وليته الخلافة من بعدي ومن بعده يزيد بن عبدالملك فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم.

ثم ختم الكتاب وأرسل إلى كعب بن حامد العبسي صاحب الشرطة، فقال له: اجمع أهل بيتي فمرهم فليبايعوا على ما في هذا الكتاب مختوماً، فمن أبى منهم فاضرب عنقه.

فاجتمعوا ودخل رجال منهم فسلموا على أمير المؤمنين، فقال لهم: هذا الكتاب عهدي إليكم فاسمعوا له وأطيعوا وبايعوا من وليت فيه، فبايعوا لذلك رجلاً رجلاً.

فنهض الناس إلى عمر بن عبدالعزيز وهو لا يدري أنه المراد في الكتاب، وكان جالساً في مؤخر المسجد، فلما استبان له أنه المراد قال:

إنا لله وإنا إليه راجعون، ولم تحمله رجلاه حتى أخذوا بضبعيه[1] فأصعدوه على المنبر فسكت حيناً.

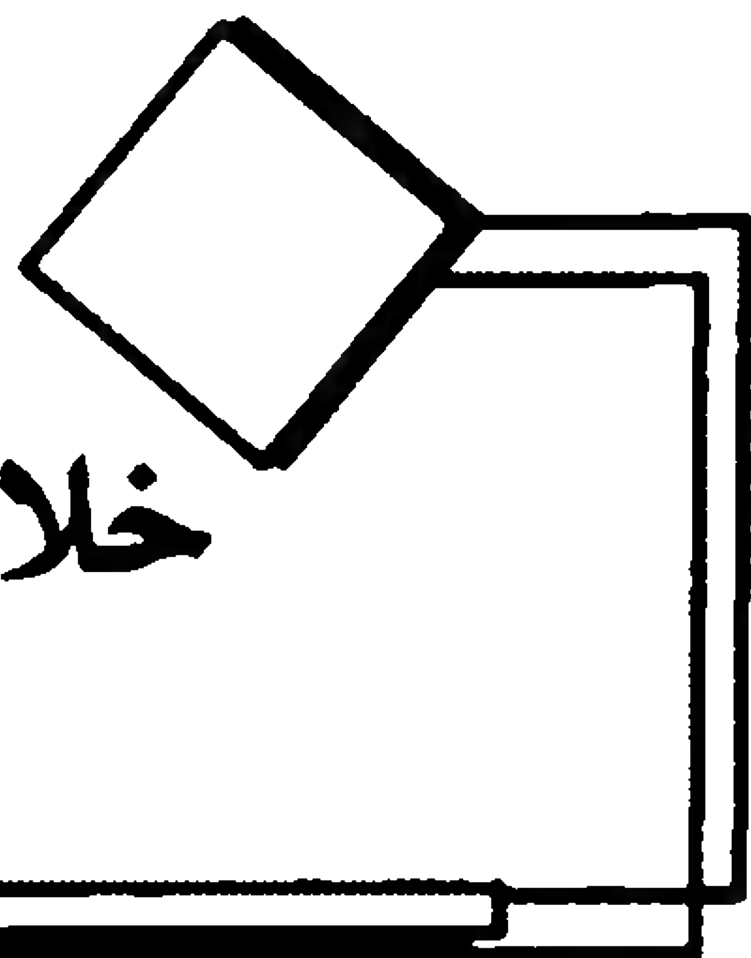
فقال رجاء بن حيوة: ألا تقومون إلى أمير المؤمنين فتبايعون؟ فنهض القوم فبايعوه، ثم أتى هشام فصعد المنبر ليبايع وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال عمر: نعم، إنا لله وإنا إليه راجعون الذي صرت أنا وأنت نتنازع هذا الأمر، ثم قام فخطب الناس خطبة بليغة وبايعوه، فكان مما قال في خطبته:

أيها الناس، إني لست بمبتدع ولكني متبع، وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم أبوا فلست لكم بوال، ثم نزل.

فأخذ المسلمون في جهاز سليمان وصلى عليه عمر بن عبدالعزيز ودفن بعد المغرب.



(١) الضبع: العضد، والاضطباع معناه: التأبط، انظر: المصباح المنير ج١ ص٣، ومختار الصحاح ص٣٧٧.



الفصل السابع

خلافة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه

بويع هذا الخليفة العظيم يوم الجمعة لعشر مضين من سنة تسع وتسعين، وقيل: لعشر بقين من هذه السنة. وكان ذلك يوم توفي سليمان بن عبدالملك وقد عهد بالخلافة إلى عمر من غير علم منه.

وذلكم علَم من أعلام الإسلام الأعاظم، ونجم وضّاء مشعشع من نجوم البشرية، إنه النجم البشري الساطع الذي استضاءت بعدله وفضله وصدقه الدنيا وهي تميد بالخير والأمن والرحمة وشيوع الإسلام في مناحي العالمين، ذلكم أعجوبة من أعاجيب الرجال، قد صنعها الإسلام رحمة للأمة ومثالاً تحتذيه الأجيال لتعِبَّ من خصاله المميزة كل ظواهر البر واليقين والورع والتواضع والجنوح للزهد والعزوف عن مباهج الدنيا وملذاتها.

وقد تجلّى ذلك لدى مبايعته بالخلافة فأعرض عن ركوب مراكب الخلافة من الخيول الحسان الجياد، واستعاض عن كل هذه المظاهر بمركوبه الذي كان يركبه، ثم الذهاب إلى منزله المعتاد بدلاً من منزل الخلافة الكبير.

وعقب بيعته بالخلافة، بعث إلى مسلمة بن عبدالملك والذين معه من المسلمين وهم بأرض الروم يحاصرون القسطنطينية ـ إذ كتب إليهم برجوع

إلى الشام ـ وذلك لما اشتد عليهم الحال وقد كانوا جيشاً كثيفاً وقد أمدهم بطعام وأرزاق كثيرة، ففرح الناس بذلك.

وفي زمنه رضي الله عنه أغار الترك على أذربيجان، فقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً، فسيَّر إليهم عمر، حاتم بن النعمان الباهلي فقاتلهم حتى قتلهم ولم يفلت منهم إلا قليل.

وفي هذه السنة عزل عمر رضي الله عنه يزيد بن المهلب عن إمرة العراق، واستقضى الحسن البصري على البصرة، ثم استعفاه الحسن فأعفاه، وعزل عدة من الأمراء والقضاة ليعين بدلاً منهم من أهل الصلاح والعدل والحزم.

وفي سنة مائة للهجرة، خرجت الحرورية بالعراق، فبعث أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز إلى أمير الكوفة، يأمره بأن يدعوهم إلى الحق وأن يتلطّف بهم ولا يقاتلهم حتى يفسدوا في الأرض، فلما أفسدوا قاتلهم أمير الكوفة بجيشه فهزمهم الحرورية، فبعث عمر ابن عمه مسلمة بن عبدالملك من الجزيرة إلى حربهم فنصره الله عليهم.

وفي هذه المدة القصيرة المباركة من خلافة هذا الأمير الراشد سكنت حدَّة الخوارج وهدأت ثائرتهم، وقد أرسل عمر إلى كبيرهم ـ واسمه بسطام ـ من يقول له: ما أخرجك عليَّ؟ فإن كنت خرجت غضباً لله فأنا أحق بذلك منك، وهلم أناظرُك، فإن رأيت حقاً اتبعته، وإن أبدَيْت حقاً نظرنا فيه، فأرسل الخوارج إليه رجلين فسألهما عمر رضي الله عنه: ماذا تنقمون؟ فقالا: أمّرت من بعدك يزيد بن عبدالملك، فقال عمر: إني لم أجعله أبداً وإنما جعله غيري، فقالا: فكيف ترضى به أميناً للأمة من بعدك؟ فقال رحمه الله: أنظراني ثلاثة، لكنه ما لبث أن رحل إلى جوار ربه راضياً مرضياً. وقد قيل: إن بني أمية قد دسوا له السم فقتلوه مخافة أن يخرج الأمر من أيديهم ويمنعهم الأموال ويصدهم عن اللذات والخيرات. فإنا لله وإنا إليه راجعون!

وكان رضي الله عنه يبغض يزيد بن المهلب وأهل بيته لكونهم جبابرة

وهو لا يحب هذه الأمثال، وقد طالب عمر يزيد بما عنده من أموال فيردها إلى خزينة المسلمين، فلما حاول يزيد التملص ولم يجب، أمر عمر بسجنه، فظلّ رهين السجن حتى مرض عمر مرضه الذي مات فيه، فهرب يزيد من السجن حال مرض عمر رحمه الله.

وفي هذه السنة عزل عمر، الجراح بن عبدالله الحكمي عن إمرة خراسان، وقد عزله لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار، وكان يقول لهم: إنما تسلمون فراراً منها (الجزية). وبذلك امتنعوا من الدخول في الإسلام وثبتوا على دينهم في الكفر وأدُّوا الجزية، فكتب إليه عمر بن عبدالعزيز يزجره ويؤنبه: إن الله إنما بعث محمداً ﷺ داعياً ولم يبعثه جابياً، ثم عزله وولى مكانه عبدالرحمٰن بن نعيم القشيري على الحرب، وعبدالرحمٰن بن عبدالله على الخراج. ثم كتب إلى عماله يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر ويخوفهم بأس الله وانتقامه، وكان مما كتب إلى عبدالرحمٰن القشيري: أما بعد، فكن عبداً لله في عباده، ولا تأخذك في الله لومة لائم، فإن الله أولى بك من الناس، وحقه عليك أعظم، ولا تولين شيئاً من أمور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم.

ظهور دعوة بني العباس:

كان محمد بن علي بن عبدالله بن عباس يقيم بأرض الشراة، وقد بعث من جهته بعوثاً إلى العراق وخراسان وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته بني العباس، ثم قفلوا راجعين ومعهم كتب ممن استجاب لهم، ففرح محمد بن علي بذلك واستبشر مما كان يلوح له من علامات الضعف والوهن التي أصابت بني أمية، لا سيما بعد وفاة عمر بن عبدالعزيز الذي لم يحج في زمن خلافته لانشغاله بأمور المسلمين. وكان رحمه الله يبعث البريد[1] إلى المدينة فيقول له: سلم على رسول الله ﷺ.

وفي سنة إحدى ومائة، هرب يزيد بن المهلب من السجن حين علم

(١) البريد: الرسول، انظر: القاموس المحيط ج٢ ص٢٨٧.

بمرض أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز، وكتب إلى عمر: إني والله ما خرجت من سجنك إلا حين بلغني مرضك، ولو رجوت حياتك ما خرجت، ولكني خشيت من يزيد بن عبدالملك فإنه توعّدني بالقتل.

وقد توفي هذا الخليفة الراشد العادل يوم الأربعاء لخمس بقين من رجب من هذه السنة، عن تسع وثلاثين سنة وعدة أشهر، وقيل: جاوز الأربعين بأشهر، وكانت مدة خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وكان رضي الله عنه في عِداد الأبرار الأطهار من المؤمنين، بما تجلى فيه من صفات الزهد والورع والبر والقسط بين الناس. فقد كان رحمه الله إماماً عادلاً، وتقياً نقياً زاهداً، وبراً مقسطاً كريماً، لا يخشى في الله لومة لائم، حتى جاءه الأجل المحتوم الذي لا يستبقي أحداً في العالمين، فرحل إلى جوار ربه ملتحقاً بمواكب الصديقين الصالحين الأخيار.

نبذة عن حياة عمر بن عبدالعزيز:

هو عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم القرشي الأموي، وأمه ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

وقد كان عمر بن عبدالعزيز تابعياً جليلاً، فروى عن أنس بن مالك وغيره من الصحابة، وروى عن الكثير من التابعين، وقد بويع له بالخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبدالملك عن عهد له منه بذلك، وهو ما بيناه آنفاً، وكان مولده سنة إحدى وستين، وقد نشأ براً تقياً جانحاً للزهد وراغباً في التزود من زاد العلم. وقد سأل أباه ـ وهو والي مصر إذ ذاك ـ أن يخرجه من مصر إلى المدينة ليقعد إلى فقهائها ويتأدب بآدابهم، فأجابه أبوه لما يبتغي وأرسله إلى المدينة، فجالس هنالك مشايخ قريش وجانب شبابهم، ولما مات أبوه أخذه عمه عبدالملك بن مروان فجعله مع ولده، وكان يقدمه على كثير منهم، وزوّجه بابنته فاطمة وهي التي وصفها الشاعر بما هي جديرة به من كريم الوصف:

بنت الخليفة والخليفةُ جدُّها   أختُ الخلائف والخليفةُ زوجُها

ولما مات عمه الخليفة عبدالملك بن مروان حزن عليه عمر بن عبدالعزيز حزناً شديداً. وقد عامله الوليد أثناء خلافته بمثل ما عامله أبوه عبدالملك، وولاه المدينة ومكة والطائف مدة سبع سنين، وقد بنى في مدة ولايته هذه مسجد النبي ﷺ ووسعه عن أمر الوليد له بذلك فأدخل فيه قبر النبي ﷺ.

وقد كان رضي الله عنه من أحسن الناس أخلاقاً، وأفضلهم سيرة، وقد أوى إليه الكثير من الفقهاء وأهل العلم فلا يقطع أمراً إلا عقب مشاورتهم، مما يدل على تشبثه بالعلم وحبه لأهله. لا جرم أن عمر بن عبدالعزيز قمين أن يكون في طليعة العلماء الراسخين في علوم هذا الدين الواسع المتين.

وكانت تتوارد في شأنه الأخبار والآثار مما يشي بعلو منزلته في هذه الدنيا التي يلي فيها أمر المسلمين، فيملأ الأرض عدلاً وعلماً وخيراً. فقد روى البيهقي وأبو عيسى الترمذي عن نافع قال: بلغنا أن عمر بن الخطاب قال: إن من ولدي رجلاً بوجهه شجان يلي فيملأ الأرض عدلاً.

وقال نافع: ولا أحسبه إلا عمر بن عبدالعزيز، وكان رضي الله عنه يدعى الأشجّ، وسبب ذلك أنه كان قد دخل في صغره إلى إصطبل أبيه فضربه فرس فشجّه، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك إذاً لسعيد.

ولما ولي عمر بن عبدالعزيز صعد المنبر وكان أول خطبة خطبها، أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا، يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي إليه، ولا يتغابن عندنا أحداً، ولا يعرضن فيما لا يعنيه. فتفرق عنه الشعراء والخطباء، وثبت معه الفقهاء والزهّاد.

وعن عمرو بن مهاجر قال: لما استخلف عمر بن عبدالعزيز، قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد ﷺ، وإني لست بقاض ولكني منفذ، وإني لست

بمبتدع ولكن متبع، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم؟ إلا أن الإمام الظالم هو العاصي، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا هل أسمعت.

وقد شهد أهل الفضل من أئمة العلم لهذا الخليفة الجليل بالخير وصالح العمل، فقد روى الإمام أحمد عن وهب بن منبه أنه قال: إن كان في هذه الأمة مهدي فهو عمر بن عبدالعزيز، ونحو هذا قال قتادة وسعيد بن المسيب وغيره.

وعن سفيان الثوري قال: الخلفاء خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبدالعزيز. وروي مثل ذلك عن الإمام الشافعي وغيره من أهل العلم، وأجمع عامة أهل العلم على أن عمر بن عبدالعزيز من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين.

وقد جهد هذا الإمام الراشد في مدة خلافته في رد المظالم وأداء الحقوق إلى أهلها بالرغم من قصر مدته في الحكم، وكان مناديه ينادي في الناس كل يوم ويقول: أين الغارمون (المدينون)؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى أغنى كلاً من هؤلاء، فكان عمر بذلك مثالاً تحتذيه الأجيال عبر السنين في الفضيلة والاستقامة والزهد والرحمة بالخلق.

وقد اختلف العلماء في أيهما الأفضل: عمر بن عبدالعزيز أو معاوية بن أبي سفيان، فذهب بعض العلماء إلى أن عمر بن عبدالعزيز أفضل وذلك لعظيم سيرته في العدل والزهد والتقوى، وذهب آخرون إلى أن معاوية أفضل لسابقته في الإسلام ولشرف صحبته لرسول الله ﷺ.

ومن محاسن سيرته العطرة في رهافة الوازع وتأجج الخوف من الله والحرص على مصالح المسلمين، أن زوجته فاطمة دخلت عليه يوماً فقالت: ما لك؟ فقال: ويحك يا فاطمة، قد وُلِّيت من أمر هذه الأمة ما وُلِّيت، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب والأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير، والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض

فعلمت أن ربي عز وجل سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ فخشيت أن لا يلبث لي حجة عند خصومته فرحمت نفسي فبكيت.

ومن عجائب السيرة لهذا الرجل العجيب أنه كان له سراجان، سراج يكتب عليه حوائجه، وسراج لبيت المال يكتب عليه مصالح المسلمين فلا يكتب على ضوئه لنفسه حرفاً.

إن ذلكم وايم الله لذروة المعالي والهمم، وغاية المنازل في درجات العزائم والأقدار التي يبلغها أناسي قلة من أعاظم المتقين البررة، كعمر بن عبدالعزيز.

قال عمر لرجل من جلسائه مرة: لقد أرقت الليلة مفكراً، فقال: وفيمَ يا أمير المؤمنين؟ قال: في القبر وساكنه، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث في قبره، وما صار إليه، لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك بناحيته، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام، وتخترق فيه الديدان، ويجري فيه الصديد مع تغير الريح، وبِلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح، ونقاء الثوب.

وقالت امرأته فاطمة: ما رأيت أحداً أكثر صلاة وصياماً منه، ولا أحداً أشد فَرَقاً (خوفاً) من ربه منه. وكان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه. ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينفض كما ينتفض العصفور في الماء، ويجلس يبكي، فأطرح عليه اللحاف رحمة له، وأنا أقول: يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بُعد المشرقين، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها.

قال مسلمة بن عبدالملك: دخلت على عمر في مرضه فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لفاطمة: ألا تغسلوا قميص أمير المؤمنين؟ فقالت: والله ما له قميص غيره، وبكى فبكت فاطمة وبكى أهل الدار، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء. فلما انجلت عنهم العبرة قالت فاطمة: ما أبكاك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني ذكرت منصرف الخلائق من بين يدي الله، فريق

ي الجنة، وفريق في السعير، ثم صرخ وغشي عليه.

وكثير غير ذلك من الأعاجيب مما حوته سيرة هذا الخليفة الراشد العجيب، أخلاقه الفضلى وخصاله الحميدة العظمى في الزهد والعدل والعزوف عن حطام الدنيا ومباهج الحياة وزينتها، لا جرم أن قدوته المثلى في ذلك لهو رسول الله ﷺ إمام الأتقياء والأبرار والزاهدين في العالمين.

إن حياة هذا الخليفة الراشد جديرة بعظيم الاعتبار، كيما تكون لولاة الأمور والساسة والقادة خير درس في العزيمة وطول الصبر والقيام المستديم على دين الله في ثبات مكين لا ينقطع، واستعصام وثيق لا ينقشع.

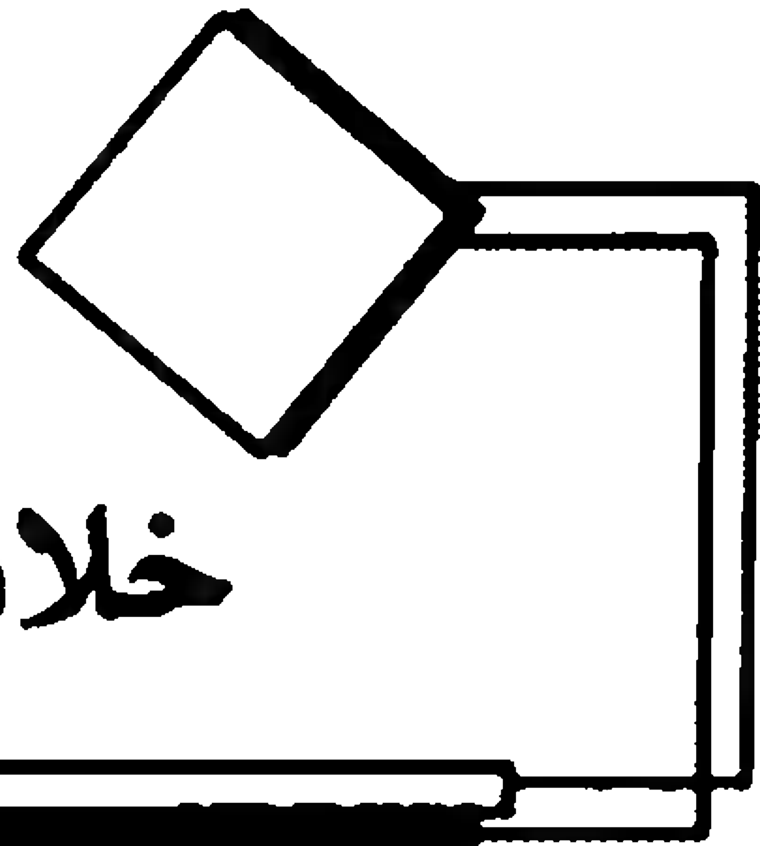
أولئك هم أعاظم الرجال من خيار البشرية الذين صنعهم الإسلام ويصنع غيرهم من مختلف الأمم والشعوب والأجيال، إن مضوا على هذا المنهج القويم دون غيره من مناهج الضلال والباطل.

لا جرم أن الإسلام وحده لهو الذي يصنع الكرام من فضلاء البشرية وأئمتها في كل معاني الخير والبر والفضيلة كعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وأرضاه[1].



---

(1) البداية والنهاية لابن كثير ج٩ ص١٦٦ ـ ٢١٨.



الفصل الثامن
خلافة يزيد بن عبدالملك

بينّا سابقاً أنه قد بويع ليزيد بن عبدالملك بعهد من أخيه سليمان بن عبدالملك من بعد عمر بن عبدالعزيز، ولما توفي عمر بن عبدالعزيز بايع الناس يزيد وكان عمره حينئذ تسعاً وعشرين سنة.

وفي هذه السنة حصلت وقعة بين الخوارج أصحاب الخارجي بسطام، وبين جند الكوفة وهم جيش كثيف بلغ عشرة آلاف فارس، فشدّ عليهم جيش الكوفة حتى قتلوا الخوارج عن آخرهم.

وفي هذه السنة وهي إحدى ومائة، خرج يزيد بن المهلب فخلع يزيد بن عبدالملك، وأعلن سلطته على البصرة وذلك عقب قتال شديد، فاستقر أمره فيها وبسط العدل في أهلها.

فلما علم الخليفة يزيد بن عبدالملك بأمر يزيد بن المهلب جهز ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبدالملك في أربعة آلاف مقاتل، وأمرهم بالمسير إلى البصرة لقتال ابن المهلب.

ثم دخلت سنة ثنتين ومائة للهجرة، فركب يزيد بن المهلب في جيش كثيف وسار به من واسط للقاء جيش الشام بقيادة مسلمة بن عبدالملك، فاقتتل الجمعان اقتتالاً شديداً فكان النصر لأهل البصرة في بادىء الأمر، ثم تحامل أهل الشام على جنود البصرة، وأعادوا الكرّة عليهم فهزموهم شر هزيمة وقتلوا يزيد بن المهلب وقتلوا معه أخاه محمد بن المهلب وآخرين كثيرين.

وقد توفي الخليفة يزيد بن عبدالملك عن ثلاث وثلاثين سنة، وقيل: أكثر ببضع سنوات، وكانت خلافته أربع سنين وشهراً، وقيل: مات بالجولان، وقيل: بحوران، وصلى عليه ابنه الوليد بن يزيد وعمره حينئذ خمس عشرة سنة، وقيل: صلّى عليه أخوه هشام بن عبدالملك وهو الخليفة من بعده. وقد دفن بدمشق، وكان قد عهد بالأمر من بعده لأخيه هشام ومن بعده لولده الوليد بن يزيد، وعقب وفاته بايع الناس هشاماً.



الفصل التاسع

خلافة هشام بن عبدالملك بن مروان

بويع هشام بن عبدالملك عقب موت أخيه يزيد سنة خمس ومائة، وكان عمر هشام إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة وعدة أشهر.

ولما أتاه الخبر بالخلافة ركب من الرصافة حتى أتى دمشق، فاضطلع بأمر الخلافة خير اضطلاع، وفي هذه السنة قويت دعوة العباسيين في السر بأرض العراق.

وفي سنة ست ومائة، غزا المسلمون بلاد الترك وأوغلوا في بلاد الخزر فصالحوا وأدوا الجزية والخراج.

وفي هذه السنة توفي سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، وكان من الزاهدين العبّاد. وكذلك توفي طاوس بن كيسان اليماني، وهو من أكبر أصحاب ابن عباس، وهو أول طبقة التابعين من اليمن وهو من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن، وقد أدرك طاوس خمسين من الصحابة وروى عنهم، وأكثر رواياته عن ابن عباس، وروى عنه كثير من التابعين. وكان رحمه الله علماً من أعلام المسلمين، وقد اجتمعت له خصال عظيمة في العبادة والعلم والزهد وصالح العمل، وتوفي بمكة حاجاً، وصلى عليه الخليفة هشام بن عبدالملك، وقد دفن بها رحمه الله تعالى.

وفي سنة سبع ومائة، خرج باليمن عباد الرعيني فدعا إلى مذهب الخوارج وتبعه فريق من الناس، فقاتلهم أمير المؤمنين وقتلهم، وكانوا

ثلاثمائة. وفيها غزا المسلمون في البحر إلى قبرص، وكان على جيش أهل الشام من المسلمين ميمون بن مهران. وفيها نكَّل الأمويون بجماعة من دعاة بني العباس في خراسان وأبادوهم. إلى غير ذلك من وجوه الغزو في جبال نمروذ وهراة.

وتوفي في هذه السنة سليمان بن يسار أحد التابعين، وكان من أبرز العابدين المتقين. وتوفي كذلك عكرمة مولى ابن عباس وهو أحد التابعين والمفسرين والعلماء الربانيين، والرحالين الجوالين، فقد طاف البلاد ودخل إفريقية واليمن والشام والعراق وخراسان يدعو إلى دين الله وينشر علوم الإسلام في طول البلاد وعرضها.

قال سفيان الثوري: خذوا المناسك عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة. وقال أيضاً: خذوا التفسير عن أربعة: سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك.

وفي سنة ثمان ومائة، فتح المسلمون قيسارية من بلاد الروم، وكان قائد جيش المسلمين مسلمة بن عبدالملك. وفيها هَزَم أسيد بن عبدالله القسري أمير خراسان الأتراك وكسرهم شر كسرة. وفيها غزا المسلمون بقيادة معاوية بن هشام بن عبدالملك أرض الروم.

وفي سنة عشر ومائة، قاتل المسلمون خاقان ملك الترك فهزمه الله، وكان على جيش المسلمين مسلمة بن عبدالملك.

وفي هذه السنة دعا حاكم خراسان أهل الذمة بسمرقند ـ وهي وراء النهر ـ إلى الدخول في الإسلام ويضع عنهم الجزية، فأجابوه إلى ذلك وأسلم غالبهم وطالبهم بالجزية فرفضوا ونصبوا له القتال، ثم كانت بينه وبين الترك حروب كثيرة.

وقد توفي في هذه السنة فريق من أعيان العظماء، منهم الشاعر جرير، والشاعر الفرزدق.

ومنهم هذا العَلَم الأشم، والإمام العالم، محمد بن سيرين، وهو

مولى أنس بن مالك النضري، كان أبوه في جملة من أسرهم خالد بن الوليد، فاشتراه أنس ثم كاتبه، وكان رحمه الله مثالاً في العلم والورع وحسن الخلق، فضلاً عما أوتيه من نباهة الذهن وسعة البصيرة، فكان ذا علم بتأويل الأحلام. ومن أمثلة ذلك أن رجلاً سأله: رأيت كأني أصب الزيت في الزيتون، فقال له: فتش عن امرأتك فإنها أمك، ففتش فإذا هي أمه، وبيان ذلك أن هذا الرجل كان قد أُخذ من بلاده صغيراً سبياً، ثم مكث في بلاد الإسلام حتى كبر، ثم سبيت أمه فاشتراها جاهلاً أنها أمه، فوجد الأمر على ما ذكره ابن سيرين.

وسأله آخر: رأيت كأني وطئت تمرة فخرجت منها فأراة، فقال له: تتزوج امرأة صالحة تلد بنتاً فاسقة، فكان كما قال. وسأله آخر: رأيت كأن على سطح بيتي حبات شعير فجاء ديك فلقطها، فقال له: إن سرق لك شيء في هذه الأيام فأتني، فوضعوا بساطاً على سطحهم فسرق، فجاء إليه فأخبره، فقال: اذهب إلى مؤذن محلتك فخذه منه، فجاء إلى المؤذن فأخذ البساط منه.

وسأله رجل آخر: رأيت الحمام تلقط الياسمين، فقال: مات علماء البصرة. وأتاه رجل فقال: رأيت رجلاً عرياناً واقفاً على مزبلة وبيده طنبور يضرب به، فقال له ابن سيرين: لا تصلح هذه الرؤيا في زماننا هذا إلا للحسن البصري، فقال: الحسن هو والله الذي رأيت، فقال: نعم، لأن المزبلة الدنيا وقد جعلها تحت رجليه، وعُريه تجرُّده عنها، والطنبور يضرب به هي المواعظ التي يقرع بها آذان الناس.

وقال له رجل آخر: رأيت كأني أستاك والدم يسيل، فقال له: أنت رجل تقع في أعراض الناس وتأكل لحومهم.

وجاءته امرأة فقالت: رأيت كأن سنُّوراً أدخل رأسه في بطن زوجي فأخذ منه قطعة، فقال لها ابن سيرين: سرق لزوجك ثلاثمائة درهم وستة عشر درهماً. فقالت: صدقت، من أين أخذته؟ فقال: من هجاء حروفه، وهي حساب الجمل فالسين ستون، والنون خمسون، والواو ستة، والراء مائتان، وذلك ثلاثمائة وستة عشر.

وغير ذلك من الرؤى مما أوّله ابن سيرين كثير.

ومات في هذه السنة كذلك وهب بن منبه اليماني، وهو من التابعين الأجلاء، وهو ذو علم بكتب الأولين، وهو في ذلك يشبه كعب الأحبار، وهو من أهل الصلاح والعبادة، وقد رُوي عنه كثير من الحكم والمواعظ والأقوال الحسنة، توفي في صنعاء سنة عشر ومائة[1].

ثم تمر السنون وتتوالى الأحداث وتمضي قوافل العساكر من المسلمين السابقين، وهم يجوبون مختلف الأقطار والبلدان، حاملين معهم كتاب الله داعين الناس إلى الإسلام، منددين بالباطل والضلالات التي استحوذت على أذهان البشرية في غالب أحوالها، وكثيراً ما اضطر المسلمون للقاء المشركين المغفلين فناجزوهم قتالاً لا مفر منه، وذلك هو شأن المسلمين وهم يمضون في الأرض يبتغون أن يشيع الإسلام في العالمين فتتحرر البشرية من ربقة الباطل والظلم وتتبدد عن واقع المجتمعات ظلمات الشر والرذيلة وعبادة العباد، فلا مناص حينئذ من التلبس بقوة السلاح في كثير من الأحيان التي لا ينصاع فيها الظالمون والغاشمون والسادرون في الباطل، إلى صوت العقل ورسالة الحق والمنطق، وحينئذ لا مندوحة عن القتال ومجاهدة الشرك والمشركين مما يفضي بالضرورة إلى الخسائر الفادحة والمضنية في الأموال والأرواح.

وفي سنة ثلاث عشرة ومائة، غزا المسلمون الروم من ناحية تسمى مرعش، وتوغل مسلمة بن عبدالملك في بلاد الترك فقتل منهم خلقاً كثيراً. وفي هذه السنة سار جماعة من دعاة بني العباس إلى خراسان وانتشروا فيها.

وقد توفي في هذه السنة مكحول الشامي، وهو من أجلاء التابعين، وكان رحمه الله إمام أهل الشام، وقيل: إنه طاف الأرض كلها في طلب العلم، وقال الزهري: العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالحجاز، والحسن البصري بالبصرة، والشعبي بالكوفة، ومكحول بالشام.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٩ ص٢١٩ ـ ٢٧٦.

وفي سنة أربع عشرة ومائة، توفي عطاء بن أبي رباح الفهري، وهو أحد كبار التابعين الثقات، وكان رحمه الله ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث، وقد حجّ سبعين حجة وعمره مائة سنة، وكان في آخر عمره يفطر في رمضان من الكبر والضعف ويفدي عن إفطاره تأويلاً لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٤].

وفي سنة خمس عشرة ومائة، توفي من أعيان الرجلاء وأجلائهم أبو جعفر الباقر، وهو محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبو جعفر الباقر، وهو تابعي جليل وأحد أعلام هذه الأمة العاملين الموغلين في علوم الدين.

على أن هذا الإمام العظيم تدّعي فيه طائفة الشيعة أنه أحد الأئمة الاثني عشر، وهو في الحقيقة على السنة وطريق السلف من الصحابة والتابعين المهديين، وكان رحمه الله ممن يقدم أبا بكر وعمر، وقد قال: ما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما رضي الله عنهما، وقد روى عنه جماعة من كبار التابعين وغيرهم، فممن روى عنه ابنه جعفر الصادق والأعمش والأوزاعي وعطاء والزهري وغيرهم، وقد توفي عن سبعين سنة رحمه الله.

وفي سنة ثنتين وعشرين ومائة، قتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وسبب مقتله أنه لما أخذ البيعة من الذين بايعوه من أهل الكوفة أمرهم بالتأهب للخروج، والاستعداد لذلك، ولما سمعت الشيعة بذلك اجتمعوا عند زيد بن علي وسألوه عن رأيه في الشيخين أبي بكر وعمر، فقال: غفر الله لهما، ما سمعت أحداً من أهل بيتي تبرأ منهما وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً، فقالوا: فلمَ تطلب إذاً بدم أهل البيت؟ فقال: كنا أحق الناس بهذا الأمر ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً فقد حكموا وعدلوا، وعملوا بالكتاب والسنة، قالوا: لمَ تقاتل هؤلاء إذاً؟ قال: إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم، وإني أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإحياء السنن وإماتة البدع، فإن تسمعوا

يكن خيراً لي ولكم، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل، فرفضوه وانصرفوا عنه ونقضوا بيعته، ومن أجل ذلك سُموا الرافضة من يومئذٍ، أما من تابعه على قوله فسُموا الزيدية.

ثم إن زيداً عزم على الخروج بمن بقي معه من أصحابه، فخرجوا ليلة الأربعاء في برد شديد وأوقد أصحابه النيران، ونادوا: يا منصور، يا منصور، حتى إذا طلع الفجر لم يجد من حوله إلا القليل، ومع ذلك عزم زيد على الخروج والاستعداد للمواجهة حتى سار إليه الأمويون في جيش الشام فوقعت مناجزات كثيرة واقتتل الفريقان أكثر من مرة، حتى إذا كان الليل أصاب زيداً سهم في رأسه فبلغ دماغه مما أفضى إلى وفاته رحمه الله، فضعف أصحابه ووهنوا ثم تفرقوا مهزومين.

أما ما نسب إلى خصومه من إخراجه من قبره ليصلب على خشبة على الملأ، فذلك مما لا تطمئن إليه النفس، وما ينبغي لذي لُبّ حريص أن يثق بمثل هذه الروايات.

وفي سنة أربع وعشرين ومائة، غزا سليمان بن هشام بن عبدالملك بلاد الروم فالتقى هنالك إليون ملك الروم فقاتله هذا، فسلم سليمان وعاد غانماً.

وفي هذه السنة جاءت طائفة من دعاة بني العباس من خراسان متوجهين نحو مكة مروراً بالكوفة، حيث اجتمعوا ببعض الناس ودعوهم إلى البيعة لبني العباس.

وقد توفي في هذه السنة علم من أعلام العلم وهو: الزهري، واسمه محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب القرشي الزهري، وهو تابعي جليل وواحد من أئمة الإسلام، وقد ولد سنة ثمانٍ وخمسين للهجرة وذلك آخر خلافة معاوية، وقد جالس سعيد بن المسيب ثماني سنوات، وكان يدور على مشايخ الحديث ومعه ألواح يكتب فيها كل ما يسمعه منهم من حديث أو علم حتى صار من أعلم الناس.

قال الليث رحمه الله: ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب.

وتوفي في هذه السنة، الجعد بن درهم، وهو أول من قال بخلْق القرآن، وهو الذي يُنسب إليه مروان الجعدي وهو مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية، وقد كان شيخه الجعد بن درهم، وهو أصله من خراسان، وقد سكن دمشق وكانت له بها دار إلى جانب الكنيسة، أما الأصل في بدعة الجعد هذه فمردها إلى يهودي باليمن.

وقد أخذ عن الجعد، الجهم بن صفوان الخزري، ثم قتل الجهم بأصبهان، وقيل: بمرو، قتله سَلَم بن أحوز، وهو بذلك مأجور رحمه الله.

أما الجعد فقد أقام بدمشق ثم اجترأ على القول بخلْق القرآن، فبعث إليه بنو أمية ليقبضوا عليه فهرب منهم إلى الكوفة حيث لقي مصرعه على يد خالد بن عبدالله القسري، وذلك في يوم عيد الأضحى، فقد خطب خالد الناس فقال في خطبته هذه: أيها الناس ضحوا يقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم الذي زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، ثم قتله.

وفي سنة خمس وعشرين ومائة، توفي الخليفة هشام بن عبدالملك بن مروان رحمه الله، وهو هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص، أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي، خليفة المسلمين.

وقد بويع لهشام بالخلافة بعد أخيه يزيد بن عبدالملك، وذلك بعهد منه إليه، وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة، وكان رحمه الله حازماً جاداً شديد الحرص على أموال المسلمين، وكان ذا حلم وأناة، إذ يعفو عن المسيء ويتجاوز عمن يمسه بإساءة، وكان رحمه الله شديد النفور من سفك الدماء، وقد وجد أشد الوجد لمقتل زيد بن علي وابنه يحيى، وقال: وددت أني افتديتهما بجميع ما أملك.

وكانت وفاته بالرصافة يوم الأربعاء سنة خمس وعشرين ومائة وهو ابن بضع وخمسين سنة، وقيل: إنه جاوز الستين، وقد صلى عليه الوليد بن يزيد بن عبدالملك الذي صار خليفة من بعده، وقد لبث هشام في الخلافة مدة تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأحد عشر يوماً.

وبعد وفاة هشام بن عبدالملك اضطرب أمر بني أمية ودبّ فيهم دبيب الوهن، وأدبرت من سمائهم صولة الجهاد في سبيل الله، وما زال بنو أمية على حالهم من الضعف وفتور البأس بعد هشام حتى خرج عليهم بنو العباس فانتزعوا منهم السيادة والملك وقتلوا كثيراً منهم[1]:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان



(١) البداية والنهاية لابن كثير ج٩ ص٢٧٧ - ٣٥٤.

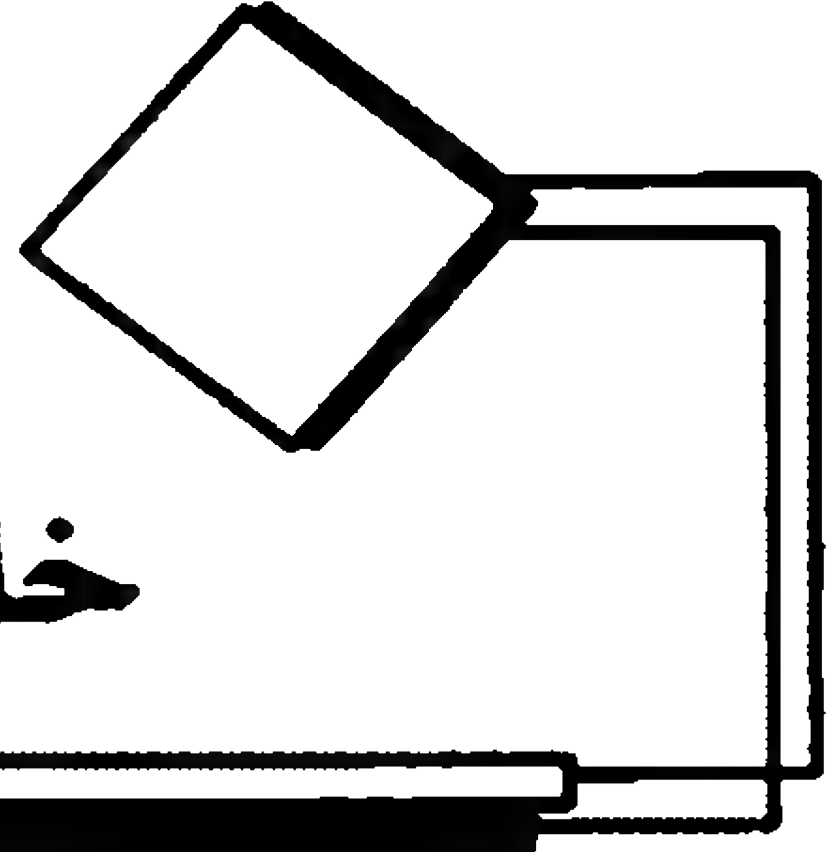
الفصل العاشر
خلافة الوليد بن يزيد بن عبدالملك

بويع الوليد بالخلافة عقب وفاة عمه هشام بن عبدالملك، وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة، ولما ولي الخلافة هشام كانت قد ظهرت على ولي عهده الوليد هذا بوادر الفساد وسوء الخلق، إذ كان مستغرقاً في مجالس اللهو والفواحش، سادراً في مخالطة أهل السوء، وكان الإمام الزهري رحمه الله يحض الخليفة هشام بن عبدالملك على خلع الوليد لسوء خلقه وفساد سيرته، ويحجم هشام عن ذلك خشية الفضيحة والفتنة بين الأجناد والناس، فلم يخلعه.

وبذلك استقر أمر الوليد واستوثقت له الممالك في المشارق والمغرب وأخذ البيعة لولديه من بعده من الناس، وفي ذلك كله كان الوليد سادراً في المعاصي واللهو والشراب فكرهه الناس ونفروا منه كثيراً، ثم قتل سنة ست وعشرين ومائة، وإنما قتل لفسقه واستخفافه ولهوه، وقيل: اتُّهم بالزندقة فقتل من أجل ذلك، مما أفضى إلى وقوع فتنة عظيمة بين الناس.

روى الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب قال: ولد لأخي أم سلمة زوج النبي ﷺ غلام فسموه الوليد فقال النبي ﷺ: **«سميتموه باسم فراعينكم، ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له: الوليد لهو أشد فساداً لهذه الأمة من فرعون لقومه»**، قال البيهقي عنه: إنه مرسل حسن.

ثم تمالأ عليه فريق من أنصار يزيد بن الوليد الذي ألَّب على قتله لفسقه ومجونه أو لزندقته فقتلوه، وبذلك استوثق الأمر ليزيد بن الوليد وبايعه كثير من الناس.



الفصل الحادي عشر
خلافة يزيد بن الوليد

هو يزيد بن الوليد بن عبدالملك بن مروان، الملقب بالناقص وذلك لإنقاصه الناس من أعطياتهم مما كان زادهم إياه الوليد بن يزيد، وقد بويع بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد، وكان في يزيد هذا، صلاح وورع قبل ذلك.

وكان يقال في المثل: الأشج والناقص، أما الأشج ويراد به عمر بن عبدالعزيز وقد بيّنا ذلك سابقاً، وأما الناقص فهذا يزيد لأن أول عمل فعله انتقاصه من أرزاق الجند ما كان الوليد زادهم.

ولم تطل أيام يزيد هذا في خلافة المسلمين، بل إنه توفي من آخر هذه السنة إذ اضطربت عليه الأمور وزادت الفتن.

وكان يزيد بن الوليد قد خطب الناس بدمشق خطبة جاء فيها قوله بعدما حمد الله وأثنى عليه: أما بعد... أيها الناس أما والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا ولا رغبة في الملك، وما بي إطراء نفسي إني لظلوم لنفسي، إن لم يرحمني ربي فإني هالك، ولكني خرجت غضباً لله ولرسوله ولدينه وداعياً إلى الله وكتابه وسنة نبيه محمد ﷺ، لما هُدمت معالم الدين، وأطفىء نور أهل التقوى، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة، والراكب كل بدعة، مع أنه والله ما كان مصدقاً بالكتاب ولا مؤمناً بيوم الحساب، وإنه لابن عمي في النسب وكفوي في الحسب، فلما

رأيت ذلك استخرت الله في أمره، وسألته أن لا يكلني إلى نفسي، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهل ولايتي وسعيت فيه حتى أراح الله منه العباد والبلاد بحول الله وقوته لا بحولي ولا بقوتي.

أيها الناس، إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إنما الطاعة طاعة الله، فمن أطاع الله فأطيعوه ما أطاع الله، فإذا عصى أو دعا إلى معصية فهو أهل أن يُعصى ولا يطاع بل يقتل ويهان، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وفي هذه السنة أخذ يزيد البيعة من الأمراء وغيرهم بولاية العهد من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك، ثم من بعد إبراهيم لعبدالعزيز بن الحجاج بن عبدالملك بن مروان وذلك بسبب مرضه الذي مات فيه، وقد حضه على ذلك جماعة من الأمراء والوزراء.

أما ترجمته فنقول فيها باقتضاب: إنه يزيد بن الوليد بن عبدالملك بن مروان بن الحكم، وقد بويع له بالخلافة في قرية المزَّة من قرى دمشق ثم دخل دمشق فغلب عليها ثم أرسل الجيوش إلى ابن عمه الوليد بن يزيد فقتله، فتمكّن من إمرة الناس من بعده، وكان يلقب بالناقص لأنه نقص الناس ما زادهم إياه الوليد بن يزيد، وقد كان عادلاً محباً للخير مبغضاً للشر راعياً للحرمات غيوراً على مصالح المسلمين، وكان نقش خاتمه: العظمة لله، وقد توفي من طاعون أصابه، وكان عمره إذ ذاك ستاً وأربعين سنة، وقيل: كان في الثلاثين من العمر، وكانت مدة ولايته ستة أشهر، وصلى عليه ولي عهده من بعده أخوه إبراهيم بن الوليد.

تنازع الخلافة بين إبراهيم بن الوليد ومروان بن محمد وزوال مُلك بني امية:

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة وكان خليفة المسلمين فيها إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك بوصية من أخيه يزيد الناقص، وبايعه جميع أهل الشام إلا أهل حمص فلم يبايعوه، فقدم إليها مروان بن محمد الملقب

بالحمار فبايعوه وساروا معه قاصدين دمشق ومعهم جند الجزيرة وجند قنسرين، فتوجه مروان إلى دمشق في ثمانين ألفاً، وبعث إبراهيم بن الوليد بن هشام بن عبدالملك في مائة وعشرين ألفاً، فالتقى الجيشان في أرض البقاع واقتتلوا اقتتالاً شديداً وتحامل بعضهم على بعض بشدة وعنف فكانت الغلبة لجيش مروان.

ثم أقبل مروان بجنوده من أرض البقاع حتى اقترب من دمشق، فهرب عندئذٍ إبراهيم بن الوليد، ووقعت هنالك أحداث من الثارات والفتن التي لا تنبغي للمسلمين الصادقين الذين لا يناجزون في ساعات الحرب والقتال غير المشركين الظالمين المعتدين والذين لا يبتغون بذلك كله إلا مرضاة الله وسعياً لإعلاء راية الإسلام.

ثم بويع لمروان من أهل دمشق وحمص وغيرهم، فاستتب له الأمر في البلاد وبادر في تعيين الأمراء، إذ اختار كل بلد أميراً لهم فولاه عليهم، ثم ما لبث أن ثار عليه أهل حمص وغيرهم فنازلهم مروان في جنود كثيرة ومعه حينئذٍ إبراهيم بن الوليد المخلوع وسليمان بن هشام فهزموهم.

وفي هذه السنة اجتمع فريق من الداعين إلى بني العباس عند إبراهيم بن محمد الإمام ومعهم أبو مسلم الخراساني، لكنهم لم يفلحوا إذ لم ينتظم لهم حال لشدة الفتن المنتشرة حينئذٍ بين الناس، إلى غير ذلك من الأحداث والوقائع واختلاف الفتن.

وفي سنة تسع وعشرين ومائة، اجتمعت الخوارج وتحصنوا بالموصل، فتبعهم مروان بن محمد بجيشه وأخذ يقاتلهم مدة طويلة من الزمن، ثم استنجد مروان بنائبه في العراق يزيد بن عمر بن هبيرة، فبعث إليه بعمار بن صبارة في سبعة آلاف من المقاتلين فساروا لقتال الخوارج حتى هزموهم وفرقوا شملهم.

ثم ما لبث مروان أن قوبل بمن هو أعظم شوكة وأكثر أتباعاً من الخوارج، وذلكم هو ظهور أبي مسلم الخراساني الداعية إلى دولة بني العباس.

ظهور أبي مسلم الخراساني:

في هذه السنة بعث الإمام العباسي إبراهيم بن محمد إلى أبي مسلم الخراساني يطلب منه المدد، فسار إليه في سبعين من النقباء، فكانوا إذا سئلوا إلى أين هم ذاهبون، قالوا: إنما نريد الحج، إلا إذا توسموا فيهم ميلاً إليهم فإنهم حينئذٍ يدعونهم إلى ما يتبعونه وهو الدعوة إلى مبايعة بني العباس.

ثم أمر الإمام العباسي أبا مسلم بالرجوع إلى خراسان وإظهار الدعوة بها من غير تردد ولا تربص، فبعث أبو مسلم دعاته في بلاد خراسان، فظهر أمر أبي مسلم وقصده الناس من كل مكان، ومكث أبو مسلم هنالك اثنين وأربعين يوماً، ففتحت على يديه أقاليم كثيرة ممن أعلن أهلها الطاعة والبيعة لبني العباس.

ثم بعث نصر بن سيار جنداً كثيفاً لقتال أبي مسلم وذلك عقب ظهوره بثمانية شهور، فأرسل إليهم أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعي في جيش لقتالهم فتناجزوا وظفر بهم مالك، وكان هذا أول اقتتال بين جند بني أمية، وجند بني العباس.

ولما فشا أمر أبي مسلم في خراسان، تمالأت طوائف من العرب على قتاله، فتحول أبو مسلم إلى مكان فسيح إذ كثر جنده واشتدت شوكته.

وفي سنة ثلاثين ومائة، دخل أبو مسلم الخراساني مرو، ونزل بها دار الإمارة بعد أن انتزعها من نصر بن سيار أحد الأمراء البارزين لبني أمية، فهرب نصر بن سيار في شرذمة قليلة من الناس إذ كانوا نحواً من ثلاثة آلاف رجل، وقد ترك نصر امرأته وراءه من شدة ما حاق به من الجزع، ثم استفحل أمر أبي مسلم، والتف من حوله الناس واستطار خبر بني العباس.

وفي هذه السنة دخل أبو حمزة الخارجي المدينة واستولى عليها ثلاثة أشهر، وقد خطب على منبر رسول الله ﷺ وخاطب أهل المدينة موبخاً، ثم أقام عندهم ثلاثة شهور.

ورُوي أن أبا حمزة قد رقي منبر رسول الله ﷺ ثم قال: تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من بلادنا بطراً ولا أشراً ولا لدولة نريد أن نخوض فيها النار، وإنما أخرجنا من ديارنا أنا رأينا مصابيح الحق طمست وضعف القائل بالحق، وقتل القائم بالقسط، فلما رأينا ذلك ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمٰن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٢]، وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان يُسْحِتْكم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا، ويشف صدور قوم مؤمنين، يا أهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي، قلتم شباب أحداث وأعراب جفاة أجلاف، ويحكم فهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً أحداثاً، شباباً والله مكتهلون في شبابهم، غضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن السعي في الباطل أقدامهم، قد باعوا الله أنفساً تموت بأنفس لا تموت.

ثم بعث مروان الحمار جيشاً بقيادة عبدالملك بن محمد بن عطية في عسكر من أهل الشام، قد بلغ أربعة آلاف لقتال أبي حمزة الخارجي الذي خرج قاصداً قتال مروان بالشام، فاقتتلوا هنالك حتى كانت الغلبة لجيش بني أمية بقيادة ابن عطية فدخلوا المدينة.

وفي سنة ثنتين وثلاثين ومائة، جاوز قحطبة بن شبيب ومعه الجنود والفرسان، وكان جنود بني أمية يخيمون على فم الفرات مما يلي الفلوجة في جم غفير من الناس، فاقتتل الفريقان فما لبث جند الشام أن ولوا مدبرين.

وفي هذه السنة أخذت البيعة لأبي العباس السفاح وهو عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب، وذلك عقب مقتل أخيه إبراهيم بن محمد الإمام وهو الذي كانت الدعوة له، إذ أرسل أبا مسلم إلى بلاد خراسان ليدعو الناس إلى البيعة له، وهو ما بيّناه سابقاً[1].

---

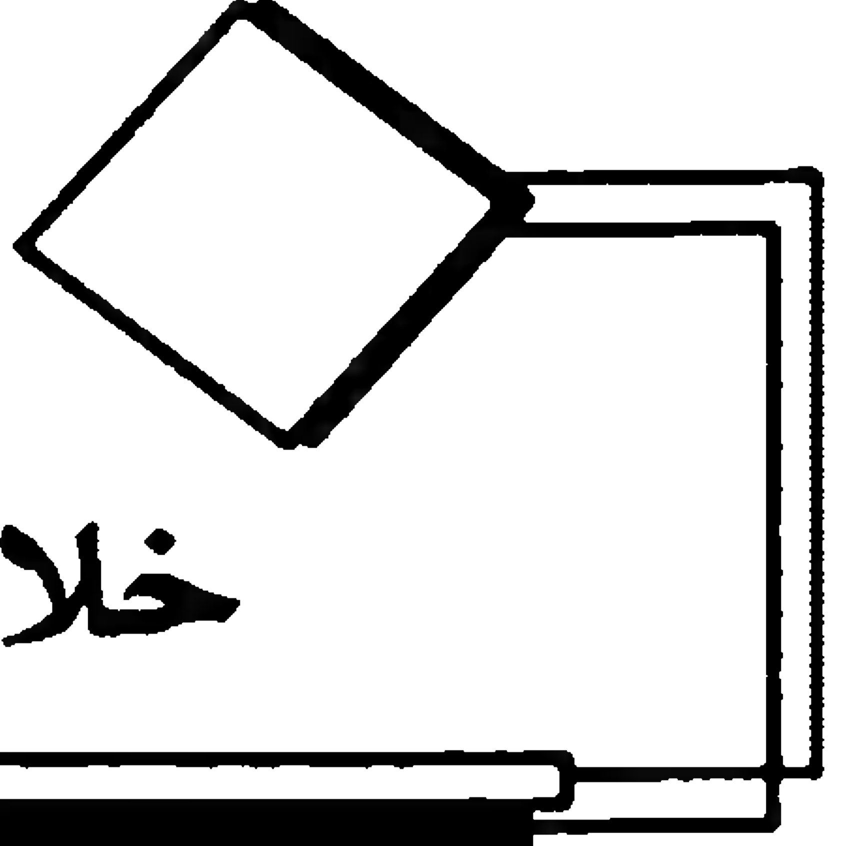
(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص٢ ـ ٤٠، وتاريخ الطبري ج٤ ص٣١٩ ـ ٣٣٩.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب الرابع

الخلافة العباسية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الأول

خلافة أبي العباس السفاح

وهو عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، وقد روي في هذا الصدد عن رسول الله ﷺ أنه أعلم العباس بن عبدالمطلب أنه تؤول الخلافة إلى ولده، فلم يزل ولده يتوقعون ذلك ويتحدثون به بينهم.

وفي تفصيل ذلك نقول: لما بلغ أهل الكوفة مقتل إبراهيم بن محمد أراد أبو سلمة الخلال أن يحوّل الخلافة إلى آل علي بن أبي طالب، فغلبه بقية الأمراء وبادروا إلى مبايعة أبي العباس السفاح وكان ذلك في الكوفة وكان عمره حينئذٍ ستاً وعشرين سنة، وكان أول من بايعه على الخلافة أبو سلمة الخلال، وكان ذلك ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة من ربيع الثاني من هذه السنة، فصعد أبو العباس المنبر وبايعه الناس، ثم خطب فيهم وقال:

الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه ديناً واختاره لنا وأيّده بنا وجعلنا أهله وكهفه والقوام به والذابّين عنه والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها وخصّنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته، ووضعنا بالإسلام وأهله في الموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣]، وقال: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: الآية ٢١٤]، فأعلمهم عز وجل فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وزعمت السبابية الضُلاّل أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة منا، فشاهت وجوههم، أيها الناس

بنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، ونصرهم بعد جهالتهم، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ورفع بنا الخسيسة، وأتم النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دنياهم، فتح الله علينا ذلك منّة ومنحة بمحمد ﷺ، فلما قبضه إليه قام بذلك بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحووا مواريث الأمم فعدلوا فيها، ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها، وخرجوا خماصاً (جياعاً) منها، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها لأنفسهم وتداولوها، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: الآية ٥٥]، فانتزع منهم ما بأيديهم بأيدينا ورد الله علينا حقنا، وتولى أمرنا والقيام بنصرنا ليمنَّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإني لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله.

ثم نهض عمه داود فقال: الحمد لله الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من بيتنا، أيها الناس: الآن انقشعت حنادس الظلمات وأشرقت أرضها وسماؤها، فطلعت شمس الخلافة من مطلعها، ورجع الحق إلى نصابه، إلى أهل نبيكم أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم، تباً تباً لبني أمية وبني مروان، آثروا العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام وظلموا الأنام، وارتكبوا المحارم، وغشُوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد، ومرحوا في أعنة المعاصي، وركضوا في ميادين الغي، جهلاً منهم باستدراج الله، فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث ومُزِّقوا كل ممزق، فبعداً للقوم الظالمين، وأدان الله من مروان، وقد غره بالله الغرور.

أيها الناس: إن أمير المؤمنين ـ نصره الله نصراً عزيزاً ـ إنما قطعه عن الكلام شدة الوعك، فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمٰن، المتوكل على الله، المقتدي بالأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى، ومناهج التقى.

فعجَّ الناس له بالدعاء.

ثم خرج أبو العباس ليعسكر بظاهر الكوفة وقد استخلف عليها عمه داود، ثم نزل المدينة الهاشمية في قصر الإمارة.

مقتل مروان بن محمد:

وهذا آخر خلفاء بني أمية، ذلك أن مروان هذا لما بلغه خبر أبي مسلم الخراساني والذين معه وما جرى في خراسان، سار من حران حتى نزل قريباً من الموصل إلى جانب نهر الزاب من أرض الجزيرة، ولما بلغه أنه قد بويع للسفاح بالكوفة وأن الجنود قد التفوا من حوله، فاجتمع له الأمر في البلاد ـ ساءه ذلك وشق عليه كثيراً ـ فجمع جنوده وتهيأ للقتال، فندب السفاح الناس لقتال جيش مروان فتواجه الصفان للمناجزة، وكان مع مروان يومئذٍ مائة ألف وخمسون ألفاً من المقاتلين، وكان عبدالله بن علي عم عبدالله السفاح، وقائد جيشه، في عشرين ألفاً من المقاتلين، وحرّض كل فريق بعضه بعضاً على قتال الفريق الآخر واشتدت الحماسة بين الفئتين، وجعل أهل الشام، وهم حزب بني أمية، يتأخرون إلى الوراء كأنما يُدفعون دفعاً بالرغم من كثرتهم، وجعل عبدالله يمشي إلى الأمام قدماً وهو يهتف بجنوده صارخاً: يا رب حتى متى نقتل فيك، يا أهل خراسان، يا شارات إبراهيم الإمام، يا محمد، يا منصور.

فاشتدّ القتال بين الفئتين، فما لبث أهل الشام أن لاذوا بالفرار منهزمين، وقد غرق من أهل الشام أكثر ممن قتل، وكان من الغرقى إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك المخلوع، فكتب عبدالله بن علي إلى أبي العباس السفاح بما فتح الله عليه من النصر وما حلّ بجيش مروان من هزيمة، فصلّى السفاحِ ركعتين شكراً لله عز وجل وأغدق في العطاء على العساكر.

ثم أمر السفاح جنوده بالمسير إلى البلدان لتوطيد الحكم وتثبيت النظام لبني العباس، فسار عبدالله بن علي بمن معه من الجنود حتى أتى حمص،

ثم سار إلى بعلبك، ثم منها إلى دمشق فحاصر أهلها عدة أيام، وقيل: إن أهل دمشق اختلفوا فيما بينهم وهم محاصرون فكانوا ما بين عباسيين وأمويين، فاقتتلوا وقتل بعضهم بعضاً.

أما مروان الأموي، فقد باء وجنوده بالهزيمة والفرار لا يلوون على شيء، فمروا بحران ثم اجتازوا إلى قنسرين قاصدين إلى حمص فلم يتبعه من أهلها إلا قليل، ولحقوا به ليقتلوه وينهبوا ما معه، وقالوا: مرعوب مهزوم، فهرب إلى دمشق، ثم اجتازها فراراً إلى الديار المصرية، فأرسل السفاح صالح بن علي في طلبه، فسار صالح في طلبه، وبلغه أن مروان نزل الفيوم ثم سار حتى نزل على النيل ثم سار إلى الصعيد، فسأل جنوداً من جنود مروان ممن أسرهم صالح بن علي فدلوه عليه وإذا به مختبىء في كنيسة أبي صير فدخلوا عليه ليلاً، ثم أحاطوا به وقتلوه، وكان ذلك يوم الخميس لست مضين من ذي الحجة سنة ثنتين وثلاثين ومائة، وكانت مدة خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام، أما عمره حين مقتله فكان أربعين سنة، وقيل: ستاً أو ثماني وخمسين سنة، وقيل غير ذلك.

ذلك هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم القرشي الأموي، أبو عبدالملك أمير المؤمنين، آخر خلفاء بني أمية، بويع له بالخلافة بعد قتل الوليد بن يزيد، وبعد موت يزيد بن الوليد، ثم قدم دمشق وخلع إبراهيم بن الوليد، وقد لقب بالحمار، وهو آخر من ملك من بني أمية، وقد بقي عقب مبايعة السفاح، تسعة أشهر، وكان قد ولي في خلافة هشام كلاً من أذربيجان وأرمينية، والجزيرة. وقد فتح بلاداً كثيرة في سنين كثيرة وكان دأبه الجهاد في سبيل الله لفتح البلاد والحصون وقتال الظالمين، إذ كان شجاعاً مقداماً لولا أن جنوده قد خذلوه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٨]، ذلكم تقدير الله الذي لا يتخلف، إذ كتب لهذه الدولة أن تتداعى وتهوي ويتبدد قادتها وأمراؤها لتنهض على أنقاضهم دولة بني العباس فتمضي جادة قوية وهي تحمل لواء الإسلام للناس وتدعو البشرية في كل أقطارهم وأمصارهم إلى هذا الدين الفذ الذي كتبه للعالمين كيما يظفروا بسعادة هذه الدار حيث المعاش والابتلاء، وليبوؤوا بالنجاة في المعاد، يوم يقوم الأشهاد.

استقرار الخلافة لأبي العباس السفاح:

بعد مقتل آخر خليفة أموي وهو مروان الحمار، استقل أبو العباس السفاح بالخلافة واستقر حكمه على بلاد العراق وخراسان والحجاز والشام والديار المصرية، عدا بلاد الأندلس، فإن سلطانه لم يصل إليها، إذ استحوذ عليها سلطان بني أمية.

وفي هذه السنة خرج على السفاح عدة طوائف منهم أهل قنسرين، وذلك من بعد ما بايعوه على يدي عمه عبدالله بن علي، فلما بلغ عبدالله بن علي ذلك عن أهل قنسرين، سار نحوهم، فلما بلغ دمشق ـ وفيها أهله ومؤيدونه وأعوانه ـ ثم جاوزها منتهياً إلى حمص، قام أهل دمشق فخلعوا السفاح ولبسوا البياض بدلاً من سواد بني العباس، وبذلك تفاقم الأمر على عبدالله بن علي ثم قام إليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، فهزم خصوم السفاح ولاذوا بالفرار حتى لحقوا بتدمر، وعاد أهل قنسرين إلى مبايعة السفاح ورجعوا إلى طاعته، ثم كرّ عبدالله راجعاً إلى دمشق، فلما دنا منها تفرقوا عنها ولم يكن منهم قتال فأمنهم عبدالله ودخلوا في طاعة الإمام.

ثم ولّى السفاح أخاه أبا جعفر المنصور، الجزيرة وأذربيجان وأرمينية، فلم يزل والياً عليها حتى أفضت إليه الخلافة بعد أخيه.

وفي سنة أربع وثلاثين ومائة، بعث من يقاتل الخوارج في عمان وكان بها طائفة منهم فقاتلهم جنود الخليفة وكسروهم وقتلوا أميرهم، وهم من الصفرية وأميرهم الجلندي، وقتلوا من أصحابه وأنصاره عشرة آلاف، وبعد ذلك كتب السفاح إلى قائده يأمره بالرجوع فرجع غانماً منتصراً.

وفي هذه السنة غزا أبو مسلم وغيره من قادة المسلمين كثيراً من بلاد الشرك في بلاد الصين والهند.

وفي هذه السنة مات السفاح وبويع مكانه أخوه المنصور ليكون خليفة للمسلمين.

وذلكم تعريف بالسفاح، فهو عبدالله بن محمد ابن الإمام علي

السجاد بن عبدالله الحبر بن العباس بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي، وقد ولد بأرض الشراه من الشام، فنشأ هنالك، وبويع بالخلافة بعد مقتل أخيه في حياة مروان بالكوفة، وقد توفي بالجدري بالأنبار يوم الأحد في الحادي عشر من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وكان عمره إذ ذاك ثلاثاً وثلاثين سنة، وقيل غير ذلك، وكانت خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر، ودفن في قصر الإمارة في الأنبار(١).

خلافة أبي جعفر المنصور

بويع لأبي جعفر المنصور في هذه السنة وهي ست وثلاثون بعد المائة، وكانت مبايعته في اليوم الذي توفي فيه أخوه العباس، وقد كان أبو جعفر حينئذٍ بمكة، وقد أخذ له البيعة بعد موت أبي العباس، عيسى بن موسى، وكتب إليه يعلمه بموت أخيه أبي العباس، وبالبيعة له، وقد كان والياً على الكوفة عيسى بن موسى، وكان قاضيها ابن أبي ليلى.

وفي سنة سبع وثلاثين بعد المائة، وعقب رجوع أبي جعفر المنصور من الحج بعد موت أخيه السفاح، دخل الكوفة فخطب بأهلها الجمعة وصلى بهم ثم ارتحل إلى الأنبار.

وقد أخذت البيعة لأبي جعفر المنصور من أهل العراق وخراسان، وسائر البلاد باستثناء الشام.

ولما علم عبدالله بن علي ـ عم المنصور ـ بوفاة السفاح، نادى في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع إليه الأمراء والناس فقرأ عليهم وفاة السفاح، ثم قام فيهم خطيباً فذكر أن السفاح قد عهد إليه حين بعثه إلى مروان، أنه إن كسره كان الأمر إليه من بعده، وشهد له بذلك بعض أمراء العراق، فقاموا إليه وبايعوه.

فلما علم المنصور بما كان من عمه عبدالله بن علي، بعث إليه أبا

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٣٤٤ ـ ٣٧٥.

مسلم الخراساني، وقد تحصن عبدالله بحران وأرصد عنده كل ما يحتاج إليه من طعام وسلاح، ثم سار إليه أبو مسلم الخراساني، فالتقى الجيشان، واقتتلوا قتالاً شديداً، فحمل الخراسانيون على أهل الشام وكانت الهزيمة، وانهزم عبدالله بن علي، وغنم أبو مسلم ما كان في معسكرهم، وكتب إلى المنصور يخبره بذلك.

أما عبدالله بن علي فقد تمكن منه أبو جعفر فسجنه، فظل سجيناً مدة سبع سنين ثم سقط عليه البيت الذي هو فيه فمات.

موت أبي مسلم الخراساني:

لما علم أبو مسلم بوفاة السفاح، كتب بذلك إلى أبي جعفر المنصور يعزيه بوفاة أخيه ولم يهنئه بالخلافة، فغضب المنصور من ذلك فضلاً عما كان المنصور يضمره لأبي مسلم من الاستياء ويخفيه له من إرادة السوء إذا أفضت إليه الخلافة.

وحقيقة الأمر في هذه المسألة أن أبا جعفر المنصور كان يخفي في نفسه الخشية من أبي مسلم الخراساني، لقوة شخصيته ودهائه واستقرار أمره في خراسان وشدة طاعة أهلها له، وكثيراً ما كان يتلقى المنصور التحريض من بعض أمرائه إذ ينذرونه خطورة هذا الرجل الذي ربما انتقض عليه فناجزه، فكانوا بذلك يحرضونه على قتله والتخلص منه قبل فوات الأوان.

بعث المنصور إلى أبي مسلم الخراساني بالقدوم إليه فإنه مشتاق إليه، فسره ذلك شديد السرور، وما كان ذلك إلا محض دهاء ومكر، فعجل أبو مسلم السير إلى الخليفة المنصور ليجد هنالك حتفه.

فلما دخل أبو مسلم على المنصور أظهر له هذا الكرامة والتعظيم، ثم اختار له من عيون الحرس أربعة، وأمرهم بقتله، وقال لهم: كونوا من وراء الرواق فإذا صفقت بيدي فاخرجوا عليه فاقتلوه، ثم أقبل أبو مسلم فدخل على الخليفة مبتسماً فأخذ المنصور يعاتبه مما بدر منه من مآخذ وهو يعتذر له عن كل مأخذ، ثم قال له: يا أمير المؤمنين أرجو أن تكون نفسك قد

طابت عليّ، فقال المنصور: أما والله ما زادني هذا إلا غيظاً عليك، ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى فخرج عيون أبي المنصور فضربوه بالسيوف حتى قتلوه، ثم لفوه في عباءة، وأمر بإلقائه في دجلة.

ذلكم هو عبدالله بن مسلم أبو مسلم صاحب دولة بني العباس، ويقال له: أمير بيت رسول الله ﷺ، وقد كان رحمه الله ذا حيلة ورأي وتدبير وحزم، وقد نشأ بالكوفة وكان أبوه قد أوصى به إلى عيسى بن موسى السراج فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنوات، فلما بعثه إبراهيم بن محمد الإمام إلى خراسان قال له: غير اسمك وكنيتك، فتسمى عبدالرحمٰن بن مسلم، واكتنى بأبي مسلم، فقد قيل: كان من ولد بزرجمهر، وكان يكنى أبا إسحق، فسار إلى خراسان وهو ابن سبع عشرة سنة، ثم آل به الحال حتى صارت له خراسان بكليتها وحذافيرها، وكان المنصور دائم الحذر منه وكان يتوجس منه خيفة فأكنّ في نفسه النية بقتله ليأمن كيده، فما لبث أن قتله كما بيّناه آنفاً[(١)].

وفي سنة ثمان وثلاثين بعد المائة، دخل ملك الروم قسطنطين ملطية عنوة فهدم سورها وعفا عن مقاتليها، ثم غزاهم صالح بن علي أمير مصر فبنى ما كان هدم ملك الروم من سور ملطية.

لمحة عن حال الخلافة الأموية في بلاد الأندلس:

وفي هذه السنة كانت خلافة الأمويين بالأندلس على يد عبدالرحمٰن الداخل، وكان هذا قد دخل إلى بلاد المغرب فراراً من عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس، فاجتاز بمن معه من الذين فروا معه بمرو بقوم يقتتلون على عصبية، فبعث إليهم عبدالرحمٰن من يستميلهم إليه، فأجابوا وبايعوه، ثم سار بهم إلى الأندلس واستحوذ عليها وانتزعها من أميرها يوسف بن عبدالرحمٰن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري وقتله.

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٣٧٧ ـ ٣٩٠.

وقد سكن عبدالرحمٰن قرطبة واستمر في خلافته في تلك البلاد مدة أربع وثلاثين سنة وأشهر، ثم ولي من بعده الحكم بن هشام ستاً وعشرين سنة وبعض الأشهر ثم مات.

ثم ولي من بعده ولده عبدالرحمٰن بن الحكم مدة ثلاث وثلاثين سنة ثم مات، ثم ولي من بعده محمد بن عبدالرحمٰن بن الحكم ستاً وعشرين سنة، ثم ولي ابنه المنذر بن محمد، ثم أخوه عبدالله بن محمد بن المنذر، ثم ما لبثت هذه الدولة العتيدة أن زالت عن الوجود بعدما أوغل قادتها وأمراؤها ومترفوها في صنوف الشهوات والملذات مما أذهلهم عن وجيبة الجهاد التي لا يذهل عنها أو يفرط فيها إلا الخائرون الخاسرون الذين لا مندوحة من أن يؤولوا إلى البوار والمذلة والصغار.

وفي سنة إحدى وأربعين بعد المائة، خرجت طائفة يقال لها: الراوندية على الخليفة المنصور، والراوندية أصلهم من خراسان، ويقال: إنهم على رأي أبي مسلم الخراساني، إذ كانوا يقولون بتناسخ الأرواح وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم أبو جعفر المنصور! وقيل: إنهم أتوا يوماً قصر المنصور فأخذوا يطوفون به ويقولون: هذا قصر ربنا! فأرسل المنصور إلى رؤسائهم وحبس منهم مائتين فغضبوا من ذلك، ثم التأموا في جمع من ستمائة وساروا نحو المنصور، فتنادى الناس وجاؤوا من كل ناحية فقاتلوهم وأقبلت الجيوش فالتفوا عليهم من كل ناحية فقتلوهم عن آخرهم، وكان ذلك بالكوفة.

وفي هذه السنة ولّى المنصور ابنه محمداً العهد من بعده ودعاه المهدي ثم ولاه بلاد خراسان وأمره بعد ذلك أن يغزو طبرستان فهزموهم، وكسروا أيضاً ملك الترك واسمه المصمغان.

وفي سنة ثنتين وأربعين بعد المائة، خلع عيينة بن موسى بن كعب نائب السند الخليفة، فجهز إليه الخليفة العساكر وأمّر عليهم عمر بن حفص بن أبي صفرة وولاه السند والهند فقاتله عمر بن حفص وقهره وتسلم منه السند، وكذلك نكث أمير طبرستان العهد الذي كان بينه وبين المسلمين

وقتل طائفة من المسلمين في طبرستان، فجهز إليه المنصور جيشاً، فحاصروه مدة طويلة، فأعياهم أن يقتحموا الحصن الذي هو فيه حتى احتالوا عليه احتيالاً، إذ دخل عليه أحد المسلمين وقد حلقوا رأسه ولحيته وضربوه، فذهب إليه مغاضباً للمسلمين ففرح به أصبهبذ طبرستان وحظي به كثيراً وجعله ممن يتولى فتح الحصن، ثم كاتب المسلمين على أن يأتوا الحصن في الليلة الفلانية ليجدوه مفتوحاً، فلما أتوه فتح لهم باب الحصن فدخل منه المسلمون فقتلوا من فيه من المقاتلة، ومات الأصبهبذ مسموماً.

وفي سنة ثلاث وأربعين ومائة، ندب المنصور المسلمين إلى غزو الديلم الذين قتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً، وأمر أهل الكوفة والبصرة بالاستعداد للمسير إلى الديلم، فاجتمع لذلك جم غفير من الناس، ثم سار بالجيوش إلى بلاد الديلم، محمد بن أبي العباس عن أمر عمه المنصور، ومعه جمع كبير من الكوفة والبصرة وواسط والموصل والجزيرة.

وفي هذه السنة حج المنصور بالناس إلى مكة، وفي الطريق تلقى المنصور الناس، وكان في جملة من تلقاهم، عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، فأجلسه المنصور معه وتظاهر بتكريمه أمام الناس، ثم سأله عن ابنيه، إبراهيم ومحمد، لَمَ لمْ يأتيا مع الناس، ذلك أن المنصور قد أوجس في نفسه خيفة منهما أن يخرجا عليه كما أرادا أن يخرجا على مروان، وقد كان محمد بن عبدالله بن حسن قد بايعه جماعة من أهل الحجاز في أواخر دولة مروان الحمار بالخلافة وخلع مروان.

ولما سأل المنصور عبدالله بن حسن عن ولديه أقسم أنه لا يدري أين صارا من أرض الله، وهو في ذلك صادق.

وقد وقع ما توهم منه المنصور، إذ ذهبا كلاهما هرباً في البلاد حتى صارا إلى اليمن، ثم إلى الهند فاختفيا بها، وقد استشار المنصور من يعلم من أمرائه ووزرائه من ذوي الرأي في أمر ابني عبدالله بن حسن وهما إبراهيم ومحمد، وبعث في أثرهما الجواسيس لينقبوا في البلاد عن أخبارهما، فلم يقع لهما على خبر، وكان الملأ من أتباع المنصور قد أشاروا

عليه بحبس بني حسن عن آخرهم، فحبسهم وجدَّ في طلب إبراهيم ومحمد، مع أنهما كانا يحضران الحج في أكثر السنين ويكمنان في المدينة ولم يدرِ بهما أحد من عيون المنصور أو ملأه.

ثم نقل المنصور آل حسن من حبس المدينة إلى حبس بالعراق وهم مقيدة أرجلهم مغلولة أعناقهم، ولما رأوا المنصور راكباً هودجه ويجتاز بهم، ناداه عبدالله بن حسن: والله يا أبا جعفر ما هكذا صنعنا بأسراكم يوم بدر، فأخسأت مقالته هذه المنصور ونفر عنهم، ولما بلغوا العراق حبسوا هنالك بالهاشمية، وكان فيهم محمد بن إبراهيم بن عبدالله بن حسن، وكان وسيماً فتياً، مشرق الوجه بهي الطلعة، وكان يقال له: الديباج الأصفر، وذلك لفرط حسنه وجماله رحمه الله، لكن المنصور بغى عليه بغياً شنيعاً ظلوماً، إذ ألقاه بين أسطوانتين ثم سدّ عليه حتى مات، حسبنا الله ونعم الوكيل، وإنا لله وإنا إليه راجعون، أما بقية آله في السجن فقد هلك كثير منهم، ثم فرج عمن بقي منهم بعد هلاك المنصور.

وفي سنة خمس وأربعين ومائة، وقعت جملة أحداث منها، خروج محمد بن عبدالله بن حسن بالمدينة، وأخيه إبراهيم بالبصرة.

أما محمد، فكان خروجه على المنصور لما فعله هذا بأهله بني حسن من المدينة إلى العراق، وهم مقيدون بالسلاسل والأغلال ثم أودعهم السجن، وكان في موضع موحش شنيع لا يسمعون فيه شيئاً ولا يعرفون فيه دخول أوقات الصلاة إلا بالأذكار والتلاوة فضلاً عما تجرعوه من مرارة الجوع والعطش، حتى إن أكثر أكابره ماتوا رحمهم الله.

أما محمد بن عبدالله وهو مطلوب أبي جعفر المنصور، فقد كان مختفياً، ثم تواعد هو وأخوه إبراهيم وقتاً معيناً يظهران فيه، هو بالمدينة، وإبراهيم بالبصرة.

ظهور محمد بن عبدالله بن حسن وقتله:

ثم ألحّ أهل المدينة وغيرهم على محمد بن عبدالله بن حسن في

الظهور للناس ودعوتهم لمبايعته علانية، فاستجاب محمد لذلك فقطع اختفاءه وظهر للناس، ثم فوجىء الناس بأصحاب محمد بن عبدالله بن حسن إذ ظهروا، وأعلنوا بالتكبير ثم مرُّوا بالسجن وأخرجوا مَن كان فيه، فدان أهل المدينة لمحمد، فصلّى بالناس الصبح وقرأ في صلاته سورة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: الآية ١] ثم خطب أهل المدينة فتكلم في بني العباس وذكر مساءتهم.

ولما علم المنصور بذلك كتب له كتاباً ينذره فيه قبل مناجزته، وكان مما جاء في كتابه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبدالله بن عبدالله أمير المؤمنين، إلى محمد بن عبدالله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: الآية ٣٣] الآية، ثم قال: فلك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله إن أنت رجعت إلى الطاعة لأؤمننك ومن اتبعك، ولأقضين لك جميع حوائجك.. إلخ.

فكتب إليه محمد مجيباً عن كتابه: من عبدالله المهدي محمد بن عبدالله بن حسن: «﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: الآيات ١-٥]، ثم قال: وإني أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت علي، فأنا أحق بهذا الأمر منكم، وأنتم إنما وصلتم إليه بنا، ونحن أشرف أهل الأرض نسباً، فرسول الله ﷺ خير الناس وهو جدنا، وفاطمة بنته أمنا وهي أكرم بناته، وإني أوسط بني هاشم نسباً، فأنا أولى بالأمر منك، وأولى بالعهد وأوفى به منك، فإنك تعطي العهد ثم تنكث ولا تفي كما فعلت بابن هبيرة، فإنك أعطيته العهد ثم غدرت به ولا أشد عذاباً من إمام غادر، وكذلك فعلت بعمك عبدالله بن علي، وأبي مسلم الخراساني، والسلام».

ثم كتب إليه المنصور كتاباً آخر فيه كلام طويل ومناظرة مستفيضة يرد

فيها أقوال محمد بن عبدالله بن حسن، ومستقصياً فضائل بني العباس وأنهم الحماة الحقيقيون للإسلام، وأهله والذابون عن دين الله في وجه الطغيان الذي تلبس به بنو أمية، فهم بذلك أولى بالخلافة من غيرهم.

وبعد ذلك كله بعث محمد بن عبدالله بن حسن رسولاً إلى أهل الشام يدعوهم إلى بيعته وخلافته فأبوا ذلك، وقالوا: قد ضجرنا الحروب ومللنا القتال، ثم بعث الحسين بن معاوية ومعه نفر من الرجال والفوارس إلى مكة نائباً، فتصدى له نائب مكة وجنوده من قِبَل المنصور، فأبى الحسين بن معاوية إلا مناجزتهم، ثم حمل عليهم الحسين وأصحابه حملة واحدة فهزموهم وقتلوا منهم سبعة رجال ثم دخلوا مكة.

أما إبراهيم بن عبدالله بن حسن، فقد ظهر بالبصرة وكان يقول للناس عقب صلاة المغرب والصبح: ادعوا الله لإخوانكم أهل البصرة، وللحسين بن معاوية بمكة، واستنصروه على أعدائكم.

أما المنصور فقد جهز الجيوش للقاء محمد بن عبدالله، فسارت الجيوش بقيادة عيسى بن موسى في عشرة آلاف فارس من الشجعان المنتخبين، منهم محمد بن أبي العباس السفاح، وحميد بن قحطبة وآخرون، وقد كتب معهم المنصور كتباً إلى رؤساء قريش والأنصار من أهل المدينة يدعوهم فيها إلى الرجوع إلى الطاعة، فاستشار محمد أصحابه، فاتفق الرأي على المقام بالمدينة لأن النبي ﷺ ندم يوم أحد على الخروج من المدينة.

ثم اقترب جيش المنصور بقيادة عيسى بن موسى من المدينة، فصعد محمد بن عبدالله المنبر فخطب الناس وحضهم على القتال، وكانوا قريباً من مائة ألف، وكان مما قاله في خطبته، أن خيَّرهم في التحلل من بيعته أو الإقامة عليها، فتسلل كثير منهم أو أكثرهم حتى لم يبقَ معه منهم إلا شرذمة قليلة.

ثم أرسل عيسى بن موسى إلى محمد يدعوه إلى السمع والطاعة لأمير المؤمنين المنصور، وأنه قد أعطاه الأمان له ولأهل بيته إن هو استجاب لذلك، ثم بعث محمد إلى عيسى بن موسى يقول له: إني أدعو

إلى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ فاحذر أن تمتنع فأقتلك فتكون شر قتيل، أو تقتلني فتكون قد قتلت من دعاك إلى الله ورسوله، فجعلت الرسل تتردد بينهما ثلاثة أيام، هذا يدعو هذا، وهذا يدعو هذا.

ولما كان اليوم الثالث أتاهم عيسى بن موسى قائد جيش المنصور فنادى: يا محمد، إن أمير المؤمنين أمرني أن لا أقاتلك حتى أدعوك إلى الطاعة، فإن فعلت أمّنك وقضى دينك وأعطاك أموالاً، وإن أبيت قاتلتك، فناداه محمد: إنه ليس لك عندي إلا القتال، فوقعت بينهم الحرب يومئذٍ، وكان جيش عيسى بن موسى فوق أربعة آلاف، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً، فأحاط جيش العراق (جيش المنصور) بجماعة محمد بن عبدالله بن حسن واقتحموا عليهم الخندق الذي كانوا حفروه، ولم تزل الحرب بين الفريقين ناشبة محتدمة، فاستظهر أهل العراق ورفعوا راية سوداء فوق موضع يقال له: سلع ثم دنوا من المدينة فدخلوها ونصبوا راية سوداء فوق مسجد رسول الله ﷺ، فلما رأى أصحاب محمد ذلك صاحوا: لقد أُخذت المدينة وهربوا وثبت محمد ومعه شرذمة قليلة من الناس، ثم تكاثر الناس على محمد يضربونه حتى تقدم إليه رجل فضربه بسيفه فسقط على ركبتيه وهو يقول: ويحكم ابن نبيكم مجروح مظلوم، ثم تقدم إليه حميد بن قحطبة فحز رأسه وذهب به إلى عيسى بن موسى، ثم جيء به إلى المنصور، فوضعه بين يديه وأمر أن يطاف به! فلا حول ولا قوة إلا بالله، ثم استقر الوضع للخليفة المنصور بعد هذا الاقتتال المحتدم وبعد هذا التشنيع في من يظفر بهم جنود المنصور من الخصوم!

ظهور إبراهيم بن عبدالله:

ذلك ما كان من خروج محمد بن عبدالله بن حسن بالمدينة، أما أخوه إبراهيم بن عبدالله فقد خرج بالبصرة، وقد بيّنا ذلك في نبذة قصيرة.

وبيان ذلك أن إبراهيم قد هرب إلى البصرة فاختفى فيها عن أنظار الناس مدة من الزمن وهو يدعو لمبايعته، فاستجاب له كثير من الناس، فتحول إلى وسط البصرة وقد استفحل أمره وبايعه أكثر الناس، فبلغ خبره

إلى الخليفة العباسي المنصور فازداد غماً إلى غمه بمقتل محمد بن عبدالله بن حسن أخيه من قبله، وجعل الناس يقصدون البصرة من كل فج عميق لمبايعة إبراهيم، وكان المنصور يرصد لهم رجاله فيقتلونهم في الطريق ويأتونه برؤوسهم فيصلبها بالكوفة ليتعظ بها الناس.

وكان في البصرة ابنا عم الخليفة المنصور وهما جعفر ومحمد ابنا سليمان، فركبا في ستمائة فارس ثم ساروا إلى إبراهيم، فهزموهم، وبعث إبراهيم إلى أهل الأهواز فبايعوه وأطاعوه، وكذلك بعث إلى بلاد فارس فأخذها، وكذلك واسط والمدائن وغيرها من البلدان، فاستفحل أمره بذلك.

ثم أقبل إبراهيم بعساكر من البصرة إلى الكوفة في مائة ألف مقاتل، فأرسل إليه المنصور، عيسى بن موسى في خمسة عشر ألفاً وعلى رأسهم حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف، ثم أقبل الجيشان بالقرب من الكوفة، حيث تلاقوا هنالك فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم حميد بن قحطبة بمن معه من المقدمة، وثبت عيسى بن موسى في مائة رجل من أهله، ثم كرَّ المنهزمون راجعين، وكان أول راجع فيهم حميد بن قحطبة وهو أول منهزم في جيشه ثم تناجزوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم جنود إبراهيم وثبت هو في خمسمائة واستظهر عيسى بن موسى وأصحابه فقتلوا خلقاً كثيراً من أصحاب إبراهيم، وكان إبراهيم نفسه في القتلى[1].

بناء مدينة السلام:

هذه المدينة التليدة الفاخرة العامرة بأهلها، قد تكامل بناؤها في هذه السنة، فسكنها المنصور في شهر صفر من هذه السنة، وكان قبل ذلك مقيماً بالهاشمية المتاخمة للكوفة.

وقد كان السبب في بنائها، أن الراوندية كانوا قد وثبوا عليه بالكوفة فوقاه الله شرهم، ثم بقيت منهم بقية، خاف المنصور منهم على جنده،

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٣٩٠ ـ ٤٧٨، والبداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص٧٣ ـ ٩٦.

فخرج من الكوفة ينقب في البلاد عن موضع أمين مكين يبني لهم فيه مدينة منيعة حصينة، فلم يجد موضعاً أحسن لوضع هذه المدينة المقصودة من موضع بغداد حيث هي الآن، وهو موضع يغدو الناس ويروحون إليه بالخيرات مما حوله من البر والبحر، وهو موضع محصن بدجلة والفرات من ههنا وهنا، وبذلك لا يستطيع أحد أن يبلغ موضع الخليفة إلا على جسر، فحينئذٍ أمر المنصور أن يخطها له الرسامون بالرماد فأعجب بذلك، ثم أحضر من كل البلاد صناعاً ومهندسين لهذه المهمة، فاجتمع له منهم ألوف، ثم كان هو أول من وضع لبنة الأساس بيده وقال: بسم الله والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ثم قال: ابنوا على بركة الله، وأمر أن يكون بناؤها مدوراً وأن يكون سمك سورها من أسفله خمسين ذراعاً، ومن أعلاه عشرين ذراعاً، وجعل لها ثمانية أبواب من داخل السور، وثمانية أخرى من خارجه، ولهذا سميت بغداد الزوراء، وذلك لازورار أبوابها بعضها عن بعض.

ثم بنى المنصور قصر الإمارة وسط البلد ليكون الناس من حيث بعدهم عنه أو قربهم، على حد سواء، واختط المسجد الجامع بجانب القصر.

وأراد المنصور الإمام أبا حنيفة ليتولى القضاء ببغداد لكنه أبى وامتنع، فحلف المنصور أن يتولى له أبو حنيفة القضاء، وحلف أبو حنيفة أن لا يتولى له ذلك، ثم عرض المنصور عليه القضاء والمظالم معاً فامتنع كذلك، ثم مات أبو حنيفة ببغداد بعد ذلك.

وقد ذكر أن المنصور قد أنفق على بناء مدينة السلام، ومسجدها الجامع وقصر الإمارة والأسواق بها أربعة ملايين وثمانمائة وثلاثة وثمانين ألفاً من الدراهم، وكانت بغداد عامرة بالخيرات والبركات من سائر صنوف الغذاء واللباس والأثاث وأدوات الزينة وفي غاية من تدني الأسعار وهبوطها تسهيلاً لمعايش الناس وترغيباً لهم في طول المكث في هذه المدينة الفاخرة الآمنة، ولهذا الأمن والرخص كثر ساكنوها وعظم أهلها وكثر الطارقون

أسواقها وشوارعها حتى كان المارُّ لا يستطيع أن يجتاز في أسواقها من شدة الزحام فيها.

قال الحافظ أبو بكر البغدادي يصف جمال بغداد وروعة بنائها الشامخ العتيد: لم يكن لبغداد نظير في الدنيا في جلالة قدرها، وفخامة أهلها، وعظم أقطارها، وكثرة دورها ودروبها، ومنازلها، وشوارعها، ومساجدها، وحماماتها، وخاناتها، وطيب هوائها، وعذوبة مائها، وبرد ظلالها، واعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها.

وظلّ الحال ببغداد وأهلها على هذا المنوال من الانتظام وحصانة المكان، وحسن العيش الهانيء الآمن الرخي، حتى أوغل الناس في الإسراف والبذخ، وغالوا في التلبس بالملذات والشهوات وأسباب اللهو، مما أذهلهم عن ذكر الله وأغفلهم عن قضايا الطاعات والعبادات وهم يساقون في خَبَب متدهور، لأغراض الدنيا بزخرفها وحطامها ومباهجها، فغرهم في دينهم الغَرور، وظلوا على هذه الحال من الغفلة والذهول والجنوح للذات والشهوات حتى سقط في أيديهم وهم تأخذهم على حين غرة وغفلة جحافل الطغيان المدمر الغاشم على يد التتار يقودهم المتجبر الظلوم هولاكو، وكذلك جنكيز خان، أولئك الذين اجتاحوا المسلمين وأتوا على بغداد فدمروها شر تدمير فأبادوا خضراءها وجعلوها يباباً خراباً فبات عمرانها أثراً بعد عين، وقتلوا من أهلها الآمنين الغافلين ما يجلُّ عن الوصف، وما كان لذلك أن يكون لو كان المسلمون على حذر من أمرهم أو كانوا غير غافلين عن وجيبة الجهاد التي لا ينبغي أن يذهل عنها المسلمون في يوم من الأيام، ما كان لذلك الهوان والإبادة والتدمير أن يكون لو لم تلههم الشهوات والطيبات ومباهج الحياة الدنيا عن واجباتهم من الطاعات والعبادات وعن ديمومة الاعتصام بحبل الله المتين.

وفي سنة خمسين بعد المائة من الهجرة، خرج رجل مشرك يقال له: استاذسيس في بلاد خراسان فاستحوذ على أكثرها، وكان أتباعه كثيرين إذ بلغوا ثلاثمائة ألف، وقد عاثوا في البلاد فساداً وقتلوا من

المسلمين هنالك خلقاً كثيراً، فتفاقم الأمر بسببهم، فأرسل المنصور إلى ابنه المهدي يأمره بقتال هؤلاء الغزاة الظالمين، فنهض المهدي لذلك نهضة أبية، وجمع الجيوش لذلك وكان أميرهم خازم بن خزيمة، فبعثه المهدي في نحو من أربعين ألفاً فسار إليهم وجعل يراوغهم ويماكرهم ثم فاجأهم بالحرب فقتل منهم نحواً من سبعين ألفاً وأسر منهم كثيرين، وولى ملكهم استاذسيس هارباً فتحرز في جبل، فلم يزل خازم بن خزيمة يحاصره حتى نزل على حكمه فحكم أن يقيد هو وأهل بيته بالحديد، وكتب خازم إلى المهدي بما وقع من الفتح فكتب المهدي بذلك إلى أبيه المنصور.

وفاة الإمام أبي حنيفة رحمه الله:

وفي هذا العام توفي الإمام أبو حنيفة رحمه الله وهو النعمان بن ثابت التيمي الكوفي وهو فقيه العراق، وأحد الأئمة الأعلام في تاريخ الإسلام، وهو أحد الأئمة الأربعة، أصحاب المذاهب المعروفة وهو أقدمهم إذ أدرك عصر الصحابة، ورأى أنس بن مالك، وقيل: إنه روى عن سبعة من الصحابة.

وقد روى الإمام أبو حنيفة عن جماعة من التابعين منهم الحكم، وحماد بن أبي سليمان، وعامر الشعبي، وعكرمة، وعطاء، وقتادة، والزهري، ونافع مولى ابن عمر، وروى عنه كثيرون منهم: ابنه حماد، وداود الطائي، وزفر، وعبدالرزاق، ومحمد بن الحسن الشيباني، ووكيع، وأبو يوسف القاضي.

قال الإمام الشافعي في قدر أبي حنيفة وفي سعة عقله وعظيم حجته النافذة: رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته، وقال الشافعي أيضاً: من أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة، ومن أراد السير فهو عيال على محمد بن إسحاق، ومن أراد الحديث فهو عيال على مالك، ومن أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان.

وقال سفيان الثوري وعبدالله بن المبارك: كان أبو حنيفة أفقه أهل الأرض في زمانه.

وروي أن أبا حنيفة كان يصلي بالليل ويقرأ القرآن في كل ليلة، وكان يبكي حتى يرحمه جيرانه، وقيل: أنه مكث أربعين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء، رحم الله أبا حنيفة رحمة واسعة.

بناء مدينة الرصافة:

وفي سنة إحدى وخمسين بعد المائة، شرع المنصور في بناء مدينة الرصافة لابنه المهدي، وهي إلى الشرق من بغداد، وقد جعل لها سوراً وعمل فيها ميداناً وبستاناً وأجرى إليها الماء.

وفي هذه السنة جدد المنصور البيعة لنفسه ثم لولده المهدي من بعده، ثم لعيسى بن موسى من بعدهما، فجاء الأمراء والسادة فبايعوا.

وفي سنة ثلاث وخمسين بعد المائة، خرجت الخوارج من الصفرية وغيرهم ببلاد إفريقية، فاجتمع منهم ثلاثمائة ألف وخمسون ألفاً من المقاتلين وعليهم أبو حاتم الأنماطي، فقاتلوا نائب إفريقية من قبل الخليفة فهزموا جيشه وقتلوه، ثم عاثت الخوارج في الأرض الفساد وقتلوا النساء والأولاد وفيها دخل المنصور بلاد الشام وزار بيت المقدس، وبعث يزيد بن حاتم في خمسين ألف مقاتل وأمره بحرب الخوارج.

وفي سنة خمس وخمسين ومائة، دخل يزيد بن حاتم بلاد إفريقية فافتتحها ثانية وقضى على الخوارج ممن كانوا فيها، وقتل أمراءهم وبددهم تبديداً[1].

وفاة الإمام الأوزاعي:

وفي سنة سبع وخمسين ومائة توفي الإمام الأوزاعي وهو عبدالرحمٰن

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٤٧٨ ـ ٥١٠، والبداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص٨٦ ـ ١١٤.

بن عمرو بن محمد أبو عمرو الأوزاعي، نسبة إلى أوزاع، وهو بطن من حمير، أو محلة الأوزاع، وهي قرية من قرى دمشق، وقيل: أصله من سبي السند ثم نزل الأوزاع، وقيل: ولد ببعلبك ونشأ بالبقاع يتيماً في حجر أمه، ثم نزل دمشق بمحلة الأوزاع، وساد أهلها في زمانه وسائر البلاد في الفقه والحديث والمغازي وغير ذلك من علوم الإسلام، وأدرك كثيراً من التابعين، وحدث عنه كثير من علماء المسلمين، كمالك بن أنس، والثوري، والزهري، وهذا من شيوخه، وأجمع المسلمون على عدالة الأوزاعي وإمامته.

قال الإمام مالك: كان الأوزاعي إماماً يقتدى به، وقال يحيى القطان عن مالك: اجتمع عندي الأوزاعي والثوري وأبو حنيفة فقلت: أيهم أرجع، قال: الأوزاعي، وقيل: ما رؤي الأوزاعي ضاحكاً مقهقهاً قط، وكان يعظ الناس فلا يبقى أحد في مجلسه إلا بكى بعينه أو بقلبه.

وقال يحيى بن معين: العلماء أربعة: الثوري، وأبو حنيفة، ومالك، والأوزاعي، وكانت كتب الأوزاعي ترد على المنصور فينظر فيها ويتأملها ويتعجب من فصاحتها وحلاوة عبارتها.

ومن مواعظ الأوزاعي للناس قوله: أيها الناس، تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فإنكم في دار، الثواء فيها قليل، وأنتم عما قليل عنها راحلون، خلائف بعد القرون الماضية الذين استقبلوا من الدنيا آنقَها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً، وأعظم أحلاماً، وأكثر أموالاً وأولاداً، فخددوا الجبال وجابوا الصخر بالواد، وتنقلوا في البلاد، مؤيدين ببطش شديد، وأجساد كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت آثارهم، وأخربت منازلهم وديارهم، وأنسَت ذكرهم، فهل تحسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؟

وقد مات الأوزاعي ببيروت مرابطاً وكان عمره سبعاً وستين سنة.

وفاة المنصور:

في سنة ثمان وخمسين ومائة، خرج المنصور إلى الحج فساق المهدي معه، فلما جاوز الكوفة بمراحل أخذه وجعه الذي مات به، وكان عنده سوء مزاج فاشتد عليه من شدة الحر، وأخذه إسهال مفرِط، فقوي مرضه، ثم دخل مكة فتوفي بها، وكان عمره يومئذٍ ثلاثاً وستين سنة، وقيل: أكثر قليلاً، وقد دُفن بكُدى بأعلا مكة، وقد كتم حاجبه خبر موته عن الناس حتى أخذ البيعة للمهدي من القادة ورؤوس بني هاشم.

ترجمة مقتضبة للمنصور:

هو عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم، أبو جعفر المنصور، وكان أكبر من أخيه أبي العباس السفاح، وقد بويع له بالخلافة بعد أخيه سنة ست وثلاثين ومائة، وكان عمره حينئذٍ إحدى وأربعين سنة، وقد كانت خلافته ثنتين وعشرين سنة إلا أياماً.

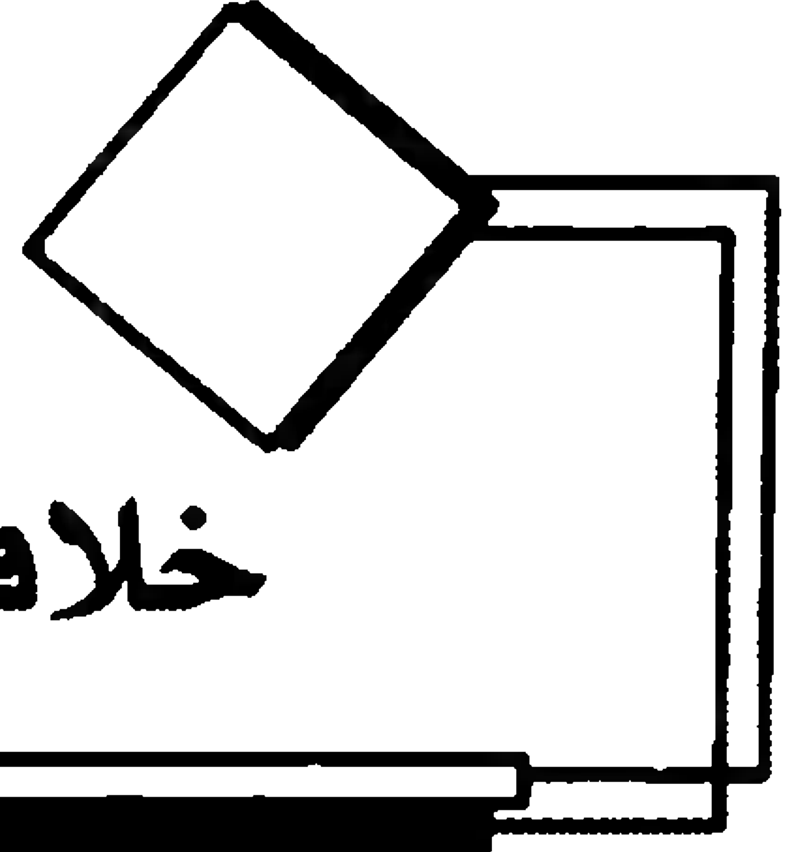
ومن سيرته الشخصية أنه كان في أول النهار يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولايات والعزل والنظر في مصالح العامة، فإذا صلّى الظهر دخل منزله واستراح إلى العصر، فإذا صلاها جلس لأهل بيته ونظر في مصالحهم الخاصة، فإذا صلى العشاء نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق، ثم يقوم إلى أهله فينام في فراشه إلى الثلث الأخير، فيقوم إلى وضوئه وصلاته حتى يتفجر الصباح ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

ومن أقوال المنصور: الخلفاء أربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، والملوك أربعة: معاوية وعبدالملك بن مروان وهشام بن عبدالملك وأنا.

وقد مرض المنصور في طريقه إلى الحج ودخل مكة مدنفاً[(١)] ثقيلاً، وكان عمره يوم مات ثلاثاً وستين سنة على المشهور.



(١) الدنف: المرض الملازم، دنف المريض: ثقل، أدنفه المرض فهو مدنف، انظر: القاموس المحيط ج٣ ص١٤٦.



الفصل الثاني

خلافة المهدي بن المنصور

عقب وفاة المنصور أُخذت البيعة لولده المهدي من رؤوس بني هاشم والقادة الذين كانوا مع المنصور في الحج قبل دفنه، وبعث حاجب المنصور بالبيعة مع البُرُد[1] إلى المهدي وهو ببغداد، فسلّم عليه البريد بالخلافة وأعطاه الكتب بالبيعة، وبايعه أهل بغداد، ثم بلغت بيعته سائر الآفاق.

وفي هذه السنة التي توفي فيها المنصور أصاب الناس وباء شديد فمات بسببه خلق كثير، منهم زفر بن الهذيل بن قيس، الكوفي الفقيه الحنفي، وهو أقدم أصحاب الإمام أبي حنيفة وفاة، وأكثرهم استعمالاً للقياس، وقد اشتغل أولاً بعلم الحديث ثم غلب عليه الفقه والقياس، توفي سنة ثمان وخمسين ومائة، عن ثنتين وأربعين سنة رحمه الله.

وفي سنة تسع وخمسين ومائة، استتب الأمر للخليفة المهدي فبادر بإرسال العباس بن محمد إلى بلاد الروم في جيش كثيف، وركب مشيعاً لهم، فمضوا إليها فاتحين ثم رجعوا سالمين غانمين.

وفي هذه السنة بنى المهدي مسجد الرصافة، وفيها جهز جيشاً كثيفاً سيّره إلى بلاد الهند.

وفي سنة ستين ومائة، خرج على المهدي بخراسان رجل، وتبعه كثير

---

(١) البرد: جمع بريد، وهو الرسول، انظر: مختار الصحاح ص٤٧.

من الناس حتى تفاقم الأمر، فأرسل لمناجزته يزيد بن مزيد فلقيه فاقتتلا قتالاً شديداً وكانت الغلبة ليزيد، فأُرسِل هؤلاء الذين خرجوا وأميرهم واسمه يوسف البرم، إلى المهدي فأمر بضرب أعناقهم.

وفي هذه السنة ألحّ المهدي على عيسى بن موسى ـ ولي العهد من بعده ـ أن يخلع نفسه، لكنه كان في كل مرة يمتنع، لكنه ما لبث أن خلع نفسه عقب ترغيب له في ذلك، فبويع لولدي المهدي وهما، موسى وهارون الرشيد، فبايع الأمراء والقادة والناس جميعاً.

وفي هذه السنة غزا المسلمون الهند في جحفل كبير من الجنود، فحاصروا مدينة بها ونصبوا عليها المجانيق، وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً.

وفي هذه السنة حج المهدي بالناس، واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي، واستصحب معه ابنه هارون الرشيد، وكثيراً من الأمراء.

وفي سنة ثلاث وستين ومائة، حوصر المقنع الزنديق الذي عاث في الأرض فساداً وقال بالتناسخ، وتبعه في ذلك كثير من السفهاء والجهلة، ثم لجأ هذا الزنديق إلى قلعة كش فحاصره سعيد الحريثي وشدد عليه الحصار، فلما أحس أنه مغلوب لا محالة وأنه مقبوض عليه بلا مناص، تحسى سماً وسم أهله الذين معه في بيته فماتوا جميعاً.

وفي هذه السنة جهّز المهدي البعوث من خراسان وغيرها من البلدان لغزو الروم وأمَّر عليهم ولده الرشيد، وكان في هذا الجيش خالد بن برمك، وهو كالوزير للرشيد، ويحيى بن خالد، وكان كاتبه، وقد مضى المهدي مع ولده الرشيد مشيعاً له حتى بلغ بيت المقدس، وسار الرشيد إلى بلاد الروم في جحافل عظيمة من جيوش المسلمين، وفتح الله عليهم فتوحات كثيرة وعادوا غانمين منصورين.

وفي سنة خمس وستين ومائة، جهز المهدي جيشاً بقيادة ابنه الرشيد في خمسة وتسعين ألفاً من المقاتلين، فبلغ الرشيد بجنوده خليج البحر الذي على القسطنطينية، وكان صاحب الروم حينئذٍ امرأة أليون، واسمها أغسطة، فطلبت الصلح من الرشيد على أن تدفع له مبلغاً كبيراً من المال في كل

سنة، فقبل الرشيد منها ذلك، وقد قتل من الروم خلق كثير وأُسر منهم جمٌّ غفير، وغنم المسلمون كثيراً من أموالهم.

ثم قدم الرشيد من بلاد الروم فدخل بغداد في أبهة عظيمة، وكان ذلك في مستهل سنة ست وستين ومائة، وفي هذه السنة أخذ المهدي البيعة لولده هارون من بعد موسى الهادي، ولقب بالرشيد.

وفي سنة سبع وستين ومائة، بعث المهدي ابنه موسى الهادي إلى جرجان في جيش كثيف، وقد توفي في هذه السنة عيسى بن موسى الذي كان ولياً للعهد من بعد المهدي.

وفي هذه السنة تعقب المهدي جماعة من الزنادقة قد فشت فلولهم في سائر الآفاق، فجيء بهم إليه فقتلهم.

وفي سنة تسع وستين بعد المائة، توفي المهدي ابن المنصور بالحمى، وقيل: مسموماً والله أعلم.

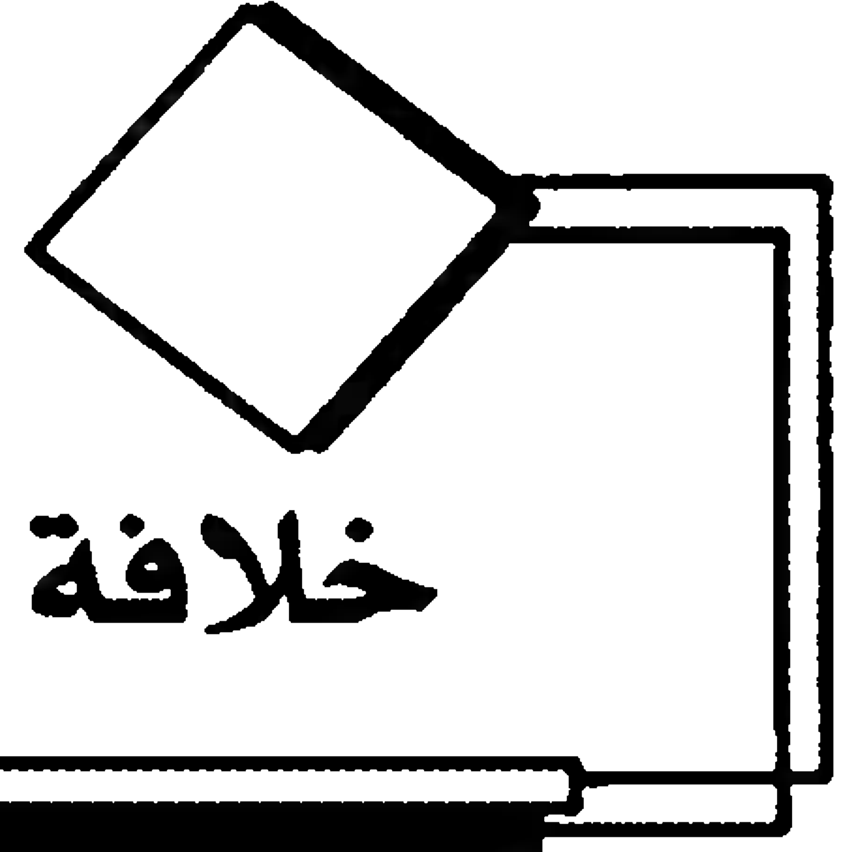
ترجمة المهدي في نبذة:

هو أبو عبدالله المهدي، أمير المؤمنين، وقد لقب بالمهدي رجاء أن يكون هو الموعود في الأحاديث، فلم يكن له ذلك بالرغم من اشتراكهما في الاسم، وإنما قد افترقا في الفعل، وذاك إنما يأتي في آخر الزمان عند فساد الدنيا، فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، وقيل: إن في أيامه ينزل عيسى بن مريم بدمشق.

وقد ولي المهدي الخلافة بعد موت أبيه سنة ثمان وخمسين ومائة، وكان عمره حينئذٍ ثلاثاً وثلاثين سنة، وقد توفي عن ثلاث وأربعين سنة، وكانت خلافته عشر سنوات وشهراً[1].



(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص١١٥ ـ ١٥٧.



الفصل الثالث

خلافة موسى الهادي بن المهدي

كان أبوه المهدي عازماً على تقديم أخيه الرشيد عليه في ولاية العهد، لكنه لم يتفق له ذلك حتى مات، وكان الهادي حينئذٍ بجرجان، وكان الرشيد ببغداد، فبادر الهادي الرجوع مسرعاً إلى بغداد حين علم أن بعض القادة كانوا عازمين على تقديم الرشيد والمبايعة له، فلما دخل الهادي بغداد قام في الناس خطيباً ودعا الناس لمبايعته فبايعوه، واستقر له أمر الخلافة من غير خلاف ولا خصام.

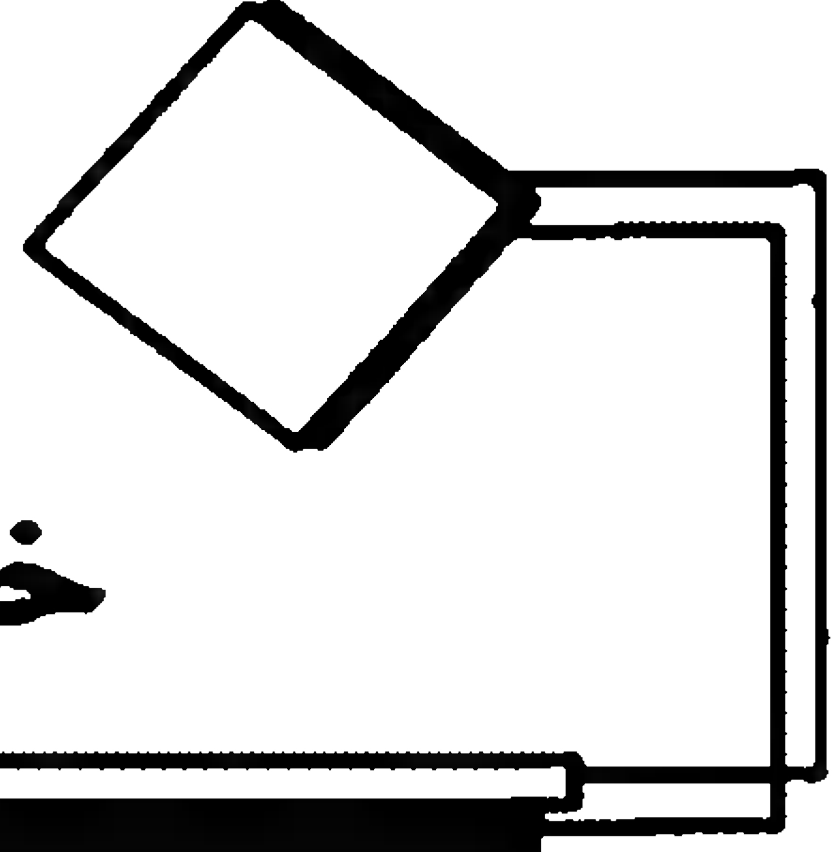
وعقب توليه الخلافة شرع في تتبع الزنادقة في كل مكان حتى قتل كثيراً منهم.

وفي هذه السنة، خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فقد لبس البياض وجلس في المسجد النبوي يدعو الناس أن يخرجوا معه فتولوا عنه وتبعه منهم قليل، فأووا إلى المسجد النبوي عدة شهور، فبعث الهادي إليهم جيشاً فتعقبوهم بعد فراغ الناس من موسم الحج وقتلوا الحسين بن علي بن الحسن وقتلوا كثيراً من جماعته وهرب بقيتهم.

وفي سنة سبعين ومائة للهجرة، عزم الهادي على خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد لابنه جعفر بن الهادي ولم ينازعه هارون في ذلك بل أسلس له القياد وأجاب، لكن أمهما الخيزران أبت إلا أن تفضي الخلافة إلى

هارون من بعد الهادي، فاستشار الهادي في ذلك يحيى بن خالد بن برمك، وكان من أكابر الأمراء، فحذره هذا من تفاقم الأمر واشتعال الفتنة، ورغَّبه في جعل الولاية لهارون ليكون خليفة من بعده، فاستجاب الهادي لذلك، ثم ما لبث الهادي أن مات في آخر هذه السنة وله من العمر ثلاث وعشرون سنة، وكانت خلافته ستة أشهر وثلاثة وعشرون يوماً.





الفصل الرابع

خلافة هارون الرشيد

هو هارون الرشيد، خليفة المسلمين ابن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب، القرشي الهاشمي، وأمه الخيرزان، أم ولد.

وقد بويع له بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي، وكان عمره حينئذٍ ثنتين وعشرين سنة، فبادر إلى إخراج يحيى بن خالد بن برمك من السجن، ثم ولاه الوزارة وقال له: قد فوضت إليك أمر الرعية وخلعت ذلك من عنقي وجعلته في عنقك، فولِّ من رأيت واعزل من رأيت.

وفي هذه السنة تتبع الرشيد الزنادقة وقتل منهم كثيراً، وفيها خرج عليه بعض أهل البيت.

وفي هذه السنة أيضاً ولد الأمين محمد بن الرشيد بن زبيدة، وفيها حج الرشيد بالناس وأنفق على الحرمين وأهلهما أموالاً كثيرة.

وقد توفي في هذه السنة الخليل بن أحمد الفراهيدي شيخ النحاة، وعنه أخذ سيبويه وغيره من أكابر علماء اللغة، والخليل بن أحمد هو الذي ابتكر علم العروض وقسمه إلى خمسة عشر بحراً، وزاد الأخفش فيه بحراً واحداً، ومات الخليل بن أحمد بالبصرة سنة سبعين ومائة.

وفي سنة خمس وسبعين ومائة، أخذ الرشيد لولده الأمين من بعده

بولاية العهد، وكان عمره إذ ذاك خمس سنين، فقد كان يتوسم في ولده هذا النجابة والرجاحة.

وفي سنة ست وسبعين ومائة، خرج يحيى بن عبدالله بن حسن بن علي بن أبي طالب في بلاد الديلم وتبعه كثير من الناس فقويت بذلك شوكته وارتحل إليه الناس من الأمصار مما أزعج الرشيد وأثار فيه القلق بسببه.

فندب إليه الرشيد الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك في خمسين ألفاً من المقاتلين، فسار إليه الفضل بن يحيى، ثم كاتبه الرشيد ووعده بالمال والتكريم إن هو جنح للمسالمة، وكذلك كتب الفضل إلى يحيى بن عبدالله بعده ويمنيه ويرجّيه ويقيم له العذر عند الرشيد، فكتب الرشيد له الأمان، فجاءه إلى بغداد وأحسن الرشيد استقباله وأجزل له في العطاء.

ثم ما لبث بعد ذلك أن تنكر الرشيد ليحيى بن عبدالله بن حسن وتغير عليه، وقيل: إنه سجنه ثم أطلقه فيما بعد.

وفي هذه السنة وقعت فتنة كبيرة بين القيسيين واليمانيين في الشام، ويحدو الطائفتين في ذلك نزعة من عصبية الجاهلية، ولما اشتدت الفرقة بينهما، بعث الرشيد من جهته موسى بن يحيى بن خالد ومعه جماعة من القادة والرؤساء فأصلحوا بينهما فسكنت الفتنة واستقام أمر الناس.

وفي سنة سبع وسبعين ومائة، عزل الرشيد جعفر البرمكي عن مصر وولى عليها إسحاق بن سليمان، وفيها حج الرشيد بالناس.

وفي سنة ثمان وسبعين ومائة، وقعت أحداث وفتن، فبعث الخليفة هارون الرشيد من يسكنهم ويخمد فيهم الفتنة.

وفي هذه السنة فوّض الرشيد أمور الخلافة كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك، وفيها سار الفضل بن يحيى إلى خراسان، فأحسن فيها السيرة وغزا ما وراء النهر، وقد اتخذ من العجم جنداً كثيفاً سماهم العباسية وجعل ولاءهم له وكانوا نحواً من نصف مليون، ثم بعث منهم عشرين ألفاً إلى بغداد.

وفي سنة تسع وسبعين ومائة، عزل الرشيد خالد بن برمك بعد أن كان حاجباً له، وفيها خرج الرشيد معتمراً من بغداد شكراً لله جل وعلا، ثم قفل راجعاً إلى بغداد عن طريق البصرة بعد أن شهد المشاهد والمشاعر كلها ماشياً.

وفاة الإمام مالك:

وفي هذه السنة توفي الإمام مالك وهو أحد الأئمة الأربعة، أصحاب المذاهب المتبعة، فهو مالك بن أنس بن عامر بن أبي عامر بن الحارث بن غبيلان، إمام دار الهجرة في زمانه، وقد روى عن بعض التابعين وحدّث عن أئمة كثيرين منهم: شعبة، وابن المبارك، والأوزاعي، والليث، والشافعي، والزهري وهو شيخه.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: إذا جاء الحديث فمالك النجم، وقال: من أراد الحديث فهو عيال على مالك، وقال الإمام البخاري: أصح الأسانيد: مالك عن نافع عن ابن عمر، وقد مات وله من العمر خمس وثمانون سنة ودفن بالبقيع.

وفي سنة ثمانين ومائة، هاجت الفتنة بالشام ثانية بين قيس ويمن مما أقلق الرشيد، فندب جعفر البرمكي في جماعة من الأمراء والجنود إليهم فانقاد الناس إليه، ثم جمع كل ما لدى الناس من خيل وسيوف ورماح، فأطفأ الله بذلك الفتنة، ثم كرّ جعفر راجعاً إلى بغداد فسرّ الرشيد بمقدمه كثيراً.

وفاة سيبويه:

وفي هذه السنة توفي سيبويه وهو عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر، المعروف بسيبويه، وهو إمام النحاة، وسمي باسم سيبويه لأن أمه كانت ترقصه وتقول له ذلك، ومعنى سيبويه رائحة التفاح، وقد كان في بادىء أمره يصحب الفقهاء وأهل الحديث، ثم لزم الخليل بن أحمد فبرع في النحو، ثم دخل بغداد وناظر الكسائي، وقد صنف سيبويه كتاباً في النحو،

شرحه أئمة النحو من بعده فغاصوا في بحره اللجّي، وقد ارتحل إلى خراسان فمرض هنالك مرضه الذي توفي فيه، وكان عمره يوم وفاته ثنتين وثلاثين سنة.

وفي سنة ثنتين وثمانين ومائة، أخذ الرشيد ولاية العهد لولده عبدالله المأمون من بعد أخيه محمد الأمين بن زبيدة وذلك بالرقة عقب مرجعه من الحج، ثم ولّى ابنه المأمون خراسان وما يتصل بها.

وفاة القاضي ابي يوسف:

وقد توفي في هذه السنة القاضي أبو يوسف وهو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حسنة وهي أمه، وكان أبو يوسف أكبر أصحاب أبي حنيفة، وقد روى عنه محمد بن الحسن، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين.

وقد ولاه الهادي القضاء، وهو أول من لقب قاضي القضاة، وكان يقال له: قاضي قضاة الدنيا، لأنه كان يستنيب في سائر الأقاليم التي يحكم فيها الخليفة.

وقد مات أبو يوسف عن سبع وستين سنة، وقد مكث في القضاء بعده ابنه يوسف وقد كان هذا نائبه شرقي بغداد.

وفي سنة ثلاث وثمانين بعد المائة، خرج على الناس الخزر من أرمينية فعاثوا في البلاد الفساد، وسبوا من المسلمين وأهل الذمة نحواً من مئة ألف وقتلوا كثيراً من الناس، فأرسل إليهم الرشيد جيشاً كثيفاً، فدفعوا الخزر وردوهم على أعقابهم وأصلحوا في البلاد ما أفسدوه.

وفي سنة خمس وثمانين بعد المائة، ثار الخارجي أبان بن قحطبة، فسار إليه عبدالرحمٰن الأنباري وقتله، وثار كذلك حمزة الشاري في بلاد خراسان وتبعه كثيرون، فسار إليهم عيسى بن علي بن عيسى فقتلهم.

وفاة رابعة العدوية:

وقد توفي في هذه السنة كثير من الأعلام منهم رابعة العدوية وهي رابعة بنت إسماعيل، العدوية البصرية، وقد كانت عابدة زاهدة متبتلة، فأثنى عليها أكثر الناس لعظيم زهدها وورعها ودوام عبادتها، إذ كانت تصوم النهار وتقوم الليل، وقد توفيت بالقدس رحمها الله.

نكبة البرامكة:

وفي سنة سبع وثمانين ومائة كانت نكبة البرامكة حيث حاق بالبرامكة الهلاك والإبادة على يدي هارون الرشيد، إذ قتل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، وأباد جماعته عن آخرهم، فاندرست آثارهم ومحقت معالمهم بعد أن كانوا أولي حظوة عظيمة لدى الرشيد، فرأوا على يديه من الخير والعزة والسلطان وراغد العيش ما لم يحظَ به أحد سواهم.

وقد اختلف المؤرخون في سبب هذه النكبة التي حلت بالبرامكة، فذكر في ذلك جملة أقوال منها:

أن الرشيد كان قد سلم يحيى بن عبدالله بن حسن إلى جعفر البرمكي ليسجنه عنده، فترفق له يحيى فأطلقه جعفر، فبلغ الرشيد ذلك، فسأل جعفراً عن ذلك فأقرّ، فتغيظ عليه وحلف ليقتلنه، ثم من أجل ذلك كره البرامكة فقتلهم قتلاً بعدما كانوا أحظى الناس عنده، وأحبهم إليه.

ومنها: أن الرشيد كان لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلا قيل هذا لجعفر، فقتلهم لذلك.

ومنها: أنه كان يقال إن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة.

ومنها: أنه إنما قتلهم بسبب العباسة وهي أخت الرشيد، وكانت أحب أهله إليه، وقد زوّج جعفراً بها ليحل له أن ينظر إليها إذ كانت دائماً بجانب أخيها الرشيد، وكان جعفر يلازمه ولا يفارقه، فزوجه إياها واشترط عليه أن

لا يطأها، لكن جعفراً واقعها فحملت منه، مما أغضب الرشيد وسخط على البرامكة كلهم فبددهم تبديداً.

وفي سنة تسع وثمانين ومائة، رجع الرشيد من الحج وسار إلى الري ثم عاد إلى بغداد، فلما اجتاز الجسر أمر بجثة جعفر بن يحيى البرمكي، التي كانت مصلوبة من حين قتل، فأحرقت ودفنت! وهذا تمثيل شنيع ما كان ينبغي لإمام عظيم من أئمة المسلمين أن يصنعه نتيجة لفرط الغيظ الذي حاك في صدره على البرامكة حتى بددهم وأباد خضراءهم ومثّل بكبيرهم جعفر تمثيلاً، وقد نهى النبي ﷺ عن المثلة! رحم الله الرشيد وغفر له مثل هذا الذنب.

وفي هذه السنة، فادى الرشيد أسارى المسلمين الذين كانوا في قبضة الروم.

وفاة الكسائي:

وقد توفي من أعيان الرجال في هذا العام الإمام الكسائي.

وهو كوفي معروف باسمه الكسائي، وكان نحوياً لغوياً ومن أئمة القراء من الكوفة، ثم استوطن بغداد، فأدّب الرشيد وولده الأمين، وقد توفي الكسائي في هذه السنة عن سبعين سنة وكان يوم وفاته في صحبة الرشيد في بلاد الري فمات بنواحيها.

نبذة عن حياة الرشيد:

ذلكم هو أمير المؤمنين هارون الرشيد ابن المهدي بن أبي جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس القرشي الهاشمي، بويع بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي سنة سبعين ومائة بعهد من أبيه المهدي.

كان الرشيد أبيضاً طويلاً وسيماً وقد غزا ديار الشرك مراراً في حياة أبيه، وعقد الهدنة بين المسلمين والروم عقب حصاره للقسطنطينية.

ولما أفضت إليه الخلافة كان من أحسن الناس سيرة وأكثرهم حجاً وجهاداً للشرك والمشركين، وفي ذلك يقول فيه الشاعر:

فمن يطلب لقاءك أو يُرده ... فبالحرمين وأقصى الثغور
وما حاز الثغور سواك خلْق ... من المتخلفين على الأمور

كان الرشيد عابداً تقياً يخشى الله، وقد ذُكر أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة تطوعاً حتى فارق الدنيا، وكان رحمه الله متورعاً شديد البكاء، يتأثر بالغ التأثر بالذكرى والعظات ويستجيب للنصح والمواعظ حتى يفيض بالكباء.

قال له ابن السماك يوماً: إنك تموت وحدك، وتبعث منه وحدك، فاحذر المقام بين يدي الله عز وجل، والوقوف بين الجنة والنار، حين يؤخذ بالكظم وتزل القدم، ويقع الندم، فلا توبة تقبل، ولا عثرة تقال، ولا يقبل فداء بمال، فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته، فقيل لابن السماك: لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة، فخرج من عنده وهو يبكي.

قال له الفضيل بن عياض في كلام كثير يعظه فيه ليلة بمكة: يا صبيح الوجه، إنك مسؤول عن هؤلاء كلهم وقد قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: الآية ١٦٦]، فبكى الرشيد حتى جعل يشهق.

وكان رحمه الله كثيراً ما يذكر الموت والبلى فيخشع حتى يجهش في البكاء، فقد كان أمر بحفر قبره في حياته وأن تقرأ فيه ختمة تامة، وحمل حتى نظر إليه فجعل يقول: إلى هنا تصير يا ابن آدم، ويبكي، ثم جعل يتلو: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: الآيتان ٢٩ ـ ٣٠] ويبكي، ولما حضرته الوفاة قال: اللهم انفعنا بالإحسان، واغفر لنا الإساءة، يا من لا يموت ارحم من يموت.

وقد توفي عن خمس وأربعين سنة، فكانت مدة خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وبضعة شهور، ودفن بقرية من قرى طوس.

ذلك هو الرشيد الخليفة العباسي العظيم الذي أذلّ بجهاده وصولاته

الكفر والكافرين، فقطع المسافات الطوال وجاب الأقطار والأمصار شرقاً وغرباً حاملاً لواء الإسلام ليعلو مناره فاستضاءت بنوره الآفاق، واستأنست ربوع الدنيا بروعة هذا الدين العظيم الذي ترق له الطبائع وتحنو له القلوب وتسكن لجماله وكماله نفوس البشر فتنقلب آمنة راضية مطمئنة.

كذلك كان شأن الخليفة الرشيد، إذ كان مغموراً في الجد والحرص والاهتمام بأمور الإسلام كيما يشيع ويذيع وينتشر فكان ذلك شغله الشاغل، فلا جرم أن يكون الرشيد بذلك أكثر العظماء والخلفاء رسوخاً في الفتوحات طيلة نيف وعشرين سنة، حتى دانت الدنيا لدولة الإسلام وتقهقرت فلول الظلم والظالمين في أطراف الأرض، فأدبرت هائمة مذعورة، ويضاف إلى ذلك كله سيرة هذا الخليفة الأشم في العبادة والورع والخوف من الله وأنه الأبرُّ الناشط الذي يسير على رأس الحجيج إلى مكة إذا ما فرغ من أمر الجهاد والرباط ولقاء المشركين، فهو بذلك مستديم العمل والانشغال إذ يحج عاماً، أو يسير مع جيوش المسلمين ليضرب معاقل الظلم والوثنية والباطل عاماً آخر.

أما ما يتقوّله الفارغون والمارقون والدجاجلة من أحاديث مصطنعة عن هارون الرشيد، كالافتراء عليه بالانغماس في اللهو والملذات، إنما ذلكم هراء وباطل يبتغي به المبطلون والفارغون الإساءة لعلم من أعلام الإسلام، ثم التدسس بعد ذلك للوصول إلى الإسلام نفسه فيثيرون من حوله الأقاويل والافتراءات والشبهات، لا جرم أن المقصود أولاً وأخيراً، هو الإسلام كيما ينالوا من شأنه بالتشويه والتشكيك والتنفير، والله يشهد، أن الإسلام في الذروة السامقة من الكمال والجلال، وأنه بروعة عقيدته الراسخة المتينة، وعظيم تشريعه الهائل الزاخر وما يتجلى فيه من روائع القيم والأخلاق لهو الدين الأمثل الذي ليس له في تاريخ الأديان والعقائد والملل نظير.

ولنا من اليقين وتمام القناعة بأن ما يهذي به الظالمون والتائهون على الرشيد ليس إلا ضرباً من الأباطيل والافتراءات المكذوبة التي برعت في اصطناعها أقلام المغرضين الحاقدين من خصوم الإسلام.

ومهما يكن من إيغال للرشيد وغيره من الأئمة والسادة في اللذة والشهوة، فليس على أحد منهم في ذلك من بأس أو تثريب ما دام ذلك في دائرة المباحات التي أحلها الله لعباده، لا بأس على المسلم في مفهوم الشرعية الإسلامية اللينة السمحة، إذا ما استمتع باللذات في حياته مما أباحه الله له، ما اجتنب المعاصي والمنهيات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٢]، ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ [النحل: الآية ١١٤].

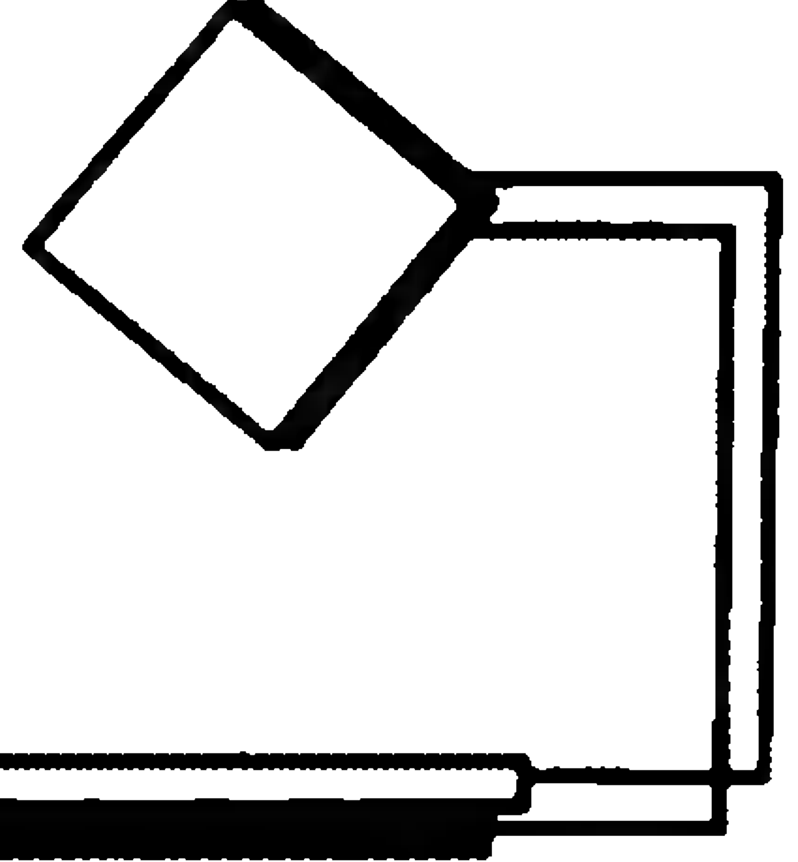
أما ما تزدرده حناجر بعض الرواة والمتحذلقين من امتلاك الرشيد آلافاً من الجواري الحسان، فذلكم تخريص ظالم وهذيان فاجر محموم لا يجترىء على تقوُّله غير فارغ سقيم، ولا يثق به أو يصدقه إلا مغفل أبله، موغل في السفاهة والجهالة!

لقد كان خليقاً بهؤلاء الرواة والذين يصطنعون الأقوال والآراء في تاريخ الأمم، أن يتحدثوا عن معايب الساسة والقادة من حكام العصر الراهن، أولئك الموغلون في بيوت الخنا واللهو والقمار، السادرون في أوكار الزنا والعار، الذين دأبهم السكر والعهر والعربدة، فضلاً عن أكل الحرام والانغماس في موائد السحت والربا وغيره من مختلف صنوف الحرام.

كان أحرى بمن يكتبون عن تاريخ الأمم أن يبادروا الحديث عن أفاعيل المجرمين والظالمين من طواغيت البشر، أولئك الذين عاثوا في الدنيا الخراب والدمار والفساد، بدلاً من افترائهم على هذا العظيم الذي طحطح معالم الفساد والشر والباطل في معظم جنبات الأرض ليشيع على أنقاض ذلك كل ظواهر الخير والعدل والمعرفة.

لا جرم أن الظالمين المتربصين قد افتروا على الرشيد بما ليس فيه، وإنهم إنما يبتغون بذلك كله الإساءة إلى دين الإسلام نفسه كيما يزهد فيه المسلمون وتنفر منه البشرية، لكن الإسلام بالرغم من كل هاتيك الافتراءات والأباطيل، ظاهر ساطع مشعشع فوق ربوع العالمين، وإن كره الدجاجلة والخرّاصون.





الفصل الخامس

خلافة الأمين

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، فلما توفي أبوه الرشيد بطوس، كتب إليه أخوه صالح بن الرشيد يعلمه بوفاة أبيه ويعزيه فيه، ولما وصله الكتاب بذلك ركب من قصره إلى قصر أبي جعفر المنصور على شط بغداد، فصلى بالناس ثم صعد المنبر، فخطبهم وعزاهم في أبيه الرشيد ووعدهم الخير وطلب منهم البيعة لأنه ولي العهد من بعد أبيه، فبايعه الناس جميعاً، فاستقام له الحال واستتب له الأمر في البلاد لولا ما كان يجيش به صدر أخيه المأمون من حسد أفضى إلى النزاع والخلاف بينهما.

ومن الحقيقة أن يقال: إن الحسد لوثة خسيسة غائرة في أعماق النفس البشرية، إنها لوثة مقيتة مستكنة لا تكاد الطبائع البشرية تنجو منها إلا طبائع النبيين والصديقين من أبرار البشر وأطهارهم وقليل ما هم.

وفي سنة أربع وتسعين ومائة، أمر الأمين بالدعاء لولده موسى على المنابر وسائر الأمصار وبالإمرة من بعده، ثم يُدعى من بعده لأخيه المأمون ثم لأخيه القاسم، وكان الأمين في ذلك عازماً على الوفاء لأخويه بما شرط لهما، لكنه قد حمله المحرضون على تغيير نيته في أخويه، وسوّلوا له خلع المأمون والقاسم، فلما بلغ المأمون ذلك ساءه ذلك وأنكره فأظهر الامتناع وأبى كل الإباء.

وفي سنة خمس وتسعين ومائة، أمر الأمين أن لا يتعامل الناس بالدراهم والدنانير، التي عليها اسم المأمون وذلك على سبيل الإغاظة له والنكاية به سعياً لإضعاف مكانته.

ثم نهض الأمين بعد ذلك للمواجهة، فعقد الإمارة لعلي بن عيسى بن ماهان على همذان وأصبهان وقم وما حول ذلك من البلدان، وأمره بحرب المأمون وجهزه بجيش كثيف ليأتي به المأمون، وخرج معهم الأمين مشيعاً حتى وصل الري فتلقاهم الأمير طاهر في أربعة آلاف فاقتتلوا، فقتل قائد جيش الأمين وهو علي بن عيسى وانهزم أصحابه، فاضطربت الأمور بعد ذلك وكثرت الأراجيف وازداد نفوذ المأمون وقوي شأنه.

وفاة الشاعر ابو نواس:

وفي هذه السنة، سنة خمس وتسعين ومائة توفي الشاعر أبو نواس وهو الحسن بن هانيء بن صباح بن عبدالله بن الجراح، ويقال له: أبو نواس البصري، وكان أبوه من أهل دمشق من جند مروان بن محمد، ثم صار إلى الأهواز، وتزوج هنالك امرأة اسمها خلبان، فولدت له أبا نواس، ثم صار هذا إلى البصرة فتأدب فيها على أيدي نفر من أهل العلم والشعر، وقرأ كتاب سيبويه، فنشأ شاعراً بليغاً موهوباً وله في الشعر في مختلف أغراضه باع طويل، وقد أثنى عليه في ذلك غير واحد من البلغاء منهم الأصمعي والجاحظ والنظام.

قال أبو عمرو الشيباني في هذا الصدد: لولا أن أبا نواس أفسد شعره بما وضع فيه من الأقذار لاحتججنا به، وهو يريد بذلك شعره في الخمريات والنساء، من أجل ذلك كان بعض الناس يفسِّقه ويرميه بالفاحشة، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وغير ذلك من وجوه التهمة، أما اتهامه بالزندقة فذلكم بعيد عن أبي نواس، فما كان الرجل يعبأ بقضايا الكلام أو التعثر بسقطات الزنادقة، وإنما كل أمره الجموح في التلذذ بالشراب والإفراط المتهافت في تتبع النساء.

وبالجملة فإن أبا نواس مسلم قد ابتلي بعشق النساء فضلاً عن تلبُّسه بمجالس اللهو والشراب، والله بفضله ورحمته يتجاوز عن مساءات المسيئين وخطاياهم.

وفي سنة ست وتسعين ومائة، بعث الأمين جيشاً تعداده أربعون ألفاً لقتال طاهر بن الحسين من جهة المأمون، فاقتتلوا وانهزم جيش الأمين، وصار أهل بغداد فرقتين، إحداهما مع الأمين والأخرى عليه، ثم استحوذ طاهر بن الحسين على أكثر البلاد للمأمون، وخلع أكثرُ أهل الأقاليم الأمين ليبايعوا المأمون.

فضعف بذلك شأن الأمين وتشتت شمله واضطرب في أمره، وتقدم طاهر بن الحسين بجيوشه نحو الأنبار فاشتد الحال على الناس وثارت بينهم الفتنة وازداد شأن الأمين ضعفاً وسوءاً.

وفي سنة سبع وتسعين ومائة، شدد طاهر بن الحسين الحصار حول بغداد ليضيق بذلك على الأمين، فهرب كثير من جند الأمين إلى طاهر بن الحسين، وقتل من أهل بغداد خلق كثير، وضاق الأمين بذلك ذرعاً، ولم يبق معه ما ينفق على الجند، واستحوذ طاهر على الأموال والغلات ودعا الأمراء إلى مبايعة المأمون، فاستجابوا جميعهم، فضعف بذلك أمر الأمين كثيراً وتفرق عنه أكثر أصحابه، وبقي هو مضطهداً ذليلاً وشاعت الفتن في بغداد وعمت الفوضى.

مقتل الأمين:

اشتد الأمر بالأمين وزادت من حوله المحن والكروب ولم يبقَ عنده من الأمراء والجند إلا القليل، فشاورهم في أمره، ثم وقع أخيراً في الأسر، فبعث إليه طاهر جنداً من العجم ليأتوه به، فلما دخلوا عليه غشيه منهم خوف شديد فخفق قلبه خفقاناً عظيماً ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فما لبث أحدهم أن ضربه بالسيف على مفرق رأسه فصاح قائلاً: ويحكم أنا ابن عم رسول الله ﷺ، أنا ابن هارون، أنا أخو المأمون، اللّهَ اللّهَ في دمي!!

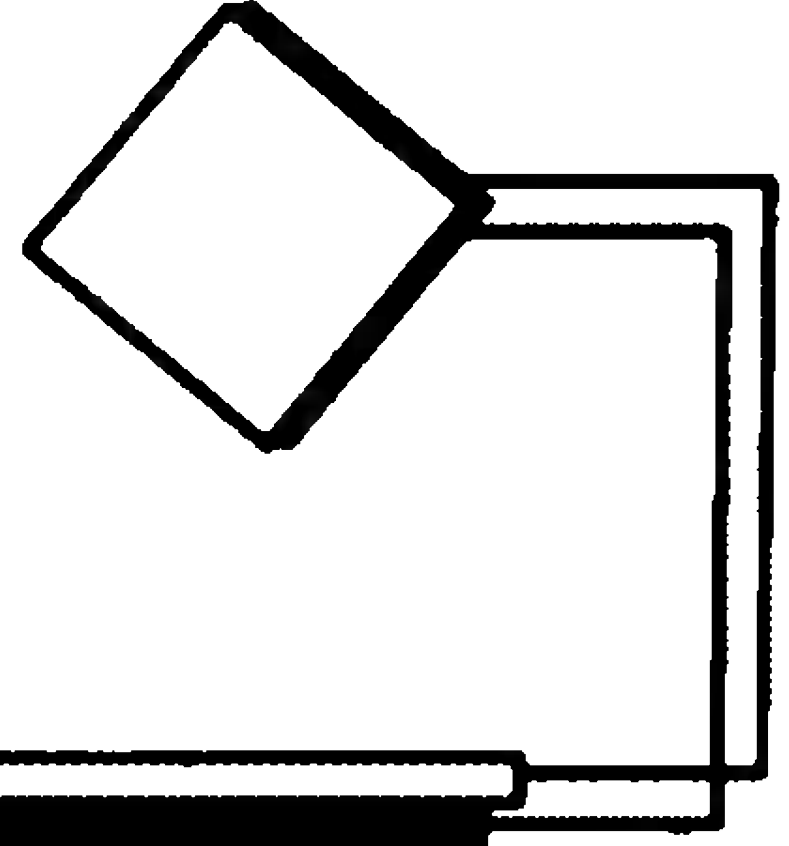
فلم يعبأوا بصياحه وندائه، بل تزاحموا عليه يضربونه بالسيوف حتى قتلوه رحمه الله، ثم بعث طاهر برأس الأمين إلى المأمون على ترس، فلما رآه هذا سجد شاكراً مبتهجاً.

وعقب مقتل الأمين هدأت الفتن وسكنت الأمور وشاع الأمن والاستقرار، وكانت مدة خلافة الأمين أربع سنين وسبعة أشهر.

وقد كان الأمين كثير الأدب فصيحاً يقول الشعر ويعطي عليه الجوائز الكثيرة، وكان شاعره أبا نواس، وقد كان هذا سجيناً مع الزنادقة فأحضره الأمين وأطلقه، ثم حبسه مرة أخرى في شرب الخمر وطال حبسه ثم أطلقه بعد أن أخذ عليه عهداً أن لا يشرب الخمر ولا يأتي الذكور من المردان، فامتثل أبو نواس لذلك، وكان لا يفعل شيئاً مما استتابه منه الأمين[1].



(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص١٥١ ـ ٢٤٣.



الفصل السادس

خلافة المأمون

لما قتل الأمين استقرت البيعة للمأمون في طول البلاد وعرضها، ثم ما لبث أن خرج عليه في الكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن، وكان يدعو إلى الرضى من آل محمد والعمل بالكتاب والسنة، وكان أمير جيشه أبا السرايا بن منصور الشيباني، وقد أيده واجتمع عليه كثير من الناس، ثم سار أبو السرايا بجنده إلى القادسية فاعترضهم بعض جيوش المأمون فهزموهم وجُرح أبو السرايا جراحة منكرة، ثم ولوا هاربين، فاعترضهم كذلك بعض الجيوش فأسروهم وقتلوا أبا السرايا، فكان بين خروجه وقتله عشرة أشهر.

وفي اليمن خرج إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، وكان يسمى الجزار لكثرة من قتلهم من اليمن، لكنه لما بلغه مقتل أبي السرايا ولّى هارباً إلى اليمن، فاستحوذ عليها.

وفي سنة إحدى ومائتين، بايع المأمون لعلي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب، أن يكون وليّ عهده من بعده، وذلك أن المأمون رأى أن علياً الرضى خير أهل البيت وليس في بني العباس من حيث العمل والدين مثله.

أما العباسيون فقد أظهروا البيعة لإبراهيم بن المهدي، ومن بعده لأخيه

إسحاق بن موسى بن المهدي وخلعوا المأمون، ثم صعد إبراهيم بن المهدي المنبر وبايعه الناس، ولقب بالمبارك.

وقد جرت حروب في الكوفة بين أصحاب إبراهيم وأصحاب المأمون واقتتلوا فيما بينهم قتالاً شديداً.

وفي سنة أربع ومائتين، قدم المأمون أرض العراق بعد أن مرّ بجرجان ثم سار منها إلى النهروان حيث وافاه الأمراء والقادة وجمهور الجيش، وهو يلبس الخضرة، فلبس أهل بغداد الخضرة، ثم سأله طاهر بن الحسين أن يلبس السواد لأنه لباس الآباء من ورثة الأنبياء، فاستجاب المأمون لذلك ولبس السواد ثم ألبس بعده جماعة من الأمراء السواد فلبس الناس السواد.

وفي هذه السنة توفي جماعة من أعيان العلم والدين، منهم: إسحاق بن الفرات، وأشهب بن عبدالعزيز المصري المالكي، والحسن بن زياد الكوفي الحنفي، وأبو داود الطيالسي صاحب المسند، وهو أحد الحفاظ.

وفاة محمد بن إدريس الشافعي:

وكان من أعاظم المتوفين في هذا العام، درة الزمان، وإمام العلم والعلماء عبر السنين والأيام الإمام الشافعي وهو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، القرشي المطلبي، وقد ولد بغزة، وقيل: بعسقلان سنة خمسين ومائة، ومات أبوه وهو صغير فحملته أمه إلى مكة وهو ابن سنتين كيلا يضيع نسبه، فنشأ بمكة وقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر، وأفتى الناس وهو ابن خمس عشرة سنة، وقد عني باللغة والشعر، وأقام في هذيل عشر سنوات، وقيل: عشرين سنة، فتعلم منهم لغات العرب، فكان بذلك من ألمع الفصحاء والبلغاء، وقد قرأ بنفسه الموطأ على مالك، وتفقه على مالك أيضاً وتفقه به جماعة ومن بعدهم.

ثم عاد الشافعي إلى العراق فاجتمع به جماعة من العلماء منهم أحمد بن حنبل وأبو ثور والزعفران وغيرهم، ثم رجع إلى مكة ثم إلى

بغداد، ثم انتقل منها إلى مصر فأقام بها حتى مات في هذه السنة، وفيها صنف كتابه الأم، ثم طُلب منه أن يكتب في الأصول، فكتب الرسالة.

وكان أحمد بن حنبل يدعو لهذا الإمام العظيم في صلاته نحواً من أربعين سنة، وكان أحمد يقول في الحديث الذي رواه أبو داود بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»**، قال: فعمر بن عبدالعزيز على رأس المائة الأولى، والشافعي على رأس المائة الثانية.

وقال داود بن علي الظاهري في كتاب جمعه في فضائل الشافعي: للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره، من شرف نسبه، وصحة دينه ومعتقده، وسخاوة نفسه، ومعرفته بصحة الحديث وسقمه وناسخه ومنسوخه، وحفظه الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء، وحسن التصنيف، وجودة الأصحاب والتلامذة مثل أحمد بن حنبل في زهده وورعه وإقامته على السنة.

وقد توفي الشافعي بمصر عن أربع وخمسين سنة، رحمه الله.

وفي سنة سبع ومائتين خرج عبدالرحمٰن بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، في اليمن داعياً إلى الرضى من آل محمد، فلما ظهر بايعه الناس، فبعث إليه المأمون جيشاً كثيفاً بقيادة دينار بن عبدالله، فما لبث عبدالرحمٰن أن سمع وأطاع ثم قدم إلى بغداد مذعناً للمأمون.

وفي هذه السنة توفي طاهر بن الحسين نائب العراق وخراسان، فقد وجد ميتاً في فراشه بعد أن صلى العشاء الآخرة، إذ استبطأه أهله إذ لم يخرج لصلاة الفجر فدخل عليه أخوه وعمه فوجداه ميتاً.

وفي سنة ثمان ومائتين توفيت:

وفاة السيدة نفيسة:

وفي سنة ثمان ومائتين توفيت السيدة نفيسة وهي نفيسة بنت أبي

محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، القرشية الهاشمية، كان أبوها نائباً للمنصور على المدينة النبوية خمس سنوات، ثم غضب المنصور عليه فعزله عنها وأودعه السجن ببغداد.

على أن السيدة نفيسة دخلت الديار المصرية مع زوجها إسحاق بن جعفر، فأقامت بها وكانت ذات مال فأحسنت إلى الناس والضعفاء كالزمنى والمرضى، وكانت رحمها الله عابدة زاهدة، تجزل في بذل الخير للناس وأولي الحاجة.

وقد عرفت الشافعي بمصر وأحسنت إليه كثيراً، وعقب وفاته أمرت بجنازته فأدخلت إلى منزلها فصلت عليه.

ولما توفيت السيدة نفيسة عزم زوجها إسحاق بن جعفر أن ينقلها إلى المدينة النبوية، لكن أهل مصر منعوه من ذلك وسألوه أن يدفنها عندهم، فدفنت في المنزل الذي كانت تقيم فيه.

وفي السنة الثانية عشرة بعد المائتين، بعث المأمون محمداً بن حميد الطوسي على طريق الموصل لمحاربة بابك الخرمي في أذربيجان.

بدعة القول بخلق القرآن:

وفي هذه السنة أظهر المأمون في الناس بدعتين شنيعتين، أولاهما: القول بخلق القرآن، وذلك يعني أن القرآن ـ وهو كلام الله ـ غير أزلي ولا قديم، والصواب الذي عليه أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله، وكلام الله صفة من صفاته، ومن المعلوم بالضرورة أن الله جلّ جلاله قديم أزلي ليس له أول ولا بداية سواء في أسمائه أو في صفاته، وإذا كان القرآن وهو كلام الله صفة من صفاته سبحانه فلا جرم أن يكون بذلك أزلياً فهو إذن غير مخلوق.

بدعة تفضيل علي على الناس بعد النبي ﷺ:

أما البدعة الثانية فهي تفضيل علي بن أبي طالب على الناس بعد

رسول الله ﷺ، وهي صورة من صور التشيع الذي يجنح فيه قائلوه إلى منزلق التعصب والهوى، والقول السديد أن علياً رضي الله عنه، بالرغم من منزلته الرفيعة التي تلج قلوبنا من أوسع أبوابها، وبالرغم من قدره العظيم الراسخ في السويداء من بصائرنا ومشاعرنا، فإننا لا نبرح القول الذي عليه السلف من أهل السنة والجماعة لهذه الأمة وهو أن الشيخين أبا بكر وعمر مقدمان على من سواهما من المؤمنين.

وفي سنة أربع عشرة ومائتين، التقى محمد بن حميد قائد جيش المسلمين، وبابك الخرمي، فقتل الخرمي كثيراً من المسلمين وانهزم آخرون منهم.

وفي سنة خمس عشرة ومائتين، ركب المأمون في جيش كثيف من بغداد متوجهاً نحو الروم لغزوهم، فسار المأمون في جحافل المسلمين إلى بلاد طرسوس ودخلها، ثم رجع من بعد ذلك إلى دمشق.

وفي سنة ست عشرة ومائتين، عدا ملك الروم، واسمه توفيل بن ميخائيل على جماعة من المسلمين وقتلهم في طرسوس وكانوا نحواً من ألف وستمائة إنسان.

فلما أُخبر المأمون بذلك نهض من فوره إلى بلاد الروم فافتتح بلداناً كثيرة سواء كان ذلك صلحاً أم عنوة، وأقام المأمون ببلاد الروم بضعة شهور ثم عاد إلى دمشق.

وفي هذا العام مات فريق من أهل العلم والمعرفة والشرف، منهم: الأصمعي وهو صاحب اللغة والنحو والشعر.

وفاة زبيدة امراة الرشيد:

وكان منهم أيضاً زبيدة امرأة الرشيد وهي ابنة جعفر بن المنصور العباسية الهاشمية القرشية، وهي زوجة الرشيد وابنة عمه وكانت أحب الناس إليه، وكانت ذات مال وجمال وخير وبرّ وتقوى.

وفي سنة سبع عشرة ومائتين، سار المأمون إلى بلاد الروم فحاصر لؤلؤة قائد جيشهم مائة يوم ثم كرَّ راجعاً، ثم جاء ملك الروم فأحاط بجيش المسلمين، فلما بلغ المأمون خبره سار إليه فخشي ملك الروم وجنح إلى طلب الأمان والمصالحة، فكتب إليه المأمون يوبخه توبيخاً ويقرعه أيما تقريع، وقال له: إنما أقبل منك الدخول في الحنيفية وإلا فالسيف والقتل، والسلام على من اتبع الهدى.

حمل الناس على القول بخلق القرآن:

وهذه فتنة شنيعة ومحنة عمياء انتكس فيها المأمون وأركس فيها كثيراً من الناس قهراً وإكراهاً أو عن طواعية واقتناع، لا جرم أن هذه خطيئة هوى فيها المأمون وهو يركب متن الشطط الباطل في هذه المسألة التي عصفت بالمسلمين فيها ريح الفتنة، فعمَّ فيهم النزاع واللجاج، وكان في غنى عن كل هذا الضجيج العارم الفارغ لولا ما اصطنعته أذهان المعتزلة من مقولة صماء لا تستند إلى دليل معقول سديد، والأنكى من ذلك وأعتى أن يحمل المأمون العلماء وأئمة المسلمين على القول بهذه البدعة المصطنعة حملاً فيكرههم على ذلك إكراهاً وإلا قوبلوا بالتنكيل والحرمان والإيذاء سواء بالضرب أو الحبس.

على أن المقصود بخلق القرآن، أنه محدث وكل محدث مخلوق، فهو ليس قديماً ولا أزلياً، وهو قول قد خالف فيه جمهور العلماء من محدثين وغيرهم فضلاً عن أهل الكلام فإن أكثرهم قالوا بأزلية القرآن، فهو قديم غير محدث، لأنه كلام الله، وكلامه واحد من صفاته، والله جلّ جلاله قديم أزلي في ذاته وفي صفاته.

أما غير ذلك من حذلقات يصطنعها كثير من المعتزلة أو غيرهم فليس إلا إيغالاً في التيه والشطط، وجنوحاً للزلل والغرور والهوى.

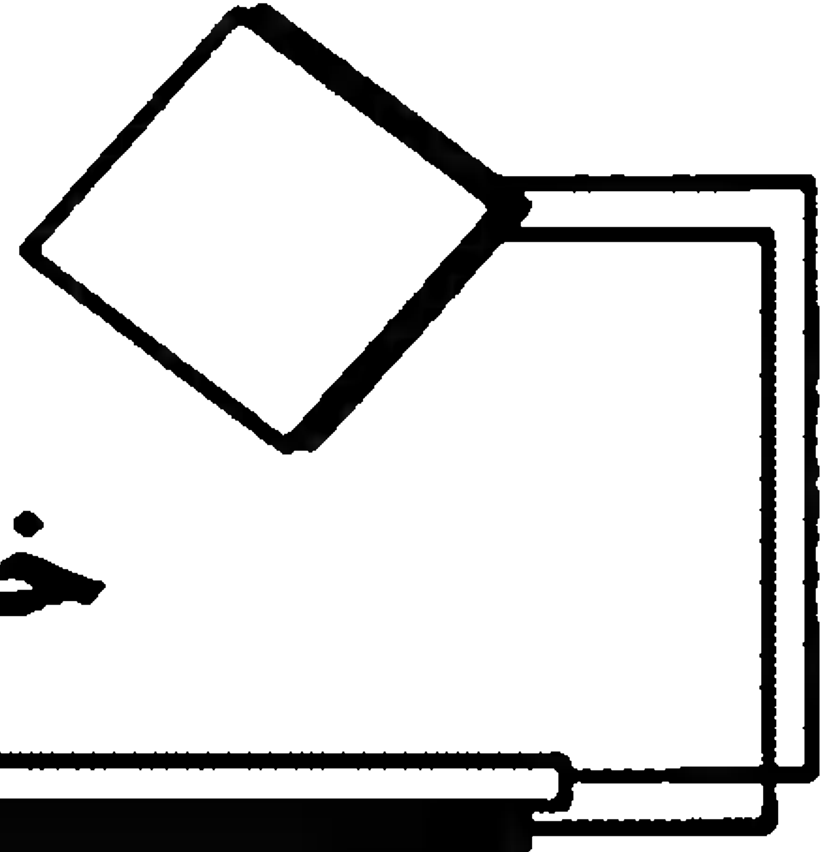
ومن الذين أوذوا وعذبوا في هذه المسألة الإمام أحمد بن حنبل، فقد أبى أن يقول بخلق القرآن، فلم يضعف ولم يلن كما ضعف ولان غيره من

العلماء استناداً منهم إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: الآية ١٠٦].

لكن الإمام أحمد مضى يقول الحق غير هيّاب ولا متلجلج ولا مضطرب مهما تكون النتيجة، فأرسله نائب المأمون في نفر ممن ثبتوا على الحق ـ إلى المأمون وهو بطرسوس ـ وكان الإمام أحمد مقيداً فجعل يدعو الله عز وجل أن لا يجمع بينه وبين المأمون، فاستجاب الله لوليه المؤمن ابن حنبل دعاءه، ثم أعيد بعد ذلك إلى بغداد[1].



(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص٢٤٤ ـ ٢٨٠.



الفصل السابع
خلافة المعتصم بالله

وهو المعتصم بالله أبو إسحاق بن هارون، وقد بويع له بالخلافة يوم وفاة أخيه المأمون بطرسوس، وهو الذي صلى عليه، فبادر الناس إليه بالبيعة وبالتعزية بالمأمون، ثم ركب المعتصم بالجنود إلى بغداد فدخلها في أبهة عظيمة.

وفي هذه السنة دخل كثير من أهل همذان وأصبهان وغيرها في دين الخرّميّة، فجهز إليهم المعتصم جيوشاً كثيرة بقيادة إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، فخرج إليهم بجيشه وقهرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً.

نهاية بشر المريسي:

وفي هذا العام مات بشر المريسي، وهو من المتكلمين وشيخ المعتزلة وأحد الذين أضلوا المأمون بفرية خلق القرآن، وقد نهاه الشافعي عن ذلك وحذره تحذيراً، لكنه ظل سادراً في ضلاله حتى حكي عنه أقوال عجيبة تصم من يقولها بالكفر.

وفي سنة تسع عشرة ومائتين، بعث المعتصم جيشاً كثيفاً بقيادة عجيف لقتال الزط الذين عاثوا في بلاد البصرة فساداً وقطعوا الطريق واعتدوا على الناس ينهبونهم ويخيفونهم، فقتلهم المسلمون وبددوهم تبديداً.

وفي سنة عشرين ومائتين، عقد المعتصم للأفشين واسمه حيدر بن

كاوس على جيش عظيم لقتال الخرّميّة وقائدهم بابك الذي استفحل أمره وقويت شوكته، وعاث وجماعته في الأرض الفساد وكان هذا زنديقاً خبيثاً، فقد سار إليه الأفشين بجيشه، فالتقى هو وبابك فاقتتلا قتالاً عنيفاً فقتل المسلمون من الخرّميّة خلقاً كثيراً يزيد على المائة ألف.

وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين، دخل الأفشين ومعه بابك الخرمي على المعتصم، فلما أحضر بابك بين يدي المعتصم أمر بقتله، وكان هذا الشقي اللعين قد قتل من المسلمين خلقاً كثيراً يزيد على مائتي ألف، وذلك خلال مدة ظهوره وهي عشرون سنة، وبذلك أراح الله المسلمين من هذا الشيطان الأثيم.

وفي هذه السنة، اعتدى الروم على أهل ملطية من المسلمين وما حولها فأوقعوا بهم مذبحة فظيعة، إذ قتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا منهم كثيراً، وكان في الأسرى ألف امرأة من المسلمات، وقد مثلوا بالمسلمين تمثيلاً شنيعاً، إذ قطعوا آذانهم وأنوفهم، وسملوا أعينهم قبحهم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، فلما بلغ المعتصم خبر الروم وقتلهم المسلمين والتمثيل بهم فضلاً عن أسرهم النساء المسلمات، أثاره ذلك بالغ الإثارة، فاستشاط لذلك غضباً وصرخ في قصره بالنفير، ثم نهض من فوره وأمر بتعبئة الجيوش للمسير إلى الروم وغزوهم في عقر دارهم، فخرج من بغداد على رأس جيشه من المسلمين، فأسرعوا السير ولم يجدوا ملك الروم، إذ فعل في المسلمين ما فعل من تقتيل وأسر، ثم كرّ راجعاً إلى بلاده، فلم يظفر به المعتصم، فسأل المسلمين: أيُّ بلاد الروم أمنع؟ قالوا: عمورية، فإنها أشرف لدى الروم من القسطنطينية.

فتح عمورية:

استعد المعتصم لهذا الخطب بالغ الاستعداد، وجهز جهازاً لم يجهزه أحد قبله من الخلفاء، فسار في جحافل كثيفة مهيبة من المسلمين، إلى عمورية، وقد سار ملك الروم في جيشه قاصداً المعتصم فتقارب الجيشان، فما لبث جيش الروم أن ولى منهزماً فتقطعت فلوله في الآفاق بعد أن شدد

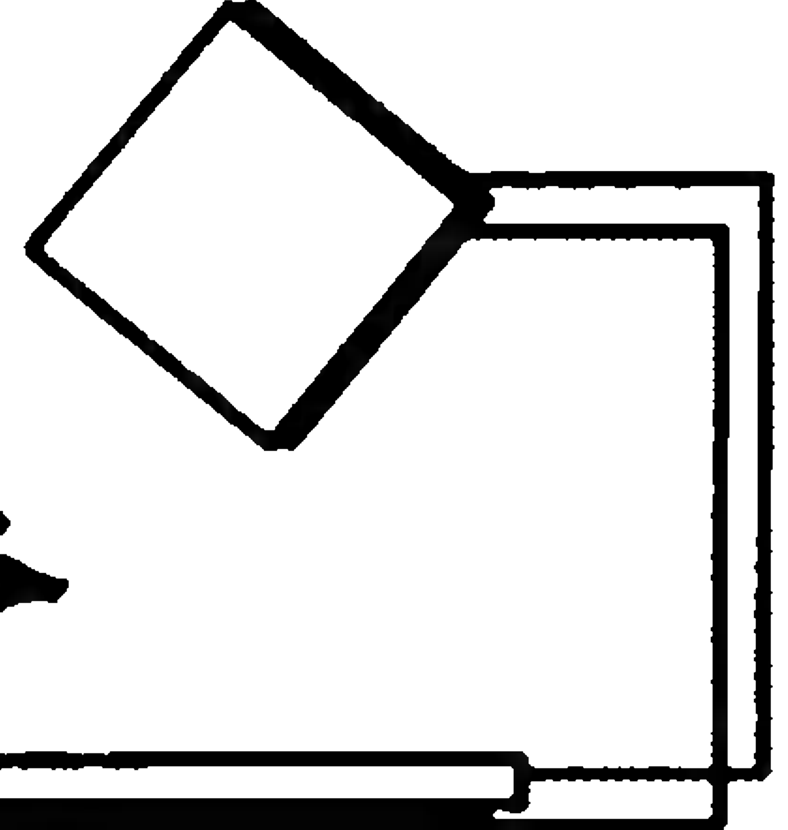
المسلمون عليهم الحصار وضربوا معاقلهم وحصونهم بالمجانيق والدبابات وغير ذلك من آلات الحرب، ثم دخلوا عمورية وهم يهتفون بالتكبير، وأخذ جنود الروم يتفرقون ويتيهون في الأرض هرباً، وراح المسلمون يقتلونهم في كل مكان يجدونهم فيه، وغنم المسلمون من عمورية أموالاً لا توصف لكثرتها، فهم أحق بها، ذلك أن المسلمين إنما ينفقون المال في وجوه الخير والرحمة وإصلاح البلاد والعباد، أما المشركون على اختلاف شركهم، فإنهم ينفقون الأموال في وجه الشر والفساد والظلم، ويأتي في مقدمة ذلك أنهم يتمكنون من شراء وسائل الحرب والقتال بالمال، وبذلك فإن وجود المال في أيدي الظالمين من بني البشر سبيل عظيم للعدوان على الآخرين، وسبب أكبر يمكّن العتاة والطغاة من الانتصاب للشر وإشاعة الفتن والإرهاب والباطل.

وفي سنة سبع وعشرين ومائتين، توفي المعتصم، ويقال له: المثمن، لأنه ثامِنُ ولد العباس، وهو ثامِنُ الخلفاء من ذريته، وأنه قد فتح ثماني فتوحات، وأنه أقام في الخلافة ثماني سنوات وثمانية أشهر وثمانية أيام، وأنه ولد سنة ثمانين ومائة، وأنه توفي عن ثمان وأربعين سنة، وأنه خلّف ثمانية بنين وثماني بنات.

وقد كان المعتصم شديد الغيرة على كرامة الإسلام والمسلمين، فإذا ما مسهم طائف من عدوان المشركين نهض مستنفراً غاضباً للذب عن بيضة المسلمين وعن شرفهم، فقد كتب إليه ملك الروم مرة يتهدده، فكتب إليه المعتصم: قد قرأت كتابك وفهمت خطابك، والجواب عندي ما ترى لا ما تسمع وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار.

وقد فتح المعتصم عمورية وقتل من أهلها ثلاثين ألفاً وأسر مثلهم وذلك عقب عدوان الروم على المسلمين بالقتل وأسر النساء منهم.





الفصل الثامن
خلافة هارون الواثق

بايعه الناس بالخلافة قبل موت أبيه المعتصم، وكنيته أبو جعفر، وأمه تسمى قراطيس وهي أم ولد رومية، وقد خرجت للحج في هذه السنة وهي سبع وعشرون بعد المائتين، فماتت بالحيرة، ودفنت بالكوفة.

وفي هذه السنة توفي ملك الروم وهو تفويل بن ميخائيل بعد حكم استمر اثنتي عشرة سنة.

وفي سنة ثمان وعشرين ومائتين، حج بالناس محمد بن داود الأمير وأصاب الناس بعرفة حر شديد، ثم أعقبه برد شديد ومطر عظيم، وكل ذلك في ساعة واحدة.

وفاة أبي تمام الشاعر:

وقد توفي في هذه السنة أبو تمّام الشاعر.

وهو حبيب بن أوس بن قيس بن الأشج، أبو تمام الطائي، الشاعر الأديب، وأصله من قرية جاسم بالقرب من طبرية، وكان يعمل عند حائك في دمشق، ثم سار به إلى مصر، وقد جالس بعض الأدباء فأخذ عنهم، وكان يحب الشعر، فقرضه وأجاد فيه حتى شاع ذكره في الناس، وأعجب بشعره المعتصم فقدم عليه أبو تمام وهو مقيم في سُرَّ من رأى، فعمل فيه قصائد فأجازه وقدمه على شعراء وقته.

وكان يقال على سبيل الإطراء له والثناء عليه والإعجاب به: في طيء ثلاثة: حاتم في كرمه، وداود الطائي في زهده، وأبو تمام في شعره، وكان رحمه الله من خيار الشعراء ديناً وأدباً وأخلاقاً.

وقيل أنه توفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين في الموصل.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين، فادى المسلمون أسراهم الذين كانوا في أيدي الروم وكانت عدتهم أربعة آلاف وثلاثمائة واثنين وستين أسيراً.

مقتل احمد بن نصر الخزاعي:

وفي هذه السنة قتل أحمد بن نصر الخزاعي.

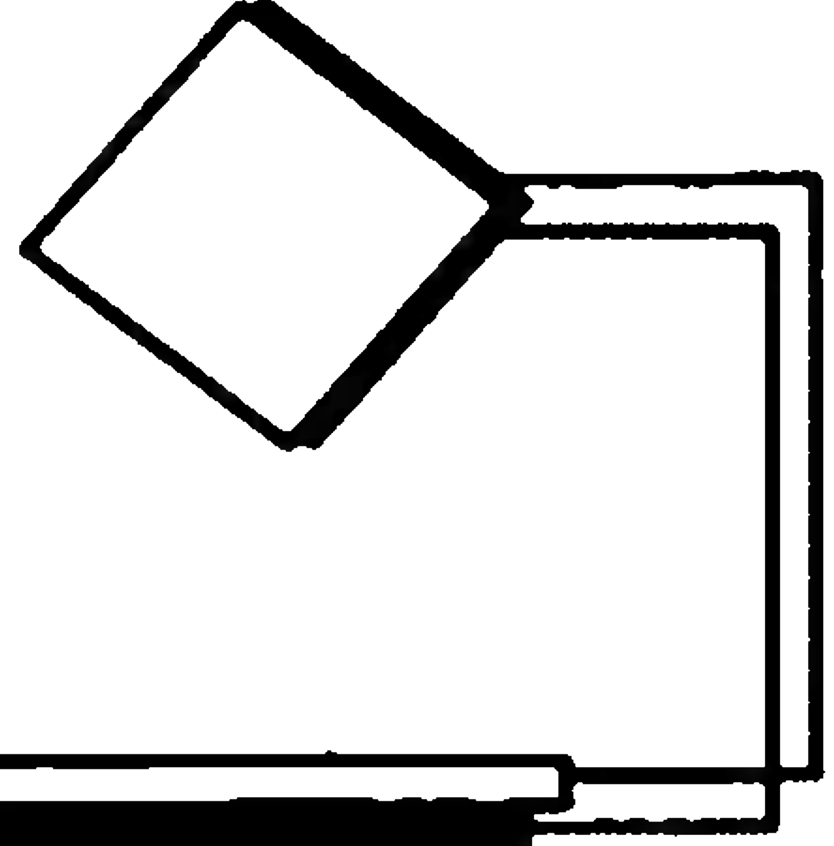
وهو أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي، وقد كان جده مالك بن الهيثم من الدعاة إلى دولة بني العباس الذين قتلوا ولده هذا، أي: أحمد بن نصر، وكان هذا ذا وجاهة وفضل وتقوى، وقد بايعه عامة الناس في هذه السنة على القيام بالأمر والنهي حين شاع الفساد في غيبة المأمون عن بغداد، وكان أحمد بن نصر من أهل العلم والدين وصالح الأعمال، وكان رحمه الله من أئمة السنة الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وكان من الذين يدعون إلى القول بأن القرآن كلام الله وأنه غير مخلوق، مع أن الواثق كان من أشد الناس في القول بخلق القرآن، وهو في ذلك يتبع ما كان عليه أبوه قبله وعمه المأمون.

وفي مقابل ذلك نهض أحمد بن نصر يدعو إلى الله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ومبيناً للناس بأن القرآن غير محدث، فهو غير مخلوق بل هو قديم منزل من عند الله، فاجتمع عليه كثير من أهل بغداد وازداد التفاف الناس من حوله حتى صاروا ألوفاً، وبذلك انتظمت البيعة لأحمد بن نصر الخزاعي في السر على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم الخروج على السلطان من أجل ابتداعه فرية القول بخلق القرآن، وبسبب ما كان عليه الواثق لم يمهله طويلاً بل أمر بسجنه تمهيداً لقتله، فلما اقتيد إليه أحمد بن نصر بادره الواثق بالسيف فقتله وهو يزعم أنه قد أقام عليه الحجة

في خلق القرآن مستحلاً بذلك دمه، وذلكم باطل وظلم تلطخت بها يد الخليفة العباسي وهو يجترىء على إزهاق نفس مؤمنة بريئة تدافع عن دين الله، وتقف مجاهدة صابرة في وجه الأهواء الضالة وتدحض ما يفتريه الخراصون والمشتطون من ضلالات وأباطيل.

ولم يمكث الواثق طويلاً بعد اجترائه على قتل أحمد بن نصر وجماعته ظلماً، فقد فتك به مرض أليم عضوض ما فتىء يوجعه ويؤرقه حتى أفضى به إلى الموت، وكان ذلك عام اثنين وثلاثين ومائتين، وقد مات عن ست وثلاثين سنة، وكانت مدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر، فأفضى بذلك إلى ما قدَّم.





الفصل التاسع

خلافة المتوكل

هو المتوكل على الله جعفر بن المعتصم، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الواثق، وكان عمره عند توليته ستاً وعشرين سنة، وكان ذلك سنة ثنتين وثلاثين ومائتين.

وفي سنة أربع وثلاثين ومائتين، خرج محمد بن البعيث عن الطاعة في بلاده أذربيجان، وأظهر للناس أن المتوكل قد مات فالتف من حوله جماعة من الأقاليم، فأرسل إليه المتوكل جيوشاً تترا، فنصبوا المجانيق على الخارجين وحاصروهم محاصرة تامة ثم قاتلوهم فقتلوهم وأنهوا خروجهم على الإمام.

وفي سنة خمس وثلاثين ومائتين، قَسا المتوكل على أهل الذمة، فلم يعاملهم بما أوجبه لهم الإسلام من كريم المعاملة والبر، بل إن الإسلام قد استوصى بأهل الذمة من أهل الكتاب خيراً كيما يعاملهم المسلمون في لين وتكريم بعيداً عن الفظاظة والقسوة والظلم، وأصدق برهان على ذلك قوله عز من قائل: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [المُمتَحنة: الآية ٨]، فلئن قسا المتوكل على أهل الذمة فعزلهم عن المسلمين بما يؤذيهم أو يهينهم ويسيء إليهم، فإنما ذلكم من عمل المتوكل كيلا يكون في ذلك لأحد حجة على الإسلام، هذا الدين الكريم المميز، المبرأ من عيوب الحكام وافتآتاتهم ومساءاتهم.

وفي هذه السنة خرج رجل من نيسابور اسمه محمود بن الفرج النيسابوري فادعى النبوة وأنه ذو القرنين، وقد اتبعه في ضلالته هذه قليل من الجهلة والمارقين، ونظم لهم هذا الدجال كلاماً ملفقاً مكذوباً، زعم أنه قد جاءه من عند الله عن طريق جبريل، ثم جيء به إلى المتوكل ومعه جماعته الذين اتبعوه، فأمر المتوكل بصفعه صفعات مبرحة، ثم مات في هذه السنة.

وفي سنة ست وثلاثين ومائتين، أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب وما حوله من المنازل والدور.

وفي سنة سبع وثلاثين بعد المائتين، أمر المتوكل بإنزال جثة أحمد بن نصر الخزاعي ـ إذ كان مصلوباً بعد قتله من قبل الواثق ـ والجمع بين رأسه وجسده وأن يتم تسليمه إلى أوليائه، ففرح الناس بذلك فرحاً شديداً، ومضى في جنازته خلق كثير من الناس وكان ذلك يوماً مشهوداً، وقد بادر المتوكل في عزم جيد ومسعى حسن بالكتابة إلى الآفاق يأمر فيها الناس بعدم الكلام في مسألة الكلام، والكف عن القول بخلق القرآن، وأمر الناس أن لا يشتغلوا بغير الكتاب والسنة، ثم أظهر للناس تكريمه للإمام أحمد بن حنبل، وقد ارتفعت مكانة السنة في زمن المتوكل وكان لا يولي أحداً إلا بعد مشورة الإمام أحمد.

وفي سنة أربعين ومائتين، مات المالكي صاحب المدونة، وهو أصله من مدينة حمص، وقد انتهت إليه رياسة مذهب الإمام مالك هنالك، وكان قد تفقه على ابن القاسم، وسبب ذلك أن أسد بن الفرات صاحب الإمام مالك قد قدم من بلاد العرب إلى بلاد مصر فسأل عبدالرحمٰن بن القاسم صاحب مالك عن أسئلة كثيرة فأجابه عنها، ودخل بها بلاد المغرب فانتسخها منه سحنون، ثم قدم على عبدالرحمٰن بن القاسم في مصر، فأعاد أسئلته عليه فزاد فيها ونقص ثم أعاد سحنون ترتيبها ورجع بها إلى بلاد المغرب، فصار الناس يرتحلون إليه، وانتشرت عنه المدونة، ثم تولى القضاء بالقيروان حتى توفي عن ثمانين سنة رحمه الله.

وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين، قام أهل حمص على أميرهم

محمد بن عبد ربه، فأرادوا قتله، وقد ساعدهم على ذلك نصارى حمص، فكتب ابن عبد ربه إلى الخليفة المتوكل يعلمه بذلك، فكتب إليه المتوكل يأمره بقتالهم، وكتب إلى والي دمشق أن يمده بجيش من عنده ليساعده على مناهضة أهل حمص، وأمره كذلك بضرب المعروفين بالشر حتى يموتوا وأن يؤدب النصارى الذين ظاهروا أهل حمص على جيش الخليفة وأن يهدم الكنيسة التي بجانب المسجد الجامع ثم يضيفها إليه.

وأمر المتوكل أيضاً بضرب من يشتم أبا بكر وعمر، وعائشة وحفصة رضي الله عنهم، ضرباً شديداً، ليرتدع بذلك أهل الضلال والزندقة.

وفاة الإمام أحمد بن حنبل:

وفي هذه السنة توفي من أعيان الرجال إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل.

وهو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس، ويفضي نسبه إلى قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهو أبو عبدالله الشيباني المروزي البغدادي، وقد توفي سنة إحدى وأربعين ومائتين عن سبع وسبعين سنة، رحمه الله.

كان في صغره يتردد على القاضي أبي يوسف في مجلسه، ثم ترك ذلك وأقبل على سماع الحديث، وقد ذكره الأئمة والعلماء بالثناء واعترفوا له بعلو المكانة في العلم والحديث حتى ذاع اسمه في الآفاق.

وكان رحمه الله ورعاً زاهداً مدبراً عن حطام الدنيا، مقبلاً على طلب العلم، قال له الإمام الشافعي مرة وهو يتردّد إليه في جملة من يأخذ عنه العلم: ألا تقبل قضاء اليمن؟ فامتنع من ذلك امتناعاً شديداً وقال للشافعي: إني إنما أختلف إليك لأجل العلم المزهد في الدنيا، فتأمرني أن أليَ القضاء؟ ولولا العلم لما أكلمك بعد اليوم، فاستحيى منه الشافعي.

وروي أنه كان لا يصلي خلف عمه إسحاق بن حنبل، ولا خلف بنيه ولا يكلمهم أيضاً لأنهم أخذوا جائزة السلطان.

قال البيهقي رحمه الله: كان الخليفة يبعث إليه المائدة فيها أشياء كثيرة من الأنواع، وكان أحمد لا يتناول منها شيئاً، وقال أيضاً: بعث المأمون مرة ذهباً يقسم على أصحاب الحديث، فما بقي منهم أحد إلا أخذ، إلا أحمد بن حنبل فإنه أبى.

محنة الإمام احمد بن حنبل:

وكان ذلك في زمن المأمون ثم المعتصم ثم الواثق، أولئك الذين عذبوا الإمام أحمد وآذوه ضرباً وتنكيلاً من أجل رأيه المستبين في مسألة خلق القرآن، وهو في ذلك كله كان يلوذ بجنابه صابراً محتسباً، فلا يعبأ بما أصابه من طول الحبس والتهديد بالقتل وسوء العقاب.

وفي هذا الصدد من ابتلاء المؤمنين وتعذيبهم روى الإمام أحمد بسنده عن سعد قال: سألت رسول الله ﷺ أي الناس أشد بلاء؟ قال: **«الأنبياء ثم الأمثل، فالأمثل»**.

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة من كنَّ فيه فقد وجد حلاوة الأيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه»**.

لقد أوذي الإمام أحمد إيذاءً شديداً في جسده، إذ أمر الخليفة بضربه بالسياط وهو مقيد اليدين والرجلين في الأغلال فضلاً عن إيداعه السجن الليالي الطوال.

ومما روي عنه من رحمة الله به وعظيم تكريمه له أنه لما أقيم ليضرب بالسياط انقطعت تكَّة سراويله فخشي أن يسقط سراويله فتكشف عورته، فحرك شفتيه فدعا الله فعاد سراويله كما كان، ويروى أنه قال: يا غياث المستغيثين، يا إله العالمين، إن كنت تعلم أني قائم لك بحق فلا تهتك لي عورة.

ذلك قليل من كثير مما ورد في محنة هذا الإمام الأعظم، وما لقيه

في حياته من ضروب التنكيل والأذى لموقفه الثابت في الذب عن كتاب الله الحكيم والتنديد بكل ما اصطنعه المغرضون والحاسدون والمتفيهقون من حذلقات الكلام كالقول بخلق القرآن.

وقد مرض الإمام أحمد بالحمى ثم توفي عن سبع وسبعين سنة وأياماً، رحمه الله.

وصية الإمام أحمد:

وكان رحمه الله قد كتب وصيته وهي:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما أوصى به أحمد بن حنبل، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العابدين، وأن يحمدوه في الحامدين، وأن ينصحوا لجماعة المسلمين، وأوصي أني قد رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وأوصي لعبدالله بن محمد المعروف ببوران علي نحواً من خمسين ديناراً، وهو مصدق فيها، فيقضي ما له من غلة الدار إن شاء الله، فإذا استوفى أعطي ولد صالح كل ذكر وأنثى عشرة دراهم[1].

وفي سنة ثنتين وأربعين ومائتين، وقعت في البلاد زلازل عظيمة، مات منها خلق كثير، وهدمت دور وأبنية كثيرة.

وفي هذه السنة، أغار الروم على بلاد الجزيرة فانتهبوا منها أشياء كثيرة وأسروا من أهلها عشرة آلاف من الذراري.

وفي سنة ست وأربعين ومائتين، دخل المتوكل مدينة الماحوزة التي بناها في العام الفائت، ثم نزل بقصر الخلافة فيها، وفي هذه السنة وقع الفداء بين المسلمين والروم ففدى من المسلمين أربعة آلاف أسير.

---

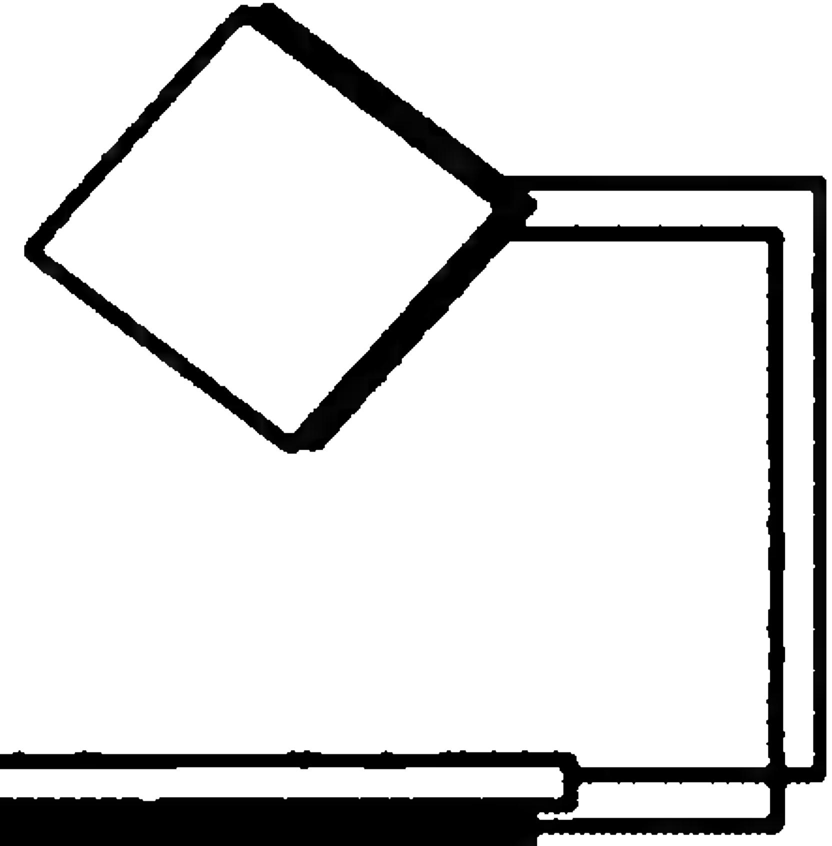
(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص٢٨٠ ـ ٣٤٣.

وفي سنة سبع وأربعين ومائتين، كان مقتل الخليفة المتوكل على الله على يد ولده المنتصر، وسبب ذلك أن المتوكل على الله كان قد أمر ابنه عبدالله المعتز ـ وهو ولي عهده من بعده ـ أن يخطب بالناس في يوم جمعة، فأداها هذا أحسن أداء، مما أثار في نفس المنتصر الحنق والحسد، فحقد على أبيه وأخيه، ثم أحضره أبوه وأهانه وأمر بضربه في رأسه، وقرر عزله عن ولاية العهد من بعد أخيه، فاشتد غضب المنتصر لذلك وازداد حقده على أبيه أكثر من ذي قبل.

وفي عيد يوم الفطر، خطب المتوكل بالناس وهو ضعيف معتل، ثم أوى إلى خيام قد ضربت له، فاستدعى إليه ندماءه ليحضروا معه السمر ومجالس اللهو، ثم تمالأ ولده المنتصر وجماعة من الأمراء على الفتك بالخليفة المتوكل، فدخلوا عليه وهو على السماط[١] فابتدروه بالسيوف فقتلوه ثم ولوا من بعده ابنه المنتصر، وقد مات وله من العمر أربعون سنة، وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر.



(١) السماط: الثوب ليست له بطانة، انظر: القاموس المحيط ج٢ ص٣٧٩.



الفصل العاشر
خلافة المنتصر

هو ابن الخليفة المتوكل، فقد تمالأ هو وجماعة على قتل أبيه لما كان يخفيه في نفسه من حقد عليه، وعقب مقتله بويع للمنتصر بالخلافة في الليل، ثم أخذت له البيعة في الصباح من يوم الأربعاء من عامة الناس.

ثم بعث إلى أخيه المعتز ليبايعه، فبايعه، وقد كان المعتز هو ولي العهد من بعد أبيه، لكن المنتصر أكرهه فخاف وبايع.

وقد أقام المنتصر في الماحوزة عشرة أيام عقب مبايعته ثم تحول منها إلى سامرا، ومعه جميع قواده وأمرائه وخدمه.

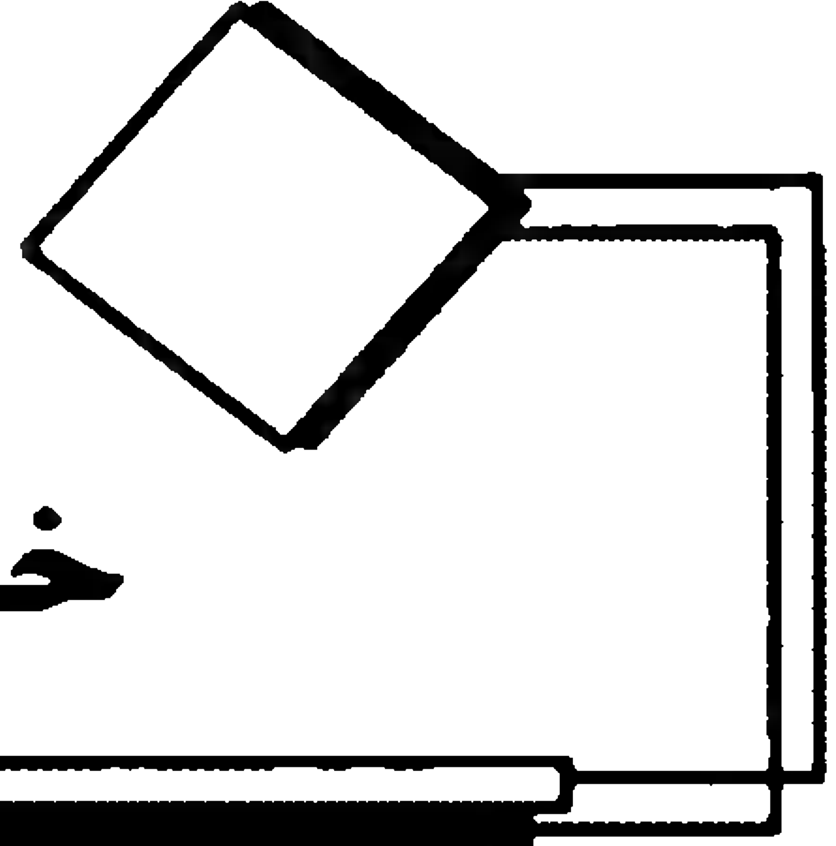
وفي سنة ثمان وأربعين ومائتين، قصد ملك الروم بلاد الشام، فجهز المنتصر وصيفاً التركي وبعثه لقتال الروم وأمره أن يقيم بالثغور أربع سنوات عقب الفراغ من قتالهم.

ثم ما لبث المعتز والمؤيد أن خلعا أنفسهما من الخلافة وأشهدا عليهما بذلك، وأنهما عاجزان عن الاضطلاع بوجيبة الخلافة، فالمسلمون بذلك في حل من بيعتهما، وذلك كله بعدما توعدهما أخوهما المنتصر بالقتل إذا فعلا ذلك، وإنما يبتغي المنتصر بذلك تولية ابنه الوهّاب بإيحاء من أمراء الأتراك إذ سوّلوا له ذلك، وخطب المنتصر بذلك على الملأ بحضور القادة والقضاة وعامة الناس وأعيانهم، وكتب بذلك إلى الآفاق لكي يعلموا بذلك ويخطبوا له بذلك على المنابر، لكنه لم يتحقق له ذلك إذ

خالفته الأقدار فلم يمكث في الخلافة عقب قتله أباه سوى ستة أشهر، فقد ألمّ به مرض شديد عضال لم يمهله طويلاً، فما لبث أن لقي حتفه فأفضى إلى ما قدم، وكان عمره حينئذٍ خمساً وعشرين سنة، وقد مكث في الخلافة ستة أشهر[1].



(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص٣٤٣ ـ ٣٥٤.



الفصل الحادي عشر
خلافة المستعين بالله

بويع هذا بالخلافة عقب موت المنتصر، فقد بايعه عامة الناس، ثم ما لبث أن خرج عليه قلة من الأتراك، إذ راحوا يهتفون: يا معتز، يا منصور، لكن الخليفة المستعين بالله قد آزره جمهور الجيش، فاقتتل الجمعان قتالاً شديداً بضعة أيام فقتل من الفئتين كثير، وجرت فتن في البلاد ثم استقر الأمر للمستعين بالله.

وفي هذه السنة عدا أهل حمص على عاملهم فأخرجوه من بين أظهرهم.

وفي سنة تسع وأربعين ومائتين، اقتتل جمع من المسلمين وآخرون من الروم قريباً من ملطية قتالاً شديداً، فقتل من الفريقين كثيرون، وقتل أمير المسلمين يومئذٍ وهو عمر بن عبدالله بن الأقطع.

وفي هذا العام وقعت في بغداد فتنة كبيرة، وسببها جماعة الأمراء والقادة الذين استحوذوا على الخلافة وقتلوا الخليفة المتوكل واستهانوا من بعده بالمنتصر والمستعين، فكرههم الناس ونادوا بالنفير العام، لمناهضة البغي، ونهضوا إلى الثغور لقتال الروم عوضاً عمن قتل من المسلمين على أيدي العدو، في الوقت الذي هانت فيه شوكة الخليفة وحلّ بها الضعف فلم ينهضوا لمقارعة الظالمين المعتدين.

وفي سنة خمسين ومائتين، ظهر أبو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وسبب

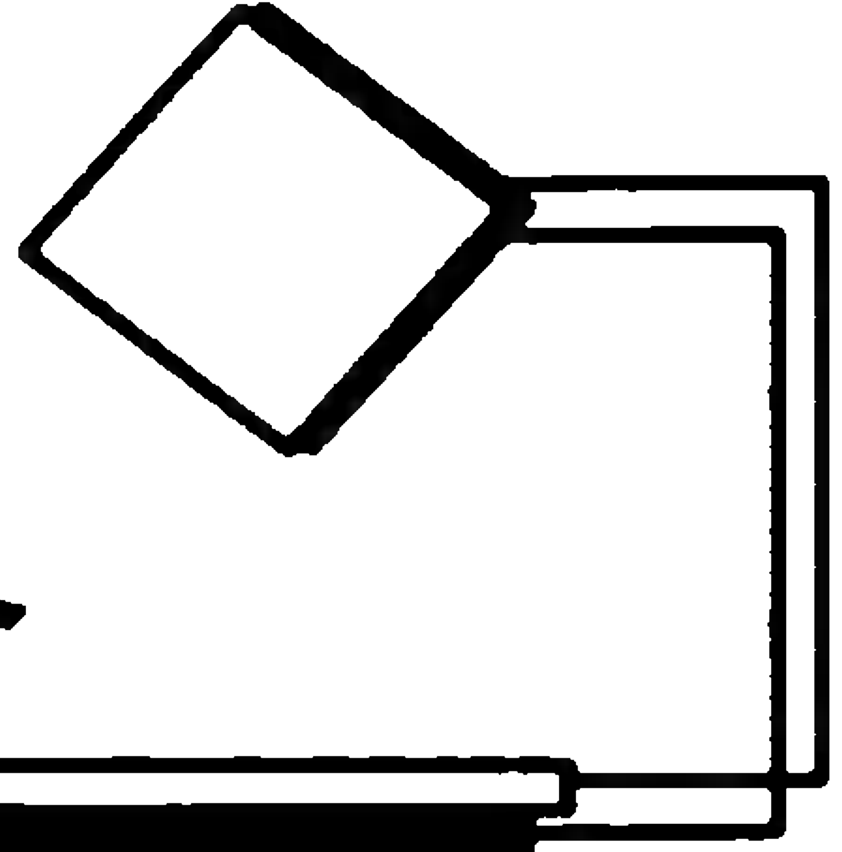
ذلك أنه أصابته فاقة شديدة، فدخل سامرا فسأل أن يعطى رزقاً من بيت المال، فقوبل بالغليظ من القول، ثم رجع إلى الكوفة، فاجتمع إليه خلق كثير من الناس، فنزل الفلوجة وازدادت من حوله جموع الناس، فقاتله أمير الكوفة وهو أبو أيوب بن الحسين بن موسى، ثم ازداد نفوذ يحيى بن عمر وانضم إليه من خرج قبله من أهل البيت وغيرهم ممن ينسب إلى الزيدية، فشرع في تحصيل السلاح وإعداد الآلات للحرب، فهرب أمير الكوفة إلى خارجها، فجاءه المدد من جهة الخليفة، ثم ساروا لمناجزة يحيى بن عمر والذين معه، فاقتتلوا قتالاً شديداً وكانت الغلبة لجيش الخليفة، وهزم الآخرون وقتل أميرهم يحيى بن عمر.

وفي سنة إحدى وخمسين ومائتين، وقعت فتنة كبيرة بين جند بغداد وجند سامرا، فدعا أهل سامرا إلى بيعة المعتز، وثبت أمر أهل بغداد على الخليفة المستعين، فاستفحل أمر المعتز بسامرا، وأمر المستعين بتحصين بغداد، وبعد ذلك بعث المعتز جيشاً بقيادة أخيه أبي أحمد بن المتوكل لقتال المستعين، فسار نحو بغداد في خمسة آلاف من الأتراك وغيرهم، ولما وصل بغداد جرت بين الجماعتين حروب طويلة وفتن شديدة، وأصاب الناس في بغداد ضيق كبير وقتل من الفئتين خلق كثير.

وفي هذه السنة ظهر رجل من أهل البيت بأرض قزوين وهو الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن الأرقط بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

وفيها كذلك ظهر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب بمكة، فهرب منه أميرها وهو جعفر بن الفضل، وانتهب إسماعيل بن يوسف المنازل وقتل جماعة من الجند وغيرهم من أهل مكة، ثم خرج إلى المدينة فهرب منها أميرها، ثم رجع إلى مكة فحصر أهلها حتى هلكوا جوعاً وعطشاً، فلقي منه أهل مكة شديد الكرب والبلاء.

وبذلك وهن أمر الخلافة في هذه السنة وأحاطت بالناس الفتن والكروب وضيق الحال.



الفصل الثاني عشر
خلافة المعتز بالله

وفي سنة ثنتين وخمسين ومائتين استقرت الخلافة باسم المعتز بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد.

وكان المستعين قد خلع نفسه من الخلافة وبايع للمعتز ودعا الخطباء يوم الجمعة بجوامع بغداد على المنابر للخليفة المعتز بالله.

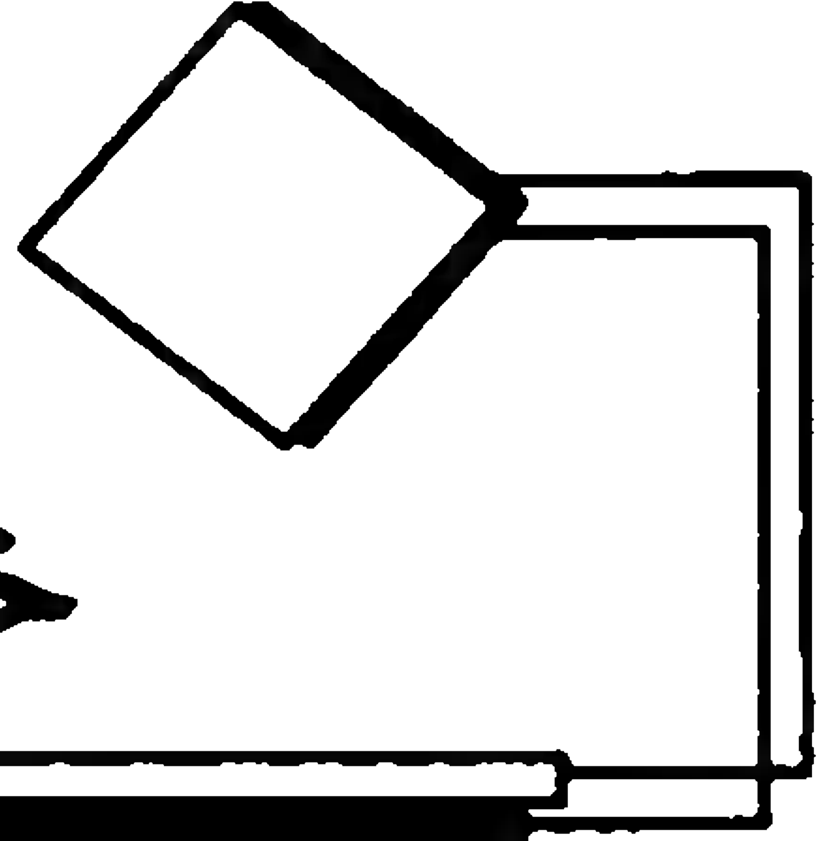
وفي هذه السنة خلع المعتز أخاه إبراهيم الملقب بالمؤيد، من ولاية العهد ثم حبسه بعد أن ضربه أربعين سوطاً، فما لبث أن توفي بعد ذلك بخمسة عشر يوماً.

وفي هذه السنة، كتب المعتز إلى نائبه محمد بن عبدالله بن طاهر، يأمره بتجهيز جيش ليسير به إلى المستعين، فجهز لذلك أحمد بن طولون التركي، فسار حتى لقي المستعين فقتله.

وفي سنة أربع وخمسين ومائتين، ولّى الخليفة أحمد بن طولون إمارة الديار المصرية، وفيها مات من الأعيان: أبو الحسن علي الهادي، وهو ابن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب، وهو أحد الأئمة الاثني عشرية، وقد كان عابداً زاهداً، وقد نقله المتوكل إلى سامرا، فأقام بها أكثر من عشرين سنة.

وفي سنة خمس وخمسين بعد المائتين، مات الخليفة المعتز بن المتوكل عن أربع وعشرين سنة، وامتدت خلافته أربع سنين وستة أشهر، وقد أثنى عليه الإمام أحمد في حسن فهمه وأدبه.





الفصل الثالث عشر

خلافة المهتدي بالله

وهو أبو محمد عبدالله محمد بن الواثق بن المعتصم بن هارون، وقد بويع بالخلافة بعد أن خلع المعتز نفسه بين يديه وإشهاده عليه بأنه عاجز عن الاضطلاع بأمور الخلافة، وأنه قد رغب أن يقوم غيره بأعبائها، ثم مد محمد بن الواثق يده أمام الناس فبايعه الخاصة، حتى إذا صعد المنبر بايعه عامة الناس وكتب على المعتز كتاباً أشهده فيه على نفسه بالخلع، وبأنه عاجز عن احتمال الخلافة وأنه مبايع للمهتدي، وبذلك استقرت الأمور واستتب شأن الخلافة للمهتدي.

وفي هذه السنة وقعت فتن ببغداد ووقع اقتتال بين الجند وبعض الخارجين من جهة، وبين العامة والرعاع من جهة أخرى، فقتل خلق كثير من الناس، وما كان لهذه الفتن والحروب أن تقع لولا ضعف الخليفة وهوانه على الذين من حوله من الأمراء والولاة والقادة، فإن من مقومات الحاكم الصالح أن يكون مهيب الجانب قوي البأس من غير اغترار ولا بطش ولا حيف، وإذا كان الحاكم قوياً في شخصه وعزمه واقتداره، وكان خبيراً مستبصراً عازماً بأمور الرعية ومشكلاتهم وهو من الصابرين والأمناء والأقوياء، لا جرم أن يستقيم به الحال وتستقر الأمور، ومن دون هذه الصفات يعجز الحاكم عن القيام بأمر الرعية قياماً سديداً قويماً.

وفي هذه السنة ظهر بالبصرة رجل كاذب اسمه علي بن محمد بن

عبدالرحيم، وكان يزعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وقد دعا الناس في خروجه إلى طاعته فاتبعه كثير من أهل هجر، فوقعت بسببه حروب وفتن كثيرة.

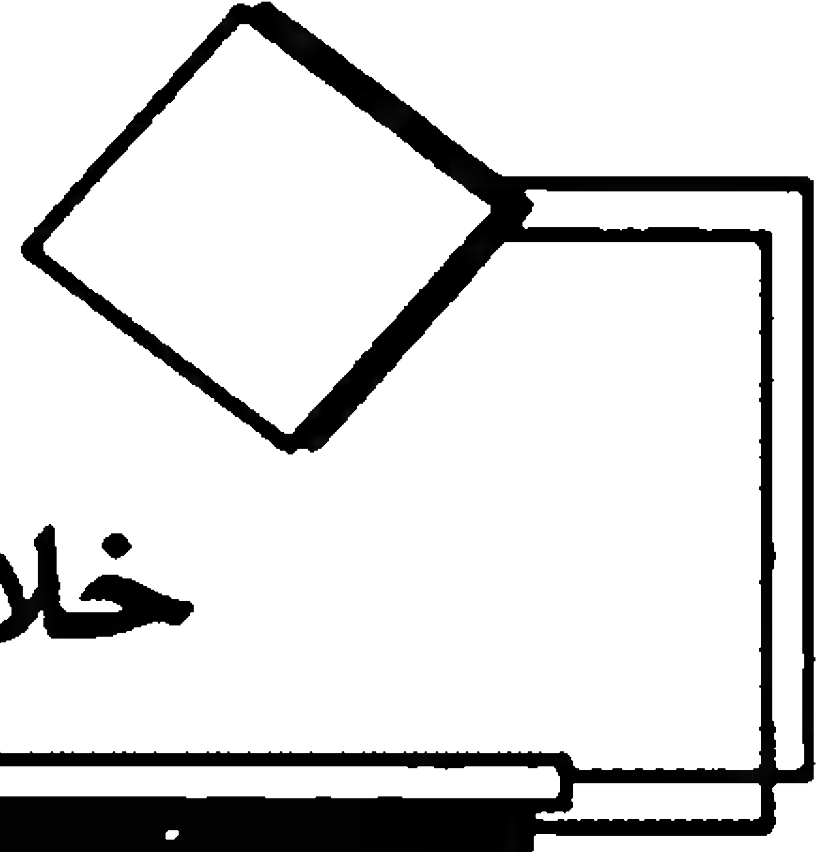
وفي خروجه هذا التف حوله كثير من الزنج فعاثوا في البصرة فساداً وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً.

وفاة الجاحظ المتكلم المعتزلي:

وقد توفي في هذا العام الجاحظ، وسمي بذلك لجحوظ عينيه، وكان شنيع المنظر سيء الاعتقاد، لما تقوّله من بدع وضلالات، لكنه مع ذلك كان غزير العلم واسع المعرفة، وقد صنف في ذلك جملة كتب، ومن أهمها: كتاب الحيوان، وكتاب البيان والتبيين، وقد أصيب بالفالج في آخر عمره.

خلع المهتدي بالله وقتله:

كثرت في زمن هذا الخليفة الفتن، وتمالأ عليه كثير من جند الأتراك، فأراد المهتدي أن يخالف بين كلمة الأتراك، ثم ركب في جيش كثيف للقائهم ومناجزتهم، فقتل قائدهم بايكباك، فالتقت الأتراك جميعاً وصاروا إلباً واحداً على الخليفة، فحمل عليهم الخليفة وقتل منهم خلقاً كثيراً، ثم ما لبثوا أن حملوا عليه بعد ذلك حملة رجل واحد فهزموه، فحاول أن يختفي فعاجله أحمد بن خاقان ورماه بسهم في خاصرته ثم جعلوا يصفعونه ويتفلون في وجهه ويطؤونه حتى مات رحمه الله، وكانت مدة خلافته سنة، وكان رحمه الله من أكثر الناس ورعاً وعبادة وزهادة، وكان يحب الاقتداء بما سلكه عمر بن عبدالعزيز الأموي في خلافته من حيث التقشف والزهد والورع وكثرة العبادة وعظيم الاحتياط، ولو قدر له أن يعيش لسار سيرة عمر الأموي ما استطاع، وقد كان عازماً على كبح جماح الأتراك وصدهم عن الإفساد والتخريب، فهم الذين أهانوا الخلفاء واستخفوهم.



الفصل الرابع عشر
خلافة المعتمد على الله

واسمه أحمد بن المتوكل على الله، وقد بويع بالخلافة في هذه السنة، سنة ست وخمسين بعد المائتين، وذلك قبل خلع المهتدي بأيام، وما فتئت الفتن تظهر من حين لآخر، ومن جملة هؤلاء الخارجين المفسدين، صاحب الزنج الذي زعم أنه علوي، فقد كان يحاصر البصرة، ويقهر أهلها ثم يغنم أموال المسلمين فيها، وقد أثار الرعب في أهل البصرة.

وفاة الإمام محمد بن إسماعيل البخاري:

وفي هذه السنة توفي أحد أئمة الإسلام الإمام البخاري وهو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، الحافظ وهو إمام الحديث في زمانه، والمقدم على سائر أقرانه، وهو صاحب الصحيح، الذي أجمع على صحة ما فيه العلماء.

مات أبوه وهو صغير، فنشأ في حجر أمه، فألهمه الله حفظ الحديث، وقد قرأ الكتب المشهورة وهو في السادسة عشرة من العمر، وقيل: إنه كان يحفظ وهو صبي سبعين ألف حديث سرداً، وقد رحل البخاري إلى سائر مشايخ الحديث في البلدان، وكتب عن أكثر من ألف شيخ وروى عنه من الناس كثيرون، وقال رحمه الله: فكرت البارحة فإذا أنا قد كتبت لي مصنفات نحواً من مائتي ألف حديث مسندة، وكان يحفظها كلها.

وقد دخل البخاري مرة إلى سمرقند، فاجتمع بأربعمائة من علماء الحديث بها، فركبوا أسانيد وخلطوا الرجال في الأسانيد وجعلوا متون الأحاديث على غير أسانيدها، ثم قرأوها على البخاري، فرد كل حديث إلى إسناده، وقوّم تلك الأحاديث والأسانيد كلها، فلم يقدروا أن يعلقوا عليه سقطة في إسناد ولا متن، وصنع مثل ذلك في بغداد.

وقيل في نباهة البخاري، وعظيم ذكائه وفطانته: إنه كان ينظر في الكتاب مرة واحدة فيحفظه من نظرة واحدة.

وقد أثنى عليه العلماء من شيوخه وأقرانه، فقال الإمام أحمد: ما أخرجت خراسان مثله.

وقال الترمذي: لم أرَ بالعراق ولا في خراسان في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من البخاري.

وقال ابن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ﷺ ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخاري.

وقد توفي البخاري ليلة عيد الفطر من هذه السنة وهي ست وخمسون ومائتان، وكان عمره حين وفاته ثنتين وستين سنة، وحين دفن فاحت من قبره رائحة أطيب من ريح المسك.

فتنة الزنج ومقاتلتهم:

وفي سنة سبع وخمسين ومائتين، عاث الزنج في البصرة خراباً وفساداً، فقتلوا من أهلها خلقاً عظيماً من الناس وأشاعوا في البلاد الرعب والأراجيف والظلم، وقد ناجزهم قائد جيش المسلمين في البصرة، فهزمهم واستنقذ من أيديهم جماً غفيراً من النساء والذرية، واسترد منهم أموالاً كثيرة كانوا قد انتهبوها من المسلمين.

لكن الزنج عاودوا الكرة على جيش المسلمين فقتلوا منهم كثيراً، حتى إن سعيداً نفسه قد قتل، ثم التقى الزنج، ومنصور بن جعفر قائد

جيوش المسلمين، فهزمهم الزنج، ثم دخلوا إلى البصرة قهراً وقتلوا من أهلها الكثير، وهرب نائبها ومن معه، وأحرق الزنج جامع البصرة وكثيراً غيره من الدور، ونادى إبراهيم بن المهلبي، وهو أحد أصحاب زعيم الزنج في الناس: من أراد الأمان فليحضر، فاجتمع عنده خلق كثير من أهل البصرة فكانت هذه فرصة سانحة من أجل أن يغدر بالمسلمين، فغدر بهم وأمر بقتلهم، فأبادهم جميعاً إلا من استطاع الهرب منهم، ومضى الزنج سادرين في وحشية فظيعة وهم يقتلون المسلمين حيث وجدوهم، سواء فيهم الرجال والنساء والولدان، والناس يهربون منهم كل مهرب، ثم أشعلوا النار في كل مكان وطئوه، فأحرقوا كل ما وجدوه من شيء، وقد أحرقوا المسجد الجامع بالبصرة وقتلوا كثيراً من الأعيان والأدباء والفضلاء والمحدثين والعلماء.

وفي هذه السنة بعث الخليفة جيشاً كثيفاً لقتال الزنج، وفي طريقهم ألقوا القبض على سعد بن أحمد الباهلي الذي قطع السبيل وأخاف المسلمين في أرض البطائح، فذهب به جيش المسلمين إلى الخليفة وقد وصله في عام ثمانية وخمسين ومائتين فأمر بضربه، وضُرب سبعمائة سوط ثم مات، وفي هذه السنة قتل كثير من أصحاب صاحب الزنج بسامرا.

وفي هذه السنة وقع للناس وباء شديد فمات منهم كثير، وذلك ببغداد وسامرا وواسط، وغيرهما من البلاد.

وفي سنة تسع وخمسين ومائتين، توجه موسى بن بغا إلى حرب الزنج بأمر من الخليفة المعتمد، وسار معه عبدالرحمٰن بن مفلح ليكون عوناً له على حرب الزنج، هؤلاء الضالين المضلين الذين خربوا البلاد وأثاروا الفساد، وقتلوا العباد، يحدوهم إلى فعل هذه المنكرات اعتقاداتهم الفاسدة وأهواؤهم السقيمة مما خيَّله لهم صاحب الزنج الخبيث، ثم تناجز المسلمون والزنج فكانت الغلبة للمسلمين بعون الله، وأسروا منهم خلقاً كثيراً حتى إذا رآهم الناس بادروا إلى قتل أكثرهم قبل أن يصلوا إلى الخليفة.

وفي هذه السنة، اجترأ ملك الروم فدنا من المسلمين في ملطية،

فقاتله أهلها وهزموه هزيمة منكرة وقتلوا كبير البطارقة فرجع ملكهم خاسئاً مقهوراً إلى بلاده.

وفي سنة إحدى وستين ومائتين، اقتتل الزنج وجيش الخليفة بقيادة أبي الساج، لكن الزنج غلبوا جيش الخليفة، فدخلوا الأهواز وعاثوا فيها تخريباً.

وفي هذه السنة ولّى الخليفة المعتمد على الله ولده جعفراً العهد من بعده وسماه المفوض إلى الله، ثم ولاه المغرب وولاية إفريقية ومصر والشام والجزيرة والموصل وأرمينية وغير ذلك من البلاد، ثم جعل الأمر من بعد ولده لأبي أحمد المتوكل ولقّبه الموفق بالله وولاه المشرق، وكتب بذلك مكاتبات قرئت في الآفاق.

وفاة الإمام مسلم وأبي يزيد البسطامي:

مات في هذه السنة بعض من أعيان الناس، نذكر نبذتين مقتضبتين عن اثنين منهم وهما:

الإمام مسلم صاحب الصحيح:

وهو مسلم أبو الحسن القشيري النيسابوري، أحد الأئمة الحفاظ وهو صاحب الصحيح الذي يتلو صحيح البخاري.

وكان الإمام مسلم قد دخل إلى العراق والحجاز والشام ومصر وسمع من كثير منهم، وروى عنه كثيرون منهم الترمذي وابن خزيمة وأبو عوانة الأسفراييني.

ولما ورد البخاري نيسابور في آخر أمره لازمه مسلم وأدام التردد عليه، وقال الدارقطني في ذلك: لولا البخاري ما ذهب مسلم ولا جاء، وقد روي أن مسلم بن الحجاج جاء إلى محمد بن إسماعيل البخاري فقبّله بين عينيه، وقال: دعني حتى أقبّل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله.

وقد توفي الإمام النيسابوري عن سبع وخمسين سنة رحمه الله، وذكر

عن سبب وفاته أنه كان في مجلس مذاكرة فسئل مرة عن حديث فلم يعرفه، فانصرف إلى منزله فأوقد السراج وقال لأهله: لا يدخل عليَّ الليلة أحد، وكان قد أُهديت له سلة من تمر فكان يأكل منها، وكان يأكل تمرة ويكشف عن حديث، ثم يأكل تمرة أخرى ويكشف عن حديث آخر وهكذا، فلم يزل كذلك حتى أصبح وقد أكل كل ما في السلة وهو لا يشعر، فمرض بسبب ذلك ثم توفي من ليلته، رحمه الله.

وأما الثاني فهو:

ابو يزيد البسطامي:

وهو طيفور بن عيسى بن علي، أحد مشايخ الصوفية، وكان جده مجوسياً فأسلم، وكان طيفور زاهداً عابداً متبتلاً، وقد سئل مرة: بأي شيء وصلت إلى المعرفة؟ فقال: ببطن جائع، وبدن عارٍ.

ومن أقواله النافعة الجيدة في أولي المقامات والكرامات: إذا رأيتم الرجل قد أُعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود والوقوف عند الشريعة، وقيل: كانت له شطحات ناقصات، وقد بدَّعه بعض العلماء وجعلوه في عِداد المبتدعين والله تعالى أعلم.

وفي سنة اثنتين وستين ومائتين، خرج يعقوب بن الليث على الخليفة المعتمد، فانتدب الخليفة له الموفق بالله وهو أخوه، في جيش عظيم، على ميمنته موسى بن بغا، وعلى ميسرته مسرور البلخي، فاقتتلوا قتالاً عظيماً فهُزم يعقوب بن الليث، وكان ذلك يوم عيد الشعانين، وقد قتل من جيش يعقوب كثيرون، وقيل: إنه قد وجد في جيش يعقوب رايات عليها صلبان.

وفي هذه السنة وقعت حروب دامية بين الزنج وجيش الخليفة، وفي السنة التي بعدها جرت حروب كثيرة في بلاد شتى من ديار المسلمين، وكان من أشدها، الحرب بين الزنج وجيش الخليفة فكانت الغلبة فيها لجيش الخليفة إذ قتلوا منهم مقتلة عظيمة، فهزموا شر هزيمة لا ردهم الله.

وفي سنة خمس وستين ومائتين، حاصر أحمد بن طولون نائب الديار المصرية، إنطاكية فدخلها، وجاءته هدايا ملك الروم، ومن جملة ذلك أسارى من أسارى المسلمين، ومع كل أسير مصحف، وبذلك اجتمع لأحمد بن طولون ملك الشام بكماله مع الديار المصرية، واستخلف على مصر ابنه العباس.

وفي هذه السنة دخل صاحب الزنج إلى النعمانية فعاث فيها تخريباً وإفساداً، ثم حاصروا تستر وكادوا يدخلونها، لولا أن قاتلهم تكين البخاري فقتل منهم خلقاً كثيراً وهزمهم هزيمة فظيعة، فولّى أميرهم علي بن أبان المهلبي مهزوماً.

وفيها وقعت فتنة كبيرة بين الجعفرية والعلوية في المدينة ونواحيها فجرت بذلك شرور كثيرة.

وفيها كذلك عمل خليفة بلاد الأندلس والمغرب وهو محمد بن عبدالرحمٰن الداخل مراكب في نهر قرطبة ليدخل بها إلى البحر المحيط، ولتتمكن الجيوش من السير في أطرافه فتصل إلى بعض البلاد فتقاتل المشركين، وفي هذه السنة التقى أسطول الروم وأسطول المسلمين في بلاد صقلية، فاقتتلوا فقتل من المسلمين كثيرون، وفي هذه السنة اشتد الحال بالناس وازداد الهياج وكثرت الفتن، وإنما مرد ذلك إلى ضعف الخليفة واشتغاله بقتال الزنج الذين استنفدوا كثيراً من طاقات المسلمين وجهودهم وأموالهم، وأُزهقت بسببهم - قاتلهم الله - نفوس كثيرة.

وفي سنة سبع وستين ومائتين، بعث الموفق ولده أبا العباس في نحو من عشرة آلاف مقاتل لقتال الزنج، فساروا نحوهم ودارت بينهم حروب شديدة، وكانت الغلبة فيها لأبي العباس بن الموفق إذ استحوذ على ما كانت الزنج قد استولت عليه ببلاد واسط وأراضي دجلة.

ثم سار الموفق ناصر دين الله من بغداد في جيوش كثيرة قاصداً صاحب الزنج وهو بالمدينة التي أنشأها وسماها المنيعة، فقاتلهم الزنج قتالاً شديداً فقهرهم جيش المسلمين ودخلوا مدينتهم عنوة وهربوا منها، ثم سار

جيش الخليفة في آثارهم ولحقوهم إلى البطائح يقتلونهم ويأسرونهم، واستنقذوا من النساء المسلمات خمسة آلاف امرأة كن مأسورات عند الزنج، هؤلاء الجاهلون السفهاء أولو الأذهان السقيمة، والقلوب العقيمة، الضالعون في الضلالة والباطل وعبادة الشيطان، قاتلهم الله، فقتلهم.

ثم سار الموفق بجيش المسلمين إلى مدينة صاحب الزنج المسماة بالمنصورة، فحاصرها الموفق بجيشه، وقاتل الزنج دونها دفاعاً عنها فقتل من الفئتين كثيرون، وقد قتل من الزنج أحمد بن هندي وهو واحد من أكابرهم، فغشيهم من ذلك قلق وإرجاف، ثم حاصرهم جيش الخليفة من كل مكان، ثم تضرع الخليفة إلى الله عسى أن ينصرهم ويخذل عدوهم، عدو التوحيد والدين، فتقدم الخليفة الموفق نحوهم عقب حصار شديد للزنج، فاقتحم خنادقهم وحصونهم واحداً تلو الآخر حتى انتهى بجيشه إلى المدينة فقتل منهم خلقاً عظيماً وهرب من بقي منهم، واستنقذ من أيديهم النساء المسلمات والصبيان من أهل البصرة والكوفة وكانوا نحواً من عشرة آلاف نسمة، فأرسلهم إلى أهليهم سالمين آمنين، جزاه الله عن الإسلام خير الجزاء.

ثم كتب الموفق إلى صاحب الزنج كتاباً يدعوه فيه إلى التوبة والرجوع عما ارتكبه من المآثم والمظالم والمحارم ودعوى النبوة والرسالة، وعن أفعاله الشنيعة المشينة في تخريب البلاد واستحلال الفروج الحرام، وقد نبذ له الموفق الأمان، إذا ما فاء إلى الحق، فلم يرد عليه صاحب الزنج قبحه الله.

ولما لم يرد صاحب الزنج ركب الموفق من فوره في جيوش عظيمة تعدادها خمسون ألف مقاتل قاصداً بهم إلى المختارة وهي مدينة صاحب الزنج، فلما بلغها وجدها في غاية التحصن والإحكام، وقد التف من حول صاحب الزنج ثلاثمائة ألف مقاتل، فتقدم إليهم الخليفة ومعه ولده أبو العباس، فتناجزت الفئتان ثم هزم الله الزنج وأخزى صاحبهم، فدبّ في جنده وجماعته دبيب الخوف واليأس والإرجاف حتى إن فريقاً من أتباع

صاحب الزنج قد فاؤوا للمسلمين فأكرمهم الموفق وتبعهم آخرون كثيرون من الزنج، ثم بعث الموفق من ينادي في الناس بالأمان إلا صاحب الزنج فإنه ليس له أمان، فتحوّل كثيرون من جيش صاحب الزنج إلى الموفق.

ثم جرت بين الفئتين حروب كثيرة وما زال المسلمون يحاصرون صاحب الزنج، وقد تحوّل منهم خلق كثير فصاروا على صاحب الزنج، بعد أن كانوا إلى جانبه حتى بلغ عدد الذين تحولوا عنه خمسين ألفاً من الأمراء والأجناد والقادة وحال المسلمين يزداد ثباتاً ومنعة وظفراً.

وفي سنة ثمان وستين ومائتين، استأمن جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجان، وهو من أكابر صاحب الزنج الموفق فأمنه وفرح به، ثم نادى جعفر بن إبراهيم بالناس، وأخبرهم عن كذب صاحب الزنج وفجوره وأنه في غرور هو والذين اتبعوه.

ثم أمر الموفق جيشه أن يحاصروا السور من حول مدينة الزنج، وأمرهم أن لا يدخلوا البلد حتى يأمرهم بالدخول، فنقبوا السور فانثلم فدخلوا متعجلين فقاتلهم الزنج فهزمهم المسلمون وتقدموا إلى وسط المدينة، فجاءتهم الزنج من كل مكان وقتلوا من المسلمين كثيراً، ولاذ غيرهم بالفرار، فلما علم الموفق بذلك لامهم على مخالفة أمره وعلى استعجالهم بالدخول إلى البلد، وأجرى الأرزاق على ذرية الشهداء الذين قتلوا منهم.

وفي سنة تسع وستين ومائتين، اجتهد الموفق في تخريب مدينة صاحب الزنج، فخرب منها جانباً كبيراً، فتمكن الجيش من الدخول إلى البلد، لكن الموفق أصابه سهم في صدره على يد رجل من الروم، كاد يودي به لولا أن كتب الله له الشفاء والسلامة ففرح المسلمون ببرئه من إصابته كثيراً.

ثم نهض الموفق لحصار الزنج، فما لبث يحاصرهم ويفيق عليهم حتى فتح المدينة من الغرب وأخذ أموالاً لصاحب الزنج وكانت كثيرة جداً، فجعلها للمسلمين، واستنقذ خلقاً كثيراً من نساء المسلمين وصبيانهم كانوا

مأسورين لدى صاحب الزنج فرُدوا إلى أهليهم وديارهم سالمين آمنين، ثم استمر الحصار حتى سقطت مدينة الزنج كلها بأيدي الخليفة، فلاذ صاحب الزنج بالفرار، لم يلوِ على شيء وقد ترك فيها أولاده وأمواله ونساءه.

مقتل صاحب الزنج:

لما فرغ الموفق من مدينة الزنج وهي المختارة واستولى على ما بها من أموال وأناسي، هرب صاحب الزنج هائماً ذليلاً مذعوراً، وانقلب على وجهه شريداً خاسراً خاسئاً، وعاد الموفق إلى مدينته التي سماها الموفقية، ظافراً منصوراً، وقدم عليه لؤلؤة غلام أحمد بن طولون منابذاً لسيده، مؤيداً للموفق، ومطيعاً له، فأكرمه الموفق وأحسن إليه، وبعثه بين يديه طليعة لقتال الزنج، ثم ركب الموفق في جيوش كثيفة قاصدين الخبيث الشقي صاحب الزنج، فلم يزل الموفق به محاصراً له حتى اضطره للخروج منها مقهوراً ذليلاً، ثم بعث العساكر وراء الزنج يتعقبونهم فأسروا فريقاً من أمرائهم منهم سليمان بن جامع، فاستبشر المسلمون بأسره وحمدوا الله فرحاً بنصره الذي يؤتيه عباده المجاهدين الصابرين.

ثم حمل الموفق بمن معه من الجند على أصحاب الخبيث وهو صاحب الزنج حملة واحدة فاشتد القتال بينهم، حتى تمخضت الحرب عن خير بشرى وهي قتل صاحب الزنج، فجاء البشير بهذا الخبر المبهج الفاصل وجيء برأسه مع غلام لؤلؤة الطولوني، فلما تحقق الموفق أن هذا هو رأس الخبيث صاحب الزنج بشهادة الذين يعرفونه، خرَّ ساجداً لله شاكراً، ثم كرَّ راجعاً إلى الموفقية وبين يديه رأس الخبيث، فكان ذلك يوماً مشهوداً فرح فيه المسلمون كثيراً، إذ نصر الله جنده المؤمنين الصادقين وهزم المجرمين المفسدين.

ثم استتاب الموفق من بقي من أصحاب الزنج، وأمنهم ونادى في الناس بالأمان وأن يرجع كل من خرج من دياره بسبب الزنج إلى أوطانهم.

ثم سار الموفق إلى بغداد ومعه ولده أبو العباس وكان ذلك يوماً

مشهوداً، إذ كتب الله الغلبة لجيش المؤمنين وأحاق الهزيمة والمذلة بجنود الشيطان المضلين التائهين، وبذلك استمرت صولة الزنج أربع عشرة سنة وأربعة أشهر، ثم آلت إلى النهاية المحتومة من السقوط والانهيار بعون الله الجبار.

وفي هذه السنة أقبل الروم نحو المسلمين في مائة ألف مقاتل، حتى إذا نزلوا قريباً من طرطوس خرج إليهم المسلمون فقتلوا منهم في ليلة واحدة سبعين ألفاً وقتل بطريق البطارقة وكان في مقدمتهم، وقد غنم المسلمون منهم مغانم كثيرة.

وفاة أحمد بن طولون:

وقد توفي في هذه السنة بعض الأعيان من الناس، منهم: أحمد بن طولون، وهو أبو العباس أمير الديار المصرية، وهو الذي بنى الجامع المنسوب إلى طولون، وقد ملك أحمد دمشق وغيرها من البلدان والثغور مدة طويلة، وكان أبوه طولون من الأتراك، وقد ولد أحمد سنة أربع وعشرين ومائتين، ونشأ في عفاف ورياسة ودراسة للقرآن الكريم، وكان صوته فيه ندياً، وكان يندد بما يفعله أولاد الترك من المعاصي والمنكرات.

وقد توفي أحمد بن طولون في مصر، فقام بالأمر من بعده ولده خماريه.

وفاة داود بن علي الظاهري:

ومنهم أيضاً: داود الظاهري، وأصله من أصبهان وولد بالكوفة ونشأ في بغداد، وهو إمام أهل الظاهر فيها، كان فقيهاً زاهداً، وكان يحضر مجلسه كثير من الدارسين وطلاب العلم، وقد أُخذ عليه نفيه للقياس الصحيح مما أوقعه في الحرج في كثير من مواطن الفقه، وقد ألزم نفسه القول بآراء خالف فيها عامة أهل العلم من السلف والخلف وسبب ذلك اتباعه الظاهر المجرد للنصوص من غير تفهم حقيقي لمعانيها.

وفاة ابن قتيبة الدينوري:

ومنهم كذلك: الإمام الدينوري وهو عبدالله بن مسلم الدينوري، النحوي اللغوي، صاحب المصنفات الكثيرة المفيدة منها: كتاب المعارف، وكتاب مشكل القرآن والحديث، وغريب القرآن والحديث، وعيون الأخبار، وكتاب الميْسر والقِداح، وغير ذلك من المصنفات، وقد توفي عن ستين سنة.

وفي سنة إحدى وسبعين ومائتين، جرت حروب كثيرة في بلاد الأندلس، وفيها دخل إلى المدينة النبوية محمد وعلي وهما ابنا الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فقتلا من أهلها أناسي كثيراً.

وفي سنة ثنتين وسبعين ومائتين، سار نائب قزوين في أربعة آلاف مقاتل لمناجزة العلوي، محمد بن زيد صاحب طبرستان، وهو بالري في جيش كبير من الديلم، فاقتتل الجمعان فهزمهم نائب قزوين وقتل منهم كثيراً ثم دخل الري.

وفي هذه السنة تحركت بقية الزنج في أرض البصرة وأخذوا يهتفون باسم صاحب الزنج، فبعث الموفق إليهم فقتلوا وسكنت شرورهم، واستقر حال الناس.

وفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين، توفي عدد من العلماء والأعيان، منهم:

وفاة ابن ماجة القزويني:

وفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين، توفي عدد من العلماء والأعيان، منهم: ابن ماجه القزويني وهو أبو عبدالله محمد بن يزيد بن ماجة صاحب كتاب السنن المشهورة، مما يكشف عن تبحره وعميق علمه واتباعه للسنة، وكتابه هذا يشتمل على أربعة آلاف حديث كلها جياد، إلا القليل منها، وله رحمه الله تاريخ كامل من لدن أصحاب رسول الله ﷺ إلى عصره، وقد توفي عن أربع وستين سنة.

وفاة أبي داود السجستاني:

وفي سنة خمس وسبعين ومائتين، توفي الإمام أبو داود وهو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن يحيى بن عمران أبو داود السجستاني، وهو أحد أئمة الحديث الرحالين إلى الآفاق في طلبه.

لقد جمع هذا العالم وصنف وخرّج وسمع الكثير عن المشايخ في مختلف البلاد كالشام ومصر والعراق وخراسان وغير ذلك من البلدان، وهو صاحب السنن المشهورة.

سكن أبو داود البصرة وقدم بغداد أكثر من مرة، وقد حدّث فيها بكتاب السنن، وقيل: إنه عرض سننه على الإمام أحمد فاستجاد ذلك منه واستحسنه.

وذكر عنه قوله: كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها ما ضمنته كتاب السنن، جمعت فيه أربعة آلاف حديث وثمانمائة حديث، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث: قوله عليه السلام: **«إنما الأعمال بالنيات»**، الثاني: قوله: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**، الثالث: قوله: **«لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه»**، الرابع: قوله: **«الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبين ذلك أمور مشتبهات»**.

ومما قيل في مناقبه وعظيم خصاله: إنه كان في أعلا درجة النسك والعفاف والصلاح والورع ومن فرسان الحديث.

وقد توفي أبو داود بالبصرة عن ثلاث وسبعين سنة، ودفن إلى جانب قبر سفيان الثوري.

ظهور القرامطة

وفي سنة ثمان وسبعين ومائتين، ظهرت القرامطة، وهم فرقة من الزنادقة أتباع الدجاجلة من ملاحدة الفرس الذين كانوا يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك، اللذين كانا يبيحان المحرمات.

على أن القرامطة أشرار يتبعون كل ناعق إلى باطل، وكانوا يفسدون في الأرض من جهة الرافضة إذ يدخلون إلى الباطل من جهتهم لسفاهتهم وضعف عقولهم، ويسمون الإسماعيلية، نسبة إلى إسماعيل الأعرج بن جعفر الصادق، ويقال لهم: القرامطة، نسبة إلى قرمط بن الأشعث البقار، وقيل: إن رئيسهم كان في أول دعوته يأمر أتباعه بخمسين صلاة في اليوم والليلة ليشغلهم بذلك عما يدبره لهم من المكائد، وقد أسس لهم دعوة وطريقة يسلكونها ودعا إلى إمام أهل البيت، ويقال لهم: الباطنية لأنهم يظهرون عقيدة الرفض ويبطنون في أنفسهم الكفر البواح، ويقال لهم أيضاً: الخرمية والبابكية نسبة إلى بابك الخرمي أحد الدجاجلة المضلين وقد ظهر هذا في زمن المعتصم.

ويقال لهم: السبعية، نسبة إلى القول بأن الكواكب السبعة السائرة في الفضاء هي التي تدبِّر هذا العالم، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل. فهذه الكواكب سيارة سبعة تدير العالم في زعمهم الباطل، وذلكم كفر شنيع محض، قاتلهم الله، إنه كفر صريح ومستهجن لا ينطلي على غير السفهاء والسخفاء من ضعاف الأحلام، أو الذين في قلوبهم مرض من ذوي الطبائع السقيمة، والعقول التائهة الموغلة في الضلال والوهم.

قال الإمام ابن الجوزي في هذا الصدد: بقي من البابكية جماعة، يقال: إنهم كانوا يجتمعون في كل سنة ليلة هم ونساؤهم، ثم يطفئون المصباح وينتهبون النساء، فمن وقعت يده في امرأة حلت له!

وكذلك أبو بكر الباقلاني وهو من المتكلمين، فإن له في ذلك كتابه (هتك الأستار وكشف الأسرار)، وذلك في الرد على الباطنية، وفيه يرد كذلك على كتابهم الذي جمعه بعض قضاتهم بمصر أيام الفاطميين والمسمى (البلاغ الأعظم والناموس الأكبر)، وجعله صاحبه ست عشرة درجة، فأول درجة أن يدعو من يجتمع به أولاً إن كان من أهل السنة إلى القول بتفضيل علي على عثمان بن عفان، ثم ينتقل به إذا وافقه على ذلك إلى تفضيل علي على الشيخين أبي بكر وعمر، ثم يترقى به إلى سبهما لأنهما ظلما علياً

وأهل البيت، ثم يشرع في القدح في دين الإسلام من حيث هو.

إلى غير ذلك من الضلالات والسفاهات والهرطقات الفاسدة التي تكشف عن أذهان ضالة سخيفة، وقلوب حافلة بالشذوذ والأسقام، وأولئك أصناف من البشر، أولو طبائع سقيمة قد غشيها من الضلال والزيغ والجنوح ما غشيها، فما عادت تستمرىء غير الباطل ولا يطيب لها إلا الإيغال في الهوى المظلم والشر المستطير.

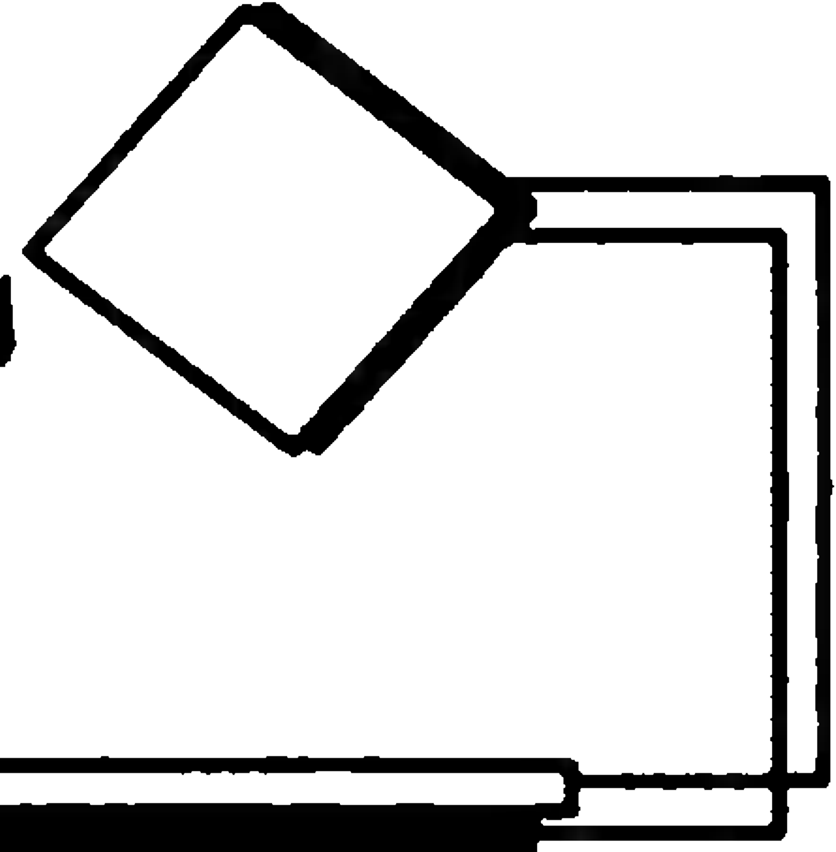
أولئك أصناف من مرضى العقول والنفوس طالما ابتليت بهم أمة الإسلام لفرط ما أذاقوا المسلمين من ويلات التضليل والكيد والتآمر، بل طالما ابتلي بهم الإسلام نفسه، وهم يتمالؤون في الظلام على الكيد لهذا الدين بمختلف الوجوه في الكيد والتشويه والإفساد!

وبالرغم من كل هذه الأضاليل والأباطيل والأهواء المغرضة المريبة فإن الإسلام برمته مصون برعاية الله وصيانته، ليكون على مر الزمن ناصعاً وضيئاً مشعشعاً مبرءاً من كل الافتراءات التي يصطنعها المفسدون الجانحون أو تجترها حناجر الخائنين المفلسين.

لقد عاث هؤلاء المفسدون الأشرار، في ديار الإسلام، تخريباً وإيذاء فلقي منهم المسلمون الشدائد والويلات، ما بين تقتيل وترويع وهتك للحرمات، فتفاقم بهم الحال وازدادت بسببهم الفتن والأهوال التي ألمّت بالمسلمين.

ومرد ذلك كله إلى ضعف الخليفة أبي أحمد الموفق، ويقال له: طلحة بن المتوكل على الله جعفر بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، وكان رحمه الله غزير العقل حسن التدبير، يجلس للمظالم ومن حوله القضاة، وينصف المظلوم، وكان عالماً بالأدب والفقه، وله من المآثر كثير بالرغم من ضعفه في الحكم، مما أطمع الأشرار والمفسدين وأولي الأهواء والضلالات من مرضى العقول والقلوب، وقد توفي عن سبع وأربعين سنة، ثم تولى من بعده أمر المسلمين ولده أبو العباس أحمد الملقب بالمعتضد[1].

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١١ ص٣ ـ ٦٦.



الفصل الخامس عشر
خلافة المعتضد

هو أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن أحمد الموفق بن جعفر المتوكل، وقد كان من خيار الخلفاء العباسيين، وقد بويع بالخلافة صبيحة موت المعتمد، وقد كان شأن الخلافة ذاوياً خاوياً مضطرباً، ثم عزَّ وتقوى على يدي هذا الخليفة المؤزر الشهم.

وفاة الإمام الترمذي:

وقد توفي من الأعيان في هذه السنة وهي تسع وسبعون ومائتان الإمام الترمذي واسمه محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، وهو واحد من أئمة العلم في زمانه، وله مصنفات مشهورة منها: الجامع، وأسماء الصحابة وغيرهما.

أما كتابه (الجامع) فهو أحد الكتب الستة التي يعول عليها العلماء في سائر الآفاق، وقد روى عنه كثير من العلماء منهم محمد بن إسماعيل البخاري في الصحيح، والهيثم الشاشي صاحب المسند.

وقد كان الترمذي ضريراً، وإنما طرأ عليه العمى بعد رحيله وسماعه وكتابته المصنفات، ثم توفي رحمه الله.

وفي سنة ستة وثمانين ومائتين من الهجرة النبوية، قتل المعتضد رجلاً من أمراء الزنج اسمه سلمة، وكان قد لجأ إليه بالأمان، وقد ذكر للخليفة أنه

يدعو إلى رجل لا يعرفه، وأنه أفسد جماعة، فاستدعاه الخليفة وسأله عن ذلك فلم يعترف، وقال: لو كان تحت قدمي ما أقررت به، ثم أمر فضربت عنقه.

بناء دار الخلافة ببغداد:

أول من بنى دار الخلافة هذه هو المعتضد وهو أول من سكنها من الخلفاء، وكانت قبل ذلك تعرف بالقصر الحسني لأن صاحبها كان الحسن بن سهل، ثم صارت من بعده لابنته بوران، وهي زوجة المأمون فعمَّرتها، وأصلحت ما كان منها واهياً، وفرشتها بالفاخر من الفرش والأثاث، ثم أرسلت مفاتيحها إلى المعتضد لينزل بها، فلما دخلها أذهله ما شاهد فيها من الخيرات وروعة العمران، لكنها على مرّ الزمن قد أتى عليها الوهن والخراب، حتى إذا جاء أوان الشر المستطير على أيدي التتار خربت دار الخلافة بالكامل فضلاً عما حاق ببغداد من تدمير وخراب.

وفي هذه السنة غزا المسلمون بقيادة إسماعيل بن أحمد الساماني بلاد الترك، وأسر منهم نحواً من عشرة آلاف أسير، وغنم من أموالهم شيئاً كثيراً.

وفاة خمارويه بن احمد بن طولون:

وفي سنة إحدى وثمانين ومائتين توفي خمارويه بن أحمد بن طولون وهو صاحب الديار المصرية بعد أبيه أحمد بن طولون.

وقد تقاتل خمارويه والمعتضد بن الموفق في حياة أبيه الموفق في الرملة، ولما آلت الخلافة إلى المعتضد تزوج ابنة خمارويه ثم تصالحا.

وفي هذه السنة عدا أحد الخدام على خمارويه، فذبحه وهو على فراشه فمات عن ثنتين وثلاثين سنة، فقام بالأمر من بعده ولده هارون بن خمارويه، وهو آخر الطولونية.

وفاة أبو محمد الشعراني:

وتوفي كذلك في هذه السنة أبو محمد الشعراني وهو الأديب الفقيه الحافظ، تلميذ يحيى بن معين إذ روى عنه الفوائد في الجرح والتعديل وغير ذلك من العلوم، وكذلك أخذ عن أحمد بن حنبل وعلي بن المديني.

وفي سنة أربع وثمانين ومائتين، عزم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، فحذره وزيره عبدالله بن وهب، عاقبة هذا اللعن، وبيّن له أن عامة الناس ينكرون في قلوبهم هذا اللعن وهم إنما يترحمون على معاوية ويتضرعون عنه في جوامعهم وأمكنتهم، فلم يعبأ المعتضد بتحذيره ونصحه، بل أمر بذلك وكتب به كتباً إلى الخطباء بلعن معاوية، وذم ابنه يزيد، وآخرين من بني أمية.

وفي هذه السنة نودي في البلاد أن لا يجتمع الناس على قاصّ ولا منجم ولا جدليّ، وأمرهم أيضاً أن لا يعبأوا بأمر النوروز.

وفي هذه السنة وعد المنجمون الناس أن أكثر البلاد سوف تغرق في زمن الشتاء من كثرة الأمطار والسيول، وزيادة الأنهار، فتهيأ الناس لذلك استعداداً لما ظنوه من تغريق قادم، فأووا إلى الكهوف في الجبال، حتى أكذب الله تعالى المنجمين في زعمهم فلم يكن ثمة عام أقل مطراً منه في هذا العام، فأجدبت البلاد وألمّ بالناس الجفاف والقلة والقحط، حتى فزع الناس فهرعوا يتضرعون إلى الله أن ينزل عليهم المطر من السماء[1].

حقيقة القرامطة:

وهذه فئة شريرة منكودة من الناس، لهي أشد إيغالاً وإفساداً من الزنج، وهم صور من صور الإسماعيلية التي كانت تتقمص صوراً مختلفة تبعاً لاختلاف البلدان، فهم في العراق يسمون الباطنية، والقرامطة، والمزدكية، وفي خراسان يسمون أنفسهم: التعليمية، والملحدة.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١١ ص٦٦ ـ ٨٠.

على أن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج، فقالوا في الباري تعالى: إنا لا نقول إنه موجود، ولا لا موجود، ولا عالم، ولا جاهل، ولا قادر، ولا عاجز!!

وهم كذلك ينفون الصفات عن الله عز وجل، فهم بذلك معطلة الذات عن جميع الصفات، ومما قالوه في ذلك:

وكذلك نقول في القِدم: إنه ليس بقديم ولا محدث بل القديم: أمره، وكلمته، والمحدث: خلقه وفطرته.

إلى غير ذلك من الكلام الفاسد، والهرطقة السقيمة الممجوجة[١]، وتعالى الله عن هذه الأقاويل والأضاليل علواً كبيراً.

أما رأس القرامطة، فهو أبو سعيد الجنابي، وقد ظهر في هذه السنة بنواحي البصرة، فالتف من حوله الأعراب وآخرون غيرهم، فقويت بذلك شوكته، فراح يقتل من حوله من أهل القرى، ودخل هجر وما حولها من البلاد، فعاثت القرامطة في الأرض الفساد إذ يقتلون ويخيفون ويفتنون الناس بتصوراتهم الشاذة المريضة.

وفي سنة سبع وثمانين ومائتين، تفاقم أمر القرامطة واستطار شرهم وفسادهم، فراحوا يقتلون ويخربون، فجهز لهم الخليفة جيشاً كان تعداده عشرة آلاف مقاتل بقيادة العباس بن عمرو الغنوي، فتناجز الفريقان واقتتلوا، فغلبهم أبو سعيد ومعه الجمع الحاشد من هَمَج القرامطة، فأسروهم وقتلوهم جميعاً، ولم ينج منهم سوى العباس إذ أطلقه أبو سعيد وقال له: ارجع إلى صاحبك وأخبره بما رأيت.

ولما علم الناس بذلك عمهم الخوف والانزعاج وهموا بالخروج من البصرة هرباً من القرامطة، فمنعهم من ذلك أمير البصرة أحمد الواثقي.

وفي سنة ثمان وثمانين ومائتين، وقعت أحداث رعيبة عديدة، منها

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص١٩٢.

عدوان الروم على بلاد المسلمين إذ قصدوا الرقة في جحافل عظيمة وعساكر من البر والبحر، فقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً، وأسروا منهم نحواً من خمسة عشر ألفاً.

ومنها ما أصاب الناس في أذربيجان من وبأ شديد أتى على أكثر الناس فأودى بهم.

ومنها: أن بلاد أردبيل أصابها ريح شديدة حتى زلزلوا بذلك زلزالاً عظيماً، فتهدمت بذلك الدور والمساكن وخسف بكثير من الناس فمات منهم مائة وخمسون ألفاً، وذلكم بلاءً من الله كبير، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ومنها اقتراب القرامطة من البصرة، فخاف أهلها شديد الخوف وهموا بالرحيل عنها.

وفي سنة تسع وثمانين ومائتين، عاث القرامطة في سواد الكوفة خراباً، ثم قصدوا دمشق في جيش كبير فقاتلهم نائبها من جهة هارون بن خمارويه فهزموه، وبذلك تفاقم الحال بالناس وازدادوا سوءاً، فبعث الخليفة إليهم جيشاً لقتالهم لكنهم هزموه، ثم اجتازوا حتى بلغوا الرصافة فأحرقوا جامعها ولم يجتازوا قرية أو بلداً إلا نهبوه وخربوه، فكانوا كذلك حتى بلغوا دمشق، فقاتلهم أهلها فهزمهم القرامطة وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً.

وفاة الخليفة المعتضد بالله:

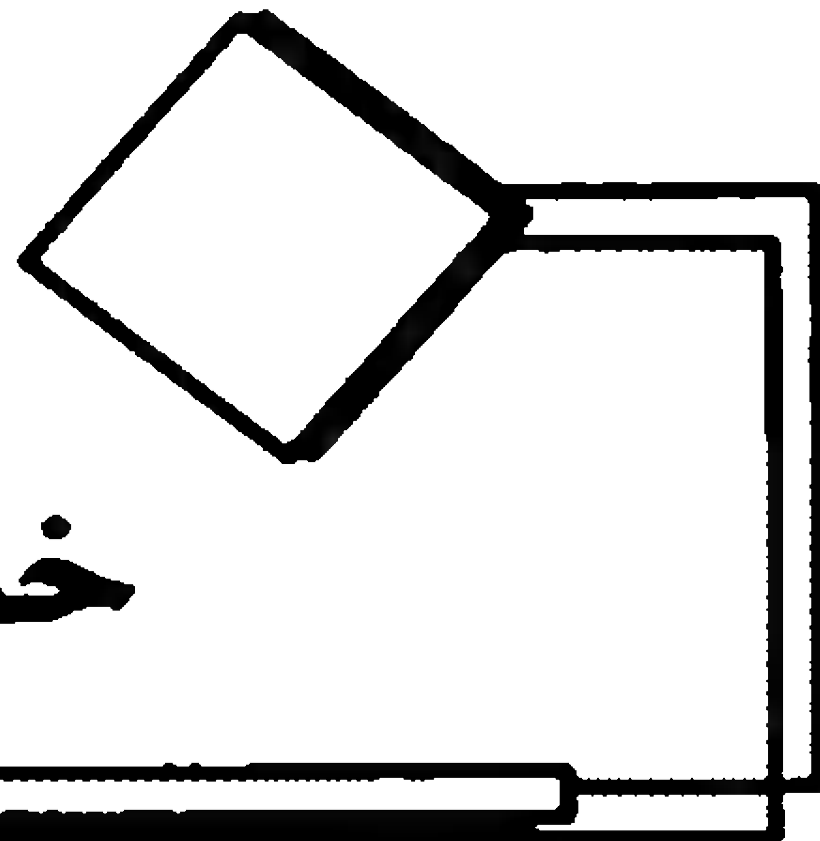
وفي هذا الحال من الاضطراب وتفاقم الكروب توفي الخليفة المعتضد بالله.

وهو أحمد بن الأمير أبي أحمد الموفق، الملقب بناصر دين الله، بويع له بالخلافة سنة تسع وسبعين ومائتين، وكان أمر الخلافة قد ألمّ به الوَهن في أيام عمه المعتمد، ولما ولي المعتضد رفع منار الخلافة وأعلى شأنها، إذ كان شجاعاً حازماً فهو من رجالات قريش من حيث الجرأة والإقدام وقوة البأس.

وفي هذه السنة - تسع وثمانين ومائتين - مرض هذا الخليفة واشتد وجعه، فاجتمع رؤوس الأمراء وأشاروا بأن يجتمع الناس لتجديد البيعة للمكتفي بالله علي بن المعتضد بالله، فجُددت له وتأكدت له البيعة بذلك.

وقد توفي المعتضد عن خمسين سنة أو أقل قليلاً، وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر، وكان رحمه الله شديد الحرص على أموال المسلمين، فكان يمسك عن صرف الأموال في غير وجهها، ومن أجل هذا كان بعض الناس يتهمه بالبخل.





الفصل السادس عشر
خلافة المكتفي بالله

هو علي بن المعتضد بالله أمير المؤمنين، بويع له بالخلافة عند وفاة أبيه، وحين ولي الخلافة كثرت الفتن واستشرى فساد القرامطة وغيرهم من الأشرار والمشعوذين والتائهين المضلين، وكان عمر الخليفة إذ ذاك خمساً وعشرين سنة، وحينئذٍ انتشر القرامطة في الآفاق، فجابوا طول البلاد إفساداً وتشويهاً وتخريباً، حتى اجترأ بعض مجرميهم أن يتسمى بأمير المؤمنين، فأرسل المكتفي إليهم جيشاً لقتالهم، فحدَّ من نفوذهم وسطوتهم.

وفي سنة تسعين ومائتين، أقبل جيش القرامطة نحو الرقة وعاثوا فيها فساداً، وكانوا بقيادة أحد مجرميهم الدجال يحيى بن زكرويه بن مهرويه، المعروف بالشيخ، فركب الخليفة المكتفي بالله في جيش من المسلمين للقاء هؤلاء المفسدين الزنادقة، فهزموهم وقُتل كبيرهم يحيى بن زكرويه على باب دمشق إذ طعنه أحد المسلمين بمزراق من نار فقضى عليه، فقام مقامه في قيادة القرامطة أخوه الحسين وتلقب بأمير المؤمنين، فأطاعه القرامطة، فحاصر دمشق ثم سار إلى حمص فافتتحها وخطب له الخطباء على منابرها، ثم سار إلى حماة ومعرة النعمان، فقهر أهل تلك البلدان واستباح أموالهم ونساءهم، وكان يأمر جماعته بقتل ما يجدونه أمامهم من صبيان ودواب ويبيح لمن معه وطء النساء، قبحه الله تقبيحاً، وقبح هؤلاء الأشقياء المفسدين الذين زاغت فيهم العقول وعميت فيهم الطبائع والبصائر، فمردوا بذلك على الضلال والتخريب، وهم يحسبون واهمين أنهم على شيء، وهم

ليسوا في ميزان الحق إلا المجرمين القتلة، والجواظين المتمردين المهاويس!!

ولقد كتب أهل الشام إلى الخليفة عما يلقونه من هؤلاء الملعونين السفهاء، فبادر الخليفة بتجهيز جيوش كثيفة لقتال القرامطة، فوقعت حرب شديدة بين القرامطة الزنادقة، وجند الخليفة فهزم فيها القرامطة وباءوا بالخسران والتبديد، ثم أسر المسلمون رئيسهم الحسن بن زكرويه، فنكّل به المسلمون وبمن معه أشد تنكيل إذ قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثم ماتوا ليساقوا بعد ذلك إلى الهاوية وبئس القرار، وكان ذلك في سنة إحدى وتسعين ومائتين.

وفي هذه السنة قصدت الأتراك بلاد المسلمين فيما وراء النهر في جحافل كبيرة من جيشهم، فردهم المسلمون وقتلوا منهم خلقاً كثيروا وأسروا منهم الكثير.

وفي هذه السنة كذلك أغار الروم على بلاد المسلمين، وقتلوا كثيراً من المسلمين وسبوا كثيراً من النساء والذرية، فتقدم إليهم المسلمون من جهة طرطوس وفتحوا مدينة إنطاكية، وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر لا تقل عند الروم أهمية عن القسطنطينية، واستنقذوا من أسارى المسلمين أعداداً كبيرة.

وفي سنة ثنتين وتسعين ومائتين، دخل جيش الخليفة المكتفي إلى الديار المصرية في عشرة آلاف مقاتل، فقاتلهم جيش الخليفة وهزموهم، فقضي بذلك على الدولة الطولونية في الديار المصرية.

وفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين، سار جيش كثيف من القرامطة - قاتلهم الله - بمحاذاة الفرات، فعاثوا في أرض المسلمين فساداً وتخريباً، ثم دخلوا طبرية قهراً، فقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وأخذوا من أموال المسلمين ما لا يحصى لكثرته، ثم حاصروا صنعاء فدخلوها قهراً ونكلوا بأهلها تنكيلاً، وساروا إلى بقية المدن من اليمن فأكثروا فيها الفساد وقتلوا فيها كثيراً من العباد.

ثم بعث القرامطة جيشاً إلى بصرى بقيادة رجل منهم اسمه عبدالله بن سعيد، فقصد بصرى وأذرعات وغيرهما من بلدان الشام، فحاربه أهلها ثم أمّنهم اللعين حتى إذا تمكن منهم أعمل فيهم القتل والتنكيل.

وفي سنة أربع وتسعين ومائتين، تعرّض القرامطة للحجاج من أهل خراسان وهم قافلون من مكة، فقتلوهم عن آخرهم وأخذوا أموالهم وسبوا نساءهم، فكان عدة من قتل من الحجاج المسلمين عشرين ألف نسمة، وكانت نساء القرامطة يطفن على الجرحى من المسلمين فيجهزن عليهم، قاتلهن الله وقاتل أزواجهن، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولما بلغ الخليفة المكتفي ما وقع للحجيج من تقتيل وإبادة وما فعله فيهم شياطين الإنس من زنادقة القرامطة، جهز جيشاً كثيفاً لمناجزتهم، فالتقوا معهم، فاقتتلوا قتالاً مستحراً غاية الاستحرار، فكانت الغلبة لجيش الخليفة، وقتل من القرامطة خلق كثير فلم يبق منهم إلا القليل، وضرب كبيرهم زكرويه بالسيف في رأسه ضربة تفتت منها دماغه، ثم أمر الخليفة بقتل من ظفروا به من القرامطة وأطلقوا من كان بأيديهم من أسارى المسلمين من النساء والصبيان.

وفي هذه السنة غزا جيش الخليفة المكتفي بلاد الروم من ناحية طرطوس، فقتل منهم نحواً من أربعة آلاف، وأسر منهم نحواً من خمسين ألفاً، وأسلم بعض البطارقة.

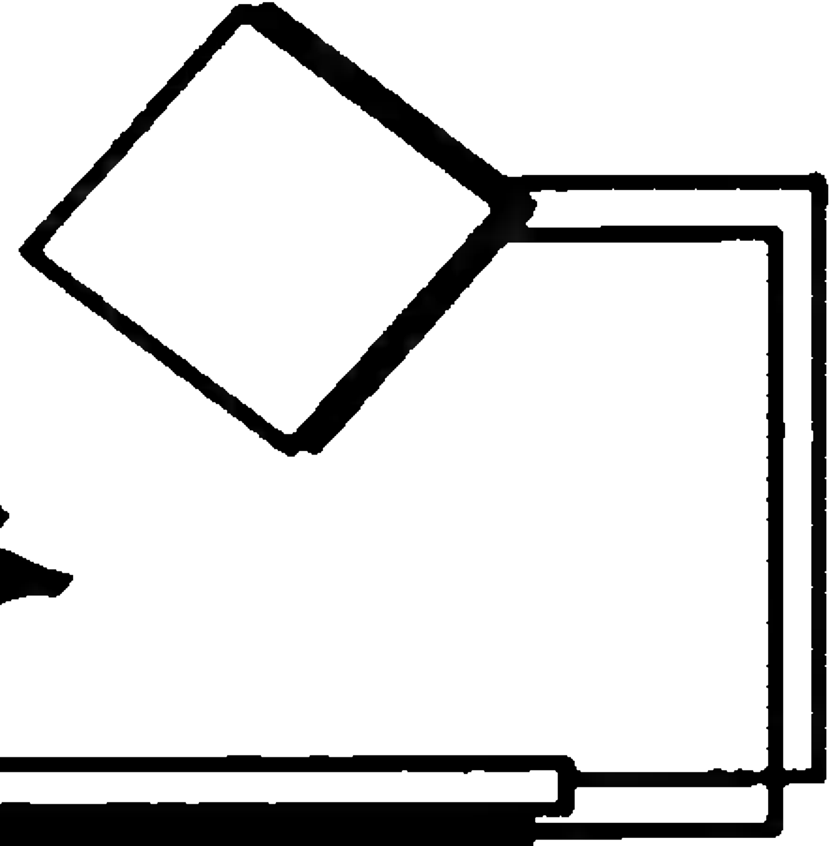
وفي سنة خمس وتسعين ومائتين، حدثت مفاداة بين المسلمين والروم، فاستنقذ المسلمون نحواً من ثلاثة آلاف نسمة.

وفاة الخليفة المكتفي بالله رحمه الله:

وفي هذه السنة مات الخليفة وهو أمير المؤمنين المكتفي بالله بن المعتضد بن الأمير أبي أحمد الموفق بن المتوكل على الله، بويع له بالخلافة من بعد أبيه وكان عمره خمساً وعشرين سنة، وفي أيامه فتحت إنطاكية وكان فيها خلق كثير من أسارى المسلمين، ولما حضرته الوفاة أحضر أخاه أبا

الفضل جعفر بن المعتضد وأشهد على نفسه أمام القضاة أنه فوض إلى أخيه أمر الخلافة من بعده، ولقبه بالمقتدر بالله، ثم توفي عن ثنتين وثلاثين سنة، وكانت مدة خلافته ست سنين ونصف السنة.





الفصل السابع عشر
خلافة المقتدر بالله

بويع له بالخلافة في حياة أخيه المكتفي، ثم جددت له البيعة بعد موته، وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة، ولم يكن أحد من قبله أصغر منه، فبايعه الناس بيعة العامة، وكان رحمه الله جواداً سخياً، وكان ينفق الأموال على نحو من الإفراط، وذلكم هو دأب الصغار من الولاة والحكام، ومع ذلك فقد كان المقتدر بالله ذا عبادة وورع فكان كثير الصلاة، كثير الصيام تطوعاً لله.

وفي سنة ست وتسعين ومائتين، أجمع فريق من الأمراء والقادة على خلع المقتدر وتولية عبدالله بن المعتز الخلافة مكانه، فلما سمع المقتدر صيحة الجند ذهب مبادراً إلى دار الخلافة فأغلقها دون الجيش، فاجتمع الأمراء والقضاة والأعيان لمبايعة عبدالله بن المعتز، فبايعوه بالخلافة ولقب بالمرتضى بالله، فبعث هذا إلى المقتدر يأمره بالتحول من دار الخلافة لينتقل هو إليها، فسمع له المقتدر وأطاع، ولما أراد القادة والأمراء من جماعة المعتز الدخول إلى دار الخلافة قاتلهم من فيها من جند وخدم، فحالوا دون دخولهم إليها، ثم ارتحل ابن المعتز إلى الموصل، فوهن نظامه وتفرقت جماعته، وبعث المقتدر إلى أصحاب ابن المعتز فقبض عليهم وقتل أكثرهم ثم صفح عن بقية من سعى في هذه الفتنة.

هلاك ابن الراوندي:

وفي سنة ثمان وتسعين ومائتين توفي ابن الراوندي وهو واحد من

أعلام الزندقة، وقد كان أبوه يهودياً، فأظهر الإسلام ليستطيع التدسس إلى مداخل المسلمين فيطعن في دينهم، وقد قيل: إنه حرّف التوراة وصنّف كتاباً في الرد على القرآن سماه الدامغ، وكتاباً في الرد على الشريعة والاعتراض عليها سماه الزمردة، وقد انتصب للرد على كتب هذا الزنديق الخاسر جماعة من أهل العلم منهم العالم المعتزلي الأصولي الشهير أبو علي محمد بن عبدالوهاب الجبائي.

وتوفي في هذا العام آخرون غيره منهم الجنيد، وسمنون بن حمزة، وإسحق بن حنين[1].

ظهور الحلاج:

وفي سنة إحدى وثلاثمائة ظهر الحلاج وهو الحسن بن منصور بن محمى الحلاج، أبو مغيث، كان جده مجوسياً اسمه محمى من أهل فارس، وقد نشأ بواسط وقيل: بتستر، ثم دخل بغداد وتردد بعد ذلك إلى مكة وجاور بها في وسط المسجد في البرد والحر، وقد صحب جماعة من مشايخ الصوفية، كالجنيد، وأبي الحسن النوري، ومع ذلك فقد نفى أكثر الصوفية أن يكون الحلاج منهم، والناس مختلفون في حقيقة أمره، لكن الفقهاء مجمعون على وجوب قتله لارتداده أو كفره، فهو بذلك قد قتل كافراً.

وبالرغم من ذلك فإن طائفة من الناس قد غرهم ظاهر هذا الزنديق المشعوذ، إذ لم يطلعوا على باطنه ولا تدبروا حقيقة كثير من كلماته التي تدمغه بالكفر والزندقة.

وقد تبيّن أن الحلاج قد دخل إلى الهند وتعلم بها السحر، وقال: ادعو به (السحر) إلى الله، وكان أهل الهند يكاتبونه بالمغيث، ويكاتبه أهل فارس بالزاهد، ويكاتبه أهل خوزستان بالزاهد حلاج الأسرار، إلى غير ذلك

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١١ ص٩٥ ـ ١٢٠.

من الصفات التي ألبسه إياها المغفلون والمخدوعون.

وقد سمي هذا المخادع المراوغ بالحلاج لأنه كان يكاشف الناس عما في ضمائرهم، وقيل غير ذلك.

وقد تبيّن من الشواهد الكثيرة المتضافرة ما يدل على كفر هذا الرجل الكنود الدجال، وأنه من فساق الزنادقة الذين لم يعرف الإيمان إلى قلوبهم سبيلاً، فقد روي عن عمرو بن عثمان المكي أنه قال في هذا الصدد: كنت أماشي الحلاج في بعض أزقة مكة وكنت أقرأ القرآن فسمع قراءتي فقال: يمكنني أن أقول مثل هذا، ففارقته.

وقال محمد بن يحيى الرازي: سمعت عمرو بن عثمان يلعنه (الحلاج) ويقول: لو قدرت عليه لقتلته بيدي، فقلت له: أيش الذي وجد الشيخ عليه؟ فقال: قرأت آية من كتاب الله، فقال: يمكنني أن أؤلف مثله وأتكلم به.

وقال أبو زرعة الطبري: سمعت أبا يعقوب الأقطع يقول: زوجت ابنتي من الحسين الحلاج لما رأيت من حسن طريقته واجتهاده، فبان لي منه بعد مدة يسيرة أنه ساحر محتال، خبيث كافر.

وغير ذلك من الشواهد والأدلة كثير، مما يقطع بكفران هذا الزنديق الفاجر المحتال.

مقتل الحلاج:

استطار أمر الحلاج واستبان للعيان فساده وكفره وأنه مشعوذ زنديق فتان، فقد أضل خلقاً كثيراً من حاشية الخلافة والحجاب في دار السلطان، وقد خُيِّل إليهم في جملة ما ادعاه أنه يحيي الموتى، وأن الجن يخدمونه ويحضرون له ما شاء ويختار ما يشتهيه، وقال: أنه أحيى عدة من الطير، وقد ذكر أن رجلاً اسمه محمد بن علي القنائي الكاتب كان يعبد الحلاج ويدعو الناس إلى طاعته، فكُبس منزله فأُخذ فأقرّ أنه من أصحاب الحلاج، ووجد في منزله أشياء بخط الحلاج مكتوبة بماء الذهب في ورق الحرير،

ووجد عنده سفط فيه من رجيع الحلاج وعذرته وبوله وأشياء من آثاره، وبقية خبز من زاده، فطلب الوزير من المقتدر أن يتكلم في أمر الحلاج ففوض أمره إليه، فاستدعى جماعة من أصحاب الحلاج فتهددهم فاعترفوا له أنه قد صح عندهم أنه إله مع الله، وأنه يحيي الموتى.

وأخيراً جيء به فقطعت يداه ورجلاه، وحُزَّ رأسه وأُحرقت جثته وأُلقي رمادها في دجلة، ثم طيف برأسه في نواحي خراسان.

وفاة ابن جرير الطبري:

وفي سنة عشر وثلاثمائة توفي ابن جرير الطبري وهو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، الإمام أبو جعفر الطبري، كان عالماً مشهوراً، وقد رحل إلى الآفاق في طلب الحديث، وصنف كتابه الحافل في التاريخ، وله التفسير المعروف بتفسير الطبري، وغير ذلك من المصنفات والمؤلفات كثير، مما يكشف عن نبوغه وضلوعه في علوم الإسلام وأخبار المسلمين والأمم.

وقد توفي بالمغرب عن خمس وثمانين سنة، ودفن في داره رحمه الله.

وفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، دخل أمير القرامطة سليمان بن أبي سعيد الجنابي في ألف فارس إلى البصرة ليلاً، فدخلها قهراً وقتل من لقيه من أهلها وهرب أكثر الناس، ثم ألقوا أنفسهم في الماء فغرق كثير منهم.

وفي سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة، اعترض القرامطة برئاسة الحسين بن أبي سعيد الجنابي للحجاج المسلمين لدى رجوعهم من بيت الله الحرام وقد أدوا فريضة الحج، فقطع المجرمون السفاحون عليهم الطريق وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسروا ما شاؤوا من نسائهم وأبنائهم، وأخذوا من أموالهم ما أرادوا، ثم تركوا بقية الناس في البرية والفيافي بغير ماء ولا زاد ولا مطية وقد جردوهم من الزاد والأموال والمراكب فضلاً عن سبي نسائهم وأبنائهم، وهكذا يفعل المجرمون المضلون الغارقون في جحيم السفاهة والباطل،

أولئك الذين لبسوا أشباه العابدين الزاهدين، وما تنطوي قلوبهم السوداء إلا على الشذوذ والخبث والجنوح للتخريب والإفساد.

وفي هذه السنة توفي علي بن محمد بن الفرات، وكان الخليفة المقتدر قد ولاه ثم عزله، ثم ولاه ثم عزله، ثم ولاه ثم عزله، ثم ولاه ثم عزله، ثم ولاه ثم قتله في هذه السنة، وقتل ولده أيضاً.

وفي سنة أربع عشرة وثلاثمائة، كتب ملك الروم إلى المسلمين من أهل السواحل أن يحملوا له الخراج، فأبوا، فسار اللعين إليهم في جنوده، فعاث في الأرض الفساد، وقتل من أهل ملطية خلقاً كثيراً، وفزع أهلها إلى الخليفة في بغداد يستنجدونه، ورحل أهل مكة كذلك إلى الطائف خشية على أنفسهم من القرامطة الذين اقتربوا منهم.

وفي سنة خمس عشرة وثلاثمائة، ظهر الديلم في بلاد الري ـ وكان فيهم ملك يدعى مرداويج ـ وكان مستكبراً مغروراً، إذ كان يجلس على سرير من ذهب وبين يديه سرير من فضة ويقول: أنا سليمان بن داود، وكان قبحه الله ظلوماً أثيماً، فكان يقتل النساء، وكذا الصبيان في المهد، ويأخذ أموال الناس بالباطل، وكان في غاية الطغيان والجبروت والاجتراء على محارم الله، ثم أراح الله المسلمين من شره وطغيانه إذ قتله الأتراك.

وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة، أمعنت القرامطة في الإفساد والتخريب في ديار المسلمين، وكان رئيسهم الشقي الأثيم أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي، فقد قتل هذا وزبانيته من المسلمين خلقاً كثيراً ثم تفاقم أمر هؤلاء وكثر أتباعهم، ففزع الناس منهم وعجزوا عن ردهم، وما كان ذلك ليكون لولا الضعف الذي أحاط بالخليفة.

وبقي الحال على هذا المنوال من الاضطراب والفوضى، واحتدام الفتن حتى جهز الخليفة جيشاً كثيفاً لقتال القرامطة، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا من أشرافهم الكثير، ودخل جيش الخليفة بغداد بقيادة مؤنس الخادم، ففرح الناس بذلك فرحاً شديداً.

شنائع القرامطة بالبيت الحرام:

وذلك في سنة سبع عشرة وثلاثمائة، حيث الفتن التي ألمت بالمسلمين وما أحاط بالخلافة من اضطراب واختلاف، فانتهبوا أموالهم واستباحوا قتلهم، فقتلوا في وسط مكة وفي شعابها وفي داخل المسجد الحرام وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقاً كثيراً، وجلس أمير القرامطة أبو طاهر على باب الكعبة وهو ينظر إلى الناس يصرعون من حوله والسيوف تحصد الحجاج في المسجد الحرام في الشهر الحرام وفي يوم التروية، والزنديق المجرم الخاسر يقول: أنا الله وبالله، أنا أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا! فكان الناس يفرون منه هاربين مذعورين فيتعلقون بأستار الكعبة عسى القرامطة أن يذروهم أو يزدجروا، فلا يقتلوهم، بل كان الأشقياء الخاسرون لا يتورعون عن قتلهم وهم متعلقون بأستار الكعبة!!

وعقب هذه الأفاعيل الشنيعة النكراء من التقتيل والتفظيع، أمر أبو طاهر الجنابي لعنه الله، بدفن القتلى في بئر زمزم، وفوق ذلك من التفظيع والتشنيع، بادر هؤلاء الأشقياء الهمج، والمجرمون الرعاع، إلى قلع الحجر الأسود، فاقتلعوه وانطلقوا به إلى بلادهم، فمكث عندهم ثنتين وعشرين سنة ثم ردوه.

ولدى رجوع القرامطة إلى بلادهم يحملون معهم الحجر الأسود، تبعهم أمير مكة ومعه أهله وجنده وسألهم متشفعاً إليهم أن يردوا الحجر الأسود ليوضع في مكانه، فيبذل لهم - في مقابلة ذلك - جميع ما يملك من الأموال، فلم يلتفتوا إليه، فقاتلهم أمير مكة، لكن القرامطة ظفروا به فقتلوه وقتلوا أكثر الذين كانوا معه!

وكذلك يفعل المجرمون العصاة، والمارقون الخونة، الذين تقمصت قلوبهم طبائع الشياطين فأبوا إلا الإيغال في الرجس والباطل، وآلوا إلا السعي في الأرض بالشر والمنكر والتخريب.

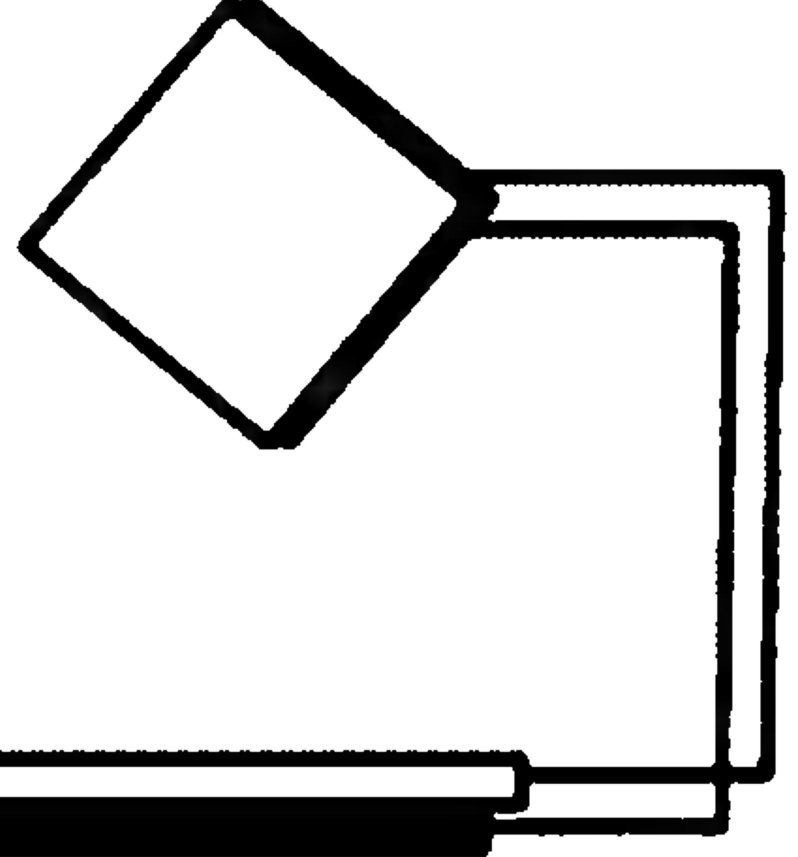
أولئك هم العتاة المناكيد من مماسيخ البشر الذين اعوجت فيهم الفطرة أيما اعوجاج، فما عادت تستمرىء غير الشر والفساد ومقارفة الخطيئة

والباطل بكل صوره وألوانه في ذلكم الزمان وفي غالب الأزمان!!

ترجمة المقتدر ومقتله:

هو جعفر بن أحمد المعتضد بالله أحمد بن أبي أحمد الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، أمير المؤمنين العباسي، وكان قد بويع بالخلافة بعد أخيه المكتفي وكان عمره يومئذٍ ثلاث عشرة سنة، وكان ذلك قد شجع الجند أن يخلعوه احتجاجاً بصغره ليولوا مكانه ابن المعتز، فلم يتحقق ذلك، ثم خلعوه فيما بعد وولوا مكانه أخاه محمداً القاهر، فلم يتم ذلك إلا يومين، فرجع المقتدر إلى الخلافة، وقد كان هذا الخليفة سخياً جواداً وذا عقل جيد وفهم وافر، وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحرمين وأصحاب الوظائف، وكان كثير التنفل بالعبادات كالصلاة والصوم، بالرغم من كثرة جنوحه للشهوات، ثم كان مقتله على يدي مؤنس الخادم، فقتل ببغداد وله من العمر ثمان وثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وإحدى عشر شهراً.





الفصل الثامن عشر
خلافة القاهر

عقب مقتل المقتدر بالله عزم مؤنس الخادم على تولية أبي العباس بن المقتدر، خلفاً لأبيه، وذلك لتطييب قلب أم المقتدر، فخالفه في ذلك أكثر الأمراء، ثم أحضروا محمداً بن المعتضد، وهو أخو المقتدر، فبايعه القضاة والأمراء والوزراء، ولقبوه بالقاهر بالله، فشرع هذا في مصادرة الأموال التي في حوزة أصحاب المقتدر، واستدعى أم المقتدر لمساءلتها عما لديها من أموال، وكانت مريضة مرضاً شديداً، وقد ازداد بها المرض من فرط جزعها والتياعها على ولدها المقتدر حين بلغها مقتله، إذ ضربه أحد المغاربة البربر على عاتقه فسقط على الأرض، ثم ذبحه آخر ذبحاً ثم تركوا جثته وقد جردوه من لباسه، فبقي مكشوف العورة مجندلاً على الأرض حتى غطاه رجل بحشيش فستر عورته ثم دفنه في مكانه.

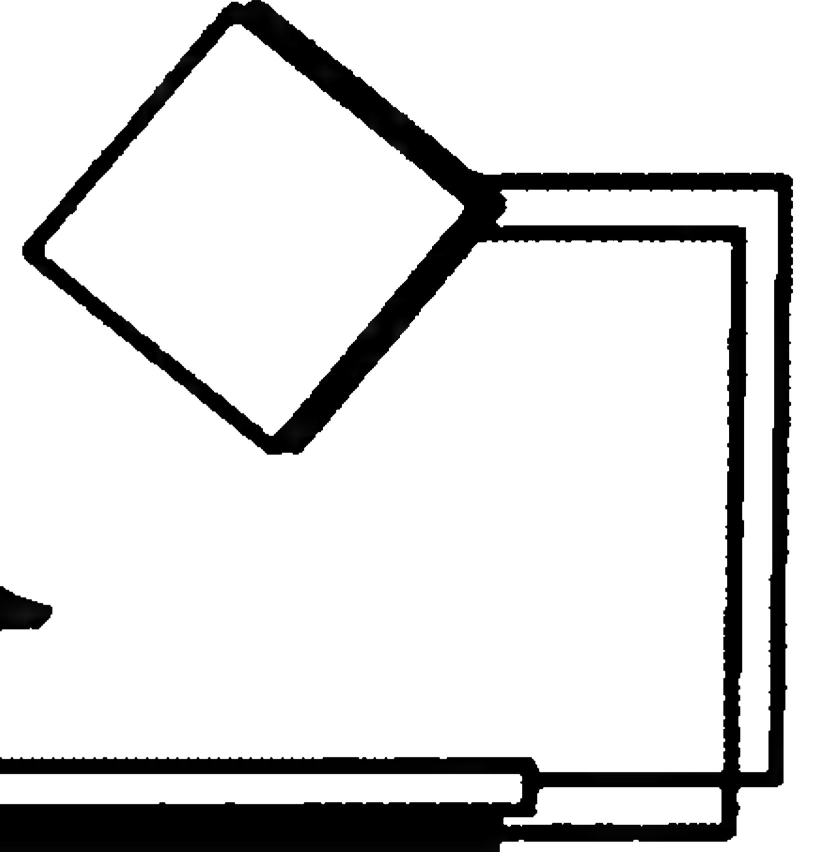
ابتداء ظهور دولة بني بويه:

وبنو بويه، ثلاثة إخوة وهم: عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعز الدولة أبو الحسين أحمد، وهم أولاد أبي شجاع بويه، ثم ينتهي نسبهم إلى سيان بن بهرام الملك بن يزدجرد الملك، بن سابور الملك بن سابور ذي الأكتاف الفارسي، وقد سمي هؤلاء بالديالمة لمجاورتهم الديلم، وقد عاشوا بين أظهرهم مدة من الزمن.

وقد اتفق أن هؤلاء الثلاثة كانوا عند ملك يقال له: «ما كان بن كاني»

في طبرستان، فتسلط عليه مرداويح، فضعف: «ما كان» ثم تشاور الأخوة الثلاثة في مفارقته، فخرجوا عنه ومعهم بعض الأمراء، فصاروا إلى مرداويح فأكرمهم وأحسن استقبالهم ثم استعملهم على البلدان، فأعطى عماد الدولة علي بويه نيابة الكرخ، فحسنت فيها سيرته ثم أحبه الناس والتفوا من حوله مما أثار الحسد في نفس مرداويح، فأراد أن يعزله عن نيابة الكرخ، فأبى عليه عماد الدولة وامتنع من القدوم عليه، ثم سار إلى أصبهان واستولى عليها فعظم في أعين الناس، ثم قصد أذربيجان فأخذها من نائبها وأخذ غيرها بلداناً أخرى كثيرة، فاشتهر بذلك أمره وذاع صيته وحسنت سيرته، فعظمه الناس واجتمع من حوله الجند، فما فتيء عماد الدولة يعلو ويرقى حتى آل به الأمر إلى أن ملك وإخوته بغداد من أيدي العباسيين.





الفصل التاسع عشر
خلافة الراضي بالله

كان الجند قد اتفقوا على خلع الخليفة القاهر، فخلعوه وسملوا عينيه فبات ضريراً، ثم أحضروا أبا العباس محمد بن المقتدر فبايعوه بالخلافة ولقبوه الراضي بالله، ثم جاؤوا بالقاهر وهو أعمى قد سملت عيناه، فأوقفوه بين يديه، فسلم عليه بالخلافة وسلمها إليه، فقام الراضي بأمور الخلافة خير قيام، فكان بذلك من خيار الخلفاء، فأحسن إلى الناس وأطلق من كان سجيناً في القاهرة.

وفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، أحاط الجند بدار الخلافة ونادوا: ليخرج إلينا الخليفة الراضي بنفسه فيصلي بالناس، فخرج إليهم الخليفة وصلى بهم، ولقد حاق بالخلافة حينئذٍ حال من الضعف واضطراب الأمور، وشاع الاستقلال في البلدان بعيداً عن أمر الخليفة، إذ لم يبق له حكم في غير بغداد وما حولها، أما بقية الأطراف والبلدان فكان الحكم فيها للأمراء الذين يسوسون الناس في معزل عن الخلافة في بغداد.

فقد كانت البصرة مع ابن رائق، يولي فيها من شاء، وكانت خوزستان إلى عبدالله البريدي، وكان أمر فارس إلى عماد الدولة بن بويه، وبلاد الموصل والجزيرة وديار بكر ومضر وربيعة مع بني حمدان، وكانت مصر والشام في يد محمد بن طغج، وبلاد أفريقية والمغرب في يد القائم بأمر الله بن المهدي الفاطمي، وقد تلقب بأمير المؤمنين، والأندلس في يد

عبدالرحمٰن بن محمد الأموي، الملقب بالناصر، وكذلك خراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والبحرين واليمامة وهجر في يد أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي.

وفي هذه السنة توفي أبو الحسن الأشعري، وقد كان من علماء بغداد وأخذ بها الحديث والفقه، وقد كان في أول أمره معتزلياً، فتاب من مذهبهم بالبصرة فوق المنبر ثم تحدث عن قبائح للمعتزلة، وذكر ابن حزم أن للأشعري خمسة وخمسين تصنيفاً.

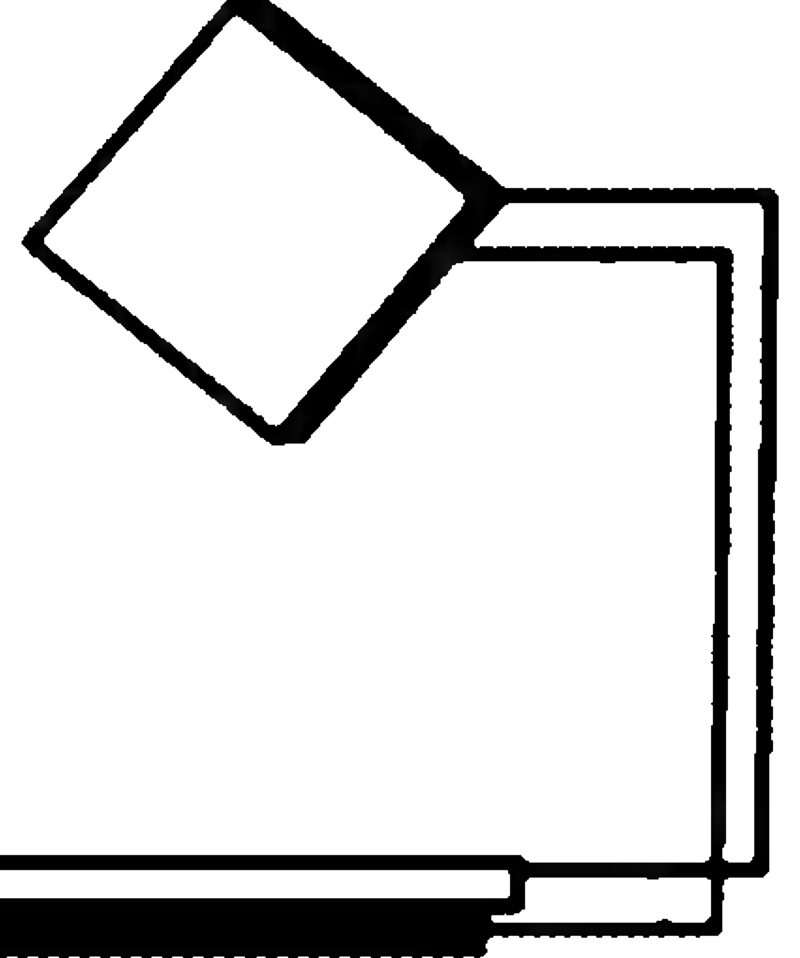
وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، خرج الخليفة الراضي إلى الموصل لقتال نائبها ناصر الدولة الحسن بن عبدالله بن حمدان، ومعه أمير الأمراء بجكم التركي، ولما بلغ بجكم التركي الموصل ناجز الحسن بن حمدان فهزم بجكم ابن حمدان، واغتنمت القرامطة غيبة الخليفة عن بغداد فدخلوها وعاثوا فيها الفساد، ثم أُخرجوا منها خائبين مدحورين بمقدم الخليفة إليهم.

وفي هذه السنة وقعت في الأندلس فتنة، وذلك أن عبدالرحمٰن الأموي صاحب الأندلس قد قتل وزيره أحمد، مما أغضب أخاه أمية بن إسحاق، فانقلب على وجهه مرتداً ودخل بلاد النصارى واجتمع بملكهم ودلهم على مداخل المسلمين، فسار إليهم في جيش كثيف من الجلالقة فقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً، ثم كرَّ المسلمون على الفرنج ووالوا عليهم الغارات فقتلوا من الجلالقة أمماً كثيرة، ثم ما لبث بعد ذلك أن ندم أمية بن إسحاق على فعلته في الارتداد، فطلب الأمان من عبدالرحمٰن فبعث إليه بالأمان.

وفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، توفي الخليفة الراضي بالله أمير المؤمنين، وكانت خلافته ست سنوات وعشرة أشهر، وكان عمره يوم وفاته إحدى وثلاثين سنة وعشرة أشهر(١).

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١١ ص١٣٢ - ١٩٨.



الفصل العشرون

خلافة المتقي بالله

بعد موت الخليفة الراضي، اجتمع القضاة والأعيان في دار الأمير التركي بجكم وتشاوروا فيمن يستخلفونه عليهم، فأجمعوا رأيهم على أن يكون المتقي هو الخليفة، فأحضروه في دار الخلافة لمبايعته، فقام فصلى ركعتين صلاة الاستخارة، ثم صعد إلى السرير وبايعه الناس، فلم يغير شيئاً بل بقي على حاله من التواضع والزهد، فقد كان كثير الصلاة والصيام والتعبد، وقال لمن حوله من الأعيان والأمراء: لا أريد جليساً ولا مسامراً، وحسبي المصحف نديماً، ولا أريد نديماً غيره، فاجتنبه الجلساء والسمار والشعراء والوزراء، والتفوا من حول الأمير التركي بجكم، فكانوا يجالسونه ويتناشدون عنده الأشعار، وكان بجكم لا يفهم كثيراً مما يقولون بسبب عجمته، إذ هو من الأتراك.

وفي هذا العام مات بجكم التركي، وهو أمير الأمراء في بغداد، كان يفهم العربية ولا يتكلم بها خشية أن يخطىء بها، فإن الخطأ من الرئيس قبيح ـ كما زعم ـ وقد كان يحب العلم ويكرم أهله، وكان كثير الأموال والصدقات، وكان يقول: العدل ربح السلطان في الدنيا والآخرة.

أما سبب موته، فهو أنه خرج يتصيد فلقي طائفة من الأكراد فاستهان بهم فقاتلوه فضربه أحدهم فقتله، وقد امتدت إمرته على بغداد سنتين وثمانية أشهر.

وفي سنة ثلاثين وثلاثمائة، نزلت بالمسلمين فتن وحروب وشاع فيهم الغلاء والخوف، وشغل الناس بالمرض والفقر والجوع، ووقع اقتتال شديد بين فئات من المسلمين في بغداد وغيرها، وأخذ القرامطة يفسدون في الأرض، حتى قاتلهم الأتراك وقهروهم وأخرجوهم من بغداد مهزومين أذلة.

وفي هذه السنة كذلك، هاجم الروم المسلمين حتى وصلوا إلى الغرب من حلب، فقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً وأسروا منهم خمسة عشر ألفاً، وما كان لمثل هذه الأحداث المؤسفة أن تقع لو كانت الخلافة مهيبة الجانب، وعلى قدر كبير من الحزم واشتداد البأس.

وذلكم ديدن البشرية والمجتمعات في كل الأزمنة، إذ لا يحول بينهم وبين الفتن والضعف والتهافت غير ما يتجلى في الحاكم من قوة الشكيمة والبأس.

وفي سنة ثنتين وثلاثين وثلاثمائة، خرج المتقي أمير المؤمنين من بغداد إلى الموصل مغاضباً لتورون والي شرطة بغداد، الذي تمالأ مع بعض الجند على الخليفة، فعاث وجماعته ببغداد فساداً حتى استقل بالأمر من غير مراجعة الخليفة المتقي، فخرج هذا بأهله وأولاده مغاضباً له ولمن اتبعه من الأمراء قاصداً إلى بني حمدان في الموصل.

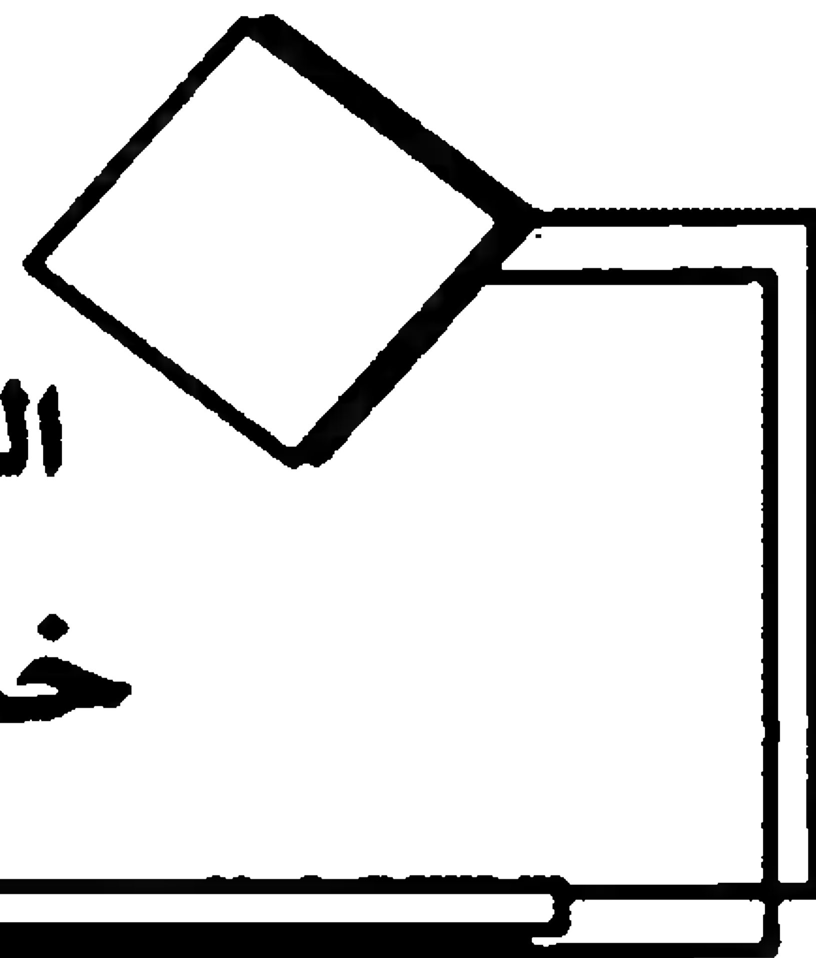
وفي هذه السنة أقبلت طائفة من الروس في البحر إلى نواحي أذربيجان فحاصروا بعضاً منها، ولما ظفروا بأهلها قتلوهم عن آخرهم، وغنموا أموالهم وسبوا نساءهم، ثم مالوا بعد ذلك إلى ما فيها من ثمار فأكلوا منها كثيراً، فأصابهم وباء شديد أمات أكثرهم.

وفيها كذلك مات أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن الجنابي القرمطي، وهو رئيس القرامطة عليه وعليهم لعائن الله، وأبو طاهر الجنابي، هو الأثيم اللعين الذي قتل الحُجاج حول الكعبة وفي جوفها، وسلبها كسوتها وأخذ بابها وحليتها واقتلع الحجر الأسود منها وذهب به إلى هجر فمكث عنده عشرين سنة! فيا لله لفظاعة هذا النكر الشنيع المقبوح، الذي تضطرب لهوله الأعصاب والقلوب!!

ولما مات هذا الشقي العاتي، اضطلع بالأمر من بعده إخوته الثلاثة، وهم: أبو العباس الفضل، وأبو القاسم سعيد، وأبو يعقوب يوسف، وهم بنو أبي سعيد الجنابي القرمطي.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، رجع الخليفة المتقي إلى بغداد بعد أن خرج منها إلى الموصل مغاضباً لتورون، فما لبث عقب عودته أن خُلع من الخلافة ثم سُملت عيناه على يد تورون، فصاح الخليفة صيحة مفزعة جزعت منها الحريم فضجت أصواتهن بالبكاء، ثم مضى تورون إلى بغداد لمبايعة المستكفي، فكانت بذلك خلافة المتقي ثلاث سنين وخمسة أشهر.





الفصل الحادي والعشرون
خلافة المستكفي بالله

وهو أبو القاسم عبدالله بن المكتفي بن المعتضد، فقد استدعاه توزون التركي عقب رجوع هذا إلى بغداد فبايعه، ولُقب حينئذٍ بالمستكفي بالله، وكان عمره لما بويع بالخلافة إحدى وأربعين سنة، ثم جيء بالمتقي بين يديه وبايعه ثم رُد إلى حبسه في السجن.

حكم البويهيين ببغداد

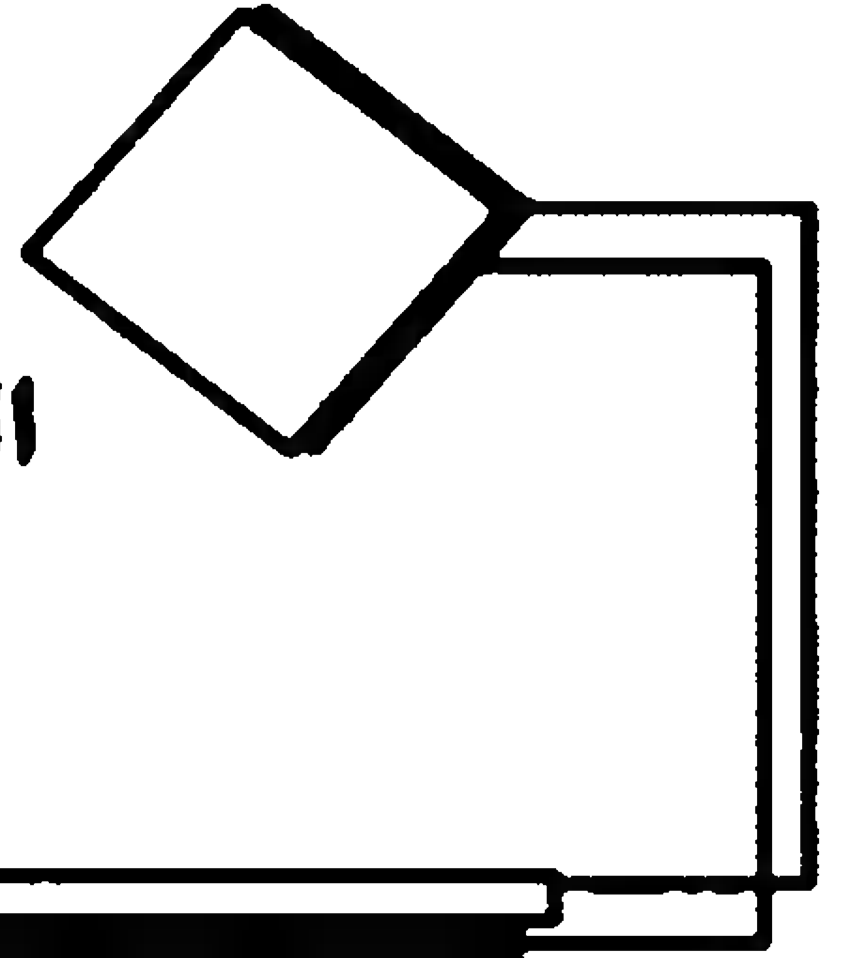
سار معز الدولة أحمد بن الحسن بن بويه في جحافل عظيمة من الجيوش قاصداً بغداد، ولدى اقترابه منها بعث إليه رسوله ليخبره أنه مسرور به، وقد بعث إليه تحفاً وهدايا، ثم دخل معز الدولة بغداد، حتى إذا دخل على الخليفة بايعه.

لكن القلوب تتقلب من حال إلى حال سواء في الحب أو البغض، فما يكاد المرء يخالج قلبه شغف الحب لغيره من الناس، حتى ينقطع به حبل هذا الشغف، فينقلب نافراً مباغضاً، وإنما يكون المرء كذلك إذا كان هواه منوطاً بحاجة من حاجات الدنيا كالمال أو الشهرة أو الرياسة أو نحو ذلك من مقتضيات الهوى المتقلب، إلا أن يكون المرء منوطاً قلبه بحب الله وقد سخرت فيه المشاعر والحواس والقدرات لعبادة الله وحده وإعلاء راية هذا الدين الكريم المميز، لا جرم أن يكون مثل هذا المرء ثابت الهمة والعزم مستديم الإخلاص والمودة لدين الحق وأهله من المؤمنين العاملين الأطهار.

فذلكم معز الدولة الذي بايع على سرير المستكفي ثم ما لبث بعد مدة أن جلس على سرير بين يدي الخليفة، ثم جاء رجلان من الديلم فأنزلا الخليفة عن كرسيه، وسحباه في غلظة واستهجان، ثم سيق الخليفة ماشياً إلى دار معز الدولة فاعتقل بها وسملت عيناه، وظل رهين السجن حتى مات عن ست وأربعين سنة.

وبعد هذا التفظيع من قتل الخليفة المستكفي وسمل عينيه وإيداعه السجن حتى الموت، بادر معز الدولة بإحضار أبي القاسم الفضل بن المقتدر بالله وكان مختفياً من المستكفي، ثم بويع له بالخلافة، ولقب بالمطيع لله.





الفصل الثاني والعشرون
خلافة المطيع لله

بايعه الأمراء والأعيان وعامة الناس، ثم ما لبث أمر الخليفة أن أحاط به الضعف حتى لم يبق له أمر ولا نهي، وإنما كانت شؤون الدولة برمتها راجعة إلى معز الدولة، وسبب ذلك أن بني بويه ومعهم الديلم كانوا أولي عسف شديد، وكانوا يرون أن بني العباس قد غصبوا الأمر من العلويين، وبذلك عزم معز الدولة على تحويل الخلافة إلى العلويين وقد حضه أصحابه على ذلك، لولا أن رجلاً واحداً من أصحابه كان حصيف الرأي، قد عدله عن رأيه هذا فعدل.

وفي هذه السنة، وهي أربع وثلاثون وثلاثمائة، توفي الأخشيد محمد بن طغج صاحب الديار المصرية والشامية وقد توفي بدمشق عن بضع وستين سنة.

وفاة عمر بن الحسين الخرقي:

وقد توفي في هذه السنة عمر بن الحسين الخرفي وهو صاحب المختصر في الفقه على مذهب الإمام أحمد، وقد شرح مختصره كل من أبي يعلى بن الفراء، والشيخ موفق الدين بن قدامة المقدسي، وكان الخرقي رحمه الله من أهل العبادة والعلم، وقد خرج من بغداد مهاجراً لما كثر بها من الفتن ومن سب للصحابة، واحترقت داره ببغداد وكانت كتبه فيها فأتى عليها الحريق ففنيت مصنفاته، ثم قصد إلى دمشق فأقام بها حتى مات في هذه السنة.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ـ وهي سنة مباركة حقاً ـ رد الله فيها الحجر الأسود إلى مكانه في الكعبة من البيت الحرام، وقد كان القرامطة قد أخذوه قبل ذلك وكان ملكهم حينذاك أبا طاهر سليمان أبي سعيد الحسين الجنابي، وقد استفظع المسلمون ذلك، وقد بذل لهم الأمير التركي بجكم مبلغاً كبيراً من المال لكي يردوه إلى موضعه، فأبوا، وقالوا: نحن أخذناه بأمر وقد رددناه بأمر من أخذناه بأمره، حتى إذا كان هذا العام أرسلوه إلى مكة على قعود، فوصل إلى موضعه من البيت الحرام بعد نيف وعشرين سنة، ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً.

ثم توالت بعد ذلك على المسلمين سنون لاقوا فيها من الفتن والشدائد وضروب العدوان عليهم ما يثير الأسى تارة، ويستنفر الغضب الأشد تارة أخرى، لقد شاع في المسلمين ظواهر شتى من اختلاف الآراء والقناعات، بما يفضي بالضرورة إلى اختلاف القلوب وتنافر الأهواء والمشاعر.

لقد تفرق المسلمون إلى طوائف متباينة مختلفة من المسميات، ما بين رافضة وسنة وشيعة وغير هؤلاء من أولي الأهواء الفاجرة، الذين تلطخت قلوبهم وأذهانهم بلوثة الزندقة كالخرمية والمزدكية والزردشتية والسبأية والعلوية والمانوية والقرامطة، وغيرهم من أصحاب الملل الشاردة والنحل المستغرقة في الضلال والوهم، السادرة في الغي والجهالة، وأوهام الحالمين!!

لقد كان لمثل هاتيك المسميات والاختلافات عظيم الأثر في اختلاف الأمة وشتات أهوائها وقلوبها، مما أفضى في النهاية إلى ما نتلوه من أخبار في التاريخ عن اقتتال يقع في مجتمعات المسلمين بين الحين والحين، حتى ذهب ضحية هذا الاقتتال مئات الألوف من البشر فضلاً عن هلاك الأموال وتبديد الجهود والقدرات التي تتبدد أدراج الرياح خلال هاتيك الفتن والملمات.

ولو كان المسلمون كافة ينتهجون منهاج النبوة وسنتها الظاهرة الواضحة وضوح الشمس، دون زيغ أو جنوح أو تردد أو مكابرات لكان المسلمون

جميعاً على قلب رجل واحد، فاستقامت أحوالهم واستتبت أمورهم وقويت على مرّ الزمان شوكتهم، ولما اجترأ عليهم الظالمون الحاقدون ـ وهم كثيرون ـ الذين يتربصون بهم على الدوام ساعة من غفلة أو فرصة من ضعف أو اقتتال أو شتات، ولما تمكنت جحافل الشر والعدوان من الروم، وغيرهم من غزوهم في ديارهم من حين لآخر فقتلوا منهم الخلق الكثير وسبوا منهم الذرية والنساء ونكلوا بهم تنكيلاً.

وفي سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة، في العاشر من المحرم أمر معز الدولة بن بويه ـ وكان شيعياً ـ أن تغلق الأسواق وأن يلبس النساء المسوح من الشعر وأن يخرجن في الأسواق حاسرات عن وجوههن، ناشرات شعورهن، يلطمن وجوههن، ينحن على الحسين بن علي بن أبي طالب، ولم يأذن لأهل السنة بمنع ذلك، وذلك لكثرة الشيعة وظهورهم ولأن السلطان منهم، لا جرم أن ذلك بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، وسلوك شنيع مصطنع ما ينبغي للمسلمين ـ وهم الصابرون الثابتون المحتسبون ـ أن يتلبسوا به وقد علموا أن ذلك في شريعة الإسلام بغيض.

بل إن الإسلام بعقيدته الراسخة وخلقه القويم ينهى عن مثل هذه الأفاعيل من شق الجيوب ولطم الخدود والنياح بدعوى الجاهلية كقولهم: وامصيبتاه واجملاه، وافلاناه!!

ما ينبغي للمسلمين في كل أحوالهم من الآلام والملمات والمصائب إلا أن يتجملوا بالصبر وطول الاحتمال من غير هياج ولا صراخ ولا ولولة، ولهم بذلك أجر الصابرين: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُمَر: الآية ١٠].

وفي سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وفي العاشر من شهر المحرم، أقام الشيعة مأتمهم المبتدع، فغُلقت الأسواق، وعُلقت المسوح، وخرجت النساء سافرات ناشرات شعورهن، وهن ينحن ويلطمن وجوههن في الأسواق والأزقة على الحسين بن علي.

لا جرم أن هذا تكلف ممجوج وابتداع مصطنع، ليس لأهله فيه

من الله برهان إلا التعصب الذميم، والهوى اللجوج، ولو كان هذا مشروعاً في دين الإسلام، لسبقهم إليه خير القرون وهم صدر هذه الأمة وخيرتها.

وفي هذه السنة جاء ملك الروم بجيش كثيف إلى المصيصة من الثغور، فأخذها عنوة وقتل الكثير من أهلها واستاق بقيتهم معه أسارى، وكانوا نحواً من مائتي ألف إنسان، فلا حول ولا قوة إلا بالله! ثم عاود هذا العدو المتربص، الكرة على المسلمين، فدخل طرطوس ثم سأله أهلها الأمان فأمنهم، وأمرهم بالجلاء عنها، ثم اتخذ مسجدها الأعظم اصطبلاً لخيوله وأحرق المنبر ونقل قناديله إلى الكنائس في بلده، ألا قبّحه الله تقبيحاً، ولعنه لعناً كبيراً! وحسبنا الله ونعم الوكيل، وما كان للمسلمين أن تبلغ بهم الأهوال والبلايا إلى هذا المبلغ من الوهن والخور والانهيار لو أنهم اعتصموا بحبل الله جميعاً فلم يتفرقوا ولم يكن بأسهم بينهم، فكانوا متفرقين متناحرين، قد شغلتهم الشهوات وحوائج الدنيا ومزقتهم الأهواء وتناثر القلوب!

وفاة الشاعر المتنبي:

وقد توفي في هذه السنة الشاعر المتنبي وهو أحمد بن الحسين بن عبدالصمد أبو الطيب الشاعر، المعروف بالمتنبي، كان أبوه يسقي الماء لأهل الكوفة على بعير له، وكان شيخاً كبيراً، وقد ولد المتنبي بالكوفة ونشأ بالشام بالبادية، فطلب الأدب حتى فاق فيه أهل زمانه، ثم لزم سيف الدولة بن حمدان وامتدحه، ثم صار إلى مصر وامتدح الأخشيد ثم هجاه وهرب، ثم جاء بغداد فامتدح بعض أهلها، ثم سار إلى فارس فامتدح عضد الدولة بن بويه، فأجزل له العطاء من الأموال، ثم ما لبث أن كرهه عضد الدولة وحقد عليه فدس عليه طائفة من الأعراب ليتعرضوا له فيقتلوه، فانتهى إليه ستون راكباً، وكان معه ولده وبعض غلمانه فأحس الخطر وعزم أن يفرّ منهم فقال له مولى له: أين تذهب، وأنت القائل:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني ... والطعن والضرب والقرطاس والقلم

فقال له المتنبي: ويحك قتلتني، ثم كرّ راجعاً فطعنه زعيم القوم برمح في عنقه فقتله، وكان له من العمر ثمان وأربعون عاماً.

لقد كان المتنبي موهوب القريحة في الأدب، نابغاً في قرض الشعر حتى عزّ نظيره في هذا الفن.

لكنه مع براعته النافذة هذه قد غشيه إحساس واهم بالغرور القاتل، فانفتل عن جادة السداد إلى حيث الضياع والانتكاس، فقد ادعى أنه نبي يوحى إليه، فاتبعه بعض السفهاء والرعاع الجهلة، وزعم أيضاً أنه أنزل عليه قرآن، ومن جملة ذلك هذا القول الملفق الساذج: والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي خسار، امْضِ على سنتك، واقْفُ أثَرَ من كان قبلك من المرسلين، فإن الله قامع بك من ألحد في دينه، وضل عن سبيله.

وفاة معز الدولة بن بويه:

وفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة توفي معز الدولة بن بويه وهو أبو الحسن أحمد بن بويه الديلمي الذي جنح للرفض، وأيده، ويقال له: معز الدولة. ولما اشتد به المرض وأحس بالموت، أظهر التوبة وأناب لله سبحانه وردّ كثيراً من المظالم وتصدّق من ماله بكثير، زعهد إلى ولده بختيار، ثم اجتمع ببعض العلماء وكلّمهم في السنة، وذكّروه أن علياً زوج ابنته أم كلثوم من عمر بن الخطاب، فقال: والله ما سمعت بهذا قط، فرجع إلى السنة ومتابعتها.

وقد توفي عن ثلاث وخمسين سنة، وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وإحدى عشر شهراً، ودفن في مقابر قريش.

ولما مات، اضطلع بالأمر من بعده ولده عز الدولة ولم يكن حازماً ولا جاداً بل كان منشغلاً باللهو واللعب، فدبّ من حوله الخلاف بين الناس فتفرّق شمله.

وفاة ابو الفرج الاصبهاني:

وفي هذه السنة توفي أبو الفرج الأصبهاني وهو علي بن الحسين، وينتهي نسبه إلى مروان بن الحكم الأموي، وهو صاحب كتاب الأغاني، وكتاب أيام العرب، فقد ذكر فيه ألفاً وسبعمائة يوم من أيامهم، وكان شاعراً أديباً كاتباً، عالماً بأخبار الناس وأيامهم، وكان فيه تشيُّع.

وتوفي في هذه السنة أيضاً:

وفاة سيف الدولة:

وقد توفي في هذه السنة أيضاً سيف الدولة وهو أحد الأمراء الشجعان، وقد كان شهماً جواداً، كثير الإحسان، وكان فيه تشيع، وقد كان شاعره المتنبي، وقد أصابه مرض الفالج فمات فيه وعمره ثلاث وخمسون سنة.

وفي سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، وفي العاشر من شهر المحرم، عملت الروافض ما اصطنعوه من بدعة قبيحة، فغلقوا الأسواق وعطلوا المعايش، ودارت النساء سافرات عن وجوههن نائحات على الحسين بن علي وهن يلطمن وجوههن.

وفي هذه السنة دخلت الروم أنطاكية، فقتلوا من أهلها الشيوخ والكبار وسبوا من الأطفال والصبايا نحواً من عشرين ألفاً! وكان ذلك بتدبير من ملك الأرمن نقفور! وما كان لمثل هذه الأرزاء والرزايا أن تحيق بالمسلمين، لو أن قادتهم وأمراءهم اتقوا الله وأعدوا للأمر عدته وأخذوا بزمام الإعداد والحذر، ولم تشغلهم الفرقة والشقاق، ولم تلههم حوائج الدنيا وحظوظ النفس من مباهج الحياة وزخرفها، ثم لم تذهلهم عن اتباع السنة الصحيحة ما ابتدعوه من تصورات وقناعات ضالة عمياء لم يأتِ بها كتاب حكيم ولا خبر سليم عن رسول رب العالمين.

وفي هذه السنة كذلك، دخل ملك الروم إلى طرابلس، فأحرق منها كثيراً، وقتل خلقاً كثيراً، ثم مالوا على السواحل فملكوا منها كثيراً من

البلدان سوى القرى، ثم عادوا إلى بلادهم ومعهم من السبي نحو من مائة ألف من الصبيان والصبايا.

وفي سنة ستين وثلاثمائة، وفي العاشر من شهر المحرم فعلت الروافض بدعتهم الشنيعة، وهذا ديدنهم في هذا اليوم من كل عام.

وفي هذه السنة، تقدم القرامطة نحو دمشق وأخذوها وقتلوا صاحبها جعفر بن فلاح، وكان رئيس القرامطة وأميرهم حينئذٍ الحسين بن أحمد بن بهرام، وقد أمدهم عز الدولة من بغداد بسلاح كثير، فساروا نحو الرملة وأخذوها، ثم ساروا نحو القاهرة في جموع كثيرة من الأعراب والأخشيديين والكافوريين حتى وصلوا عين شمس، فاقتتلوا هم وجنود جوهر القائد قتالاً شديداً، فظفرت القرامطة وحصروا المغاربة، ثم حملت المغاربة فيما بعد على القرامطة فهزموهم، ورجع القرامطة إلى الشام.

وفي سنة إحدى وستين وثلاثمائة، وفي شهر المحرم، أغارت الروم على الجزيرة وديار بكر، فقتلوا خلقاً كثيراً من أهل الرها، ثم ساروا في البلاد يقتلون ويأسرون ويغنمون حتى وصلوا نصيبين وفعلوا مثل ذلك وليس من أحد يحمي المسلمين أو يرد عنهم سطوة الظالمين الغاشمين، عندئذٍ فزع أهل الجزيرة إلى بغداد يريدون الدخول على الخليفة طالبين منه العون والنجدة وهم يستصرخون، فرثا لهم أهل بغداد، وجاؤوا معهم إلى الخليفة، فلم يظفروا منه بشيء.

وفي هذه السنة وقعت فتنة شديدة بين الروافض وأهل السنة، وقد أحرق أهل السنة دور الروافض في الكرخ وقالوا لهم: الشر كله منكم!

وفي سنة ثنتين وستين وثلاثمائة، اجتمع العلماء الثلاثة وهم الفقيه الحنفي أبو بكر الرازي، وأبو الحسن علي بن عيسى الرماني، وابن الدقاق الحنبلي بعز الدولة بختيار بن بويه، وحرضوه على غزو الروم، فبعث عز الدولة جيشاً لقتالهم وكانت الغلبة في ذلك للمسلمين، إذ قتلوا من الروم خلقاً كثيراً وبعثوا برؤوسهم إلى بغداد، فلما رآها الناس سكنت نفوسهم.

وفي هذه السنة سارت الروم مع ملكهم لحصار آمد، فكتب أميرها

إلى أبي تغلب يستنصره على الروم، فبعث هذا إليه أخاه هبة الله ناصر الدولة بن حمدان، فاجتمعا معاً وقاتلا الروم بجيشهما قتالاً شديداً، فهمَّ الروم بالفرار فلم يقدروا، فاستحر فيهم القتل[1] وأُخذ أميرهم وأودع السجن فمرض فيه ثم مات.

وفي هذه السنة دخل المعز الفاطمي الديار المصرية مصطحباً معه توابيت آبائه، فوصل إلى الإسكندرية، فتلقاه أعيان مصر، فخطب هنالك الناس خطبة بليغة ذكر فيها فضل الفاطميين وشرفهم، ثم سار من الإسكندرية إلى مصر فدخلها في شهر رمضان من هذه السنة، فنزل القصرين ثم خرَّ ساجداً شكراً لله.

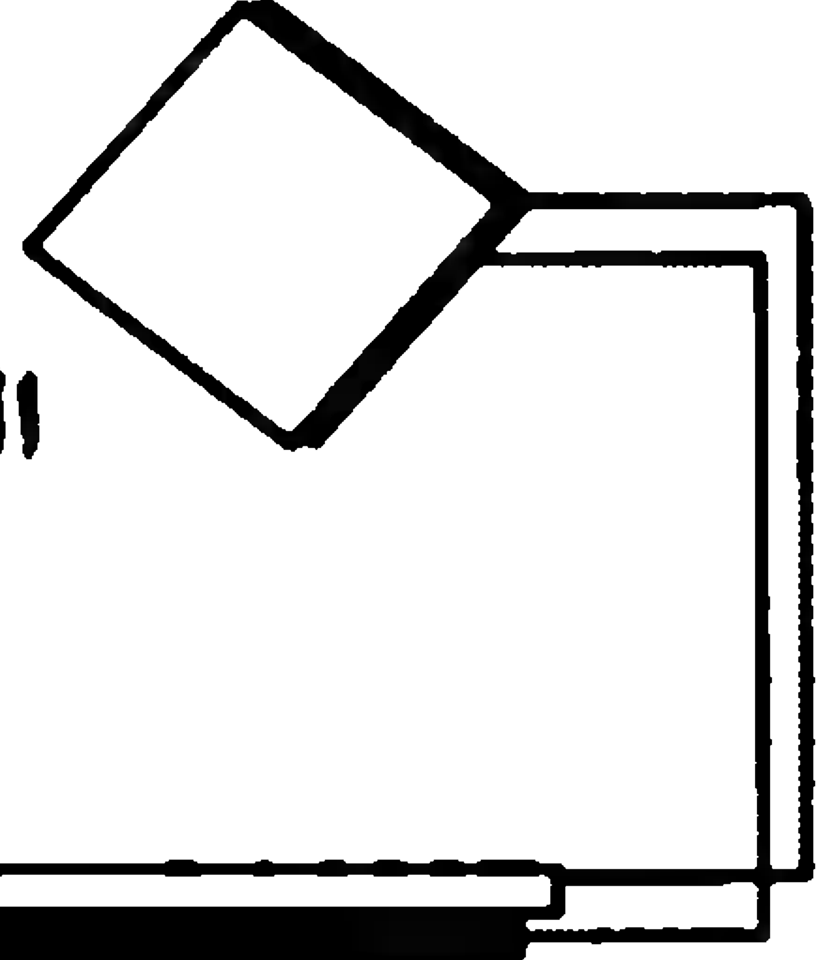
وذُكر أن أول حكومة (خصومة) قد انتهت إليه هنا أن امرأة كافور الأخشيدي قالت إنها كانت قد أودعت رجلاً صوّاغاً من اليهود قباء من لؤلؤ منسوج بالذهب وأنه جحدها ذلك القباء، فاستحضره المعز وقرره فلم يعترف بل أنكر ذلك، فأمر المعز بحفر داره ثم إخراج ما فيها، فوجدوا فيها القباء نفسه وقد وضعه في جرة ودفنه في مكان من داره، فسلَّمه المعز إليها، فقدمته إليه فأبى أن يقبله منها، فسر الناس بذلك واستحسنوه منه.

وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وقعت ببغداد فتنة كبيرة بين أهل السنة والرافضة، فتنة تثير الأسى والتقزز بسبب ما بدر من الفريقين من هوان العقول وشدة النزق والتعجل، ولو كان الفريقان أولي بصيرة وحكمة فيتجملون بالصبر وقوة العزيمة والأناة لما وقع بين الفئتين اقتتال تزهق فيه الأرواح وتتبدد فيه الأعصاب والهمم والقدرات، وليس من مستفيد بذلك إلا الشياطين والذين يتربصون بالمسلمين الدوائر من الروم وغيرهم من أئمة الكفر في كل زمان ومكان[2].



(١) استحر القتل: اشتد، انظر: القاموس المحيط ج٢ ص٨.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج١١ ص١٩٨ ـ ٢٧٦.



الفصل الثالث والعشرون

خلافة الطائع

في هذه السنة ـ وهي ثلاث وستون وثلاثمائة ـ خلع المطيع لله نفسه بسبب فالج أصابه فثقل لسانه، وقد سأله الحاجب التركي سبكتكين أن يخلع نفسه ويولي من بعده ولده الطائع، فاستجاب المطيع لذلك فتمت البيعة للطائع في دار الخلافة على يد الحاجب سبكتكين، وذلك بعد تسع وعشرين سنة مكثها أبوه المطيع في الخلافة.

الحرب بين الفاطميين والقرامطة

بعد استقرار المعز الفاطمي في الديار المصرية وقد بنى فيها القاهرة والقصرين واستتب ملكه، سار إليه القرامطة بقيادة الحسين بن أحمد من الأحساء في جيش كثيف وسار معهم جمع من عرب الشام، فذهب المعز الفاطمي من كثرتهم، فكتب إلى رئيسهم يحاوره ويستميله، وأخذ يطريه ويذكر فضل آبائه ـ أي آباء القرامطة ـ مبيناً لهم أن دعوة الفريقين واحدة. فلم يعبأ القرمطي بذلك وسار بجيشه إلى الديار المصرية حتى إذا وصلها عاثوا فيها قتلاً وتخريباً، فحار المعز ماذا يصنع بعد أن ضعف جيشه عن مقاومة هؤلاء العتاة اللُّد، فجنح بذلك للمكيدة والخداع، فراسل أمير العرب حسان بن الجراح للتخذيل بين القرامطة، وقد وعده بعطاء جزيل من المال، فوافقه حسان على ذلك، وقال له عن حقيقة التخذيل: إذا التقينا، انهزمت أنا ومن معي فلا يبقى للقرمطي قوة فتأخذه كيف شئت، فلما التقى الجمعان

للاقتتال، انهزم حسان بمن معه فضعف جانب القرامطة فغلبوهم وهزمت القرامطة وولوا مدبرين إلى أذرعات بعد أن تكبدوا فادح الخسائر في رجالهم وفي أموالهم.

وعقب هزيمة القرامطة، بعث المعز الفاطمي جيشاً بقيادة رجل اسمه ظالم بن موهوب العقيلي، فساروا إلى دمشق وتسلموها من القرامطة بعد حصار شديد واعتقلوا زعيم القرامطة فيها وهو أبو الهيجا، واعتقلوا رجلاً صالحاً من أهل نابلس يقال له: أبو بكر، كان يتكلم في الفاطميين ويقول: لو كان معي عشرة أسهم لرميت الروم بواحد، ورميت الفاطميين بتسعة، فأمر به قائد الفاطميين فعُذِّب تعذيباً شديداً ونُكِّل به أفظع تنكيل، فمات شهيداً رحمه الله.

انتزاع دمشق من أيدي الفاطميين

احتشدت عساكر جيوش من الديلم والترك والأعراب، بقيادة أفتكين، وهو غلام معز الدولة الفاطمي، وكان قد خرج عن طاعته، فنزل بمن معه من الجند على دمشق التي كانت الغلبة فيها للفاطميين، ولما نزل أفتكين بظاهر دمشق، خرج إليه كبراء أهلها وشيوخها، فذكروا له ما هم فيه من الظلم والجور ومخالفة الاعتقاد بسبب الفاطميين، ثم سألوه أن يعزم على استنقاذ دمشق منهم، فصمم أفتكين التركي على أخذها، فلم يزل يكدُّ ويجتهد حتى أخذها مما رفع أهل الخير فيها وأذل أهل الشر، ورسخ فيها الحق والعدل، وكف أيدي الأعراب الذين سعوا في الأرض عابثين مفسدين، فاستقر الأمر بذلك في دمشق للخليفة العباسي الطائع.

ثم سار أفتكين إلى صيدا، فحاصرها ولم يزل كذلك حتى دخلها وقتل من جماعتها بضعة آلاف، وكذا طبرية التي قصدها ثم دخلها، وعند ذلك عزم المعز الفاطمي على المسير إليه وقتاله، لكنه ما لبث أن مات وهو يجمع العساكر ويستعد للمواجهة، وقام مقامه ولده العزيز، فاستقر بذلك أمر أفتكين بالشام وقويت شوكة الخليفة العباسي.

وفي سنة خمس وستين وثلاثمائة، قسّم ركن الدولة بن بويه ممالك البلاد بين أولاده، وذلك لما تقدمت به السن وأحس بالكبر، فكان تقسيمه أن جعل لولده مؤيد الدولة بلاد الري وأصبهان، ثم جعل لفخر الدولة همذان والدينور.

وفاة المعز الفاطمي:

وفي هذه السنة مات المعز الفاطمي وهو معد بن إسماعيل بن سعيد بن عبدالله، وهو باني القاهرة، وصاحب الديار المصرية وأول من ملكها من الفاطميين.

وكان هذا قد بعث قائده جوهراً بين يديه، فدخل بلاد مصر وأخذها من كافور الأخشيدي بعد حروب دامية، وبذلك استتب أمر الفاطميين عليها، فبنى المعز فيها القاهرة وبنى منزل الملك وهما القصران، ثم قدم المعز بعد ذلك ومعه جند كثيف وأمراء من المغاربة، حتى إذا نزل الإسكندرية تلقاه وجوه الناس، فخطبهم خطبة بليغة وعدهم فيها بإنصاف المظلوم من الظالم ثم افتخر بنفسه، مع أنه في حقيقة أمره متلبس باعتقاد الرافضة.

وكانت أيام المعز في الملك من قبل أن يملك مصر ومن بعد ما ملكها ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر، منها سنتان وتسعة أشهر بمصر، والباقي في بلاد المغرب، فكانت جملة عمره خمسة وأربعين سنة وستة أشهر، وقد توفي بمصر ودفن بها.

وفي سنة ست وستين وثلاثمائة، توفي ركن الدولة بن علي بن بويه وقد جاوز التسعين سنة من عمره، وكانت ولايته نيفاً وأربعين سنة.

وفي هذه السنة توفي الحاكم وهو المستنصر بالله بن الناصر لدين الله عبدالرحمٰن الأموي، فقد كان من علماء الملوك ومن خيارهم، وكان يحب العلم والعلماء ويحسن إليهم، توفي عن ثلاث وستين سنة وسبعة أشهر، وكانت مدة خلافته خمسة عشر سنة وخمسة أشهر.

ابتداء ملك سبكتكين:

سبكتكين هو والد محمود الغزنوي ـ نسبة إلى غزنة ـ وقد كان سبكتكين صاحب جيش غزنة ونواحيها، للسامانيين، ولما مات مولاه الأمير أبو إسحاق لم يجد الناس من بعده خيراً من سبكتكين، وذلك لصلاحه وحسن سيرته وكمال عقله وشجاعته وديانته، وبذلك اصطلح الجيش على متابعته، فاستقر الملك بيده، ثم استمر من بعده في ولده محمود بن سبكتكين وكان ذا شجاعة وشهامة وديانة، فقد سار بجيش المسلمين لغزو بلاد الهند وفتح كثيراً من حصونهم وكسر كثيراً من أصنامهم وخاض بجيشه ضد المشركين حرباً هائلة، وقد قصده جيبال وهو ملك الهند بنفسه وجنوده التي تغطي السهول والجبال، فهزمهم محمود مرتين، وردهم على أعقابهم خاسئين مدحورين.

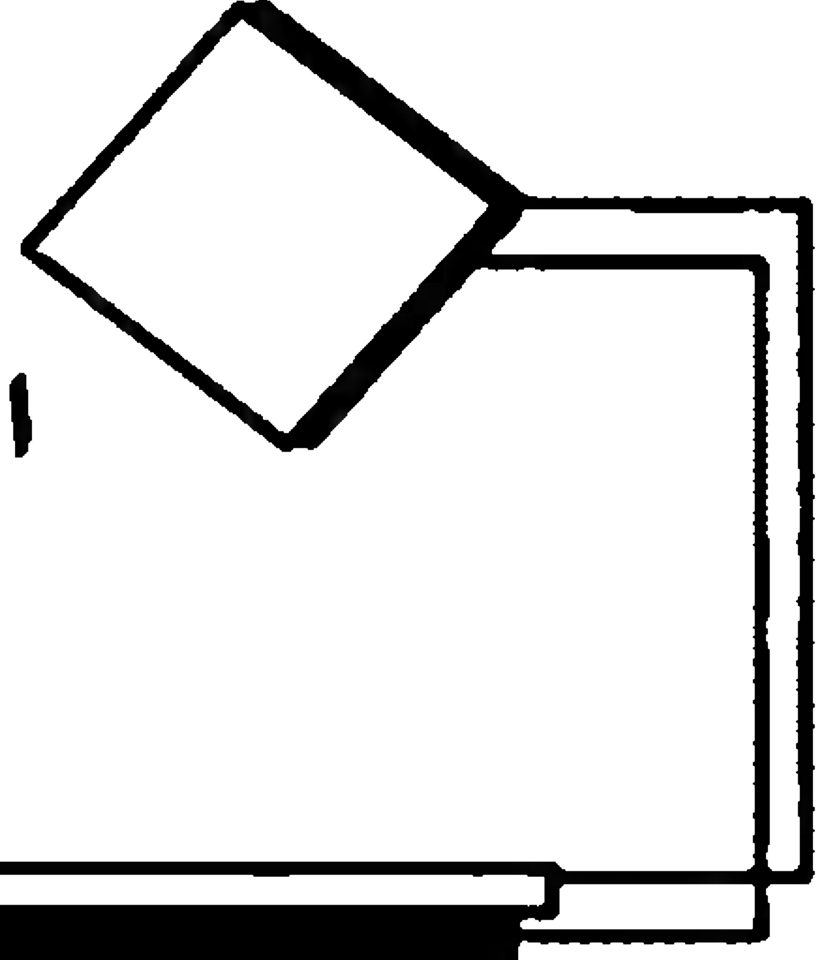
وفي سنة سبع وستين وثلاثمائة، دخل عضد الدولة بغداد، وخرج منها عز الدولة بختيار، واتبعه عضد الدولة فأخذه أسيراً ثم قتل، فاستقر الأمر ببغداد لعضد الدولة ثم أخذ الموصل وما حولها، ثم ما لبث الطائع لله أن أمر أن يُدعى لعضد الدولة بعد الخليفة على المنابر ببغداد.

وفاة أبي بكر الرازي الحنفي:

وفي سنة سبعين وثلاثمائة، توفي أبو بكر الرازي الحنفي، وهو أحد أئمة أصحاب أبي حنيفة، وله من المصنفات الجيدة كتاب أحكام القرآن، وهو تلميذ أبي الحسن الكرخي، وقد كان رحمه الله عابداً زاهداً ورعاً، وقد انتهت إليه رياسة المذهب الحنفي في زمانه، وقد أراد الطائع أن يوليه القضاء فأبى.

وفاة ابن خالويه:

وتوفي في هذه السنة كذلك ابن خالويه وهو الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبدالله النحوي اللغوي صاحب المصنفات، وأصله من همذان، ثم دخل بغداد وتلقى عن مشايخها علوم النحو واللغة.



الفصل الرابع والعشرون
خلافة القادر بالله

وهو أبو العباس أحمد بن الأمير إسحق بن المقتدر بالله، وبيان ذلك أن الخليفة الطائع كان قد جلس على عادته في الرواق، فأرسل بهاء الدولة بعضاً من رجاله إلى الخليفة فاجتذبوه بحمائل سيفه عن السرير، ثم لفوه في كساء وحملوه إلى الخارج من دار الخلافة، فدبّ في الناس دبيب التساؤل والفوضى وهم لا يدرون ما الخبر.

ثم كتب بهاء الدولة كتاباً يقضي بخلع الطائع من الخلافة وأشهد عليه الأشراف وغيرهم من أعيان الناس أن الخليفة الطائع قد خلع نفسه من الخلافة، وسلّمها إلى القادر بالله ونودي بذلك في الأسواق، ثم أُخذت له البيعة، واستقر أمر الخلافة للقادر بالله.

ولما طلب القادرُ الطائع، تولى هذا هرباً، ثم رجع إلى بغداد مانعته الديلم من الدخول إليها، وبعد خطوب طويلة أذنوا له بالدخول إلى بغداد.

أما الخليفة القادر بالله، فكان من خيار الخلفاء والعلماء في زمانه.

وفاة الصاحب بن عباد:

وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة مات الصاحب بن عباد، وهو إسماعيل بن عباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني وهو الوزير، المشهور بكافي الكفاة، استوزره مؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه، وقد كان عالماً

فاضلاً بارعاً وكان يكرم العلماء ويحسن إليهم، وهو ذو مصنفات في الأدب ومختلف فنون العلم، وبذلك لم يكن له في وزراء بني بويه نظير في الفضائل والمحاسن، وقد عاشت دولة البويهيين مائة وعشرين سنة.

وكان رحمه الله يحب العلوم الشرعية ويبغض الفلسفة وما شابهها من علم الكلام وآراء المبتدعين، وقد توفي بالري عن ستين سنة ثم نقل إلى أصبهان رحمه الله.

وفاة الحافظ الدارقطني:

وقد توفي في هذه السنة أيضاً الحافظ الدارقطني، وهو علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن دينار بن عبدالله، وهو الحافظ الكبير الذي جمع وصنف وأجاد وأفاد، لقد كان رحمه الله إمام دهره في أسماء الرجال، وفي الجرح والتعديل واتساع الرواية، ويكشف عن سعة علمه واطلاعه ودرايته التامة، كتابه المشهور في هذا الباب وهو السنن، وله كتاب العلل، بيّن فيه المتصل من المرسل، والمنقطع والمفصل، وغير ذلك من الكتب والمصنفات التي لا ينظم مثلها إلا من كان في عداد الأئمة الأعلام والجهابذة الأفذاذ.

قال ابن الجوزي في هذا الصدد: لقد اجتمع له (الدارقطني) مع معرفة الحديث والعلم بالقراءات والنحو والفقه والشعر، الإمامة والعدالة وصحة العقيدة.

وقد توفي عن سبع وسبعين سنة، ودفن في مقبرة معروف الكرخي، رحمه الله.

وفي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، دخل محمود بن سبكتكين بلاد خراسان وانتزع ملكها من أيدي السامانيين، فأزال اسمهم وانقرضت دولتهم بالكلية.

ثم سار ابن سبكتكين لقتال الترك فيما وراء النهر، فقاتلهم قتالاً شديداً وهزمهم.

وفي هذه السنة وقعت فتنة الشيعة والسنة، وكلا الفريقين في هذه المرة خاطىء وجهول، إذ لا يجدي أهل السنة دفاعهم عن طريقتهم واعتقادهم، بابتداع القول أو الفعل، ومن جملة ذلك أن الشيعة كانوا يصنعون في يوم عاشوراء من هذه السنة مأتماً، يظهرون فيه الحزن على الحسين بن علي، فقابلتهم طائفة أخرى من جهلة أهل السنة، وزعموا أنه في اليوم الثاني عشر من المحرم قتل مصعب بن الزبير، فعملوا من أجله مأتماً كما تعمل الشيعة للحسين، وزاروا قبره كما زاروا قبر الحسين، وذلكم خطأ يُرد بخطأ مثله، وبدعة تقابلها بدعة، وليس ذلك بسديد، إنما السديد أن ترفع البدعة بالسنة الصحيحة وكفى.

وفي سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، بايع الخليفة القادر بالله لولده أبي الفضل بولاية العهد من بعده، فخُطب له على المنابر بعد أبيه، وكان لقبه الغالب بالله وكان عمره إذ ذاك ثماني سنين، لكن ذلك لم يتحقق له، فإن رجلاً اسمه عبدالله بن عثمان الواقفي ذهب إلى بعض المناحي من بلاد الترك، وادعى أن القادر بالله قد جعله ولي عهده من بعده وصدقه الناس، ولما بلغ القادر بالله خبره بعث في طلبه، فهرب في البلاد وتبدد أمره، ثم سجنه بعض الملوك في قلعة إلى أن مات.

وبعد ذلك ولد الأمير أبو جعفر عبدالله بن عبدالقادر بالله، وهذا هو الذي صارت إليه الخلافة، وهو القائم بأمر الله.

غزو الهند

وذلك في سنة ثنتين وتسعين وثلاثمائة، إذ غزا المسلم العظيم محمود بن سبكتكين بلاد الهند، فسار إليه ملكها جيبال في جيش عظيم فاقتتلوا اقتتالاً شديداً، وقد فتح الله على المسلمين وأيدهم بنصره المبين، فانهزم الهنود ولاذوا بالفرار، وقد وقع ملكهم جيبال في الأسر، وأخذ المسلمون من عنقه ـ حال أسره ـ قلادة قيمتها ثمانون ألف دينار، وغنم المسلمون منهم كذلك أموالاً عظيمة وفتحوا كثيراً من البلدان، ثم أطلق محمود وهو سلطان المسلمين ملك الهند مستهيناً به كيما يراه شعبه في

المذلة، فلما وصل جيبال إلى بلاده ألقى بنفسه في النار التي كانوا يعبدونها من دون الله، فكان مآله التحريق بالنار في الدنيا ويوم تقوم الساعة.

فما كيد الظالمين الخاسرين الذاهلين عن منهج الله، إلا في تباب، وهم لا جرم صائرون إلى البوار والخسار بالرغم من عظيم كيدهم وغيظهم، وشديد تمالئهم وتواطئهم على الإسلام والمسلمين، وبالرغم من كثرة جموعهم وحشودهم وعظيم تجهيزهم واستعدادهم، فإن الله لهم بالمرصاد، وهو قاهرهم ومذلهم وجاعل الدائرة عليهم: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: الآية ٢١].

وفاة ابن جِنِّي:

وفي هذه السنة مات ابن جني وهو عثمان بن جني، الموصلي النحوي اللغوي، وهو صاحب المؤلفات الفائقة في النحو واللغة، وقد كان رحمه الله عبداً رومياً مملوكاً لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي الموصلي، وقد أقام ببغداد ودرس بها العلم إلى أن توفي في صفر من هذه السنة رحمه الله.

وفي سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، غزا محمود بن سبكتكين بلاد الهند ففتح فيها حصوناً كثيرة وغنم من أموالها كثيراً.

بديع الزمان الهمذاني:

وقد مات في هذه السنة بديع الزمان الهمذاني وهو أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد، أبو الفضل الهمذاني المعروف ببديع الزمان الهمذاني، وهو صاحب المقامات الفائقة، وقد كان أخذ اللغة عن ابن فارس، فكان من البلغاء الفصحاء، وقيل: إنه قد سُمَّ، وأخذته سكتة، فدفن سريعاً، ثم عاش في قبره وسمعوا له صراخاً فنبشوا عنه فإذا هو قد مات وهو آخذ بلحيته من هول القبر، رحمه الله.

طعن أئمة المسلمين وعلمائهم في نسب الفاطميين

طعن أئمة بغداد وعلماؤهم وغيرهم من البلاد في نسب الفاطميين

وأنهم أدعياء كذبة، فقد كتب هؤلاء العلماء والأئمة محاضر ببغداد تتضمن الطعن والقدح في نسب الفاطميين ملوك مصر، فهم إنما نسبهم إلى عبيد بن سعد الجرمي.

وقد كتب في ذلك جماعة من العلماء والقضاة والأشراف، والفقهاء والصالحين والمحدثين، فشهدوا جميعاً أن الحاكم بمصر هو منصور بن نزار بن معد بن إسماعيل بن عبدالله بن سعيد، ولما صار هذا إلى بلاد المغرب تسمى بعبيدالله، وتلقب بالمهدي، وأن من تقدمه من سلفه ليسوا إلا أدعياء وهم خوارج، ليس لهم من صلة أو نسب في ولد علي بن أبي طالب، وأن الذي ادعوه إليه ليس إلا باطلاً وزوراً.

وقد كان هذا الإنكار لدعواهم وما يزعمون، شائعاً في الحرمين، وكان من قبل ذلك منتشراً في المغرب، وبذلك فعامة الناس في البلدان واقفون على حقيقة الأمر وعلى ما يدعيه هؤلاء القوم.

ومما يعزز القول بأن هؤلاء أدعياء وأنهم لا يربطهم نسب بعلي بن أبي طالب ولا بفاطمة كما يزعمون، ما قاله عبدالله بن عمر للحسين بن علي حين أراد الذهاب إلى العراق، وذلك حين كتب إليه عامة أهل الكوفة بالبيعة، فقال له ابن عمر: لا تذهب إليهم فإني أخاف عليك أن تقتل، وإن جدّك قد خُيّر بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا، وأنت بضعة منه، وإنه والله لا تنالها لا أنت ولا أحد من خلفك ولا من أهل بيتك.

فإنه يستفاد من هذا القول الحكيم السديد أنه لا يلي الخلافة أحد من أهل البيت، إلا محمد بن عبدالله المهدي الذي يكون في آخر الزمان عند نزول عيسى بن مريم.

أما هؤلاء فقد حكموا ديار مصر مدة طويلة، مما يدل على أنهم ليسوا من أهل البيت، وهو الذي عليه أكثر أهل العلم من أئمة الفقه والحديث.

وفي هذا الصدد، صنف الباقلاني كتاباً يرد فيه دعوى هؤلاء، سماه: «كشف الأسرار وهتك الأستار»، كشف فيه زيف هؤلاء القوم وأنهم أدعياء مزوّرون كذبة، وقد كان يقول عنهم: هم قوم يظهرون

الرفض ويبطنون الكفر المحض! والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفي سنة ثلاث وأربعمائة، عادت مملكة الأمويين في بلاد الأندلس فتولى فيها سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبدالرحمٰن الناصر الأموي، ولقب بالمستعين بالله، وبايعه الناس في قرطبة.

وفاة القاضي أبو بكر الباقلاني:

وفي هذه السنة توفي القاضي أبو بكر الباقلاني وهو محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني، وهو رأس المتكلمين على المذهب الشافعي، وقد كان أكثر الناس تصنيفاً في علم الكلام، وقد قيل: إنه كان لا ينام كل ليلة حتى يكتب عشرين ورقة من مدة طويلة من عمره، فكانت له تصانيف كثيرة، من جملتها:

التبصرة، ودقائق الحقائق، والتمهيد في أصول الفقه، وشرح الإبانة، وغير ذلك من المصنفات، وكان من أحسنها كتابه في الرد على الباطنية الذي سماه: «كشف الأسرار وهتك الأسرار».

أما مذهب الباقلاني، فهو الشافعية على الراجح وقيل: كان مالكياً[1].

وفي سنة ست وأربعمائة للهجرة النبوية، وقعت فتنة بين أهل السنة والرافضة، ثم أسكت الوزير فخر الملك الفتنة على أن تعمل الرافضة بدعتهم يوم عاشوراء فيعلقون المسوح ويفعلون النياحة.

وفي هذه السنة غزا محمود بن سبكتكين بلاد الهند، فسلك به أدلاؤه بلاداً غريبة فانتهوا إلى أرض قد غمرها ماء البحر فخاض محمود الماء بنفسه عدة أيام، وخاض معه جنوده كذلك حتى نفذوا إلى البر بعد أن غرق كثير من جيشه، ثم عاد بعد ذلك إلى خراسان.

وفاة أبي حامد الإسفراييني:

وفي هذه السنة توفي أبو حامد الإسفراييني وهو أحمد بن محمد بن

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١١ ص٢٧٦ ـ ٣٥٠.

أحمد، إمام الشافعية في زمانه، وقد قدم بغداد وهو صغير فدرس الفقه على أبي الحسن بن المرزبان، وما زال يرقى في مراتب العلم والفقه حتى صارت إليه رياسة الشافعية، وقد كان إماماً فقيهاً جليلاً، له كثير من المصنفات والشروح في الفقه وفي أصوله، وقد توفي عن إحدى وستين سنة رحمه الله.

وفي سنة سبع وأربعمائة، كان ابتداء دولة العلويين في بلاد الأندلس، وقد وليها علي بن حمود العلوي، فدخل قرطبة وقتل سليمان بن الحكم الأموي، وقتل كذلك أباه وكان شيخاً صالحاً، ثم بايعه الناس وتلقب بالمتوكل على الله، ثم قتل في الحمام عن ثمان وأربعين سنة، وقام مقامه أخوه القاسم بن حمود وتلقب بالمأمون، فمكث في الملك ست سنين.

ثم بعد ذلك ملك الأمويون، فتولى أمر المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين.

وفي هذه السنة ملك محمود بن سبكتكين بلاد خوارزم، ولم يحج في هذه السنة أحد من بلاد المغرب لفساد الطرقات وعدم الأمن.

وفي سنة ثمان وأربعمائة، وقعت فتنة كبيرة بين أهل السنة والروافض ببغداد، فقتل فيها كثير من الفئتين.

وفي هذه السنة استتاب القادر بالله، فقهاء المعتزلة فأظهروا له التوبة عن الاعتزال والتبرؤ منه، وكذلك رجوعهم عن الرفض وكل مقالة مخالفة للإسلام، وأخذت عليهم العهود بذلك، وتوعدهم بالنكال وشديد العقاب إن هم خالفوا ما التزموه، وامتثل محمود بن سبكتكين أمر الخليفة القادر بالله، واستن بسنته فيما استخلفه عليه من بلاد خراسان وغيرها، وذلك في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة، وقد أمر بلعنهم على المنابر ونفي أهل البدع عن ديارهم.

وفي سنة تسع وأربعمائة، غزا محمود بن سبكتكين بلاد الهند فلقيه ملك الهند بجيشه الكثيف، فاقتتل الفريقان قتالاً عظيماً تمخض عن هزيمة شنيعة للهند، فقتل منهم المسلمون خلقاً كثيراً وأخذوا من أموالهم كثيراً، ثم

عاد محمود مظفراً مؤيداً إلى غزنة، وقد بلغ عدد القتلى من الهنود خمسين ألفاً، وأسلم منهم عشرون ألفاً.

وفي سنة عشرين وأربعمائة، جُمع القضاة والعلماء في دار الخلافة، وقُرىء عليهم كتاب جمعه القادر بالله، فيه مواعظ وتفاصيل لأهل السنة، وفيه الرد على أهل البدع وتفسيق من قال بخلْق القرآن، ثم خُتم بالقول بالمعروف والنهي عن المنكر، وفضل الصحابة، وبيان فضائل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وكذلك الاتفاق على عزل خطباء الشيعة وتولية خطباء السنة.

وفاة محمود بن سبكتكين:

وفي سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، توفي المجاهد الكبير فاتح بلاد الهند محمود بن سبكتكين، الملقب يمين الدولة وصاحب بلاد غزنة وما حولها، وجيشه يقال لهم: السامانية لأن أباه كان قد تملك عليهم، وعقب وفاته تملك عليهم من بعده ولده محمود هذا، فسار فيهم سيرة عادلة ونهض منتصراً للإسلام، ففتح فتوحات كثيرة في بلاد الهند وغيرها حتى عظم شأنه واتسعت مملكته، وكان في سائر ممالكه يخطب للخليفة القادر بالله، وهو بذلك إنما ينتصر للسنة، وقد كانت رسل الفاطميين تفد إليه من مصر بالكتب والهدايا لكي يمالئهم ويعتقد مثل اعتقادهم، فكان يبادر بحرق كتبهم وهداياهم.

وقد غزا هذا المسلم العظيم المظفر بلاد الهند ففتح بها فتوحات هائلة لم يتحقق مثلها لغيره من الملوك، لا قبله ولا بعده، وقد كسر من أصنامهم شيئاً كثيراً، وقهر ملك الترك الأعظم واسمه إيلك خان، وبدد مُلك السامانية وكانوا قد ملكوا العالم في بلاد سمرقند وما حولها ثم هلكوا.

وكان هذا المظفر المجاهد ذا ديانة وصيانة وتعفف، فقد كان يكره المعاصي وأهلها، وما كان أحد يجترىء أن يظهر معصية ولا خمراً في مملكته، وكان لا يحب الملاهي ولا أهلها، بل كان يحب العلماء

والمحدثين ويكرمهم ويجالسهم، ويحب كذلك أهل الخير والدين والصلاح ويحسن إليهم.

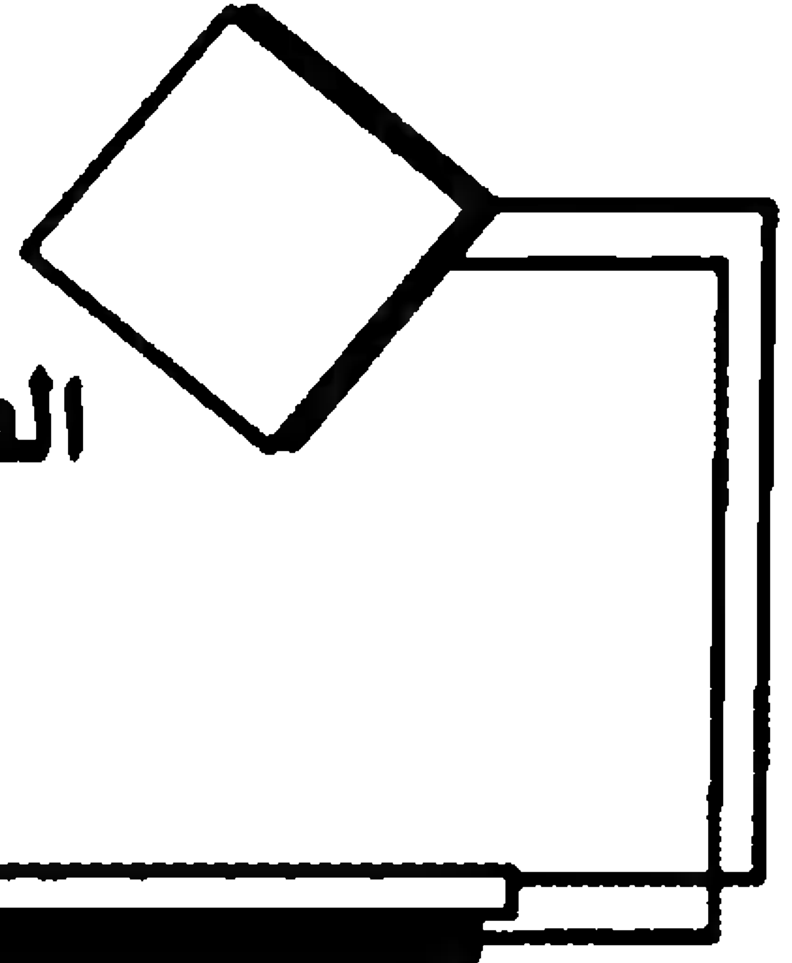
وكان رحمه الله حنفي المذهب ثم صار شافعياً على يدي أبي بكر القفال الصغير.

وقد توفي عن ثلاث وستين سنة، كان ملكه منها ثلاثاً وثلاثين سنة رحمه الله، وقد قام بالأمر من بعده ولده محمد ثم ولده الآخر مسعود.

وفي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، توفي الخليفة القادر بالله، وخلفه من بعده ابنه القائم بأمر الله.

وفي هذه السنة وقعت فتنة عظيمة بين السنة والروافض فقويت عليهم السنة وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم نهبوا الكرخ، معقل الشيعة، وأخذت العامة ينهبون دور اليهود لممالئتهم الروافض، وبذلك عمّت الفتنة وشاعت الفوضى، ثم استقر الأمر بعد ذلك.





الفصل الخامس والعشرون
خلافة القائم بالله

بويع له بالخلافة عقب وفاة أبيه القادر بالله، وقد وُطّدت له البيعة لدى الجلوس في عزاء أبيه سبعة أيام لعظم المصيبة به، فقد كان حليماً كريماً صالحاً محباً لأهل العلم والدين والصلاح، وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وكان من حيث الاعتقاد على نهج السلف.

وقد بويع للقائم بالله بحضرة القضاة والأمراء والأعيان، وأمه يقال لها: قطر الندى.

وفي سنة خمس وعشرين وأربعمائة، غزا السلطان مسعود بن محمود بلاد الهند وفتح بها حصوناً كثيرة، وكان قد حاصر قلعة حصينة، فخرجت من السور عجوز كبيرة ساحرة، فأخذت مكنسة فبلّتها ورشتها من ناحية جيش المسلمين، فمرض السلطان من ليلته تلك مرضاً شديداً ثم ارتحل عن تلك القلعة، فما لبث أن عافاه الله من مرضه، فرجع إلى غزنة سالماً.

وفي هذه السنة وقعت زلازل شديدة بمصر والشام، فهدمت مباني كثيرة وخرجت جموع الناس هاربة مذعورة، وكذلك عصفت ريح شديدة بنصيبين، فمات منها خلق كثير، إلى غير ذلك من الأمراض التي أودت بالألوف من البشر، وبخاصة في بغداد.

مهيار الديلمي الشاعر:

وفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، مات بعض الأعيان من الناس،

منهم: مهيار الديلمي الشاعر، وهو مهيار بن مرزويه أبو الحسين الفارسي، ويقال له: الديلمي، وقد كان مجوسياً فأسلم، لكنه سلك في إسلامه سبيل الرافضة، وكان ينظم الشعر القوي في مذاهبهم من سب الصحابة وغيرهم، وقد أجاد فيه من قال له: يا مهيار انتقلت من زاوية في النار إلى زاوية أخرى في النار، كنت مجوسياً فأسلمت فصرت تسب الصحابة، إن ذلكم فسق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفاة الفيلسوف ابن سينا:

وتوفي في هذه السنة أيضاً ابن سينا وهو الطبيب الفيلسوف، الحسن بن عبدالله بن سينا الرئيس، كان نابغاً في الطب في زمانه، وكان أبوه من أهل بلخ، ثم انتقل إلى بخارى، فقرأ بها القرآن وأتقنه وهو ابن عشر سنين وأتقن علوم الحساب والجبر وإقليدس وغير ذلك من العلوم حتى فاق أهل زمانه، وتردد الناس عليه وهو ابن ست عشرة سنة، وقد عالج بعض الملوك السامانية، وله كتب كثيرة في الإلهيات وعلوم الطبيعة، وله في ذلك نحو مائة من المصنفات، منها الصغير والكبير، ومن جملة ذلك: القانون، والنجاة، والإشارات، وإنسان، وحي بن يقظان، وغير ذلك من الكتب، وكان من فلاسفة الإسلام.

وقد تكلم الغزالي في حقيقة أمره فحصر كلامه في مقاصد الفلاسفة، ثم رد عليه في كتابه «تهافت الفلاسفة»، وكان ذلك في عشرين مجلساً له، فكفَّره في ثلاث منها، وهي قوله بقدم العالم، وعدم المعاد الجثماني، وأن الله لا يعلم الجزئيات، وبدَّعه في البواقي، وقيل: إنه تاب عند الموت، والله تعالى أعلم.

وقد مات ابن سينا في همذان عن ثمان وخمسين سنة.

ظهور دولة السلاجقة

وذلك سنة تسع وعشرين وأربعمائة، إذ كان فيها بُدوُّ ملك السلاجقة، وفيها استولى ركن الدولة أبو طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل بن

سلجوق، على نيسابور، وجلس على سرير ملكها، وبعث أخاه داود إلى بلاد خراسان، فانتزعها من أمراء الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين.

وفي هذه السنة، لُقِّب جلال الدولة شاهنشاه الأعظم أي ملك الملوك، وذلك بأمر الخليفة، وخُطب له بذلك على المنابر، فنفرت العامة من ذلك، وقذفوا الخطباء بالطين والحجارة، فوقعت بسبب ذلك فتنة كبيرة، واستفتى الناس الفقهاء في ذلك، فأفتى أكثرهم بالجواز مع التأويل اعتماداً على النية، فقال أبو عبدالله الصيمري: إن هذه الأسماء إنما يعتبر فيها القصد والنية، فقد قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: الآية ٢٤٧].

وكتب القاضي أبو الطيب الطبري أن إطلاق ملك الملوك جائز، ويكون معناه ملك ملوك الأرض، وإذا جاز أن يقال: قاضي القضاة، جاز أن يقال: ملك الملوك، فتزول الشبهة بذلك.

وكذلك الماوردي صاحب الحاوي الكبير، فقد نقل عنه أنه قد أجاز ذلك، والمشهور عنه أنه منع من ذلك وأصر على المنع من ذلك، بالرغم من صحبته للملك جلال الدولة.

قال العلامة ابن كثير رحمه الله في وجه المنع من التسمية بشاهنشاه أو ملك الملوك، هو السنة التي وردت بها الأحاديث الصحيحة في هذا الصدد.

فقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«أخنعُ اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الملوك»**.

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل تسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله عز وجل»**.

وفي رواية له أخرى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«اشتد غضب الله على من قتله نبي، واشتد غضب الله على رجل تسمى بملك الأملاك، لا ملك إلا الله عز وجل»**.

وفي سنة ثلاثين وأربعمائة، اقتتل الملك مسعود بن محمود الغزنوي

والملك طغرل بك السلجوقي فهزمه مسعود وقتل من جيشه كثيراً، وفيها خُطب للأمير العباسي بحران والرحبة.

وفيها كذلك خوطب أبو منصور بن جلال الدولة بالملك العزيز وهو مقيم بواسط، وهذا العزيز آخر من ملك بغداد من بني بويه.

وفي هذه السنة تملك بنو سلجوق بلاد خراسان، وكان ذلك أول مُلك السلاجقة.

وفاة الحافظ ابي نعيم الأصبهاني:

وقد توفي في هذه السنة من الأعيان: أبو نعيم الأصبهاني، الحافظ الكبير، صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة، منها حلية الأولياء في مجلدات كثيرة، وله معجم الصحابة، وله كتاب في الطب النبوي وغير ذلك من المصنفات، وكان الأصبهاني يميل إلى مذهب الأشعري في الاعتقاد، وقد توفي عن أربع وتسعين سنة رحمه الله.

وفاة الحوفي صاحب إعراب القرآن:

وفيها توفي أيضاً: الحوفي وهو أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد بن يوسف الحوفي، النحوي، له إعراب القرآن في عشرة مجلدات، وله تفسير القرآن، وكان إماماً في العربية والنحو والأدب، والحوفي نسبة لناحية بمصر يقال لها: الشرقية وقصبتها مدينة بلبيس، وجميع ريفها يسمون حوف[1].

وفي سنة ثنتين وثلاثين وأربعمائة، استطار شأن السلجوقيين، وعزّ أمر مَلِكهم طغرل بك وأمرُ أخيه داود، وهما ابنا سلجوق بن بغاق، وهذا من قدماء الترك، وقد نشأ سلجوق قوياً شهماً فانقاد له الناس، من أجل ذلك خشيه الملك وعزم على قتله فهرب منه إلى بلاد المسلمين فأسلم فازداد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٢ ص٢ ـ ٤٨.

بذلك علواً وشأناً، ثم مات عن مائة وسبع سنين، وله أبناؤه الثلاثة وهم: أرسلان وميكائيل وموسى، أما ميكائيل فقد عُني بقتال الكفار من الأتراك ثم قتل شهيداً وله ولدان مسلمان، وهما: طغرل بك محمد، وجعفر بك داود، وقد اجتمع عليهما الأتراك من المؤمنين، وهم ترك الإيمان الذين سماهم الناس تركمان، وهم السلاجقة، أبناء سلجوق وهو جدهم هذا، وقد احتل هؤلاء بلاد خراسان كلها بعد موت محمود بن سبكتكين، فقاتلهم ولده مسعود من بعده فهزمه التركمان السلاجقة في أكثر المواقف فاستقر لهم بذلك ملك خراسان بأسرها.

وفاة الملك جلال الدولة:

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة مات جلال الدولة، وهو أبو طاهر بن بهاء الدولة بن بويه الديلمي، صاحب العراق، وقد كان متودداً للناس، ويلتمس منهم أن يدعوا له، وقد أصابته عدة نكبات، وقد أُخرج من بغداد عدة مرات، ثم يعود إليها، وأخيراً أصابه مرض الكبد فمات فيه وعمره إذ ذاك إحدى وخمسون سنة، وقد دامت ولايته للعراق ست عشرة سنة وإحدى عشر شهراً.

وفاة الشريف المرتضى:

وفي سنة ست وثلاثين وأربعمائة مات الشريف المرتضى، وهو علي بن الحسين بن موسى، وينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب، وهو ملقب بالمرتضى، وكان جيد الشعر على مذهب الإمامية والاعتزال، وكان يناظر على ذلك، وله تصانيف في التشيع، وقد نقل عنه ابن الجوزي كثيراً من تفرداته في التشيع مما لا يستند إلى دليل منقول أو معقول، ومن جملة ذلك تحريم ذبائح أهل الكتاب، والمرأة إذا جزت شعرها وجب عليها كفارة قتل الخطأ، وحدُّ السارق أن تقطع رؤوس أصابعه، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة التي تردها النصوص الصريحة من الكتاب والسنة.

ويضاف إلى هذه السقطات من هراء القول اجتراؤه على ذم الصحابة

رضي الله عنهم، فضلاً عن تكفير عمر بن الخطاب وعثمان وعائشة وحفصة رضي الله عنهم، وذلكم بهتان غاشم وزندقة شنيعة لا يهوي إليها غير الفسّاق والمضلين من الناس.

وفاة أبو الحسين البصري المعتزلي:

ومات في هذه السنة أيضاً أبو الحسين البصري، وهو محمد بن علي الخطيب، أبو الحسين البصري المتكلم، وهو شيخ المعتزلة والمنتصر لهم وله في ذلك تصانيف كثيرة.

وفي سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، حدثت فتنة عصيبة بين أهل السنة والروافض أسفرت عن اقتتال بين الفريقين، فقتل منهم كثير، ذلك أن الروافض كانوا يستفزون أهل السنة ببعض ما كانوا يكتبونه من عبارات وشعارات، ما كان ينبغي أن تكتب أو تقال لأنها لا مرد لها من الدليل القاطع إلا الجري في سعار محموم خلف الهوى الجانح.

ومن جملة ذلك أنهم نصبوا أبراجاً وكتبوا عليها بالذهب: محمد وعلي خير البشر، فمن رضي فقد شكر، ومن أبى فقد كفر، ثم عاث الفريقان كلاهما في الفتنة، بنبش القبور وتحريق الأضرحة ومن فيها من الموتى، إلى غير ذلك من وجوه العدوان والاقتتال.

وفي سنة سبع وأربعين وأربعمائة، ملك طغرل بك بغداد، وهو أول ملك سلجوقي، وحينئذٍ استفحلت الوقيعة بين الخليفة العباسي، وأرسلان التركي المعروف بالبساسيري الذي استفحل أمره وعظم شأنه فاستولى على البلاد وخافه أمراء العرب والعجم، ودُعي له على كثير من المنابر العراقية والأهواز وما حولها، فكتب الخليفة إلى محمد بن ميكائيل السلجوقي الملقب طغرل بك يستنهضه على المسير إلى العراق، فانفضَّ البساسيري ومن معه وقفلوا راجعين سراعاً إلى بغداد.

ثم وصل طغرل بك إلى بغداد في هذه السنة حيث استقبله الأمراء والوزراء والحجّاب، ودخل بغداد في أبهة عظيمة فخُطب له بها ـ أي ذكر

اسمه على المنابر - ثم خُطب بعده للملك الرحيم البويهي، ثم قطعت خطبة الملك، ورفع إلى القلعة مقيداً، وكان آخر ملوك بني بويه، وكانت مدة ولايتهم مائة وعشرين سنة تقريباً.

أما أرسلان التركي المعروف بالبساسيري، فقد فرّ من الخليفة إلى بلاد الرحبة وكتب إلى حاكم مصر أنه ما يزال يدعو له بالعراق.

وفي هذه السنة أُلزم الروافض بترك الأذان بحي على خير العمل، وأُمروا أن ينادي مؤذنهم في أذان الصبح، بعد حي على الفلاح: الصلاة خير من النوم، مرتين، وقد أزيل ما كان على أبواب مساجدهم من كتابة: محمد وعلي خير البشر، ثم جعل المنشدون ينشدون بالقصائد في مدح الصحابة، وهو ما يكشف عن الضعف الذي حاق بالروافض، فذل شأنهم ورقد عزهم، لأنهم إنما كانوا يستندون في ظهورهم ومجدهم إلى قوة البويهيين وسلطانهم، فلما زال ملك هؤلاء وتبدد، ذهبت صولة الرافضة ومالت دولتهم، ثم خلف من بعدهم قوم آخرون من الأتراك السلجوقية الذين يحبون أهل السنة ويوالونهم ويرفعون قدرهم.

هلاك أبي العلاء المعري:

وفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة توفي أبو العلاء المعري، وهو ابن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود، وينتهي نسبه إلى عمران بن ألحاف بن قضاعة، أبو العلاء المعري، التنوخي الشاعر، المشهور بالزندقة، وقد كان من أهل اللغة، وهو صاحب دواوين ومصنفات في الشعر واللغة.

وكان قد أصابه جدري وهو صغير وله إذ ذاك أربع سنين فذهب بصره، وقال الشعر وهو في الحادية عشرة من العمر، ودخل بغداد فأقام بها سنة وسبعة أشهر، ثم خرج منها طريداً منهزماً لأن لسانه قد تعثر بسؤال عقيم على هيئة شعر مما يكشف عن جنوح فطرته وفساد طبعه منذ الصغر وهو قوله:

يد بخميس مئين عسجد[1] وديت   ما بالها قطعت في ربع دينار

يتساءل المعري عن اليد إذا قُطعت فديتها على الجاني خمسمائة دينار عسجد أي: ذهب. فما بال هذه اليد تقطع إذا سرق صاحبها ربع دينار، وهو بذلك يعترض على مشروعية الحد اللازم في السرقة وهو قطع اليد، إذا تحققت الجريمة على النحو الكامل وخلت تماماً من الشبهات، وذلكم اجتراء فاجر لا يتعثر به إلا الخاسرون من المريبين والمشركين والملحدين والزنادقة.

قال ابن كثير رحمه الله في الرد على هذا التسائل المستهجن: وهذا من قلة عقله وعلمه، وعمى بصيرته، وذلك أنه إذا جني عليها يناسب أن يكون ديتها كثيرة لينزجر الناس عن العدوان، وأما إذا جنت هي بالسرقة فيناسب أن تقل قيمتها وديتها لينزجر الناس عن أموال الناس وتصان أموالهم، ولهذا قال بعضهم: كانت ثمينة لما كانت أمينة، فلما خانت هانت.

وكان المعري ذا تصور عجيب ومضطرب لا يستند إلى منطق سليم ولا شريعة معتبرة، وذلك فيما يتعلق بخياله السقيم الشاطح عن أكل اللحوم، فقد مكث خمساً وأربعين سنة من عمره لا يأكل اللحم ولا اللبن ولا البيض، ولا شيئاً من حيوان، وذلك على طريقة البراهمة الفلاسفة، فكان بذلك يتقوَّت بالنبات وغيره، وأكثر ما كان يأكل العدس، ويتحلى بالدبس والتين، إلى غير ذلك من ترهات القول وهرطقة الكلام الذي لا يتقول به إلا مأفون مريب متزندق!

وقد توفي أبو العلاء المعري، بمعرة النعمان عن ست وثمانين سنة.

وفي سنة خمسين وأربعمائة، وقعت فتنة كان سببها البساسيري وهو أرسلان التركي، وكان هذا قد سار إلى بغداد ومعه الرايات البيض المصرية،

---

(١) العسجد: الذهب، انظر: مختار الصحاح ص٤٣١.

وعلى رأسه أعلام مكتوب عليها اسم المستنصر بالله أبو تميم أمير المؤمنين، ثم أطمع البساسيري رجاله من دهماء الناس في نهب دار الخلافة ونهب أهل الكرخ دور أهل السنة بباب البصرة، وأعادت الروافض الأذان بحي على خير العمل، وخُطب ببغداد للخليفة المستنصر العبيدي على منابرها ومنابر غيرها، وقد حوصرت دار الخلافة.

فسار السلطان طغرل بك وراء البساسيري لقتله، ثم وصلت السرية الأولى من جيشه فلقوه في واسط فاقتتلوا هنالك وانهزم أصحابه عنه ونجا البساسيري بنفسه على فرس، فتبعه بعض الغلمان فرمى فرسه بنشابة فألقته إلى الأرض، ثم ضربه الغلام على وجهه وأسره وجزّ رأسه وحمله إلى السلطان فأمر أن يُذهب به إلى بغداد.

ذلك هو أرسلان البساسيري التركي، كان من مماليك بهاء الدولة، وكان مملوكاً لرجل من أهل مدينة بسا، فنسب إليه فقيل البساسيري، وتلقب بالملك المظفر، وكان مقدماً عند الخليفة القائم بأمر الله، حتى إنه خطب له على منابر العراق كلها، لكنه تجبّر وعتا، ثم طغى وبغى، وخرج على الخليفة والمسلمين ودعا إلى خلافة الفاطميين، ثم مات في هذه السنة.

وفاة ابن حزم الظاهري:

وفي سنة ست وخمسين وأربعمائة، توفي من الأعيان الإمام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، أصل جده من فارس، وهو أول من دخل بلاد المغرب منهم، وكانت بلدهم قرطبة فولد ابن حزم بها، فقرأ القرآن واشتغل بالعلوم الشرعية فتفوّق فيها على أهل زمانه، وكان له تصانيف كثيرة في مختلف العلوم، وكان أديباً شاعراً فصيحاً، وله كتب في المنطق والطب.

ومع ذلك فقد كان رحمه الله سليط اللسان على مخالفيه في الرأي، فيقسو عليهم بلسانه وقلمه، فأورثه ذلك حقداً في قلوب أهل زمانه.

وقد كان ينكر القياس سواء فيه الجلي أو غيره، وكان لا يأخذ بغير

الظاهر من دلالات الألفاظ والنصوص دون أدنى تفهم لما تحتمله من المعاني الغزيرة، فأوقعه ذلك وجماعته في كثير من الحرج في كثير من الأحكام.

وقد توفي رحمه الله عن تسعين سنة أو أكثر.

وفي سنة اثنتين وستين وأربعمائة، توجه ملك الروم من القسطنطينية إلى الشام في ثلاثمائة ألف مقاتل، فدخل منبج من أرض المسلمين وأحرق ما بينها إلى أرض الروم وقتل فيها الرجال وسبى النساء والأولاد، ففزع المسلمون في حلب وما حولها من ذلك، ثم رده الله على أعقابه خاسراً وذلك لهلاك أكثر جيشه بالجوع إذ انقطعت عنهم الميرة.

وفي هذه السنة كذلك، أقبل ملك الروم أرمانوس في جحافل كثيفة من جيوش الروم والفرنج، ومعه خمسة وثلاثون ألفاً من البطارقة، مع كل بطريق مائتا ألف فارس، وغيرهم آخرون كثيرون من الفرنج والقسطنطينية.

فكان أرمانوس بذلك عازماً على إبادة الإسلام وأهله، فالتقاهم السلطان ألب أرسلان في جيش تعداده عشرون ألفاً، وبالنظر لكثرة الروم وقلة المسلمين أشار الفقيه أبو نصر محمد بن عبدالملك البخاري بأن تكون المعركة يوم الجمعة بعد الزوال كيما يدعو الخطباء فوق المنابر للمجاهدين، فلما تقابل الفريقان وتناجزا، نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وعلا ثم مرغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره، فأنزل الله نصره على المسلمين، إذ أدبر الكافرون فقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً وأسروا ملكهم أرمانوس، ثم عفا عنه السلطان وأطلق معه جماعة من البطارقة وشيعهم مسافة فرسخ، وأرسل معهم جيشاً يحفظونهم إلى بلادهم ومعهم راية مكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وفاة السلطان ألب أرسلان:

وفي سنة خمس وستين وأربعمائة، توفي السلطان ألب أرسلان، وهو الملقب بسلطان العالم بن داود جعفري بك بن ميكائيل بن سلجوق التركي،

صاحب المماليك الكبيرة، وقد ملك بعد عمه طغرل بك سبع سنين، وكان عادلاً حسن السيرة في الناس، وكان هذا قد سار في أول هذه السنة قاصداً غزو ما وراء النهر، وخلال مسيره غضب على رجل اسمه يوسف الخوارزمي فأخذ بقوس ثم رماه به فأخطأه، فبادره يوسف بخنجر ضربه به في خاصرته فقتله، فأدرك الجيش يوسف فقتلوه، ثم سار الجيش إلى مرو فدفنوا بها السلطان، ولما بلغ موته أهل بغداد، أقام الناس له العزاء، وأغلقت الأسواق وأظهر الخليفة الجزع، ثم جلس ولد السلطان ملكشاه على سرير الملك وقام الأمراء بين يديه وأجابوه بالسمع والطاعة[١].

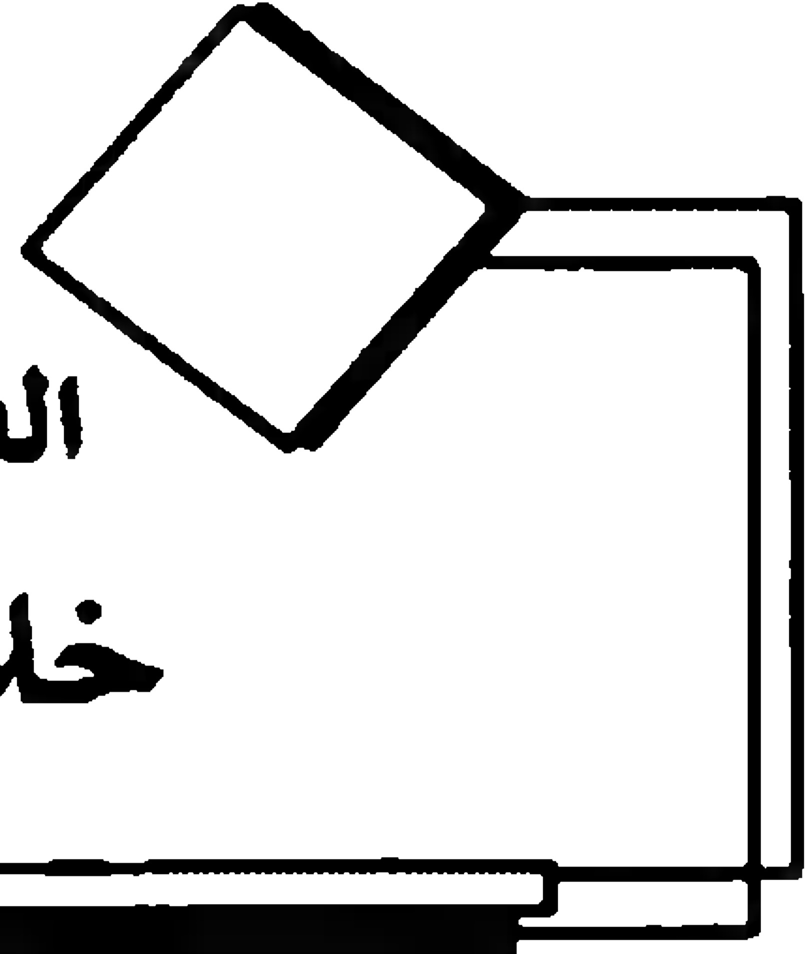
وفاة الخليفة القائم بأمر الله:

وفي سنة سبع وستين وأربعمائة، مات الخليفة القائم بأمر الله، وكان قد مرض في شهر صفر من هذه السنة مرضاً شديداً وامتنع من الفصد، فما زالوا به حتى افتصد وصلح حاله، ثم افتصد بعد ذلك من بواسير كانت تعتاده، فما لبث فصاده أن انفجر وكان نائماً، فاستيقظ وقد انهارت قواه واستيأسوا من شفائه، فاستدعى حفيده وولي عهده عدة الدين أبي القاسم عبدالله بن محمد بن القائم وأحضر إليه القضاة والفقهاء وأشهدهم عليهم بولاية العهد له من بعده فشهدوا، فكانت وفاته عن أربع وتسعين سنة، وكانت مدة خلافته أربعاً وأربعين سنة، ولم يبلغ أحد من العباسيين قبله هذه المدة، وقد جاوزت خلافة أبيه قبله أربعين سنة، فكان مجموع المدة لحكمهما خمساً وثمانين سنة.

وقد كان هذا الخليفة من خيار بني العباس ديناً واعتقاداً ودولة.



(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٢ ص٤٨ ـ ١٠٩.



الفصل السادس والعشرون

خلافة المقتدي بأمر الله

هو أبو القاسم عدة الدين عبدالله بن الأمير ذخيرة الدين أبي القاسم محمد بن الخليفة القائم بأمر الله بن القادر العباسي، وأمه أرمينية، وتدعى قرة العين، وقد توفي أبوه وهو حمل، ولما ولد فرح به جده والمسلمون فرحاً شديداً.

وقد نشأ المقتدي في حجر جده القائم بأمر الله فرباه التربية الحسنة، وكان حينما ولي الخلافة في العشرين من عمره، وقد بايعه الوزراء والأمراء والأشراف ووجوه الناس وعلماؤهم، ولدى توليه الخلافة، ندد بالمفسدين، وخرّب الخمارات ودور الزواني والمغاني، وأمر الناس بالتحرز عن المفاسد والابتذال.

وفاة أبي إسحاق الشيرازي:

وفي سنة ست وسبعين وأربعمائة توفي أبو إسحاق الشيرازي، وهو إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، وشيراز هي قرية من قرى فارس، وقيل: هي مدينة خوارزم، وهو شيخ الشافعية ومدرس النظامية ببغداد، وقد تفقه في بلاد فارس على أبي عبدالله البيضاوي، ثم من بعده على القاضي أبي الطيب الطبري، وكان رحمه الله عابداً زاهداً ورعاً، وكان إماماً في الفقه والأصول والحديث وغير ذلك من مختلف العلوم الإنسانية، وله مصنفات كثيرة من أبرزها المهذب والتبصرة، وطبقات الشافعية.

وفاة إمام الحرمين:

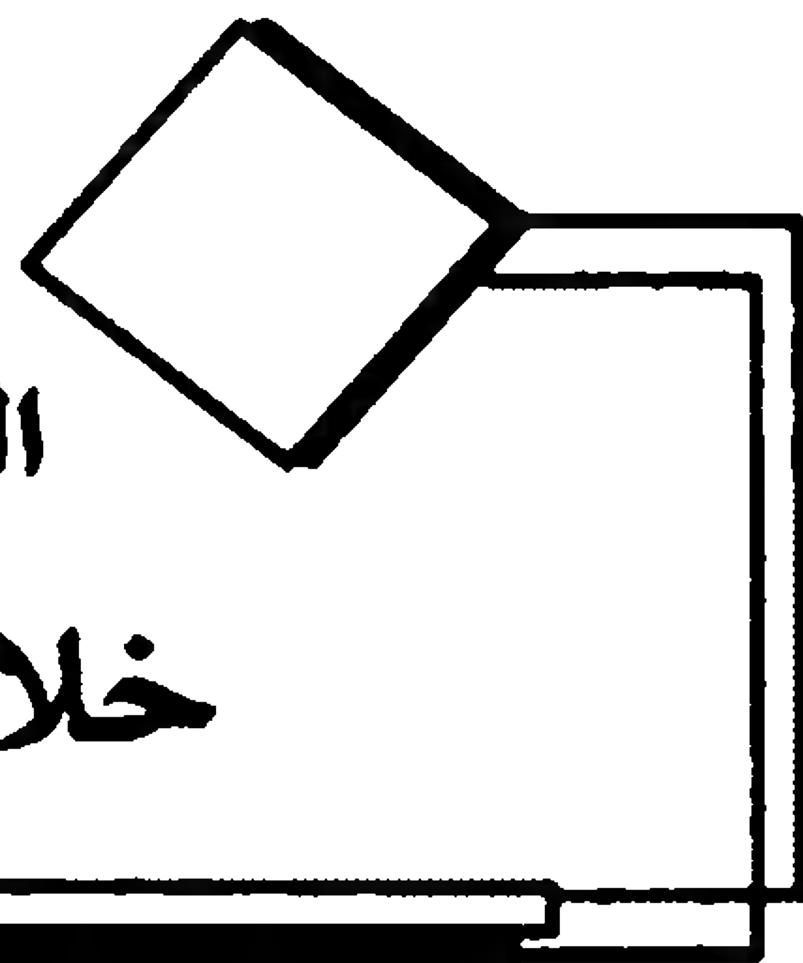
وفي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، توفي من الأعيان عبدالملك ابن الشيخ أبي محمد عبدالله بن يوسف، وينتهي نسبه إلى محمد بن جيويه أبو المعالي الجويني، وجوين هي قرية من قرى نيسابور، وقد لقب بإمام الحرمين، وذلك لمجاورته بمكة أربع سنين، درس الحديث وتفقه على والده الشيخ أبي محمد الجويني، وقد دخل بغداد وتفقه بها، ثم عاد إلى نيسابور، وصنف بها جملة مصنفات منها البرهان في أصول الفقه، وقد توفي عن سبع وخمسين سنة رحمه الله.

وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وقعت فتنة عظيمة بين الروافض والسنة في بغداد، وفيها ملك مسعود بن الملك المؤيد بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين بلاد غزنة بعد أبيه، وفيها أيضاً فتح ملكشاه مدينة سمرقند.

وفاة الخليفة المقتدي:

وفي سنة سبع وثمانين وأربعمائة، توفي الخليفة المقتدي رحمه الله عن ثمان وثلاثين سنة، بعد مكثه في الخلافة تسع عشرة سنة وثمانية شهور، وتشير القرائن إلى أنه مات بالسم، فقد قدم إليه الطعام فتناول منه على العادة وهو في غاية الصحة، ثم ما لبث أن تغيرت حالته واسترخت يداه ورجلاه وانهارت قواه، ثم سقط إلى الأرض وأسلم الروح باريها، وكان رحمه الله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، حسن السيرة، وكان غيوراً على النساء وقد نفى عن بغداد المغنيات وأرباب الملاهي والمعاصي.





الفصل السابع والعشرون
خلافة المستظهر بأمر الله

وعقب وفاة الخليفة المقتدي جيء بابنه المستظهر بأمر الله، فبويع بالخلافة وبايعه الوزير أبو منصور، ثم بقية الأمراء والرؤساء.

دخول الفرنج بيت المقدس

وذلك في سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة، إذ وقعت الكارثة الفظيعة والحدث المزلزل، يوم أخذت الفرنجة البيت المبارك المصون الذي شرّفه الله وجعله محط أنظار المسلمين في كل زمان، فتهوي إليه قلوبهم بعد أن كان قبلتهم الأولى، وذلكم بيت المقدس، فقد دخله الصليبيون الظالمون في ألف ألف من المقاتلين، جاؤوا من أطراف الأرض يرومون قتل المسلمين وإذلالهم وكسر شوكتهم، بل ويبتغون تدمير الإسلام بالكلية إن استطاعوا.

لقد دخل الصليبيون الظالمون بيت المقدس في هذه السنة وقتلوا في وسطه ما يزيد على ستين ألفاً من المسلمين، في مذبحة جماعية مريعة تلطخت بها أيدي العتاة الأشرار من مناكيد البشر، الذين جاسوا خلال الديار وعاثوا في البلاد الفساد وتبروا ما علوا تتبيراً، فضلاً عما قارفوه من تخريب وإفساد ونهب للأموال والثروات.

وذلكم هو ديدن الصليبيين الاستعماريين إذا ما وطئت أقدامهم أرضاً

من بلاد المسلمين، فإنما يبادرون في نهم وظلم لانتهاب الخيرات والثمرات وامتصاص الطاقات والثروات.

وفي هذه الأهوال التي حاقت بالمسلمين في فلسطين والشام، خرج الناس على وجوههم هاربين إلى العراق، يستغيثون إلى الخليفة والسلطان على الأجانب الطغاة، ففزع الناس ببغداد من ذلك وراعهم ما سمعوه أشد ترويع.

وفي سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، أقبل الفرنج في ثلاثمائة ألف مقاتل، فالتقاهم حاكم دمشق المسلم ستكين بن أنشمند طايلو، فهزمهم بعون الله، وقتل منهم خلقاً كثيراً، إذ لم ينج منهم غير ثلاثة آلاف.

وفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة، احتلت الفرنج كثيراً من قلاع المسلمين، منها قيسارية وغيرها، وسار كندر، وهو ملك الفرنج الذي احتل بيت المقدس - إلى عكا - فحاصرها، ثم أصيب بسهم في عنقه فمات من فوره.

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة، قصد الفرنج الشام فقاتلهم المسلمون وقتلوا منهم اثني عشر ألفاً، فباء الظالمون المعتدون بالهزيمة والخزي.

وفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة، ادعى رجل النبوة في نواحي نهاوند، وقد سمى أربعة من أصحابه بأسماء الخلفاء الراشدين الأربعة، فاتبعه في ضلاله كثير من الجهلة والسفهاء من رعاع الناس، ومن غلوهم في الجهالة والضلالة والسفه أنهم باعوا أملاكهم ثم دفعوا أثمانها إلى هذا المدعي المضلل، الذي ما لبث أن قتل، قبحه الله.

وفي سنة خمسمائة للهجرة النبوية، وقعت حروب دامية بين الروم والفرنجة، فقتل من الفريقين خلق كثير، ثم باءت الفرنجة أخيراً بالهزيمة.

وفي سنة إحدى وخمسمائة من الهجرة، قدم القاضي فخر الملك أبو عبيد من طرابلس إلى بغداد يستنفر المسلمين على الفرنج، فأكرمه السلطان

غياث الدين إكراماً عظيماً، وبعث معه الجيوش الكثيرة لقتال الفرنج.

وفاة تميم بن المعز بن باديس:

وقد توفي في هذه السنة تميم بن المعز بن باديس، وهو حاكم إفريقية، وكان من خيار الملوك حلماً وكرماً وإحساناً، مكث في الملك مدة ست وأربعين سنة، ومات عن تسع وتسعين سنة.

وفي سنة ثلاث وخمسمائة للهجرة، دخلت الفرنجة مدينة طرابلس وقتلوا من فيها من الرجال، وسبوا فيها النساء والأطفال، وغنموا منها الأمتعة والأموال، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي سنة أربع وخمسمائة، تجهز جماعة من أهل بغداد للمسير إلى الشام وقتال الفرنج الذين فتحوا مدائن عديدة ومنها مدينة صيدا وغيرها من المدائن، لكنهم كروا راجعين بعد أن بلغهم كثرة الفرنج واحتشاد جموعهم.

وفي السنة التالية بعث السلطان غياث الدين جيشاً كثيفاً، يصحبهم الأمير مودود بن زنكي صاحب الموصل في جملة أمراء ونواب بقيادة الأمير مودود صاحب الموصل لقتال الفرنج بالشام، فانتزعوا من أيديهم حصوناً كثيرة وقتلوا منهم خلقاً كثيراً بعون الله وقدرته.

ولدى دخول المسلمين دمشق، دخل الأمير مودود إلى جامعها كيما يصلي فيه فجاءه ماكر غادر من الباطنية[١] في زي سائل يطلب منه شيئاً، ولما دنا منه ضربه في فؤاده فمات من فوره.

وفاة حجة الإسلام الغزالي:

وفي هذه السنة توفي من أعيان الناس حجة الإسلام الغزالي،

---

(١) الباطنية: اسم من أسماء الإسماعيلية، إذ كانوا يسمون بذلك في العراق، وكانوا يثبتون الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر، وقد اختلفوا في موت الصادق، فمنهم من قال: أنه مات، وقيل: إنه لم يمت ولكنه أظهر موته تقية عليه كيلا يقتل، انظر: الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص١٩١.

وهو محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي، حجة الإسلام، تفقه على إمام الحرمين، وبرع في كثير من العلوم، وله كثير من المصنفات في مختلف العلوم، وقد كان بحق من أولي النبوغ والنباهة في العالم، وفي شبابه قد بذ أقرانه من الدارسين والمتعلمين حتى إنه درّس في النظامية ببغداد وهو في الرابعة والثلاثين من العمر، فكان يستمع إليه أكابر العلماء وسادتهم حتى عجبوا من فصاحته وسعة اطلاعه، وغزارة علمه.

وبعد ذلك بارح الغزالي الدنيا من حيث صخبها وضجيجها وأقبل على العبادات والطاعات وأعمال الآخرة، ثم رحل إلى الشام فأقام بها في دمشق وبيت المقدس مدة من الزمن، وفي هذه المدة صنف كتاب: «إحياء علوم الدين» وهو كتاب فريد وحاشد، جاء مشتملاً لعلوم كثيرة من أمور الإسلام، وقد تجلى على نحو لطيف وظاهر ومستفيض جانب التصوف وأعمال القلوب، بالرغم مما تضمنه الكتاب من غرائب الأحاديث ومنكراتها وموضوعاتها.

ثم مات رحمه الله ببلدة طوس حيث دفن.

وفي سنة سبع وخمسمائة، وقعت حرب طاحنة بين المسلمين والفرنج في أرض طبرية، فهزموا الفرنج هزيمة منكرة وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وغنموا منهم أموالاً طائلة، فضلاً عن أخذ تلك النواحي كلها.

وفاة أبو بكر الشاشي:

وفي هذه السنة توفي أبو بكر الشاشي، وهو محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي، أحد أئمة الشافعية في زمانه.

وقد سمع الحديث عن أبي يعلى بن الفراء، وأبي إسحاق الشيرازي، وقد اختصر الشاشي كتاب الشامل لابن الصباغ، إذ جمعه للمستظهر بالله، وسماه حلية العلماء بمعرفة مذاهب الفقهاء، ويعرف بالمستظهري.

وفاة الخليفة المستظهر:

وفي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة توفي الخليفة المستظهر، وهو أبو العباس أحمد بن المقتدي، فقد كان باراً محسناً محباً للخير، وكان جاداً حازماً لا يصغي إلى أقوال الوشاة من الناس، فقد ضبط أمور الخلافة ضبطاً جيداً.

ولما مات السلطان ألب أرسلان مات بعده الخليفة القائم، ثم لما مات السلطان ملكشاه مات بعده المقتدي، ثم لما مات السلطان محمد مات بعده المستظهر بالله، وذلك عن عمر إحدى وأربعين سنة.



الفصل الثامن والعشرون

خلافة المسترشد

هو أبو منصور الفضل بن المستظهر، ولما توفي أبوه بويع له بالخلافة وخُطب له على المنابر وكان ولياً للعهد من بعده ثلاثاً وعشرين سنة، وقد استقرت الخلافة للمسترشد عقب نزاع بينه وبين أخيه أبي الحسين.

وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، سارت الفرنجة إلى مدينة حلب ففتحوها قهراً وقتلوا من أهلها خلقاً، فسار إليهم صاحب ماردين في جيش كثيف من المسلمين فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، ولم يفلت منهم إلا اليسير، وكان ممن قتل على أيدي المسلمين صاحب إنطاكية سيرجال.

وفاة الحريري صاحب المقامات:

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة، مات الحريري صاحب المقامات، وهو القاسم بن علي بن محمد بن محمد بن عثمان، فخر الدولة أبو محمد الحريري، وهو مؤلف المقامات، وهذه من باب الأمثال والحكم والمقالات النافعة السديدة، وهي في غاية الفصاحة والبلاغة.

وقد اشتغل الحريري باللغة والنحو وسمع الحديث، وقد بذَّ أهل زمانه وفاق أقرانه من النابغين وأهل المعرفة، فعزَّ نظيره في زمانه، في الفطانة والفصاحة والذكاء وحسن العبارة.

وفاة البغوي:

وقد مات في هذه السنة أيضاً الإمام البغوي، وهو الحسين بن مسعود بن محمد البغوي، المفسر، فهو صاحب التفسير وشرح السنة والتهذيب في الفقه، وغير ذلك من المصنفات، وكان رحمه الله إمام زمانه في علوم الدين وكان ذا ورع وزهد وصلاح.

وفي سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، وقع قتال بين الخليفة والسلطان محمود، فتمكن جماعة من جند السلطان من الوصول إلى دار الخلافة فنهبوا الأموال وأرهبوا الناس، فانقلبت بغداد بالصراخ، وثارت عامة الناس مع جيش الخليفة فكسروا جيش السلطان، وقتلوا كثيراً من أمرائه، وأسروا آخرين منهم، ونالت العامة من السلطان ووبخوه أشد توبيخ، وعيَّروه قائلين: يا باطني تترك الفرنج والروم وتقاتل الخليفة! لا جرم أنهم في ذلك محقون.

وفي يوم عاشوراء، طلب السلطان من الخليفة الأمان والصلح، فاستجاب الخليفة لذلك وتباشر الناس بالصلح، والصلح خير.

وفي سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، قاتل أمير دمشق الباطنية وقتل منهم ستة آلاف فأراح الله أهل الشام منهم.

وفي هذه السنة أيضاً، حاصر الفرنج مدينة دمشق فسار إليهم أهلها وقاتلوهم قتالاً شديداً، واستغاث أهل دمشق بالخليفة، فكتب هذا إلى السلطان ليبعث إليهم جيشاً، يقاتلون الفرنج، فلم يبعث لهم جيشاً حتى جاءهم النصر من عند الله، إذ هزمهم المسلمون وقتلوا منهم عشرة آلاف ولم يفلت منهم إلا القليل، وقتل فيهم صاحب إنطاكية الفرنجي سمند.

وفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ملك عماد الدين زنكي بلاداً كثيراً من الجزيرة، إذ انتزعها من الفرنج، وقد وقعت حروب طويلة كان النصر فيها للمسلمين، وكذلك قتل المسلمون بقيادة عماد الدين زنكي من جيش الروم خلقاً كثيراً وذلك لدى قدومهم الشام.

وفي هذه السنة، قتل الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله ابن المستعلي حاكم مصر، إذ قتله الباطنية وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة، وكانت مدة خلافته تسعاً وعشرين سنة[1].

وفاة المسترشد:

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة، كانت وفاة الخليفة المسترشد، وسبب ذلك مرده إلى خلاف كان قد وقع بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود، فاحتدم الخلاف والنزاع بين الاثنين حتى جهَّز كل منهما جيشه للقاء الآخر، فلما التقوا وقع بينهما قتال شديد، فحمل جيش السلطان على جيش الخليفة فهزموهم وقتلوا منهم كثيراً من الجند وأسروا الخليفة نفسه، ولما بلغ هذا الخبر بغداد، انزعج الناس أشد الانزعاج لذلك حتى إنهم زلزلوا زلزالاً شديداً، وخرجت النساء في البلد حاسرات ينحن على الخليفة نياحاً، لما جرى له من مهانة الأسر، ثم ما لبث السلطان مسعود أن أخرج الخليفة من أسره وأفاض عليه كثيفاً من ظواهر التكريم والإجلال ثم قبَّل الأرض بين يديه تطييباً لقلبه، وسأله العفو عما كان منه، فشاع هذا الخبر في الآفاق ففرح الناس بذلك فرحاً عظيماً.

فجاءت الرسل من بغداد إلى السلطان يستحثونه على رد الخليفة إلى وطنه، فاستجاب السلطان لذلك وأرسل الخليفة ليعود إلى وطنه، وجعل معه جيشاً ليكونوا في خدمته وحراسته إلى بغداد، فقُدِّر أن يكون في صحبة الجيش عشرة من الباطنية، وهؤلاء خبيثون زنادقة، يخفون في صدورهم الغيظ للإسلام وأهله الذين هم على سنّة رسول الله ﷺ غير محرفين ولا مبطلين، فحملت الباطنية على الخليفة وقتلوه في خيمته ثم قطعوه تقطيعاً.

فطار هذا الخبر المفجع حتى شاع في الآفاق، فاشتد حزن الناس على الخليفة المسترشد، وخرجت النساء في بغداد حاسرات عن وجوههن وهن ينحن في الطرقات.

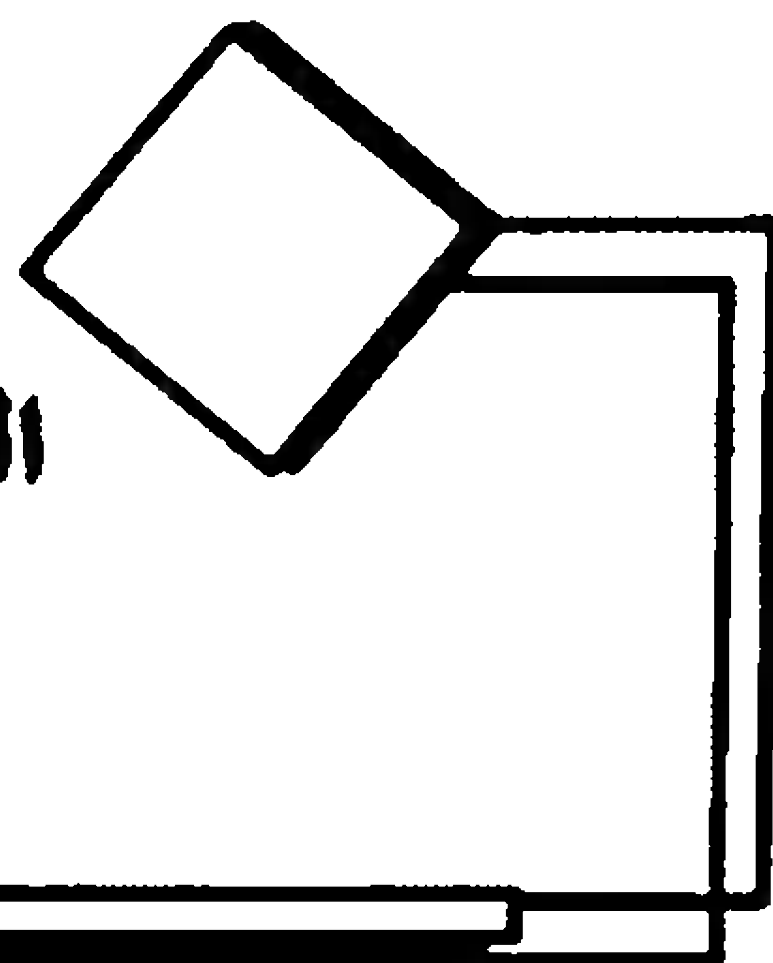
---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٢ ص١١٠ ـ ٢٠٠.

ثم حملت أعضاء الخليفة إلى بغداد، وبعد التعزية فيه ثلاثة أيام بويع لولده الراشد.

لقد كان المرحوم قوياً شجاعاً، وكان فصيحاً بليغاً، وكان محبباً إلى الناس، وقد قتل عن خمس وأربعين سنة، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر.



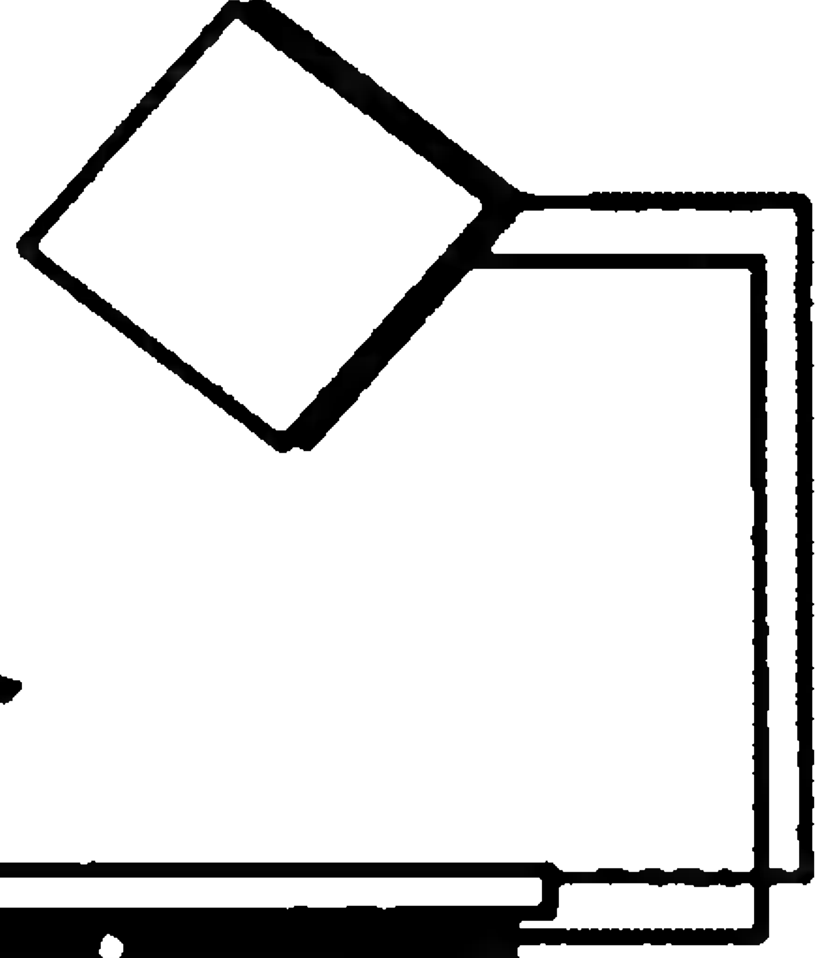


الفصل التاسع والعشرون
خلافة الراشد بالله

وهو أبو جعفر منصور بن المسترشد، بويع له بالخلافة عقب مقتل أبيه المسترشد، وقد بايعه الناس والأعيان وخُطب له على المنابر ببغداد، وفي أول أيامه لاحت لائحة الروافض قليلاً.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة، حصل خلاف بين الخليفة الراشد والسلطان مسعود، فحمل كل منهما على الآخر، ثم استجاش كل منهما جنده وعساكره، والتف عماد الدين زنكي من حول الخليفة مؤيداً له ومعه خلائق كثيرة من الناس، لكن السلطان مسعوداً استبق إلى بغداد فدخلها في غيبة الخليفة، فاستحوذ على دار الخلافة وأعلن عن خلع الخليفة ومبايعة عمه المقتفي بن المستظهر، فبويع هذا عوضاً عن ابن أخيه الراشد بالله الذي مكث في الخلافة إحدى عشر شهراً.





الفصل الثلاثون

خلافة المقتفي بالله

وفي سنة ثنتين وثلاثين وخمسمائة، قتل الخليفة الراشد المخلوع، وكان هذا قد وقع بينه وبين السلطان مسعود نزاع وخلاف، فقد اجتمع في هذه السنة مع الخليفة المخلوع داود وجماعة من الأمراء، فساروا مجتمعين لقتال السلطان مسعود في أرض يقال لها: مراغة، فهزمهم مسعود وبددهم تبديداً وقتل منهم خلقاً من الناس، وهرب الخليفة الراشد المخلوع، فدخل أصبهان، وهنالك قتله رجل من خراسان ممن كان يخدمه، فمات عن ثلاثين سنة، وقيل: قتل بالسم، وقيل: قتلته الباطنية، وقيل: قتله الفراشون الذين كانوا يلون أمره ويخدمونه، والله تعالى أعلم.

ظاهرة عجيبة:

وهي واحدة من التأملات التي تنبس بها قرائح النابهين من نوابغ العلماء، وذلك ما حكاه ابن الجوزي رحمه الله عن أبي بكر الصولي أنه قال: الناس يقولون: كل سادس سيقوم بأمر الناس من أول الإسلام لا بد أن يخلع ـ أو يقتل ـ فقال ابن الجوزي: تأملت ذلك فرأيته عجباً: قيام رسول الله ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم الحسن، فخلعه معاوية، ثم يزيد ومعاوية بن يزيد ومروان وعبدالملك ثم عبدالله بن الزبير، فخلع وقتل، ثم الوليد ثم سليمان ثم عمر بن عبدالعزيز ثم يزيد ثم هشام ثم الوليد بن يزيد، فخلع وقتل، ولم ينتظم لبني أمية بعده أمر حتى قام السفاح العباسي ثم أخوه

المنصور ثم المهدي ثم الهادي ثم الرشيد ثم الأمين، فخلع وقتل، ثم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر، ثم المستعين فخلع وقتل، ثم المعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي ثم المقتدر فخلع ثم أعيد فقتل، ثم القاهر والراضي والمتقي والمستكفي والمطيع والطائع فخلع، ثم القادر والقائم والمقتدي والمستظهر والمسترشد ثم الراشد، فخلع وقتل[1].

وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، دخل القائد المظفر عماد الدين زنكي الرها وغيرها من حصون الجزيرة التي انتزعها من أيدي الفرنج، وقتل منهم خلقاً كثيراً فأزال عن المسلمين بذلك بلاءً شديداً.

وفي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، قتل الملك عماد الدين زنكي، ابن قيم الدولة التركي أمير الموصل وحلب وغيرها من بلدان الشام والجزيرة، وقد كان عماد الدين زنكي من خيار الملوك وأحسنهم سيرة، وكان شجاعاً مقداماً ذا حزم وشهامة وعزم، وكان شديد الغيرة على النساء، فكان بذلك من أشد الناس غيرة على نساء الرعية وأرفق الملوك بعامة الناس.

وقد اضطلع بالأمر من بعده في الموصل ولده سيف الدولة، وفي حلب نور الدين محمود الذي استعاد مدينة الرها.

وفي هذه السنة ملكت الفرنج مدينة طرابلس الغرب، إلى غير ذلك من الأحداث والوقائع التي جرت في هذا العام.

وفي سنة ثنتين وأربعين وخمسمائة، دخلت الفرنج عدة حصون من جزيرة الأندلس، وفيها ملك نور الدين بن محمود زنكي عدة حصون بالسواحل إذ انتزعها من يد الفرنج.

وفي هذه السنة خُطب للمستنجد بالله بولاية العهد من بعد أبيه المقتفي.

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، حاصرت الفرنجة دمشق، وكان الفرنجة قد حشدوا جموعاً كثيرة من العساكر بلغوا سبعين ألفاً، وكان على

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٢ ص٢٠٧ - ٢١٤.

دمشق حينئذٍ مجير الدين أرتق، فخرج أهل دمشق يومئذٍ في مائة ألف وثلاثين ألفاً للقاء الفرنجة، فاقتتلوا معهم قتالاً شديداً، فقتل من الفرنجة خلق كثير، ولم يقتل من المسلمين إلا قليل.

ولما طال أمد الحرب واستحرّ القتال بين الفئتين، بادر المسلمون بإخراج مصحف عثمان إلى وسط الجامع، ثم اجتمع الناس من حوله وهم يتضرعون إلى الله عسى أن يجعل لهم الغلبة والنصر، حتى إن النساء والأطفال خرجوا مكشوفي الرؤوس وهم يدعون الله ويتباكون.

وقد استغاث أرتق أمير دمشق بنور الدين محمود صاحب حلب وبأخيه صاحب الموصل وهو سيف الدين غازي، فبادرا المسير إليه سريعاً في نحو من سبعين ألف مقاتل.

ولما سمعت الفرنجة بمسير المسلمين إليهم في جيش كثيف، غادروا البلد منهزمين فلحقهم المسلمون وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وكان في عِداد القتلى فيهم قسيس اسمه إلياس، وكان هذا الخبيث الحاقد قد أغرى الفرنجة بدمشق ليدخلوها، ذلك أنه افترى على المسيح كذباً إذ زعم أنه رأى المسيح في منامه وقد وعده فتح دمشق، فقتل هذا المخادع الخراص.

وفاة القاضي عياض:

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة، مات القاضي عياض، العالم المالكي الشهير، وصاحب المصنفات الكثيرة الجيدة، منها شرح مسلم، ومشارق الأنوار وغير ذلك، وكان رحمه الله ذا نبوغ في علوم كثيرة كالفقه واللغة والحديث والأدب.

وفي هذه السنة، غزا الملك نور الدين محمود زنكي حاكم حلب بلاد الفرنج فقتل منهم كثيراً، وكان من الذين قُتلوا أمير إنطاكية، وكذلك فتح نور الدين زنكي كثيراً من قلاعهم.

وفاة ابن العربي المالكي:

وفي هذه السنة، مات ابن العربي، أبو بكر، العالم المالكي الشهير، وهو شارح الترمذي، وكان عالماً فقيهاً زاهداً، وقد صحب الغزالي وأخذ عنه.

وفي سنة سبع وأربعين وخمسمائة، انقضت دولة بني سبكتكين عن بلاد غزنة وغيرها، إذ هزمهم علاء الدين الحسين بن الحسن أول ملوك الغور وقتل منهم كثيراً، وقد كان بنو سبكتكين من خيار الملوك وأكثرهم جهاداً في الكافرين.

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وقع قتال بين السلطان سنجر وبين الأتراك، فقتل الأتراك في جيش سنجر كثيراً.

وفي هذه السنة أخذت الفرنج مدينة عسقلان من ساحل غزة.

وفاة الشاعرين: الفرزدق وجرير:

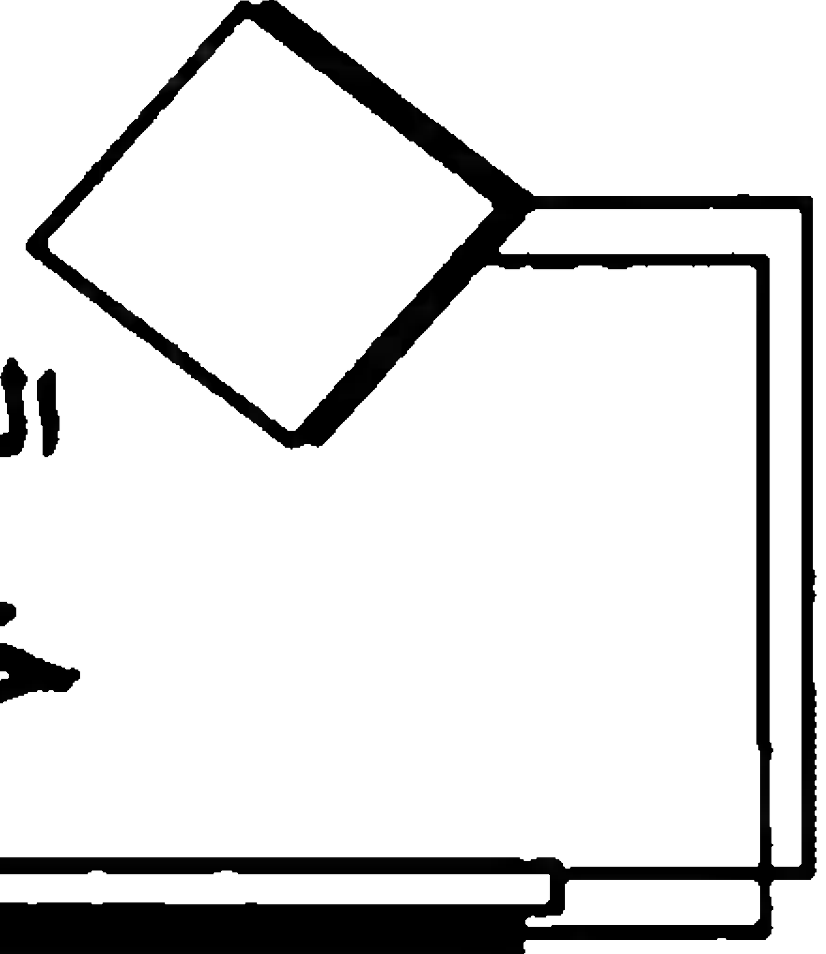
وفي هذه السنة كانت وفاة الشاعرين القرينين الشهيرين وهما الفرزدق وجرير، وهما أبو الحسن أحمد بن منير الجوني الذي توفي بحلب، وأبو عبدالله محمد بن نصر بن صغير القيسراني الحلبي الذي مات بدمشق.

وفي سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، كسر جيش مصر الفرنج بأرض عسقلان، إذ كسرهم كسرة أليمة منكرة، وكان صاحب جيش مصر الملك صالح بن الغارات.

وفيها كذلك قدم الملك نور الدين من حلب إلى دمشق، ثم خرج إلى قتال الفرنج، فهزم جيش الملك ولم يبقَ معه إلا شرذمة قليلة ظلت صابرة مرابطة في وجه العدو، فحملوا عليهم بشدة وعزم، فخاف الفرنج ثم ولوا مدبرين.

وفاة الخليفة المقتفي بامر الله:

وفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة كانت وفاة الخليفة المقتفي، وهو أبو عبدالله محمد بن المستظهر بالله، فقد مرض بدمل خرج بحلقه فمات منها عن ست وستين سنة، ودفن بدار الخلافة، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة، وكان ذا شهامة وبأس وإقدام.



الفصل الحادي والثلاثون
خلافة المستنجد بالله

وهو أبو المظفر يوسف بن المقتفي، بويع بالخلافة من هذه السنة إذ بايعه أشراف بني العباس ثم القضاة والعلماء والأمراء، وكان عمره يومئذٍ خمساً وأربعين سنة، وكان رجلاً صالحاً ففرح المسلمون به بعد أبيه.

وفي هذه السنة، مات خليفة مصر الفاطمي وهو أبو القاسم عيسى بن إسماعيل الظافر، فقد توفي وعمره إحدى عشرة سنة، ومدة ولايته من ذلك ست سنين، وكان يدير شؤون دولته وزيره أبو الغارات.

ومات فيها أيضاً خسروشاه بن ملكشاه، وينتهي نسبه إلى محمود بن سبكتكين، وقد كان من سادات الملوك وأحسنهم سيرة، وكان محباً للعلم وأهله، وقد قام بعده ولده ملكشاه.

ومات في هذه السنة كذلك: ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي بأصبهان مسموماً.

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة، قتل السلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه، وكان مستهتراً غير ذي ديانة ولا ورع، بل كان ذا استخفاف وغير مبال فكان يشرب الخمر بإدمان لا يليق بأحد من رعاع الناس، فكيف به إذ كان من أولي الزمام والأمر في الأمة، ولذلك قام إليه مدبر مملكته بزديار فقتله وبايع بعده السلطان أرسلان شاه بن طغر بن محمد بن ملكشاه.

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، مات حاكم المغرب عبدالمؤمن بن علي التومرتي، وجاء من بعده في الملك ابنه يوسف، وكان عبدالمؤمن حازماً شجاعاً معظماً للشريعة وكان في ذلك محقاً سديد الرأي صادقاً لو لم يخالطه في ذلك قسوة منكرة قد تفضي إلى الحيف، فكان كثير السفك للدماء، فيعاقب بشدة على الذنب الصغير، وكان يجازي من لا يحافظ على الصلاة بالقتل، فكان الناس يتزاحمون في المساجد إذا أذن المؤذن.

وقد استولى عبدالمؤمن على وهران وتلمسان وفارس وسبتة ثم حاصر مراكش أحد عشر شهراً فافتتحها.

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة، كانت:

وقعة حارم:

وكانت هذه في رمضان من هذه السنة، إذ استغاث نور الدين زنكي بعساكر المسلمين، فأخذتهم الحماسة ثم جاؤوا من كل جانب، ومراد نور الدين من ذلك الأخذ بثأره من الفرنجة الذين باغتوه وجيشه مرة فانهزم المسلمون يومئذٍ لا يلوي أحد على أحد.

لكنه الآن ناجزهم في قتال مستحرّ شديد، فهزمهم شر هزيمة وأسر أميرهم بيمند حاكم إنطاكية، والقومص حاكم طرابلس، والدوك صاحب الروم، وقتل منهم عشرة آلاف، وقيل: بل قتل عشرين ألفاً، وبعد ذلك فتح نور الدين مدينة بانياس.

وفاة جمال الدين:

وفي هذه السنة توفي جمال الدين، وهو محمد بن علي بن أبي منصور، أبو جعفر الأصبهاني الملقب بالجمال، وكان فاضلاً جواداً، وله مآثر حسنة في مكة والمدينة، ومن ذلك أنه ساق عيناً إلى عرفات، وقد بنى مسجد الخيف وعمل درجه بالرخام، وبنى على المدينة المنورة سوراً، وكان

يتصدق كثيراً على المحاويج ويفتدي من الأسارى في كل عام بما يبذله من مال كثير في ذلك، وبعد وفاته حمل إلى المدينة النبوية فدفن بها على مقربة من حرم النبي ﷺ.

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة، فتح نور الدين بن محمود زنكي حصناً من حصون الشام وهو حصن المنبطرة حيث قتل هنالك خلق كثير من الفرنج.

وفي هذه السنة أظهر الروافض سب الصحابة جهاراً، ووقع بين العوام من الناس مجادلات صاخبة حول مسألة خلْق القرآن.

فتح الإسكندرية:

وفي سنة ثنتين وستين وخمسمائة، فتحت الإسكندرية وذلك على يدي أسد الدين شيركوه، إذ أشار بالمسير إلى الإسكندرية فدخلها وأمّر عليها ابن أخيه صلاح الدين يوسف ثم عاد إلى الصعيد فأخذه، ثم اجتمع الإفرنج والمصريون على حصار الإسكندرية ثلاثة أشهر لانتزاعها من يد صلاح الدين في حال غياب عمه في الصعيد، لكن صلاح الدين امتنع فيها ولم يتزعزع، ثم سلمها إلى المصريين بعد أن ضاقت الأقوات كثيراً بعساكره، فعاد منها بجيشه إلى الشام، وكذلك عاد الفرنج إلى بلادهم بعد أن قرر لهم الوزير شاور مبلغاً من المال كل سنة، بعد أن كان الملك نور الدين قد أعقبهم في بلادهم، وفتح من بلادهم حصوناً كثيرة وقتل منها كثيراً وأسر منهم جماً غفيراً.

وهي الدولة السنية المباركة ذات الفتوحات العظيمة والانتصار لدين الله بإعزازه وإعلائه في الآفاق، وبإزالة الكروب والبلايا التي ألمّت بالمسلمين على أيدي الصليبيين المتعصبين.

ولقد كان ابتداء هذه الدولة المبرورة سنة أربع وستين وخمسمائة، إذ غشي المسلمين شؤبوب مبارك من رحمة الله الغامرة باستنقاذهم من براثن الحاقدين الطغاة الذين جاسوا خلال الديار فقتلوا أهلها وأبادوا خضراءها

ودمروها تدميراً في غير ما لين أو رأفة إلا التعصب المجنون الأعمى، والحقد الشنيع الغاشم، لقد كتب الله لعباده المسلمين الصابرين السلامة والنجاة والنصر على أيدي ثلة من خيار الرجال المؤمنين في هذا الزمان، أولئك هم بنو أيوب، وفي ذروة البطولة والشموخ فيهم السلطان المظفر صلاح الدين يوسف بن أيوب، هذا المسلم العظيم الذي اقترن اسمه مع ذكريات النصر الأكبر للمسلمين، وبتطهير القدس وما حولها من رجس المفسدين والمعتدين.

وفي هذه السنة وهي أربع وستون وخمسمائة، فتحت مصر على يدي الأمير أسد الدين شيركوه، وكان الفرنج قد طغوا في الديار المصرية وقد جعلوا شاور ردءاً (عوناً) لهم فكان يصانعهم ويمالئهم، فتحكموا في أموال الديار المصرية واستحوذوا عليها جميعاً وأخرجوا أهلها المسلمين منها، فجاء الفرنج من كل فج عميق إليها للإقامة فيها وهم يصحبهم في ذلك ملك عسقلان في جحافل كثيفة من الجنود، فاحتلوا مدينة بلبيس وقتلوا كثيراً من أهلها وأسروا آخرين ثم نزلوا بها وجعلوها لهم موئلاً ومعقلاً.

ثم ساروا إلى القاهرة فنزلوا على ناحية منها، وأمر الوزير شاور الناس بحرق مصر ثم ينتقلون بعد ذلك إلى القاهرة، وظلت مصر تحترق أربعة وخمسين يوماً، فأرسل صاحبها العاضد إلى نور الدين يستغيثه ويستنقذ نساء المسلمين من أيدي الفرنج، فبادر نور الدين بتجهيز الجيوش إلى مصر، ولما علم الوزير شاور بذلك أرسل إلى ملك الفرنج يزين له الخروج بجيشه من مصر على أن يؤدي لهم مبلغاً كبيراً من المال وقد أخبرهم شاور بوصول المسلمين، فقفل الفرنج راجعين إلى بلادهم خوفاً من عساكر نور الدين وهم يطمعون في العودة إليها مرة ثانية، لكنهم خسؤوا وخاب ظنهم وانطفأ كيدهم، بقدوم عساكر المسلمين عليهم وهلاك الوزير شاور على أيديهم بعد أن مالأهم واستعان بهم على المسلمين، وسخر لهم من أموال مصر وخيراتها ما أفقر به المصريين وزادهم محنة وكرباً، ثم وصلت جيوش المسلمين إلى الديار المصرية فوجدوا الفرنج قد انشمروا عن القاهرة راجعين إلى بلادهم خاسرين خاسئين، وفرح المسلمون بقدوم الأمير أسد الدين

والمسلمين، ثم أظفر الله المسلمين بقتل الوزير شاور مما أبهج المسلمين وسرهم، وكان ذلك بالتعاون ما بين صلاح الدين وأسد الدين وابن أخيه يوسف[1].

مقتل الطواشي

وكان ذلك على يدي صلاح الدين إذ أمر بقتله وأصحابه، وسبب ذلك ما تلبَّس به الطواشي هذا من خيانة للمسلمين، وهو مؤتمن دار الخلافة بمصر، فقد كتب إلى الفرنج يحرضهم على القدوم إلى الديار المصرية، من أجل أن يخرجوا منها جيوش المسلمين الشامية، وقد أوفد الطواشي إليهم بذلك واحداً قد ائتمنه وهو حبشي، فصادفه في الطريق من أنكر حاله وظن أنه مريب، فحمله إلى الملك صلاح الدين فسأله عن شأنه وما كان يبغيه من سفره فأخرج الحبشي كتاباً كان يحمله من الطواشي إلى الفرنج، ففهم صلاح الدين الأمر فأخفاه في نفسه، وأحس الطواشي وهو مؤتمن الدولة ومقدم العساكر بالقصر في دار الخلافة أن صلاح الدين قد اطلع على الحقيقة، ثم خطر بباله أن يخرج إلى الصيد في بعض الأيام، فأرسل إليه صلاح الدين من قبض عليه وقتله، ثم بادر صلاح الدين بعد ذلك إلى عزل جميع الخدام الذين يخدمون في القصر وجعل بدلاً منهم بهاء الدين قراقوش، وأمره أن يطلعه على جميع الأمور صغيرها وكبيرها.

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة، حاصرت الفرنج مدينة دمياط في بلاد مصر خمسين يوماً وقد ضيقوا على أهلها، وقتلوا منهم جماً غفيراً من الناس، وقد جاؤوا إلى دمياط من البر والبحر وهم يبتغون بذلك الاستيلاء على الديار المصرية، وخشية أن يستولي المسلمون على القدس.

فكتب صلاح الدين إلى نور الدين يطلب منه النجدة والمدد من الجيوش ويحذره من مخاطر الأمر، فإنه إن خرج من مصر شاعت في أهلها

---

(١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي تأليف: عبدالملك العاصمي ج٤ ص٣ ـ ٧، والبداية والنهاية ج١٢ ص٢٢٥ ـ ٢٤١.

الفتنة والسوء، وإن تخاذل عن قتال الفرنج فسوف يدخلون دمياط ليجعلوها لهم معقلاً يتقوون به وينطلقون منه للعدوان على مصر، فأرسل إليه نور الدين بجيوش كثيفة تترا.

وقد اغتنم نور الدين تفرق الفرنج وغيابهم عن بلدانهم فقصد إليهم في جيوش كثيرة فجاسوا خلال ديارهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

وقد كان من الذين أرسلوا لنجدة صلاح الدين أباه الأمير نجم الدين أيوب، فكان في جيش من جيوش نور الدين ومعه بقية أولاده، فخرج العاضد لاستقبال نجم الدين أيوب إكراماً لولده صلاح الدين.

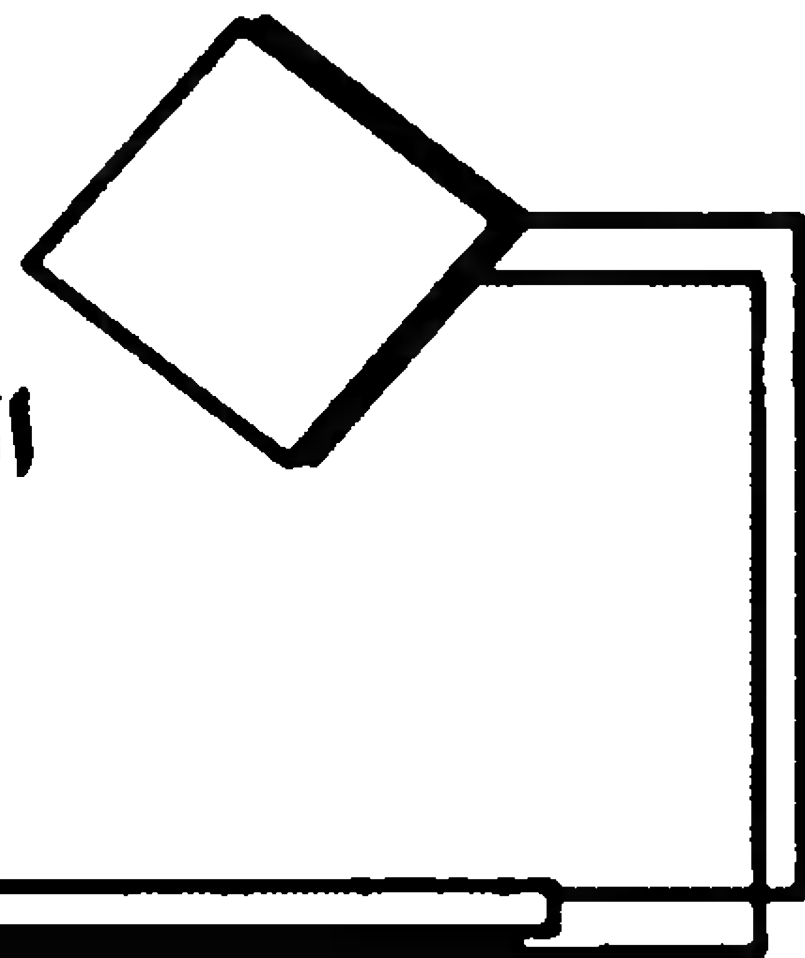
ولما بلغ الفرنج أن نور الدين قد غزا بلادهم بجيش المسلمين ارتدوا على أعقابهم خارجين من دمياط، ففرح نور الدين بذلك فرحاً شديداً، وأنشد الشعراء في ذلك القصائد، وقد كان الملك نور الدين شديد الاهتمام والاغتمام في آن، فقد قرأ عليه بعض طلبة الحديث جزءاً في ذلك ثم طلب منه أن يتبسم فامتنع من ذلك وقال: إني لأستحيي من الله أن يراني متبسماً والمسلمون يحاصرهم الفرنج بثغر دمياط.

وفي هذه السنة حاصر الملك نور الدين الكرك أربعة أيام، وتوجه من هناك نجم الدين أيوب إلى ولده صلاح الدين بمصر وقد وصاه نور الدين أن يأمر ابنه صلاح الدين بالخطبة في مصر للخليفة العباسي المستنجد بالله.

وفاة المستنجد:

وفي سنة ست وستين وخمسمائة كانت وفاة المستنجد، وكان رحمه الله قد مرض أول هذه السنة ثم عوفي فيما يبدو، ففرح الناس بذلك، ثم أدخله الطبيب إلى الحمام وكان ضعيفاً فمات فيه، وكان عمره يوم وفاته ثماني وأربعين سنة، وكانت مدة خلافته إحدى عشرة سنة، وكان من خيار الخلفاء، فكان عادلاً رفيقاً بالناس، وقد منع عنهم الضرائب والمكوس إذ لم يترك بالعراق مكساً، وكان رحمه الله آمراً بالمعروف، عظيم النهي عن المنكر.

وقد خلفه من بعده ابنه المستضيء.



الفصل الثاني والثلاثون
خلافة المستضيء

هو أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفي، أمه أرمنية اسمها عصمت، بويع له بالخلافة يوم مات أبوه ثم بايعه الناس.

وفي هذه السنة، عزل صلاح الدين قضاة مصر لأنهم كانوا شيعة وولى بها صدر الدين عبدالملك بن درباس المارداني الشافعي ليكون قاضي القضاة، فاستناب هذا في سائر المعاملات القضاة من الشافعية، وبنى مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية.

وقد أغار صلاح الدين على بلاد الفرنج بنواحي عسقلان وغزة وقتل خلقاً كثيراً منهم، ثم تلقى أهله لدى قدومهم من الشام فاجتمع بذلك شمله بهم.

وفي هذه السنة قطع صلاح الدين الأذان بحي على خير العمل من سائر الديار المصرية، وذلك هو السداد والصواب، لما وردت به السنة الصحيحة في كيفية الأذان.

وفي هذه السنة شرع صلاح الدين الخطبة لبني العباس على المنابر، جنوحاً للسنة وأهلها، وتحريراً للناس من ربقة التشيع.

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة، وفي أول جمعة منها، توفي حاكم مصر العاضد، فأمر صلاح الدين بإقامة الخطبة لبني العباس في مصر

ونواحيها في الجمعة الثانية، وكان ذلك لدى الناس يوماً مشهوداً، ولما بلغ الخبر بذلك إلى الخليفة تزينت بغداد وفرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً، وقد كانت الخطبة لبني العباس قد قطعت من ديار مصر مدة مائتي سنة وثمانين سنة.

موت العاضد:

وهو عبدالله ويكنى أبا محمد بن يوسف، وقد عاش إحدى وعشرين سنة، وكان مذموم السيرة، كريه الذكر، وقد كان شيعياً حاقداً يكره أهل السنة من المسلمين.

ولما استقر الأمر لصلاح الدين وأمر بالخطبة لبني العباس، كان الخليفة حينئذٍ مريضاً مدنفاً، وعقب وفاته تولى ولده من بعده[1].

زوال دولة الفاطميين

مكث الفاطميون في حكم البلاد مدة مائتين وثمانين سنة، ثم زال سلطانهم وتبدد عزهم فباتوا أثراً بعد عين.

وكان أول ملوكهم المهدي، وكان في بادىء أمره حداداً واسمه عبيد وكان يهودياً، فدخل بلاد المغرب وتسمى بعبيدالله، ثم زعم أنه شريف علوي فاطمي، وقال عن نفسه إنه المهدي، فراج في الناس ما زعم، وشاع في البلاد ما تَقَوَّل، فصدقه كثير من الناس، ثم صارت له مكانة وصولة واستقر أمره فبنى مدينة سماها المهدية، نسبة إليه، وصار ملكاً مطاعاً وقد أظهر للناس ملة الروافض، والله يعلم ما تنطوي عليه نفسه من رغبة مكبوتة مكنونة مبيتة في تشويه العقيدة الإسلامية الصحيحة، ثم تعاقب الملوك من دولة الفاطميين، يعقب واحدهم الآخر حتى كان آخرهم العاضد عبدالله، فجميعهم بذلك أربعة عشر ملكاً، وكذلك كانت عدة خلفاء بني أمية وهي

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٢ ص٢١٢ ـ ٢٦٦، وسمط النجوم العوالي ج٤ ص٨ ـ ١٠.

أربعة عشر واحداً، أما مدتهم فكانت دون مدة الفاطميين، إذ كانت مدتهم نيفاً وثمانين سنة فقط.

وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وقد شاعت في دولتهم البدع ووجوه الضلال، فكثر في بلاد الشام النصرانية والدرزية، واستحوذ الفرنج على سواحل الشام كلها، فأخذوا القدس ونابلس وعجلون والغور وغزة وعسقلان والكرك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد وطرابلس وإنطاكية، وما تبع ذلك من البلدان، واستولوا كذلك على بلاد آمدي والرها وبلاد غيرها، ويضاف إلى ذلك سيرتهم الغاشمة في قتل المسلمين إذ قتلوا منهم خلقاً كثيراً، وسبوا نساءهم وذراريهم، وكانوا كذلك حتى أذن الله بسقوط دولتهم وفناء شوكتهم وأدال عليهم المسلمين من أهل السنة.

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة، تمالأت جماعة من رؤوس الدولة الفاطمية الذين كانوا إبان عهدها حكاماً وملوكاً، فاتفقوا ما بينهم على استعادة سلطان الدولة الفاطمية، فكتبوا إلى الفرنج يستنجدونهم لهذا الأمر، ثم عينوا خليفة من الفاطميين ووزيراً وأمراء، واغتنموا في ذلك غيبة السلطان في بلاد الكرك.

ثم بلغ السلطان صلاح الدين خبرهم، فاستدعاهم واحداً واحداً، فقررهم فأقروا بما تمالؤوا عليه فاعتقلهم، ثم استفتى فيهم الفقهاء فأفتوه بقتلهم، فأمر بقتلهم.

وفاة الملك العادل نور الدين زنكي:

وهو الملك العادل محمود بن زنكي بن آقسنقر التركي السلجوقي، ولد في حلب ونشأ في كفالة والده صاحب حلب والموصل وغيرهما من المدائن والبلدان الكثيرة، وقد تعلّم القرآن والفروسية والرمي، وكان رحمه الله شجاعاً مقداماً متديناً، ولما قتل أبوه ـ وكان يحاصر جعبر ـ صار الملك بحلب إلى ابنه هذا وهو نور الدين زنكي، وضمّ إليه أخوه

سيف الدين غازي مدينة الموصل، ثم تقدم بعد ذلك فافتتح دمشق فأحسن إلى أهلها وعمل لهم كثيراً من الإصلاحات والعمران كالمساجد والمدارس والربط والطرق، وكان حنفي المذهب، فكان يكرم العلماء ويفضلهم ويحسن إليهم، وكان يحب الفقراء ويحنو عليهم، وكان يساوي بين الناس في المعاملة والعدل سواء فيهم المسلمون وأهل الذمة.

وقد أظهر نور الدين السنة ببلاده وندد بالبدعة وحذر منها وأمر أن يؤذن المؤذنون بحي على الصلاة، حي على الفلاح، ولم يكن يؤذن بهما المؤذنون في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل، لأن شأن الرافضة كان ظاهراً في زمنهما.

وقد كسر الفرنج مرات عديدة واستنقذ منهم معاقل كثيرة من الحصون المنيعة التي كانوا قد استولوا عليها وانتزعوها من أيدي المسلمين.

وكان رحمه الله محافظاً على الصلوات في الجماعات، وكان محباً للخيرات، عفيف البطن والفرج مقتصداً في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس، وقد قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلا نفقة منه، وكان كثير الصمت وقوراً ولم يسمع منه كلمة فحش قط، وقد قيل: لم يكن بعد عمر بن عبدالعزيز مثل الملك نور الدين ولا أكثر تحرياً للعدل منه.

وقد توفي رحمه الله عن ثمان وخمسين سنة، وقد مكث منها في الحكم ثماني وعشرين سنة رحمه الله.

وفي سنة سبعين وخمسمائة، عزم السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب على الدخول إلى بلاد الشام لحفظها من الفرنج، لكنه قد شغله عن ذلك شاغل إذ بلغه أن الفرنج قدموا إلى الساحل المصري في أسطول عظيم لم يسمع بمثله، وكان قدومهم من صقلية إلى الإسكندرية، فنصبوا حول البلد المنجنيقات، لكن أهلها الأشاوس قد برزوا لهم فقاتلوهم قتالاً شديداً، وقد قتل من الفريقين كثيرون، ثم حمل عليهم المسلمون فقتلوا منهم جماعة وغنموا منهم أموالاً، فهزم الله الفرنج ولاذوا

بالفرار في كل وجه، وما كان لهم من ملجأ غير البحر أو القتل أو الأسر، فباؤوا بذلك بالتدمير وسوء العاقبة وتقطعوا في الأرض بدداً إلا من نجا منهم فركب في أسطول إلى بلادهم أذلة مفضوحين.

وبذلك استقر الحكم لآل زنكي في البلاد، فبرز السلطان الناصر صلاح الدين يوسف في الجيوش التركية سائراً نحو بلاد الشام، وذلك عقب موت سلطانها نور الدين محمود زنكي، فخاف سكانها وزعزعوا، واختلف فيها الحكام، وكان الملك الناصر صلاح الدين يروم من حملته هذه أن يجتمع شمل الناس وأن يكونوا في أمن وخير وصلاح، فضلاً عن قصده نصرة الإسلام وإظهار القرآن ودفع الأشرار من أولي العقائد الضالة والقلوب التي ران عليها الزيغ والمرض، فدخل مدينة دمشق من غير نزاع ولا مدافعة.

وبعد ذلك قام إلى حلب في همة وجد وخَبَب، فاجتاز حمص ثم سار إلى حماة فتسلمها من صاحبها.

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، سار السلطان الناصر صلاح الدين من مصر قاصداً غزو الفرنج فبلغ بلاد الرملة وغنم منها أشياء كثيرة حتى إن جيشه قد تشاغل بالغنائم وتفرقوا في القرى، وبقي هو في طائفة من الجيش منفرداً، فهجمت عليه الفرنج في جند كثيف فما نجا إلا برعاية الله وبعد جهد بالغ، ثم رجع إليه جيشه واجتمعوا إليه وخشي الناس أن يكون حاق بصلاح الدين مكروه، فلم يصدق أهل مصر حقيقة الأمر حتى رأوه رأي العين، فأيقنوا أنه ناج، فزُفَّت إلى الناس البشائر فرحاً بنجاة السلطان، ولم يقع مثل هذه الواقعة إلا بعد عشر سنين، يوم حطين.

وفي هذه السنة وقعت فتنة عظيمة بين اليهود وعامة الناس ببغداد، وسبب ذلك أن مؤذناً أذن عند كنيسة ليهود فنال منه بعضهم بكلام فاحش بذيء، فشتمهم المسلم، فاشتكى المؤذن منهم إلى ديوان الحاكم، فتفاقم الأمر واشتد الخصام بين العامة واليهود، فخرج عامة الناس إلى سوق اليهود ونهبوهم ولم يتمكن رجال الشرطة من ردهم، فأمر الخليفة بعقابهم لاعتدائهم على أهل الذمة في أموالهم.

وفي سنة أربع بعد الخمسمائة، جهز الناصر صلاح الدين ابن أخيه فروخ شاه بن شاهنشاه ليكون بين يديه في قتال الفرنج الذين عاثوا في نواحي دمشق فساداً، فنهبوا ما فيها، فلما رآه الفرنج عاجلوه بالقتال فهزمهم شر هزيمة وقتل صاحب الناصرة وهو من أكابر ملوك الفرنج.

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة، كانت وقعة مرج عيون، وقد استُهلت هذه السنة والسلطان صلاح الدين الناصر نازل بجيشه ببانياس، وهنالك قصده الفرنج بعساكرهم فنهض إليهم صلاح الدين، فالتقى الجمعان واقتتلوا فجعل الله الغلبة والظفر لعباده المسلمين جند صلاح الدين، فولى الكافرون الأدبار مهزومين مذعورين وقد قتل منهم كثيرون وأسر بعض ملوكهم، منهم صاحب الرملة وصاحب طبرية، وصاحب يافا وغيرهم.

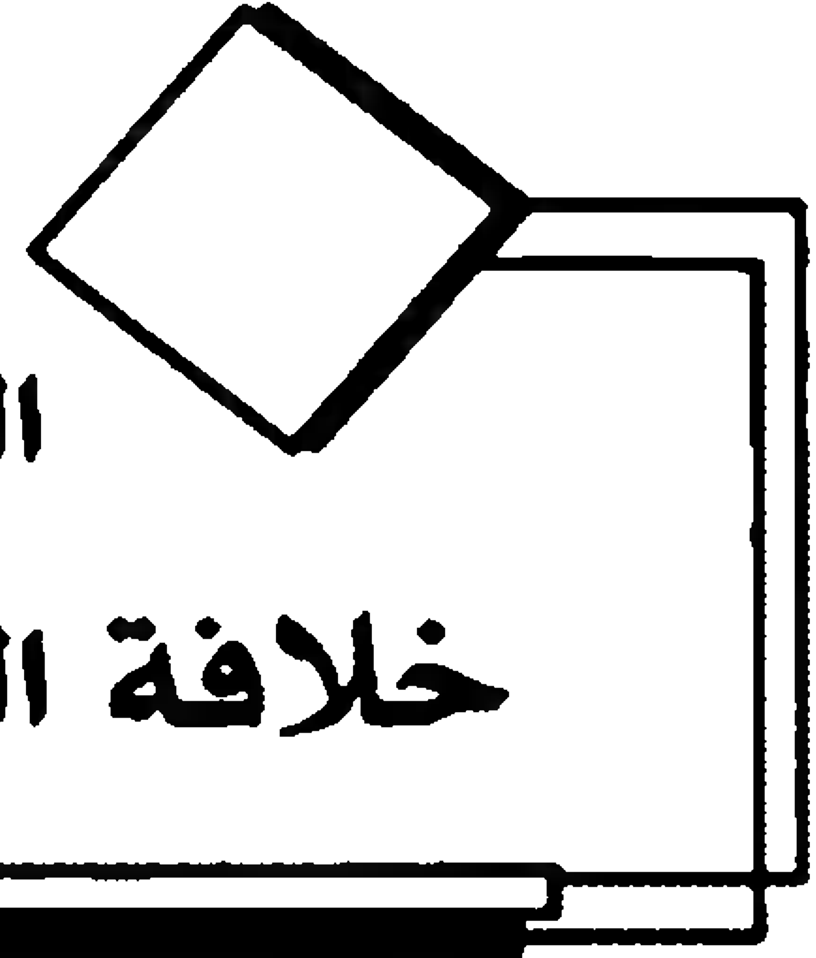
ثم ظهر أسطول المسلمين في البحر للفرنج فأسر المسلمون منهم كثيراً وعادوا بأسطولهم إلى الساحل ظافرين منصورين، ففرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً.

وفي هذه السنة ركب السلطان صلاح الدين إلى حصن الأحزان الذي بناه الفرنج قريباً من صفد فحفروا فيه بئراً وجعلوه لهم عيناً، فحاصره السلطان ونقبه من جميع الجوانب وألقى فيه النيران وغنم جميع ما فيه، فكان فيه مائة ألف قطعة من السلاح، وأخذ من الحصن كذلك كثيراً من الأسارى، ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً.

وفاة المستضيء بالله:

وفي هذه السنة كانت وفاة المستضيء بالله حيث مرض بالحمى مدة شهر فمات عن تسع وثلاثين سنة، وكانت مدة خلافته تسع سنين، وترك ولدين، أحدهما ولي عهده وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله، والآخر أبو منصور هاشم.





الفصل الثالث والثلاثون

خلافة الناصر لدين الله أبي العباس

وهو أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله، بايعه الأمراء والوزراء وخاصة الناس وعامتهم، وقد لقب بالناصر، وكان حليماً وقوراً كريماً، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مبطلاً للبدع، وقد أزال عن كاهل الناس المكوس[(١)] والضرائب، ولم يلِ الخلافة من بني العباس قبله أطول مدة منه، وذلك أنه مكث خليفة إلى سنة وفاته في ثلاث وعشرين وستمائة.

وفي سنة ست وسبعين وخمسمائة، هادن السلطان صلاح الدين الفرنج ثم سار إلى بلاد الروم وفتح بعض حصونها، وأخذ منها مغانم كثيرة ثم عاد مؤيداً مظفراً ودخل حماة فتلقاه الناس بالإكرام والاحترام.

وفي سنة تسع وسبعين وخمسمائة، خرج السلطان الناصر صلاح الدين من دمشق سائراً لقتال الفرنج قاصداً نحو بيت المقدس، فانتهى إلى بيسان ثم نزل على عين جالوت، فالتقوا مع جيش الفرنج فقتلوا من الفرنج خلقاً كثيراً وأسروا آخرين فرجع الفرنج صاغرين مقهورين.

وفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، مرض السلطان مرضاً شديداً وكان يتجلّد ويصابر ولا يُظهر شيئاً من الألم، وما فتىء المرض يشتد به

---

(١) المكوس: جمع، ومفرده: مكس، وهو الجباية، وغلب استعماله فيما يأخذه أعوان السلطان ظلماً عند البيع، انظر: المصباح المنير ج٢ ص٢٤٣.

حتى شاع ذلك في البلاد، وأرجف الكافرون والحاقدون المتربصون بموته، وأرسل إليه أخوه العادل من حلب بالطب والدواء فوجده في غاية الضعف، ثم نذر السلطان لئن شفاه الله من مرضه هذا ليصرفن جهده وهمه كله في قتال الفرنج فلا يقاتل بعد ذلك مسلماً وليجعل أكبر همه فتح بيت المقدس، وليقتل البرنس صاحب الكرك بيده، لأن هذا الخبيث نقض عهده مع المسلمين وتنقّص من قدر الرسول ﷺ، وذلك أنه أخذ قافلة ذاهبة من مصر إلى الشام، فأخذ أموالهم وضرب رقابهم وهو يقول في عتو لجوج: أين محمدكم؟ ادعوه ينصركم.

وبعد نذره هذا شفاه الله وعافاه من مرضه، وجاءت بذلك البشائر إلى الناس في كل البلاد ففرحوا بذلك بالغ الفرح.

وفي سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، هادن أمير طرابلس النصراني، السلطان وصالحه وصافاه، حتى كاد يقاتل ملوك الفرنج أشد القتال وسبى منهم النساء والصبيان، وكاد يسْلم لولا تشبث شديد بالسلطان حال دون إسلامه، لكن مصالحته كانت نعمة للمسلمين وسبباً من أسباب النصر لهم على الفرنج[1].

وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، كانت:

معركة حطين:

وهذه واحدة من كبريات المعارك في تاريخ الإسلام، بما كتب الله فيها من نصر ظاهر مؤزر لدينه ولعباده المسلمين المجاهدين المخلصين، لا جرم أن هذه المعركة الحامية العظيمة كانت إشارة مشبوبة تلوح منها بوادر الغلبة والنصر المبين للمسلمين، يقودهم صلاح الدين إلى فتح بيت المقدس، هذا المكان المبارك الطهور الذي دنّسته سنابك المشركين المضلين وهم يعيثون في أرض الإسلام تخريباً وإفساداً، ويشيعون في البلاد الشرور

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٢ ص٢٧٥ ـ ٢٣٠.

والمنكرات والمفاسد وكل ألوان الضلال والظلم والباطل.

جاء السلطان صلاح الدين بجحافل المسلمين وقد التف من حوله جميع العساكر والجيوش، فرتبهم أحسن ترتيب، ثم سار بهم قاصداً بلاد الساحل، وكان تعداد عساكره اثني عشر ألفاً غير المتطوعين، ولما تسامع الفرنج بقدوم صلاح الدين وعساكره، تصالحوا فيما بينهم واجتمعوا جميعاً ليكونوا جيشاً واحداً يواجه المسلمين، فجاؤوا للمواجهة بقضهم وقضيضهم وعظيم زحوفهم وكانوا ثلاثاً وستين ألفاً.

وقد خوّفهم صاحب طرابلس قومس من المسلمين، فانتهره صاحب الكرك البرنس، الحاقد اللدود، وقال له: لا أشك أنك تحب المسلمين وتخوفنا من كثرتهم، وسوف ترى غِبّ[1] ما أقول لك.

فتقدم الفرنج نحو المسلمين، وأقبل السلطان المظفر ففتح طبرية وحال بذلك بين الظالمين والماء فبلغ منهم العطش كل مبلغ، ثم برز السلطان إلى الغرب من طبرية بجانب قرية يقال لها: حطين، التي فيها قبر نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام، وجاء الظالمون يبتغون الشر والعدوان، وفيهم صاحب عكا وصاحب الناصرة وصاحب صور وغيرهم من ملوك الفرنج، فتواجه الجيشان، وتقابل الفريقان، فريق الحق والعدل والتوحيد، وفريق الشر والضلال والباطل، فريق الشيطان وأتباعه من جنود إبليس الذين يتيهون في الأرض غروراً وجهالة فيضلون البشرية ضلالاً، ويجنحون بها إلى وهدة الظلام الأسود حيث الكفر البواح واستحلال المعاصي والمنكرات وشيوع الفساد بكل صوره وأشكاله.

ولقد دارت دائرة التدمير والهوان على الظالمين المفسدين الذين جاسوا خلال ديار الإسلام ردحاً من الزمن بعد أن اقتتل الجمعان، وقد أمر السلطان المظفر رحمه الله بالتكبير والحملة الصادقة على المعتدين، فحملوا عليهم حملة قوية حتى كتب الله لهم النصر والغلبة، ومكّنهم من الكافرين الحاقدين

(١) الغب: العاقبة، انظر: مختار الصحاح ص٤٦٧.

الذين ولوا هاربين مخذولين خزايا، فقتل منهم المسلمون ثلاثين ألفاً في يوم واحد وهو يوم السبت، وأسروا منهم ثلاثين ألفاً، وقد وقع في الأسر جميع ملوكهم باستثناء قومس طرابلس الذي ولى هارباً في أول المعركة.

وبعد استقرار الأمر وهدوء العاصفة المضطرمة الداهمة ووضعت الحرب أوزارها، جيء بالأسارى وهم يجرجرون أذيال الهزيمة والافتضاح، ثم نودي أرياط صاحب الكرك، وهو ماكر غادر حافل الطوية بالحقد على الإسلام والمسلمين أكثر من غيره، وقد نال مرة من رسول الله ﷺ بالبذيء من القول الفاجر، فقتله السلطان، ولم يسلم من الأسارى إلا القليل، فلم ينج من الفرنج في هذه المعركة إلا القلة القليلة، وقد هرب أكثرهم جرحى فماتوا في بلادهم، وكذلك مات قومس طرابلس إذ انهزم جريحاً ثم مات بعد ذلك.

ثم سار السلطان إلى قلعة طبرية فاحتلها، وسار بعد ذلك إلى حطين فزار قبر شعيب عليه الصلاة والسلام، ثم غادر إلى إقليم الأردن فتسلم تلك البلاد بقراها الكبيرة والصغيرة، ثم توجه نحو عكا فافتتحها صلحاً، واستولى على ما كان فيها من خيرات كثيرة كانت للملوك الجبابرة والطواغيت الغِشام، وقد استنقذ من كان فيها من أسارى المسلمين وكانوا أربعة آلاف أسير، ثم أمر السلطان بإقامة الجمعة بها بعد غياب لشمس الإسلام عنها سبعين سنة.

ثم سار رحمه الله منها إلى صيدا وبيروت وما حولها من النواحي فكان يأخذها بلداً تلو الآخر لخلو تلك السواحل من مقاتلة الفرنج وملوكهم، ثم كرّ راجعاً إلى غزة وعسقلان وبيسان ونابلس وأراضي الغور فاحتل ذلك كله.

وبعد هذه الفتوحات المباركة والانتصارات المظفرة، أمر السلطان صلاح الدين جيوشه أن تأخذ لنفسها بقسط من الراحة في هذه البلاد، التي انقشع عنها غبار الكفر والكافرين وتبددت من أجوائها ظلمة الشرك والباطل وكل أشكال الضلال والعبودية لغير الله.

لقد أمر السلطان جيوشه أن يتهيأوا ويتجهزوا لفتح بيت المقدس، فشاع في الناس أن السلطان عازم على فتح بيت المقدس، فأقبل عليه العلماء والصالحون يعربون عن رغباتهم في مشاركة العساكر المجاهدين، والتفّ المسلمون حول السلطان يؤيدونه ويعززون مرامه في هذا الخطب المبارك الجلل، وحينئذٍ مضى السلطان العظيم المظفر يقود جيوش المسلمين لأداء هذه الوجيبة المقدسة الهائلة، وهي تحرير بيت المقدس من أيدي الصليبيين الذين جاسوا خلاله فدنسوه مدة ثنتين وتسعين سنة.

فتح بيت المقدس

سار السلطان صلاح الدين بجيوش المسلمين نحو بيت المقدس فوجد المدينة قد تحصنت غاية التحصين، إذ بلغت عدة الصليبيين من حولها ستين ألفاً أو أكثر، فقاتل الفرنج الصليبيون دون المدينة قتالاً شديداً، فاجتهد المسلمون في قتالهم والتنكيل بهم، ولما رأى الصليبيون استحرار القتال وأن المسلمين عاقدون العزم على احتلال المدينة المقدسة وأنهم لا طاقة لهم على الاحتمال أو التماسك أمام شجاعة المسلمين الذين يقبلون على القتال راغبين غير هيّابين، ولا وجلين، حينئذٍ جنحوا للملاينة والسلم وقصدوا إلى السلطان يرتجونه أن يعطيهم الأمان، فامتنع السلطان من ذلك وقال: لا أفتحها إلا عنوة، كما دخلتموها أنتم عنوة، ولا أترك بها أحداً من النصارى إلا قتلته كما قتلتم أنتم من كان بها من المسلمين، وبعد جدال شديد أجاب السلطان إلى الصلح فأعطاهم الأمان بعد أن ترققوا للسلطان وذلوا أمامه ذلاً عظيماً.

اول جمعة اقيمت ببيت المقدس في الدولة الصلاحية:

بعد أن تطهّر بيت المقدس من أقذار الصليبيين وما وضعوه فيه من صلبان ونواقيس وغير ذلك من أدناس الشرك، ودخله المسلمون فاتحين ظافرين بعون الله وتأييده، هنالك علا شأن الإسلام وشمخت راية التوحيد واستطارت عقيدة الحق والصدق والإيمان بالله الواحد الأحد، فنودي بالأذان

وقُرِىء القرآن، ولهجت ألسنة المؤمنين بذكر الرحمٰن ووحدانيته بعد أن انقشع ظلام الشرك والضلال، وغابت سحابة سوداء غشيت الأرض المقدسة ردحاً غير يسير من الزمن، فتنادى الناس للصلوات في حرم الله المقدس، ورقّت القلوب لذكر الله، واغرورقت الجفون بالمدامع من فرط الفرح الغامر وشدة الحبور الهامر، والحمد لله رب العالمين، قاصم العتاة المتجبرين، وناصر المؤمنين الصابرين المستضعفين.

حصار عكا من قبل الفرنج:

سارت الفرنج من مدينة صور إلى مدينة عكا، فأحاطوا بها وحاصروها حصاراً تاماً، فتحصن المسلمون بداخلها وأخذ للأمر كل حيطة، فلما بلغ السلطان خبرهم، سار إليهم من دمشق على عجل، فوجد الفرنج يحيطون بعكا إحاطة تامة، فظلّ يدافعهم ويتحرّش بهم حتى شقّ طريقاً يفضي إلى داخل المدينة مما مكّن المسلمين على إيصال ما يريدون من مال أو ميرة أو سلاح أو غير ذلك من صنوف الإمداد.

ثم تقدّم الفرنج في أربعين ألف مقاتل لمحاربة المسلمين ودفعهم دون المدينة، فاقتتل الفريقان فكانت الدائرة على الظالمين المعتدين إذ قتل منهم المسلمون سبعة آلاف قتيل أو أكثر.

ثم بعث السلطان إلى ملوك المسلمين وأمرائهم يستنجدهم ويطلب منهم الإمداد، وذلك لما أحس أن الفرنج يوشك أن يصلهم المدد عن طريق البحر، وكتب كذلك إلى الخليفة يستحثه ويحضه على الإمداد، فجاءه المدد جماعات وآحاداً، وقدم عليه خمسون قطعة في البحر من أسطول المسلمين بقيادة الأمير حسام الدين لؤلؤ، وقدم العادل في جيش من المصريين، فاضطرب الفرنج لذلك وحادت مراكبهم عن أسطول المسلمين، وذلك كله سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

ثم شاع بين المسلمين والفرنج أن ملك الألمان قدم بثلاثمائة ألف مقاتل من ناحية القسطنطينية قاصداً لأخذها وقتل من فيها من المسلمين

انتصاراً لبيت المقدس، وحينئذٍ فزع المسلمون واضطرب حالهم لولا لطف الله بهم فأهلك جند الألمان في الطرق بمختلف الأسباب من البرد والجوع وضلال الطريق.

أما السبب في خروج الفرنج من بلادهم ونفيرهم، أن جماعة من الرهبان والقسيسين الذين كانوا ببيت المقدس وغيره، ركبوا من مدينة صور في أربعة مراكب، وخرجوا يطوفون ببلدان النصارى، يحرضون الفرنج ويستحثونهم لقتال المسلمين وانتزاع بيت المقدس من أيديهم، وقد لفقوا لهم من مكذوب الأخبار ما راق لهم فصدقوه، إذ قالوا أن المسلمين صوروا صورة المسيح وصورة عربي آخر يضربه ويؤذيه، فإذا سألوهم من هذا الذي يضرب المسيح؟ قالوا: هذا نبي العرب يضربه وقد جرحه ومات، فكانوا بذلك يلجّون في البكاء والحزن، ومن أجل ذلك خرجوا للانتصار لدينهم ونبيهم فأقبلوا من كل حدب وصوب حتى النساء المخدرات والزناة والزانيات كلهم أقبلوا على لقاء المسلمين وقتالهم.

فأقبل الألمان في جموع كثيرة عدتها ثلاثمائة ألف مقاتل، وهم يبتغون قتل المسلمين وتخريب البلد وإشاعة الدمار والخراب والفوضى فيها، ومن نيتهم كذلك أخذ البلدان الإسلامية بلداً تلو الآخر حتى مكة والمدينة، وذلك زيادة في إذلال المسلمين والكيد لهم، لكن الله عز وعلا قد سلّم ودفع عن المؤمنين كل المكاره، فأهلك الله هؤلاء المعتدين المتعصبين المهاويس، فلم يصل منهم سوى ألف فارس، إذ تشتت جمعهم وتمزق شملهم بالخزي والهلكة والشنار.

وفي سنة سبع وثمانين وخمسمائة كان:

دخول الفرنج عكا:

أقبل الفرنج على عكا لانتزاعها من أيدي المسلمين قسراً، فحاصروها حصاراً شديداً وتمالؤوا عليها من كل جانب.

وقد قدم إليها ملك الإنكليز في جم غفير من العساكر الظالمة

قبّحهم الله فأحاطوا بالمدينة من كل مكان وهم يضربون أسوارها ومن بداخلها بالمجانيق ليلاً ونهاراً، فقتل من المسلمين خلق كثير، وأرسلوا إلى السلطان يقولون له: إما أن تنجدونا وتمدونا بمدد وإلا طلبنا من الفرنج الصلح والأمان، فشق ذلك على السلطان كثيراً لأنه كان قد استنفد ما حوله من سلاح إذ كان قد بعث إلى مدينة عكا أسلحة الشام والديار المصرية وسائر السواحل، وعند ذلك لم يجد السلطان بداً من الهجوم على العدو، لكن حال دون ذلك قلة جيشه وضعفهم وما أصاب الناس حينئذٍ من فزع وحيرة، ثم تمكن الفرنج من دخول البلد عقب حصار شديد، فأرسل أهلها إلى السلطان يعلمونه بما حلّ بالمدينة، فأرسل إليهم أن يبادروا الخروج من البلد فلا يبقى بها مسلم، ثم بعث السلطان إلى ملوك الفرنج يطلب منهم الأمان لأهل البلد على أن يطلق لهم الأسرى من الفرنج الذين تحت يده، فأبى الفرنج إلا أن يطلق لهم كل أسير تحت يده، ويطلق لهم جميع البلاد الساحلية التي أخذت منهم، وكذلك بيت المقدس، فأبى السلطان ذلك، ثم ازداد الضيق بالمسلمين باشتداد الحصار عليهم واستمرار الضرب فيهم بالمجانيق، والمسلمون صابرون مصابرون محتسبون مهما تكن النتيجة، وقد كتبوا إلى السلطان يقولون له: يا مولانا لا تخضع لهؤلاء الملاعين الذين قد أبوا عليك الإجابة إلى ما دعوتهم فينا، فإنا قد بايعنا الله على الجهاد حتى نُقتل عن آخرنا، وبالله المستعان.

ثم ما شعر الناس بعد ذلك إلا وأعلام الظالمين المعتدين ترتفع في المدينة، وصلبانهم ونيرانهم على أسوار البلد، وصاح الفرنج صيحة واحدة مما أفزع المسلمين وزاد من مصيبتهم وحزنهم، وقد غشيهم من الحيرة والاضطراب والبهت ما غشيهم.

فعاث الصليبيون في أرض المسلمين تقتيلاً وترويعاً، إذ قتلوا أكثر من بأيديهم من الأسارى.

وبذلك كانت مدة إقامة صلاح الدين على عكا صابراً مصابراً مرابطاً سبعة وثلاثين شهراً، وجملة من قتل من الفرنج خمسين ألفاً.

ثم سار الصليبيون بجموعهم الكثيرة إلى عسقلان، وكان السلطان بجيشه يرصد حركاتهم ويعارضهم من مكان إلى مكان، والمسلمون كذلك يتخطفونهم ويقتلونهم، ثم وقعت بين الجيشين حروب ومعارك متعددة، كانت الغلبة فيها للمسلمين فقتلوا من الفرنج الألوف بعد الألوف.

وفي سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، استقر صلاح الدين في القدس وقد أحاطها بسورها المنيع، إذ عمل في بنائه بنفسه والناس يعملون فيه اقتداء به، وكذلك الأمراء والعلماء، وكان الفرنج خارج المدينة المقدسة يتربصون بالمسلمين الدوائر دون أن يجترئوا على الاقتراب من البلد بالرغم من تصميمهم وعزمهم على الكيد للإسلام والمسلمين.

ثم أقبلت الفرنج بعساكرهم الكثيفة نحو القدس فبرز إليهم السلطان لقتالهم فانكفأوا خاسئين مدحورين.

أما ملك الإنجليز، وهو أكبر ملوك الفرنجة، فقد ظفر بكثير من فلول المسلمين فقتلهم وأسر منهم الباقين، ثم تهيأ بجنوده إلى المسير نحو القدس، فاستعد السلطان لذلك وأكمل السور ونصب المجانيق وأمر بتغوير المياه من حول القدس، ثم أحضر أمراءه ليستشيرهم فيما يفعله أمام الخطر الداهم المحدق، فأشار كل منهم برأيه، وهو ساكت واجم يفكر بنظره الثاقب ماذا يعمل، حتى إذا سكت القوم وقد غشيهم نوبة من الحيرة والاغتمام والفزع نهض السلطان يخاطبهم فقال: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم في ذممكم معلقة، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم، فإن وليتم والعياذ بالله، طوى البلادَ وأهلك العباد، وأخذ الأموال والأطفال والنساء، وعُبد الصليبُ في المساجد، وعُزل القرآن منها والصلاة، وكان ذلك كله في ذممكم، فأنتم الذين تصديتم لهذا كله، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم، والسلام.

فلما كان يوم الجمعة، حضر السلطان إلى صلاة الجمعة فقام عقب

الأذان فصلى بين الأذانين ركعتين، ثم سجد وابتهل إلى الله عسى أن يكشف عن المسلمين هذا البلاء.

ثم جاءت الأخبار بأن الفرنج مختلفون فيما بينهم وذلك ما بين الإنجليز والإفرنسيين، ثم اتفقوا فيما بعد على أمر وهو أن يحكّموا من أنفسهم عليهم ثلاثمائة إنسان، ثم قالوا: يكفي اثنا عشر فرداً، ثم قالوا: ثلاثة، فحكم هؤلاء عليهم بالرحيل، فلم يسعهم عندئذٍ إلا الموافقة والالتزام فتولوا مهزومين خائرين، فخذلهم الله وأعمى أبصارهم وطمس على قلوبهم وصدهم عن إفراز قلوبهم من سوء للإسلام والمسلمين[1].

وفاة السلطان صلاح الدين:

توفي السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن يوسف بن أيوب رحمه الله سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فقد استهلت هذه السنة والسلطان العظيم في سلامة الصحة والعافية، لكنه ما لبث بعد ذلك أن أصابته حمى، ثم تزايد به المرض واستمر، وجاءه الأطباء ليعاينوا ما به من مرض، لكنه اشتد به الحال ونكّل به الإيجاع والألم فاستدعى إليه الشيخ أبا جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده فيقرأ القرآن ويلقنه الشهادة إذا اشتد به الأمر.

ولما أذن الفجر، جاءه القاضي الفاضل فدخل عليه وهو في آخر رمق، فلما قرأ القارىء: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: الآية ١٢٩]، تبسم السلطان وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه سبحانه، ففاضت روحه المؤمنة الزكية لتلحق بركب الأبرار الأطهار، والصديقين الشهداء، وحسن أولئك رفيقاً.

مات هذا الصنديد المفضال الأشم بعد أن بدّد الله على يديه سلطان الظلم والباطل وهزم العتاة والظالمين، الذين غزوا المسلمين في عقر ديارهم

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٢ ص٣٢٠ ـ ٣٥٠.

فأبادوا منهم أمماً وجاسوا خلال ديارهم يقتلونهم تقتيلاً ويذلونهم إذلالاً، واشتد تشنيعهم وتفظيعهم في بيت المقدس، إذ قتلوا المسلمين في هذه البلاد القدسية المباركة كلهم فلم ينجُ منهم إلا قليل.

لقد كانت الدنيا من قدر الله المحتوم على ميعاد، يوم كتب الله للإسلام أن يشمخ عزه ويعظم شأنه، وللمسلمين أن يستتب مجدهم وسلطانهم على يدي هذا الملك الظافر الناصر صلاح الدين.

وفي هذا الحدث الهائل من تحرير بيت المقدس وتدمير الكفر والباطل، وإذلال المعتدين العتاة، خير موعظة تظل تراود أذهان المسلمين على مر الزمن لتذكرهم بما حاق بساحتهم في هذا الزمن المعاصر من اعتداءات الكافرين على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وقومياتهم، أولئك الذين تمالأوا على أمة الإسلام ليسوموهم الهوان والذل والتنكيل وليذيقوهم ألوان الإبادة والتشريد والقمع والاصطلام (الاستئصال)، كالذي حاق بالمسلمين من أهل فلسطين نتيجة لتمالؤ الظالمين المعتدين الذين اجتمعوا على تشريد المسلمين من فلسطين، فاضطروهم للخروج هرباً من التقتيل والإبادة ليقيموا فوق أرضهم المغتصبة كياناً ظالماً مشؤوماً ممسوخاً لأشتات اليهود، الذين جيء بهم إلى فلسطين وقد تحقق ذلك كله نتيجة للتعاون الوثيق والتمالؤ الخبيث الماكر الذي اجتمعت عليه محافل الصليبيين والصهيونيين والاستعماريين والماسون.

لقد تحقق لهؤلاء ما راموه من خطة ظالمة مشينة، فقامت دولة إسرائيل على أنقاض فلسطين التي جهد الظالمون الطغاة في محو هذا الاسم من الوجود، مع أن اسم فلسطين حقيقة موجودة منذ فجر التاريخ بشهادة العلماء والمؤرخين وأهل المعرفة والأثر في هذا الصدد، وتشهد بذلك التوراة نفسها، وذلك في الإصحاح الثالث من سفر يوئيل، وهو قوله: «وماذا أنتنَّ لي يا صور وصيدون وجميع دائرة فلسطين، هل تكافئونني عن العمل أم هل تصنعون بي شيئاً سريعاً بالعجل أرد عملكم على رؤوسكم لأنكم أخذتم فضتي وذهبي وأدخلتم نفائسي الجيدة إلى هياكلكم، وبعتم بني

يهوذا وبني أورشليم لبني الياوانيين»[1].

وإذا كان الأمر كذلك، وقد حلّ بالمسلمين ما حلّ من فظائع ونكبات ومن أبرزها نكبة المسلمين في اغتصاب فلسطين، فلا جرم أن يعيد التاريخ نفسه والمسلمون يعاودون الذكرى ليعاودوا الأمل والانتظار من جديد عسى الله أن يكفكف عنهم هذا الكابوس الظالم المنكود ويقشع عن سماء فلسطين وبيت المقدس ظلام الصهيونية الأسود، وقد هيأ لهم من أعاظم الرجال المسلمين، مقداماً مغواراً أشم يضطلع بتحقيق هذه الوجيبة الجليلة الكبرى.

إن هذه الحقيقة قائمة لا ريب فيها، وإن هذا المقصود المنشود آت لا محالة!

لقد توفي المرحوم العظيم عن سبع وخمسين سنة، فارتاع بذلك أهل دمشق وغشيهم من فظاعة الذهول ورجّة الخبر ما غشيهم، وأخذ الناس في العويل والانتحاب والاسترحام والابتهال لهذا المظفر الهصور.

ثم عمل عزاؤه في الجامع الأموي ثلاثة أيام فحضره عامة الناس وخاصتهم، وهاجت في رثائه والثناء عليه قرائح الشعراء.

رحم الله السلطان صلاح الدين وأفاض عليه بشآبيب من رضوانه، ورزق الله المسلمين في زمانهم العصيب هذا نظيراً لعظيمنا الفاتح المظفر، يجمع شمل الأمة فيكفكف عن قلوبها الشدة والغمة ويدفع عنها غائلة الشدائد والأرزاء التي جعلتهم بدداً ومزقتهم شر تمزيق.

وفي سنة خمسمائة وتسعين، تولى الأمر من بعد صلاح الدين ولده الأفضل نور الدين علي الذي بويع له حال مرض أبيه، فقدم العزيز صاحب مصر إلى دمشق ليأخذها من أخيه الأفضل فدافعه أخوه عنها فتنازع الاثنان واشتد الحال بينهما، فما زال الأمر على ذلك من الخلاف والنزاع بين الأخوين حتى قدم عمهما العادل فأصلح بينهما.

---

(١) كتاب العهد القديم والعهد الجديد ص١٣٠١.

وفي هذه السنة وقعت حرب عظيمة بين شهاب الدين ملك غزنة، وبين كفرة الهند الذين أقبلوا في جيوش كثيفة بلغ تعدادها المليون مقاتل، فالتقوا في معركة طاحنة لاهبة ضروس لا نظير لها، فهزمهم المسلمون بقيادة شهاب الدين وقتلوا ملكهم واستولوا على بلدهم.

وفاة ابن الشاطبي:

وفي هذه السنة توفي ابن الشاطبي، وهو أبو القاسم الشاطبي الضرير، مصنف الشاطبية في القراءات السبع، وبلده شاطبة، وهي قرية شرقي الأندلس، وقد زار ابن الشاطبي القدس ثم رجع إلى القاهرة وتوفي بها، وكان رحمه الله خاشعاً تقياً وقوراً.

وقعة الزلاقة بالأندلس:

وهذه وقعة عظيمة ببلاد الأندلس شمالي قرطبة بين المسلمين والفرنج، وقد كتب الله فيها النصر للإسلام، وخذلان الظالمين الفرنج، وكان سبب هذه المعركة أن ملك الفرنج ببلاد الأندلس واسمه القيش ومقر ملكه بمدينة طليطلة، قد كتب إلى ملك المغرب المسلم وهو يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن يدعوه للاستسلام والخنوع ثم يستدعيه إليه، إلى غير ذلك من كلام طويل فيه تأنيب وتهديد ووعيد شديد، فكتب السلطان يعقوب بن يوسف في كتابه هذه الآية: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: الآية ٣٧]، ثم نهض من فوره في عساكره المجاهدة للقاء الفرنج فهزم المسلمون في أول الأمر وقتل منهم عشرون ألفاً، ثم وقعت الدائرة على الفرنج الذين حاق بهم الخذلان وحلّت بهم الهزيمة الشنيعة، وقتل منهم مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً من المقاتلين، وأسر منهم ثلاثة عشر ألفاً وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً من الأموال والأنعام والسلاح، واحتلوا كثيراً من حصونهم.

وبعد ذلك عاود القيش التحضير والتجهيز لقتال المسلمين مرة أخرى للانتقام منهم، فطاف القيش على ملوك الفرنج فجمع من الجيوش والعساكر

ما لا يحصى فاستعد لهم المسلمون وتهيأوا لمناجزتهم ولقائهم، فالتقى الجمعان واقتتلوا قتالاً فظيعاً لا مثيل له، فهزم الله الفرنج أشنع هزيمة بل أفظع من هزيمتهم الأولى.

عدوان الفرنج على بيت المقدس:

وذلك سنة ستمائة من الهجرة النبوية، إذ جمع الفرنج جموعهم الكثيرة قاصدين أن يحتلوا بيت المقدس فينتزعوه من أيدي المسلمين، لكن الله الحافظ لدينه وللمسلمين قد شغلهم عن ذلك بقتال الروم، ذلك أنهم لدى مسيرهم نحو القسطنطينية وجدوا ملوكها الروم قد شاع فيهم النزاع والخلاف فكانوا مختلفين فيما بينهم، فاغتنم الفرنجة هذه الفرصة من الاختلاف بينهم فبادروا لحصار القسطنطينية، ثم فتحوها عنوة وأباحوها عدة أيام قتلاً وأسراً وأحرقوا أكثر من ربعها، فما بقي أحد من الروم حينئذٍ في تلك الديار إلا قتيلاً أو أسيراً أو مكبلاً، ثم أوى الذين نجوا منهم إلى الكنيسة العظمى في القسطنطينية واسمها ياصوفيا، مؤملين أن يجدوا فيها الحماية فلا يمسهم الفرنج بسوء وأن يكونوا في معبدهم آمنين سالمين، لكن الفرنج مضوا إليهم لقتلهم، فخرج إليهم القسيسون بالأناجيل يرققون بها قلوبهم ويتوسلون إليهم بها عسى أن يكفوا عن قتل هؤلاء الذين لجأوا إلى الكنيسة، لكن الفرنج لم يعبأوا بذلك ولم يكترثوا بتلطفهم وتوسلهم، بل بادروا سراعاً إلى قتلهم جميعاً، فلم يستبقوا منهم أحداً ثم انتهبوا كل ما وجدوه في الكنيسة من الحلي والذهب والأموال الكثيرة مما لا يحصى.

وكان ملوك الفرنج ثلاثة وهم: دوق البنادقة، وكان شيخاً أعمى يقاد له فرسه، ثم مركيس الإفرنسيس، ثم كندا بلند، وكان هذا أكثرهم نفيراً وعدة، فكانت القرعة من حظ هذا الأخير ثلاث مرات، فولوه ملك القسطنطينية، أما الملكان الآخران، فقد أخذا بعض البلاد، وبذلك تحول الملك بالقسطنطينية من الروم إلى الفرنج في هذه السنة، فلم يبقَ في أيدي الروم إلا القليل وهو ما وراء الخليج.

وبعد ذلك قصد الفرنج بلاد الشام وقد أحسوا بقوتهم عقب احتلالهم

القسطنطينية، فدخلوا عكا وأغاروا على كثير من بلاد المسلمين من جهة الغور، فقتلوا من المسلمين كثيراً وسبوا آخرين، فنهض إليهم الملك العادل وكان بدمشق، وقد استدعى إليه سائر الجيوش المصرية والشرقية، فناجزهم بالقرب من عكا واقتتلوا قتالاً شديداً، ثم وقع بين الفئتين صلح وهدنة.

وفي سنة إحدى وستمائة، عزل الخليفة الناصر ولده محمداً الملقب بالظاهر، عن ولاية العهد بعدما خُطب له سبع عشرة سنة، ثم ولى العهد ولده الآخر وهو علي، لكن علياً ما لبث أن مات، فعاد الأمر إلى الظاهر فبويع له بالخلافة من بعد أبيه الناصر.

وفي سنة ثنتين وستمائة، وقع قتال شديد بين شهاب الدين محمد بن سالم الغوري صاحب غزنة، وبين أصحاب الجبل الجودي وهم بنو بوكر الذين ارتدوا عن الإسلام، فقاتلهم صاحب غزنة وكسرهم فهزموا شر هزيمة، لكن بعض هؤلاء المرتدين قد تتبع صاحب غزنة حتى تمكن من قتله غيلة رحمه الله.

ولما قتل هذا المسلم المجاهد، كان في صحبته العلامة فخر الدين الرازي وقد كان جالساً للوعظ بحضرة السلطان وهو يعظه، وكان السلطان يبكي حين يقول الرازي في وعظه: يا سلطان، سلطانك لا يبقى، ولا يبقى الرازي أيضاً، وإن مردنا جميعاً إلى الله.

وفاة الأمير مجير الدين المستنجدي:

وفي هذه السنة، توفي من الأعيان الأمير المستنجدي، وهو أمير الحاج طاشتكين المستنجدي زعيم بلاد خوزستان، وكان شيخاً حسن السيرة كثير العبادة، مغالياً في التشيع، وقد توفي بتستر، فحمل تابوته إلى الكوفة، فدفن بمشهد علي مثلما وصّى.

وفاة الخاتون:

وماتت في هذه السنة الخاتون، وهي أم السلطان الملك عيسى بن

العادل، فدفنت بالقبة في المدرسة المعظمية من سفح قايسون.

وفي سنة ثلاث وستمائة، جرت في المشرق عدة حوادث.

منها: ما وقع من نزاعات بين الغورية والخوارزمية، والملك خوارزم شاه بن تكش ببلاد الطالقان.

ومنها: أن الخليفة قد قبض على عبدالسلام بن عبدالوهاب ابن الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وذلك بسبب فسقه وفجوره، وقد أحرقت كتبه وأمواله قبل ذلك لما فيها من كتب الفلاسفة، فأصبح بذلك يستعطي الناس، ولعل ذلك كان بخطيئته في قيامه على أبي الفرج بن الجوزي، فهو الذي كان قد وشى به إلى الوزير بن القصاب حتى أحرقت بعض كتب ابن الجوزي، ثم نفي إلى واسط حيث ظل قابعاً في منفاه خمس سنين.

ومنها أيضاً: نزول الفرنج حمص، حيث ناجزهم ملكها أسد الدين شيركوه وأعانه على ذلك الملك الظاهر صاحب حلب، فدفعهم الله ورد كيدهم في نحورهم.

وفي سنة أربع وستمائة، دخل خوارزم شاه محمد بن تكش بلاد ما وراء النهر، وذلك عقب حروب طويلة.

ومن عجيب ما حصل في خضم هاتيك الحروب، وقوع السلطان خوارزم في الأسر، إذ أسره العدو وهم لا يدرون أنه الملك، وانزعجت خراسان بغيابه بالغ الانزعاج وهم لا يدرون حقيقة أمره، بل ظنوا أنه في عداد القتلى، حتى إذا دنا الأسارى من مدينة خوارزم، خرج الملك إليها وقد كان في الأسر يتظاهر أمام الأعداء أنه غلام من الغلمان إذ كان يتزيى بزيهم الذي يشير إلى ضعفه وبساطته.

ولما رآه المسلمون مقبلاً إليهم فرحوا به أشد الفرح، ودقت البشائر في سائر المناحي ثم عاد الملك إلى أبهة الملك.

أما صاحب سمرقند الذي كان قد غدر بالمسلمين، وقتل كل من كان في أسره من الخوارزمية، فقد سار إليه خوارزم شاه في جند كثيف فنازله

وحاصر سمرقند، ثم أخذها قهراً وقتل من أهلها مائتي ألف، وقبض على الملك الغادر فقتله بين يديه صبراً.

وفي هذه السنة، اقتتل الخطا وملك التتار كشلي خان المتاخم حينئذٍ لمملكة الصين، فكتب ملك الخطا إلى خوارزم شاه يطلب منه المدد والنجدة على التتار، وكان مما قاله له في هذا الشأن: متى غلبونا خلصوا إلى بلادك.

وكذلك كتب إليه التتار يستنصرونه على الخطا ويقولون: هؤلاء أعداؤنا وأعداؤك، فكن معنا عليهم، فكتب خوارزم شاه لكل من الفريقين بما يطيب قلبه، ثم حضر القتال بينهم وهو مجانب للفئتين غير متحيز إلى واحدة منهما، فكانت الدائرة على الخطا، فقتل أكثرهم إذ لم ينج منهم إلا قليل.

وفاة الفخر الرازي:

وفي سنة ست وستمائة، كانت وفاة الفخر الرازي، وهو العلامة المتكلم صاحب التصانيف الكثيرة، وهو أحد فقهاء المذهب الشافعي المشاهير، وهو من أصحاب التصانيف الكبار والصغار، وقد بلغت مائتي مصنف، منها: التفسير الكبير، وهو حافل بعلوم اللغة والفقه والمعاني المختلفة، وله المحصول في أصول الفقه، وله مجلد في ترجمة الإمام الشافعي، وقد كان هذا الإمام الشهير معظماً عند ملوك خوارزم وغيرهم، وكان يحضر مجلس وعظه الملوك والوزراء والعلماء والأمراء والفقراء وغيرهم من عامة الناس.

وقد قيل: كان الرازي يعظ الناس، ثم ينال من فئة الكرامية وهم ينالون منه بالسب والطعن والتكفير بفعل الكبائر، وقيل: إنهم وضعوا من سقاه سماً فمات ففرحوا بموته.

وفي سنة أربع عشرة وستمائة، قدم السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش من همذان قاصداً إلى بغداد في أربعمائة ألف مقاتل أو

أكثر، فتهيأ له الخليفة، وأرسل السلطان إلى الخليفة يطلب منه أن يأتي إليه فيكون بين يديه وأن يخطب له في بغداد، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك، بل أرسل إليه الشيخ شهاب الدين السهروردي، فلما وصله وجد ما كان عليه من عظمة الملوك وأبّهة الملك، فسلّم عليه الشيخ فلم يرد عليه من فرط الكبر، بل لم يأذن له في الجلوس، فقام الشيخ إلى جانب السرير، فأخذ في خطبة مثيرة، ذكر فيها أمام السلطان وحاشيته وجنده، فضل بني العباس وشرفهم، وأورد حديثاً في النهي عن أذاهم، فردّ عليه السلطان قائلاً: أما ما ذكرت من فضل الخليفة فإنه كما تقول، ولكني إذا قدمت بغداد أقمت من يكون بهذه الصفة، وأما ما ذكرت من النهي عن أذاهم، فإني لم أوذِ منهم أحداً، ولكن الخليفة في سجونه منهم طائفة كثيرة يتناسلون في السجون، فهو الذي آذى بني العباس، ثم انصرف السهروردي راجعاً، وبعث الله على السلطان وعساكره جبالاً من الثلج فطمهم طماً، فعمهم البلاء وأصابهم من ذلك ما لا يحتملون، فانتكسوا راجعين خائبين.

وفي هذه السنة، توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب، فاحتل الفرنج دمياط، ثم ساروا إلى بلاد مصر، فقاتلهم الملك الكامل وحال دون بغيتهم، لكنهم تمكنوا من النفاذ إلى برج السلسلة، وهو مركز عظيم وهام، وأشبه بالقفل بالنسبة للديار المصرية، فشق ذلك على المسلمين، ولما بلغ خبر ذلك إلى الملك العادل، تأوّه لذلك تأوهاً شديداً وضرب بيده على صدره أسفاً وحزناً على المسلمين وبلادهم، ثم مرض من ساعته مرض الموت، فما لبث أن توفي رحمه الله.

ذلكم هو الملك سيف الدين أبو بكر بن أيوب شادي، كان من خيار الملوك وأحسنهم سيرة، فكان ذا صبر ووقار وديانة، فقد أبطل المحرمات والخمر والمعازف من سائر مملكته، التي كانت تمتد من أقصى بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة إلى همدان كلها، فقد حكمها بعد أخيه صلاح الدين باستثناء حلب.

ولما شاع الخبر عن موت العادل وقد وصل إلى ابنه الكامل وهو في

مواجهة الفرنج بثغر دمياط، اضطرب لذلك المسلمون، ثم دخل الفرنج إلى الديار المصرية بأمان وتمكنوا من بلدان المسلمين فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وعاثت الأعراب في أموال الناس ينهبونها، فخرج الكامل للقاء الفرنج ليصدهم ويمنعهم من دخول القاهرة، وكتب إلى المسلمين في كل البلدان يحرضهم على قتال الفرنج ويقول لهم: العجل، العجل، فأقبلت عساكر المسلمين من كل مكان لصد الفرنج وقتالهم(١).

جنكيزخان والتتار:

جنكيزخان التمرجي، هو أصل الدولة الجنكيزخانية والقائم بأمرها والناشر لذكرها، ويرجع إليه سائر ملوك هذه الدولة الذين استولوا على البلاد شرقاً وغرباً، فطغوا فيها وأكثروا فيها الفساد وتمكنوا من رقاب العباد، فامتد ملكهم من الصين إلى الفرات وما جاور ذلك من البلدان والأقطار والحصون.

أما نسبة جنكيزخان إلى التمرجي، فلأنه كان حداداً، والتمرجي بلغة التتار يعني الحداد، وقيل: بل نسبة إلى قبيلة تعرف بالتمرجي، وقد كانوا سكان البراري في بلاد الصين، وكلمة الخان بلغتهم تعني الملك(٢).

أما التتار فكان من أمرهم سنة ست عشرة وستمائة، أنهم عبروا نهر جيحون بقيادة ملكهم جنكيزخان، فسار إليهم خوارزم شاه بجنوده فاقتتلوا قتالاً شديداً مدة أربعة أيام، فقتل من الفريقين خلق كثير حتى أن الخيول كانت تنزلق في الدماء، فكانت عدة من قتل من المسلمين عشرين ألفاً، ومن التتار أضعاف ذلك، ثم تحاجز الفريقان وانقلب كل منهما إلى بلاده، ولجأ خوارزم شاه وأصحابه إلى بخارى وسمرقند فحصّنها تحصيناً مكيناً، ثم سار التتار إلى بخارى وكان فيها عشرون ألف مقاتل من المسلمين،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٣ ص٤ ـ ٨٢.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب تأليف: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ج٢٧ ص٣٠٠ ـ ٣٠٣.

فحاصرها جنكيزخان ثلاثة أيام، فطلب منه أهلها الأمان فاستجاب لهم، ثم دخلها فعامل الناس بالحسنى أول الأمر، وذلك على سبيل المكر والخديعة ريثما يستتب شأنه ويتمكن منهم، فما لبث بعد ذلك أن حاصر قلعة بخارى ثم فتحها قسراً بعد عشرة أيام بعد قتال محتدم مع حماتها المسلمين، فقتل جميع من فيها، ثم كرَّ إلى البلد نفسها فأباحها لجنده ونهب أموالها وقتل من أهلها خلقاً كثيراً لا يحصون لكثرتهم، وقد أسروا النساء والذرية وفعلوا في النساء من الفواحش ما يهزُّ المشاعر ويثير في القلوب المضاضة والإيلام.

ومن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل شهيداً فهو في رحمة الله، ومنهم من أسر فعذَّبه الظالمون أشد تعذيب، وقد كثر العويل ولا مغيث، ثم ألقت التتار النار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها فاحترقت حتى صارت الديار برمتها خاوية بلاقع، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي هذه السنة، خرَّب المعظم سور بيت المقدس خشية أن يستولي عليه الفرنج، وذلك بعد أن استشار المعظم الناس في ذلك، ذلك أن الفرنج إذا تمكنوا من سور القدس كان وسيلة لهم إلى احتلال الشام، فشرع في هدم السور، فولى الناس هاربين خوفاً من الفرنج أن يهجموهم ليلاً أو نهاراً، وقد تركوا أموالهم وبيوتهم وتمزقوا في البلاد أشتاتاً مبعثرين[1].

وفي هذه السنة استولى الفرنج على مدينة دمياط فدخلوها بالأمان ثم غدروا بأهلها وقتلوا من فيها من الرجال، وقد سبوا النساء والأطفال واعتدوا على شرف المسلمين في أعراض نسائهم الفضليات العفائف، وجعلوا جوامعهم كنائس، وذلك هو ديدن الظالمين إذا ما استحوذوا على بلد من

---

(١) ومثل هذه الحادثة من تولي الناس وهربهم، ما يذكرنا بما حلّ بأهل فلسطين عام ١٩٤٨م، وما حاق بهم من ترويع وتنكيل وتهجير، مما اضطر الناس المغلوبين المستضعفين إلى الهرب من ديارهم فهاموا على وجوههم حفاة عراة جياعاً مخلفين وراءهم البيوت والأموال والديار لينجوا بأنفسهم من تنكيل اليهود وفظائعهم.

بلدان المسلمين، فإنهم يسومونهم سوء العذاب يقتلون رجالهم وأطفالهم ويهتكون شرف نسائهم.

أولئك هم الحاقدون المتعصبون في كل زمان ـ على اختلاف مللهم ودياناتهم ـ من الصليبيين والوثنيين والإسرائيليين والمجوس.

من فظائع التتار في المسلمين:

وذلك سنة سبع عشرة وستمائة، إذ عمّ البلاء وطغت الخطوب والفظائع واستحرّت الأهوال والبلايا التي حاقت بالمسلمين على أيدي العتاة الطغاة من وحوش البشر الضواري، وحوش كواسر تبدو من ملامحها علائم البشر وتستكن في أطوائها طبائع الذئاب والكلاب، وكل ما حوى بين فكيه من أنياب تنهش لحوم البشر الآمن في غاية من النهم والشراسة والهمجية.

في هذه السنة استفحل أمر التتار عليهم لعائن الله، يقودهم الشقي الشرير جنكيزخان المسمى تموجين، قبّحه الله أيما تقبيحه، فعاثوا في البلاد إفساداً وتدميراً وتقتيلاً، وذلك من أقصى بلاد الصين حتى وصلوا بلاد العراق وما حولها، فملكوا خلال هذه السنة سائر الممالك إلا العراق والجزيرة والشام ومصر، وقهروا كل الطوائف التي كانت في تلك النواحي، كالخوارزمية والكرخ والخزر وغيرهم من مختلف الطوائف، وقتلوا من المسلمين في هذه السنة ما لا يحصى ولا يوصف.

وعلى العموم، فإن هؤلاء التتار بقيادة جنكيزخان تموجين لم يدخلوا بلداً إلا أبادوه إبادة، فقتلوا الرجال والذراري وسبوا النساء وهتكوا الأعراض، وحوّلوا البلاد إلى بلاقع ويباب بعد أن حرقوها تحريقاً، وأكثر ما كانوا يحرقون المساجد ويقتلون الأسارى.

وقد سرد ابن الأثير في تاريخه (الكامل) عن فظاعة هؤلاء المستوحشين الهمج، وشناعة أفاعيلهم في المسلمين ما يذهب بالعقول وتزيغ منه القلوب وتندكُّ منه الأعصاب والمشاعر أيّما اندكاك! فقال رحمه الله:

هذا فصل يتضمن ذكرى الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت

الليالي والأيام عن مثلها، عمّت الخلائق وخصّت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله آدم وإلى الآن لم يُبتلوا بمثلها لكان صادقاً!

فإن من أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعل بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى خراب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس بالنسبة، وما بنو إسرائيل بالنسبة لما قتلوا؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلائق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يُبقي على من اتبعه ويُهلك من خالفه، أما هؤلاء (التتار) فلم يُبقوا على أحد بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد أقبل جنكيزخان، فحاصر بخارى ثم افتتحها صلحاً وغدر بأهلها وقتلهم جميعاً وأخذ الأموال وسبى النساء والأطفال وخرَّب الدور والمحال، وكان بها عشرون ألف مقاتل فلم يغنِ ذلك عنهم شيئاً.

ثم سار إلى سمرقند، فحاصرها وبها خمسون ألف مقاتل من الجند فنكلوا بهم، وبرز إليهم سبعون ألفاً من العامة فقتلهم جميعاً في ساعة واحدة، وألقى إليه الخمسون ألف مسلم السلاح، فسلبهم سلاحهم وما يمتنعون به، ثم قتلهم في ذلك اليوم، واستباح البلد فقتل الجميع وأخذ الأموال وسبى الذرية وحرق الديار وتركها بلاقع، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

ثم سار التتار ـ قبّحهم الله وعليهم لعائنه إلى يوم الدين ـ إلى همذان فدخلوها ثم إلى زنجان فقتلوا أهلها وسبوا النساء والأولاد، ثم قصدوا قزوين فقتلوا من أهلها أربعين ألفاً!!

إلى غير ذلك من الأخبار الموثوقة عن شنائع التتار وفظائعهم في المسلمين، وما أحلوه بهم من الدمار والخراب وكل ألوان القمع والإبادة والتطهير العرقي.

ومن الحق أن نتصور هنا أن ذلك كله ما كان ليكون بمثل هاتيك

الفظائع النكراء والبلايا الشنيعة، لولا غفلة المسلمين وذهولهم عن دينهم، ولولا التلهي الذي انغمر فيه الأمراء والكبراء والخلفاء في تلك السنوات المتأخرة، فأوغلوا في الملذات والشهوات وتاهوا سادرين في متاهات اللهو واللعب والاسترخاء، فأنساهم الشيطان ذكر الله وأزاغ قلوبهم وعقولهم عن وجيبة الجهاد، وما يقتضيه ذلك من إعداد كبير وتجهيز أوفى واستعداد كامل للقاء الأعداء المتربصين بالمسلمين في كل زمان، فمن أجل هذا التفريط المستهجن الذي سقط فيه المسلمون في تلكم الفترة من الزمن، جوزي المسلمون المفرطون أشنع الجزاء من التقتيل والتنكيل والتعذيب والإبادة وتدنيس الحرمات والمقدسات.

وتلك هي حال المسلمين في كل زمان إذا ما غفلوا عن أمر الله وذهلوا عن دينه وما يقتضيه من الالتزام بواجباته، والانتهاء عن مناهيه، فأذعنوا لسطوة الشيطان عليهم وهو يغور بهم في أوكار الفتنة والضلال والنسيان إلا عمهم البلاء واجتاحتهم الأرزاء والمحن، وغشيتهم الأهوال والبلايا، ما بين ترويع وترهيب وتبديد وتهجير، حتى يفيئوا إلى أمر الله فيعاودوا الحساب مع أنفسهم فيبادروا الإقبال على منهج الله، المنهج القويم الحق، منهج الإسلام.

ومن فظائع هؤلاء المجرمين في هذه السنة العجيبة كذلك أنهم قصدوا مدينة إربيل ففزع الناس منهم وقالوا: هذا يوم عصيب، ومما زاد الطين بلة انشغال المسلمين في الديار المصرية بمواجهة الفرنج الذين احتلوا دمياط، فباتت مصر بذلك منهم في خطر داهم، فما استطاعوا بسبب ذلك أن يمدوا أهل إربيل بأي مدد.

ثم صرف الله التتار إلى ناحية همذان فصالحهم أهلها ثم نقضوا الصلح معهم وجاسوا خلالهم يقتلونهم قتلاً حتى أفنوا خضراءهم فاصطلموهم اصطلاماً.

ثم ساروا إلى أذربيجان، ففتحوا أردبيل ثم تبريز وهم والغون في دماء المسلمين وهتك أعراضهم وحرماتهم إذ كانوا يفجرون بالنساء ثم يقتلونهن ويشقون بطونهن عن الأجنة.

وكان جنكيزخان قد جهز جيشاً للمسير إلى خراسان، فصالحهم أهلها، وصالحوا غيرهم من المدن، ثم حاصروا قلعة الطالقان أربعة أشهر زيادة على حصارها من قبل ففتحوها قهراً وقتلوا كل من فيها وكل من في البلد بغير استثناء، ثم ساروا إلى مدينة مرو، فحاصروا أهلها خمسة أيام، ثم استنزلوهم خديعة ومكراً، فما لبثوا أن غدروا بهم فقتلوهم، حتى إنهم قتلوا منهم في يوم واحد، سبعمائة ألف إنسان، ثم ساروا إلى نيسابور، ففعلوا فيها من شنيع الأفاعيل كالذي أحلوه بأهل مرو من التقتيل والإبادة.

ثم ساروا بعد ذلك إلى غزنة، فقاتلهم جلال الدين بن خوارزم شاه، فهزمهم ثم عادوا إلى ملكهم جنكيزخان، فأرسل هذا الشيطان المقبوح - حاقت به لعائن الله - طائفة أخرى من عساكره إلى خوارزم، ففتحوها قهراً فقتلوا كل من فيها ونهبوا ما فيها نهباً، ثم عادوا إلى جنكيزخان، وكان محاصراً للطالقان، وهي ولاية تشتمل على عدة بلاد[١].

وقد وقع ذلك كله خلال هذه السنة الحافلة بالفظائع والأرزاء والبلايا، التي أفرزتها طبائع العتاة اللُّد من البشر المقبوح الذين أُشربت قلوبهم وأذهانهم طبائع الذئاب والكلاب من ذوات الأنياب، أو المماسيخ من القردة والخنازير!!

وفاة الإمام ابن قدامة:

وفي سنة عشرين وستمائة، توفي الإمام الشيخ ابن قدامة، وهو موفق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة، شيخ الإسلام وصاحب المصنف العظيم: «المغني» وهو إمام مقدسي، عالم بارع، عز في العلم نظيره في زمانه، وقد ولد هذا العالم الكبير الشهير في قرية جماعين سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، ثم قدم مع أهله إلى دمشق وقرأ القرآن وسمع الحديث، وقد رحل إلى العراق مرتين وتفقه ببغداد على مذهب الإمام أحمد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٣ ص٨٢ - ٩١، ونهاية الأرب للنويري ج٢٧ ص٣٠٦ - ٣٣٤.

فبذَّ أقرانه في المناظرات في مختلف العلوم من دين الإسلام، وكان رحمه الله عابداً زاهداً ورعاً متواضعاً، وكان ذا حياء وجود وخلق كريم، وكان ذا بهاء وسمت ناصع وضيء.

وكان للمرحوم رصيد عظيم من مذخور المصنفات في علوم الإسلام، منها أعظمها وأجلُّها كتابه الكبير «المغني في شرح مختصر الخرقي» في عدة مجلدات، ثم «الشافي» في مجلدين، و«الروضة في أصول الفقه» وغير ذلك من المصنفات الكثيرة المفيدة، وقد توفي يوم عيد الفطر من هذه السنة عن ثمانين سنة.

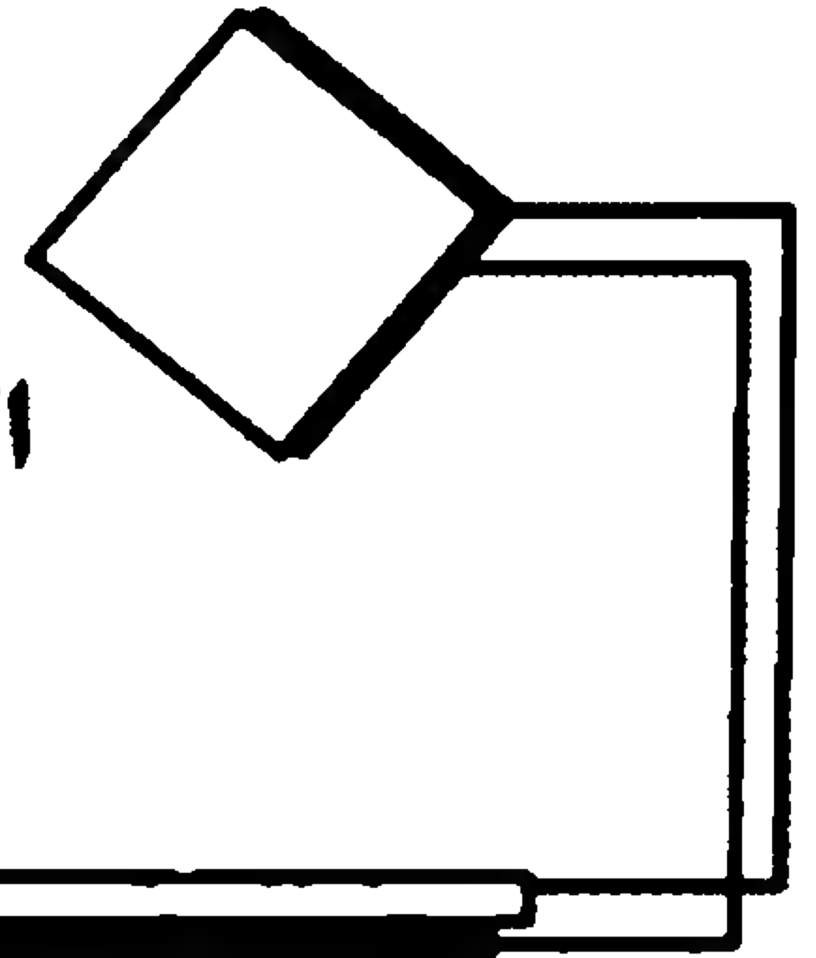
وفي سنة إحدى وعشرين وستمائة، بعث جنكيزخان مرة أخرى جيشاً إلى الري، فقتلوا أهلها، ثم ساروا إلى قُم ففعلوا بها من القتل والإبادة ما فعلوه بمن قبلها من بلدان المسلمين، ثم ساروا إلى همذان فقتلوا من فيها من الناس، ثم مضوا قاصدين الخوارزمية وأذربيجان فكسروهم وقتلوا منهم الكثير من الناس، فهربوا إلى تبريز فلحقوهم ليقضوا عليهم.

وفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة، طغى جلال الدين بن خوارزم شاه على بلاد أذربيجان وكثير من بلاد الكرج فكسرهم واستحوذ عليهم بالرغم من كثرتهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، ثم قويت شوكته واستفحل شأنه وفتح تفليس، فقتل منها عشرات الألوف من الناس، وقد أشغله ذلك عن مسيره إلى بغداد مما يكشف عن حقيقة أمره وأنه خارجي.

وفاة الخليفة الناصر لدين الله:

وفي هذه السنة كانت وفاة الخليفة الناصر لدين الله، وهو أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله، فقد بويع له بالخلافة بعد موت أبيه، ثم مات وكان عمره إذ ذاك تسعاً وستين سنة، وكانت مدة خلافته سبعاً وأربعين سنة، فلم يقم أحد من الخلفاء العباسيين قبله في الخلافة مثل هذه المدة.





الفصل الرابع والثلاثون

خلافة الظاهر

ولما توفي الناصر لدين الله، كان قد عهد إلى ابنه أبي نصر محمد ولقبه الظاهر، ثم ولي أمر الخلافة عقب وفاة أبيه وكان عمره حينئذٍ ثنتين وخمسين سنة، فلم يضطلع بأمر الخلافة من بني العباس من هو أكبر منه سناً، وكان رحمه الله ذا خلق ودين ووقار، وقد سار في الناس سيرة حسنة حتى قيل: لم يكن بعد عمر بن عبدالعزيز أعدل منه لو طالت مدته، لكنه لم يحل على خلافته حول بل كانت مدة خلافته تسعة أشهر فقط.



الفصل الخامس والثلاثون
خلافة المستنصر بالله العباسي

هو أمير المؤمنين أبو جعفر منصور بن الظاهر محمد بن الناصر أحمد، ولقبه المستنصر بالله، بويع بالخلافة عقب موت أبيه الظاهر، فبايعه خاصة الناس وعامتهم، وكان عمره يوم بويع بها خمساً وثلاثين سنة.

وكان رحمه الله حسن الصورة والسمت، بهي الطلعة والمنظر، وقد سلك في الناس كسيرة أبيه من حسن السيرة والتواضع وبذل الخير للناس وإكرام العلماء والرفق بالمحاويج والفقراء.

وفي سنة أربع وعشرين وستمائة، اعتدت الإسماعيلية على المسلمين، فقتلوا أميراً كبيراً من أمراء جلال الدين بن خوارزم شاه، فسار هذا إلى بلادهم فقتل منهم خلقاً كثيراً وخرب مدينتهم تخريباً وأخذ أموالهم.

والإسماعيلية طائفة مقبوحة من الناس كانوا بين ظهراني المسلمين، وكانوا أشد عداوة للمسلمين من التتار، إذ كانوا يمالئونهم على المسلمين ويحرضونهم على قتالهم بالرغم من تظاهرهم بالإسلام، واصطناعهم لأنفسهم أسماء كأسماء العرب والمسلمين يتسمون بها وهم ظالمون كاذبون مخادعون.

على أن الإسماعيلية، طائفة متفرعة عن الشيعة الإمامية التي تقول بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي ﷺ، نصاً ظاهراً وتعييناً صادقاً من غير تعريض بالوصف بل إشارة إليه بالعين، وقالوا: ما كان في الدين والإسلام

أمر أهم من تعيين الإمام[1].

أما الإسماعيلية، فإن من تصوراتهم الضالة أن الإمام بعد جعفر، هو إسماعيل نصاً عليه باتفاق من أولاده، إلا أنهم اختلفوا في موته في حال حياة أبيه، فمنهم من قال إنه لم يمت، بل إنه أظهر موته تقية من خلفاء العباسيين[2].

وفي هذه السنة، تناجز التتار وجلال الدين خوارزم شاه، فهزمهم جلال الدين وقتلهم مقتلة كبيرة وأسر منهم الكثير.

وفاة الطاغية جنكيزخان:

وفي هذه السنة، توفي اللعين الخاسر، والطاغوت المقبوح الفاجر جنكيزخان، وهو السلطان الأعظم عند التتار، وهو واضع سياستهم التي اتبعوها في حياته وبعد مماته، وأكثرها مخالف لشرائع الله وما أنزله على رسله من كتب.

وجنكيزخان مجهول النسب في الظاهر، ومن هرطقات أمه وضلالاتها أنها حملته من شعاع الشمس!

وذلكم بهتان كبير، وهذيان سفيه فاضح.

وكان اسمه في بادىء الأمر تمرجي وهو يعني حداداً، ثم لما عظم أمره واستطار شأنه في العتو والغرور والطغيان، سمى نفسه جنكيزخان، وقد اختاره الملك أزبك خان ليكون إلى جانبه لما أعجب به، فقربه إليه وأدناه، فحسده أمراء الملك ووشوا به إليه حتى أبغضه وكاد يقتله لولا أنه ولى هارباً، ثم استقر أمره بدولة واتبعه كثير من طوائف التتار، فقويت شوكته وكثرت جنوده وعظم أمره، فخضعت له قبائل الترك حتى صار يقود جيشاً تعداده ثمانمائة ألف مقاتل، وأكبر القبائل كانت قبيلته التي هو منها واسمها قيان.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص١٦٢.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ج٢ ص١٦٧.

ولما حضرته الوفاة طلب إخوته وأولاده وكتب لهم وصية وقال لهم: امتثلوها بعدي، وإذا أنا متُّ وجاء وقت الربيع تجمعوا كلكم وتعمل وليمة عظيمة ثم تقرأ هذه الوصية بحضوركم، ويُنصب في الملك من عينته فيها وامتثلوا أمره، ثم فرقهم في مشاتيهم التي قررها لهم، ففعلوا ذلك وامتثلوا أمره، ومات وله من الأولاد تسعة عشر ولداً، جميعهم من امرأة واحدة وهي تسوجي خاتون.

والثابت من الأدلة أن جنكيزخان كانت له زوجات كثيرات غير هذه[1].

القتال بين التتار وجلال الدين:

وقعت أول حرب بين السلطان جلال الدين وبين التتار سنة خمس وعشرين وستمائة بناحية أصفهان فهزمه التتار، ثم هزمهم مرة أخرى وقتل منهم مقتلة عظيمة، فلم ينج منهم إلا القليل، فأرسل جنكيزخان إلى جلال الدين من يقول له: إن هذه الطائفة التي قاتلتك ليست منا ـ وذلك على سبيل المماكرة والخداع ـ فأمن جلال الدين جانبهم عند ذلك ثم انقطعوا عنه ثلاث سنين، ثم وصلت طائفة من التتار من بلاد ما وراء النهر إلى تخوم أذربيجان، وكان سبب ذلك أن كبير الإسماعيلية كتب إلى التتار، فأخبرهم أن جلال الدين قد ضعف شأنه، وقد هزمه صاحب الروم وأنه مبغوض لدى من يجاوره من الملوك، فضمن الإسماعيلي الظفر لجنكيزخان تحريضاً له في قتال المسلمين، فبادرت طائفة من التتار ودخلوا البلاد واستولوا على الري وهمذان وما بينهما، ثم ساروا إلى أذربيجان وقتلوا من ظفروا به من أهلها، ولم يجرؤ جلال الدين على قتالهم لتفرق عساكره ومخالفة وزيره شرف الملك عليه، وبعد مقتل جلال الدين تمكن التتار من البلاد فدخلوها من غير جهد ولا مشقة.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٣ ص١٠٠ ـ ١٢١،، ونهاية الأرب للنويري ج٢٧ ص٣٣٤.

وفي سنة ست وعشرين وستمائة، كان بنو أيوب فيما بينهم مفترقين مختلفين، إذ صاروا فرقاً أشتاتاً، بعد أن انفرط فيهم رباط الوحدة والقوة والائتلاف، فدبّ فيهم دبيب الوهن وطغت عليهم الأثرة والجنوح للرياسة وحب الدنيا، وبذلك طمع فيهم الفرنج مغترين بكثرتهم بمن جاءهم من البحر، فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما كان صلاح الدين قد أخذه منهم، فاستجابوا لهم، ووقعت بينهم المصالحة على أن يردوا لهم بيت المقدس وحده وتبقى بأيدي الأيوبيين بقية البلاد، فتسلم الفرنج القدس الشريف، فعظم ذلك على المسلمين ووقع فيهم من ذلك جزع وإرجاف عظيمان، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي سنة إحدى وثلاثين وستمائة، اكتمل بناء المدرسة المستنصرية في بغداد، وهي مدرسة جامعة ليس لها في ذلك الزمان نظير، وقد وُقفت على المذاهب الأربعة من كل مذهب اثنان وستون فقيهاً وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث، وقارئان، وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام، وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة بما فيه الكفاية لكل واحد.

وقد جعل لتدريس الشافعية في المدرسة الإمام محيي الدين أبو عبدالله بن فضلان، وللحنفية الإمام رشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد الفرغاني، وللحنابلة الإمام العالم محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، ودرَّس للمالكية فيها العالم أبو الحسن المغربي المالكي.

وقد وُقفت للمدرسة خزائن كتب لم يسمع بمثلها من حيث كثرتها وجودة الكتب فيها في ذلك الزمان.

وفي سنة أربع وثلاثين وستمائة، كان أول دخول التتار إلى البلاد الرومية، وفيها حاصر التتار إربيل ثم فتحوها قهراً فقتلوا أهلها وسبوا ذراريهم، ثم جهز لهم الخليفة العباسي جيشاً فانهزموا إلى بلادهم، وقيل: لما دخل فصل الشتاء انشمر التتار راجعين خاسئين.

وفاة صاحب حمص:

وفي سنة سبع وثلاثين وستمائة، توفي صاحب حمص، وهو أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين بن شادي، تولى إمارة حمص من قِبل صلاح الدين، فمكث فيها سبعاً وخمسين سنة، وكان من أحسن الملوك سيرة وجهاداً وغيرة إذ طهّر بلاده من ظواهر المنكر.

وفي سنة ثمان وثلاثين وستمائة سلم أمير دمشق حصناً منيعاً من الحصون إلى حاكم صيدا الفرنجي، فشدد العلماء عليه النكير، وكان أشدهم إنكاراً لذلك الشيخ عز الدين بن عبدالسلام، والشيخ أبا عمرو بن الحاجب شيخ المالكية، فاعتقلهما أمير دمشق مدة ثم أطلقهما وألزمهما المكث في منازلهما.

وفي هذه السنة قدم رسول من ملك التتار ابن جنكيزخان إلى ملوك المسلمين يدعوهم إلى طاعته ويأمرهم ـ في وقاحة واستخفاف ـ بتخريب أسوار بلدانهم، وكان عنوان الكتاب: (من نائب رب السماء، ماسح وجه الأرمن ملك الشرق والغرب قان قان!!).

هلاك الزنديق محيي الدين بن عربي:

وفي هذه السنة توفي اللعين ابن عربي، وهو محمد بن علي بن محمد بن عربي أبو عبدالله الطائي الأندلسي، فقد طاف البلاد وأقام بمكة مدة من الزمن، ثم صنّف كتابه المسمى بالفتوحات المكية في عدة مجلدات، وفيها أخلاط من الحق والباطل، ومن الصواب والفساد، ومما يعقل ولا يعقل، وله كتاب غير ذلك سماه (فصوص الحكم) وقد حوى من الأحكام وأصناف الكلام ما يفضي بقائله إلى الكفر الصريح، ذلك أنه حشد من الهرطقات والأضاليل وما يتفجر به الفكر الجانح الشاطح من تصورات واهمة فاسدة لا تنم عن غير الحماقة وضلال الذهن المتخبط السقيم، وله مصنفات غير ذلك كثيرة.

وفاة الخليفة المستنصر بالله:

وفي سنة أربعين وستمائة، كانت وفاة الخليفة المستنصر بالله، فقد

توفي هذا الخليفة أمير المؤمنين عن إحدى وخمسين سنة، وكانت مدة ولايته ست عشرة سنة وعشرة أشهر ودفن بدار الخلافة.

وكان هذا الخليفة رحمه الله جواداً حليماً متودداً للناس، وكان كثير الصدقات والخيرات، محباً للإحسان للناس، وقد بنى في بغداد المدرسة المستنصرية للمذاهب الأربعة، فكانت هذه المدرسة مثاراً للجمال ببغداد وسائر البلاد.



الفصل السادس والثلاثون
خلافة المستعصم بالله

وهذا آخر خلفاء بني العباس في بغداد، وهو الخليفة الشهيد الذي قتله التتار بأمر من هولاكو ملك التتار ابن جنكيزخان.

ولما توفي أبوه المستنصر بالله، بويع بالخلافة ولقّب بالمستعصم، وكان عمره إذ ذاك ثلاثين سنة، وكان ذا فضائل وخلق حسن، فكان رحمه الله يتقن تلاوة القرآن حفظاً وتجويداً، وكان منيباً خاشعاً متديناً، وقد بايعه عامة أهله من بني العباس، ثم أعيان الدولة من أهل الحل والعقد، وكان ذلك يوماً مشهوداً وأمراً حميداً، شاع ذكره في الآفاق.

وفي سنة اثنتين وأربعين وستمائة، استوزر الخليفة المستعصم بالله، مؤيد الدين أبا طالب محمد بن أحمد بن علي بن محمد العلقمي المشؤوم، هذا المخادع الغادر الذي خان الخليفة أمير المؤمنين والمسلمين جميعاً، ذلك أنه هو الذي أعان هولاكو وجنوده المجرمين على المسلمين.

وفي هذه السنة، اقتتلت الخوارزمية والفرنج قتالاً شديداً، فاستحوذت عليهم الخوارزمية الذين قتلوا من الفرنج مقتلة عظيمة وكسروهم كسرة منكرة.

وفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وقعت حرب عظيمة بين جيش الخليفة وبين التتار قبّحهم الله وصبَّ عليهم لعائن تترا إلى يوم القيامة، فكسرهم المسلمون شر كسرة وقطعوهم بدداً ثم ولوا مدبرين هاربين.

وفي سنة خمس وأربعين وستمائة، عاد السلطان الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل من الشام إلى الديار المصرية، وفي طريقه عرّج ببيت المقدس لزيارته وأمر أن يعاد بناء سوره كما كان في أيام عم أبيه وهو الملك القائد المظفر فاتح القدس وقاهر الصليبيين، وأمر الجيوش بحصار الفرنج ففتحوا طبرية ثم عسقلان.

وفي سنة سبع وأربعين وستمائة، هجم الفرنج على دمياط، فهرب الناس والجند وطغى الفرنج على ثغر المدينة فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين، أما السلطان فقد ازداد به المرض فوق مرضه حتى توفي بالمنصورة، ثم أرسلوا إلى ابنه الملك توران شاه، فأقدموه سريعاً وذلك بطلب من أكابر الأمراء حتى إذا قدم عليهم بادروه بالمبايعة، حتى إذا تحقق ذلك قام في جيش الملك لقتال الفرنج فكسرهم أشد كسرة، وقتل منهم ثلاثين ألفاً، ثم قتلوه بعد شهرين من ملكه رحمه الله، إذ ضربه عز الدين أيبك التركماني فقطع بعض أصابعه فهرب ثم حاصره بعض الأمراء في مخبئه وقتلوه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقيل أنه في سنة ثمان وأربعين وستمائة، قاتل الملك توران شاه الفرنج في أول دمياط فكسرهم كسرة شنيعة وقتل منم ثلاثين ألفاً، وقيل: مائة ألف، وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً، وأمر الملك بقتل جماعة من أمراء الفرنج في الأسر لما كان منهم من شديد الحقد والعدوان على المسلمين، وكان فيمن قتل منهم ملك الفرنسيس وأخوه، وفرح المسلمون بذلك فرحاً كبيراً.

وفي هذه السنة كان:

ابتداء الدولة التركمانية:

وذلك بعد بني أيوب إذ تم تمليك الملك المعز عز الدين أيبك التركماني بمصر، وقد أجمع على سلطنته الأمراء من غير اختلاف فملكوه عليهم وبايعوه ولقبوه بالملك المعز، فكان هذا أول ملوك الأتراك بالديار

المصرية، وذلك سنة ثمان وأربعين وستمائة.

وبعد خمسة أيام من بلوغهم القاهرة أقاموا لهم صبياً من بني أيوب وهو في العاشرة من العمر وهو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر، يوسف بن المسعود بن الكامل بن العادل، ولم يعزلوا المعز عن السلطة بل كان أتابك العساكر، فخطب للاثنين على المنابر معاً، واستمر هذا شريكاً للملك الصبي إلى أن استقر أمره وقويت شوكته وصفا له الحال، فعزل الملك الصبي واستقل بنفسه في الملك إلى أن قتلته زوجته شجرة الدر، وذلك لما بلغها أنه يبغي أن يتزوج عليها، فمالأت على قتله جماعة من المماليك ثم قتلهم جميعاً، ثم تولى الملك من بعده ابنه:

الملك المنصور نور الدين علي:

فقد جلس هذا على كرسي الملك وعمره خمس عشرة سنة، وقام بتدبير الملك له الأمير علم الدين سنجر الحلبي، ثم طوّعت للملك نفسه مرة أن يثب على الأمير فيقتله فقبض عليه الأمير قطز الأيبكي، فوقع في أيامه حروب كثيرة مع المماليك الصالحية.

وفي سنة خمسين وستمائة، وصل التتار إلى الجزيرة وما حولها من البلدان فقتلوا ونهبوا وسبوا وخربوا كعادتهم في التخريب، وذلكم ديدن كل أمة لا تعصمها عقيدة سليمة قويمة، ولا يردعها دين رباني سليم مبرأ من التحريف والتزوير، أمة ضالة غاشمة، استفحل فيها العمه والهوس الغاشم، وغشيها من تبلد الضمير وموات القلب والوجدان ما أركسها إلى أسفل سافلين حتى تجردت من كل ظواهر الخير والرحمة، فانفلتت من غابات الوحوش الكواسر تقضم لحوم البشر وتمزّق أشلاء الأبرياء من الولدان والنساء، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي سنة إحدى وخمسين وستمائة، أصلح مبعوث الخليفة بين حاكم مصر وحاكم الشام وكذلك أصلح بين جيشي البلدين المسلمين، وكان هؤلاء قد وقع بينهم قتال، إذ مالأ جيش مصر الفرنج ووعدهم بتسليمهم بيت

المقدس، إذا ما ساعدوهم على قتال أهل الشام، فتمكن مبعوث الخليفة أن يصلح بين الجيشين، جوزي من الله خير الجزاء.

وهذه واحدة من السقطات المخجلة التي تتعثر فيها بعض النفوس إذا ما استحوذ عليها الهوى وفرط الحقد، وطغت عليها الأنانية والخنوع لشهوة الملك وحب الرياسة والظهور، وذلكم الهوى القاتل الذي حذّر الله من السقوط في مغبته: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ [النساء: الآية ١٣٥].

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة، وقعت فتنة كبيرة في بغداد بين الرافضة وأهل السنة، الذين نهبوا الكرخ وبيوت الروافض، وكذلك نهبوا الوزير ابن العلقمي ودور أهله وأقربائه، فكان ذلك سبباً مؤثراً دفع ابن العلقمي لممالأة التتار وإطلاعهم على أخبار المسلمين.

وفاة الملك المعز:

وفي هذه السنة توفي الملك المعز، وهو عز الدين أيبك التركماني، وهو أول ملوك الأتراك، وكان من أكبر مماليك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل.

وكان المعز ذا ديانة وصيانة وعفة، وقد مكث في الملك سبع سنين ثم قتلته زوجته شجرة الدر أم خليل، ثم خلفه من بعده في الملك ولده نور الدين علي، وقد لقب بالملك المنصور، وكان الذي يدير مملكته مملوك أبيه وهو سيف الدين قطز، فعزله واستقل وحده بالملك مدة سنة ولُقب بالمظفر، فكتب الله على يدي هذا المظفر هزيمة التتار في عين جالوت، وهو ما نبينه فيما هو آتٍ إن شاء الله.

وفاة شجرة الدر:

وقد مات في هذه السنة أيضاً شجرة الدر، وهي أم خليل التركية، كانت زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان ولدها منه خليل، وقد ملكت الديار المصرية بعد مقتل ابن زوجها المعظم توران شاه، فكان

يُخطب لها وتُضرب باسمها السكة حتى تملّك المعز، ثم تزوجها بعد سنوات من تملكه ديار مصر، ثم بلغها أنه يريد أن يتزوج عليها بنت أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ فطغت عليها الغيرة واستشاطت غضباً، فعملت على قتله فقتلته، فتمالأ عليها مماليك المعز فقتلوها وألقوها على مزبلة ثلاثة أيام، ثم نقلت إلى مدفنها بالقرب من السيدة نفيسة رحمها الله[1].

أصل التتار والمغول

أطلق لفظ التتار على جماعتين من قبائل التتار ورد ذكرها في نقوش الأرخون التركية التي ترجع إلى القرن الثامن الميلادي، وكذلك أطلق هذا الاسم على المغول عامة أو على فريق خاص منهم، وكان المغول في جميع فتوحاتهم سواء في بلاد الصين أم في بلاد المسلمين أم في غربي أوروبا ـ يسمون التتار ـ.

على أن اسم المغول إنما أطلق على تلك العشائر التي انضوت تحت سلطان واحد من زعمائهم كان يحمل هذا الاسم، ثم بسط هذا الزعيم سلطانه على سائر العشائر المتحالفة، فأطلق اسم المغول وكان ذلك في القرن العاشر الميلادي.

ثم نزحت طائفة من هؤلاء المغول إلى بعض بلاد آسيا الصغرى وكان أعقابهم الذين صاروا أتراكاً يسمون بالتتار السود، وقد عاشوا عيشة بدوية لدى حملات تيمورلنك على بلاد ما بين أماسيا وقيصرية، وكانوا نحواً من أربعين ألف أسرة وقد نفاهم تيمورلنك إلى أواسط آسيا.

ويرى بعض المؤرخين المسلمين أن التتار شعب كبير من الأمة التركية، ثم تفرّع من هذا الشعب أكثر بطونهم، وهذا الاسم مرادف للترك عند الفرنجة حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك تتاراً، ومنهم العثمانيون والتركمان.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٣ ص١٢٣ ـ ٢٠٠، وسمط النجوم العوالي ج٤ ص١٦، ونهاية الأرب للنويري ج٧ ص٣٤٨.

أما كلمة تتار على الخصوص، فهي إنما تطلق على شعب بعينه وهم سكان حوض نهر الفلجا الذي يعيش فيما بين قازان وأسترخان، وكذلك يطلق على سكان شبه جزيرة القرم، وجزء من سيبريا، وهم يتكلمون اللغة التركية القديمة، وقد استبدلت كلمة تتار بعد جنكيزخان في بلاد منغوليا، وأواسط آسيا بكلمة مُغُل.

على أن المغول والتتار كليهما من أتراك وسط آسيا، وكانا أبناء عمومة، وذلك كربيعة، ومضر في العرب، فالمغول ينسبون إلى مغل خان، والتتار ينسبون إلى أخيه تترخان، وقد وقعت عدة حروب بين أبناء العمومة، فيتغلب فيها أحدهما على الآخر فيسيطر عليه، وظلوا على هذه الحال حتى دبّ الخلاف بين ملكهم جنكيزخان، وبين خوارزم شاه، وكان جنكيزخان من المغول، فسار بجيشه الكثيف نحو بخارى وسمرقند، فدخلهما ونكل بأهلهما تنكيلاً ولم يستطع خوارزم شاه أن يتصدى له أو يوقفه، وفي عهد حفيده هولاكو، استولى المغول على بغداد عام ٦٥٦ هجري الموافق ١٢٥٨م، فقضوا على الخلافة العباسية ثم تقدموا نحو البلاد الإسلامية الأخرى حتى وصلوا الشام ثم قصدوا مصر فتصدى لهم ملكها سيف الدين قطز، الملك المظفر فقاتلهم في المعركة الفاصلة الحاسمة عين جالوت وهزمهم أشد هزيمة، وتمكن من ردهم على أعقابهم مهزومين مقهورين فلم يتمكنوا بذلك من دخول الهند، وعجزوا كذلك عن التقدم نحو مصر، فظلت الدولة الإسلامية في كل منهما قائمة تحت سلطان المماليك الذين صدوا غارات المغول وحالوا بينهم وبين دخول البلاد.

ولقد ظهر المغول في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وقد بدأ تاريخهم بقائدهم الفظيع جنكيزخان، وكل ما يمكن ذكره عن التاريخ الأول للمغول هو أنهم ظهروا في الجهات الشمالية من بلاد الصين، وكانوا ذوي صلة وثيقة من النسب بأصول الهون والترك، وكانوا قبائل من البدو الرحل يعيشون في الخيام ويأكلون لحوم الخيل وألبانها.

أما ديانة المغول الأولى فهي عبادة الكواكب، فكانوا يسجدون

للشمس، وكانوا يعبدون عدداً من الآلهة منها الحيوانات الشريرة التي كانوا يقدمون إليها القرابين والضحايا، وكانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يتخيلون أنها ذات سلطان عظيم على حياتهم.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي، كان العالم الإسلامي منقسماً على نفسه إلى دويلات كثيرة متنازعة فيما بينها، وكل دولة تبتغي التوسع على حساب الأخرى، ولم يطرق أذهانهم خطر المغول واحتمال مداهمته لهم إلا بعد أن أغارت جيوش المغول على الدولة الخوارزمية، ثم امتدت هذه الغارات حتى بلغت بلاد الصين وتركستان وجزءاً من الهند، وإيران وآسيا الصغرى وأوروبا الشرقية، كل ذلك والمسلمون حينئذٍ لاهون سادرون في غفلتهم وفي نزاعاتهم، وقد كان الواجب يقتضي أن يبادروا غير متوانين ولا مبطئين، لإقامة حلف إسلامي متراص متين يقف في وجه العدوان المغولي الداهم[١].

سقوط الدولة العباسية:

وهذه مصيبة قاصمة فادحة ألمّت بالمسلمين في سائر أنحاء الأرض، مصيبة شنيعة كبرى تأتي في ذروة الخطوب الفوادح والفظائع الكبريات، التي نزلت بساحة الإسلام والمسلمين فآلت بهم إلى الانهيار والتداعي وأدت بهم إلى الخسران والهوان.

لقد كابد المسلمون عقب انهيار العباسيين وسقوط دولتهم ألواناً من العذاب والتنكيل والتبديد والتفظيع، فطمع فيهم الحاقدون الظالمون المنتشرون في جنبات الأرض من الجاهليين الغاشمين اللُّد، الذين كانوا طيلة حياتهم وأوقاتهم يتربصون بالمسلمين الضعف والتداعي ليميلوا عليهم ميلة واحدة، فيصطلموهم اصطلاماً وليبددوهم تبديداً فيذروهم شذر مذر أو أشتاتاً من البشر المستضعف الواهي!

---

(١) تاريخ الإسلام ج٤ ص١٢٥ ـ ١٣٠ د. حسن إبراهيم، وتاريخ الإسلام في الهند تأليف: د. عبد المنعم النمر ص١٤٢.

ولقد كان ذلك كله!

لقد تحقق للظالمين على اختلاف مللهم ونحلهم ومشاربهم وأهوائهم ما يصبون إليه من تدمير دولة الإسلام والمسلمين، فكان سقوط الدولة العباسية إيذاناً بما سوف يتوالى على المسلمين من ويلات ومهانات ومكابدات يظلون يتجرعون مرارتها طيلة أيامهم، ما لم يفيئوا إلى الإسلام بكل تعاليمه التي تفرض عليهم التعاون والتلاحم والائتلاف، فيبادرون بعد ذلك في عجل لإعداد القوة بكل صورها وأشكالها كيما يرهبوا بها هؤلاء المجرمين المتوحشين.

وفي هذه السنة، دخل التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة قتلوه، فحسبنا الله ونعم الوكيل، وبذلك انقضت دولة بني العباس من بغداد.

وبيان ذلك أن التتار حشدوا جنودهم حتى نزلوا بغداد بقيادة الشيطان الأثيم هولاكوخان، وقد جاءهم مدد من صاحب الموصل لمساعدتهم على أهل بغداد، خشية على نفسه من التتار ومصانعة لهم، وذلك ضرب من ضروب الهوان والخور الذي لا ينبغي لأحد من المسلمين مهما تكن الأحوال والظروف من تراكم الأهوال والخطوب.

وقد أحاط التتار بدار الخلافة في جند كثيف بلغ تعداده مائتي ألف مقاتل، يقودهم هولاكوخان إلى بغداد، وقد أُشربت قلوبهم وعقولهم طبائع الوحوش الضواري، التي لا يعطفها لين أو رأفة أو خجل أو طبع سليم فُطر عليه الإنسان السليم، فأحاط هؤلاء ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وكانت جيوش الخليفة في بغداد في غاية القلة والذلة، إذ لا يبلغون عشرة آلاف فارس فضلاً عما كانوا عليه من الفقر وانقطاع الأعطيات وأسباب العيش حتى إن بعضهم قد استعطوا في الأسواق وأبواب المساجد! فأنى لجيش مضعضع مزعزع خائر كهذا، أن يثبت للقاء هؤلاء الماكرين الكاثرين الذين ملأت جموعهم مناحي بغداد وما حولها.

ولعل السبب الأكبر لمثل هذا العدوان الصارخ الحاشد، غدر الوزير

ابن العلقمي وخيانته وهو من الشيعة الروافض، فقد كان بين شيعته الروافض وأهل السنة حرب عظيمة نهب فيها المسلمون الكرخ ومحلات الروافض حتى نهبوا دور الأقارب للوزير، مما هيّج قلبه على أهل السنة وزاده حنقاً وضغينة عليهم، فبادر للكيد للإسلام والمسلمين، فكاد لهم أفظع الكيد، إذ مالأ التتار عليهم وحرضهم على قتالهم، فبرز الوزير ابن العلقمي بنفسه للتتار واصطحب في مسيرته الغادرة هذه أهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكوخان، ثم عاد إلى دار الخلافة ببغداد ليشير على الخليفة بالخروج إلى هولاكوخان والمثول بين يديه كيما تتم بينهما المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، فخرج الخليفة في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والأمراء وأعيان الدولة والصوفية، ولما دنوا من منزل السلطان الغاشم هولاكوخان، حيل بينهم وبين الدخول على هذا السلطان المقبوح باستثناء سبعة عشر نفساً وفيهم الخليفة العباسي، فخلص هؤلاء السبعة عشر، وأُنزل الباقون عن مراكبهم فقتلوا عن آخرهم، ثم جيء بالخليفة ليقف بين يدي هولاكو، فسأله عن أشياء كثيرة مما حمل الخليفة على الاضطراب في كلامه من فظاعة الإهانة والطغيان، اللذين قوبل بهما من الطاغوت الغشوم، ثم عاد الخليفة إلى بغداد وفي صحبته غادران ماكران وهما نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما من الرافضة، فأشار هؤلاء الملأ من الروافض وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وقال له الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسّنوا له قتل الخليفة.

فلما عاد الخليفة إلى هولاكوخان أمر بقتله.

وقيل: إن الذي أشار بقتله، الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان هذا قد استصحبه هولاكو في خدمته لما انتزع القلاع من أيدي الإسماعيلية، وكان هولاكو قد انتخب النصير ليكون في خدمته كالوزير ابن العلقمي الذي كان يشير عليه في مختلف الأمور.

ولما قدم هولاكو وتهيّب من قتل الخليفة، هوّن عليه وزيره ابن العلقمي قتله فقتله، إذ أمر جنده أن يقتلوه رفساً، وقيل: بل خنقوه خنقاً، وقيل: أغرقوه تغريقاً، فباء الغادرون المنافقون بإثم هذا الخليفة الشهيد وإثم من كان معه من العلماء والقضاة والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

ثم مالوا في وحشية فظيعة على المدينة، فقتلوا معظم أهلها من الرجال والنساء والولدان والشبان والشيوخ، وقد اختبأ كثير من الناس في الآبار والحشوش، وقنوات الأوساخ، وظلوا كامنين مستخفين لا يظهرون خوفاً على أنفسهم من التتار أن يبيدوهم أو يمزقوهم تمزيقاً، وكان بعض الناس يجتمعون في الخانات ثم يغلقون الأبواب على أنفسهم، حتى إذا علم بهم التتار، فتحوا الأبواب بالتكسير أو بالنار ثم يدخلون عليهم ليقتلوهم فيهربون منهم إلى سطوح المنازل، ثم يصعد إليهم التتار على الأسطحة فيقتلونهم تقتيلاً فيهريقون دماءهم حتى تجري دماؤهم من الميازيب في الأزقة، فحسبنا الله ونعم الوكيل!

وكذلك يلحق التتار المسلمين في المساجد فيحصدونهم بالسيوف حصداً، ولم ينج من شرهم وفظاعتهم غير أهل الذمة اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي، أولئك جميعاً مالأوا التتار وحرّضوهم على قتال المسلمين بل فرحوا لما حاق بالمسلمين من هزيمة وتدمير[1].

وبذلك آلت بغداد الآمنة المؤنسة إلى أطلال دوارس من ركام الحضارة الدائرة، بفعل الطواغيت الهمج من شرار البشر وأشقيائهم.

لقد تحولت بغداد العامرة إلى خراب ويباب، ليس فيها إلا القليل من الناس على تخوف شديد من الهمج الأشرار.

ومن المعلومات الممضة التي تحزُّ في النفس حزّاً وتؤز القلب

---

(١) العالم الإسلامي في العصر المغولي تأليف: برتولد شبولر ص٤٦، ٤٧.

والوجدان أزاً، أن الوزير ابن العلقمي كان يجتهد في تسريح الجيوش ويسقط أسماءهم من الديوان فلم يبق منهم إلا قلة من العساكر الذين يعجزون عن دفع العدوان، فقد كانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف مقاتل، فلم يزل ابن العلقمي يجتهد في تسريحهم وتقليلهم حتى لم يبقَ غير عشرة آلاف نسمة، فكتب ابن العلقمي إلى التتار وأطمعهم في غزو البلاد وأخذها، وسهّل عليهم ذلك، وذكر لهم حقيقة الحال من ضعف الرجال وقلة المال، وإنما كانت بغية هذا الرافضي الحاقد أن يزيل السنة لتظهر البدعة وعقيدة الروافض وأن يقيم من الفاطميين خليفة، لكن الله جل جلاله ردّ كيد المبتدعين الروافض في نحورهم فأظهر دينه الحق بظهور السنة، واعتزاز أهلها ودولتها على أيدي المؤمنين الصادقين من أبطال الإسلام وصناديده، بالرغم مما حاق بالمسلمين ببغداد وما حولها من إبادة وتدمير وتقتيل حتى بلغ عدد القتلى من المسلمين في بغداد على أيدي التتار، مليوناً من الناس، وقيل: مليونين، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وقد فعلت السيوف فعلها في رقاب المسلمين مدة أربعين يوماً، وقتل الظالمون الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين وكان عمره يومئذٍ ستاً وأربعين سنة وبضعة شهور، وكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة.

وقتل الظالمون أكابر الدولة وأعيانها وأمراءها واحداً بعد الآخر، وكان الرجل ينادى من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه فيذبح كما تذبح الشاة ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه، وقد قتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات في بغداد مدة شهور، وقد أراد الوزير ابن العلقمي تعطيل المساجد والمدارس في بغداد ثم يجتهد في ترسيخ المحال للروافض، وأن يبني لهم مدرسة عظيمة ينشرون بها علمهم، فلم يتحقق ذلك بل بدّد الله هذا الشقي الغادر فأماته بعد عدة شهور من هذه الفظائع.

قال ابن كثير في تاريخه في هذا الصدد من فظائع التتار ببغداد:

لما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر، فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودي في بغداد بالأمان فخرج الكامنون المختفون تحت الأرض وفي المقابر رحل السلطان الظلوم اللعين هولاكو عن بغداد إلى مقر ملكه، وفوّض أمر البلد إلى وزيره الذي لم يمهله الله بل أخذه الله عن ثلاث وستين سنة قضى شطراً منها في الرفض الخبيث الظالم، وفي التشيع الجانح عن جادة الإسلام[1].

نبذة عن الخليفة المستعصم بالله:

هو أمير المؤمنين أبو أحمد عبدالله بن المستنصر بالله وينتهي نسبه إلى عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم الهاشمي العباسي، وهو آخر خلفاء بني العباس بالعراق رحمه الله.

لقد كان رحمه الله من أهل السنة والجماعة كما كان أبوه وجده، فكان سليم العقيدة عابداً جواداً مكرماً لأهل العلم والعبادة، فكان بذلك جيد السيرة والسريرة لولا ما كان به من لين وجنوح للمال وحبه واستكثاره، وما كان ينبغي للذي يلي أمور المسلمين ويسوس العباد على منهج الله أن يشغل ذهنه وقلبه بالشهوات كجمع المال.

لقد طغى عليه الظالمون التتار فاضطهدوه وقتلوه وكان عمره يوم مقتله ستاً وأربعين سنة، وكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة، وقد قتل من بعده ولداه وأسر الثالث مع بنات ثلاث من صلبه، فظل منصب الخلافة من بعده

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٢ ص٢٠٠ ـ ٢٠٤، وسمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ج٤ ص١٦ ـ ١٧ تأليف: عبد الملك العاصمي.

شاغراً، فلم يبقَ في بني العباس من قام مقامه، فكان رحمه الله آخر الخلفاء من بني العباس كما فُتحوا بعبدالله السفاح الذي بويع له بالخلافة بعد انقضاء دولة بني أمية سنة ثنتين وثلاثين ومائة، وكانت مدة بني العباس في الخلافة خمسمائة وأربعاً وعشرين سنة.

ومما يجدر ذكره أن بني العباس لم تكن أيديهم منبسطة على جميع البلاد، مثلما كان بنو أمية الذين حكموا البلاد بحذافيرها ولم يخرج عن طاعتهم ونطاق حكمهم أيما بلد أو ناحية أو مصر من الأمصار، لكن بني العباس قد خرج عليهم كثيرون وانشقت عن دولتهم أشطار من الأقطار والأمصار، فقد خرجت عنهم بلاد المغرب إذ ملكها بعض بني أمية ممن بقي منهم من ذرية عبدالرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك.

وقد كان نديداً لدولة العباسيين دولة الفاطميين في الديار المصرية وبلاد الشام في بعض الأحيان، وكذلك بلاد خراسان وبلاد ما وراء النهر التي انتزعها من الدولة العباسية منشقون من بعض الملوك والدول، فلم يبقَ مع خليفة آخر دولة بني العباس سوى بغداد وبعض بلاد العراق، وليس لمثل هذا الضعف والاضطراب والتشرذم، من سبب إلا الإفراط في حب المنصاب، هذا الحب الجانح السقيم الذي يسوِّل للمتتيمين في الشهرة والظهور أن ينشقوا عن سلطان الدولة المسلمة الأم، وهن هيمنة الخلافة الإسلامية التي يندرج في ظلالها كل المسلمين في مختلف أقطارهم وأمصارهم.

ولا يقل عن هذا السبب في التتيم بحب الشهرة والجاه والظهور والمناصب، أسباب أخرى كحب الشهوات من المال والنساء، وهذه شهوات تأسر قلوب كثير من الناس فيسقطون في جحيمها فلا يخرجون إلا محترقين خاسرين.

أما دولة الفاطميين، فقد امتد زمانها قريباً من ثلاثمائة سنة، وكان آخرهم العاضد وكانت عدة ملوكهم أربعة عشر ملكاً.

هلاك الوزير ابن العلقمي:

وفي هذه السنة، مات الرافضي الخبيث ابن العلقمي، وهو محمد بن أحمد بن محمد بن علي، الوزير مؤيد الدين أبو طالب بن العلقمي، وزير الخليفة العباسي البغدادي المستعصم بالله، وقد كان وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلى المسلمين، وكان رافضياً متربصاً خبيث النية، حاقداً على الإسلام والمسلمين، مع أنه كانت له وجاهة وشهرة وعلو مكانة أيام مستوزره المستعصم، ما ليس لغيره، لكنه كانت تؤزه نفسه الغادرة للكيد للمسلمين وممالأة الكافرين عليهم، فمالأ عليهم المجرمين الظالمين التتار بقيادة الطاغوت الغشوم العُتُلّ هولاكوخان حاقت به لعائن الله في البرزخ ويوم يقوم الناس لرب العالمين.

لقد مالأهم هذا الغادر وحرّضهم على قتال المسلمين وتدمير أهل السنة، فوقع ما وقع من إبادة المسلمين وقتل الخليفة والقضاء على سلطان الإسلام بالكلية!

ثم كان الله لهذا الشقي الغادر بالمرصاد، فباء بعد ذلك بالمذلة والازدراء والتحقير على أيدي التتار الذين سخّروه لخدمتهم في خيانة المسلمين، ثم قلبوا له ظهر المجن فأهانوه وأذلوه وأنكروه، حتى ذاق الهوان ومرارة الخزي والافتضاح، فما كان له حينئذٍ من مناص إلا أن يعتزل الناس فيعكف بنفسه في داره وهو يكابد الذل والتعس واستسخار الناس له من حوله، فظل على حاله من الخزي والعار وهو يرى بعينيه من إهانة التتار والمسلمين ما لا يوصف، فما لبث أن مات لفرط الكمد والإحساس بالهوان، وكان عمره حين وفاته ثلاثاً وستين سنة، ثم دفن في قبور الروافض.

وفي سنة سبع وخمسين وستمائة، لم يكن إذ ذاك للمسلمين خليفة، وكان سلطان دمشق وحلب هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن أبي الظاهر بن الناصر صلاح الدين الأيوبي.

وفي هذه السنة قدم القاضي الوزير كمال الدين إلى الديار المصرية

رسولاً من صاحب دمشق، الناصر بن العزيز يستنجد المصريين على قتال التتار وأنهم قد اقترب قدومهم إلى الشام وقد استولوا على بلاد الجزيرة وغيرها، وقد تجاوز أشموط بن هولاكوخان الفرات ودنا من حلب.

وفي هذه الحال من اشتداد الخطر واقتراب الأعداء من حلب، اجتمع القادة والأمراء فعقدوا مجلساً وناقشوا الأمر الداهم وتشاوروا فيما يتعلق بأخذ شيء من أموال العامة لمساعدة العساكر، فكان التعويل في ذلك على ما قاله في المجلس الشيخ عز الدين بن عبدالسلام، وكان جملة قوله في ذلك هو: إذا لم يبقَ في بيت المال شيء ثم أنفقتم أموال النساء من الذهب والفضة والزينة وتساويتم أنتم والعامة في الملابس سوى آلات الحرب بحيث لم يبقَ للجندي غير فرسه التي يركبها، ساغ حينئذٍ للحاكم أن يأخذ شيئاً من أموال الناس لدفع الأعداء عنهم، لأنه إذا دهم العدو البلاد وجب على الناس كافة دفعهم بأموالهم وأنفسهم.

ولاية المظفر قطز:

لما ملك هولاكو حلب والشام وقصد مصر، وبلغ ذلك الأمير قطز، وكان هذا قد استتب حكمه في الديار المصرية، كلمه الناس في السلطنة للقيام بملاقاة التتار، فجمع القضاة والأمراء وأعيان الدولة، فأجمعوا كلهم على خلع الملك المنصور من السلطنة لصغر سنه وعدم اقتداره على دفع العدو، فتم خلعه، وتسلطن قطز، وأودع الملك المنصور السجن فبقي فيه حتى مات، وكانت مدة خلافته سنتين وسبعة أشهر.

وفي سنة ثمان وخمسين وستمائة، تواترت الأخبار بأن التتار قد قصدوا بلاد الشام إذ دخل جيش المغول بقيادة ملكهم هولاكوخان حتى جاوزوا الفرات على جسور قد بنوها فوق النهر، فوصلوا إلى حلب ثم افتتحوها بالأمان بعد حصار دام سبعة أيام ثم غدروا بأهلها، وقتلوا منهم خلقاً عظيماً لا يعلمهم إلا الله، فضلاً عن نهب الأموال وسبي النساء والأطفال ففعلوا فيهم مثل الذي فعلوه ببغداد من التقتيل والتفظيع والترويع.

أما دمشق فقد دخلوها من غير ممانعة، وقد كتب هولاكو أماناً لأهل البلد فقرىء على الملأ في الميدان ثم نودي به في البلد، فأمن الناس من الغدر والمكر كما وقع في أهل حلب، فما لبث التتار أن غدروا ونكثوا أمانهم فنزلوا بساحة المسلمين يقتلونهم ويسبونهم، وعاثوا في ديارهم يخربون ويفسدون.

وكان المجرمون الظالمون يعظمون النصارى فاجتمع هولاكو بأساقفتهم وقسوسهم فعظّمهم تعظيماً، وزار كنائسهم فصارت لهم صولة وجولة، وذهب فريق من النصارى إلى هولاكو يملون له التحف والهدايا فيأتون من عنده وقد أعطاهم الأمان، وكانوا من سوء مقاصدهم يحملون الصليب على أعين المسلمين وهم ينادون في استفزاز واضطغان ووقاحة ويقولون: ظهر الدين الصحيح، دين المسيح، ويذمون دين الإسلام وأهله وهم يحملون أواني فيها خمر فلا يمرون بمسجد إلا رشوه بالخمر، وكذلك يرشون بها وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كل من يجدونه في الأسواق والأزقة أن ينهض قائماً لصليبهم، إلى غير ذلك من ضروب الإذلال والمهانة التي أصابت المسلمين في هذه الفترة من الزمن على أيدي التتار وغيرهم، من أصناف الكافرين والمنافقين الذين لا يبتغون للإسلام والمسلمين غير الهوان والهلكة والتدمير.

معركة عين جالوت:

وهذه واحدة من كبريات الوقائع والأحداث، التي خاض فيها المسلمون حرباً ضروساً مع الظالمين المعتدين، وكانت الغلبة فيها والنصر المؤزر الأكبر للإسلام والمسلمين.

وقد اتفق وقوع هذه المعركة الفاصلة الكبرى في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك من هذه السنة وهي ثمان وخمسون وستمائة، فما أن استطارت أخبار النصر وذاعت بشائر الظفر المبين في عين جالوت حتى شاع الفرح في المسلمين وعمّهم الرضى والحبور.

وحقيقة الأمر أن المظفر قطز لما بلغه ما كان من أمر التتار بالشام، وأنهم عازمون على الدخول إلى الديار المصرية بادرهم بالمسير إليهم،

فخرج إليهم في عساكر المسلمين وقد التف الناس من حوله مجتمعين مؤتلفين، حتى انتهى إلى الشام فلقيه جيش المغول وقائدهم كتبغانوين، فأشار عليه جنده أن يستنجد بهولاكو، فأبى إلا أن يناجزه سريعاً، فساروا إليه ولقيهم المظفر على عين جالوت يوم الجمعة في الخامس والعشرين من رمضان، فاقتتلوا قتالاً عظيماً، وكانت الغلبة بعون الله وتوفيقه للمسلمين، إذ كتب لهم النصر العظيم على جحافل الكيد والظلم والهمجية، فهزمهم المسلمون أشد هزيمة وقتلوا أمير المغول كتبغانوين وآخرين من أهله، ثم اتبعهم المسلمون يقتلونهم ويجهزون على الأسارى الذين بين أيديهم، فاستطارت البشارة بنصر الله وفرح المسلمون بما منّ الله عليهم به من الغلبة والتمكين والظهور، فتم بذلك تأييد الله للإسلام وأهله، وأذل الله الكفر والكافرين وأخزى المنافقين والذين على شاكلتهم في الكيد والمماكرة والتربص بالمسلمين، كاليهود والنصارى الذين كانوا يظهرون الشماتة بالمسلمين كلما نزلت بهم مصيبة أو هزيمة أو لأواء.

وبعد هزيمة التتار بعين جالوت، تبعهم الملك الظافر قطز حتى دخل دمشق في أبهة عظيمة فاغتبط بقدومه المسلمون وغشيهم من فضل الله شآبيب من الفرح الغامر، ثم أقر قطز صاحب حمص في إمارتها، وكذلك صاحب حماه، واسترد حلب من ربقة هولاكو.

ثم وقعت الوحشة بين قطز وبيبرس، لأن قطز وعده ولاية حلب إذا ما طرد منها التتار، فلما طردهم منها استناب عليها غيره وهو صاحب الموصل، وبذلك أخلفه ما وعده به، فساق وراءه جماعة من الأمراء قد اتفقوا على قتله، وقتلوه رحمه الله فاستتب الأمر بذلك لبيبرس.

سلطنة الملك الظاهر بيبرس:

قلنا إن الأمراء قد عدوا على السلطان الملك المظفر قطز وقتلوه، وقد كان رجلاً صالحاً عابداً لا يتعاطى المحرمات، وكانت مدة ملكه سنة، رحمه الله وجزاه عن دين الإسلام خير الجزاء.

ولعل ما قدّمه الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري من جليل الأعمال

والصنائع في إعلاء شأن الإسلام، وتبديد الكفر وأهله كالتتار، ما يشفع له عند ربه ويمحو عنه مثل هذه الخطيئة وهي اتفاقه مع جماعة من الأمراء على قتل القائد العظيم قطز.

ولما قتل قطز، حار الأمراء فيمن يولونه من بعده ملكاً، فاتفقت كلمتهم عقب جدال وتشاور على مبايعة بيبرس البندقداري، فجلس على سرير الملك، وقد لقبوه الملك الظاهر، فساس الناس بالحق والعدل، وكان المسلمون أشد ما يكونون في حاجة لمثله لشهامته وشجاعته وعظيم بأسه في وجه العدو المتربص.

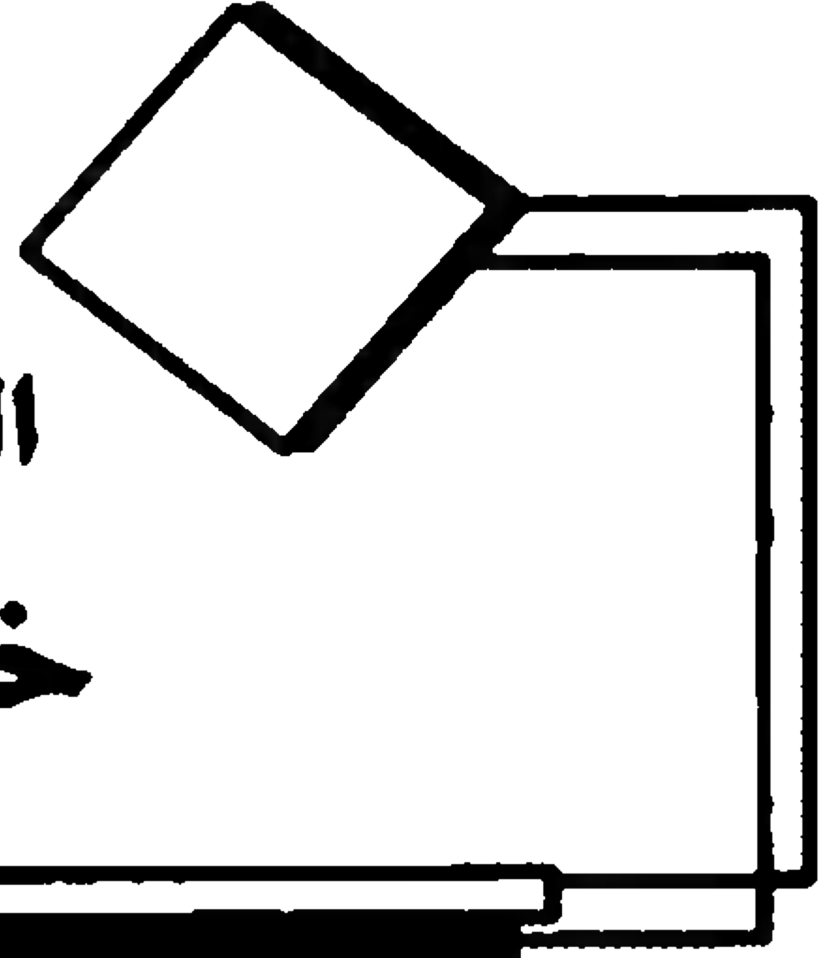
ولما علم هولاكوخان ما حلّ بجنوده من هزيمة شنيعة على أيدي المسلمين في عين جالوت، أرسل جنداً من جيشه ليستعيدوا الشام من أيدي المسلمين، لكنهم قد رُدوا على أعقابهم مهزومين مقهورين، إذ نهض إليهم ذلكم البطل المغوار والفارس الظاهر الهصور، فأرسل عساكره في كل الجهات لحفظ الثغور ومعاقل المسلمين، فلم يجرؤ التتار على الدنو من المسلمين، وبذلك حيل بينهم وبين ما يرومون فعادوا خزايا مفضوحين.

وفي هذه السنة وهي ثمان وخمسون وستمائة، هلك كتبغانوين نائب هولاكو على بلاد الشام، ونوين يعني أمير عشرة آلاف، وكان هذا الماكر اللعين قد فتح لأستاذه هولاكو من أقصى بلاد العجم إلى الشام، وقد أدرك جنكيزخان جد هولاكو[1].

وفي سنة تسع وخمسين وستمائة، أغار التتار على حلب فتصدى لهم صاحبها حسام الدين العزيزي، والمنصور صاحب حماه، والأشرف صاحب حمص، وكان موقع القتال شمال حمص، بالقرب من قبر خالد بن الوليد، وكان التتار في ستة آلاف مقاتل، أما المسلمون فكانوا في ألف وأربعمائة فأذاق الله الظالمين المعتدين لباس الهزيمة والمذلة والخزي، فقتل المسلمون أكثرهم.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٣ ص٢٠٤ ـ ٢٢٦، وسمط النجوم العوالي ج٤ ص١٧ - ١٩، وتاريخ ابن خلدون ج٥ ص٤٣٨.



الفصل السابع والثلاثون
خلافة المستنصر بالله

هو أبو القسام أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر، وقد بويع بالخلافة في مصر، إذ بايعه الملك الظاهر والقاضي والوزير والأمراء، وهذا الخليفة هو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس، فبينه وبين العباس أربعة وعشرون أباً، وقد خُطب له على المنابر وضُرب اسمه على السكة[1]، وكان منصب الخلافة شاغراً منذ ثلاث سنين ونصف، لأن المستعصم قتل في أول سنة ست وخمسين وستمائة، وبويع من بعده المستنصر هذا سنة تسع وخمسين وستمائة.

وفي سنة ستين وستمائة، وفي أوائل هذه السنة قتل الخليفة المستنصر بالله الذي بويع بالخلافة في السنة الفائتة، وقد قتل في أرض العراق بعد أن هُزم ومن معه من الجنود.

وفي سنة إحدى وستين وستمائة، كان سلطان البلاد في الشام والديار المصرية هو الظاهر بيبرس، ولم يكن حينئذٍ للناس خليفة بل كانت السكة تضرب باسم المستنصر الذي قتل، وفي هذه السنة كانت خلافة الحاكم بأمر الله.



(١) سكة الدراهم: هي المنقوشة، انظر: مختار الصحاح ص٣٠٧.

الفصل الثامن والثلاثون
خلافة الحاكم بأمر الله أبي العباس

بويع له بالخلافة في هذه السنة، وكان أول من بايعه الظاهر بيبرس، ثم بايعه الناس من بعده، وكان يوم مبايعته حافلاً ومشهوداً، وفي يوم الجمعة من بعد مبايعته، خطب هذا الخليفة بالناس خطبة بليغة مؤثرة حافلة، فكان مما قاله فيها: الحمد لله الذي أقام لآل العباس ركناً ظهيراً، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً، أحمد الله على السراء والضراء، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء، وأستنصره على دفع الأعداء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله.

أيها الناس، اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب الجرائم، فلو شاهدتم أعداء الإسلام لما دخلوا دار السلام واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والأطفال وسبوا الصبيان والبنات، وهتكوا حُرُم الخلافة والحريم، وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم الطويل، فكم من شيخ خُضبت شيبته بدمائه، وكم من طفل بكى فلم يُرحم لبكائه، فشمروا عباد الله عن ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد واتقوا الله ما استطعتم، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا، ولا يروعكم ما جرى، فالحرب سجال، والعاقبة للمتقين، والدهر يومان والأجر للمؤمنين، جمع الله على الهدى

أمركم، وأستغفر الله لي ولسائر المسلمين[1].

وفي سنة ثلاث وستين وستمائة، جهز الملك الظاهر جيشاً كثيفاً وسار به إلى ناحية الفرات لطرد التتار الذين دخلوا البيرة، فما أن رآهم الفرنج حتى ولوا مدبرين، فأمنت تلك البلاد بعد أن شاع فيها الخوف والفوضى والفساد.

وفي هذه السنة، سار الملك الظاهر في عساكره إلى بلاد الساحل لقتال الفرنج، ففتح قيسارية وغيرها من البلدان وقتل من بها من الفرنج، ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً.

ثم ورد من المغرب خبر بانتصار المسلمين على الفرنج وأنهم قتلوا منهم خمسة وأربعين ألفاً وأسروا عشرة آلاف، واستردوا منهم ثنتين وأربعين بلدة منها: إشبيلية، وقرطبة، وغيرهما من المدن.

هلاك هولاكو:

وفي هذه السنة كان هلاك هولاكو سلطان التتار المشؤوم اللعين، إذ ضربه الله بمرض الصرع حتى أفضى إلى جهنم وبئس المصير، وكانت مدة ملكه منذ فتح بغداد سبع سنين، وقد قتل هذا المقبوح من المسلمين شرقاً وغرباً ما لا يعلم عددهم إلا الله.

ثم اجتمعت التتار على ولده أبغا.

وفي هذه السنة، أناط الملك الظاهر أمر السلطنة بولده الملك محمد بركة خان، وأخذ له البيعة من الأمراء.

ثم سار السلطان في عساكره نحو الشام، فلما دخل دمشق جاءته مكاتبات من أبغا ملك التتار، ومن جملة ذلك: «إنك أنت مملوك فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض؟ واعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت مني، فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٣ ص٢٣٥ ـ ٢٣٨.

أبغا»، فلم يعبأ السلطان بتوقُّح هذا اللئيم المماكر، وقال لرسل أبغا: اعلموا أني من ورائه بالمطالبة ولا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض.

وفي سنة تسع وستين وستمائة، سار السلطان في طائفة من العسكر إلى عسقلان قادماً من مصر لهدم ما تبقى من سور عسقلان، فبلغه هنالك هزيمة أبغا ففرح بذلك ثم عاد إلى القاهرة، وفي هذه السنة دارت حروب طويلة بين الفرنج وأهل تونس، ثم تصالحوا بعد ذلك على وضع الحرب.

وفي هذه السنة، أمر السلطان بإراقة الخمور من سائر بلاد المسلمين وتوعد من يعصرها أو يعتصرها بالقتل، وكان ذلك في القاهرة وحدها ثم سارت لذلك الرسل إلى الآفاق.

وفي سنة سبعين وستمائة، اتفق أن كان خليفة الوقت الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسي، وسلطان الإسلام الملك الظاهر.

وفي هذه السنة، سار السلطان بالعساكر المصرية إلى دمشق، ثم اجتاز بهم إلى حماة، ثم سار إلى حلب، وكان سبب ذلك أن الروم قد جمعوا نحو عشرة آلاف مقاتل، فوقعوا على طائفة من التركمان قريباً من اللاذقية وأبادوهم، ولما سمع التتار بوصول السلطان وعساكره نكصوا على أعقابهم مهزومين.

وفاة الشيخ علي البكاء:

وفي هذه السنة مات من الأعيان الشيخ علي البكّاء وهو صاحب الزاوية من مدينة خليل الرحمٰن عليه الصلاة والسلام، كان من أهل الصلاح والعبادة والسخاء، فكان يطعم من يمر به من المسافرين والزوار، وكان الملك قلاوون يثني عليه ويقول: اجتمعت به وهو أمير وأنه قد كاشفه في أشياء وقد تحققت جميعها، ومن جملة ذلك أنه سيكون ملكاً، وقد كان.

وكان رحمه الله كثير البكاء من خشية الله ومن فرط الخشوع والذكرى فسمي البكاء.

وفي سنة إحدى وسبعين وستمائة، وصل السلطان الظاهر إلى دمشق قادماً من السواحل، ثم سار إلى القاهرة، فأقام بها سنة ثم عاد إلى دمشق.

وفيها وصل السلطان في جيشه إلى الفرات لمناجزة التتار، إذ بلغه أنهم هنالك، فقاتلهم السلطان،وقد قتل منهم مقتلة عظيمة، وكان أول من اقتحم الفرات يومئذٍ الأمير سيف الدين قلاوون، ثم توجه السلطان بعد ذلك إلى ناحية البيرة، إذ كانت محاصرة من التتار، فما أن سمعوا بقدوم السلطان نحوهم ولوا هاربين تاركين وراءهم أموالهم وأثقالهم، ثم دخل السلطان إلى البيرة ظاهراً ظافراً بعون الله وتأييده، ثم عاد بعد ذلك إلى دمشق، ثم كرّ راجعاً عقب ذلك إلى مصر.

وفي سنة أربع وسبعين وستمائة، نزل التتار على البيرة في ثلاثين ألفاً من المقاتلين، وهم خمسة عشر ألفاً من المغول، وخمسة عشر ألفاً من الروم، فنصبوا عليها ثلاثة وعشرين منجنيقاً، فما لبث أهل البيرة أن خرجوا إليهم ليلاً وفجأوهم وأحرقوا المنجنيقات، ثم رجعوا سالمين غانمين بعد أن باءت التتار بالهزيمة والخسران.

وفي سنة خمس وسبعين وستمائة، فتح المسلمون قيسارية، فقد ركب السلطان في عساكر المسلمين قاصداً قيسارية فقابلهم جيش من التتار في أحد عشر ألف مقاتل، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً، وقد صبر المسلمون صبراً عظيماً وأحاطوا بالتتار من كل جانب فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ثم لاذ الباقون بالفرار فزعين مذعورين، ثم دخل السلطان قيسارية ظاهراً منصوراً فشاعت البشائر في الآفاق وفرح المسلمون بنصر الله فرحاً عظيماً[(1)].

وفاة الملك الظاهر بيبرس:

وفي سنة ست وسبعين وستمائة، توفي الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وهو صاحب الديار المصرية والشامية والحلبية وغير ذلك من

(1) البداية والنهاية لابن كثير ج١٣ ص٢٤٨ ـ ٣٧٣، ونهاية الأرب ج٢٧ ص٣٩٣ ـ ٣٩٧.

البلدان، وقد أقام ولده ناصر الدين أبا المعالي محمد بن بركة خان.

وفاة الإمام النووي:

وفي هذه السنة كذلك، توفي الشيخ العلامة محيي الدين النووي إمام المذهب الشافعي في زمانه.

وفاة الملك القاهر بهاء الدين:

وفيها توفي الملك القاهر بهاء الدين عبدالملك بن السلطان عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب عن أربع وستين سنة، وكان رحمه الله شجاعاً مقداماً شديد التواضع، وقد قيل: إنه مات بالسم.

وفي سنة ثمان وسبعين وستمائة، اتفق أن وقعت أحداث من الخُلْف بين مختلف الممالك، فقد اختلفت التتار فيما بينهم، إذ اقتتلوا فقتل منهم خلق كثير، واختلفت الفرنج فاقتتلوا وقتل بعضهم بعضاً في السواحل، وكذلك الفرنج الذين في جُزُر البحار فقد اقتتلوا، وكذلك الأعراب، عدا بعضهم على بعض فقتل بعضهم بعضاً، وكذلك الأمراء من أتباع الملك الظاهر قد تخالفوا فيما بينهم لأن السلطان الملك السعيد بن الظاهر كان ملتهياً باللعب والانبساط والزينة، فنفرت منه طائفة من الأمراء والأعيان وقالوا: لا ينبغي للملك أن يلهو ويلعب، وإنما وجيبة الملك النظر في مصالح المسلمين والذب عن حياضهم كما كان أبوه.

ثم تناجزت الطائفتان، طائفة السلطان الملك الظاهر وطائفة الجيش الغاضبين من لهو السلطان فقتل من الفريقين نفر يسير، وأخيراً اتفق الغاضبون من لهو السلطان مع الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي أن يتنازل الملك السعيد عن السلطنة إلى أخيه الصغير بدر الدين سلامش، ويكون الأمير سيف الدين قلاوون نائبه، فخلع الملك السعيد نفسه من السلطنة ثم بايع الأمراء والأعيان أخاه بدر الدين سلامش ولقب بالملك العادل، وكان عمره حينئذٍ سبع سنين، وجعلوا نائبه الأمير سيف الدين قلاوون.

وبعد ذلك بمدة وجيزة، ما لبث الأمراء أن خلعوا الملك العادل سلامش بن الظاهر، ثم اتفقوا على بيعة الملك المنصور قلاوون الصالحي، ولقبوه الملك المنصور، وبايعه الناس والأمراء.

وفي سنة تسع وسبعين وستمائة، استتب الأمر للخليفة الحاكم بأمر الله، أما الملك المنصور قلاوون، فاستقر ملكه بمصر، وبعض الشام، وأما دمشق وما حولها فكان صاحبها سنقر الأشقر، وحماة صاحبها الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر.

أما العراق وبلاد الجزيرة وخراسان والموصل وإربل وأذربيجان وما والاها من البلدان، فكانت بأيدي التتار، وكذلك بلاد الروم كانت في أيديهم.

ثم بلغ السلطان المنصور أن التتار متوجهون نحو بلاد المسلمين يبغون قتالهم، فكتب السلطان إلى مصر وغيرها من البلدان يستدعي جيوش المسلمين للقاء التتار الذين يقتربون منهم، فوفدت عساكر المسلمين من كل جانب، وهرع التركمان والأعراب وغيرهم ملبين نداء السلطان.

وحينئذٍ فزع الناس بدمشق وكثرت الأراجيف، واشتد الخطب وترك كثير منهم الغلات والأموال خشية أن يدهمهم هذا العدو الشرس الموغل في الهمجية ـ التتار، إذ وصلوا بقيادة منكوتمر بن هولاكو إلى نواحي المسلمين، ثم خرج المنصور من دمشق للقاء العدو، وفزع الناس والخطباء والأئمة إلى الصلاة يبتهلون إلى الله جل وعلا أن يدفع كيد هؤلاء الظالمين.

وأقبلت جيوش المسلمين من الأتراك والتركمان والأعراب وغيرهم نحو العدو، وسارت التتار نحوهم في مائة ألف مقاتل، فكانت الوقعة الفاصلة:

وقعة حمص:

في هذه الوقعة الحامية العصيبة التقى الجمعان عند طلوع الشمس، وكان التتار في مائة ألف مقاتل، والمسلمون على النصف منهم. فتناجز

الفريقان واقتتلوا قتالاً عظيماً ليس له نظير، وثبت السلطان في جماعة قليلة ثباتاً عظيماً، وقد فرَّ كثير من المسلمين وتبعهم التتار فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم التف أمراء المسلمين من حول السلطان فحملوا على التتار حملات شديدة صادقة، وما زالوا كذلك يحملون عليهم حتى كتب الله الغلبة لعساكر المسلمين، فهزم التتار شر هزيمة، وجرح قائدهم منكوتمر، ثم تبع المسلمون فلول التتار الذين لاذوا بالفرار في كل ناحية، فقتلوا أكثرهم، ثم جاءت البشارة بالنصر إلى دمشق، فأوقدت الشموع وفرح الناس بالغ الفرح.

وعقب هذا النصر العظيم لجند الإسلام، خرج السلطان من دمشق متوجهاً إلى مصر وسط دعاء الناس له بالخير والتوفيق من الله، لما بذله من عظيم المصابرة والجهد حتى كتب الله على يديه النصر، وألحق الهزيمة والمذلة بالتتار.

هلاك أبغا بن هولاكوخان:

وقد مات من التتار ملكهم وهو أبغا بن هولاكوخان بن تولي بن جنكيزخان، كان ذا رأي وحيلة وتدبير، ولم يكن بعد أبيه مثله في الحزم والشدة والتدبير، ولم تكن وقعة حمص آنفة الذكر عن رأيه ومشورته ولكن أخاه منكوتمر قد رغب في ذلك فلم يخالفه، وقد أصيب أبغا بطعنة في وقعة حمص ثم مات بها، وقيل: ساءه ما حل بالتتار من هزيمة فظيعة فمات غماً وحزناً، وقد توفي عن خمسين سنة، وكانت مدة ملكه ثماني عشرة سنة.

وفي سنة إحدى وثمانين وستمائة، أرسل ملك التتار إلى الملك المنصور يطلب منه المصالحة وحقن الدماء فيما بينهم، فأجاب المنصور إلى ذلك.

وفاة العلامة البيضاوي:

وفي سنة خمس وثمانين وستمائة، مات العلامة البيضاوي وهو القاضي الإمام ناصر الدين عبدالله بن عمر الشيرازي، عالم شيراز وأذربيجان وتلك

النواحي، وقد مات بتبريز، وله مصنفات كثيرة، منها: المنهاج في أصول الفقه، ومنها: شرح التنبيه، في أربع مجلدات، ومنها: الغاية القصوى في دراية الفتوى، ومنها: الطوالع وشرح المحصول، وله غير ذلك من المصنفات.

وفاة الملك الصالح علاء الدين بن الملك المنصور:

وفي سنة سبع وثمانين وستمائة، توفي الملك الصالح علاء الدين بن الملك المنصور قلاوون، وكان قد عهد إليه بالأمر من بعده، ثم جعل ولاية العهد من بعده إلى ابنه الأشرف خليل.

وفاة الملك المنصور قلاوون:

وفي سنة تسع وثمانين وستمائة، كانت وفاة الملك المنصور قلاوون، وهو ابن عبدالله التركي الصالح، اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وكان عنده من أكابر الأمراء، ولما تزوج الملك السعيد بن الظاهر بابنته غازية خاتون، عظم شأنه عند الظاهر، وما زال شأنه يزداد سمواً وظهوراً حتى استقل بالملك، وفتح طرابلس، وعزم على فتح عكا، فسار إليها لكن المنية عاجلته بالقاهرة، فجلس بعده ولده الملك الأشرف خليل وقد أنيطت به ولاية العهد.

وفي سنة تسعين وستمائة، كان الخليفة، الحاكم بأمر الله أبا العباس العباسي، وسلطان البلاد هو الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون، ووزيره شمس الدين بن السلعوس.

وفي هذه السنة كان:

فتح عكا وبقية السواحل:

كان أهل عكا من الفرنج المتعصبين يعتدون على من عندهم من المسلمين فيقتلونهم وينهبون أموالهم، فنودي في المسلمين في دمشق وغيرها من بلدان المسلمين للمسير إلى عكا لمناجزة الفرنج، فأقبلت جموع

المتطوعين من المسلمين من كل مكان، وركب الملك الأشرف من الديار المصرية بعساكره متوجهاً نحو عكا، فتوافت جيوش المسلمين هناك، ثمّ نصبت المجانيق عليها من جميع النواحي، فصعد جنود المسلمين على أسوار المدينة، فزلزل الفرنج زلزالاً شديداً وقد غشيهم من الرعب والإرجاف ما غشيهم، فركبوا هاربين لا يلوون على شيء، وقد قتل منهم المسلمون خلقاً كثيراً، ثم استسلمت قيادة صور وصيدا للملك الأشرف، فاستتم الساحل كله للمسلمين وتطهر كلياً من رجس الظالمين المعتدين، ففرح المسلمون بنصر الله فرحاً عظيماً.

وكانت عكا قد أخذها الملك الناصر يوسف بن أيوب من أيدي الفرنج، ثم أتاها هؤلاء الظالمون بجيوش كثيرة، فمانعهم عنها صلاح الدين مدة سبعة وثلاثين شهراً، وبعد ذلك دخلوها وقتلوا من كان فيها من المسلمين، وقد تقدّم ذكر ذلك.

فظلت المدينة ترزح في ظلام الصليبية والعدوان، حتى قيّض الله لها من عباده الأبرار الأشاوس من يحررها من هذا الرجس المستفحل، والحمد لله رب العالمين[١].

وفي سنة إحدى وتسعين وستمائة فُتحت قلعة الروم.

فتح قلعة الروم:

سار السلطان الأشرف بعساكر المسلمين نحو الشام ومعه وزيره ابن السلعوس قادماً وإياه من دمشق، ثم سار بهم نحو حلب، ثم توجه بعد ذلك إلى قلعة الروم فافتتحها قهراً، فكان ذلك من الله فتحاً مؤزراً مبيناً، ففرح المسلمون بذلك شديد الفرح، وقد تحقق هذا الفتح عقب حصار شديد استدام ثلاثين يوماً، فاستقر الأمر بذلك للمسلمين في كامل بلاد الشام

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج١٣ ص٢٧٤ ـ ٣٢٢، وسمط النجوم العوالي ج٤ ص١٩ - ٢٢، وتاريخ ابن خلدون ج٥ ص٤٦٣.

وسواحله، وقد تحقق ذلك في سلطنة الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون، ووزيره شمس الدين السلعوس.

وفاة السلطان الأشرف:

وفي سنة ثلاث وتسعين وستمائة، قتل السلطان الأشرف على أيدي نفر من الأمراء، قتلوه ظلماً وعدواناً، وقد حزن الناس لمقتله وأعظموا ذلك إعظاماً، فقد كان رحمه الله شهماً شجاعاً مقداماً، وكان عازماً على المسير إلى العراق بعساكر المسلمين لانتزاعها من أيدي التتار، وقد تهيأ لذلك ونادى في الناس ليستعدوا لذلك، وكانت مدة ملكه ثلاث سنين، فتح فيها عكا وسائر السواحل فأزال منها كل معالم الفرنج وهو الذي فتح قلعة الروم، رحمه الله.

ثم تملك من بعده أخوه محمد الملك الناصر بن قلاوون، وكان صغيراً.

وفي سنة أربع وتسعين وستمائة، كان الخليفة هو الحاكم بأمر الله وسلطان البلاد هو الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان عمره حينئذٍ اثنتي عشرة سنة، وكان مدير الممالك وأمير العساكر الأمير زين الدين كتبغا، وهو الذي تسلم السلطنة، فقد خلع الملك الناصر محمد بن المنصور لصغره، ثم ألزمه بيت أهله فلا يخرج منه، فبايعه الأمراء على ذلك وبايعه الناس من بعدهم وقد لقب بالملك العادل وكان عمره حينئذٍ خمسين عاماً.

وفي سنة خمس وتسعين وستمائة، كان خليفة المسلمين الحاكم بأمر الله أبا العباس أحمد العباسي، وسلطان البلاد هو الملك العادل زين الدين كتبغا وهو من سبي وقعة حمص الأولى عقب وقعة عين جالوت وهو من الغويرانية، طائفة من التتار.

وفي سنة ست وتسعين وستمائة، كان نائب مصر، الأمير حسام الدين لاجين، قد واطأ جماعة من الأمراء في الباطن على الملك العادل كتبغا، ثم توجه بالجيوش إلى الديار المصرية فبايعه جمهور الأمراء والأعيان وملكوه

عليهم، فجلس على سرير الملك، وخطب له على المنابر[1].

ثم استهلت سنة ثمان وتسعين وستمائة، والخليفة هو الحاكم العباسي، وسلطان البلاد المنصور لاجين، ونائبه بمصر مملوكه سيف الدين منكوتمر، وقاضي الشافعية الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد.

مقتل المنصور لاجين:

قتل السلطان المنصور لاجين ونائبه سيف الدين منكوتمر، وذلك على يد الأمير سيف الدين كرجي الأشرفي، ومن وافقه من الأمراء، وذلك بحضور القاضي حسام الدين الحنفي، وقد اتفقوا بعد مقتل لاجين على إعادة الملك الناصر محمد بن قلاوون، فأرسلوا إليه ليوافيهم، ونادوا له بالقاهرة وقد خُطب له على المنابر قبل قدومه، ثم بلغ الناس دخول الملك الناصر مصر، فكان ذلك حدثاً مشهوداً وقد فرح الناس به فرحاً عظيماً وبويع له بحضرة أكابر القضاة والعلماء والأمراء.

وفي سنة سبعمائة من الهجرة النبوية، وردت أخبار مزعجة ومرجفة عن التتار، وأنهم قاصدون بلاد الشام، وأنهم عازمون على دخول مصر، ففزع الناس من ذلك واضطرب الأمر في البلاد وشرع أكثر الناس في الهرب إلى مصر والكرك والشوبك وغير ذلك من الحصون المنيعة.

وانطلق الشيخ تقي الدين بن تيمية في الناس يحرضهم على الجهاد وقتال أعداء الله، وحذرهم من الفرار والهزيمة، لكن الأراجيف بين المسلمين كانت تشيع وتستطير، وقد روَّج لها ترويجاً فريق من الحاقدين المتربصين الذين يعيشون بين ظهراني المسلمين، وهم اليهود والنصارى والمنافقون، مما أفزع الناس بالغ الإفزاع، فتصايح النساء والولدان، وأصابهم من شديد الوهن ما أصابهم.

---

(1) البداية والنهاية ج١٣ ص٣٢٧ - ٣٥٠، وسمط النجوم العوالي ج٤ ص٢١، ٢٢، وتاريخ ابن خلدون ج٥ ص٤٦٤.

ثم وردت الأخبار بأن ملك التتار قد كرَّ راجعاً هذا العام لقلة العدد في جيشه وبما أصابهم من ضعف، فطابت نفوس المسلمين بذلك وعادوا إلى منازلهم آمنين مطمئنين.

وفاة الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين:

وفي سنة إحدى وسبعمائة كانت وفاة الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وهو الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي، بويع بالخلافة في الدولة الظاهرية، فاستكمل بذلك في الخلافة أربعين سنة، وكان قد عهد بالخلافة إلى ولده من بعده وهو أبو الربيع سليمان ولُقِّب بالمستكفي بالله، وقد دفن الخليفة رحمه الله بالقرب من السيدة نفيسة رحمها الله.



الفصل التاسع والثلاثون

خلافة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان

وفي سنة اثنتين وسبعمائة، فتح المسلمون جزيرة أرواد، وكانت مبعث شر وأذى للمسلمين من أهل السواحل، فأراح الله المسلمين من شرها.

وفاة العلامة ابن دقيق العيد:

وفي هذه السنة، توفي قاضي القضاة ابن دقيق العيد، وهو الإمام العلامة القشيري المصري تقي الدين بن دقيق العيد، له مصنفات عديدة، وقد انتهت إليه رياسة العلم في زمانه، واجتمع به الشيخ تقي الدين بن تيمية فأُعجب به بالغ الإعجاب.

وفي سنة اثنتين وسبعمائة، استطارت الأخبار بأن التتار عازمون على دخول بلاد الشام، ففزع الناس وهرعوا جافلين إلى الديار المصرية والكرك والحصون المنيعة، فخرج السلطان بعساكر المسلمين لمناجزة التتار المخذولين، فاقتتل الجيشان وصبر المسلمون صبراً عظيماً فنصرهم الله وكتب الذل والمهانة على التتار، فولوا مدبرين مخلفين وراءهم كثيراً من الأسرى والقتلى والأموال.

وبعد ذلك شاعت الأراجيف وقويت الأخبار بقدوم التتار الذين وصلوا إلى حمص وبعلبك، فعاثوا في الأرض الفساد، فاضطرب الناس بذلك كثيراً وقالوا: لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بعساكر التتار لكثرتهم،

فاجتمع أمراء المسلمين وقادتهم وتحالفوا على لقاء العدو مهما تكن كثرتهم وشجعوا أنفسهم على الثبات والصبر، وانطلق الشيخ تقي الدين بن تيمية يحرض المسلمين على الصبر والقتال وهو يحلف لهم أنهم منصورون لا محالة.

وثمة كلام بين الناس في حقيقة التتار، وكيفية قتالهم، ذلك أنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام فيُقتلون، بل إنهم لم يكونوا في طاعة الإمام ثم خالفوه.

وقد تصدّى الشيخ العلامة ابن تيمية لمثل هذا الكلام أو التساؤل فقال: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، بل ويعيبون على المسلمين تلبُّسهم بالظلم والمعاصي، مع أن هؤلاء متلبسون بما هو أعظم وأشد فظاعة مما تلبس به المسلمون، فكان ابن تيمية يقول لمن حوله من الناس والأمراء والعلماء: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتنبه الناس لذلك وأيقنوا سداد ما يقوله ابن تيمية، فقويت بذلك عزيمتهم وتشجعوا لقتال التتار، فناجزوهم مناجزة شديدة بالرغم من تقدمهم وشراستهم وكثرة جموعهم، فلم يجد هؤلاء العتاة الهمج مناصاً من الهرب والانهزام، فولوا مدبرين متفرقين في كل النواحي وسيوف المسلمين تعمل عملها في رقابهم إذ تحصدهم حصداً، فلم ينج منهم إلا القليل، واعتصم آخرون بالجبال والتلال، وتحقق النصر للإسلام وجنده الميامين، فاستقرت بذلك خواطر الناس وغشيهم الأمن والسكينة، وباتوا بفضل من الله لم يمسسهم سوء الأشرار[1].

فتح ملطية:

في سنة خمس عشرة وسبعمائة، خرج السلطان سيف الدين تنكز في

---

(١) البداية والنهاية ج١٤ ص٦ - ٢٦، وتاريخ ابن خلدون ج٥ ص٤٦٥ - ٤٦٩.

جيوش المسلمين قاصداً ملطية، وكان بها جموع من العربان ونصارى الأرمن وقليل من المسلمين تحت الجزية.

فسارت عساكر المسلمين حتى دخلوا حلب، ومنها إلى بلاد الروم وإلى ملطية فحاصروها تماماً وقد تحصنت وغلقت أبوابها، ولما رأوا جموع المسلمين وحشودهم الكاثرة، جنحوا لطلب الأمان من المسلمين فأعطوه، فدخلها المسلمون وقتلوا من الأرمن والنصارى خلقاً كثيراً وأسروا آخرين، فزفّت البشائر بذلك للمسلمين ففرحوا فرحاً شديداً.

وفي هذه السنة، مات ملك التتار خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولي خان بن جنكيزخان، ملك العراق وخراسان والعجم والروم وأذربيجان وبلاد الأرمن، وديار بكر، وقد دفن بمدينة السلطانية، وذلك عن عمر جاوز الثلاثين سنة، ثم قام من بعده في الملك ولده أبو سعيد، وكان عمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقد قتل بعضاً من الأعيان ممن اتهمهم بقتل أبيه مسموماً، وقيل: إنه جنح للعدل وإقامة السنة، فأمر في الخطبة بالترضي عن الشيخين ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، ففرح الناس بذلك مما أسكت الفتنة وأخمد الشرور التي استشرت في تلك البلاد وأصبهان وبغداد وإربل وغير ذلك من البلدان.

وفي سنة سبع عشرة وسبعمائة، خرج جماعة من التجار وغيرهم من الجفال[1] قاصدين بلاد الشام، فلحق بهم في الطريق ستون فارساً من التتار وقتلوهم عن آخرهم ولم يبقَ منهم سوى سبعين صبياً، فاشترطوا لمن يقتلهم أن يعطوه شيئاً، فبرز إليهم من قتلهم جميعاً، وبذلك كان مجموع من قتل من المسلمين في هذه الوقعة من التجار والصبيان، تسعمائة إنسان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي هذه السنة كان:

---

(١) الجفال: جمع، ومفرده: الجافل، وهو المنزعج، وجفل: أي: هرب مسرعاً، جفل البعير: ند وشرد، انظر: القاموس المحيط ج٣ ص٣٦٠، والمصباح المنير ج١ ص١١٢.

خروج النصيرية:

وهؤلاء طائفة من غلاة الشيعة الذين أسرفوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم عن مفهوم الكينونة البشرية وحكموا فيهم بأحكام الإلهية، فربما شبهوا واحداً من الأئمة بالإله وربما شبهوا الإله بالخلق، ولهذه التصورات الشاذة المستهجنة جماعة ينتصرون لها ويذبون عنها.

ومن مقالاتهم الفاسدة أنه لما لم يكن بعد رسول الله ﷺ شخص أفضل من علي رضي الله عنه وبعده أولاده المخصوصون، وهم خير البرية، فقد ظهر الحق بصورتهم، ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم، وعلى هذا أطلقنا اسم الإلهية عليهم، وإنما أثبتنا هذا الاختصاص لعلي رضي الله عنه دون غيره، لأنه كان مخصوصاً بتأييد إلهي من عند الله تعالى فيما يتعلق بباطن الأسرار، وربما أثبتوا له شركة في الرسالة إذ قال عليه الصلاة والسلام: **«فيكم من يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيله ألا وهو خاصف النعل»** فعلم التأويل، وقتال المنافقين، ومكالمة الجن، لا بقوة جسدانية من أول الدليل على أن فيه جزءاً إلهياً وقوة ربانية، ويكون هو الذي ظهر الإله بصورته.

إلى غير هذا الكلام الفاجر، والهرطقات السقيمة التي تصم أدعياءها بالضلال والكفر[1].

على أن هذه الفرقة من غلاة الشيعة وهم النصيرية قد خرجوا عن طاعة الخليفة، وهو أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، وكان من بينهم رجل سموه محمد بن الحسن المهدي القائم بأمر الله، وتارة يدّعي أن علي بن أبي طالب فاطر السموات والأرض، تعالى الله عما يهرفون ويفترون علواً كبيراً، وتارة يدعي أنه محمد بن عبدالله صاحب البلاد، وخرج يكفر المسلمين، وأن النصيرية على الحق، وقد استحوذ هذا الكذوب الدجال على عقول كثير من المضللين السفهاء، ثم اجتمعوا فيما بينهم وحملوا على

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص١٨٨.

من حولهم من المسلمين فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم خرجوا يقولون في ضلالة وعماية وهوس: لا إله إلا علي، ولا حجاب إلا محمد، ولا باب إلا سلمان، وقد سبوا الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم أخذ أهل البلد من المسلمين حولهم يصيحون: واإسلاماه، واسلطاناه، واأميراه، فلبس حينئذٍ من نصير ولا مجير، ثم أمر هذا اللعين الفاجر أصحابه بتخريب المساجد واتخاذها خمارات، وكانوا يقولون لمن يأسرونه من المسلمين: قل لا إله إلا علي، واسجد لإلهك المهدي الذي يحيي ويميت حتى يحقن دمك.

ثم سار إليهم المسلمون في عساكرهم المؤمنة فهزموهم وقتلوا منهم كثيراً من الناس وبددوهم تبديداً، وكان في القتلى سيدهم في الشر والضلال والباطل المهدي.

وفي سنة عشرين وسبعمائة، اجتمعت جيوش المسلمين بأرض حلب، وكانوا عشرين ألف مقاتل بقيادة نائب حلب، ونائب طرابلس، فدخلوا بلاد الأرمن من اسكندرونة، حتى وصلوا إلى سيس فحاصروها وضيّقوا على أهلها، وأحرقوا فيها دار الملك، وبذلك انقرضت دولة الأرمن.

وفي هذه السنة كذلك، وقع حدث عظيم في بلاد المغرب بين المسلمين والفرنج، فوفق الله المسلمين إذ كتب لهم الغلبة والنصر فقتلوا من أعدائهم خمسين ألفاً، وأسروا منهم خمسة آلاف، وكان في جملة القتلى خمسة وعشرين ملكاً من ملوك الفرنج، وغنموا من أموالهم شيئاً كثيراً[(١)].

وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية:

وفي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة كانت وفاة العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية، هو أبو العباس أحمد بن شهاب الدين أبي المحاسن عبدالحليم بن أبي البركات عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم محمد بن الخضر بن

---

(١) البداية والنهاية ج١٤ ص٧٣ ـ ٩٧، وتاريخ ابن خلدون ج٥ ص٤٨٩ ـ ٤٩٢.

محمد بن الخضر بن علي بن عبدالله بن تيمية الحراني الدمشقي قدس الله روحه.

وقد توفي رحمه الله في القلعة التي كان محبوساً بها، وحضر الجنازة خلق عظيم من الناس يكاد لا يحصى، صُلي عليه في الجامع الأموي عقب صلاة الظهر وتزاحم الناس من حول الجنازة حين التشييع إلى المقبرة حتى ضاقت الأزقة والأسواق بالناس، ثم تعالت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم عليه والدعاء له، وقد أغلق الناس حوانيتهم ولم يتخلف عن حضور التشييع إلا أولو الأعذار من العجزة وغيرهم، وحضر من النساء كثير حتى قدر عددهن بخمسة عشر ألف امرأة، غير اللواتي كن فوق الأسطحة وهن يبكين هذا العالم المفضال، أما عدد الرجال فقدر بستين ألفاً إلى مائة ألف أو أكثر.

لقد كان رحمه الله حَبْراً من أحبار العلم في دين الإسلام، فقد اشتغل بالعلوم على اختلافها، فصار إماماً في التفسير، عارفاً بالفقه واختلاف الفقهاء، وكذلك كان عالماً في الأصول والفروع والنحو واللغة، وله تصانيف كثيرة في الأصول والفروع، وقد توفي رحمه الله عن سبع وستين سنة.

وفاة المستكفي بالله أمير المؤمنين:

وفي سنة أربعين وسبعمائة كانت وفاة المستكفي بالله أمير المؤمنين، وهو أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله بن العباس أحمد بن أبي علي الحسن بن أبي بكر بن علي بن أمير المؤمنين المسترشد بالله الهاشمي العباسي البغدادي.

لقد عهد إليه أبوه بالأمر عند وفاته وخُطب له على المنابر، وقد أناط كل ما يتعلق به من الأمور والقضايا بالسلطان الملك الناصر، وقد سار إلى غزو التتار وحضر وقعة شقحب.

وفي هذه السنة، كان سلطان المسلمين الملك الناصر، ومما وقع فيها

من الأخبار المريعة أن جماعة من أكابر النصارى قد اجتمعوا في كنيستهم وجمعوا من بينهم مالاً قدموه لراهبين جاءا إليهم من بلاد الروم ويحسنان صناعة النفط[1]، وهما عازر وملاني، فاصطنعا نفطاً ووضعاه في شقوق دكاكين التجار في السوق، وهما في زي المسلمين كيلا يدري بهما أحد، فلما جنَّ الليل اندلعت النيران في تلك الدكاكين حتى بلغت مأذنة الجامع المتجهة للسوق فتفجرت أحجارها، ثم عمد النصارى بعد ليال إلى ناحية الجامع من الغرب فاحترقت حتى أتت النيران على بعض الدور والمساكن والمدارس، ثم هرع نائب السلطنة والأمراء وحالوا بين النار والمسجد، وبعد ذلك أيقن نائب السلطنة أن هذه الفعلة من صنع النصارى، فأمسك منهم ستين رجلاً، فقتلوا بالنار تحريقاً، فالجزاء من جنس العمل[2].

وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون:

وفي سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، كانت وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله، وكان قبل موته قد أخذ العهد لابنه سيف الدين أبي بكر ولقبه بالملك المنصور، وكان قد وُلي عليه الأمير علم الدين الجاولي، وعمر بن محمد بن إبراهيم الجعبري، ثم دفن رحمه الله، وعقب ذلك جلس ولده الملك المنصور على سرير المملكة فبايعه الناس والجيش، ففرح الناس به وترحّموا على الملك الناصر.

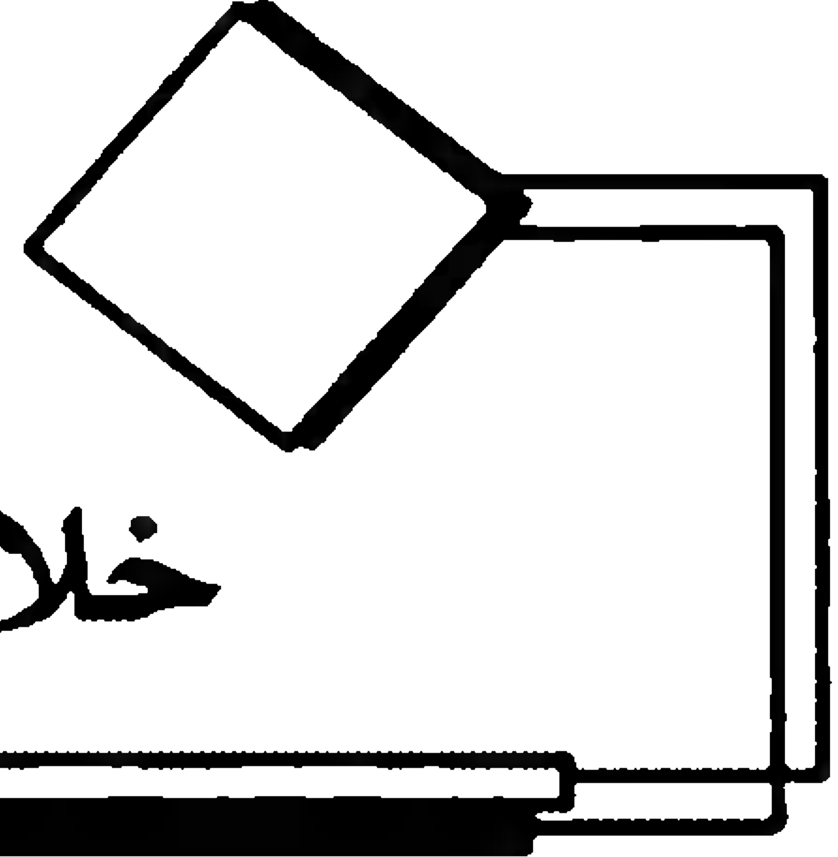
وبذلك استتب سلطان الإسلام في الديار المصرية والبلاد الشامية وما حولها للملك المنصور سيف الدين أبي بكر، الذي يرجع نسبه إلى السلطان المنصور سيف الدين قلاوون.



---

(١) النفط: مزيج من الهدروكربونات يحصل عليها بتقطير زيت البترول الخام، أو هو قطران الفحم الحجري، وهو سريع الاشتعال وأكثر ما يستعمل في الوقود، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص٩٤١.

(٢) البداية والنهاية ج١٤ ص١٣٥ ـ ١٨٦.



الفصل الأربعون

خلافة الحاكم بأمر الله

وفي سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، كانت ولاية الخليفة الحاكم بأمر الله، فقد بويع بالخلافة أمير المؤمنين أبو القاسم أحمد بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان العباسي، فقد جلس مع الملك المنصور على سرير المملكة، وخطب الخليفة خطبة بليغة فصيحة تشتمل على كثير من المواعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان أمير المؤمنين هذا قد عهد إليه أبوه بالخلافة، لكن الملك الناصر لم يمكِّنه من ذلك بل ولَّى بدله غيره ولقبه الواثق بالله، وقد خُطب له بالقاهرة جمعة واحدة ثم عزله الملك المنصور، وقرر أبا القاسم هذا وهو الحاكم بأمر الله.

وفي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، كان استتباب السلطنة للملك الناصر بن الملك المنصور قلاوون، وكان مقيماً بالكرك، وكان نائبه على الديار المصرية الأمير سيف الدين آقسنقر السلاري، الذي كان نائباً بغزة.

وكان أمراء الملك الناصر يتفكرون في أمره لما كان يبلغهم عنه من أحوال لا ترضيهم من اللعب واللهو والجور، ومن تقريبه النصارى إلى جانبه وحضورهم عنده، حتى حار الأمراء في شأنه، فاتفقوا على خلعه، فكتبوا إلى المصريين بذلك، وظلوا يترقبون وينتظرون ما يكون عليه الرد من المصريين حتى جاءهم البريد بذلك ومعه كتب من المصريين تبين أن ما

عندهم من أمر السلطان هو أضعاف ما حصل عند أهل الشام، فبادروا إلى ما كانوا قد عزموا عليه وهو خلع السلطان بعد أن اطمأنوا أن أهل الشام لم يغرروا بهم ولم يسلموهم، فخلعوا الناصر أحمد، ونصّبوا عليهم أخاه الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن المنصور، فأجلسوه على السرير، ثم تواردت عليه كتب الأمراء بالتأييد والسلام، ففرح المسلمون بذلك، وفرح كذلك أمراء الشام وعامة الناس وخاصتهم فرحاً شديداً، واستمر الملك الصالح إسماعيل مدة ثلاث سنين ثم مات، فتولى من بعده أخوه الملك الكامل.

ولاية الملك الكامل شعبان:

وهو الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون، فقد تسلطن هذا بعد موت أخيه الملك الصالح بعهد منه إليه وذلك بعد اختلاف من الأمراء في إقامته، ثم اتفقوا عليه، واستمر في السلطنة إلى أن خلعه الأمراء بعد سنة واحدة وسبعة أشهر في الملك، ثم تولى من بعده أخوه الملك المظفر حاجي.

ولاية حاجي:

وهو الملك المظفر أمير حاجي بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان نائبه في الديار المصرية الأمير سيف الدين أرقطية، وقد استمر المظفر في السلطنة حتى وقع بينه وبين الأمراء منافرة، وقد تفرقت عنه قلوب الناس، فخرج الأمراء بمن معهم إلى قبة النصر، فسار إليهم الملك المظفر بمن معه وكانوا طائفة قليلة فتفرقوا عنه لضعفهم وقلتهم، فالتقاهم الملك بنفسه، فما لبثوا أن قتلوه، وكانت مدة ملكه سنة وثمانية أشهر، ثم تولى من بعده السلطان حسن بن محمد بن قلاوون.

ولاية السلطان حسن بن محمد بن قلاوون:

وهو من أولاد الناصر محمد بن قلاوون، وقد تسلطن بعد أخيه،

وكان نائبه في الديار المصرية الأمير سيف الدين يلبغا، وفي الشام الأمير سيف الدين أرغون، وقد ظل السلطان حسن في السلطنة مدة ثلاث سنين وتسعة أشهر، إذ جاء البريد من الديار المصرية بعزله لاختلاف الأمراء عليه واجتماعهم على أخيه الملك الصالح صالح بن محمد.

ولاية الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون:

فقد تسلطن بعد أخيه حسن وصار مدبر مملكته الأمير طاز، فلم يكن للسلطان صالح في سلطنته إلا الاسم، واستمر صالح في الملك إلى أن خلعه الأمير سيخو من السلطنة وأعاد حسن عوضاً عنه مرة ثانية، فكانت مدة الصالح في السلطنة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، وقد ظل رهين داره حتى مات سنة إحدى وستين وسبعمائة.

ولاية السلطان حسن بن محمد الثانية:

ثم تولّى أمر السلطنة الملك الصالح السلطان حسن فظهر وعظم شأنه إلى أن دبّ دبيب الخلاف بينه وبين غلامه مملوك يلبغا، فاقتتلا فهزم حسن إلى القلعة ثم تبعه يلبغا، فما لبث حسن أن ولى هارباً بعد أن تزيى بغير زيه، فعرفوه وقبضوا عليه وليس معلوماً ما الذي وقع له، وكانت مدة ملكه الثانية هذه ست سنين وسبعة أشهر، وبذلك كانت مدة حكمه أولاً وثانياً عشر سنين وأربعة أشهر قبل أن يقتله مملوكه يلبغا، ثم تولّى من بعده محمد بن الملك المظفر.

ولاية محمد بن الملك المظفر حاجي:

وهو أمير الحاج بن محمد بن قلاوون، ولُقب بالملك المنصور، وقد بويع له بالسلطنة عقب مقتل عمه حسن، فأقام في الملك سنتين وخمسة أشهر، ثم خلع فظل حبيس القلعة حتى مات سنة أربع وستين وسبعمائة، ثم تولّى من بعده الملك حسن بن شعبان.

ولاية الملك شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون:

وهو الملقب بالملك الأشرف، وقد كانت أمور السلطنة كلها بيد يلبغا، ثم شاركه في ذلك طنبغا، فما زال الاثنان معاً يسوسان الأمور حتى ظفر بيلبغا خصومه ومبغضوه، واتفق المماليك على قتله فهرب وحرضوا عليه السلطان شعبان، ثم أوى يلبغا إلى بولاق بمصر فما لبث به المماليك حتى قتلوه.

فأقام السلطان شعبان مقامه استدمر، فأراد هذا أن يكون نظير يلبغا في مشاركة السلطنة فلم يوافقه السلطان على ذلك، فحاول استدمر أن يخلع السلطان فما استطاع بل مسك وحبس.

ثم توجّه السلطان شعبان إلى الحج وقد أقام جماعة لتدبير أمور السلطنة من بعده، فاختلفوا عليه حال غيابه وخلعوه وسلطنوا بدلاً منه ولده علياً، فعاد السلطان شعبان إلى القاهرة واختفى بها عند قبة النصر، فتوجه إليه الأمراء وقتلوه ومن معه من الأمراء، وكان ذلك سنة سبع وسبعين وسبعمائة، ثم تولّى من بعد السلطان شعبان ولده علي بن الأشرف شعبان.

ولاية علي بن الأشرف شعبان:

وقد لُقب بالملك المنصور، وقد تسلطن بعد والده وهو ابن سبع سنين، واستمر في الملك إلى أن مات سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة، وكانت مدة ملكه خمس سنين وخمسة شهور وله من العمر ثلاثة عشر عاماً، ثم تولى من بعده أخوه حاجي بن شعبان الأشرف.

ولاية حاجي بن شعبان الأشرف:

لُقب بعد موته بالملك الصالح، وقد دام سلطانه عاماً كاملاً وبضعة أشهر وكان عمره إذ ذاك ست سنين، وكان صاحب النفوذ والأمر في السلطنة برقوق، فقد خلعه هذا بعد أن ألزمه الأمراء بذلك، وذلك لما وقع في البلاد من فتن، وبذلك ناب برقوق مناب حاجي بن شعبان في السلطنة

وتدبير الأمور، ثم ما كان من برقوق بعد ذلك إلا أن وضع حاجي في قلعة الجبل، وذلك هو شأن أولاد السلاطين، إذا ولوا السلطان وهم صغار، فلا يتورع الأمراء عن خلعهم وحشرهم في القلعة حتى يلاقوا أجلهم.

ثم ثار يلبغا على برقوق فخلعه وأعاد حاجي إلى الملك فتسلطن ثانياً، ثم سار حاجي لقتال برقوق فانتصر هذا على السلطان حاجي ومعه الخليفة العباسي، فأمسك برقوق بحاجي فدخل به إلى القلعة بمصر ثم عزل نفسه عن السلطنة، فظل رهين الاحتباس في قلعة الجبل حتى مات سنة أربع عشرة وثمانمائة، فكانت مدة ملكه هذه (الثانية) سبعة أعوام وستة أشهر.

وباعتزاله السلطنة انقضت الدولة التركية لتتبعها الدولة الشركسية، وكانت مدة أولئك في الحكم مائة وأربعاً وثلاثين، وكانت عدة ملوكهم خمسة وعشرين ملكاً، والملك لله الواحد القهار[1].

وفي سنة ثلاث وستين وسبعمائة، مات الخليفة المعتضد بالله، فبويع من بعده ولده:

المتوكل على الله:

وهو علي أبو عبدالله محمد بن المعتضد أبي بكر أبي الفتح بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد، رحم الله المسلمين أجمعين[2].



---

(١) سمط النجوم العوالي ج٤ ص٢٣ ـ ٢٩، والبداية والنهاية ج٤ ص٢٨٦ ـ ٣١١.

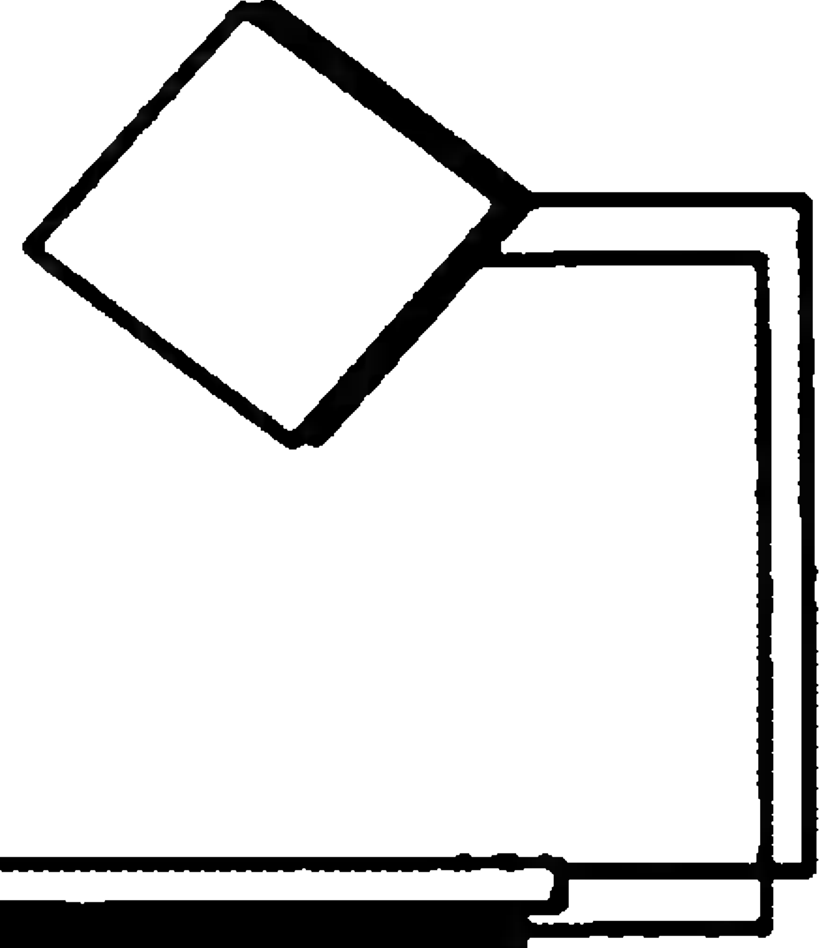
(٢) البداية والنهاية ج١٤ ص٢٩٣.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب الخامس

الدويلات التي ظهرت
إبان الخلافة العباسية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الأول
دولة بني بويه

ظهر بنو بويه في أوائل القرن الرابع الهجري، وقد ذكر في حقيقة حياتهم وتاريخهم أقوال كثيرة ومختلفة فقد قيل: إنهم ينتسبون إلى بهرام جور، وهو أحد ملوك ساسان، ويلحقهم بعض المؤرخين بالآلهة مثلما فعل الرومان في تعظيم أبطالهم، وقيل: إن نسبهم يرتفع من بني بويه إلى واحد من ملوك الفرس حتى يتصل بيهوذا بن يعقوب بن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وقيل: غير ذلك من الكلام الذي لا ينبغي التعويل عليه(١).

وكان أول ولاتهم بفارس، عماد الدين بن بويه من عام ٣٢٠ ـ ٣٣٨ للهجرة، وعقب موته تولى من بعده بلاد فارس ابن أخيه عضد الدولة، وذلك من عام ٣٣٨ ـ ٣٧٢ للهجرة، وقد امتد نفوذ هذا إلى العراق والأهواز وكرمان وفارس ثم إلى ما بين همذان والري التي استولى عليها من أخيه فخر الدولة عام ٣٦٩ للهجرة، ثم تولى من بعده ابنه شرف الدولة فنازعه في الملك أخوه صمصام الدولة، لكنه ما لبث أن اغتيل عام ٣٨٨ للهجرة، فاستولى ابنا بختيار وهما بهاء الدولة وسلطان الدولة على بلاد فارس، ثم تولى السلطنة عماد الدين أبو كاليجار عام ٤١٥ ـ ٤٤٠ للهجرة. وفي سنة ٤١٩ للهجرة استولى هذا على البصرة وكرمان، وانشغل بشؤون

---

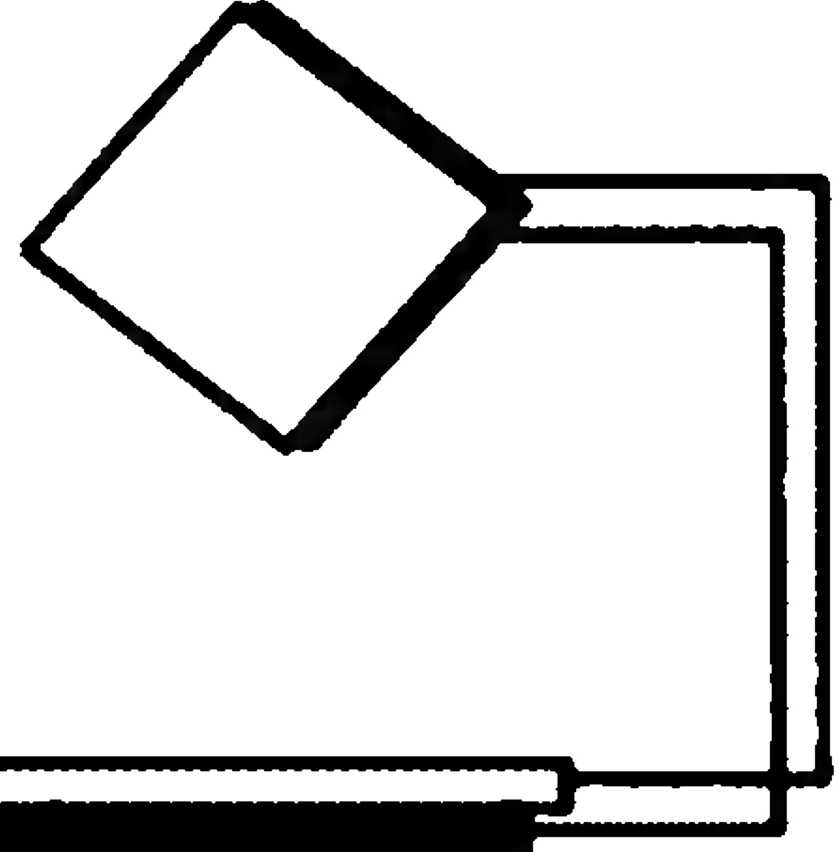
(١) تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ج٣ ص٤٣.

فارس ثم مات عام ٤٤٠ للهجرة وهو في طريقه لإخماد ثورة نائبه في كرمان.

وفي عهد أبي نصر فيروز الملك الرحيم بن أبي كاليجار من ٤٤٠ - ٤٤٧ للهجرة، زال سلطان البويهيين في فارس والعراق[1].



(١) تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ج٣ ص١١٠ - ١١٦.



الفصل الثاني

الدولة الصفارية

تأسست هذه الدولة على يد يعقوب بن الليث الصفار ما بين ٢٥٤ ـ ٢٦٥ للهجرة، وكان يعقوب هذا قد أغار على بلاد الدولة الطاهرية في خراسان، التي أسسها طاهر بن الحسين في عهد المأمون عام ٢٠٥ للهجرة.

وكان يعقوب وأخوه عمرو يشتغلان بعمل الصفر ويتظاهران بالزهد، وقد اشتهر أمر يعقوب عام ٢٣٧ للهجرة وكان أحد قواد صالح بن النضر الكناني الذي استولى على سجستان، وقد عمل يعقوب بن الليث على بسط سلطانه على بلاد فارس وخراسان، وبذلك كان يحارب الترك على تخوم سجستان وكذلك حارب الحسن بن زيد مؤسس الدولة العلوية في طبرستان وهزمه.

ثم طمع يعقوب بن الليث في مد نفوذه في البلاد على حساب الخليفة العباسي المعتمد، فأحس هذا بخطر يعقوب فأضمر له العداء، فما لبث يعقوب بعد ذلك أن جهز جيشاً لقصد العراق، ثم سار به إلى الأهواز، وكاتب الخليفة وسأله ولاية خراسان وبلاد فارس وشرطتي بغداد وسر من رأى، وأن يعقد له على كرمان وسجستان والسند، وغير ذلك من المطالب، ففعل الموفق أخو الخليفة المعتمد على الله كل ذلك، إذ أجابه إلى ما طلب، لكن يعقوب قد امتدت أطماعه إلى ما وراء ذلك، فلم يكتفِ بما ولاه إياه الخليفة، بل عمل على قصد بغداد نفسها وحمل الخليفة على

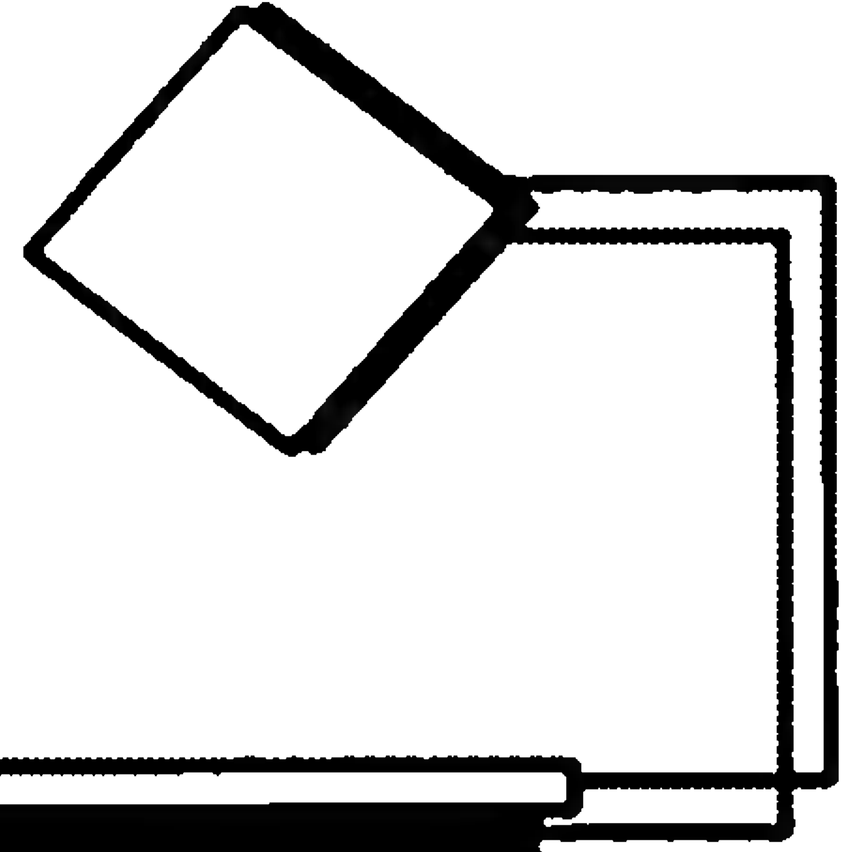
الإذعان لمطالبه، وكان يشجعه على ذلك اعتماده على جيشه القوي، لكن اغتراره هذا لم يجده نفعاً فقد ثار عليه جنده، لما رأوا الخليفة المعتمد على رأس الجيش.

وقد اشتهر يعقوب بن الليث باليقظة وحسن التدبير، فكان ينظم جيشه أحسن تنظيم ويعدهم بأحسن الإعداد من العدة والسلاح، وعلى هذا استطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يؤسس دولة تمكنت من نشر نفوذها في خارج سجستان لتشمل معظم بلاد فارس حتى أسوار بغداد بالرغم من قصر المدة لهذه الدولة.

ولما توفي يعقوب الصفار، أقر الخليفة العباسي المعتمد أخاه عمرو بن الليث على خراسان وفارس وأصفهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد، وبذلك حكم عمرو ما كان يحكمه أخوه من البلاد.

لكن العلاقة ما بين الدولة الصفارية والخلافة العباسية ما لبثت أن أصابها الوهن ثم ازدادت سوءاً، فقد قام الخليفة العباسي المعتمد بعزل عمرو بن الليث عما ولاه إياه من البلاد ثم أعلن ذلك على الملأ وأمرهم بلعن عمرو، وقد بعث إليه بجيشه لقتاله فانتصر جيش الخليفة المعتمد، ولما تولى المعتضد أمر الخلافة عام ٢٧٩ للهجرة شق عليه عمرو بن الليث عصا الطاعة إذ اغتر بنفسه لما وجد نفسه قابضاً على قيادة الجيوش، لكن ذلك لم يطل به كثيراً، فقد حلت به وبجيشه الهزيمة على أيدي السامانيين إذ وقع أسيراً في قبضة إسماعيل بن أحمد الساماني، فآلت هذه الهزيمة إلى سقوط الدولة الصفارية وقيام الدولة السامانية على أنقاضها.





الفصل الثالث
الدولة السامانية

يعود نسب هذه الدولة إلى أسرة فارسية، يرجع أصلها إلى بهرم جور، وقد تولى هؤلاء السامانيون الحكم في بلاد ما وراء النهر بموافقة الخليفة المأمون إذ كانوا عنده أولي حظوة.

وكان سامان على مذهب زرادشت ثم اعتنق الإسلام.

وكان أول ولاة هذه الدولة:

إسماعيل بن أحمد ٢٧٩ ـ ٢٩٥ للهجرة:

وقد تمكن هذا من فتح بلاد طبرستان، ثم سار إلى الري وقزوين وضمهما إلى سلطانه.

وفي سنة ٢٩١ للهجرة، تمكن إسماعيل بن أحمد الساماني من صد جيوش الترك الذين أغاروا على حدود بلاده الشرقية، ثم مات إسماعيل في مدينة بخارى عام ٢٩٥ للهجرة، وقد كان رحمه الله محباً للخير وأهل العلم والدين فكان يكرمهم، وكان عاقلاً عادلاً طيب السيرة في الرعية، وقد تولى من بعده ابنه:

أحمد بن إسماعيل ٢٩٥ ـ ٣٣١ للهجرة:

لما توفي إسماعيل بن أحمد الساماني، أقر الخليفة المكتفي ابنه أبا

نصر أحمد بن إسماعيل على ولاية أبيه، وقد تم على يدي هذا زوال الدولة الصفارية.

وفي المحرم من هذا العام وهو ٢٩٥ للهجرة، استولى السامانيون على سجستان من يد المعدل بن الليث الصفاري، ثم استمرت الحرب بين جيوش السامانيين والصفاريين مدة سنة، فأسفرت عن نصر السامانيين، لكن ولاية أحمد بن إسماعيل لم تطل إذ قتل عام ٣٠١ للهجرة، فحمل إلى بخارى ودفن بها ولقب بالشهيد.

وكان ابنه أبو الحسن نصر بن أحمد الساماني في الثامنة من عمره حين قتل أبوه، فاستصغر الناس سنه واستضعفوه، وظنوا أن أمره لا يستقيم ولا ينتظم إلا بوجود عم أبيه وهو إسحاق بن أحمد بن أسد صاحب سمرقند، وقد كانت العلاقة بين السامانيين والخلافة العباسية وطيدة قائمة على الثقة والمودة، حتى إن الخلفاء العباسيين كانوا يعوّلون على الأمراء السامانيين في إقرار سلطانهم في بلاد المشرق.

وفي سنة ٣٢٣ للهجرة، ثار أبو علي محمد بن إلياس، على نصر بن أحمد الساماني واستولى على كرمان، فأمضى إليه نصر جيشاً بقيادة ما كان ابن كالي، فأوقع الهزيمة بابن إلياس، واستولى على كرمان، ثم ما لبث ابن كالي أن خرج على السامانيين سنة ٣٢٨ للهجرة، فأرسل إليه نصر بن أحمد جيشاً، وهزمه ثم استولى على ما احتله من بلاد فأعادها إلى نفوذ السامانيين، ثم أخذت جيوش السامانيين تحظى بالنصر في تتابع، فاستولت على أبهر وقزوين وقم وهمذان، ونهاوند والدينور حتى بلغت حدود حلوان.

وقد كان نصر بن أحمد الساماني ذا خلق حسن، فكان حليماً كريماً عاقلاً، ثم ما لبث أن ألمّ به المرض فبقي به مدة ثلاثة عشر شهراً حتى مات سنة ٣٣١ للهجرة عن ثمان وثلاثين سنة.

وكان قبل وفاته قد نزل عن إمارة البلاد لابنه نوح، الذي عمل على القضاء على المذهب الإسماعيلي وأنصاره في بلاده.

نوح بن نصر عام ٣٣١ - ٣٤٣ للهجرة:

وقد تولى هذا بلاد خراسان وما وراء النهر، ثم استهل إمارته بالعفو عن بعض الأمراء الذين كرههم حال حياة أبيه من أجل أن يتحبب إلى الناس فينال منهم الرضى والمودة.

ثم بدأ الصراع بين السامانيين والبويهيين في إمارة نوح بن نصر، وتفاقم النزاع بين الفريقين حتى أفضى إلى هزيمة السامانيين الذين انضم أكثرهم إلى البويهيين خلال القتال، لكن نوحاً قد تهيأ من جديد لمحاربة ركن الدولة والاستيلاء على الري، ثم استولى بعد ذلك على بلاد الجبل في شهر رمضان من عام ٣٣٣ للهجرة، وقد توفي نوح بن نصر سنة ٣٤٣ للهجرة، فتولى الإمارة بعده ابنه:

عبدالملك بن نوح الساماني:

تولّى هذا إمرة السامانيين سنة ٣٤٣ للهجرة، فقلد قيادة الجيوش في خراسان لبكر بن مالك، لكن مدة إمرته لم تطل، فآلت السلطة من بعده إلى أخيه أبي صالح منصور بن نوح الساماني، ثم دبّت الفتنة من بعده في خراسان مما أفضى إلى ضعف الدولة السامانية مما أطمع بها أصحاب الأطراف.

وفي سنة ٣٥٦ للهجرة قامت الحرب بين منصور الساماني وركن الدولة البويهي في جهات الري، ولم ينتهِ العداء بين السامانيين والبويهيين إلا في عام ٣٦١ للهجرة إذ تم الصلح بين الأمير منصور بن نوح وعضد الدولة البويهي.

نوح الثاني:

وقد تلقَّب بالمنصور وكان في الثالثة عشرة من عمره، واضطلع بأمر الدولة السامانية في أول إمارته وزيره أبو الحسن العتبي، ولكن قائد الجيش في خراسان من قبل السامانيين وهو محمد بن إبراهيم بن سيمجور قد استبد بالأمر في هذه البلاد، واغتنم فرصة صغر الأمير نوح الثاني لتحقيق أطماعه،

فعزل الوزير العتبي، ثم نشبت الحرب في هذه السنة بين الأمير نوح بن منصور الساماني، وعضد الدولة البويهي الذي استولى على جرجان، ويضاف إلى ذلك تلك الثورة التي قام بها أحد أمراء البيت الساماني على الأمير نوح.

وفي إمرة نوح بن منصور، تعرضت الدولة السامانية للتبدد والانهيار، إذ ثار عليه اثنان من كبار القادة السامانيين واستعانا عليه ببغراخان التركي، وأطمعاه في الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر.

وقد طالت مدة إمرة نوح بن منصور الساماني إذ بلغت إحدى وعشرين سنة، لكن هذه المدة كانت مليئة بالثورات والحروب الأهلية بسبب صغر سن الأمير أولاً، وتدخل النساء والأمراء في شؤون الحكم ثانياً، كل ذلك قد آلى إلى:

زوال الدولة السامانية:

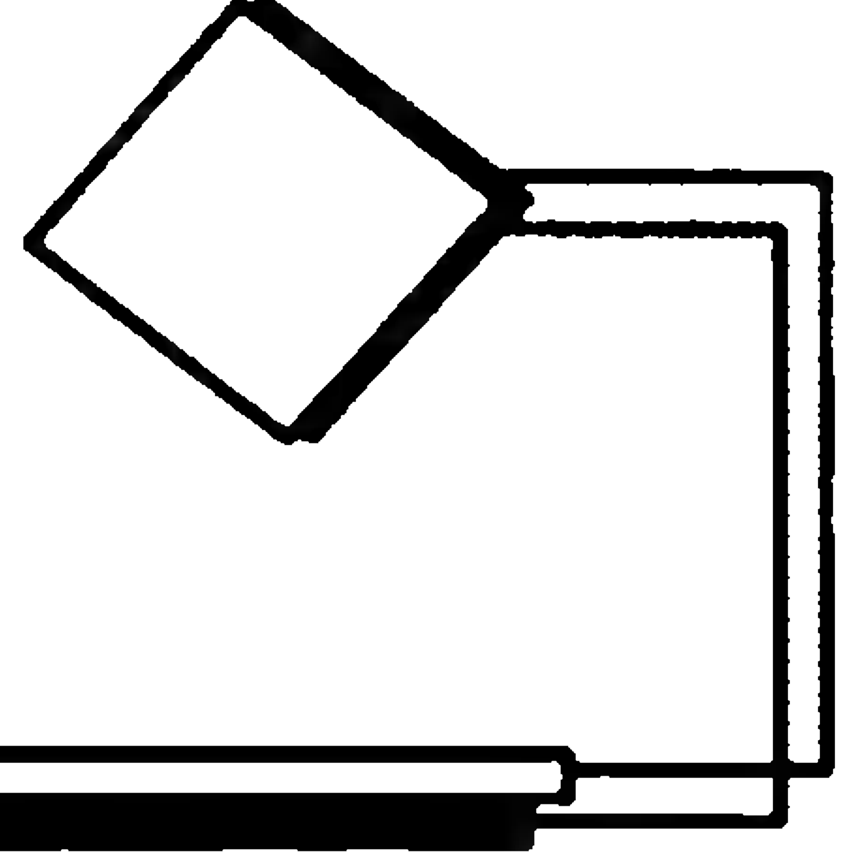
عقب وفاة نوح بن منصور الساماني سنة ٣٨٧ للهجرة، قام بعده منصور بن نوح الذي عمل على استجماع الناس من حوله، فأغدق الأعطيات على من بجانبه من القادة والأنصار.

لكنه في السنة التالية بدأ النزاع بين الأمير منصور بن نوح ومحمود الغزنوي، ولم يمضِ على نوح بن منصور في الإمارة غير سنة وسبعة أشهر حتى تولى بعده أخوه الصغير عبدالملك بن نوح، ومن خلال هذا الاضطراب الذي حل بدولة السامانيين تمكن محمود الغزنوي من الاستيلاء على نيسابور وبخارى واستقر ملكه بخراسان وأزال سلطان السامانيين عنها، فخطب فيها للخليفة المقتدر بالله.

وبذلك زالت الدولة السامانية على أيدي الغزنويين وخانات تركستان، فأصبحت كأن لم تغن بالأمس، شأنها في ذلك شأن الدولة التي سبقتها(1).



(1) تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ج٣ ص٤٤ ـ ٨٨.



الفصل الرابع
الدولة الغزنوية

وهذه نسبة للفاتح العظيم محمود الغزنوي الذي اصطبغت حملاته في بلاد الهند بصبغة الجهاد الإسلامي، الذي يراد به انتشار الإسلام في الهند وفي غيرها من البلاد، ومن أجل هذه الغاية الجليلة فرض محمود الغزنوي على نفسه أن يغزو الهند في كل عام، وقد ساعد على ذلك استيلاؤه على بلاد ما وراء النهر التي سيطر عليها إيلك خان التركي عقب زوال الدولة السامانية، وكذلك استيلاؤه على سجستان وبلاد الغور، فقد أدى ذلك إلى تقوية المكانة الحربية لمحمود الغزنوي في الداخل ومكنه من بعث حملاته المظفرة إلى بلاد الهند.

وفي سنة ٣٩٢ للهجرة، غزا محمود الغزنوي شمالي الهند وانتصر على جيبال وأسره وغنم مغانم كثيرة وأسر منهم أكثر من خمسمائة أسير، ثم سار محمود نحو ويهند، وانتصر على أهلها، ثم قصد إقليم الملتان في جنوب البنجاب على سمت غزنة، فاستولى على مدينة بهاطبة ونشر فيها الإسلام.

وقد أقسم محمود الغزنوي على أن يغزو بلاد الهند في كل سنة، لكنه انشغل في سنة ٤٠٧ للهجرة، بضم بلاد خوارزم عقب مقتل خوارزم شاه مأمون، وكان قد تزوج من أخت محمود واعترف بسلطانه وأراد أن يخطب على منابر بلاده، فقتله بعض قواده وأجلسوا ابنه مكانه، فقصد محمود هذه

البلاد واستولى عليها وولى عليها نائباً ليتفرغ للمسير إلى بلاد قشمير.

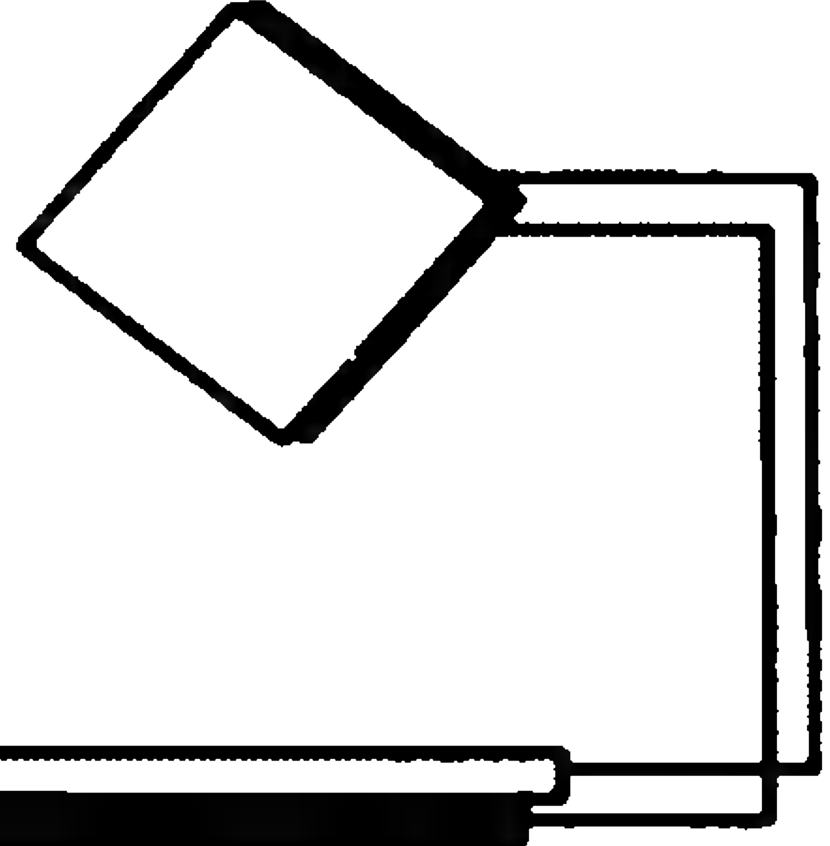
إلى غير ذلك من الغزوات المظفرة التي حققها محمود الغزنوي في بلاد الهند حيث التخلف والهمجية والجهالة وعبادة الأصنام، وقد سر محمود الغزنوي بهذا النصر المبين، فأرسل إلى الخليفة، يعلمه بما فتح الله على المسلمين في الهند من نصر.

ثم عاد محمود إلى غزنة وهو يحمل معه الغنائم الكثيرة للمسلمين، وكان آخر غزواته لبلاد الهند عام ٤١٨ للهجرة أي ١٠٢٧ للميلاد، وذلك لتأديب الثوار الذين اعترضوه أثناء إيابه إلى غزنة.

وبذلك بلغ محمود الغزنوي في فتوحه ما لم يبلغه في الإسلام ذو راية غيره، إذ دفع الله بهذا المجاهد العظيم صولة الشرك، فبنى في البلاد المفتوحة المساجد التي يذكر فيها اسم الله، وأقام على أنقاض بيوت الأصنام، مساجد الإسلام، لقد كتب للإسلام أن يعلو فوق ربوع هذا الشطر العظيم من العالم، فاستطارت عقيدة التوحيد وتبددت بذلك معالم الشرك والضلال والباطل وذلك بفعل الأبطال المخلصين الأماجد الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وفي طليعتهم هذا المظفر المغوار محمود الغزنوي رحمه الله[١].



(١) تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ج٣ ص٩٦ ـ ١٠٣.



الفصل الخامس
الدولة الحمدانية

الحمدانيون، ينسبون إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب العربية التي قامت بالقرب من مدينة الموصل، وكان حمدان قد تحالف مع هارون الخارجي هارون الشاري، وذلك عام ٢٧٢ للهجرة، واستولى على قلعة ماردين، ثم حاربه الخليفة المعتضد سنة ٢٨١ للهجرة، فهرب حمدان وقد ترك ابنه الحسين عليها، ثم ظفر الخليفة بحمدان بعد أن طارده وسجنه في بغداد، ثم أطلقه بعد مدة وأحسن إليه، وحينئذٍ أخذ شأن الحمدانيون في الظهور، وقد اشتهر الحسين بن حمدان في حروبه مع القرامطة.

وفي سنة ٢٩٢ للهجرة، قلّد الخليفة المقتدر أبا الهيجاء عبدالله بن حمدان الموصل وما يليها، وقلد غيره من بني حمدان بعض المناصب في الدولة، وأناب عبدالله بن حمدان ابنه ناصر الدولة الحسن عنه في حكم الموصل عام ٣٠٨ للهجرة، وظل محتفظاً بنفوذه فيها إلى أن مات عام ٣٥٨ للهجرة، بعد أن تمكن من بسط نفوذه على جميع أنحاء ديار بكر وديار ربيعة، ولقبه الخليفة المتقي ناصر الدولة، ولقب أخاه سيف الدولة.

ثم اشتهر ناصر الدولة بن حمدان وعلا شأنه في الدولة العباسية حتى تقلد فيها إمرة الأمراء.

وفي عام ٣٣٤ للهجرة، دخلت العلاقة بين البويهيين والخلافة العباسية طوراً جديداً، وقد كانت سياسة البويهيين تهدف إلى الحد من نفوذ

الحمدانيين في الموصل، إذ كان النزاع يدب فيما بينهم من حين لآخر.

ثم ما لبث بعد ذلك أن أصاب الضعف ناصر الدولة الحمداني خصوصاً عقب موت أخيه سيف الدولة الذي كان يحبه حباً عظيماً، فتغيرت بذلك أحواله النفسية وساءت أخلاقه وضعف عقله، ولم يبقَ له عند أولاده شأن يذكر، فقبض عليه ابنه أبو تغلب في مدينة الموصل فحبسه بها حتى وفاته سنة ٣٥٨ للهجرة.

وعقب وفاة ناصر الدولة الحمداني، اختلف أولاده فيما بينهم، وصاروا شيعاً وأحزاباً، فذب بذلك دبيب الضعف في الدولة، وقد انقسم أولاد ناصر الدولة إلى فريقين، فريق كان إلى جانب حمدان بن ناصر الدولة، وفريق آخر كان إلى جانب أخيه وهو أبو تغلب بن ناصر الدولة، ثم تمكن هذا من السيطرة على الموقف، فأوقع الهزيمة بأخيه حمدان.

وفي خلال العامين ٣٦٧ ـ ٣٦٨ للهجرة، استطاع عضد الدولة البويهي أن يستولي على الموصل وديار ربيعة وأمد، وديار مضر من يد أبي تغلب الحمداني.

لكن الحمدانيين تمكنوا فيما بعد من استعادة الموصل وما حولها عام ٣٧٩ للهجرة، على يد أبي طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة وأخيه أبي عبدالله الحسين، ولم يمكث الحمدانيون في الموصل عقب ذلك غير سنة إذ هزمهم الأكراد.

دولة الحمدانيين في حلب:

سار سيف الدولة الحمداني إلى حلب، فسيطر عليها عام ٣٣٣ للهجرة، واضطر أميرها وهو يانس المؤنسي ـ وكان قد وليها من قبل الإخشيد ـ أن يهرب إلى مصر، فأرسل الإخشيد جيشاً بقيادة كافور لمحاربة سيف الدولة، فتلاقى الفريقان بالقرب من نهر العاصي الذي يمر قريباً من حماة، فهُزم جيش الإخشيد، ثم سار سيف الدولة إلى دمشق مبتغياً دخولها والسيطرة عليها، فسار إليه الإخشيد في عشرة آلاف من جنده، وتمكنوا من

قهر الحمدانيين وهزيمتهم ثم دخلوا حلب، عاصمة الحمدانيين، واستردوا دمشق، لكن الإخشيد بعد ذلك عقد صلحاً مع الحمدانيين على أن يترك لهم حلب وما حولها من بلاد الشام، وتعهد أن يؤدي لهم جزية سنوية في مقابل احتفاظه بدمشق، وهو إنما يبتغي بذلك ـ كما يبدو ـ بقاء الدولة الحمدانية حصناً مكيناً يكفيه وجيبة التصدي للبيزنطيين الذين كانوا يهاجمون الولايات الإسلامية المتاخمة لهم باستمرار، فكانوا يقتلون ويأسرون من المسلمين كثيراً.

وبذلك امتاز عهد سيف الدولة بكثرة حروبه مع البيزنطيين والتصدي لهم، وقيل: إنه غزا بلاد البيزنطيين المجاورة أربعين غزوة، وقد انتصر في بعضها وهزم في بعضها الآخر، وبذلك كان كثير من البلاد الإسلامية مسرحاً للحروب التي دارت بين الحمدانيين والروم في ذلك العصر.

وقد ازدهر عهد سيف الدولة بالفصاحة والأدب فظهرت طائفة من مشاهير العلماء والكتاب والشعراء، وفي طليعة هؤلاء العالم النحوي أبو الفتح عثمان بن جنّي، وأبو الطيب المتنبي وهو إمام الشعراء من غير منازع، ومن أمراء الحمدانيين من اشتهر بالشعر كأبي فراس الحمداني وهو ابن عم سيف الدولة، وكان سيف الدولة نفسه بارعاً في الشعر.

وقد توفي سيف الدولة في حلب عام ٣٥٦ للهجرة، بعد حكم استمر ثلاثاً وعشرين سنة، فتولى بعده ابنه:

سعد الدولة:

وفي عهده بدأ الضعف يسري في جسم الدولة الحمدانية في حلب، ثم وقع النزاع بين الحمدانيين وقادتهم فقامت بينهم الحروب الأهلية، ومن ظواهر الشر والفساد الذي آل إليه بنو حمدان آخر عهدهم أن يستعين بعضهم على بعض بالروم، فقد استعان بهم سعد الدولة، مثلما استعان أحد قادتهم بكجور بالفاطميين.

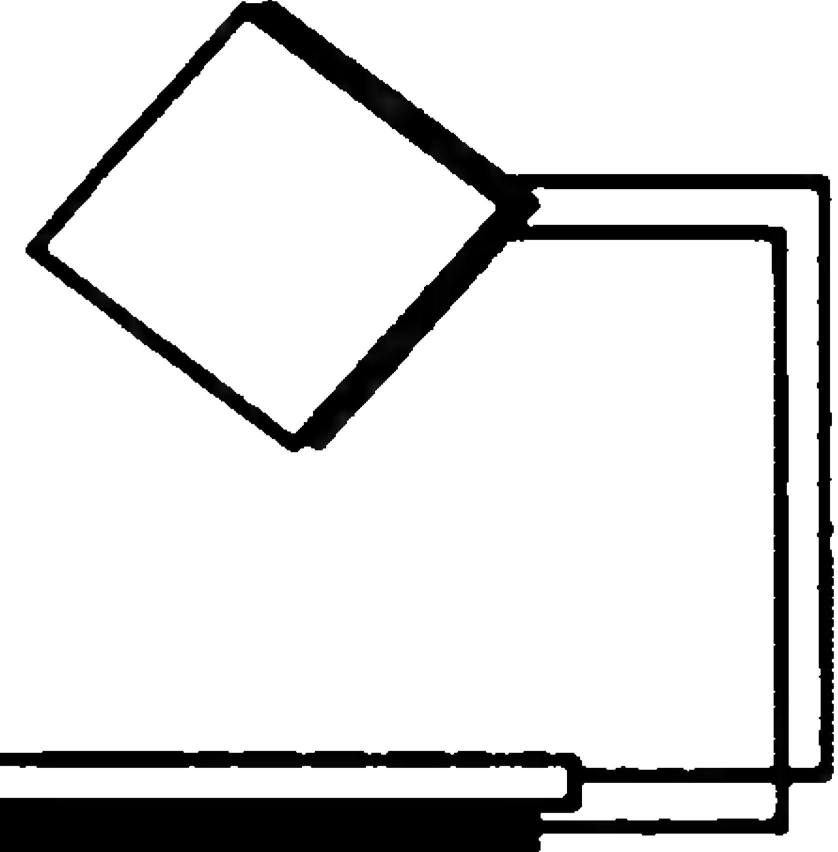
وقد أراد سعد الدولة أن يوحد الصفوف بين جند الحمدانيين جميعاً،

وجنح إلى اللين والمسالمة بدلاً من سياسة النزاع والحرب، فكتب إلى بكجور يدعوه إلى الولاء والكف عن المناوأة والقتال، وقد وعده أن يقطعه الأراضي الممتدة بين حمص والرقة، لكن بكجور لم يزدد إلا اغتراراً وجنوحاً إلى القتال، وقد وقعت الحرب بينهما، فكانت الدائرة على بكجور، لكن سعد الدولة قد عَرَضَتْ له علة فمات منها عام ٣٨١ للهجرة، فحمل إلى الرقة ودفن بها.

ثم تولى من بعده ابنه سعيد الدولة وكان قد عهد إليه وهو في مرضه الأخير، فما لبث سعيد الدولة أن وقع في شر لؤلؤ الذي آلت إليه الوصاية عليه، فطمع هذا في ولاية سعيد الدولة وفي قتله، ثم ملك الدولة الحمدانية وجعل ابنه منصوراً ولياً على الدولة سنة ٣٩٤ للهجرة، وبعد ذلك مات لؤلؤ فخلفه ابنه منصور الذي اعترف بسلطان الخليفة الفاطمي الحاكم، مما مكُن الفاطميين من مد نفوذهم إلى حلب ثم استطاعوا رويداً رويداً أن يقضوا على حكم الحمدانيين في حلب(١).



(١) تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ج٣ ص١٣٠ - ١٣٢.



الفصل السادس

الدولة الطولونية

قامت هذه الدولة في مصر والشام فيما بين ٢٥٤ ـ ٢٩٢ للهجرة، وقد استقلت هذه الدولة بالحكم استقلالاً شبه تام، واستمر عمرها مدة ثمان وثلاثين سنة وقد حظيت البلاد في هذه المدة القصيرة خلال هذه الدولة بالموفور من التقدم والإصلاح.

على أن المؤسس لهذه الدولة هو أحمد بن طولون، وهو تركي، وكان أبوه أحد الأتراك الذين كان يرسلهم الولاة من بلاد ما وراء النهر إلى الخلفاء العباسيين ضمن هداياهم، وقد كثر هؤلاء الأتراك منذ ولي المعتصم الخلافة عام ٢١٨ للهجرة، وقد كانت أمه تركية، وبذلك اعتمد هذا الخليفة على العنصر التركي، وقد اتخذ من الأتراك حرساً له وأسند إليهم مناصب الدولة، وكان باكباك التركي قد تقلد ولاية مصر، فاستخلف عليها ابن طولون وجعله على حاضرتها، وكان ولاة مصر في ذلك العصر لا ينيبون عنهم أحداً في هذه البلاد، بل كانوا يقسمون الأعمال فيها بين عدة أشخاص، وبذلك فإن ولاية مصر لم تصْفُ لابن طولون، فهو إنما تقلد أمر القصبة لهذه البلاد دون غيرها، فكان يحكمها باسم واليها باكباك.

ولما قتل باكباك، تقلد ولاية مصر يارجوخ، وهو صهر أحمد بن طولون، فأقره على ما بيده وزاد في سلطته باستخلافه على كل مصر.

وفي شهر رمضان من عام ٢٥٩ للهجرة، مات يارجوخ وهو صاحب

أقطاع مصر التي كان ابن طولون يحكمها نيابة عنه ويدعو له على منابرها بعد الخليفة، فاستتب أمره في هذه البلاد وأصبح والياً عليها بعد الخليفة مباشرة.

وأخيراً عرضت لابن طولون علة آلت به إلى الموت عام ٢٧٠ للهجرة، وله من العمر خمسون سنة ودفن في سفح المقطم بعد أن حكم نيفاً وستة عشر سنة.

أما سيرته وخلقه، فقد كان قوي البأس والشكيمة، وقد اتسع ملكه حتى امتد من العراق إلى برقة، ومن النوبة إلى آسيا الصغرى، حتى إن أمبراطور الروم قد خشي بأسه، وكان مثالاً في الكرم والجود والشجاعة، وكان عادلاً متواضعاً مكرماً للعلماء، متصدقاً على الفقراء، وقد كان ابن طولون رحمه الله من حفظة القرآن.

وعقب وفاة ابن طولون، اجتمع الجند ـ كعادتهم في ذلك الوقت ـ وولوا مكانه ابنه:

خمارويه ٢٧٠ ـ ٢٨٢ للهجرة:

وعقب توليته بادر الخليفة العباسي للموافقة على تعيينه، وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة، وقد واجهته خلالها صعاب كثيرة، ذلك أن مصر في عهده كانت موضع أطماع للمتنافسين من القادة الأتراك.

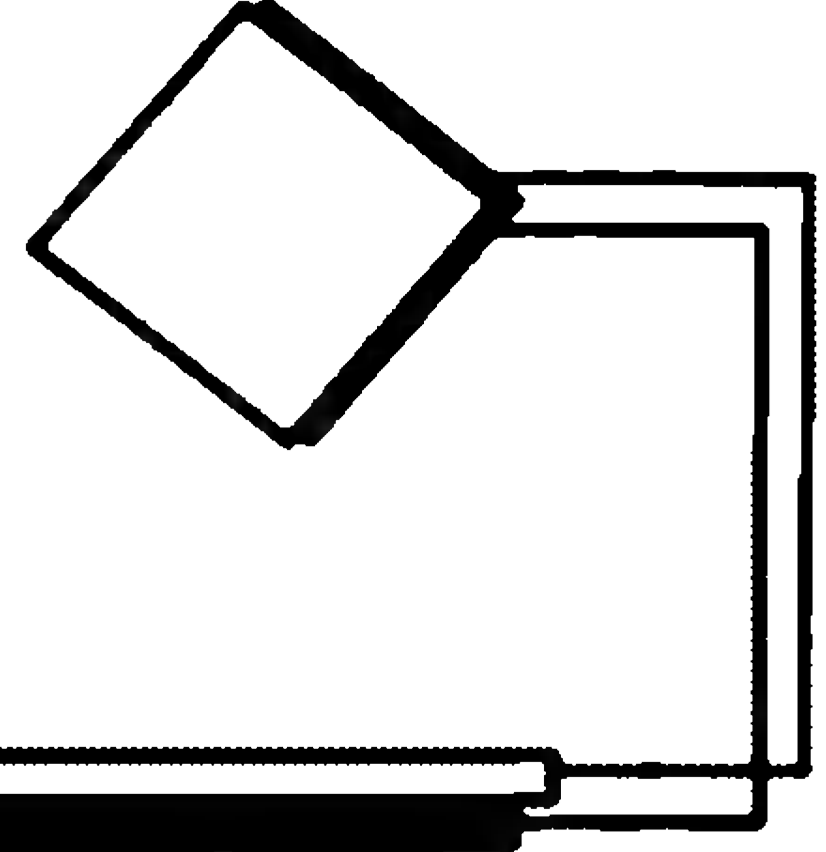
وعقب موت الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩ للهجرة، توطد سلطان خمارويه إذ تمكن من استرضاء الخليفة المعتضد فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة، وجعلها لأولاده من بعده، ومن سياسة خمارويه في اللين والمصانعة أن عرض زواج ابنته أسماء الملقبة بقطر الندى من ابن الخليفة العباسي، لكن الخليفة اختارها لنفسه.

وقد توفي خمارويه عام ٢٨٨ للهجرة فتولى من بعده ثلاثة من آل طولون لم تزد مدة حكمهم على عشر سنين، ولم تحظَ البلاد خلالها بشيء من الإصلاح إلا شيوع الفوضى، والتنازع بين المتنافسين على السلطة

ثم انتصار الجند لفريق دون فريق، وظل الأمر على هذه الحال من الفتن والفوضى والتنازع إلى أن آلت الدولة إلى الزوال لتقوم على أنقاضها الدولة الإخشيدية(١).



(١) تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ج٣ ص١٣٣ ـ ١٤٠.



الفصل السابع
الدولة الإخشيدية

قامت هذه الدولة في مصر والشام ما بين ٣٢٣ ـ ٣٥٨ للهجرة أي ٩٣٥ ـ ٩٦٩ للميلاد، وكان كل ملك من ملوكها يلقب بالأخشيد، مثلما يلقب ملك الفرس بكسرى، وملك الروم بقيصر، وملك الحبشة بالنجاشي.

وكان أول ملوك هذه الدولة محمد بن طغج الذي اشتهر أمره في الدولة العباسية منذ سنة ٣٠٦ للهجرة، وازداد شأنه ظهوراً على أثر انتصاره على جند الفاطميين الذين غزوا مصر مدة ثلاث سنوات بدءاً بعام ٣٢١ للهجرة، فأمر الخليفة العباسي بزيادة لقب الأخشيد على اسمه وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك فرغانة.

وفي سنة ٣٢٨ للهجرة، وقعت حرب في العريش بين جند الأخشيد وجيش الخليفة العباسي، بقيادة محمد بن رائق الخزري الذي كان قد استولى على دمشق من قبل، لكنه هزم هنا في معركة العريش، فولى هارباً إلى الرملة.

وقد ساءت العلاقة بين الأخشيد وسيف الدولة الحمداني بسبب استيلاء هذا على حلب مما اضطر الأخشيد إلى عقد الصلح معه بما يقتضي التخلي عن حلب، وما يليها من بلاد الشام للحمدانيين.

وقد مات الأخشيد بدمشق عام ٣٣٩ للهجرة وهو في السادسة والستين من عمره، وقد نقل إلى القدس ودفن بها بعد أن ولي مصر إحدى عشرة

سنة، وكان قبيل وفاته قد عهد إلى كافور بالوصاية على ولده أبي القاسم أنوجور.

وقد كان كافور شغوفاً بالإمارة، شديد الولع بالحكم، فقد ظل يباشر أمور الدولة بنفسه ولم يعبأ بالوالي أنوجور ولا بأخيه من بعده وهو أبو الحسن علي بن الأخشيد.

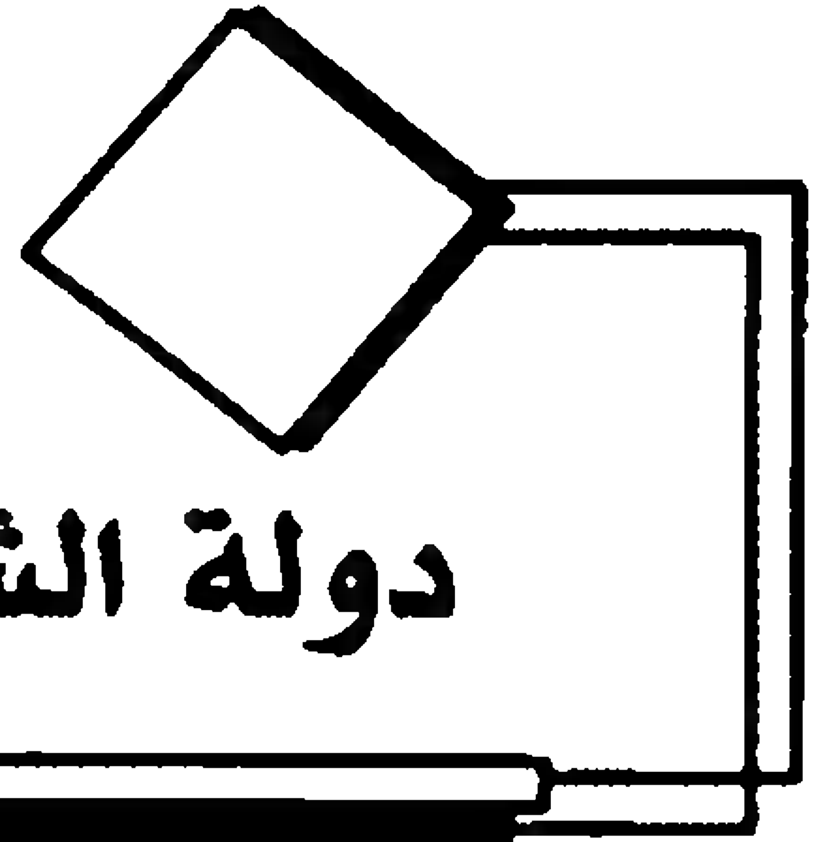
وقد ظلّ كافور الحاكم الحقيقي للدولة المصرية نيفاً وسنتين، وفي عهده حاول المعز لدين الله الفاطمي، رابع الخلفاء الفاطميين العودة لغزو مصر، فسار بجيشه إلى حدودها الغربية، ثم تلقى كافور دعاة الفاطميين بالقبول فأذعن بالطاعة للمعز وبتقديم الولاء للخليفة الفاطمي.

وفي عام ٣٥٧ للهجرة، توفي كافور بمصر عن بضع وستين سنة بعد أن حكم مصر ثلاثاً وعشرين سنة.

وبعد وفاته اختار رجال البلاط أبا الفوارس أحمد حفيد الأخشيد والياً على البلاد، وكان صغيراً لم يبلغ الحادية عشرة من العمر، فجعلوا الحسن بن عبيدالله بن طغج وصياً عليه، فما لبث أن استبد بالأمر وعامل الناس بالسوء، فاغتنم المعز لدين الله الفاطمي فرصة الاضطراب في مصر، فبعث جيشاً لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلي عام ٣٥٨ للهجرة[١].



(١) تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم ج٣ ص١٤٢ ـ ١٤٩.



الفصل الثامن
دولة الشراكسة في مصر والشام

كان ابتداء ملكهم سنة أربع وثمانين وسبعمائة، وكانت مدة ملكهم مائة وثمانية وثلاثين سنة.

على أن الشراكسة جنس من الترك، وهم تابعون لسلطان سراي ملك خوارزم، وكان الملك المنصور قلاوون - وهو من ملوك الأتراك وصاحب مصر - قد استكثر من شراء المماليك الشركس، وكذلك أولاده وأولادهم وأدخلوهم في الخدم وسلكوا أساليب أسيادهم ملوك الترك، ثم أدخلوا السلطة واستحوذوا عليها واستكثروا من جنسهم، فكانوا قادة وأمراء في الدولة حتى تولى بعضهم السلطنة وهم اثنان وعشرون ملكاً.

وذلكم تبيان وجيز لملوك الشراكسة:

السلطان الملك الظاهر سيف الدين:

وهو أبو سعيد برقوق بن آنص العثماني، جلبه عثمان بن مسافر، ومن أجل ذلك سمي برقوق العثماني، ثم اشتراه الأمير يلبغا، وقد سمي برقوق لجحوظ في عينيه، ثم تقدمت به المراقي حتى صار أميراً للملك الصالح حاجي بن الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر بن محمد قلاوون.

وكان عمر الملك الصالح حاجي لما ولي السلطنة عشر سنين ولم يكن له من السلطنة حينئذٍ إلا الاسم، ولذلك ألزم الأمراء برقوق بخلعه من

السلطنة ثم يتولى هو بدله، فتحقق ذلك بعد سنة ونصف، فتمكن برقوق من المملكة، فجمع الأموال الكاثرة وحاز الخزائن فتمكن من شراء المماليك الشراكسة، فتمكن هؤلاء في الدولة واستحوذوا على ملك مصر فصاروا ملوكها وسلاطينها بقوة النفوذ والسلطان.

وبالرغم من ذلك، فكانت تقع بينهم فتن ومشكلات ونزاعات فأزهقت أرواح ووقع خوف وبؤس، حتى يستقر الحكم لواحد منهم فيمسك بمقاليد الملك ويستتب الأمر وتسكن النفوس.

ولما تسلطن برقوق استقر له الأمر حتى اختلف عليه الأمراء، فخرج عليه يلبغا وتمربغا فمضى برقوق إليهما لقتالهما فهزماه، ثم اشتد بأسهما وتمكنا من ملك مصر.

أما برقوق فقد حبس بالكرك مدة ثم خرج فجمع العساكر وقاتل خصومه فاستحوذ عليهم وغلب على المملكة وأعيد إلى السلطنة، لكن هذه الغلبة لم تدم طويلاً ببرقوق فعهد بالسلطنة إلى ولده النصار فرج، وتوفي برقوق سنة واحد وثمانمائة، وكانت مدة ملكه ست عشرة سنة.

الملك الناصر:

هو أبو السعادات فرج بن برقوق، خلف أباه برقوق في الملك، فصار مدبر مملكته الأمير ايتمش، وخازنداره الأمير يشبك، وقد وقعت بينهما نزاعات وخلافات أفضت إلى قتال، فهزم ايتمش فولى هارباً إلى الشام، فجهز هنالك جيوشاً وتهيأ لقتال الملك الناصر والأمير يشبك، فخرج الناصر لقتالهم فهزمهم، وقد أفضى ذلك إلى اضطراب الحال في مصر.

وفي هذه الأحوال، سار تيمورلنك إلى بلاد الشام ثم دخلها، فخرج إليه الملك الناصر فرج لمناجزته فوجده قد توجه إلى بلاد الروم، ثم عاد فرج إلى مصر سنة ثلاث وثمانمائة.

ومن مآثر الملك الناصر فرج، إصلاح ما خُرب في المسجد الحرام بسبب الحريق الذي أصابه سنة ثنتين وثمانمائة، وكانت النار قد تسربت إلى

الحرم من سراج كان صاحبه قد تركه فاحترق ما حول السراج ثم بلغت النار سقف المسجد فاشتعل ثم احترقت الأروقة، فأرسل الملك فرج الأمير بيسق إلى مكة، وكان هذا أمير الحاج المصري، فعمر المسجد الحرام في مدة يسيرة وكملت في مدة سنة من الإعمار.

وقد نشبت بمصر فتن أثارها الأمراء الظاهرية على الملك الناصر فرج، فسئم من ذلك وولى هارباً ثم اختفى عن الأنظار، فافتقده الناس وحاروا في أمره، ثم أقاموا بدلاً منه في الملك أخاه الملك المنصور عبدالعزيز بن برقوق، فاضطربت أمور الدولة لصغر سنه واختلاف الأمراء عليه، ثم ظهر الناصر فرج عقب هروبه واختفائه، فسار مع أمراء من مماليك أبيه فدخل القلعة، ثم بادر إلى نفي أخويه عبدالعزيز وإبراهيم إلى الإسكندرية حيث ماتا فيها، وقد اتُّهم الملك فرج بقتلهما.

ثم انطلق الملك الناصر فرج متتبعاً أعداءه من الأمراء فيقتلهم واحداً بعد آخر، فلم يجدوا بداً من التمالؤ عليه فقاتلوه لكنه هزمهم ففروا إلى الشام وصاروا يكيدون له كيداً، وقد أعجزوه في متابعتهم وطلبهم فسئم منه جنده وأتباعه فلم يلبثوا أن يتمالأوا عليه لمناجزته فقتلوه.

ثم تولى السلطنة من بعده:

الأمير شيخ المحمودي:

ولقبه الملك المؤيد، وأصله من مماليك الظاهر برقوق إذ اشتراه هذا من تاجر اسمه محمود اليزدي، فأعتقه برقوق، وسمي المحمودي نسبة لمالكه التاجر محمود.

وقد صعد في مراقي السلطنة ودرجاتها حتى ولي نيابة طرابلس فأسره تيمور مع أسارى النواب في البلاد الشامية، ثم هرب المؤيد من الأسر حتى آل به الأمر أن يصبح سلطاناً في خلافة أمير المؤمنين المستعين بالله العباسي المصري، ثم خرج عن طاعته نواب البلاد الشامية، فسار لقتالهم عدة مرات وقد افتتح الشام وغيرها من البلدان ثم عاد إلى مصر، وكان شجاعاً مهيباً.

ومن مآثره أنه أرسل منبراً حسناً إلى المسجد الحرام.

وقد توفي المؤيد الأمير شيخ المحمودي سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وقد مكث في السلطنة ثماني سنوات وخمسة أشهر.

ثم تولى من بعده ولده:

الملك المظفر:

وهو أحمد بن المؤيد، ولقب بأبي السعادات، تولى السلطنة بعد أبيه بعهد منه، وكان عمره حينئذٍ دون سنتين، وكان مدبر مملكته الأمير ططر وهو أمير مجلس العساكر، وقد نازعه أمير الشام ومن معه، فسار ططر إليهم ومعه الملك المظفر أحمد وهو طفل، فقاتلهم ططر وتغلب عليهم فاستقر له الحال ولم يبق له خصيم، فخلع الملك المظفر أحمد، ثم تولى هو أمر السلطنة.

السلطان ططر:

وهو من مماليك الظاهر برقوق فأعتقه وكرّمه تكريماً، ثم جعل يرقى في مراتب السلطنة ومناصبها حتى صار عند المؤيد أمير مجلس، ثم تسلطن فأمسك بمقاليد البلد، ولقب بالملك الظاهر، وهو لقب أستاذه وسيده.

وعقب صيرورته سلطاناً عاد بالملك المظفر أحمد الطفل إلى مصر واستمر هنالك بالقلعة حتى نقل إلى الإسكندرية، فمات فيها مطعوناً في نفس السنة، فكانت مدة سلطنته سبعة أشهر، وقد نقل جثمانه إلى الجامع المؤيدي داخل باب زويلة، رحمه الله.

ثم تولى من بعد ططر ابنه:

الملك محمد بن الظاهر ططر:

تولى من بعد أبيه وكان عمره إذ ذاك عشر سنوات، وكان أتابكه ومدبر مملكته جان بك الصوفي، وقد تغلب هذا على منافسه الأتابك رسباي

الدقماقي فأمسك به، ثم أودعه السجن في الإسكندرية، فاستبد من بعده بأمور المملكة من غير منافس أو شريك.

ثم اجترأ بعد ذلك على ما هو أكبر إذ خلع الملك الصالح محمد بن الظاهر، ولم تدم مدة ملكه أكثر من أربعة أشهر، فلبث بعد خلعه في كنف أمه بالقلعة حتى مات بالطاعون.

ثم تولى من بعده:

الملك الأشرف برسباي الدقماق:

كان هذا مملوكاً لدى الظاهر برقوق فأعتقه ورقّاه، وظل يترقى حتى صار سلطاناً للمملكة وذلك بعد أن قبض على محمد بن ططر.

ومن مناقب هذا السلطان أنه فتح قبرص، وتمكن من أسر ملكها سنة تسع وعشرين وثمانمائة، وكان هذا في تخت مملكته.

ومن مناقبه كذلك فتح آمد سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة، وقد توفي سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، فكانت مدة ولايته ست عشرة سنة وثمانية أشهر.

ثم تولى من بعده ولده وهو:

الملك العزيز يوسف بن برسباي:

وكان عمره يوم توليه السلطنة أربع عشرة سنة، وقد تولى يوم موت أبيه، فصار مدبر مملكته جقمق، فما فتىء يعلو شأنه في الدولة ويزداد رسوخاً ومهابة حتى تمكن من خلع العزيز عقب تسلطنه بثلاثة أشهر، ولم يكن له خلال هذه المدة سوى الاسم والصورة.

وبذلك تولى جقمق أمر السلطنة بدل الملك العزيز ولقب بالملك الظاهر سيف الدين، وكنيته أبو سعيد جقمق العلائقي، فجلس على سُدة الملك، وذلك سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة، ولقب بالعلائي نسبة إلى الذي

اشتراه وهو علاء الدين، فنسب إليه فقيل العلائي، ثم انتقل إلى الظاهر برقوق فقيل الظاهري، وظل يترقى في مراتب السلطنة بدءاً بكونه ساقياً، ثم أمير عشرة مقدم مائة، ثم خازنداراً، ثم من مقدمي الألوف، ثم حاجب الحُجّاب، ثم أمير سلاح، إلى أن بات سلطاناً للمملكة، وحينئذٍ خرج عن طاعته الأمير قرقماش، فقاتله جقمق العلائي ثم قبض عليه وسجنه في الإسكندرية ثم قتله، وكذلك خرج عن طاعته نواب آخرون في حلب والشام فقتلهم جميعاً، وبذلك استتب له الأمر وصفا له الحال من غير منافس أو خصيم.

وكان هذا السلطان من حيث سلوكه ذا تواضع ورفق بالفقراء والعلماء والصالحين، وكان يرغب في تربية الأيتام ويحسن إليهم، وكان عفيفاً عزوفاً عن المنكرات والفواحش، وليس له في خصلة التعفف عن الفساد نظير في ملوك الشراكسة، وكان ذا ديانة وعلم، ويتعصب للمذهب الحنفي، وقد ظل في السلطنة مدة خمس عشرة سنة.

وفي سنة سبع وخمسين وثمانمائة، ألمّ به مرض عضال، فخلع نفسه من السلطنة رحمه الله.

ثم تولى من بعده ولده:

فخر الدين عثمان بن جقمق:

وكان يلقب بالملك المنصور، وقد أحبه الناس ورضوا به، وكان عمره إذ ذاك دون العشرين، وقد باشر الحكم بعد أن جلس على تخت السلطنة حتى توفي أبوه بعد ولايته الملك باثني عشر يوماً، فما لبث الفتنة أن شبّت بين الأمراء مما أفضى إلى خلع عثمان بن جقمق فقاتل هذا عقب خلعه قتالاً شديداً ثم حبس، فتمكن من الخروج ثم قبض عليه وأودع السجن في الإسكندرية حتى أطلقه السلطان خشقدم وكانت مدته في السلطنة أربعين يوماً[1].

---

(١) سمط النجوم العوالي ج٤ ص٣٠ ـ ٤١.

ثم تولى من بعده:

أينال العلائي:

وهو الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر أينال العلائي، وقد تولى هذا أمر البلاد يوم خلع سلفه عثمان، وأينال كان مملوكاً لبرقوق، ثم أعتقه ابنه فرج، ثم رقاه جقمق حتى جعله أتابكاً، وظل يترقى حتى تسلطن، واستمرت مدة ملكه ثماني سنوات، ثم خلع نفسه من السلطنة لولده الملك المؤيد شهاب الدين أحمد بن أينال العلائي:

أحمد بن أينال:

ولي السلطنة عقب موت أبيه بيوم واحد، فاستمر في الملك خمسة أشهر ثم اتفقت الطوائف على خلعه من غير موجب، ثم حبسوه عقب خلعه في الإسكندرية، وظل رهين السجن، حتى أطلقه تمربغا الظاهري إبان سلطنته.

ثم تولى من بعد أينال:

سيف الدين خشقدم:

وهو رومي الأصل، اشتراه الملك المؤيد ثم أعتقه، وكان أينال قد اتخذه لولده أتابك، لكنه خلعه بعد خمسة أشهر فبات سلطاناً مكانه.

وكان خشقدم حسن السيرة لولا ما فيه من شح وجنوح للطمع مما أزهد الناس فيه فتمنوا زواله، فما لبث بعد ذلك أن أصابه مرض شديد مات فيه، بعد مكثه في الملك ست سنين، فتولى من بعده:

بلباي المؤيد:

كان أتابك خشقدم، وقد خلع على الأمير تمربغا عوضاً عن نفسه منصب الأتابكية، وقد لقب بالملك الظاهر، وقد كان ضعيفاً في إدارة السلطنة فلم يمكث في الملك سوى شهرين اثنين إذ خلعه الأمراء وولوا مكانه:

تمربغا الظاهري:

وهو الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا، وهو رومي الأصل، فقد كان من مماليك جقمق، فأعتقه هذا واعتنى به صغيراً، وظل يترقى في سلطنته حتى صار أتابكاً «قائداً» للجيش ثم بلغ الأوج في مراتب الدولة وهو الملك، لكن الأمراء ـ كعادتهم في هذه الحقبة من الزمن ـ لم يمهلوه طويلاً بل خلعوه ونفوه إلى الإسكندرية بعد شهرين إلا قليلاً من مدة حكمه، ثم تولى من بعده:

السلطان الأشرف قايتباي:

وهو الظاهري الشركسي، وقد سمي المحمودي لأن الخوجا محمود جلبه إلى مصر، فنسب إليه، فاشتراه الأشرف برسباي، ثم أعتقه الظاهر جقمق ونسب بالظاهري إليه.

كان رحمه الله حميد الخلال، عظيم الخصال، عزَّ نظيره في الشراكس من الرجال، فكان ملكاً جليلاً كريماً محباً لفعل الخيرات وإسداء المبرات، ومن جملة أفعاله الجليلة الكثيرة: بناؤه في المساجد الثلاثة التي تُشد إليها الرحال عدة رُبط ومدارس وجوامع عظيمة الآثار، ساطعة الأنوار، ويشهد له بذلك أيضاً آثاره في مصر والشام وغزة، ومن جملة ذلك أيضاً بناؤه مسجد الخيف العظيم، وقد جعل في وسط المسجد قبة عظيمة، كانت حد مسجد رسول الله ﷺ.

وفي سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة، أمر السلطان قايتباي وكيله الخوجا شمس الدين محمد بن عمر أن يجد له موضعاً على الحرم المكي، كيما يبني فيه مدرسة للتدريس على المذاهب الفقهية الأربعة، ورباطاً يسكنه الفقراء، وأن يعمل له بعض المرافق التي يتحصل منها ريع كبير يصرف منه على القراء والمدرسين والمتصوفين والفقراء، وأن يعمل منه مكتب للأيتام وغير ذلك من وجوه الخير الكثيرة وأعمال البر العظام مما لم يعمله سلطان قبله.

ومن أعظم صنائع قايتباي رحمه الله، إصلاح المسجد النبوي عقب احتراقه وذلك في ثلث الليلة الأخيرة من ليلة الاثنين ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وثمانمائة، فأصلحه وعمّره تمام التعمير.

ومما تجلى في هذا السلطان المؤمن من جليل الظواهر أن أحداً من ملوك الشراكسة لم يحج غيره وذلك لتمكنه في الملك ولتمام ضبطه وحسن تدبيره، ولتعلق الناس به وحبهم إياه، فكان بذلك أمكن الملوك ملكاً وأرسخهم مكانة وقوة وأنفقهم للعباد في دينهم ودنياهم، وقد ظل هذا المؤمن العادل السديد على حاله في ولاية العباد من صنع الخيرات وفعل المبرات ونصرة العلماء والفقراء والمؤمنين حتى جاءه الأجل المحتوم الذي لا محيد عنه ولا مناص، إذ توفاه الله سنة إحدى وتسعمائة وكانت مدة حكمه ثلاثين سنة، رحمه الله في الصالحين المقربين الأبرار.

ثم تولى من بعده:

محمد بن السلطان قايتباي:

وهو الملك الناصر أبو السعادات محمد بن قايتباي، كان هذا على خلاف أبيه قايتباي تماماً، فأبوه موضع الإطراء والثناء من الناس لما كان عليه من عظيم السيرة وكريم الخلق، وهو التقي النقي العابد المفضال، أما هذا فإنه السفيه الأحمق التافه، الذي غلبت عليه سجيته الفاسدة في اللهو والعبث والسلوك المستهجن الشاذ، وقد حكيت عنه في ذلك مسائل وممارسات عجاب لا تصدر إلا عن مجنون معتوه يتخبط، أو طفل صغير يحبو فوق التراب على وجهه حبواً.

ومن جملة ما حكي عنه من أخبار تثير الدهش والذهول وتزجي باليقين، على أن هذا الرجل ما كان سوي الطبع أو الفطرة بل كان على غاية الدركات من الشذوذ والانحراف الخلقي، الذي يسوّل للمأفونين الشذاذ فعل المنكرات والموبقات التي تبرأ منها طبائع المؤمنين الذين جُبلوا على عقيدة الإسلام وعلى قيمه الرائعة الناصعة في حسن التأديب والتهذيب، فقد حكي

أنه كان إذا سمع بامرأة حسناء هجم عليها وقطع دائر فرجها ونظمه في خيط أعده لنظم فروج النساء، وغير ذلك من الحكايات المثيرة التي تكشف عن صنف من الأناسي موغل في عقم الفطرة وشذوذ الطبع، أولئك هم الجانحون من شذاذ البشر في كل زمان ومكان، نسأل الله العافية والمعافاة.

على أن هذا السلطان الجهول المأفون قد عافه الناس، ونفروا منه غاية النفور فهجم عليه بعض مماليك أبيه وقتلوه سنة أربع وتسعمائة بعد مكثه في السلطنة ثلاث سنين.

ثم تولى من بعده خاله:

الملك الظاهر قانصوه:

كان هذا أمياً جاهلاً، إذ كان قريب العهد ببلده فقد جُلب للسلطان قايتباي من بلاده، وهو كبير فكان لا يعرف إلا بلسان الشركس، فاستعصى عليه أن يتأهل للسلطنة وتدبير أمور الناس لفرط جهله وبساطته، فخلعوه من الملك سنة خمس وتسعمائة، عقب مدته في الحكم وهي سنة وسبعة أشهر، ثم تولى من بعده:

الملك العادل طومان باي:

لم يحظَ هذا الملك بيوم كامل واحد في السلطنة بل هجم عليه العسكر وقتلوه، وقد اتفقوا على تولية قانصوه الغوري لما رأوه فيه من لين وأنه سهل الإزالة عن الملك إذا أرادوا ذلك، وذلك لما رأوه فيه من ضعف، وقلة في المال، فلما أشاروا عليه بالتقدم للسلطنة أبى عليهم ذلك إلا أن يعاهدوه ويعطوه موثقاً من الله أن لا يقتلوه، فإن أرادوا خلعه أخبروه بذلك ليتخلى لهم عن الملك، فوافقوه على ذلك، وقد تولى من بعده أمر السلطنة:

قانصوه الغوري:

ولقبه الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري، ففرح به العسكر لما سئموا تعدد السلاطين وسرعة زوال ملكهم.

على أن قانصوه الغوري كان ذا حيلة ودهاء وشح، وكان يجنح للظلم والفسق كثيراً، وكان يمكر بالأمراء والعسكر مماكرة ويخاتلهم مخاتلة وهو في طويته يبغضهم ويتكلف المحبة والتقرب لهم تكلفاً، فأذعنوا له بالسلطنة، وخمدت بذكائه ودهائه الفتنة.

وبالرغم من ذلك فما كان قانصوه الغوري ليخرج عن طوع طبعه الماكر الغلاب، وهو طبع يجنح به للظلم والشر والإفساد جنوحاً، ومما يكشف عن حقيقة ذلك رغبته في تحصيل الوقيعة بين الأمراء وضرب بعضهم ببعض، وكان يستجلب أعداداً كبيرة من المماليك اتخذهم له عملاء، فمكن لهم تمكيناً فانساحوا في البلاد وأهلكوا العباد وأثاروا في الأرض الفساد، إلى غير ذلك من وجوه الشر وفعل المنكرات التي تلطخ بها هذا السلطان الغافل، مما أثار في الناس الكراهية له والنفور من غشمه واعتسافه، فدعا عليه كثير من المظلومين الذين لا ترد دعوتهم ولا يحول بينها وبين الله حائل أو حجاب.

ولكي يتجرجر هذا السلطان إلى قدره المحتوم من الانتقام الموعود والتبديد المحقق، برز بجنوده وبنوده (أعلامه) وأمواله وأنصاره وأعوانه من مصر إلى حلب لقتال السلطان سليم خان، فما لبث أن كسر شر كسرة، فحاقت به وبجنوده الهزيمة الماحقة فقتل أكثرهم، أما هو فقد داسته سنابك الخيل فتمزق بدداً.

وكان ذلك سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة، وكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر.

ولما قتل الغوري وانكسرت عساكره هرب بقية الشراكسة إلى مصر ثم جعلوا الدوادار الكبير طومان باي سلطاناً، فتولى هذا أمر السلطنة، والسلطان سليم من جهته يتعقب فلولهم الهاربين وولى طومان باي هذا هارباً، فكتب له السلطان سليم كتاباً يستميل به قلبه ويعده بكل خير وإحسان إن دخل في طاعته وكف عن إشعال الفتنة بين المسلمين، فلم يعبأ طومان باي بذلك بل قتل من جاء بالكتاب، ثم سار بعساكر من المماليك والعربان في سبعة آلاف

مقاتل قاصداً بهم العريش، وسار السلطان سليم من جهته للقاء الشراكسة وتهيأ لفتح قلعة مصر، ثم دخول البلاد، واتفقت الشراكسة المقيمون بمصر وغيرهم من العرب على إعانة طومان باي، وقد بلغت عدة جيشهم عشرين ألف مقاتل.

ولما علم السلطان سليم بذلك، سلك من خلف جبل المقطم من وراء عسكر الشراكسة، فتناجز الفريقان وحمي الوطيس بينهما حتى كانت الغلبة للعساكر العثمانية، فانكسرت الشراكسة وقتل منهم جانب عظيم من قادتهم وأمرائهم، وكان ذلك سنة ثنتين وعشرين وتسعمائة.

ثم أرسل طومان باي إلى السلطان سليم يطلب منه الأمان والعفو عما مضى فقبل منه السلطان ذلك، لكن الشراكسة حرضوا طومان باي على التمرد ونقض العهد، فأجابهم لذلك فقصدوا العودة إلى مصر لقتال عساكر السلطان، فهيأ السلطان جيشه لقتالهم فولى طومان باي هارباً لكن عساكر السلطان اتبعوه وهموا في طلبه وإدراكه، فأدركوه وقتلوا من معه من أتباعه، أما طومان باي، فلما استيأس ألقى بنفسه في البحر، فلما أشرف على الغرق صاح يطلب الأمان، فاستنقذوه من الماء، ثم أمسكوه وقيدوه وجاؤوا به إلى السلطان، فهمّ السلطان بالعفو عنه لولا أنه تذكر خيانته وغدره وما قارفه من جرائم، ثم أيقن أن بقاءه موقظ للفتنة ومثير للشر فأمر بشنقه، فشنق على باب زويلة.

فاستتب الأمر بذلك للسلطان سليم خان على مصر، فباتت الأمور في عهده على ما يرام، ثم سار إلى الإسكندرية وعاد إلى مصر ثم توجه منها إلى القسطنطينية وقد تمهدت له البلاد، وسكنت به قلوب العباد، وانقضت بذلك دولة الشراكسة[1].



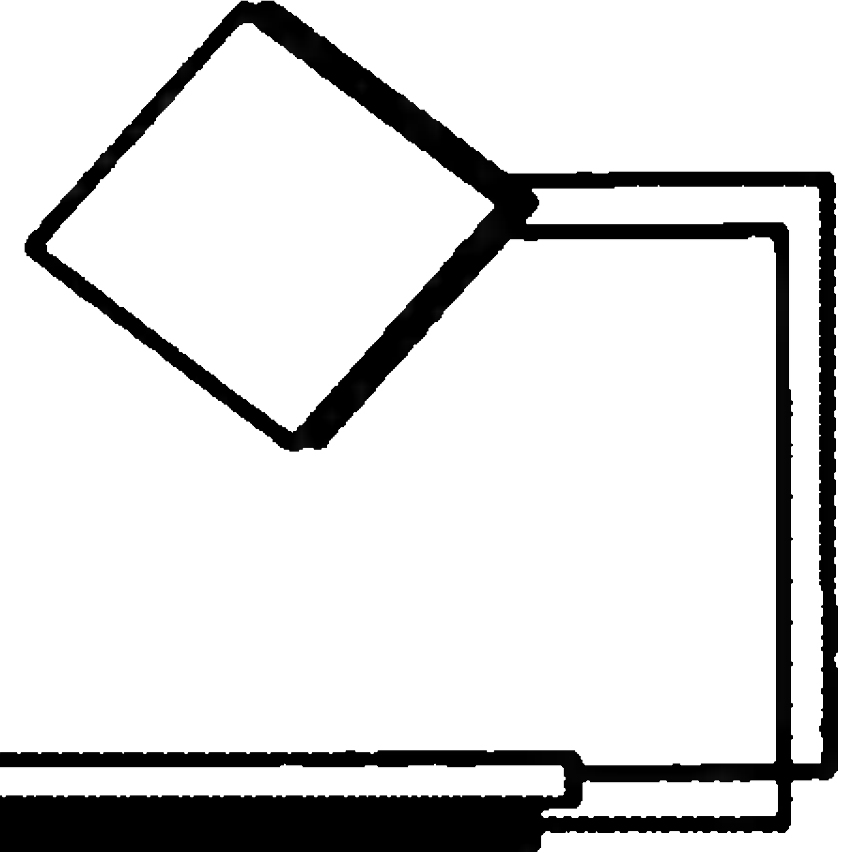
(١) سمط النجوم العوالي ج٤ ص٤١ ـ ٥٨.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب السادس

نبذة عن الملل والمذاهب الدينية التي ظهرت إبان الخلافة العباسية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

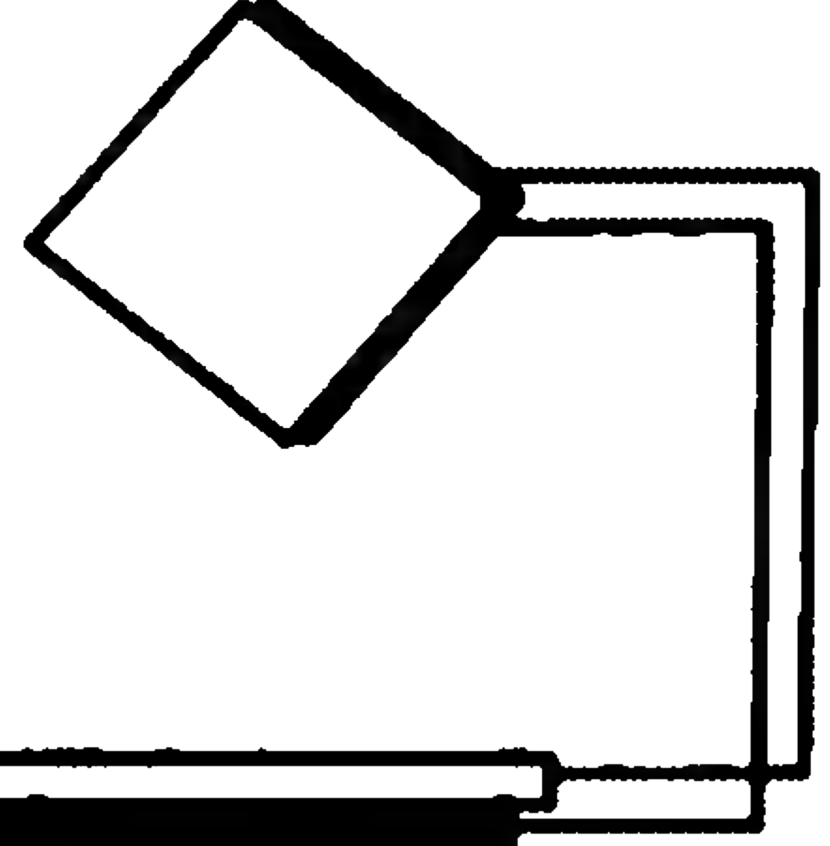


توطئة

على مر الأزمنة والأجيال من تاريخ الإسلام، ظهرت ملل وعقائد وفلسفات متعددة وذلك عقب الفترة الزمنية المباركة المثلى من هذا التاريخ الحافل وهي فترة الخلافة الراشدة، حيث العقيدة الوطيدة الراسخة والإيمان الصادق المركوز، والفطرة النقية السليمة من مختلف الأدران والأوضار التي تركب كثيراً من الأذهان والقلوب، فتبدد صفاءها وتسومها التكلف والاغترار والجنوح، وتلكم هي البشرية في اختلاف أجناسها وألسنتها وتباين أهوائها وطبائعها وجبلاّتها، لا جرم أن يفضي مثل هذا الاختلاف والتباين إلى تفاوت في القناعات والتصورات والأخيلة، ومن هنا تتفجر بين الحين والآخر ملل شتى ومذاهب كثيرة تتفاوت في مدى اتفاقها مع مقتضيات الكتاب الحكيم والسنة النبوية المطهرة، وما جاءا به من راسخ العقيدة السليمة المتسقة، وزاخر الأحكام في كل جوانب الحياة للإنسان.

وبعد هذه التقدمة الوجيزة نعرض لكثير من الملل والعقائد التي ظهرت خلال العصر العباسي الأول، أو ما قبله في بعض هذه المذاهب.





الفصل الأول
المعتزلة

تكونت طائفة المعتزلة في أواخر العهد الأموي، وقد كانوا يكرهون الأمويين ويكرههم الأمويون كذلك، وقد نكَّل الخليفة هشام بن عبدالملك ببعض من يرى رأي القدرية، وفي بداية العصر العباسي نشطت دعوة المعتزلة إذ بعثوا دعاتهم إلى أقاصي الأمصار لنشر مبادئهم وأفكارهم وكان زعيمهم إذ ذاك عمرو بن عبيد.

وقد اعتنق مذهب المعتزلة كثير من الناس على اختلاف فئاتهم من الخلفاء، أمثال: المأمون والمعتصم والواثق وغيرهم.

وقد شاع مذهب الاعتزال وأعجب به كثير من الناس لنجاح هذه الفئة في المناظرات، وسبب نجاحهم هذا ما أوتيه كثير من رؤسائهم من رجاحة العقل وفصاحة اللسان، والقدرة على الخطابة، ويروى في هذا الصدد عن الجاحظ أن بشر بن المعتمر المعتزلي هو واضع أصول الخطابة في اللغة العربية برسالة له قيمة.

ونقل الجاحظ أن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين، وفي مقدمتهم المعتزلة كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء[1].

ويسمون أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقَدَرية، وقالوا:

---

(١) ضحى الإسلام تأليف: أحمد أمين ج٣ ص٩٠ ـ ٩٥.

لفظ القَدَرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى، احترازاً من وصمة اللقب في ذلك الحين، إذ كان الذم به متفقاً عليه، وذلك لقول النبي ﷺ: **«القدرية مجوس هذه الأمة»**.

على أن الاعتقاد الذي يدين به المعتزلة في الجملة، هو القول بأن الله تعالى قديم، والقدم أخص وصف لذاته سبحانه، ونفوا الصفات القديمة أصلاً، فقالوا: إن الله عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته، وليس بعلم وقدرة وحياة وهي صفات قديمة ومعان قائمة به، لأن هذه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية.

واتفقوا أيضاً على أن كلام الله مُحْدث مخلوق في محل، وهو حرف وصوت، وقد كتبت أمثاله في المصاحف، وما وُجد في المحل ليس إلا عَرَضاً وقد فني في الحال، واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار، وهو يوم القيامة، وكذلك نفي التشبيه عنه من كل وجه، سواء كان ذلك جهة أو مكاناً أو صورة أو جسماً أو تحيزاً، أو انتقالاً أو زوالاً أو تغيراً أو تأثراً، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسموا ذلك توحيداً.

واتفقوا كذلك على أن العبد قادر، خالق لأفعاله، خيرها وشرها، هو مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة، والرب سبحانه وتعالى منزّه أن يضاف إليه شر وظلم، وفعل هو كفر ومعصية لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً، كما لو خلق العدل كان عادلاً.

وقالوا: إن الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد، وسموا ذلك عدلاً، واتفقت المعتزلة كذلك على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا من غير توبة عن كبيرة ارتكبها فقد استحق الخلود في النار، لكن عقابه أخف من عقاب الكفار، وسموا ذلك وعيداً.

واتفقوا أيضاً على أن أصول المعرفة وشكر النعمة، واجبة قبل ورود السمع (النصوص) والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب كذلك.

على أن المعتزلة افترقوا إلى عدة فرق أهمها:

الواصلية:

وهم أصحاب أبي حذيفة، واصل بن عطاء الغزال الألثغ[1]، كان تلميذاً للحسن البصري، يقرأ عليه العلوم والأخبار، وكانا معاً في أيام عبدالملك بن مروان، وهشام بن عبدالملك، ويقال لهم: الواصلية نسبة لواصل بن عطاء.

الهذيلية:

وهم أصحاب أبي الهذيل، حمدان بن الهذيل العلاف، شيخ المعتزلة، ومقدم الطائفة ومقرر الطريقة والمناظر عليها، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل، عن واصل بن عطاء.

النظامية:

وهم أصحاب إبراهيم بن يسار بن هانيء النظام المتوفى عام ٢٣١ للهجرة، وقد طالع هذا كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة، وقد انفرد عن أصحابه بجملة مسائل، منها: أن الإجماع ليس بحجة في الشرع، وكذلك القياس في الأحكام الشرعية لا يجوز أن يكون حجة وإنما الحجة في قول الإمام المعصوم.

ومنها: ميله إلى الرفض، ووقيعته في كبار الصحابة فقال: لا إمامة إلا بالنص والتعيين ظاهراً مكشوفاً، فقد نص النبي ﷺ على علي رضي الله عنه في موضع وأظهر إظهاراً لا يشتبه على الجماعة إلا أن عمر كتم ذلك!!

ألا إن هذا التجني الفاضح لمستهجن ومكذوب ولا ينطلي إلا على الجاهلين والمغفلين أو أولي النفوس السقيمة.

---

(١) الألثغ: من اللثغة في اللسان، وهي أن تصير الراء غيناً أو لاماً والسين ثاء، فهو ألثغ وامرأة لثغاء، انظر: مختار الصحاح ص٥٩٢.

ومنها: قوله إن القرآن معجز من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآنية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً وإلا فهم قادرون على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً.

وذلك قول بالصرفة، وهو زعم فاسد، أجمع على فساده عامة العلماء من جهابذة التفسير وأهل اللسان والبيان، إلى غير ذلك من المسائل.

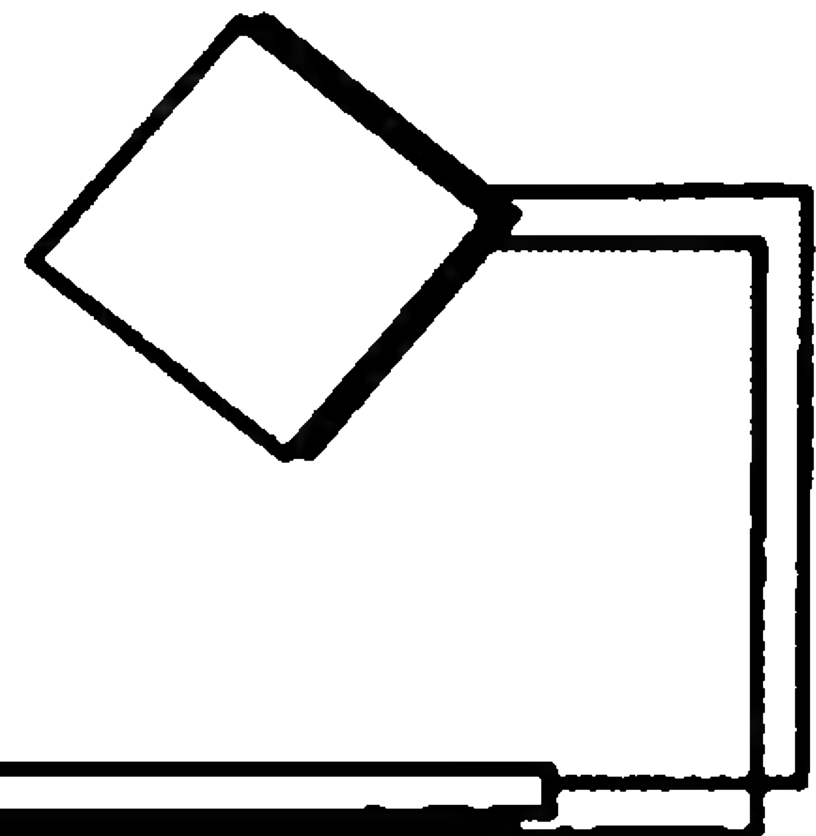
الجاحظية:

وهم أصحاب عمرو بن بحر أبي عثمان الجاحظ، وقد كان من فضلاء المعتزلة والمصنفين لهم، وطالع كثيراً من كتب الفلاسفة فخلط، وروّج كثيراً من مقالاتهم بعباراته البليغة وحسن براعته.

ومذهب الجاحظ يشبه مذهب الفلاسفة في نفي الصفات، وفي إثبات القدر خيره وشره من العبد.

وغير هؤلاء من فرق المعتزلة كثير كالمرداوية والهاشمية والكعبية والجبائية.





الفصل الثاني
الجبرية

وذلك من الجبر، وهو نفي الفعل حقيقة عن العبد، وإضافته إلى الرب سبحانه وتعالى.

على أن الجبرية صنفان:

أولهما: الجبرية الخالصة: وهي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً.

ثانيهما: الجبرية المتوسطة: وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً.

وافترقت الجبرية إلى عدة فرق، ومن جملتها:

الجهمية:

وهم أصحاب جهم بن صفوان، تلميذ الجعد بن درهم الذي قتله خالد بن عبدالله القسري عام ١٢٤ للهجرة من أجل الزندقة، والجعد أول من ابتدع القول بخلق القرآن وتعطيل الله عن صفاته.

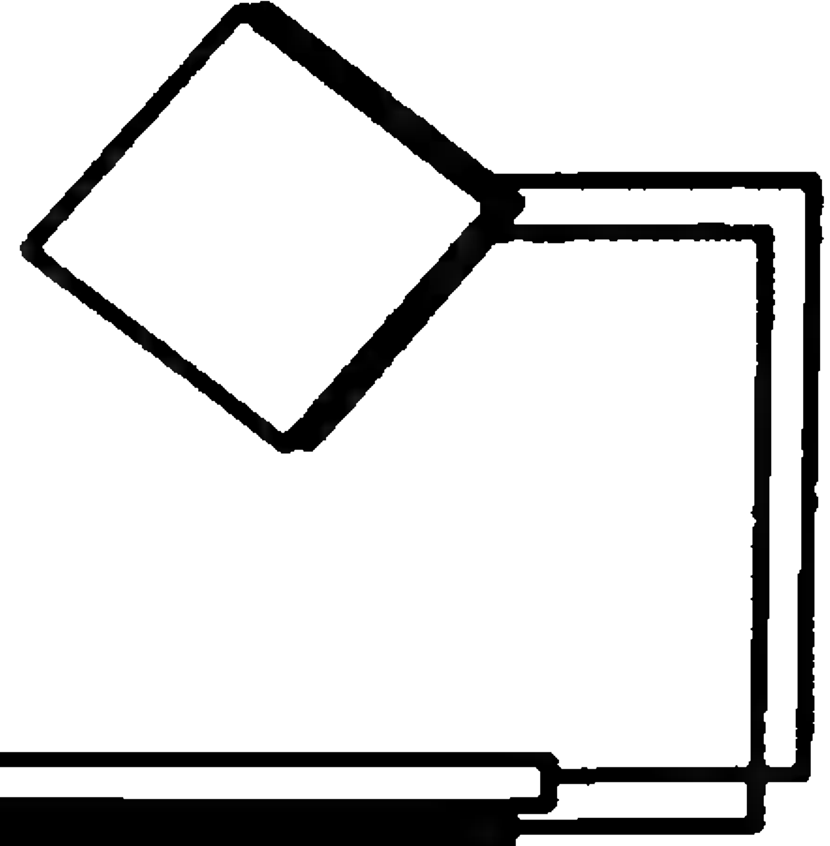
أما جهم بن صفوان، فهو من الجبرية الخالصة، وقد ظهرت بدعته بترمذ وقتله مسلم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية، وقد وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية، وزاد عليهم بأشياء تدنيه بالزندقة الواضحة.

النجّارية:

وهم أصحاب الحسين بن محمد النجار، وأكثر معتزلة الري وما حواليها على مذهبه، وهم وإن اختلفوا أصنافاً إلا أنهم لم يختلفوا في المسائل الفكرية التي أوغلوا فيها شاطحين تائهين، وهم أصناف ثلاثة: برغوثية، وزغفرانية، ومستدركة، وقد وافقوا المعتزلة في نفي الصفات من العلم والقدرة، والإرادة والحياة والسمع والبصر[1].



(١) الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص٤٣ ـ ٨٨.



الفصل الثالث
الأشعرية

هم أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، المنسوب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما، وقد توفي أبو الحسن الأشعري سنة ٣٢٤ هجري.

ومن الاتفاقات المثيرة أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه كان يقرر عين ما يقرره أبو الحسن الأشعري في مذهبه، وقد جرت مناظرة بين عمرو بن العاص وبينه.

فقال عمرو: أين أجد أحداً أحاكم إليه ربي؟! فقال أبو موسى: أنا ذلك المتحاكم إليه، فقال عمرو: أوَ يقدِّر علي شيئاً ثم يعذبني عليه؟ قال: نعم، قال عمرو: ولِمَ؟ قال: لأنه لا يظلمك، فسكت عمرو، ولم يجر جواباً.

قال الأشعري: الإنسان إذا فكر في خلقته، من أي شيء ابتدأ، وكيف دار في أطوار الخلقة طوراً بعد طور حتى وصل إلى كمال الخلقة، وعرف يقيناً أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقته، وينقله من درجة إلى درجة، ويرقيه من نقص إلى كمال، علم بالضرورة أن له صانعاً قادراً عالماً، مريداً.

وقال: الباري تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة، مريد بإرادة، متكلم بكلام، سميع بسمع، بصير ببصر. وهذه الصفات أزلية قائمة بذاته تعالى.

ومن مذهب الأشعري أن كل موجود يصح أن يرى، فإن المصحح للرؤية إنما هو الوجود، والباري تعالى موجود فيصح أن يرى، وقد ورد السمع بأن المؤمنين يرونه في الآخرة، وهو قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢ ـ ٢٣].

وقال عن صاحب الكبيرة: إذا خرج عن الدنيا من غير توبة فإن حكمه إلى الله تعالى، إما أن يغفر له برحمته وإما أن يشفع فيه النبي ﷺ إذ قال: **«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»**، وإما أن يعذبه بمقدار جرمه ثم يدخله الجنة برحمته، ولا يجوز أن يخلد في النار مع الكفار، وذلك لما ورد به السمع بالإخراج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان.

وقال: الواجبات كلها سمعية، والعقل لا يوجب شيئاً ولا يقتضي تحسيناً ولا تقبيحاً، فمعرفة الله تعالى بالعقل تحصل وبالسمع تجب، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥].

وكذلك شُكر المنعم، وإثابة المطيع، وعقاب العاصي يجب بالسمع دون العقل، ولا يجب على الله تعالى شيء ما بالعقل، وأصل التكليف لم يكن واجباً على الله إذ لم يرجع إليه نفع ولا اندفع به عنه ضُرّ، وهو سبحانه قادر على مجازاة العبيد ثواباً وعقاباً، والثواب والنعيم واللطف كله منه فضل، والعقاب والعذاب كله منه عدل.

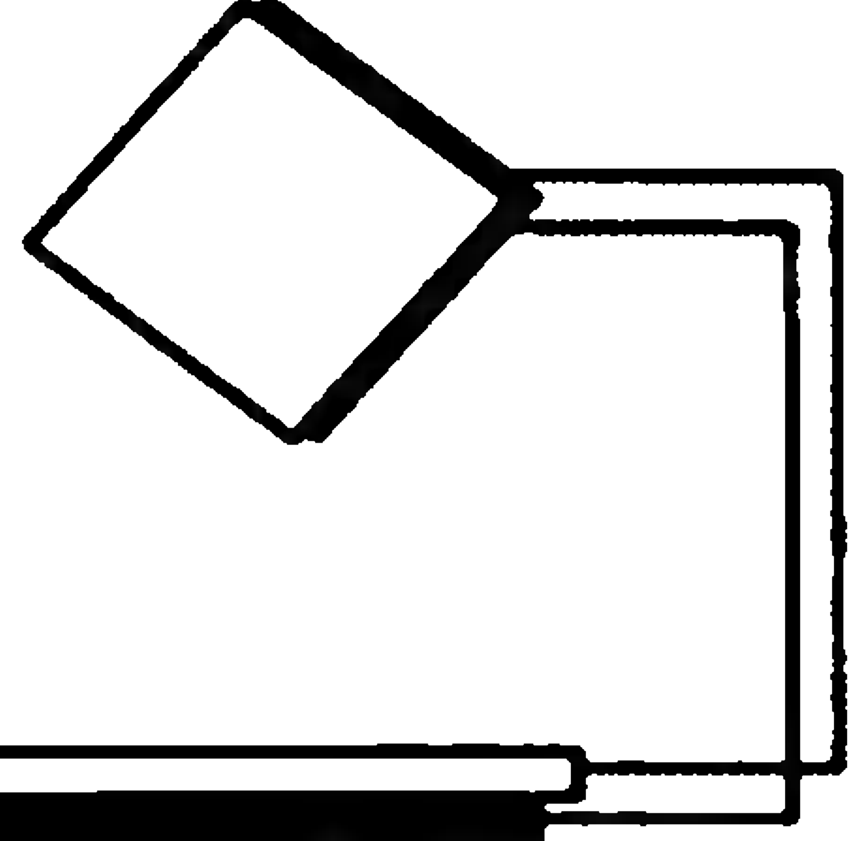
أما القرآن فهو عند الأشعري معجزة، وذلك من حيث البلاغة والنظْم والفصاحة، فقد خُيِّر العرب بين السيف وبين معارضة هذا القرآن بنديد له أو نظير، فاختاروا أشد الأمرين، وهو اختيار عجز عن المقابلة، ولو اختاروا المعارضة لنجوا مما أصابهم من القتل.

أما عن الإمامة فقال: إنها تثبت بالاتفاق والاختيار دون النص والتعيين، إذ لو كان ثَمّ نص لما خفي، فقد اتفقوا في سقيفة بني ساعدة على أبي بكر رضي الله عنه، ثم اتفقوا بعد تعيين أبي بكر على عمر رضي الله عنه، واتفقوا بعد الشورى على عثمان رضي الله عنه، واتفقوا بعد عثمان على علي رضي الله عنه، وهم مترتبون في الفضل، مثل ترتيبهم في الإمامة.

وقال الأشعري في أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير لا نقول فيهم إلا أنهم رجعوا عن الخطأ، وطلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة، ولا نقول في حق معاوية وعمرو بن العاص إلا أنهما بغيا على الإمام الحق فقاتلهم علي مقاتلة أهل البغي، ولقد كان علي على الحق في جميع أحواله، يدور معه الحق حيث دار[1].



(١) الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص٩٤ ـ ١٠٣.



الفصل الرابع
علم الكلام

وهو علم يتضمن الدلالات العقلية على صدق العقائد الإيمانية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية، هو التوحيد الخالص الذي هو أعظم مراتب الإيمان.

وقد وصف الشارع لعباده حقيقة هذا الإيمان، فعيَّن أموراً مخصوصة كلفهم التصديق بها بالقلوب واعتقادها في النفوس مع الإقرار بالألسن، وتلكم هي العقائد التي تقررت في الدين، فقال النبي ﷺ حين سئل عن الإيمان: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»**، وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام.

على أن الشارع الحكيم جل جلاله كلفنا أولاً اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين، ثم تنزيهه عن صفات النقص ثم الاعتقاد بأنه عالم وقادر ومريد ومقدر لكل كائن وأنه باعث الناس بعد الموت وأن الجنة للنعيم وجهنم للعذاب.

وهذه هي أمهات العقائد الإيمانية التي أرشد إليها العلماء وحققها الأئمة، لكنه قد عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد، ومثار هذا الخلاف من الآيات المتشابهة مما أفضى إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل الذي زيد إلى النقل فحدث بذلك علم الكلام.

وتفصيل ذلك أن القرآن وردت فيه آيات ظاهرة الدلالة من غير تأويل فيها، فهي صريحة في بابها فوجب الإيمان بها، ووقع في كلام النبي ﷺ وكلام الصحابة والتابعين ما يفسرها على ظاهرها، ثم وردت في القرآن آيات أخرى قليلة توهم التشبيه، وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل، وهذا معنى قول الكثير منهم: اقرأوها كما جاءت، أي آمنوا بأنها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها، إذ يجوز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف والإذعان له، لكنه قد شذّ في عصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من آيات وتوغلوا في التشبيه عملاً بظواهر آيات وردت بذلك فوقعوا بذلك في التجسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه المطلق التي هي أوضح دلالة، لأن معقولية الجسم تقتضي النقص والافتقار، وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف، وغير ذلك، فآل قولهم إلى التجسيم كالأولين الذين قالوا: صوت لا كالأصوات، وجهة لا كالجهات، ونزول لا كالنزول، وذلك كله مندفع لبطلانه، ولم يبق في هذه الظواهر إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما هي[1].

ثم حدثت بدعة المعتزلة إذ قضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الجسم، وهو مردود، وكذلك قضوا بنفي الكلام لما قيل في السمع والبصر وهو أن الكلام من عوارض الأجسام، فقضوا بذلك بأن القرآن مخلوق، وهذه بدعة صرّح السلف بخلافها.

وقد عظم ضرر هذه البدعة، فانتهض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد، دفعاً لما طرأ من بدع، وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري وهو إمام المتكلمين، فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف وشهدت له الأدلة المخصصة للعموم، ورد على المبتدعة في ذلك كله وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح، والتحسين والتقبيح، والحق بذلك

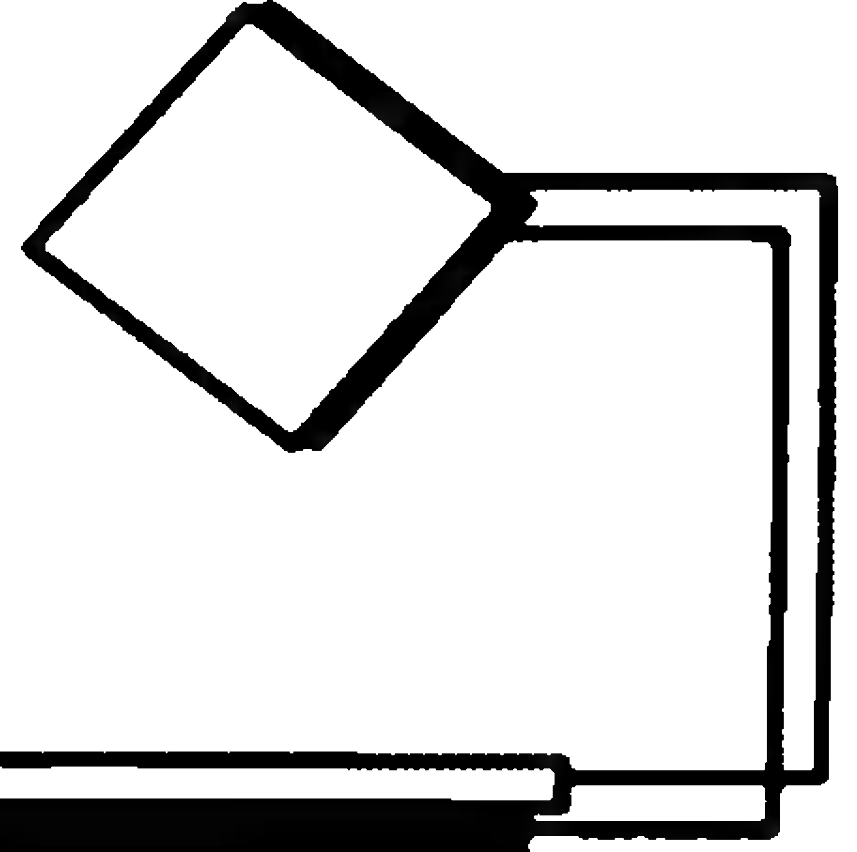
(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٥٨ ـ ٤٦٤.

الكلام في الإمامة لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية إذ قالوا إنها: «الإمامة» من عقائد الإيمان وأنه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة في ذلك لمن هي له، مع أن الحقيقة في هذه المسألة أن الإمامة قضية مصلحية إجماعية، ولا تلحق بالعقائد فلذلك ألحقوها بمسائل هذا الفن وسموا مجموعه علم الكلام.

وقد كثر أتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري واقتفى طريقته من بعده تلميذه ابن مجاهد وغيره، وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني فتصدر هذا للإمامة في طريقتهم وهذبها تهذيباً، فوضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار، ثم جاء بعد القاضي أبي بكر الباقلاني إمام الحرمين أبو المعالي فأملى في الطريقة كتاب الشامل وأوسع القول فيه ثم لخصه في كتاب الإرشاد واتخذه الناس إماماً لعقائدهم، ثم انتشرت من بعد ذلك علوم المنطق في الملة وقرأه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون ومعيار للأدلة فقط يُسْبر به الأدلة منها، ثم نظروا في تلك القواعد من فن الكلام للأقدم فخالفوا الكثير منها بالبراهين الدالة على ذلك، وربما كان كثير منها مقتبساً من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات، فصارت هذه الطريقة مباينة للطريقة الأولى وتسمى طريقة المتأخرين، وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى: الغزالي رحمه الله، وتبعه في ذلك الإمام ابن الخطيب وجماعة اقتفوا أثرهم وقلدوهم، ثم توغل المتأخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العِلْمين فحسبوه فيهما واحداً بسبب اشتباه المسائل فيهما[1].



(١) الملل والنحل للشهرستاني ص٤٦٤، ٤٦٥، وانظر: ضحى الإسلام ج٣ ص١ - ٢١، تأليف: أحمد أمين.



الفصل الخامس
الخوارج

كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان.

وكذلك المرجئة فهم صنف آخر تكلموا في الإيمان والعمل، إلا أنهم وافقوا الخوارج في بعض المسائل التي تتعلق بالإمامة.

على أن أول من خرج على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه جماعة ممن كان معه في معركة صفين، وكان أشدهم خروجاً عليه ومروقاً من الدين هو الأشعث بن قيس الكِندي، ومسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي إذ قالوا: القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف، فقال لهم علي رضي الله عنه: أنا أعلم بما في كتاب الله، انفروا إلى بقية الأحزاب، فقالوا: لترجعَنَّ الأشتر عن قتال المسلمين وإلا فعلنا بك مثل ما فعلنا بعثمان، فاضطر إلى رد الأشتر بعد أن هُزم الجمع، وولوا مدبرين وما بقي منهم إلا شرذمة قليلة.

ثم كان من أمر الحكمين أن الخوارج حملوه على التحكيم أولاً، وكان يريد أن يبعث عبدالله بن عباس رضي الله عنه، فما رضي الخوارج بذلك، وقالوا: هو منك، وحملوه على بعث أبي موسى الأشعري على أن يحكم بكتاب الله تعالى فجرى الأمر على خلاف ما رضي به، فلما لم

يرض بذلك خرجت الخوارج عليه وقالوا: لم حكّمت الرجال؟ لا حكم إلا للّه، وهؤلاء هم المارقون الذين اجتمعوا بالنهروان، وهم عدة فرق نتكلم عن بعض منهم وهم:

المحكمة الأولى:

وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حين جرى أمر المحكمين فاجتمعوا بحروراء وهي قرية من قرى الكوفة، وكانوا يومئذٍ في اثني عشر ألف وهم أهل صلاة وصيام، لكنهم واهمون ضالون مأفونون، وفيهم قال النبي ﷺ: **«تحقُرُ صلاة أحدكم في جنب صلاتهم، وصومُ أحدكم في جنب صيامهم، لكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم»**، فهم المارقون الذين قال فيهم: **«سيخرج من ضِئضىء هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»**.

وإنما كان خروج هؤلاء المارقة لأن علياً أخطأ في تحكيم الرجال ولا حكم إلا للّه، فقال لهم علي وهو الإمام العادل الفذ: كلمة حق أريد بها باطل.

ثم جاوزوا هذه التخطئة إلى التكفير، ولعنوا علياً رضي الله عنه، وكذلك طعنوا في عثمان رضي الله عنه لما عدوه عليه من أحداث وطعنوا في أصحاب الجمل وأصحاب صفين، فقاتلهم علي رضي الله عنه بالنهروان مقاتلة شديدة فلم ينجُ منهم إلا قليل.

الأزارقة:

وهم أصحاب أبي راشد نافع بن الأزرق، وهؤلاء الذين خرجوا مع نافع من البصرة إلى الأهواز فغلبوا عليها وعلى كورها (مدنها) وما وراءها من بلدان فارس وكرمان في أيام عبدالله بن الزبير وقتلوا عماله بهذه النواحي، وكان الخوارج في ثلاثين ألف فارس ممن يرى رأيهم ويمضي معهم، فعاثوا في البلاد ترهيباً وفتنة حتى خشي أهل البصرة على أنفسهم منهم، وظلوا على حالهم من الضلال والهوس وإشاعة الفوضى حتى قضي عليهم أيام الحجاج.

على أن بدع الأزارقة كثيرة منها:

تكفير علي رضي الله عنه، والثناء على قاتله عبدالرحمٰن بن ملجم لعنه الله، وإن ذلكم لشقي خبيث أثيم.

ومنها: أن مرتكب الكبيرة من الكبائر كافر، خارج بذلك عن الإسلام وهو مخلد في النار مع الكفار.

ومنها: إسقاط حد الرجم عن الزاني إذ ليس في القرآن ذكره.

الإباضية:

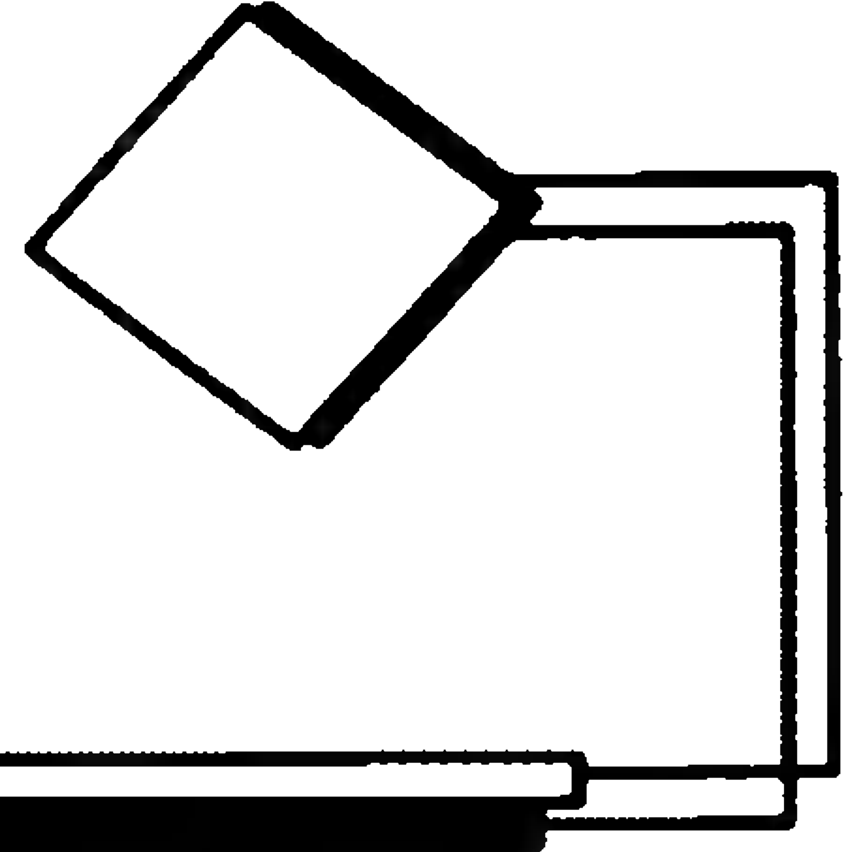
هم أصحاب عبدالله بن إباض الذي خرج في أيام مروان بن محمد، ومن أقوالهم وأفكارهم السقيمة، أن مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين، ومناكحتهم جائزة، وموارثتهم حلال، وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال وما سواه حرام، وقالوا: إن مرتكب الكبيرة كفر للنعمة لا كفر للملة، إلى غير ذلك من الهرطقات والضلالات المزرية الهوجاء.

الصفرية الزيادية:

هم أصحاب زياد بن الأصفر، وقد خالفوا فرق الخوارج في بعض الأمور منها: أنهم لم يسقطوا حد الرجم، ومنها: أن التقية جائزة في القول دون العمل، ومنها: أن ما كان من الكبائر مما ليس فيه حد لعظم قدره كترك الصلاة، والفرار من الزحف فإنه يوجب التكفير، ومنها: جواز تزويج المسلمات من كفار قومهم في دار التقية دون دار العلانية، إلى غير ذلك من ضلالات الخيال التائه، والذهن المأفون[١].



(١) الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص١١٤ ـ ١٣٧.



الفصل السادس
الشيعة

سموا بذلك لأنهم شايعوا علياً رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، إما تصريحاً وإما تلميحاً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده.

ومن أهم مقولاتهم واعتقاداتهم أن الإمامة ليست قضية مصلحية تناط باختيار العامة فينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، أي عقدية، وهي ركن الدين، فلا يجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام إغفاله أو إهماله ولا تفويضه إلى العامة!

وهم مجمعون على وجوب التعيين والتنصيص على الإمام، وثبوت العصمة للنبيين والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر.

على أن الشيعة مختلفون ما بينهم في مدى المغالاة أو الاعتدال ومفترقون إلى فرق نعرض للحديث عن بعضها في غير ما تفصيل:

الفرقة الأولى: الكيسانية

وهم أصحاب كيسان، مولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فيعتقدون فيه اعتقاداً فوق حقيقته وطبيعته من إحاطته بالعلوم كلها واقتباسه الأسرار بجملتها من علم التأويل والباطن، وعلم الآفاق والأنفس، وهم يجمعهم القول بأن الدين طاعة رجل حتى حملهم ذلك على تأويل

الأركان الشرعية من الصلاة والصيام والزكاة والحج، وغير ذلك حتى ذهب بعضهم إلى ترك الأحكام الشرعية والقول بالتناسخ والحلول.

وهؤلاء افترقوا إلى فرق منها: المختارية، والهاشمية، والبيانية، والرزامية.

الفرقة الثانية:
الزيدية

وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وقد ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، إلا أنهم جوزوا أن يكون كل فاطمي عالم شجاع سخي خرج بالإمامة أن يكون إماماً واجب الطاعة سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين رضي الله عنهما.

وقد تتلمذ زيد بن علي في الأصول على واصل بن عطاء، رأس المعتزلة ورئيسهم فاقتبس منه الاعتزال حتى صار أصحابه كلهم معتزلة، فكان من مذهبه جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل، فقال: كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها، وقاعدة دينية راعوها، من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة، فما كانت قلوب القوم تميل إلى علي كل الميل، فسيفه لم يجف بعد من دماء المشركين في أيام النبوة، فكانت المصلحة أن يقوم بهذا الأمر من عرفوه باللين والتوءدة والسبق في الإسلام والقرب من رسول الله ﷺ وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة من زيد بن علي عرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين فرفضوه، فسموا الرافضة.

لكن الزيدية بعد ذلك مال أكثرهم عن القول بإمامة المفضول، وهم أصناف ثلاثة: الجاوردية، والسليمانية، والبترية.

الفرقة الثالثة: الإمامية

وهم القائلون بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي ﷺ، نصاً ظاهراً، وتعييناً صادقاً من غير تعريض بالوصف بل إشارة إليه بالعين، وقالوا: ليس في الدين والإسلام من أمر هو أهم من تعيين الإمام حتى تكون مفارقته على سكينة قلب من أمر الأمة، فإنه إنما بعث لرفع الخلاف، فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملاً فيرى كل واحد منهم رأيه ويسلك كل واحد منهم طريقاً لا يوافقه في ذلك غيره، بل يجب أن يعين شخصاً يُرجَع إليه، وقد عين علياً رضي الله عنه في مواضع على سبيل التعريض، وفي مواضع على سبيل التصريح.

أما التعريض، فمثاله: أن النبي ﷺ كان يؤمِّر على أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة في البعوث، وقد أمَّر عليهما عمرو بن العاص في بعث، وأسامة بن زيد في بعث، وما أمَّر على علي أحداً قط.

وأما التصريح فمثاله: قول النبي ﷺ: **«من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدِرِ الحق معه حيث دار، ألا هل بلَّغت؟»**، فادعت الإمامة أن هذا نص صريح في إناطة الإمامة بعلي دون غيره.

على أن الإمامية قد جاوزوا أبعد من ذلك مما هو قدح في كبار الصحابة.

ولقد شهدت نصوص القرآن على عدالة الصحابة والرضا عن جملتهم، إذ قال الله جل وعلا: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: الآية ١٨].

وكانوا حينئذٍ ألفاً وأربعمائة، وقال سبحانه ثناء على المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠].

وفي هذا وغيره من الآيات في هذا الصدد ما يدل على عظمة الصحابة وجليل قدرهم عند الله تعالى، وقد قال النبي ﷺ في بعضهم من الأبرار الأعاظم: **«عشرة من أصحابي في الجنة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبدالرحمٰن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح»**.

ومن جهة أخرى، فإن الإمامية لم يثبتوا على رأي واحد في تعيين الأئمة بعد الحسن والحسين وعلي بن الحسين رضي الله عنهم، بل اختلفوا في ذلك أكثر من اختلاف الفرق كلها، حتى قال بعضهم: إن نيفاً وسبعين فرقة من الفرق المذكورة في الحديث هو في الشيعة خاصة، ومن عداهم فهم خارجون عن الأمة.

ثم تمادى الزمان فاختارت كل فرقة منهم طريقة فصارت الإمامية بعضها معتزلة وبعضها إخبارية، إما مشبهة وإما سلفية.

ثم نعرض بعد ذلك للحديث عن جملة من فرق الإمامية في هذا البيان:

الباقرية والجعفرية الواقفة:

هم أتباع محمد بن الباقر بن علي زين العابدين، وابنه جعفر الصادق، وقد قالوا بإمامتهما وإمامة والدهما زين العابدين، إلا أن منهم من توقف على واحد منهما، ولم يسق الإمامة إلى أولادهما، ومنهم من ساق، على أن جعفر الصادق ذو علم غزير في دين الله وهو ذو أدب كامل في الحكمة، وزهد عظيم في الدنيا وورع عن الشهوات.

الإسماعيلية الواقفة:

قال هؤلاء: إن الإمام بعد جعفر الصادق هو إسماعيل، وذلك المنصوص عليه باتفاق أولاده، لكنهم اختلفوا في موته حال حياة أبيه، فمنهم من قال: لم يمت، إلا أنه أظهر موته تقية من خلفاء بني العباس،

ومنهم من قال بموته على الحقيقة، والصحيح على أن مذهب هذه الفرقة، الوقف على إسماعيل بن جعفر، أو محمد بن إسماعيل، والإسماعيلية المشهورة في الفرق هم الباطنية.

الاثنا عشرية:

الذين قطعوا بموت موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وسموا قطعية، ساقوا الإمامة بعده في أولاده فقالوا: الإمام بعد موسى الكاظم: ولده علي الرضا، ومشهده في طوس، ثم بعده: محمد التقي، وهو في مقابر قريش ببغداد، ثم بعده: علي بن محمد التقي، ومشهده في قم، وبعده الحسن العسكري الزكي، وبعده ابنه محمد القائم المنتصر الذي في سُرَّ من رأى وهو الثاني عشر، وهذا هو طريق الاثنا عشرية.

الغاليَّة:

هؤلاء هم الذين غالوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقية، وحكموا فيهم بأحكام الإلهية، حتى إنهم شبهوا واحداً من الأئمة بالإله وربما شبهوا الإله بالخلق، وقد نشأت شبهاتهم وأضاليلهم من مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ومن مذاهب اليهود والنصارى، ذلك أن اليهود شبهت الخالق بالخلق، والنصارى شبهت الخلق بالخالق، فسرت هذه الأباطيل في أذهان الغلاة من الشيعة حتى حكمت بأحكام الإلهية في حق بعض الأئمة، وهؤلاء أصناف كثيرة نتحدث في إيجاز عن ثلاثة أصناف منهم وهم:

الصنف الأول: السبئية

وهؤلاء هم أصحاب عبدالله بن سبأ هذا الرهيب المريب، والخصيم الغادر الذي أنفذ طعناته الفظيعة المسمومة في قلب الإسلام والمسلمين، وقد كان هذا يهودياً ثم تظاهر بالإسلام، وكان في يهوديته يقول في يوشع بن نون، إنه وصي موسى عليهما السلام، مثل الذي قاله لعلي رضي الله عنه:

أنت، أنت، يعني أنت الإله، فنفاه إلى المدائن.

ثم زعم هذا الزنديق المريب أن علياً حي لم يمت ففيه الجزء الإلهي، وهو الذي يجيء في السحاب، والرعد صوته، والبرق تبسمه، وأنه سينزل إلى الأرض بعد ذلك فيملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، إلى غير ذلك من مقالات الزور والباطل التي عاث بها في الأرض التشويه والتضليل والفساد.

الصنف الثاني: العلبائية

وهم أصحاب العلباء بن ذراع الدوسي، وكان هذا يفضل علياً على النبي ﷺ، وزعم كاذباً أن علياً قد بعث محمداً، وأنكى من ذلك أنه سمى علياً إلهاً، وكان يقول بذم محمد ﷺ، ومن مزاعمه الفاضحة المفتراة أن محمداً بُعث ليدعو إلى علي فدعا إلى نفسه، وتسمى هذه الفرقة أيضاً بالذميمة، ومنهم من قال بالإلهية لجملة أشخاص، وهم أصحاب الكساء: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وكرهوا أن يقولوا فاطمة بالتأنيث بل قالوا: فاطم، بغير هاء، إلى غير ذلك من لغط الكلام الفاجر الشنيع والخبط المصطنع الممجوج الذي لا يجترىء على التقول به إلا مأفون أرعن قد خالطه العته، أو دجال، ومغرض موغل في الزندقة.

الصنف الثالث: النصَيْرية

وهؤلاء من غلاة الشيعة الذين غالوا في الإفراط، ومن جملة أباطيلهم القول إنه لم يكن بعد رسول الله ﷺ شخص أفضل من علي رضي الله عنه وبعده أولاده المخصوصون وهم خير البرية، فظهر الحق بصورتهم ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم، وعن هذا أطلقنا اسم الإلهية عليهم، وإنما أثبتنا هذا الاختصاص لعلي رضي الله عنه دون غيره، لأنه كان مخصوصاً بتأييد إلهي من عند الله تعالى، فيما يتعلق بباطن الأسرار، فقد قال النبي ﷺ: **«أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر»**.

وقالوا إن علياً مسكنه السحاب لما فيه من ظاهرة الإلهية وبذلك فإن السحاب لدى النصيرية مقدس ومعظم، فهم كلما مر بهم السحاب قالوا: السلام عليك يا أبا الحسنين.

الفرقة الرابعة: الإسماعيلية

هؤلاء من أشد الفرق الشيعية غلواً، فقد قالوا في الإمام علي بن أبي طالب: إنه وجه الله، ويد الله، وجنب الله، وهو الذي يحاسب الناس يوم القيامة، فيبعث بهم إما إلى الجنة وإما إلى النار، وقالوا: إن الإمام هو الصراط المستقيم، والذكر الحكيم، والقرآن الحكيم، وغير ذلك من الكلام المفترى.

وفي ذلك يقول الشاعر ابن هانىء في مدح المعز لدين الله الفاطمي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

ومن أقوال الإسماعيلية الفاسدة أن الإمام يعلم الغيب، وأنه معصوم، وهو الذي يجب على الأمة أن تقلده، أما تقليد الأئمة الأربعة فليس إلا الضلال!!

وقالوا إن الفلاسفة اليونانيين أكمل عقلاً وعلماً من الأنبياء[1].

إلى غير ذلك من سقط الكلام الفاجر المهين الذي يكشف عن حقيقة الزندقة في أبشع صورها.



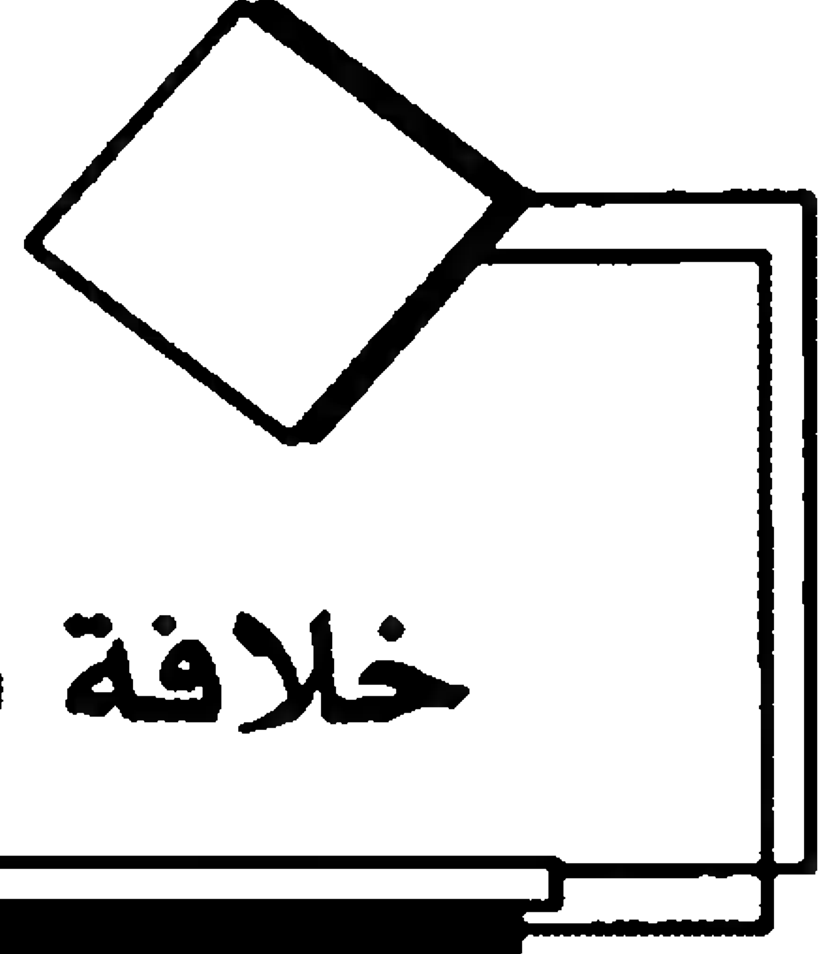
(١) الملل والنحل ص١٩٢ ـ ١٩٦، ورسالة في التوحيد والفرق المعاصرة ص٢٧٣.



الباب السابع

الدولة العثمانية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الأول
خلافة السلطان عثمان بن أرطغرل

الدولة العثمانية

أصل العثمانيين وسبب ظهورهم أن آل سلجوق لما تركوا وطنهم هرباً من طغيان جنكيزخان ملك التتار، وقصدوا بلاد الروم جاء معهم رجل اسمه أرطغرل، يتصل نسبه بيافث بن نوح عليه السلام، وكان بصحبة أرطغرل ثلاثمائة وأربعون رجلاً، وكان هذا شجاعاً مقداماً قوي البأس، وقد سخَّر نفسه لغزو الكافرين تحت قيادة السلطان علاء الدين أرسلان بن طغرل السلجوقي، وكان السلطان يحبه لشجاعته وإقدامه إذ فتحت على يديه بلاد كثيرة من بلاد الكفر.

ولما توفي أرطغرل، كتب السلطان علاء الدين لعثمان بن أرطغرل أن يتولى السلطنة وخصه لشجاعته بغزو الكفار، فسار عثمان بن أرطغرل ففتح كثيراً من البلدان.

ثم توفي السلطان علاء الدين سنة تسع وتسعين وستمائة، فاجتمع أكثر الأمراء والعساكر عند عثمان بن أرطغرل، فجلس عثمان على تخت السلطنة في نفس السنة، وقد اشتغل بالجهاد وافتتاح البلاد، فافتتح كوبري حصار وقلعة قره حصار ثم قلعة أينه كولي ثم قلعة ني شهر، وقلعة يار حصار، وصارت هذه من جملة مملكته.

ثم مات رحمه الله عن تسع وستين سنة، وكان شجاعاً مقداماً أبياً، ولم يخلف نقداً ولا مالاً إلا سيفه الذي كان يقاتل به عدو الله، وقد خلف أرطغرل من بعده أولاداً أولي شهامة ونجابة، وكان أقواهم وأشدهم بأساً السلطان عثمان الذي توفي سنة خمس وعشرين وسبعمائة وكانت مدة حكمه ستاً وعشرين سنة، وقد تولى من بعده:

الفصل الثاني

السلطان أورخان

هو الغازي ابن السلطان عثمان خان، ولد سنة سبع وثمانين وستمائة وجلس على تخت السلطنة سنة ست وعشرين وسبعمائة، وقد فتح عدة بلدان، وأرسل ابنه سليمان باشا في أربعين نفراً من جنده الشجعان، ففتحوا قلعة ملقرة وإبسالة وغيرهما، وقد فاق هذا السلطان والده في الجهاد وفتح البلاد، فقد فتح في حياة والده بروسا ثم جعلها مقر سلطنته فاتسعت بذلك مملكته وقوي شأنه.

ثم اتفق ملوك النصارى وغيرهم من الكفرة الحاقدين على الإسلام وأهله ـ على قتال العساكر السلطانية الإسلامية ـ وقد اتفقوا على أن يجتازوا إلى جهة أناضول ليقاتلوا السلطان أورخان، وكان لهذا ولد ذو شهامة اسمه سليمان بك، فاستأذن والده في قتالهم، فسار لمناجزتهم ووقع بين الفريقين قتال شديد فكانت الغلبة فيه لسليمان بك.

ثم فتح عدة من الممالك والبلدان بعد أن غزا الكافرين في عقر ديارهم، وكانت له صنائع كثيرة وجيدة كبناء المدارس والمساجد والجسور وشق الطرقات للمارة والمسافرين، وغير ذلك من وجوه الإعمار.

وقد توفي السلطان أورخان سنة إحدى وستين وسبعمائة عن ثلاث وثمانين سنة، رحمه الله تعالى.

ثم تولى الحكم من بعده:

الفصل الثالث

السلطان مراد خان

وهو الغازي خدا وندكار، ابن السلطان أورخان، فقد جلس على سرير الملك سنة إحدى وستين وسبعمائة في بروسا، وقد تولى السلطنة وعمره إذ ذاك أربع وثلاثون سنة، وهو من الغزاة الشجعان، فقد افتتح كثيراً من البلاد منها أدرنة سنة إحدى وستين وسبعمائة، وهو أول من اتخذ المماليك وسماهم ينبشرى، أي العسكر الجديد، ثم سار إلى فتح قوصوه حيث التقى الجمعان، فظفر المسلمون وانهزم الكافرون، ثم أظهر واحد من ملوكهم الطاعة فتقدم لتقبيل يد السلطان، حتى إذا دنا منه أخرج خنجراً فضرب به السلطان مراداً فاستشهد رحمه الله، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة.

ثم تولى من بعده:

الفصل الرابع

السلطان يلدرم بايزيد

وهو ابن السلطان مراد الغازي، وقد اشتغل بالفتوحات بعد وفاة أبيه، ففتح كثيراً من البلدان مثل سلانيك وقوينة وقيصرية وبلاداً غيرها، وقد هرب بعض الأمراء من جيش السلطان يلدرم ودخلوا في خدمة الطاغية تيمورلنك، وما أولئك بالمؤمنين المخلصين، لا جرم أنهم من زمرة الغادرين الخائنين لله ولرسوله ولجماعة المسلمين أو أنهم ران على بصائرهم فذلكة التشيع، فما كان من هؤلاء إلا أن حرضوا تيمور على قتال السلطان وجنده المسلمين فجاؤوا به إلى بلاد الروم، فالتقى الجيشان فاقتتلا، وكانت الغلبة لجيش تيمور، لكثرتهم إذ كانوا كالجراد المنتشر، فضلاً عن عامل التخذيل والغدر اللذين تلبس بهما الأمراء الهاربون المريبون، وعقب هزيمة جيش المسلمين تمكن العدو من أسر السلطان يلدرم فظل في سجنه مريضاً بالحمى حتى مات رحمه الله سنة سبع وثمانمائة، وكانت مدة سلطنته ست عشرة سنة.

أما الكلمة: «النك» في تيمورلنك، فتعني في الفارسية الأعرج، فقد كان به عرج، وقيل في سيرته: إنه كان أول أمره راعياً للغنم ثم صار أميراً لبعض سلاطين العجم في سمرقند وبخارى فتغلّب على مخدومه، ولم يزل كذلك حتى تفرّد بالسلطان وملك البلاد، واحداً بعد آخر، وقيل في طريقته في حرب أعدائه أنه كان إذا قصد موضعاً دهم أهله وهم غافلون، ثم يأمر بقتل جميع من فيه من كل ذي روح، فلا يبرح المكان حتى يجعله خراباً.

وقد تولى السلطنة من بعد يلدرم ولده:

الفصل الخامس

السلطان محمد

وهو ابن السلطان يلدرم، فقد استقر في السلطنة سنة ست عشرة وثمانمائة، ومكث فيها تسع سنين، وكان رحمه الله شجاعاً مقداماً مجاهداً في سبيل الله، فقد افتتح عدة حصون، وكان له خيرات وصنائع كثيرة في خدمة المسلمين وأهل الحرمين، حتى وافاه الأجل المحتوم فمضى إلى جوار ربه سنة خمس وعشرين وثمانمائة.

ثم تولى الأمر من بعده ولده:

الفصل السادس

السلطان مراد الثاني

وهو ابن السلطان محمد بن يلدرم، وقد جلس على كرسي الحكم سنة خمس وعشرين وثمانمائة، وفتح في زمنه بعض البلدان، وقد عاش تسعاً وخمسين سنة، وكان ملكاً شجاعاً مهيباً، فقد حارب الفرنج عام ثمانية وأربعين وثمانمائة، فكانت بين الفريقين وقعة عظيمة قتل فيها من الجيشين ما يزيد على عشرين ألفاً، وقد اجتمعت طوائف الكفر في هذه الوقعة من كل مكان، وهم عازمون على استئصال ثغور الإسلام، وخصوصاً بيت

المقدس، فلما التقى الفريقان كان يبدو أن طوائف الكفر يزيدون على عدد المسلمين أضعافاً كثيرة حتى إذا وقع القتال ودارت الحرب بين الجيشين كانت الغلبة في بادىء الأمر للظالمين لولا أن تدارك الله المسلمين برحمته وفضله وتأييده إذ أرسل ريحاً عاصفاً أصاب وجوه الكافرين فتقطعوا وولوا الأدبار، ثم لحقهم المسلمون يضربونهم بالسيوف، ولله الحمد والمنة.

ولما توفي السلطان مراد الثاني جلس ابنه السلطان محمد على تخت السلطنة وعمره حينئذٍ ثمانية عشر عاماً، فذلكم هو:

الفصل السابع

السلطان محمد خان فاتح القسطنطينية

وهو ابن السلطان مراد الثاني، وقد ولد سنة خمس وثلاثين وثمانمائة، وكان والده قد تقاعد ببلدة مغنيسا مدة من الوقت وأجلس هذا مكانه، فقامت طائفة الينيشرية واجتمعوا على أن يعود السلطان مراد خان لصغر ولده هذا، فعاد السلطان مراد مدة يسيرة من الزمن قبل أن يدركه الموت، فاستقر السلطان محمد بعده في الملك سنة ست وخمسين وثمانمائة وهي سنة وفاة والده.

وقد كان السلطان محمد عادلاً شهماً مهيباً، إذ هابته الملوك وأكبروه إكباراً فدخلوا في طاعته، وكان رحمه الله فاتحاً مقداماً من أعاظم الفاتحين، ويشهد له بذلك جهاده الهائل وغزواته الكثيرة التي تتوجت بالفتح المعظم الميمون، وهو فتح القسطنطينية، وذلك سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة.

ولما افتتح القسطنطينية صلى في كبرى كنائسها وهي كنيسة أياصوفية صلاة الجمعة.

وقد مات هذا الفاتح المغوار سنة ست وثمانين وثمانمائة، وتولى من بعده ابنه:

الفصل الثامن

السلطان بايزيد

جلس على كرسي الملك سنة ست وثمانين وثمانمائة، وله عدة فتوحات، وفي أيامه ظهر في بلاد العجم رافضي زنديق وهو شاه إسماعيل بن حيدر الصفوي، فقد عاث هذا الزنديق في البلاد الفساد وسفك دماء العباد ودعا إلى عقيدة الرفض والإلحاد، فخرب بذلك ممالك العجم وأشاع فيها الزندقة وفساد الملة والاعتقاد.

ثم ظهر من أتباع هذا الشقي الفاجر، زنديق آخر وهو سلطان قولي، الذي برع في التخريب والقتل وإشاعة الباطل.

فأرسل السلطان بايزيد جيشاً من المسلمين بقيادة وزيره الأعظم علي باشا لقتاله ودفع فساده وطغيانه، فقاتله حتى استشهد، وهزم الله جيش الطغيان والضلال، فسكنت الفتنة، وخمد الضلال بعد استفحال.

وفي سنة سبع وثمانين وثمانمائة، نازع السلطانَ بايزيدَ أخوه السلطان جم شبد فقاتله بايزيد وهزمه فولى هارباً إلى مصر، ثم كرَّ راجعاً إلى الخروج على أخيه ومنازعته على الملك مرة أخرى، فتصدى له السلطان بايزيد فانكسر جم مرة ثانية، ثم لاذ بالفرار إلى بلاد النصارى سنة ثمان وثمانين وثمانمائة، ثم أرسل له السلطان بايزيد من يقتله بالسم فلقي بذلك مصرعه سنة خمس عشرة وتسعمائة.

أما السلطان بايزيد فقد دام سلطانه اثنين وثلاثين عاماً، حتى مات سنة تسعمائة وثمانية عشرة.

ثم تولى من بعده ابنه:

الفصل التاسع

السلطان سليم

هو ابن السلطان بايزيد، وهو كاسر العجم وفاتح بلاد العرب، وقد

جلس على كرسي السلطنة سنة ثماني عشرة وتسعمائة.

وقد ولد السلطان سليم سنة خمس وسبعين وثمانمائة، وتولى السلطنة بعد أبيه في حياته لما تنازل له أبوه عن الملك.

وكان هذا السلطان عظيم الهيبة، دائم اليقظة والحذر، شديد التتبع للأمور، وفي سنة عشرين وتسعمائة، سار في جيشه لقتال إسماعيل شاه العجم، فرجع من عنده ظافراً مؤيداً.

أما سبب مقاتلته لإسماعيل شاه، فهو أن إسماعيل هذا كان عاتياً باغياً غشوماً، فقد طغى في الأرض وتجبر، فكان يقتل من يظفر به من الناس بغير حق إلا الظلم والجنوح للشر والفساد، وقد حكم هذا الطاغية الشرير تبريز وأذربجيان وبغداد وعراق العجم وخراسان، ثم بلغ في فظاعة كفره أنه ادعى الربوبية، وكان عسكره يسجدون له، وقد قتل من الناس خلقاً كثيراً يزيد على المليون إنسان، فسبحانك اللهم، هذا ظلم شنيع رعيب تتجافى عن مثله قلوب الدواب من البهائم العجماوات!

فقد ركب إليه السلطان سليم سنة عشرين وتسعمائة في جند من المسلمين، فقاتلهم قتالاً عظيماً وانتصر عليهم بعون الله وتأييده ثم دخل غالب بلادهم وحكمها.

وكان السلطان سليم قد كتب كتاباً إلى هؤلاء المضللين المهاويس ينصحهم ويحذرهم فيه فلم يعبأوا بنصحه وتحذيره، ثم كتب لهم كتاباً آخر يصمهم فيه بوصمة الجبن، وذلك على سبيل الاستنهاض لهم كيما يقوموا للقائه فيقتلهم، وهذه ظاهرة من ظواهر التحيل والمماكرة التي كان يتصف بها هذا السلطان.

ومن كتابه قوله: ليعلم إسماعيل بهادر أصلح الله أحواله أن جميع أهل الشرائع والأحكام وعلماء الدين والإسلام، المحبين لشريعة سيد الأنام، قد أفتوا بكفرك وفسادك وضلالك وعنادك لارتكابك العقائد الفاسدة، والضلالات الكاسدة، والأقوال القبيحة الشنيعة، ومن استحل ما حرم الله فلا شك في كفره، فلذلك نشرتُ الأعلام الإسلامية والرايات الدينية،

وسرت إلى بلادك لمحو رسمك ووجودك، واضمحلال اسمك وجنودك، لكن من سنة الدين، وطريق الحق المبين الإخبار والإعلام بالدعوة إلى اتباع شريعة الإسلام قبل الإلجاء بالسيف، وقد أرسلت إليك مخبراً بأنك إن أخلصت التوبة وصدقت في الأوبة، ورجعت عن تلك العقائد القبيحة الفظيعة فقد فزت بالمقصد الأسنى ولك الأمان مع الزيادة في الحسنى، وإن لم ترجع فلتعلم أني قد سرت إليك بآيات النصر والتمكين، عملاً بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: الآية ١٢٣].

والسلام على من اتبع الهدى.

لكن هذا الزنديق العاتي لم يرتدع ولم يعبأ بكتاب السلطان، فكتب إليه السلطان مرة ثانية يدعوه إلى الأوبة والازدجار، فلم يرجع ولم يزدجر لفرط عتوه وضلاله، ثم سار إليه السلطان سليم فالتقاه بالقرب من تبريز، ولم يتمكن السلطان سليم من المكث طويلاً في تبريز لشدة الغلاء والقحط وانقطاع الميرة (الطعام) فاضطر بذلك أن يرجع عن تبريز، ثم تبين للسلطان فيما بعد أن سلطان مصر الغوري هو الذي أمر بقطع القوافل الموقرة طعاماً عن السلطان سليم وجنوده، فعزم على قتال الغوري أولاً، حتى إذا هزمه ودخل مصر توجه بعد ذلك لقتال شاه إسماعيل، فتهيأ لدخول مصر وإزالة سلطان الشراكسة عنها، فتوجه إليه من جهة حلب حتى التقيا في مرج دابق.

وبذلك فإن السلطان سليم هو أول من ملك مصر من آل عثمان، وقد توفي رحمه الله سنة ست وعشرين وتسعمائة، ولبث في الحكم ثماني سنوات[(١)].

ثم تولى السلطنة من بعده:

الفصل العاشر

السلطان سليمان

وهو ابن السلطان سليم خان، وذلك سنة ست وعشرين وتسعمائة،

---

(١) سمط النجوم العوالي ج٤ ص٥٨ ـ ٧٣.

وكانت ولادته سنة تسعمائة، فكان عمره حين توليه السلطان ستاً وعشرين سنة، وكان رحمه الله محمود الذكر والسيرة لعدله واستقامته واهتمامه بأحوال الرعية، دفعاً للظلم عنهم، وله فتوحات وغزوات كثيرة تبدد فيها الكفر والباطل في كثير من البلدان، منها: رودس، وبلغراد، وغزوة العجم، وبغداد، واستنبول، وغير ذلك من مختلف نواحي الأرض، فتأيّد به دين الحنفية، وانتصر به مذهب السنة الفضلى وظهرت بقوة عزمه شعائر الإسلام فاستحوذت على الأنام، وتبددت بعظيم بأسه ظواهر الإلحاد والابتداع والزندقة، وبنى رحمه الله المدارس المعروفة بالسليمانية، وذلك للأئمة الأربعة: المالكي والحنفي والشافعي والحنبلي، وله من المآثر وجليل الأعمال كثير، ومن جملة ذلك، الخيرات والخدمات التي فعلها في الحرمين الشريفين والقدس وغيرهما من البلاد مما لا يحصى، ومنها: إجراء الماء من الفرات إلى مشهد الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما، ومنها: ما جعله للمساجد الثلاثة المشرفة من كفاية في الحبوب والطعام والمرتبات، ومنها: إجراء عين من مسيرة ستة أيام لدار الخلافة العظمى في القسطنطينية، وقد أنفق على ذلك من الأموال ما لا يحصى، ومنها: إجراء عين عرفات إلى مكة، وسبب ذلك أن العين التي كانت بمكة هي عين حنين الي أجرتها زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة هارون الرشيد، واسمها أمة العزيز، لأن جدها المنصور كان يرقصها وهي طفلة ويقول: أنت زبيدة.

فغلب ذلك على اسمها، وكانت رحمها الله من أهل الخيرات.

وقد توفي رحمه الله في آخر غزواته سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وقد تولى من بعده السلطنة ابنه:

الفصل الحادي عشر

السلطان سليم الثاني

وقد بويع بعد موت والده فجلس على سرير السلطنة سنة أربع وسبعين وتسعمائة، فسار في حكمه وسيرته على نمط والده في العدل والصلاح،

ومن مآثره فتوحاته العظيمة، ومن أعظمها أقطار اليمن لأنها قد اختل أمرها وهاجمها أهل الطغيان والفساد، فأمر السلطان بالتجهيز لها، فأمضى عساكره بقيادة وزيره الأكبر سنان باشا، فخرج إليهم من الديار المصرية ليسكت أعوان الشر والتخريب فيستقر الأمن والنظام.

ومن مآثر هذا السلطان الكثيرة، عمارة المسجد الحرام سنة ثمانين وتسعمائة، وذلك قبل وفاته بسنتين.

ومنها: اشتهاره بإرسال الغزوات وهو جالس مكانه، ففتح جزيرة قبرص، ومدينة تونس الخضراء، وممالك اليمن جميعها، وقد توفي رحمه الله سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، فكانت مدته في السلطنة ثماني سنوات، وكان عمره إذ ذاك ثلاثاً وخمسين سنة.

ثم تولى السلطنة من بعده:

الفصل الثاني عشر
السلطان مراد الثالث

وهو ابن السلطان سليم خان، ولد سنة إحدى وخمسين وتسعمائة، وجلس على كرسي الملك بعد وفاة أبيه سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة.

كان رحمه الله ذا خلق رفيع وأدب عظيم جم، فلم تُعلم له خِفة أو صَبوة مما يخرم المروءة ويخدش الشهامة، فلم يتناول شيئاً من المحرمات مما يشين الأكارم الأفاضل من الناس، بل كان عزيزاً نقياً نزيهاً عفيفاً.

وفي سنة ست وثمانين وتسعمائة، شرع هذا السلطان في فتح الممالك من بلاد العجم، فكانت عساكره تتقدم في فتوحاتها المظفرة نحو مختلف البلدان، يتلو بعضها بعضاً.

وقد توفي السلطان مراد سنة ثلاث وألف من الهجرة النبوية، وكان عمره يوم ولي الحكم ثلاثين سنة، وكانت مدة سلطنته عشرين سنة وتسعة أشهر.

ثم تولى من بعده:

الفصل الثالث عشر

السلطان محمد

هو ابن السلطان مراد بن السلطان سليم بن السلطان سليمان خان، وقد جلس على كرسي الملك سنة ثلاث وألف وذلك يوم وفاة أبيه السلطان مراد، ومن مآثره الجهاد في سبيل الله وفتح البلدان، فقد غزا بعساكره بلاد المجر، فعاد ظافراً مؤيداً بالنصر، وقد جهَّز عساكره فسار معهم بنفسه إلى جهاد الفرنج فكتب الله له الغلبة والنصر، وقد توفي رحمه الله سنة اثنتي عشرة وألف، وكانت مدة سلطنته تسع سنين، رحمه الله تعالى، وقد تولى من بعده حكم البلاد:

الفصل الرابع عشر

السلطان أحمد

وهو ابن السلطان مراد بن سليم بن سليمان بن سليم خان، فقد جلس على سرير الملك سنة اثنتي عشرة وألف، وقد تصدى في ولايته للبغاة والزنادقة فقتلهم، وكان له مآثر شتى من وجوه الإصلاح والإعمار والإحسان للأئمة والقضاة والخطباء، وقد مكث في الملك مدة أربع عشرة سنة.

ثم تولى السلطنة من بعده أخوه:

الفصل الخامس عشر

السلطان مصطفى بن محمد

جلس على كرسي الملك سنة سبع وعشرين وألف، وكان أخوه السلطان أحمد قد عهد إليه عند موته بالسلطنة ولم يعهد بها لابنه عثمان بسبب صغر سنه، فاستقر مصطفى في السلطنة بعد موت أخيه أحمد مدة

ثلاثة أشهر، ثم خلعه العسكر وولوا مكانه عثمان بن أحمد، فظل مصطفى مخلوعاً إلى أن تولى التولية الأخرى، وقد تولى من بعده أو بدلاً عنه:

الفصل السادس عشر

السلطان عثمان

وهو ابن أحمد خان بن محمد خان، فهو كما تقدم آنفاً ابن أخ السلطان مصطفى بن محمد، وقد جلس عثمان على تخت الملك سنة ثمان وعشرين وألف، وقد ولي الحكم عقب خلع عمه مصطفى، وكان رحمه الله عالماً فاضلاً شجاعاً مقداماً، ساهراً على حماية بيضة الإسلام وهذا الدين، وقد شغب عليه العسكر فقبضوا عليه وقتلوه وجاؤوا بعمه مصطفى وأجلسوه على تخت السلطنة مرة ثانية بعد قتلهم ابن أخيه عثمان، وكان عمره حين التولية عشر سنين، وكان عند القتل تسع عشرة سنة، ثم تولى الحكم من بعده:

الفصل السابع عشر

السلطان مصطفى بن محمد خان

وهذه هي التولية الثانية للسلطان مصطفى، ولما ورد الخبر بوفاة السلطان عثمان سنة إحدى وثلاثين وألف صلى عليه الناس صلاة الغائب، ثم استمر السلطان مصطفى في السلطنة الثانية سنة وثلاثة أشهر ثم خلع سنة اثنتين وثلاثين بعد الألف.

ثم تولى الحكم من بعده:

الفصل الثامن عشر

السلطان مراد الغازي

وهو ابن أحمد بن محمد بن مراد بن سليم بن سليمان بن سليم

خان، وقد جلس هذا السلطان على سرير الملك عام اثنتين وثلاثين وألف، وقد بادر في بداية ملكه، إلى الانتقام من قتلة أخيه عثمان بن أحمد، وكان هذا السلطان عظيم المهابة مقداماً جسوراً في ساحة الحرب وهو يصول صولاته البطولية على الأعداء ليفنيهم ويبدد جموعهم، وكان رحمه الله غيوراً على الإسلام، مقيماً لشعائره مجهزاً لعساكره لافتتاح البلدان، فغزا بنفسه بلاد العجم فافتتح فيها كثيراً من البلدان، وافتتح بغداد عام ثمان وأربعين وألف، ثم رجع إلى عاصمة ملكه الحصينة وهي استنبول، وقد استمر هذا السلطان المقدام في السلطنة مدة سبع عشرة سنة، وتوفي سنة تسع وأربعين وألف، وكانت سنه حين ولي الملك أربع عشرة سنة.

ثم تولى الملك من بعده:

الفصل التاسع عشر

السلطان إبراهيم

وهو ابن السلطان أحمد أخو السلطان مراد، وقد جلس هذا على كرسي الملك سنة تسع وأربعين وألف، وهي سنة وفاة أخيه السلطان مراد، وشرع في فتح جزيرة كريت، ففتحها باستثناء قلعة واحدة لعظيم متانتها، وقد ظل هذا السلطان في الملك إلى أن تخلى عنه سنة ثمان وخمسين وألف، فكانت مدة سلطنته ما يقرب من تسع سنين.

ثم تولى من بعده:

الفصل العشرون

السلطان محمد خان

وهو ابن السلطان إبراهيم خان بن السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان، ثم ينتهي نسبه إلى السلطان عثمان خان الغازي، وقد ولد سنة تسع وأربعين وألف، وجلس على تخت الملك سنة ثمان وخمسين وألف

وكان عمره إذ ذاك تسع سنين، ومن مآثره العظمى فتوحاته ومغازيه الكثيرة التي أذل فيها الكفر والباطل وأعلى شأن الإسلام ومكانة المسلمين.

وقد استمر في السلطنة إلى أن ثار عليه الجند فخلعوه وأدخلوه السجن معتقلاً، وأخرجوا من السجن أخاه الذي كان معتقلاً فيه وهو السلطان سليمان بن إبراهيم، وأناطوا به الولاية، ثم تهيأ لقتال الكفرة والملحدين وغزوهم في عقر ديارهم، وذلك بعد أن استمال المسيحيين في الدولة فأحبوه ووثقوا به واطمأنوا له نتيجة لمعاملتهم بالرأفة والقسط وتحذير من يتعرض لهم بسوء، وبعد انتظام الجيش وتطهيره من الأدران، فساد الأمن والاستقرار في البلاد، وحينئذٍ سار هذا السلطان بنفسه لقتال المعتدين، فقهرهم واستعاد منهم بلاداً كانوا قد دخلوها وهي مدائن نيش وودين وسمندريه وبلغراد وغيرها، وقد توفي رحمه الله سنة اثنتين ومائة وألف للهجرة، أي سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف للميلاد، عن خمسين سنة، وكانت مدة حكمه ثلاث سنوات وثمانية أشهر ولم يكن له عقب[١].

ثم تولى من بعده أخوه:

الفصل الحادي والعشرون

السلطان أحمد خان

ولد سنة ١٠٥٢ للهجرة أي ١٦٤٣ للميلاد، كان يعوّل في الحرب على الصدر الأعظم، لكن هذا الوزير لم تدم وزارته في ظل السلطان كثيراً، بل مات في ساحة القتال ضد الجيوش النمساوية.

على أن هذا السلطان لم تقع في مدة سلطنته أحداث كبيرة، فقد توفي رحمه الله سنة ١١٠٦ للهجرة أي ١٦٩٥ للميلاد وكان عمره أربعاً وخمسين سنة، وكانت مدة حكمه أربع سنوات وثمانية أشهر.

---

(١) سمط النجوم العوالي ج٤ ص٧٣ - ١٠٩.

فتولى من بعده:

الفصل الثاني والعشرون

السلطان مصطفى خان

وهو ابن السلطان محمد الرابع، وكان هذا السلطان شجاعاً ثابت الجأش قوي العزيمة، فقاد جيوش العثمانيين بنفسه فسار إلى بولونيا وانتصر عليهم عدة مرات، وقد حارب الروس واضطرهم لرفع الحصار عن مدينة أزاق في بلاد القرم، التي حاصرها بطرس الأكبر لتكون لبلاده ثغراً على البحر الأسود.

ثم أغار السلطان بجيوشه ثانية على بلاد المجر وفتح بعض حصونها وقتل من عساكر المجريين ستة آلاف مقاتل، وأخذ قائدهم أسيراً ثم قتله.

وعقب ذلك أخذت جيوش السلطان في التراجع أمام الضغوط من جيوش النمسا وروسيا وبولونيا وفرنسا والبندقية فتنازلت عن كثير من البلدان، وزاد من حدة التوتر والفوضى اجتماع المغرضين والمفسدين، من أهل الفتنة كأصحاب المنافع الخاصة وبعض الجنود والإنكشارية على إثارة الفساد والتخريب والفوضى، فما لبثوا بعد ذلك أن عزلوا السلطان بعد أن حكم ثماني سنوات وثمانية شهور، ثم بقي في عزله إلى أن مات سنة ١٧٠٣م وعمره إذ ذاك أربعون سنة، ثم أقاموا مقامه أخاه:

الفصل الثالث والعشرون

السلطان أحمد خان

وهو ابن السلطان محمد الرابع المولود سنة ١٦٧٣ للميلاد، ومن أهم ما وقع في مدته من أحداث: محاصرة الجيوش العثمانية لقيصر روسيا وخليلته كاترينا، ولو استمر العثمانيون في حصار القيصر لتبددت الدولة الروسية كلياً، لكن قائد الجيش العثماني واسمه بلطه جي محمد باش، قد جنح لملاينة كاترينا، فرفع الحصار عن القيصر وجيشه، وفي ذلك من تنجية الأعداء ما لا يخفى، ولولا هذه الملاينة والتخاذل المصطنع المزري أمام

هذه المرأة، لازدادت دولة العثمانيين مهابة وعزاً ولامتد سلطانها وهيمنتها إلى كثير من ديار الظلام والكفر.

وخلال حكم هذا السلطان، استفحل شر الفوضويين وأهل الفتنة من انكشاريين وغيرهم، فطغوا على مقاليد الحكم في الدولة وتمكنوا في النهاية من عزل السلطان أحمد نفسه، ونادوا بابن أخيه السلطان محمود الأول ليكون خليفة للمسلمين، وأميراً للمؤمنين، فلم يملك السلطان إلا الإذعان لمطلبهم بعد أن كانت مدة حكمه سبعاً وعشرين سنة.

الفصل الرابع والعشرون

السلطان محمود خان الأول

وهو ابن السلطان مصطفى الثاني، وهو مولود سنة ١٦٩٦ للميلاد، ولدى ولايته زمام الدولة لم يكن له في بداية حكمه إلا الاسم، وكان النفوذ لبطرونا خليل ليفعل في الدولة كما يبتغي أو يهوى، فضاق به السلطان ذرعاً فمالأ عليه بعض الإنكشارية فقتلوه تخلصاً من شره واستبداده.

أما السلطان محمود خان فقد كان من شيمه العدل والحلم وجنوحه للمساواة بين الناس في قضائه، دون تمييز أو تحيز لفئة دون أخرى، وقد اتسع نطاق الدولة ـ إبان حكمه ـ في بلاد آسيا وأوروبا، وقد توفي رحمه الله عن ستين سنة بعد أن حكم البلاد مدة خمس وعشرين سنة، فحزن عليه العثمانيون لفضله واستقامته في سياسة الأمة.

وقد تولى من بعده:

الفصل الخامس والعشرون

السلطان عثمان خان الثالث

وقد ولد سنة ١٦٩٦ للميلاد، ثم عَيِّن في منصب الصدارة العظمى

نشانجي علي باشا، ثم ما لبث أن قتله لما شكاه الناس وتذمروا من مظالمه، وقد توفي السلطان عثمان عن ستين سنة بعد أن حكم أربع سنين تقريباً، وقد خلفه من بعده:

الفصل السادس والعشرون

السلطان مصطفى خان الثالث

وهو ابن السلطان أحمد الثالث، المولود سنة ١١٢٩ للهجرة، وقد كان هذا السلطان محباً للإصلاح والتقدم بالبلاد إلى ما فيه الخير من إنشاء المستشفيات والمدارس والجوامع وتسهيل المواصلات، وغير ذلك من وجوه الإصلاح والإعمار، وقد خاضت الجيوش العثمانية إبان حكمه حروباً طويلة محتدمة ضد الجيوش الروسية فهزموهم وقتلوا منهم آلافاً من الجنود.

وقد توفي هذا السلطان سنة ١٧٧٤ للميلاد، بعد أن بلغت مدة حكمه ست عشرة سنة وثمانية شهور.

وقد تولى من بعده:

الفصل السابع والعشرون

السلطان عبدالحميد خان الأول

وهو ابن السلطان أحمد الثالث، وقد ولد سنة ١٧٢٤ للميلاد، وقد تولى الحكم، والأعداء الكثيرون من حوله يتربصون بالدولة العلية العثمانية، ويبتغون تمزيقها واحتلال بلداتها ومدائنها واحدة بعد الأخرى، وخصوصاً روسيا، دولة التعصب والحقد والعدوان التي لم تبرح الكيد لدولة الإسلام والتربص بها وممالأة الدول الأوروبية من أجل إضعافها وابتلاع أجزائها، وقد استطاعت روسيا أن تستولي على بلاد القرم بسبعين ألفاً من الجنود، الذين كانوا يتهيأون على الحدود لهذه الغاية، وكذلك النمسا قد بادرت من ناحيتها لإعلان الحرب على الدولة العثمانية ممالأة وعوناً لروسيا، وعقب

ذلك توفي السلطان عبدالحميد الأول سنة ١٧٨٩ للميلاد، عن ست وستين سنة، وكانت مدة حكمه خمس عشرة سنة وثمانية شهور.

ثم تولى من بعده:

الفصل الثامن والعشرون

السلطان سليم خان الثالث

وهو ابن السلطان مصطفى الثالث، والمولود سنة ١٧٦٢ للميلاد، وقد تولى الحكم، والحرب دائرة ومحتدمة بين الدولة العلية وكثير من الدول الأوروبية، فجهد هذا السلطان في تقوية الجيوش وإمداد العساكر بكل أسباب القوة والتمكين من السلاح والذخائر والمؤن.

وفي سنة ١٧٩٨ للميلاد، كان الحدث الاستعماري المقبوح وهو:

احتلال الفرنسيين مصر:

وذلك بقيادة العسكري المشهور نابليون بونابرت، فقد سار بالجيوش الفرنسية نحو مصر، فدخلها من غير أن يعلن حرباً على الدولة العلية العثمانية بل كانت حكومته قد أوصته بكتمان ذلك كيلا يعلم البريطانيون بذلك فيسعوا إلى إعاقته أو التعرض له بالمقاومة، فقد مضى بونابرت بعساكره وعدتها ستة وثلاثون ألفاً من جنود البر وعشرة آلاف من جنود البحرية، وقد اصطحب معه مائة واثنين وعشرين عالماً وخبيراً من أولي التخصص في مختلف العلوم والمعارف لدراسة الأحوال والأوضاع في مصر، وذلك من سائر الجوانب التاريخية والاجتماعية والثقافية والطبيعية توطئة لاحتلال البلاد.

وقد وصل القائد بونابرت إلى جزيرة مالطا واحتلها في نفس العام ثم وصل إلى مدينة الإسكندرية وترك بها القائد كليبر، ثم توجه إلى القاهرة عن طريق الصحراء، فتصدى له مراد بك بجيش غير كبير من المماليك لكن

نابليون قد هزمهم فتم له بذلك دخول القاهرة، ثم ما لبث بعد ذل أن علم بواقعة أبي قير البحرية التي دمَّر فيها الأميرال نلسن قائد البحرية الإنجليزي، جميع السفن الحربية الفرنسية، وبذلك سيطر الإنجليز على البحر المتوسط فتمكنوا من قطع المواصلات بينه وبين فرنسا.

فتهيأت الدولة العليا لمواجهة الفرنسيين في مصر، وقد عرض الإنجليز مساعدتهم للعثمانيين لإخراج الفرنسيين من مصر وذلك مخافة أن تكون طريق الهند في قبضة دولة قوية كفرنسا فتستحوذ عليها، وكذلك عرضت روسيا أن تمد العثمانيين بمراكب حربية، فقبل العثمانيون بذلك من الدولتين، وحينئذٍ عزم نابليون على مفاجأة الدولة العثمانية باحتلال الشام، فرحل من مصر ومعه ثلاثة عشر ألفاً من الجند قاصداً بلاد الشام من طريق العريش، فاحتلها ثم دخل مدينة غزة، فارتحل عنها متوجهاً إلى الرملة ومنها إلى يافا، وفيها قد ارتكب نابليون فعلاً شنيعاً إذ أمر بقتل الذين معه من الجرحى والمرضى من عساكره كيلا يعيقوه في سيره، ثم حاصر مدينة عكا من البر وهاجمها عدة مرات فلم يظفر باحتلالها لشدة المواجهة وعظيم البلاء من جهة المدافعين عنها بقيادة أحمد باشا الجزار، وهو قائد حاميتها إذ ذاك، وبذلك عجز نابليون عن دخول عكا فكرّ راجعاً إلى مصر.

ولما علم نابليون في مصر بغلبة الفساد على بلادهم التي عمتها الفوضى عزم على السفر من الإسكندرية قاصداً فرنسا خفية مع بعض قواده كيلا يدري به الإنجليز فيمسكوا به، فبقي الجيش الفرنسي في مصر من غير مدد ولا مراكب تحميه من نزول الإنجليز والعثمانيين إلى الثغور، فضلاً عن النقص في إعداده بسبب الحرب والطاعون، ومن أجل ذلك يئس القائد الفرنسي كليبر من البقاء في مصر، وقد أصاب جيشه من الوهن ما أصابه، ثم أضيف إلى ذلك مقتل القائد كليبر نفسه، إذ قتله شخص حلبي اسمه سليماً القائد، وذلك في بستان سراي الألفي بالأزبكية ثم ولى هارباً، ولما علم الإنجليز والعثمانيون بموت القائد كليبر وخروج نابليون والذين معه من القادة المهرة، شددوا الحصار على الجيش الفرنسي بالقاهرة، فلجأ نابليون بعد ذلك إلى الملاينة والمراوغة ـ وقد بات رئيساً للجمهورية الفرنسية ـ

فخابر السفير العثماني أسعد أفندي وأقنعه بوجوب تجديد العلاقات الحسنة مع فرنسا، فخابر السفير العثماني دولته بذلك، فاتفق الطرفان على مشروع معاهدة عام ١٨٠١م، أساسها إخلاء مصر مع إقرار بعض الامتيازات لفرنسا في الشرق.

محمد علي باشا حاكم مصر:

ولد هذا الرجل في مدينة قولة سنة ١٧٦٩ للميلاد، وهي بلدة قديمة من بلاد مقدونية حيث نشأ وترعرع إسكندر المقدوني، وقد توفي أبوه وهو صغير فكفله عمه وظل في رعايته حتى بلغ أشده فزوجه ابنته.

وعقب احتلال الفرنسيين مصر، كان محمد علي واحداً من الجنود الذين أرسلوا لمحاربتهم، وقد شهد واقعة أبي قير، وعينه خسرو باشا ـ وهو والي مصر بعد خروج الفرنسيين ـ قائد فرقة من أربعة آلاف مقاتل.

وقد كان محمد علي رجلاً قوياً، عظيم البأس والمماكرة، شديد المراس والدهاء، فقد أخذ يستميل إليه مشاعر الجنود ليستعين بهم عند الحاجة وعندما تسنح الفرصة، وكان يخفي في نفسه ـ مما كشفته القرائن ـ رغبته الشديدة في الاستئثار بوادي النيل، وكان يحول دون بغيته هذه ما كان يقع في بلده من فتن يثيرها الإنشكارية وجماعة الأرناؤوط، إضافة إلى والي مصر وهو خسرو باشا الذي كان ينازعه محمد علي الحكم، فحرّض عليه الإنكشارية وقتلوه، ثم سلط الأرناؤوط على الإنكشارية فحاربوهم في مصر القديمة وقتلوا أغلبهم وهرب الباقون، وبذلك صفا الجو لمحمد علي في مصر.

عزل السلطان سليم الثالث:

ثارت ثائرة المعارضين والمخالفين لهذا السلطان بسبب النظام العسكري الجديد، الذي ابتدعه والذي بموجبه الإلزام بلبس الملابس الغربية والتزيي بزي النصارى، فانطلق الثائرون في البلاد يحرضون الناس على الخروج على السلطان ليحملوه على إبطال النظام العسكري المبتدع،

وساعدهم على الخروج المفتي العام للبلاد، وقد كان في الحقيقة هو المثير للخروج والثورة، وكان هذا قد أفتى بأن كل سلطان يدخل على المسلمين نظام الإفرنج وعاداتهم ثم يجبر الرعية على الأخذ بها فإنه لا يكون صالحاً للملك، ثم استمرت ثورة المخالفين إلى أن نودي بعزل السلطان سليم الثالث، وكانت مدة حكمه تسعة عشر سنة، وكانت وفاته عام ١٨٠٨ للميلاد عن ثمان وأربعين سنة، ثم قام مقامه في خلافة المسلمين:

الفصل التاسع والعشرون

السلطان مصطفى خان الرابع

وهو ابن السلطان عبدالحميد الأول، وقد ولد سنة ١٧٧٩ للميلاد، وكان قد كلفه المفتي بإبلاغ السلطان سليم خبر عزله، فذهب إليه وأبلغه ذلك مبيناً له أسفه عما وقع.

وقد كان السلطان مصطفى، هذا قليل المهابة، ضعيف الشأن أمام المبغضين والمخالفين له في الداخل، فضلاً عن الدول الأوروبية الذين يتفقون ويجتمعون في أغلب الأحوال على محاربة الدولة العثمانية المسلمة طمعاً في الاستيلاء على ثرواتها ومقدراتها وطاقاتها الكبيرة، وقد تبين ذلك من المعاهدة السرية المتفق عليها بين نابليون، وإسكندر الأول قيصر روسيا، ومما تضمنته هذه المعاهدة التوعد بسلخ جميع الولايات العثمانية بأوروبا ما عدا الآستانة وما حولها، ثم تقسيم هذه الولايات بين دولتي روسيا وفرنسا مع إرضاء النمسا بجزء يسير.

ويتبين للعيان ما في هذه المعاهدة من عدوان لئيم، وتمالؤ خبيث مسفّ على الدولة العثمانية وحقوقها وكرامتها، بالرغم من الوعود الكثيرة التي كانت تقطعها فرنسا بالوقوف إلى جانبها أمام الاعتداء الروسي.

وذلك يذكر المسلمين على الدوام ومرّ الزمن أن هؤلاء الصليبيين أو غيرهم من الملاحدة والوثنيين والصهيونيين لا أمانة لهم، فهم كاذبون

ماكرون مخادعون لا يرعون في أمة الإسلام ـ خصوصاً ـ إلاً ولا ذمة، وبذلك فإن من السذاجة والسفه، أو من الغباوة وسقم التفكير أن يثق المسلمون بوعود الكافرين الكاذبين أو يركنوا لعهودهم ومواثيقهم، فأولئك ليسوا غير متربصين دجاجلة يرقبون الساعة التي يحين فيها أوان مصالحهم وأهواءهم ليقلبوا للمسلمين ظهر المجن فيمزقوا ما سطرته أقلامهم من معاهدات وعهود فيدبروا عنها إدبار الحمير المستنفرة التي لا يشدها أو يؤزها إلا الغريزة، فهم بذلك لا يعبأون بقيم الصدق والمروءة والحياء أو الوفاء مما جاءت به المسيحية السمحة، وأوجبه الإسلام العظيم، لكنهم طغاة متمردون فجرة لا يشدهم غير الهوى الهابط الخسيس ولا يردعهم أو يصدهم سوى القوة المسلحة المرعبة.

ثم نشبت ثورة في البلاد طالب فيها الثائرون بعزل السلطان مصطفى الرابع، وبحجزه في السراي الذي عزل فيه السلطان سليم، وقد تمكنوا من عزله فعلاً في نفس السراي بعد أن حكم البلاد ثلاثة عشر شهراً، ثم قتل في سرايه عقب ذلك[1] وأقيم مقامه:

الفصل الثلاثون

السلطان محمود خان الثاني

هو ابن السلطان عبدالحميد الأول، ولد عام ١٧٨٥ للميلاد، افتتح أعماله بأن جعل مصطفى باشا البيرقدار الصدر الأعظم وأناط به تنظيم الإنكشارية وإجبارهم على اتباع نظامهم القديم والذي كان منذ عهد السلطان سليمان القانوني، ثم أهملوه شيئاً فشيئاً حتى ركنوا إلى الفتنة والفوضى فباتوا عبئاً على الدولة والأمة، بما يثيرونه في البلاد من تخريب وإزعاج وترويع.

على أن الإنكشارية لم يرضوا عن السلطان محمود خان، الذي كان

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص٣٠٧ ـ ٣٩٧ تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق: إحسان حقي.

صارماً فيهم بما أجبرهم عليه من ضرورة الانتظام ضمن قوانين الدولة، فلا يخرجون عنها ولا يثيرون في الأرض الفساد والفوضى، فما لبثوا بعد ذلك أن لجوا في تمرد وعصيان ثم ساروا إلى سراي السلطان مصطفى لإرجاعه إلى عرش البلاد بدلاً من السلطان محمود خان، فتصدى لهم مصطفى باشا البيرقدار بعد أن قتل السلطان مصطفى مما زادهم هياجاً فقاتلوه وأضرموا النار في السراي الملوكي لكي يضطروا البيرقدار إلى الهرب، لكنه رفض الاستسلام لهم فآثر هو والذين معه الثبات والمقاومة حتى مات حرقاً.

ثم أرسل السلطان محمود جيوشه تتقدمهم المدافع التي تقذف الصواعق على الإنكشارية من كل جانب، لكن الإنكشارية لما أحسوا بالخطر يحيط بهم راحوا يشعلون النيران في جميع الجوانب من الآستانة، فأضرمت إضراماً، مما أجبر السلطان على الإذعان لمطالب الإنكشارية ريثما يتمكن من إخماد النيران التي باتت تلتهم البلاد والعباد.

قتل المماليك:

أراد زعيم مصر محمد علي باشا التخلص من المماليك نهائياً، كيما يستتب له الأمر وتستقر الأحوال في البلاد، فقصد القضاء على المماليك، وقد اصطنع لتنفيذ هذا المطلب حيلة ـ كعادته في التحيل والمماكرة ـ إذ أعدّ حفلة في القلعة عام ١٨١١ لتقليد ولده طوسن باشا قيادة الجيش المزمع إرساله لمحاربة الوهابيين في بلاد العرب، وفي هذا اليوم قدم جميع رؤساء المماليك إلى القلعة في موكب منتظم، حتى إذا دخلوا جميعاً أغلقت أبواب القلعة فانحشروا بداخلها وأمر الوالي أن تطلق عليهم نيران البنادق من خلف الأسوار ومن أعلاها حتى قتلوا جميعاً، ثم أرسل إلى عماله في الأقاليم بقتل جميع المماليك في خارج العاصمة فقتلوهم.

وبعد مقتل المماليك وإبادتهم، أرسل محمد علي ولده طوسن باشا بجيوشه إلى بلاد العرب من أرض الحجاز لمحاربة الوهابيين، فقاتلهم واستخلص منهم المدينة المنورة بعد أن نسف أسوارها ثم دخلها عنوة، وقد تضعضع شأن الوهابيين عقب هزيمتهم أمام عساكر محمد علي وولده

إبراهيم، وكذلك عقب وفاة زعيمهم سعود فتولى زعامة الوهابيين من بعده ولده عبدالله.

ثم أخذ محمد علي باشا في تجهيز حملة جديدة لمحاربة الوهابيين بقيادة ولده إبراهيم باشا أكبر أولاده، فسار هذا بالجيوش إلى بلاد العرب من أرض الحجاز، فمر بجدة ثم ينبع ومنها إلى المدينة المنورة حيث زار قبر رسول الله ﷺ، ثم سار بالجيوش إلى بلاد نجد فوصل إلى مدينة الدرعية وهي عاصمة الوهابيين وحاصرها، فأتى عبدالله بن سعود إلى إبراهيم باشا في معسكره، فأحسن تكريمه واحترامه، وبعد نقاش بينهما طويل، اتفقا على تسليم مدينة الدرعية إلى جيش مصر بقيادة إبراهيم باشا، وأن يسافر عبدالله بن سعود إلى الآستانة، فسار قاصداً الآستانة حتى إذا وصل القسطنطينية عام ١٨١٨ قتل في الحال.

وبذلك تم القضاء على الوهابيين والمماليك من قبلهم، فاستقر الأمر وهدأت الأحوال ثم عاد إبراهيم باشا إلى مصر.

القضاء على الإنكشارية:

عندما استبان للسلطان محمود أفضلية النظم العسكرية في جيوش الأوروبيين، وظهر له ما أنجزه الجيش المصري المنظم من صنائع جليلة في ميادين القتال تمخضت عن انتصارهم على اليونانيين، حينئذٍ استيقن السلطان أن ذلك كله قد تحقق لاعتماد النظام العسكري الحديث، ومن أجل ذلك عزم السلطان على المضي قدماً في إصلاحاته العسكرية، مما يقتضي بالضرورة إلغاء نظام الإنكشارية، القائم على الفوضى والتسيب وإراقة الدماء فضلاً عن إشاعة الرعب والهلع بين الناس، فاستشار السلطان لتحقيق مهمته هذه كبار العلماء والأعيان وقادة الجيوش وأظهر لهم ما وصلت إليه الإنكشارية من الانحطاط والفوضى، فباتت بذلك سبباً في تدهور الأوضاع وتأخر الدولة بالمقارنة بما حققته الدول الأوروبية من تقدم في المجالات العسكرية والشؤون الإدارية للبلاد، فبادره الحضور بالإقرار والقناعة وبضرورة المبادرة في إصلاح الجندية والتخلص من ظاهرة النشاز، التي بنيت عليها

الفئات الإنكشارية، لكن هؤلاء رفضوا ما أجمع عليه الساسة والقادة وأكابر الضباط والأعيان، فراحوا يحرضون على الثورة والفتنة والعصيان.

ولدى علم السلطان بعصيانهم وهياجهم عزم على قتالهم قبل أن يستفحل خطرهم ويتفاقم شرهم، فسار السلطان بعساكره لقتالهم فظفر بهم وبدّدهم تبديداً، فباتوا أثراً بعد عين.

استيلاء محمد علي على الشام:

في سنة ١٨٣١، أمر محمد علي باشا، مؤسس العائلة الخديوية، بإعداد الجيوش والمسير إلى بلاد الشام عن طريق العريش وعن طريق البحر، وذلك لمحاصرة عكا، وقد عين ولده إبراهيم باشا قائداً عاماً للجيش المصري الذاهب لتحقيق هذه المهمة الكبيرة.

فسار إبراهيم باشا بحراً إلى مدينة حيفا في غاية التنظيم والترتيب، وكانت الجيوش في البر قد سبقته من طريق العريش وفتحت مدائن غزة ويافا وبيت المقدس ونابلس، وكانت مدينة حيفا مركزاً للإدارة والأعمال ومستودعاً للذخائر والمؤن.

ولما علم السلطان العثماني بدخول الجيوش المصرية بلاد الشام ومحاصرتهم مدينة عكا، أدرك حينئذٍ عصيان محمد علي باشا وخروجه على الخليفة العثماني، فأمر من فوره والي حلب وهو عثمان باشا بالمسير إلى مواجهة الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا ليردهم إلى حدود مصر، فالتقى الجمعان بالقرب من حمص، فكانت الغلبة في القتال لجيش إبراهيم باشا، ثم عاد هذا إلى مدينة عكا لحصارها، فدخلها عنوة عام ١٨٣٢ للميلاد.

ثم بادر السلطان محمود بحشد الجيوش، فجمع ستين ألف مقاتل بقيادة حسين باشا الذي برع في محاربة الإنكشارية، فتصدى لهم إبراهيم باشا بجيشه وتمكن من هزيمتهم، وبذلك حاقت بالعثمانيين الهزيمة مما أثار الشعور بالقلق لدى الدول الأوروبية، التي توجست خيفة من نوايا محمد علي باشا في احتلال الآستانة نفسها والاستئثار بالخلافة الإسلامية، بدلاً من

العثمانيين وذلك بالنظر لما يعلمه الأوروبيون من حنكة هذا الرجل وقوة بأسه وعظيم شكيمته ولما يتجلى فيه من ظواهر القدرة على الكيد والتربص والبراعة في التخطيط.

من أجل ذلك ألحت الدول الأوروبية على السلطان العثماني بسرعة الاتفاق مع محمد علي باشا قبل فوات الأوان، فقبل السلطان بهذا التوسط، فكانت بذلك:

معاهدة كوتاهيه:

وجملتها اتفاق الطرفين على أن يخلي المصريون إقليم الأناضول الذي احتلوه عقب احتلال مدينة حلب، ثم ترجع جيوشهم إلى ما وراء جبال طوروس، ثم تعطى ولاية مصر لمحمد علي باشا مدة حياته، ويعين هو والياً على ولايات الشام الأربع وهي عكا وطرابلس وحلب ودمشق، وعلى جزيرة كريت، وأن يعين ولده إبراهيم باشا والياً على إقليم أضنة.

وقد قبل السلطان العثماني بهذه المعاهدة عن غير طيب خاطره، إلا ليتمكن من التهيؤ للحرب فيما بعد واستعادة ما فقده قهراً.

وكذلك لم يقبل بها محمد علي إلا خشية إجبار الدولة له على ترك فتوحاته، مع أنه كان يخطط ويعمل لتحقيق حلمه في الاستقلال التام عن الدولة العثمانية عندما تتاح الفرصة، وبذلك ما كانت هذه التسوية إلا وقتية، فكانت القناعة لدى الفريقين أنه لا مناص من وقوع القتال بينهما عاجلاً أم آجلاً.

ولقد وقع ما كان يراود الأفكار لدى الفئتين، فالتقى الجيشان عقب عدة مناورات بالقرب من نصيبين، فأسفر القتال بينهما عن هزيمة الجيش العثماني.

وقد توفي السلطان محمود الثاني عام ١٨٣٩، فجاءه وقد بلغ من العمر حين وفاته خمسة وخمسين سنة بعد أن مكث في ولاية الخلافة إحدى وثلاثين سنة وعشرة أشهر، رحمه الله.

وقد تولى الخلافة من بعده:

الفصل الحادي والثلاثون

السلطان عبدالمجيد خان

وقد تولى هذا الأمر وعمره حينئذٍ سبعة عشر سنة، وكانت الأحوال يعمها الاضطراب نتيجة للانتصارات التي حققها جيش محمد علي باشا في بلاد الشام ونصيبين، وقد أثارت هذه الانتصارات السريعة والحاسمة لمحمد علي باشا، قلق القناصل الأوروبيين في الآستانة، فأرسلوا إلى الباب العالي لائحة مشتركة تحمل توقيعات السفراء لكل من فرنسا وإنجلترا وروسيا والنمسا وألمانيا، يطلبون فيها أن لا يقر شيئاً في أمر المسألة المصرية إلا عقب إطلاعهم على ذلك وأنهم مستعدون للتوسط بينه وبين محمد علي باشا لفض هذه المسألة.

ثم اجتمع السفراء عند الصدر الأعظم العثماني وتداولوا الأمر بينهم وتشاوروا فيما يعطونه لمحمد علي باشا، فعلم هذا بما وقع من مداولات ومشاورات بين الأوروبيين والصدر الأعظم، فتبين له أن الأوروبيين عامة، والإنجليز خاصة، يعملون على إرجاع جيوشه إلى مصر وإجباره على إرجاع ما فتحه من البلاد إلى الدولة العثمانية.

وحينئذٍ أيقن محمد علي باشا أنه لا مناص من الإذعان لمطالب الدول الأوروبية، فإنه من العبث التصدي لعامتهم مجتمعين، وبذلك لم يجد محمد علي بداً من إصدار الأمر إلى ولده إبراهيم باشا بعدم المجازفة الخطرة وتعريض جيشه للهلاك بغير فائدة، بل عليه أن يستدعي عساكره في الشام للجلاء عنها، فأذعن إبراهيم باشا لأمر أبيه ثم بادر بالتنفيذ دون تردد، فأخذ الجنود بالتجمع من حول قائدهم إبراهيم باشا ليبدأوا بالرجوع إلى مصر، وكان ذلك سنة ١٨٤٠ ثم وصلوا إلى القاهرة عقب رحلة مضنية وأليمة ذاق فيها المصريون القافلون مرارة التعب والحر والعطاش، حتى إن كثيراً منهم قد ماتوا في الطريق رحمهم الله لما لاقوه من شديد النصب ولأواء الطريق

وأموالها، فضلاً عن الاعتداء عليهم من بعض قبائل البدو.

أما إبراهيم باشا وفرقته، فقد وصلوا مدينة غزة بشق الأنفس وببالغ الصعوبة بعد أن مات أكثرهم في الطريق، ثم كتب إلى والده أن يرسل إليه المراكب لتحمل فرقته من العسكر إلى الإسكندرية.

وخلال هذه المدة، عرض الإنجليز على محمد علي باشا أنهم يسعون لدى الباب العالي من أجل إعطاء مصر له ولورثته إذا تنازل عن الشام، فقبل هذا العرض وذلك سنة ١٨٤٠[١].

اقتتال الدروز والمارونيين:

بعد إخلاء الجيوش المصرية لبلاد الشام وجبل لبنان ولانعدام الأمن والاستقرار في البلاد، تحركت الضغائن والعداوات التي كانت مستكنة قديماً بين الدروز والمارونيين، وقد عملت الدسائس عملها في إذكاء نار الفتنة وإشعال لهيب الحقد والمباغضة بين الطائفتين، وقد كانت الدول الأوروبية حريصة شديد الحرص لإلهاب الفتنة والاقتتال بين الفئتين المتباغضتين لما في ذلك من تحصيل لبعض المصالح لتلك الدول، فكانت فرنسا تمد يد العون للمارونيين لكونهم ينتمون للمذهب الكاثوليكي، وكانت بريطانيا مؤيدة للدروز ضد المارونيين لتجبرهم على التمذهب بمذهب البروتستانت وهو مذهبهم، فكانت الدولتان الماكرتان بريطانيا وفرنسا ـ كشأنهما في الإفساد والتفريق بين الشعوب ـ تذكيان لهيب الخلاف والفتنة ين الطائفتين المستغفلتين وهما الطائفة الدرزية، والأخرى المارونية لتظلا على الدوام في اختلاف واحتدام، حتى وقع ما كانت الدولتان الاستعماريتان تبتغيانه إذ اعتدى الدروز على المارونية عام ١٨٤١ للميلاد، ودخلوا دير القمر أحد معاقلهم وارتكبوا فيه شنيع الأفعال فيهم من نهب وسلب وتقتيل.

وما فتىء الماكرون الاستعماريون ينفثون سموم الشقاق والنزاع

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص٣٩٧ ـ ٤٧٦.

والمباغضة، لدى المغفلين من الطائفتين حتى هاج الدروز مرة ثانية في وجه النصارى وقتلوا منهم مقتلة، وقتلوا كذلك رئيس أحد الأديرة وهو شارل دي لوريت واثنين آخرين من رهبان الدير وأحرقوا جثثهم حرقاً، وذلك عام ١٨٤٥ للميلاد.

احتلال فرنسا للشام:

وذلك عقب تعدي المارونية بالقتل على الدروز عام ١٨٥٩ للميلاد، وقيام الدروز بدورهم للانتقام والأخذ بالثأر منهم، ثم شاعت الفتنة حتى بلغت جميع أنحاء الشام، فكثر القتل والنهب ووقعت عدة مذابح في طرابلس وصيدا واللاذقية وزحلة ودير القمر، وكذلك امتدت الفتنة إلى مدينة دمشق، فعرضت فرنسا استعدادها لإرسال الجيوش الفرنسية إلى بلاد الشام لقمع الفتنة ومجازاة الذين يثيرونها ولحماية المارونيين من قمع الدروز لهم، فقد قيل إنه وقعت مذبحة بدمشق قتل فيها ستة آلاف نسمة، مما دفع الدول الأوروبية للاتفاق على أن ترسل فرنسا إلى الشام ستة آلاف مقاتل لتهدئة الأحوال المتوترة وللدفاع عن المارونيين، وفي ذلك من التحدي لسلطان الدولة العثمانية والتدخل في شؤونها الداخلية ما لا يخفى، وذلك هو ديدن الاستعماريين الأوروبيين في العدوان على بلاد المسلمين متذرعين بحماية الأقليات من المسيحيين، الذين لم يجدوا في ظل الإسلام.والمسلمين غير الرعاية والتكريم وكامل الأمن، وهذه حقيقة يشهد بها المنصفون من الخبراء والسياسيين والمؤرخين، أولئك يشهدون أن المسيحيين في ظل الإسلام والمسلمين قد أحاطت بهم كل ظواهر الصون والاحترام فكانوا أحراراً في معاملاتهم وتصرفاتهم وعباداتهم إذ لم يمسهم أحد باعتداء أو سوء، خصوصاً معابدهم وكنائسهم وشعائرهم وطقوسهم الدينية، وذلك بخلاف المسلمين الذين كتب لهم أن يرزحوا تحت سلطان النصارى في مختلف البلاد الأوروبية، فذاقوا تحت سطوتهم وطغيانهم ألواناً من التنكيل والتقتيل والإبادة وهتك الأعراض وغير ذلك من وجوه الفظائع والبشائع الرهيبة مما يفوق التصور ويزلزل القلوب والأبدان، ومن جملة ذلك ما حلّ بالمسلمين

في الأندلس وخلال محاكم التفتيش، ثم ما حاق في الزمن الراهن بالمسلمين في البوسنة والهرسك وألبانيا على أيدي الصرب النصارى، أولئك العتاة المجرمون الأشرار الذين جاوزوا في دركات الهمجية والانحطاط ما تفعله الوحوش ذوات الأنياب في الغاب!

وفي سنة ١٨٦١ للميلاد، توفي السلطان عبدالمجيد خان عن أربعين سنة وكانت مدة حكمه اثنين وعشرين سنة ونصف، وفي يوم وفاته بويع بالخلافة لأخيه:

الفصل الثاني والثلاثون

السلطان عبدالعزيز خان

ولد السلطان عبدالعزيز خان سنة ١٨٣٠ للميلاد، وكانت فاتحة أعماله إقرار الوزراء في مراكزهم باستثناء وزير الحرب رضا باشا إذ أقام مقامه نامق باشا.

وبالرغم من استقرار الأوضاع في خلافة هذا السلطان، فقد وقعت فتن في بعض الأقاليم، ومن جملة ذلك، فتنة الصرب لعدم قبولهم بالاتفاق القاضي ببقاء الجيوش العثمانية في أربع قلاع داخل بلاد الصرب، فألحوا على الدول الموقعة على الاتفاق إلغاء هذا النص وجلاء العثمانيين عنها كلياً، فلم تقبل الدولة العثمانية بذلك بل هددت الصرب بالحرب إذا أساؤوا إلى عساكرها، لكن الدولة ما لبثت أخيراً أن أذعنت للإلحاح فأمرت بسحب عساكرها من بلاد الصرب بسبب انشغال الدولة في فتنة كريت حيث نشبت فيها ثورة بتحريض من اليونان ودسائسهم لرغبتهم في ضمها إليهم، فأرسلت الدولة العثمانية جيشاً لإخماد الفتنة في هذه الجزيرة، وكذلك أرسل الخديوي إسماعيل باشا فرقة من الجيش المصري لمساعدة العثمانيين على إنهاء الفتنة، فتحقق لهم ذلك.

وأخيراً انعقد مؤتمر بباريس شارك فيه مندوبون عن الدول الموقعة على معاهدة عام ١٨٥٦، فتبادلوا الأقوال والآراء حول جزيرة كريت واستقلالها عن الدولة العثمانية، فوافقت الدولة العلية على إعطاء الجزيرة بعض

الامتيازات ثم إعفاء أهلها من دفع أموال سنتين كانت متأخرة عليهم، وكذلك إعفاؤهم من الخدمة العسكرية، وبذلك سكنت الفتنة وهدأت الثورة مؤقتاً لأن اليونانيين ما فتئوا يحرضون أهل الجزيرة على الثورة لضمها إليهم.

ومن الأحداث الظاهرة التي تحققت في خلافة السلطان عبدالعزيز خان وضع:

مجلة الأحكام العدلية:

أو مجلة الأحكام الشرعية التي وضعت للعمل بها في المحاكم النظامية، وقد اضطلع بصياغة هذه المجلة نخبة من مشاهير العلماء الراسخين في علوم الشريعة الإسلامية في ذلك العصر، وهي أحكام كثيرة وشاملة تتناول عامة القضايا والمسائل في مختلف الجوانب من المعاملات والمناكحات والجنايات والأحوال الشخصية، وكان ذلك عام ١٨٦٧.

عزل السلطان عبدالعزيز:

راج كثير من الدعايات والوساوس في أوساط الناس من أهل الآستانة عن سلوك السلطان في التبذير والإسراف وتبديد أموال البلاد فيما لا خير فيه ولا منفعة، وأنه غير أهل لإدارة الأمة والاضطلاع بمهام الدولة، وما زالت هذه الوساوس والإشاعات تسري في صفوف الناس حتى لاقت قبولاً وإقراراً، لدى كثير من الوزراء والعلماء الذين تعزز لديهم ما أشيع من أقاويل بما بدر من السلطان من بعض الأفعال، مثل زيارة معرض باريس وحضوره بعض ما فيه من مفاسد لا يقرها الشرع كالمراقص ونحوها، فاتفقوا على خلعه ومبايعة السلطان مراد بدلاً منه وذلك عام ١٨٧٦ للميلاد.

الفصل الثالث والثلاثون

السلطان مراد الخامس

وهو ابن السلطان عبدالمجيد، وقد ولد عام ١٨٤٠ للميلاد، وعقب

الإعلان عن خلع السلطان عبدالعزيز وتنصيب السلطان مراد الخامس مكانه أطلقت المدافع من البر والبحر إيذاناً بهذا الحدث فهرع الناس لمبايعة السلطان الجديد، وقد تم ذلك كله في يسر ولين ودون مقاومة من أحد، ثم ما لبث بعد ذلك أن انتقل السلطان عبدالعزيز إلى رحمة الله، وقد تباينت الآراء عن كيفية موته، وثمة قولان في ذلك:

أحدهما: أن السلطان قد قتل نفسه بنفسه، وذلك لخلل في قواه العقلية، إذ لم يحتمل القرار المفاجيء بخلعه، فاضطرب لذلك بالغ الاضطراب، مما أفضى إلى اعتلال في دماغه.

ثانيهما: إن الذين تمالؤوا على خلعه هم الذين قتلوه مخافة أن يسعى للرجوع إلى الحكم ثانية، والله وحده عليم بحقيقة الأمر.

أما السلطان مراد الخامس فكان متعلماً مهذباً يحب الإصلاح والمساواة بين الناس وسائر فئات الرعية، من غير محاباة أو تحيز، وكان رحمه الله ميالاً للاقتصاد في النفقات، بعيداً عن التبذير والإسراف والترف، وكان يبتغي القيام بإصلاح ومشروعات كثيرة تعود بالنفع والخير على المسلمين، لولا ظهور علامات من الاضطراب النفسي وخلل الأعصاب فيه، وذلك عقب تنصيبه بأسبوع، ثم ازدادت هذه الأعراض المرضية من توتر الأعصاب شيئاً فشيئاً، فبات لا يستطيع أن يميز الوزراء بعضهم من بعض، ثم شاع هذا الخبر في الناس وأن السلطان مختل الأعصاب والعقل، فلما تبين للأمراء حقيقة ذلك وأن السلطان غير قادر على قيادة الأمة عرضوا على أخيه عبدالحميد أن يستلم مقاليد الحكم في البلاد، فكان جوابه لهم أن لا يتعجلوا في الأمر فربما يمن الله على أخيه السلطان بالشفاء، لكن السلطان لم يبرحه المرض العضال بل اشتد به وازداد، فأيقن الوزراء أن لا مفر من تنصيب عبدالحميد مقام السلطان مراد، فاجتمعوا لذلك عام ١٨٧٦ للميلاد، وقرروا بوجوب المبايعة للسلطان عبدالحميد الثاني بعد صدور الإفتاء بعزل مراد لعدم صلوحه.

الفصل الرابع والثلاثون

السلطان عبدالحميد خان الثاني

تسلم هذا السلطان العظيم مقاليد الحكم في الدولة العلية عام ١٨٧٦ للميلاد، وقد كان رحمه الله ذا همة وعزم ونشاط، مبتغياً إصلاح الأمور وتقوية الدولة لتقف صامدة منيعة في وجه المكائد والمؤامرات التي تتوالى على المسلمين من دول التعصب الصليبي الحاقد في أوروبا.

ومن مبادرات هذا السلطان العظيم في الإصلاح، إصغاؤه للمشورة من وزرائه بمنح الدولة نظاماً دستورياً قائماً على الشورى، لضمان الحقوق لكل رعايا الدولة على اختلاف مللهم وجنسياتهم، وبذلك تغيض أسباب المنافسات والأحقاد العرقية والدينية.

وبذلك أصدر السلطان عبدالحميد رحمه الله إرادة سنية عام ١٨٧٦ للميلاد، بتنظيم مجلس عمومي أي برلمان، وهو مكون من مجلسين:

أحدهما: ينتخب الأهالي أعضاءه ويسمى مجلس «المبعوثان».

وثانيهما: تقوم الدولة بتعيين أعضائه ويسمى مجلس «الأعيان».

لقد كان هذا السلطان العظيم سبّاقاً لهذه المبادرة السديدة، في تعزيز النظم الجديدة المبنية على الشورى، وهي نظم إيجابية وموفقة تكفل تمام الحقوق لكل طوائف المجتمع، وبذلك يتحقق للدنيا إيجاد أمة عثمانية إسلامية واحدة، أمة مجتمعة ملتئمة كأنما هي رجل واحد، وذلك ليتمكن المسلمون من الوقوف صفاً واحداً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، في وجه التدخل الغريب السافر من الدول الأجنبية الصليبية التي تتذرع بين الحين والآخر بالرعايا المسيحيين داخل المجتمع الإسلامي، فتريد الدخول إلى دار الإسلام بحجة الدفاع عنهم أو إزالة الجور والعدوان الواقع عليهم، وهم في الحقيقة كاذبون ماكرون، وإنما يحفزهم لمثل هذه الرغبة في التدخل والعدوان، كسر شوكة المسلمين وإزالة قوتهم وعزمهم كيما يتمكنوا بعد ذلك من الانسياح في بلاد المسلمين لتدميرهم وانتهاب خيراتهم وطاقاتهم.

أما المسيحيون في ظل الدولة الإسلامية، فكانوا في عيش آمن راغد وهم محاطون بسياج من الصيانة والحماية فلا يجرؤ أحد على مسهم بسوء.

ولقد ابتهج الناس بما أصدره السلطان من إصلاحات دستورية، وأعلن القانون الأساسي لهذه الإصلاحات الدستورية في الآستانة، ويشتمل على مائة وتسع عشرة مادة، والقانون يضمن الحرية والمساواة لجميع رعايا الدولة، فضلاً عن الضمان لحق التعليم وجعله إجبارياً على جميع أفراد المجتمع.

وقد بين القانون اختصاصات مجلسي المبعوثان والأعيان، وكيفية الانتخاب، وأن جميع الرعايا يطلق على كل واحد منهم اسم عثماني، وأن الدين الرسمي للدولة العلية هو دين الإسلام، واللغة الرسمية هي اللغة التركية، وأن الدولة جسم واحد لا يمكن تفريقه أو تجزئته، إلى غير ذلك من القرارات والقوانين السديدة التي يناط بدولة الإسلام العمل بموجبها تحقيقاً للحق والعدل بين الناس.

وفي سنة ١٨٧٥ للميلاد، هاجت فتنة في بلاد الهرسك، وهي فتنة عمياء كان المحرض عليها المجاورين من الصرب وسكان الجبل الأسود مطالبين بالاستقلال الإداري أسوة بالإمارتين المذكورتين آنفاً، وقد تكون النمسا ضليعة في التحريض وإذكاء الفتنة، لأنها كانت تخفي الرغبة في الاستيلاء على ولايتي البوسنة والهرسك كلتيهما، ومن أجل ذلك تقدم أهالي الهرسك إلى السلطان يطالبونه أولاً بتخفيض الضرائب عنهم وأن يعفيهم من الانخراط في الجندية، وأن يشكل لبلادهم جندرمة من أهل البلاد أنفسهم، والجندرمة موظفون مدنيون يعملون في الأرياف خارج المدن لحفظ النظام، ويسمى في لغة العصر الدركي.

ثم تظاهر الأهالي بالعصيان حاملين السلاح في وجه عساكر الدولة العثمانية التي رفض سلطانها اللائحة المقدمة إليه والتي تطالب فيها روسيا العثمانيين بمطالب مذلة، فعزم السلطان العثماني على الدفاع عن شرف الدولة وعدم الإذعان للمطالب الأوروبية المسيحية المجحفة، فما من سبيل بعد ذلك إلا الحرب والقتال، فأصدرت الدولة بعد ذلك أوامرها إلى جميع

رؤساء الجيوش بالتصدي للعدو ببسالة واعتزاز وثبات، وقد أصدر المفتي العام فتوى عام ١٨٧٧ للميلاد بوجوب القتال على كل مسلم.

ثم خاضت عساكر العثمانيين حرباً شديدة حامية مع الروس، الذين فاقوا المسلمين في العدة والعتاد أضعافاً مضاعفة.

وفي بادىء الأمر من القتال بين الطائفتين كان النصر حليف العثمانيين، لولا المدد الهائل الذي تسرّب إلى الجيش الروسي من رومانيا وقوامه مائة ألف مقاتل، إضافة إلى الجيش الروسي وقوامه مائة وخمسون ألف مقاتل، فضلاً عن الأعداد الكثيفة من المدافع، فكانت النتيجة انهزام العثمانيين[١].

وفي عام ١٩٠٩ للميلاد، عزل السلطان عبدالحميد الثاني تحت وطأة الثائرين، الذين أشعلوا الفتنة في البلاد وأثاروا الفوضى بين الناس وتمالأوا على خلع السلطان، خليفة المسلمين نفسه.

وقد تزعّم هذه الحملة المريبة على السلطان جماعة الاتحاد والترقي، وقد ذكرنا سابقاً أنهم فئة مغرضة من طغام الناس قد استحوذت على نفوسهم السقيمة مكائد الدول الأوروبية، ليكونوا لهم رأس حربة أليمة يطعنون بها جسد الدولة العلية المسلمة، ومما قيل في هذا الصدد: جماعة الاتحاد والترقي، إنْ هم إلا مجموعة من الشبان الأغرار المتحمسين الذين كانت تعوزهم كل ظواهر الخبرة والدربة والحكمة، فمضوا في حماسة واستعجال مطالبين بتحقيق المصلحة للوطن، وما أظن هذا القول المتهافت إلا مكابرة سقيمة ومغالاة في السذاجة والاغترار، الذي يجرجر الطيبين السذج إلى مهاوي التردي ووخيم العواقب، والصواب الذي تزجي به الأدلة والقرائن أن الاتحاديين فئة فاسدة موغلة في التآمر على دولة الإسلام وخلافته التي كانت عنواناً للدولة العلية العثمانية، هذه الدولة العتيدة التي حمت بيضة الإسلام وبذلت في صونه ودفع الشرور والمكائد عنه، عظيم

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص٤٧٦ ـ ٦٣٤، وكتاب السلطان عبد الحميد الثاني بين الصهيونية العالمية والمشكلة الفلسطينية ص٥١، وما بعدها.

التضحيات، وتصدت للخصوم المتربصين بما لديها من المال والرجال حتى استشهد من المجاهدين ما لا يحصيه العد، فضلاً عن هائل الأموال التي استهلكت لهذا القصد حتى أتى الإفلاس المطبق على خزينة الدولة العظمى فباتت خالية خاوية.

ولقد جاهد السلطان عبدالحميد من أجل فلسطين درءاً لمطامع اليهود فيها حق الجهاد، وكان رحمه الله بحنكته وخبرته وذكائه يعلم ما يرمي إليه الصهاينة، وإنما يرمون إلى استدراج السلطان لابتلاع فلسطين فيغرسون فيها وطناً قومياً مستقلاً على أنقاض المسلمين في هذا الوطن المقدس، ولقد مارس اليهود كل أساليب المراوغة والخداع والإغراء للسلطان المجاهد الصابر، لكنه كان خبيراً بمقصدهم وما يرومونه من تدمير الإسلام وسرقة الوطن، بتحريض من أوروبا الصليبية الحاقدة وتمالؤ من الأحزاب المتآمرة في الداخل، الأحزاب التي تستمد طاقتها في غذاء الفكر والروح مما تفيض به محافل الماسونية الخبيثة الكامنة في سلانيك، حيث التجمع الكبير لأعداد اليهود وهم من سلالات بني إسرائيل الهاربين من طغيان الصليبيين، الذين اجتاحوا الأندلس فقتلوا أهلها ولم ينج إلا من تنصّر أو هرب إلى حيث الحماية والسلامة والأمن في الدولة العثمانية.

أولئك الذين كادوا للعثمانيين أشد الكيد وفي طليعتهم هذا السلطان المؤمن المخلص الأشم، لقد راوغوه في الجيئة والذهاب وراودوه بكل الوسائل عدة مرات من أجل أن يمنحهم نصيباً من الوطن أو السيادة في فلسطين، ولكنه أبى عليهم ذلك وشدد في النكير عليهم وما يرومون، ولقد خاطبه في هذه المسألة عدة مرات، أخبث القوم وأشدهم شقوة وعتواً، صاحب الفكرة الصهيونية ثيودور هيرتزل، رمز من رموز الغدر والتدسس في الظلام وواحد من أساطين التآمر على أمة الإسلام لتدمير خلافتها وتشتيت شملها، واغتصاب فلسطين منها لتقام فيها دولة للباطل والشر والعدوان على المسلمين في سائر أنحاء العالم[1].

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني بين الصهيونية العالمية والمشكلة الفلسطينية ص٣٩ ـ ٥١.

وهذه كلمات السلطان عبدالحميد يبين فيها كيد اليهود لاغتصاب فلسطين، نسجلها هنا لتظل ذكرى للذاكرين كيما يعلم المسلمون على مر الزمن فظاعة الخيانة والكيد، وما حاق بهم من تربص اليهود بهم لإضعافهم وإذلالهم واحتلال شطر مقدس كريم من ديارهم وهي فلسطين.

قال السلطان العظيم في حقيقة ذلك: لليهود قوة في أوروبا أكثر من قوتهم في الشرق، ولهذا فإن أكثر الدول الأوروبية تحبذ هجرة اليهود إلى فلسطين لتتخلص من العرق السامي الذي زاد كثيراً.

ولكن لدينا عدد كاف من اليهود، فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقاً، علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين، وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملكوا كافة قدراتها خلال وقت قصير، وبذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم.

لن يستطيع رئيس الصهاينة «هيرتزل» أن يقنعني بأفكاره، وقد يكون قوله: «ستحل المشكلة اليهودية يوم يقوى فيه اليهودي على قيادة محراثه بيده» صحيحاً في رأيه، إنه يسعى لتأمين أرض لإخوانه اليهود، لكنه ينسى أن الذكاء ليس كافياً لحل جميع المشاكل.

لن يكتفي الصهاينة بممارسة الأعمال الزراعية في فلسطين، بل يريدون أموراً أخرى مثل تشكيل حكومة وانتخاب ممثلين، إنني أدرك أطماعهم جيداً، لكن اليهود سطحيون في ظنهم أنني سأقبل بمحاولاتهم وكما أنني أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي فإني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين[١].

وهذه رسالة كان السلطان عبدالحميد قد وجهها عقب خلعه إلى شيخه في الطريقة الشاذلية وهو الشيخ محمد أبو الشامات، شيخ الطريقة الشاذلية في دمشق، وقد نشر هذه الرسالة الأستاذ سعيد الأفغاني الدمشقي في مجلة

---

(١) كتاب مذكراتي السياسية للسلطان عبد الحميد الثاني ص٣٤، ٣٥.

«العربي» الكويتية في عددها الصادر عام ١٩٧٢، وذلك ضمن مقالة بعنوان «سبب خلع السلطان عبدالحميد»:

بسم الله الرحمٰن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين إلى يوم الدين.

أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية، إلى مفيض الروح والحياة، إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبي الشامات وأقبّل يديه المباركتين راجياً دعواته الصالحة.

بعد تقديم احترامي أعرض أنني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مارس من السنة الحالية، وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.

سيدي، إنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلاً ونهاراً، وأعرض أنني ما زلت محتاجاً لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.

وبعد هذه المقدمة، أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ: إني لم أتخلَّ عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم جون تورك، وتهديدهم اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة.

إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة «فلسطين» ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيراً وعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي:

إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً، فضلاً عن ١٥٠ مليون ليرة إنجليزية ذهباً، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي، لقد خدمت الملة الإسلامية

والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسوِّد صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين، لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً.

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سلانيك، فقبلت بهذا التكليف الأخير، هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشىء عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة «فلسطين» وقد كان بعد ذلك ما كان، ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال، وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع الهام، وبه أختم رسالتي هذه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في ٢٢ أيلول ١٣٢٩ للهجرة
خادم المسلمين
عبدالحميد بن عبدالمجيد

الماسونية

أما الحديث عن الماسونية العالمية فإنه يطول، وقد كتب في حقيقتها وأهدافها ورموزها وأسرارها وأقطابها كتب ومقالات كثيرة، ومن جملتها كتاب «الماسونية» للمؤلف محمود ثابت الشاذلي، وهو كتاب جدير بالدراسة والاهتمام، حافل بالمعلومات والحقائق مما يكشف عن فظاعة هذه الحركة الرهيبة التي جهدت بالغ الجهد لتدمير الإسلام والقضاء على المسلمين بدءاً باستشهاد الخلفاء الراشدين الأبرار الثلاثة: عمر وعثمان وعلي وانتهاء بإلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية، مروراً بالكيد الشديد للخليفة المكين القويم عبدالحميد الثاني.

ويمكن إجمال ما حواه هذا الكتاب عن أفاعيل الماسونية الصهيونية في الدولة العلية واقتدارها على خلع عبدالحميد، فتتمهد الطريق للوصول إلى «أورشليم» وذلك في التبيان المقتضب التالي:

انقلاب الدونمة والماسون في عاصمة الإسلام:

تظهر القسطنطينية ـ أي الآستانة ـ كمرحلة أخيرة في طريق الأفعى قبل وصولها إلى أورشليم!!

إن طريق اليهود إلى «أورشليم» لا بد أن يخترق الآستانة لكن علم الخلافة الإسلامية على استنبول عقبة كؤود أمام بني صهيون كي يمروا على جسر بنات يعقوب، فكيف الوصول إلى مملكة داود، وفلسطين في حمى خليفة المسلمين؟! فلسطين جزء من الدولة القائمة بأمر الإسلام «الدولة العثمانية» منذ فتح السلطان سليم الأول الديار المقدسة عام ١٥١٦ للميلاد، وواليها من قبل خليفة المسلمين، يرصد كل وافد أجنبي إلى «بيت المقدس» فيطلب منه بعد حجه، الرحيل. ولكي تتم الأفعى الرمزية اليهودية دورتها وتغلق دائرتها، عندما تضم رأسها إلى ذيلها بوصول الرأس إلى «أورشليم» لا بد من تحطيم الدولة العثمانية، ويوم تسقط الآستانة، ستسقط القدس تبعاً لذلك، في أيدي اليهود.

ونفثت الأفعى سمومها في الجسم العملاق، وذلك من خلال الدخلاء والعملاء من اليهود والأجانب، وقد غيروا أسماءهم بأسماء إسلامية، وعملوا بمساعدة المحافل الماسونية وبتأييد من القوى الأوروبية على الارتقاء في المناصب وتغلغلوا في مناحي الدولة السياسية والفكرية والاقتصادية والعسكرية والتربوية، حتى وصل بعضهم إلى أعلى المناصب، ومنها منصب الصدارة العظمى، أي رياسة الوزراء، ثم وزراء وولاة وقادة جيوش وغير ذلك من المناصب الرفيعة في الدولة، وقد وجدوا لذلك عوناً كبيراً من محافل الماسون، وقد عُرف اليهود الذين تظاهروا بالإسلام وتستروا من وراء أسماء إسلامية بطائفة «الدونمة» وهي كلمة تركية تعني المرتدين، أي الذين غيروا دينهم من اليهودية إلى الإسلام، وكانت مهمة هذه الطائفة زرع الفيروسات الغريبة ثم تقويتها وإثارتها في سائر مجالات الدولة السياسية والعسكرية والثقافية، وقد أدخلوا في الجيش كثيراً من عناصرهم وأغروا بأفكارهم وسمومهم كثيراً من المضللين والحاقدين، وقد ظلت هذه الفئة

الخبيثة من الأشرار محتفظة بتراثها الإسرائيلي وتقاليدها اليهودية، بالرغم من بقاء ذلك في زمانه سراً على الناس.

وفي هذا الصدد يقول سيسل روث في كتابه «الموسوعة اليهودية المثالية»: إن الدونمة، طائفة إسلامية يهودية، ومنهم جاويد بك المولود عام ١٨٧٥ والمتوفى عام ١٩٢٦، الذي تكرر تعيينه وزيراً للمالية قد قاموا بدور أساسي وقيادي في ثورة الشبان الأتراك عام ١٩٠٩ للميلاد، تلك الثورة التي نظمها وأوحى بها ووجهها الماسون.

وجاء السلطان عبدالحميد إلى مقام الخلافة الإسلامية في استنبول، بمنهاج كامل للصحوة الإسلامية شمل كل مناحي الحياة. ثم جاءه ثيودور هيرتزل، الصحفي النمساوي رئيس المنظمة الصهيونية العالمية وكبير الماسون، راكباً اكسبريس الشرق من فيينا إلى استنبول، مبتغياً إيجاد ثغرة في هذا الحمى المنيع، وقد جاء هذا الثعلب الصهيوني إلى استنبول ثلاث مرات، وذلك في الأعوام الثلاثة ١٩٠١ ثم ١٩٠٢ ثم ١٩٠٣ للميلاد.

وعندما تمكن هذا القطب الصهيوني من مقابلة السلطان الخليفة عبدالحميد، جعل يراوغه ويخاتله ثم عرض عليه جملة عروض على سبيل الإغراء، وتلك هي العروض:

أولاً: القيام بتسديد ديون تركيا الكثيرة.

ثانياً: تطوير تركيا صناعياً وتجارياً ومالياً من خلال بنوك أوروبا التي يملكها اليهود.

ثالثاً: إنشاء السكك الحديدية والسفن التي تعبر القارات.

رابعاً: أن يقوم هيرتزل بقيادة حملة صحفية عالمية تدافع عن السلطان وسياسته في مواجهة الدول الأوروبية.

خامساً: تأسيس أحدث جامعة عصرية تعلّم الشباب التركي جميع العلوم الحديثة عوضاً عن ذهابهم إلى جامعات أوروبا.

سادساً: أن يقف هيرتزل إلى جانب الأتراك في مسألة أرمينيا ضد المسيحيين.

سابعاً: تقديم هدية مالية إلى السلطان مقدارها مائة مليون جنيه ذهب.

وذلك كله في مقابل المطلب الذي قدمه هيرتزل للسلطان، وهو إنشاء شركة يهودية تشتري الأرض غير المزروعة في فلسطين، ثم تتولى هذه الشركة شراء الأراضي وزراعتها وتوطين اليهود فيها[1].

وذلك هو بيت القصيد، ذلك الذي يبتغيه الثعلب الصهيوني وهو يماكر السلطان ويخاتله ويراوغه، وذلك من أجل أن يلين السلطان ويهوي تحت وطأة الإغراء والافتتان بالأموال ومظاهر الإعمار والزينة.

لكن هذا الشهم الأشم والحارس الموثوق الأمين لم يلن أو يتزعزع تحت مطارق الإغراء والغواية، فإنه الحريص اليقظ الذي لم تنطلِ عليه مكائد اليهود وألاعيبهم، بل هو أدرى الناس بهذا الثعلب المخطط المتحيل هيرتزل، ويعلم أن بغيته ابتلاع فلسطين لتكون وطناً قومياً ودينياً لليهود.

فبادره السلطان بالإجابة في صراحة وصرامة وحزم: أنا لا أملك هذا، فلسطين ليست ملك الأتراك بل هي ملك العرب، وبيت المقدس ليس ملك العرب بل ملك المسلمين.

وقال أيضاً: إن الإمبراطورية التركية ليست ملكاً لي، فليس في استطاعتي والحال كذلك أن أهب أحداً أي جزء فيها، فليحتفظ اليهود ببلايينهم في جيوبهم، فإذا قسمت الإمبراطورية يوماً فقد يحصلون على فلسطين دون مقابل، ولكن التقسيم لن يتم إلا على أجسادنا.

وفي التحذير الشديد من مغبة هذا العرض، يصف السلطان المؤمن حال المسلمين لو حقق هيرتزل بغيته فيقول:

نكون قد وقَّعنا قراراً بالموت على إخواننا في الدين.

ويبادر السلطان رحمه الله بإماطة اللثام عن المرام الذي يبتغيه الصهاينة

---

(١) الماسونية تأليف: محمود ثابت الشاذلي ص٢٣١ ـ ٢٣٤، وانظر الأسرار الخفية وراء الخلافة العثمانية تأليف: د. مصطفى حلمي ص٥٥، وما بعدها.

فيقول: لا يريد الصهيونيون الاشتغال بالزراعة فقط في فلسطين بل إنهم يريدون إنشاء حكومة لهم، وانتخاب ممثلين سياسيين، وإني أفهم جيداً معنى تصوراتهم الطامعة هذه، وإنهم لسذج إذا تصوروا أني سأقبل محاولاتهم هذه، إن هيرتزل يريد أرضاً لإخوانه في الدين، لكن الذكاء ليس حلاً لكل شيء.

وفي الحديث عن أهمية القدس وحرصه البالغ على صونها من التفريط والعبث يقول السلطان العظيم: لماذا نترك القدس؟ إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان، وستبقى كذلك من مدننا المقدسة وتقع في أرض إسلامية، لا بد أن تظل القدس لنا.

وبذلك كان لا بد أن يذهب عبدالحميد لتذهب معه كل عناصر المقاومة والتحدي والصمود، فكانت الحركة الطورانية، وهي حركة قومية تركية محضة، وكان انقلاب الدونمة والماسون.

كان لا بد لهؤلاء الأرجاس الغادرين أن يوجدوا بديلاً ساقطاً يقوم مقام الخليفة المؤمن المجاهد الصابر الوقور عبدالحميد، فكانت الفكرة الطورانية الجديدة التي تقوم على جملة تصورات ظالمة وهي:

أولاً: أن تكون روح القومية التركية مستقلة عن الإسلام.

ثانياً: أن يكون التركي العثماني تركياً أولاً، ومسلماً ثانياً.

ثالثاً: تحرير اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية.

ثم راحوا يقولون: إن التاريخ العثماني قد كتب من وجهة نظر إسلامية بحتة، فأصبح تاريخاً إسلامياً محضاً فحطّ من قدر عظماء الرجال ولعنهم أمثال جنكيزخان.

أما التنظيم الذي أفرز الانقلاب وهي جمعية الاتحاد والترقي، فهو تنظيم يهودي ماسوني، مسخر من الدائرة الإسرائيلية العالمية، ومرتبط بالقوى الصليبية والدول الاستعمارية.

السعي الماسوني والأجنبي لعزل السلطان عبدالحميد:

وفي خضم الفتنة والعماية والكيد، ومن خلال التآمر والخداع والتدسس المنبعث من أوكار الشر ودهاليز الباطل حيث الماسونية الخائنة الرهيبة، تحرك الجورجي محمود شوكت بجيش مقدونيا الثاني من قاعدته في سالونيك موطن اليهود الهاربين من الأندلس، ومعقل الفتنة والشر ومنطلق المحفل الماسوني الكبير، إلى الآستانة فأحاطوا بقصر الخلافة والسلطنة وقد جاءهم أنور باشا راكباً حصاناً، فقرر عسكر الماسون وشراذم العملاء عزل الخليفة العثماني عبدالحميد، ثم اجتمع الأشرار على تكوين لجنة من يونانيين وأرمن ويهود، وكلفت بإبلاغ الخليفة السلطان قرار العزل ومعهم فتوى الضلال والسوء من شيخ الباطنية الزنادقة موسى أفندي كاظم.

ويا للعار والشنار، لأولئك المبتذلين الذين ركنوا للجبن والخور والاستسلام فأغلقوا على أنفسهم أبواب بيوتهم فاستكانوا قابعين غير عابئين فما شاطت فيهم حفيظة، ولا اضطربت أو تململت في أطوائهم غيرة أو نخوة، ولا هاج فيهم ضمير متوقد ولا وجدان مستحر، فيميلون على هؤلاء الشراذم الخونة ميلة واحدة ليبيدوا خضراءهم ويستأصلوا شأفتهم، لكنهم وأسفاه آثروا الجبن والخسة والتعس والضعة على الغيرة والحمية والشهامة فوقعت المصيبة العظمى وحلّت بالمسلمين دائرة الهوان والتدمير.

وكانت اللجنة التي أنيط بها إبلاغ الخليفة بقرار العزل مكونة من التاعسين الأشقياء:

أولاً: إيمانويل قره صوه، وهو يهودي إسباني الأصل، وأحد قادة الاتحاد والترقي، وقد لعب هذا دوراً بارزاً في احتلال ليبيا من قبل إيطاليا - وكان رئيساً لمحفل ريزوليتا المقدوني الماسوني - وقد قُبض عليه متلبساً بخيانات مالية كبيرة، وبعد افتضاح أمره هرب أثناء الحرب إلى إيطاليا حيث كان مهلكه عام ١٩٣٤.

ثانياً: آرام، وهو أرمني، عضو في جمعية الاتحاد والترقي، وعضو مجلس الأعيان.

ثالثاً: أسعد طوبطاني، وهو ألباني، وعضو في الاتحاد والترقي، ونائب مجلس المبعوثان.

رابعاً: عارف حكمت، وهو كرجي الأصل، وعضو في الاتحاد والترقي، وضابط بحري.

اجترأ هؤلاء الخونة المارقون، والعملاء المتهودون على المجاهرة في وجه السلطان الحكيم المؤمن ليبلغوه بقرار العزل، في التاسع من نيسان عام ١٩٠٩ للميلاد، فكانت الفاقرة العظمى التي فاقت كل الفواقر في تاريخ المسلمين، وكانت الداهية العظمى التي أصابت المسلمين في السويداء من صميمهم ليكابدوا بعد ذلك الأهوال والأرزاء والمحن، ما بين إذلال وتقتيل وتشريد واحتلال وتطهير للأعراق حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ثم جيء من بعده بالسلطان محمد رشاد، وكان هذا ضعيفاً مريضاً وليس له حول أو اقتدار أمام عصابة الماسون المستشرية في أعماق الدولة.

وما أن أطيح بالسلطان العظيم عبدالحميد حتى انساح اليهود في طول البلاد وعرضها، يبنون المستعمرات ذات الأبنية الشاهقة، في كل من حيفا ويافا والرملة والكرمل وغيرها من مختلف المدن والمناطق[١].

قال الجنرال جواد رفعت أتلخان في كتابه «أسرار الماسونية»: وانتشرت الأوكار اليهودية في مختلف أنحاء البلاد، إذ لم يكن في العهد الحميدي إلا حفل ماسوني واحد للأجانب، أما في عهد الحرية فأرادت الماسونية أن تنتفع من إطلاق الحريات، فلذا قام الدكتور اليهودي جاك

---

(١) الماسونية ص٢٣٤ ـ ٢٥٤.

سهامي باقتباس مبادىء «المشرق الأعظم الفرنسي»، ومبادىء «المحفل الأكبر الإنجليزي»، وكتب أسس الماسونية باللغة التركية وأعقبها بكتابات كثيرة عن الماسونية.

هذا وقد سيق الناس للإعدام بالجملة وشاع الفساد وعمّت الرشوة في سائر أجهزة الدولة، وسرق النواب الماسون من عصابة الاتحاد والترقي مجلس المبعوثان العثماني أقوات الشعب ومؤن الجيش، وباع جاويد، وزير المالية اليهودي خط سكة حديد بغداد للألمان.

ولم يمضِ عامان على الانقلاب اليهودي حتى انقضّت إيطاليا على ليبيا عام ١٩١١ للميلاد فاحتلتها.

وكانت الأجواء في استنبول مغرية غاية الإغراء للذئاب المفترسة من الصليبيين، ذلك أن عصابة الغدر والتآمر «الاتحاد والترقي» كانت هي حكومة المؤامرة التي مهّدت لاحتلال ديار المسلمين، ففي وجودها وتمالُئها مع الظالمين الأجانب اتحدت دول البلقان المسيحية مجتمعة ضد تركيا بإمداد من القوى الصليبية الكبرى.

وتلكم هي الأدوار التي لعبها المتآمرون من عملاء الصهيونية والماسون نذكر منهم اثنين:

فذلكم قره صوه، أحد قادة الاتحاد والترقي وهم ساسة الدولة العثمانية في عهدها الأخير ما بين ١٩٠٩ ـ ١٩١٨، قد لعب دوراً أساسياً في احتلال إيطاليا لليبيا، وعقب خيانته هذه هرب إلى ليبيا حيث مات عام ١٩٣٤ للميلاد.

وذلكم، متر سالم، اليهودي الماسوني، يتحدث عن دوره الجنرال جواد رفعت أتلخان في كتابه «أسرار الماسونية» ويقول: إن طرابلس الغرب (ليبيا) قد وقعت في مخالب الإيطاليين بمؤامرة خبيثة دبّرها اليهودي الماسوني، متر سالم، الحائز على الدرجة الثالثة والثلاثين في الماسونية.

قيام الحرب العالمية الأولى وزج الدولة العثمانية فيها:

وقد قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، بين ألمانيا والنمسا من جهة، وإنجلترا من جهة أخرى، ثم انضمت حكومة الاتحاد والترقي إلى جانب الألمان.

وبذلك أقحمت تركيا في الحرب العالمية الأولى إقحاماً وليس لها في ذلك ناقة ولا جمل.

وقد تمزق الجيش التركي بفعل القيادة الفاشلة الخائنة، فتبعثروا وباؤوا بالهزيمة النكراء، وتعاظمت المصيبة وازداد البلاء بالثورة المنبعثة من الحجاز نتيجة للتغرير والوعود الكاذبة، التي قطعها الإنجليز على أنفسهم لشريف مكة، الشريف حسين بن علي وأولاده بتنصيبه ملكاً على العرب.

فانطلق الشريف حسين بن علي بثورته من الحجاز ليسير بالذين معه من خلف الجنود الأتراك المسلمين فيقتلونهم تقتيلاً.

وما كان لمسلم أن يطعن أخاه من الخلف ممالأة للكافرين، ما ينبغي لمسلم مهما تكن الظروف أن يعقد حلفاً مع الظالمين من أمثال الإنجليز وغيرهم من الاستعماريين الغاشمين، ليقف معهم في صف واحد لمحاربة المسلمين: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٨].

وبالرغم مما أشيع عن زلات أو خطيئات أو مظالم إبان العهد العثماني المتأخر، فلا مساغ بحال من الأحوال لمصاحبة المجرمين الغزاة وممالأتهم على المسلمين، ولئن قارف الحاكم المسلم خطيئة أو ظلماً فذلكم يهون ألف مرة أمام ممالأة الكافرين المعتدين والوقوف إلى جانبهم في خندق واحد، فضلاً عن كون الكافرين المعتدين كاذبين مخادعين لا يرعون في مسلم إلاً ولا ذمة، إذ لا خير فيهم ولا يرجى منهم أمن ولا أمان، ولقد كان الحق والأجدى إسداء النصائح للساسة المقصرين من المسلمين مع طول الأناة والصبر والاحتمال، بالرغم من كل الخطايا

ووجوه التقصير التي ينزلق فيها بعض الساسة من المسلمين.

أما وقد حصل ما حصل، ووقعت المصيبة الفظيعة، فما فتىء المسلمون حتى يومنا هذا يتجرعون مرارة الظلم والعدوان والهوان والتشرذم والنكبات، التي تتوالى وتزداد على أيدي الصليبية الحاقدة المتعطشة لدماء المسلمين، الصليبية الجارفة العمياء المنبعثة من كوابيس العهر والظلام والطغيان في أوروبا وأمريكا، ولعل السبب الأكبر لذلك هو ممالأة الكافرين على المسلمين بدلاً من الاصطبار وإسداء النصح للمخطئين المقصرين.

وانتهت هذه الحرب عام ١٩١٨ للميلاد بهزيمة ألمانيا وتركيا، وقد انهارت دولة الخلافة الإسلامية كلياً وتقطعت أوصالها وتمزق شملها وتبددت أيما تبديد.

وفي هذه الغمرة من الانهيار الفظيع والتبدد المريع، احتلت الجيوش الفرنسية والإنجليزية استنبول، وعاث جنود فرنسا من زنوج السنغال في شوارع الآستانة فساد المرتزقة والأقزام.

قيام فرق مسلَحة فدائية لمواجهة الأعداء المحتلين:

ثم احتل اليونان منطقة أزمير عام ١٩١٩ للميلاد، وكان احتلالهم لأزمير مثيراً للألم والمرارة في نفوس الأتراك، وقد عاثت عصابات من الأرمن والروم واليهود في البلاد الفساد وتفننوا في أذى الأتراك وإهانتهم، فأثار هذا الاستفزاز رداً مضاداً لدى الأتراك المسلمين إذ راحوا يبنون فرقاً مسلحة من الفدائيين، يكمنون في الجبال المواجهة لأزمير، وقد أقسم هؤلاء المتحمسون المخلصون أن يظلوا ثابتين في مواقفهم، حتى يتمكنوا من القضاء على الجنود اليونانيين.

اختيار الخبيث مصطفى كمال للقضاء على الفرق المسلمة:

ثم تنادى المتحالفون الحاقدون ما بينهم للتفكير في كيفية احتواء

الثورة الإسلامية المسلحة الجديدة كسبيل لتصفية المسألة الشرقية، وهم في ذلك إنما يتحسبون أن تبعث شرارة الخلافة الإسلامية فيزداد المسلمون حماسة وتهيجاً من جديد، من أجل ذلك سارع المتحالفون المجرمون لإيجاد عميل بارع في صورة بطل قومي ذي توجهات ماسونية عالية الدرجة، حاقد على الإسلام ودولته، سيء النشأة، يستشعر في نفسه نقائص العرق والسلوك.

ولما دقق الإنجليز في سجلات سفارتهم في استنبول، وراجعوا أسماء عملائهم من الماسون، وقع اختيارهم على المرشح المناسب الذي تتحقق فيه كل الصفات المبتغاة وهو الضابط مصطفى كمال.

أما السيرة الذاتية لهذا الخبيث الخاسر، فخلاصتها أنه منحدر من جبال ألبانيا قرب حدود الصرب، المشهورة بعدائها الشديد لدولة الخلافة العثمانية، أما نسبه، فهو مولود لأب ـ إن صحت الرواية ـ انحدر في صباه من جبال ألبانيا، وأمه جاء والدها من جنوب ألبانيا، ووالدتها من مقدونيا، وقد ولد في سالونيك وهي معقل اليهود الدونمة الذين استخفوا عن أبصار الناس بارتداء ثوب الإسلام من حيث الصورة، وقد سلمه أبوه إلى معلم كان يدير مدرسة ابتدائية تقوم بتعليم الأولاد تبعاً للمناهج الغربية لأن أباه كان يكره مشايخ الدين الإسلامي ويؤيد الأفكار المتسربة من الغرب، مما يشير إلى أن الدماء اليهودية تسري في الكمالية، كما يقول المؤرخ الكبير أرنولد توينبي.

وفي السابعة عشرة من عمره، التحق بالمدرسة العسكرية في موناستر حيث يوجد المحفل الماسوني الكبير الموالي للإنجليز، والذي ترعرعت في حضانته جماعة الاتحاد والترقي الخاضع لسيطرة الإنجليز.

كان مصطفى كمال يسخر من جميع المبادىء والقيم الخلقية العليا، إذ كانت المبادىء والمثل الكريمة في نظره مجرد غشاء يستر به الناس رياءهم وحماقتهم، فهو بذلك خاوي الوجدان أو المشاعر السليمة، إنما هو أشبه بالحيوان الكاسر الذي لا يعطف قلبه رحمة أو رأفة أو لين، ولا يبدو فيه

شيء من ظواهر الإنسان السوي السليم، إنما هو الإنسان الكنود الكزُّ السقيم الجانح، على أنه كان مستحر الغرائز والشهوات، فكان يقضي جل وقته في مجالس اللهو والشراب والقمار ومن حوله الماجنات من النساء، فقد مارس جميع الرذائل والموبقات التي انغمس فيها أيما انغماس، فهو بذلك دنيوي محض لا يؤمن بمساءلة أو حساب بعد الموت إذ هو جاحد ليوم الحساب والدار الآخرة.

ومن مركباته النفسية الذاتية، أنه شديد الأنانية وذو ولع شاذ في حب التسلط واغتصاب السلطة بأي أسلوب، وكان مريباً ومرتاباً لا يثق بأحد ولا يصادق أحداً، وهو فاجر غادر.

لقد تسلم هذا الرجل قيادة القوات التركية الجنوبية بمدينة أضنة، ثم تركها وسافر إلى الآستانة إذ كان موعوداً بدور أكبر، وهذا هو المطلوب!

فقد عين مصطفى كمال مفتشاً عاماً للجيش التاسع عام ١٩١٩ للميلاد، ثم رتب مع رئيس الوزراء الجديد لتركيا أمر ذهابه إلى الأناضول بصفته مفتشاً عاماً للجيش التاسع، مما جعل السلطان يرتاب في أمر تعيينه لهذه المهمة فأمر بإيقافه عن السفر إلى الأناضول، لكن مصطفى كمال تمكن من النفاذ من بين جنود الإنجليز الذين مكنوه من ذلك لاستتمام خيوط المؤامرة الكبرى، حتى إذا وصل الأناضول وسط الثورة المتأججة، وقف في الجماهير خطيباً: عليكم أن تقرروا أمركم، عليكم أن تختاروا لكم زعيماً، فإذا اخترتموني فسوف يتعين عليكم أن تشاطروني مصيري.

قال ذلك في مماكرة واحتيال مستغلاً اسم الخلافة التي جاء يمثلها كاذباً متلصصاً، والله يعلم كم يكنُّ في نفسه من الضغن وفظاعة الكيد للخلافة وللإسلام برمته.

ولما أعلن لا دينية الدولة في خطابه المشؤوم أمام مؤتمر حزب الشعب عام ١٩٢٧ للميلاد، قال منددا بالخلافة الإسلامية وساخراً بالاستعصام بها ومحرضاً على التحلل منها: الارتباط التام بمقام السلطان الخليفة انسياقاً وراء التقاليد الدينية والوطنية التي مرت عليها الأجيال،

ووجوب حفظ هذا المقام وصيانته، وكون هذا الأمر لا بد منه في خلاص الأمة والوطن، ولم يكن أحد قادراً على فهم معنى الخلاص وإمكانه من غير خليفة، وكان من يشذ عن هذا المفهوم يتهم باللادينية واللاوطنية والخيانة[1].

ذلك عرض مقتضب عن مسلسل الخيانة للإسلام من أجل تدميره البتة على أيدي الظالمين المستغرقين في الخيانة والعار مهما تكن دوافعهم وغاياتهم.

فقد استطاع هؤلاء وغيرهم من الثائرين والمهيجين سواء كانوا من الخونة الغادرين، الذين طعنوا الأمة والأوطان من الخلف طعنات العار والتآمر بالتعاون مع الصليبيين والصهاينة، أو كانوا من المغفلين التائهين السفهاء الذين قيدوا كما تقاد البهائم من خطمها إلى حيث الإبادة والهلكة، لقد استطاعوا أن يخلعوا السلطان القوي المجرب الحكيم، شديد الحكمة والدهاء والمراس، عبدالحميد الثاني، ليتوجوا مقامه:

الفصل الخامس والثلاثون

السلطان محمد رشاد خان الخامس

ولد سنة ١٨٤٤ ميلادي، وبويع بالخلافة بدلاً من السلطان عبدالحميد خان الثاني، فقد اتفق المجلس العمومي المكون من المبعوثين والأعيان على خلع السلطان عبدالحميد الثاني من الخلافة الإسلامية، والسلطنة العثمانية ليقام مقامه ولي العهد محمد رشاد باسم السلطان محمد خان الخامس في منصب الخلافة والسلطنة وذلك عام ١٩٠٩ للميلاد.

ومن الحق أن هذا الحدث الجلل ما كان ليكون لولا الثورة العارمة، والفتنة اللاهبة المشبوبة التي أضرم سعيرها المغرضون المريبون، والمتربصون

---

(١) الماسونية: ص٢٥٤ ـ ٢٧٨، وانظر: الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ص٦٥، وما بعدها.

المتآمرون على الخلافة الإسلامية برمتها، وعلى السلطان العظيم عبدالحميد على وجه الخصوص، وذلك بالنظر لمواقفه التاريخية الجريئة التي وقفها أمام الخصوم الحاقدين وفي طليعتهم شياطين صهيون، الذين كانوا يبيتون النية لاحتلال فلسطين لتكون وطناً لليهود تحت عنوانهم المصطنع إسرائيل، هذا العنوان الذي ما لبث أن أصبح حقيقة واقعة عقب مخططات شيطانية تترا، وأفاعيل جهنمية رهيبة من الكيد والتآمر والإرهاب والتهجير والتشريد والتقتيل، وذلك كله بالتعاون مع الصليبية الحاقدة التي تتلطخ بها صدور الأوروبيين والأمريكان عبر السنين حتى أيامنا هذه.

ما كان لهذا الخليفة الصارم المحنك أن يتزعزع سلطانه لولا الكيد من الداخل، الكيد الفاضح المستطير الذي تلوثت به حناجر المزورين المفسدين من جماعة الاتحاد والترقي، إلى جانب الحزب المتآمر المشبوه وهو حزب تركيا الفتاة، وغيرهم من المتدسسين المستخفين الذين يكيدون في الظلام للإسلام والمسلمين وهم لا يشعرون.

لقد أطيح بالسلطان القوي المهيب عبدالحميد ليجاء بخلفه محمد رشاد، وهو معروف بضعفه وقلة خبرته وحيلته، مما تمهدت به الطريق لظفر الشياطين العتاة من أعداء الإسلام إذ أعلنوا نهاية الخلافة الإسلامية، وصبغ المجتمع الإسلامي بصبغ الكفران والعلمنة والشرود الجامح عن الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لقد مات السلطان محمد رشاد قبل انهيار الدولة ببضع شهور، فكان من حسن حظه أن لا يشهد مأتم الخلافة الإسلامية، وقد كانت ولاية العهد من بعده للأمير:

يوسف عز الدين:

كان له ولاية العهد بعد محمد رشاد، إذ كان يوسف أكبر أفراد الأسرة المالكة سناً، وقد مات سنة ١٩١٦ للميلاد، وقد قيل إنه مات مسموماً على أيدي الاتحاديين، إذ لم يوافقهم على سياستهم، وقيل غير ذلك، والله أعلم

بالصواب، وعقب وفاته صارت ولاية العهد إلى:

محمد وحيد الدين السادس بن مراد:

فخلف أخاه محمد رشاد باسم محمد السادس، ولم تمضِ على خلافته بضعة أشهر حتى سقطت البلاد في جحيم الاحتلال الصليبي، فباءت بالتداعي والانهيار والتشرذم، فاستسلمت الدولة العلية العظمى لتجوس خلالها جيوش الكفر والعدوان، فتغزوها في عقر ديارها من أقصاها إلى أقصاها، ولم ينجُ من عدوان الطغاة المحتلين إلا شرق الأناضول وذلك لانسحاب روسيا من الحرب عام ١٩١٧، عقب سيطرة الشيوعية عليها إذ انشغلت البلاد بالثورة البلشفية الاشتراكية التي قادها اليهودي فلاديمير إيليتش أوليانوف، وهو لينين.

أما وحيد الدين، فقد استيأس مما شهده من أهوال الخيانات وفظاعة المؤامرات والحشود التي أطاحت بالدولة من كل جانب، فأيقن أن لا منجاة ولا خلاص، فبادر بالتنازل عن حكم البلاد عام ١٩٢٢ للميلاد، ثم اعتزل الحياة السياسية حتى مات عام ١٩٢٦ للميلاد، وأوصى بدفنه في دمشق بتكية السلطان سليم وفيها كثير من قبور آل عثمان، فخلفه من بعده في اعتلاء سدة السلطنة العثمانية:

عبدالمجيد بن عبدالعزيز:

وقد كان هذا السلطان في غاية الضعف أمام الطاغوت الأكبر، سيد الموقف مصطفى كمال، فقد جرد هذا الماكر الخبيث السلطان من السلطة الفعلية وجعله مجرد صورة شاخصة لا تريم ولا تنطق، فما لبث هذا الشيطان المتمرد العتل أن اجترأ في عتو فاضح وكفر بواح على إلغاء الخلافة الإسلامية كلياً عام ١٩٢٤، ثم طرد عبدالمجيد.

وبذلك تحقق الحلم المذهل الذي ظل يراود خيالات المتآمرين من أعداء الإسلام، من صليبيين واستعماريين وصهاينة وأتباعهم من العملاء في شتى البقاع.

لقد قضى هذا الأثيم العاتي على الرمز الأكبر المقدس، الذي يجتمع من حوله المسلمون على مر الأزمان والأحقاب وهم تؤلف بينهم وحدة العقيدة والدين، وذلكم الرباط المكين المتين الذي تدنو دونه عامة الروابط.



الفصل السادس والثلاثون

دور العثمانيين في مواجهة التواطؤ الصليبي

من الحقائق البارزة والهامة أن الأتراك العثمانيين لما تشبثوا بالإسلام واستمسكوا به عقيدة وشريعة ونظام حياة ـ قد أثاروا بذلك غضب النصارى في سائر أنحاء العالم ـ خصوصاً الشعوب الأوروبية التي كانت تكن العداء والحقد الشديد للإسلام وأهله أعظم المكائد، وتتمالأ عليه في كل الأنحاء، يحفزها لكل ذلك حقد صليبي مركوم وتعصب ديني مقيت كان يرسخ في صميم النفس لدى المجتمعات الأوروبية كافة، هذه المجتمعات التي لقنها القادة والسياسيون والمربون وأئمة الفكر أخباراً ملفقة ومكذوبة ومفتراة عن حقيقة المسلمين على أنهم متعصبون سفاكون قتلة، إلى هذه الأكاذيب المفضوحة والافتراءات التي تنفثها أقلام الأشرار والمفسدين من شياطين البشر، والله بجلاله وسلطانه وفي عليائه يشهد، والصادقون المقسطون من الناس يشهدون أن الإسلام دين الرحمة والمساواة والإنسانية، وأنه قائم على إشاعة الأمن والسكينة والرحمة بين الناس على اختلاف مللهم ودياناتهم، وأن هذا الدين أعظم الديانات والمعتقدات والفلسفات في تشديد النكير على سفك الدماء البريئة، أو العدوان على المظلومين والمبرئين والمستضعفين، ويشهدون كذلك بأن المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، أرحم الناس بالناس وأبعد الخليقة عن ترويع العباد أو تخويف الضعفاء من الأطفال والشيوخ والنساء، مما هو ديدن غيرهم من التتار والمغول والصليبيين الحاقدين والشيوعيين الملحدين.

على أن السبب الأكبر في رسوخ هذه العقيدة السوداء من الكراهية والحقد، في نفوس الغربيين، إنما مرده جملة أسباب، أعظمها وأهمها اثنان:

أولهما: هزيمة الدولة البيزنطية النصرانية ثم اندحارها وإدبارها أمام جحافل المسلمين من الأتراك العثمانيين، هؤلاء الشجعان البواسل الذين دكوا حصون الباطل والفساد والظلم بقيادة البيزنطيين، حيث النظام المتهافت المضطرب الذي بني على الظلم والتخلف والباطل، وكل ما ورثه هذا النظام من مخلفات العصور الوسطى وجهالاتها ومفاسدها.

ثانيهما: هزيمة الصليبيين في فلسطين وغيرها من بلاد الشام، إذ تصدّى لهم المسلمون بقيادة المؤمن العظيم والأسد الهصور صلاح الدين الأيوبي قدس الله روحه وطيّب ثراه، وبذلك تطهرت القدس من شوائب الشرك الأثيم، ومن فظاعة التنكيل الذي حاق بالمسلمين في هذه الديار فتجرعوا الويلات والمجازر الرهيبة على أيدي الصليبيين الحاقدين، أولئك الذين جاوزوا البحار وقطعوا السهول والقفار، وساروا الأيام والليالي لقتل المسلمين الآمنين في ديارهم من هذه البلاد، لا جرم أن حافزهم في ذلك إن هو إلا حقد صليبي ثقيل ومركوم يتأجج لهيبه المضطرم في قلوب الشعوب الأوروبية، بفعل الثقافات الكاذبة المفسدة والأفكار المصطنعة المضللة التي يبتدعها الماكرون الدجاجلة من المستشرقين، ومفكري الغرب ودهاقنتهم المتعصبين الذين هيأوا أممهم وشعوبهم لكراهية الإسلام، والحقد البالغ الشنيع على المسلمين فاندفعوا في حملات همجية وحشية متعصبة لضرب المسلمين والقضاء على دينهم.

أما الأتراك العثمانيون المسلمون، فقد احتملوا النصيب الأعظم من فظاعة المواجهة، وشدة المجاهدة لهؤلاء الموتورين الهمج، الذين أُشربت نفوسهم الحقد الراسخ على الإسلام وأهله من أتراك وغيرهم.

لقد كان حقد الأوروبيين على الأتراك المسلمين عظيماً لأنهم مسلمون، فهم من فرط تغيظهم من دين الإسلام، وبالغ كراهيتهم ينظرون

بعين المقت والبغضاء لكل الذين يعتنقون هذا الدين، وهذه خطيئة العثمانيين في نظر الصليبية العالمية وأعوانها وحلفائها من الصليبيين والوثنيين والملحدين وغيرهم من شذاذ الملل الشاطحة في أطواء الحماقة والضلال.

وفي هذا الصدد من حملات الصليبيين المسعورة على الدولة العثمانية المسلمة، كتب المستشرق الألماني فولدكه في مجلة «دار السلام» الألمانية عام ١٩٢٤، قال فيها: إن دخول الأتراك في الإسلام كان أكبر نكبة في التاريخ[١].

إن ذلكم تعصب شديد وأعمى يكشف عما تطويه صدور هؤلاء القوم من كراهية وطيدة للمسلمين كافة، والأتراك العثمانيين خصوصاً، بل إن الكراهية قبل كل شيء مركوزة في نفوس هؤلاء للإسلام بالذات، هذا الدين الكريم الرحيم المميز الذي يكن له الأوروبيون الصليبيون العداوة والبغضاء بقدر ما تنطوي عليه صدور المسلمين كافة، من تعظيم وتكريم ومحبة للديانة المسيحية ورسولها الكريم الحليم عيسى المسيح عليه السلام.

ولقد كانت هذه الكراهية المركوزة في قلوب الغربيين النصارى للإسلام حافزاً شديداً دفع المجتمعات الأوروبية على التجهيز لقتال المسلمين، لإضعافهم وإذلالهم أو إبادتهم وقتلهم ثم لتدمير هذا الدين الرباني الحنيف ـ الإسلام ـ بالكلية.

ومن أجل هذا الهدف الذي تهيأ له الغربيون النصارى وأعدوا كل طاقاتهم لبلوغه، فقد صبوا شديد حممهم على الدولة العثمانية حامية الإسلام والمسلمين طيلة قرون خلت، فتصدت لهم هذه الدولة المسلمة العتيدة بكل ما تملك من جهود وإمكانات، فخاضت مع الطغاة المتعصبين حروباً شرسة، إنها حروب حامية شديدة تواطأت عليها دول التعصب الصليبي البغيض، فبذلت في ذلك ما تملك من العساكر والمعدات والتجهيزات وهيأت له كثيفاً من جيوش الظلم والعدوان والهمجية.

(١) كتاب جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك تأليف: زياد أبو غنيمة ص١٩١.

وذلكم عرض وجيز ومقتضب عن هاتيك الحملات العسكرية، التي اجتمعت عليها الدول الأوروبية، وهي تقطع الفيافي والبحار والأمصار لتقتل المسلمين ولتقضي على دولتهم المسلمة ـ دولة العثمانيين ـ ثم لتبدد هذا الدين، الذي تمالأت عليه أمم الكفر كافة على مر الزمن من أجل اجتثاثه من جذوره فيصبح أثراً بعد عين!

ففي عام ١٤٥٨ للميلاد، عمل البابا بيوس الثاني على عقد مجمع شارك فيه ملوك أوروبا وقرروا فيه تشكيل حلف صليبي لقتال العثمانيين.

وفي بيان للملك الفرنسي لويس الحادي عشر، نشره عام ١٤٧٨ للميلاد قال فيه: إنني أبتهل إلى مريم العذراء المجيدة أن تمنح ولدي العزيز كارلس شرفاً عظيماً، وذلك بأن تمكنه من الذهاب بنفسه إلى الشرق ومعه نبلاء فرنسا وفرسانها لقتال التركي المكروه وغيره من الجاحدين.

وفي عام ١٥١٣ للميلاد، نشر الراهب الهولندي ناينوس نداء خاطب فيه نصارى أوروبا وقال فيه: إن محاربة المسلمين أصبحت ضرورة من الضرورات، ولا بد من أن يتفق جميع النصارى لمحاربة الترك وإبادتهم.

على أن أول تحالف صليبي ضد الدولة العثمانية المسلمة كان في أول تأسيسه، إذ تداعى أمراء بورصة ومادانوس وأدره نوس وكستلة، البيزنطيون لتكوين حلف صليبي لمواجهة عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية وذلك عام ١٣٠١ للميلاد، لكنهم كان مآلهم الهزيمة والفشل.

وقد عقد ملوك وأمراء الصرب والمجر حلفاً صليبياً باركه البابا أوربيان الخامس، أجمعوا فيه على محاربة الأتراك إلى أن يقضوا عليهم قضاءً تاماً وذلك عام ١٣٦٥ للميلاد، فحشدوا لحلفهم هذا جنداً كثيفاً من العساكر قوامه مائة ألف مقاتل بقيادة ملك المجر وملك الصرب حينئذٍ، لكنهم باؤوا بالهزيمة والخسران على أيدي العثمانيين المسلمين، حتى إنهم لفرط فزعهم وشديد جبنهم وانهيار عزائمهم الخائرة ألقى كثير منهم بأنفسهم في النهر فماتوا غرقى.

وفي عام ١٣٩٤ للميلاد، تمكن البابا بونيفاسيوس التاسع من تشكيل حلف صليبي تواطأ فيه كل من ملك المجر سجموند ودوق بافاريا - أي ألمانيا - وأمير النمسا، وفرسان القديس يوحنا الأورشليمي، وأولئك كانوا يتخذون من جزيرة رودس قاعدة لهم، وقد خاض هؤلاء عدواناً غاشماً على العثمانيين بقيادة السلطان بايزيد الصاعقة، لكن المعتدين العتاة باؤوا بالخزي والفشل، ووقع كثير من أمراء أوروبا وقادتها في أسر المسلمين.

وفي عام ١٤٣٦ للميلاد، تحالف نفر من قادة الدول الأوروبية وملوكها على محاربة المسلمين العثمانيين، ومنهم ملك المجر وأمير الصرب جورج برنكوفتش، فتصدى لهم العثمانيون بقيادة السلطان مراد الثاني، فهزموهم وردوهم على أعقابهم مقهورين خاسرين.

ثم ما لبث الصليبيون أن عاودوا الكرة ثانية في الهجوم على العثمانيين عام ١٤٤٢ للميلاد، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً فامتحن الله حينئذٍ جيش المسلمين إذ ابتلاهم بهزيمة قاسية استشهد منهم فيها عشرون ألف مسلم، وتمكن الصليبيون من أسر الآلاف منهم، فأمر القائد المجري هوينان بقطع رؤوس المسلمين ثم أمر ببناء عدة أهرامات من رؤوسهم!! يا لله لهذه الفظاعة النكراء التي تنفر منها طبائع البشر السليم ولا يستسيغها غير الوحوش الكواسر في غابات الظلام!

وفي عام ١٤٤٤ للميلاد، تزعم البابا نقولا الخامس حملة لتكوين حلف صليبي مقدس، فترأس البابا بنفسه مؤتمراً في روما أسفر عن اتفاق ملوك أمراء أوروبا الكاثوليكية على تجميد خلافاتهم، فحشدوا كل طاقاتهم وجهودهم لكي يتصدوا للأتراك العثمانيين واستنقاذ القسطنطينية عاصمة الكنيسة الأرثوذكسية منهم(١).

وفي عام ١٤٨١ للميلاد، توفي السلطان العثماني الفاتح رحمه الله،

---

(١) كتاب جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين، استناداً منه إلى عدة مصادر في هذا الصدد ص١٩٢ - ٢٠٧.

ففرح الصليبيون فرحاً شديداً وأظهروا بالغ الشماتة وتنفّسوا الصعداء، وقد أصدر البابا سكتيبوس الرابع أوامره بإقامة صلوات الشكر في جميع الكنائس الكاثوليكية، وقرعت أجراس الكنائس ابتهاجاً بموت القائد المسلم العظيم.

وفي عام ١٦٠٠ للميلاد، عقد البابا أكليمنفوس الثامن مجمعاً كنسياً دعا فيه ملوك أوروبا وأمراءها لتوحيد صفوفهم من أجل محاربة الأتراك المسلمين، ثم استشاط هذا البابا الحانق المضطغن حماسة وبكاء لفرط حقده وكراهيته للإسلام والمسلمين، ثم أرسل الكردينال ريموند لاتوري إلى فينا لاستنفار إمبراطور النمسا، لكي يدخل في تحالفهم الصليبي لمحاربة الأتراك على الرغم من شدة الخلاف والتنافر بين الكاثوليك والبروتستانت.

وفي عام ١٧٦٢ للميلاد، اندلعت الحرب بين العثمانيين وإمبراطورة روسيا كاترينا الثانية في محاولة من هذه للسيطرة على بولونيا، واستطاعت الجيوش الروسية حينئذٍ أن تنتصر على الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم محمد أمين باشا عام ١٧٦٨ للميلاد.

وفي عام ١٧٩٨ للميلاد، واجهت الدولة العثمانية عدواناً صارخاً قام به الفرنسيون بقيادة نابليون بونابرت بأمر من الثورة الفرنسية على مصر لاحتلالها، وقد تمكن من الاستيلاء عليها فبادر العثمانيون للتصدي لهم.

وفي عام ١٨٣٠ للميلاد، واجهت الدولة العثمانية عدواناً خطيراً قامت به الدولة الفرنسية وهو غزو الجزائر واحتلالها، مستغلة في ذلك انشغال العثمانيين في مواجهة محمد علي باشا حاكم مصر الذي خرج على الدولة العثمانية، واستحوذ بسلطنته ونفوذه على سائر بلاد الشام حتى بلغ بعض المناطق في الأناضول التركي.

وفي عام ١٨٨١ للميلاد، استولت فرنسا على تونس بعد أن هزمت جيوش العثمانيين فيها.

وفي عام ١٩١١ للميلاد، استولت إيطاليا على ليبيا، وذلك عقب

استيلاء الاتحاديين على الدولة العثمانية، ذلك أن عصابة الاتحاد والترقي كانت قد وثبت إلى السلطنة في الدولة العثمانية وطغت عليها عام ١٩٠٨ للميلاد، وتمكنت من خلع السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله ثم نصَّبت بدلاً منه السلطان محمد رشاد وكان ضعيفاً، ومعلوم أن جماعة الاتحاد والترقي هم عصابات حاقدة مريبة كانت تتظاهر بمظهر المسلمين في الشكل والصورة، لكنها تخفي في حقيقتها وأعماقها ركاماً من مكر اليهود وخداعهم، فهم في الحقيقة مجموعة من الصهيونيين والماسونيين، فمكنتهم خيانتهم ومكائدهم وتلصصهم من التدسس إلى قيادات الدولة من سياسيين وعسكريين، وغير ذلك من مجالس الدولة الفاعلة المؤثرة الأساسية إلى أن استطاعوا أن يتسلطوا على جهاز الحكم في البلاد التي أداروها بأساليب ملتوية، ومضطربة غاية في الخداع والخيانة والتضليل مما أفضى بالدولة كلها إلى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ للميلاد، فآلت إلى الهزيمة الفظيعة والانتكاس المدمر على أيدي هذه الطغمة الغادرة اللعينة من يهود الدونمة بقيادة الشيطان الخاسر، والشقي الخائن الغادر مصطفى كمال أتاتورك، هذا الصهيوني المتآمر الذي أجهز على الدولة العلية الإسلامية الكبرى فبدل فيها النظام والدستور والشعار تبديلاً كاملاً فحولها إلى العلمانية حيث الكفر البواح، وحيث الانسلاخ التام من هيمنة الإسلام وظله الظليل إلى ظلمة الجحود والكفران والعلمنة، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

إلى غير ذلك من وجوه الغزو والعدوان، التي قامت بها الدول الأوروبية الصليبية على الأتراك المسلمين[١].

كلام مقبوح وفاضح ومشين تكشف عنه أقلام المجرمين من شياطين الزمان، الذين لا يبرحون الكيد لدين الله القويم.

لا جرم أن ما تخفيه قلوب هؤلاء العتاة المناكيد أفظع وأبشع، وأنهم

---

(١) جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ص٢١٠ ـ ٢٤٠.

ماضون على حالهم من الكيد والتآمر حتى تكاد قلوبهم تتفطر من فرط الحقد والتغيظ، إلى أن يموتوا بغيظهم مقهورين خاسرين خزايا.

هذه نبذة وجيزة مقتضبة عن فظاعة التمالؤ الصليبي المتعصب على الدولة العثمانية المسلمة، ومدى التصدي المذهل من هذه الدولة العلية المفترى عليها، لمؤامرات الدوائر الصليبية والاستعمارية الخبيثة.

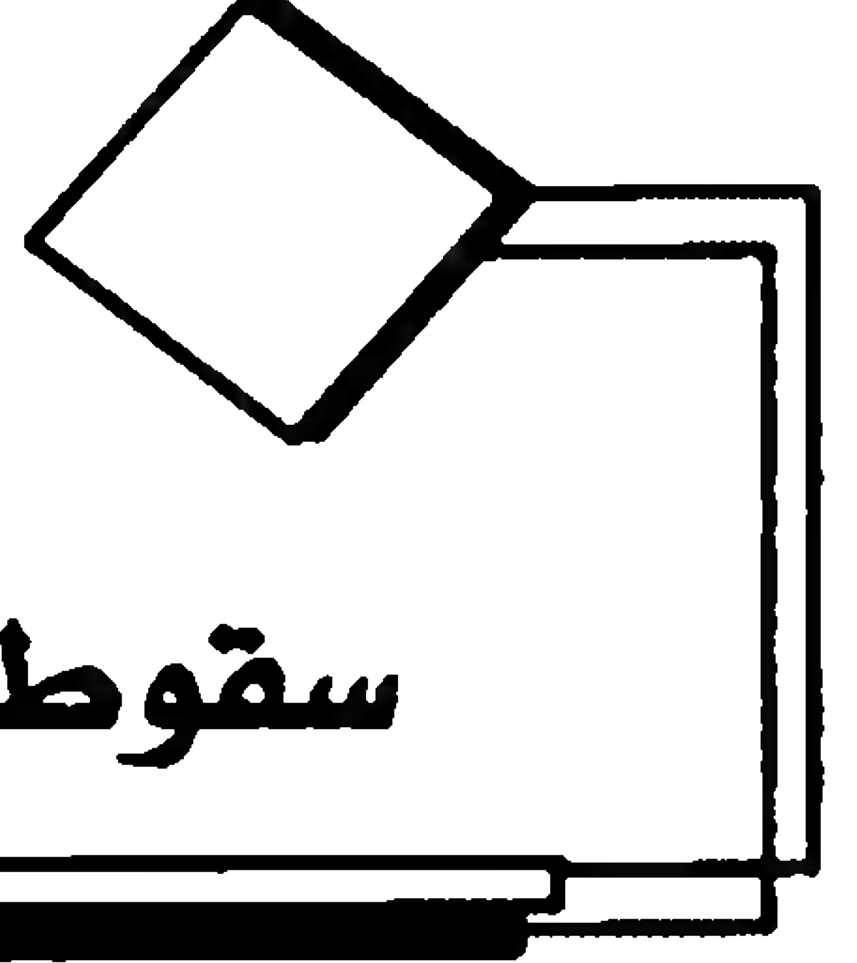




الباب الثامن

أحداث العالم العربي الإسلامي
عقب سقوط الخلافة العثمانية





الفصل الأول
سقوط الدولة العثمانية المسلمة

هذه هزيمة فظيعة أليمة فاقت كل الهزائم، التي لحقت بالمسلمين طيلة أربعة عشر قرناً من الزمان.

هزيمة بالغة نكراء آلت إلى أوخم عاقبة وأفدح خسران ألمّ بالمسلمين طيلة تاريخهم المجيد الحافل، وذلك في الإعلان الغاشم المشؤوم الذي أذاعه سيد الأشقياء وعظيم التعساء، اللعين الخاسر مصطفى كمال أتاتورك، وهو إلغاء الخلافة الإسلامية، هذا الرمز الظاهر الباهر الذي كان مناطاً شامخاً لوحدة المسلمين واجتماع شملهم.

لقد سقطت دولة العثمانيين بعد حروب طاحنة مريرة تصدى فيها هؤلاء المسلمون الأشاوس، لصفوف الصليبيين الذين تكالبوا على المسلمين، وتنادوا للانقضاض على دولتهم العلية مجتمعين بعد أن سخروا لهذه الغاية أقصى ما لديهم من القدرات والطاقات، سواء في ذلك المالية والعسكرية والعلمية والإعلامية، فضلاً عن الجهود البالغة في التحريض والتشجيع والإثارة من البابوات والمثقفين والمستشرقين، الذين نفثت أقلامهم ومقالاتهم سموم الحقد والكراهية في صدور الأوروبيين للإسلام والمسلمين، فباتت الشعوب الأوروبية بذلك مترعة بالتعصب الأعمى والضغينة المبيتة المضغوطة في صدورهم على المسلمين في كل مكان، ومن خلال هذه القناعات المصطنعة لدى الغربيين، وما تحمله أذهانهم من أفكار مغلوطة

ومفتراة عن الإسلام وأهله، هرعت الدول الأوروبية الصليبية للهجوم على المسلمين قاصدين إبادتهم، وتدميرهم بكل ما أوتوه من أساليب وأسباب في المكر والغدر والتنكيل والترهيب.

لقد تصدى العثمانيون للحملات الأوروبية المعتدية طيلة قرون خلت، فحققوا انتصارات مظفرة على الظالمين، وقد استنفدت هذه الحروب والحملات المتعاقبة الطويلة بالغ الجهود والتضحيات من الرجال والأموال والأحزان والهموم، وألوان المكابدات التي احتملها العثمانيون وهم يتصدون للمهاجمين الأشرار، من غير إحساس بملل في ذلك أو كلل.

ولقد تمادى الكفر بأهله في السنوات الأخيرة، يوم تمالأت دول الباطل الأوروبي مجتمعة فأعلنت الحرب على الدولة العثمانية عام ١٩١٤ للميلاد، وكانت حرباً شاملة عالمية، هرعت فيها الدول الأوروبية بقضها وقضيضها، وهيلها وهيلمانها لترمي العثمانيين المسلمين عن قوس واحدة فأقبلوا عتاة مستعمرين يقطعون البراري والبحار، لتحقيق غاياتهم في تدمير المسلمين والتسلط عليهم.

وليت العثمانيين الشجعان كانوا يحاربون ويقاتلون في جبهة واحدة وهي الجبهة الخارجية التي وقفوا فيها وقوف الشُم الشوامخ الرواسي، يدافعون عندها عن شرف الإسلام والمسلمين ويدفعون غطرسة الظالمين الأشرار.

ليت القتال كان على الجبهة الخارجية وحدها، فإن ذلكم لعمري أهون وألين، ولكن البلية الشنيعة أن يؤتى العثمانيون من الداخل حيث الخيانة والتواطؤ والغدر، الذي تفصَّدت عنه أوكار التآمر ودهاليز الظلام، التي يرقد فيها المتآمرون الخاسرون الصهاينة وأتباعهم وأشياعهم العملاء من اتحاديين ومأجورين كانوا يكمنون في داخل البلاد، ومن خلف الصفوف فيشيعون الدعايات والأكاذيب ويثيرون الفتن والقلاقل والاضطرابات، ويؤلبون الناس على دولتهم العلية فيستجيبون وهم تائهون مستغفلون لجند الشيطان.

أما زعماء الدولة وقادتها من حزب الاتحاد والترقي المريب، فإنهم

لاذوا بالفرار مخلفين وراءهم الهزيمة الكبرى التي ألمت بالمسلمين في سائر أنحاء الأرض، هزيمة شنيعة قاتلة قصمت ظهر الملة وطحطحت دولة الإسلام فنسفتها من القواعد نسفاً، فما لبث الاتحاديون عقب هذه النكبة التي أسهموا فيها راغمين أو راضين أن ولوا الأدبار هاربين متوارين عن الأنظار، تاركين وراءهم البلاد تكابد الويل والثبور وعظائم الأمور، وكان في طليعة هؤلاء الزعماء الهاربين تسعة، هم: طلعت باشا رئيس الوزارة، وأنور باشا وزير الحربية، وجمال باشا وزير البحرية، وقائد الحملة العثمانية على الجبهة المصرية، والحاكم بأمره في سوريا الكبرى الممتدة من جبال طوروس إلى قناة السويس، وعزمي بك والي بيروت، وبدري بك مدير شرطة استنبول، والدكتور ناظم بك، والدكتور بهاء الدين بك من كبار رجالات الحزب، ومدحت باشا أمين سر حزب الاتحاد والترقي.

هؤلاء قادة الهزيمة الشنيعة التي تمخضت عن أفدح نكبة تجرعها المسلمون وذلك بما آلت إليه من عدوان صارخ على الخلافة الإسلامية، التي عمل الغربيون خلال بضعة قرون لهدمها كلياً والتخلص من مخاطرها التي كانوا يحسبون لها كل الحسابات، فتحقق لهم ما كانوا يصبون إليه منذ مئات السنين على يدي بطل الخيانة والتآمر والكيد، وإمام الأشقياء من شياطين البشر في هذا الزمان، كمال أتاتورك.

أما الصليبيون والنصارى فقد غمرهم من البهجة والسرور ما غمرهم، وغشيهم من الشماتة بالمسلمين المنكوبين ما غشيهم، فانقلبوا فرحين مطمئنين، وقد زال عنهم شبح الخلافة الإسلامية العتيدة، وهو الحلم الذي بذلوا من أجل تحقيقه كل الأسباب والمقدرات، وخسروا لبلوغه مئات الألوف من الأرواح.

ومثل هذه الحقيقة من ابتهاج الغربيين ومدى شماتتهم يتجسد في مقولات كثير من قادتهم، فذلكم الجنرال الإنجليزي أللنبي قائد الحملة الإنجليزية على الجبهة المصرية الفلسطينية، إذ دخل القدس فقال: الآن انتهت الحروب الصليبية، وقال القائد الفرنسي الجنرال غورو على ضريح

صلاح الدين الأيوبي في دمشق: ها قد عدنا يا صلاح الدين.

ومثل هذا الكلام المنكود كثير، وما فتئت تفيض به ألسن الصليبيين واليهود وعملائهم، وما تخفيه قلوب هؤلاء أشد وأنكى، فإنما تخفي قلوبهم للإسلام والمسلمين الضغينة والكيد ولا يبتغون لهذه الأمة إلا الهوان والضعف والتدمير.

وفي ذلك من بالغ التذكير لكل ذي عقل وبصر من العرب والمسلمين، فيبرأ بنفسه عن محالفة الكافرين أو مواثقتهم والاستعانة بهم، فإنهم مخادعون ماكرون، لا أيمان لهم ولا عهد.

وكيف إذا مالأ المسلم الكافرين ضد المسلمين، فخرج بذلك على أمة العقيدة والدين ليقف في وجههم مع الكافرين كيفما تكن ملتهم في الكفر، إن ذلكم الغدر الشنيع الفاضح، وإنها الخطيئة المذهلة العظمى، التي يسقط فيها الذاهلون المغفلون، أو التائهون السادرون في الجهالة والعمى، اللاهثون لهث الهائم المحموم وراء المناصب والزعامات وحب الظهور.

لقد خدع بعض العرب بوعود التزمها لهم الأوروبيون، إذ وعدوهم بتحقيق الاستقلال الكامل للعرب فتكون لهم دولة عربية يلتئم من حولها شمل العرب جميعاً وعاصمتهم مكة، ذلك الذي قطعه الأوروبيون على أنفسهم لشريف مكة الشريف حسين ليتوج بعد ذلك ملكاً على الأمة العربية، شريطة أن يشق عصا الطاعة على الدولة العثمانية ليكون في صف العساكر الأوروبية في حربهم ضد الأتراك، حتى إذا مضى الشريف إلى جانب هؤلاء الصليبيين الغرباء في قتال الأتراك، وحاقت الهزيمة بهم، تنكر الأوروبيون لوعودهم وقلبوا للشريف ظهر الجن، وذلكم هو ديدن الكافرين الذين لا يعبأون بنقض المواثيق والعهود والذين يعتبرون الكذب والدجل والخداع ضرباً من البراعة والذكاء وحسن التخطيط.

وخير ما يستشهد به لهذه الحقيقة الراسخة قوله جل وعلا في محكم تنزيله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: الآية ١٢٠]، وقوله عز وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ

﴿فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة: الآية ٥١].

لا يجوز بحال موادعة الكافرين المعتدين وممالأتهم على حساب المسلمين، وليس من مسوغ معقول أو مقبول لا من شرع ولا عرف ولا قانون يبيح للمسلم أن يأتلف والكافرين في صف واحد لقتال الخليفة المسلم مهما تكن الأسباب، لا يجوز البتة، وإنْ تكن أخطاء الخليفة أو خطاياه مثل زبد البحر من كثرتها، وإنما الواجب في مثل هذه الحال بذل النصح والتحذير والترشيد بالتي هي أحسن عسى أن يرعوي الحاكم ويزدجر عن خطاياه أو مظالمه، وليس بعد ذلك إلا دوام الاحتمال والاصطبار إلى أن يأتي الله بالفرج أو يقضي أمراً كان مفعولاً، أما الاشتطاط والنزق والاحتقان بالكيد الذي يسوّل للمرء التنسيق مع الأعداء والقتال إلى جانبهم ضد الخليفة المسلم، فذلكم ليس من الحق في شيء.

نقض مزاعم التفريط في العمران في العهد العثماني:

أما دعوى الناقدين السذج، والفارغين الجهلة الذين يأخذون على العثمانيين تفريطهم في حق البلاد والناس في مجالات العمران والتعليم، وغير هذه المزاعم والافتراءات على العثمانيين كثير، وتلك خليقة الناس إذ يتزاحمون في كيل الطعون والتنديد بمن أفل نجمه وغابت شمس عزه وسلطانه الغابر، وتلك هي خسيسة الضعفاء الخائرين أو المنافقين والأنذال الذين يسارعون في انتحال الشتائم والبذاءات، من القول اللاذع، يرمون به الأعاظم الشوامخ من الدول أو الأبطال الذين كتبت لهم الهزيمة وباؤوا بالسقوط والانهيار، فراحوا يتقولون عليهم الأقاويل والدعايات.

أما دعوى التفريط في العمران، فمحض هراء وكذب يلصقه الشامتون المنافقون بالأتراك المسلمين.

فإن جهود الدولة العثمانية في العمران والإصلاح وكل ظواهر الحضارة المادية والفنية، حقيقة ساطعة لا شك فيها، إنها حقيقة يشهد بها المنصفون من الدارسين والمفكرين والمؤرخين الذين يكتبون ويذيعون في صدق

وموضوعية، أولئك يشهدون أن دور العثمانيين في الإعمار والإصلاح كان عظيماً غامراً، ولم يكن هذا الدور محصوراً في الديار التركية، بل كان شائعاً عاماً حتى شمل كل بلدان المسلمين، أما إذا تقلص هذا الدور من الإصلاح والعمران في الزمن المتأخر، فإنما ذلك مرده إلى الإفلاس المادي بسبب البذل العظيم والإنفاق الهائل على الجهود العسكرية التي استنفدت كل ما حوته خزائن الدولة من أموال، ذلك أن الأعداء أطبقوا على العثمانيين من كل الجوانب فرموهم رمية رجل واحد من البر والبحر طيلة قرنين من الزمان أو أكثر، وذلك يقتضي من طائل الأموال ما يفضي إلى الإفلاس المطبق، الذي ينعكس بالضرورة على ظواهر الخير والبحبوحة والتعمير، وكذلك التعليم الذي أتى عليه التبلد والجمود، فشاع الجهل وازدادت ظاهرة الأمية بين الناس، وما من سبب حقيقي لذلك إلا انشغال الدولة بكل طاقاتها ومؤسساتها وقدراتها المادية انشغالاً كاملاً في الحرب الطاحنة، والتصدي للعدوان الكبير على امتداد السنين الطويلة.

ولا يفوتنا في هذا الصدد التنبيه لما يقوله المستعمرون الغربيون من افتراء لئيم فاجر إذ أشاعوا بين الشعوب وخلال حملاتهم الغاشمة المسعورة أن العثمانيين استعماريون، وأن النظام العثماني ليس إلا استعماراً متسلطاً على رقاب الشعوب، فكان هؤلاء الماكرون المعتدون يثيرون في أذهان الشعوب العربية وغيرهم أنهم إنما يريدون أن يستنقذوهم من الاستعمار التركي ويخلصوهم من ربقة الأتراك المستعمرين ليستظلوا بعد ذلك بظل الديمقراطية والحرية، إلى غير هذا التقول الفاسد من الكلام الفارغ المكذوب، الكلام الظالم المفترى الذي أثاره وروّج له المفترون الدجاجلة، من جند الشيطان وأعوانه وهم الصليبيون والصهيونيون وأتباعهم من المنافقين والساقطين، أولئك جميعاً يبثون في روع الأجيال وخيالاتهم أن العثمانيين الأتراك مستعمرون.

والحقيقة الساطعة البلجة أن الأتراك مسلمون، كغيرهم من المسلمين الآخرين على اختلاف لغاتهم وجنسياتهم كالعرب والأكراد والبربر والشركس، وكذلك النظام في الدولة العثمانية، فإنه إسلامي ممحض، بنيت

أركانه وقوانينه وكل مؤسساته على الإسلام على اختلاف أحكامه وقيمه وتعاليمه، والأصل في ذلك كله أن دين الدولة الرسمي كان هو الإسلام، وأن لغتها الرسمية هي اللغة العربية.

أما ما يشيعه الأوروبيون وأذنابهم من العملاء والجاهلين والسفهاء، أو المغفلين والمضللين فهو كذب فاضح مهين تسللوا به إلى العقول الشاطحة التائهة بأن الدولة العثمانية مستعمرة للعرب وغيرم من المسلمين، وما يريد الأوروبيون غير خلاصهم من هذا الاستعمار الغاشم!

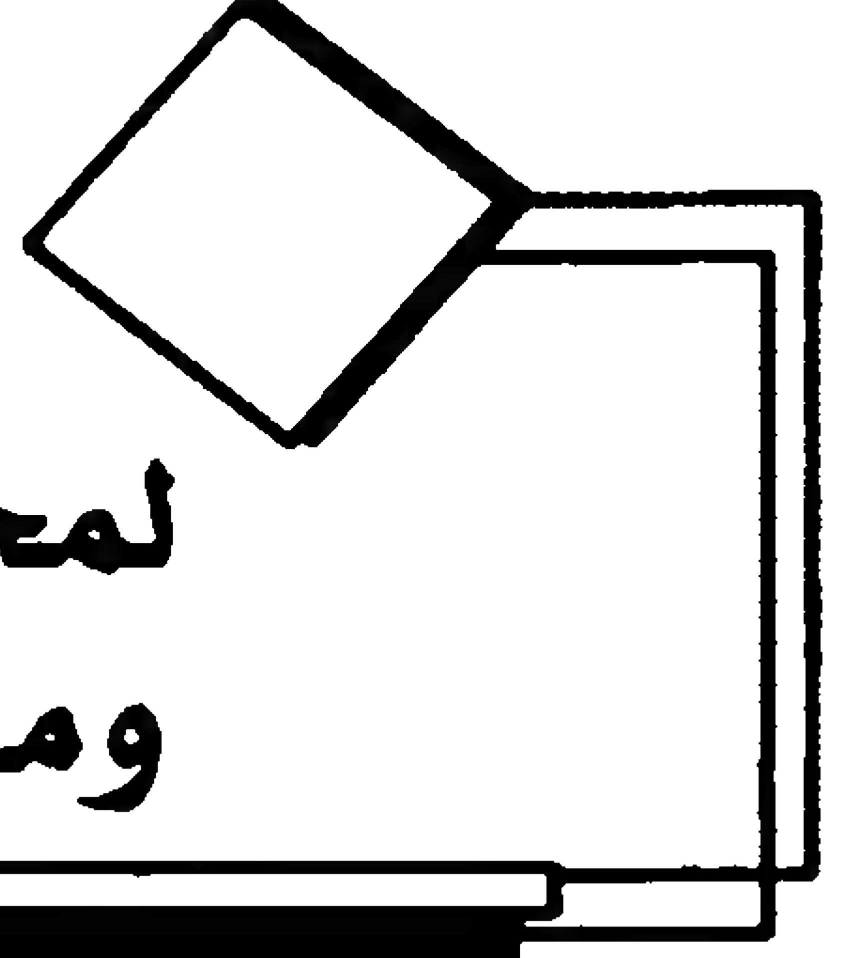
يا لله من هؤلاء المتجبرين اللصوص، الذين ملأوا الدنيا ظلماً وعتواً وإرهاباً وأفاضوا على البشرية بكل معالم الإفساد والتخريب والإذلال والاستعباد.

أولئك هم المستعمرون الغربيون، الذين اجتاحت جيوشهم الهمجية بلاد المسلمين في المشرق، فجاسوا فيهم ظلماً وطغياناً وتبديداً وساموا المسلمين الإذلال والتنكيل، وهذه الحقائق المريرة عن ويلات المستعمرين الأوروبيين تشهد بها أفاعيلهم المشؤومة في البلاد التي ابتليت بالاستعمار الغاشم، كاستعمار الفرنسيين للمغرب العربي والشمال من بلاد الشام ـ سوريا ولبنان ـ وكذلك دولة البغي والعدوان الخداع ـ بريطانيا ـ باستعمارها البغيض لكل من فلسطين ومصر والسودان والعراق وجزيرة العرب وغير ذلك من بلاد المسلمين، الذين تجرعوا مرارة التنكيل والإذلال، وكل ألوان القمع والطغيان التي ما فتئت ذكرياتها الأليمة تقرع أذهان المسلمين في تلكم الديار وأعصابهم!

وفوق ذلك كله الجريمة الكونية العظمى، الجريمة الشنيعة النكراء التي حاقت بفلسطين عام ١٩٤٨، ليمحى هذا العنوان القدسي المبارك من الوجود، ثم يقام مقامه دولة المسخ والغدر والعهر والخيانة: «إسرائيل» وما كان لهذه الجريمة أن تتحقق لولا الاستعمار البريطاني الذي ابتغى الكيد للمسلمين، في تخطيط خسيس غادر فطعنهم مثل هذه الطعنة الفظيعة المسمومة.

وما كان لهذه المصيبة أن تحيق بفلسطين والمسلمين كافة لو لم تسقط دولة العثمانيين، هذه الدولة المسلمة العتيدة التي جاهدت الظالمين الحاقدين مئات السنين دفاعاً عن بيضة الإسلام وكرامة المسلمين، فلما انهارت هذه الدولة الإسلامية العلية بات الطريق على مصراعيه مفتوحاً لعصابات صهيون، الذين هرعوا لاحتلال فلسطين بعد أن طبقوا فيها سياسة التطهير العرقي فشرّدوا أهلها الحقيقيين بالتقتيل والإبادة والترهيب، وذلك كله نتيجة للتمالؤ الوثيق بين الاستعمار البريطاني وحلفائهم من بني صهيون.





الفصل الثاني

لمحة عن بعض اتفاقيات ومؤتمرات التآمر والغدر

اتفاقية سايكس بيكو:

وهذان هما وزير خارجية بريطانيا سايكس، ووزير خارجية فرنسا بيكو، فقد عقد هذان الوزيران اجتماعاً بينهما في لندن عام ١٩١٦م، فتمخض هذا الاجتماع عن الاتفاقية الشهيرة المشؤومة المنسوبة إليهما، والتي تقتضي تقسيم الوطن العربي بين الدولتين الاستعماريتين، فحصلت فرنسا بموجب ذلك على أجزاء من سوريا وجنوب الأناضول، وعلى منطقة الموصل في العراق، فشملت حصتها في الاتفاقية المبيتة بغداد والبصرة والخليج العربي وكلاً من ميناء عكا وحيفا، أما فلسطين فكان مقتضى الاتفاقية أن تكون دولية.

ذلك الذي انطوت عليه الاتفاقية السرية بين الدولتين الاستعماريتين، من أجل تقسيم البلاد العربية بينهما طمعاً في تدمير الطاقات المادية في هذه الديار، التي كانت على مر الزمن مهوى أنظار الغزاة من المتسلطين والاستعماريين.

وعد بلفور عام ١٩١٧ للميلاد:

تمكنت الحركة الصهيونية العالمية من انتزاع الوعد الإجرامي الظالم،

وذلك عبر الاتصالات المنتظمة التي قادها الزعيم الصهيوني حاييم وايزمن مع بريطانيا، ومقتضى هذا الوعد الاستعماري الصهيوني الغاشم إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وكان ذلك في ١٩١٧/١١/٢، وقد ورد النص لهذا الوعد الإجرامي من خلال رسالة بعث بها وزير الخارجية آرثر بلفور إلى اللورد اليهودي روتشلد وهي كما يلي: عزيزي اللورد روتشلد، يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته، التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود والصهيونية، وقد عرض على الوزارة وأقرته وهو على النحو التالي:

إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وسوف تبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينقص من الحقوق المدنية والدينية، التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى، وسأكون ممتناً إذا ما أحطتم الاتحاد الصهيوني علماً بهذا التصريح.

المخلص آرثر بلفور

وبعد أسابيع ستة، دخلت الجيوش البريطانية القدس بقيادة الجنرال اللنبي، وذلك في ١٩١٨/٢/١١ للميلاد، وأخذت تعمل على تنفيذ وعد بلفور على الطبيعة، مما أثار مشاعر العرب في فلسطين، فحدثت صدامات بينهم وبين اليهود الذين بادروا بالاحتفال بمرور عام على وعد بلفور.

وقد ثارت ثائرة العرب كذلك في سوريا ولبنان والعراق وفلسطين، عقب انكشاف النوايا الخبيثة لهاتين الدولتين الاستعماريتين، اللتين خططتا لاتفاقية سايكس بيكو، فما أن علم العرب بمضمون هذه الاتفاقية المنعقدة في ظلام التآمر والكيد لهذه الأمة، حتى أيقن العرب جميعاً فداحة المؤامرة على أوطانهم من أجل تمزيقها واغتصابها، مما أذهلهم إذهالاً فساروا إلى الرفض والمقاومة بمختلف الأساليب.

مؤتمر السلام في باريس:

وذلك عام ١٩١٩ للميلاد، إذ عقد مؤتمر السلام في فرساي بضواحي باريس لرسم خريطة جديدة للعالم العربي عقب الحرب العالمية الأولى، وقد استطاعت الحركة الصهيونية أن تستفيد من انعقاد هذا المؤتمر إذ قدمت له توصية واضحة وصريحة تتكون من مشروعين:

أحدهما: إقامة وصاية بريطانية لتنفيذ وعد بلفور.

ثانيهما: أن يدخل في نطاق فلسطين سائر ضواحي صيدا ومنابع الليطاني والأردن وحوران وشرق الأردن والعقبة والعريش.

مؤتمر سان ريمو:

وفي ١٩٢٠/٥/٣١ للميلاد، صدر إعلان الانتداب البريطاني على فلسطين، في مؤتمر سان ريمو، وقد تم تعيين الصهيوني البريطاني هربرت صموئيل مندوباً سامياً في القدس، وكان زيراً للداخلية ومتعاطفاً مع الحركة الصهيونية.

مؤتمر القاهرة:

وذلك عام ١٩٢٠ للميلاد، إذ عقد ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطانية مؤتمراً في القاهرة للعسكريين والموظفين البريطانيين، لدراسة الوضع البريطاني في منطقة الشرق الأدنى، وقد أوصى المؤتمر بما يلي:

أولاً: الاستمرار في تنفيذ وعد بلفور، لأن بريطانيا ملزمة بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

ثانيهما: تشكيل مقاطعة عربية في شرق الأردن بقيادة الأمير عبدالله يكون مسؤولاً عنها أمام المندوب البريطاني، على أن لا تكون هذه المقاطعة مندرجة في النظام الإداري لفلسطين، ومن غير أن تنطبق عليها شروط الانتداب، وذلك ليكون شرق الأردن على استعداد لاستقبال من يضطر للمغادرة من الفلسطينيين!

وفي عام ١٩٢٠ ميلادي، زار ونستون تشرشل فلسطين، فحدثت مظاهرات احتجاجية قام بها بعض أهالي فلسطين، استنكاراً للدور الذي تلعبه بريطانيا في ضياع فلسطين لحساب اليهود، وتمكنت اللجنة التنفيذية لمؤتمر حيفا من الاجتماع بتشرشل في دار الحكومة بالقدس، فبينت له ما يقع عليهم من مظالم الاحتلال البريطاني، الذي يعمل على ترسيخ فكرة الوطن القومي اليهودي.

ثم تقدمت اللجنة بجملة مطالب لتشرشل منها:

إلغاء فكرة الوطن القومي اليهودي، ووقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ووقف بيع الأراضي لليهود بتشجيع البريطانيين وتواطئهم على ذلك، فرفض تشرشل هذه المطالب مبيناً لأعضاء اللجنة، أنه لا يستطيع إلغاء وعد بلفور لأنه نشأ نتيجة للحرب فلا مناص للعرب من اعتباره وقبوله.

وبذلك تزداد المعالم وضوحاً لصورة الخيانة والغدر والتآمر البريطاني على فلسطين، فثار أهل فلسطين لذلك مستنكرين ومنددين بما تلبس به البريطانيون من كيد للعرب، وتآمر على فلسطين، وكان ذلك في الوقت الذي كانت فيه الشعوب العربية مشغولة بمشكلاتها وهمومها التي خلفها التواطؤ الاستعماري عليهم.

ولما استقلت البلاد العربية في أوائل الأربعينيات عن الاحتلال الاستعماري الغربي، كان الوقت متأخراً في إسهام الشعوب العربية مع الفلسطينيين في معركتهم ضد النشاط الصهيوني وحليفته بريطانيا، التي بذلت أقصى جهودها العسكرية والمادية والإعلامية لضياع فلسطين وقيام دولة العهر والعار والمسخ: «إسرائيل» على أنقاض شعب عريق متكامل برمته، وكان ذلك عقب حرب ١٩٤٨ للميلاد.

المؤتمر العربي الفلسطيني عام ١٩١٩ للميلاد:

فقد عقد هذا المؤتمر في القدس في العام المذكور، وحضره سبعة وعشرون مندوباً عن الجمعيات الإسلامية والمسيحية، كان منهم أحد عشر

مندوباً موالياً لبريطانيا، لكنهم معارضون للمشروع الصهيوني، واثنان مواليان لفرنسا، وآخران ليست لهم ارتباطات سياسية، واثنا عشر عضواً من أنصار الوحدة العربية.

وأخيراً خرج المؤتمر بقرارات هامة منها:

أولاً: إن فلسطين لهي جزء من سوريا العربية، بل هي عبارة عن سوريا الجنوبية.

ثانياً: إن تصريحات بيكو وزير خارجية فرنسا، إذ قال: إن لفرنسا حقوقاً في فلسطين، باطلة ولا قيمة لها.

ومع مرور الأيام وتوالي الأحداث والصدامات بين العرب واليهود، كان العرب يزدادون يقيناً بحقيقة المؤامرة الاستعمارية على وطنهم فلسطين، خصوصاً الإنجليز الذين أقروا خطة الصهاينة، بتشكيل عصابات يهودية تابعة للجيش البريطاني في فلسطين استعداداً لدخولها الحرب ضد الفلسطينيين عندما يحين الوقت.

المؤتمر السوري العام عام ١٩١٩ للميلاد:

عقد هذا المؤتمر بدمشق في تموز من السنة المذكورة، وأقر المطالب التالية:

أولاً: الاستقلال التام لسوريا من غير حماية أو وصاية.

ثانياً: الرفض التام لمطالب الصهاينة، الذين يبتغون وطناً لهم في القسم الجنوبي من سوريا (فلسطين).

ثالثاً: رفض الهجرة اليهودية إلى أي جزء من فلسطين.

رابعاً: عدم تجزئة القطر السوري، بل اعتبار فلسطين ولبنان والمنطقة الساحلية أجزاء من سوريا الموحدة.

المؤتمر الفلسطيني عام ١٩٢٢:

عقد هذا المؤتمر في مدينة نابلس من العام المذكور، واتخذ عدة

قرارات وطنية صارمة ترمي في جملتها إلى إصدار الميثاق الوطني الفلسطيني الذي جاء فيه:

نحن ممثلي الشعب الفلسطيني في المؤتمر الفلسطيني الخامس المعقود في نابلس، نتعهد أمام الله والتاريخ والشعب على أن نستمر في جهودنا الرامية إلى استقلال بلادنا، وتحقيق الوحدة العربية بجميع الوسائل المشروعة، وسوف لا نقبل بإقامة وطن قومي لليهود أو هجرتهم إلى فلسطين.

وفي عام ١٩٢٥ قام آرثر بلفور بزيارة إلى فلسطين، فعمّت الاحتجاجات والاضطرابات، وأعلن الشعب الحداد العام في أنحاء البلاد. وقاطع الناس جميعاً هذا الوزير الاستعماري المجرم باستثناء راغب النشاشيبي رئيس بلدية القدس إذ ذاك، وقد حضر معه حفل تدشين الجامعة العبرية في القدس(١).

المؤتمر الإسلامي في القدس:

وكان هذا في عام ١٩٣١ بالقدس، حيث عقد المؤتمر برئاسة الحاج أمين الحسيني. وقد شاركت فيه وفود إسلامية من عدة أقطار عربية وإسلامية. والمراد من هذا المؤتمر أن يتنبه العالم الإسلامي إلى القضية الفلسطينية، وذلك ليعلم الانتداب البريطاني في فلسطين أن عرب فلسطين ليسوا وحدهم، بل إن سائر العرب والمسلمين يؤيدونهم في قضيتهم العادلة.

وقد استاء الإنجليز من عقد هذا المؤتمر لما فيه من تدعيم لموقف أمين الحسيني والفلسطينيين، وفي المقابل بادر النشاشيبي لعقد مؤتمر سماه مؤتمر الأمة الإسلامية، ويراد به إفشال المؤتمر الأول.

---

(١) المدخل إلى القضية الفلسطينية تأليف: مجموعة من المفكرين ص١٦١ ـ ١٨٤، وانظر تاريخ فلسطين الحديث تأليف: د. عبد الوهاب الكيالي ص٧٧ ـ ١٢٦.

على أن المؤتمر برئاسة الحسيني قد انتخب لجنة تنفيذية من عدة أشخاص، أظهرهم الحاج أمين الحسيني نفسه ليكون رئيساً، وعضوية كل من ضياء الدين الطبطبائي من إيران، ومحمد علوية باشا من مصر، ومحمد إقبال من الهند، ومحمد بن محمد زبارة من اليمن، وأعضاء آخرين منهم شكري القوتلي، رئيس الجمهورية السورية فيما بعد، ورياض الصلح أول رئيس لوزراء لبنان عقب الاستقلال، وعبدالرحمٰن عزام باشا، وهو أول أمين عام لجامعة الدول العربية.

وبعد أسبوعين من المداولات والمناقشات، قرر المؤتمر أن يقام مشروع دولي إسلامي لدعم القضية الفلسطينية، وقد اتخذ المؤتمر التوصيات التالية:

أولاً: التأكيد على أهمية فلسطين للعالم الإسلامي.

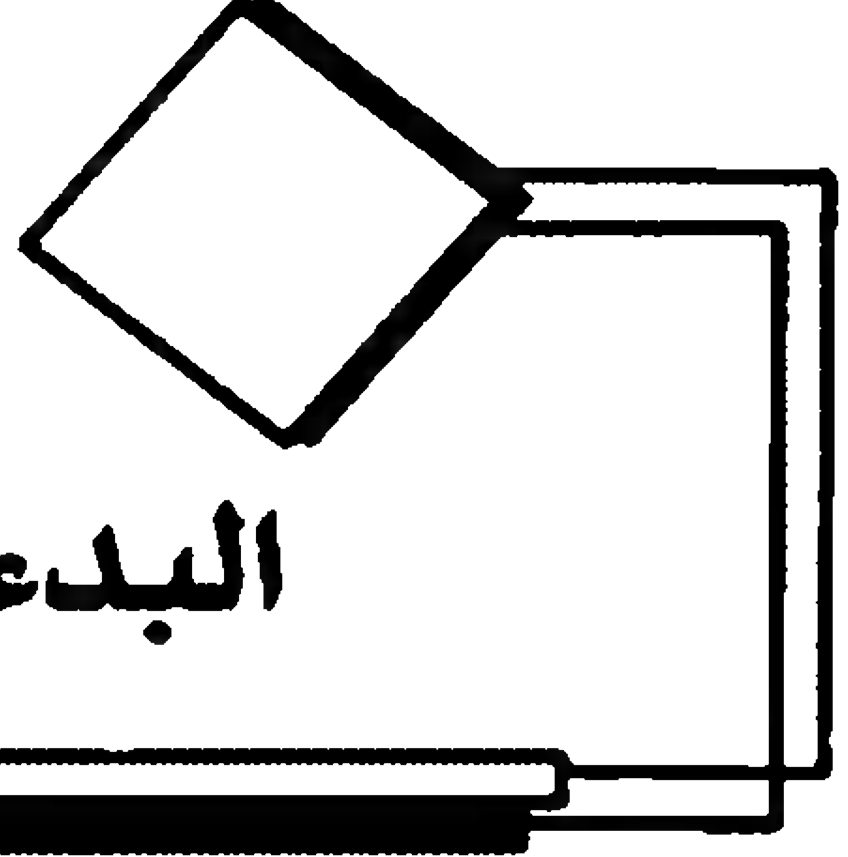
ثانياً: التنديد بالصهيونية والسياسة البريطانية الاستعمارية.

ثالثاً: إنشاء جامعة إسلامية رداً على إنشاء الجامعة العبرية الصهيونية.

رابعاً: إعلان قدسية المسجد الأقصى والأماكن الإسلامية المجاورة.

خامساً: الحيلولة دون بيع الأراضي لليهود بإنشاء شركة أراض إسلامية.





الفصل الثالث
البدء في المقاومة المسلحة

تطورت المقاومة للصهيونية والاحتلال البريطاني في فلسطين لتأخذ منحى جديداً من استعمال السلاح، وكان ذلك على جملة أحداث ووقائع تصدى فيها أهل فلسطين للغاصبين والمحتلين الظالمين بقوة الجهاد، ومن جملة ذلك:

أولاً: جمعية الفدائية:

وقد تأسست هذه الجمعية عام ١٩١٨ للميلاد لمقاومة الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وكانت جمعية سرية، كان في عدادها رجال من الشرطة الفلسطينية، وكان لهؤلاء دور مؤثر في الإعداد للثورة الفلسطينية ضد اليهود والاستعمار البريطاني. وقد قامت هذه الجمعية بعدة عمليات مسلحة ضد المجرمين المحتلين من صهاينة وإنجليز، فكانت ناشطة وفعالة لولا أن عميلاً يهودياً أفضى بمعلومات عن هذه الجمعية للاستخبارات البريطانية، عن اجتماع للجمعية حضره ستة عشر عضواً، مما مكن السلطات البريطانية من إلقاء القبض على معظم القادة لهذه المنظمة.

ثانياً: ثورة النبي موسى:

وكان ذلك في ١٩٢٠/١٠/٤ وهو موسم من المواسم الدينية التي كان يحضرها كثير من الناس في كل عام، فقد جاء إلى القدس المئات من مدينة

الخليل وغيرها من المدن الفلسطينية وهم يحملون البنادق. وقد خطب في المتظاهرين الحاج أمين الحسيني، وردد المتظاهرون الهتافات المعادية للصهاينة والإنجليز، لكن أحد اليهود بادر بفعلة قذرة خسيسة لاستنفار مشاعر العرب، إذ لوث أحد الأعلام الإسلامية تلويثاً مستقذراً مثيراً للتقزز فانهال عليه المتظاهرون في الموسم بالضرب حتى تدخل اليهود. وبدأت الثورة والمواجهة بين الفريقين واستمرت عدة أيام، سقط فيها كثير من القتلى والجرحى لدى الفريقين. وقد حكم الإنجليز على عارف العارف والحاج أمين الحسيني يومها بالسجن حتى تمكنا من الهرب إلى الأردن.

ثورة يافا:

وذلك في ١ أيار عام ١٩٢١، وقد استمرت أسبوعين. فإنه خلال هذه الانطلاقة احتشد ثلاثة آلاف عربي وهاجموا مستعمرة بتاح تكفا القريبة من يافا، فتصدت لهم قوات الاحتلال البريطاني مما أسفر عن قتل العديد من العرب واليهود وجرح الآخرين. وتبعاً لذلك عمت الاضطرابات جميع أنحاء فلسطين.

وفي ضوء ذلك أصدر تشرشل ما يسمى بالكتاب الأبيض عام ١٩٢٢ للميلاد، وهو في حقيقته أجدر أن يسمى بالأسود لأنه ينم عن سياسة الغدر والمكر والتحيز الصليبي الكامل إلى جانب اليهود الغاصبين، وقد جاء في هذا الكتاب أن تصريح بلفور لا يهدف إلى إخضاع العرب وأن الحكومة البريطانية مصممة على تنفيذه، وأن اليهود موجودون في فلسطين ومن حقهم ذلك، وليس ذلك بسبب التسامح البريطاني، وهم من حقهم أيضاً زيادة هجرتهم إلى فلسطين.

ثورة البراق: وذلك في ١٥ أغسطس عام ١٩٢٩، إذ تزايدت مطالب اليهود بالحائط الغربي للمسجد الأقصى وهو حائط البراق، الذي يسميه اليهود: حائط المبكى. وانطلقت التصريحات اليهودية تعلن عن هدفها الحقيقي وهو إقامة هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى، ووافق هذا التاريخ يوم احتفال اليهود بعيد الصيام وذكرى خراب الهيكل، وقد نظم

اليهود في هذا اليوم في القدس مظاهرات شارك فيها الآلاف منهم إذ ساروا في شوارع القدس واتجهوا إلى حائط البراق حيث رفعوا العلم الصهيوني وأنشدوا الأناشيد الدينية التلمودية.

وفي اليوم التالي الذي وافق ذكرى المولد النبوي، خرج المسلمون عقب صلاة الجمعة في مظاهرة حاشدة سارت نحو حائط البراق، ثم حطم المتظاهرون منضدة لليهود وأحرقوا الاسترحامات التي وضعها المصلون اليهود في خروق الحائط، ثم وقعت اشتباكات بين الفريقين قتل على أثرها عدد من كلا الفئتين، ثم ظهر بعد ذلك أن معظم الإصابات في صفوف العرب كان سببها الجنود الإنجليز.

ثورة المجاهد الشيخ عز الدين القسام عام ١٩٣٥:

قدم هذا الشيخ المجاهد من سوريا إلى حيفا عام ١٩٢١، وذلك عقب انهيار الثورة السورية. وقد ابتدأ حياته في فلسطين معلماً، وقد انضم إلى جمعية الشبان المسلمين عام ١٩٢٦، وكان أحد مؤسسي فرع حيفا سنة ١٩٢٨، ثم فاز برئاسة الفرع عقب الانتخابات فيه.

وكان رحمه الله يتجول في أنحاء فلسطين باعتباره موظفاً شرعياً في المحكمة، ثم أخذ يجند الشباب في خلايا، كل خلية تتكون من خمسة أشخاص. ونشط في نشر الدعوة ضد اليهود والبريطانيين، ثم أسس حركة جهادية تستند في طبيعتها وتصوراتها إلى الإسلام، وتتبنى الجهاد أسلوباً وطريقاً أساسياً لتحرير فلسطين، ثم بدأ يخطط لقيام تنظيم سري اعتبر فيما بعد أخطر منظمة سرية وأعظم حركة فدائية عرفها تاريخ النضال والحركة الوطنية في فلسطين.

وقد كان معقله رحمه الله في الحي القديم من مدينة حيفا، حيث يسكن المواطنون الفقراء، فبات له عظيم الذكر والسمعة في سائر أنحاء فلسطين.

وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٣٥، بدأ القسام ثورته ضد

المحتلين الأجانب من إنجليز ويهود، وبهذا كان إعلان القسام للجهاد أساسياً في أسلوب الحركة الوطنية الفلسطينية بعد أن كانت قائمة على الأسلوب السياسي في تحقيق الأهداف التي يصبو إليها شعب فلسطين.

وفي غمار الثورة على الاحتلال والطغيان البريطاني الغاشم، لجأ الشيخ القسام، ومعه اثنان وخمسون رجلاً من أنصاره الثوار المجاهدين إلى ضواحي جنين، وذلك في ١٩٣٥/١١/١٢، وهنالك دعا الفلسطينيين والناس من حوله لمجاهدة القوات البريطانية، لكن هذه القوات الظالمة الغاشمة ما لبثت أن حاصرته في يعبد وطلبت منه الاستسلام، لكنه رفض. ثم ما لبث أن استشهد هو واثنان من أنصاره رحمهم الله، ثم أسر آخرون وذلك عقب معركة محتدمة ضروس خاضها القسام وأنصاره، وكان لاستشهاد الشيخ القسام أثره البالغ في تهييج المشاعر والقلوب لدى الفلسطينيين جميعاً[١].

لا جرم أن ذكرى الشهيد المقدام تظل على مر الزمن والأجيال، تهتف بالأذهان والمشاعر والخواطر، لتؤجج في المسلمين نار الثورة اللاهبة المستعرة على الظالمين المجرمين من استعماريين وصهيونيين، حتى إذا حان الوعد المقدور المسطور في علم الله، انطلقت كتائب القسام الأشاوس كالصواعق المجلجلة يقتحمون أوكار بني صهيون ليذيقوهم التنكيل والرعب ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: الآية ٢١].

الثورة الفلسطينية الكبرى:

وقعت هذه الثورة العظيمة عام ١٩٣٦، واستمرت محتدمة متأججة حتى عام ١٩٣٩، وهي بحق من أطول الثورات وأشدها في تاريخ الكفاح الفلسطيني ضد الكافرين الغاصبين، ذلك أن هذه الثورة قد عمّت أرجاء البلاد، فثارت المظاهرات الدامية، وعمّ الإضراب الشامل سائر مدن فلسطين وقراها. ويمكن عزو ذلك كله إلى جملة أسباب أهمها:

---

(١) المدخل إلى القضية الفلسطينية ص١٦١ ـ ١٩٠، وانظر: تاريخ فلسطين الحديث ص١٣٣ ـ ٢٥٤.

أولاً: استمرار الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

ثانياً: امتلاك اليهود للأراضي على نحو متزايد ومطرد بتشجيع من الانتداب البريطاني حينئذ.

ثالثاً: الضائقة المادية الخانقة وما نجم عنها من سوء البطالة.

رابعاً: ثورة الشيخ عز الدين القسام التي هزت مشاعر العرب في مختلف أرجاء فلسطين.

على أن السبب المباشر للثورة، أن المنظمات الفدائية العربية قتلت يهودياً وجرحت آخرين على طريق نابلس ـ طولكرم، وذلك في ١٩٣٦/٤/١٥، وفي الليلة الثانية قتل اليهود اثنين من العرب على الطريق العام إلى الشمال من مستعمرة عليبي، وحدث على أثر ذلك اشتباك وصدام بين العرب واليهود على حدود يافا ـ تل أبيب، وقد فرضت السلطات البريطانية عقب ذلك نظام منع التجول، وحالة الطوارىء في جميع أنحاء البلاد. وعلى أثر ذلك تشكلت في ١٩٣٦/٤/٢٠ لجنة عربية في نابلس أعلنت الإضراب العام إلى أن تأخذ الحكومة البريطانية في اعتبارها المطالب العربية العادلة المقدمة إليها عام ١٩٣٥، وقد قام أحد رفاق الشيخ القسام وهو الشيخ المجاهد فرحان السعدي بقتل ثلاثة يهود، ثم اشتعلت الثورة الكبرى في فلسطين عقب ذلك.

ثم تكونت لجنة عربية عليا برئاسة الحاج أمين الحسيني، وكان أعضاؤها: عوني عبد الهادي سكرتيراً، وأحمد حلمي أميناً للصندوق، ثم جمال الحسيني وراغب النشاشيبي وعبد اللطيف صلاح والدكتور حسين الخالدي ويعقوب الغصين ويعقوب فراج وألفرد روك. وأعلنت اللجنة عن مواصلة الإضراب حتى تستجيب بريطانيا لمطالب الشعب الفلسطيني، وقد عمت الثورة الريف الفلسطيني ورفض الناس دفع الضرائب لحكومة الانتداب، وتحول الإضراب العام إلى ثورة مسلحة، وطلبت حكومة الانتداب من وزير خارجية العراق حينئذ وهو نوري السعيد أن يتوسط فلم ينجح في وساطته، ثم دخل القائد فوزي القاوقجي الضابط السوري

فلسطين، وأعلن عن نفسه قائداً عاماً للثورة العربية في فلسطين.

ثم تدخلت الدول العربية لإنهاء الإضراب بضغط من بريطانيا، فأصدر الملوك والرؤساء العرب نداءً مشتركاً في ١٩٣٦/١٠/١٠ دعوا فيه أهل فلسطين إلى وقف الثورة والاعتماد على النية الطيبة للصديقة بريطانيا! وبذلك توقف الإضراب العام في البلاد، وعاد الثوار العرب إلى دولهم وذلك بعد أن دعت اللجنة العربية العليا إلى وقف الإضراب وإلى حل التنظيمات العربية، مما أدى إلى فتور الهمم وركود الثورة المتأججة إلى حين.

احتدام الثورة الكبرى من جديد:

كانت كل الإمارات والقرائن تكشف عن النوايا الإجرامية للإنجليز الذين لا يبرحون التخطيط الماكر الذي يقضي باغتصاب فلسطين لتكون دولة لليهود، وذلك كله بالتواطؤ مع الصهيونية العالمية، ولذلك كانت حكومة الانتداب تتحين أي فرصة لضرب القيادة السياسية للشعب الفلسطيني حينئذ، وقد سنحت الفرصة لذلك عندما اغتال الثوار أندروز حاكم لواء الجليل وحرسه، وعلى الرغم من أن اللجنة العربية العليا وجميع اللجان القومية قد استنكرت علناً هذا الحادث، فقد قررت حكومة الانتداب إلغاء هذه اللجان جميعها، ثم اعتقلت بعض أعضاء الهيئة العربية العليا والمئات من المناضلين، ولجأ الحاج أمين الحسيني إلى الحرم الشريف فبقي فيه آمناً على نفسه، وفرّ جمال الحسيني إلى خارج البلاد.

وفي ١٩٣٧/١٠/٢ أضربت مدينة القدس، ثم اتسع الإضراب ليعم كل أنحاء فلسطين، وتمكن المفتي الحسيني من الفرار سراً إلى لبنان.

ثم عمت الثورة المسلحة سائر البلاد، وذلك بالرغم من الإجراءات القمعية الظالمة التي اتخذها الانتداب ضد الثوار الذين كانوا يزدادون حماسة وضراوة وانقضاضاً على الإنجليز والصهاينة.

ثم بدأ الثوار بتشكيل مركزية أطلق عليها اسم «اللجنة المركزية للجهاد» وكان مقرها دمشق، وتولى إدارتها عملياً عزت دروزة بتوجيه من المفتي

الحسيني الذي ظل مقيماً في لبنان. وكان مقر رئاسة الثوار مسؤولاً عن إجراء التنسيق والتعاون بين تشكيلات الثوار التي كانت تتمتع بالاستقلال إلى حد كبير، وكان يتولى رئاسة كل تشكيل من هذه التشكيلات قائد محلي، ويساعده في ذلك عدد من رؤساء الفصائل، وكان يتولى قيادة هذه التشكيلات قادة فلسطينيون مرتبطون بصلات وثيقة بالقرى التي تقع ضمن مناطق عملياتهم، وكان أبرز القادة للمرحلة الثانية من الثورة الكبرى الشهيد العظيم عبد القادر الحسيني رحمه الله في القدس، والشهيد البطل عبد الرحيم الحاج محمد، وعارف عبد الرازق رحمهما الله في نابلس، ثم يوسف أبو درة رحمه الله في الجليل، وقد كان هؤلاء الثوار يقيمون في مقر رئاستهم الواقعة في الجبال وفي المكامن المختلفة محاكم ثورية ومراكز إدارية ودوائر استخبارية، ذلك أن الإدارة المدنية لحكومة الانتداب كانت قد اضمحلت أمام سيطرة الثورة على كل أنحاء البلاد، فكان الناس يلجأون في الغالب إلى محاكم الثوار لحل مشكلاتهم الخاصة، وكان الثوار من جهتهم يقومون بجباية الضرائب من السكان تدعيماً للثورة، وكان الثوار الشجعان يثيرون الرعب في قلوب المخذولين العملاء المتعاونين مع سلطات الانتداب البريطاني، وذلك من خلال تحذيرهم وتهديدهم أو اغتيالهم.

وأذكر للأمانة في هذا الصدد، أن والدي رحمه الله كان قائداً للثورة المحتدمة في الجنوب ضد الإنجليز، وكان ذلك بالتنسيق مع قيادة الثائر العظيم والقائد الهمام عبد الرحيم الحاج محمد.

ولقد كان معقل الثورة التي قادها والدي المرحوم في بلدة الفالوجة الواقعة في السهل الداخلي، ما بين المجدل والخليل، أو هي إلى الشرق من البحر المتوسط بمسافة عشرين كيلومتراً.

وقد ضمّت الثورة - في معقلها الفالوجة - نخبة من الرجال الشجعان البواسل الذين كانوا يفجأون بأسلحتهم النارية المتواضعة من بنادق ومسدسات جنود العدو البريطاني فيقتلونهم، وكان لهم دور كبير ومؤثر في تعقب أخبار العملاء الذين يدلون بأخبار الثورة إلى البريطانيين، فيرعبونهم أو

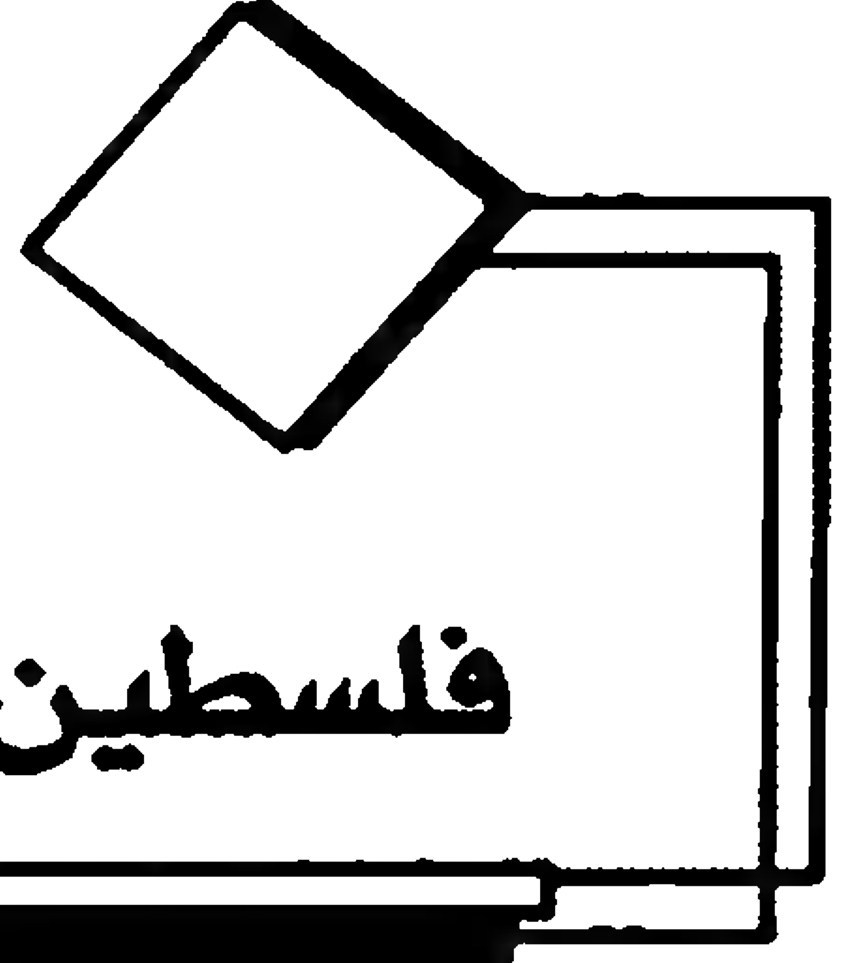
يقتلونهم. وظل الحال على ذلك من احتدام الثورة وتأججها وما أسفرت عنه من جليل البطولات والأعمال، من حيث تقتيل العدو وترهيبهم، ومن حيث الدعاية الإعلامية المستطيرة التي شاعت في الآفاق، شاهدة على قضية فلسطين وما أحاط بهذا الوطن المبارك من مؤامرات استعمارية ومكائد صهيونية.

واستمرت الثورة في فلسطين على حالها من الاحتدام والاشتداد، والتصدي لقوات العدو عدة سنوات وإذا ما أدركنا شاسع البون في العدة والعتاد بين الجيش البريطاني الكثيف المدجج بكامل السلاح على اختلاف أنواعه ومستوياته، فضلاً عن القدرات المادية والإعلامية الهائلة التي يسخرها هؤلاء المستعمرون المجرمون، ومن خلفهم عصابات صهيون المدربة تمام التدريب، وبين المناضلين الثوار الأشاوس على قلة عددهم وبساطة أسلحتهم وقلة ذخائرهم وتموينهم، إذا أدركنا ذلك كله، أيقنا أن قدرة الثوار الشجعان على مقاومة هذه الدولة الاستعمارية لسوف تؤول إلى الضعف والذبول، فسرعان ما أخذ زعماء الثورة يختفون من حلبة الصراع والمواجهة، ومنهم من استشهد، وكان في طليعة الشهداء الصناديد قائد الثورة العظيم عبد الرحيم الحاج محمد، الذي استشهد بقرية صانور القريبة من طولكرم، وذلك في ١٩٣٩/٣/٢٧، ومنهم من قيد إلى مشانق الإعدام، أو قيد إلى غياهب السجون والمعتقلات في عكا وعتليت وغزة وبئر السبع.

وأذكر أن والدي رحمه الله قد أودع ظلام السجن في هذه المعتقلات عدة سنوات، وقد لاذ بعض الثائرين بالفرار من طغيان الإنجليز فكتبت لهم النجاة[١].



(١) المدخل إلى القضية الفلسطينية ص١٩٢ ـ ٢٠٢، وتاريخ فلسطين الحديث ص٢٦١ ـ ٣٠٤.



الفصل الرابع

فلسطين وأهميتها في ميزان الإسلام

هذا الوطن مفضال ومبارك وله من القدسية والجلال ما ليس لغيره إلا مكة والمدينة.

وبالرغم من الأهمية العظمى لكل البلاد التي شاع فيها سلطان الإسلام، وأن هذه البلاد مصونة بصولة هذا الدين ورجاله، الذين تلزمهم وجيبة الدفاع عن الوطن والذب عن حياضه بكل القدرات، بالرغم من ذلك كله فإن فلسطين تأتي في ذروة الاهتمام لدى المسلمين في كل مكان وزمان، والأصل في ذلك هذا البيت الكريم الأجل الذي حوته فلسطين وهو المسجد الأقصى، استناداً إلى الآية الكريمة من سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: الآية ١] وبذلك فإن المسجد الأقصى وما حوله من الديار مبارك مقدس، وكلمة ﴿حَوْلَهُۥ﴾ تشمل فلسطين كلها، وقيل: ديار الشام.

وبذلك فإن هذا الوطن بالذات (فلسطين) لهو ذو مساس وثيق بطبيعة هذا الدين المميز، وذلك إحساس رهيف راسخ يخالج قلب كل مسلم حيثما كان، وهو يستشعر في أعماق نفسه أن فلسطين جزء من كينونته الدينية، بل إنها وثيقة الصلة الوطيدة بعقيدته التي لا يعد لها في الحياة شيء. وبذلك كان من الراسخ في تصور المسلمين أن فلسطين وقف إسلامي ليس لأحد

من الناس أن يستأثر به لنفسه، بل ليس لجهة من الجهات سواء كانت هيئة من الهيئات أو جماعة من الجماعات أو غير ذلك من المؤسسات أو الحكومات، أن يستأثر لنفسه بفلسطين أو بجزء منها، بل إن هذا الجزء من البلاد وقف على المسلمين كافة، ولا تستطيع قوة في الأرض أن تنتزع من المسلمين هذا الحق إلا أن تكون قوة غاشمة ظالمة مارسها غاصبون مجرمون من البشر الحاقد المتربص، مثلما فعل الصليبيون الحاقدون الذين جاؤوا إلى هذه الديار غزاة معتدين، فاحتلوها ردحاً من الزمن، وفعلوا فيها من بشاعة الأفاعيل ما ينم عن طبائع خبيثة استحوذ عليها الحقد الأسود، والتعصب المقيت. ثم ما لبث أن تصدى لهم المسلمون بقيادة المؤمن المظفر العظيم صلاح الدين رحمه الله، فقضوا عليهم، وأخرجوهم إخراجاً فتطهرت الديار المقدسة من أرجاسهم وأدناسهم، ثم عادت الكرة على المسلمين مرة أخرى عقب هزيمة الأتراك المسلمين عام ١٩١٨، فتمزق شمل البلاد واقتسم الاستعماريون الغادرون بلاد المسلمين، حتى إذا بلغ الجنرال اللنبي مدينة القدس قال قولته الغليظة المشؤومة: الآن انتهت الحروب الصليبية.

فإذا كان ذلك هو شأن المعتدين المتربصين وهم كثيرون، أولئك الذين يغتنمون أيما فرصة سانحة كيما ينقضوا على الإسلام والمسلمين انقضاضاً فيبيدوهم إبادة ويدمروهم شر تدمير...

إذا كان شأن هؤلاء كذلك، فإنه قمين بالمسلمين أن يتشبثوا بوسيلة الجهاد، طريقاً وأسلوباً لدفع الظالمين عنهم وللذود عن الكرامة والقيمة وحرمة الأوطان. على أن الجهاد في مثل هذه الظروف التي تمر بالمسلمين في هذا العصر فرض عين، فهو فرض لا ينجو من تبعته كل فرد في المسلمين ذكراً أو أنثى، وذلك ما يقتضيه قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٤١] وقوله جل وعلا: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: الآية ٣٦].

وما ينبغي لمتحذلق مريب بعد ذلك أن يجترىء على الغمز بحق هذا

الدين من أجل فريضة الجهاد، فما يجترىء مثل هذا الاجتراء أو يغمز الإسلام بأدنى إشارة من إشارات الطعن أو التشويه إلا سخيف الرأي سقيم الطبع، أو خسيس متواطىء عميل. فقد بينا فيما مضى أن الجهاد سبيل المسلمين لدفع الباطل وإزالة الشر الذي يؤجحه المجرمون الغاصبون، وأولئك لا يجدي معهم أي أسلوب أو وسيلة إلا الجهاد الحازم الصارم، أما دون ذلك من سبيل فإنما هو الخور والخذلان والانهزامية. وها هم اليهود قد اجتاحوا فلسطين وأشاعوا فيها الويل والتنكيل وكل ألوان القمع والإبادة والتشريد، وذلكم الذي يسمى في اصطلاح العصر الراهن بالتطهير العرقي، إذ أخرجوا المسلمين من فلسطين بالقمع والإرهاب والإبادة، وفعلوا فيهم من المذابح الوحشية ما يشيب من هوله الولدان.

فهل بعد ذلك من سبيل لدفع هذا العدوان الإجرامي الصارخ إلا القوة الرادعة والاستعداد لقتال هؤلاء الغرباء المجرمين والأشرار المناكيد من بني صهيون ومن والاهم من استعماريين وصليبيين وعملاء.



الفصل الخامس

قيام حركة الإخوان المسلمين على يدي الإمام حسن البنا، ونشاطاتها

على أن هذه الحقيقة البارزة قد فطنت لها الحركة الإسلامية في ديار المسلمين، وأولئك هم جماعة الإخوان المسلمين، كبرى الحركات الإسلامية في عالم هذا العصر، بقيادة رائدها العظيم، الإمام حسن البنا قدّس الله روحه، وأنار بقبساته ضريحه.

لقد بادر هذا الإمام الشهيد باستنهاض همم المسلمين، وإشاعة الوعي والغيرة في عقولهم ومشاعرهم لإصلاح وبناء ما أفسده أتاتورك بانقلابه الإجرامي البغيض، هذا الانقلاب الشنيع الأسود الذي هدم فيه خلافة الإسلام ليقيم مقامها صرحاً ظلوماً للعلمانية الكافرة، وقد أقام!

لقد كانت دعوة الإمام حسن البنا تذكيراً حروراً للمسلمين، واستنفاراً شديداً لقلوبهم ووجدانهم كيما يتنبهوا للمخاطر الكبيرة التي تحيط بهم وبعقيدتهم ودينهم من كل جانب، لذلك بادر الإمام البنا رحمه الله، للعمل الدؤوب دون هوادة من أجل أن تعاد الخلافة الإسلامية، رمز الوحدة والتجمع والتلاقي بين المسلمين في سائر بقاع الأرض، ومن أجل أن يستأنف العمل بشريعة الإسلام في واقع الحياة كلها، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ومن الحقائق البدهية في دين الإسلام، أن هذا الدين كل لا يتجزأ،

وهذه خصيصة أساسية من خصائص كبريات يتميز بها الإسلام عن غيره من الديانات والملل والفلسفة. ذلك أن الإسلام ـ بطبيعته المميزة هذه ـ تتجلى فيه جملة من مزايا التكامل والاتساق ليكون الدين الكامل الشامل المتوازن المعتدل الذي يتناول عامة المشكلات والقضايا للأفراد والمجتمعات.

لقد أسهمت دعوة الإخوان المسلمين إسهاماً عظيماً في انبثاق الصحوة الإسلامية التي أيقظت النائمين وأثارت في المسلمين روح الغيرة والحماسة والذكرى، وأذكت فيهم ثورة التمرد على الباطل بكل صوره وأشكاله، الباطل الذي اصطنعه الظالمون المستعمرون بحق هذه الأمة فساموها الهوان والتنكيل والقمع واغتصاب الديار.

ولقد تمخضت دعوة الإخوان المسلمين عن نخبة من العلماء والمفكرين الذين راحوا يستنهضون المسلمين ليصحوا من غفلتهم وسباتهم، ويقبلوا على الإسلام عقيدة وشريعة ومنهاج حياة. ويأتي في طليعة هؤلاء: العالم الكبير أبو الأعلى المودودي، هذا الذي أثار بمقالاته ومحاضراته ومؤلفاته الكثيرة جماهير المسلمين في باكستان، وما حولها من بلاد المسلمين في المشرق والمغرب، فكان له الأثر العظيم في بعث الصحوة الإسلامية المباركة خلال العصر الراهن.

ثم ذلكم العلامة البارع، والأديب الجهبذ، صاحب التفسير العظيم للكتاب الحكيم، والمفكر الإسلامي الشهير سيد قطب، هذا الذي أجج بكلماته الخارقة وأسلوبه النافذ، مشاعر المسلمين لينفضوا عن أذهانهم وعيونهم غبار اللهو والغفلة والسلبية، فيبادروا الالتفاف من حول الإسلام ليواجهوا به أئمة الضلال والباطل من طواغيت الزمان. ولقد أثرى هذا الداعية المفضال خزائن المكتبة الإسلامية بمؤلفاته الكثيرة المؤثرة، وفي ذروتها كتابه الحركي المؤثر النابض الذي استثارت كلماته الهمم واستنهضت العزائم، وهو تفسيره للقرآن الحكيم والذي سماه «في ظلال القرآن».

وغير هذين العالمين كثير ممن أفرزتهم حركة الإخوان المسلمين، ومنهم الكاتبون والصحفيون والمفكرون وجهابذة الخطابة الذين جابوا أقطار

الدنيا يدعون فيها الناس إلى الإسلام، فاستجاب لهم الناس في صحوة متنامية صاعدة تتأجج وتزداد يوماً بعد يوم، بالرغم من شدة العراقيل والمعوقات التي يضعها الظالمون على اختلاف مللهم وأهوائهم في طريق هذه الصحوة المباركة المطردة.

ويأتي في طليعة الاهتمامات للحركة الإسلامية الكبرى هذه تحرير فلسطين من طغيان الصهيونية الغاشم، واستنقاذها من الغاصبين الأرجاس، الذين تكالبوا على فلسطين فابتلعوها في غفلة من الزمن، والناس لاهون أو ساهون نيام. أما وقد استيقظ النائمون، وتنبّه الغافلون، وكفكف المسلمون عن أبصارهم وعقولهم ضباب الغفلة والسبات، فقد انطلقوا مبادرين لتلافي الخطيئة الشنيعة التي حلّت بهم، فأسفرت عن نكبة فلسطين عام ١٩٤٨.

لقد تنادى المسلمون في سائر أنحاء العالم عبر صيحات مجلجلة غاضبة تطالب بالثأر لفلسطين، وبطرد الغرباء المجرمين الذين ما فتئوا يدنسون هذا الحمى المقدس المبارك، ومن المبادرات العسكرية الفعالة في هذا الصدد، ما قام به الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله، إذ جاب البلاد في القطر المصري طولاً وعرضاً وهو يحرّض المسلمين على النفير للتصدي لعصابات اليهود في فلسطين، مما أشعل الحماسة في الناس فاستطار فيهم الغضب والاستعلاء، وانطلقوا في مظاهرات صاخبة مدوية تنادي بالتطوع والتجنيد وحمل السلاح للقاء هؤلاء الشذاذ الغرباء الذين وطؤوا البلاد في خلسة وتلصص واستراق.

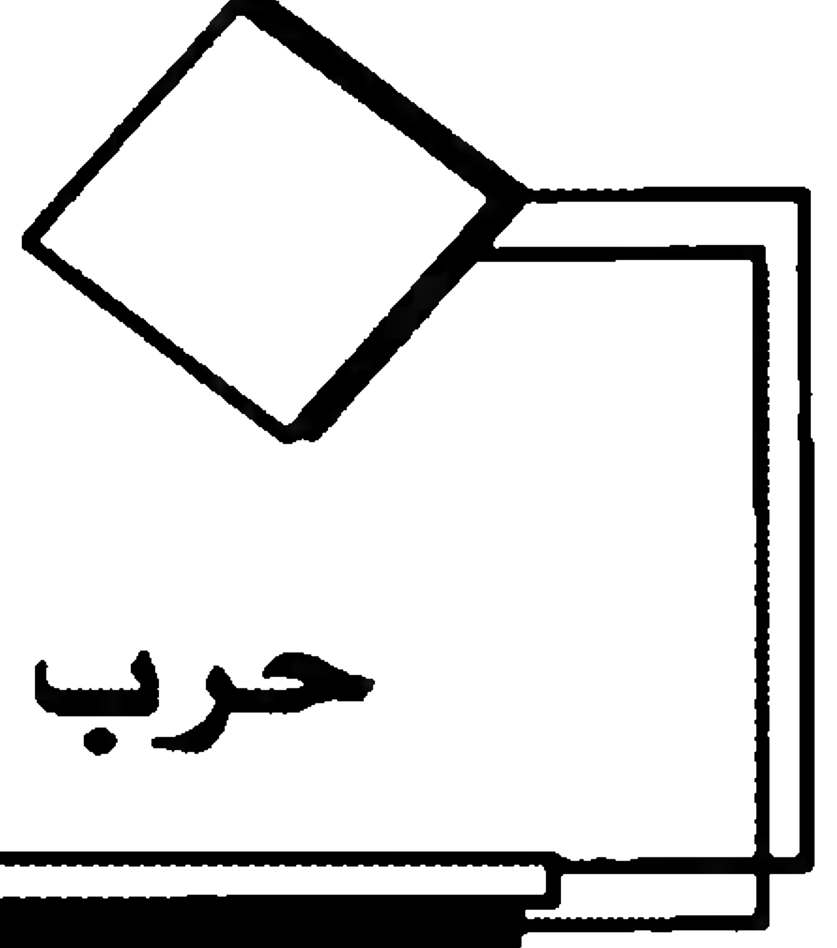
لقد تهيأ الإخوان المسلمون لمواجهة يهود في فلسطين، فجهّز إمامهم رحمه الله عدة كتائب من المجاهدين المؤمنين الشجعان بقيادة الشهيد البطل أحمد عبد العزيز، الذي سقط شهيداً بالقرب من قرية بيت جبرين، حتى إذا غاب هذا النجم الساطع، والقائد الشجاع المغوار، فارتحل إلى جوار ربه، حلّ مكانه في قيادة شباب الإخوان المجاهد كامل إسماعيل الشريف، وله في ذلك مذكرات كتبها عقب الحرب، شرح فيها ما قامت به كتائب الإخوان

من بطولات نادرة في التصدي لعصابات صهيون، وذلك في كتابه «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين».

وكذلك هرعت أعداد من المتطوعين السوريين يقودهم الشيخ المجاهد مرشد الإخوان المسلمين في سوريا الدكتور مصطفى السباعي، وآخرون متطوعون من العراق وعلى رأسهم الأستاذ الجليل والداعية الإسلامي الفاضل مرشد الإخوان المسلمين في العراق محمد محمود الصوّاف.

وذلك شطر من الكلام عن صنائع الحركة الإسلامية الكبرى، وهي دعوة الإخوان المسلمين في استنهاض المسلمين ليفزعوا إلى دينهم العظيم، وليتحرروا من كابوس الضعف والجهالة والمهانة، وليتنبهوا إلى المخاطر الشديدة التي طوّقهم بها أعداؤهم من استعماريين وصليبيين وصهاينة، وما نكبة فلسطين إلا نذير خطر داهم يتهدد المسلمين في عقر ديارهم إلا أن يهبوا جادين مسرعين لاستئصال هذا العدو الماثل الداهم المتربص.





الفصل السادس

حرب فلسطين عام ١٩٤٨ للميلاد

تفاقمت الأخطار على فلسطين وأهلها بازدياد المهاجرين اليهود من أمريكا وأوروبا ودول الاتحاد السوفييتي إلى فلسطين، وزاد من هذه الأخطار، ذلك القرار الأسود بتقسيم فلسطين، الصادر عن مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٧ ميلادي، هذا القرار الجائر الغاشم الذي رفضه الفلسطينيون والقادة العرب باعتباره مؤامرة مبيتة تكالبت على إعدادها الدوائر الاستعمارية الغربية بالتحالف المتواطىء مع الصهيونية العالمية.

ومن أجل ذلك، بادرت اللجنة السياسية للجامعة العربية في القاهرة خلال شهر كانون أول عام ١٩٤٧، فتدارست الأمر الجديد المحدق واتخذت القرارات التالية:

أولاً: وقوف الحكومات العربية وشعوبها إلى جانب أهل فلسطين حتى يتحقق لهم استقلال بلادهم.

ثانياً: رفض مشروع التقسيم الصادر بحق فلسطين.

ثالثاً: القتال إلى جانب أهل فلسطين لإبطال قرار التقسيم.

وعقب ذلك أخذت الحكومة البريطانية تتظاهر ـ وهو ديدنها في المراوغة والتلاعب ـ بأنها ضاقت ذرعاً بتعقيد القضية الفلسطينية، فقررت

بذلك إنهاء انتدابها لفلسطين وجلاء قواتها العسكرية عنها، وحددت لذلك موعداً وهو الخامس عشر من أيار عام ١٩٤٨ لتتيح المجال للأمم المتحدة في النظر في هذه القضية، وما ذلك إلا الزعم الفاضح المكذوب الذي يخفي وراءه جهوداً كثافاً ومراحل تترا من التخطيط الغادر الماكر على المسلمين كافة، وفلسطين خاصة.

مراحل الحرب في فلسطين:

أخذ العرب في الاهتمام والاستعداد لمواجهة اليهود في فلسطين عقب قرار التقسيم الصادر عن مجلس الأمن والجمعية العامة بضغط ثقيل من الدولة الاستعمارية الكبرى الولايات المتحدة الأمريكية، مع أن هذا الاهتمام أو التحرك جاء متأخراً وذلك عقب ثماني سنوات من انفضاض الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٩، وخلال هذه المدة غير القليلة كان اليهود يستعدون لما هم مقبلون عليه من مواجهة العرب من أجل تأسيس دولة المسخ والعهر «إسرائيل» على أنقاض فلسطين، فاستعدوا لذلك تمام الاستعداد واتخذوا للأمر كامل الحيطة والإجراءات، من تكثيف لبناء المستوطنات في مختلف البقاع من فلسطين، إلى تنشيط الهجرة اليهودية إلى هذه الديار، وأهم من ذلك كله، إعداد السلاح الرادع الكافي الذي يخيفون به العرب العزُل، والإكثار من عصابات الإرهاب والتخريب في المنظمات الرئيسة الثلاث وهي: الهاغاناة، والأرغون، وشتيرن.

وبالرغم من ذلك، فقد اجتمعت كلمة القادة العرب في دولهم السبع عام ١٩٤٨ على إرسال كتائب من جيوشهم إلى فلسطين لقتال اليهود والتصدي للمؤامرة الاستعمارية الصهيونية عليها، على أن يكون ذلك عقب الخامس عشر من شهر أيار من ذلك العام، وهو موعد الجلاء للانتداب البريطاني وقواته عن فلسطين، على أنه لم يأتِ هذا الميعاد المحدد للجلاء إلا وعصابات صهيون الإرهابية قد احتلت شطراً عظيماً من فلسطين، وكان هذا الشطر الأعظم من ساحل فلسطين، إذ سقطت مدن عكا وحيفا وطبريا وصفد ويافا، وأماكن أخرى غيرها كالناصرة وقرى الجليل بأكمله. وذلك

كله بتشجيع الانتداب البريطاني ومباركته من قبل رحيله عن البلاد، هذا الانتداب البغيض الأسود الذي انتهج طيلة سني انتدابه أن يجرد العرب من كل أنواع السلاح الناري حتى ولو كان في حجم رصاصة أو دونها، والويل حينئذ لمن يعثر البريطانيون عنده على مثقال رصاصة أو دونها مما يدخل في عداد السلاح، وفي الوقت نفسه كان التساهل والتنسيق البريطاني مع عصابات صهيون لامتلاك السلاح بمختلف أنواعه الخفيفة والثقيلة، من مدرعات وعربات مصفحة ومدافع رشاشة خفيفة وأخرى ثقيلة تقذف بالقنابل إلى مسافة عشرين ميلاً أو أكثر، وذلك كله بتحريض من الإنجليز الذين أسهموا في تدريب عصابات اليهود داخل معسكرات الجيش البريطاني. وكان ـ قاتلهم الله وهدم إمبراطوريتهم العاتية ـ يغضون الطرف عما كان يدخره اليهود من أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة، خلافاً للعرب الذين ما كان يؤذن لأحدهم أن يملك من السلاح ما يجاوز سكيناً أو خنجراً من الخناجر البدائية.

وبالرغم من حجم المؤامرة الهائلة على فلسطين، وتكالب الدول الاستعمارية على نجدة اليهود لتحقيق مآربهم في الاغتصاب، دخلت الجيوش العربية فلسطين وذلك عقب جلاء الإنجليز في الموعد المحدد بتاريخ ١٩٤٨/٥/١٥.

وقد دخلت عدة كتائب من الجيش المصري بلغ عددها خمسة عشر ألف مقاتل بقيادة اللواء علي أحمد المواوي، وقد كان تعداد الجيش المصري برمته حينئذ أربعين ألفاً، وقد احتشدت قوات الجيش المصري حول مدينة العريش جنوب مدينة رفح استعداداً لدخول فلسطين.

وكذلك الجيش الأردني، وهو معروف بشجاعته في القتال، إذ دخلت كتيبة كبيرة من كتائبه لتكون في مواجهة العصابات الصهيونية، وقد أبلوا بلاءً حسناً في الدفاع عن القدس والتصدي لهجمات اليهود من حولها، لولا ضعف هذا الجيش من حيث الموارد المادية والعسكرية التي كانت وقفاً على ما تجود به مصانع الإنجليز، فضلاً عن التردد المكشوف في قيادة الجيش

التي كان على رأسها الضابط البريطاني كلوب باشا.

أما الجيش العراقي فقد أسهم في الحرب بحظ غير بسيط، وذلك بقيادة اللواء علي غالب عزيز الذي أمر جيشه بقصف مواقع اليهود بقذائف المدافع، في كل من تل أبيب وبتاح تكفا ويافا وغير ذلك من المواقع، مما أفزع اليهود وأربكهم أيما إرباك، حتى بلغت جحفل هذا الجيش الباسل إلى مقربة من تل أبيب وعلى مسافة خمسة عشر ميلاً منها، وكان الأمر في غاية الإحراج لعصابات صهيون لولا تردد القيادة السياسية في بغداد حينئذ.

وكذلك الجيش السوري الذي شارك في قصف المواقع اليهودية من معاقله في هضبة الجولان.

أما الجيش المصري، فقد انطلقت جموعه مخترقة الحدود إلى فلسطين حتى تمكنت هذه الجموع العسكرية الحاشدة من تغطية شطر عظيم من فلسطين، بدءاً بالساحل من غزة إلى المجدل، ثم أسدود ـ وهي جنوب مدينة يافا ببضعة أميال ـ ومروراً بالسهل الداخلي، من بئر السبع إلى شمال الفالوجة، وانتهاء بالمنطقة الغربية الجبلية بما يشمل الخليل وبيت لحم حتى مشارف القدس. لقد انطلقت عساكر الجيش المصري بأسلحته الثقيلة لتدك معاقل اليهود حيثما وجدوهم، فدمروا كثيراً من المستوطنات والمعاقل التي كانت تحتشد فيها جموع من اليهود وعصاباتهم، فأحسوا بالحرج الشديد وأصابهم من التزعزع والخوف في بادىء الأمر ما أفقدهم القدرة على الثبات، أو المواجهة، وقد زاد من حرجهم وزعزعتهم ما شنته قوات القائد فوزي القاوقجي، وقوات القائد الشهيد عبد القادر الحسيني من هجمات على المستعمرات اليهودية المعزولة التي كادت تسقط في أيدي العرب.

حصار الجيش المصري في الفالوجة:

قرية الفالوجة هي كبرى القرى في فلسطين، وكانت تضم من السكان ما يقرب من سبعة آلاف نسمة، وهي تقع في السهل الداخلي إلى الشمال من أقصى النقب، وذلك بين مدينة المجدل (عسقلان) على ساحل البحر

المتوسط، ومدينة خليل الرحمٰن في المشرق.

لقد دخلت قوات من الجيش المصري إلى هذه البلدة في كتيبة من أشجع المقاتلين وكانت عدتهم نيفاً وألفاً من الجنود بقيادة الشجاع المغوار، والبطل المظفر الفذ الذي عزّ نظيره في الأبطال من هذا الزمان وهو الأمير سيد طه رحمه الله وأسكنه منازل الشهداء والميامين وحسن أولئك رفيقاً.

لقد كان هذا القائد الفذ مثالاً يحتذى في سمو الجندية وفي تمام البسالة والشجاعة، التي تكشف عن أبطال ميامين أشاوس لا نظير لهم في أزمنة الهوان والخور وتكالب الأشرار من أعداء هذه الأمة.

وأذكر ـ وأنا واحد من أهالي هذه البلدة ـ أن الفالوجة قد حوصرت تمام المحاصرة من عصابات اليهود الذين أطبقوا عليها من كل جانب، فأحاطوا بها كامل الإحاطة، وكانوا يقتربون من مواقع الجنود المصريين شيئاً فشيئاً، حتى ما كاد يفصل بين الفريقين إلا بضع مئات من الأمتار أو دون ذلك بكثير في بعض الجيوب من القرية. وكان قصف المدافع من حصون العدو في مستعمرة قريات جات وغيرها من المواقع المحيطة بالقرية، كثيفاً ومتواصلاً، فضلاً عن القصف من الجو الذي تقوم به طائرات للعدو مستوردة من أمريكا يقودها طيارون مهرة من الأمريكيين المتقاعدين أو المستأجرين المرتزقة، أولئك الذين كانوا يقذفون القرية بحمم لاهبة من القنابل المدمرة فتتزلزل من هولها الأرض، وتتداعى من شدتها البيوت والأبنية، ويضاف إلى ذلك انقطاع الإمدادات من المؤن والذخائر عن الجيش المحاصَر الصابر، وقد أصاب الناس في هذه المدة العصيبة من الرعب والهلع ما أصابهم.

وبالرغم من هذه الأجواء الفظيعة من الاضطراب والوجل ودوام الحصار المطبق، واشتداد القصف من البر والجو بغير انقطاع، فقد كان الجنود المصريون لا يبرحون مواقعهم ثابتين مرابطين لا يتزعزعون، بل يبادرون العدو بقصف معاقله وجموعه بوابل من قذائف المدافع الثقيلة، مدافع الهاون والمورتر ومدافع الميدان وغير ذلك من مختلف المدافع الخفيفة الرشاشة.

وأذكر ما هو لصيق بذهني وذاكرتي، ذلك المشهد المثير النادر للقائد الهمام سيد طه وهو يمتطي حصاناً يتفقد به جنوده في مختلف خنادقهم ومواقعهم فوق التلال والأودية والمداخل التي لا يصلح المسير فيها بالحافلات السيارة. فكان هذا القائد الهزبر يركب صهوة الجواد في همة ناهضة رفيعة وتواضع جم وفي غاية من الشجاعة والجسارة، فيصول بجواده من حول البلدة ليزور العساكر في أقبيتهم ومكامنهم فيحرضهم على الثبات والمصابرة والقتال، وأذكر أن جنود العدو كانوا يلحظونه من مواقعهم القريبة فينهالون عليه رمياً بالرصاص المكثف عسى أن ينالوا منه إصابة تنهار بها عزائم جيشه، وهو رحمه الله ما كان يعبأ بهم وإنما كانت تحف بأطوائه النفسية مشاعر فيّاضة وقناعات مطبقة كثاف بأن هؤلاء الشذاذ خائرون رعاديد وأن العاقبة للفئة المؤمنة الصابرة المرابطة.

تضعضع اليهود ومطالبتهم بالهدنة:

توالت الضربات الموجعة من عساكر الجيوش العربية وغيرهم من المتطوعين كجيش الانقياد بقيادة القاوقجي، والجهاد المقدس بقيادة الشهيد عبد القادر الحسيني، ومن كتائب الإخوان المسلمين الذين كالوا لعصابات اليهود ومستعمراتهم أشد الضربات، بشهادة كثير من أكابر القادة المصريين.

ففي هذا الجو العصيب من توالي الضربات الموجهة لليهود، أحس بن غوريون مؤسس الدولة الصهيونية في فلسطين، أنه لا مناص من إيقاف القتال على مختلف الجبهات مع العرب استنقاذاً لعصاباتهم ومستعمراتهم التي دبّ فيها الوهن والاضطراب، فألحوا على حلفائهم من الدول الغربية، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية أن تتدارك الأمر فتضغط على العرب لقبول الهدنة. وبالفعل، إذ أصدر مجلس الأمن قراراً بالهدنة بين الأطراف المتحاربة، وبذل الوسيط الدولي السويدي، الكونت برنادوت جهوداً كبيرة وهو يتنقل بين العواصم العربية من أجل إقناع القادة العرب للقبول بوقف إطلاق النار وعقد هدنة بين المتحاربين مدة من الزمن، فقبل الزعماء العرب بالهدنة بالرغم من التردد والتحفظ الكبيرين اللذين أبداهما المجاهدون من

غير الجيوش العربية ومن بينهم الحاج أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا. ومن خلال الهدنة بين العرب واليهود، استطاع هؤلاء أن يتلافوا أسباب الضعف التي نزلت بهم وأن يبادروا مسرعين إلى الاستزادة من التسلح والتزود بأنواع الذخائر وآلات القتال، معتمدين في ذلك على حليفتهم الكبرى حينئذ وهي أمريكا، التي هرعت لنجدة اليهود بكامل الإمدادات العسكرية بدءاً بالبنادق والقنابل اليدوية والمتفجرات، وانتهاءاً بالطائرات الحربية القاذفة، المسماة وقتئذ بقلاع الطائرة التي تحمل الواحدة منها عدداً كثيفاً من القنابل الهائلة المفزعة، مما أعاد لعصابات يهود القدرة على المواجهة ومعاودة العدوان على القرى العربية من أجل احتلالها وتشريد أهلها. وبذلك كانت الهدنة فرصة ثمينة تمكن فيها اليهود من التقاط أنفاسهم، في الوقت الذي أخذت فيه الجيوش العربية بالتخاذل والتراجع، وذلك بالنظر للضعف البالغ في القوة العسكرية لدى الجيش الأردني بقيادة الإنجليزي كلوب، ذي الولاء المطلق لأصوله البريطانية. أما الجيش المصري فقد دبّت فيه علائم الوهن وانهيار العزيمة نتيجة لقطع خطوط المواصلات من بين عساكره وجنوده مما أوقع الكثير من الكتائب والسرايا في فخ اليهود فحوصروا حصاراً شديداً مثلما حاق بالجيش المصري في الفالوجة، حيث الحصار المكين المطبق، إلى أن جاءهم الفرج من الله فخرجوا سالمين آمنين تبعاً لاتفاقية بوقف القتال رضي بها اليهود راغمين. ويضاف إلى ذلك ضعف التنسيق والتنظيم بين الجنود والكتائب مما يفضي إلى الضعف في القدرة على قيادة المعارك، كل ذلك أدى إلى سيطرة الجانب الإسرائيلي في القتال وإمساكهم بزمام المبادرة.





الفصل السابع
سياسة اليهود في إرهاب العرب وترويعهم

كان من ظواهر التخطيط للسياسة الصهيونية اللئيمة في فلسطين أن يفجأوا القرى والمدن العربية الفلسطينية بأساليب جهنمية من التقتيل والترويع والإبادة، وذلك ليحملوا الناس على الهجرة ومغادرة البلاد، وهذه غاية خبيثة قصدها اليهود وجعلوها نصب أعينهم لتحقيق مأربهم الفاضح المشين من الإرهاب والتخويف للسكان الآمنين المسالمين الأبرياء من النساء والشيوخ والولدان.

فلقد تعمدت عصابات يهود سياسة التقتيل والإبادة لبعض القرى في فلسطين عام ١٩٤٨ من أجل أن تسري في البلاد أخبار المذابح والقتل بالجملة فيهرعوا إلى الهرب مذعورين، وذلك أسلوب فعال ومؤثر في إخلاء الوطن من أهله فيحل محلهم اليهود القادمون من مختلف أنحاء الأرض.

مجزرة دير ياسين:

ومن الحقائق المسلمة التي لا ريب فيها أن الصهاينة صنف غريب من البشر اللئيم الذي لا تشده مبادىء في القيم أو مكارم الأخلاق من حياء أو رحمة أو مروءة أو إحسان، أو غير ذلك من الخلال الإنسانية الحميدة التي تتجلى في الطبائع البشرية السليمة. ولكن بني صهيون صنف من خليقة فريدة في اضطرابها وشذوذها والتوائها، وهذه حقيقة تكشفها أفاعيل صهيون في شعب فلسطين الآمن عام ١٩٤٨، إذ أنزلوا فيهم من ألوان البشاعة

والفظاعة ما يزلزل القلوب والأبدان، ويشهد لهذه الحقيقة المريرة ما فعلته أيدي العصابات الإرهابية من بني صهيون في قرية دير ياسين القريبة من القدس، والبالغ عدد سكانها حينذاك أربعمائة نسمة، هذه القرية المنكوبة بالويل الصهيوني حيث المذبحة المفزعة التي تظل مسطورة في كبد الزمان فلا يمحوها مرور الزمان أو توالي الأيام.

هذه القرية الآمنة المطمئنة التي أطبقت عليها عصابات الأرغون وشتيرن والهاغاناه المدججين بالأسلحة، فقتلوا أكثر أهلها من المستضعفين المغلوبين. حتى إذا شاعت في البلاد أخبار هذه المذبحة الرهيبة، هرع الناس في أكثر القرى والمدن في فلسطين لمغادرة البلاد إلى حيث الأمن والنجاة من فظائع صهيون ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٤].

وفي هذه الفترة الكئيبة من الزمن العصيب الذي مرّ بشعب فلسطين المنكوب، استشهد البطلان العظيمان وهما عبد القادر الحسيني وحسن سلامة.

مذبحة الدوايمة:

وثمة مذبحة أخرى أشد فظاعة وبشاعة ونكراً، مذبحة شنيعة وجلت منها القلوب وفزعت من هولها المشاعر، فما فتئت تذكرها الأخيلة والأذهان على كر الزمان، تلكم هي مذبحة الدوايمة، وهذه القرية تقع إلى الغرب من مدينة الخليل بمسافة بضعة أميال وعدد سكانها في ذلك الحين يقرب من سبعمائة نسمة، وقد غشي هذه القرية الآمنة ما غشيها من مذبحة شنيعة مريعة قلّ نظيرها في تاريخ المذابح البشرية، ولقد كان هذا الحدث الرعيب في شهر تشرين أول من عام ١٩٤٨، وأذكر أنا بنفسي إذ ذاك إذ كنت من الخارجين المهاجرين من بلدتنا ومسقط رأسنا الفالوجة، ونحن جموع من الناس المستضعفين وجلنا حينئذ من الولدان والشيب والنساء، وكنت في الثالثة عشرة من العمر، فمررنا بقرية الدوايمة يوم جمعة ونحن قاصدون مدينة الخليل حيث الأمن والبعد من عصابات صهيون، وأذكر في ذلك المشهد من يوم الجمعة ونحن نتجمع منتظرين غروب الشمس لنستأنف

السفر إلى الخليل في جنح الظلام استتاراً من أعين العصابات الصهيونية الهمجية المتوحشة.

في ذلك اليوم ـ وكان يوم الجمعة ـ نادى المنادي للصلاة في المسجد حتى إذا اجتمع المصلون لأداء فريضة الجمعة في المسجد، بغتتهم عصابات اليهود بعد أن طوقوا المسجد تطويقاً، فانهالوا على المصلين يقذفونهم من كل جانب بأسلحتهم الرشاشة والقنابل اليدوية، مما أودى بالمصلين إلى القتل في لحظات، ولم ينج منهم إلا قلة تمكنت من الفرار.

أما بقية الناس من أهل البلدة الذين كانوا خارج المسجد أو في بيوتهم فقد هالهم صوت الرصاص المدوي، فهرعوا هاربين حتى أووا إلى مغارة كبيرة عميقة وكان عددهم يتجاوز الثلاثمائة فيما أتذكر، حتى إذا أبصرهم اليهود وعرفوا مكمنهم في المغارة ساروا نحوهم مسرعين مباغتين ثم دخلوا عليهم فأمطروهم بحمم من نار الصهيونية الظالمة الغاشمة فقتلوهم عن بكرة أبيهم ولم ينج منهم أحد، ويشهد على مقتلهم وما حاق بهم من طغيان فظيع هذا القبر الجماعي المشهود وما حواه من رفات الجماجم والضلوع النخرة.

إنه القبر الجماعي المفظع الذي يظل على مر الزمن يقرع الأذهان والقلوب ويخالب المشاعر والأخيلة المذهولة فلا يبرحها أو يغيب عنها.

إنه الحدث المجلجل المركوم في أطواء الذاكرة المبهوتة، بذكراه الكئيبة المريرة وهي تراود الأجيال من المسلمين جيلاً بعد جيل، كلما سمع به أو قرأ عنه في بطون الكتب أو رآه رأي العين.

وأذكر بنفسي هذا المشهد المرعب في باكورة الصغر من العمر وأنا أسمع الصيحات والصرخات من النساء المذعورات المولولات ومن الذين نجوا من جحيم صهيون وهم هاربون وجلون لا يلوي أحد منهم على شيء من هول ما سمع أو شاهد.

ولست أجد من نظير شبيه بمثل هذا المشهد الفظيع إلا حال الناس يوم الفزع الأكبر يوم القيامة، حيث الهلع والفزع والجزع وكل ظواهر الرعب

الفظيع، الرعب الذي طغى على القلوب والأعصاب والأبدان فباتت تنتظر الموت لحظة بعد لحظة إلى أن كتب الله السلامة والنجاة لمن نجا في ذلك اليوم الحافل المشهود، يوم الجمعة من الشهر العاشر لعام ١٩٤٨، اليوم العصيب الرهيب الذي ينقر بطنينه شغاف القلب الحافل بركام الأفزاع وذكريات الماضي المذهل على أفاعيل الشذاذ المجرمين من عصابات صهيون.

ويضاف إلى ذلك ما تلطخت به أيدي يهود من دماء الأبرياء خلال مذابح أخرى في كل من قبية ونحالين واللد والرملة وكفر قاسم.

الهدنة الثانية:

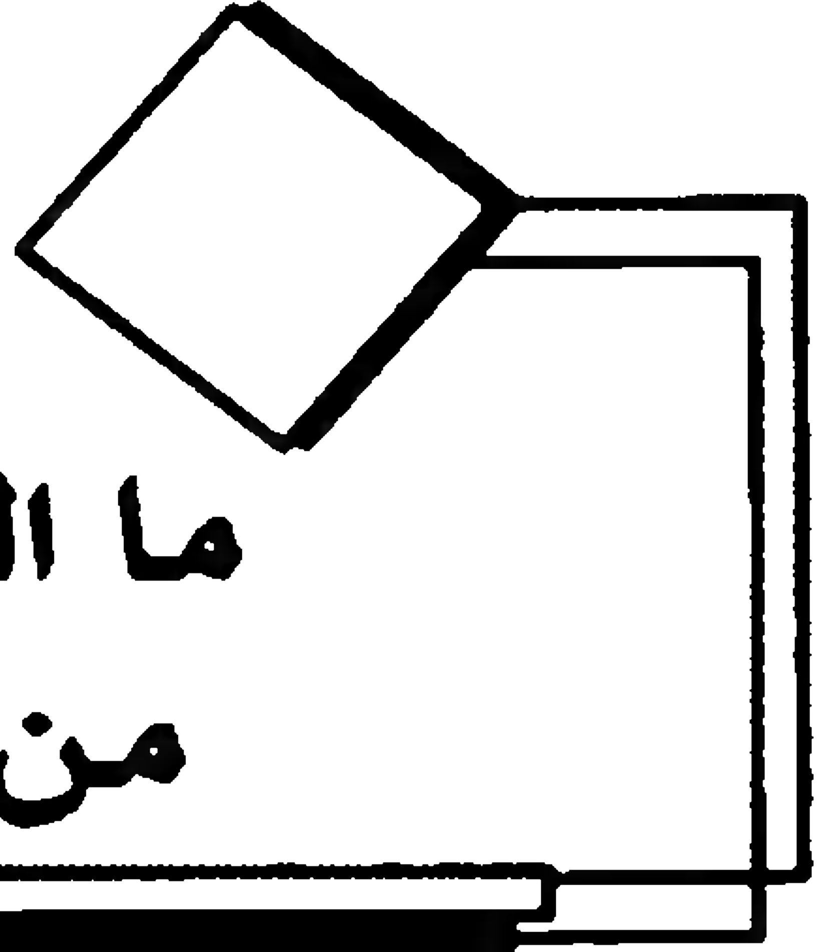
اتفق المتحاربون على الهدنة الثانية ولم يمضِ على انتهاء الهدنة الأولى غير بضعة أسابيع، وذلك بضغط من الدول الاستعمارية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة، فلم يجد القادة العرب بدأ من الرضوخ والإذعان لإيقاف القتال وعقد الهدنة بينهم وبين اليهود بعد أن اضطربت عصابات هؤلاء أمام الضربات الكثيفة المتلاحقة التي أوقعها بهم الجيش المصري وهو يقصف مستعمراتهم ومواقعهم بقنابل المدفعية والطائرات.

وخلال توقف القتال توالت شحنات الأسلحة من الغرب والشرق على اليهود لتدعيمهم، ومن أكبر الشحنات والإمدادات التي مكنت اليهود من المواجهة والثبات، تلك الصفقة الكبيرة من الأسلحة التشيكية. فلقد كانت تشيكوسلوفاكيا مورداً أساسياً وفعالاً للأسلحة على اختلاف أنواعها لحساب اليهود في فلسطين. وخلال أيام الهدنة، قتلت عصابات يهود الوسيط الدولي السويدي وهو الكونت برنادوت، وسبب مقتله أنه كان من تخطيطه إعطاء النقب للعرب وهو ما رفضه اليهود، وقيل: كان ينوي إعطاء القدس للعرب مما أغضب اليهود فأطلقوا عليه الرصاص فخرّ صريعاً، بالرغم من مواقفه المعبرة عن وجهة نظر الدول الغربية، الممالئة لليهود.

وفي المراحل الأخيرة من الحرب بين العرب واليهود، والتي كانت

تبدو فيها علائم التقهقر والنكوص والإياس على الجيوش العربية، مع اشتداد شوكة العصابات اليهودية بفعل الأعداد الكاثرة من المجندين والمتطوعين القادمين من الخارج إلى فلسطين، وبفعل الدعم الهائل والإمداد الكبير الذي توالى تباعاً من الدول الاستعمارية، ومن جملة ذلك سلاح الطيران الذي كان له الدور الحاسم في المعركة وما آلت إليه من سوء المصير، وكل ذلك كان مدعاة للتخاذل والإحباط الذي غشي الجيوش العربية، فلم تلبث أن تتراجع وتنسحب من أرض المعركة تاركة وراءها فلسطين فريسة سهلة لالتهام اليهود الذين بادروا بالإعلان عن أول جيش رسمي للدولة الجديدة التي أطلقوا عليها اسم «إسرائيل»، ثم أدت عساكرهم يمين الولاء لهذه الدولة الجديدة التي أسست على أنقاض فلسطين، هذا الاسم الأزلي المجيد الذي تضمخت بشذاه بطون الكتب القديمة من قبل خمسة آلاف سنة، فما اجترأت على محو هذا الاسم الأبدي الخالد (فلسطين) أمة من الأمم على مر الدهور والأزمان، ثم اجترأت على هذه الفعلة المقبوحة النكراء عصابات من شذاذ البشرية والآفاق من أشرار صهيون الذين اجترأوا في غاية الوقاحة والتلصص على إزالة هذا الاسم من عالم الأوراق والصحف ليستعيضوا عنه باسم إسرائيل، ظلماً ومخادعة وزوراً.





الفصل الثامن

ما الذي يبتغيه الاستعمار من قيام دولة إسرائيل؟

ثمة أسباب أو مقاصد يرمي إليها المستعمرون الغربيون من إنشاء الدولة العبرية في فلسطين على حساب أهلها الحقيقيين المسلمين، بيد أننا نقتصر على ذكر مقصدين اثنين نعرض لتبيانهما حتى يعلم الناس فظاعة الحقد الذي تنطوي عليه قلوب المتآمرين المجرمين.

المقصد الأول: وهو الأهم والأجدر بالتدبر وبالغ الاهتمام، وذلكم هو الحيلولة دون ظهور الإسلام من جديد، الإسلام بهيمنته وعزه وسلطانه المهيب.

والمستعمرون أولو خبرات طويلة وتجارب كبريات أيقنوا من خلالها أن الإسلام إذا ظهر وشاع وترعرع وكان له المجد والسلطان، فإنهم حينئذ لا بقاء لهم في ديار المسلمين بالمرة، بل إن صولتهم وهيلمانهم سيؤولان إلى الاضطراب والترنُّح والزعزعة.

إن هؤلاء المستعمرين المتعصبين الحاقدين يعلمون من خلال دارسيهم ومستشرقيهم وباحثيهم أن الإسلام نذير خطر شديد يتهددهم في كل المجالات والمناحي، ذلك أن الإسلام يثير في نفس المسلم الشعور بالاستعلاء وينفر من التبعية للآخرين أيما تنفير، فإن من أرسخ المركبات النفسية لدى الإنسان المسلم شعور غامر بالعزة والأنفة والاستعلاء، وهو ما

تزجي به الآية الكريمة من الكتاب الحكيم في هذا الصدد ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨].

وبذلك فإن المسلم يأبى على نفسه المذلة أو الإحساس بالنقص أو التبعية أو الدونية، بل يأبى أن يعطي الدنية في شرفه وكرامته ومروءته، وذلك الذي رسخه فيه الإسلام لينشأ كريماً عزيزاً، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ في هذا الصدد: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**».

وعلى هذا فإن المسلمين أبعد الخليقة عن الاندارج تحت سطوة الآخرين، ليستظلوا بظلهم أو يرقدوا مبهوتين خائرين في كنف الأجانب الغرباء، إن ذلكم عار ونقيصة في حق المسلمين الذين يرفضون الاستسلام للطغيان والضيم، ويأنفون من العيش الخسيس في أجواء المذلة والاستعباد.

والأصل في ذلك أن الإسلام دين متميز ومستقل تمام الاستقلال عن غيره من المبادىء والملل والفلسفات، وذلك بما يتجلى في هذا الدين من ظواهر الاستقلالية والتميز، كظواهر الاعتدال والوسطية والتوازن والشمول والاستعلاء، إلى غير ذلك من السمات والعلائم، التي تجعل من الإسلام ديناً متكاملاً وسطاً قائماً بذاته، فهو بذلك يختلف عن غيره من الأديان والعقائد والنظم باستثناء عقيدة التوحيد وكثير من القيم الأخلاقية التي بنيت عليها رسالات السماء الأخرى.

والمقصود من هذا القول أن الإسلام باستقلاليته وتميزه وكماله لا يحتمل أيما قدر، من الاندراج أو الانطواء في إطار غيره من الأديان أو الملل أو الالتواء في كنفه، بل الحقيقة عكس ذلك وهي أن الإسلام قد جيء به للبشرية كافة، وهو بما يتجلى فيه، من روائع الكمال والصلاح وكل صور الخير والبر والفضيلة قمين أن يكون هو المهيمن على الديانات والرسالات والعقائد كافة.

من أجل ذلك فإن المستعمرين وهم يعون هذه الحقيقة، إنما يخالطهم اليأس الكامل من احتواء هذا الدين المميز أو الالتفاف عليه بالتشويه أو

التبديد أو المصالحة، فلا مناص والحالة هذه من التصدي لهذا الدين بكل أساليب القمع أو الإبادة أو الاستئصال، وبناء دولة عاتية باغية حاقدة كدولة إسرائيل لتكون سبباً مباشراً في تحقيق هذه الأغراض التي يخطط لها المستعمرون.

ثم إن المستعمرين يعلمون علم اليقين أهمية فريضة الجهاد في تصور المسلمين، يعلمون من خلال تنقيبهم عن مفاهيم الإسلام، وعن حقائقه ومعانيه لكي يحذروه ـ فيحتاطوا لأنفسهم منه ـ إن الإسلام يحرض المسلمين على الجهاد وعلى قتال المعتدين الذين يطأون بأقدامهم ديارهم، فمثل هذه الحقيقة يدركها المستعمرون ويعلمون أنه لا منجاة لشعوبهم ومصالحهم إلا بالتصدي لأمة الإسلام بقوة السلاح، وليس أنجع لهم من أجل تحقيق هذه الغاية مثل دولة ظالمة غاشمة قوية موالية لهم، كدولة صهيون تأخذ على عاتقها بضرب معاقل الإسلام، كلما ظهر أو استعلى، أو بتدمير كل بادرة من بوادر القوة التي تتحقق للعرب والمسلمين في هذه البلاد، وأصدق دليل على هذه الحقيقة ما قامت به دولة العدوان والاغتصاب (إسرائيل)، من ضرب للمفاعل النووي العراقي عام ١٩٧٩، وذلكم الطغيان الصارخ والعدوان المستهتر اللئيم، تقوم به دولة قامت على الاغتصاب والإرهاب والعهر وكل أساليب الوقاحة والباطل مما يستنكف عن فعله ميكافيلي في نظريته المعروفة.

وخلاصة الأمر في هذا المقصد أن هذه الدولة قد أقامها المستعمرون المجرمون، لتكون أشبه بمخلب قط إن لم تكن أنياب كلب ذي سعار ينهش بأنيابه المسمومة كل من يحرِّشه به صاحبه.

ولقد تحقق ذلك فعلاً، فها هي دولة العدوان التي أقيمت على أنقاض فلسطين تتصدى لكل حركة وطنية أو دينية مخلصة جادّة، تعتمد وسيلة الجهاد طريقاً وأسلوباً لتبادرها التدمير أو الإضعاف، إلا أن تكون حركة واهية أو سلبية أو اجتماعية غير ذات بال.

فما من انطلاقة سياسية إسلامية تخطط لمناهضة الاستعمار، فتدعو

بذلك لمقاومة المستعمرين بكل الأسباب والوسائل، إلا تكالبت عليها الدول الاستعمارية من أجل القضاء عليها، وبادرت في الحال لإثارة الدولة الصهيونية كيما تتصدى للخطر الداهم في هذه البلاد، إن ذلكم لهو هدف فعال ومؤثر قصده الاستعماريون يوم بنوا هذه الدولة الغاشمة، لتقف سداً في وجه كل امتداد للإسلام، هذا الدين الذي لا يرضى الدنية للمسلمين وإنما يحرّضهم على النهوض في غيرة وحماسة واستعلاء لقتال المحتلين المعتدين، سواء كانوا من الصليبيين أو الصهيونيين أو غيرهم من أولي الأغراض الاستعمارية، وهذه حقيقة يعلمها المستعمرون وهم متحققون منها، وبذلك تمالأوا على بناء الكيان الصهيوني، ثم أمدوه بكل أسباب القوة ليستطيع القيام بوظيفته المرصودة لهذا الغرض، وهو إطفاء كل جذوة إسلامية تلوح في أفق هذه البلاد.

المقصد الثاني: عقدة الحقد الصليبي، وهذه عقدة وطيدة حقاً قد ترسخت في أطواء النفس، لدى الشعوب الغربية التي تصطنع لنفسها ديانة المسيحية والله يشهد، ثم أولو العلم المقسطون من الناس يشهدون أن هؤلاء ما هم مسيحيون حقاً، ذلك أن المسيح النبي الكريم الطهور مبرأ كل البراءة من هؤلاء الأدعياء الموغلين في دركات الرجس والعهر والرذيلة، أما المسيح عليه الصلاة والسلام فهو مثال للقداسة والبركة والبر والطهر، إنه النبي الزكي النقي بخلقه الفذ وروحه الشفيفة العاطرة يبرأ من هؤلاء الظالمين الآثمين، الذين ملأوا الأرض جوراً وضلالاً وشروراً، فأنى لهم أن يكونوا مسيحيين حقاً؟! فأجدر أن يتسمى هؤلاء بالصليبيين نسبة للصليب الذي زعموه وابتدعوه عن النبي الطهور المبارك، الذي رفعه الله إلى جنابه الميمون بعد أن كتب له النجاة من كيد اليهود.

إن هؤلاء الصليبيين تستقر في الصميم من نفوسهم عقدة الكراهية الشديدة للإسلام والمسلمين منذ زمن قديم، وكانت بداية ذلك إبان هزيمة الدولة البيزنطية النصرانية وانحسار هيمنة الروم، عقب اندحارهم وتدمير سلطانهم على أيدي المسلمين في كل الجبهات القتالية بين الفئتين، ثم كانت الضربة الحاسمة القاضية لنصارى الروم في معركة اليرموك، هذه المعركة

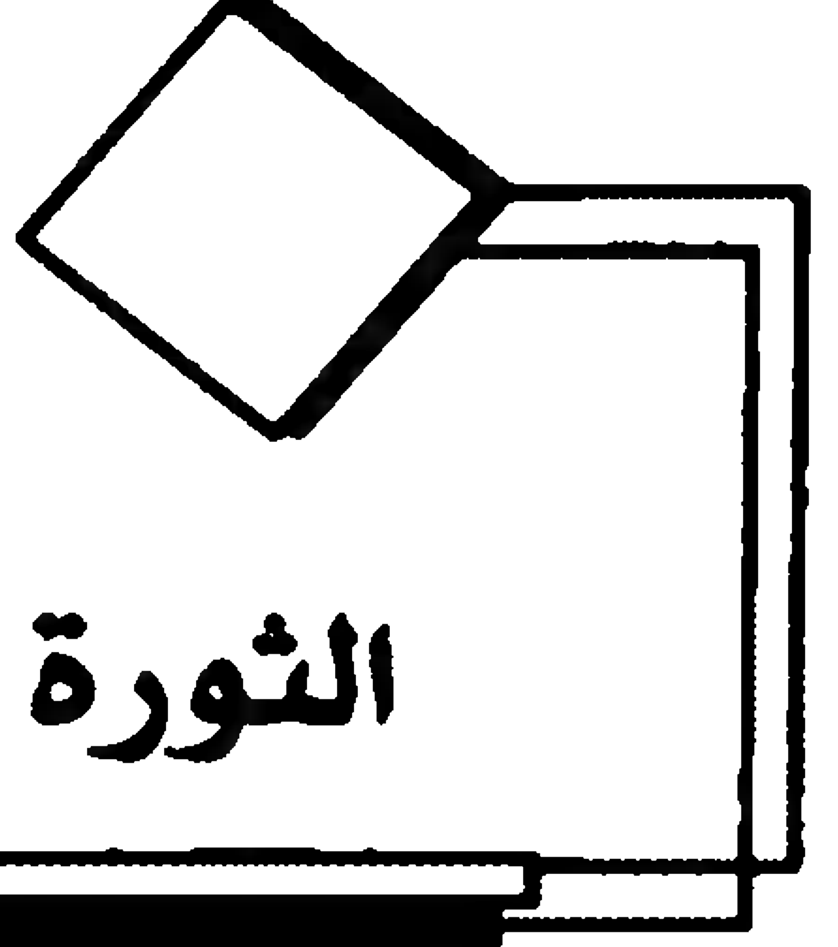
الفاصلة الكبرى التي تمخضت عن انحسار مطلق لسيطرة الروم على البلاد، فتراجعت فلولهم إلى عقر ديارهم بعد أن ولوا مدبرين لتقوم على أنقاض فسادهم وظلمهم دولة التوحيد والرحمة والحق والعدل، دولة الإسلام.

ثم تمر الأيام وتتوالى حتى يقتتل المسلمون والصليبيون في بلاد الشام، وفي فلسطين حيث القدس خصوصاً، فتكون الغلبة الكاملة للقائد المظفر العظيم صلاح الدين الأيوبي، هذا المسلم التقي الغيور الذي قاد المسلمين إلى النصر المبين فتقهقرت فلول الصليبيين، ثم ولوا على أدبارهم مذعورين مقهورين فتحرر بذلك بيت المقدس، بعد أن عاث فيه الصليبيون تخريباً وإفساداً وتلويثاً.

كل هذه الانتصارات الحاسمة، التي حققها المسلمون على حساب الصليبيين المعتدين قد أثارت في نفوس الغربيين شعوراً كثيفاً ومضغوطاً من الكراهية العمياء، والحقد المركوز الذي ترسخت جذوره في طوايا الغربيين النصارى عموماً ليتحول ذلك إلى عقدة نكراء مستقرة، عقدة سوداء مقبوحة استحوذت على النفسية الغربية برمتها فباتت على مر الزمن، تسوّل لهؤلاء شعوباً ودولاً أن يضطهدوا المسلمين وأن يسعوا مبادرين لإضعافهم وإذلالهم، وممالأة كل من يعاديهم، فكانت دولة إسرائيل بالنسبة إليهم ضالة منشودة لإشفاء غليلهم في المسلمين.

فتلكم دولة الشر والإرهاب والاغتصاب ترصد المسلمين في حركاتهم الناشطة النافعة، التي يتحقق بها عزهم وقوتهم وعظيم شأنهم، فلم يبرحوا حتى ينقضوا عليهم ليضعفوهم إضعافاً وليبددوهم كل تبديد، وذلك بالتنسيق والتشاور والتمالؤ بينهم وبين سادتهم الاستعماريين الذين أقاموهم وبنوهم لمثل هذه الأهداف والمقاصد المشتركة.





الفصل التاسع

الثورة المصرية عام ١٩٥٢ للميلاد

بينّا سابقاً ما حلّ بالعرب من هزيمة في حرب ضد عصابات اليهود، في فلسطين عام ١٩٤٨، وما آل إليه ذلك من قيام دولة الاغتصاب المسماة: «إسرائيل» وما أعقبه ذلك من إحساس بالأسى والمهانة لدى العرب - جميعاً - خصوصاً مصر بطاقاتها وقدراتها العظيمة، وهي التي منيت بفادح الخسائر في الأرواح والأموال أكثر من غيرها من الدول العربية وشعوبها.

لقد كان لهذه الهزيمة شديد الصدمة وبالغ الإيلام لدى المفكرين والمثقفين المخلصين من الناس، فلا جرم أن يكون العسكريون في هذا الصدد أشد الناس شعوراً بالمرارة والألم وإحساساً بالجرح والعار، الذي لحق بجنودهم وقواتهم، فكان ذلك حافزاً عظيماً للتخطيط من أجل الخلاص، وللتحرر من الأسباب التي أفضت إلى هذا الواقع المزري، وقد كان العسكريون ومعهم المخلصون من أهل الدراية والتدبر والحرص يعلمون أن المسؤولية، عن كل ما حصل منوطة بالنظام الملكي الهش الذي يمسك فيه بالمقاليد ملك البلاد فاروق، هذا الملك الذي شاعت في البلاد والآفاق أخباره من حيث الترف المغالي والبذخ المستهجن ومن حيث إيغاله في الملذات، الحلال منها والحرام.

ويا ليت هذا الملك المستغرق في الشهوات وضروب اللهو والمجون، مكتفياً بما أحاط به نفسه وأسرته من ظواهر المجون الطاغي والاسترخاء -

للشهوات والابتذال ـ لكنه راح يسلط جنوده وأتباعه لقمع الأحرار وإسكات الأصوات أن تنبس، وكان في ذلك لا يجد غضاضة في التواطؤ مع الإنجليز في مصر لتخويف الناس وصدهم عن التفكير في التحرر ومقاومة الجنود البريطانيين في القنال.

لقد انثنى الملك عن قتال اليهود الذين هزموا جيشه أيما هزيمة، فلم يعبأ بما آلت إليه الهزيمة من شعور بالعار، بقدر ما كان يعبأ بقمع الأحرار في مصر والتصدي لدعاة الحق الذين يريدون لمصر العزة والمنعة والكرامة، فبادر الملك بالقبض على الثائرين الذين ضاقوا ذرعاً بفساد النظام وتواطئه مع الإنجليز، لزجهم في المعتقلات.

ثم بلغت الخيانة ذروتها عقب التخطيط الإجرامي الغادر لاغتيال الإمام حسن البنا عام ١٩٤٩، فما أن تحققت هذه المؤامرة الشنيعة النكراء حتى ارتاح الملك القابع في قصر الكيد والتآمر على الشعب، ثم ارتاح معه بذلك حلفاؤه وأسياده الاستعماريون الإنجليز، وغيرهم من دهاقنة الشر في العالم، الذين لا يفترون عن التخطيط في الظلام في كل آنٍ للقضاء على بارقة من بوارق الأمل في ظهور الإسلام، وذلك بإبادة الداعين إلى هذا الدين الشامخ العتيد وقتل أبطاله وأعلامه النوابغ المشاهير.

قيام الثورة:

وذلك في ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، وقد خطط لها فريق من ضباط الثورة بقيادة اللواء محمد نجيب، فقد اختاره الضباط لقيادة الثورة أو الانقلاب لعدة اعتبارات، منها رتبته العسكرية العالية وهي لواء وكانوا هم دونه في ذلك.

ومنها: أنه أكبر الضباط سناً إذ كانوا هم شباباً في الثلاثينيات من سني العمر.

ومنها: إخلاصه للأمة والبلاد، ولما عرفوه فيه من حمية شديدة للوطن، وامتعاضه الشديد من فساد النظام الذي يتربع على سدته ملك شاب

مستغرق في المجون واللهو، فضلاً عما يتجلى في محمد نجيب من ظواهر التدين والخلق الكريم، ولما يربطه بالإخوان المسلمين من روابط متينة من المودة والتقدير، والإخوان المسلمون في ذلك كانوا أشد الناس تدعيماً للثورة ضد هذا النظام الفاسد وعلى رأسه الملك الأثيم المتواطىء.

كان الإخوان المسلمون خير معوان مباشر وفعال لتأييد الثورة، وذلك بما لديهم من قدرات وخبرات وكفاءات في الرجال من عسكريين وإعلاميين ومفكرين ودعاة.

أما ضباط الثورة الذين قاموا بالانقلاب للإطاحة بنظام الملك وإبداله بالنظام الجمهوري، فهم:

١ ـ اللواء محمد نجيب.

٢ ـ البكباشي جمال عبد الناصر.

٣ ـ القائمقام رشاد مهنا.

٤ ـ اللواء عبد المنعم عبد الرؤوف.

٥ ـ الصاغ عبد الحكيم عامر.

٦ ـ الصاغ صلاح سالم.

٧ ـ البكباشي جمال سالم.

٨ ـ البكباشي زكريا محيي الدين.

٩ ـ البكباشي عبد اللطيف البغدادي

١٠ ـ البكباشي حسين الشافعي.

١١ ـ البكباشي عبد المنعم أمين.

١٢ ـ الصاغ خالد محيي الدين.

١٣ ـ الصاغ حسن إبراهيم.

١٤ ـ القائمقام أنور السادات.

تزاحم ضباط الثورة واصطراعهم على المناصب:

هؤلاء العسكريون الذين أقاموا انقلابهم ضد الملك كانوا جلهم من الشباب الأغرار، الذين لا يسعفهم علم ولا خبرة ولا ثقافة فضلاً عن تجرد أكثرهم من الطابع الديني، هذا الطابع الضابط الرادع، الذي يحول بين المرء والجموح في الأهواء والشهوات، أو يحفزه لفعل الخيرات والمبرات والتحلي بخصال الخلق الحميد، ما بين مروءة وإيثار ووفاء وحياء ورحمة وزهد واستعلاء على السفاسف والموبقات.

إن هؤلاء الضباط في أكثرهم ما كانوا يعبأون بقيم دينية أو خلقية، ولا يشدهم إلى شعائر الإسلام وقيمه وتعاليمه أيما التزام أو اهتمام، والمرء إذا لم يضبطه زمام وثيق مكين من عقيدة الإسلام الراسخ، فلا غرابة بعد ذلك أن يجنح للهوى والذات أو يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال تبعاً للمصلحة الذاتية التي ينشغل بها ذهنه على الدوام.

ومن هنا انفلت هؤلاء الضباط الأغرار، الذين تتراوح أعمارهم في الغالب بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، فراحوا ينشدون، وينقبون عن مصالح خاصة لهم وهي تحصيل المال وبلوغ المنصب.

لقد تزاحم هؤلاء في اصطراع شديد محموم، لكسب المال بكل الأساليب المحرمة المتاحة كالرشي والسرقات، ويشهد على ذلك تزاحمهم وتسابقهم في سرقة المدخرات، التي خلفها الملك المخلوع في قصوره، إلى غير ذلك من أساليب السلب والنهب والابتزاز والسرقة.

أما بلوغ المناصب على اختلافها، فكان ذلك غاية قصوى يبتغيها الضباط إرضاء لأهوائهم المتعطشة لكل ألوان الشهوات، ويأتي في قمة ذلك حب الشهرة والظهور.

محمد نجيب وعبد الناصر:

من أشد المنكرات والمآثم عتواً وفظاعة أن تجنح أقلام كثير من الكاتبين والباحثين لتزييف التاريخ وذلك بتشويهه أو تدوينه على غير حقيقته

الصادقة بل بتزويره وتلفيقه، كيما يجيء أخلاطاً من الأكاذيب والافتراءات، فيتّهم الأبرياء، ويُصَدَّق الكاذبون والخائنون والدجاجلة، وذلك كله إنما ينعكس على المجتمع كله إذ يبيت تائه الذهن والقناعة مشوه الأفكار والتصورات والمعلومات.

أما فيما يتعلق بالثورة المصرية عام ١٩٥٢م، فمما لا شك فيه أن رأسها العظيم وقائدها إلى النهاية المظفرة هو اللواء محمد نجيب، وما بقية الضباط الآخرين إلا أفراد من حوله قد ائتمروا بأمره فخاض بهم لجاجة المخاطر بكل أهوالها واحتمالاتها المخيفة.

إن هذه الحقيقة واضحة وضوح القمر الساطع، ولا ينكرها إلا جحود كذوبٍ مكابر، حقيقة شهد لها المنصفون من عسكريين وإعلاميين وسياسيين ومجاهدين، أولئك جميعاً متفقون على أن بطل الثورة الأول لهو هذا الرجل المتواضع، وهو بفرط تواضعه، وجنوحه الكبير للزهد في الظهور والشهرة، طمست حقيقة أمره وأفل صيته أفولاً، ومحيت من الأذهان والذاكرات ومن بطون الكتب حقيقة شأنه وما له من دور بارز وعظيم في نجاح الثورة.

لقد أسهم في طمس معالم هذا الرجل وستر أخباره والغض من شأنه، خصيمه الألد جمال عبد الناصر، فقد كان هذا على النقيض الكامل من محمد نجيب، وذلك من حيث الطبع والخليقة، فقد كان اللواء نجيب شديد التواضع، شديد الزهد في شهوة الظهور وحب الشهرة، عظيم الوقار واللين وسلامة السريرة وطيبتها، بخلاف نديده عبد الناصر، إذ كان عظيم الاغترار، شديد الإفراط في حب الظهور والشهرة، فهو بذلك متيم بالغ التتيم بتقلد المناصب، وإذا كان المنصب يأتي في ذروة المراكز والدرجات السياسية كافة، وذلك في التربع على سدة العرش الجمهوري من هذه البلاد، التي يستميت فيه طلاب الوجاهات والمعالي ليظلوا متلبسين في مراكزهم الرفيعة - مدى الحياة - إذا كان الأمر كذلك فلا جرم أن يستميت رجل كجمال عبد الناصر فيبذل قصارى الجهد من المجازفة والتحدي كي يبلغ غايته المنشودة في العلو والظهور، وامتلاك الأموال الطائلة غير المشروعة، وقد

تحقق له ذلك فعلاً، فقد بلغ حسابه من العملة الصعبة عشرات الملايين من الجنيهات الإسترلينية في بنوك سويسرا، وهذه الحقيقة صرح بها بعض رؤساء البنوك السويسرية.

وفي فترة الحماسة العربية قبيل حرب ١٩٦٧، تقدم كثير من الأثرياء العرب بالهبات والمساعدات للجهود الحربية ومن جملتهم الملك سعود، الذي كتب في ٢٨ مايو عام ١٩٦٧، شيكين أحدهما بمبلغ ثلاثة ملايين من الدولارات الأمريكية باسم جمال عبد الناصر، والثاني بمبلغ مليونين باسم صلاح نصر، ثم حُوّل الشيكان لحساب جمال عبد الناصر، وصدّق على التوقيع بالتحويل رئيس مجلس إدارة بنك مصر السيد أحمد فؤاد، ثم خلال الهزيمة في ٧ يونيو، أصدر عبد الناصر قراراً جمهورياً رقم ١٣٥٠ لعام ١٩٦٧، بالإذن لوزير الاقتصاد المصري نيابة عن حكومة مصر باقتراض عشرة ملايين دولار من الملك سعود، على أن يقوم البنك المركزي المصري برد هذه السلفة، وقد أصدر الملك سعود شيكاً بهذا المبلغ باسم جمال عبد الناصر ووقّع عليه هذا بالاستلام، وبعد أن تمّ تحصيله أودع في حساب جمال عبد الناصر في بنك باريس، وعقب وفاة الملك سعود، طالب ورثته بهذا الدين، فقابل مندوب ورثة الملك وكيل وزارة الاقتصاد لشؤون النقد في مصر من أجل هذا الغرض، فقال له وكيل وزارة الاقتصاد: إن هذا المبلغ دين على تركة الرئيس جمال عبد الناصر، لكن مندوب ورثة الملك أحضر القرار رقم ١٣٥٠، الذي يفيد التزام الحكومة المصرية بالسداد، وقد قامت الحكومة بسداد الدين فعلاً، وذلك في حياة عبد الناصر في ١٢ فبراير ١٩٧٠[(١)].

وبناء على هذه النفسية التي كان عبد الناصر ينطوي عليها، فقد جهد بالغ الجهد لإزاحة محمد نجيب وإبعاده من رئاسة الدولة، ليحل هو محله وحينئذٍ تسكن نفسه وترضى، وفي هذا السلوك ما يكشف عن طبيعة هذا الرجل في الغدر والمكر والتحلل من المواثيق وأواصر الصداقة.

---

(١) انظر موسوعة التاريخ الإسلامي د. أحمد شلبي ج٩ ص١٦٥.

لقد بذل عبد الناصر بالغ جهده في التحريض على زميله في الجندية والسلاح، فاستجمع من حوله ضباط الثورة وغيرهم من العساكر على مختلف الرتب، لتأليبهم على زعيم الثورة محمد نجيب، هذا الرجل الحيي الكريم الذي يكن في طبيعته التواضع والرفق والوفاء، بعيداً عن مساءات الخلق الذميم مما تلبست به شخصية جمال عبد الناصر حيث الحقد والخداع والجحود ونقض العهود.

استقالة محمد نجيب واستلام عبد الناصر سدّة الحكم:

بهذا الطبع المماكر المخادع، استطاع جمال عبد الناصر أن يضيق الخناق على محمد نجيب بمختلف الأساليب من الإهانة والكيد والتنغيص، مما اضطر هذا الرجل الحيي الكريم لتقديم استقالته لمجلس قيادة الثورة، وذلك في ٢٥ فبراير من عام ١٩٥٤، فبادر المجلس لقبول الاستقالة بتحريض من جمال عبد الناصر، إذ كانت هذه خطوة أساسية وكبرى في التمهيد لجمال من أجل أن يقفز قفزته المريبة في تقلد قيادة البلاد، بعد أن سرق الثورة من قائدها الحقيقي الأول.

ولما شاع خبر الاستقالة، هبّت جماهير المثقفين وطلبة الجامعات في جموعهم الغفيرة وهي تجوب الشوارع معلنة استنكارها الشديد لما حصل، ومطالبة برجوع نجيب إلى قيادة البلاد، لقد خرجت حشود الشباب في عشرات الألوف من المحتجين الهاتفين، وهم يندّدون بجمال عبد الناصر ويعلنون إخلاصهم وتأييدهم لمحمد نجيب، وكان يقف على رأس المتظاهرين العالم الشهيد عبد القادر عودة، الذي صعد إلى الشرفة من قصر عابدين ليخاطب محمد نجيب باسم الجماهير الكثيفة التي جاءت تؤيده تأييداً، فأسرَّ عبد الناصر هذه في نفسه وأخفى في قلبه من الحقد الشديد على العالم الكبير عبد القادر عودة، حتى إذا تمكن جمال وأمسك بمقاليد الأمور في الدولة أمر زبانيته أن يسوقوا عبد القادر عودة إلى حبل المشنقة عام ١٩٥٤م، وقد قدم لذلك بحادث مشؤوم ومفتعل تتصبب من أطرافه وملابساته ومراحله كل دلائل الكذب والزور والخداع والغدر، وذلك في

حادث المنشية، الذي زُعم فيه أن محمود عبد اللطيف من شباب الإخوان المسلمين قد أطلق عليه النار عبر رصاصات ثمان من مسدس من مسافة ثلاثمائة متر، وتلكم أكذوبة، مختلقة ومصطنعة وملفقة لا يصدقها من كان به مِسْكة عقل، والمراد من ذلك كله أن تلفق التهمة للإخوان في ذلك وأن يزج اسم محمد نجيب في العملية ليمكن التخلص منه نهائياً، وقد تحقق ذلك فعلاً، فقد أسدل الستار على الرئيس محمد نجيب، وأجبر على الإقامة في بيته معزولاً، وبذلك تحققت الفرصة المنشودة لجمال ليكون رئيساً للبلاد على أنقاض الرئيس نجيب، أما الإخوان المتهمون بالتآمر على حياة عبد الناصر، فقد شكلت لهم محكمة برئاسة الضابط الأحمق الغاشم جمال سالم، الذي قضى بالإعدام على ستة من خيرة الرجال الداعين إلى الله وفي طليعتهم الأستاذ العالم عبد القادر عودة، ونفذ فيهم حكم الإعدام بعد أن أقره جمال عبد الناصر[1].

ثم أمر جمال عبد الناصر زبانيته ورجال مخابراته أن يتعقبوا آثار الإخوان، فأوقعوا فيهم ألوان القمع والتعذيب والتنكيل وهتك الأعراض مما يندى له الجبين، فضلاً عن الآلاف من الشباب الذين زجوا في أقبية السجون والزنازين حيث الإهانة والحرمان والجوع والتنكيل.

ثم عاود السيد جمال عبد الناصر الكرة في قتل الإخوان، والتنكيل بهم وزجهم في غياهب المعتقلات والزنازين، ليذوقوا العذاب الأليم وليساموا من ألوان الفظاعة والتنكيل والهتك ما تقشعر من بشاعته الأبدان.

وفي هذه الغمرة الصاخبة من إعلان الحرب على الإخوان المسلمين في مصر، أمر السيد جمال بإعداد المحكمة التي تقضي بالموت على العلامة الفذ، أستاذ الجيل في هذا الزمان ومهندس الصحوة الإسلامية ومعلن النفير على الظلم والباطل والجاهلية في سائر أنحاء العالم، وذلكم هو الشهيد سيد قطب رحمه الله.

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ج٩ ص٣٥٧ ـ ٤٢٣.

عقدت المحكمة المهينة المبتذلة برئاسة الأغر الجهول اللواء محمد فؤاد الديجوي، فقضى بالإعدام على العلامة الفذ سيد قطب، على أن هذا الحكم الظالم كان مرهوناً بتصديق السيد عبد الناصر وإقراره، فما لبث هذا الغاشم الشقي أن صدق الحكم وأقره، فقيد الأستاذ الجليل إلى حبل المشنقة للقاء ربه شهيداً راضياً مرضياً، وذلك في التاسع والعشرين من شهر آب عام ١٩٦٥م، وقد سيق معه للإعدام اثنان آخران وهما: يوسف هواش وعبد الفتاح إسماعيل.

لقد اجترأ الرئيس الخاسر على فعلته المشؤومة هذه ليشفي غليله الحاقد المضطغن في خصومه لأنهم خالفوه الرأي وقالوا له: لا، فأبى وتجبّر واستكبر وراح يكيل للإخوان وعائلاتهم ونسائهم وقراباتهم كل ألوان الويل والثبور وعظائم الأمور، وقد كتبت مؤلفات عديدة في ذلك روى فيها كاتبوها ضروباً في التنكيل وصور الهوان مما شهدوه وأحسوه بأنفسهم داخل السجون.

وبذلك استطاع جمال عبد الناصر أن يبدد صف الإخوان المسلمين في مصر، خلال مدة حكمه فقطعهم ومزقهم شر ممزق، وتعقب قادتهم ودعاتهم في خارج البلاد فجردهم من الجنسية المصرية وهددهم بالقتل والتصفيات الجسدية حتى شردهم في الأرض.

أما الإعلام المصري الهائل حينئذٍ، فقد كرسه جمال عبد الناصر أيما تكريس لتشويه الإخوان ووصفهم بالرجعية، هذه الكلمة المنكودة التي طال إطلاقها والتعبير بها لنعت المتدينين الإسلاميين بأنهم رجعيون، فضلاً عن اتهامهم بالعمالة للاستعمار، والله يشهد أن هؤلاء الإسلاميين أشد الناس غيرة وحماسة للأوطان والمواطنين، وأبعد الخليقة عن كل ظواهر السوء والشر والغدر والخيانة، التي أوغل فيها الجلادون التاعسون من الظلمة الغاشمين من أمثال عبد الحكيم عامر وصلاح سالم وجمال سالم وشمس بدران وصلاح نصر وحمزة بسيوني وزكريا محيي الدين، ونظرائهم من العتاة الذين وَلَغوا في الدماء البريئة الطاهرة فأهريقت ظلماً وعدواناً، ويظل كبيرهم

في ذلك الطاغية عبد الناصر الذي علّمهم البغي والعدوان وكل أساليب الغدر والتنكيل بالمخالفين، وعلّمهم كذلك أن يمالئوا الكافرين ضد المسلمين، كما مالأ جمال عبد الناصر في زمانه اثنين من أكابر الأشقياء والكافرين الذين يكرهون الإسلام والمسلمين، والذين آذوا المسلمين في بلادهم ونكلوا بهم أيما تنكيل، أما أحدهما فهو الهندوسي الوثني عابد البقر جواهر لال نهرو، إذ مالأه عبد الناصر وأيده في كل المجالات الإعلامية، والمحافل الدولية في قضية كشمير التي يرزح شعبها المسلم تحت نير الطغاة الوثنيين الهمج.

وأما الثاني فهو الشيطان الغليظ الخاسر، والملحد الأثيم الظلوم الذي كان يتفنن في تعذيب المسلمين في بلاده وهو جوزيف بروزتيتو حاكم يوغسلافيا في حينه، إذ أيده جمال عبد الناصر في إذلال المسلمين خاصة، حتى إذا ولى بعض المسلمين هاربين من ظلم هذا الطاغية إلى مصر، ردهم جمال راغمين مقهورين إلى بلغراد ليلاقوا مصيرهم من الموت على أيدي الملحدين الشيوعيين حينئذٍ بقيادة المتجبر السفاح تيتو.

وغير ذلك من الأمثلة التي تكشف عن ممالأة عبد الناصر لأصدقائه الكافرين ضد المسلمين.

أما في مجال الفكر والثقافة والتصور، فقد أسهم عبد الناصر إسهاماً جارفاً في تشويه ذلك كله لدى الشعوب العربية، وذلك بما أوتيه هذا الرجل من طاقة إعلامية هائلة من خلال الإذاعة القوية المسموعة، والصحافة الكثيرة المتعددة المبثوثة التي طغت على ما سواها من ضروب الإعلام في الدول الأخرى.

لقد اخترقت هذه الوسائل الإعلامية عقول الناس وتصوراتهم وقناعاتهم، أيما اختراق في عملية فظيعة مقتدرة من غسل الأمخاخ.

وبذلك سيقت الأذهان والقناعات لدى الأمة العربية إلى حيث يريده جمال عبد الناصر، فاستطاع بذلك من ترسيخ المفهوم المجرد للقومية العربية، في تصور الناس على أنقاض العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي، الذي بات خافتاً باهتاً في العقول والنفوس بفعل التشويه الكامل، الذي

مارسه الإعلام الناصري خلال خمسة عشر عاماً مضت على الأمة العربية، وهي تستمع استماع الشاخص الملهوف أو الذاهل المدهوش لما يصدر من عبد الناصر من خطابات وإعلام ومقالات.

وأذكر فيما أتذكر في سني الخمسينات والستينات ـ أن شباب الإسلام الداعين إلى دين الله ـ في تلك الفترة كانوا قلة وكانت تحيط بهم كل ظواهر الغمز والنفور والتحرش ممن حولهم، من الناس الذين طمست على أعينهم الدعاية الناصرية بطابعها العاطفي التهويشي الأرعن، وبطريقتها المقبوحة في التهويل والتهويش والإثارة بعيداً عن الصدق والتثبت والتمحيص، وهو ما تغتر به الدهماء من الناس وهم الأكثرون في المجتمع، أولئك الذين تستنهض عواطفهم وتهيجها خطابات البارعين من أولي اللسان الذرب والكلام المنمق المعسول.

وأذكر فيما أذكر أن التظاهر بالفكرة القومية أو الاشتراكية في تلك الفترة من سلطان عبد الناصر، كان وسام فخار واعتزاز أمام الملأ، الذين ينظرون للقومية والاشتراكية بمنظار التكريم والتعظيم، وذلك بخلاف الذين تبدو على قسماتهم أو سلوكهم خصال الإسلام أو علائم الدعوة إليه فإنهم ما كانوا لينجوا من مساءات الناس لهم أو عدوانهم عليهم بالسوء من الكلام القبيح، كل ذلك بفعل الدعاية الناصرية المضللة الواهمة، التي أغرقت البلاد والعباد في ضباب التجهيل والتضليل والتغرير، إلى أن وقعت الداهية العظمى، وهي الهزيمة الشنيعة النكراء التي حاقت بالأمة العربية في ١٩٦٧/٦/٥.

هزيمة فاضحة مريعة نزلت بأمة العرب، وكانت مصر أكثر الذين أوذوا من حيث الكثرة الهائلة في الخسائر، سواء في الأسلحة التي دمّرت أو تركت على حالها فغنمها اليهود بعد أن لاذ الجنود بالفرار، أو في الأرواح التي أزهقت وقد قدر عددهم بخمسة وثلاثين ألفاً، فضلاً عن الهزيمة النفسية، التي غشيت العرب وخصوصاً مصر بطاقاتها الهائلة من العدة والعتاد.

ويضاف إلى ذلك ما فقدته مصر الغالية من خيرة شبابها في اليمن عام ١٩٦٢م، فقد زج عبد الناصر بجيش مصر للتدخل في اليمن طمعاً في الالتفاف من حول المملكة السعودية فيزداد نفوذه وسلطانه، لكنه بجهالته وفرط غروره أخطأ التقدير، فقاد عساكر مصر إلى التخسير وفادح النكبات، حتى قتل منهم عشرون ألفاً من الرجال خلال خمس سنوات، حتى إذا سقط في عار الهزيمة الفاضحة عام ١٩٦٧، اضطر لسحب جيشه من اليمن بعد أن تكبد من الخسارة المادية والمعنوية والبشرية ما لا يتصور.

هزيمة ١٩٦٧:

وما كان لشيء من ذلك أن يكون لو كان الرجل يتجمل بخصائص القائد المؤمن الحكيم الوقور، فتتجلى فيه مزايا شتى من سمات الحاكم الصالح حيث الصبر والتواضع والأناة والإيثار والمشاورة، لكنه كان على خلاف ذلك كله، إذ كان أنانياً مستكبراً مغروراً شديد النزق والانفعال لا يحتمل التشاور أو التسمع للرأي المخالف، إلا أن يساق المخالفون المعارضون إلى جحيم الزنازين أو بطون المقابر، كل ذلك كان مآله أن سيق العرب إلى هزيمتهم النكراء أمام دولة المسخ الصهيوني عام ١٩٦٧م.

أما أسباب هذه الهزيمة الشنيعة، فقد أسهب الباحثون والكاتبون والمتخصصون في الحديث عن هذه المسألة، فلا مدعاة للتكرار من الحديث في ذلك، وما نُعنى إلا بالتركيز على ظاهرة الغرور المستطير والانتفاش الأحمق المنفوخ، اللذين استحوذا على شخصية جمال، فراح يتيه في الأرض عتواً واستكباراً وهو في ذلك كانت تراوده عقدة الإحساس بالعظمة والكبرياء والاغترار، وهو في نفسه يظن أنه على شيء، لكنه في الحقيقة لا ينطوي إلا على ركام من الباطل اللامع المنفوش حتى إذا نزلت به الضربة خرّ منهاراً لا يلوي على شيء، وانهار به نظام الطغيان والاستبداد والتسلط، الذي بناه خلال خمسة عشر سنة فأسسه على الإرهاب والمخابرات والدكتاتورية وطمس معالم الوعي الإسلامي.

نهاية العبد الخاسر:

وبهذه الهزيمة المذلة أحس عبد الناصر بالانهيار بعد أن أحاطت به خطيئته، وأيقن فداحة الباطل الذي أغرق فيه الأمة والوطن، فلم يدم به العهد طويلاً حتى اشتد به المرض فما لبث أن فارق الحياة عام ١٩٧٠م، بعد أن طغى الاحتلال الصهيوني على البلاد وتسلّط بجبروته على شطر آخر من أرض المسلمين، في سيناء وغزة والضفة الغربية لنهر الأردن من فلسطين، ثم المرتفعات السورية، فأضيف هذا الاغتصاب إلى الاغتصاب الأكبر السابق لفلسطين عام ١٩٤٨م.

العودة للعمليات الشبابية:

لقد عانى المسلمون في الأرض المحتلة الجديدة مختلف الشدائد، من القمع والإذلال والاعتقال وهدم البيوت وابتلاع الأراضي وغير ذلك من صور الإيذاء والمهانة.

فأيقن الناس حينئذٍ أنه لا مناص لهم من التعويل على أنفسهم وعلى سواعد شبابهم الرامية ليقذفوا العدو بما استطاعوا من قوة، وإنما قوتهم حينئذٍ الحجارة، التي أمطر بها الشباب جنود العدو الظالم الغاشم فآذوهم وأرهبوهم وأثخنوا فيهم الجراح.

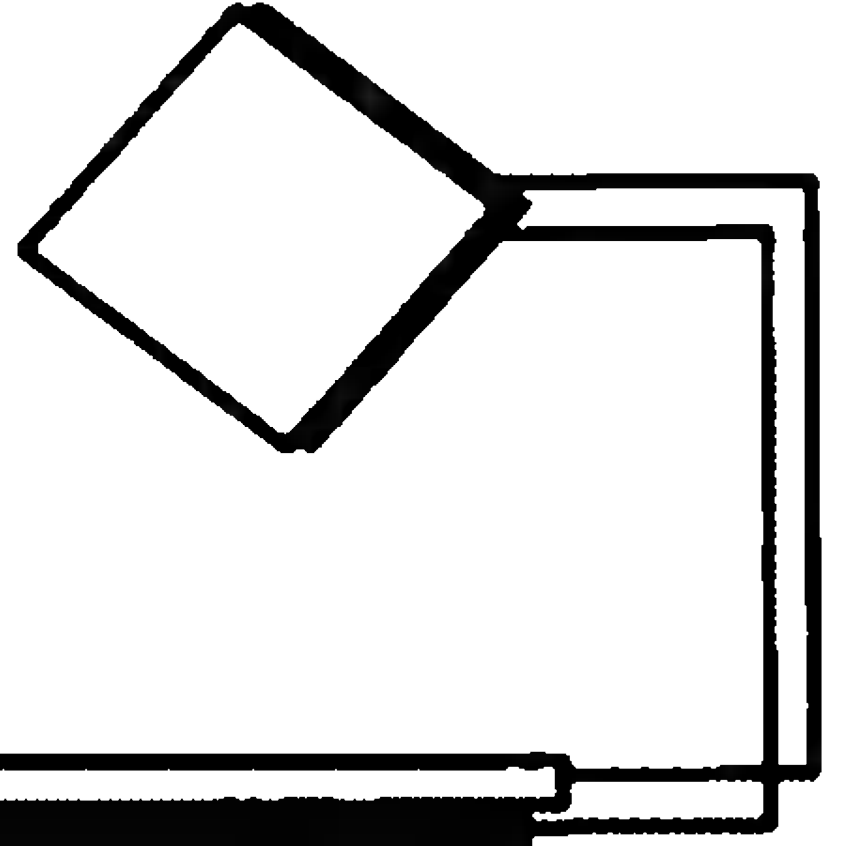
ثم كانت دولة العدوان والطغيان على موعد مع قدر الله جلّ جلاله، إذ بعث عليهم من كتائب الإيمان الصادق والعقيدة الراسخة، كتائب العز الإسلامي من يسومهم الويل والرعب من قذائف التفجير المدوي ما أطار فيهم العقول وأرعبهم ترعيباً.

لقد تعقب شباب حماس جنود العدو الرعاديد، حتى ضربوهم في عقر ديارهم المغتصب فأصلوهم من قنابل التدمير المفخخ ما أذهلهم إذهالاً، فلجوا مطالبين بالتفاوض للوصول إلى حل للقضية لينجوا بشعبهم من مغبة ما دهمهم من أسلوب جديد لم يتوقعوه، ولم يشهدوا له من قبل نظيراً.

الباب التاسع

تاريخ الأندلس


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



توطئة:

ذلك تاريخ حافل ومجيد كان للإسلام والمسلمين في هذه الديار العظيمة من أوروبا، حيث الخيرات والبركات والنعم مما يخلُب العقول ويثير الدهش والعُجاب.

تاريخ رائع ومديد يكشف عن روعة الإسلام وعزه وأمجاده في العالمين، حيث الحضارة الزاهرة العامرة بكل معالم الخير والمجد والسعادة، ما بين علم مستطير ساطع شاع في الآفاق فصخَّ آذاناً صماً، واستشرف قلوباً غُلفاً، وفتح عيوناً عمياً، ونفذ إلى عقول تائهة لدى الشعوب في أوروبا بعد أن ران عليها ظلام الجهل المطبق.

إلى غير ذلك من وجوه الإعمار والإصلاح في مختلف مرافق الحياة.

وفوق ذلك كله هذا النظام الرباني العظيم الوارف، الذي تستظل بأفيائه البشرية لتنجو من عامة المشكلات والأزمات النفسية والاجتماعية والاقتصادية، وغير ذلك من الهموم والويلات والمحن، التي تكابدها المجتمعات السادرة في ظل المادية الثقيلة المنكودة.

تلك هي الأندلس التي استطارت منها كل معالم المعرفة والهداية والفضيلة والخير، التي تتدفق بها حضارة الإسلام العظيم للعالم الأوروبي برمته، طيلة ثمانية قرون استحوذت فيها حضارة الإسلام على تلك البلاد.

ونعرض بعد هذه التقدمة العجلى، للحديث عن تاريخ هذه البلاد

عقب تفيؤها مظلة الإسلام الشامخ الظليل، وذلك باقتضاب وجيز.

أما كلمة الأندلس فهي منسوبة للأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح، لأنه نزلها فنُسبت إليه، وكذلك أخوه سبت بن يافث نزل العدوة المقابلة لها، فنسبت إليه مدينة سبتة، وقيل: سميت بذلك نسبة لأول من سكن بها على قديم الأيام من بعد الطوفان، وهم قوم يعرفون بالأندلش، بالشين، ثم عرب الاسم بالسين.

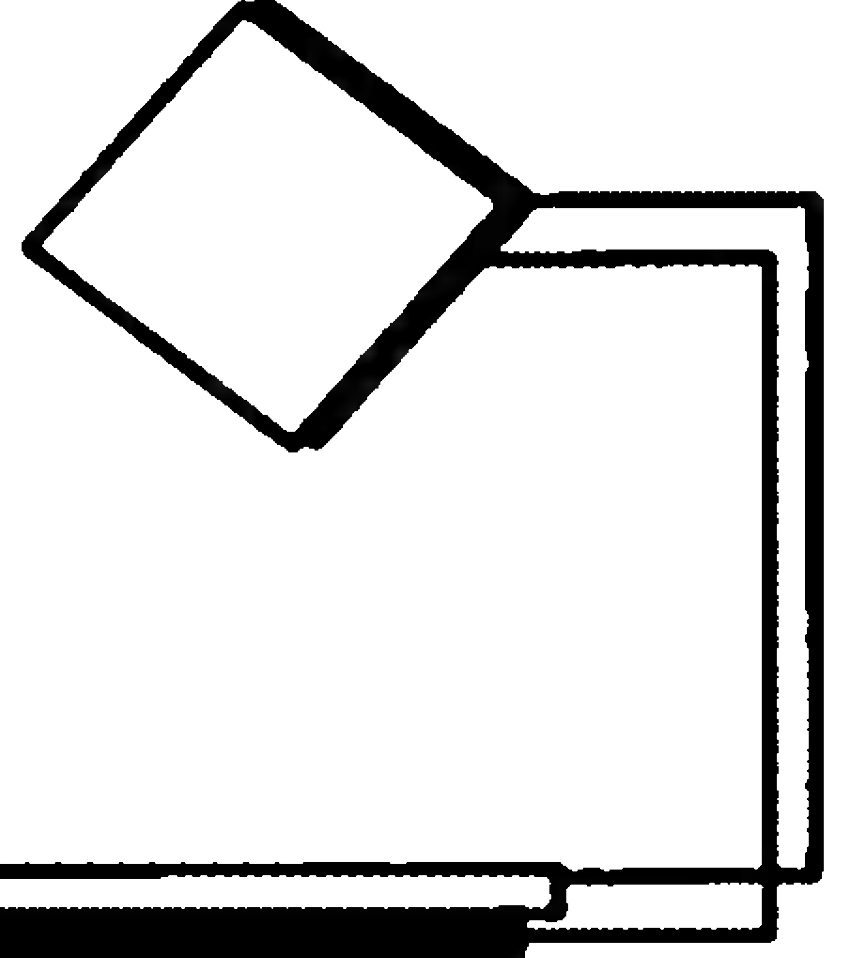
وقد تكلم المؤرخون في روعة مناخها وجمال طبيعتها وطيب أجوائها كلاماً كثيراً.

فقد قال الوزير لسان الدين بن الخطيب رحمه الله: خصّ الله تعالى بلاد الأندلس من الريع وغَدَقَ السقيا، ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه وكثرة المياه، وتبحّر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وفنون الصنائع وشهامة الطباع، ونفوذ الإدراك، وإحكام التمدن والاعتمار، بما حُرِمه الكثير من الأقطار ممن سواها، وقيل في وصفها: الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة.

وقال المسعودي في سعتها ومساحتها: بلاد الأندلس تكون مسيرة عمائرها ومدنها نحو شهرين، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة.

وقال الشيخ أحمد بن محمد الرازي: للأندلس المدن الحصينة والمعاقل المنيعة، والقلاع الحريزة والمصانع الجليلة، ولها البر والبحر، والسهل والوعر، وشكلها مثلث.





الفصل الأول
فتح الأندلس

أول من دخل جزيرة الأندلس من المسلمين على سبيل الجهاد، طريف البربري مولى موسى بن نصير، فقد دخلها هذا فاتحاً بمعونة حاكم سَبْتة وهو يليان النصراني، وذلك لحقده على حاكم الأندلس حينئذٍ وهو لذريق ملك القوط، فقد سار طريف لفتح الجزيرة في مائة فارس وأربعمائة راجل، وقد جاز البحر في أربعة مراكب، في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين للهجرة، ثم انصرف ظافراً غانماً.

وعقب ذلك بعث حاكم المغرب موسى بن نصير مولاه طارق بن زياد، لدخول الأندلس ووجّه معه يليان حاكم سبتة.

وقيل: كان أول أسباب فتح الأندلس أن الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، كان قد ولّى موسى بن نصير مولى عمه عبد العزيز على إفريقية وما خلفها سنة ثمان وثمانين، فخرج هذا في نفر قليل من المتطوعة، فلما بلغ مصر أخرج معه من جندها بعثاً، وفعل مثل ذلك في إفريقية وجعل على مقدمته مولاه طارقاً فلم يزل يقاتل البربر، ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة طنجة وهي قصبة بلادهم وأم مدائنهم فحصرها حتى فتحها وأسلم أهلها.

وقال بعض المؤرخين: كان ملك الأندلس لذريق قد استخلف عليها (الأندلس) شخصاً يقال له: تدمير، وإليه تنسب تدمير الأندلس، فلما نزل طارق من الجبل كتب تدمير إلى لذريق: إنه قد نزل بأرضنا قوم لا ندري

أمن السماء هم أم من الأرض، فلما بلغ لذريق ذلك ـ وكان قد قصد بعض الجهات لغزو له في بعض أعدائه ـ رجع عن مقصده في سبعين ألف فارس ومعه العَجَل تحمل الأموال والمتاع، وهو على سريره بين دابتين، وعليه مظلة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد.

فلما بلغ طارقاً دنوه قام في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حثَّ المسلمين على الجهاد ورغَّبهم فيه وقال: أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة وأنتم لا وَزَر (ملجأ) لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية (لذريق)، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت.

ولما فرغ طارق من تحريض أصحابه على الصبر في قتال لذريق وجنده، طابت نفوسهم وازدادوا حماسة وعزماً على الإقدام وقالوا له: قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه، فاحضر إليه فإننا معك وبين يديك، فركب طارق وأصحابه فباتوا ليلتهم في حرس إلى الصبح، فلما أصبح الفريقان تنظموا في كتائب وتهيأوا للمناجزة، وحمل لذريق وهو على سريره مختالاً مستكبراً مغروراً، وقد حمل على رأسه رواق ديباج يظلله وهو مقبل في غابة من البنود[1] والأعلام، وبين يديه المقاتلة والسلاح، وأقبل طارق في أصحابه عليهم الزرد[2] ومن فوق رؤوسهم العمائم البيض وقد

(١) البنود: جمع بند، وهو العلم الكبير، وهو فارسي معرب، انظر: مختار الصحاح ص٦٥.

(٢) الزرد: بفتحتين، معناه: الدرع، انظر: مختار الصحاح ص٢٧٠.

تقلدوا السيوف، واعتقلوا الرماح، فلما نظر إليهم لذريق حلف وقال: إن هذه الصور هي التي رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا - أي بيت حكمة اليونان - فداخله منهم الرعب، فلما رأى طارق لذريق قال: هذا طاغية القوم، فحمل وحمل أصحابه معه على القوم فانفضّت المقاتلة من بين يدي لذريق، فخلص إليه طارق فضربه بالسيف على رأسه، فقتله على سريره، فلما رأى أصحابه مصرع صاحبهم، اقتحم الجيشان واقتتلا فكتب الله النصر للمسلمين، ولاذ المشركون بالفرار، وقد باؤوا بالهزيمة الساحقة، وتبعهم المسلمون، يفتحون البلاد مدينة مدينة، ومعقلاً معقلاً.

وقيل: لما سمع موسى بن نصير بما حصل من النصرة لطارق بن زياد والذي عبر الجزيرة بأصحابه، حسده ثم لحق به وقال له: يا طارق، إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس، فاستبحه هنيئاً مريئاً، فقال له طارق: أيها الأمير والله لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي - يريد بذلك البحر الشمالي - ولم يزل طارق يفتح وموسى معه حتى بلغ إلى جليّقية وهي ساحل البحر المحيط.

وقيل: إن موسى بن نصير نقم على مولاه طارق لخروجه إلى الأندلس من غير إذنه، ثم ورد عليه كتاب الوليد، الخليفة الأموي يأمره بإطلاقه فأطلقه وخرج معه إلى الشام، وكان فتح الأندلس في أيام الوليد بن عبد الملك، فكان فتحها من أعظم الفتوح، التي استطار صيتها في ظهور الإسلام وشموخ عقيدة التوحيد، وكان الخليفة العظيم الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه مهتماً بهذه البلاد عظيم الاهتمام، وقد حوّلها عن نظر والي إفريقية وجرّد إليها عاملاً من قبله، اختاره هو لها.

ثم اصطلح موسى مع طارق وأظهر الرضا عنه وأقره على مقدمته، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه، وسار موسى خلفه في جيوشه حتى بلغا الثغر الأعلى وافتتحا مدينة سرقسطة، وما حولها، ثم أوغل جيش المسلمين في البلاد، فلا يمر بموضع إلا فتحوه وغنموا من الأموال ما لا يحصى،

وقد ألقى الله الرعب في قلوب المشركين، فكانوا يبادرون إلى الصلح، حتى صفا القطر كله للإسلام وجنده.

ثم مضى طارق بجيش المسلمين إلى إفرنجة ففتحوا وغنموا وأوغلوا في البلاد، وعلوا ظاهرين منتصرين وملكوا مدينتي برشلونة وأربونة، وذلك كله بقيادة المسلم العظيم طارق بن زياد وأميره موسى بن نصير، هذا الرائد المقدام الذي تفرق بين يديه ملوك النصارى جافلين مبهوتين، فاجتمعت الإفرنج إلى ملكها الأعظم قارلة، فقالوا له: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس، حتى أتوا من مغربها، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها، من العدة والعدد بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم، فقال لهم: الرأي عندي أن لا تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره وهم في إقبال أمرهم ولهم نيات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا في الرياسة ويستعين بعضهم ببعض، فحينئذٍ تتمكنون منهم بأيسر أمر.

وقد وقع ما ظنه هؤلاء في المسلمين، إذ وقعت فتن بين الشاميين والبلديين، وبين البربر والعرب، وبين المضرية واليمانية، حتى صار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء!!

إن ذلكم لعار فاضح لا يعدله غير الكبريات من الخطيئات الموبقات(١).

سكان الأندلس من المسلمين:

ولما استقر شأن الإسلام في الأندلس واستتم فتحها، صرف أهل الشام

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني ج١ ص١٨٧ ـ ٢٢٧، وانظر فتوح البلدان للبلاذري ص٢٣٣.

وغيرهم من العرب، هممهم للإقامة بها، فنزل بها أخلاط متعددون مختلفون من سادة العرب ورعاعهم وأورثوها أعقابهم، فكان فيها العدنانيون، ومنهم قريش، وأما بنو هاشم من قريش فكان منهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

أما بنو أمية فمنهم خلفاء الأندلس، وكانوا يعرفون بالقرشيين وقد أخفوا نسبهم إلى أمية أخيراً لما مال عنهم الناس وذكروا أفعالهم في الحسين رضي الله عنه.

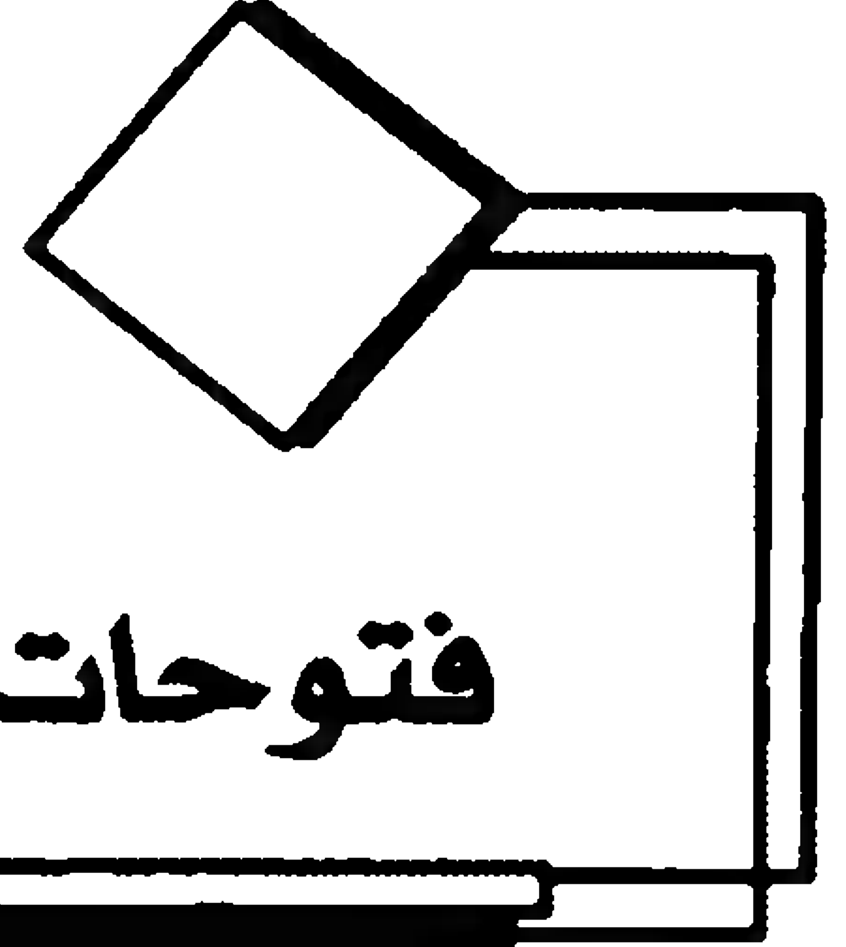
وفي الأندلس من ينسب إلى جُمح وإلى بني عبد الدار، وكثير من قريش معروفون بالفهريين من بني محارب بن فهر، ومنهم عبد الملك بن قَطَن سلطان الأندلس.

وأما القحطانية، فهم من ولد إسماعيل، وقيل: من ولد هود، وهم معروفون باليمانية، وكثيراً ما كان يقع بينهم وبين المضرية وسائر العدنانية الحروب في الأندلس، مثلما كان يقع بينهم في المشرق.

وكان جزء من الأنصار في طليطلة، وهم أكثر القبائل بالأندلس في شرقها ومغربها.

ومن الخزرج بالأندلس أبو بكر عبادة بن عبدالله من ولد سعد بن عبادة صاحب رسول الله ﷺ، وهو المشهور بالموشحات، وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر، سلاطين غرناطة، وقد كان منهم لسان الدين بن الخطيب أحد وزرائهم، وعليهم انقرض ملك الأندلس من المسلمين، واستولى العدو على الجزيرة كلها.





الفصل الثاني

فتوحات طارق بن زياد في الأندلس

أول فتوحات طارق بن زياد هو جبل الفتح، المسمى بجبل طارق، ولما بلغ خبر هذا الفتح ملوك الأندلس نفروا إلى لذريق وكان جباراً طاغية، فاستنفر هذا النصرانية، وقيل: إنه بعث لقتال المسلمين جيشاً بعد جيش، فكانوا عند كل لقاء يهزمون ويقتلون، فقوي المسلمون بذلك وانتشروا في البلاد ظاهرين منتصرين.

وبعد ذلك سار لذريق بنفسه لقتالهم فهزم شر هزيمة، وقيل: ظفر المسلمون برأس لذريق، وقيل: بل مات غريقاً[1].

فتح قرطبة:

بعث طارق مغيثاً وهو مولى عبد الملك بن مروان، إلى قرطبة في سبعمائة فارس ولم يكن معه أي راجل إذ كان الرجال قد ركبوا للجهاد في مختلف البلاد.

ولما بلغ مغيث شقنده، وهي على مقربة من قرطبة بعث الأدلاء لينقبوا في البلاد فيجدوا من عنده خبر، فوجدوا راعي غنم وأتوا به إلى مغيث فسأله عن قرطبة فقال له: انتقل عنها عظماء أهلها ولم يبقَ فيها إلا بطريقها

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج٢ ص٩.

في أربعمائة فارس مع ضعفاء أهلها، ثم سأله عن تحصين سورها فأخبره أنه حصين إلا أن فيه ثغرة فوق باب القنطرة، ووصف لهم الثغرة، حتى إذا جنَّ الليل تحرك مغيث بمن معه وعبروا النهر، وقابلوا السور فتعذّر عليهم التعلق به فرجعوا إلى الراعي ليدلهم على الثغرة فدلهم عليها، ثم صعد رجل من المسلمين إلى ذروتها ثم تكاثر المسلمون بالسور وكسروا الأقفال، فلما بلغ الملك الذي بها دخول المسلمين، خرج هارباً في أصحابه وهم أربعمائة، فدخلوا كنيسة بغربي المدينة وتحصنوا فيها فحاصرهم مغيث، وتمكن منهم، ثم كتب إلى طارق بالفتح، وظل في حصار العلوج (الملوك) في هذه الكنيسة ثلاثة أشهر، ثم بلغ طارقاً أن الملك هرب وحده وهو ينوي التحصن في جبل قرطبة ليلحق به أصحابه فيما بعد فأتبعه مغيث وحده دون أحد من أصحابه، فلما رآه هارباً وهو يتبعه، خرج الملك من طريقه فأتى خندقاً فوثب به الفرس، وسقط في الخندق واندقت عنقه.

وبذلك كان مصير هؤلاء العلوج الهزيمة والسقوط، فمنهم من عقد لنفسه أماناً، ومنهم من هرب إلى أقاصي البلاد مثل حلِّيقية وغيرها، ومنهم من أمسك به مغيث وضرب عنقه.

فتح مالقة وغرناطة:

بعث إليها طارق جيشاً فاستفتحها وجميع أعمال ريّة ولجأ علوجها إلى الجبال الشامخة المنيعة من ريّة.

ثم فتح طارق غرناطة وهي قاعدة البيرة.

فتح مرسية:

عقب فتح غرناطة، تقدم جيش المسلمين إلى تُدمير، وهي مرسية، وقد سميت تدمير باسم صاحبها العلج، وقد قاتل هذا المسلمين قتالاً شديداً ثم انهزم بجيشه، وقد وضع المسلمون فيهم السلاح حتى أفنوهم، فلما رأى تدمير قلة أصحابه أمر النساء أن ينشرن شعورهن وأن يقفن على سور المدينة، ثم قصد تدمير بنفسه إلى جيش المسلمين فاستأمنهم فأمنوه

وعقدوا له الصلح ولأهل بلده، وبذلك فتحت مدينة تدمير صلحاً، وعقب انعقاد الصلح لهم، برز تدمير للمسلمين بنفسه وقال: أنا تدمير صاحب المدينة، ثم أدخلهم البلد فلم يجدوا فيها أحداً يملك حيلة أو اقتداراً، مما أثار ندم المسلمين إذ لم يدخلوا المدينة فاتحين مقاتلين، لكن المسلمين لم يجدوا بداً من الوفاء بعهدهم فأمضوا على ما أعطوه من الأمان، ثم كتبوا بهذا الفتح إلى الأمير طارق، ثم تقدم جيش المسلمين بعد ذلك إلى طليطلة.

فتح طليطلة:

دخل طارق طليطلة فوجدها خالية ليس فيها إلا قلة من اليهود وقد هرب علجها مع أصحابه فتبعهم طارق بعد أن ضم إليه اليهود وخلّى معهم بعض رجاله وأصحابه بطليطلة.

وفي سنة ٩٣ للهجرة، دخل موسى بن نصير الأندلس في رمضان بعد دخول طارق بسنة، ومضى غازياً فيها مفتتحاً لحصونها هذه السنة، وافتتح جميع حصونها وهزم جميع من لقيه من أمرائها فلم يلقَ كيداً من أحد حتى انتهى إلى مدينة من مدن إفرنجة اسمها لوطون، وقد ملك المسلمون ما سواها وما حولها من البلدان والمدائن حتى أقصى برشلونة.

فتح قرمونة:

سار موسى بن نصير مع أدلائه إلى قرمونة إذ لم يكن بالأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن تُنال بحصار أو قتال، فسأل عنها موسى فقيل له: لا تؤخذ إلا باللطف والحيل، وبذلك بعث إليها بعض العلوج وغيرهم من الناس في هيئة المنهزمين، ومعهم السلاح وقد أدخلوهم المدينة، فلما علم موسى بدخولهم بعث إليهم الخيل ليلاً ففتحوا لهم باب المدينة، وهو الباب المعروف بباب قرطبة، فوثبوا على الأحراس فقتلوهم، ثم دخل المسلمون المدينة عنوة.

فتح إشبيلية:

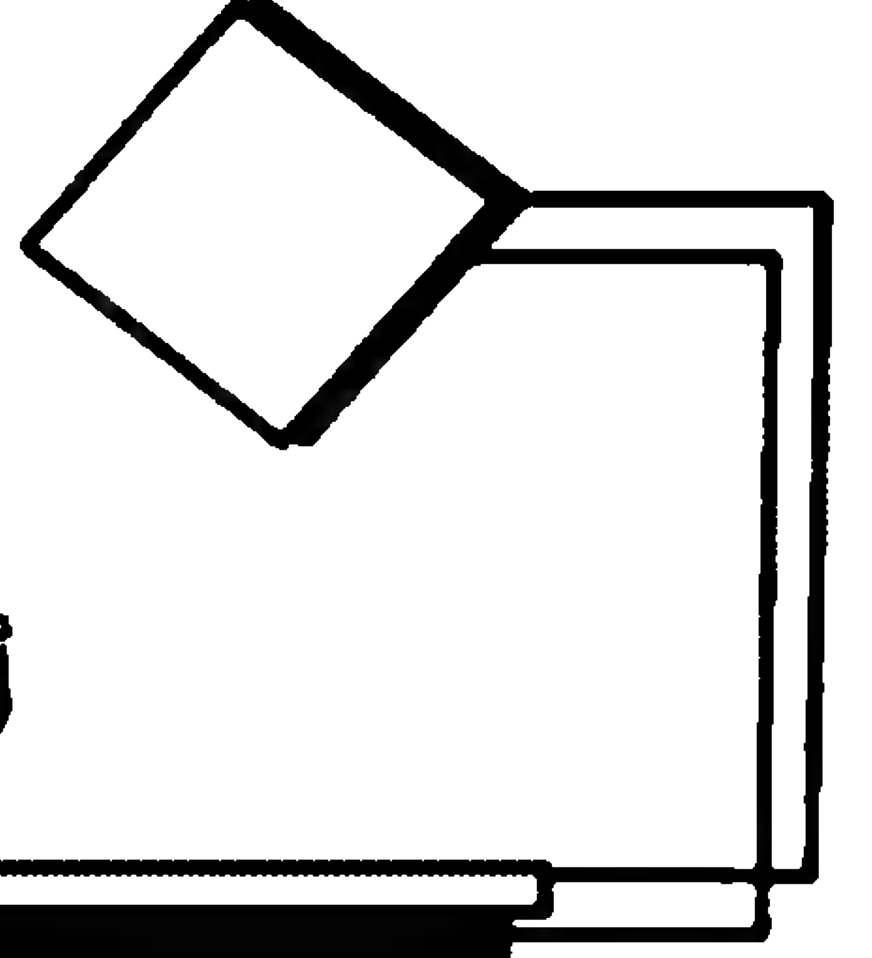
عقب فتح قرمونة، سار موسى بن نصير إلى إشبيلية وهي من أعظم المدائن في الأندلس شأناً وأتقنها بنياناً وأكثرها آثاراً، وقد حاصرها موسى أشهراً ففتحها الله عليه، وهرب منها علوجها إلى مدينة باجة.

فتح ماردة:

وهذه إحدى القواعد الأربع بالأندلس التي ابتناها القيصر أكْتبيان، وهي: قرطبة، وإشبيلية، وماردة، وطليطلة، فخرج أهلها إلى قتال المسلمين فحاربهم موسى بن نصير، حتى صرفهم إلى المدينة، ولما انجلت الحرب طاف موسى بالمدينة فرأى نقباً، فكمن فيه الرجال ليلاً، فلما أصبح زحف إليهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة فلجأ من بقي منهم إلى المدينة فحاصرهم أشهراً ثم عمل دبابة، فدبَّ المسلمون تحتها إلى برج من أبراجها، فأفضوا إلى صخرة صماء نَبَت معاولهم عنها ويئسوا منها، ثم ما لبث العلوج أن استثاروا الناس على المسلمين فاستشهد المسلمون تحت الدبابة، فسمي ذلك البرج: برج الشهداء، وعند ذلك حميت نفوس العلوج فساروا إلى موسى فرأوا رجلاً أبيض الرأس واللحية، فكلموه بما لم يوافقهم عليه ولم يرضه، فرجعوا عنه، ثم عاودوه يوماً آخر فوجدوه قد حمَّر رأسه ولحيته بالحناء فعجبوا منه وراعهم ما رأوه، ثم عاودوا إليه في اليوم الثالث وهو يوم عيد الفطر، فوجدوه قد سوَّد رأسه ولحيته، فرجعوا إلى المدينة وقالوا لمن فيها: ويحكم! إنما تقاتلون أنبياء يتشببون بعد المشيب! لقد عاد ملكهم حدثاً بعد أن كان شيخاً! فقالوا: اذهبوا إليه وأعطوه ما سألكم، فوصلوا إليه وصالحوه، وبذلك انعقد أمرهم على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الغائبين بجليقية وأموال الكنائس هو للمسلمين، وكان هذا الفتح المبين في مستهل شوال عام ٩٤ من الهجرة[١].

---

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج٢ ص٩ ـ ١٥.



الفصل الثالث

أسماء ملوك الأندلس

هذ أسماء ملوك الأندلس من لدن الفتح إلى آخر ملوك بني أمية:

طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، ثم الأمير موسى بن نصير، وكلاهما لم يتخذ سريراً للسلطنة، ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير، وسريره إشبيلية، ثم أيوب بن حبيب اللخمي وسريره قرطبة، وكل مَن جاء بعده كان سريره قرطبة والزاهرة بجانبها إلى أن انقضت دولة بني مروان، ثم الحر بن عبدالرحمٰن الثقفي، ثم السمح بن مالك الخولاني، ثم عبدالرحمٰن بن عبدالله الغافقي، ثم عنبسة بن سحيم الكلبي، ثم عذرة بن عبدالله الفهري، ثم يحيى بن سلمة الكلبي، ثم عثمان بن أبي نِسعة الخثعمي، ثم حذيفة بن الأحوص القيسي، ثم الهيثم بن عبيد الكلابي، ثم محمد بن عبدالله الأشجعي، ثم عبد الملك بن قطن الفهري، ثم بلج بن بشر بن عياض القشيري، ثم ثعلبة بن سلامة العاملي، ثم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، ثم ثوابة بن سلامة الجذامي، ثم يوسف بن عبدالرحمٰن الفهري.

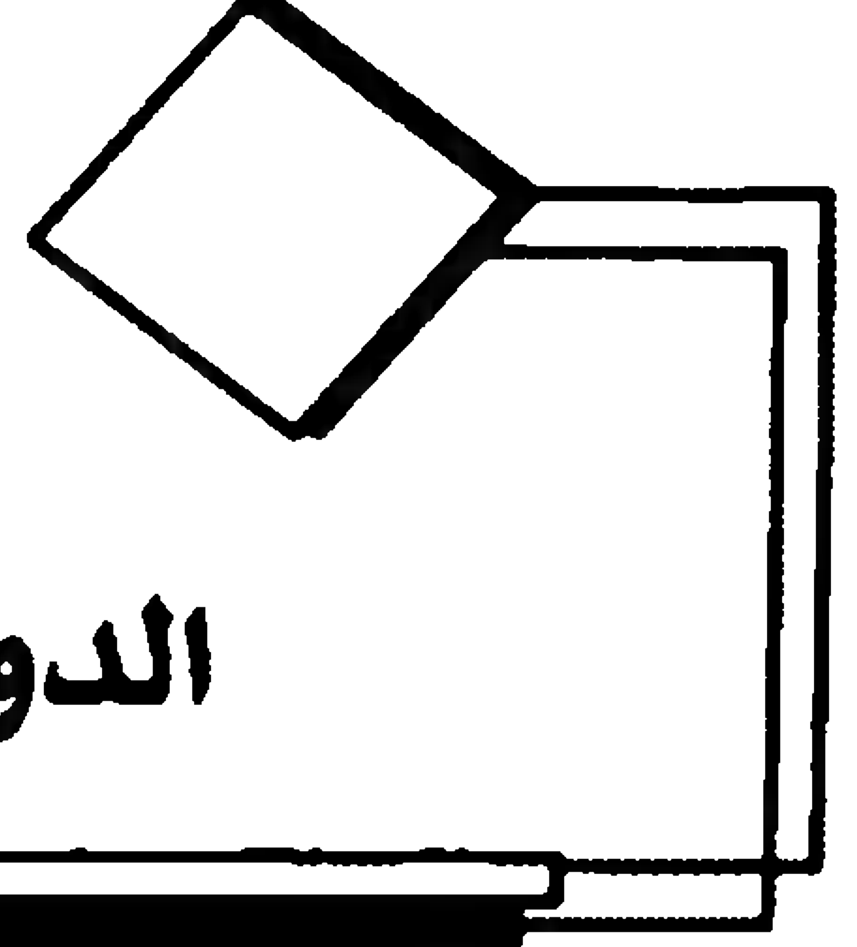
أولئك هم الذين حكموا الأندلس من غير موارثة وعددهم عشرون ولم يتعدوا في سمة المنصب لفظ الأمير، وقد كانت مدتهم من أول الفتح من لذريق سلطان الأندلس النصراني سنة - اثنتين وتسعين - إلى يوم الهزيمة على يوسف بن عبدالرحمٰن الفهري، وتغلُّب عبدالرحمٰن بن معاوية المرواني على

سرير الملك بقرطبة، وذلك سنة ثمان وثلاثين ومائة للهجرة ـ ستاً وأربعين سنة ـ.

ثم كانت من بعدهم دولة بني أمية، وأولهم: عبدالرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ثم ابنه هشام الرضي، ثم ابنه الحكم بن هشام، ثم ابنه عبدالرحمٰن الأوسط، ثم ابنه محمد بن عبدالرحمٰن، ثم ابنه المنذر بن محمد، ثم أخوه عبدالله بن محمد، ثم ابن ابنه عبدالرحمٰن الناصر، ثم ابنه المنذر بن محمد، ثم أخوه عبدالله بن محمد، ثم ابن ابنه عبدالرحمٰن الناصر بن محمد بن عبدالله، ثم ابنه الحكم المستنصر وكرسيهما الزهراء، ثم هشام بن الحكم، ثم المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، وهذا أول خلفاء الفتنة، وفي أيامه هدمت الزهراء والزاهرة، وعاد السرير إلى قرطبة، ثم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر.

ثم كانت دولة بني أمية الثانية، وأولها المستظهر عبدالرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، ثم المستكفي محمد بن عبدالرحمٰن بن عبدالله، ثم المعتمد هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر، وهو آخر خلفاء الجماعة بالأندلس، وبخلعه أسقط ملوك الأندلس الدعوة للخلافة المروانية، واستبدت ملوك الطوائف كابن جهور في قرطبة، وابن عباد في إشبيلية، وغيرهما، إلى أن ملك البلاد يوسف بن تاشفين، ففتك في ملوك الطوائف.





الفصل الرابع
الدولة الأموية في الأندلس

قال ابن حزم وغيره في دولة الأمويين بالأندلس: إن دولة بني أمية بالأندلس كانت أنبل دول الإسلام وأنكاها في العدو، وقد بلغت من العز والنصر ما لا مزيد عليه.

مؤسس الدولة الأموية في الأندلس عبدالرحمٰن الداخل:

وقالوا أيضاً: إن بني أمية لما نزل بهم بالمشرق ما نزل، وغلبهم بنو العباس على الخلافة وأزالوهم عنها، وقتل عبدالله بن علي، مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفائهم سنة ثنتين وثلاثين ومائة، وتتبع بنو العباس بني مروان بالقتال فضاقت الأرض ببني مروان، فهرعوا للهرب والاستتار، وكان ممن أفلت منهم: عبدالرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وكان قومه يتفرسون فيه العظمة في المستقبل فتوقعوا له الملك بالمغرب، لما يجدونه فيه من علامات لذلك، فخلص إلى المغرب ونزل على أخواله من برابرة طرابلس، ثم بعث مولاه بدراً إلى الأندلس، كيما يستكشف له أخبار الناس فاجتمع بالموالي المروانيين وأشياعهم وبثوا له في الأندلس دعوة ونشروا له صيتاً، ووافق قدومه ما كان من المحن بين اليمنية والمضرية، فاتفقت اليمنية على أمره، وكرّ بدر راجعاً إلى عبدالرحمٰن بالخبر، فسار إلى الأندلس إذ جاز البحر سنة ثمان وثلاثين ومائة، وذلك في خلافة أبي جعفر المنصور، وأتاه قوم من أهل إشبيلية

فبايعوه، ثم انتقل إلى كورة دية فبايعه عاملها عيسى بن مساور، ثم مضى إلى شذونة، فبايعه عتاب بن علقمة اللخمي، ثم إلى مورو فبايعه ابن الصباح، ثم مضى إلى قرطبة، فاجتمعت إليه اليمنية، ثم بلغ خبره والي الأندلس يوسف بن عبدالرحمٰن الفهري، وكان يغزو بجليقية فانفضّ عنه جنوده فما لبث أن رجع إلى قرطبة.

ثم ارتحل عبدالرحمٰن إلى مختلف الأمصار فاحتلها ومن جملتها رندة وشريش وإشبيلية، فبايعه جنودها، وأقبلت إليه المضرية، حتى إذا لم يبقَ مع يوسف بن عبدالرحمٰن غير الفهرية والقيسية، زحف حينئذٍ عبدالرحمٰن الداخل وناجزهم قتالاً بظاهر قرطبة، فانكشف يوسف ولجأ إلى غرناطة وتحصّن بها ثم لحق به الأمير عبدالرحمٰن ونازله فجنح يوسف للصلح، فصالحه عبدالرحمٰن ثم ما لبث يوسف أن نقض الصلح وخرج على عبدالرحمٰن ثم لحق بطليطلة، واجتمع من حوله عشرون ألفاً من البربر، فأرسل الأمير عبدالرحمٰن إليه عبد الملك بن عمر المرواني للقائه فسار يوسف إليهما وتناجز الفريقان، فكانت الدائرة (المصيبة) على يوسف، ثم اغتاله بعض أصحابه بالقرب من طليطلة، فاستتبّ الأمر بذلك للأمير عبدالرحمٰن واستقر بقرطبة وترسخ ملكه.

وقد وفد إليه جماعة من أهل بيته من المشرق، وكان إذ ذاك يدعو للخليفة العباسي المنصور ثم قطع الدعوة له، ودعا لترسيخ الدولة الأموية بالأندلس، وجدّد ما كان قد طمس لبني مروان في المشرق من معالم الخلافة وآثارها، وأمر بقطع الدعوة لبني العباس من منابر الأندلس.

وقد مات الأمير عبدالرحمٰن سنة ثنتين وسبعين ومائة، وكان يعرف بعبدالرحمٰن الداخل لأنه أول من دخل الأندلس من ملوك بني مروان، وكان جعفر المنصور يسميه: «صقر قريش» لعظيم ما فعله بالأندلس وبما ركبه من عظيم الأخطار في بلوغ غايته، مع أنه قدم إليها من أبعد الأقطار في المشرق من غير أتباع ولا أنصار إلا البراءة والجراءة والدهاء، فغلب أهلها على أمرهم وتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم حتى انقاد له

الأمر وأورثه عقبه، وكان يسمى بالأمير وعليه جرى بنوه من بعده، ولم يتسمَّ أحد منهم بأمير المؤمنين تأدباً مع الخلافة في عاصمة الإسلام بالمشرق حتى كان من عقبه عبدالرحمٰن الناصر، وهو ثامن بني أمية بالأندلس، فتسمى بأمير المؤمنين، وذلك بعد الذي تبين له من ضعف خلفاء بني العباس بعد سنة ثلاثمائة للهجرة، وعقب غلبة الأعاجم عليها إذ لم يتركوا لهم غير الاسم، وبذلك توارث بنو عبدالرحمٰن الناصر التلقيب بأمير المؤمنين واحداً بعد واحد.

لقد كان لعبدالرحمٰن الداخل بالأندلس ملك عظيم ودولة شاسعة استمرت إلى ما بعد المائة الرابعة للهجرة، وقد تودد عبدالرحمٰن لأهل الأندلس وأخذهم بالآداب، وفرض لهم الأعطية، وجنّد الأجناد، وأخذ للسلطان عدته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك، وحذروا منه، فدانت له بذلك سائر الأندلس، واستتبّ له الأمر فيها، فهو في خلاله وبالغ حنكته وتمام حيلته ودهائه وصرامته شديد الشبه بأبي جعفر المنصور.

وفي سنة ست وأربعين ومائة من الهجرة، سار العلاء بن مغيث اليحصبي من إفريقية إلى الأندلس داعياً لأبي جعفر المنصور، واجتمع إليه خلق كثير، فسار إليه عبدالرحمٰن ولقيه بنواحي إشبيلية فاقتتل الفريقان وانهزم العلاء وقتل من أصحابه خلق كثير، فارتاع المنصور لذلك وقال: ما هذا إلا شيطان، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر.

وقد كثرت ثورات رؤساء العرب على عبدالرحمٰن الداخل بالأندلس ونافسوه الملك ولقي منهم بذلك خطوباً جسيمة، ثم كانت له الغلبة عليهم، وقد ارتاب عبدالرحمٰن أخيراً بالعرب لكثرة خروجهم عليه، فرجع إلى مصانعة من سواهم من القبائل واتخاذ الموالي، ثم غزا بلاد الإفرنج ورجع بالظفر.

وكان عبدالرحمٰن عازماً على تجديد دولة بني مروان بالمشرق لكنه مات دون ذلك الأمل، وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، إذ دخل الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة، ومات سنة اثنتين وسبعين ومائة،

وكانت أمه أم ولد من البربر، اسمها راح[1].

وقد تولى الملك من بعده ابنه:

هشام بن عبدالرحمٰن الداخل:

وأمه أم ولد اسمها حُلل، انتقل إليه الملك بعهد من أبيه وقد كان والياً على ماردة، وكان هشام يحاكي بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز، وقد كان يبعث أناساً من تقاته لينقبوا في البلاد عن سيرة ولاته، حتى إذا بلغه من أحدهم حيف بالرعية عاقبه ولم يستعمله بعد ذلك.

وفي أيامه فتحت بلاد كثيرة وقصد بنفسه إلى بلاد الحرب فلقي العدو وظفر به، ويبعث بعض أمرائه في العساكر إلى بلاد الشرك فتوغل فيهم وهزمهم.

ولهشام جملة محاسن منها: أنه أكمل بناء الجامع بقرطبة وهو الذي شرع في بنائه أبوه.

ومنها: أنه أخرج المصدِّق لأخذ الزكاة على الكتاب والسنة.

وقد توفي سنة ثمانين ومائة للهجرة، وكانت مدة إمارته سبع سنين وتسعة أشهر، وكان من أهل الخير والصلاح، كثير الغزو والجهاد، وكان عمره إذ ذاك أربعين سنة وأربعة أشهر.

وتولى من بعده ابنه:

الحكم بن هشام:

وذلك بعهد منه إليه، وقد وقعت في زمنه فتنة بينه وبين عميه، فاغتنم العدو الفرصة في بلاد المسلمين، وقصدوا برشلونة واحتلوها سنة خمس

---

(١) نفح الطيب ج١ ص٢٢٨ ـ ٢٦٢.

وثمانين ومائة، وكذلك وقعت حروب وفتن في أيام الحكم وذلك مع الثوار المخالطين من أهل طليطلة.

وفي سنة ثنتين وتسعين ومائة، جمع لذريق ملك الفرنج وسار إلى حصار طرسونة بالأندلس فبعث الحكم ابنه عبدالرحمٰن في عساكره فهزموا لذريق، وعادوا ظافرين منصورين.

وقد توفي الحكم بن هشام سنة ست ومائتين بعد سبع وعشرين سنة من ولايته.

وقد تولى الأمر من بعده ابنه:

عبدالرحمٰن بن الحكم:

وذلك بعهد من أبيه، وهو يعرف بعبدالرحمٰن الأوسط، لأن الأول عبدالرحمٰن الداخل والثالث عبدالرحمٰن الناصر، وقد غزا عبدالرحمٰن جليقية وأثخن في الأمم النصرانية هنالك ثم عاد ظافراً، وفي سنة ست وعشرين ومائتين، بعث عساكر المسلمين إلى أرض الفرنجة لفتحها حتى بلغوا بريطانية، حيث ناجزوا العدو هنالك فهزموهم.

وظهرت في أيامه المجوس ودخلوا في إشبيلية، فأرسل عبدالرحمٰن إليهم عساكر المسلمين مع قادة من قرطبة فهزمهم المسلمون بعد لأي شديد.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين، بعث عبدالرحمٰن عساكره إلى جليقية فدخلوها ظافرين وحاصروا مدينة ليون، ورموها بالمجانيق فتركها أهلها وولوا هاربين، وأراد المسلمون أن يهدموا سوره فلم يقدروا لأن سمكه كان سبعة عشر ذراعاً، فثلموا فيه ثلمة ورجعوا.

وقد توفي عبدالرحمٰن الأوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين بعد إحدى وثلاثين سنة من إمارته، وكان مولده بطليطلة سنة ست وسبعين ومائة، وكان رحمه الله عالماً في علوم الشريعة والفلسفة، وكانت أيامه أيام هدوء وسكينة وخير، وقد مات وعدد أولاده من الذكور مائة وخمسون، ومن الإناث خمسون.

وتولى من بعده ابنه:

محمد بن عبدالرحمٰن الأوسط:

أرسل البعوث لمطاردة المشركين بنواحي طليطلة وبرشلونة وما وراءها، وفتحوا فيها كثيراً من الحصون، وفي زمنه ظهرت المجوس وعاثوا في الأندلس، فلقيتهم عساكر الأمير محمد، فقاتلوهم واستشهد عدد من المسلمين.

وقد توفي سنة ثلاثمائة، وكانت مدة ملكه نحواً من خمس وعشرين سنة، وتولى من بعده حفيده:

عبدالرحمٰن الناصر:

تولى الحكم في الأندلس وهي يعمها الاضطراب بالمخالفين، فتصدى لهم وأطفأ نيرانهم واستقامت له الأندلس في سائر جهاتها عقب نيف وعشرين سنة من أيامه، ودام حكمه مدة خمسين سنة، استفحل فيها ملك بني أمية، وهو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين، وذلك عقب اضطراب أمر الخلافة بالمشرق وضعفها وذلك حين استبد موالي الترك ببني العباس.

وكان كثير الجهاد بنفسه فغزا بعساكر المسلمين بلاد الفرنج ومدّ له النصارى يد الإذعان.

على أن الأخبار عن هذا الأمير طويلة جداً، فقد منحه الله النصر على الثائرين من حوله فظفر بهم، واستخرجهم من معاقلهم حتى صفا له الوقت تماماً، وكانت له في الجهاد صنائع كبيرة بيضاء.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن ملك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن، فهادنته الروم وازدلفت إليه تطلب إليه مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر (الأموال)، ولم تبقَ أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى، فقد هاداه ورغب في موادعته.

وقد توفي رحمه الله في اليوم الثاني أو الثالث من شهر رمضان من عام خمسين وثلاثمائة، والدولة أعظم ما تكون في زمن سلطانه وأعز ما يكون الإسلام في ملكه، إذ عمّ البلاد الخير والأمن والاستقرار، فكانت دولة الإسلام في الأندلس حينئذٍ قوية مصونة الأركان مهيبة الجانب والصولجان، وبلغت مدة ملكه خمسين سنة وستة أشهر، وعقب وفاته رحمه الله تولى الخلافة من بعده وليّ عهده:

الحكم المستنصر بالله:

جرى هذا على رسم سلفه الناصر فتبع خطاه ومضى على سيرته.

وعقب وفاة الناصر طمع الكفار الجلالقة في الثغور، فتصدى لهم المستنصر بنفسه حتى غزاهم في عقر ديارهم فبادروا إلى مصالحته وارتدوا مهزومين.

وفي سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، ظهرت المجوس بمراكبهم في البحر فأرسل إليهم المستنصر عساكره في البحر وهزموهم.

وكان المستنصر محباً للعلوم وأهلها فكان يكرمهم إكراماً، وكان جمّاعاً للكتب على اختلاف أنواعها بما لم يجمع مثله أحد من الملوك قبله، وكان يبعث إلى الأقطار رجالاً من التجار، ويرسل إليهم الأموال لشراء الكتب فيأتون بها إلى الأندلس، وهذه صورة مضيئة تكشف عن حكم الإسلام في الأندلس حيث العلوم الزاهرة بكل أصنافها ومناحيها، والحضارة المشرقة المنفتحة على المعارف والفلسفات، وذلك ما ليس له نظير في اهتمامات الملوك من بلاد الفرنجة حيث الجهالات والضلالات والباطل في أشنع صوره ومداه.

وقد توفي رحمه الله في قصر قرطبة سنة ست وستين وثلاثمائة، لست عشرة سنة من خلافته، وكان قد أصابه الفالج فلزم الفراش حتى مات، وكان رحمه الله ذا خلق كريم، محباً للخير والفضيلة والعلم، مبغضاً للمنكر، فكان قد شدد في إبطال الخمر في مملكته تشديداً عظيماً.

وتولى من بعده ابنه:

هشام بن الحكم المستنصر بالله:

وكان هذا صغير السن إذ لم تتجاوز سنه تسع سنين، وكان وزيره محمد بن أبي عامر، وقد استغل هذا فرصة الصغر لسن هشام، لينفرد هو بالحكم والسلطان حتى عظم أمره في البلاد، ثم صانع البربر ومالأهم وأدناهم منه وأبعد العرب وأسقطهم عن مراتبهم، ثم تمكن من التغلب على هشام وجعله رهن الحجر فاستقر له الأمر في الدولة بعد أن استأثر لنفسه بالحكم، وقد تحقق له كل ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر، وبنى لنفسه مدينة سماها الزاهرة، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة، وقعد على سرير الملك، وأمر أن يحيا بتحية الملوك، وأمر بالدعاء له على المنابر، ولم يبق لهشام من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتابة اسمه في السكة، وقاد الغزو بنفسه إلى دار الحرب فغزا ستاً وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه، لم تنتكس له فيها راية ولا هزم له جيش وما هلكت له سرية، فأخبتت (خضعت) له الملوك وأذعنوا لسلطانه.

وقد توفي هشام وهو أعظم ما يكون ملكاً وأشد ما يكون استيلاء، وذلك سنة أربع وتسعين وثلاثمائة بمدينة سالم ودفن هنالك وذلك بعد سبع وعشرين سنة من ملكه.

ومن خصاله ومبراته أنه خطّ بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره وغزواته، فيدرس فيه ويتبرك به، ومن جملة ذلك أنه كان يعتني بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة، ثم عهد إلى من حوله بجمع ذلك في حنوطه فكان يحملها حيث سار مع أكفانه توقعاً منه لحلول منيته، وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد، فتحقق له ذلك، وعقب وفاته قام بالأمر من بعد ابنه:

عبد الملك المظفر أبو مروان:

وقد جرى هذا على سنن أبيه في السياسة والغزو وكانت أيامه أعياداً دامت سبع سنين، ولم يزل مظفراً إلى أن مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، ثم قام بالأمر بعده أخوه:

عبدالرحمٰن:

وقد تلقب هذا بالناصر لدين الله، وقيل: بالمأمون، وقد سار على طريقة أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام، والاستقلال بالملك دونه، ثم بدا له بعد ذلك أن يستأثر بالخلافة لنفسه فينتزعها من هشام المؤيد فطلب منه أن يوليه عهده فاستجاب له، فأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد، وكتب عهده إليه، وهذا بعض نصه:

«هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة وأهمه ما جعل الله إليه من الإمامة وعصب به أمير المؤمنين، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ويفوض إليه الخلافة بعده، من المأمون الناصح، أبي المطرِّف عبدالرحمٰن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر».

ومن أجل ذلك نقم عليه أهل الدولة، فكان فيه حتفه، وانقراض دولته، إذ استاء بذلك الأمويون والقرشيون فأجمعوا أمرهم على خلعه فخلعوه، وبايعوا:

محمد بن هشام بن عبد الجبار:

وهو ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعقاب الخلفاء، وقد لقبوه المهدي بالله، وقد بلغ الخبر عبدالرحمٰن بن المنصور في مكانه بالثغر، فانفضّ عنه جمعه وبادر لمبايعة المهدي القائم بالأمر، ثم غروه بعبدالرحمٰن لكونه ماجناً مستهتراً غير صالح للأمر، فما لبث بعضهم بعد أن قتلوه.

ثم خرج سليمان بن أمير المؤمنين الناصر والتف من حوله كثير من البربر وغيرهم فبايعوه ولقبوه المستعين بالله، فنهض هذا في جموع البرابرة والنصرانية إلى قرطبة وبرز إليه المهدي في أهل قرطبة فكانت الدائرة عليهم، فدخل المستعين قرطبة وذلك في ختام المائة الرابعة، وقد لحق المهدي بطليطلة واستجاش الناس من حوله ليقاتلوا المستعين فقاتلوه وهزموه، ثم تمكن المستعين بعد ذلك من دخول قرطبة بمن معه من البربر عنوة سنة ثلاث وأربعمائة، ثم وثبت جموع البربر وغيرهم على المدن العظيمة وتقلدوا أمرها، مثل باديس في غرناطة، والبرزالي في قرمونة، واليغرني في رندة، وخزرون في شريش.

ثم افترق شمل المسلمين في الأندلس، وصار الملك طوائف، مثل ابن عباد في إشبيلية، وابن الأفطس في بطليموس، وابن ذي النون في طليطلة، وابن أبي عامر في بلنسية، وابن هود في سرقسطة، ومجاهد العامري في دانية والجزائر.

أما أهل قرطبة فقد اجتمعوا واتفقوا على رد الأمر إلى بني أمية واختاروا لذلك عبدالرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار أخ المهدي، وبايعوه في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة ولقبوه المستظهر.

ثم ثار عليه عقب شهرين من خلافته محمد بن عبدالرحمٰن بن عبيد الله بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، فاتبعه الغونماء وفتك بالمستظهر وتلقب بالمستكفي، واستقل بأمر قرطبة وهو والد الأديبة الشهيرة ولادة.

وبعد سنة ونصف إلا قليلاً من بيعة المستكفي خلعه أهل قرطبة وولوا مكانه المعتلي يحيى بن علي بن حمود، وفر المستكفي إلى ناحية الثغر، حيث هنالك، ثم بدا لأهل قرطبة أن يخلعوا المعتلي بن حمود، فخلعوه وبايعوا بدله هشام بن محمد أخي المرتضى وتلقب المعتد بالله، ثم اشتدت الفتن بين رؤساء الطوائف، ثم خلعه الجند وفرّ إلى لاردة فمات بها سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وحينئذٍ انقطعت الدولة الأموية من الأرض وانتثر سلك الخلافة بالمغرب، وقام ملوك الطوائف عقب انقراض نظام الخلائف،

ووثب الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي على مختلف المدائن والجهات، فاستقل منهم بأمرها ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم وظلوا على حالهم من الفرقة والشقاق حتى قطع إليهم البحر صاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني فخلعهم وأخلى منهم الأرض[1].



---

(١) تاريخ ابن خلدون ج٦ ص٢٤٥ ـ ٢٤٧.

الفصل الخامس

بعض من ملوك الطوائف في الأندلس

من أشهرهم: بنو عباد، وهم ملوك إشبيلية وغرب الأندلس الذين منهم المعتمد بن عباد.

ومنهم: بنو جهور، وكانوا بقرطبة، حتى إذا استولى عليهم المعتمد بن عباد وأخذ قرطبة جعل عليها ولده واستفحل أمره بغرب الأندلس واستحوذ على من كان هنالك من ملوك الطوائف، فكانوا يخطبون وده ويعملون على استرضائه، فتعلقت آمال الناس في الأندلس به وقد ضايقهم طاغية النصارى في طلب الجزى (جمع جزية)، فبعث يوسف بن تاشفين عساكره فجاوزوا البحر والتقوا مع الطاغية في الزلاقة فهزم النصارى هزيمة مشهورة، ونصر الله الإسلام نصراً مبيناً، وكان عدد النصارى في هذه الوقعة ثلاثمائة ألف، ولم ينجُ منهم إلا القليل.

ثم خلع يوسف بن تاشفين جميع ملوك الطوائف لما كانوا عليه من تفرق وتسلط على الناس بجمع الضرائب الكبيرة منهم، فنزلت عساكر ابن تاشفين جميع بلادهم واستولى على قرطبة وإشبيلية وبطليوس وغرناطة وغيرها من المدائن حتى صار المعتمد، كبير ملوك الأندلس أسيراً في قبضته، ثم نقله إلى أغمات بجانب مراكش سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وظل هناك معتقلاً حتى مات سنة ثمان وثمانين وأربعمائة[1].

(١) تاريخ المسلمين في الأندلس تأليف: د. عبدالله جمال الدين ص٩٤ ـ ٩٧.

ومنهم: بنو ذي النون، وهم ملوك طليطلة، وقد كانت لهم دولة كبيرة وكانوا فيها باذخين مترفين.

ومنهم: بنو هود، وهم ملوك سرقسطة وما حولها، ومن أشهرهم: المقتدر بالله، وابنه يوسف المؤتمن، ثم ولي بعده ابنه المستعين أحمد، وعلى يده كانت وقعة وشقة، إذ قاتله طاغية النصارى وهزمه وهلك من المسلمين في هذه الوقعة خلق كثير، ومات المستعين نفسه شهيداً وذلك سنة ثلاث وخمسمائة.

ومنهم: بنو الأفطس، وهم أصحاب بطليوس وما حولها، ومنهم: المظفر، والمتوكل الذي قتله جيش يوسف بن تاشفين.

ثم استولى ملوك لمتونة على بلاد الأندلس فأزالوا ملوك الطوائف منها فذهبت ريحهم، وهبّت ريح الموحدين وهم: عبد المؤمن بن علي وبنوه، الذين جاوزوا البحر إلى الأندلس فخلصت لهم بعد حروب بينهم وبين لمتونة، ثم بينهم وبين ابن مردفيش بغرناطة، وقد استعان ابن مردفيش بالنصارى على الموحدين فهزمهم عبد المؤمن وقتلهم أشد قتلة واستخلص منهم غرناطة سنة سبع وخمسين وخمسمائة.

ثم ولي الأمر بعد عبد المؤمن ابنه يوسف، وقد أجاز هذا إلى الأندلس، ثم ولي من بعده ابنه يعقوب المنصور الذي حارب النصارى في الأندلس فهزمهم شر هزيمة خصوصاً في وقعة الأرك، وهو موضع بنواحي بطليوس وذلك سنة إحدى وتسعين وخمسمائة. وقد قتل في هذه المعركة من الفرنج مائة وستة وأربعون ألفاً، وسيق منهم ثلاثون ألف أسير.

ولما استقر أمر الموحدين بالأندلس استعملوا القرابة على الأندلس، أي سلّموا مقاليد البلاد إلى قراباتهم وكانوا يسمونهم السادة، فاقتسموا ولاية الأندلس بينهم.

ثم دبّ فيهم الوهن واضطرب أمرهم، وثار السادة في نواحي الأندلس، كل في إمارته، ثم ضعف مُلكهم في مراكش، فصاروا يستعينون بطاغية النصارى بعضهم على بعض ثم يسلمونه حصون المسلمين ممالأة له،

فمشت رجالات الأندلس وأعقاب العرب منذ الدولة الأموية وأجمعوا على إخراجهم[1].

دولة بني الأحمر:

وهؤلاء هم آخر ملوك الأندلس ومن يدهم استولى النصارى على سائر بلاد الأندلس.

أما بنو الأحمر، فأصلهم من أرجونة، من حصون قرطبة، وهم ينتسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، وكان كبيرهم حتى آخر دولة الموحدين: محمد بن يوسف بن نصر، ويعرف بالشيخ.

وكان ابن الأحمر هذا، أول أمره ممالأته الطاغية، مستعيناً به في أمره، فعضده ابن الأحمر وأمر بإعطائه ثلاثين حصناً، ثم تغلّب على قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، ثم نازل إشبيلية سنة ست وأربعين ومعه ابن الأحمر فملك أعمالها بعد مصالحة أهلها، فلم يزل الطاغية يقتطع ممالك المسلمين كورة[2] كورة، وثغراً ثغراً، إلى أن ألجأ المسلمين إلى سيف البحر، ما بين رُندة من الغرب، والبيرة من شرق الأندلس، ثم هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة بعد أن ثبت قدم أولاد ابن الأحمر بالأندلس واستولوا على جميع ما بأيدي المسلمين من ملكها مثل: الجزيرة، وطريف، ورُندة التي كانت بيد بني مرين.

ثم هرع ملوك النصارى لغزو غرناطة وقد ألّب بعضهم بعضاً وذلك سنة تسع عشرة وسبعمائة. وجاء الطاغية «دون بطره» في جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكاً، فحشد الإفرنج لذلك حشداً عظيماً وجمعوا جنودهم وأنصارهم، وذهب سلطانهم «دون بطره» إلى طليطلة، فدخل على مرجعهم وهو البابا وسجد له وتضرّع أمامه، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين في الأندلس مؤكداً عزمه على ذلك، فقلق المسلمون في غرناطة

---

(١) تاريخ المسلمين في الأندلس ص٩٩.

(٢) الكورة: المدينة، وجمعها: كور، انظر: مختار الصحاح ص٥٨٢.

وغيرها من كثرة الجموع التي حشدها النصارى مع ما يؤزهم من الحقد الشديد على الإسلام والمسلمين. فهرعوا إلى الله يستغيثونه ويستعينون به، فلجوا إليه في الدعاء عسى أن يكتب لهم الغلبة على هؤلاء المتربصين الحاقدين، فأخلص المسلمون النيات وعقدوا العزم على لقاء المعتدين وقتالهم، فكانت لهم الغلبة بعون الله وهزم الإفرنج أشد هزيمة وقتل طاغيتهم «دون بطره» ومن معه، فكان ذلك نصراً مؤزراً ويوماً مشهوداً، ومن العجيب أنه لم يقتل من المسلمين في هذه المعركة الحاسمة الحامية سوى ثلاثة عشر فارساً، وقيل: عشرة، وكان جند المسلمين نحو ألف وخمسمائة فارس، وأربعة آلاف راجل، أما الفرنج فقتل منهم خمسون ألفاً، وهلك منهم في الوادي مثل هذا العدد لضلالهم الطريق، وقتل ملوكهم الخمسة والعشرون جميعاً. وطلبت النصارى الهدنة فعقدت لهم بعد أن ملكوا جبل الفتح وهو جبل طارق، ولم يزل بأيديهم إلى أن استرده أمير المسلمين أبو الحسن المريني صاحب فاس والمغرب.

ثم ما لبث أن اجتمع الإفرنج وتألبوا على قتال المسلمين حتى استولوا على الجزيرة الخضراء، إلى أن قيّض الله من بني الأحمر: الغني بالله محمداً الذي كان وزيره لسان الدين بن الخطيب، فاسترجعها إلى المسلمين، وكانت لهذا الغني بالله محمد مواقف مشهودة في الجهاد وقد نصر الله الإسلام على يده، وبقي ملك الأندلس في عقبه إلى أن تسلط الكافرون على رقاب المسلمين، وأخذوا ما بقي من بلاد الأندلس، فخلت جزيرة الأندلس من أهل الإسلام، فباءت بعد النور بالظلام حتى غشيها الكفر وطمرها الباطل، بكلكله الأسود الثقيل(١)!

ومن المعارك الفاصلة في تاريخ الأندلس معركة «بلاط الشهداء» بقيادة المسلم العظيم والفارس المغوار عبدالرحمٰن الغافقي الذي قاد جيوش المسلمين لقتال الإفرنج ثلاث سنوات ابتداء من عام ٧٢٩م ـ ٧٣٢م، فأبلى هذا العظيم كبير البلاء في دفع الظالمين والتصدي بعساكر المسلمين لشرهم

---

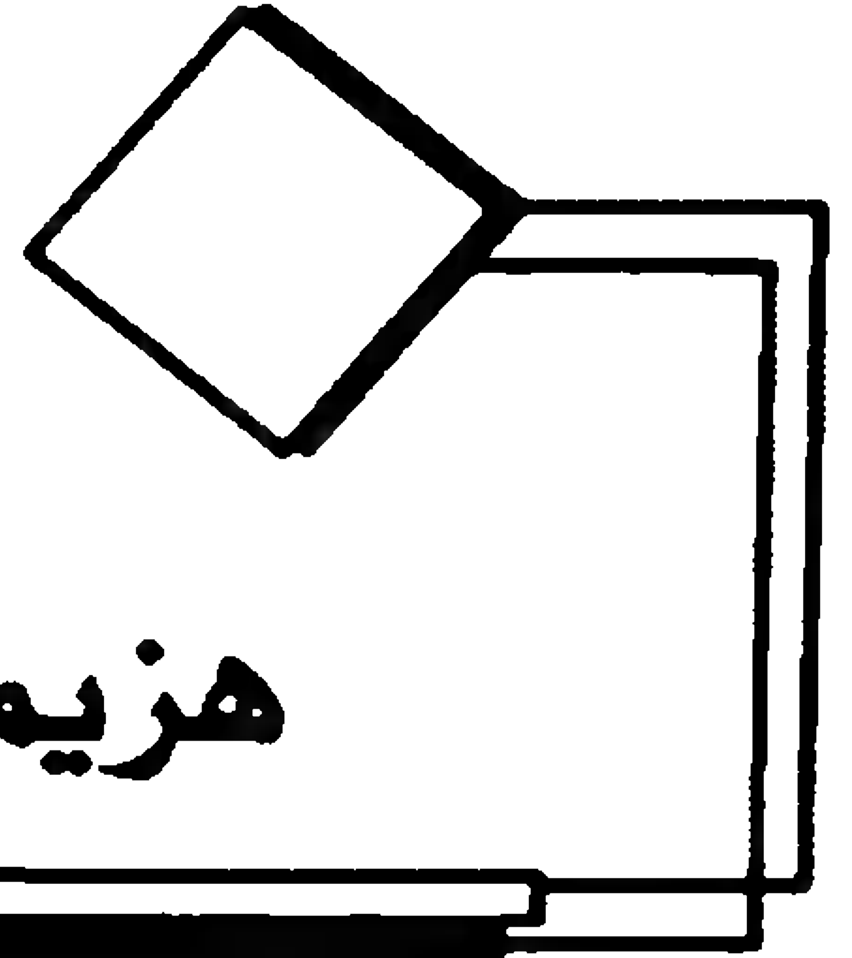
(١) نفح الطيب ج١ ص٢٦٣ ـ ٣٤٨، وتاريخ المسلمين في الأندلس ص١٠٢.

وعدوانهم، لكن البشرية إنما تدور على الدوام في فلك من قدر الله المقدور، ذلك القدر الذي لا يتغير ولا يتحول، لحكمة الله البالغة، المركوزة في مكنون غيبه المستور.

فلقد كانت الدائرة في هذه المعركة على المسلمين إذ استشهد فيها القائد الهمام عبدالرحمٰن الغافقي، فأصاب المسلمين حينئذ من الاضطراب والوهن ما أصابهم، فكانت الهزيمة الأليمة التي أسهمت في سقوط الدولة المسلمة برمتها، وساعدت في انتعاش الأوروبيين وزيادة إحساسهم بالعدوان على المسلمين طمعاً في القضاء عليهم وطردهم من البلاد[١].



(١) حوار حول الحاضر بالماضي عبر الأندلس د. رشدي فكار ص١٦، ١٧.



الفصل السادس

هزيمة المسلمين في الأندلس

ثمة أسباب آلت إلى انهيار الدولة الإسلامية في بلاد الأندلس عقب ثمانية قرون عامرة بالازدهار والعطاء والخير، ويأتي في طليعة هذه الأسباب، اختلاف المسلمين فيما بينهم بعد أن دبَّ دبيب الفرقة والتنابذ والحسد والأنانية بين كثير من أمراء المسلمين أو فئاتهم في هذه البلاد، مما أغرى العدو من حولهم على الطمع فيهم والتربص بهم للانقضاض عليهم.

ومنها: انشغال كثير من سادة المسلمين وقادتهم وأمرائهم في اللهو والبذخ، وإغراقهم المغالي في ظواهر الترف والشهوات والملاهي التي تعمي القلوب عن عبادة الله، وتشغل الأذهان عن حسن التفكير والتدبير لما ينفع المسلمين، وما يدرأ عنهم كل العوادي والشرور والبلايا، لا جرم أن الإيغال المغالي في الشهوات وأسباب الترف لسوف يلهي عن التخطيط لفريضة الجهاد، هذه الفريضة الرادعة الهامة التي تستوجب أن يكون المسلمون على الدوام في غاية اليقظة والحرص والاستعداد للطوارىء التي توشك أن يفجأهم بها العدو الماكر المتربص في كل لحظة.

ومنها: مساعدة بعض الأمراء للأعداء ضد المسلمين، وهم يحدوهم في ذلك طمع في مناصب رخيصة يبتغونها ثمناً للاستعانة بالأعداء، أو لما يركم في قلوبهم المتدنسة من حقد أو حسد يكنونه لغيرهم من ساسة

المسلمين وقادتهم وأمرائهم، وذلكم خزي وعار تنصفع به أجبنة هؤلاء الخائرين الساقطين.

والأشد من ذلك نكراً وشناراً أن يمالىء فريق خاسر من داخل المسلمين - أعداء المسلمين - إذ يمدونهم بمعلومات عن أخبار المسلمين وأسرارهم وحقيقة أحوالهم وأمورهم، وفي ذلك من الخيانة ما يطعن أمة الإسلام في ظهورها من الوراء لتسام الهزيمة والانهيار بعد ذلك. ومن الأمثلة على هذا العار الفاضح: خيانة آخر حكام المسلمين في الأندلس، وهو: أبو عبدالله محمد، فقد حارب هذا الخائر المفرط أباه من أجل الملك، إذ أحس أن أباه وهو أبو الحسن علي بن سعد يؤثر أخاه محمد بن سعد عليه، ولما تولى الحكم أخوه هذا - محمد بن سعد - استشاط أبو عبدالله محمد غيظاً وحقداً لفرط ما غشي قلبه من الحسد، ولشدة حرصه على المنصب الرفيع الفتان. ومن أجل هذه الغاية المريبة القاتلة، بادر أبو عبدالله إلى ممالأة الأمير النصراني فرديناند، وكذلك الأمير إيزابلا، من أجل إسقاط محمد بن سعد، فسار أبو عبدالله في جيشه لقتال عمه الذي يقود جيوش المسلمين المدافعين عن حصون الإسلام وأهله، فاستطاع العدو الكافر أن يهزم جيش المسلمين بفضل هذه الخيانة التي ينزلق فيها خاسر أثيم هان عليه دينه ووطنه والمسلمون من بعده.

وثمة سبب لانهيار الدولة المسلمة بالأندلس، وهو أن المسلمين لم يستكملوا فتح الأندلس، بل اكتفوا بالمساحة الشاسعة الغنية بمواردها وخصبها فاستقروا بها، ولم يواصلوا المسير للسيطرة على شبه الجزيرة كلها، فتركوا في الشمال الغربي من بلاد الأندلس جزءاً كبيراً لم يتنبهوا لأهميته وعظيم خطورته.

وفي هذا الجزء من بلاد الأندلس، استقرت جماعات كبيرة من النصارى الذين كانوا يكنون في أنفسهم العداوة والبغضاء للإسلام والمسلمين، فاجتمع هؤلاء من حول زعيم لهم اسمه بلايو، وقد ظلوا يمكرون بالمسلمين ويتربصون بهم حتى إذا وجدوا فيهم غفلة عنهم بادروا

لإقامة أول مملكة مسيحية متعصبة لهم وهي مملكة (جليقية) وذلك في القرن الثامن الميلادي، وكانت هذه المملكة الأساس الذي قامت عليه الدول المسيحية، والتي بادرت بقتال المسلمين والتصدي لدينهم.

وفي القرن العاشر الميلادي، نشأت مملكتان مسيحيتان في الشمال الغربي من جزيرة الأندلس، وهما: كاستيليا وأراجون.

وفي القرن الحادي عشر، تكونت في المنطقة الغربية من الأندلس مملكة ثالثة وهي مملكة البرتغال، وبذلك باتت الممالك المسيحية المعادية تحيط بمسلمي الأندلس من الشمال والغرب، وكان هذا عاملاً أساسياً فيما لحق بالمسلمين من ويلات وهزائم خلال حروبهم مع الأعداء المتربصين، إلى أن آل الأمر بالمسلمين في الأندلس إلى الغاية في الهوان والضعف والتفكك فباؤوا أخيراً بالإبادة الكاملة والتدمير الشامل.

وبسقوط غرناطة ظن المسلمون أن أعداءهم من الحاقدين المتعصبين سيوفونهم العهد بحمايتهم وضمان حرياتهم الدينية والشخصية، لكن هؤلاء الحاقدين المتعصبين ما لبثوا أن نقضوا ما عاهدوا عليه، فراحوا يضطهدون المسلمين في الأندلس أشد الاضطهاد، وكان يحرضهم على قتل المسلمين والتنكيل بهم وإبادتهم رجال الدين المسيحي، أولئك الذين أُشربت قلوبهم مذاق الكراهية العمياء للإسلام وأهله، فراحوا يباركون القوم الظالمين وهم يبيدون المسلمين إبادة، ويستأصلون الإسلام أيما استئصال.

لقد كانت موجات القمع والتنكيل بالمسلمين في بلاد الأندلس استمراراً للويلات المرعبة الشنيعة التي تمخضت عنها محاكم التفتيش، بل هنا أفظع وأبشع، فلاقى المسلمون على أيدي العتاة المجرمين من وحوش الصليبية في أوروبا ما تتقطع من فظاعته نياط القلوب، وتقشعر لهوله الجلود والأبدان.

وبذلك كان مصير المسلمين في الأندلس على ثلاثة أحوال لا مفر منها:

الحال الأول: التقتيل والإبادة كلياً، وهو ما يسمى في قاموس الطغيان الفظيع المعاصر بالتطهير العرقي.

الحال الثاني: الاستخفاء من براثن الطغيان والموت، بالتظاهر باعتناق المسيحية، ولئن تظاهر المسلمون الكبار بالمسيحية على سبيل التقية وقلوبهم تتفطر حزناً على الإسلام والمسلمين، لكن أولادهم وأحفادهم، لما طال بهم الأمد وأحاطت بهم كل أسباب الكفر والفتنة تحولوا إلى النصرانية شيئاً فشيئاً.

الحال الثالث: الفرار الجامح إلى خارج البلاد هرباً من إبادة المجرمين المتعصبين. لقد هرب شطر كبير من المسلمين إلى شمالي إفريقيا ومصر، وهرب بعضهم إلى بلاد العثمانيين، وكان في عداد الهاربين فريق من اليهود الذين لاذوا بالهرب من جحيم التنكيل والإبادات الجماعية، فقصدوا الدولة العثمانية ليجدوا فيها الأمن والاستقرار، وقد تحقق لهم ذلك كله فعلاً في ظل الإسلام والمسلمين لدى العثمانيين المسلمين.

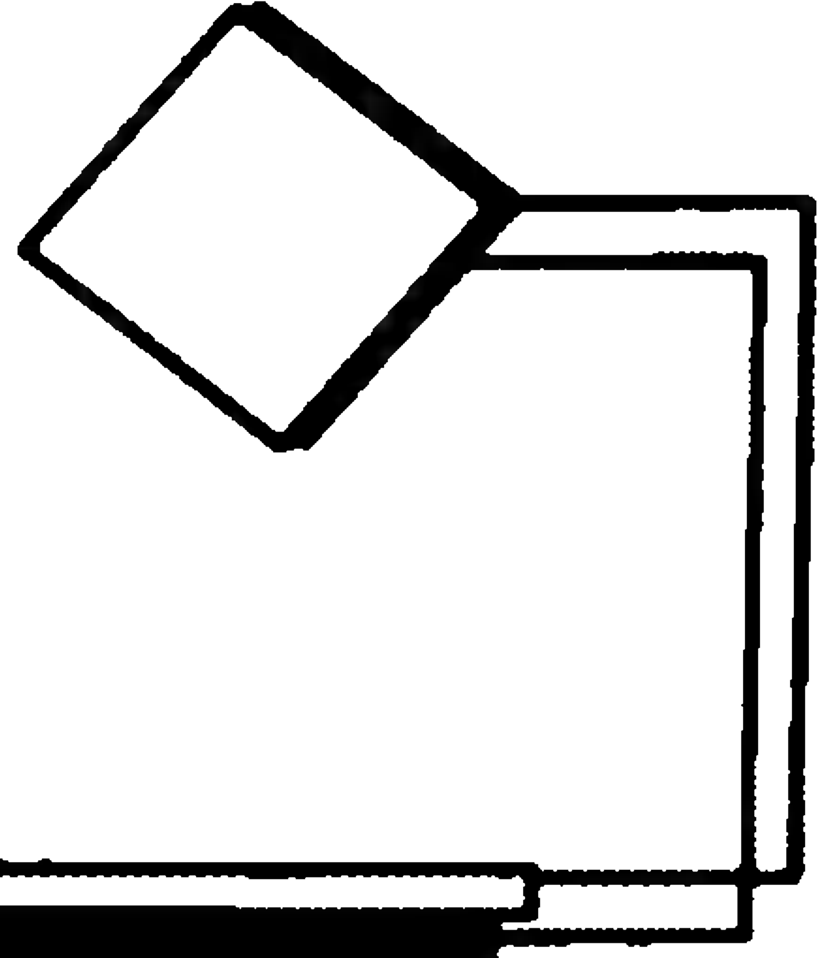
كذلك كان مصير المسلمين في الأندلس عقب انهيار دولتهم واجتياح المسيحيين الأوروبيين لهم ففعلوا فيه أبشع الأفاعيل، ومن جملة ذلك، ما فعله فيليب الثالث في عهده ما بين ١٦٠٩م ـ ١٩١٤م إذ عزم على استئصال الإسلام من إسبانيا فأمر بطرد الملايين منهم وأمهلهم لتحقيق ذلك ثلاثة أيام فقط، فلم يتمكن الكثير منهم أن يبلغوا الشاطىء حيث السلامة، بل غرقوا في الماء[١].

وعلى هذا لم تبق للإسلام في الإندلس باقية، فآلت هذه الحضارة الكونية العظيمة إلى الفناء والزوال بفعل الكيد الصليبي الحاقد، ولما أصاب المسلمين في صفوفهم من الداخل من ظواهر الوهن والتفكك والشقاق.



---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي د. أحمد شلبي ج٤ ص٧٧ ـ ٨٠.



الفصل السابع
مذهب أهل الأندلس

كان أهل الأندلس في القديم على مذهب الأوزاعي وأهل الشام وذلك منذ أول الفتح، ففي دولة الحكم بن هشام بن عبدالرحمٰن الداخل، وهو ثالث الولاة بالأندلس من الأمويين، انتقلت الفتوى إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة، مما أدى إلى انتشار المذهب المالكي في قرطبة والأندلس جميعاً بل والمغرب. أما السبب الذي اقتضى ذلك فهو رحلة علماء الأندلس إلى المدينة، فلما رجعوا إلى الأندلس، وصفوا فضل مالك وسعة علمه وجلال قدره، فأعظموه.

وقيل: إن الإمام مالكاً سأل بعض الأندلسيين عن سيرة ملكهم فوصفوا له سيرته فأعجب مالك به، وكان قد أوذي من العباسيين في مدة أبي جعفر المنصور، بالحبس والإهانة وغيرهما، فقال الإمام مالك لمن أخبره: نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم، فبلغت هذه المقالة ملك الأندلس وهو يعلم ما عليه مالك من العلم والفضل، فحمل الناس على مذهبه وترك مذهب الأوزاعي(١).



---

(١) نفح الطيب ج٤ ص٦٠، ٦١.



الفصل الثامن

نبذة من معالم الحضارة الزاهرة بالأندلس

حكم المسلمون الأندلس ثمانمائة سنة، فشهدت البشرية في ذلك الشطر من الأرض من روائع الإسلام وعظيم أمجاد المسلمين ما لم يسمعوا به من قبل. لقد أظلت حضارة الإسلام شطراً عظيماً من أوروبا فأفاضت على القارة كلها وما حولها من البلدان بكل معالم الرقي المادي والمعنوي، وقد تجلى ذلك في ظواهر شتى من معاني الرحمة والخير والعدل والفضيلة، فضلاً عن ظاهرة العلم الذي شاع واستطار بكل مناحيه وضروبه، فكانت هذه البلاد مناراً تستضيء به الشعوب من حولها، الشعوب التي ظلت موغلة في ظلام التخلف والجهالة والانحطاط، حتى إذا شعشع نور الإسلام المنبعث من ديار الأندلس انطلقت مواكب العلماء تجوب أقاصي البلاد لتثير فيها كل ضروب المعرفة من العلوم والثقافات والفنون، وباتت البلاد موئلاً لرواد العلم والمعرفة لشعوب أوروبا، يهوداً ونصارى يتزودون مما حفلت به ديار الأندلس من كنوز المعرفة وذخائرها الغامرة المستفيضة بفضل هذه الأمة العريقة، التي تجد نفسها على الدوام محفوزة بعقيدة الإسلام في التحريض على طلب العلم والتزود من مناهله التي لا تنضب، إن ذلكم لهو الإسلام الذي يحرض المسلمين على الجد في الانتهال من العلم، ويجعل ذلك فريضة على كل مسلم.

ومن أجل ذلك، بادر المسلمون عقب استقرارهم في تلك الديار، بإنشاء المدارس وبيوت العلم والحكمة ليجتمع فيها الدارسون وطلبة العلوم على اختلافها.

أما الطابع المادي لهذه الحضارة العتيدة الزاهرة، فهو بالغ الشموخ والكمال، عظيم القدر والجمال والجلال، مما أذهل الناظرين والمطلعين، وما فتىء يثير في المؤرخين الإعجاب والدهش.

قرطبة:

وتلكم هي قرطبة، عاصمة الأندلس، نموذج الرقي والرخاء والعمران، المدينة الزاهرة بكل معالم المجد والاستعلاء والسلام، الزاخرة بكل ظواهر الأمة العظيمة، الأمة التي أفاضت على البشرية من روائع الحضارة الزاهرة ما تنكص دونه الأمم والحضارات.

قال بعض المؤرخين في وصف قرطبة: أما قرطبة فهي قاعدة الأندلس، وقطبها، وقطرها الأعظم، وأم مدائنها ومساكنها، ومستقر الخلفاء، ودار المملكة في النصرانية والإسلام، ومدينة العلم، ومستقر السنة والجماعة، نزلها جملة من التابعين وتابعيهم.

وهي مدينة عظيمة أزلية من بنيان الأوائل، طيبة الماء والهواء، أحدقت بها البساتين والزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب، وبها المحرث العظيم الذي ليس له في بلاد الأندلس نظير، ولا أعظم منه بركة.

وقال الرازي في وصف قرطبة: قرطبة أم المدائن وسرة الأندلس، وقرارة الملك في القديم والحديث والجاهلية والإسلام، ونهرها أعظم أنهار الأندلس، وبها القنطرة التي هي إحدى غرائب الأرض في الصنعة والإحكام، والجامع الذي ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه.

وقال الحجاري: كانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام، ومجتمع علماء الأنام الأعلام، بها استقر سرير الخلافة المروانية، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدِّية واليمانية، وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء، إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب، وبها أُنشئت التأليفات الرائعة، وصُنفت التصنيفات الفائقة، والسبب في تبريز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم أن أفقهم

القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب.

وقيل في صفة أهلها من حيث أهواؤهم وسلوكهم: ومن محاسنها ظرف اللباس، والتظاهر بالدين، والمواظبة على الصلاة، وتعظيم أهلها لجامعها الأعظم، وكسر أواني الخمر حيثما وقع عين أحد من أهلها عليها، والتستر بأنواع المنكرات، والتفاخر بأصالة البيت وبالجندية وبالعلم، وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيُّن والرياسة، حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها من الكتب ليس إلا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصّله وظفر به.

وقيل في وصف قرطبة: إنه قصر أولي، تداولته ملوك الأمم من لدن عهد موسى النبي صلى الله على نبينا وعليه وسلم، وفيه من المباني الأولية والآثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السالفة ما يعجز الوصف، ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان ـ منذ فتح الله عليهم الأندلس ـ في قصرها البدائع الحسان، وأثروا فيها الآثار العجيبة والرياض الأنيقة، وأجروا فيها المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة.

على أن قنطرة قرطبة إحدى عجائب الدنيا، بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبدالرحمٰن بن عبيد الله الغافقي، وطولها ثمانمائة ذراع، وعرضها عشرون ذراعاً، وارتفاعها ستون ذراعاً، وعدد أبراجها تسعة عشر برجاً.

وقالوا في ذكر قرطبة: أما ما اشتمل عليه غرب الجزيرة، من البلاد الخطيرة، فمنها قرطبة، وكانت مقر الملك ودار الإمارة، وأما ما عداها من البلاد فقد افتتحها المسلمون سنة اثنين وتسعين زمن الوليد بن عبد الملك إلى أن خرجت عن أيديهم، وتنقلت في أيدي ملوك المسلمين إلى أن وصلت إلى الناصر عبدالرحمٰن، فبنى في تجاهها مدينة سماها الزهراء، يجري بينهما نهر عظيم.

وقال بعضهم: كانت قرطبة قاعدة الأندلس، وأم المدائن، وقرارة الملك، وكانت عدة الدور في القصر الكبير أربعمائة دار، ونيفاً وثلاثين، وكانت عدة دور الرعايا والسواد بها مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار، حاشا دور الوزراء وأكابر الناس.

وكانت عدة المساجد بها ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وثلاثين مسجداً، وعدد الحمامات الظاهرة للناس سبعمائة حمام، وقيل: تسعمائة حمام.

وقال بعض المؤرخين: إن عبدالرحمٰن الداخل لما استقر أمره وعظم، بنى القصر بقرطبة وبنى المسجد الجامع وأنفق عليه ثمانين ألف دينار، وبنى بقرطبة الرصافة تشبيهاً برصافة جده هشام بدمشق.

وقال مؤرخون آخرون في ذكر قرطبة: إنها قاعدة بلاد الأندلس ودار الخلافة الإسلامية، وهي مدينة عظيمة، وأهلها أعيان البلاد وسَراة الناس، في حسن المآكل والمشارب والملابس والمراكب وعلو الهمم، وبها أعلام العلماء وسادات الفضلاء وأجلاد الغزاة وأنجاد الحروب، وهي في تقسيمها: خمس مدن يتلو بعضها بعضاً، وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز، وكل مدينة مستقلة بنفسها، وفيها ما يكفي أهلها من الحمامات والأسواق والصناعات، وطول قرطبة ثلاثة أميال في عرض ميل واحد، وهي في سفح جبل مُطل عليها، وفي مدينتها الثالثة وهي الوسطى، القنطرة والجامع الذي ليس في معمور الأرض مثله.

مدينة الزهراء:

أما الزهراء، فهي مدينة الملك التي اخترعها أمير المؤمنين عبدالرحمٰن الناصر لدين الله، وهي من المدن الجليلة العظيمة القدر.

وذكر المؤرخ أبو مروان بن حيان صاحب الشرطة: إن مباني الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية، ما بين كبيرة وصغيرة، حاملة ومحمولة، ونيف وثلاثمائة سارية، منها ما جلب من مدينة رومة، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية، وإن مصاريع أبوابها صغارها وكبارها كانت تنيف على

خمسة عشر ألف باب، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه، والله سبحانه أعلم، فإنها كانت من أهول ما بناه الإنسان وأجله خطراً، وأعظمه شأناً.

وقال ابن أصبغ الهمذاني: كان الناصر كلفاً بعمارة الأرض وإقامة معالمها وانبساط مجاهلها، واستجلابها من أبعد بقاعها، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان، وعلو الهمة، فأفضى به الإغراق في ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره، الذائع خبره، المنتشر صيته في الأرض، واستفرغ جهده في تنميقها، وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها، وانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث جمع متواليات(١).

غرناطة:

أما غرناطة فقد اجتمعت فيها ظواهر العزة للإسلام والمسلمين، وبذلك طالت مقاومة غرناطة للمعتدين أكثر من غيرها، وهي بسقوطها انهارت دولة الإسلام في هذه البلاد.

على أن غرناطة ذات منزلة عظيمة في كل معالم الحضارة الشامخة لا تقل عن منزلة قرطبة في ذلك.

والذي يجدر ذكره هنا ما للفكر الإسلامي المنبعث من الأندلس من بالغ الأثر في حياة الأوروبيين، أولئك الذين انعكست عليهم حضارة الأندلس بروائعها العلمية والجمالية والفنية.

فذلكم العلامة الفذ الكِنْدي بنظريته في مصادر المعرفة التي لم تزل مدرسة «كانت» تعنى بها حتى زماننا هذا، ومصادر المعرفة عند الكندي هي: الحواس، والعقل، والخيال.

وذلكم الفارابي أحد المناطقة المشاهير، الذي انعكست نظريته في ذلك على الباحثين الأوروبيين الذين كانوا معنيين بالمنطق، وقد أخذ

---

(١) نفح الطيب ج٢ ص٨٦ ـ ٩٠، وانظر: تاريخ المسلمين في الأندلس ص١٠٧ ـ ١٠٩.

موسى بن ميمون عن الفارابي نظريته التي يستدل بها على وجود الله، ثم تلقاها عن ابن ميمون توماس الأكويني، وشاعت هذه النظرية في الغرب حتى وقف عليها الفيلسوف كانت.

أما ابن سينا فله تلاميذ غربيون ساروا على نهجه وتأثروا به، ومن جملتهم الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون، والقديس توماس، وألبرت العظيم، ودانتي، حتى إن بعضهم جعله نداً لجالينوس في الطب ومتفوقاً عليه في الفلسفة.

أما التصور الذي طرحه ابن الطفيل في كتابه «حي بن يقظان» فقد شاع في أوروبا واستيقنه كثيرون، وذلك عقب ترجمة هذه القصة إلى اللاتينية، وقد نشرت الترجمة مع النص العربي لها في أكسفورد عام ١٦٧١م، ثم ترجمت بعد ذلك إلى أكثر اللغات الأوروبية، ومقتضى هذا التصور الذي طرحه ابن الطفيل هو أن الإنسان يستطيع أن يعرف الله بدون وحي.

ويمكن التعليق على هذا التصور أنه إن كان المراد به الفطرة البشرية السليمة التي تنشأ - لا محالة - على الإيمان بالله إذا سلمت من الأدران والعيوب التي يصطنعها الأشرار المعوقون من شياطين الإنس والجن، فذلكم نسلم به، لأن الإنسان بطبيعته قد خلقه الله على فطرة الإيمان السليم والتوحيد الخالص بعيداً عن كل ظواهر الإلحاد أو الشرك، ويؤيد هذه النظرة ما ورد في الحديث القدسي عن الله جلّ شأنه إذ يقول: **«خلقت عبادي حنفاء ثم اجتالتهم الشياطين عن دينهم»**.

أما إن كان يريد بذلك الاستغناء الكلي عن جلال الله في عقيدته وتشريعه ونظامه الكامل للحياة ليهتدي الإنسان بعد ذلك بقدراته العقلية، فذلكم تصور سقيم ومحض باطل وهراء.

وأما الفيلسوف ابن رشد، فقد كان ذكره مستطيراً في الآفاق، وخصوصاً في أوروبا التي شغلتها فلسفة هذا المفكر الشهير، حتى صارت فلسفته في إيطاليا الفلسفة الرسمية التي تدين بها الفئات المثقفة من الناس.

وذلك نزر يسير مما يقال عن حضارة المسلمين في الأندلس، وهي

حضارة شامخة سامقة مميزة، استفادت منها أوروبا عظيم الفائدة. فكانت لها الأساس الركين الذين انبنت عليه الثورة العلمية في المجتمعات الغربية، وهذه حقيقة أنطقت الكثير من المفكرين والباحثين الأوروبيين المنصفين، إذ يعترفون بفضل الثقافة الإسلامية على المجتمعات الأوروبية.

فذلكم العالم الفرنسي جوزيف كالميت يقول في كتابه «تاريخ إسبانيا»: قد يظهر للوهلة الأولى أن تعارض الدينين كان يمكن أن يكون عقبة كأداء أمام تبادل التأثير بين الثقافتين، ولكن الحق أن هذه العقبة لم تقم على الأرض الإسبانية، فالظاهرة الملحوظة كانت ظاهرة عمل متبادل مستمر متغلغل إلى الأعماق، على أن وصف هذا التأثير بالتبادل فيه شيء من التجوز لأن الجانب الإسلامي كان أكثر نشاطاً، أي أن الإسلام هو الذي قدّم عنصر الإنتاج، وأن العالم المسيحي هو الذي تلقى الأثر الانفعالي.

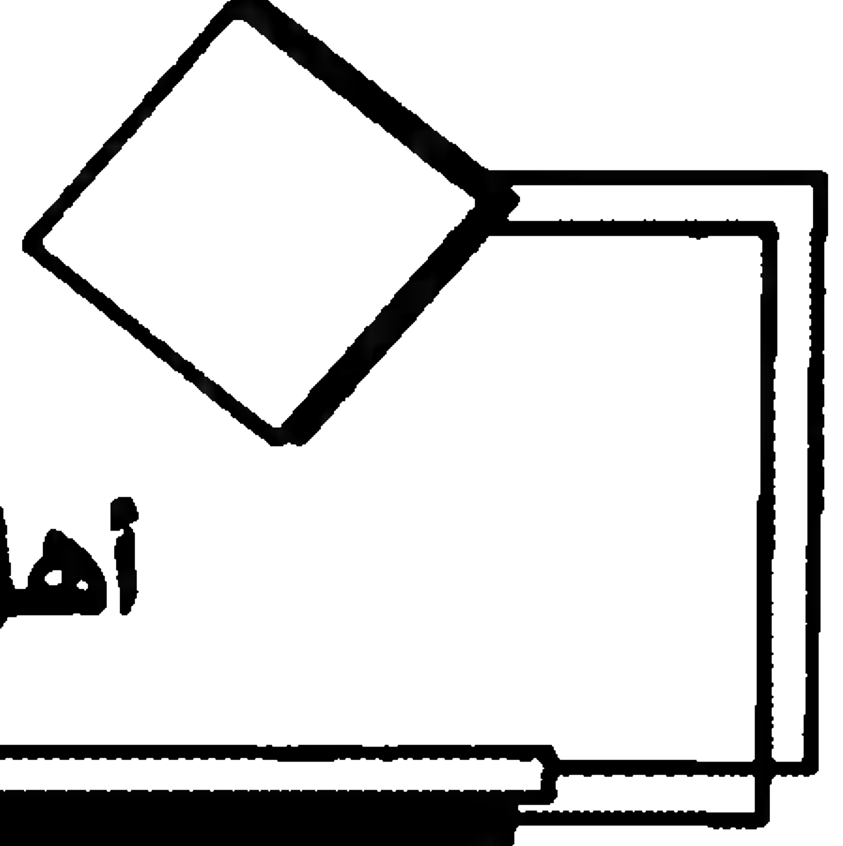
وذلكم العالم الشهير غوستاف لوبون يقول في كتابه «حضارة العرب»: إنما من العرب وحدهم أخذ سكان أوروبا إلى جانب قوانين الفروسية، الاحترام والتلطف اللذين تفرضهما هذه القوانين عليهم للمرأة فرضاً، فليست المسيحية ـ كما يظن الغربيون ـ هي التي رفعت المرأة، وإنما هو الإسلام.

ويقول أناتول فرانس في كتابه «الحياة مزدهرة»: إن أشأم (من الشؤم) أيام التاريخ هو يوم معركة بواتيه سنة ٧٣٢م حين تقهقرت العلوم والفنون والحضارة العربية أمام البربرية الفرنجية.

ويقول بيكر: ازدهرت حضارة المسلمين في إسبانيا وصقلية ازدهاراً عظيماً، ومنهما انتقل تأثير الحضارة الإسلامية إلى فرنسا وإيطاليا، فقد نفذت فلسفة قرطبة وحكمة معلمها الكبير ابن رشد إلى جامعة باريس، وتجمّلت بالرمو ببيوت عربية الطراز، وارتفع شأنها بالجغرافيين والشعراء منهم تحت حكم ملوكها النورمانديين وخلفهم فريدريك الثاني[(١)].

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي د. أحمد شلبي ج٤ ص١٠٨ ـ ١١١، وانظر: ظهر الإسلام تأليف: أحمد أمين ج٣ ص٢٣٢ ـ ٢٦٨.



الفصل التاسع
أهل الذمة في الأندلس

لفظ الذمة والذميين تعبير إسلامي، وهو تعبير سليم ومعقول، لو أُمعن فيه النظر، فما ينبغي لأحد أن يَعجل في جهالة فيقدح أو يطعن أو يتسخط من هذا اللفظ في غير ما إدراك أو تبصُّر بحقيقة هذا المسمى المنضبط الموزون الذي أطلقه الإسلام على غير المسلمين من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، ثم يلحق بهم المجوس.

والذمة أو الذمام في لغة العرب وشريعة الإسلام بمعنى العهد والأمان والضمان والحرمة والحق والكفالة، وفلان له ذمة، أي حق، وسمي أهل الذمة بهذا الاسم لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم، أو لأن لكل واحد منهم عند الله عهداً بالحفظ والكلاءة(١).

ذلك هو جملة المقصود بمصطلح الذمة، وأهل الذمة، وهو مصطلح إسلامي كريم يشي بالتكريم والاعتبار لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، تعظيماً لأنبيائهم ومرسليهم، وتقديساً لكتبهم المنزلة من السماء، فضلاً عن نظرة الإسلام السامية لبني البشر ما داموا يستظلون بأفياء الرسالات والديانات السماوية.

وعلى هذا فإن من مقتضيات الذمة التي قررها الإسلام لشطر من عباده

---

(١) لسان العرب لابن منظور ج١٢ ص٢٢١.

أن يكون أهل الكتاب في أمان الإسلام وفي عهد المسلمين ورعايتهم، إذا ما ارتضوا العيش في ظل الدولة الإسلامية التي تسوس الناس بسياسة العدل والاستقامة، بعيداً عن كل ظواهر التعصب أو الجور أو الجنوح.

على أن أهل الأندلس المسيحيين كانوا هم الكثرة الكاثرة في تلك البلاد، وذلك عقب الفتح الإسلامي، ثم ما لبث عددهم يقل رويداً رويداً نتيجة لاعتناق الكثيرين منهم ملة الإسلام، هذه الملة السهلة الميسورة التي يتجلى فيها اليسر والبساطة والواقعية، بعيداً عن كل أشكال الضلالات والعقد التي كانت تصطدم بها طبائع المسيحيين وعقولهم في ظل الطغيان الكنسي العاتي، الذي كانت ترسف فيه الشعوب الأوروبية وهي تكابد الويلات من فظائع الكنيسة بكلكلها الثقيل المنكود، وبظلامها الكالح البشع الذي استحوذ على القلوب من الأحرار والمفكرين والعلماء، فسامها الرعب والفزع، حتى إذا استشرف الناس من غير المسلمين روعة هذا الدين الجديد بسماحة عقيدته، وكمال تشريعه وتعظيمه المميز للعقول، بادروا الدخول فيه أفواجاً، ونخص بذلك النصارى، ثم من بعدهم اليهود، فقد كان هؤلاء جميعاً يحيون إلى جانب المسلمين في أمن وأمان، وفي خير وبحبوحة وسلام، لا يمسهم شيء من سوء أو أذى، وذلك إذا ما أدوا الذي عليهم من جزية للدولة الإسلامية، والجزية مقدار هين من المال يكون الحد الأدنى فيه ديناراً واحداً يلتزم بأدائه كل رجل بالغ عاقل حر مقتدر، وبذلك لا يكلف بالجزية كل من الصغار أو النساء أو الفقراء أو الشيوخ الكبار ولا العاجزون عن الكسب ولا الأجراء، فضلاً عن أصحاب الصوامع الذين لا يبرحون بيوت عبادتهم منقطعين لها[١].

وبذلك فإن الجزية مبلغ صغير وهين من المال، وهو دون الزكاة التي يؤديها المسلمون، والذمي إنما يؤدي الجزية إسهاماً منه في بناء الدولة التي تكفل له الأمن والسلامة والعيش الكريم، وتدرأ عنه كل العوادي والشرور، ليكون في مأمن وصون وتكريم.

---

(١) نيل الأوطار للشوكاني ج٨ ص٦٤.

ولقد كان المسلمون في الأندلس يعاملون الناس من غير المسلمين في تسامح كريم وخلق فاضل مرغوب، وهم لا يحدوهم في ذلك إلا عقيدة الإسلام بقيمها ومثلها وتصوراتها الرفيعة الراقية، مما يحرض على الحدب على البشرية والرحمة بأهل الكتاب خاصة، ومعاملتهم بالرفق والعدل والتسامح، حتى أفضى ذلك إلى نتيجة حقيقية محسوبة لا شك فيها، وهي الإقبال الهائل من المسيحيين على الدخول في هذا الدين، وقد تحقق ذلك في البلاد التي وطئتها أقدام المسلمين وساسها الإسلام بنظامه الواسع الشامل، حتى إذا استيقن الناس عدل الإسلام وروعة نظامه الرحيم بادروا الدخول فيه جماعات ووحداناً.

لقد كفل المسلمون للنصارى واليهود في الأندلس حريتهم التامة في العبادات والمعاملات وغير ذلك من وجوه التصرف التي قررتها دياناتهم، وكذلك كفلوا لهم تمام الكرامة ليمضوا في البلاد آمنين مطمئنين، وقد ترك المسلمون نصارى الأندلس أحراراً ينظمون أمورهم على نحو ما يبتغون، فكان لهم نظامهم المدني الذي كان جارياً عليهم أيام القوط، بل وأقام المسلمون على أهل الذمة من النصارى رئيساً فيهم لقبوه قومس الأندلس أو زعيم نصارى الذمة، وأفاضوا عليه بالجزيل من التكريم والاعتبار، فكان بذلك على رأس النصارى في كل ناحية من نواحي البلاد قومس، لأن كل ناحية في إسبانيا كان لها قومس في أيام الرومان ثم القوط من بعدهم، فأقرهم المسلمون على هذا الحال شريطة أن ينتخبه النصارى بأنفسهم خلافاً لما كان عليه الحال زمن القوط، إذ كان ملك القوط يعين القمامسة من أصحابه والمقربين إليه.

وبالرغم من كل ذلك لم يتورع كثير من المؤرخين الغربيين الذين تتجرجر في نفوسهم مشاعر التعصب الأعمى والكراهية العمياء ـ من أن يصوروا للناس ما أصاب الكنيسة الإسبانية من الأذى والتخريب على أيدي المسلمين ـ لا جرم أن هذا التجني الفاجر تدحضه حقائق التاريخ المبرأ من كل زيف وتلاعب، والذي يشهد للمسلمين بالصدق والعدل وفضائل الأخلاق، وأصدق دليل على ذلك شهادة الواقع في إقبال أهل الكتاب،

وبخاصة النصارى، على الإسلام ليعتنقوه عن مودة واقتناع وطواعية، دون قسر أو إكراه[1].

وما الذي نقوله في هذا الصدد من التجني الكذوب الفاضح، عن مقارفات الغزاة المحتلين من النصارى الذين انقضوا على البلاد في فظاعة ووحشية، يقتلون أهلها تقتيلاً، ويسومونهم من ألوان القمع والإبادة والتنكيل ما تقشعر من هوله الأبدان، وتضطرب من شناعته القلوب والأعصاب، فتلكم حضارة زاهرة شامخة بأمجادها العوالي طُحطحت وأُزيلت بقوة التنكيل الغاشم وفظاعة التعصب الجهول الظالم، فضلاً عن سياسة الإبادة والتطهير العرقي الذي مارسه الظالمون المتعصبون في حق المسلمين في بلاد الأندلس، فلم ينج منهم غير الذين لاذوا بالفرار إلى خارج الديار، أو الذين اعتنقوا النصرانية تحت وطأة الترهيب وطلباً للنجاة من الموت.

على أن المسيحية نفسها غير واضحة المعالم والتصورات لدى المسيحيين أنفسهم، فكانت المجامع الدينية في الشرق والغرب تجتهد لتبين للناس حقيقة العقيدة المسيحية، كان كل مجمع ينشر على الناس ما يجده صحيحاً، أو يقرر أنه الصواب ليحمل الناس على الأخذ به، وكان من شدة الخلاف ما بين المجامع فيما تصوره من تفسيرات متباينة، يبدو وكأن كلاً منها ينادي بدين مختلف عن دين المجمع الآخر، فكانت الكنيسة الشرقية ذات المذهب الأرثوذكسي، تظن أن مذهبها هو الصائب القويم، وكذلك الكنيسة الغربية ذات المذهب الكاثوليكي تظن أنها على الحق وأن غيرها الباطل، وكانت كل كنيسة تنظر بعين التكفير للأخرى، بل كان في داخل كل من الكنيستين أكثر من مذهب، فكانت بين المذاهب المختلفة حرب كلامية مستطيرة تنم عن بالغ الكراهية والفرقة والنفور بين الواحد والآخر، ومثل هذا الحال من النفور والمباغضات كان مركوزاً بين البابوات والمطارنة والأساقفة، ويضاف إلى ذلك اشتداد الخلاف بين هؤلاء جميعاً في قضايا العقيدة.

---

(١) فجر الأندلس د. حسين مؤنس ص٤٤٥ ـ ٤٦٦.

أما عامة الناس من غير رجال الكنيسة والدين، فكان أكثرهم من الجهلة الأميين، وكانوا يتشبثون بالكهنة والسحرة والمشعوذين، إلى غير ذلك من صور الجهالات والضلالات، التي تكشف عن فداحة العماية والتخلف وانحطاط الأذهان والتصورات التي هبطت إليها المجتمعات المسيحية في أوروبا، في ظل الكنيسة المضطربة المتسلطة، ورجالها الظالمين الموغلين في أوهام المعتقدات المضللة، والسادرين في اضطهاد العباد وظلمهم.

وقد ظل الحال لدى المجتمعات المسيحية في إسبانيا على هذه الحال من اضطراب الآراء واختلاف المذاهب المتنافرة في ظل الكنيسة التي نكلت بالناس أيما تنكيل، وقهرتهم بالغ القهر، فلا تأذن لأحد أن ينبس برأي حر مخالف، فما كان من أحد يجترىء على مثل ذلك إلا كان مآله القتل لا محالة.

أقول: ظلّ حال المجتمعات المسيحية في إسبانيا على هذا الحال، من ظلام التخلف الفكري، واضطراب التصور العقدي، حتى غشي الإسلام هذه البلاد بنوره الساطع المشعشع، وبفكره المستنير الراقي، وبعقيدته الميسورة المبسطة التي تتفق وحقيقة الفطرة البشرية، وتنسجم وطبيعة الإنسان الذهني والنفسي أيما انسجام، فصار الأمر بذلك إلى الإسلام لتتبدد المشكلات العقدية الشائكة لدى الناس، المشكلات الفكرية والملّية المضنية التي شغلت الأذهان وحيّرت العقول وأورثت النفوس عقابيل شتى من التأزم والرهق والمكابدات، فقد دخلت الغالبية العظمى من المسيحيين في الإسلام ليجدوا فيه الحل لكل مشكلاتهم الفكرية والنفسية والمذهبية، فألفَوْا بذلك ضالتهم المنشودة في الإسلام حيث البساطة والوضوح واليسر، بعيداً عن كل ظواهر التكلف والتخبط والقلق والخوف، فضلاً عن تنفُّس الناس الصعداء بانقشاع الغمة المنكودة من إرهاب الكنيسة[1].



(١) فجر الأندلس ص٤٨٠ ـ ٤٩٨.



الفصل العاشر

حال اليهود في ظل المسلمين بالأندلس

من الحقائق الجلية لتاريخ اليهود أنهم كابدوا من شدائد التنكيل والمهانة عبر تاريخهم الطويل، وذلك على أيدي الساسة والحكام الذين أذاقوا اليهود ضروباً شتى من القمع والإذلال، أو القتل والتهجير وكان ذلك في كثير من البلدان في المشرق والمغرب.

ومن جملة الذين ساموا اليهود التعذيب والنكال، الدولة الرومانية إذ وقفت من اليهود موقف العداء والاضطهاد، وقد بلغ التنكيل بهم ذروته حين قضى الرومان على دولة اليهود في فلسطين فدمّروا بيت المقدس وهدموا معبد سليمان الذي يسمونه الهيكل وذلك عام ٧٠ للميلاد، فما لبث اليهود عقب ذلك أن تفرقوا في مناحي الأرض أشتاتاً بدداً تحت وطأة الطغيان الروماني، إذ قتل منهم شطر كبير ثم أخرج الباقون ليولوا هائمين على وجوههم مدبرين.

ولعل السبب في مثل هذه الكراهية من الرومان المسيحيين لليهود، ما استقر في أذهانهم من أفاعيل اليهود الغاشمة في المسيح عليه السلام وأصحابه، إذ ساموهم العذاب والتنكيل، ومن هنا حرص المسيحيون ـ عبر زمانهم الممتد ـ على الانتقام من اليهود طلباً للثأر منهم، ولم يجد اليهود حيال هذه الموجات من التنكيل والانتقام، إلا أن يبادروا بالهرب إلى مختلف البلاد، ومنها: إسبانيا والشمال الإفريقي وبلاد المشرق ثم بلاد

الجرمان حتى سواحل البلطيق ثم إلى بلاد الصقالية حتى شواطىء البحر الأسود.

ثم كثرت جماعة اليهود في إسبانيا حتى صاروا الأغلبية في بعض المدن، مثل أليسانة والبيرة، ثم بدأت المجامع الطليطلية تضيّق عليهم الخناق، فأصدر المجمع الطليطلي الثالث قراراً بتعميد الأولاد الذين يولدون من زيجات يهودية نصرانية، ثم تلا ذلك قرار بتخيير اليهود بين التنصر أو الهجرة من البلاد وذلك سنة ٦١٣ للميلاد، فاضطر الكثيرون منهم للهجرة من البلاد، وتظاهر آخرون منهم باعتناق المسيحية وهم اليهود المستترون، ثم زاد القوط من التضييق على اليهود لفرط كراهيتهم وعداوتهم لهم، فقرر المجمع الطليطلي الثامن ضرورة تعميدهم من جديد ثم امتحان نصرانيتهم بتقديم لحم الخنزير إليهم ليأكلوا منه، ثم حرم عليهم أن يقيموا شعائرهم الدينية الخاصة بهم.

وفي هذه الأجواء الرهيبة من التنكيل والترويع والإبادة، لم يجد اليهود بداً من اللجوء إلى الاستتار ليتمكنوا من الكيد للمسيحيين والإيقاع بهم من أجل القضاء على سلطانهم والتخلص من سيطرتهم الغاشمة، ولتحقيق هذه الغاية لم يجد اليهود بداً من ممالأة المسلمين لدى فتحهم الأندلس، فكانوا يعينون المسلمين على المسيحيين إذ يدلونهم على ثغراتهم ليلجوا منها إليهم، فكافأهم المسلمون على ذلك إذ اتخذوا منهم حرساً لما يفتحونه من بلدان بجانب الحرس الإسلامي، ثم لقي اليهود بعد ذلك من المسلمين تسامحاً عظيماً لم يجدوا مثله في ظل المسيحيين، وبذلك كانت لهم بيعهم التي يمارسون فيها طقوس عبادتهم وكامل شعائرم الدينية في كامل من الحرية والأمن.

فلا عجب بذلك أن تكون الأندلس جنة اليهود إبان حكم المسلمين، وبلغ بعضهم من المراتب أن صاروا وزراء، وكان المسلمون ينظرون إليهم كأنما هم إخوان لهم، فباتت الأندلس بذلك موئلاً لليهود، بل إن حركة النشاط للغة العبرية والأدب العبري بدأت في إسبانيا، ثم نشأت وترعرعت في ظل المسلمين.

ومما يجدر ذكره هنا أن أمراء المسلمين وخلفاءهم لم يسنوا قوانين أو تشريعات خاصة باليهود، مما يدل على التساوي التام بين المسلمين واليهود، فلم تكن إذ ذاك مدعاة لقوانين خاصة باليهود منهم من السكان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وذلك بخلاف الواقع الذي كان فيه اليهود تحت سيطرة الكنيسة والنصرانية، فقد أفرد اليهود بمعاملة خاصة ومضايقات كبيرة، ثم ما لبثوا أن قضي عليهم في سائر إسبانيا قضاء مبرماً.

وفي هذا من الدلالة الظاهرة البلجة على فضل المسلمين على اليهود ما لا يحتمل المراء أو الجحود، وهو فضل كبير ومميز، يتغاضى المؤرخون اليهود عن ذكره وتبيانه للناس، فلقد استنقذهم الإسلام والمسلمون من شر القوط وتضييق الكنيسة، فعاشوا في رحاب هذا الدين سالمين آمنين، حتى بادروا بالاندماج في المجتمع الإسلامي عن مودة واقتناع، ثم ما لبث أن أسلم منهم كثيرون، حتى إذا زال مجد الإسلام من الأندلس انتكس اليهود أشد الانتكاس فباؤوا بالإذلال والهوان والتمزق على أيدي النصارى.

وبالرغم مما لقيه اليهود من بالغ التكريم والإحسان وسط المجتمع الإسلامي، لكنهم انقلبوا على أعقابهم جاحدين متمردين على المسلمين عقب انهيار الدولة الإسلامية في تلك الديار، فانفتل اليهود عن المسلمين لينحازوا إلى جانب النصارى الغزاة المحتلين مؤيدين لهم ومماثلين، وصدق القائل الحكيم: اتقِ شر من أحسنت إليه.

أما النصارى الإسبان فكانوا لليهود بالمرصاد، فما أن استتب لهم الأمر في البلاد على أنقاض الحضارة الإسلامية، حتى راحوا يطاردون اليهود قبل أن يطاردوا المسلمين، فما زالوا يلاحقونهم حتى استأصلوا شأفتهم، ولم ينجُ منهم إلا قليل ممن فر بنفسه مدبراً إلى مختلف الآفاق.

وفي ألمانيا وبولندا ونواحي روسيا عاش اليهود في مخابىء وأحياء مقفلة تسمى الجتّو، فلم يبرحوها إلا في العصر الحديث، حتى إذا تجمع اليهود في أيامنا الراهنة نسوا ما أنزله الناس بساحتهم من الويلات والمآسي،

ولم يبقَ لهم من غاية الآن إلا الكيد للمسلمين من أجل القضاء عليهم[1].

وما زال اليهود يتمالأون على المسلمين ويتآمرون عليهم ويكيدون لهم أشد الكيد وذلك بمختلف الأساليب والمؤامرات ليضعفوهم إضعافاً أو يستأصلوهم إن استطاعوا، وقد بلغ كيدهم للإسلام والمسلمين ذروة الغدر الشنيع في اغتصابهم فلسطين ليقيموا عليها دولة الطغيان والعهر والعدوان، وأسموها إسرائيل.

ولئن استطاع اليهود أن يستلبوا فلسطين على حين غفلة من أهلها المسلمين فأنشأوا لهم فيها دولة بنيت على الشر والإفساد والتخريب، فإن أوان الخلاص آت لا محالة، يوم تنطلق جحافل الإسلام من كل مكان لتدك أوكار الظلم والعار والرذيلة فتنسفها من القواعد نسفاً، كيما تعود فلسطين إلى حظيرة الإسلام مثلما كانت، لا جرم أن هذا اليوم آت لا ريب فيه.

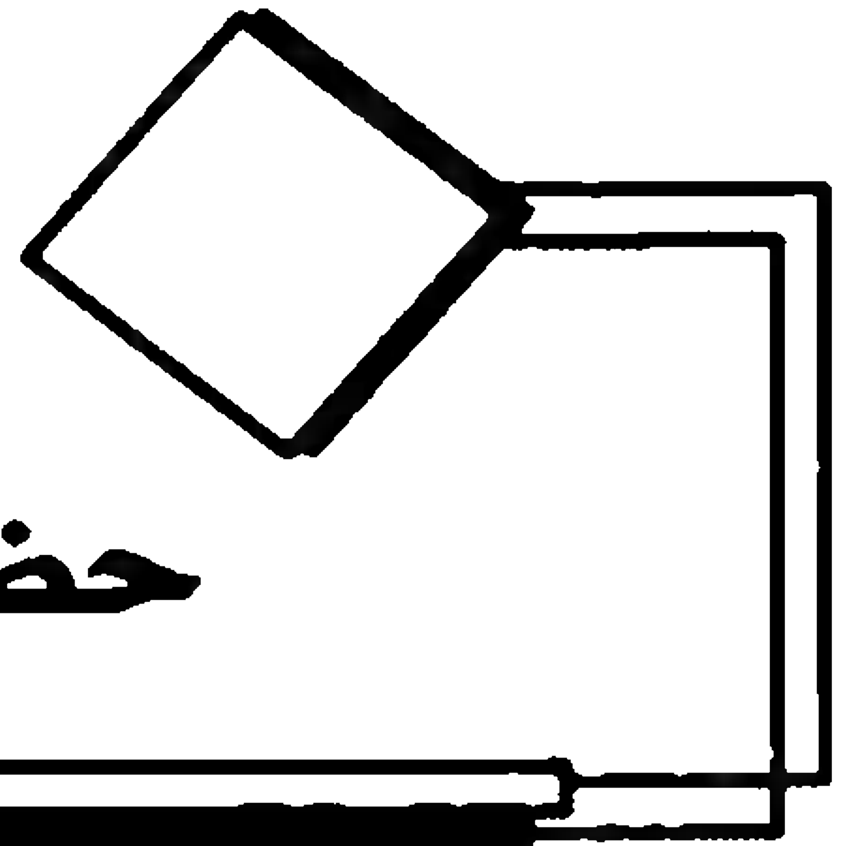


(١) فجر الأندلس ص٥٢٠ ـ ٥٢٨.

الباب العاشر

نظرة عاجلة على الوضع الإسلامي
في بعض دول العالم





الفصل الأول
حضارة الإسلام في الهند

كيفية فتح الهند ووصول الإسلام إليها:

كانت الصلة قائمة بين الهند والبلاد الغربية من قبل الميلاد، وكان التجار العرب هم السبب لهذه الصلة، فكانوا أكثر البلاد الغربية صلة بالهند، وذلك لقرب بلادهم من الهند، إذ تقع بلادهم على بحر العرب مثلما تقع الهند، وكانت سفنهم تنقل التجارة بين بلادهم والهند، فكان التجار العرب بذلك أكثر من غيرهم صلة بالهنود، وكانوا أكثر دراية وخبرة من غيرهم في هذا المجال إذ كانوا يذهبون إلى ما وراء الساحل الطويل لبحر العرب فكانوا يذهبون إلى خليج البنغال وبلاد الملايو وجزر أندونيسيا.

ولما ظهر الإسلام ودخل العرب فيه أفواجاً، قام التجار الذين يجوبون مختلف البلاد القريبة والنائية، بحمل هذا الدين الجديد إلى الهند، فحدثوا الناس هنالك في حماسة وإيمان عظيمين عن طبيعة هذا الدين المميز المفضال وعن روعة هذا النبي الصادق الأمين محمد ﷺ، وعن رسالته الكريمة الشاملة التي تدعو الناس إلى الإخاء والمساواة والعدل والرحمة، وتحذرهم من الظلم والفساد والشر وكل ألوان الباطل والرذيلة، فبادر الناس في تلك البلاد لاعتناق الإسلام بعقيدته الصادقة السمحة القائمة على التوحيد الخالص المبرأ من كل صور الشرك والضلال والوهم.

وفي هذا الصدد كتب الباحث الهندي الدكتور تاراشند فقال: أما كيف

وصل المسلمون إلى الهند، فنقول: إن الروابط بين الهند والبلاد الغربية: القطر العربي وفلسطين ومصر، قديمة جداً، فالملك سليمان كان يستورد الذهب والفضة والعاج والطواويس من بلاد الهند، وقد أنشأ البطالسة موانىء على البحر الأحمر لتنشيط التجارة الهندية.

وكان من الطبيعي أن يهتم العرب بالتجارة بين الشرق والغرب، وقد فعلوا ذلك، وقال: قال رينود: كل شيء يحملنا على اليقين بأن العرب باشتراكهم مع الفرس تمتعوا في هذه السواحل الهندية إلى القرن الرابع عشر، بالنفوذ الذي تمتع به البرتغاليون من بعدهم.

وكانت السفن العربية تبحر من سواحل البحر الأحمر أو من السواحل الجنوبية فتتجه إلى مصب السند أو ساحل مليبار، وكانت الرياح تسهل مجراها إلى كولم والموانىء الأخرى، كما كانت السفن المبحرة من الخليج الفارسي تتخذ نفس الطريق وبمساعدة الرياح تصل جزائر الملايا وساحل الصين.

ومن هذا القرن ـ أي الثامن الميلادي ـ أخذ نفوذ المسلمين يزداد، وفي خلال المائة التالية استقروا بساحل مليبار كل الاستقرار ورحبت بهم الحكومة الوطنية كتجار، وسهّلت لهم السبل للمكث والتملك، وأطلقت لهم الحرية الدينية.

وقبل أن يتقدم القرن التاسع انتشروا (العرب المسلمون) على ساحل الهند الغربي كله، وأحدثوا ضجة بين أبناء البلاد من الهندوسيين بمعتقداتهم وعباداتهم وتحمسهم لنشر دينهم.

ومما يذكر في هذا الصدد، أن الهند الجنوبية كانت حينذاك مسرحاً للنزاعات الدينية بين الهندوسية والبوذية والجينية، وكذلك الحال من الناحية السياسية.

ومن أجل ذلك كان الناس في هذه البلاد أولي رغبة واستعداد لتقبل مذهب جديد يرسخ فيهم الرحمة والعدل والمساواة، ويبدد من بينهم كل ضروب الشقاق والمنازعات والمباغضات والكراهية التي تمخضت عنها

عقولهم الجانحة الواهمة وثقافاتهم المضللة، حتى إذا جاءهم الإسلام بعقيدته المبسطة السليمة، عقيدته التي بنيت على التوحيد والمراعية للفطرة الإنسانية تمام المراعاة، والتي تنفر من كل ألوان الضلالات والخرافات والأوهام، بادروا الإقبال على هذا الدين والدخول فيه طائعين راغبين[1].

أما التفكير في فتح الهند، فقد كانت بداية ذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد كان واليه على البحرين وعمان عثمان بن أبي العاصي الثقفي، قد فكر في المسير بجيشه إلى الهند عام ١٥ هجري.

ويقول البلاذري في كتابه «فتوح البلدان»: ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عثمان بن أبي العاصي الثقفي البحرين وعمان سنة ١٥ هجري، فوجه هذا أخاه الحكم بن أبي العاصي إلى البحرين ومضى إلى عمان، فأقطع جيشاً إلى تانه، شمال بومباي، فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه بذلك، فكتب إليه عمر: يا أخا ثقيف حملت دوداً على عود، وإني أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم. ووجّه أخاه المغيرة بن أبي العاصي إلى خور الديبل فلقي العدو فظفر به.

والذي يتضح من كلام عمر رضي الله عنه لواليه، خشيته على المسلمين من هذه المجازفة التي تحف بها المخاطر وهم يركبون البحر قاصدين الهند.

على أن الوالي عثمان بن أبي العاصي قد استعان في مهمته الصعبة هذه بالسفن العربية وبحارتها المسلمين الذين كانوا أولي خبرة ومعرفة بهذه البلاد، إذ كانوا سادة البحر في هذه البلاد من قديم، وليس ثمة شيء يخشى منه على المسلمين، غير أن الخليفة عمر رضي الله عنه كان يخشى على المسلمين من مغبة هذه المجازفة واحتمالاتها، وذلك لفرط حرصه البالغ على سلامة المسلمين، لكن عثمان بن عفان رضي الله عنه لم يوافق عمر على هذه الفكرة لدى تقلده الخلافة بل أذن لمعاوية بن أبي سفيان بالغزو

---

(١) تاريخ الإسلام في الهند ص٦٥ ـ ٧٠ تأليف د. عبد المنعم النمر.

عن طريق البحر، ثم بدأ فيما بعد، يفكر في الهند، وفي هذا الصدد قال المؤرخ البلاذري: فلما ولي عثمان رضي الله عنه وولى عبدالله بن عامر بن كريز العراق كتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يعلم علمه فيرجع إليه بخبره.

فبعث حكيم بن جلبة العبدي، فلما رجع أوفده إلى عثمان فسأله عن حال البلاد فقال: يا أمير المؤمنين، قد عرفتها، قال: فصفها لي، قال: ماؤها وشل[1] وثمرها دقل[2]، ولصها بطل، إن قلّ الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا، فقال له عثمان: أخابر أم ساجع؟ قال: بل خابر، فلم يغزها أحد.

وفي عام ٣٩ للهجرة في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه توجه إلى ذلك الثغر من الهند الحارث بن مرة العبدي متطوعاً بإذن علي، فعاد ظافراً غانماً.

وقد ظلّ القادة المسلمون يطرقون الهند من حين لآخر ويصيبون من أطرافها ما يصيبون، حتى كان زمن الحجاج بن يوسف، وهو عامل الوليد بن عبد الملك على العراق، وحينئذ بدأت الحملة المنظمة تتجه نحو الهند لفتحها وضمها إلى البلاد الإسلامية.

وكان الحجاج قد بعث حملة على رأسها ابن أخيه الشاب الشجاع محمد بن قاسم الثقفي وذلك عام ٩٢ للهجرة الموافق عام ٧١١ للميلاد وكان عمره حينئذ عشرين سنة، وقد جهزه الحجاج بجيش قوي حشد له فيه كل ما استطاع من العدة والعتاد، فسار محمد بجيشه من جنوب فارس حتى وصل الديبل يوم جمعة، وكان أهلها شغوفين بعبادة الأصنام، وقد أمر محمد بن قاسم جنوده أن يرموا أصنامهم بالمجانيق فكسروها تكسيراً، ثم

---

(١) وشل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة، انظر: المعجم الوسيط ج٢ ص١٠٣٥.

(٢) دقل: أردأ التمر، انظر: مختار الصحاح ص٢٠٨.

اقتتل المسلمون والمشركون فكانت الغلبة بعون الله للمسلمين، واتجه محمد بجيشه صوب الشمال من البلاد قاصداً الرور، وكان كلما دخل بلداً قابله أهلها مستسلمين طالبين الأمان حتى وصل إلى «ملتان» فقاتله أهلها ثم باؤوا بالهزيمة.

وبينما كان هذا القائد المظفر يحظى بالغلبة على الأعداء وينتقل من نصر إلى نصر آخر عازماً على الاستمرار في فتح البلاد الهندية، فوجىء بخبر وفاة عمه الحجاج عام ٩٥ للهجرة، ثم تبعه في الوفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي كان معواناً له ولعمه الحجاج، فتولى من بعده الخلافة سليمان بن عبد الملك وكان مبغضاً للحجاج وأسرته أشد البغض، فأمر بعزل محمد بن قاسم، وأمر بحمله مقيداً بالسلاسل إلى العراق مع معاوية بن المهلب، فسجن في واسط وظل رهين سجنه حتى مات، بعد أن أوذي وعُذب، وقد حزن عليه الكثيرون من أهل الهند فبكوه وبكاه الشعراء الذين راحوا يذرفون لفراقه الأحزان والمراثي.

وعقب وفاة محمد بن قاسم ثارت القلاقل والفتن في البلاد المفتوحة، حتى كان عهد الخليفة العظيم العادل عمر بن عبد العزيز، فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يظلوا في مراكزهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وكانت سيرته العطرة قد طرقت أسماع هؤلاء فأسلم بعضهم وتسموا بأسماء عربية.

ولما انتقل الحكم إلى الدولة العباسية انتقل كذلك حكم السند إليها، وأرسل خلفاء الدولة العباسية الولاة إلى السند فجعلوها تابعة لهم، حتى إذا كان عهد الخليفة أبي جعفر المنصور تم فتح كشمير والملتان.

واستمر الأمر على هذه الحال إلى أن ضعف الخليفة العباسي، وأخذت أطراف البلاد تنفصل عن سلطان السند لتقوم فيها ولايتان للمسلمين، ولاية في الجنوب وعاصمتها ملتان، وشاع في الولايتين الأمن والاستقرار، وازدهرت فيهما العلوم وغيرها من ظواهر الحضارة العباسية، فكان المسلمون في بلاد السند وكشمير منطلقاً للدعاة المسلمين كيما يجهدوا

في عزم وحماسة لنشر دعوة الإسلام في بلاد الهند كلها.

ثم ما لبثت هذه الفتوحات المظفرة أن توقفت حتى قيّض الله لهذه الوجيبة العظمى، الفاتح الشجاع والمسلم البارع الجسور السلطان محمود الغزنوي رحمه الله[1].

لقد كان هذا المسلم العظيم راسخ العقيدة شديد الغيرة على الإسلام، إذ حرص رحمه الله بالغ الحرص على نشر هذا الدين وإعلاء شأنه في آفاق الأرض، وبذلك وضع هذا الفاتح الجسور، بجهاده المظفر المتواصل أسس الدولة الإسلامية المكينة في بلاد الهند فظلت عامرة زاخرة مزدهرة نيفاً وثمانية قرون.

وعقب وفاة محمود الغزنوي، تابع خلفاؤه من الملوك الغزنويين حكم الهند، وقد جاء من بعده ولده «مسعود» الذي قتل عام ٤٣٢ للهجرة ـ ١٠٤٠ للميلاد على يد أخيه محمد وأولاده.

وقد تعاقب الملوك الغزنويون على الحكم في غزنة والهند، لكن تنازعهم فيما بينهم أضعفهم أطمع فيهم خصومهم حتى سقطت عاصمتهم غزنة عام ٥٤٧ للهجرة ـ ١١٥٢ للميلاد في عهد آخر ملوكها بهرام شاه، فقامت على أنقاض دولة الغزنويين، الدولة الغورية التي حكمت الهند فترة من الزمن، فكان أول سلاطينهم شهاب الدين الغوري، ثم تولى من بعدهم حكم البلاد المماليك وكان أول سلاطينهم قطب الدين أيبك، ثم انتقل الملك إلى أسرة أفغانية وهي أسرة الخلجي وذلك عام ٦٨٩ للهجرة ـ ١٢٩٠ للميلاد، وكان أول السلاطين الخلجية جلال الدين فيروزشاه، ثم انتقلت السلطنة إلى أسرة طغلق، وهذه هي الدولة الطغلقية، وكان أول سلاطينها غياث الدين طغلق شاه وذلك عام ١٣٢١ للميلاد حتى عام ١٣٢٥ للميلاد، وقد مكث سلطان هذه الأسرة قريباً من قرن، ثم آلت إلى الوهن والانهيار لما دهمها من القلاقل التي صاحبت تغير السلاطين واحداً بعد

---

(١) تاريخ الإسلام في الهند ص٧١ ـ ٧٨، وانظر فتوح البلدان للبلاذري ص٦١٢ ـ ٦٢١.

آخر، فضلاً عن قيام ثورات تطالب بالاستقلال، فقد قامت ثورة من الهندوس في شرق الهند وفي البنجاب، وفي هذا الوقت هجم تيمورلنك على الهند ليجعلها تحت سلطانه ونفوذه، وكان ذلك عام ١٣٩٩ للميلاد.

وقبل ذلك شهدت الهند عدة غارات من المغول، وكان سلاطين المماليك يقومون بالتصدي لهم ودفع عدوانهم عن البلاد، فلم يتمكنوا من ردهم ودفعهم لفظاعة بأسهم وكثرة جموعهم، فكانوا يخرجون من وسط آسيا كالجراد المنتشر الذي يعيث في البلاد الخراب فلا يبقي ولا يذر.

لقد كان هؤلاء المجرمون أشبه بالوحوش الجياع الكواسر المتعطشة للدماء من فرائس الأبرياء، وبذلك انطلقوا من أقبية الظلام والهمجية ليعيثوا في ديار المسلمين تدميراً وتخريباً، وكانوا من عبدة الأوثان وقوى الطبيعة، ومن صفاتهم النزوع للقوة، وإراقة الدماء، وعدم التحرز من كل المعايير الأخلاقية والإنسانية، فراحوا ينهبون ويسلبون ويقتلون. وقد انحدروا من وسط آسيا إلى البلاد الإسلامية فدمروها وحولوها إلى خراب ويباب، وأتوا على حضارتها الزاهرة العامرة وجعلوها صفصفاً تباباً كأن لم تغنَ بالأمس[١].

آثار المسلمين في بلاد الهند:

لقد تأثر المجتمع الهندي بالغ التأثير بثقافة المسلمين وديانتهم، وما تجلى فيهم من تقاليد وآداب، والمسلمون مميزون بصدق عقيدتهم وجليل عاداتهم وتقاليدهم، وبما طبعهم الإسلام عليه من كريم الأخلاق في الخير والبر والرحمة وإكرام الجوار والرأفة بالمخاليق، إلى غير ذلك من وجوه الفنون والأفكار التي شاعت في بلاد الهند بفعل المسلمين وتأثيرهم، والمسلمون حيثما حلوا أو أقاموا تركوا آثاراً قيِّمة وعظيمة، سواء في العقيدة حيث التوحيد الخالص والإيمان السليم الذي ينسجم ومقتضيات النفس السوية، والتفكير السديد، أو في الأخلاق والعادات الطيبة التي ترتضي بها الطبائع السليمة فتبادر لمحاكاتها في رغبة لحّاحة ورغبة ودود.

---

(١) تاريخ الإسلام في الهند ص٨٠ ـ ١٤٢.

وفي هذا الصدد جاء في مجلة ثقافة الهند الصادرة عام ١٩٥٦ عن آثار الإسلام في الهند ما جملته: هو أن النتيجة العظيمة لهذه الآثار، هذا النمو التدريجي للاعتقاد المتسع في وحدانية الله.

وإلى جانب ذلك، تلك الآثار التي تتناول مختلف الضروب الفنية من الرسم والحِرَف وطراز المباني والبيوت، وكذلك في الهندام والألقاب والرياضة.

أما فن البناء فكان أكثر الفروع من الفنون اجتذاباً لاهتمام المسلمين، وكان من أعظم ذلك بناء المساجد والمقابر والقصور، وقد تجسد النبوغ الفني للعمال في رسم الأشكال البديعة على الجدران، وفي التناسق البديع في الأبنية.

وقد أحضر السلطان «بابر» وهو المؤسس العظيم للدولة التيمورية المسلمة في الهند، أحضر إلى الهند معه تحفاً مختارة من الرسوم التي استطاع أن يجمعها من مكتبة أجداده من سلالة تيمورلنك، وقد نقل بعضها إلى إيران «نادر شاه» بعد غزوة الهند.

وقد برهن حفيد «بابر» وهو السلطان «أكبر» على أنه راع عظيم للفن من كل فروعه، وكان له أكثر من مائة مصنع للفنون والحِرَف ملحقة بالقصور الملكية، وكل منها كمدينة.

ويوجد عدد كبير من النماذج الهندية البديعة في مختلف المتاحف الأوروبية، ففي المكتب الهندي بلندن والمتحف البريطاني وبودليان في أكسفورد تحف بديعة نادرة للفن، يصعب على العالم الغربي إعطاؤها حقها من التقدير، وقد أسهم المسلمون كذلك في الرقي بالفن الموسيقي.

أما المكتبات وتنظيمها والعناية بها فقد كان للمسلمين شغف بذلك وعلى رأسهم ملوكهم وحكامهم، ولقد مات السلطان «همايون» وهو أكبر أبناء السلطان «بابر» عقب سقوطه عن السلم وهو نازل من مكتبته التي كان يحب أن يقضي فيها كثيراً من وقته كلما فرغ من مشكلات الدولة والحروب.

هكذا كان أثر المسلمين البالغ في رقي الحياة في الهند وذلك في جميع مظاهر الحياة فيها خلال القرون التي تولوا حكم هذه البلاد فيها.

هذا إجمال مقتضب لما قالته مجلة ثقافة الهند التي تصدرها الحكومة الهندية[(١)].

وقال جوستاف لوبون في كتابه «حضارة الهند»: لقد مارس المسلمون في الهند مثل النفوذ العميق الذي مارسوه في جميع أقطار العالم التي فتحوها، ولا أمة كالمسلمين تم لها من النفوذ البالغ ما تم للمسلمين، ولا تستثنِ الرومان من ذلك، ففي مدة سلطان المسلمين الذي دام في الهند سبعة قرون، غيَّر فريق كبير من الشعب الهندوسي دينه ولغته وفنونه تغييراً عظيماً وظل هذا التغيير بادياً بعد زوال ملكهم[(٢)].

وقال الأستاذ النووي مسعود عالم: كان أهل الهند يعبدون ثلاثين مليوناً من الآلهة منذ قديم الزمان، فلما خالطوا المسلمين وقرع سمعهم صوت الحق، ترقت فكرتهم الدينية وجعل مصلحوهم يغيرون شيئاً فشيئاً.

وقال الميجر ج.د.باسو، وهو من كبار مؤرخي الهنادك في العصر الحاضر: هذه الوثنية الشنيعة والاعتقاد بالخرافات الضاربان أطنابهما في جنوبي الهند، إنما يرجع سببهما إلى انعدام نفوذ الحكومات الإسلامية لا غير.

وقال مؤرخ هندوكي آخر وهو السير ب.س.رائي: أثرت روح الإسلام الديمقراطية أيما تأثير في تقليل مفاسد نظام الطوائف بين الهنادك، فشاع التسامح والوعي في الحياة الاجتماعية للبلاد.

ويضاف إلى ذلك، تأثر الهندوس بعادات المسلمين وتقاليدهم، بل وملابسهم ومعيشتهم، وقد أدى طول حكم المسلمين إلى مشاركة الهندوس

---

(١) تاريخ الإسلام في الهند ص٣١٧ ـ ٣١٩.

(٢) تاريخ الإسلام في الهند ص٣١٩ نقلاً عن كتاب حضارة الهند ص٢١٧ جوستان لوبون.

لهم في بعض مظاهر أعيادهم وفي بعض كلماتهم الدينية، مثل: بسم الله - الحمد لله - إن شاء الله - السلام عليكم.

وباستمرار الحكم للمسلمين في الهند شهدت هذه البلاد عهوداً زاهرة من الناحية العلمية والأدبية والفنية والصناعية والمعمارية، فكانت الهند في ذلك مضاهية لأرقى البلاد في عصورهم بل كانت تفوقها، فكان بلاط الملوك المسلمين ملتقى العلماء والأدباء والفنيين من كل الأقطار فيلقون الاهتمام والتكريم، وبذلك برز في مختلف العهود علماء عظماء كانوا من مفاخر الهند والبلاد الإسلامية كلها، وذلك كالإمام حسن محمد الصَغاني، ومجدد الألف الثاني أحمد بن عبد الأحد السرهندي، والشاه ولي الله الدهلوي، والسيد مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس في شرح القاموس وغير هؤلاء كثيرون من أعاظم العلماء ومشاهيرهم.

وعن شموخ الحضارة الإسلامية في بلاد الهند وعلو شأنها وازدهارها يقول المؤرخ المسلم الأمير شكيب أرسلان: إن المدينة الإسلامية في الهند كانت خلاصة مدنيات عديدة، اجتمعت فيها عناصر الحضارات العربية والفارسية والتركية والمغولية والصينية والهندية والبوذية وغيرها، ولكن الحضارة الفارسية كانت فيها ذات الشِّقص (الجزء) الأوفر حتى صارت الهند بواسطة الإسلام كأنها قطعة من إيران.

ويقول المؤرخ الفرنسي الكبير جوستاف لوبون: والمسلمون حين أدخلوا إلى الهند حضارة العرب أدخلوا معها رغبة كبيرة في العلوم والآداب والفنون، وما شادوه في عواصمهم: أحمد أباد، وآكرا، ودلهي، وبيجابور، وغيرها من المباني ينطق بعظيم حمايتهم للفنون.

وقال المؤرخ الإنجليزي، ونسنت، وهو شديد الكراهية للمسلمين: مما لا ريب فيه أن مدينة، أحمد أباد، كانت من أجمل مدن العالم من بدء عمرانها إلى القرن الثامن عشر للميلاد، أي زهاء ثلاثة قرون.

وقال ابن بطوطة في وصف مدينة دلهي: وهي المدينة العظيمة الشأن، الضخمة، الجامعة بين الحسن والحصانة، وعليها السور الذي لا يُعلم له في

بلاد الدنيا نظير، وهي أعظم مدن الهند، بل مدن الإسلام كلها بالشرق.

وفي جملة الكلام عن تطور الحضارة الإسلامية في الهند وازدهارها، يقول أمير البيان شكيب أرسلان: وبالإجمال فمن شاهد تلك الآثار وقرأ هاتيك الأخبار يعلم أن الإسلام تحقق بحضارة باهرة، وعاش أعصراً زاهرة، واحتوى على مآثر صورية ومعنوية، وفضائل باطنة وظاهرة يحق للمسلمين أن يباهوا بها سائر الأمم.

هذه هي حضارة الإسلام في بلاد الهند، تلك الحضارة الشاملة المعطاءة التي تحقق للبشرية كل وجوه المصلحة في مختلف مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية، وسائر القضايا الشخصية، وغير ذلك من ضروب المعارف والفنون والعمران.

ولقد ظلت حضارة الإسلام في الهند راسخة وطيدة معطاءة، فشاعت في كل مناحي البلاد بعد أن أيقنت الشعوب إيجابية هذه الحضارة، وأنها قائمة على العطاء والعلم والتحرر الإنساني.

ظلت هذه الحضارة الشامخة في بلاد الهند طيلة ثمانية قرون ونصف حتى دهمتها دواهي الكيد الظالم، بعد أن تمالأت قوى الشر من الدول الاستعمارية الغربية على الإسلام وأهله وحضارته في الهند، ويأتي في طليعة الاستعماريين الذين كادوا للإسلام والمسلمين كيداً الإنجليز، لقد استطاع هؤلاء المستعمرون الظالمون عقب جهود هائلة من الكيد والتآمر والتخطيط، أن يبددوا سلطان الإسلام في بلاد الهند وأن يجهزوا على هذه الحضارة العظيمة إجهازاً ليحلوا مكانها حضارتهم وثقافتهم، لقد أفلح الإنجليز في تدمير العزة الإسلامية في تلكم البلاد، ويؤزهم إلى أفاعيلهم النكراء هذه كراهيتهم للإسلام وخشيتهم من سلطانه الذي يأبى المذلة والمهانة والخضوع للظالمين المفسدين[1].

لقد استحوذ الطغيان البريطاني على بلاد الهند، فسام شعوبها الذل

(١) تاريخ الإسلام في الهند ص٣٢١ ـ ٣٣١.

والتنكيل والهوان، على اختلاف مللهم وأديانهم سواء في ذلك المسلمون والوثنيون والهندوس، لكن طغيان الإنجليز كان أشد وطأة على المسلمين من غيرهم، ذلك أن المسلمين أشد ضيقاً ونفوراً من الإذلال والطغيان من غيرهم، فهم مدعوون على الدوام أن يجاهدوا الظالمين من استعماريين ومتسلطين وغيرهم من المعتدين، ويضاف إلى ذلك إحساس الشعوب الأوروبية بعقدة الحقد الصليبي الدفين في أعماق النفوس، لدى تلك الشعوب التي ورثت كراهية الإسلام والمسلمين منذ انهيار الدولة البيزنطية المسيحية على أيدي المسلمين، وانقشاع ظل الصليب عن أكثر بقاع العالم لتقوم مقامه راية الإسلام حيث التوحيد والعدل والإخاء والمساواة.

أما نهب الثروات وسلب الطاقات الهائلة لدى الشعوب الهندية، فذلكم المطلب الأساسي الأعظم الذي يخطط له المستعمرون الإنجليز فتحقق لهم ذلك بالكامل، فلقد سُخرت كل الثروات والقدرات المالية والاستثمارية لحساب الشركات البريطانية، سعياً للسيطرة الاقتصادية على هذه البلاد المنكوبة بالكيد الاستعماري الخبيث الذي يروم الاستئثار بالأموال والخيرات والثروات على حساب الشعوب المستضعفة المستعمرة، الشعوب التي ذاقت مرارة العدوان والتنكيل من المستعمرين، فباتت تكابد الإذلال والافتقار والجوع.

لقد عاشت شعوب الهند تحت وطأة الاستبداد البريطاني لتذوق مرارة القلة والبؤس والمجاعة والحرمان من كل ظواهر الخير والرفاه والبحبوحة، تلك الظواهر التي اغتصبها المستعمرون الإنجليز لتستأثر بها شعوبهم في بريطانيا حيث الترف والبذخ والنعيم، على حساب المظلومين الهنود.

إن هذه الأفاعيل النكراء من جرائم التنكيل والتجهيل والإفقار والإذلال التي مارسها المستعمرون البريطانيون في بلاد الهند، إنما تكشف للعيان حقيقة هؤلاء الظالمين العتاة، الذين تجسدت في سلوكهم وتصرفاتهم حقيقة الأنانية المقيتة في أفظع صورها.

أنانية مطلقة مستهجنة تفوق كل حسبان، إذ تسوّل لهؤلاء الأشقياء أن

يعتدوا على غيرهم من شعوب الأرض الذاهلة، المستغفلة، فتنهب كل خيراتهم وثرواتهم بعد أن سامتهم الإذلال والترهيب والبطش، وجعلتهم أخلاطاً من البشر الجاهل البائس، وذلك بما اصطنعه الإنجليز من أسباب ومخططات شنيعة لا يجترىء على فعلها إلا الأشقياء المناكيد من البشر الظالم الممسوخ!

أين ذلك من سلطان الإسلام في بلاد الهند، هذا السلطان العريق الشامخ الذي أزهر بعقيدته وفلسفته وتعاليمه في تلك البلاد فأشاع فيها الرحمة والمودة والمساواة، وغير ذلك من مظاهر الخير والأمن والاستقرار، فعاش العباد على اختلاف مشاربهم ونحلهم آمنين راغدين في ظل الإسلام الوارف حيث العلم والقوة والثقة والازدهار!

ظلت الهند على حالها من الرزوح تحت وطأة الاستعمار البريطاني إلى أن تحقق الجلاء لهذا الاستعمار الغاشم عن البلاد عام ١٩٤٧.

حقيقة الهنادكة:

يزعم الهنادكة أنهم أصحاب البلاد الأصليون في الهند، مثلما يزعم اليهود ـ كذباً وزوراً ـ أن فلسطين بلادهم، وأنهم وأجدادهم أهلها الأصليون، وكلا الفريقين كاذب ومزوِّر.

على أن هذه البلاد ـ الهند ـ تسمى هندوستان ومعناها بلاد الهنادكة، وهم يعيشون فيها منذ أربعة آلاف سنة، وهذه التسمية لا قيمة لها لدى التحقق والتمييز أو في ميزان العدل والإنصاف، فأسماء أكثر البلاد في العالم إنما وضعت في أزمنة متأخرة.

على أن بعض العلماء من محققي التاريخ يقولون أن لفظ الهند ليس إلا تصحيفاً للفظ السند، وإنما سميت السند بهذا الاسم نسبة إلى نهر السند، وقيل: بل العكس هو الصحيح، فإنما أطلق اسم السند على هذا النهر نسبة إلى البلاد التي يمر بها، ودليل ذلك أن هذا النهر كان في زمن الفتح الإسلامي يسمى نهر مهران، فسمّاه المسلمون السند تبعاً للبلاد التي

يجري فيها، ثم إن هذا اللفظ أطلق على شبه القارة الهندية كلها عقب الفتح الإسلامي، ثم أطلق لفظ الهند فيما بعد على كل شبه القارة الهندية، فيستبين من ذلك أن المسلمين هم الذين سموا الهند بهذا الاسم، وما يزعمه الهنادكة باطل.

وشأن الهنادكة في هذه المسألة أشبه ما يكون باليهود، فهؤلاء وهؤلاء دخلاء استولوا على بلاد غيرهم من السكان الأصليين فادعوا كاذبين ظالمين أن هذه البلاد لهم.

ويتبين من التحقيقات العلمية أن أهل الهند الأصليين يرجعون في أصلهم إلى أصول سكان سومطرة وأستراليا وسيلان (سيرالانكا) فهم قصار القامات، عريضو الأنوف، سمر البشرة، وما زال أحفادهم حتى أيامنا هذه[1].

حقيقة الهندوكية (الهندوسية):

الهندوكية وثنية بدائية تتسم بالضّعة والانحطاط بما يندرج فيها من خرافات الأولين وحماقاتهم، بل إنها تختلف عن كل الأديان في مدى إيغالها في السخافة والجهالة.

على أن الهندوسية دين الأغلبية في الهند، وقد دخلت إلى هذه البلاد مع الآرميين الذين نزحوا إلى الأقاليم الغربية من تلك البلاد حوالي سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد، وكان لهم أناشيد دينية مقدسة يجمعها كتاب اسمه «الفيدا» وآلهتهم هي الطبيعة، والسماء، وإله المطر، وإله النار، ونحو ذلك.

ويتجه الميل عندهم إلى التفاضل بين آلهتهم المختلفة، وما زالت فكرة تعدد الآلهة هي الغالبة حتى اليوم في الهندوسية.

والله، في نظر الهندوس، جوهر الكون والحقيقة بأكملها، وهي السائدة على كل الأشياء، والمتداخلة في كل الأشياء، والاسم الذي يطلق

(١) باكستان ماضيها وحاضرها ص٩٩ ـ ١٠١ تأليف: د. إحسان حقي.

على المسلمين ليذبحوا أهل القرية كلها بدل البقرة المذبوحة، وما فتىء هذا الحدث يقع من حين لآخر حتى أيامنا هذه. إن ذلكم لهو الضلال الفاضح، والسفاهة الغاشمة الحمقاء تتلطخ بها طبائع هؤلاء الضالين المهاويس!!

والأشد من ذلك عتواً ونكراً أن يتصور الهندوس أن سائر الناس أنجاس كالبول والغائط، فلا يجوز مسهم أو الاقتراب منهم، ولا مؤاكلتهم أو مجالستهم، وإذا خاطب الهندوسي مسلماً فلا بد له من الاغتسال وتغيير ثيابه حتى يتطهر، وهم يتصورون كذلك أن الحيوانات جميعها أفضل من الإنسان، وبذلك فإن قطعان الحيوانات المختلفة من البقر والجاموس والغزلان وغيرها من البهائم تسرح في المدن والقرى والبراري والغابات، وهي تتناسل وتتكاثر وتأكل الأعشاب، والناس من حولها يعضهم الجوع ويكابدون الفقر والقلة!

أي تعس هذا الذي تلبّست به عقول هؤلاء الشاردين الواهمين، وأي ضلالة تمرّغت بها طبائع هؤلاء المتخلفين الهمج حتى هبطوا في الأذلين؟!

ومن التعصب المقيت البشع، ما تنفر منه الطبائع السليمة وتتقزز منه نفوس المخاليق من ذرية آدم.

إنه التعصب المستقذر المخزي الذي تطالعنا به الخلائق عن واحد من تصورات الهندوس المشينة، وهو أن الواحد منهم لا يأكل في وعاء أكل فيه مسلم، وكذلك لا يشرب من إناء شرب منه مسلم حتى لو غسله تغسيلاً، أي أن ما مسه المسلم أو استعمله يظل نجساً في تصور الهندوس فلا يطهر البتة، وإذا لمس الهندوسي ثوب مسلم، تنجّس الهندوسي، وكذلك إذا دخل الهندوسي دار المسلم أو جلس على أثاثه تنجس!

إن ذلكم لهو الضلال المستهجن، بل إنه الإيغال في الدركات من السفاهة والانحطاط وتبلُّد العقول!!

هؤلاء الرعاع المعاتيه الهمج يستقذرون مخاطبة المسلمين أو مؤاكلتهم أو مجرد مسهم، والله جل جلاله يشهد وأولو العلم والقسط من الناس يشهدون، أن المسلمين أشد العالمين طراً اهتماماً بالطهر والنظافة، ومن

المعلوم في دين المسلمين أن النظافة من الإيمان، فالمسلمون نظيفون في أجسادهم وفي مآكلهم وملبسهم ومشربهم، وهم أبعد الخليقة عن الأوساخ والنجاسات التي تتبرأ من أدرانها بيوتهم وأمتعتهم وأبدانهم، فضلاً عن نظافتهم المعنوية البالغة والمطلقة في عقيدتهم الصافية المبرأة من كل أدران الضلال والجهالة والشرك، وكذلك تعاليم دينهم التي جيء بها لتصنع الإنسان السوي المتوازن الصالح، والمجتمع السليم المتعاون المتّسق.

فمن من الفريقين أحق أن يستشعر في نفسه الخزي والعار والدنس، هل هم المسلمون الأنقياء الأزكياء المبرأون من كل صور الأدناس والأرجاس والقاذورات، تبعاً لأحكام دينهم الإسلام، الذي يفرض عليهم نظافة الأبدان والأوعية، مثلما يفرض عليهم نظافة القلوب والأسرار والمقاصد، ليكونوا أطهاراً في الظاهر المعلن وفي الخفاء المستور، أهؤلاء أحق أن يستشعروا الخزي والدنس، أم الآخرون الجاهلون الهمج المستغرقون في أحلام الجهالة والسفه، اللاهثون وراء البهائم العجماوات ليقدسوا أوحالها وأدرانها وأرواثها تقديساً؟!

وفي عام ١٩٤٧ للميلاد عقب إعلان استقلال الهند وباكستان، كانت الكارثة المرعبة التي تجسدت في قتل الملايين من المسلمين على أيدي الهندوس خلال شهور قليلة، فضلاً عن ألوان القمع والتقتيل والإبادة من غير رحمة أو حساب من تفكير أو ضمير!![(١)].

إن ذلكم لهو قدر المسلمين إذ ابتلاهم الله بويلات محمومة شرسة، أنزلتها بساحتهم أمم موغلة في الهمجية والتعصب والضلال والحقد، وهذه أمراض شنيعة تؤزُّ المجرمين المرضى أزّاً فيبادرون التنكيل بالأبرياء فيقتلون فيهم الشيب والولدان والنساء تقتيلاً، ويفعلون فيهم من الفظائع الوحشية ما تأنف من فعله الوحوش في الغابات.

---

(١) باكستان ماضيها وحاضرها ص١٠٧ ـ ١٢٥، وانظر: كتاب المسلمون في الهند تأليف: نور عالم خليل ص٩ ـ ٣٦.

أمم ظالمة عاتية أُشربت نفوسهم الحقد على الإسلام وأهله، فراحت تشفي غليلها المضطغن الأسود في المسلمين فتبددهم تبديداً، وتتفنن في تقتيلهم وتعذيبهم والتنكيل بهم، وهذه أهوال فظيعة حلت بالمسلمين، وقد مارسها فيهم التتار حيث الهمجية والوحشية والهوس، وكذلك الصليبيون في ديار الشام حيث التعصب الجهول الأحمق، والحقد المركوم الأعمى الذي استحوذ على قلوب لا تستمرىء غير الكراهية للإسلام والمسلمين، ثم هؤلاء الجاهلون الواهمون المضللون، الغائرون في وهاد الهمجية والسخافة، اللاهثون وراء البقر يقدسونها تقديساً.

ثم بنو صهيون من شذاذ اليهود الذين يجيدون التدسس في أوكار الغدر والتآمر على البشرية ليكيدوا لهم كيداً، مثلما تآمروا على المسلمين لتدمير خلافتهم الإسلامية على يدي الشيطان الأثيم الخاسر والمتآمر الغادر، أتاتورك، فضلاً عن اغتصابهم فلسطين بعد أن أنزلوا بأهلها الحقيقيين المسلمين ألواناً من الترويع والتنكيل ليخرجوهم منها إخراجاً.

ثم أخيراً تتجسد الهمجية الحاقدة في أبشع صورها وفي أعتى ما يكون عليه الظلم الغشوم، والإجرام الذي جاوز كل حساب وتصور ـ على أيدي الصرب ـ وهم يمارسون الفظائع في المسلمين الأبرياء العزّل في ألبانيا من غير أن يراعى فيهم جوار ولا مصالحة ولا ميثاق.

إنني أكتب الآن هذه الكلمات وفظائع الصرب نازلة بالمسلمين في ألبانيا، فظائع مريعة شتى من التقتيل، والتهجير والاغتصاب!

كل ذلك قد حلّ بالمسلمين على أيدي الطواغيت من أشقياء البشر على اختلاف مللهم من الوثنية والصليبية والصهيونية على مر الزمان، مع أن المسلمين بطبيعة دينهم وعقيدتهم لا يبتغون للبشرية غير الهداية والسداد ولا ينظرون إليهم إلا بمنظار الرأفة والرحمة والبر والتسامح.

كيف وجدت باكستان

كان المسلمون طيلة عهدهم في بلاد الهند يوادون السكان في هذه

البلاد على اختلاف مللهم ودياناتهم، بل ويعاملونهم أحسن معاملة من العطف والإحسان وحسن الخلق، وكان المسلمون يبذلون بالغ جهدهم في تكوين جبهة متفقة واحدة، يتّحدون فيها مع الهنادكة ليكونوا صفاً واحداً للتصدي للاستعمار البريطاني الخبيث، لكن الهنادكة كانوا ينفرون من التنسيق مع المسلمين أشد نفور ولا يحدوهم إلى مثل هذا النفور إلا التعصب الأعمى والحقد الأسود البغيض، وبذلك ما كان المسلمون ليجدوا من الهنادكة غير الكيد والتربص وممالأة الإنجليز ضدهم.

وعلى هذا أيقن المسلمون في بلاد الهند أنه لا أمل في التقرب من الهنادكة أو الاتفاق معهم، وأيقنوا كذلك أنه لا مناص من المفاصلة والاستقلال عن هؤلاء المتعصبين الذين يخفون الكراهية الشديدة للإسلام وأهله، ويظهرون لهم العداوة والشر، ويعقدون لقهرهم كل ما استطاعوا من صفقات الغدر والكيد والخيانة. من أجل ذلك حزم المسلمون أمرهم، وعقدوا العزم على إعلان استقلالهم عن الهند والمطالبة بقيام دولة إسلامية مستقلة خاصة بهم، تلم شعثهم وتلتئم فيها صفوفهم وتتوحد كلمتهم ليكونوا بذلك أمة متماسكة متسقة متميزة رصينة، وقد تحققت هذه الأمنية الكبرى للمسلمين في بلاد الهند بإعلانهم التاريخي عن استقلالهم عن الهند، والمبادرة الجادة بإقامة دولة إسلامية مستقلة وذلك من خلال قرارهم التاريخي الصادر بتاريخ ٢٣ آذار عام ١٩٤٧ للميلاد في مدينة لاهور، فكان هذا الحدث الجلل مثار استياء وغضب شديدين لدى الهنادكة الذين عجزوا عن الحيلولة دون قيام هذه الدولة المسلمة الناهضة بمختلف الأساليب من الكيد والتآمر، مستعينين في ذلك بالإنجليز الذين يسوءهم بالغ الإساءة أن تقوم للإسلام قائمة، فكلا الخصمين اللدودين وهما: الهندوس والإنجليز يكن العداوة والبغضاء لدين الإسلام وأهله، فهم بذلك لا يبرحون التخطيط الإجرامي لإذلال المسلمين وتبديدهم.

لكن الهندوس ما لبثوا في النهاية أن أذعنوا راغمين للإرادة الجبّارة والعزم الجاد لدى المسلمين، الذين صمموا دون مناص على قيام دولتهم في باكستان، فلم يجد الهنادكة مندوحة من التسليم بقيام هذه الدولة الجديدة،

لكنهم مع هذا التسليم أضمروا في أنفسهم أن لا تكون هذه الدولة إلا في غاية الضعف والهوان، لتؤول في النهاية إلى الموات والانهيار تلقائياً. ولتحقيق هذا المقصود الخبيث الميت، شرعوا في تقسيم البلاد ـ بالتعاون مع الإنجليز ـ على أن تكون لهم حصة الأسد فيكون لهم الحظ الأوفر في قسمة ظالمة يُعطى فيها المسلمون أرضاً مجردة من كل أسباب العيش والصلاح والنماء.

ويضاف إلى ذلك في الإجحاف من التقسيم الظالم الذي اصطنعه الإنجليز والهنادكة، أن المسلمين أُعطوا قطعتين من الأرض، إحداهما في شرق شبه القارة الهندية وهي البنغال، وأطلق عليها اسم باكستان الشرقية، وثانيتهما في شمال غرب شبه القارة، وأطلق عليها اسم باكستان الغربية، ويفرق ما بين حدود البلدين ما يزيد على ١٦٠٠ كلم، يفصل ما بينهما البلاد الهندية بكل ما تحمله هذه البلاد من المعوقات والمكائد والعراقيل، وما من سبيل للاتصال بين هذين الشطرين إلا بالمرور من الهند.

وبالرغم من هذا التقسيم المجحف الغاشم، رضي المسلمون لأنفسهم أن يستقلوا في دولتهم المميزة فيكونوا أحراراً طلقاء، وقد قشعوا عن أنفسهم كابوس الهوان والتنكيل.

وعقب إعلان الاستقلال ما لبث الهنادكة أن قتلوا منهم الملايين من الرجال والنساء والأطفال، فضلاً عن هتك الأعراض والاعتداء الفاضح على الكرامات، وتحت هذه الوطأة الرهيبة من البلايا والنكبات، اضطر كثير من المسلمين إلى الهجرة إلى إخوانهم المسلمين في باكستان فراراً بأرواحهم وأعراضهم وكراماتهم، وخلال بضعة شهور هرب من مسلمي الهند إلى باكستان نحو عشرة ملايين مسلم، لا جرم أن هذه هجرة فظيعة عجيبة ليس لها في التاريخ نظير، وذلك من حيث الكثرة والتشنيع والترويع!

ولقد استمر العدوان الهندي على المسلمين بمختلف الوجوه من الغارات والتحرشات، وكانت ذروة هذا العدوان في ثلاثة حروب شاملة ضروس شنّتها الهند على الباكستان، وذلك في الأعوام ١٩٤٨ ثم ١٩٦٥ ثم ١٩٧١ للميلاد.

انفصال بنغلاديش:

كان الهندوس يبيتون في قلوبهم الحقد الشنيع للمسلمين وما زالوا حتى الساعة، لكن حقدهم اشتد واحتد عقب استقلال باكستان عن الهنادكة حيث الوثنية الضالة العمياء والجهالة السقيمة العمياء، والتعصب الفظيع المطبق الذي استحوذ على نفوس القوم أيما استحواذ، فراحوا يشفون غليلهم الفائر المتعطش في دماء المسلمين فيقتلونهم بالجملة، فهم بالرغم من كثرة عددهم إذ بلغوا نيفاً وستين مليوناً، لكنهم بالرغم من ذلك فإنهم محوطون بشبه قارة فيها من البشر التائه الحاقد المأفون ما يفوقهم أضعافاً مضاعفة، فضلاً عن تسلمهم مقاليد الجيش والسلطة وكل مناحي الدولة السياسية والاقتصادية والإعلامية.

لقد راح هؤلاء المأفونون المضللون يسومون المسلمين المقهورين الذين تحت وطأتهم سوء الويلات والفظائع، من تشريد وإبادة وحرمان واغتصاب وتحريق ونهب للأموال والممتلكات، فيتمكنون بذلك من قتل الملايين منهم وتهجير الملايين، كذلك الذين لاذوا بالفرار إلى إخوانهم المسلمين بباكستان طلباً للنجاة من الموت.

ولقد كان نصيب مقاطعة كشمير المسلمة عظيماً في التقتيل والتعذيب والتدمير، فضلاً عن إحراق المساجد والإساءة إلى دين الإسلام رسالة وقرآناً ورسولاً، بالفاحش البذيء من العبارات.

وقضية كشمير طويلة وفظيعة ومريرة، وهي عظيمة الشبه في السبب والمآل والكيفية والصورة بفلسطين وما حاق بها من مؤامرات، وما نزل بساحتها من ويلات وتشريد، بل إن فلسطين ربما تفوق كشمير في مدى النكبة وفداحة المصاب من حيث التهجير الكامل لأهلها الذين أُخرجوا من ديارهم إخراجاً، فهاموا على وجوههم في البلدان المجاورة لا يلوون على شيء بعد أن فقدوا وراءهم كل شيء، لكن كشمير ما فتىء أهلها يقيمون فوق ثراها صابرين مرابطين محتسبين بالرغم مما دهاهم من ويلات الهندوس المتعصبين الهمج، الذين لم يبرحوا التنكيل بهم والعدوان عليهم منذ

الاستقلال الباكستاني عام ١٩٤٧ للميلاد وحتى يومنا هذا.

وبذلك فإن الهنادكة أولو نفوس تطفح بالحقد والكراهية للمسلمين الذين خرجوا من تحت وطأتهم الغاشمة السوداء، فهم بذلك تؤزهم الرغبة الجامحة على إعلان الحرب على باكستان المسلمة كلما واتتهم فرصة، أو طغى على قلوبهم طغيان التعصب الفاجر. وبالفعل، فقد أعلنوا الحرب على باكستان عام ١٩٦٥، فباؤوا بالخزي وعار الهزيمة على أيدي الجيش الباكستاني المسلم بقيادة الجنرال محمد أيوب خان، فكانت هذه وصمة إذلال فاضح تلطخت بها أجبنة العتاة الرعاديد.

لكن الهنادكة جددوا العزم على تدمير باكستان، أو تفتيتها وشقها نصفين مبتغين بذلك إبادة هذه الدولة أو معاودة التسلُّط عليها إن استطاعوا، وكانوا يحدوهم إلى مثل هذه الغاية طبيعة التركيب الواهي لدولة باكستان بشقيها المتباعدين وهما باكستان الغربية، والأخرى الشرقية، بما يفصل بينهما من بون شاسع وامتداد كبير واسع، وفوق هذا العامل الجغرافي المؤثر، استعان الهندوس بأعوانهم السوفييت حيث الشيوعية المادية المظلمة بكلكلها المنكود الثقيل، وبفلسفتها السقيمة الموهومة التي لا تروق إلا لغير الأسوياء من البشر الحاقد المضطرب، وساعدهم في مهمتهم الإجرامية هذه تواطؤ حزب عوامي برئيسه العلماني الحاقد مجيب الرحمٰن، هذا الذي هان عليه وطنه ودينه - إن كان ذا دين يعبأ به - فراح يمالىء الأشرار المجرمين الهندوس ليقف إلى جانبهم في خندق الغدر والعار ضد المسلمين، وكان ذلك بعد أن تخلى الجنرال محمد أيوب خان لخلفه الجنرال يحيى خان، وكان هذا غير محنك ولا حصيفاً فبادر إلى إعلان الأحكام العرفية في البلاد كلها.

وبادر الغادر مجيب الرحمٰن من جهته إلى الإعلان عن العصيان في باكستان الشرقية، فكانت الظروف بذلك مواتية تماماً للهند إذ وجدت في ذلك فرصتها لتعلن الحرب على باكستان، يدعمها في ذلك حلفاؤها السوفييت الذين أمدوها بالسلاح وغيرها من أسباب التدعيم المعنوي

والإعلامي، ويعززهم في ذلك كذلك الحزب الشيوعي وحزب عوامي، فاشتعلت لظى الحرب بين الفريقين فكانت الغلبة فيها للهندوس، ولم يجد الجنرال يحيى خان بداً من الإعلان عن وقف إطلاق النار في ١٩٧١/١٢/١٧ للميلاد، وكذلك أعلنت أنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند عن وقف إطلاق النار.

ويمكن عزو السبب في الهزيمة إلى أسباب ثلاثة أساسية هي:

السبب الأول: أن باكستان مسلمة، فشعب هذه البلاد بكثافته المؤمنة بالله إيماناً صادقاً، إيماناً ينبثق عن عقيدة الإسلام الراسخ في أعماق فطرتهم، لا جرم أنه بصفته الأساسية هذه مبعث اضطغان وقلق لكل الدول الكافرة على اختلاف كفرانها، سواء كانت مادية جدلية ملحدة، أو صليبية حاقدة، أو وثنية تائهة رعناء، أو هندوسية موغلة في الهمجية والبلاهة والسفاهة، هندوسية مضللة بلهاء تحفد لاهثة مذهولة خلف أذناب البقر تقبلها تقبيلاً، وتهش لخوارها الصاخب أيما هشاشة!!

ذلك هو السبب الأكبر الذي يؤز الكافرين كيما يكرهوا شعب باكستان أو يمالئوا غيرهم عليهم.

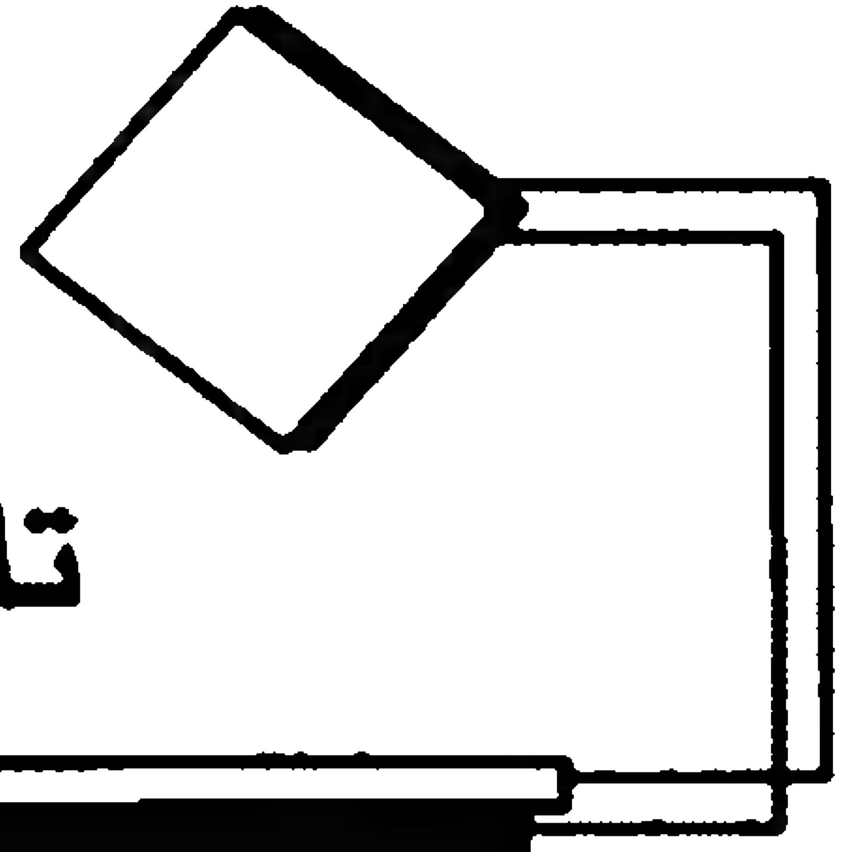
السبب الثاني: الكثرة الكاثرة من جموع الأعداء الذين تكالبوا على قتال المسلمين الباكستانيين ممالئين بذلك دولة الهند، بالرغم من ظلم هذه وعتوها وبالغ عدوانها الصارخ على المسلمين. لقد سخَّر الاتحاد السوفيتي إبان سلطانه الهائج وجبروته المستطير كل ثقله العسكري والسياسي والإعلامي لتأييد الهند ضد باكستان، فكانت بذلك جموع الكفر سداً جارفاً من الجيوش الكبيرة التي هانت أمامها طاقة باكستان المحدودة، حتى حلت النكبة بانفصال بنغلاديش عن الدولة المسلمة الأم.

السبب الثالث: تواطؤ العملاء الذين تبددت في أطوائهم شيمة الغيرة والمروءة، وتضاءلت في أذهانهم ونفوسهم لواعج الإحساس بالكرامة أو الشرف طمعاً في مراكز مهينة يتقلّدونها، أو إذعاناً لحقد فاجر مركوم، سوّل لهم الخيانة والاصطفاف إلى جانب الأعداء وهم يحاربون أمة الإسلام.

إن ذلكم لهو الخزي والمذلة، تتلطخ بها سمعة هؤلاء الغادرين، فتظل مسطورة في بطون الكتب ليقف عليها المسلمون جيلاً بعد جيل، فينفثون اللعائن على الغادرين والمنافقين الخونة على مر الزمن!!

إنه لا يجترىء من في رأسه مسكة من عقل، أو في نفسه نبسة من ضمير، على ممالأة الكافرين ضد بني وطنه ودينه مهما تكن الذرائع والمبررات، التي يحتج بها الخؤون الغادر، ذلك أن السلبيات والخطيئات التي تتعثر بها دولة مسلمة لا تجيز لأحد البتة أن يخرج على المسلمين فيمالىء أعداءهم الكافرين، وما هذه الممالأة أو الغدر إلا إيغال في العار والكفر، تهون بجانبه كل السلبيات والعثرات والمآخذ التي أخذوها على دولة باكستان.





الفصل الثاني
تاريخ إيران المعاصر

الأسرة البهلوية:

حكم إيران من هذه الأسرة اثنان وهما: رضا بهلوي، وابنه محمد رضا، وقد دام عهدهما قرابة ست وخمسين سنة، أي ما بين ١٣٤٤ - ١٣٩٩ للهجرة.

وتبيان ذلك أن رضا بهلوي كان قد انتخب شاهاً للبلاد من قبل مجلس النواب عام ١٣٤٤ للهجرة، ثم أقسم اليمين الدستورية ولبس التاج في ٢٥ نيسان عام ١٩٢٦ للميلاد. وقد اعترفت بريطانيا بالعهد الجديد وتبعتها روسيا في الاعتراف، ثم اعترف بالنظام من بعدهما كل من الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا.

حكومة محمد علي فروغي:

كُلف هذا من قبل الشاه الجديد بتشكيل أول حكومة في عهد الأسرة البهلوية وذلك في ١٩ كانون أول عام ١٩٢٥م.

وقد كان رضا خان يسيطر على الأوضاع سيطرة تامة، فكان يعتمد سبيل الطغيان والاستبداد في حكم البلاد، فكان بذلك لا يحتمل المناقشة أو المساءلة أو الاعتراض من أحد، فكان بذلك من الظلمة الطواغيت الذين يسوسون العباد بالقهر والقمع والتسلط.

أما من حيث سيرته الشخصية وقناعاته الذاتية فكان فاسداً مفسداً منحلاً من كل القيم والأخلاق التي أوجبها الإسلام، فقد أمر بالتخلي عن الزي الإيراني التقليدي الذي اعتاده المسلمون في تلك البلاد، وأمرهم أن يرتدوا بدلاً منه الزي الإفرنجي مبدياً في ذلك كامل التنصل من مظاهر الدين الحنيف.

لا جرم أن هذه خسيسة تتلطخ بها طبائع الفارغين المبتذلين الذين يكابدون في أعماقهم عقدة الشعور بالنقص، وذلكم العار والخور والشنار.

وكان لهذا الشاه ثلاث نساء، فكن يظهرن سافرات كما لو كن غير مسلمات أو مرتدات فواسق، وأعتى من ذلك أن هذا المستبد كان قد أمر الشرطة بنزع الحجاب عن وجوه النساء، وذلك مجاراة للأجانب الكافرين أصحاب السيادة. أما الشعب فقد أذعن لأوامر هذا الغاشم المستبد خوفاً من فجوره ومجانبة لسطوته وطغيانه، باستثناء والد الخميني، إذ كان يقيم في مدينة قم، فذهب إليه الشاه بنفسه ثم اجترأ في وقاحة شنيعة على ضربه.

سياسة رضا خان الداخلية:

كانت أعماله في الداخل مزيجاً من الإيجابيات والسلبيات، وإن تكن هذه الأخيرة أكثر.

فقد قرر التجنيد الإجباري، وأسس كلية الأركان، وأرسل الضباط إلى فرنسا من أجل التخصص، وقد اعتمد أموالاً كثيرة لشراء الأسلحة من الدول الأجنبية، ومع ذلك كله، كان مستبداً غاشماً فذاع في زمنه الإرهاب حتى خشيه الناس فلم تستطع المعارضة أن تظهر أو أن تجاهر برأي مخالف لهذا الحاكم الجائر.

وقد افتتح جامعة طهران عام ١٩٣٤م ودعا إلى إلغاء الحجاب، واعتمد على القانون الفرنسي في المحاكم.

وقد اهتم بالجانب الاقتصادي، فزاد من عدد الشركات الصناعية، وازداد بذلك رأسمال الشركات العاملة، وأسس المصرف الوطني وكذا أنشأ

المصرف الزراعي الحكومي عام ١٣٥٠ للهجرة، ثم أعطى البريطانيين امتيازات واسعة في التنقيب عن النفط في البلاد.

سياسته الخارجية:

وقعت في عهد رضا خان أحداث دولية عظيمة انعكست بالضرورة على سياسة إيران في الخارج وذلك عقب الحرب العالمية الأولى.

ومن جملة هذه الأحداث:

سقوط النظام القيصري في روسيا وذلك خلال الحرب العالمية الأولى، وقد قام على أنقاض ذلكم النظام، نظام اشتراكي جديد مغاير لكل الأوجه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في إيران. والأشد عتواً من ذلك قيام هذا النظام الجديد على المادية الممحضة التي تنبني على الإلحاد الشنيع المطبق الذي يجاوز في الفحش والبشاعة كل ضروب الكفر والجحود.

ومنها: زوال الدولة العثمانية ليزول بذلك الطمع في التوسع نحو الشرق كعربستان وأذربيجان.

ومنها: ظهور دولة الولايات المتحدة الأمريكية، كصاحبة قوة وسيطرة ونفوذ مما يمكنها من منافسة الدولة الأوروبية ذات النفوذ في إيران وهي بريطانيا.

على أن الدولة الاستعمارية بريطانيا كان لها النفوذ الأكبر في إيران، فقد عقدت معها معاهدة عقب الحرب العالمية الأولى وذلك في ٩ آب عام ١٩١٩م، مما مكّن لبريطانيا في الهيمنة والاستحواذ على أهم مرافق الحياة في إيران، وفي طليعة ذلك المؤسسات المالية والعسكرية. ومن أجل هذه المعاهدة الجائرة، نقم الشعب الإيراني على الشاه، وتحت الضغوط من الشعب اضطر رضا خان إلى اتخاذ قرار بإلغاء الامتيازات الأجنبية في البلاد وذلك عام ١٣٤٧ للهجرة، باستثناء المصالح النفطية البريطانية إذ بقيت في منجاة من التحرر وإلغاء الامتيازات.

أما العلاقة مع روسيا فكانت تتراوح بين المد والجزر، وذلك عقب الثورة الشيوعية عام ١٩١٧م، فقد تنازل العهد الجديد في روسيا عن كل الامتيازات الروسية إبان العهد القيصري الذي مضى وتبدد، وذلك كيلا تقف إيران إلى جانب الحركات المناوئة للشيوعية.

لكن هذه العلاقة ما لبثت أن عادت إلى التوتر بين روسيا وإيران وذلك عقب توقيع المعاهدة بين إيران وبريطانيا في ٩ آب عام ١٩١٩م.

موقف إيران في الحرب العالمية الثانية:

اندلعت هذه الحرب الضروس المحتدمة بين دول المحور بقيادة ألمانيا النازية وزعيمها هتلر، وبين دول الحلفاء بقيادة بريطانيا وفرنسا، ثم ما لبثت الولايات المتحدة أن انضمت إلى معسكر الحلفاء لتحارب ألمانيا في كل مكان، وذلك في أول أيلول عام ١٩٣٩م، وحينذاك أعلن شاه إيران سياسة الحياد التام.

ثم ما لبثت إيران أن جنحت للانحياز إلى صف الألمان وذلك عقب الانتصارات السريعة التي حققتها الجيوش الألمانية في أوروبا. وقد جرى اتفاق سري بين إيران وألمانيا بعد أربعين يوماً من اندلاع الحرب، إذ تعهدت إيران بموجب الاتفاق أن تصدر كميات كبيرة من مختلف أنواع التموين، ويضاف إلى ذلك الصلات الثقافية التي كانت آخذة في التوسع بين إيران وألمانيا، فكان بذلك دور كبير للخبراء الألمان في إيران.

وبالرغم من ذلك كله، فقد كانت إيران تعمل على تطوير علاقاتها مع الولايات المتحدة الأمريكية، في الوقت الذي كان فيه الحلفاء منزعجين من توطيد العلاقات بين إيران وألمانيا، مما اضطر الشاه إلى تغيير موقفه المحابي للألمان، فاتخذ بذلك جملة إجراءات:

منها: عدم تأييده لثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق.

ومنها: رفض إيران عودة السفير الألماني (غروبا) إلى بغداد عن طريق

أراضيها، وذلك عقب إبعاد السفير عن العراق في أول الحرب إذ قطعت العراق علاقتها الدبلوماسية مع ألمانيا.

ومنها: رفض إيران مرور الأسلحة الألمانية إلى العراق عبر أراضيها.

ومنها: تأكيد إيران لسفاراتها في الخارج على ضرورة التزام الحياد التام.

وقد أثار ذلك كله النقمة لدى الألمان على الشاه، ومع كل ذلك كان الشاه يسير في خط متوازن بين الأطراف إذ كان يميل إلى الألمان مع رغبته في التعاون مع الأمريكان، فهو متأرجح بين هؤلاء وهؤلاء.

وفي ١٦ آب عام ١٩٤١م، قدمت الحكومتان البريطانية والروسية مذكرتين لإيران تطالبانها فيها إبعاد الألمان من إيران، فأصدر الشاه أمره للجيش لكي يكون على أتم الاستعداد تحسباً للطوارىء والأحداث المحتملة، ودعا لقوات الاحتياطي وأمر بإلغاء الإجازات عن العسكريين، وأمر أن يساق الشباب للخدمة العسكرية الإلزامية مدة خمس سنوات متابعة.

وفي مقابل ذلك، هددت ألمانيا إيران بقطع علاقاتها السياسية معها إذا ما استجابت لمطالب الحلفاء.

لكن الحلفاء وجهوا للشاه إنذاراً في ٢٥ آب عام ١٩٤١م يطالبونه فيه انحيازه إلى جانبهم ضد الألمان.

ثم تقدم الروس من الشمال من إيران وتوغلوا في أذربيجان واحتلوا تبريز، وتقدمت القوات البريطانية البحرية من الجنوب باتجاه خرمشهر ولم تصمد القوات الإيرانية أمامها، ثم ما لبث عقب ذلك أن استقال رئيس الوزراء الإيراني علي منصور، فكلف الشاه محمد علي فروغي بتشكيل حكومة جديدة قامت بإعلان الأحكام العرفية في البلاد.

وفي ٦ أيلول عام ١٩٤١م، طالب الحلفاء إيران بطرد البعثات السياسية لدول المحور، ثم ما لبثت إيران أن ألزمت على التوقيع على اتفاقية توافق فيها على بقاء القوات الروسية والبريطانية على أراضيها، ثم طرد البعثات

السياسية لدول المحور وهي: ألمانيا وإيطاليا والنمسا والأرجنتين.

وفي ١٤ أيلول عام ١٩٤١م، طلبت بريطانيا وروسيا من شاه إيران رضا بهلوي أن يتنازل عن العرش لولي عهده محمد رضا بهلوي، وإعلان الحرب على ألمانيا وبقية دول المحور، لكن الشاه رفض هذا المطلب، فأجبره الحلفاء على ذلك إجباراً، فما لبث الشاه أن تنازل لابنه محمد رضا.

الشاه محمد رضا بهلوي:

تولى محمد رضا حكم البلاد عقب تنازل والده عن الحكم، وذلك في ١٦ أيلول عام ١٩٤١م، فأدى الشاه محمد رضا اليمين الدستورية أمام المجلس النيابي، وتعهّد أمامه بالمحافظة على سيادة إيران وعلى صون الحقوق للشعب الإيراني واحترام الدين الإسلامي مع التأكيد على ضرورة التعاون مع دولتي بريطانيا وروسيا.

ثم أعلن عن تشكيل حكومة جديدة برئاسة محمد فروغي في ٢١ أيلول عام ١٩٤١م.

وفي عام ١٩٤٣م، منحت الحكومة الإيرانية الحرية السياسية للناس، فقام بذلك خمسة عشر حزباً سياسياً، كان من بينها الحزب الشيوعي وهو حزب (توده) الذي شاعت أفكاره في البلاد واستحوذ على شطر كبير من الشارع الإيراني، ثم ما لبثت هذه الحريات أن أُلغيت عام ١٩٤٤م، وأُعلنت الأحكام العرفية في البلاد.

وفي هذه الفترة دخل النفوذ الأمريكي إلى إيران وذلك خلال الحرب العالمية الثانية، واستخدم الأمريكيون الأراضي الإيرانية ممراً لنقل الإمدادات إلى روسيا. وعقب إعلان أمريكا الحرب على ألمانيا، نقلت فرقة من قواتها إلى إيران، وكان عدد أفرادها ثلاثين ألفاً.

وفي ٢٨ تشرين الثاني عام ١٩٤٣م، عقد في طهران مؤتمر مدةَ أيام ثلاثة، وقد حضره كل من الرئيس الأمريكي روزفلت، ورئيس وزراء بريطانيا

ونستون تشرشل، والرئيس الروسي ستالين. وقد أعلن هؤلاء الرؤساء الثلاثة تأييدهم لإيران، وهو تأييد في الشكل والظاهر، حتى ما يلبث أن يتضح كذبه عند تعارض المصالح.

وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، انقسم العالم إلى معسكرين وهما: المعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، ثم المعسكر الشيوعي بقيادة روسيا وأتباعها من الدول الاشتراكية الأخرى التي تدور في فلكها.

وفي كل الأحوال، كانت إيران بزعامة الشاه محمد رضا بهلوي تدور في فلك الدول الاستعمارية الغربية، خصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية، فكانت إيران بذلك من التابعين لها في السياسة الخارجية فلا تخرج عن مدارها ولا تشق لها عصا الطاعة. ولما عملت القوى الاستعمارية الصليبية على تثبيت دعائم اليهود وإرساء دولتهم في فلسطين، بادرت الدول الغربية الاستعمارية بالانضمام إلى صف المجرمين الطغاة، الذين تمالؤوا على شعب فلسطين ليخرجوهم من ديارهم ويقيموا على أنقاض وطنهم دولة صهيون (إسرائيل) دولة العدوان والاغتصاب والخيانة.

وقد وقفت الدول العربية والإسلامية حينئذ في وجه المؤامرة، وذلك باتخاذ المواقف السياسية المغايرة لمواقف الدول الاستعمارية في المحافل الدولية كمجلس الأمن والهيئة العامة للأمم المتحدة، باستثناء تركيا وإيران، اللتين أيدتا الدول الاستعمارية في موقفها من قضية فلسطين إرضاء للدولتين الاستعماريتين الكبريين وهما أمريكا وبريطانيا، وهذه واحدة من كبرى الخيانات التي تلبّس بها شاه إيران محمد رضا بهلوي إبان حكمه إيران.

شخصية الشاه السلوكية:

كان هذا الملك شغوفاً باللهو والبذخ وسوء الخلق، إذ لم يكن يعبأ بقيم أو تقاليد رسخها المجتمع كالاستعلاء على المفاسد مثل شرب الخمر،

والتردد الفاضح على النساء طمعاً في معاشرتهن، عهراً وخيانة، إلى غير ذلك من وجوه اللهو والفساد التي لا تليق بمسلم من عامة الناس، فكيف به إذا كان شاهاً للأمة أي ملكاً لملوكها؟!

أما قصته الزوجية مع امرأته فوزية بنت ملك مصر فؤاد الأول فقد أشغلت أذهان الناس إبان حكمه، فكانت هذه قد طلبت الطلاق من الشاه في ١٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٨م متهمة إياه (الشاه) بالخيانة الزوجية، وكان هو قد ادعى أنه راغب في الزواج وفي ترك زوجته فوزية التي لم تنجب له غلاماً ولياً للعهد بعد أن مضى على زواجهما أكثر من عشر سنوات، وقد تم الطلاق فعلاً، فما لبث الشاه أن عاد إلى ديدنه الفاسد في اللهو وممارسة الرذيلة مع أولات القذر من النساء المبتذلات.

وعقب فترة من المجون وممارسة الرذيلة، عزم الشاه على الزواج من ثريا بنت أصفندياري رئيس وزرائه، وكان عمرها إذ ذاك ثماني عشرة سنة، وذلك في عام ١٩٥١م، ثم ما لبث الشاه أن طلّق ثريا محتجاً بعدم إنجابها من يخلفه في الملك. وقد ضاقت هي به ذرعاً لفرط فساده وفسقه ومجونه، ثم تزوج بعدها للمرة الثالثة من (فرح ديبا) وذلك في ٢١ أيلول عام ١٩٥٩م.

كانت أخبار الشاه من حيث مفاسده وشروره وسلوكه في اللهو والمجون، تصل أسماع الشعب الإيراني الذي كان يكن الكراهية والاشمئزاز لهذا الحاكم الخائن الماجن، فقد جرت محاولة لاغتياله لكنه نجا منها، ثم اغتيل رازمار رئيس الوزراء فتنفس الشعب الصعداء، وهتفوا في صراخ مجلجل بسقوط الشاه والاستعمار البريطاني وعودة النفط للشعب وتسليم محمد مصدق رئاسة الحكومة. وتحت هذه الضغوط القاهرة من الشعب اضطر الشاه إلى تكليف محمد مصدق رئيس الجبهة الشعبية ليكون رئيساً للوزارة في ١٩ نيسان عام ١٩٥١م.

ظلّ محمد مصدق في الحكم مدة سبعة وعشرين شهراً، عمل أثناءها على تأميم النفط، وتطبيق الاشتراكية، والوقوف في وجه النفوذ الاستعماري، وقد أيّده في ذلك علماء الشيعة، وكذلك الشعب كله نهض لدعمه وتأييده،

فبادر مصدق للإعلان عن مصادرة أملاك البريطانيين، وإنهاء امتيازاتهم النفطية، وطالبهم أثناء المفاوضات معهم بدفع مبلغ مائة وأربعين مليون دولاراً تعويضاً لإيران، فما راق ذلك للمفاوضين البريطانيين، بل رفضوا الطلب وانسحبوا من المفاوضات، ثم فرضت بريطانيا حظراً نفطياً على إيران مما أوقع البلاد في عجز مالي. أما محمد مصدق فظلّ مصمماً عازماً على المضي في طريقته الوطنية المخلصة التي روعيت فيها مصالح الشعب والبلاد، وقد أيده في ذلك العالم الشيعي آية الله كاشاني. أما الشاه، فكان سادراً في مجونه وفساده، موغلاً في أماكن اللهو والدنس وحفلات العهر والابتذال.

وفي ١٩ آب عام ١٩٥٣م، وصل إلى منزل محمد مصدق ضابط من الحرس الإمبراطوري وهو العقيد نصيري - الذي عين فيما بعد رئيساً لجهاز المخابرات (السافاك) - وسلّم رئيس الحكومة أمراً بإقالة وزارته، فلم يكن من مصدق إلا أن قابل ذلك بالرفض.

ثم خاطب آية الله كاشاني الناس وحرّضهم على التظاهر والاستنكار، فاستجاب الناس لذلك، وقامت المظاهرات في البلاد مطالبة بإسقاط الشاه وإعلان النظام الجمهوري، وأعلن مصدق نفسه رئيساً للوزراء ووزيراً للحربية، وعين آية الله كاشاني رئيساً لمجلس الشعب، وأبعد كبار الضباط الذين عينهم الشاه عن الجيش ونفى أقرباء الشاه.

في هذه الأجواء الحافلة بالاحتدام والاضطراب ونفور الشعب من نظام الشاه، خشي الأمريكان من سيطرة علماء الدين على البلاد وكانوا مناصرين لمحمد مصدق، وكذلك كانوا يخشون من سيطرة الروس على مقاليد النظام، إذ وقفت الحركات الشيوعية والاشتراكية إلى جانب مصدق، فوصل إلى طهران ابن الرئيس الأمريكي السابق روزفلت واسمه كيرميت، واستقبله في المطار أردشير زاهدي ابن اللواء فضل الله زاهدي وهو وزير داخلية محمد مصدق في الوزارة المقالة، فأخذه إلى أبيه وأكد له وقوف خمسين ضابطاً إلى جانبه.

ثم قام اللواء فضل الله زاهدي بحركة مضادة تمكن من السيطرة على الموقف، ورجع الشاه من روما، ثم ألقي القبض على محمد مصدق فصدر عليه الحكم بالإعدام بعد سجنه مدة ثلاثة وأربعين يوماً، ثم عفا عنه الشاه بعد أن صدق على أحكام الإعدام بحق الذين تعاونوا مع محمد مصدق، وقد نفذ فيهم الحكم فأعدموا، أما محمد مصدق فقد حكم عليه بالسجن مدة ثلاث سنوات.

وبعد ذلك أخذ النفوذ الأمريكي في الازدياد حتى بات المنافس الأكبر للنفوذ البريطاني، ثم انضمت إيران إلى حلف بغداد في ٣ تشرين الثاني عام ١٩٥٥م، فتصدّت الجماهير لذلك وعمّت المظاهرات البلاد الإيرانية وما حولها من البلدان العربية.

لكن الشاه ظلّ سادراً في غيه وطغيانه، فقام بحركة مصطنعة أطلق عليها اسم الثورة البيضاء، وهي تهدف إلى إخضاع رجال العلم الشرعي إليه، ورفض فكرة تعدد الزوجات وهو إعلان فاجر فاضح لمخالفة شرع الله، فتصدى آية الله الخميني لمثل هذه الأفكار الظالمة لمخالفتها الصريحة لأحكام الشريعة، فقامت الحكومة في الحال بإلقاء القبض عليه وهو يخطب في الجماهير.

وفي عام ١٩٦٨م، ظهر الخلاف جلياً بين إيران والعراق على شط العرب وعلى الحدود البرية بينهما.

ثم عقد مؤتمر الدول المصدرة للنفط (أوبك) في الجزائر، وشهده نائب الرئيس العراقي صدام حسين التكريتي، وذلك بمبادرة من الرئيس الجزائري آنذاك هواري بومدين، فوقعت اتفاقية بين العراق والجزائر وذلك في ٦ آذار عام ١٩٧٥م، وقد تم فيها التفاهم بين الدولتين حول شط العرب[١].

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ج١٨ ص٥١ ـ ٨٦.

الثورة ونهاية الأسرة البهلوية:

شاعت أخبار الفساد في أوساط الشعب الإيراني، وما يقارفه الشاه من أصناف المفاسد والمنكرات بما يصمه بالمروق التام من الدين، ومن مفاسده اللهو وشرب الخمور والقمار والافتتان بالنساء واللهث الخسيس وراءهن.

أما قصور العار حيث الأسرة البهلوية المالكة فكانت كظيظة بصنوف الرذيلة والعار كأنما هي مواخير، تقارف فيها ألوان الفجور والدنس والعار.

يضاف إلى ذلك الإسراف المغالي والتبذير المفحش، اللذين أحاط الشاه نفسه بهما، مما كلف خزينة الدولة الأموال الطائلة الهائلة بغير حق إلا البذخ والمجون. ومن جملة ذلك ما أنفقه الشاه في حفل تتويج الإمبراطورة فرح ديبا، فضلاً عن تصرف العائلة المالكة الماجنة في مقدرات الأمة وثروة البلاد.

والأشد من ذلك كله، هذا النظام الإرهابي المرعب، الذي أسسه الشاه لتخويف الناس وإخماد الأصوات والأنفاس، وهو نظام الجهاز السري المسمى (السافاك)، وهو جهاز رهيب أسهم في ترعيب الناس وتخويفهم، فضلاً عن التفنن في تعذيب الأحرار منهم بعد زجهم في غياهب السجون ثم التنكيل بهم وتقتيلهم.

كل ذلك قد تمخض عن تأجج الكراهية والحقد للشاه ونظامه الظالم وأسرته الماجنة، فكان الشعب بذلك مهيأً للثورة والتمرد والانقضاض على معاقل الخيانة والطغيان. ومن هنا تزعم آية الله الخميني الثورة لدى الشعب الإيراني برمته، وخطب في جماهير الناس الثائرة يحرضهم على التخلص من نظام الشاه، فنفي إلى العراق، وبعد مدة من المكث فيها أخرجته الحكومة العراقية من بلادها حفظاً للعلاقة بين العراق وإيران أن تتأثر أو تتعثر، وحاول الذهاب إلى الكويت لكنه قوبل بالرفض، فلم يجد بداً من الذهاب إلى فرنسا حيث استقر به المقام ليكون ذلك منطلقاً تنبعث منه الإشارات بالثورة والتمرد على الشاه لإنهاء حكمه وإسقاطه.

وفي باريس اجتمع الخميني مع قادة المعارضة للتفاهم والتنسيق ما

بينهم، وقد ازدادت الاضطرابات في المدن الإيرانية وتفاقمت المظاهرات التي كانت تنادي بسقوط الشاه ورحيل الأسرة البهلوية الفاسدة.

حينئذ أحس رجال الشاه المقربون منه وكذلك أفراد أسرته بحقيقة الخطر الداهم المحدق، ففكروا في أمرهم جدياً وبدأوا في تهريب الأموال من إيران إلى الخارج، ومما ذكر أنهم تمكنوا من إخراج ألفين وأربعمائة مليون دولار، وقد هربت هذه المبالغ الهائلة لأقارب الشاه، وفي طليعتهم الإمبراطورة فرح ديبا وأبناء الأميرة أشرف، وهي أخت الشاه.

وقد حرّض آية الله الخميني الشعب الإيراني على الثورة ودعاهم إلى الجهاد، فتأججت العواطف بذلك، واضطرم لهيب المعارضة للنظام، لكنها باتت الآن تطالب مجاهرة بسقوط النظام المتعسف الفاسد.

وفي هذه الغمرة من اشتعال الثورة أحس الشاه بحقيقة الخطر، فأخذ يخفض جناحه للمعارضة ويستعطف من حوله الشعب ليرضوا عنه، وكان ذلك بعد فوات الأوان، إذ لم يبقَ لهذا الظالم الخاسر من نصير ولا معوان إلا شراذم من الساقطين العتاة الذين ساموا الناس العذاب والتنكيل.

وفي ٦ كانون الثاني عام ١٩٧٩م، كلف الشاه شهبور بختيار بتشكيل الوزارة، فما لبث هذا أن صرح للناس بأن الشاه سيغادر طهران في إجازة، لكن أحد رجال القصر قد ذكر بأن الشاه لن يغادر البلاد قبل أن تحصل حكومة بختيار على الثقة، لكن الشاه قد صرح للعسكريين أنه يفضل مغادرة البلاد على أن يقوموا بانقلاب عسكري حال غيابه، وبذلك أقام الشاه مجلس وصاية مما يكشف عن عزمه على الرحيل.

أما آية الله الخميني، فقد بادر الإعلان عن عدم شرعية مجلس الوصاية الذي شكّله الشاه، وأنه جاد في إقامة حكومة إسلامية في البلاد.

وفي ١٩ كانون الثاني عام ١٩٧٩م، ازدادت المظاهرات في طول البلاد الإيرانية وعرضها، ثم أعلن الخميني أنه لن يتولى رئاسة البلاد ولن يقبل هذا المنصب، وأن إيران سوف تقطع علاقاتها السياسية مع إسرائيل، هذه الدولة التي قامت على الظلم والإرهاب والتنكيل والاغتصاب، والتي

اقتلعت شعب فلسطين من دياره ووطنه لتقيم على أنقاضه دولة العهر والاغتصاب المسماة بإسرائيل.

ثم ما لبث الخميني أن أعلن أنه سوف يصل إلى طهران قبل يوم الجمعة، وكان يرافقه في سفرة الانتصار والغلبة فريق من الأعوان والمقربين وهم: أبو الحسن بني صدر الذي تولى رئاسة الجمهورية لأول مرة، وصادق قطب زاده الذي كان وزيراً للخارجية، وإبراهيم يزدي الذي كان درس في أمريكا وتزوج من أمريكية ثم تجنّس بالجنسية الأمريكية.

وأخيراً وصل الخميني إلى طهران في الأول من شباط عام ١٩٧٩م، فتحقق بذلك التخلص من نظام التسلط الغاشم والاستبداد الرهيب، نظام الشاه حيث الفساد والخيانة وممالأة الكافرين على المسلمين.

وبذلك استمرت الثورة في إيران على الأسرة البهلوية مدة سنة كاملة، وقد ذهب ضحيتها ٧٦٣١١ قتيلاً، فضلاً عن عشرات الآلاف من الجرحى والمشوهين.

ولدى وصول الخميني إلى طهران، كان في استقباله في مطار صهرأباد جموع غفيرة من البشر بلغ تعدادها ستة ملايين إنسان، ثم بادر الخميني بتعيين مهدي بازرجان ليكون رئيساً للوزارة في إيران بدلاً من شهبور بختيار الذي ما لبث أن لاذ بالفرار إلى فرنسا.

أما الشاه، فقد أخرج من إيران ذليلاً طريداً فهام على وجهه ضالاً في الآفاق يسأل الزعماء والساسة في مختلف الأقطار أن يأذنوا له باللجوء إليهم والعيش في بلادهم آمناً مطمئناً، فأبوا وامتنعوا.

حتى أمريكا بالذات إبان رئاسة جيمي كارتر ـ هذه الدولة الاستعمارية الكبرى، التي سخّر الشاه معظم طاقات الشعب الإيراني في خدمتها وتحقيق مصالحها ـ فقد رفضت هذه الدولة المتجبرة العاتية الجاحدة أن يهبط الشاه في أرضها ليجد له فيها المأوى والملاذ.

حينئذ أحس الشاه بالندم يعضه عضاً، وقد نشبت فيه مخارز الإياس

والاستحسار على ما فرط في جنب الله وفي حق الوطن والشعب.

أحس الشاه أن أصدقاءه الأمريكان والإنجليز قد نبذوه نبذاً وتخلوا عنه تمام التخلي، ليلاقي مصيره المحتوم في مكابدة الهم والاغتمام والخسران، فانقلب على وجهه خاسئاً مغموماً يلعق الخزي والعار ويجرجر ذيول المذلة والانتكاس والهوان.

ثم ما لبث فوق ذلك يعاني من مرض السرطان الذي أصاب كبده، حتى استقبله أنور السادات في أرض مصر، فظل فيها يصارع المرض العضال حتى مات، وذلك مصير الخائنين الخاسرين الذين يمالئون الكافرين، فيأمنونهم على أنفسهم ويثقوا بصداقاتهم وعهودهم، حتى إذا تغيرت الأحوال والظروف، وتبدلت موازين المصالح، أدار الكافرون ظهورهم وأدبارهم للعملاء المفرطين الغافلين[1].

فكرة إجمالية عن مذهب الشيعة:

هذه الفئة من المسلمين المنتشرة في شطر من بلاد المشرق الأدنى أولو مذهب متميز يختلفون في بعض من فروعه وأحكامه مع أهل السنة الذين يستندون في كل الأحوال والأزمان وفي عامة تصوراتهم وقناعاتهم وأعرافهم، إلى الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وأيما التواء عن ذلك فإنما هو الجنوح بعينه أو الشطط وحظ النفس من التعصب.

ومما يجدر ذكره هنا أن الشيعة الإمامية وهم أغلب الشعب في إيران، وشطر كبير من الناس في العراق وأشتات من بلاد أخرى إنما يركنون إلى جملة تصورات واعتقادات وأحكام تقتضي التوضيح:

منها: منزلة الإمام: ذلك أن الشيعة الإمامية يعتقدون أن الإمام من أئمتهم، إنما هو ذو منزلة تعدل منازل الملائكة.

---

(١) كتاب سقوط الشاه ص٤٥ ـ ١١٩ تأليف: فريدون هويدا، ترجمة د. أحمد عبد القادر الشاذلي. وانظر كتاب العالم الإسلامي في الاستراتيجيات المعاصرة ص٦٢٩ ـ ٦٣٢ د. علاء طاهر.

إن هذا القول مرفوض لما فيه من مخالفة صريحة للعقيدة الإسلامية، ومما يجدر ذكره أن العقيدة الإسلامية تنطق في مجاهرة بلجة مستفيضة بأن الملائكة خلق نوراني مميز ليس كالبشر في شيء، وهم أطهار مقربون لا يحتملون الخطيئة أو الزلل، وكذلك النبيون المرسلون، فإنهم فئة مختارة مصطفاة خصهم الله بالوحي من عنده ليكونوا وحدهم هداة البشرية في الدنيا والآخرة.

عصمة الأئمة: إذ يتصور الشيعة مقتنعين فيما بينهم أن الإمام من أئمتهم معصوم، فهو بذلك منزَّه عن الخطايا والزلات ولا يحتمل شيئاً من السيئات طول حياته البتة! ومعلوم أن المعصوم النبيون والمرسلون وحدهم دون غيرهم من العلماء والفضلاء والنابغين الأفذاذ، ليس من أحد معصوم عن الخطأ باستثناء النبيين والمرسلين الذين خصهم الله بهذه الخصيصة ليكونوا وحدهم معصومين فلا يخطئون، أما الاجتراء على القول بعصمة غيرهم من العلماء أو الساسة أو القادة فذلكم لا يستند إلى دليل منقول أو معقول.

التقيَّة: بفتح التاء والياء المشددتين، وهي لغة: الخشية والخوف، ويراد بها عند الشيعة: إخفاء الحق ومصانعة الناس في غير دولتهم تحرزاً من التلف أو الأذى[١]. فهي بذلك وقاية للخائف من العدو في ديار الكفر يتقي بها كيدهم وشرهم، إذ يخفي في نفسه الحقيقة ويظهر للكافرين الأعداء غير ما يبطن، ولئن كان الأمر كذلك فهو مقبول ومعقول استناداً إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: الآية ٢٨]. وذلك في حق الكافرين الذين يقع في سطوتهم أحد المسلمين فيخشى على نفسه الهلاك، فلا جناح عليه في مثل هذه الحال ما لو وادعهم وأظهر لهم من البشاشة ومعسول الكلام ما يخادعهم به ليذرأ عن نفسه كيدهم الوشيك وشرهم الماثل.

---

(١) مختار الصحاح ج٢ ص١٠٥٢.

أما اصطناع التقية والتلبس بها في وجه المسلمين لمخادعتهم، فذلكم ليس له في الشرع مسوغ مقبول.

ليس لمسلم يخشى الله أن يخادع أخاه المسلم بما يتراءى له به من معسول القول وهشاشة الوجه وهو يكن له في صدره الكراهية والكيد، بل المسلم الصدوق خلاف ذلك تماماً، إذ يخاطب الناس من حوله في صدق وبراءة من كل أدران النفاق والمخادعة.

نكاح المتعة: وهذا نوع من أنواع النكاح الفاسد، ومعناه النكاح إلى أجل، أو هو النكاح الموقت بمدة، إذ يقول رجل لامرأة خالية من الموانع الشرعية: أتمتع بك كذا، أي شهراً أو عدة أيام أو نحو ذلك من المدة، على كذا من المال[1].

ومثل هذا النكاح حرام، وقد ذهب إلى تحريمه عامة أهل العلم من السلف والخلف، وهو ما اتفقت عليه مذاهب الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وأهل الظاهر، واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة ومستفيضة من كل من الكتاب والسنة والإجماع والمعقول، وهو ما لا يتسع المجال لتبيانه أكثر مما بينا.

الحرب العراقية الإيرانية

وهذه حرب شنيعة ضروس حصد فيها من الأرواح البريئة ما يراوح المليون نسمة من الفريقين، فضلاً عن فظاعة الجراحات والخسارات والمآسي النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي أعقبت سني الحرب الثماني.

---

(١) شرح فتح القدير ج٣ ص٢٤٦، والمغني لابن قدامة ومعه الشرح الكبير ج٧ ص٥٧١، ونهاية المحتاج ج٦ ص٢١١، والأم للشافعي ج٥ ص٧١، والمدونة الكبرى ج٣ ص١٩٦.

ثماني سنوات من اشتداد القتال المستحر بين شعبين مسلمين، سيقا كلاهما إلى جحيم معركة ظالمة حامية، بعد أن سولت لهما الاقتتال دوائر استعمارية خبيثة وقوى خفية ترقد في الظلام وفي أقبية الكيد والتآمر على الإسلام لتدميره، وعلى المسلمين لتبديدهم والقضاء عليهم.

ذلك الذي كانت تخطط له محافل الكيد والتربص من صهيونيين وماسونيين وشيوعيين واستعماريين صليبيين، أولئك جميعاً يبتغون إذكاء الفتنة بين العراق وإيران لتقع الحرب بينهما سجالاً فلا تنقضي أو تفتر إلا وقد أتى عليها الإنهاك والتدمير.

على أن الحكومة العراقية بقيادة صدام حسين، قد هالها قيام الثورة الدينية في إيران، فهي ثورة قد بنيت على التدين من أول يوم وذلك مغاير لما عليه النظام العراقي العلماني الذي لا يعبأ بالدين عقيدة وشريعة ونظام حياة، بل هو نظام قومي ممحض لا علاقة له بالإسلام، لا من قريب أو بعيد، نظام أسسه حزب البعث العلماني اللاديني، الذي اصطنعه صاحبه ومؤسسه ميشيل عفلق، الذي انبرى في حماسة عجيبة من خلال كتاباته وخطاباته يحض فيها العرب للالتفاف حول العرب وقوميتهم بعيداً عن الإسلام بعد المشرق عن المغرب.

ويضاف إلى ذلك اختلاف الدولتين على شط العرب، مما دفع صدام حسين على مبادأة الإيرانيين في القتال، فقامت الحرب بينهما في ٢ أيلول عام ١٩٨٠م، وبذلك كانت العراق هي البادئة في شن الغارات البرية والصاروخية والجوية على المدن الإيرانية حتى قوبلت بالرد من القوات الإيرانية، فاحتدم القتال بينهما احتداماً فاضحاً حروراً تجاوز كل التقديرات.

أما الدول الاستعمارية الكبرى وفي طليعتها الولايات المتحدة الأمريكية، فكان يبهجها قيام مثل هذه الحرب بين أمتين مسلمتين، سعياً لإضعافهما معاً وبغية تدمير قوتهما فتتقوى بذلك إسرائيل وتنتعش.

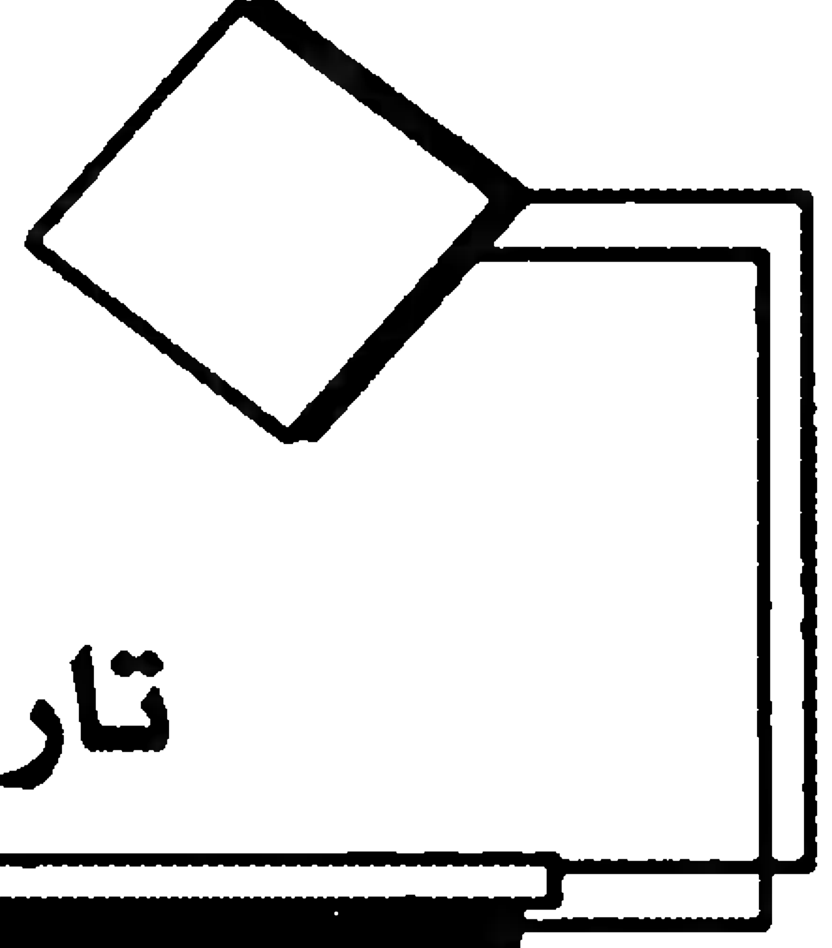
وفي عام ١٩٨٨م، جنحت الدولتان المسلمتان الجارتان للسلم

والتصالح فدخلتا في مفاوضات بينهما من أجل إنهاء الحرب التي توقفت في ٢٠ آب عام ١٩٨٨م[1].



---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي، تأليف: محمود شاكر ج١٨ ص١٠٩ ـ ١١٣.



الفصل الثالث

تاريخ أفغانستان المعاصر

عقب إلغاء الخلافة الإسلامية في ٣ آذار عام ١٩٢٤م، كانت الأسرة الدورانية تحكم بلاد الأفغان، وكان الملك حينئذ هو أمان الله خان الذي تسلم السلطة بعد اغتيال أبيه. وكان أمان الله خان متسلطاً تائهاً مغروراً مولعاً بالصيد واللهو وركوب الخيل، وقد بهرته الحضارة الغربية المادية الأوروبية، فأراد أن يضاهي الغربيين الأجانب في العادات والتقاليد والمظاهر، وكان يرغب في السفر إلى أوروبا كثيراً لإحساسه بالنقص وإعجابه بالمظهر الأوروبي اللامع المخادع، فكانت زوجته وحاشيته من النساء يخرجن سافرات حاسرات كأنهن أجنبيات، بل كان هذا الملك الخليع المسف يحرّض الناس على الانخلاع من الزي الشرعي ومن تقاليد الإسلام في الصورة والمظهر. من أجل ذلك أبغضه الشعب الأفغاني ونقموا منه بالغ النقمة، يحفزهم إلى ذلك عقيدتهم الراسخة الوطيدة، فهم أولو فطرة إسلامية سليمة مبرأة من تلويث الحضارة المادية ومفاسدها.

فلما أحس هذا الملك بالخطر ولّى هارباً إلى مدينة قندهار، حيث تنازل هنالك إلى أخيه الأكبر وهو عناية الله، فلم يدم عهده طويلاً لضعفه وقلة خبرته، فخلف من بعده قيادة البلاد محمد نادر خان، فما لبث بعد مدة قصيرة أن اغتيل، فخلفه من بعده ولده محمد ظاهر شاه، وكان هذا في سن الشباب، إذ كان عمره لدى تسلمه الأمر تسعة عشر عاماً.

ولما قامت الحرب العالمية الثانية، كان التنافس بين الدولتين الحليفتين: روسيا وبريطانيا، للاستحواذ على بلاد الأفغان فتكون في منطقة نفوذهما، وكانت النتيجة أن آلت أفغانستان إلى السيطرة الروسية، فشاعت في البلاد أفكار الإلحاد والعلمانية، وأخذ المتنفذون المتواطئون من داخل البلاد يزينون للناس مضاهاة الأجانب الأوروبيين في الزي والتصور والمظهر، وبذلك انفتحت أفغانستان أمام الدولة الاستعمارية الصليبية بتشجيع من ساسة البلاد العلمانيين.

ومن الزعماء العلمانيين الخاسرين في هذه الفترة: السردار محمد داود، وهو ابن عم الملك محمد ظاهر شاه وزوج أخته وضابط في الجيش الأفغاني، وكان هذا يجنح بفكره وعواطفه نحو الروس، وهو في ذلك يطمع في تأييدهم له من أجل الوصول إلى السلطة. وبالفعل فقد كلفه ابن عمه الملك محمد ظاهر شاه برئاسة الحكومة عام ١٣٧٣ للهجرة، ثم نال التأييد التام من الروس الذين أفاضوا عليه برضاهم.

وفي هذه الفترة، أصبح نيكيتا خروتشوف، رئيساً للوزراء في دولة الاتحاد السوفيتي، وكان هذا بالغ التحمس للشيوعية ونشرها في سائر أنحاء العالم، وقد وجد هذا الملحد الكبير ضالته في محمد داود ليلج من خلاله إلى بلاد الأفغان فتتسرب إليها الأفكار الشيوعية، فأحس الملك محمد ظاهر شاه بخطورة ابن عمه من حيث آراؤه المناهضة لما يتصوره هو ويقتنع به إذ كان يسير في فلك الاستعماريين الغربيين.

ثم ما لبث المارد الإسلامي أن ظهر وشاع، ذلك أن الشعب المسلم الأفغاني قد أصيب بصدمة مما يجده من تصرفات الأجانب في بلادهم، إذ يشيعون فيها الفساد وكل أسباب الفسق والرذيلة كالخمر والعهر وتدمير القيم، مما استفز مشاعرهم وهممهم الدينية أيما استفزاز، فأثار فيهم حمية الإسلام حيث الشهامة والغيرة على القيم والأخلاق والمروءات أن تضطرب أو تتبدد.

وقد تكوّنت أول نواة لحركة إسلامية واعية عام ١٣٨٧ للهجرة،

فأخذت على عاتقها نشر الوعي الإسلامي بين أبناء الشعب، فبادر الناس ـ والشباب خاصة ـ للالتفاف حول القادة المسلمين لهذه الحركة.

ثم ما لبثت قوى الشر والكفر والإلحاد من شيوعيين واستعماريين صليبيين أن هبوا لتدعيم العناصر الملحدة في الداخل، التي يعول عليها الظالمون في التصدي لنهوض الإسلام أو استشراقه من جديد. وقد اتفق هؤلاء الظالمون جميعاً على محاربة الإسلام وجنده وأعوانه الداعين إليه، وراحوا يرددون مقولتهم المفضوحة في وصم الإسلاميين بالرجعيين، وهو كلام هراء مسف، تتقيأه بين الحين والآخر حناجر المفلسين الخاوين من استعماريين وصليبيين وشيوعيين وصهيونيين وعملاء.

على أن التنامي المطرد للوعي الإسلامي وسرعة الإقبال من المسلمين الأفغان على الاستعصام بالعقيدة الإسلامية مع شديد التقزز والنفور من مذاهب الإلحاد، كل ذلك قد حفز الشيوعيين في أفغانستان إلى التفتيش عن مرشح يتزعم قيادة البلاد بدلاً من حكومة محمد ظاهر شاه المدنية، فوجدوا ضالتهم في هذا الخادم الزنديق المؤتمن لديهم وهو محمد داود، فقد أشار إليه الروس أن يبادر للقيام بانقلاب عسكري في البلاد ثم يكون هو رئيساً لها.

وفي صباح الثلاثاء من ١٧ تموز عام ١٩٧٣م، وقع الانقلاب المنشود ليكون قائده محمد داود رئيساً للبلاد، فأنهى بذلك نظام عمه الملك محمد ظاهر شاه الذي كان مسافراً إلى إيطاليا، وعقب الإعلان عن الانقلاب في أفغانستان بزعامة محمد داود ذي الميول الماركسية، بادرت دولة الهند للاعتراف بالنظام الجديد. وكانت هذه أول دولة تعلن عن اعترافها بحكومة محمد داود وذلك لما في هذا النظام الجديد من تحقيق لبعض مصالحها ضد دولة باكستان التي تعتبرها الهند العدو التقليدي الأول لها في العالم.

استقر الوضع في أفغانستان برئاسة محمد داود، وزاد هذا من تقربه لأسياده الروس، ففتح الباب على مصراعيه للشيوعيين كيما يحظوا بالمراكز والوظائف في الدولة لإضعاف خصومه الإسلاميين، لكن محمد داود أحسّ

عقب هرولته هذه نحو المعسكر الشيوعي أنه سيصبح أسير الشيوعيين في البلاد، وأسير دولتهم السوفييت، مع أنه ليس في الحقيقة شيوعياً بل كان عميلاً مهيناً يبتغي من وراء عمالته الوصول إلى سدة الحكم، وقد وصل، ومن أجل ذلك أراد محمد داود أن يظهر للمسلمين حسن نيته فقام بزيارة لبعض الدول الإسلامية مثل باكستان والمملكة العربية السعودية وليبيا، ففطنت له روسيا وأدركت ما يفكر فيه هذا الرجل وما يبتغيه، فخططت للتلخص منه والاستعاضة عنه بمن هو أشد إخلاصاً للشيوعية والشيوعيين، لكن هذه الحقائق والأنباء لم تكن بعيدة عن خيال محمد داود الذي أحس أن السوفييت يضيقون الخناق عليه، فهم ماضون في مخططاتهم التخريبية والإرهابية في البلاد تمهيداً للقضاء عليه، فبادر هو على الفور باعتقال فريق من القادة الشيوعين في البلاد وفي طليعتهم: محمد نور طراقي، وحفيظ الله أمين، وبابراك كارمل، ثم زجهم في السجن.

لكن السوفييت لم يكونوا حينئذ بعاجزين عن الرد والمواجهة، فتصدوا لمحمد داود بالتخطيط للانقلاب الذي قام في البلاد في ٢٩ نيسان عام ١٩٧٨م ليؤتى بزعيم حزب خلق، وهو الشيوعي محمد نور طراقي.

فقد تسلّم هذا رئاسة الجمهورية في ٣٠ نيسان عام ١٩٧٨م، فضلاً عن رئاسته للحكومة كذلك، وفي عهد هذا الظالم الشقي الملحد، وقعت أعمال فظيعة من العنف وإراقة الدماء، فقتل الأبرياء وشاع الخوف والإرهاب، فأدرك الناس عن حقيقة الشيوعيين النفسية والسلوكية ما لم يكونوا يعلمونه أو يصدقونه.

لقد وقعت في البلاد شنائع وفظائع أهريقت فيها الدماء على أيدي الشيوعيين الملحدين، فقد قتل في اليوم الأول من وقوع الانقلاب خمسة عشر ألف قتيل.

أما محمد نور طراقي فقد أمر بإخراج محمد داود من السجن وأمر بقتل أبنائه التسعة والعشرين أمام ناظريه. لقد قتلهم الواحد تلو الآخر وهو ينظر إلى مقتلهم، ثم ما لبث بعد ذلك أن قتل كل أفراد أسرته الباقين. لقد

قتلهم وهو ينظر إليهم متلذذاً بإشفاء غليله في تقتيلهم جميعاً!!

يضاف إلى ذلك ما فعله محمد نور طراقي في الشعب الأفغاني المسلم من أفاعيل، إذ قتل المئات من قادتهم وعشرات الآلاف من عامتهم، وزجّ في السجون الآلاف منهم وشرّد غيرهم كثيرين، فشاع الرعب والفزع في البلاد، ولاذ الناس بالاختباء في بيوتهم وقد أذهلهم ما شاهدوه أو أحسوه أو سمعوا به.

وظن محمد نور طراقي، هذا العبد الخاسىء الخاسر، أن الإسلاميين قد أبيدوا وأنهم لن يظهروا بعد ذلك أبداً، لكن ظنه هذا كان خاسئاً موهوماً، فما لبث الإسلاميون عقب هذه الأجواء من الرعب والدماء أن يتململوا، وأعلنوا المقاومة المسلحة مجاهرين ناشطين، حتى باتوا يهددون الوجود السوفييتي والشيوعي في البلاد.

ثم عهد إلى حفيظ الله أمين برئاسة الوزارة التي شكلت في ٢٨ آذار عام ١٩٧٩م، وبالرغم من ذلك، اشتدت المقاومة الإسلامية، وظهر للناس الحزب الإسلامي برئاسة قلب الدين حكمتيار وأحزاب أخرى.

ثم دبّ دبيب الخلاف بين رئيس الجمهورية محمد نور طراقي، ورئيس الوزارة حفيظ الله أمين، حول الحكم، فاستقر الأمر في النهاية لحفيظ الله أمين الذي أمر باعتقال محمد نور طراقي وزجه في السجن ثم ما لبث أن أمر بقتله.

كان الروس غير مطمئنين تماماً لسياسة حزب خلق بالرغم من كونه شيوعياً، فهم يبتغون الإذعان لهم كامل الإذعان دون تردد ولو بمثقال ذرة، وبذلك لم يكتفوا بما أظهره لهم محمد نور طراقي وحفيظ الله أمين من طاعة واستسلام لأوامرهم، بل يريدون من العملاء من هو أشد إخلاصاً وانقياداً لأوامرهم دون انثناء أو مجادلة أو مساءلة، ومثل هاتيك الأوصاف، ربما يجدونها في شخصية طيعة منقادة مثل بابراك كارمل زعيم حزب برشام الشيوعي.

كان بابراك كارمل يعيش في هذه الفترة في العاصمة التشيكوسلوفاكية

وهي براغ، إذ كان فيها لاجئاً سياسياً، وقد هيىء حزبه برشام للإمساك بالسلطة في البلاد الأفغانية.

في يوم ٢٧ كانون أول عام ١٩٧٩م، وقع هجوم على القصر الجمهوري، وقد تم فيه اعتقال رئيس الجمهورية حفيظ الله أمين، فما لبث في اليوم الثاني أن لقي مصرعه، وذلك هو ديدن الطغاة المتجبرين في الأرض الذين يختارون لأنفسهم من الزعماء المغفلين ليكونوا لهم صنائع وعملاء مأجورين، حتى إذا وجد المتجبرون الطواغيت من هم أشد انقياداً وتبعية لهم بادروا دون تردد لقتل المأجورين العملاء ممن هم أقل طواعية وامتثالاً. وتلك هي عاقبة الخاسرين الصاغرين من الأتباع والعملاء الذين باعوا أنفسهم وأوطانهم وشعوبهم للطواغيت من شياطين البشر كيما ينالوا عندهم الحظوة في تسلم واحد من المناصب أو اعتلاء ذروة من كراسي الحكم.

عُيِّن بابراك كارمل رئيساً للجمهورية وهو لم يزل في براغ العاصمة التشيكية، حتى إذا وصل إلى العاصمة الأفغانية كابل، وجد الروس قد سبقوه إليها، فقد كانت جيوشهم التي تجاوز عددها ثمانين ألفاً تجتاز نهر جيحون، وقد دخل العميل بابراك كارمل على ظهر دبابة روسية من طراز ت٧٢.

ثم توالت الجيوش السوفيتية في الزحف إلى البلاد الأفغانية حتى وصل عددها إلى خمسة وسبعين ألفاً، فعاثوا في البلاد الخراب والدمار، وأشاعوا في الناس الرعب والهلع، واستعملوا الغازات السامة في حق المجاهدين المسلمين وغيرهم من المواطنين الآمنين، فأخذ الناس يهربون من البلاد متوجهين نحو باكستان طلباً للنجاة والأمن، فبلغ عدد اللاجئين الأفغان في باكستان في آب عام ١٩٨٠م أكثر من مليون إنسان، كل ذلك والقوات السوفيتية ممعنة في السيطرة على البلاد الأفغانية وإشاعة الذعر والفوضى في البلاد، بعد أن انهالوا على الناس في كل مكان يقصفونهم من البر والجو، حتى إذا جاء عام ١٤٠٠ للهجرة، كان مجموع القتلى من المسلمين في

أفغانستان مليوناً، وبلغ عدد القوات السوفيتية حينئذ أكثر من مائة وخمسة آلاف جندي[1].

الثورة الأفغانية:

عقب الانقلاب الشيوعي في أفغانستان وسيطرة النظام الشيوعي بكلكله الثقيل المنكود على البلاد، معززاً مدعماً من قبل الإمبراطورية السوفيتية، طليعة المادية والإلحاد في العالم، حينئذ شاع الكفر والجحود في بلاد الأفغان، وأعلن الشيوعيون الحرب جهرة على الإسلام وعقيدته ونظامه، مما أثار في نفوس المسلمين الأبرياء النفور، وأذكى فيهم روح التمرد على النظام الملحد والجنوح للجهاد والثورة لزحزحة هذا الظلام الأسود الشنيع ولو بقوة السلاح، فتنادى العلماء والدعاة لدين الإسلام إلى التجمع والتلاقي ووحدة الكلمة، ليقفوا صفاً واحداً في وجه الملاحدة الذين عاثوا في الأرض الفساد والإلحاد، فالتقت خمسة أحزاب إسلامية عام ١٣٩٩ للهجرة لتتفق ما بينها على عقد ميثاق الاتحاد الإسلامي لأفغانستان.

وكان عبد ربِّ الرسول سيّاف قد خرج من السجن، ثم انضم إلى الاتحاد واختير رئيساً له، لكن هذا الاتحاد ما لبث أن انفرط عقده لجملة أسباب نفسية وشخصية وعصبية وسياسية.

على أن كبرى المنظمات والأحزاب هي: الحزب الإسلامي بزعامة حكمتيار، والحزب الإسلامي، والاتحاد الإسلامي، والجمعية الإسلامية. وثمة خلاف كبير بين الحزب الإسلامي بزعامة حكمتيار، والجمعية الإسلامية، وهو خلاف محتدم ومؤسف كان يطغى على كل الخلافات، وقد أفضى ذلك إلى اقتتال بين الإخوة في الدين والجهاد والوطن، راح ضحيته الآلاف من المسلمين المجاهدين، بعد أن عزَّ على المصلحين والغيورين أن يؤلفوا بين قلوب هؤلاء المتخاصمين المتدابرين. والظاهر أن هذا الخلاف

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ج١٨ ص١٩٩ ـ ٢٢٠ تأليف: محمود شاكر. وانظر موسوعة التاريخ الإسلامي تأليف د. أحمد شلبي ج٨ ص٢٣٢ ـ ٢٤٣.

مرده في الغالب للخلاف المحتدم بين الزعيمين قلب الدين حكمتيار، وبرهان الدين رباني، وهو خلاف يعود إلى قضايا شخصية وأصول عصبية بين البشتون والطاجيك، إلى غير ذلك من وجوه الأنانية والهوى مما لا يليق بقوم مسلمين عزموا على الالتزام بفريضة الجهاد.

ومن خليقة المسلمين الصادقين المخلصين أن تتجلى فيهم جملة صفات وخصائص أعظمها: التواضع والإيثار والرحمة والشعور بالأخوة الوثيقة المباركة.

أما أن يفترق المسلمون شيعاً وجماعات متنافرة متناحرة، يغزو بعضها بعضاً، فيقتتلون اقتتالاً تسيل فيه الدماء مهراقة، وتزهق فيه أرواح المئات أو الملايين، فذلكم ينذى له الجبين وتتصدع من فظاعته القلوب والأكباد، ويثير في النفوس المضاضة والمرارة والاشمئزاز، فضلاً عن أن ذلك مخالف لتعاليم هذا الدين الحنيف الذي يفرض من شمائل المقاصد والنوايا ما يصنع خير البشر.

وبالرغم من ذلك كله فقد أبلى المجاهدون الأفغان في حرب الجيش الروسي أشد البلاء، لقد أذاقوهم من ألوان الترويع والقتل ما أفزعهم إفزاعاً، على الرغم من فظاعة الأسلحة الفتاكة المتطورة التي كانت في حوزة الجنود السوفييت، وهم مع ذلك كله لم يستطيعوا تحقيق مآربهم في البلاد، بل باؤوا بالفشل والخسران، وحاق بهم من الهزائم في ساحات القتال ما كشف عن خائر عزائمهم أمام العالم، فضلاً عن خسارتهم الفادحة في الرجال، إذ فقدت القوات السوفيتية طيلة ثماني سنوات من حربهم مع المجاهدين الأفغان، خمسين ألف جندي، منهم ثلاثة عشر ألف قتيل وخمسمائة وخمسة وثلاثين ألف جريح، فضلاً عن الخسارة المادية التي كلفت الخزينة الروسية المليارات من الدولارات.

من أجل ذلك كله وجدت روسيا نفسها مضطرة للانسحاب من أفغانستان وذلك عقب مفاوضات طويلة في جنيف بين دولتي أفغانستان وباكستان، فتم التوقيع على الانسحاب في ١٤ نيسان عام ١٩٨٨م، ثم

بدأت القوات السوفيتية بالانسحاب في ١٥ أيار عام ١٩٨٨م حتى نهاية ١٥ شباط عام ١٩٨٩م.

وبذلك انقشع هذا الظلام المعتم الرهيب الذي جلل الأجواء الأفغانية برمتها، وتبددت معالم فترة حالكة كؤود حاقت بالمسلمين الأفغان، فسامتهم سوء التنكيل والتقتيل والتهجير والطغيان.

ومما يذكر في هذا الصدد أن نصف الشعب الأفغاني قد اضطر لمغادرة البلاد والهجرة إلى البلاد المجاورة، وبخاصة باكستان، فكان عدد المهاجرين إلى خارج البلاد يزيد على خمسة ملايين إنسان، فضلاً عن الهجرة الداخلية وهي الرحيل إلى مناطق مختلفة من البلاد أكثر أمناً وأبعد عن مواطن القتال، وكان عددهم كذلك خمسة ملايين.

وإذا تبدّد العدوان من الخارج، وانقشع ظلام المادية الملحدة الكنود، وانحسرت قوى الشر والباطل لتنكفىء على أعقابها قافلة قفول الخزي والهزيمة، إذا تحقق ذلك كله بتوفيق الله وعونه، فقد فجأت أسماعنا وصدعت قلوبنا ومشاعرنا أنباء الاختلاف بين فصائل المجاهدين أنفسهم، حتى إذا اشتد الخصام بينهم واستشرت ظواهر الفرقة والتنافر والشقاق، سيقوا جميعاً إلى الحرب والاقتتال ما بينهم، وذلكم العار والشنار وخراب الديار والأمصار!.

في شهر آذار من عام ١٩٩٣م، وفي شهر رمضان، أجرى الرئيس برهان الدين رباني، وقلب الدين حكمتيار، وصبغة الله مجددي، والقادة الآخرون لبقية المجاهدين، مفاوضات في العاصمة الباكستانية إسلام أباد أسفرت عن توقيع اتفاقية سلام فيما بينهم، وبمقتضى هذه الاتفاقية تكونت حكومة انتقالية لتتسلم السلطة مدة ثمانية عشر شهراً على أن يظل برهان الدين رباني رئيساً للدولة، ويتولى قلب الدين حكمتيار رئاسة الوزارة الانتقالية على أن يتوقف إطلاق النار بين الفرقاء فوراً، ثم يجري عقب ذلك انتخابات تشريعية خلال ستة أشهر.

وقد تمت المصادقة على اتفاقية السلام هذه ووقعت عليها حكومات باكستان وإيران والمملكة العربية السعودية.

وبالرغم من التوقيع على اتفاقية السلام هذه بين مختلف الفصائل والفرقاء عام ١٩٩٣م، إلا أن الصراع بينهم ما لبث أن ظهر وتجدد، فقد استطار الخلاف بين رئيس الدولة برهان الدين رباني، ورئيس الوزراء قلب الدين حكمتيار، فهو خلاف قائم على العصبية القبلية والأهواء الشخصية، فضلاً عما يؤز الفريقين من خلافات الماضي، بل الأهم من ذلك كله، أن مرد الخلافات والخصومات والمباغضات إنما يعود إلى سبب أساسي أكبر وهو فتور الإخلاص لله في العمل، والركون في الغالب إلى هوى النفس التي تجنح بالمرء للاستمتاع بالمناصب والرغبة في الاشتهار والظهور، خلافاً لما تقتضيه عقيدة الإسلام من إخلاص العمل كله لله وإيثار على الدنيا وما يلفها من حطام وسفاسف[١].

وفي هذه الأجواء من الاختلاف بين رباني وحكمتيار، ثم رشيد دوستم الذي كان يمالىء هذا تارة، ويمالىء هذا تارة أخرى، ومع اشتداد الصراع المثير المخجل الذي استحال إلى حرب حامية بين الفرقاء، حرب شنيعة عمياء قصفت فيها العاصمة كابل بالألوف من قذائف المدافع والصواريخ، كانت الدوائر الاستعمارية والصليبية تقف موقف المبتهج المتفرج المحبور، بل تعمل على ازدياد الفتنة والكراهية بين المتحاربين ليزداد القتال ضراوة وليزداد أمد الحرب بينهم، وإنما مرادهم من ذلك تشويه الإسلام، وإظهاره للعالمين على أنه دين افتتان واقتتال، وتشويه لحقيقة المسلمين على أنهم متخلفون رجعيون همج.

وحاشا لله أن يكون الإسلام كما يصوره الحاقدون من استعماريين وصليبيين وصهيونيين ووثنيين وملحدين، إنما الإسلام دين الإخاء والمساواة والرحمة، الرحمة التي يرسخها هذا الدين في قلب المسلم ليكون رحيماً بالكائنات كافة، بل ليكون أرحم الخلق بالخلق.

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي، تأليف: محمد شاكر ج١٨ ص٢٦٦ ـ ٢٩٩، وانظر: الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ص٥٦٨.

أما ما تهوي فيه نفوس فريق من الناس بين حين وآخر لتنزلق أو تتعثر، فإنما ذلك ضرب من الضعف الذي لا ينجو منه بشر كائناً ما كان، إلا أن يكون نبياً مرسلاً، أو صدوقاً طهوراً من الصديقين والمقربين والأبرار.

وفي هذه الأجواء المحزنة الأسيفة من التناجز والتنافس والاقتتال بين رفاق السلاح وأخوة العقيدة، مما أثار الأسى والذهول لدى المسلمين جميعاً، تنبثق في شهر رمضان ١٤١٥ للهجرة الموافق شباط عام ١٩٩٥م، حركة إسلامية جديدة من قلب بلاد الأفغان اسمها (طالبان) لتستولي على معظم البلاد بسرعة فائقة وحماسة تثير الإعجاب. وقد تمكنت هذه الحركة المستجدة من السيطرة على أكثر المدن والمقاطعات إلى أن بلغت قلب العاصمة كابل.

وما فتئت الحركة تستحوذ على البلاد شرقاً وغرباً بعد أن أذعن لها الشعب وتبددت من أمامها كل فئات المعارضة.



الفصل الرابع

فكرة مقتضبة عن تاريخ أندونيسيا

تعني كلمة أندونيسيا (جزر الهند) وهي تقع بين محيطين كبيرين وهما: المحيط الهادي شرقاً، والمحيط الهندي غرباً. وتتألف هذه البلاد (أندونيسبا) من عدة آلاف من الجزر تصل إلى ٧٩٠٠ جزيرة، وهي جزر عظيمة الأرجاء مترامية الأطراف يبلغ امتدادها ثلاثة آلاف ميل، ومن أكبر جزرها سومطرة، ويبلغ عدد سكانها عشرين مليون نسمة. أما جزيرة جاوه، فهي امتداد لجزيرة سومطرة، وهي أغنى جزر أندونيسيا وأكثرها سكاناً، وفيها تقع العاصمة جاكرتا، وكذلك تقع فيها مدينة باندونغ التي عقد فيها مؤتمر باندونغ للدول المسماة بدول عدم الانحياز، حضره نفر من عتاة الساسة في هذا الزمان ومن بينهم جواهر لآل نهرو، وجوزيف بروستيتو، وجمال عبد الناصر، وكان ذلك عام ١٩٦٥م.

أما سكان أندونيسيا، فيزيد عددهم عن ١٤٠ مليون نسمة، وهم موزعون على مختلف الجزر الأندونيسية توزيعاً متفاوتاً، وكانوا يتكلمون مئات اللغات قبل أن تستقر لغتهم الأندونيسية الحالية.

دخل الإسلام أندونيسيا والملايو مع التجار والرحالة، وكان دخوله وئيداً، وذلك لبعد الشقة وقلة الدعاة العالمين بهذا الدين العظيم، وإلى جانب هذه الديانة الحنيفة المباركة كانت ديانات أخريات قائمة على الشرك والوهم والضلال، على أن المسلمين كانوا هم الأكثرين، إذ كانت نسبتهم

٩٠٪، ونسبة المسيحيين فيها ٣٪، ونسبة البوذيين والهندوسيين ٣٪، ونسبة أديان بدائية أخرى ٣٪.

وبالرغم من النسبة العظمى للمسلمين في أندونيسيا، فقد كان النظام للدولة برمتها علمانياً، إذ لم يكن من نص في الدستور يشير إلى أن دين الدولة هو الإسلام، وربما كان ذلك انعكاساً للارتكاسة الشنيعة المقبوحة التي اجترها الصهيوني الغادر كمال أتاتورك في تركيا.

لكن الجهود الكبيرة من كبار الدعاة والعلماء والمفكرين ظلت جاهدة لتصحيح المسار، كيما ينص في الدستور على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام.

طمعت الدول الأجنبية في السيطرة على أندونيسيا، فتسارعت إليها الدول من الغرب والشرق، من بينها بريطانيا وهولندا واليابان التي كانت تتطلع إلى امتلاك بعض الجزر في أندونيسيا، وخصوصاً جزيرة غينيا الجديدة، إذ كانت اليابان ترى فيها سبباً لتنمية اقتصادها.

وعقب قيام الحرب العالمية الثانية، تظاهرت اليابان أنها تناصر الشعوب المغلوبة في الشرق الأقصى، وفي نفس الوقت كانت اليابان تهيىء نفسها لدخول الحرب، مبتغية بذلك تحقيق أطماعها عقب الانتصار على النفوذ الغربي في هذه المنطقة.

ثم أخذت اليابان في الكشف عن حقيقة مبتغاها في أندونيسيا، وهو السيطرة وإخضاع البلاد، مما أثار انتباه الشعب، فانطلقوا ثائرين في وجه هذا الاستعمار المتعسف، ومن أجل هذه الغاية، اجتمع بعض الزعماء الأندونيسيين وفي طليعتهم أحمد سوكارنو ومحمد حتى وكياي حاجي منصور للإعداد لمهمة عظيمة وهي استقلال أندونيسيا.

ولما أحست اليابان بأنها على وشك الهزيمة في الحرب، غيّرت نظرتها لأندونيسيا، وأعربت عن استعدادها لاستقلال هذه البلاد، وقد تحقق ذلك في عام ١٩٤٥م، فقد دعا الحاكم العسكري الياباني العام في جنوب شرق آسيا، الزعيمين أحمد سوكارنو ومحمد حتى لمقابلته في دالت ميورما، وذلك لتسليم وثيقة الاستقلال إليهما، واعتراف اليابان بهذا الاستقلال.

عاد سوكارنو وحتى من سيجون إلى جاكرتا، فاستقبلهما الشعب بالغ البهجة والاحترام، ثم أعلن سوكارنو عن استقلال أندونيسيا، وذلك في ١٧ آب من عام ١٩٤٥م. واتفق أعضاء اللجنة التنفيذية للاستقلال على تعيين أحمد سوكارنو رئيساً للبلاد، وأن يكون محمد حتى نائباً له.

وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وانتصار الغرب على دور المحور، طمعت الدول الاستعمارية المنتصرة في معاودة السيطرة على أندونيسيا، ومن أجل ذلك تحالفت قوى البغي الاستعماري على غزو البلاد الأندونيسية، فنزلت جيوش الحلفاء بالعاصمة جاكرتا عام ١٩٤٥م، وطلبوا من السكان تسليم أسلحتهم للمحتلين، لكنهم رفضوا هذا الطلب بقوة وحزم، بل بادروا يقاتلون الغزاة المحتلين في عنف وتصميم مما أثار اليأس في نفوس الجيوش الغازية وبخاصة الإنجليز الذين كان أكثر جنودهم من الهنود، وفي المقابل أبلى المسلمون في القتال بلاءً مميزاً. ومما يثير البهجة حقاً، أن الجنود المسلمين من عساكر الهند الغزاة، رفضوا إطلاق النار على الأندونيسيين، من أجل أنهم مسلمون وإخوة في العقيدة.

وبالرغم من شدة المقاومة وعظيم البأس لدى الأندونيسيين، لكنهم حاقت بهم خسائر كبيرة في الأرواح منها مذبحة سولاويسي التي واجه فيها الأندونيسيون قوات الإنجليز المعتدية، فقتل من الأندونيسيين أربعون ألف إنسان، وذلك في نوفمبر عام ١٩٤٥م.

ولما أحس الحلفاء المعتدون بفداحة الخسائر التي حاقت بهم، وأن الشعب الأندونيسي مصمم على القتال والتصدي للمعتدين، اضطروا لمفاوضة الزعماء الأندونيسيين بعد أن تركت هولندا وحدها تصارع الأندونيسيين طمعاً في السيطرة وبسط النفوذ.

ثم ما لبثت هذه الدولة الاستعمارية العاتية أن أذعنت للواقع، فاعترفت باستقلال أندونيسيا، وذلك في ٢٩ أكتوبر من عام ١٩٤٩م[1].

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي، تأليف: د. أحمد شلبي ج٨ ص٤١٣ ـ ٥٣٦، وانظر: الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ص٧٩٩ ـ ٨٠٢.

وفي عهد الاستقلال للبلاد، قامت أحزاب كثيرة لتضطلع بإدارة شؤون الدولة، وأهم هذه الأحزاب هي:

١ - حزب ماشومي.

٢ - حزب نهضة العلماء.

٣ - الحزب الوطني.

٤ - الأحزاب المسيحية.

٥ - الحزب الشيوعي.

على أن نقتضب من الحديث هنا ما نزجي فيه بفكرة عن حزبين اثنين هما: حزب ماشومي والحزب الشيوعي.

أما حزب ماشومي فهو حزب إسلامي، وهو بديل لمجلس شورى مسلمي أندونيسيا، سابقاً. وعقب استقلال أندونيسيا، عقد هذا المجلس مؤتمره في نوفمبر عام ١٩٤٥م، وقرر أن يتحول المجلس إلى حزب سياسي يعبر عن آمال المسلمين في أندونيسيا وتطلعاتهم، فما لبث هذا الحزب أن صار قوة عظيمة تنطق باسم الشعب الأندونيسي وتمثله تمثيلاً حقيقياً.

وأما الحزب الشيوعي في أندونيسيا، فقد كان له وجود منذ العهد الاستعماري الهولندي، فقد كان هذا الاستعمار البغيض قد أسهم في إنعاش الوجود الشيوعي ليتمكن من مناهضة الإسلام، هذا الدين السهل الميسور الذي استطار ذكره وشأنه في البلاد وأقبل الناس على اعتناقه في حماسة بالغة، من أجل ذلك ظن الهولنديون أن إثارة الشيوعية في البلاد سبب أساسي وفعال لمواجهة الإسلام والتصدي له وإيقاف امتداده، وبالفعل قامت السلطات الهولندية بتأييد الشيوعيين وتنشيط نفوذهم وإعطائهم واسع التسهيلات.

أما الرئيس سوكارنو، فقد نشب خلاف شديد بينه وبين حزب ماشومي الإسلامي، الذي ناصبه سوكارنو العداء وتصدى له بالمقاومة والعدوان مستعيناً في ذلك بالشيوعيين الكفرة، كل ذلك من أجل الاحتفاظ بالكرسي

والبقاء في سدة الحكم لما كان يخشاه على نفسه من زعزعة واضطراب، وهو يظن أن سلطانه صائر إلى الانهيار والتبدد إذا ما ظهر الإسلام وأنصاره في البلاد. من أجل ذلك اشتط هذا المغفل الظالم في مناصرة الشيوعيين، وتأييدهم والاعتماد على جموعهم ونفوذهم.

أما الشيوعيون ـ وقد تهيأت لهم الفرصة المناسبة ـ انساحوا في البلاد تخريباً وتقتيلاً وانتهاكاً للحرمات ونهب الأموال، فأثاروا في البلاد الرعب والهلع، وشرعوا في سياسة التصدي للعسكريين الذين لم تخدعهم أكاذيب الشيوعيين، فلم يمالئوهم، بل جنحوا لتأييد الشعب المسلم والوقوف إلى جانبه في مواجهة الشيوعيين وحليفهم سوكارنو الذين شددوا حملتهم على العسكريين، فتمكنوا من اغتيال عدد من جنرالاتهم ظلماً وعدواناً.

وكان على رأس الجنرالات المناهضين لسوكارنو والشيوعيين الجنرال سوهارتو، إذ قاد المقاومة لمناصرة الشعب ولمناهضة الباطل الشيوعي، ومن ثم أعلن الجيش بقيادة سوهارتو عن عصيانه لأوامر الرئيس سوكارنو، ثم ما لبث الجيش أن أعلن عن حل الحزب الشيوعي عام ١٩٦٦م، وبذلك آل الأمر بالشيوعيين في أندونيسيا إلى الانتكاس والأفول. وكذلك سوكارنو، الحاكم المتسلط المغرور الذي تطوع له نفسه مناصرة الشيطان في مقاومة حق من أجل أن يظفر بجلوس خسيس مهين فوق كرسي هابط مبتذل.

الرئيس سوهارتو:

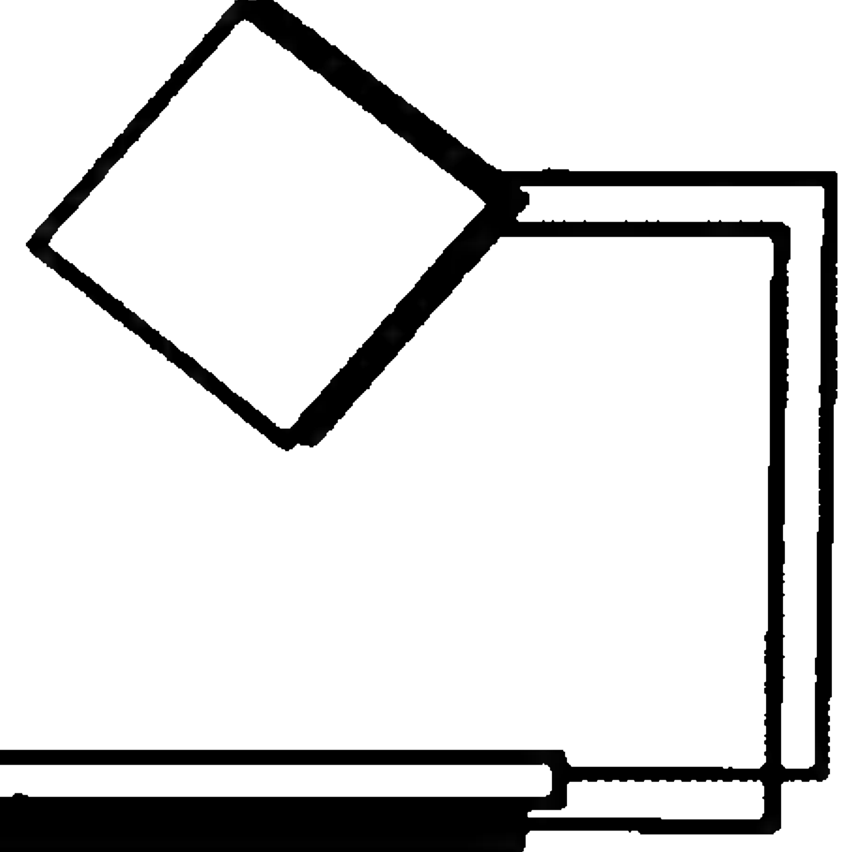
بعد الذي أصاب الشيوعيين من هوان واضمحلال، وبعد ما حاق بهم من انهيار وتعس على أيدي العسكريين الذين هرعوا لمناصرة الشعب المسلم، والوقوف إلى جانبه أمام الشيوعيين الملحدين الذين عاثوا في الأرض خراباً وفساداً وترويعاً، بعد ذلك كله أصدر المجلس الاستشاري الأندونيسي المؤقت قراراً عام ١٩٦٨م يقضي بتعيين سوهارتو رئيساً للجمهورية، فما لبث أن غاض ذكر سوكارنو إلى السحيق من دركات النسيان والانخماد، فبات طريداً مهيناً، وصار نسياً منسياً، حتى مات في ٢١ يونيو من عام ١٩٧٠م بعد أن ترك وراءه من سوء الذكريات ومفاسد السيرة

ما يثير النفور والامتعاض واللعائن، فلقد أظهرت التحقيقات أن سوكارنو كان قد رصد لحسابه في بنك طوكيو مبلغ مليونين ونصف من الدولارات، فضلاً عن رجاله المقربين الذين ساسوا الشعب بسياسة القمع والتنكيل، أولئك الذين استبانت أرصدتهم في البنوك والتي بلغت الملايين من الدولارات الأمريكية، أولئك الذين عموا وصموا فأذلهم الله وأركسهم شر إركاس بما اكتسبوا في حق الإسلام والمسلمين من شرور ومفاسد وخيانات.

أما الرئيس سوهارتو، فقد حكم البلاد مدة خمس عشر سنة، وذلك من خلال جولات انتخابية مريبة، كانت تحوم حولها شبهات التلاعب والتزوير حتى تمكن من الفوز المريب في الانتخابات خلال جولات أربع، وهو في كل الأحوال كان خصيماً للحركات الإسلامية وبخاصة حزب ماشومي الإسلامي الذي أحيط بحظر من الظهور، فلم تأذن له الجهات المسؤولة بممارسة نشاطه، وذلك إبان حكم سوكارنو، وكذلك سوهارتو الذي اقتفى أثر سلفه في التصدي لحزب ماشومي ولمنعه من مزاولة نشاطاته الإسلامية في البلاد، لكي يظل بذلك مستأثراً لنفسه بقيادة البلاد والاستفراد بالزعامة من غير منافس قوي.

ظلّ سوهارتو على رأس النظام في البلاد طيلة هاتيك السنوات الخمسة عشر، إلى أن جنح للانزلاق في حمأة الترف والبذخ وجمع الأموال الطائلة التي برع أنصاره وأقرباؤه وأعوانه في جمعها والاستكثار منها، مما حمل الشعب على النفور والتمرد والرغبة في التخلُّص من هذا الكابوس، الذي استفحشت فيه ظواهر السرقات والخيانات وتبديد الأموال في وجوه المصالح الخاصة والأهواء الشخصية.

إن ذلكم لهو مصير الظالمين الذين لا يخشون الله ولا يلتزمون شرعه ومنهاجه للحياة، بل ينقلبون على وجوههم متمردين عصاة يحاربون أولياء الله، ويضعون العراقيل والقيود والمعوقات في طريق الإسلام كيلا يظهر أو يعلو شأنه في الآفاق ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢١].



الفصل الخامس
ماليزيا

تتكون ماليزيا من جزأين أساسيين وهما: ماليزيا الشرقية، وماليزيا الغربية، وهذه تشمل شبه جزيرة الملايو.

ويبلغ عدد سكان ماليزيا الحاليين، أكثر من ١٢ مليون نسمة، وهم يتكونون من ثلاثة عناصر رئيسة وهي:

العنصر الملايوي: وهو يمثل نصف السكان.

ثم العنصر الصيني: وهؤلاء وافدون من جنوب الصين وينتمون إلى أصول مختلفة.

ثم العنصر الهندي: وقد ساقه الاستعمار من أجل العمل في صناعة المطاط.

أما اللغة الرسمية في البلاد فهي اللغة الملايوية.

وعقب انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا، كتب للملايو أن يشيع فيها الإسلام حتى أصبح دين الدولة الرسمي، وقد اعتنقه كل الملايويين وأعداد من الهنود والصينيين، لكن أكثرية الصينيين في ماليزيا كانوا يعتنقون البوذية أو الكونفوشية، وكان أغلب الهنود في ماليزيا يدينون بديانة الهندوس والسيخ.

أما عن كيفية دخول الملايو في الإسلام، فكان ذلك عن طريق التجار

والرحالة كالذي قيل من قبل عن دخول الإسلام إلى أندونيسيا، على أن الحقيقة في جوهر المسألة هنا إنما يعود إلى طبيعة الإسلام نفسه، هذا الدين المفضل الميسور الذي تميل إليه الطبائع بفطرتها، وتستطيبه القلوب السليمة من غير نشاز أو إبطاء أو تردد، وذلك لما يتجلى في هذا الدين من سهولة وبساطة ويسر، وبما يجلله من تشريع وأحكام هينة مرغوبة تحض على كل ظواهر الخير والبر والتعاون والرحمة، حتى إذا أدرك الناس مثل هاتيك الحقائق عن هذا الدين الجديد بادروا مسرعين للدخول فيه عن طواعية ورغبة وود، وذلك هو شأن الإسلام إذا ما حيل بينه وبين المعوقات والعراقيل المادية والنفسية والفكرية المصطنعة، التي يضعها الماكرون من أعداء هذا الدين في الطريق، فلسوف تبادر البشرية أفراداً وجماعات للإقبال على هذا الدين فتعتنقه وتلتزم به التزاماً صادقاً وثيقاً.

لكن أنى لخصوم الإسلام من صليبين واستعماريين وصهيونيين ووثنيين وملحدين، أن يذروا الإسلام وشأنه ليأخذ سبيله إلى قلوب العباد فيشيع وينتشر في العالمين؟!

أنى لهم ذلك، وهم الحاقدون الحاسدون الذين يتربصون بالإسلام والمسلمين الدوائر والمهالك والبلايا؟![1]

وضع الإسلام في ماليزيا:

يجد الشعب الماليزي في الإسلام ضالته المنشودة، وأمله الذي يرتجي به، لبلوغ الغايات والمآرب في القوة والعزة والوحدة الراسخة، التي يصطف خلالها الماليزيون متراصين ليقفوا في وجه الغزو الصيني المتربص الغاشم. ودولة الصين بقوتها وكثرة شعبها وامتداد أطرافها وحدودها، تريد أن تجتاح ماليزيا لبسط سيطرتها عليها، فتتمكن بعد ذلك من استلابها والهيمنة عليها هيمنة تامة، وبذلك أيقن الشعب الماليزي على اختلاف ملله ومذاهبه أن لا مناص من الالتفاف حول عقيدة الإسلام، ليكونوا صفاً منيعاً في وجه الطغيان

---

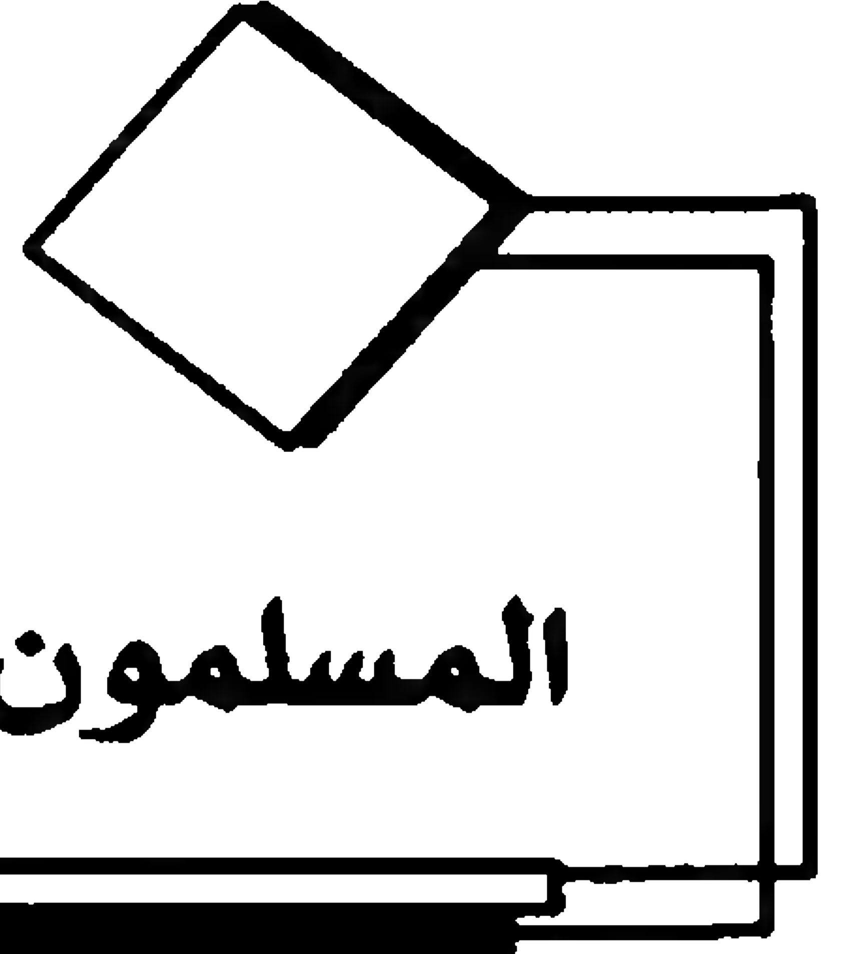
(١) موسوعة التاريخ الإسلامي تأليف: د. أحمد شلبي ج٨ ص٥٣٦ ـ ٥٤٨.

الصيني الذي بات يهدد الوجود الماليزي تهديداً سافراً، فكان الإسلام بذلك معقل الرجاء والأمل لسكان الملايو كيما يقفوا صامدين أمام الخطر الداهم.

وفي عام ١٩٨٢م، تولى رئاسة الوزراء في ماليزيا الدكتور ماهيتو محمد، وهو شخصية تثير الإعجاب في نفوس الشعب، وذلك من أجل انتمائه إلى الأغلبية المسلمة ذات الأصل الملايوي، وكان شديد الغيرة على مصالح الشعب الماليزي وكرامته، فكان حريصاً على إبراز أهمية التوازن بين مختلف الأجناس في ماليزيا ليتمكنوا جميعاً من الصمود في وجه العدو الخارجي، ومن أجل أن تستظل البلاد بظل الاكتفاء والانتعاش والبحبوحة[١].



(١) موسوعة التاريخ الإسلامي تأليف: د. أحمد شلبي ج٨ ص٤٣٣ ـ ٤٤٥، ص٥١٥ ـ ٣٥١٧، وانظر: الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ص٧٩٤ ـ ٧٩٨.



الفصل السادس

المسلمون في الاتحاد السوفييتي السابق

قبل النظام الشيوعي وبعده، كانت روسيا دولة تقوم على الظلم والاعتداء على الآخرين من مختلف البلدان، ففي مطلع القرن العشرين، زحفت روسيا بعدوانها السافر على جيرانها من الدول فضمتها إليها، فقد ضمت منطقة جورجيا عام ١٨٠١م، وعقب الحرب التي وقعت بين إيران وروسيا عام ١٨٠١م، وانتصرت فيها روسيا، ضمت إليها مناطق تركستان، وكذلك ضمت إليها منطقة الشركس والقوقاز الممتدة من البحر الأسود حتى قزوين، وذلك عام ١٨٦٤م، وهذه البلاد أهلها مسلمون، تغلبت عليهم روسيا بسياسة القوة والبطش، وسلكت معهم سياسة الترويس، ويعني ذلك القضاء على الطابع الأساسي والأصيل للبلاد المحتلة، وذلك من حيث اللغة والدين. ومن مقتضى هذه السياسة الظالمة إضعاف العنصر الإسلامي في هذه البلاد، ومن أجل ذلك عمدت روسيا إلى أن تزجي بالعناصر الروسية الكثيرة ليقيموا في بلاد المسلمين، وقد أجبرت الكثير من المسلمين أن يهجروا بلادهم ليتفرقوا في مناطق مختلفة من البلاد بعيداً عن التجمع السكاني الإسلامي، والقصد من ذلك إضعاف المسلمين وتشتيت شملهم في البلاد فيتفرقون في أنحاء الأرض مبعثرين أشتاتاً ضعافاً.

ولتحقيق هذه الغاية الإجرامية العدوانية، عمدت السلطات الروسية إلى نقل جماهير كبيرة من المسلمين إلى براري سيبيريا وأواسط آسيا، وكذلك الألوف من الروس والسلاف إلى أذربيجان وتركستان والقرم، وقد تصدى

المسلمون لمثل هذا المخطط الخبيث، فقاوموه دفاعاً عن أنفسهم وأوطانهم، فكان مصيرهم الإبادة الجماعية والتقتيل الشامل.

وأهم البلاد الإسلامية التي طغى عليها الاتحاد السوفييتي السابق، فكانت في عداد جمهورياته إكراهاً وقهراً وهي: أوزبكستان، وتركمانستان، وجورجيا، وطاجاكستان، وأذربيجان، وأرمينيا.

أما جمهورية أوزبكستان، فعدد سكانها ثمانية ملايين، وهم أخلاط من المغول والتركمان، وكانت تسمى بلاد ما وراء النهر، وعاصمتها طشقند، ومن أهم مدائنها بخارى وسمرقند وخوقند. وتلكم مدائن عظيمات ذات تاريخ عريق في الحضارة الإسلامية، وقد احتلتها روسيا عام ١٨٧٥م.

وأما جمهورية تركمانستان، فعدد سكانها مليون ونصف مليون من الناس، ويقع في الغرب منها بحر قزوين، وفي شرقها أفغانستان وعاصمتها أشخاباد، ومن كبريات مدائنها مرو.

وأما جمهورية جورجيا، فقد دخلها الإسلام في القرن الهجري الأول، وقد حكمها العباسيون إبان مجدهم الزاهر، ثم خلف من بعدهم في السلطان عليها المغول، ثم الصفويون فالعثمانيون، وهي تطل على البحر الأسود، وتعداد سكانها أربعة ملايين، وقد احتلتها روسيا عام ١٨٠١م.

وأما جمهورية طاجاكستان، وهي واقعة في حوض نهر جيحون، ويبلغ عدد سكانها مليونين، واسمها هذا مشتق من التاجك، وهؤلاء شعب من المسلمين أهل السنة الذين خرجوا من إيران ثم سكنوا منطقة تركستان، وهم أكثرية السكان في البلاد، ونسبتهم تمثل ٧٨٪ من أهالي البلاد، وقد ضمت هذه الجمهورية إلى اتحاد الجمهوريات السوفييتية عام ١٩٢٩م.

وأما جمهورية أذربيجان، فهي جزء من مناطق أذربيجان الواسعة، وهي بلاد إسلامية، دخلها الإسلام في القرن الهجري الأول، وبقيت على حالها من الاندراج في ظل السلطان المسلم حتى امتدت إليها أنياب التنين الروسي في مطلع القرن التاسع عشر، إذ احتلت جزءاً منها وهو الذي يسمى الآن أذربيجان الروسية، وعدد سكانها أربعة ملايين، وهم من المسلمين الشيعة، وعاصمتها باكو.

وأما جمهورية أرمينيا، فتقع إلى الغرب من أذربيجان، وهي من مناطق آسيا الصغرى، وقد دخلتها المسيحية قبل أن يمتد إليها سلطان الفرس قبل الإسلام، فكابد أهلها الشدائد والويلات تحت النفوذ الفارسي، ثم احتلها البيزنطيون فيما بعد، وما لبث الأتراك السلاجقة أن استردوها من البيزنطيين، ثم خضعت بعد ذلك للتيموريين، ثم الأتراك العثمانيين، حتى استقر بهم المطاف تحت الكلكل الروسي الثقيل.

وأرمينيا في العصر الراهن واحدة من جمهوريات الاتحاد السوفييتي، ويبلغ عدد سكانها مليونين، وعاصمتها أريفان.

موقف الشيوعيين من المسلمين السوفييت:

كانت روسيا القيصرية شديدة العنف والطغيان للمسلمين، ثم أعقبتها الشيوعية التي أُعلنت في روسيا عام ١٩١٧م، حتى إذا استتب الوضع واستقر النظام الماركسي في البلاد، خرجت عساكر الإلحاد لتطارد المسلمين وتحاربهم حرباً لا رحمة ولا هوادة فيها، إلا الفظاعة والتشنيع والإبادة الجماعية، فضلاً عن أعمال النهب والسلب وتدمير المساجد التي تم تحويل الألوف منها إلى إسطبلات ومواخير، مثلما حُولت جامعة سمرقند إلى ناد للملحدين، وأغلقت كذلك المدارس الدينية كلها.

ثم انقض الشيوعيون في عتو وهمجية على المسلمين في آسيا الوسطى، يذبحونهم بالجملة بعد أن يحرقوا منازلهم ويقتلوا مواشيهم، وارتكبوا من شنائع الأهوال والفظائع ما يعز على الوصف وما عزَّ نظيره في التاريخ. ومن ضروب هذه الأهوال أن يقتل ما يزيد عن مليون ونصف مليون من رجال الدين الإسلامي، وما يزيد عن أربعة ملايين مسلم من عامة الناس، فضلاً عن الهاربين المدبرين إلى البلدان المجاورة طلباً للنجاة من الموت المحقق(١).

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي تأليف: د. أحمد شلبي ج٨ ص٥٨٦ ـ ٥٩١ نقلاً عن كتاب العوامل التي تنخر في الكيان الإسلامي لمجموعة من الأساتذة ص٣٨.

إن ذلكم لهو التفظيع المفحش، والقاصمة المريعة النكراء التي تستنفر المشاعر وتؤجج أوجاع القلب من فرط ما تحمله صحائف التاريخ عن جرائم الشيوعيين الطغاة. إنها جرائم وشنائع عظام، ما تنبغي إلا للوحوش الكواسر من أولات الأنياب في الغاب!!

ومما يلفت النظر والانتباه أن يلحظ الناظر المتدبر تفوُّق الشيوعيين في الطغيان والتفظيع والتنكيل بالمسلمين على غيرهم من الطغاة والمعتدين، فإن كثيراً من الباحثين يرون أن الشيوعيين قد أسهموا في تدمير الإسلام وتقتيل أهله واضطهادهم أكثر مما اضطهدت غيره من بقية الأديان، على أن المتدبر الحريص يدرك السبب في ذلك وهو أن كثيراً من أعضاء اللجنة المركزية في الاتحاد السوفييتي هم من اليهود، لا جرم أن هؤلاء الشراذم المماسيخ أشد عداوة من غيرهم للإسلام والمسلمين، ذلك أن اليهود يجدون أن في القضاء على المسلمين تعزيزاً لهم وهو التوطئة الحقيقية لقيام دولة صهيون في فلسطين.

نقول ذلك ونحن نستذكر أن الاتحاد السوفييتي كان الدولة الثانية التي اعترفت بقيام دولة صهيون، وكانت الدولة السبّاقة الأولى في هذا الاعتراف هي أمريكا وذلك عام ١٩٤٨م، وقد ذكرت الأنباء فوق ذلك أن جنوداً من الشيوعيين كانوا يحملون أسلحة سوفييتية ليشاركوا في الحرب عام ١٩٤٨م، كيما تقوم دولة إسرائيل.

هؤلاء هم المسلمون في ظل النظام السوفييتي الأحمر، إنهم أولو ماض زاهر ومجد داثر عريق، وكان لهم من رفيع الشأن في بناء الحضارة العظمى ما تتحدث عنه صحائف التاريخ.

وتلكم المدينة الخالدة العظمى «بخارى»، التي أفرزت الإمام العلامة الفذ محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الكتاب الشهير وهو «الجامع الصحيح».

قال القزويني في هذا الصدد: إن بخارى كانت دائماً مجمع الفقهاء وموطن الفضلاء ومنشأ علوم النظر، وكان أكثر سكانها ينحدرون من نسل

عمر بن عبد العزيز، وليس ثمة مدينة كان أهلها أشد تعظيماً للعلم وأهله من مدينة بخارى، وفي هذه المدينة كذلك، برز العالم الفيلسوف ابن سينا.

وكذلك مدينة ترمذ، التي أفرزت الإمام المحدث الشهير أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، صاحب الجامع الصحيح، وكذلك العلامة الشهير الجهبذ البيروني، وهو الرياضي الفلكي الكيماوي المؤرخ الطبيب، وقد وصفه العالم الألماني سخاو بأنه أعلم إنسان في التاريخ!

وكذلك أفرزت تركستان ثلة من أكابر العلماء المشاهير، فيهم النسائي والزمخشري وعبد القاهر الجوزجاني والتفتازاني وأبو زيد البلخي، وغيرهم من أئمة العلم كثيرون.

تلك أمة الإسلام في بلاد السوفييت، أمة الأمجاد والمفاخر والعلوم، قد مضت وانقضت بعد أن أجهز عليها ظلام المادية الماركسية الحمراء بعساكرها الشيوعيين الملاحدة الذين أتوا على خير الحضارات فصيّروها خراباً يباباً، إذ دمروا فيها المساجد بعد أن حوّلوا بعضها إلى مكاتب للحزب الشيوعي الملحد الذي يجاهر بالإعلان في وقاحة فظيعة لا مثيل لها في تاريخ الكافرين والضالين بأنه «لا إله، والحياة مادة»، وهذه واحدة من مقولات الشيطان المتمرد العاتي والصهيوني المضطغن الحقود كارل هنريك مردخاي ماركس.

وكذلك تم إلغاء المعاهد أو المدارس التي يدرس فيها الشباب المسلمون علوم الإسلام، وذلك سبيل خبيث ومدعاة ماكرة مقصودة لتجهيل المسلمين كيلا يعلموا عن حقيقة الإسلام - على مر الزمن - شيئاً، وقد كان ذلك فعلاً.

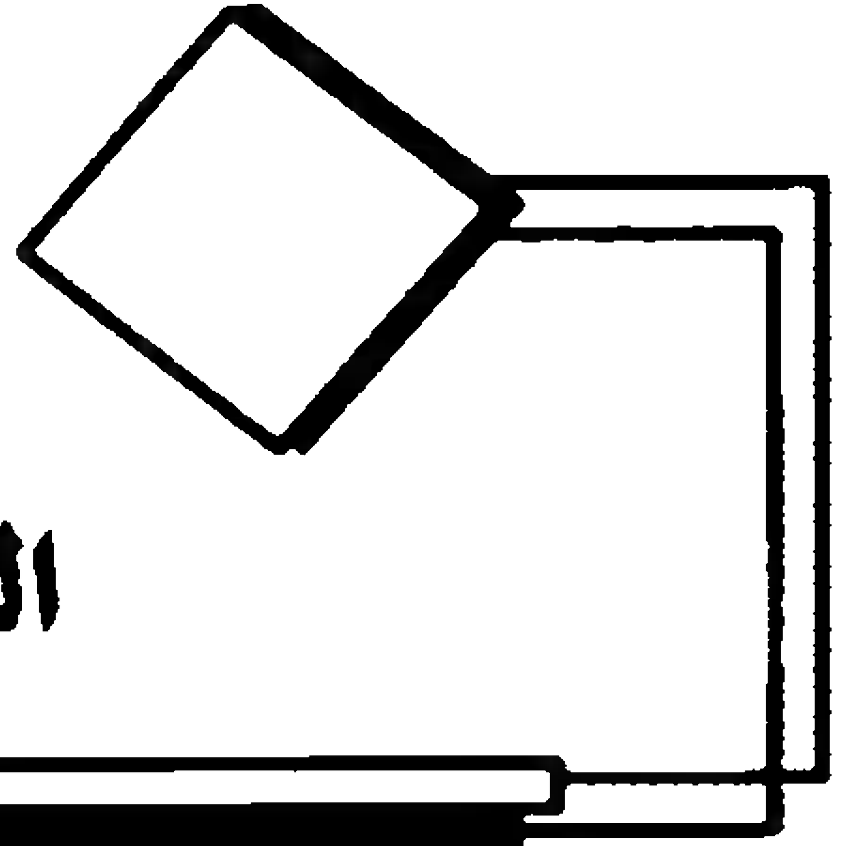
وبالرغم مما حاق بالمسلمين في بلاد السوفييت من ويلات ونكبات وجرائم تنفري من هولها نياط القلب، لم يتورع بعض الساسة من المتسلطين على رقاب العرب والمسلمين، عن الهرولة الخريصة من وراء الطغاة الروس، وذلك من خلال عقود ثلاثة خلت بدءاً بالخمسينات وانتهاءً بأواخر الثمانينات من هذا العصر.

أولئك هم العتاة المتجبرون الذين زين لهم الشيطان أعمالهم، فتاهوا موغلين في العمالة والتبعية بعد أن ساموا شعوبهم من المسلمين ألوان المذلة والهوان والضياع، وهم ساسة كثيرون متفاوتون في دركات الطغيان والعمالة، بدءاً بجمال عبد الناصر، وانتهاءً بأحمد سوكارنو، ومروراً بالقادة السوريين سواء فيهم القوميون أو البعثيون، أولئك جميعاً كانوا يتزاحمون في تقديم القرابين أمام عتبات الكرملين، قصر المادية والظلام حيث العتاة الطغاة من مناكيد البشر من أمثال لينين وستالين وبولغانين وخروتشوف وبريجينيف ومالينكوف وأندروبوف وآخرين.

على أن عدد المسلمين في بلاد السوفييت يبلغ خمسين مليوناً من الناس، فنسبتهم بذلك تبلغ خمس السكان في كل البلاد[1].



(١) موسوعة التاريخ الإسلامي تأليف: د. أحمد شلبي ج٨ ص٥٩٣ ـ ٥٩٧.



الفصل السابع

المسلمون في الصين

عدد السكان في الصين يزيد عن الألف مليون نسمة، أما عدد المسلمين خاصة فهو يجاوز المائة مليون.

أما الديانة الظاهرة التي يجنح لها الشعب الصيني فهي الكونفوشيوسية، نسبة إلى الحكيم كونفوشيوس، وقد كلفه إمبراطور البلاد بتنفيذ أفكاره السياسية والأخلاقية في مختلف أنحاء البلاد بعد أن رفع الإمبراطور شأنه وجعله وزيراً.

وعقب وفاة كونفوشيوس، مجّده الصينيون تمجيداً، وبنوا له الهياكل حتى تحول ذلك إلى إحساس بالخضوع لسلطان الدين على النفس متمثلاً في كونفوشيوس.

ثم ما لبثت هذه العقيدة أن ترسخت لدى الصينيين عموماً، فبات من الصعب على نفوسهم التي أُشربت هذا التصور أن تتحول إلى دين آخر.

ولقد وصل الإسلام إلى الصين عن طريق الوافدين إلى هذه البلاد من الأمويين والعباسيين، وقد تمكن المسلمون بذلك من بناء مدينة عربية لهم في خانقو، إحدى المدائن التي استرعت التجار العرب والإيرانيين منذ القرن الثامن الميلادي.

وفي عام ٧٥١م، استطاع الجيش العباسي بقيادة أبي مسلم الخراساني

أن يستولي على طشقند، فأصبح للمسلمين بذلك شأن في هذه المنطقة.

وخلال عصر المغول في الصين، تمكن المسلمون من سرعة النهوض، وقد تدفقت أعداد كبيرة من مسلمي آسيا الوسطى على الصين بعد أن باتت المنطقة كلها خاضعة للمغول، وذلك ما بين ١٢٧٧ ـ ١٣٦٧م.

وعندما اختيرت في زمنهم بكين لتكون عاصمة للصين، تعين لها العالم المسلم شمس الدين عمر لتناط به وظيفة رفيعة في البلاد، مما مكنه من نشر الطابع الإسلامي في المنطقة، وكذلك حفيده قد تمكن من تحقيق الاعتراف بأن الإسلام هو الدين الحق الخاص للبلاد، وذلك بإذن من إمبراطور الصين المغولي عام ١٣٣٥م، وبذلك قد شاع الإسلام بين كثير من الصينيين، ولعل السبب في انتشار الإسلام في زمن المغول، هو أن بعض أباطرة المغول الصينيين المسلمين كانوا قد وضعوا شرطين من أجل أن يتولى الصيني أيما وظيفة، وأحد الشرطين العلم بلغة المغول، وثانيهما اعتناق الدين الإسلامي.

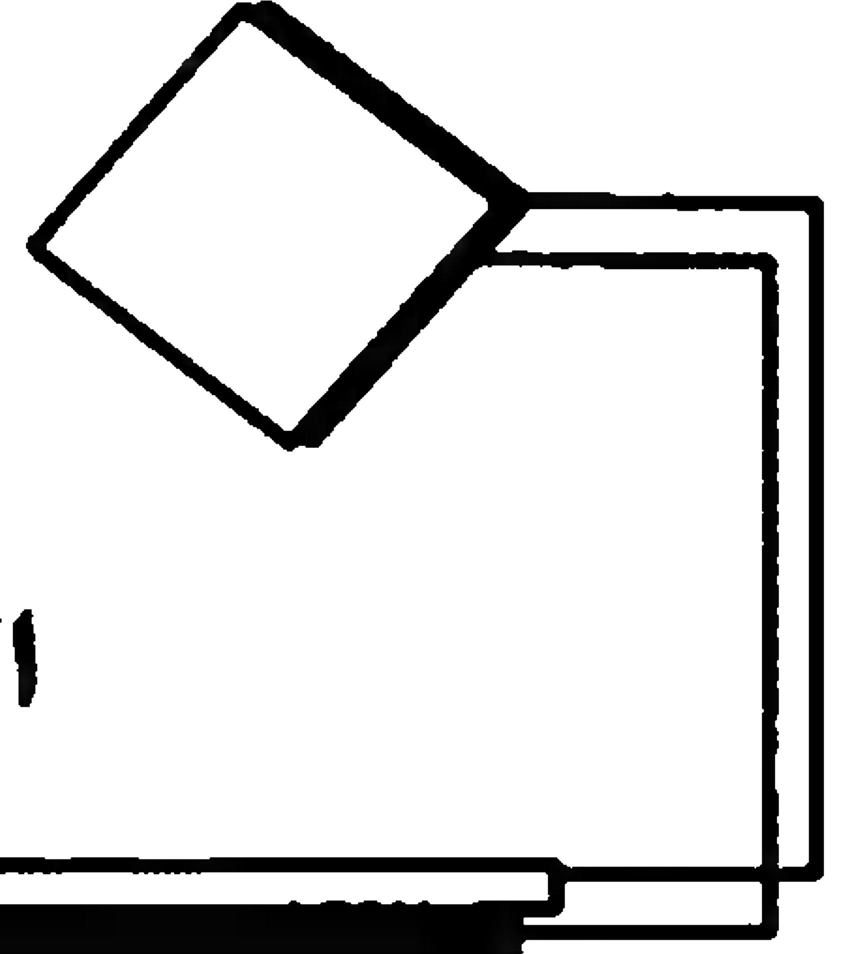
وبذلك يمكن القول أن عصر المغول في الصين كان أزهى العصور من حيث انتشار الإسلام في هذه البلاد، بخلاف العصور الأخرى، فقد سلك خلالها المسلمون في الصين طرقاً أخرى طابعها السرية والتكتم لدى الدعوة إلى الإسلام.

ونتيجة لذلك دخل جماعة من اليهود الصينيين في الدين الحنيف وذلك في نهاية القرن السابع عشر.

أما عقب الثورة الشيوعية في الصين عام ١٩٤٩م، فقد هرب بعض المسلمين إلى تايوان مع تشانغ كاي شيك، وهرب آخرون إلى الهند وباكستان ومصر والمملكة العربية السعودية، وذلك خشية أن يميل عليهم الشيوعيون فيقتلوهم أو ينكلوا بهم[١].

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي تأليف: د. أحمد شلبي ج٨ ص٦٠٣ ـ ٦١٨.



الفصل الثامن
المسلمون في الفلبين

تتكون هذه البلاد من جملة آلاف من الجزر، ويبلغ عدد سكانها أكثر من أربعين مليوناً، وفيهم ستة آلاف من المسلمين، وآخرون قلة من البوذيين والكونفوشسيين.

أما أكثرهم فنصارى يتبعون المذهب الكاثوليكي.

وقد سميت الفلبين بهذا الاسم، نسبة إلى الملك فيليب الثاني ملك إسبانيا، الذي أمر الجيوش لاحتلالها.

لقد كان الإسلام الدين السائد في هذه البلاد، إذ كان دين الأكثرين، وقد ظلّ الوضع على هذه الحال من نفوذ الديانة الإسلامية حتى دهمها الاستعماريون الإسبان عام ١٥٢١م، فاحتلوها جزيرة بعد أخرى، ومن مجموع هذه الجزر الكثيرة، أنشأ الإسبانيون دولة أسموها الفلبين كما بيناه آنفاً.

على أن الإسبان أولو تاريخ صليبي بغيض في الفلبين، ذلك أنهم عملوا على نشر النصرانية في هذه البلاد بقوة نفوذهم وسطوتهم، بعد أن أذلوا المسلمين فيها وقضوا على عامة المؤسسات الإسلامية فيها، وبيان ذلك أن إسبانيا ذات ماض مشؤوم مع المسلمين في الأندلس، ذلك أن الإسبان ضالعون موغلون في الصليبية الحاقدة، ومثل هذا الموقف المنكود للإسبان من مسلمي الأندلس، قد انعكس تماماً على المسلمين في الفلبين الذين

سيموا الحقد الصليبي الأرعن، وكابدوا ألوان الإبادة والإذلال طيلة أربعة قرون من الحكم الإسباني المتعصب، وذلك ما بين ١٥٢١م - ١٨٩٨م، وخلال هذه القرون تمكنت إسبانيا من القضاء على أجيال من المسلمين بقوة الحديد والنار، وقد أجبرت الكثيرين منهم على الارتداد عن الإسلام ليعتنقوا الديانة النصرانية بالإغواء والإغراء والإرهاب، فضلاً عن إنشاء المدارس النصرانية التي يتناوشون فيها الصغار منذ سن الطفولة ليبادروا التنشئة الصليبية، وليحملوهم على الانسلاخ من دينهم الأصيل وهو الإسلام. يضاف إلى ذلك المستشفيات التي كانت لا تستقبل غير النصارى من المرضى، فكان لا يتاح للمريض أن يحظى بدواء أو معالجة إلا أن يمارس طقوس النصرانية بعد أن يعتنقها.

وكذلك الوظائف والمراكز في كل مرافق الدولة ومؤسساتها التي ما كان لغير النصارى أن يظفروا بشيء منها.

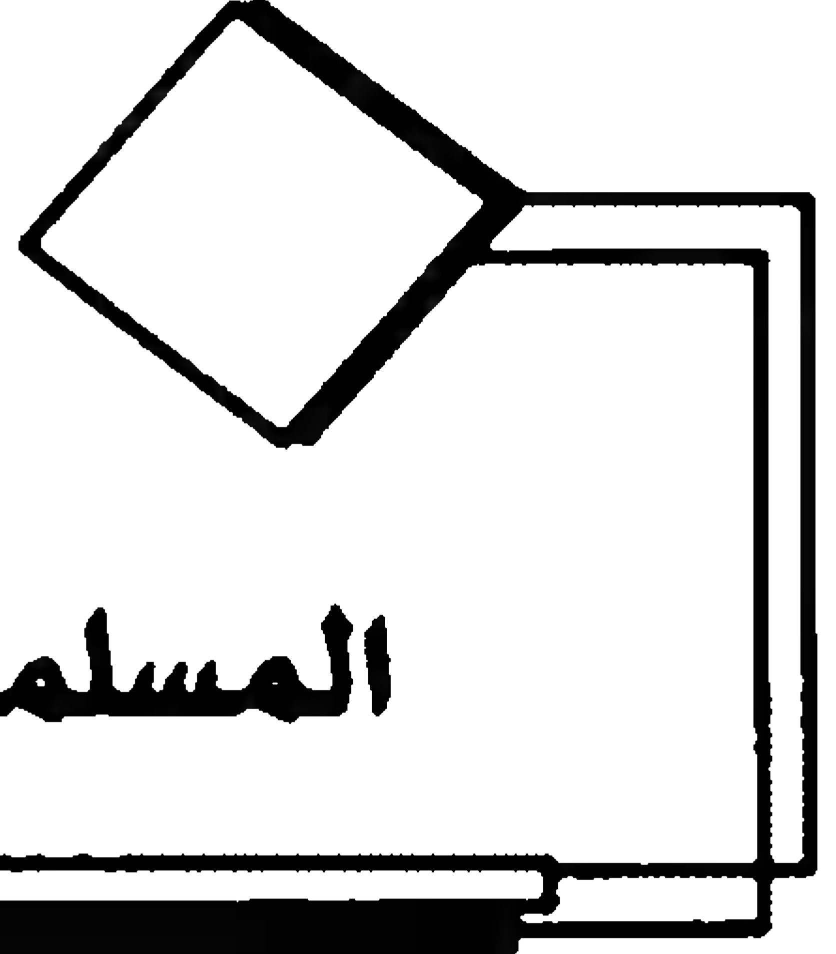
وفي نهاية القرن التاسع عشر، أجبرت أسبانيا على الخروج من الفلبين وذلك عقب الحرب الأمريكية الإسبانية، وبذلك احتلت أمريكا جزر الفلبين عام ١٨٩٩م، فاستمر الصراع بين المسلمين والأمريكيين مدة ثلاثين سنة، وقد بذل النصارى في الفلبين كل مساعدة وتأييد للأمريكيين ضد المسلمين.

وفي عام ١٩٤٣م، تمكنت الجيوش اليابانية من احتلال الجزر الفلبينية، ثم تصدى لهم الشعب الفلبيني بالمقاومة والدفع، وقد أسهم المسلمون في مقاومة الغزو الياباني إسهاماً ظاهراً.

وفي عام ١٩٤٥م، وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، حظيت جزر الفلبين بالاستقلال، وقد أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية عن استقلال الفلبين عام ١٩٤٦م[١].

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي تأليف: د. أحمد شلبي ج٨ ص٦٢١ - ٦٢٧، وانظر: الموسوعة الإسلامية الميسرة ص٨٠٣ - ٨٠٨.



الفصل التاسع

المسلمون في يوغسلافيا السابقة

كلمة يوغسلافيا تعني السلاف الجنوبيين، وهي تشمل عدة شعوب منهم الصرب والكروات والبوشناق[1]، وهؤلاء هاجروا من موطنهم الأصلي في حوض نهر الفولغا واستقروا في البلقان.

وكذلك المقدونيون والألبان والسلوفينيون والمونتينيغرو، وهم سكان الجبل الأسود.

ومنذ انفصال الصرب عن العثمانيين وهم يعملون على التوسع على حساب الأراضي العثمانية.

وعقب اندلاع الحرب البلقانية الأولى، استطاع الصرب والجبل الأسود وحلفاؤهم من البلغاريين والرومانيين واليونانيين أن يُخرجوا العثمانيين من أجزاء البلقان باستثناء إستنبول.

وعقب الحرب العالمية الأولى، ضم الحلفاء كلاً من البوسنة والهرسك وكرواتيا وسلوفينيا إلى الصرب، جزاء انحياز هؤلاء إلى جانب الحلفاء في الحرب. وقد احتلت النمسا البوسنة، مما أدى إلى انخفاض نسبة المسلمين في هذه البلاد نتيجة لهجرتهم أو قتلهم، ثم أعقبهم الصرب في حملة

---

(١) دخلت فرقة من المجاهدين البوشناق إلى فلسطين لقتال اليهود عام ١٩٤٨م.

الاضطهاد والإبادة للمسلمين حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية التي انحاز فيها الصرب إلى صف الحلفاء.

أما الصرب في يوغسلافيا، فكانوا يشكلون النسبة العظمى في البلاد وهي ٨٠٪، ولم يُسمح إذ ذاك لأي مسلم بممارسة الحق في الحياة الدبلوماسية أو العسكرية.

ولما استتب الأمر للشيوعيين في يوغسلافيا بقيادة الخاسر الشقي تيتو الكرواتي، راح هذا العتلُ الظلوم يكشف عن حقده وكيده للمسلمين، فقتل منهم عشرات الألوف في مدينة توزلا البوسنية وحدها، وكذلك ثلاثة آلاف مسلم في سراييفو، فقد أمر هذا اللعين المشؤوم بقتلهم ظلماً وعدواناً، ويضاف إلى ذلك، تلك المذبحة الشنيعة التي قتل فيها الصرب من المسلمين ستين ألفاً، ثم ألقوا بجثثهم في نهر الفوجا في البوسنة الذي استحال لونه إلى الحمرة لشدة مخالطة الدم له، وكذلك قد قتل مفتي كرواتيا المسلم، وتم الحكم بالإعدام على عدة زعماء مسلمين ألبان، إلى غير ذلك من صور الإعدام في أنحاء يوغسلافيا.

وقد اعتدى المجرمون الصرب على المساجد، فهدموا أكثرها، وحوّلوا ما لم يهدموه منها إلى اصطبلات لخيولهم، أو إلى ملاه ليلية يمارسون فيها العهر والخمر والدنس والعار، وكذلك أغلقوا كل المدارس والمعالم الدينية.

وقد قسمت يوغسلافيا إلى ست جمهوريات اتحادية هي:

أولاً: جمهورية صربيا، وهي ذات إقليمين أحدهما فويفودينا وعاصمته نوفيساد، وثانيهما إقليم كوسوفو، وعاصمته مدينة بريشتينا.

ثانياً: جمهورية كرواتيا، وكرواتي بمعنى كاثوليكي، وعاصمتها زاغرب.

ثالثاً: جمهورية البوسنة والهرسك، وعاصمتها سراييفو.

رابعاً: جمهورية مقدونيا، وعاصمتها مدينة سكوبيا.

خامساً: جمهورية سلوفينيا، وعاصمتها مدينة لوبليانا.

سادساً: جمهورية الجبل الأسود (مونتينيغرو)، وعاصمتها مدينة تيتو غراد.

أما البوسنة والهرسك، فقد أمرت الحكومة المركزية في يوغسلافيا باقتطاع أجزاء منها لتضم إلى كرواتيا والجبل الأسود وصربيا.

وكذلك عملت الحكومة المركزية على تشجيع المواطنين الصرب والكروات بالتدفق على البوسنة والهرسك، والإقامة فيها بغية اختلال التوازن السكاني في هذا البلد المسلم لصالح النصرانية، ولإضعاف المسلمين وإذلالهم.

وبالرغم من كل هذا الاضطهاد والتنكيل والقمع، ظهرت بوادر للنشاط الإسلامي في البوسنة والهرسك، لكن الصرب العتاة الهمج كانوا يواجهون ذلك بالتصدي القاهر والقمع الفاجر في غير لين أو رحمة، وقد تمكنت الحكومة الشيوعية عام ١٤٠١ للهجرة من إلقاء القبض على أعضاء حركة الشبان المسلمين في البوسنة لتزج بهم في السجون، وفيهم المجاهد علي عزت بيجوفتش، ثم جاء السفاح الغاشم، والظلوم المتوحش سلوبودان ميلوسوفيتش، ليتسلم رئاسة الحزب الشيوعي الحاكم في يوغسلافيا. وقد ألغى الحكم الذاتي لإقليم كوسوفو المسلم، وكان ذلك عقب انحلال حلف وارسو وانهيار النظام الشيوعي الفاشل، وعندئذ خشي الصرب من تفكك صربيا الكبرى المكونة ليوغسلافيا، فانقضَّت جيوش الصرب على كرواتيا التي كانت تجد العون والمناصرة من أوروبا والفاتيكان، لأنهم كاثوليك مثلهم، على خلاف الصرب وهم من الأرثوذكس، وبذلك أخذت الجيوش الصربية في التمركز في البوسنة واحتلت منها ما نسبته ٦٥٪، وذلك للتصدي لأي احتمال في الانفصال عن يوغسلافيا، وأخذت القوات اليوغسلافية المعتدية في توزيع الأسلحة على الصرب الحاقدين لمواجهة المسلمين وقتلهم.

وفي هذه الأجواء المشحونة بالتربص والحقد والكيد الصليبي، أعلن المجاهد علي عزت بيجوفتش عن إجراء استفتاء في البوسنة، وذلك ليستبين

مصير البلاد تبعاً لرغبة الشعب، إما في البقاء مع يوغسلافيا أو بالانفصال عنها، حتى إذا ظهرت نتيجة الاستفتاء بالرغبة في انفصال البوسنة عن يوغسلافيا، رفض الصرب هذه النتيجة، فقامت الحرب بين المسلمين البوسنيين، وهم عزل من كل أسباب القوة المادية، وبين الصرب المدججين بكل أنواع السلاح. وفي هذه الحرب المشؤومة، ارتكب الصرب الهمج أبشع الفظائع في حق المسلمين، فظائع شنيعة نكراء تزلزل القلوب والأبدان، تجاوز في بشاعتها وعنفها كل تصور.

إنها فظائع وشنائع رهيبة قارفها الظالمون المتوحشون الصرب في حق المسلمين، يحرضهم على ذلك قساوسة فاجرون جهلة، إذ يولون للصرب فعل ذلك ويبيحون لهم قتل المسلمين وتطهير البلاد منهم تطهيراً عرقياً!

تلك مؤامرة منكودة عظيمة، تمالأت عليها قوى الشر والعدوان والباطل في أوروبا، حيث الصليبية الحاقدة العمياء، وحيث اليهودية الماكرة المتدسسة، التي تعيث في الظلام لتكيد للمسلمين كيداً، ولتحرّض في تخطيط غادر لئيم لتدمير الإسلام واستئصاله إن استطاعوا، لكنهم على الدوام مردودون على أعقابهم خاسئين ناكصين، يلعقون سموم الخزي والفشل والافتضاح.

وما فتىء الإسلام يشيع ويستطير في الآفاق، وكذا المسلمون آخذون بزمام المبادرة ليفيؤوا إلى الالتفاف من حول عقيدة الإسلام، عقيدة الوحدة الكبرى والعزة الشامخة العظمى، ويومئذ تتبدد قوى الظلم والظلام بكل صورها ومسمياتها، ويقوم المسلمون ناهضين منصورين أشداء، بعد أن كابدوا ويلات الصرب في البوسنة وإقليم كوسوفو، ما تطير من فظاعته القلوب وتتقطع منه الأكباد.

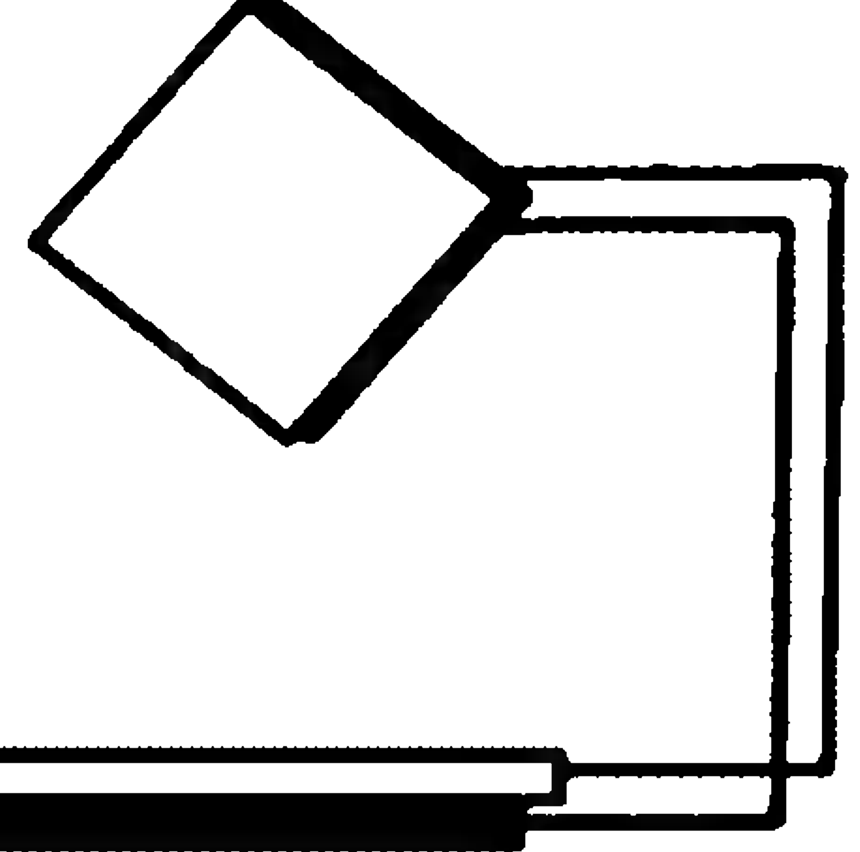
تلكم أحداث مريعة مزلزلة ارتكبها وحوش الصرب الهمج في حق المسلمين في تلك البلاد، ما بين تقتيل وتدمير وترويع واغتصاب وهتك للأعراض!![1]

---

(١) الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ص٧٦٦ ـ ٧٧٣.

وفي ذلك ما يكشف عن الطبائع الكزّة الممسوخة لهؤلاء العتاة الملاحدة، الذين انقلبوا أنجاساً شياطين يتلذذون في التنكيل بالأبرياء، والولوغ في دمائهم الزكية المهراقة!!





الفصل العاشر

أثيوبيا

أثيوبيا تعني الحبشة، وكانت هذه قد نجت من النفوذ الأوروبي الاستعماري، وذلك لكونها دولة نصرانية ومن حولها بلاد إسلامية، فيراد لها من أجل ذلك أن تكون قاعدة صليبية في شرق إفريقيا بحيث تكون لها أطماع توسعية صليبية في بلاد المسلمين.

وكان موسوليني الطلياني الاستعماري قد عارض الكنيسة والفاتيكان في هذه المسألة، فتوسّع في بلاد الحبشة بعد أن احتلها مدة من الزمن، وكانت الحبشة حينئذ تضم هضبة الحبشة وإقليم هرر وإقليم أوغادين، وفيهما أغلبية مسلمة، كان الإنجليز والطليان قد قدموهما لقمة سائغة لدولة التعصب والحقد الصليبية، الحبشة، وذلك أثناء احتلالهم مصر والصومال، وكانت إيطاليا تحتل أريتيريا.

وبعد الحرب العالمية الثانية التي هزمت فيها دول المحور أمام الحلفاء، بدأ الإمبراطور الصليبي هيلاسيلاسي يكشف عن صريح عداوته للإسلام والمسلمين، فضمّ الأجزاء الإيطالية التي كانت إيطاليا قد ضمتها إليها وهي: الصومال الجنوبي والغربي وأريتيريا، إلى مملكته الحبشة، وذلك بتأييد ومباركة من الدول النصرانية الاستعمارية التي عملت على تحقيق أهداف أثيوبيا على حساب المسلمين، إذ أصدرت الأمم المتحدة عام ١٣٧٠ للهجرة قراراً يقضي بإقامة اتحاد بين أريتيريا إليها، ثم أرسلت جيشها إلى

أريتيريا عام ١٣٧٢ للهجرة لاحتلالها، ومارست في المسلمين في هذه البلاد أبشع ألوان القمع والتنكيل والإذلال، ثم منعت من تدريس اللغة العربية لأنها لغة القرآن، وعملت على تغيير البنية الديموغرافية للبلاد بإسكان النصارى وإقطاعهم أخصب الأراضي في أريتيريا، وإبعاد المسلمين إلى المناطق الجرداء الفقيرة. إن ذلكم لهو ديدن الصليبيين في كل زمان ومكان، إذ ينظرون إلى الإسلام والمسلمين نظرة الحاقدين المتربصين الموغلين في التعصب الأعمى والكراهية العمياء.

أما السياسة الخارجية للحبشة، فكانت موغلة في الكيد للمسلمين بموالاة الظالمين المعتدين، وفي مقدمتهم دولة الاغتصاب والعدوان، دولة صهيون، فقد كانت العلاقة بين الأحباش الصليبيين واليهود الصهاينة على أتم حال من التعاون والتفاهم.

أما الصومال الغربي ذو الأكثرية المسلمة، فقد احتلته الحبشة عقب تواطؤ من الإنجليز الذين سحبوا قواتهم من هذه البلاد لتصبح فريسة سهلة أمام الاحتلال الحبشي. وبالفعل تقدم جيش الحبشة إلى الصومال الغربي، وضموه إلى الحبشة من غير اعتراض من الأمم المتحدة، فانطلق الأحباش في الصومال الغربي (أوغادين وهرر) يقمعون وينكلون، فانساحوا في أرض المسلمين يعذبونهم ويذلونهم ويمارسون فيهم صوراً شتى من القمع والتبديد والإذلال، ويؤيدهم ويساندهم في ذلك أنظمة البغي والعار في المعسكر الاستعماري الغربي، وإلى جانبهم دولة العهر والإرهاب «إسرائيل».

لقد وقف هؤلاء جميعاً يساندون الأحباش فأمدوهم بالأسلحة اليهودية الأمريكية والأوروبية لقتل المسلمين، ومن أجل القضاء على حركتهم وناشطيهم، فتمكن الأحباش مستعينين بإمدادات الصليبيين واليهود من القضاء على النشاط الإسلامي في البلاد، ثم راحوا بعد ذلك يعيثون في البلاد الخراب والإرهاب والتقتيل، فضلاً عن محاولات التنصير وطمس المعالم للوجه الإسلامي في هذه الديار بمنع اللغة العربية وحظر التعليم الديني.

أريتيريا

تبلغ نسبة السكان المسلمين في أريتيريا أكثر من ٧٥٪، وكذلك نسبتهم في أثيوبيا تزيد عن ٦٠٪.

وبالرغم من أن الأكثرية للسكان من المسلمين في هذه البلاد، إلا أن السلطة وزمام الأمور بأيدي النصارى وهم من أشد الناس كراهية للمسلمين، وأميلهم للتنكيل والبطش بهم، وذلك لفرط غيظهم وحقدهم على الإسلام وأهله.

وبالرغم من ذلك فقد نشطت المقاومة الإسلامية في أريتيريا للتخلص من الطغيان الصليبي الأثيوبي، وقامت جبهة تحرير أريتيريا بنشاطاتها في مقاومة الكابوس الأثيوبي وذلك عام ١٤٠٤ للهجرة، فدخلت في مواجهات عسكرية مظفرة ضد القوات الأثيوبية الغاشمة. وقد عملت الجبهة في هذا الميدان من المقاومة والتصدي للدولة الظالمة بالتنسيق مع المعارضة الأثيوبية تحت اسم الجبهة الديمقراطية الثورية لتحرير شعوب أثيوبيا، مما مكن المعارضة الأثيوبية من السيطرة على أكثر الأجزاء في أريتيريا، ثم استطاعت بعد ذلك أن تدخل العاصمة أديس أبابا وإسقاط نظام منغستو هيلا مريام، ثم اتفقت الجهات المختلفة على إجراء استفتاء في أريتيريا من أجل تقرير المصير فيها، فاختار أهلها الانفصال عن أثيوبيا، وأعلن بذلك عن قيام جمهورية أريتيريا المستقلة عام ١٤١٤ للهجرة ورئيسها أساياس أفورقي.

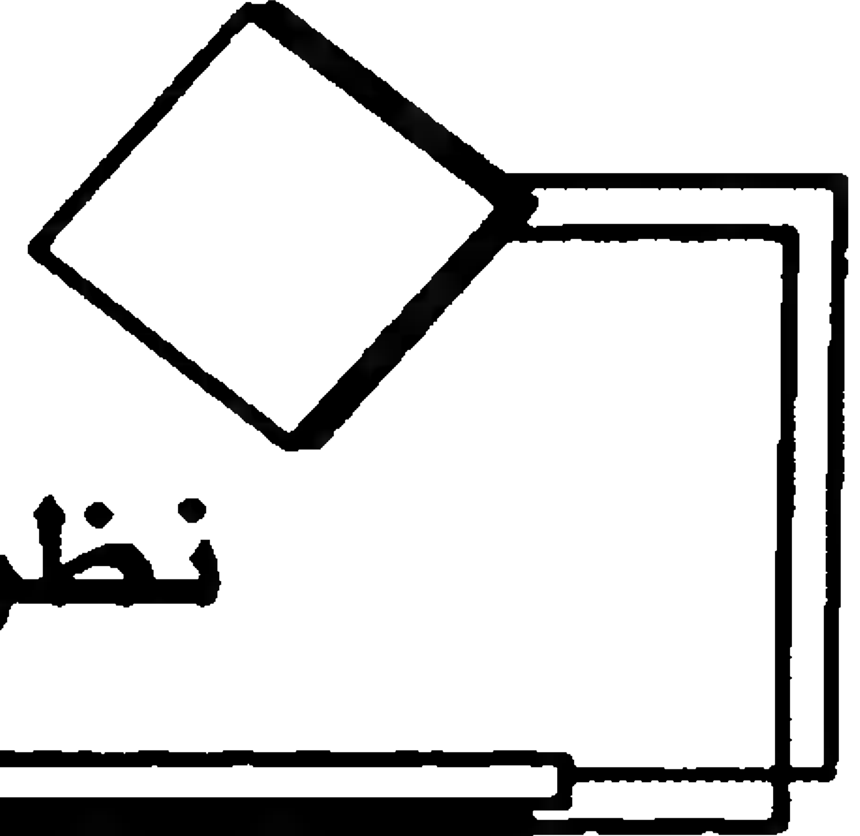
وبالرغم من استقلال أريتيريا ذات الأغلبية من المسلمين، إلا أن قوى العدوان والطغيان في العالم بقيادة الاستعمار والصليبية وصهيون، قد تمكنت من فرض حاكم غير مسلم يتسلم زمام البلاد، وكان ذلك شرطاً مسبقاً لإعطاء أريتيريا الاستقلال عن دولة أثيوبيا.

وما أن تمكن أفورقي من السيطرة على البلاد، حتى مضى سادراً في تنفيذ المخططات الصليبية العالمية في أريتيريا، إذ شكل حكومة ذات طابع نصراني فيها اثنا عشر وزيراً، منهم تسعة من النصارى وثلاثة مسلمون. وعمل هذا الحاقد المتآمر على تبديد الطابع الإسلامي والعربي للبلاد،

فرفض الانضمام بأريتيريا إلى جامعة الدول العربية، بل منع اللغة العربية من السيادة أو الانتشار، وأسهم هذا المتواطىء الغادر في اغتيال الكثير من الشخصيات الإسلامية في البلاد، وعمل في صراحة ووضوح على التطبيع الكامل من حيث العلاقة من دولة إسرائيل، وفتح الباب على مصراعيه للإرساليات الصليبية من أجل التنصير، فضلاً عن أفاعيل البطش والقتل والخطف وهتك الأعراض، وغير ذلك من وجوه الإبادة والإذلال والهوان، التي حاقت بالمسلمين في أريتيريا، في ظل هذا الحاكم المتآمر الغادر وزمرته الحاكمة من أرجاس الصليبية البغيضة العمياء[١].



(١) الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ص٨٥٣ - ٨٥٧.



الفصل الحادي عشر
نظرة في جنوب السودان

يقيم في جنوب السودان شطر من السكان النصارى، وهؤلاء قد طوّعت لهم أنفسهم بالرغبة في الانفصال عن دولة السودان بتحريض من النظام المتعصب في أثيوبيا، والحرب سجال بين الدولة السودانية الأم، وبين الانفصاليين النصارى الذين يلقون التأييد من أثيوبيا واليهود وكل عناصر الشر في المنطقة.

وفي عام ١٣٩٤ للهجرة، وقع انقلاب عسكري في أثيوبيا بتأييد من الشيوعية الدولية، فأصبح الحاكم العسكري للبلاد منغستو هيلا مريام بميوله الشيوعية المعروفة.

وفي عام ١٣٩٧ للهجرة، شنّت القوات الصومالية هجوماً على الحبشة لتحرير الصومال الغربي من احتلالها، وحققت في ذلك بعض الانتصارات، لكن المساعدات التي تدفقت على أثيوبيا من الاتحاد السوفييتي حينئذ ومن دولة اليهود قد قلبت كفة الرجحان، لتكون في صالح القوات الأثيوبية بكثرة جنودها المدججين بمختلف الأسلحة الحديثة، مما اضطر الصومال إلى التراجع إلى حدودها.





الخاتمة

وبذلك قد تمّ هذا الكتاب المختصر، فأحمد الله جلّ في علاه إذ مكنني بحوله وفضله أن أفرغ من كتابته على نحو من الشمول والإيجاز والتركيز، عسى أن يجد فيه الشباب والمثقفون والدارسون ما يسعف في بلوغ المرام من وقائع التاريخ الصادق الموثق، وليقفوا على حقائق الإسلام في تاريخه العاطر الزاهر، التاريخ الحافل بالأمجاد والروائع والذي افترى عليه الظالمون المبطلون، الموغلون في التشويه والتزوير.

أفرغ من كتابة هذا الوجيز المختصر مع تضرعي للّه أن ينفع به المسلمين، وأن يكتب لنا به خير المثوبة والنجاة في هذه الدنيا ويوم يقوم الناس ليوم الحساب.





الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

